

تأليف

الإمام الشيخ إسماعيل حقي بن مصطفى
الحنفي الخلوتي البروسوي
المتوفى ١١٢٧ هـ

ضبطه وصححه وخرج آياته

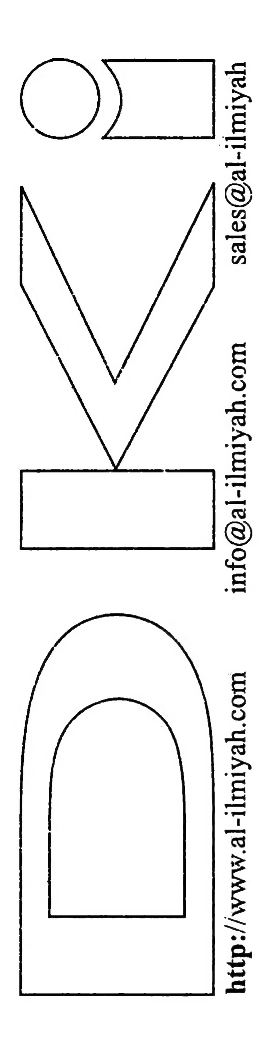
عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الجزء الثالث

المحتوى:

من أول سورة الأنعام - إلى آخر سورة التوبة





الكتاب : روح البيان في تفسير القرآن

Title : RŪḤ AL-BAYĀN FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of the Qur'an

المؤلف : الشيخ إسماعيل البروسوي (ت ١١٢٧ هـ)

Author : Al-Shaykh ISmail Al-Burusawi (D. 1127 H.)

المحقق : عبداللطيف حسن عبدالرحمن

Editor : Abdullatif Hassan Abdulrahman

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

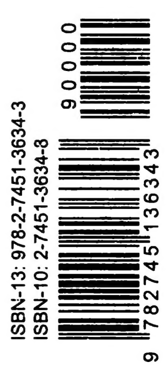
Pages (10Vols./10Parts)	5344 (١٠أجزاء/١٠ مجلدات)	عدد الصفحات
Size	17x24 cm	قياس الصفحات
Year	2018 A.D. - 1439 H.	سنة الطباعة
Printed in Lebanon	لبنان	بلد الطباعة
Edition 4th (2 Colors)	الرابعة (لونان)	الطبعة

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٠٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ +٩٦١
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ +٩٦١
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



٦ - سورة الأنعام

وهي مكية وآيها مائة وخمس وستون، وقيل: ست آيات أو ثلاث من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ مدنية ومن الله أرجو إتمامه بفضله وكرمه وهو قاضي الحاجات

سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة ليلاً معها سبعون ألف ملك قد سدوا ما بين الخافقين ولهم زجل، أي: صوت بالتسبيح والتحميد والتمجيد حتى كادت الأرض ترتج فقال النبي ﷺ: «سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم» وخرّ ساجداً - وروي - عنه مرفوعاً «من قرأ سورة الأنعام يصلي عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره»، ثم دعا عليه السلام بالكتاب وأمر بكتابتها من ليلته تلك - وروي - عنه عليه السلام مرفوعاً: «من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى قوله: ﴿تكسبون﴾ حين يصبح وكّل الله به سبعين ألف ملك يحفظونه، وكتب له مثل أعمالهم إلى يوم القيامة، وينزل ملك من السماء السابعة ومعه مرزبة من حديد كلما أراد الشيطان أن يلقي في قلبه شيئاً من الشر ضربه بها، وجعل بينه وبين الشيطان سبعين ألف حجاب فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى يا بن آدم امش تحت ظلي وكلْ من ثمار جنتي واشرب من ماء الكوثر واغتسل من ماء السلسبيل فأنت عبدي وأنا ربك لا حساب عليك ولا عذاب»، كذا رواه الإمام الواحدي في «الوسيط».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿الحمد لله﴾ الألف واللام في الحمد لاستغراق الجنس واللام في لله للاختصاص لأنه تعالى قال: ﴿بربهم يعدلون﴾ ودفع تسويتهم بربهم مما جعل مقصوداً بالذات.

وفي «التأويلات النجمية»: اللام لام التمليك، يعني: كل حمد يحمده أهل السموات والأرض في الدنيا والآخرة ملك له وهو الذي أعطاهم استعداد الحمد ليحمدوه بآثار قدرته على قدر استعدادهم واستطاعتهم لكنّ حمدَ الخلق له مخلوق فانٍ وحمده لنفسه قديم باقٍ.

فإن قيل: أليس شكر المنعم واجباً مثل شكر الأستاذ على تعليمه وشكر السلطان على عدله وشكر المحسن على إحسانه قال عليه السلام: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»، فالجواب أن الحمد والتعظيم المتعلق بالعبد المنعم نظراً إلى وصول النعمة من قبله وهو في الحقيقة راجع إليه تعالى؛ لأنه تعالى لو لم يخلق نفس تلك النعمة ولو لم يحدث داعية الإحسان في قلب العبد المحسن لما قدر ذلك العبد على الإحسان والإنعام فلا محسن في

الحقيقة إلا الله ولا مستحق للحمد إلا هو تعالى.

وفي تعليق الحمد باسم الذات المستجمع لجميع الصفات إشارة إلى أنه المستحق له بذاته سواء حمده حامد أو لم يحمده.

قال البغوي: حمد الله نفسه تعليماً لعباده أي احمدوه: وفي «المثنوي».

چونكه آن خلاق شكر وحمد جوست آدمی را مدح جويی نيز خوست
خاصه مرد حق كه در فضلست چست پرشود زان بادچون خيك درست
ورنباشد أهل زان باد دروغ خيك بدريد است كى كيرد فروغ

﴿الذي خلق السموات﴾ بما فيها من الشمس والقمر والنجوم ﴿والأرض﴾ بما فيها من البر والبحر والسهل والجبل والنبات والشجر خلق السموات، وما فيها في يومين يوم الأحد ويوم الاثنين، وخلق الأرض وما فيها في يومين يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وفي تعليق: الحمد بالخلق تنبيه على استحقاقه تعالى باعتبار أفعاله وآلائه أيضاً وتخصيص خلق السموات والأرض بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد وفيهما العبرة والمنافع لهم وجمع السموات دون الأرض وهي مثلهن؛ لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات قالوا ما بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام. السماء الدنيا موج مكفوف، أي: متصادم بعضه على بعض يمنع بعضه بعضاً أي ممنوع من السيلان، والثانية مرمرة بيضاء، والثالثة حديدة، والرابعة نحاس أو صفر، والخامسة فضة، والسادسة ذهب، والسابعة ياقوتة حمراء وأما الأرض فهي تراب لا غير. والأكثرون على تفضيل الأرض على السماء؛ لأن الأنبياء خلقوا من الأرض وعبدوا فيها ودفنوا فيها، وإن الأرض دار الخلافة ومزرعة الآخرة، وأفضل البقاع على وجه الأرض البقعة التي ضمت جسم الحبيب ﷺ في المدينة المنورة لأن الجزء الأصلي من التراب محل قبره ﷺ، ثم بقعة الحرم المكي، ثم بيت المقدس والشام منه، ثم الكوفة وهي حرم رابع وبغداد منه ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ الجعل: هو الإنشاء والإبداء كالخلق خلا أن ذلك مختص بالإنشاء التكويني وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما في الآية الكريمة وللتشريعي أيضاً كما في قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] الآية، أي: ما شرع وما سن وجمع الظلمات لكثرة أسبابها فإن سببها تخلل الجرم الكثيف بين النير والمحل المظلم وذلك التخلل يتكثر بتكثر الأجرام المتخللة بخلاف النور فإن سببه ليس إلا النار حتى أن الكواكب منيرة بناريتها فهي أجرام نارية وإن الشهب منفصلة من نار الكوكب.

قال الحدادي: وإنما جمع الظلمات ووحد النور لأن النور يتعدى والظلمة لا تتعدى - روي - أن هذه الآية نزلت تكذيباً للمجوس في قولهم: الله خالق النور والشيطان خالق الظلمات.

وفي «التيسير»: إنه رد على الثنوية في إضافتهم خلق النور إلى يزدان وخلق الظلمات إلى اهرمن وعلى ذلك خلق كل خير وشر ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ عطف على الجملة السابقة، وثم لاستبعاد الشرك بعد وضوح ما ذكر من الآيات التكوينية ببطلانه. والباء متعلقة بيعدلون وقدم المعمول على العامل للاهتمام وتحقيق الاستبعاد ويعدلون من العدل وهو التسوية يقال عدلت هذا بهذا إذا ساويته والمعنى إنه تعالى مختص باستحقاق الحمد والعبادة باعتبار ما فصل من شؤونه العظيمة الخاصة به الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ثم هؤلاء الكفرة لا يعملون

بموجبه ويعدلون به سبحانه، أي: يسوون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر الذي رأسه الحمد مع كون كل ما سواه مخلوقاً له غير متصف بشيء من مبادىء الحمد.

والإشارة أن الله تعالى خلق سموات القلوب وأرض النفوس وجعل الظلمات في النفوس وهي صفاتها البهيمية والحيوانية وأخلاقها السبعية والشيطانية والنور في القلوب وهو صفاتها الملكية وأخلاقها الروحانية الباقية فمن غلب عليه النور وهو صفة الملكية الروحانية يميل إلى عبودية الحق تعالى ويقبل دعوة الأنبياء ويؤمن بالله ورسوله ويتحلى بحلية الشريعة فالله تعالى يكون وليه فيخرجه من ظلمات الصفات الخلقية الحيوانية إلى الصفات الملكية كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ومن غلب عليه الظلمات البشرية الحيوانية واتبع طاغوت الهوى واستلذ بشهوات الدنيا فالطاغوت يكون وليه فيخرجه من نور الصفات الروحانية إلى ظلمات الصفات الحيوانية كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ يعني: بعد أن خلق سموات القلوب وأرض النفوس وجعل فيهن الظلمات النفسانية والنور الروحاني مال نفوس الكفار بغلبات صفاتها إلى طاغوت الهوى فعبدوه وجعلوه عديلاً لربهم كذا في «التأويلات النجمية» - حكي - أنه جاء جماعة من فقهاء اليمن إلى الشيخ العارف بالله أبي الغيث بن جميل قدس سره يمتحنونه في شيء فلما دنوا منه قال مرحباً بعبيد عبدي فاستعظموا ذلك فلحقوا شيخ الطريقين وإمام الفريقين أبا الذبيح إسماعيل بن محمد الحضرمي قدس سره فأخبروه بما قاله الشيخ أبو الغيث: المذكور لهم فضحك، وقال صدق الشيخ أنتم عبيد الهوى والهوى عبده.

غلام همت آنم كه زير چرخ كبود زهرچه رنك تعلق پذيرد آزادست

﴿هو﴾ أي: الله تعالى. ﴿الذي خلقكم﴾ أي: ابتدأ خلقكم أيها الناس. ﴿من طين﴾ أي: تراب مخلوط بالماء فإنه المادة الأولى للكل لما أنه منشأ لآدم الذي هو أصل البشر.

قال السعدي: بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطائفة منها فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقص مني فرجع جبرائيل ولم يأخذ شيئاً.

قال جلال الدين رومي قدس سره في «المثنوي»:

معدن شرم وحيا بد جبرائيل بست آن سوكندها بروى سبيل

قال: يا رب. إنها عاذت بك فبعث ميكائيل فاستعاذت كالمرة الأولى فرجع:

خاك لرزيد و در آمد در كريز كشت اولابه وكنان اشك ريز
رفت ميكائيل سوى رب دين خالى از مقصود دست وآستين
كفت إسرافيل را يزدان ما كه بروازان خاك پركن كف بيا
آمد إسرافيل هم سوى زمين باز آغازيد خاكستان حنين
زود إسرافيل باز آمد بشاه كفت عذر وما جرا نزد آله

فبعث ملك الموت فعاذت منه بالله، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره فأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلف ألوان ابن آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمرّ فلذلك اختلف أخلاقهم، فقال الله تعالى لملك الموت رحم جبرائيل وميكائيل الأرض ولم ترحمها لا جرم أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك

كفت يزدان كه بعلم روشنم من ترا جلاد اين خلقان كنم

- وروي - عن أبي هريرة خلق الله آدم من تراب وجعله طيناً ثم تركه حتى كان حمأ مسنوناً، أي: أسود متغيراً منتناً ثم خلقه وصوره وتركه حتى كان صلصالاً كالفخار، أي: يابساً مصوتاً كالمطبوخ بالنار ثم نفخ فيه من روحه وإنما خلق من تراب لأن مقام التراب مقام التواضع والمسكنة ومقام التواضع الرفعة والثبات ولذا ورد «من تواضع لله رفعه الله» وكان دعاؤه ﷺ: «أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً». وهو الحكمة في تعذيب الإنسان بالنار لا بالماء لأن الظرف المعمول من التراب إذا تنجس ببول أو قذر آخر لا يطهر بالماء فالإنسان المتنجس بنجاسة المعاصي لا يطهر إلا بالنار. وهو الحكمة أيضاً في التيمم عند عدم الماء ويقبر كل جسد في الموضع الذي أخذت منه طينته التي خمرت في أول نشأة أبناء آدم عليه السلام.

قال الإمام مالك: لا أعرف أكبر فضل لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما من أنهما خلقا من طينة رسول الله ﷺ لقرب قبرهما من حضرة الروضة المقدسة المفضلة على الأكوان بأسرها زادها الله تشريفاً وتعظيماً ومهابة. ﴿**ثم قضى**﴾ أي: كتب لموت كل واحد منكم ﴿**أجلاً**﴾ خاصاً به، أي: حدّاً معيناً من الزمان يفنى عند حلوله لا محالة وثم للإيذان بتفاوت ما بين خلقهم وبين تقدير آجالهم ﴿**وأجل مسمى**﴾ أي: حدّ معين لبعثكم جميعاً وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿**عنده**﴾ أي: مثبت معين في علمه لا يتغير ولا يقف على وقت حلوله أحد لا مجملاً ولا مفصلاً، وأما أجل الموت فمعلوم إجمالاً وتقريباً بناء على ظهور أماراته أو على ما هو المعتاد في أعمار الإنسان وتسميته أجلاً إنما هي باعتبار كونه غاية لمدة لبسهم في القبور، لا باعتبار كونه مبدأ لمدة القيامة كما أن مدار التسمية في الأجل الأول هو كونه آخر مدة الحياة لا كونه أول مدة الممات لما أن الأجل في اللغة عبارة عن آخر المدة لا عن أولها.

قال حكماء الإسلام: إن لكل إنسان أجلين: أحدهما: الآجال الطبيعية. والثاني: الآجال الاخترامية. أما الآجال الطبيعية فهو الذي لو بقى الشخص على طبيعته ومزاجه ولم يعترضه العوارض الخارجية والآفات المهلكة لانتهت مدة بقائه إلى أن تتحلل رطوبته وتنطفىء حرارته الغريزيتان. وأما الآجال الاخترامية فهي التي تحصل بسبب من الأسباب الخارجية كالحرق والغرق ولدغ الحشرات وغيرها من الأمور المنفصلة.

قال بعض الأفاضل: الأجل هو الوقت المضروب لطريان الزوال على كل ذي روح ولا يطرأ عليه إلا عند حلول ذلك الوقت لا يتأخر عنه ولا يسبقه كما يدل عليه قوله تعالى ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾ [الحجر: ٥].

فإن قلت قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٣-٤] صريح في الدلالة على السبق على المسمى.

قلت: تعدد الأجل إنما هو بالنسبة إلينا وأما بالنسبة إليه تعالى فهو واحد قطعاً تحقيقه أنه تعالى عالم في الأزل كل الموجودات ومقدر لها حسبما شمله علمه فهو يقول في الأزل مثلاً إن فلاناً إن اتقى وأطاع يبلغ إلى أجله المسمى، والمراد بالأجل ههنا الأجل الثاني الأطول وتوصيفه بالمسمية ليس للتخصيص لأن الأجل المسمى على كل حال، وإن لم يتق ولم يطع لم يبلغ هذه المرتبة لكن يعلم أنه يفعل أحد الفعلين معيناً فيقدر له الأجل المعين فيكون المقدر في علم الله الأجل المعين وإنّا لعدم اطلاعنا في علم الله تعالى لم نعلم أن ذلك الفلان أي

الفعلين فعل وأيما الأجلين قضى له فإذا فعل أحدهما المعين وحل الأجل المرتب عليه علمنا أن ذلك هو المقدر المسمى فالتردد بالنسبة إلينا لا في التقدير وإلا يلزم أن لا يكون علم الله تعالى بما فعل العبد قبل الوقوع وعلى هذا قول الله للكافر أسلم تدخل الجنة ولا تكفر تدخل النار مع علمه وتقديره عدم إسلامه في الأزل، والأمر والنهي لإظهار الإطاعة أو المخالفة في الظاهر كمن يريد إظهار عدم إطاعة عبده له للحاضرين فيأمره بشيء وهو يعلم أنه لا يفعله والعلم بعدم الإطاعة للحاضرين المترددين إنما يحصل بأمره وكذا صورة الطاعة وجميع المقدرات الإلهية من أفعال العباد الاختيارية من هذا القبيل فظهر أن التردد بالنسبة إلينا دون علم الله إلا أن يطلعنا عليه بإخباره الواقع في علمه كما أطلع نبيه عليه السلام على بعض ما وقع من حال الكفار في زمانه بقوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] فهذا إخبار بما في علمه من أنهم لا يختارون الإيمان هذا غاية ما يقال في هذا المقام والعلم عند الله الملك العلام. ﴿ثم أنتم تمترون﴾ استبعاد لامترائهم في البعث بعد ما تبين أنه تعالى خالقهم وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم فإن من قدر على خلق المواد وجمعها وإبداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً، والمرية: هي الشك المجتلب بالشبهة أصلها من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها ليدر لبنها للحلب والمري استخراج اللبن من الضرع.

قال أبو السعود: وصفهم بالامتراء الذي هو الشك وتوجيه الاستبعاد إليه مع أنهم جازمون بانتفاء البعث مصرون على إنكاره كما ينبىء عنه قولهم ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] ونظائره للدلالة على أن جزمهم المذكور في أقصى مراتب الاستبعاد والاستنكار.

واعلم أن الإنسان وقت كونه نطفة ينكر صيرورته بشراً سوياً في الزمان الآتي وعند تصوره بصورة البشر يلزمه الحجة فإنكاره الحشر إنكار عين ما كان فيه: وفي «المثنوي»:

پس مثال توچو آن حلقه زنيست — كزدرونش خواجه كويدخواجه نيست
حلقه زن زين نيست دريابدكه هست — پس زحلقه برندارد هيچ دست
پس هم انكارت مبيّن ميكند — كز جماد اوحشر صدفن ميكند

والإشارة ﴿ثم﴾ إن الله تعالى ﴿قضى﴾ للروح من حكمته ﴿أجلا﴾ لأيام فراقه عن الحضرة وبعده عن وطنه الحقيقي ﴿وأجل مسمى عنده﴾ وهو أجل الوصلة بعد الفرقة في مقام العندية كقوله ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٥] فلأجل الفرقة مدى ومنتهى ولأجل الوصلة لا مدى ولا منتهى، وإنما قال مسمى: لأن وقت الوصلة مسمى عنده وهو حين يجذبه إليه بجذبة ارجعي إلى ربك ولأيام الوصلة ابتداء وهو حين تطلع شمس التوحيد من مشرق القلوب إلى أن تبلغ حد استواء الوحدة، ثم تتسرمد فلا غروب لها. ﴿ثم أنتم تمترون﴾ يا أهل الوصلة كما يمتري أهل الفرقة هذا محال جداً فعلى العاقل الاجتهاد قبل حلول الأجل والتهيؤ للوصول بحسن التوجه والعمل.

قال بعض المشايخ: من ضيع حكم وقته فهو جاهل، ومن قصر فيه فهو غافل وفي الحديث: «إن لله خواص يسكنهم الرفيع من الجنان، كانوا أعقل الناس كان هممهم المسابقة إلى ربهم عز وجل والمسارعة إلى ما يرضيه زهدوا في الدنيا وفي فضولها وفي رياستها ونعيمها فهانت عليهم فصبروا قليلاً واستراحوا طويلاً» ـ روي ـ أن السري السقطي قدس سره دخل عليه

أبو القاسم الجنيد قدس سره وهو يبكي فقال له: ما يبكيك؟ قال: جاءتني البارحة الصبية، فقالت: يا أبت هذه ليلة حارّة وهذا الكوز تعلقه ههنا، قال السري: فغلبتني عيناي فنمت فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء، فقلت: لمن أنتِ؟ قالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان فتناولت الكوز وضربت به الأرض، قال الجنيد: فرأيت الخزف المكسور ولم يرفعه حتى عفا عليه التراب يا هذا انظر إلى تركهم النعيم لم يرضوا لأنفسهم أن يشربوا ماء بارداً أو يأكلوا طعاماً لذيذاً فحين راقبوا الأوقات عوضهم الله حالات خارجة عن حسابات الساعات فلا انتهاء لأذواقهم أصلاً.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿وهو﴾ أي: الله تعالى مبتدأ خبره قوله: **﴿الله﴾** باعتبار المعنى الوصفي أي المعبود ولذا تعلق به قوله: **﴿في السموات وفي الأرض﴾** والمعنى وهو المعبود والمستحق للعبادة فيهما ولا يلزم من كونه تعالى معبوداً فيهما كونه متحيزاً فيهما فإنه منزه عن الزمان والمكان ـ روي ـ أن إمام الحرمين أستاذ الإمام الغزالي نزل ببعض الأكابر ضيفاً فاجتمع عنده العلماء والأكابر فقام واحد من أهل المجلس فقال ما الدليل على تنزهه عن المكان وهو قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥] فقال: الدليل عليه قول يونس في بطن الحوت ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فتعجب منه الناظرون فالتمس صاحب الضيافة بيانه فقال الإمام إن ههنا فقيراً مديوناً بألف درهم أدِّ عنه دينه حتى أبينه فقبل صاحب الضيافة دينه فقال إن رسول الله لما ذهب في المعراج إلى ما شاء الله من العلى قال هناك «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ولما ابتلي يونس عليه السلام بالظلمات في قعر البحر ببطن الحوت قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فكل منهما خاطبه بقوله أنت وهو خطاب الحضور ولو كان هو في مكان لما صح ذلك فدل ذلك على أنه ليس في مكان **﴿يعلم سركم وجهركم﴾** خبر ثان، أي: ما أسررتموه وما جهرتم به من الأقوال **﴿ويعلم ما تكسبون﴾** أي: ما تفعلون لجلب نفع أو دفع ضر من الأعمال المكتسبة بالقلوب أو بالجوارح سراً وعلانية فيجازيكم على كل ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وفي «التأويلات النجمية»: **﴿وهو الله في السموات﴾** أي: في سموات الوجود **﴿وفي الأرض﴾** أي في أرض النفوس **﴿يعلم سركم﴾** الذي أودع فيكم سر الخلافة الذي اختص به الإنسان لقبول الفيض الإلهي **﴿وجهركم﴾** أي ما هو ظاهر منكم من الصفات الحيوانية والأحوال النفسانية **﴿ويعلم ما تكسبون﴾** باستعمال الاستعداد السري والجهري في المأمورات والمنهيات من الخير والشر وقد خص الإنسان بهذا الكسب أيضاً دون الملك والحيوان فإن الملك لا يقدر أن يكتسب من الصفات الحيوانية شيئاً ولا الحيوان قادر على أن يكتسب من الصفات الملكية شيئاً والإنسان متصرف في هاتين الصفتين وله اكتساب التخلق بأخلاق الله بالتقرب إلى الله بأداء ما افترض عليه والتزام النوافل واجتناب النواهي إلى أن يصير من خير البرية وله أيضاً أن يكتسب من الشر ما يصير به شر البرية انتهى.

قال حسين الواعظ الكاشفي في «تفسيره» الفارسي: [در نقد النصوص فرموده كه إنسان مرآتيست ذات وجهين دريك رويش خصائص ربوبيت ودرروى ديكر نقايص عبوديت چون

خصائص نكرى ازهمه موجودات بزركوارتر وچون نقائص عبوديت شمارى ازهمه خوارتر وبيمقدارتر

چون در خودازاوصاف تويابم اثرى حاشاكه بود نكوتراز من دكرى
وآن دم كه فتد بحال خويشم نظرى درهر دوجهان نباشد ازمن بترى

پس حق سبحانه وتعالى مى فرمايد كه من أسرار خصائص شمادرتيه غيب ميدانم وآثار نقائص شما درعالم شهادت مى شناسم وديكر ميدانم آنچه شما ميكنيد ازعلاكه سبب ترقى باشدبر درجات إنسانية يا موجب تنزل بدركات حيوانية ودانستن اين داناي سالك رابران دارد كه باصلاح وتزكية أعمال مشغول شده ازحيز استيفاء حظوظ حيواني برذروه استئناس بانعيم روحاني متصاعد كردد]

حيف باشد كه عمر إنساني چون بهايم بخواب وخور كذرد
آدمى ميتواند ازكوشش كه مقام فرشته در كذرد

انتهى.

قال شيخنا العلامة. أبقاه الله بالسلامة عند تأويل الحديث القدسي: «سر الإنسان سري وسري سره» يعني: سره ظاهر سري، وصورة سري، وسري باطن سره وحقيقة سره، ثم قال: واعلم أن سر الإنسان عبارة عن الحقيقة الإنسانية الظاهرة على صورة الحقيقة الإلّهية كما قال عليه السلام: «خلق الله آدم على صورته» ولما نزلت تلك الحقيقة الإنسانية من مرتبة الغيب إلى منزلة الشهادة وتجلى لها الحق سبحانه بجماله وجلاله أودع في جانبها الشرقي نور جماله وجانبها الغربي ظلمة جلاله، وأقام في الأول ملكاً يهدي إلى الحق، وفي الثاني: شيطاناً يدعو إلى الباطل والملك سادن قبضة الجمال ويد اللطف والشيطان خادم قبضة الجلال ويد القهر، وإذا أراد الحق أن يصرف تلك الحقيقة الإنسانية إلى الحق يأمر الملك أن يلهمها إياه فتراه بالنور الإلّهي الجمالي الذي فاض من تجلي الجمال فتتبعه وتقبله وتكون روحاً ما دام وتكون على الحق ثابتة ويصير قالبها الذي هو لوحه في إثبات الحق قلباً ترتعي في روضته، ويتجلى لها الحق سبحانه بالتجليات الجمالية والألطاف الخالصة المورثة طمأنينتها وسكينتها وتكون على الاستسلام والطاعة والصبر والرضى وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، وأما إذا أراد أن يصرفها إلى الباطل فيخلي بينها وبين الشيطان فيلقنها إياه فلا تراه ولا تفهمه، أي: لا تعلم أنه باطل يحجبها عن الحق لأن الظلمة الحاصلة من تجلي الجلال تمنعها عن ذلك فلا تجتنبه بل تأخذه وتصير نفساً مظلمة بعد كونها روحاً نورانياً فتجريه في قالبها الذي هو محل لذلك ويكون ذلك القالب طبيعة مظلمة بعد كونه قلباً نورانياً فيتجلى الحق تعالى بالتجليات الجلالية، والأحوال القهرية التي تورث الاضطراب وعدم الاستسلام فتكون على المخالفة والإعراض وتتصف بالأوصاف الذميمة بعد الاتصاف بالحميدة هكذا إلى آخر الأمر إذ ذلك سنته القديمة وعادته الأزلية إلى ما شاء الله تعالى فإنه إذا أراد بعبده خيراً يفقهه في الدين ويجذبه إلى نفسه مما سواه ولا يسلط الشيطان عليه كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] بل للملائكة السادنة لقبضة الجمال عليهم سلطان بسلطاني عليهم وأحكام القبضتين جارية في العوالم في الأنفس والآفاق على أيدي سدنتهما إلى تمام الأمر والحكم في التقلب للغالب انتهى كلام حضرة الشيخ قدس سره، وهو الذي ما جاء مثله بعد الصدر القنوي والله أعلم اللهم

اجعلني من تابعيه حقيقة ومتبعيه شريعة وطريقة.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿**وما تأتيهم من آية من آيات ربهم**﴾ ما نافية ومن الأولى: مزيدة للاستغراق، والثانية: تبعيضية واقعة بمجرورها صفة لآية والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية فإتيانها نزولها. والمعنى ما ينزل إلى أهل مكة آية من الآيات القرآنية ﴿**إلا كانوا عنها معرضين**﴾ غير ملتفتين، أي: على وجه التكذيب والاستهزاء وأما الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات فإتيانها ظهورها لهم.

والمعنى ما يظهر لهم آية من الآيات التكوينية الدالة على وحدانية الله تعالى إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدي إلى الإيمان بمكونها وعن متعلقة بمعرضين والجملة في محل النصب على أنها حال من مفعول تأتي ففيها دلالة على كمال مسارعتهم إلى الإعراض وإيقاعهم له في الإتيان كما يفصح عنه كلمة لما في قوله تعالى.

﴿**فقد كذبوا بالحق لما جاءهم**﴾ فإن الحق عبارة عن القرآن الذي أعرضوا عنه حيث أعرضوا عن كل آية منه وعبر عنه بذلك لكمال قبح ما فعلوا به فإن تكذيب الحق مما لا يتصور صدوره عن أحد والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنه شيء مغاير له في الحقيقة واقع عقيبه أو حاصل بسببه بل على أن الأول عين الثاني حقيقة وإنما الترتيب بسبب التغاير الاعتباري كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤] بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] فإن ما جاؤوا أي: فعلوه من الظلم والزور عين قولهم المحكي لكنه لما كان مغايراً له مفهوماً وأشنع منه حالاً رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلاً لأمره كذلك مفهوم التكذيب بالحق لما كان أشنع من مفهوم الإعراض المذكور أخرج مخرج اللازم البطلان فرتب عليه بالفاء إظهاراً لغاية بطلانه ثم قيد بذلك لكونه بلا تأمل تأكيداً لشناعته، والمعنى أنهم حيث أعرضوا عن تلك الآيات عند إتيانها فقد كذبوا بما لا يمكن تكذيبه أصلاً من غير أن يتدبروا في حاله ومآله ﴿**فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون**﴾ سوف لتأكيد مضمون الجملة والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الذي له عظم وشأن وما عبارة عن الحق المذكور وأنباؤه عبارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة أي سيعلمون ما يؤول إليه عاقبة استهزائهم بالآيات فقتلهم الله يوم بدر بالسيف.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿**ألم يروا**﴾ لما ذكر تعالى قبائحهم من الإعراض والتكذيب والاستهزاء أتبعه بما يجري مجرى الموعظة فوعظهم بالقرون الماضية فقال ألم يروا وهمزة الإنكار لتقرير الرؤية وهي عرفانية مستدعية لمفعول واحد والضمير لأهل مكة أي ألم يعرفوا بمعاينة الآثار وسماع الأخبار ﴿**كم**﴾ عبارة عن الأشخاص استفهامية كانت أو خبرية ﴿**أهلكنا من قبلهم**﴾ من متعلقة بأهلكنا والمراد من قبل خلق أهل مكة أو من قبل زمانهم على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه

مقامه ﴿من قرن﴾ مميز لكم عبارة عن أهل عصر من الأعصار سموا بذلك لاقترانهم برهة من الدهر كما في قوله ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وأراد بالقرن الأول: الصحابة، وبالثاني: التابعين، وبالثالث: تابع التابعين، وقيل: هو عبارة عن مدة من الزمان ثمانين سنة أو سبعين أو ستين أو أربعين أو ثلاثين، أو مائة فالمضاف على هذا محذوف أي من أهل قرن لأن نفس الزمان لا يتعلق به الإهلاك ﴿مكناهم في الأرض﴾ استئناف لبيان كيفية الإهلاك وتفصيل مباديه مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل كيف كان ذلك فقيل مكناهم وتمكين الشيء في الأرض جعله قاراً فيها ولما لزمه جعلها مقراً له ورد الاستعمال بكل منهما فقيل تارة مكّنه في الأرض وأخرى مكّن له في الأرض حتى أجري كل منهما مجرى الآخر ومنه قوله تعالى: ﴿ما لم نمكن لكم﴾ بعد قوله تعالى: ﴿مكناهم في الأرض﴾ كأنه قيل في الأول: مكّنا لهم، وفي الثاني: ما لم نمكن لكم وما نكرة موصوفة بالجملة المنفية بعدها والعائد محذوف محلها النصب على المصدرية أي مكناهم تمكيناً لم نمكنه لكم ويحتمل أن يكون مفعولاً به لمكناهم على المعنى لأن معنى مكناهم أعطيناهم، أي: أعطيناهم ما لم نعطكم ﴿وأرسلنا السماء﴾ أي: المطر أو السحاب ﴿عليهم﴾ متعلق بأرسلنا ﴿مدراراً﴾ مغزاراً أي كثير الدرور والصبّ وهو حال من السماء.

قال ابن الشيخ: المدرار مفعال وهو من أبنية المبالغة للفاعل كامرأة مذكار ومئناث وأصله من درّ اللبن دروراً وهو كثرة وروده على الحالب يقال سحاب مدرار ومطر مدرار إذا تتابع منه المطر في أوقات الاحتياج إليه ﴿وجعلنا الأنهار﴾ أي: صيرناها ﴿تجري من تحتهم﴾ أي: من تحت أشجارهم ومساكنهم وقصورهم والمعنى أعطيناهم من البسط في الأجسام والامتداد في الأعمار والسعة من الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا في استجلاب المنافع واستدفاع المضار ما لم نعط أهل مكة ففعلوا ما فعلوا من الكفران والعصيان ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أي: أهلكت كل قرن من تلك القرون بسبب ما يخصهم من الذنوب فما أغنى عنهم تلك العدد والأسباب فسيحل بهؤلاء مثل ما حلّ بهم من العذاب ﴿وأنشأنا من بعدهم﴾ أي: أحدثنا من بعد إهلاك كل قرن ﴿قرناً آخرين﴾ بدلاً من الهالكين وهو لبيان كمال قدرته تعالى وسعة سلطانه وأن ما ذكر من إهلاك الأمم الكثيرة لم ينقص من ملكه شيئاً، بل كلما أهلك أمة أنشأ بدلها أخرى يعمر بهم بلاده ومن عادته تعالى إذهاب أهل الظلم بعد الإمهال ومجيئه بأهل العدل والإنصاف ونفي أهل الرياء والسمعة، وإثبات أهل الصدق والإخلاص ولن يزال الناس من أهل الخير في كل عصر.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: «إن لله عباداً يقال لهم الأبدال، لم يبلغوا ما بلغوا بكثرة الصوم والصلاة والتخشع وحسن الحلية، ولكن بلغوا بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر والرحمة بجميع المسلمين، اصطفاهم الله بعلمه واستخلصهم لنفسه وهم أربعون رجلاً على مثل قلب إبراهيم عليه السلام، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه، واعلم أنهم لا يسبون شيئاً ولا يلعنون ولا يؤذون من تحتهم ولا يحقرونه ولا يحسدونه من فوقهم، أطيب الناس خبراً وألينهم عريكة وأسخاهم نفساً لا تدركهم الخيل المجراة ولا الرياح العواصف، فيما بينهم وبين ربهم إنما قلوبهم تصعد في السقوف العلى ارتياحاً إلى الله تعالى في استباق الخيرات أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون» وهذا بعض كلامه.

وفي قوله تعالى: ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ إشارة إلى أن الهلاك مطلقاً صورياً ومعنوياً بدنياً

ومالياً إنما هو بشؤم المعصية وكفران النعمة ونعم ما قيل:

شكر نعمت نعمتت افزون كند كفر نعمت ازكفت بيرون كند

فمن أعرض عن المعجزات والكرامات والإلهامات لإقباله على الدنيا وزينتها وشهواتها كأنهم الأنعام بل هم أضلّ لأن الأنعام ما كذبت بالحق وهو قد كذب.

دريغ آدمي زاده پر محل كه باشد چوانعام بل هم اضل

وقول تعالى: ﴿**فسوف يأتيهم**﴾أي: في الدنيا والآخرة ﴿**أنباء ما كانوا به يستهزئون**﴾أما في الدنيا فمن استهزائهم بأقوال الأنبياء والأولياء وأحوالهم يصمهم الله ويعمي أبصارهم فلا يهتدون إلى حق ولا إلى حقيقة سبيلاً وأما في الآخرة فيعذبهم بعذاب القطيعة والبعد والحرمان والخلود في النيران ـ حكي ـ أن إمام الحرمين كان يدرس يوماً في المسجد بعد صلاة الصبح فمرّ عليه بعض شيوخ الصوفية ومعه أصحابه من الفقراء وقد دعوا إلى بعض المواضع فقال إمام الحرمين في نفسه ما شغل هؤلاء إلا الأكل والرقص فلما رجع الشيخ من الدعوة مرّ عليه وقال يا فقيه ما تقول فيمن صلّى الصبح وهو جنب ويقعد في المسجد ويدرس العلوم ويغتاب الناس فذكر إمام الحرمين أنه كان عليه غسل ثم حسن اعتقاده بعد ذلك في الصوفية.

أقول: وأول الأمر اعتقادهم ثم الاتباع بطريقتهم ثم الوصول إلى مقاماتهم.

وقيل لأبي القاسم الجنيد قدس سره: ممن استفدت هذه العلوم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله تعالى ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة وأشار إلى درجة في داره فهذه الطريقة لا تنكشف أسرارها ولا تتلألأ أنوارها إلا بعد اجتهاد تام وسلوك قوي والله الهادي.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿**ولو نزلنا عليك**﴾ روي ـ أن بعض المشركين قالوا يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله فأنزل الله تعالى قوله: ﴿**ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس**﴾أي: مكتوباً في رقّ فالكتاب بمعنى مفعول ﴿**فلمسوه**﴾أي الكتاب ﴿**بأيديهم**﴾بعد ما رأوه بأعينهم بحيث لم يبق لهم في شأنه اشتباه فذكر اللمس لأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا أي سدّت وذكر الأيدي مع أن اللمس لا يكون عادة إلا بها لدفع التجوز فإنه يتجوز به للتفحص كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ [الجن: ٨] أي تفحصنا ﴿**لقال الذين كفروا**﴾عنتاً وعناداً للحق بعد ظهوره كما هو دأب المحجوج اللجوج ﴿**إن هذا**﴾أي: الكتاب ﴿**إلا سحر مبين**﴾أي: بين كونه سحراً على كل أحد ولا شك أن من حرم التوفق وكذب بالحق غيباً وحدساً كذب به عياناً وحساً فلو أن أهل الإنكار رأوا الأولياء والصالحين يطيرون في الهواء لقالوا هذا سحر وهؤلاء شياطين.

﴿**وقالوا لولا أنزل عليه ملك**﴾شروع في قدحهم في النبوة صريحاً بعدما أشير إلى قدحهم فيها ضمناً ولولا تحضيضية بمعنى الأمر والضمير في عليه للنبي عليه السلام أي هلاّ أنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبي ﴿**ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر**﴾ولو أنزلنا ملكاً على

هيئة حسبما اقترحوه والحال أنه من هول المنظر بحيث لا يطيق مشاهدته قوى الآحاد البشرية لقضي الأمر، أي: هلاكهم بالكلية ﴿ثم لا ينظرون﴾ أي: لا يمهلون بعد نزوله طرفة العين ومعنى ثم بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر وعدم الإنظار وجعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر لأن مفاجأة العذاب أشد من نفس العذاب وأشق ﴿ولو جعلناه ملكاً﴾ الهاء للمطلوب وهو أن يكون الشاهد على نبوته عليه السلام ملكاً ﴿لجعلناه رجلاً﴾، أي: لمثلنا ذلك الملك رجلاً لما مرّ من عدم استطاعة الآحاد لمعاينة الملك على هيكله وكان جبرائيل عليه السلام يأتي النبي عليه السلام في صورة دحية الكلبي وجاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين مختصمين إليه وجاءت الملائكة إلى إبراهيم في صورة الضيفان فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك وصورته وإنما رآهم كذلك الأفراد من الأنبياء لقوتهم القدسية ﴿وللبسنا عليهم﴾ جواب محذوف، أي: ولو جعلناه رجلاً لخلطنا عليهم بتمثيله رجلاً ﴿ما يلبسون﴾ على أنفسهم حينئذٍ بأن يقولوا له إنما أنت بشر ولست بملك والتعبير عن تمثيله تعالى رجلاً باللبس لكونه سبباً للبسهم وفيه تأكيد لاستحالة جعله ملكاً كأنه قيل لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لبس الأمر عليهم من لبست الأمر على القوم ألبسه من باب ضرب إذا شبهت وجعلته مشكلاً عليهم وأصله الستر بالثوب.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾

﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾ برسل متعلق باستهزىء ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسل وهو تسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقاه من قومه أي وبالله لقد استهزىء برسل أولى شأن خطير، وذوي عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ﴿فحاق﴾ عقيبه، أي: أحاط أو نزل أو حل أو نحو ذلك فإن معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل إلا في الشر والحيق ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله ﴿بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ ما موصولة اسمية والعائد الهاء في به وبه متعلق بيستهزئون والموصول مع صلته فاعل حاق، أي: فأحاط بهم الذي كانوا يستهزئون به حيث أهلكوا لأجله فإسناد الإحاطة والإهلاك إلى الرسل من قبيل الإسناد إلى السبب والمعنى أحاط الله بهم وأهلكهم بسبب استهزائهم بالرسل وقد أنجز الله ذلك يوم بدر، أي إنجاز.

﴿قل سيروا في الأرض﴾ أي: سافروا في الأرض لتعرف أحوال الأمم الماضية ﴿ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي: تفكروا في أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال وثم لتفاوت ما بين الواجبين فإن وجوب السير ليس إلا لكونه وسيلة إلى النظر ومثله قوله توضأ ثم صلّ والعاقبة مصدر وهي منتهى الأمر ومآله.

اعلم أن الاستهزاء من شيم النفوس المتمردة بأرباب الدين من الأنبياء والأولياء في كل زمان وحين ـ يروى ـ أن النبي عليه السلام كان جالساً في المسجد الحرام مع جماعة من المستضعفين بلال وصهيب وعمار وغيرهم فمرّ بهم أبو جهل في ملأ من قريش فقال يزعم محمد أن هؤلاء ملوك الجنة فاستهزأ بفقراء المسلمين وقد فعل الله به ما فعل يوم بدر فنال جزاء

استهزائه وذلك محل العبرة لأولي الأبصار. وفي «المثنوي»:

نـــى تـــرا حـــفـــظ زبـــان از رازكـــس نـى نـظـر كـردن بـعـبـرت پـيـش وپـس

پيش چه بـود يـا دمرك ونـزع خويش پس چـه بـاشـد مـردن يـاران زپـيـش

ـ حكي ـ أن شيعياً يقال له ابن هيلان كان يتكلم بما لا ينبغي في حق الصحابة فبينما هو يهدم حائطاً إذ سقط عليه فهلك فدفن بالبقيع مقبرة المدينة فلم يوجد ثاني يوم في القبر الذي دفن فيه ولا التراب الذي ردم به القبر بحيث يستدل بذلك لنبشه وإنما وجدوا اللبن على حاله حسبما شاهده الجم الغفير حتى كان ممن وقف عليه القاضي جمال الدين، وصار الناس يجيئون لرؤيته إرسالاً إلى أن اشتهر أمره وعدّ ذلك من الآيات التي يعتبر بها من شرح الله صدره نسأل الله السلامة كذا في «المقاصد الحسنة» للإمام السخاوي، فعلم منه عاقبة الطعن والاستهزاء وأن الله تعالى ينقل جيفة الفاسق من المحل المتبرك به إلى المكان المتشاءم منه كما ورد في الحديث الصحيح «من مات من أمتي يعمل عمل قوم لوط نقله الله إليهم حتى يحشر معهم». كما في «الدرر المنتثرة» للامام السيوطي وهذا صريح في نقل جسده لأن الحشر بالروح والجسد جميعاً فكما أن الله تعالى ينقل أجساد الأشرار من مقام شريف إلى محل وضيع كذلك ينقل أجسام الأخيار من مكان وضيع إلى مقام شريف كالبقيع والحجون مقبرتي المدينة، ومكة فإن الله تعالى يسوق الأهل إلى الأهل وهذا آخر الزمان وقلما يوجد فيه من هو متوجه إلى القبلة في الظاهر والباطن والحياة والممات، ونعم ما قيل: ذهب الناس وما بقي إلا النسناس وهم الذين يتشبهون بالناس وليسوا بالناس وهم يأجوج ومأجوج أو حيوان بحري صورته كصورة الإنسان أو خلق على صورة الناس أشبهوهم في شيء وخالفوهم في شيء وليسوا من بني آدم وقيل هم من بني آدم ـ روي ـ أن حياً من عاد عصوا رسولهم فمسخهم الله نسناساً لكل رجل منهم يد ورجل من شق واحد ينقز كما ينقز الطير ويرعون كما ترعى البهائم فأين الأخيار واين أولو الأبصار مضوا والله ما بقي إلا القليل. قال الحافظ قطعة:

بدرين ظلمت سراتاكى ببوى دوست بنشينم كهى انكشت دردندان كهى سر برسر زانوا

تناهى الصبر مذخلت بمأوى الأسد سرحان وطار العقل اذ غنت بمغنى الورق غربان

بـيـا اي طـائـر فـرخ بـيـاور مـژده دولـت عسى الأيام إن يرجعن قوماً كالذي كانوا

أي: كالوضع الذي كانوا عليه من الانتظام مطلقاً.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله﴾ إلجاء لأهل مكة إلى الإقرار بأن الكل من العقلاء وغيرهم لله خلقاً وملكاً وتصرفاً كأنه يقول هل لكم سبيل إلى عدم الإقرار بذلك مع كونه من الظهور بحث لا يقدر أحد على إنكاره وفي تصدي السائل للجواب قبل أن يجيب غيره إيماء إلى أن مثل هذا السؤال لكون جوابه متعيناً ليس من حقه أن ينتظر جوابه بل حقه أن يبادر إلى الاعتراف بالجواب **﴿كتب على نفسه الرحمة﴾** جملة مستقلة داخلة تحت الأمر مسوقة لبيان أنه تعالى رؤوف بالعباد لا يعجل عليهم بالعقوبة ويقبل منهم التوبة والإنابة ومعنى كتب

الرحمة على نفسه التزمها وأوجبها تفضلاً وإحساناً لأنه تعالى منزه عن أن يجب عليه شيء حقيقة وفي التعبير عن الذات بالنفس حجة على من ادعى أن لفظ النفس لا يطلق على الله تعالى ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله ليجمعكم في القبور مبعوثين أو محشورين إلى يوم القيامة فيجازيكم على شرككم وسائر معاصيكم، وإن أمهلكم بموجب رحمته ولم يعاملكم بالعقوبة الدنيوية. ﴿لا ريب فيه﴾ أي: في اليوم أو في الجميع. ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي: بتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم وهو مبتدأ وخبره قوله: ﴿فهم لا يؤمنون﴾ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط والإشعار بأن عدم إيمانهم بسبب خسرانهم فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع من الإيمان، والخروج عن دائرة الرحمة الخاصة.

قال القاضي: والمراد بالرحمة ما يعم الدارين ومن ذلك الهداية إلى معرفته والعلم بتوحيده بنصب الأدلة وإنزال الكتب والإمهال على الكفر.

وفي «تفسير الكاشفي»: [مراد رحمت ذاتيه باشدكه رحمت مطلقه كونيد واين رحمتيست كه برهمه چيز فرا رسيده ونتيجة آن عطاء ادنيست بى سابقه سؤال واستدعا ورابطهء حاجت واستحقاق چنانچه درمثنوىء معنوى واردست]

در عدم ما مستحقان كى بديم كه برين جان وبرين دانش زديم

ما نبوديم وتقاضا مان نبود لطف تونا كفته ما مى شنود

قال الإمام الأكمل في شرح الحديث: عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حوافرها عن ولدها خشية أن تصيبه». فهذا مما يدل على كمال الرجاء والبشارة للمسلمين لأنه حصل في هذه الدار من رحمة واحدة ما حصل من النعم الظاهرة والباطنة فما ظنك بمائة رحمة في الدار الآخرة.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي عليه السلام سبي فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها وتسعى فإذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي عليه السلام: «أترون هذه طارحة ولدها في النار»، قلنا لا وهي قادرة على أن لا تطرحه فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها».

وفي «المثنوي»:

آتش ازقهر خدا خود ذره ايست بهر تهديد لئيمان دره ايست

باچنين قهري كه زفت وفايقست برد لطفش بين برآتش سابقست

رحمت بيچون چنين دان اي پدر نايد اندر وهم ازوى جزائر

قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر في «الفتوحات المكية»: وجدنا آية الرحمة وهي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة: ١] تتضمن ألف معنى كل معنى لا يحصل إلا بعد انقضاء حول ولا بد من حصول هذه المعاني التي تضمنها بسم الله الرحمن الرحيم لأنه

ما ظهر إلا ليعطي معناه فلا بد من كمال ألف سنة لهذه الأمة، اللهم ارحمنا إذا عرق الجبين وكثر الأنين وبكى علينا الحبيب ويئس منا الطبيب، اللهم ارحمنا إذا وارانا التراب وودعنا الأحباب وفارقنا النعيم، وانقطع النسيم، اللهم ارحمنا إذا نُسي اسمنا وبلي جسمنا واندرس قبرنا وانطوى ذكرنا، اللهم ارحمنا يوم تبلى السرائر وتبدى الضمائر وتنشر الدواوين وتحشر الموازين، اللهم يا حي يا قيوم يا رحمن يا رحيم برحمتك نستعين. هذه مناجاة حضرة الشيخ المذكور ولعمري إنها مناجاة شريفة ومناداة لطيفة ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ - روي - أن كفار مكة أتوا رسول الله فقالوا يا رسول الله قد علمنا أنك ما يحملك على ما تدعونا إليه إلا الفقر والحاجة فنحن نجمع لك من القبائل أموالاً تكون أغنانا رجلاً وترجع عما أنت عليه من الدعوة فأنزل الله تعالى هذه الآية، والمعنى: ولله تعالى خاصة جميع ما استقر فيهما واشتملا عليه فإن أراد يعطي رسوله مالاً كثيراً ليكون أغنى الخلق نزل الملوان منزلة المكان فعبر عن نسبة الأشياء الزمانية إليهما بالسكنى فيهما ﴿وهو السميع﴾ المبالغ في سماع كل مسموع. ﴿العليم﴾ المبالغ في العلم بكل معلوم فلا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال وفي الخبر: «إن الله تعالى خلق جوهرتين إحداهما مظلمة، والأخرى مضيئة فاستخلص من المضيئة كل نور فخلق من نورها النهار، ومن الباقي النار استخلص من الظلمة كل ظلمة فخلق منها الليل وخلق من الباقي الجنة فالليل من الجنة والنهار من النار»، ولذلك كان الأنس بالليل أكثر فالليل أنس المحبين وقرة أعين المحبوبين، وقدم الليل على النهار لأن الليل لخدمة المولى والنهار لخدمة الخلق ومعارج الأنبياء كانت بالليل والقدر في الليل خير من ألف شهر وليس في الأيام مثلها وكان بعض الأولياء يقول: إذا جاء الليل جاء الخلق الأعظم.

يقول الفقير جامع هذه المجالس: أما من حجب عن سرّ الليل وحلاوة المناجاة فيه وذوق الخلوة والوحدة فالمحبوب إليه النهار كعلماء الرسوم ألا ترى إلى ثعلب النحوي يقول وددت أن الليل نهار حتى لا تنقطع عني أصحابي وهذا حرص منه على الكثرة والألفة معها وإلا فكل معلم لم يكن أعلى حالاً من المجتهدين ألا ترى أن إمامنا الأعظم كان يدرس ويحيي الليل.

هر كنج سعادت كه اوداد بحافظ ... ازيمن دعاى شب وورد سحرى بود

وعلم من التقرير المذكور أفضلية الليل على النهار.

واعلم أن الكل خلق الله تعالى ولكل منهما ملك موكل به، وفي الخبر: عن سلمان رضي الله عنه قال: «الليل موكل به ملك يقال له شراهيل، فإذا حان وقت الليل أخذ خرزة سوداء فدلاها من قبل المغرب، فإذا نظرت إليها الشمس حجبت في أسرع من طرفة العين، وقد أمرت أن لا تغرب حتى ترى الخرزة فإذا غربت جاء الليل وقد نشرت الظلمة من تحت جناحي ملك فلا تزال الخرزة معلقة حتى يجيء ملك آخر يقال له هراهيل بخرزة بيضاء فيعلقها من قبل المطلع فإذا رأتها الشمس طلعت في طرفة عين وقد أمرت أن لا تطلع حتى ترى الخرزة البيضاء فإذا طلعت جاء النهار فنشر النور من تحت جناحي ملك فلنور النهار ملك موكل ولظلمة الليل ملك موكل عند الطلوع والغروب» كما وردت الأخبار.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿قل﴾ يا محمد لكفار مكة ونزلت حين دعوه إلى الشرك ودين آبائه ﴿أغير الله أتخذ ولياً﴾ أي: معبوداً بطريق الاستقلال أو الاشتراك وقد اتخذني الله في أزليته حبيباً كما قال عليه السلام: «لو كنت متخذاً خليلاً غير الله لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن الله اتخذ صاحبكم خليلاً». أي: لا أتخذ فالمنكر هو اتخاذ غير الله ولياً لا نفس اتخاذ الولي لكن قدم المفعول لكونه مناط الانكار. ﴿فاطر السموات والأرض﴾ مبدعهما، أي: خالقهما ابتداء لا على مثال سبق وهو بدل من الجلالة ﴿وهو﴾ أي: والحال أنه ﴿يطعِم ولا يطعَم﴾، أي: يرزق الخلق ولا يرزَق وتخصيص الطعام بالذكر لشدة الحاجة إليه ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ وجهه لله مخلصاً له لأن النبي إمام أمته في الإسلام. ﴿ولا تكونن من المشركين﴾، أي: وقيل لي لا تكونن من المشركين به تعالى في أمر من أمور الدين ومعناه أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك، وحقيقة الإسلام الإخلاص من حبس الوجود وما خلص منه غيره عليه السلام بالكلية ولهذا يقول الأنبياء نفسي نفسي وهو يقول أمتي أمتي.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي﴾ أي: بمخالفة أمره ونهيه أيَّ عصيان كان. ﴿عذاب يوم عظيم﴾ أي: عذاب يوم القيامة مفعول أخاف وفيه قطع لأطماعهم وتعريض بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم.

﴿من يصرف عنه يومئذٍ﴾ أي: من يصرف عنه العذاب في ذلك اليوم العظيم ويومئذٍ ظرف للصرف. ﴿فقد رحمه﴾ أي: نجاه وأنعم عليه. ﴿وذلك﴾ الصرف ﴿الفوز المبين﴾ أي: النجاة الظاهرة.

﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ دليل آخر على أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ غير الله ولياً، أي ببلية كمرض وفقر ونحو ذلك والباء للتعدية وترجمته بالفارسية [واكر برساند خدا بتوسختي]. ﴿فلا كاشف له﴾ أي: فلا قادر على كشف ذلك الضر ورفعه عنك. ﴿إلا هو﴾ تعالى وحده ﴿وإن يمسسك بخير﴾ من صحة ونعمة ونحو ذلك ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ فكان قادراً على حفظه وإدامته فلا يقدر غيره على رفعه كقوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أهدي إلى النبي عليه السلام بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر، ثم أردفني خلفه ثم سار بي ملياً ثم التفت إلي فقال: «يا غلام» فقلت لبيك يا رسول الله فقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضرّوك بما لم يكتب الله عليك ما قدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فاصبر فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر وأن مع الكرب الفرج وأن مع العسر يسراً».

فإن قلت: قد يتصور أن يكشف الإنسان عن صاحبه كربة من الكرب.

قلت: كاشف الضر في الحقيقة هو الله تعالى إما بواسطة الأسباب أو بغيرها. قال الحافظ:

كرر نج پيشت آيد وكر راحت اي حكيم نسبت مكن بغير كه اينها خدا كند

وكذا الاستعانة في الحقيقة من الله تعالى، فالاستعانة من الأنبياء والأولياء إنما هي استشفاع منهم في قضاء الحاجة والموحّد لا يعتقد أن في الوجود مؤثراً غير الله تعالى.

﴿وهو القاهر﴾ أي: القادر الذي لا يعجزه شيء مستعلياً. **﴿فوق عباده وهو الحكيم﴾** في كل ما يفعله ويأمر به **﴿الخبير﴾** بأحوال عباده وخفايا أمورهم. صور قهره تعالى وعلو شأنه بالعلو الحسي فعبر عنه بالفوقية بطريق الاستعارة التمثيلية فقوله **﴿وهو القاهر فوق عباده﴾** عبارة عن كمال القدرة كما أن قوله: **﴿وهو الحكيم الخبير﴾** عبارة عن كمال العلم.

قال المولى الفناري في «تفسيره»: الفوقية من حيث القدرة لا من حيث المكان لعلو شأنه تعالى عن ذلك فإنه تعالى قاهر للممكنات معدومة كانت أو موجودة لأنه يقهر كل واحد منهما بضده فيقهر المعدومات بالإيجاد والتكوين والموجودات بالإفناء والإفساد.

وفي «التأويلات النجمية»: وقد عم قهره جميع عباده فقهر الكفار بموت القلوب وحياة النفوس إذ أخطأهم النور المرشش على الأرواح في بدء الخلقة فضلوا في ظلمات الطبيعة وما اهتدوا إلى نور الشريعة وقهر نفوس المؤمنين بأنوار الشريعة فأخرجهم من ظلمات الطبيعة بالقيام على طاعته وقهر قلوب المحبين بلوعات الاشتياق فآنسها بلطف مشاهده وقهر أرواح الصديقين بسطوات تجلي صفات جلاله وبالجملة لا ترى شيئاً سواه إلا وهو مقهور تحت أعلام عزته وذليل في ميادين صمديته فعلى العبد أن يعرف مولاه ويشتغل بعبوديته وهو الله تعالى الذي خلق كل شيء أوجده وقهره ـ.

وحكي ـ عن الشيخ عبد الواحد بن زيد قدس سره قال: كنت في مركب فطرحتنا الريح إلى جزيرة وإذا فيها رجل يعبد صنماً فقلنا له يا رجل من تعبد فأومأ إلى الصنم فقلنا له إن آلهك هذا مصنوع عندنا من يصنع مثله ما هذا بإله يعبد، قال: فأنتم من تعبدون قلنا نعبد الذي في السماء عرشه وفي الأرض بطشه وفي الأحياء والأموات قضاؤه تقدست أسماؤه وجلت عظمته وكبرياؤه قال ومن أعلمكم بهذا قلنا وجّه إلينا رسولاً كريماً فأخبرنا بذلك، قال ما فعل الرسول فيكم قلنا لما أدى الرسالة قبضه الملك إليه واختار له ما لديه قال فهل ترك عندكم من علامة قلنا نعم ترك عندنا كتاباً للملك قال: فأروني كتاب الملك فإنه ينبغي أن تكون كتب الملوك حساناً فأتيناه بالمصحف فقال ما أعرف هذا فقرأنا عليه سورة فلم يزل يبقى حتى ختمنا السورة فقال ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصي ثم أسلم وحسن إسلامه ثم مات بعد أيام على أحسن حال والحمد لله الملك المتعال في الغدو والآصال إنه هو المعبود المقصود وإليه يؤول كل أمر موجود.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿**قل أي شيء أكبر شهادة**﴾ ـ روي ـ أن قريشاً قالوا لرسول الله يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد أنك رسول الله فإنهم أنكروك فأنزل الله تعالى هذه الآية أمر حبيبه عليه السلام بأن يقول لهم أي شيء أعظم من جهة الشهادة ﴿**قل الله**﴾ أي: الله أكبر شهادة فشهادته أكبر من شهادة الخلق فإن شهادة الخلق وعلومهم لا تحيط بحقائق الأشياء كلها والحق سبحانه هو الذي يحيط علمه بجميع حقائق الأشياء أمر له عليه السلام بأن يتولى الجواب بنفسه للإيذان بتعينه وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره. ﴿**شهيد**﴾ أي: هو شهيد ﴿**بيني وبينكم**﴾ على صدقي ﴿**وأوحي إلي**﴾ من جهته تعالى ﴿**هذا القرآن**﴾ الشاهد بصحة رسالتي ﴿**لأنذركم به**﴾ أي: أخوفكم بما فيه من الوعيد أيها الموجودون وقت نزول القرآن ﴿**ومن بلغ**﴾ عطف على ضمير المخاطبين أي بلغه القرآن من الإنس والجن إلى يوم القيامة.

قال محمد بن كعب القرطبي: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً عليه السلام وسمع منه. ﴿**أئنكم لتشهدون**﴾ إلجاء لهم إلى الإقرار بإشراكهم إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره لاشتهارهم به والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ والمعنى بالفارسية [آيا شما ميدكه كواهى ميدهيد]. ﴿**أن مع الله آلهة أخرى قل**﴾ لهم ﴿**لا أشهد**﴾ بذلك وإن شهدتم به فإنه باطل صرف ﴿**قل إنما هو إله واحد**﴾ تكرير الأمر للتأكيد أي بل إنما أشهد أنه تعالى لا إله إلا هو أي متفرد بالألوهية ﴿**وإنني بريء مما تشركون**﴾ به من الأصنام.

﴿**الذين آتيناهم الكتاب**﴾ جواب عما سبق من قولهم لقد سألنا عنك اليهود والنصارى والمراد بالموصول اليهود والنصارى وبالكتاب الجنس المتنظم للتوراة والإنجيل ﴿**يعرفونه**﴾ أي: محمداً عليه السلام بحليته ونعوته في كتابهم ﴿**كما يعرفون أبناءهم**﴾ بحلاهم المعينة لهم ـ روي ـ أن رسول الله لما قدم المدينة قال عمر رضي الله عنه لعبد الله بن سلام أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية فكيف هذه المعرفة فقال: يا عمر لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني ولأنا أشد معرفة بمحمد مني بابني؛ لأني لا أدري ما صنع النساء وأشهد أنه حق من الله تعالى فقال عمر وفقك الله يا ابن سلام» ﴿**الذين خسروا أنفسهم**﴾ أي: غبنوا أنفسهم من أهل الكتابين والمشركين بأن ضيعوا فطرة الله التي فطر الناس عليها وأعرضوا عن البينات الموجبة للإيمان بالكلية وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿**فهم لا يؤمنون**﴾ لما أنهم مطبوع على قلوبهم والفاء السببية تدل على أن تضييع الفطرة الأصلية والعقل السليم سبب لعدم الإيمان.

قال البغوي: وذلك أن الله تعالى جعل لكل آدمي منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار وذلك هو الخسران.

﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً**﴾ لوصفهم النبي المنعوت في الكتابين بخلاف أوصافه عليه السلام فإنه افتراء على الله تعالى وبقولهم الملائكة بنات وقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ونحو ذلك أي لا أحد أظلم منه. ﴿**أو كذب بآياته**﴾ كأن كذبوا بالقرآن وبالمعجزات وسموها سحراً وحرفوا التوراة وغيروا نعوته عليه السلام فإن ذلك تكذيب بآياته وكلمة أو للإيذان بأن كلاً من الافتراء والتكذيب وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم كيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ونفوا ما أثبته. ﴿**إنه**﴾ أي: الشأن ﴿**لا يفلح الظالمون**﴾ أي: لا

ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب وإذا كان حال الظالمين هذا فما ظنك بمن في الغاية القاصية من الظلم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿**ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا**﴾ يوم منصوب على الظرفية بمضمر مؤخر قد حذف إيذاناً بضيق العبارة عن شرحه وبيانه والحشر جمع الناس إلى موضع معلوم والضمير للكل وجميعاً حال منه، والمعنى: ويوم نحشر الناس كلهم، ثم نقول للمشركين خاصة للتوبيخ والتقريع على رؤوس الأشهاد ما نقول كان من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال والعطف بثم للتراخي الحاصل بين مقامات يوم القيامة في المواقف فإن فيه مواقف بين كل موقف وموقف تراخ على حسب طول ذلك اليوم. ﴿**أين شركاؤكم**﴾ أي: آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله فالإضافة مجازية باعتبار إثباتهم الشركة لآلهتهم. ﴿**الذين كنتم تزعمون**﴾ أي: تزعمونها شركاء شفعاء والزعم القول الباطل والكذب في أكثر الكلام.

﴿**ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا**﴾ الفتنة مرفوع على أنه اسم تكن والخبر إلا أن قالوا والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء وفتنتهم إما كفرهم مراداً به عاقبته أي لم تكن عاقبة كفرهم الذي التزموه مدة أعمارهم وافتخروا به شيئاً من الأشياء إلا جحوده والتبري منه بأن يقولوا ﴿**والله ربنا ما كنا مشركين**﴾ وأما جوابهم عبر عنه بالفتنة؛ لأنه كذب وإنما يقولون مع علمهم بأنه بمعزل من النفع رأساً من فرط الحيرة والدهش كما يقولون ربنا أخرجنا منها وقد أيقنوا بالخلود.

﴿**انظر**﴾ يا محمد ﴿**كيف كذبوا على أنفسهم**﴾ بإنكار صدور الإشراك عنهم في الدنيا وتعجب من كذبهم فإنه أمر عجيب ﴿**وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾ عطف على كذبوا داخل في حيز انظر، أي: كيف زال وذهب وبطل افتراؤهم فإنهم كانوا يفترون في حق الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله تعالى فبطل ذلك بالكلية يوم القيامة.

وفي الآيات أمور: الأول: إطلاق لفظ الشيء على الله تعالى لكن بمعنى شاءى لا بمعنى مشيئي وجوده فهو الشائي المريد، والثاني: إنه يلزمه التبري من الشرك عقيب التوحيد.

قال المولى الشهير باخى چلبي في «حواشي صدر الشريعة»: إسلام اليهود والنصارى مشروط بالتبري من اليهودية والنصرانية بعد الإتيان بكلمتي الشهادة وبدون التبري لا يكونان مسلمين ولو أتيا بالشهادتين مراراً لأنهما فسرا قولهما بأنه رسول الله إليكم لكن هذا في الذين اليوم بين ظهراني أهل الإسلام أما إذا كان في دار الحرب وحمل عليه رجل من المسلمين فأتى بالشهادتين أو قال دخلت دين الإسلام أو في دين محمد عليه السلام فهذا دليل توبته انتهى.

قال في «الدر»: المختصر في صفة الإيمان أن يقول: ما أمرني الله تعالى به قبلته وما نهاني عنه انتهيت عنه فإذا اعتقد ذلك بقلبه وأقر بلسانه كان إيماناً صحيحاً وكان مؤمناً بالكل انتهى.

وإيمان المقلد صحيح عند الإمام الأعظم إلا أنه يأثم بترك النظر والاستدلال.

وفي فصل الخطاب من نشأ في بلاد المسلمين وسبح الله تعالى عند رؤية صنائعه فهو خارج عن حد التقليد. والثالث أن قوله تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [الأنعام: ٢] يشير إلى أن الآباء قد تحقق عندهم أنهم مصادر الأبناء ومبدأ وجود الأبناء منهم فكذلك أهل المعرفة تحقق

عندهم أن الله تعالى مصدرهم ومبدأ وجودهم منه. قال الحافظ:

در مكتب حقائق وپيش اديب عشق   هان اي پسر بكوش كه روزى پدرشوى

خواب وخورت زمرتبهٔ خويش دور كرد   آنكه رسى بخويش كه بى خواب وخور شوى

فالوصول إلى المبدأ القديم بعد العبور من جسر الوصف الحادث. والرابع: أن النافع هو الإيمان والتوحيد والصدق والإخلاص دون الشرك والكذب ـ يروى ـ أن المشركين إذا رأوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى وتجاوزه عن أهل التوحيد قال بعضهم لبعض تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالكفر فلا يفلحون، وكذا أهل الرياء من أهل التوحيد يزعمون أنهم على اليقين وكمال الإخلاص وأفعالهم الصادرة عن جوارحهم تدل على خلاف ذلك فإنما خلق الله جهنم لتطهير أهل الشرك مطلقاً لكن أهل الكفر مخلدون فافهم المقام.

واعلم أن الله تعالى واحد وكل شيء يشهد على وحدته وعلى هذه الوحدة يعرفه ويشاهده أهل المعرفة والمشاهدة فإن كثرة الآثار لا تنافي الوحدة كالنواة مع الشجرة. قال الحافظ:

تادم وحدت زدى حافظ شور يده حال   خامهٔ توحيد كش برورق اين وآن

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ إذا قرأت القرآن ـ روي ـ أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ فقالوا للنضر: وكان صاحب أخبار يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني أرى بعض ما يقول حقاً فقال أبو جهل: كلا فنزلت فالضمير للمشركين. ﴿وجعلنا﴾ أي: أنشأنا ﴿على قلوبهم﴾ الضمير راجع إلى من باعتبار المعنى. ﴿أكنة﴾ أي أغطية كثيرة لا يقادر قدرها خارجة مما يتعارفه الناس. جمع كنان بالكسر وهو ما يستر به الشيء ﴿أن يفقهوه﴾ مفعول له بحذف المضاف أي كراهة أن يفقهوا ما يستمعون من القرآن المدلول عليه بذكر الاستماع ﴿و﴾ جعلنا ﴿في آذانهم وقراً﴾ أي: صمماً وثقلاً كراهة أن يستمعوه حق الاستماع وهذا تمثيل معرب عن كمال جهلهم بشؤون النبي عليه السلام وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومجّ أسماعهم له وهذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى ويجعل بعضها في أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن كما هو مذهب أهل السنة.

وفي الآية: إشارة إلى أن مكافاة من يستمع إلى كلام الله تعالى أو إلى حديث النبي عليه السلام أو إلى كلمات أرباب الحقائق بالإنكار ليأخذوا عليها ويطعنوا فيها أن يجعل الله تعالى حجاباً على قلوبهم وسمعهم حتى لا يصل إليهم أنوارها ولا يجدون حلاوتها ولا يفهمون حقائقها. قال المولى الجامي:

عجب نبودكه ازقر آن نصيبت نيست جز حرفى

كه ازخو رشيد جز كرمى نبيند چشم نابينا

﴿وإن يروا كل آية﴾ من الآيات القرآنية أي يشاهدوها بسماعها ﴿لا يؤمنوا بها﴾ أي كفروا بكل واحدة منها وسموها سحراً وافتراء وأساطير لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم.
﴿حتى﴾ ابتدائية ومع هذا لا مانع من أن تفيد معنى الغاية أي بلغ بهم ذلك المنع من فهم القرآن إلى أنهم ﴿إذا جاؤوك يجادلونك﴾ أي حال كونهم مجادلين لك. ﴿يقول الذين كفروا﴾ أي: لا يكتفون بمجرد عدم الإيمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون ﴿إن هذا﴾ أي ما هذا القرآن ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أي: أباطيلهم وأكاذيبهم، جمع أسطورة بالضم كالأضاحيك والأعاجيب جمع أضحوكة وأعجوبة. وفي «المثنوي»:

چون كتاب الله بيامد هم بران این چنين طعنه زدند آن كافران

كه اساطيراست وافسانهٔ نژند نيست تعميقى وتحقيقى بلند
توز قرآن اي پسر ظاهر مبين ديو آدم را نبيند غير طين

﴿وهم﴾ أي: الكفار ﴿ينهون﴾ الناس ﴿عنه﴾ أي: عن القرآن والإيمان به. ﴿وينأون عنه﴾ أي: يتباعدون عنه بأنفسهم إظهاراً لغاية نفورهم منه وتأكيداً لنهيهم عنه فإن اجتناب الناهي عن المنهي عنه من متممات النهي ولعل ذلك هو السر في تأخير النأي عن النهي. والنأي البعد. ﴿وإن يهلكون﴾ أي: ما يهلكون بالنهي والنأي. ﴿إلا أنفسهم﴾ لأن ضرره عليهم ﴿وما يشعرون﴾ أي: والحال إنهم ما يعلمون، أي: لا بإهلاك أنفسهم ولا باقتضاء ذلك عليها من غير أن يضروا بذلك شيئاً من القرآن والرسول والمؤمنين.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ الخطاب إما لرسول الله ﷺ أو لكل أحد من أهل المشاهدة والعيان، والوقف: الحبس وجواب لو ومفعول ترى محذوف أي لو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها لرأيت ما لا يساعده التعبير. ﴿فقالوا يا﴾ للتنبيه ﴿ليتنا نرد﴾ إلى الدنيا ﴿ولا نكذب بآيات ربنا﴾ القرآنية ﴿ونكون من المؤمنين﴾ بها العاملين بمقتضاها حتى لا نرى هذا الموقف الهائل ونصب الفعلين على جواب التمني بإضمار أن بعد الواو وإجرائها مجرى الفاء والمعنى إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين.

﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ أي: ليس الأمر على ما قالوه من أنهم لو ردوا إلى الدنيا لآمنوا فإن التمني الواقع منهم يوم القيامة ليس لأجل كونهم راغبين في الإيمان بل لأنه ظهر لهم في موقفهم ذلك ما كانوا يخفون في الدنيا وهي النار التي وقفوا عليها والمراد بإخفائها تكذيبهم لها فإن التكذيب بالشيء كفر به وإخفاء له محالة ﴿ولو ردوا﴾ إلى الدنيا فرضاً ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من الشرك ونسوا ما عاينوه بالكلية لاقتصار أنظارهم على الشاهد دون الغائب كإبليس قد عاين من آيات الله تعالى ثم عاند فلا راد لما قضاه الله تعالى ولا مبدل لما حكم في الأزل. ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي: لقوم ديدنهم الكذب في كل ما يأتون وما يذرون وبهذه الآية يفتى بقتل أهل البغي والفساد؛ إذ لا يؤمن من أن يعودوا لما نهوا عنه. وفي «المثنوي»:

آن ندامت ازنتيجهٔ رنج بود نه زعقل روشنى چون كنج بود

چونكه شد رنج آن ندامت شد عدم مى نيرزد خاك آن توبه وندم
ميكند اوتوبه وپير خرد بانكه لوردوا لعادوا ميزند

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وقالوا﴾ عطف على عادوا داخل في حيز الجواب **﴿إن هي﴾** أي: ما الحياة فالضمير للحياة فإن من الضمائر ما يذكر مبهماً ولا يعلم ما يرجع إليه إلا بذكر ما بعده. **﴿إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾** بعد ما فارقنا هذه الحياة كأن لم يروا ما رأوا من الأحوال التي أولها البعث والنشور.

﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾ أي: حبسوا للسؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعتاب والجواب محذوف أي لرأيت أمراً عظيماً **﴿قال﴾** لهم على لسان الملائكة موبخاً وهو استئناف. **﴿أليس هذا﴾** البعث والحساب **﴿بالحق قالوا بلى وربنا﴾** إنه لحق **﴿قال فذوقوا العذاب﴾** الذي عاينتموه **﴿بما كنتم تكفرون﴾** أي: بسبب كفركم في الدنيا بذلك، وخص لفظ الذوق للإشارة إلى أن ما يجدونه من العذاب في كل حال هو ما يجده الذائق لكون ما يجدون بعده أشد من الأول.

﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ أي: قد غبن الذين كذبوا بالبعث بعد الموت **﴿حتى إذا جاءتهم الساعة﴾** غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم فإنه أبدى لا حد له. **﴿بغتة﴾** حال من فاعل جاءتهم، أي: باغتة مفاجئة والبغت والبغتة مفاجأة الشيء بسرعة من غير أن يشعر به الإنسان حتى لو كان له شعور بمجيئه ثم جاءه بسرعة لا يقال فيه بغتة والوقت الذي تقوم فيه القيامة يفجأ الناس في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تعالى، فلذلك سميت ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم وسميت الساعة ساعة لسعيها إلى جانب الوقوع ومسافته الأنفاس والمعنى أنهم قد كذبوا إلى أن ظهرت الساعة بغتة.

فإن قيل: إنما يكذبون إلى أن يموتوا.

والجواب: أن زمان الموت آخر زمان من أزمنة الدنيا وأول زمان من أزمنة الآخرة فمن انتهى تكذيبه إلى هذا الوقت صدق أنه كذب إلى أن ظهرت الساعة بغتة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «من مات فقد قامت قيامته». **﴿قالوا﴾** جواب إذا **﴿يا حسرتنا﴾** الحسرة هي شدة الندم والتألم ونداؤها مجاز لأن الحسرة لا يتأتى منها الإقبال وإنما المعنى على المبالغة في شدة التحسر كأنهم نادوا الحسرة وقالوا إن كان لك وقت فهذا أوان حضورك ومثله يا ويلتنا والمقصود التنبيه على خطأ المنادي حيث ترك ما أحوجه تركه إلى نداء هذه الأشياء. **﴿على ما فرطنا فيها﴾** أي: على تفريطنا في شأن الساعة وتقصيرنا في مراعاة حقها والاستعداد لها بالإيمان بها واكتساب الأعمال الصالحة فعلى متعلق بالحسرة وما مصدرية والتفريط التقصير في الشيء مع القدرة على فعله **﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾** حال من فاعل قالوا، والأوزار جمع وزر وهو في الأصل الحمل الثقيل يقال وزرته، أي: حملته ثقيلاً منه وزير

الملك لأنه يتحمل أعباء ما قلده الملك من مؤونة رعيته وحشمه سمي به الإثم والذنب لغاية ثقله على صاحبه والحمل من توابع الأعيان الكثيفة لا من عوارض المعاني فلا يوصف به العرض إلا على سبيل التمثيل والتشبيه وذكر الظهور كذكر الأيدي في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] فإن المعتاد حمل الأثقال على الظهور كما أن المألوف هو الكسب بالأيدي، والمعنى أنهم يتحسرون على ما لم يعملوا من الحسنات والحال أنهم يحملون أوزار ما عملوا من السيئات. ﴿ألا ساء ما يزرون﴾ أي: بئس شيئاً يزرون، أي: يحملون وزرهم.

قال السدي وغيره: إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيبه ريحاً فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا فيقول أنا عملك الصالح فاركبني فقد طالما ركبتك في الدنيا فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ٨٥] أي ركباناً، وأما الكافر: فيستقبله أقبح شيء صورة وأنتنه ريحاً فيقول هل تعرفني فيقول لا فيقول أنا عملك الخبيث طالما ركبتني في الدنيا وأنا اليوم أركبك فهو معنى قوله تعالى: ﴿وهم يحملون﴾ إلخ. فيكون الحمل على حقيقته لأن للأعمال صوراً تظهر في الآخرة وإن كان نفسها اعراضاً.

واعلم أن الأوزار كثيرة لكن ذنب الوجود فوق الكل؛ إذ هو الباعث على سائر الأوزار وهو ثقل مانع عن السلوك فعلى السالك أن يتوب عن الكل ويفنى في طريق الحق فناء كلياً. قال الحافظ:

فكر خود ورأى خود در عالم رندى نيست كفرست درين مذهب خود بيني وخودر رأيي

قال بعضهم: لا يمكن الخروج من النفس بالنفس وإنما يمكن الخروج من النفس بالله تعالى.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم قدس سره: ذكر الله تعالى يرطب القلب ويلينه فإذا خلا عن الذكر أصابته حرارة النفس ونار الشهوات فقسا ويبس وامتنعت الأعضاء من الطاعة فإذا مددتها انكسرت، كالشجرة إذا يبست لا تصلح إلا للقطع وتصير وقوداً للنار أعاذنا الله منها، فالذكر والتوحيد والاتباع إلى أهله هو أصل الأصول ـ حكي ـ عن علي بن الموفق أنه قال: حججت سنة من السنين في محمل فرأيت رجالاً، فأحببت المشي معهم فنزلت وأركبت واحداً في المحمل ومشيت معهم فتقدمنا إلى البرية وعدلنا عن الطريق فنمنا، فرأيت في منامي جواري معهن طشوت من ذهب وأباريق من فضة يغسلن أرجل المشاة، فبقيت أنا فقالت إحداهن لصواحبها: أليس هذا منهم؟ قلن هذا له محمل، فقالت: بلى هو منهم؛ لأنه أحب المشي معهن فغسلن رجلي فذهب عني كل تعب كنت أجده هذه حال من مشى مع ولي باعتقاد صحيح فكيف مع نبي فلو أن كفار مكة ومشركي العرب استمعوا إلى النبي عليه السلام واتبعوا الذكر الذي أنزل إليه لنجوا وأسقطوا كل حمل عن ظهورهم ومشوا إلى جنة الفردوس لكن الله تعالى يهدي من يشاء.

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وما الحياة الدنيا﴾ على حذف المضاف، أي: ما أعمال الدنيا أي الأعمال المتعلقة بها من حيث هي هي. ﴿إلا لعب ولهو﴾ يلهي الناس ويشغلهم بمنفعته الزائلة عن الإيمان والعمل الصالح المؤدي إلى اللذة الدائمة واللعب عما يشغل النفس وينفرها عما تنتفع به واللهو صرفها

عن الجد إلى الهزل. ﴿وللدار الآخرة﴾ التي هي محل الحياة الأخرى ﴿خير للذين يتقون﴾ الكفر والمعاصي لأن منافعها خالصة عن المضار ولذاتها غير منغصة بالآلام مستمرة على الدوام. ﴿أفلا تعقلون﴾ الفاء للعطف على مقدر، أي: أتغفلون فلا تعقلون، أي الأمرين خير، وسميت الدنيا بالدنيا لدنوها قبل الآخرة أو لدناءتها، وسميت الآخرة بالآخرة لتأخرها عن خلقها وإنما جعل الله الآخرة غائبة عن الأبصار لأنها لو كانت حاضرة لما جحدوها ولارتفعت التكاليف والمحن فجعل ما على الأرض زينة للابتلاء وحقيقة الدنيا ما يشغلك عن ربك.

قال أهل التحقيق: السموات والأرضون وما فيهما من عالم الكون والفساد يدخل في حد الدنيا. وأما العرش والكرسي وما يتعلق بهما من الأعمال الصالحة والأرواح الطيبة والجنة وما فيها فمن حد الآخرة وفي الخبر القدسي لما خلق الله الدنيا خاطبها بقوله: «يا دنيا اخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك» ولهذا كانت الدنيا تجيء لبعض أوليائه وتكنس داره في صورة العجوز ولبعض أوليائه تجيء كل يوم برغيف.

فإن قلت إن الله تعالى خلق هذه الدنيا للمؤمن فلم أمر بالزهد فيها.

قلت: السكر إذا نثر على رأس الختن لا يلتقطه لعلو همته ولو التقطه لكان عيباً وفي الحديث: «جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس»، والضيف إذا كان حكيماً لا يشبع من الطعام رجاء الحلواء ـ حكي ـ أن قاضياً من أهل بغداد كان ماراً بزقاق كلخان مع خدمه وحشمه كالوزير فطلع الكلخاني وهو يهودي في صورة جهنمي كأن القطران يقطر من جوانبه فأخذ بلجام بغلة القاضي فقال أيد الله القاضي ما معنى قول نبيكم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» أما ترى أن الدنيا جنة لك وأنت مؤمن محمدي والدنيا سجن لي وأنا كافر يهودي، والحديث دلالته بالعكس فأجاب القاضي وكان من فضلاء الدنيا وما ترى من زينتها وحشمتها سجن لي بالنسبة إلى ما وعد الله في الجنة وجنة لك بالنسبة إلى الدركات المعودة في النيران.

قيل: مثل الدنيا والآخرة مثل رجل له امرأتان إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى.

واحتضر عابد فقال: ما تأسفي على دار الآخرة والغموم والخطايا والذنوب، وإنما تأسفي على ليلة نمتها ويوم أفطرته وساعة غفلت فيها عن ذكر الله تعالى:

نه عمر خضر بماند نه ملك اسكندر ‏ ‏ ‏ ‏ نزاع برسر دنياي دون مكن درويش

فالدنيا لا تبقى والآخرة خير وأبقى ـ يحكى ـ أن جعفر بن سليمان رحمه الله قال: مررت أنا ومالك بن دينار رضي الله عنه بالبصرة فبينما ندور فيها مررنا بقصر يعمر وإذا بشاب حسن يأمر ببناء القصر، ويقول افعلوا واصنعوا فدخلنا عليه وسلمنا فرد السلام، قال مالك: كم نويت أن تنفق على هذا القصر؟ قال: مائة ألف درهم، قال: ألا تعطيني هذا المال فأضعه في حقه وأضمن لك على الله تعالى قصراً خيراً من هذا القصر بولدانه وخدمه وقبابه وخيمه من ياقوتة حمراء مرصع بالجوهر ترابه الزعفران بلاطه المسك لم تمسه يدان ولم يبنه بانٍ، قال له الجليل سبحانه كن فكان فأثر في الشاب كلامه فأحضر البدر ودعا بدواة وقرطاس ثم كتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما ضمن مالك بن دينار لفلان بن فلان أني ضمنت لك على الله قصراً بدل قصرك صفته كما وصفت والزيادة على الله، واشتريت لك بهذا المال قصراً في الجنة أفسح من قصرك في ظل ظليل بقرب العزيز الجليل، ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الشاب وأنفق ما أخذه من المال على الفقراء، وما أتى على الشاب أربعون ليلة حتى مات ووصى أن يجعل

الكتاب بين كفنه وبدنه، ووجد مالك ليلة وفاته كتاباً موضوعاً في المحراب فأخذه ونشره فإذا هو مكتوب بلا مداد هذه براءة من الله العزيز الحكيم إلى مالك بن دينار، وفينا الشاب القصر الذي ضمنته له وزيادة سبعين ضعفاً. وفي «المثنوي»:

هركه پايان بين ترا ومسعودتر جدترا وكاردكه افزون ديدبر
زانكه داند كين جهان كاشتن هست بهر محشر و برداشتن

آخرت قطار اشتران بملك درتبع دنياش همچون يشم وپشك
پشم بكزيني شتر نبود ترا وربود اشترچه قيمت پشم را

يعني: إن اخترت الدنيا التي هي كصفوف الجمل، وآثرتها على الآخرة التي هي كنفس الجمل تكون محروماً من الآخرة كما أن من اختار الصوف يحرم من الجمل بخلاف من كان الجمل ملكا له فإنه لا قيمة عنده لصوفه ولا زغبه، وقال قدس سره في محل آخر:

باز كونه أي اسيران جهان نام خود كرديد اميران جهان
اي توبندۀ اين جهان محبوس جان چند كويي خويش راخواجۀ جهان

تخته بندست آنكه تختش خواندۀ صدر پنداری وبر در ماندۀ
پادشاهی نيستت برريش خود پادشاهی چون كنی برنيك وبد
بی مرادتو شود ريشت سپيد شرم در ازريش خود ای كژاميد

افتخار از رنك وبو واز مكان هست شادی و فريب كود كان

كون ميكويد بيامن خوش پي ام وان فسادش كفته رومن لاشی ام
اي زخوبیء بهاران لب كزان بنكر آن سردی وزردیء خزان
روز ديدی طلعت خورشيدخوب مرك اورا يادكن وقت غروب
بدررادیدی برين خوش چارطاق حسرتش راهم ببين وقت محاق
كودكی از حسن شد مولای خلق بعد فردا شد خرف رسوای خلق
اي بديده لونها چرب وخيز فضلۀ آنرا پبين در آب ريز
مر خبث را كوكه آن خوبيت كو برطبق آن زوق وآن نغزی وبو
پس أنامل رشك استادان شده در صناعت عاقبت لرزان شده
نركس چشم خمار همچو جان آخر اعمش بين وآب ازوی چكان
حيدری كاندر صف شيران رود آخر أو مغلوب موشی ميشود
زلف جعد مشكبار عقل بر آخر آن چون ذنب زشت خنك وخر
خوش ببين كونش زاول باكشاد واخران رسوايیش ببين وفساد

والإشارة الحياة التي تكون بالتمتعات الدنيوية النفسانية كلعب الصبيان ولهو أهل العصيان تزيد في الحجب والسير من البشرية إلى الروحانية بترك الشهوات والأعراض عن غير الحق والإقبال على الله خير للذين يتقون عما سوى الله بالله أفلا تعقلون أن الله تعالى خلقكم لهذا الشأن لا لغيره كما قال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١] اللهم احفظنا من تضييع العمر واهدنا

إلى حقيقة الأمر إنك أنت الوهاب الهادي.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿**قد نعلم**﴾ قد هنا للتكثير والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة تعلقه ﴿**إنه**﴾ أي: الشأن. ﴿**ليحزنك**﴾ يا محمد. ﴿**الذي يقولون**﴾ فاعل يحزنك والعائد محذوف، أي: الذي يقوله كفار مكة وهو ما حكى عنهم من قولهم ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١] ونحو ذلك ﴿**فإنهم لا يكذبونك**﴾ أي: لا تعتد بما يقولون وكله إلى الله تعالى فإنهم في تكذيبهم آيات الله لا يكذبونك في الحقيقة. ﴿**ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾ أي: ولكنهم يكذبون بآيات الله وينكرونها فما يفعلون في حقك فهو راجع إليّ في الحقيقة لأنك فانٍ عما سوى الله باقٍ بالله وأنا انتقم منهم لا محالة أشد انتقام والمراد بالظلم جحودهم والجحود عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه والباء متعلقة بالفعل والتقديم للقصر يقال جحد حقه وبحقه إذا أنكره.

﴿**ولقد كذبت رسل من قبلك**﴾ تسلية لرسول الله ﷺ فإن البلية إذا عمت طابت أي وبالله لقد كذبت من قبل تكذيبك رسل أولو شأن خطير وذو عدد كثير أو كذبت رسل كانوا من زمان قبل زمانك. ﴿**فصبروا على ما كذبوا وأوذوا**﴾ أي: على تكذيبهم وإيذائهم. ﴿**حتى أتاهم نصرنا**﴾ أي: كان غاية صبرهم نصر الله تعالى إياهم فتأسّ بهم واصطبر على ما نالك من قومك والنصر الموعود للصابرين يحتمل أن يكون بطريق إظهار الحجج والبراهين ويحتمل أن يكون بطريق القهر والغلبة أو بإهلاك الأعداء. قال الحافظ:

اي دل صبور باش ومخور غم كه عاقبت   أين شام صبح كردد واين شب سحر شود

وقال أيضاً:

كرت چو نوح نبي صبر هست برغم طوفان   بلا بكردد وكان هزار ساله بر آيد

﴿**ولا مبدل لكلمات الله**﴾ أي: مواعيده بالنصرة والغلبة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]. ﴿**ولقد جاءك من نبأ المرسلين**﴾ أي من خبرهم ما يسكن به قلبك وهو نصره تعالى إياك.

وقال المولى أبو السعود: والجار والمجرور في محل الرفع على أنه فاعل إما باعتبار مضمونه أي بعض نبأ المرسلين أو بتقدير الموصوف أي بعض من نبأ المرسلين.

﴿**وإن كان كبر عليك إعراضهم**﴾ أي عظم عليك وشق إعراضهم عن الإيمان بما جئت به من القرآن وعدم عدهم له من قبيل الآيات وأحببت أن تجيبهم إلى ما سألوا اقتراحاً لحرصك على إسلامهم ﴿**فإن استطعت أن تبتغي نفقاً**﴾ أي: سرباً ومنفذاً ﴿**في الأرض**﴾ تنفذ فيه إلى جوفها.

قال ابن الشيخ: النفق سرب في الأرض له مخلص إلى مكان آخر ومنه نافقاء اليربوع لأن اليربوع يخرق الأرض إلى القعر ثم يصعد من ذلك إلى وجه الأرض من جانب آخر ﴿**أو**

سلماً﴾ مصعداً. ﴿في السماء﴾ تعرج به فيها. ﴿فتأتيهم﴾ منها ﴿بآية﴾ مما اقترحوه والجواب محذوف، أي: فافعل وجملة الشرطية الثانية جواب للشرطية الأولى والمقصود بيان حرصه البالغ على إسلام قومه وإنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء لإيمانهم وإيثار الابتغاء على الاتخاذ ونحوه للإيذان بأن ما ذكر من النفق والسلم مما لا يستطاع ابتغاؤه فكيف باتخاذه. ﴿ولو شاء الله﴾ هدايتهم ﴿لجمعهم على الهدى﴾ ولكن لم يشأ ذلك لعدم صرف اختيارهم إلى جانب الهدى مع تمكنهم منه ومشاهدتهم للآيات الداعية إليه فلم يؤمنوا فلا تتهالك عليه. ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ بالحرص على ما لا يكون والجزع في مواطن الصبر فإن ذلك من دأب الجهلة بدقائق شؤونه تعالى التي من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم. وفي الآية تربية وتأديب للنبي عليه السلام من الله تعالى كما قال عليه السلام: «إن الله أدبني فأحسن تأديبي» لئلا يبالغ في الشفقة على غير أهلها.

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إنما يستجيب﴾ أي: يقبل دعوتك إلى الإيمان. ﴿الذين يسمعون﴾ ما يلقى إليهم سماع فهم وتدبر دون الموتى الذين هؤلاء منهم: قال الحافظ:

كوهر پاك ببايدكه شود قابل فيض ورنه هرسنك وكلى لؤلؤ ومرجان نشود

﴿والموتى﴾ أي: الكفار شبههم بهم في عدم السماع. ﴿يبعثهم الله﴾ من قبورهم. ﴿ثم إليه﴾ تعالى لا إلى غيره. ﴿يرجعون﴾ أي: يردون للجزاء فحينئذٍ يستجيبون وأما قبل ذلك فلا سبيل إليه ﴿وقالوا﴾ أي: رؤساء قريش. ﴿لولا﴾ تحضيضية بمعنى هلا ﴿نزل عليه آية من ربه﴾ كالناقة والعصا والمائدة من الخوارق الملجئة إلى الإيمان ﴿قل﴾ لهم ﴿إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ كما اقترحوا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن نزولها بلاء عليهم لوجوب هلاكهم إن جحدوها.

اعلم أن الناس في الأديان على أربعة أقسام: سعيد بالنفس والروح في لباس السعادة وهم الأنبياء وأهل الطاعة، والثاني: شقي بالنفس في لباس الشقاوة وهم الكفار والمصرّون على الكبائر، والثالث: شقي بالنفس في لباس السعادة مثل بلعم بن باعورا وبرصيصا وإبليس، والرابع سعيد بالنفس في لباس الشقاوة كبلال وصهيب وسلمان في أوائل أمرهم ثم بدل لباسهم بلباس التقوى والهداية.

فإن قلت ما الحكمة في أن الله تعالى خلق الخلق سعيداً وشقياً وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

قلنا: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن الله تعالى علم في الأزل أن فلاناً في خلقه يعصي لعدم سبق استعداده للسعادة فجعله شقياً لسبق القضاء عليه بمقتضى استعداده في الأعيان الثابتة، ومظهرية استعداده لشؤون الجلال كأنه سأل بلسان الاستعداد كونه شقياً يسأله من في السموات والأرض بلسان القال والحال والاستعداد كل يوم هو في شأن يفيض ويعطي كل شيء ما يستعد من السعادة والشقاوة على حسب الاستعدادات في الأعيان الثابتة الغيبية العلمية وعلم سبحانه وتعالى أن عبده يطيع فجعله سعيداً، أي: بمقتضى استعداده للسعادة

الإجمالي والقابلية المودعة في النشأة الإنسانية بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فتلك الإجابة منهم تدل على الاستعداد السعادي الأزلي فلو لم يكن ذلك لما صح عليهم التكليف والخطاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب فإذا عرفت أن الإنسان سعيد وشقي فاستعداد السعيد لا يعطي إلا الأقوال المرضية والأفعال الحسنة والأخلاق الحميدة التي تورث الانبساط واستعداد الشقي لا يعطي إلا التي تورث الانقباض فلذا أمر الله تعالى حبيبه بالصبر وتحمل الإيذاء من أهل الشقاوة والقهر والجلال والابتلاء في الدنيا سبب للغفران وتكميل الدرجات التي لا تنال في الجنان إلا على قدر البلاء وفي الخبر «إن في الجنة مقامات معلقة في الهواء يأوي إليها أهل البلاء كالطير إلى وكره ولا ينالها غيرهم». وإن الرجل يبتلى على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي وما عليه خطيئة والبلاء سوط الله على عباده كيلا يركنوا إلى الدنيا ولا يشغلوا بها ويفروا إلى الله من ضرب سوطه كما يفر الخيل إلى مستقره والآخرة هي دار القرار.

ما بلارا بكس عطا نكنيم تاكه نامش زاوليا نكنيم

وبالجملة: فمن ابتلي بشيء من المصائب والبلايا فالعاقبة حميدة في الصبر وبالصبر يكون من الأمة المرحومة حقيقة ويدخل في أثر النبي عليه السلام.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وما من دابة في الأرض﴾ من زائدة لتأكيد الاستغراق وفي متعلقة بمحذوف هو وصف الدابة أي وما فرد من أفراد الدواب يستقر في قطر من أقطار الأرض. ﴿ولا طائر﴾ من الطيور من ناحية من نواحي الجوّ ﴿يطير بجناحيه﴾ كما هو المشاهد المعتاد، فقيدُ الطيران بالجناح تأكيد كما يقال نظرت بعيني وأخذت بيدي أو هو قطع لمجاز السرعة لأنه يقال طار فلان في الأرض، أي: أسرع. ﴿إلا أمم أمثالكم﴾ محفوظة أحوالها مقدرة أرزاقها وآجالها ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ يقال فرّط في الشيء ضيعه وتركه أي ما تركنا في القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التي بينا أنه تعالى مراع فيها لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي بل قد بينا كل شيء إما مفصلاً أو مجملاً أما المفصل فكقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥] وأما المجمل: فكقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] ـ روي ـ أن الامام الشافعي كان جالساً في المسجد الحرام فقال: لا تسألوني عن شيء إلا أجيبكم فيه من كتاب الله تعالى؟ فقال رجل: ما تقول في المحرم إذا قتل الزنبور فقال: لا شيء عليه فقال أين هذا في كتاب الله فقال قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ الآية ثم ذكر إسناداً إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» ثم ذكر إسناداً إلى عمر رضي الله أنه قال: (للمحرم قتل الزنبور) ﴿ثم إلى ربهم﴾ أي: الأمم ﴿يحشرون﴾ يوم القيامة إلى ربهم لا إلى غيره فيقضي بينهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ أي: القرآن **﴿صم﴾** لا يسمعونها سمع تدبر وفهم فلذلك يسمعونها أساطير الأولين ولا يعدونها من الآيات ويقترحون غيرها. وهو جمع أصم والمقصود تشبيه حالهم بحال الأصم لكن حذف حرف التشبيه للمبالغة. **﴿وبكم﴾** لا يقدرون على أن ينطقوا بالحق ولذلك لا يستجيبون دعوتك، وهو جمع أبكم **﴿في الظلمات﴾** أي: ظلمات الكفر خبر ثالث للمبتدأ. **﴿من يشإ الله﴾** إضلاله أي أن يخلق فيه الضلال **﴿يضلله﴾** أي: يخلقه فيه لكن لا ابتداء بطريق الجبر من غير أن يكون له دخل ما في ذلك بل عند صرف اختياره إلى كسبه وتحصيله **﴿ومن يشأ﴾** هدايته **﴿يجعله على صراط مستقيم﴾** لا يضل من ذهب إليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه.

وفي الآيات أمور:

الأول: إن غير الإنسان من الأمم أيضاً وفي الحديث: «لولا أن الكلاب أمة لأمرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم». وذلك لأن الكلب الأسود شيطان لكونه أعقر الكلاب وأخبثها وأقلها نفعاً وأكثرها نعاساً ومن هذا قال أحمد بن حنبل لا يحل الصيد به والإشارة إن ما يدب في أرض البشرية ويتحرك كالسمع والبصر واللسان والأعضاء كلها والنفس وصفاتها وكذا ما يطير بجناحي الشريعة والطريقة كالقلب والروح وصفاتها أمم أمثالكم في السؤال عن أفعالهم وأحوالهم يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

والثاني: إن الحشر عام كما قال أبو هريرة رضي الله عنه يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيأخذ للجماء من القرناء كما في الحديث: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»، أي: يقتص للشاة التي لا قرن لها من التي لها قرن.

قال ابن ملك: وفيه دلالة على حشر الوحوش كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: ٥] لكن القصاص فيها قصاص مقابلة لا قصاص تكليف انتهى، ثم يقال للبهائم والوحوش والطيور كوني تراباً فتكون تراباً مثل تراب أرض ذلك العالم وعند ذلك يتمنى الكافر ويقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

قال الحدادي: والمراد بهذا الإفناء للبهائم بعد أن أحياها أنه إفناء لا يكون فيه ألم.

والثالث: إن الذين ختم الله على قلوبهم فهم كالأصم والأبكم الأصليين ومن خاصة الأبكم أن يكون أصم، كما قال في «المثنوي»:

دائماً هرك أصلى كنك بود ناطق آنكس شدكه ازمادرشود

چون سليمان سوى مرغان سبا يك صفيرى كردبست آن جمله را
جزمكر مرغى كه بدپي جان وپر ياچوماهى كنك بوداز اصل كر
نى غلط كفتم كه كركر سرنهد پيش وحى كبريا سمعش دهد

فقلوب الخلق بيد الله تعالى يصرفها كيف يشاء ـ روي ـ أن كفار مكة اجتمعوا على قتل

النبي عليه السلام فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم إبليس فقال لماذا اجتمعتم فأخبروه بالقصة فقال لأبي جهل يا أبا الحكم لو أنك حملت صنمك وإلهك الذي تعبده ووضعته بين يدي محمد وسجدت له ربما يسمع محمد منه شيئاً، وكان صنمه مرصعاً بالجوهر والياقوت فحمل أبو جهل صنمه ووضعه بين يدي النبي عليه السلام وسجد له، وقال: إلهي نعبدك ونتقرب إليك هذا محمد شتمنا بسببك ونطمع منك أن تنصرنا وتشتم محمداً فأخذ الصنم يتحرك ويتكلم ويشتم فدخل في قلب النبي عليه السلام شيء ورجع إلى بيت خديجة فلم يلبث أن دق الباب فإذا شاب دخل وبيده سيف فسلم وقال مرني يا رسول الله حتى أمتثل أمرك فقال عليه السلام: «من أنت»؟ قال أنا من الجن قال: «كم تبلغ قوتك» قال: أقدر أن أقلع جبلي حراء وأبي قبيس وأرميهما في البحر قال: «من أين أقبلت الساعة» قال: كنت في جزيرة البحر السابع إذ أتاني جبرائيل فقال: أدرك فلاناً الشيطان دخل في الصنم وشتم النبي عليه السلام فاقتله بهذا السيف فأدركته في الأرض الرابعة فقتلته فقال له عليه السلام: «ارجع فإني استعين بربي من عدوي» وقال الشاب لي إليك حاجة هي أن ترجع إلى مكان كنت فيه أمس فإنهم يستخبرون ذلك الصنم ثانياً فرجع في الغد ومعه أبو بكر الصديق فجاء أبو جهل مع صنمه ففعل كما فعل بالأمس فأخذ الصنم يتحرك ويقول لا إله إلا الله محمد رسول الله وأنا صنم لا أنفع ولا أضر ويل لمن عبدني من دون الله فلما سمعوا ذلك قام أبو جهل وكسر صنمه وقال إن محمداً سحر الأصنام فظهر أن الله تعالى يقول الحق من ألسنة المظاهر ولكن لا يسمع المنافق والكافر.

﴿قل﴾يا محمد لأهل مكة. **﴿أرأيتكم﴾**الكاف حرف خطاب أكد به ضمير الفاعل المخاطب لتأكيد الإسناد لا محل له من الإعراب كالكاف في إياك وذلك الكاف يدل على أحوال المخاطب من الإفراد والتذكير ونحوها فهو يطابق ما يراد به والتاء تبقى على حالة واحدة مفردة مفتوحة أبداً نحو أرأيتك أرأيتكما أرأيتكم ومبنى التركيب وإن كان على الاستخبار عن الرؤية قلبية كانت أو بصرية لكن المراد به الاستخبار عن متعلقها، أي أخبروني فجعل العلم أو الإبصار الذي هو سبب الإخبار مجازاً عن الإخبار وجعل الاستفهام الذي للتبكيت والإلجاء إلى الإقرار مجازاً عن الأمر بجامع الطلب. **﴿إن أتاكم عذاب الله﴾**في الدنيا كما أتى من قبلكم من الأمم. **﴿أو أتتكم الساعة﴾**أي: القيامة المشتملة على ذلك العذاب وهو العذاب الأخروي، والساعة: اسم لوقت تقوم فيه القيامة سمي بها لأنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم. **﴿أغير الله تدعون﴾**هذا مناط الاستخبار ومحط التبكيت. **﴿إن كنتم صادقين﴾**جواب الشرط محذوف، أي: إن كنتم صادقين في أن أصنامكم آلهة كما أنها دعواكم المعروفة فأخبروني أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله فإن صدقهم بهذا المعنى من موجبات أخبارهم بدعائهم غيره سبحانه.

﴿بل إياه تدعون﴾عطف على جملة منفية كأنه قيل لا غيره تعالى تدعون بل إياه تدعون **﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾**أي: إلى كشفه عطف على تدعون، أي: فيكشف أثر دعائكم. **﴿إن شاء﴾**كشفه فقبول الدعاء تابع لمشيئته تعالى فقد يقبله كما في بعض دعواهم المتعلقة بكشف العذاب الدنيوي، وقد لا يقبله كما في بعض آخر منها، وفي جميع ما يتعلق بكشف العذاب الأخروي الذي من جملته الساعة فإنه تعالى لا يغفر أن يشرك به فلا يشاء في الآخرة. **﴿وتنسون ما تشركون﴾**عطف على تدعون أيضاً أي تتركون ما تشركون به تعالى من الأصنام

تركاً كلياً لما ركز في العقول إنه القادر على كشف العذاب دون غيره فالنسيان هنا بمعنى الترك لا بمعنى الغفلة.

﴿ولقد أرسلنا﴾ أي: وبالله لقد أرسلنا رسلاً. ﴿إلى أمم﴾ كثيرة. ﴿من قبلك﴾ أي: كائنة من زمان قبل زمانك فمن لابتداء الغاية في الزمان على مذهب الكوفية مثل نمت من أول الليل وصمت من أول الشهر إلى آخره.

وقال المحشي سنان چلبي: من زائدة على قول من جوز زيادتها في الموجب وأما عند غيره فهي بمعنى في كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]. ﴿فأخذناهم﴾ الفاء فصيحة تفصح أن الكلام مبني على اعتبار الحذف أي فكذبوا رسلهم فأخذناهم ﴿بالبأساء﴾ أي بالشدة والفقر ﴿والضراء﴾ أي: الضر والآفات وهما صيغتا تأنيث لا مذكر لهما ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي لكي يدعوا الله في كشفها بالتضرع والتذلل ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فلولا﴾ هلا ﴿إذ جاءهم بأسنا﴾ عذابنا. ﴿تضرعوا﴾ أي: لم يفعلوا ذلك مع قيام المقتضى له فلولا يفيد اللوم والتنديم وذلك عند قيام الداعي إلى الفعل وانتفاء العذر في تركه. ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ استدراك على المعنى أي لم يتضرعوا ولكن يبست وجفت قلوبهم ولو كان في قلوبهم رقة وخوف لتضرعوا ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ أي: حسّن لهم الكفر والمعاصي بأن أغواهم ودعاهم إلى اللذة والراحة دون التفكر والتدبر ولم يخطر ببالهم أن ما اعتراهم من البأساء والضراء ما اعتراهم إلا لأجله.

﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ عطف على مقدر أي فانهمكوا فيه ونسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء فلما نسوه. ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ من فنون النعماء على منهاج الاستدراج. ﴿حتى﴾ ابتدائية ومع ذلك غاية لقوله فتحنا ﴿إذا فرحوا بما أوتوا﴾ أي: صاروا معجبين بحالهم. فالفرح فرح البطر كفرح قارون بما أصابه من الدنيا ﴿أخذناهم﴾ بالعذاب ﴿بغتة﴾ أي: فجأة ليكون أشد عليهم وقعاً وأفظع هولاً كما قال أهل المعاني إنهم إنما أخذوا في حال الراحة والرخاء ليكون أشد تحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية ﴿فإذا هم مبلسون﴾ متحسرون غاية الحسرة آيسون من كل خير راجون فإذا للمفاجأة. والإبلاس بمعنى اليأس من النجاة عند ورود المهلكة والمعنى الحسرة والحزن.

﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أي: آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد فالدابر يقال للتابع للشيء من خلفه كالولد للوالد يقال دبر فلان القوم يدبر دبراً ودبوراً إذا كان آخرهم.

قال البغوي: معناه أنهم استؤصلوا بالعذاب فلم يبق منهم باقية ووضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم، فإن هلاكهم بسبب ظلمهم الذي هو وضع الكفر موضع الشكر، وإقامة المعاصي مقام الطاعات. ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على إهلاكهم فإن هلاك الكفار

والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل العرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها لا سيما مع ما فيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم عليهم السلام.

وفي الآيات أمور. منها أن الله تعالى هو المرجع في كل أمر حال الاختيار والاضطرار، والعاقل لا يلتجىء إلى غيره تعالى؛ لأن ما سوى الله آلات وأسباب والمؤثر في الحقيقة هو الله تعالى فشأن المؤمن هو النظر إلى بابه والاستعداد من جنابه حال السراء والضراء بخلاف الكافر فإنه يفتح عينيه عند نزول الشدة والمقبول هو الرجوع اختياراً فإن العبد المطيع لا يترك باب سيده على كل حال. ومنها أن الله تعالى يقلب الإنسان تارة من البأساء والضراء إلى الراحة والرخاء وأنواع الآلاء والنعماء وأخرى يعكس الأمر كما يفعله الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى طلباً لصلاحه وإلزاماً للحجة وإزاحة للعلة ففي هذه المعاملة تربية له وفائدة عظيمة في دينه ودنياه إن تفطن: قال الصائب [من]:

نهاد سخت توسوهان بخرد نمى كيد وكرنه پست ويلند زمان سوهانست

ومنها أن الهلاك بقدر الاستدراج ونعوذ بالله تعالى من المكروه وفي الحديث: «إذا رأيت الله تعالى يعطي عبداً في الدنيا على معصية ما يحب فإن ذلك منه استدراج»، ثم قرأ ﷺ: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ الآية.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ أي: من البلاء في صورة النعماء لأرباب الظاهر بالنعمة الظاهرة من المال والجاه والقبول والصحة وأمثالها ولأرباب الباطن بالنعمة الباطنة من فتوحات الغيب وإراءة الآيات وظواهر الكرامات ورؤية الأنوار وكشف الأسرار والاشراف على الخواطر وصفاء الأوقات ومشاهدة الروحانية وأشباهها مما يربى به أطفال الطريقة فإن كثيراً من متوسطي هذه الطائفة تعتريهم الآفات في أثناء السلوك عند سآمة النفس من المجاهدات وملالتها من كثرة الرياضات فيوسوسهم الشيطان وتسول لهم أنفسهم أنهم قد بلغوا في السلوك رتبة قد استغنوا بها عن صحبة الشيخ وتسليم تصرفاته فيخرجون من عنده ويشرعون في الطلب على وفق أنفسهم فيقعون في ورطة الخذلان وسخرة الشيطان فيريهم الأشياء الخارقة للعادة وهم يحسبون أنها من نتائج العبادة وكان بعضهم يسير في البادية وقد أصابه العطش فانتهى إلى بئر فارتفع الماء إلى رأس البئر فرفع رأسه إلى السماء وقال أعلم أنك قادر ولكن لا أطيق هذا فلو قيضت لي بعض الأعراب يصفعني صفعاً ويسقيني شربة ماء كان خيراً لي ثم إني أعلم أن ذلك الرفق ليس من جهته.

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي قدس سره: من لم يكن كارهاً لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصي فهي حجاب في حقه وسترها عنه رحمة. ومنها أن العجب مذموم مهلك وفي الحديث «ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه».

مـرد مـعـجـب زاهـل ديـن نـبـود هـيـچ خـود بـيـن خـداي بـيـن نـبـود
بـيـخـبـر ازجـهـان ومـسـت يـكـيـسـت خـويشتـن بـين وبـت پـرست يـكـيـسـت

وعلاجه رؤية التوفيق من الله تعالى. ومنها أن النعمة لا بد لها من الحمد والشكر وفي الخبر الصحيح «أول من يدعى إلى الجنة الحامدون لله على كل حال» ولما حمد نوح عليه السلام بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وجد السلامة حيث قال

تعالى: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨] فلا بد من الحمد على السلامة سواء كانت من جهة الدين أو من جهة الدنيا إذ كل منهما نعمة.

ودخل رجل على سهل بن عبد الله فقال: إن اللص دخل داري وأخذ متاعي، فقال اشكر الله لو دخل اللص قلبك وهو الشيطان وأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع.

يقول الفقير جامع هذه المجالس الشريفة: سئلت في المنام عن معنى الحمد، فقلت: الحمد إظهار الكمال بتهيئة أسبابه، فقال السائل: وهو واحد من سادات المشايخ ما تهيئة الأسباب؟ فقلت: أن ترفع يديك إلى السماء وتنظر إلى جانب الملكوت وتظهر الخضوع والخشوع وأن تثني على الله تعالى ثناء حقاً كما ينبغي ثم استيقظت فجاء التفسير بحمد الله تعالى مشيراً إلى مراتب الشكر، كما قال بعضهم:

الشكر قيد للنعم ... مستلزم دفع النقم
وهو على ثلاثة ... قلب يد فاعلم وفم

والحمد لله تعالى ولي الإنعام على الاستمرار والدوام.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قل﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿أرأيتم﴾ أي: أخبروني أيها المشركون فإن الرؤية بصرية كانت أو علمية سبب الإخبار كما سبق ﴿إن أخذ الله سمعكم﴾ أي: أصمكم ﴿وأبصاركم﴾. أي أعمالكم بالكلية. ﴿وختم على قلوبكم﴾ بأن غطى عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم بحيث تصيرون مجانين. ﴿من إله غير الله﴾ من استفهامية مبتدأ وإله خبره وغير صفة له. ﴿يأتيكم به﴾ أي: بما أخذه منكم وهي صفة أخرى له والجملة متعلق الرؤية ومناط الاستخبار، أي: أخبروني إن سلب الله عنكم أشراف أعضائكم من أحد غير الله يأتيكم بها ومن المعلوم أنه لا يقدر عليه إلا الله سبحانه فهو المستحق للعبادة والتعظيم وهو احتجاج آخر على المشركين. ﴿انظر﴾ يا محمد وتعجب. ﴿كيف نصرف الآيات﴾ أي نكررها ونقررها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب تارة بترتيب المقدمات العقلية وتارة بطريق الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين.

قال الحدادي: التصريف توجيه المعنى في الجهات التي تظهرها أتم الإظهار ﴿ثم هم يصدفون﴾ أي يعرضون عنها فلا يؤمنون وثم لاستبعاد صدفهم، أي إعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للإقبال عليها.

﴿قل أرأيتكم﴾ أي: أخبروني أيها المشركون ﴿إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة﴾ أي: ليلاً أو نهاراً لما أن الغالب فيما أتى ليلاً البغتة أي الفجأة وفي ما أتى نهاراً الجهرة، وهو المناسب لما في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨] والقرآن يفسر بعضه بعضاً وهو اللائح بالبال. ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الاستفهام بمعنى النفي ومتعلق الاستخبار محذوف. أي: أخبروني إن أتاكم عذابه العاجل الخاص بكم بغتة أو جهرة

كما أتى من قبلكم من الأمم ماذا يكون الحال ثم قيل بياناً لذلك ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ أي: ما يهلك بذلك العذاب الخاص بكم إلا أنتم ووضع المظهر موضع المضمر إيذاناً بأن مناط هلاكهم ظلمهم الذي هو وضعهم للكفر موضع الإيمان.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ حالان مقدرتان من المرسلين، أي: ما نرسلهم إلا مقدراً تبشيرهم وإنذارهم ففيهما معنى العلة الغائية قطعاً، أي: لم نرسلهم لأن يقترح عليهم الآيات ويتلهى بهم بل لأن يبشروا قومهم بالثواب على الطاعة وينذروهم بالعقاب على المعصية التبشير الإخبار بالخبر السار والإنذار الإخبار بالخبر الضار. ﴿فمن آمن﴾ بهم ﴿وأصلح﴾ عمله أو دخل في الصلاح ﴿فلا خوف عليهم﴾ من العذاب الذي أنذروه دنيوياً كان أو أخروياً. ﴿ولا هم يحزنون﴾ بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والآجل.

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ وهي ما ينطق به الرسل عليهم السلام عند التبشير والإنذار ويبلغونه إلى الأمم. ﴿يمسهم العذاب﴾ الأليم وأسند المس إلى العذاب مع أن حقه أن يسند إلى الإحياء لكونه من الأفعال المسبوقة بالقصد، والاختيار على طريق الاستعارة بالكناية فجعل كأنه حي يطلب إيلامهم والوصول إليهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي: بسبب فسقهم المستمر الذي هو الإصرار على الخروج عن التصديق والطاعة.

وفي الآيات ترغيب وترهيب: وفي الكلمات القدسية «يا ابن آدم لا تأمن مكري حتى تجوز على الصراط» ـ روي ـ أن الله تعالى قال: يا إبراهيم ما هذا الوجل الشديد الذي أراه منك؟ فقال: يا رب كيف لا أوجل وآدم أبي كان محله القرب منك خلقته بيديك ونفخت فيه من روحك وأمرت الملائكة بالسجود له، فبمعصية واحدة أخرجته من جوارك، فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم أما عرفت أن معصية الحبيب على الحبيب شديدة وعن مالك بن دينار قال: دخلت جبانة البصرة فإذا أنا بسعدون المجنون فقلت كيف حالك. وكيف أنت؟ قال: يا مالك كيف يكون حال من أمسى وأصبح يريد سفراً بعيداً بلا أهبة ولا زاد ويقدم على رب عدل حاكم بين العباد، ثم بكى بكاء شديداً فقلت ما يبكيك؟ فقال: والله ما بكيت حرصاً على الدنيا ولا جزعاً من الموت والبلى، لكن بكيت ليوم مضى من عمري لم يحسن فيه عمل.

كارى كنيم ورنه خجالت بر آورد روزي كه رخت جان بجهان دكر كشيم

أبكاني والله قلة الزاد وبعد المفازة والعقبة الكؤود، ولا أدري بعد ذلك أصير إلى الجنة أم إلى النار فسمعت منه كلام حكمة، فقلت إن الناس يزعمون أنك مجنون فقال ما بي حنة ولكن حب مولاي خالط قلبي وأحشائي وجرى بين لحمي ودمي وعظامي.

دره منزل ليلى كه خطرهاست درو شرط أول قدم آنست كه مجنون باشى

كاروان رفت وتودرخواب وبيابان درپيش كى روى ره زكه پرسى چه كنى چون باشى

وعلى تقدير الزلة فليبادر العاقل إلى التوبة والاستغفار حتى يتخلص من عذاب الملك القهار كما قال تعالى: ﴿فمن آمن وأصلح فلا﴾ الخ ـ روي ـ أن الملائكة تعرج إلى السماء بسيئات العبد فإذا عرضوها على اللوح المحفوظ يجدون مكانها حسنات فيخرون على وجوههم

ويقولون ربنا إنك تعلم أننا ما كتبنا عليه إلا ما عمل فيقول الله تعالى صدقتم ولكن عبدي ندم على خطيئته واستشفع إليّ بدمعته فغفرت ذنبه وجدت عليه بالكرم وأنا أكرم الأكرمين فالإيمان وإصلاح العمل والندم على الزلل سبب النجاة في الدنيا والآخرة.

قال بعض الكبار: إن الإيمان والإسلام يمكن أن يكونا شيئاً واحداً في الحقيقة ولكن خص كل منهما بنوع مجاز عرفياً فكل ما كان فيه التصديق القلبي أطلق عليه الإيمان لوجود أصل معناه فيه كما لا يخفى.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قل﴾ يا محمد للكفرة الذين يقترحون عليك تارة تنزيل الآيات وأخرى غير ذلك ﴿لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أي: لا أدّعي أن خزائن مقدوراته تعالى مفوضة إليّ أتصرف فيها كيف أشاء استقلالاً واستدعاء حتى تقترحوا عليّ تنزيل الآيات أو إنزال العذاب أو قلب الجبال ذهباً أو غير ذلك مما لا يليق بشأني فالخزائن جمع خزينة بمعنى مخزونة.

قال الحدادي: وليس خزائن الله مثل خزائن العباد وإنما خزائن الله تعالى خزائن مقدوراته التي لا توجد إلا بتكوينه إياها ويجوز أن يكون جمع خزانة هي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه بحيث لا تناله الأيدي وكانوا يقولون إن كنت رسولاً من عند الله تعالى فوسع علينا منافع الدنيا وخيراتها، فالمعنى لا أدّعي أن مفاتيح الرزق بيدي فأقبض وأبسط ﴿ولا أعلم الغيب﴾ عطف على محل عندي خزائن الله ولا مزيدة مذكرة للنفي، أي: ولا أدعي أيضاً أني أعلم الغيب من أفعاله تعالى حتى تسألوني عن وقت الساعة أو وقت نزول العذاب أو نحوهما. ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ من الملائكة حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقة للعادات ما لا يطيق به البشر من الرقي إلى السماء ونحوه أو تعدوا عدم اتصافي بصفاتهم قادحاً في أمري كما ينبىء عنه قولهم ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]. والمعنى إني لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتى تقترحوا عليّ ما هو من آثارها وأحكامها وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التي لا تعلق لها بشيء مما ذكر قطعاً بل إنما هي عبارة عن تلقي الوحي من جهته عزّ وجل والعمل بمقتضاه فحسب حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿إن اتبع إلا ما يوحى إليّ﴾ أي: ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إليّ من غير أن يكون لي مدخل ما في الوحي أو في الموحى بطريق الاستدعاء أو بوجه آخر من الوجوه أصلاً والوحي ثلاثة. ما ثبت بلسان الملك والقرآن من هذا القبيل. وما ثبت بإشارة الملك من غير أن يبينه بالكلام وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «إن روح القدس نفث في روعي إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها». والثالث: ما تبدّى لقلبه أي ظهر لقلبه بلا شبهة إلهاماً من الله تعالى بأن أراه الله بنور من عنده كما قال: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وأبىٰ الأشعرية وأكثر المتكلمين أن يحكم عليه السلام بالاجتهاد كما تدل عليه الآية إذ ثبت بها أنه لا يتبع إلا الوحي.

والجواب: أنه جعل اجتهاده عليه السلام وحياً باعتبار المآل فإن تقريره عليه السلام على

اجتهاده يدل على أنه هو الحق كما إذا ثبت بالوحي ابتداء. ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ مثل للضال والمهتدي فإنه عليه السلام لما وصف نفسه بكونه متبعاً للوحي الإلهي لزم منه أن يصف نفسه بالاهتداء ويصف من عانده واستبعد دعواه بالضلال فالعمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى والعمل بمقتضى الوحي يجري مجرى عمل البصير. ﴿أفلا تتفكرون﴾ أي: ألا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون فيه فتهتدوا باتباع الوحي والعمل بمقتضاه فمناط التوبيخ عدم الأمرين معاً أي الاستماع والتفكر.

﴿وأنذر به﴾ أي: خوف من العذاب بما يوحى. ﴿الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ أي: يبعثوا ويجمعوا إلى ربهم، أي إلى موضع لا ملك أحد فيه نفعهم ولا ضرهم إلا الله تعالى، وقيل: يخافون يعلمون لأن خوفهم إنما كان من علمهم. ﴿ليس لهم من دونه ولي﴾ قريب ينفعهم ﴿ولا شفيع﴾ يشفع لهم وجملة النفي، أي: ليس في موضع الحال من ضمير يحشرون فإن المخوف هو الحشر على هذه الحال. وقوله: ﴿من دونه﴾ حال من اسم ليس أي: متجاوزاً لله تعالى والمراد بالموصول المؤمنون العاصون كما في أكثر التفاسير وإنما نفى الشفاعة لغيره مع أن الأنبياء والأولياء يشفعون كما هو مذهب أهل السنة لأنهم لا يشفعون إلا بإذنه فكانت الشفاعة في الحقيقة من الله تعالى.

وقال المولى أبو السعود رحمه الله: المراد بالموصول المجوزون من الكفار للحشر سواء كانوا جارمين بأصله كأهل الكتاب وبعض المشركين المعترفين بالبعث المترددين في شفاعة آبائهم الأنبياء كالأولين أو في شفاعة الأصنام كالآخرين، أو مترددين فيهما معاً كبعض الكفرة الذين يعلم من حالهم أنهم إذا سمعوا بحديث البعث يخافون أن يكون حقاً وأما المنكرون للحشر رأساً والقائلون به القاطعون بشفاعة آباهم أو بشفاعة الأصنام فهم خارجون ممن أمر بإنذارهم انتهى فالكلام على هذا ظاهر لأن الظالمين ليس لهم من حميم ولا شفيع يطاع. ﴿لعلهم يتقون﴾ تعليل للأمر، أي: أنذرهم لكي يتقوا الله بإقلاعهم عمّا هم فيه وعمل الطاعات أو يتقوا الكفر والمعاصي.

والإشارة أن الله تعالى أمر نبيه عليه السلام أن يكلم الكفار على قدر عقولهم فقال: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ على أنها عندي ولكن لا أقول لكم وهي علم حقائق الأشياء وماهياتها وقد كان عنده في إراءة ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] وفي إجابة قوله عليه السلام: «أرنا الأشياء كما هي» في قوله: «أوتيت جوامع الكلم» وما أمره الله تعالى إلا أن قل ليس عندي خزائن الله.

قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر: «ولا تبذر الأسرار» يعني: بيان الحقائق الذي هو غذاء القلب والروح كالسمراء، يعني: الحنطة للجسم «في أرض عميان» يعني: في أرض استعداد هؤلاء الطوائف الذين لا يبصرون الحق ولا يشاهدونه في جميع الأشياء كما في «شرح الفصوص» للمولى الجامي قدس سره: قال السعدي قدس سره:

دريغست باسفله كفت از علوم   كه ضايع شود تخم درشوره بوم

ولا أعلم الغيب فإنه ﷺ كان يخبر عما مضى وعما سيكون بإعلام الحق وقد قال عليه السلام ليلة المعراج: «قطرت في حلقي قطرة علمت ما كان وما سيكون» فمن قال: إن نبي الله لا يعلم الغيب فقد أخطأ فيما أصاب ولا أقول لكم إني ملك وإن كنت قد عبرت عن مقام

الملك حين قلت لجبرائيل تقدم فقال لو دنوت أنملة لأحرقت» كما قال السعدي قدس سره:

شبى برنشست ازفلك بركذشت — بتمكين وجاه ازملك دركذشت

جنان كرم درتيه قربت براند — كه درسدره جبريل ازوبازماند

إن أتبع إلا ما يوحى إلي، يعني: لا أخبركم عن مقاماتي وأحوالي مما لي مع الله وقد لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا عما يوحى إلي أن أخبركم وكيف أخبركم عما أعمى الله بصائركم عنه وأنا به بصير، فلا يستوي الأعمى والبصير، ثم قال وأنذر به، يعني: أخبر بهذه الحقائق والمعاني الذين يخافون أي يرجون أن يحشروا إلى ربهم بجذبات العناية ويتحقق لهم ليس لهم في الوصول إلى الله من دونه ولي يعني من الأولياء ولا شفيع يعني من الأنبياء لأن الوصول لا يمكن إلا بجذبات الحق لعلهم يتقون عما سوى الله بالله في طلب الوصول.

قال السري السقطي قدس سره: خرجت يوماً إلى المقابر فإذا ببهلول فقلت له أي شيء تصنع هنا؟ قال أجالس قوماً لا يؤذونني وإن غبت لا يغتابونني، فقلت له: تكون جائعاً فولّى وأنشأ يقول:

تجوع فإن الجوع من عمل التقي — وإن طويل الجوع يوماً سيشبع

قيل: مثل الصالحين وما زينهم الله به دون غيرهم مثل جند قال لهم الملك: تزينوا للعرض عليّ غداً فمن كانت زينته أحسن كانت منزلته عندي أرفع، ثم يرسل الملك في السر بزينة عنده ليس عند الجند مثلها إلى خواص مملكته وأهل محبته، فإذا تزينوا بزينة الملك فخروا سائر الجند عند العرض على الملك فهذا مثل من وفقهم الله تعالى للأعمال الصالحة والأحوال الزكية ولا حاجة لهم أن يصفوا ما عندهم إلى عامة الناس فإن علمهم بذلك كاف وسيظهر يوم العرض الأكبر وعند الكثيب الأحمر.

أولئك خدام كرام وسادة — ونحن عبيد السوء بئس عبيد

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ ـ روي ـ أن رؤساء قريش قالوا لرسول الله ﷺ حين رأوا في مجلسه الشريف فقراء المؤمنين مثل صهيب، وعمار، وخباب، وبلال، وسلمان وغيرهم لو طردت هؤلاء الأعبد وأرواح جبابهم، وكان عليهم جباب صوف لا غير لجالسناك وحادثناك فقال عليه السلام: «ما أنا بطارد المؤمنين» فقالوا فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا حتى يعرف العرب فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا مع هؤلاء فإذا قمنا عن مجلسك فأقعدهم معك إن شئت فهمّ عليه السلام أن يفعل ذلك طمعاً في إيمانهم فأنزل الله تعالى هذه الآية يعلمه أنه لا يحب أن تفضل غنياً على فقير ولا شريفاً على وضيع لأن طريقه فيما أرسل به الدين دون أحوال الدنيا. والطرد الإبعاد وبالفارسية [مران ازمجلس خود آن درويشانراكه ميخوانند پروردكار خودرا وذكراو ميكنند بامداد وشبانكاه] والمراد بذكر الوقتين الدوام ومن دام ذكره دام جلوسه مع الله كما قال: «أنا جليس من ذكرني» ﴿يريدون﴾ بذكرهم وعبادتهم ﴿وجهه﴾ تعالى ورضاه لا شيئاً من أغراض الدنيا. حال من ضمير يدعون أي يدعونه

تعالى مخلصين له وقيد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه ملاك الأمر.

عبادت بإخلاص نيت نكوست وكرته چه آيد زيى مغزيوست

وإشعاراً بأنه من أقوى موجبات الإكرام المنافي للإبعاد. ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ لما لم يقتصر المشركون في طعن فقراء المسلمين على وصفهم بكونهم موالي ومساكين بل طعنوا في إيمانهم أيضاً حيث قالوا يا محمد إنهم إنما اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لأنهم يجدون عندك مأكولاً وملبوساً بهذا السبب وإلا فهم عارون عن دينك والإيمان بك دفع الله تعالى ما عسى يتوهم كونه مسوغاً لطردهم من أقاويلهم فقال: ﴿ما عليك﴾ أي: ليس عليك إلا اعتبار ظاهر حالهم وهو اتسامهم بسمة المتقين وإن كان لهم باطن غير مرضي كما يقوله المشركون فمضرة حساب إيمانهم لا ترجع إلا إليهم لا إليك لأن المضرة المرتبة على حساب كل نفس عائدة إليها لا إلى غيرها فالمقصود منه دفع طعن الكفار وتثبيت رسول الله ﷺ على تربية الفقراء وإدنائهم، وضمير حسابهم، وعليهم للذين يدعون ربهم وكلمة (من) في قوله: ﴿من شيء﴾ زائدة وهو فاعل عليك وعليهم لاعتمادها على النفي ومن حسابهم ومن حسابك صفة لشيء ثم قدمت فصارت حالاً.

قال المولى أبو السعود: وذكر قوله تعالى: ﴿وما من حسابك عليهم من شيء﴾ مع أن الجواب قد تم بما قبله للمبالغة في بيان انتفاء كون حسابهم عليه عليه السلام بنظمه في سلك ما لا شبهة فيه أصلاً وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام عليهم على طريقة قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ﴿فتطردهم﴾ جواب النفي نحو ما تأتينا فتحدثنا بنصب فتحدث على أن يكون المعنى انتفاء التحديث لانتفاء سببه الذي هو الإتيان والآية الكريمة من هذا القبيل فإنه لو كانت مضرة حسابهم مستقرة على المخاطب لكان ذلك سبباً لإبعاد من يتوهم الوهن في إيمانه فحكم بأن هذا السبب غير واقع حتى يقع مسببه الذي هو الطرد. ﴿فتكون من الظالمين﴾ جواب النهي وهو ﴿ولا تطرد الذين﴾ الآية.

﴿وكذلك فتنا﴾ ذلك إشارة إلى مصدر ما بعده من الفعل الذي هو عبارة عن تقديمه تعالى لفقراء المؤمنين في أمر الدين بتوفيقهم للإيمان مع ما هم عليه في أمر الدنيا من كمال سوء الحال والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة والمعنى ذلك الفتون الكامل البديع فتنّا، أي: ابتلينا. ﴿بعضهم ببعض﴾ أي: بعض الناس ببعضهم لا فتوناً غيره حيث قدمنا الآخرين في أمر الدنيا على الأولين المتقدمين عليهم في أمر الدنيا تقدماً كلياً. ﴿ليقولوا﴾ اللام للعاقبة أي ليكون عاقبة أمرهم أن يقول البعض الأولون مشيرين إلى الآخرين محقرين لهم نظراً إلى ما بينهما من التفاوت الفاحش الدنيوي وتعامياً عما هو مناط التفضل حقيقة. ﴿أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا﴾ بأن وفقهم لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده تعالى من دوننا ونحن المتقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء وغرضهم بذلك إنكار وقوع المنّ رأساً على طريقة قولهم لو كان خيراً ما سبقونا إليه لا تحقير الممنون عليهم مع الاعتراف بوقوعه بطريق الاعتراض عليه تعالى.

قال الكلبي: إن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد أسلم قبله، استنكف وأنف أن يسلم وقال قد سبقني هذا بالإسلام فلا يسلم. ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ رد لقولهم ذلك وإبطال له أي أليس الله بأعلم بالشاكرين لنعمه حتى تستبعدوا إنعامه عليهم. وفيه إشارة إلى أن أولئك

الضعفاء عارفون لحق نعمة الله تعالى في تنزيل القرآن والتوفيق للإيمان شاكرون له تعالى على ذلك وتعريض بأن القائلين بمعزل من ذلك كله.

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ يعني: الفاضل بالمفضول والمفضول بالفاضل فليشكر الفاضل وليصبر المفضول فإن لم يشكر الفاضل فقد تعرض لزوال الفضل وإن صبر المفضول فقد سعى في نيل الفضل والمفضول الصابر يستوي مع الفاضل الشاكر كما كان سليمان في الشكر مع أيوب في الصبر، فإن سليمان مع كثرة صورة أعماله في العبودية كان هو وأيوب مع عجزه عن صورة أعمال العبودية متساويين في مقام نعم العبدية فقال لكل واحد منهما. ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠] ففتنة الفاضل للمفضول رؤية فضله على المفضول وتحقيره ومنع حقه عنه في فضله وفتنة المفضول في الفاضل حسده على فضله وسخطه عليه في منع حقه من فضله عنه فإنه انقطع بالخلق أو رأى المنع والعطاء من الخلق وهو المعطي والمانع لا غير.

فعلى العاقل أن يختار ما اختاره الله ولا يريد إلا ما يريده.

قال الكاشفي في «تفسيره» الفارسي: [در كشف الأسرار آورده كه ارادت برسه وجه است. اول ارادت دنياي محض كما قال تعالى ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧] ونشان آندوچيزاست در زيادتىء دنيا بنقصان دين راضى بودن واز درويشان ومسلمانان أعراض نمودن. ودوم ارادت آخرة محض كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩] وآنيزدو علامت دارد در سلامتىء دين بنقصان دنيا رضا دادن ودر مؤانست والفت بروى درويشان كشادن. سوم ارادت حق محض كما قال تعالى ﴿يريدون وجهه﴾ ونشان آن پاي برسر كونين نهادن است واز خود وخلق آزاد كشتن].

مارا خواهى خطى بعالم دركش در بحر فنا غرقه شو ودم دركش

فهم يريدون وجهه تعالى فكل يريدون منه وهم يريدونه ولا يريدون منه كما قيل:

وكل له سؤل ودين ومذهب ووصلكمو سؤلي وديني رضاكمو

وتكلم الناس في الإرادة فأكثروا وتحقيقها اهتياج يحصل في القلب يسلب القرار من العبد حتى يصل إلى الله تعالى فصاحب الإرادة لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً ولا يجد من دون وصوله إليه سكوتا ولا قراراً كما في «التأويلات النجمية».

وفي الآية الكريمة بيان فضل الفقراء: وعن أبي سعيد الخدري قال جلست في نفر من ضعفاء المهاجرين وكان بعضهم يستتر ببعض من العري وقارىء يقرأ علينا إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا فلما قام سكت القارىء فسلم رسول الله وقال: «ما كنتم تصنعون»؟ قلنا: يا رسول الله كان قارىء يقرأ علينا وكنا نستمع إلى كتاب الله تعالى فقال رسول الله: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم» قال: ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا ثم قال بيده: هكذا فتحلقوا وبرزت وجوههم له قال فما رأيت رسول الله عرف منهم أحداً غيري فقال: «أبشروا يا معاشر صعاليك المهاجرين بالفوز التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم»، وذلك مقدار خمسمائة سنة وفي الحديث: «يؤتى بالعبد الفقير يوم القيامة فيعتذر الله عز وجل إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا، فيقول: وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك عليّ ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة اخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف وانظر

إلى من أطعمك أو كساك وأراد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك والناس يومئذٍ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل به ذلك في الدنيا فيأخذه بيده ويدخل الجنة» قال الحافظ:

توانكرا دل درويش خود بدست آور ... كه مخزن زر وكنج ودرم نخواهدماند

برين رواق زبرجد نوشته اند بزر ... كه چزنكوى أهل كرم نخواهدماند

وفي الحديث: «لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حبّ المساكين والفقراء الصبر هم جلساء الله يوم القيامة» قال الشيخ العطار قدس سره:

حب دريشان كليد جنت است ... دشمن ايشان سزاى لعنت است

اللهم اجعلنا من الأحباب ولا تطردنا خارج الباب.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا﴾ ـ روي ـ أن قوماً جاؤوا إلى النبي عليه السلام، فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظاماً فما تدارك الاستغفار وتدبير الاعتذار فسكت عنهم ولم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا مأيوسين فنزلت.

قال الإمام كل من آمن بالله دخل هذا التشريف ﴿فقل سلام عليكم﴾ من كل مكروه وآفة والسلام بمعنى التسليم أي الدعاء بالسلامة فمعنى سلام عليكم سلمنا عليكم سلاماً أي دعوت بأن يسلمكم الله من الآفات في دينكم ونفسكم وإنما أمره بأن يبدأهم بالسلام مع أن العادة أن الجائي يسلم على القاعد حتى ينبسط إليهم بالسلام عليهم لئلا يحتشموا من الانبساط إليه هذا هو السلام في الدنيا، وأما في الآخرة فتسلم عليهم الملائكة عند دخول الجنة كقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] والله يبتدىء بالسلام عليهم بقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨] وقوله: ﴿فقل سلام عليكم﴾ يشير إلى السلام الذي سلمه الله على حبيبه عليه السلام ليلة المعراج إذ قال له: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» فقال في قبول السلام: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» والذي تاب من بعد ظلمه منتظم في سلك أهل الصلاح فمورد الآية لا ينافي هذا المعنى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أي: قضاها وأوجبها على ذاته المقدسة بطريق التفضل والإحسان.

قال ابن الشيخ: كلمة على تفيد الإيجاب وإذا اجتمعا تأكد الإيجاب وهو لا ينافي كونه تعالى فاعلاً مختاراً بل هو عبارة عن تأكيد وبيان لفضله وكرمه اهـ.

قال في «التأويلات النجمية»: قال في حديث رباني للجنة «إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي» فيرحم بجنته من شاء من عباده ويرحم بذاته من شاء من عباده ﴿أنه من عمل منكم سوءاً﴾ بدل من الرحمة والتقدير كتب على نفسه أنه من عمل إلخ فإن مضمون هذه الجملة لا شك أنه رحمة والسوء بالفارسية [كاربد]. ﴿بجهالة﴾ حال من فاعل عمل، أي: عمله ملتبساً بجهالة حقيقة بأن يفعله وهو لا يعلم ما يترتب عليه من المضرة والعقوبة أو حكماً بأن يفعله عالماً بسوء عاقبته فإن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو

ظانٌ فهو في حكم الجاهل فهو حال مؤكدة لأنها مقررة لمضمون قوله: ﴿من عمل سوءاً﴾ لأن عمل السوء لا ينفك عن الجهالة حقيقة أو حكماً.

قال أهل الإشارة: يشير بقوله ﴿منكم﴾ إلى أن عامل السوء صنفان، صنف منكم أيها المؤمنون المهتدون، وصنف من غيركم وهم الكفار الضالون، والجهالة جهالتان جهالة الضلالة وهي نتيجة أخطاء النور المرشش في عالم الأرواح وجهالة الجهولية وهي التي جبل الإنسان عليها فمن عمل من الكفار سوءاً بجهالة الضلالة فلا توبة له بخلاف من عمل سوءاً من المؤمنين بجهالة الجهولية المركوزة فيه فإن له توبة كما قال تعالى: ﴿ثم تاب﴾ أي رجع عنه ﴿من بعده﴾ أي: من بعد عمله. ﴿وأصلح﴾ أي: ما أفسده والإصلاح هو أن لا يعود ولا يفسد. ﴿فإنه﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: فأأره إن الله تعالى ﴿غفور﴾ له ﴿رحيم﴾ به.

قال الكاشفي في «تفسيره» الفارسي: [امام قشيري رحمه الله فرموده كه اكرملك برتوذلت مى نويسد ملك براى تو رحمت مى نويسد پس ترادو كتابت است يكى ازلى ويكي وقى مقررست كه كتابت وقتى كتابت ازلى را باطل نمى تواندساخت مضمون اين آيت شريف شفاست بيماران بيمارستان كناه را وشفا بشرط پرهيزست: يعني توبة واستغفار].

دردمــنــدان كــنــه را روزوشــب شــربــتــى بــهــتــر زاســتــغــفــار نــيــســت
آرزو مــنــدان وصــال يــاررا چــاره غــيــر از نــالــهــا وزارنــيــســت

﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ الكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده أي هذا التفصيل البديع نفصل الآيات القرآنية ونبينها في صفة أهل الطاعة وأهل الإجرام المصرين منهم والأوابين ليظهر الحق ويعمل به ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ أي تظهر طريقتهم فيجتنب عنها، ورفع سبيل على أنه فاعل فإنه يذكر في لغة بني تميم ويؤنث في لغة أهل الحجاز ووجه الاستبانة والإيضاح ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

فعلى العاقل أن يسلك طريق الفوز والفلاح ويصل إلى ما وصل إليه أهل الصلاح. وأول الطريق هو التوبة والاستغفار.

قال العلماء: تذكر أولاً قبح الذنوب وشدة عقوبة الله ثم تذكر ضعفك وقلة حيلتك في ذلك فمن لا يتحمل قرص نملة وحرّ شمس كيف يتحمل نار جهنم ولسع حيات فينبغي أن تجتهد في الخروج من الذنوب على أقسامها التي بينك وبين عباد الله بالاستحلال ورد المظالم، وأما التي هي من ترك الواجبات من صلاة وصيام وزكاة فتقضي ما أمكن منها، وأما التي بينك وبين الله كشرب الخمر وضرب المزامير وأكل الربا فتندم على ما مضى منها وتوطن قلبك على ترك العود إلى مثلها أبداً، فإذا أرضيت الخصوم بما أمكن وقضيت الفوائت بما تقدر عليه وبرأت قلبك من الذنوب فينبغي أن ترجع إليه بحسن الابتهال والضراعة ليكفيك ذلك بفضله فتذهب فتغتسل وتغسل ثيابك فتصلي ركعتين كما في الحديث الصحيح: «ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له»، وفي حديث آخر: «أيما عبد أو أمة ترك صلاته في جهالته فتاب وندم على تركها فليصل يوم الجمعة بين الظهر والعصر اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل منها الفاتحة وآية الكرسي والإخلاص والمعوذتين مرة لا يحاسبه الله تعالى يوم القيامة ووجد صحيفة سيئاته حسنات» ذكره في «مختصر الإحياء».

يقول الفقير جامع هذه الفوائد: إن هذا الحديث على تقدير صحته لا ينفهم منه أن هذه الصلاة تكون قضاء لجميع ما فات منه وتقوم بدله كيف؟ وقد ذكر في أوله التوبة والندامة ومن مقتضاها قضاء ما سلف كما مر آنفاً فمعنى إن الله تعالى لا يحاسبه يوم القيامة لا يقول له لم أخرت الصلاة التي فرضت عليك عن أوقاتها وذلك ببركة هذه الصلاة الشريفة التي هي تأكيد لتوبته وزيادة في اعتذاره وقد عرف في الشرع أن العبد كما يحاسب على ترك الصلوات كذلك يحاسب على تأخيرها عن أوقاتها وبهذا البيان انحل ما أشكل على بعض من مواظبة الناس على قضاء صلوات يوم وليلة في آخر جمعة من شهر رمضان بين الظهر والعصر فإن ما يصلونه هي الصلاة المذكورة عند الحقيقة لكنهم يغلطون في زعمهم وفي الكيفية والله أعلم.

وفي كتاب «الترغيب والترهيب»: أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال واذنوباه واذنوباه مرتين أو ثلاثاً فقال له عليه السلام «قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي»، فقالها ثم قال: «عد» فعاد، ثم قال: «عد» فعاد، ثم قال: «قم فقد غفر الله لك» ومن استغفر للمؤمنين كل يوم كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة وما الميت في قبره إلا كالغريق المنتظر ينتظر دعوة تلحقه من أب أو أم أو أخ صديق فإذا ألحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن الله تعالى ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب فإنك مرجع كل تواب وأواب.

﴿قل إني نهيت﴾ كان كفار قريش يدعونه عليه السلام إلى دين آبائه فنزلت أي صرفت وزجرت بما نصب لي من الأدلة وأنزل عليّ من الآيات في أمر التوحيد. ﴿أن أعبد الذين تدعون﴾ أي: عن عبادة ما تعبدونه. ﴿من دون الله﴾ كائناً ما كان. ﴿قل لا أتبع أهواءكم﴾ إشارة إلى الموجب للنهي كأنهم قالوا لم نهيت عما نحن فيه ولم تمتنع عن متابعتنا أجاب بأن ما أنتم عليه هوى وليس بهدى فكيف أتبع الهوى وأترك الهدى. ﴿قد ضللت إذاً﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت أي تركت سبيل الحق. ﴿وما أنا من المهتدين﴾ من الذين سلكوا طريق الهدى عطف على ما قبله.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿قل إني على بينة﴾ كائنة ﴿من ربي﴾ والبينة الحجة الواضحة التي تفصل بين الحق والباطل يقال أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه إذا كان ثابتاً عندك بحجة واضحة وشاهد صدق والمراد بها القرآن والوحي. ﴿وكذبتم به﴾ جملة مستأنفة سيقت للإخبار بذلك والضمير المجرور للتنبيه والتذكير باعتبار البيان والبرهان والمعنى إني على بينة عظيمة كائنة من ربي وكذبتم بها وبما فيها من الأخبار التي من جملتها الوعيد بمجيء العذاب. ﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾ ـ روي ـ أن رؤساء قريش كانوا يستعجلون العذاب بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥] بطريق الاستهزاء أو بطريق الإلزام حتى قام النضر بن الحارث في الحطيم وقال ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ

﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] والمعنى ليس ما تستعجلون به من العذاب الموعود في القرآن وتجعلون تأخره ذريعة لتكذيبي في حكمي وقدرتي حتى أجيء به وأظهر لكم صدقه أي ليس أمره بمفوض إليّ. ﴿إن الحكم﴾ أي ما الحكم في ذلك وغيره تعجيلاً وتأخيراً. ﴿إلا لله﴾ وحده من غير أن يكون لي دخل ما فيه بوجه من الوجوه. ﴿يقص الحق﴾ أي: يقول الحق ويتبعه في بيان جميع أحكامه ولايحكم إلا بما هو حق فتأخير العذاب حق ثابت جار على حكمة بليغة وأصل الحكم المنع فكأنه يمنع الباطل عن معارضة الحق أو الخصم عن التعدي على صاحبه. ﴿وهو خير الفاصلين﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله مشير إلى أن قص الحق ههنا بطريق خاص هو الفصل بين الحق والباطل ﴿قل لو أن عندي﴾ أي: في قدرتي ومكنتي. ﴿ما تستعجلون به﴾ من العذاب الذي ورد به الوعيد بأن يكون أمره مفوضاً إليّ من جهته عزّ وجل. ﴿لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ أي: بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم بقولكم متى هذا الوعد ونظائره، وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعين الفاعل الذي هو الله سبحانه وتهويل الأمر ومراعاة حسن الأدب ما لا يخفى. ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ أي: بحالهم وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب ولذلك لم يفوض الأمر إليّ فلم يقض الأمر بتعجيل العذاب فعابد الأصنام سواء أمهل أو لا يذوق العذاب ولا يتخلص منه أصلاً وكذا عابد الدنيا والنفس والشيطان والهوى فإن ذلك في نار الجحيم وهذا في نار الفراق العظيم. فعلى العاقل أن لا يتبع الهوى كما أمر الله تعالى فقال: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٦].

قال بعضهم جزت مرة ببلاد السواد فرأيت شيخاً جالساً في الهواء فسلمت عليه فرد السلام علي، فقلت له: بم جلست في الهواء؟ قال: خالفت الهوى فأسكنت في الهواء.

وجاء جماعة من فقهاء اليمن إلى الشيخ الكبير أبي الغيث قدس سره يمتحنونه في شيء فلما دنوا منه، قال: مرحباً بعبيد عبدي فاستعظموا ذلك فلحقوا شيخ الطريقين وإمام الفريقين العالم العارف أبا الذبيح إسماعيل بن محمد الحضرمي، فأخبروه بما قال الشيخ أبو الغيث لهم: فضحك الشيخ، وقال صدق الشيخ أنتم عبيد الهوى والهوى عبده وإنما يتخلص المرء من الهوى بالتقوى. وفي «المثنوي»:

چونكه تقوى بست دو دست هوا حق كشايد هردودست عقل را
پس حواس پيره محكوم توشد چون خرد سالار ومخدوم توشد

واعلم: أن الهوى من أوصاف النفس فالآيات متعلقة بإصلاح النفس، ومن كان على بينة من ربه، وهي في الحقيقة النور الذي ينشرح به الصدر يكون على الهدى لا على الهوى وله علامات كما لا يخفى ـ حكي ـ أن بعض الصالحين كان يتكلم على الناس ويعظهم فمر عليه في بعض الأيام يهودي وهو يخوفهم ويقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ [مريم: ٧١] فقال اليهودي: إن كان هذا الكلام حقاً فنحن وأنتم سواء فقال له الشيخ لا ما نحن سواء بل نحن نرد ونصدر وأنتم تردون ولا تصدرون ننجو نحن منها بالتقوى وتبقون أنتم فيها جثياً بالظلم ثم قرأ الآية الثانية ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧٢] فقال اليهودي: نحن المتقون، فقال له الشيخ كلا بل نحن وتلا قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فقال اليهودي: هات برهاناً على

صدق هذا فقال له الشيخ البرهان حاضر يراه كل ناظر وهو أن تطرح ثيابي وثيابك في النار فمن سلمت ثيابه فهو الناجي منها، ومن أحرقت ثيابه فهو الباقي فيها فنزعا ثيابهما فأخذ الشيخ ثياب اليهودي ولفها ولف عليها ثيابه ورمى الجميع في النار ثم دخل النار فأخذ الثياب ثم خرج من الجانب الآخر ثم فتحت الثياب فإذا ثياب الشيخ المسلم سالمة بيضاء قد نظفتها النار وأزالت عنها الوسخ، وثياب اليهودي قد صارت حراقة مع أنها مستورة وثياب الشيخ المسلم ظاهرة للنار فلما رأى ذلك أسلم والحمد لله فهذه الحكاية مناسبة لما ذكر من الآيات إذ كفار قريش كانوا من أهل الظلم والهوى فلم ينفعهم دعواهم فصاروا إلى العذاب والمؤمنون كانوا من أهل العدل والبينة والهدى فأنتج تقواهم ووصلوا إلى جنات مفتحة لهم الأبواب ومن سلم لباسه من النار سلم وجوده بالطريق الأولى بل الثوب في الحقيقة هو الوجود الظاهري الذي استتر به الروح الباطني فلا بد من تطهيره المؤدي إلى تطهير الباطن يسره الله.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

﴿**وعنده**﴾ أي الله تعالى خاصة. ﴿**مفاتح الغيب**﴾ أي: خزائن غيوبه، جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن والكنز والإضافة من قبيل لجين الماء وهو المناسب للمقام كما في «حواشي سعدي چلبي» المفتي ويجوز أن يكون جمع مفتح بكسر الميم وهو المفتاح أي آلة الفتح فالمعنى ما يتوصل به إلى الغيب شبه الغيب بالخزائن المستوثق بها بالأقفال وأثبت لها مفاتح على سبيل التخييل ولما كان عنده تلك المفاتح كان المتوصل إلى ما في الخزائن من المغيبات هو لا غير كما في «حواشي ابن الشيخ» ﴿**لا يعلمها إلا هو**﴾ تأكيد لمضمون ما قبله.

قال في «تفسير الجلالين»: وهي الخمسة التي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية رواه البخاري قال رسول الله ﷺ: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا يدري بأي أرض تموت النفس إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله». ﴿**ويعلم ما في البر والبحر**﴾ من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثير أفرادها وهو بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملة له وتنبيهاً عن أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء في الجلاء ﴿**وما تسقط من**﴾ زائدة ﴿**ورقة إلا يعلمها**﴾ يريد ساقطة وثابتة، يعني: يعلم عدد ما يسقط من ورق الشجر وما يبقى عليه وهي مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات. ﴿**ولا حبة**﴾ عطف على ورقة وهي بالفارسية [دانه]. ﴿**في ظلمات الأرض**﴾ أي: كائنة في بطونها لا يعلمها.

قال الكاشفي: [مراد تخميست كه در زمين افتد]. ﴿**ولا رطب**﴾ عطف على ورقة أيضاً وهو بالفارسية [تر]. ﴿**ولا يابس**﴾ بالفارسية [خشك]، أي: ما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا يعلمه.

قال الحدادي: الرطب واليابس عبارة عن جميع الأشياء التي تكون في السموات وفي الأرض لأنها لا تخلو من إحدى هاتين الصفتين انتهى فيختصان بالجسمانيات إذ الرطوبة واليبوسة من أوصاف الجسمانيات. ﴿**إلا في كتاب مبين**﴾ هو اللوح المحفوظ فهو بدل اشتمال

من الاستثناء الأول أو هو علمه تعالى فهو بدل منه بدل الكل. وقرىء ولا رطب ولا يابس بالرفع على الابتداء والخبر إلا في كتاب وهو الأنسب بالمقام لشمول الرطب واليابس حينئذٍ لما ليس من شأنه السقوط.

قال الحدادي: فإن قيل ما الفائدة في كون ذلك في اللوح مع أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء وإن كان عالماً بذلك قبل أن يخلقه وقبل أن يكتبه لم يكتبها ليحفظها ويدرسها؟ قيل: فائدته أن الحوادث إذا حدثت موافقة للمكتوب ازدادت الملائكة بذلك علماً ويقيناً بعظيم صفات الله تعالى.

يقول الفقير: إن الملائكة ليست من أهل الترقي والتنزل فقصر الفائدة على ذلك مما لا معنى له بل نقول إن اللوح قلب هذا التعين كقلب الإنسان قد انتقش فيه ما كان وما سيكون وهو من مراتب التنزلات فقد ضبط الله فيه جميع المقدورات الكونية لفوائد ترجع إلى العباد يعرفها العلماء بالله. قال الحافظ:

معرفت نيست درين قوم خدايا سببى   تابرم كوهر خودرا بخريدار ديكر

والإشارة في الآية أن الله تعالى جعل لكل شيء من المكونات شهادة تناسب ذلك الشيء وغيباً مناسباً له وجعل لغيب كلّ مفتاحاً يفتح به باب غيب ذلك الشيء وشهادته فينفعل ذلك الشيء كما أراده الله في الأزل وقدره. ﴿وعنده مفاتح﴾ذلك ﴿الغيب لا يعلمها إلا هو﴾لأنه لا خالق إلا هو ليس لنبي ولا لولي مدخل في علم هذه المفاتح ولا في استعمالها لأنه مختص بالخالق فقط، وسأضرب لك مثلاً تدرك به هذه الحقيقة وذلك مثل نقاش للصورة فإن لكل صورة مما ينقشه شهادة هي هيئتها وغيباً هو علم التصوير، ومفتاحاً يفتح به باب علم التصوير على هيئة الصورة لتنفعل الصورة كما هي ثابتة في ذهن النقاش هو القلم والقلم بيد النقاش لا مدخل لتصرف غيره فيه، فالله تعالى هو النقاش المصور والصور هي المكونات المختلفة الغيبية والشهادية وشهادة كل صورة منها خلقتها وتكوينها وقلم تصويرها الذي هو مفتاح يفتح به باب علم تكوينها على صورتها وكونها هو الملكوت فبقلم ملكوت كل شيء يكون كون كل شيء وقلم الملكوت بيد الله تعالى كما قال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس: ٨٣] وكما أن الأشياء مختلفة فالملكوتيات مختلفات وملكوت كل شيء من الجمال والنبات والحيوان والإنسان والملك مناسب لصورته ولهذا جمع المفاتح ووحّد الغيب. وقال: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾لأن الغيب هو علم التكوين وهو واحد في جميع الأشياء وفي الملكوت كثرة كما في أقلام المصور فافهم جداً. ﴿و﴾بعلم التكوين ﴿يعلم ما في البر والبحر﴾لأن به كوّن البر وهو عالم الشهادة والصورة والبحر وهو عالم الغيب والملكوت يدل على هذا المعنى قوله لا عالم الغيب والشهادة ﴿و﴾بهذا العلم ﴿ما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾لأنه مكونها ومثبتها ومسقطها ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾أي: حبة الروح في ظلمات صفات أرض النفس وأيضاً ولا حبة في ظلمات الأرض أي: أرض القلب وظلمات صفات البشرية إلا وهو ركبها ويعلم كمالها ونقصانها ﴿ولا رطب ولا يابس﴾الرطب هو الموجود في الحال واليابس هو المعدوم في الحال وسيكون موجوداً. وأيضاً الرطب الروحانيات واليابس الجماديات وأيضاً الرطب المؤمن واليابس الكافر. وأيضاً الرطب العالم واليابس الجاهل. وأيضاً الرطب العارف واليابس الزاهد. وأيضاً الرطب أهل المحبة واليابس أهل السلوة. وأيضاً الرطب صاحب

الشهود واليابس صاحب الوجود. وأيضاً الرطب الباقي بالله واليابس الباقي بنفسه. ﴿إلا في كتاب مبين﴾ وهو أم الكتاب كذا في «التأويلات النجمية» قدس سره مؤلفها العزيز الشريف.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ الخطاب عام للمؤمن والكافر أي ينيمكم في الليل ويجعلكم كالميت في زوال الاحساس والتمييز ومن هنا ورد «النوم أخ الموت» والتوفي في الأصل قبض الشيء بتمامه، وعن علي رضي الله عنه: «يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد فبذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عادت الروح إلى الجسد بأسرع من لحظة، يعني: إن الذي يرى الرؤيا هو الروح الإنساني وإنه يرى في عالم البرزخ ما صدر عن الروح الحيواني من القبيح والحسن وهو ظل الروح الإنساني والتعبير بالحيواتي والإنساني اصطلاح الحكماء وأما أهل السلوك فيعبرون عنها بالروح وتنزله. ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي: ما كسبتم فيه وجوارح الإنسان أعضاؤه التي يكسب بها الأعمال خص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على العادة. ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ أي: يوقظكم في النهار عطف على يتوفاكم وتوسيط قوله ويعلم بينهما لبيان ما في بعثهم من عظيم الإحسان إليهم بالتنبيه على أنه بعد علم ما يكتسبونه من السيئات مع كونها موجبة لإبقائهم على التوفي بل لإهلاكهم بالمرة يفيض عليهم الحياة ويمهلهم كما ينبىء عنه كلمة التراخي كأنه قيل هو الذي يتوفاكم في جنس الليل ثم يبعثكم في جنس النهار مع علمه بما ستجرحون فيه. ﴿ليقضى أجل مسمى﴾ أي: ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا وقضاء الأجل فصل الأمر على سبيل التمام فمعنى قضاء الأجل فصل مدة العمر من غيرها بالموت والأجل آخر مدة الحياة. ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ أي: رجوعكم بالموت لا إلى غيره أصلاً. ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ بالمجازاة بأعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيام.

﴿وهو القاهر﴾ مستعلياً ﴿فوق عباده﴾ أي: المتصرف في أمورهم لا غيره يفعل بهم ما يشاء إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة وتعذيباً وإثابة إلى غير ذلك، ويجوز أن يكون فوق خبراً بعد خبر وليس معنى فوق معنى المكان لاستحالة إضافة الأماكن إلى الله تعالى وإنما معناه الغلبة والقدرة ونظيره فلان فوق فلان في العلم أي أعلم منه. وفي «المثنوي»:

دست شد بالاى دست اين تاكجا — تا بيزدان كه اليه المنتهى
كان يكى درياست بى غور وكران — جمله درياها چو سيلى پيش لآن
حيلها وچارها كرازد هاست — پيش إلا الله آنها جمله لاست

﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ عطف على الجملة الاسمية قبلها أي يرسل عليكم خاصة أيها المكلفون ملائكة تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون والحكمة فيه أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان أزجر عن المعاصي وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه. قال الكاشفي:

نه انديشي ازان روزيكه دروى چكرها خون ودلها ريش بيني
دهندت نامۀ أعمال وكويند بخوان تاكردهاى خويش بيني
مكن ورميكني بارى دران كوش كه اندر نامه نيكى پيش بيني

ورد في الخبر «أن على كل واحد منا ملكين بالليل وملكين بالنهار يكتب أحدهما الحسنات والآخر السيئات وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد حسنة كتبت له بعشر أمثالها وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتب قال له صاحب اليمين أمسك فيمسك عنه ست ساعات أو سبع ساعات فإن هو استغفر الله لم يكتب عليه وإن لم يستغفر كتب سيئة واحدة».

فإن قلت: هل تعرف هؤلاء الملائكة العزم الباطن كما يعرفون الفعل الظاهر.

قلت: نعم لأن الحفظة تنتسخ من السفرة وهي من الخزنة التي وكلت باللوح وقد كتب فيه أحوال العوالم وأهاليها من السرائر والظواهر فبعد وقوفهم على ذلك يكتبون ثانياً من أول اليوم إلى آخره ومن أول الليل إلى آخره حسبما يصدر عن الإنسان.

وقيل: إذا همّ العبد بحسنة فاح من فيه رائحة المسك فيعلمون بهذه العلامة فيكتبونها وإذا همّ بسيئة فاح منه ريح النتن.

فإن قلت والملائكة التي ترفع عمل العبد في اليوم أهم الذين يأتون غداً أم غيرهم.

قلت قال بعض العلماء الظاهر أنهم هم وأن ملكي الإنسان لا يتغيران عليه ما دام حياً.

وقال بعض المشايخ: من جاء أنهم لا يرجع أبداً مرة أخرى ويجيء آخرون مكانهم إلى نفاد العمر واختلف في موضع جلوس الملكين وفي الخبر النبوي: «نقوا أفواهكم بالخلال فإنها مجلس الملكين الكريمين الحافظين، وإن مدادهما الريق وقلمهما اللسان، وليس عليهما شيء أمرّ من بقايا الطعام بين الأسنان» ولا يبعد أن يوكل بالعبد ملائكة سوى هذين الملكين كل منهم يحفظه من أذى كما جاء في الروايات. ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت﴾ حتى هي التي يبتدأ بها الكلام وهي مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها كأنه قيل ويرسل عليكم حفظة يحفظون أعمالكم مدة حياتكم حتى إذا انتهت مدة أحدكم كائناً من كان وجاءه أسباب الموت ومباديه. ﴿توفته رسلنا﴾ الآخرون المفوض إليهم ذلك وهم ملك الموت وأعوانه وانتهى هناك حفظ الحفظة ﴿وهم﴾ أي: الرسل. ﴿لا يفرطون﴾ أي: لا يقصرون فيما يؤمرون بالتواني والتأخير طرفة عين.

واعلم: أن القابض لأرواح جميع الخلق هو الله تعالى حقيقة، وأن ملك الموت وأعوانه وسائط ولذلك أضيف التوفي إليهم وقد يكون التوفي بدون وساطتهم كما نقل في وفاة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وغيرها، وأعوان ملك الموت أربعة عشر ملكاً: سبعة منها ملائكة الرحمة وإليهم يسلم روح المؤمن بعد القبض، وسبعة منهم ملائكة العذاب وإليهم يسلم روح الكافر بعد الوفاة.

قال مجاهد: قد جعلت الأرض لملك الموت كالطشت يتناول من حيث يشاء.

يقول الفقير: ليس على ملك الموت صعوبة في قبض الأرواح وإن كثرت وكانت في أمكنة مختلفة وكيفية لا تعرف بهذا العقل الجزئي كما لا تعرف كيفية وسوسة الشيطان في قلوب جميع أهل الدنيا - روي - في الخبر أن رسول الله دخل على مريض يعوده فرأى ملك

الموت عند رأسه فقال: «يا ملك الموت ارفق به فإنه مؤمن، فقال ملك الموت: يا محمد أبشر وطب نفساً وقرّ عيناً فإني بكل مؤمن رفيق إني لأقبض روح المؤمن فيصرخ أهله فأعتزل في جانب الدار فأقول ما لي من ذنب وإني مأمور وإن لي لعودة فالحذر الحذر وما من أهل بيت مدر ولا وبر في بر ويحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات، حتى إني لأعلم بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم والله لو أردت أن أقبض روح بعوضة لما قدرت عليها حتى يأمرني الله تعالى بقبضها».

قال العلماء: الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار ولما خلق الله الموت على صورة كبش أملح قال له اذهب إلى صفوف الملائكة على هيئتك هذه فلم يبق ملك إلا غشي عليه ألف عام ثم أفاقوا فقالوا يا ربنا ما هذا قال الموت قالوا لمن ذلك قال على كل نفس قالوا لم خلقت الدنيا قال ليسكنها بنو آدم قالوا لم خلقت النساء؟ قال: ليكون النسل، قالوا: من يسلط عليه هذا هل يشتغل بالنساء والدنيا قال إن طول الأمل ينسيهم الموت حتى يكون منهم أخذ الدنيا وشهوة النساء ولذلك قيل الموت من أعظم المصائب وأعظم منه الغفلة عنه.

﴿ثم ردوا﴾ عطف على توفته والضمير للكل المدلول عليه بأحدكم، أي: ردوهم الملائكة بعد البعث ﴿إلى الله﴾ أي: إلى حكمه وجزائه في موقف الحساب فالرد إلى الله ليس على ظاهره لكونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة بل هو عبارة عن جعلهم منقادين لحكم الله تعالى مطيعين لقضائه بأن يساقوا إلى حيث لا مالك ولا حاكم فيه سواه. ﴿مولاهم﴾ أي: مالكهم الذي يملك أمورهم على الإطلاق، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ١١] فالمولى فيه بمعنى الناصر فلا تناقض وهو بدل من الجلالة ﴿الحق﴾ الذي لا يقضي إلا بالعدل وهو صفة للمولى. ﴿ألا﴾ أي: اعلموا وتنبهوا ﴿له الحكم﴾ أي القضاء بين العباد يومئذٍ لا حكم لغيره فيه بوجه من الوجوه. ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ يحاسب جميع الخلائق في أسرع زمان وأقصره، لا يشغله حساب عن حساب، ولا شأن عن شأن لا يتكلم بآلة، ولا يحتاج إلى فكرة ورؤية وعقد يد ومعنى المحاسبة تعريف كل واحد ما يستحقه من ثواب وعقاب.

قال بعض العلماء: المحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها فيقدم الحساب على الميزان ولهذا لا ميزان لمن يدخل الجنة بلا حساب.

واعلم: أن الحشر والحساب لا يكون على وجه الأرض وإنما يكون في الأرض المبدلة وهي أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم ولم يظلم عليها أحد فإذا ثبت الحشر والحساب، وأن الله تعالى هو المحاسب وجب على العاقل أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش في الحساب لأنه هو التاجر في طريق الآخرة وبضاعته عمره وربحه صرف عمره في الطاعات والعبادات، وخسرانه صرفه في المعاصي والسيئات ونفسه شريكه في هذه التجارة، وهي وإن كانت تصلح للخير والشر لكنها أميل وأقبل إلى المعاصي والشهوات فلا بد له من مراقبتها ومحاسبتها. قال السعدي قدس سره:

توغافل درانديشهٔ سود ومال ... كه سرمايهٔ عمر شد بايمال

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿قل﴾ يا محمد لأهل مكة. ﴿من﴾ استفهام ﴿ينجيكم﴾ أي: يخلصكم ويعطي لكم نجاة﴿من ظلمات البر والبحر﴾ من شدائدهما وأهوالهما في أسفاركم استعيرت الظلمة للمشقة لمشاركتهما في الهول وإبطال الإبصار فقيل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أي: اشتدت ظلمته حتى صار كالليل في ظلمته بناء على أن الليل إذا لم يستنر بنور القمر ظهرت الكواكب صغارها وكبارها وكلما اشتدت ظلمته اشتد ظهور الكواكب. ﴿تدعونه تضرعاً وخفية﴾ أي: معلنين ومسرّين على أن يكون تضرعاً وخفية مصدرين في موضع الحال من فاعل تدعونه وتدعون حال من فاعل ينجيكم أي داعين إياه تعالى والتضرع إظهار الضراعة وهي شدة الفقر والحاجة إلى الشيء. ﴿لئن أنجانا﴾ حال من فاعل تدعون أيضاً على إرادة القول أي تدعونه قائلين والله لئن خلصنا. ﴿من هذه﴾ الظلمات والشدائد ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ أي: الراسخين في الشكر المداومين عليه لأجل هذه النعمة. والشكر الاعتراف بالنعمة مع القيام بحقها وحق نعمة الله أن يطاع منعمها ولا يعصى فضلاً عن أن يشرك به ما لا يقدر على شيء أصلاً.

﴿قل﴾ لهم ﴿الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ أي: غم سواها والكرب غاية الغم الذي يأخذ بالنفس ﴿ثم أنتم﴾ بعد ما تشاهدون من هذه النعم الجليلة ﴿تشركون﴾ بعبادته تعالى غيره، والمناسب لقولهم ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ أن يقال: ثم أنتم لا تشكرون، أي: لا تعبدون لكن وضع تشركون موضعه تنبيهاً على أن الإشراك بمنزلة ترك الشكر رأساً.

﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً﴾ لأجل إشراككم ﴿من فوقكم﴾ أي: عذاباً كائناً من جهة الفوق كما فعل بقوم نوح عليه السلام بحيث أهلكهم بأن أرسل عليهم الطوفان والصاعقة والريح والصيحة وأهلك قوم لوط وأصحاب الفيل بأن أمطر عليهم حجارة. ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ أي: من جهة السفل كما أغرق فرعون وخسف بقارون. وقيل من فوقكم ملوككم وأكابركم ورؤساؤكم ومن تحت أرجلكم عبيدكم السوء وسفلتكم وسفهاؤكم وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع فلا منع لما كان من الجهتين معاً كما فعل بقوم نوح ﴿أو يلبسكم﴾ من لبست عليه الأمر أي خلطته من باب ضرب وأما لبست الثوب فمن باب علم ومصدر الأول اللبس بالفتح والثاني بالضم والمعنى أو يخلطكم ﴿شيعاً﴾ منصوب على أنه حال من مفعول يلبسكم هو جمع شيعة كسدرة وسدر. والشيعة كل قوم اجتمعوا على أمر أي يخلطكم حال كونكم فرقاً متجزئين على أهواء شتى ومذاهب مختلفة كل فرقة مشايعة لإمام فينشب بينكم القتال أي يهيج ويظهر فهذا الخلط هو خلط اضطراب لا خلط اتفاق. ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ يقاتل بعضكم بعضاً ومن سنة الله تعالى أن يذيق الكافرين بأس المؤمنين وبالعكس وأن يذيق بعض الكافرين بأس بعض وبعض المؤمنين بأس بعضهم كما هو في أكثر الأزمان والأعصار على حسب التربية المبنية على جماله وجلاله تعالى وفي الحديث: «سألت ربي ثلاثاً

فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها فسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» أراد بالسنة قحطاً يعم أمته وبالغرق بفتح الراء ما يكون على سبيل العموم كطوفان نوح عليه السلام.

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي البروسي: تأثير طوفان نوح عليه السلام يظهر في كل ثلاثين سنة مرة واحدة لكن على الخفة فيقع مطر كثير ويغرق بعض القرى والبيوت من السيل اهـ. كلامه وأراد عليه السلام بالبأس الحرب والفتن وفي الحديث: «فناء أمتي بالطعن والطاعون» وفي آخر: «إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع منها إلى يوم القيامة» وفيه معجزة للنبي عليه السلام حيث كان الأمر كما أخبره. والبأس الشدة في الحرب، وسبب دخول البأس عدم حكم الأئمة بكتاب الله تعالى وسبب تسلط العدو نقض عهد الله وعهد رسوله كما جاء في بعض الأحاديث. ﴿انظر﴾ يا محمد ﴿كيف نصرف﴾ لهم ﴿الآيات﴾ القرآنية من حال إلى حال بالوعد والوعيد أي نبين لهم آية على أثر آية ونوردها على وجوه مختلفة من أول السورة إلى هنا. ﴿لعلهم يفقهون﴾ كي يفقهوا ويقفوا على جلية الأمر فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وكذب به﴾ أي بالعذاب الموعود أو القرآن المجيد الناطق بمجيئه. ﴿قومك﴾ أي: المعاندون منهم ﴿وهو الحق﴾ أي والحال أن ذلك العذاب واقع لا محالة أو أنه الكتاب الصادق في كل ما نطق. ﴿قل﴾ لهم ﴿لست عليكم بوكيل﴾ بحفيظ وكل إلى أمركم لأمنعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق إنما أنا منذر وقد خرجت من العهدة حيث أخبرتكم بما سترونه.

﴿لكل نبأ﴾ أي: خبر من أخبار القرآن ﴿مستقر﴾ اسم زمان أي: وقت يقع فيه ويستقر زمن عذابكم. ﴿وسوف تعلمون﴾ عند وقوعه في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً.

فعلى العاقل أن يتضرع إلى الله تعالى في دفع الشدائد ولا يصرّ على ذنبه فإنه سبب للابتلاء وكل ظلمة إنما تجيء من ظلمات النفس الأمارة، كما قال في «المثنوي»:

هـر چـه بـرتـو آيـد از ظـلـمـات غـم آن زبـی شـرمـی وكـسـتـاخـیـست هـم

قال الصائب:

چرازغير شكايت كنم كه همچو حباب هميشه خانه خراب هواي خويشتنم

والإشارة: أن البر هو الأجسام والبحر هو الأرواح فالأرواح وإن كانت نورانية بالنسبة إلى الأجسام لكن بالنسبة إلى الحق ونور ألوهيته ظلمانية، كما قال عليه السلام: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره» فمعناه إذا خلقتكم في ظلمة الخلقية فمن ينجيكم من ظلمات بر البشرية وظلمات بحر الروحانية إذ تدعونه تضرعاً، أي: بالجسم وخفية أي بالروح.

﴿لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ حين تجلى لكم نور من أنوار صفاته فبعضكم يشرك ويقول أنا الحق وبعضكم يقول سبحاني ما أعظم شأني ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم﴾ حين تقولون أنا الحق وسبحاني. ﴿عذاباً من فوقكم﴾ بأن يرخي حجاباً بينه وبينكم يعذبكم به عزة وغيرة. ﴿أو من

﴿تحت أرجلكم﴾ أي: حجاباً من أوصاف بشريتكم باستيلاء الهوى عليكم. **﴿أو يلبسكم شيعاً﴾** يجعل الخلق فيكم فرقاً فرقة يقولون هم الصديقون وفرقة يقولون هم الزنادقة. **﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾** بالقتل والصلب وقطع الأعراق كما فعل بابن منصور.

قالوا: وكان قد جرى من الحلاج قدس سره كلام في مجلس حامد بن عباس وزير المقتدر بحضرة القاضي أبي عمر فأفتى بحل دمه وكتب خطه بذلك، وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء، وقال له الحلاج: ظهري حمى ودمي حرام وما يحل لكم أن تتأولوا عليّ بما يبيحه وإنما اعتقادي الإسلام ومذهبي السنة وتفضيل الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين وبقية العشرة من الصحابة رضي الله عنهم ولي كتب في السنة موجودة في الوراقين فالله الله في دمي ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون خطوطهم إلى أن استكملوا ما احتاجوا إليه وانفضوا من المجلس وحمل الحلاج إلى السجن وكتب الوزير إلى المقتدر يخبره بما جرى في المجلس، فعاد جواب المقتدر بأن القضاة إذا كانوا قد أفتوا بقتله فليسلم إلى صاحب الشرطة وليتقدم بضربه ألف سوط فإن مات، وإلا فيضرب ألف سوط آخر، ثم ليضرب عنقه فسلمه الوزير إلى الشرطي، وقال له: ما رسم به المقتدر وقال أيضاً إن لم يتلف بالضرب يقطع يده ثم رجله ثم يحز رأسه وتحرق جثته وإن خدعك وقال لك: أنا أجري لك الفرات ودجلة ذهباً وفضة فلا تقبل منه ذلك ولا ترفع العقوبة عنه فتسلمه الشرطي ليلاً، وأصبح يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة من سنة تسع وثلاثمائة، فأخرجه إلى باب الطاق وهو يتبختر في قيوده واجتمع من العامة خلق لا يحصى عددهم وضربه الجلاد ألف سوط، ولم يتأوه ولما فرغ من ضربه قطع أطرافه الأربعة ثم حزّ رأسه ثم أحرقت جثته ولما صار رماداً ألقاه في دجلة ونصب الرأس ببغداد على الجسر وادّعى بعض أصحابه أنه لم يقتل ولكن ألقي شبهه على عدو من أعداء الله تعالى كما وقع في حق عيسى عليه السلام والأولياء ورثة الأنبياء.

يقول الفقير: لهذا التشبيه والتخييل نظائر في حكايات المشايخ يجدها من تتبع ومرادي بيان جوازه لا اعتقاد أنه كان كذلك.

فإن قلت من حق ولاية الحلاج أن لا يحترق ولا يكون رماداً؟

قلت: ذلك غير لازم فإن الأجساد مشتركة في قبول العوارض والآفات ألا ترى إلى حال أيوب ويحيى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام وقد ذكر أهل التفسير في أصحاب الرس أنهم قتلوا الأنبياء المبعوثين إليهم وأكلوا لحومهم تمرداً وعناداً ورسوا بئرهم بعظامهم نعم قد يكون في هذه النشأة أمور خارجة عن العادة خارقة كأحوال بعض الأنبياء والأولياء الذين قتلوا مثلاً ثم أحياهم الله تعالى وأما في القبر فقد ثبت أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ومن يليهم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ إذا منصوب بجوابه وهو فأعرض والمراد بالخطاب النبي عليه السلام وأمته. والخوض في اللغة الشروع في الشيء مطلقاً إلا أنه غلب في الشروع في الشيء الباطل والآيات القرآن. والمعنى إذا رأيت الذين يشرعون في القرآن بالتكذيب والاستهزاء به والطعن فيه كما هو دأب كفار قريش **﴿فأعرض عنهم﴾** بترك مجالستهم

والقيام عنهم عند خوضهم في الآيات. ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي استمر على الإعراض إلى أن يشرعوا في حديث غير آياتنا فالضمير إلى الآيات والتذكير باعتبار كونها حديثاً أو قرآناً. ﴿وإما﴾ أصله إن ما فأدغمت نون إن الشرطية في ما المزيدة ﴿ينسينك الشيطان﴾ أي: ما أمرت به من ترك مجالستهم. ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ أي: بعد أن تذكره فهو مصدر بمعنى الذكر ولم يجىء مصدر على فعلى غير ذكرى ﴿مع القوم الظالمين﴾ الذين وضعوا التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم وهذا الإنساء محض احتمال يدل عليه كلمة إن الشرطية فلا يلزم وقوعه مع أن العلماء قد اتفقوا على جواز السهو والنسيان على الأنبياء عليهم السلام والمراد بالشيطان إبليس أو واحد من أكابر جنوده لأن الذي هو قرينه عليه أسلم فلا يأمره إلا بخير بخلاف قرين كل واحد من الأمة وفي الحديث «فضلت على آدم بخصلتين كان شيطاني كافراً فأعانني الله عليه فأسلم وكان أزواجي عوناً لي وكان شيطان آدم وزوجته عوناً على خطيئته» ولما قال المسلمون: لئن كنا نقوم كلما استهزؤوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ونطوف بالبيت لأنهم يخوضون أبداً رخص الله تعالى في مجالستهم على سبيل الوعظ والتذكير فقال.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ الضمير في حسابهم للخائضين ومن زائدة وشيء في محل الرفع على أنه مبتدأ للخبر المقدم وهو على الذين أي وما على المؤمنين الذين يجتنبون عن قبائح أعمال الخائضين وأقوالهم شيء مما يحاسبون عليه من الجرائم والآثام ﴿ولكن ذكرى﴾ أي: ولكن عليهم أن يذكروهم ذكرى ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير ويظهروا لهم الكراهة والنكير فنصب ذكرى على المصدرية والواو للعطف، ولكن خالص للاستدراك فلا يلزم الجمع بين حرفي العطف كما أن اللام مع سوف تخرج عن كونها للحال وتخلص للتأكيد. ﴿لعلهم يتقون﴾ أي: يجتنبون الخوض حياء وكراهة لمساءتهم.

﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً﴾ المراد بالموصول الكفار الخائضون في الآيات ودينهم هو الذي كلفوه وأمروا بإقامة مواجبه وهو دين الإسلام ومعنى اتخاذه لعباً ولهواً أنهم سخروا به واستهزؤوا، واللعب عمل يشغل النفس وينفرها عما تنتفع به، واللهو صرفها عن الجد إلى الهزل. ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ واطمأنوا بها حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً والمعنى أعرض عنهم واترك معاشرتهم وملاطفتهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم وليس المراد أن يترك إنذارهم لأنه تعالى قال: ﴿وذكر به﴾ أي: بالقرآن من يصلح للتذكر. ﴿أن تبسل نفس﴾ أي لئلا تسلم إلى الهلاك وترهن ﴿بما كسبت﴾ بسبب ما عملت من القبائح. وأصل البسل والإبسال المنع ولذا صح استعمال الإبسال في معنى الإسلام إلى الهلاك لأن الإسلام إلى الهلاك يستلزم المنع فإنه إذا أسلم أحد إلى الهلاك كان المسلم إليه وهو

الهلاك يمنع المسلم وهو الشخص من الخروج عنه والخلاص منه.

وفي «التفسير الفارسي للكاشفي» [تا تسليم كرده نشود بهلاك يا رسوا نكرده نفس هر كافرى بسبب انچه كرده است از بديها] ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ استئناف مسوق للإخبار بذلك والأظهر أنه حال من نفس كأنه في قوة نفس كافرة أو نفوس كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١٤] ومن دون الله حال من ولي أي ليس لتلك النفس غيره تعالى من يدفع عنها العذاب ﴿وإن تعدل كل عدل﴾ أي تفد تلك النفس كل فداء بأن جاءت مكانها بكل ما كان في الأرض جميعاً ﴿لا يؤخذ منها﴾ أي لا يقبل فقوله كل عدل نصب على المصدر فالعدل ههنا ليس بمعنى ما يفتدى به كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] بل المراد المعنى المصدري.

فإن قلت: الأخذ يتعلق بالأعيان لا بالمعنى؟.

قلت: نعم إلا أن الإمام قال: الأخذ قد يستعمل بمعنى القبول كما في قوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] أي يقبلها وإذا حمل الأخذ في هذه الآية على القبول جاز إسناده إلى المصدر بلا محذور والمقصود من هذه الآية بيان أن وجوه الخلاص منسدة على تلك النفس ومن أيقن بهذا كيف لا ترتعد فرائصه إذا قدم على المعصية. ﴿أولئك﴾ المتخذون دينهم لعباً ولهواً المغترون بالحياة الدنيا. ﴿الذين أبسلوا﴾ أي أسلموا إلى العذاب. ﴿بما كسبوا﴾ بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة.

وفي «التفسير الفارسي»: [آن كروه آن كسانندكه سپرده شده اند بملائكهٔ عذاب بسبب آنچه كرده انداز قبائح أفعال].

قال أبو السعود: أولئك الذين أسلموا إلى ما كسبوا من القبائح انتهى وهو جعل معنى الباء كما في قوله مررت بزيد. ﴿لهم شراب﴾ كأنه قيل: ماذا لهم حين أبسلوا بما كسبوا فقيل لهم شراب ﴿من حميم﴾ أي من ماء مغلي يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم. ﴿وعذاب أليم﴾ بنار تشتعل بأبدانهم. ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي: بسبب كفرهم المستمر في الدنيا.

واعلم أن التكذيب بآيات الله تعالى والاستهزاء بها هو الكفر وعاقبة الكفر هو العذاب الأليم وكذا الإصرار على المعاصي يجر كثيراً من عصاة المؤمنين إلى الموت على الكفر والعياذ بالله.

وعن أبي إسحاق الفزاري قال: كان رجل يكثر الجلوس إلينا ونصف وجهه مغطى، فقلت له: إنك تكثر الجلوس إلينا ونصف وجهك مغطى، أطلعني على هذا، فقال: وتعطيني الأمان؟ قلت: نعم قال كنت نباشاً فدفنت امرأة فأتيت قبرها فنبشت حتى وصلت إلى اللبن ثم ضربت بيدي إلى الرداء، ثم ضربت بيدي إلى اللفافة فمددتها فجعلت تمدها هي، فقلت: أتراها تغلبني فجيت على ركبتي، فجررت اللفافة فرفعت يدها فلطمتني وكشف وجهه، فإذا أثر خمس أصابع، فقلت له: ثم مه؟ قال: ثم رددت عليها لفافتها وإزارها، ثم رددت التراب وجعلت على نفسي أن لا أنبش ما عشت، قال: فكتبت بذلك إليّ الأوزاعي فكتب إلى الأوزاعي ويحك سله عمن مات من أهل السنة ووجهه إلى القبلة فسألته عن ذلك، فقال: أكثرهم حول وجهه عن القبلة فكتبت بذلك إلى الأوزاعي فكتب إليّ إنا لله وإنا إليه راجعون ثلاث مرات، أما من حول وجهه عن القبلة فإنه مات على غير السنة، وأراد بالسنة ملة الإسلام

نسأل الله تعالى العفو والمغفرة والرضوان. قال الحافظ قدس سره:

يا رب ازابر هدايت برسان باراني پيشتر رانكه چوكردى زميان برخيزم

وفي الآيات: إشارة إلى أنه لا يصلح للطالب الصادق المجالسة مع الذين يخوضون في أحوال الرجال ولاحظ لهم منها سوى التزيي بزيهم، واللبس لخرقتهم لأن الطبع من الطبع يسرق

نفس از هم نفس بكيرد خوى بر حذر باش از لقاى خبيث

باد چون بر فضاى بد كذر بوى بد كيرد از هواى خبيث

فلا بد من الصحبة مع الأخيار والاتعاظ بكلمات الكبار.

وعن عبد الله بن الأحنف: قال خرجت من مصر أريد الرملة لزيارة الرود بادي قدس سره فرآني عيسى بن يونس المصري فقال لي: هل أدلك؟ قلت: نعم قال عليك بصور فإن فيها شيخاً وشاباً قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت إليهما نظرة لأغنتك باقي عمرك قال فدخلت عليهما وأنا جائع عطشان وليس عليّ ما يسترني من الشمس فوجدتهما مستقبلين القبلة فسلمت عليهما وكلمتهما فلم يكلماني فقلت أقسمت عليكما بالله إلا ما كلمتماني فرفع الشيخ رأسه وقال يا ابن الأحنف ما أقلّ شغلك حتى تفرغت إلينا ثم أطرق فأقمت بين يديهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب عني الجوع والعطش فقلت للشاب عظني بشيء أنتفع به فقال نحن أهل المصائب ليس لنا لسان العظة فأقمت عندهما ثلاثة أيام بلياليها لم نأكل فيها شيئاً ولم نشرب فلما كان عشية اليوم الثالث قلت في قلبي لا بد من سؤالهما في وصية أنتفع بها باقي عمري فرفع الشاب رأسه إليّ وقال عليك بصحبة من يذكرك الله بنظره ويعظك بلسان فعله لا بلسان قوله ثم التفتّ فلم أرهما وأنشد لسان الحال:

شدوا المطايا قبيل الصبح وارتحلوا وخلفوني على الأطلال أبكيها

ثم إن النصيحة سهلة والمشكل قبولها ومن أراد الله تعالى هدايته وسبقت منه له عناية يجذبه لا محالة إلى باب ناصح له في ظاهره وباطنه فيهتدي بنور العظة والتذكير إلى مسالك الوصول إلى الله الخبير فيترقى من حضيض هوى النفس التي تلعب كالصبيان إلى أوج هدى الروح الذي له وقار واطمئنان وعلو شأن فهذه الآيات الكريمة تنادي على داء النفس ودوائها ومن الله الإعانة في إصلاحها.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قل أندعو﴾ أنعبد والاستفهام للإنكار ﴿من دون الله﴾ أي: متجاوزين عبادة الله تعالى. ﴿ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ أي: ما لا يقدر على نفعنا إذا عبدناه ولا على ضرنا إذا تركناه وهو الأصنام والقادر على النفع والضر هو الله تعالى. ﴿ونرد على أعقابنا﴾ جمع عقب بالفتح وكسر القاف مؤخر القدم أي نرجع من الإسلام إلى الشرك بإضلال المضل ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ إلى الإسلام وأنقذنا من الشرك. ﴿كالذي استهوته الشياطين﴾ حال من فاعل نرد أي أنرد على أعقابنا مشبهين بالذي ذهبت به مردة الجن إلى المهامة وأضلته ﴿في الأرض﴾ متعلق باستهوته

﴿حيران﴾ حال من هاء استهوته وهو صفة مشبهة مؤنثة حيرى والفعل منه حار يحار حيرة أي متحيراً ضالاً عن الطريق. ﴿له أصحاب﴾ الجملة صفة حيران، أي لهذا المستوى رفقة ﴿يدعونه إلى الهدى﴾ أي يهدونه إلى الطريق المستقيم وسماه هدى تسمية للمفعول بالمصدر مبالغة كأنه نفس الهدى. ﴿ائتنا﴾ على إرادة القول على أنه بدل من يدعونه، أي: يقولون له ائتنا شبه الله تعالى من أشرك وعبد غير الله مع قيام البرهان الفاصل بين الحق والباطل بشخص موصوف بثلاثة أوصاف الأول استهوته مردة الجن والغيلان في المهامة والمفاوز والثاني كونه حيران تائهاً ضالاً عن الجادة لا يدري كيف يصنع والثالث أن يكون له أصحاب يدعونه قائلين له ائتنا فقد اعتسفت المهامة وضللت عن الجادة وهو لا يجيبهم ولا يترك متابعة الجن والشياطين. والجن أجسام لطيفة تتشكل بأشكال مختلفة وتقدر على أن تنفذ في بواطن الحيوان نفوذ الهواء في خلال الأجسام المتخلخلة. ﴿قل إن هدى الله﴾ الذي هدانا إليه وهو الإسلام. ﴿هو الهدى﴾ وحده وما عداه ضلال محض وغي بحت. ﴿و﴾ قل أيضاً ﴿أمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ أي: بأن نسلم فاللام بمعنى الباء والعرب تقول أمرتك لتفعل وأن تفعل وبأن تفعل.

﴿وأن﴾ أي: بأن ﴿أقيموا الصلاة واتقوه﴾ تعالى فالإسلام رئيس الطاعات الروحانية والصلاة رئيس الطاعات الجسمانية والتقوى رئيس ما هو من قبيل التروك والاحتراز عن كل ما لا ينبغي ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ تجمعون يوم القيامة للحساب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض﴾ أي: العلويات والسفليات وما فيهما ﴿بالحق﴾ حال من فاعل خلق، أي: قائماً بالحق والحكمة. ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ يوم ظرف لمضمون جملة قوله: الحق، والواو بحسب المعنى داخل عليها، والمعنى وأمره المتعلق بكل شيء يريد خلقه من الأشياء في حين تعلقه به لا قبله ولا بعده من أفراد الأحيان الحق أي المشهود له بالحقية المعروف بها. ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ لا ملك فيه لغيره ولو مجازاً كما في الدنيا. ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي: هو عالم ما غاب وما شوهد. ﴿وهو الحكيم﴾ في كل ما يفعله. ﴿الخبير﴾ بجميع الأمور الجلية والخفية وفي الحديث: «لما فرغ الله من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش متى يؤمر»، قال أبو هريرة رضي الله عنه قلت يا رسول الله ما الصور قال «القرن» قلت: كيف هو؟ قال «عظيم الذي نفسي بيده إن عظم دائرة فيه كعرض السماء والأرض» ويقال إن فيه من الثقب على عدد أرواح الخلائق.

قالوا: إن النفخة ثلاث: أولاها: نفخة الفزع فإنهم إذا سمعوا النفخة يعلمون أنهم يموتون يقيناً ولم يبق من أيام الدنيا شيء فيأخذهم الفزع لأجل العرض والحساب والعذاب، والنفخة الثانية: الصعق وهو موت الخلائق أجمعين حتى لا يبقى إلا الله تعالى كل شيء هالك إلا وجهه. والنفخة الثالثة: نفخة البعث من القبور ومن النفخة إلى النفخة أربعون عاماً فعند موت جميع الخلائق تجعل أرواحهم في الصور وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً لا تأكله الأرض أبداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة ويجمع الله ما

تفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء وبطن الأرض وما أصاب النيران منها بالحرق والمياه بالغرق وما أبلته الشمس وذرته الرياح وذلك بعدما أنزل ماء من تحت العرش يقال له الحيوان فتمطر السماء أربعين سنة حتى يكون من الفوق اثني عشر ذراعاً ثم يأمر الله الأجساد فتنبت كنبات البقل فإذا جمعها وأكمل كل بدن منها ولم يبق إلا الأرواح يحيي حملة العرش ثم يحيي جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فينفخ في الصور فتخرج الأرواح من ثقب الصور كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله تعالى ليرجعن كل روح إلى جسده فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثم تدخل في الخياشيم فتمشي في الأجساد مشي السم في اللديغ ثم تنشق الأرض، فأول من يخرج منها رسول الله ﷺ، ثم الأمة شباباً كلهم أبناء ثلاث وثلاثين، واللسان يومئذٍ بالسريانية سراعاً إلى ربهم هذا في المؤمنين المخلصين، وأما الكافرون: فيقولون هذا يوم عسير، فيوقفون حفاة عراة مقدار سبعين عاماً لا ينظر الله إليهم فتبكي الخلائق حتى تنقطع الدموع ثم تدمع دماً حتى يبلغ منهم الأذقان ويلجمهم، ثم يفعل الله فيهم ما يشاء فعليك بالإسلام الحقيقي والتسليم حتى تنجو وهو ترك الوجود كالكرة في ميدان القدر مستسلماً لصولجان القضاء لمجاري أحكام رب العالمين وهو إنما يحصل بمحض فضل الله تعالى لكن الأنبياء والأولياء وسائط، كما أشار إليه صاحب «المثنوي» فقال:

سازد اسرافيل روزى ناله را ... جان دهد پوسيدهٔ صد ساله را
اوليارا در درون هم نغمها ست ... طالبانرا زان حياة بى بهاست
نشنود آن نغمهارا كوش حس ... كزستمها كوش حس باشد نجس
هين كه اسرافيل وقتند اوليا ... مرده را زيشان حياتست ونما
نغمهاى اندرون اوليا ... اولا كويد كه اي اجزاى لا
هين زلاى نفى سرها بر زنيد ... اين خيال ووهم يكسو افكنيد
اي همه پوسيده دركون وفساد ... جان باقيان نروئيد ونزاد

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما سلم قلبه للعرفان ولسانه لإقامة البرهان على فساد طريق أهل الشرك والطغيان، وسلم بدنه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان ثم إنه سأل ربه وقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤] وجب في كرم الله تعالى أنه يجيب دعاءه ويحقق مطلوبه فأجاب دعاءه وجعل جميع الطوائف وأهل الأديان والملل معترفين بفضله حتى إن المشركين أيضاً يعظمونه ويفتخرون بكونهم من أولاده ولما كانوا معترفين بفضله لا جرم جعل الله تعالى مناظرته مع قومه حجة على مشركي العرب أي واذكر يا محمد لأهل مكة وقت قول إبراهيم لأبيه آزر، أي: موبخاً له على عبادة الأصنام فإن ذلك مما يبكتهم. وآزر عطف بيان لأبيه وهو تارح بفتح الراء وسكون الحاء المهملة علمان لأب إبراهيم كإسرائيل ويعقوب أو آزر لقبه وتارح اسم له وكان من قرية من سواد الكوفة يقال لها كوثى. ﴿أتتخذ أصناماً آلهة﴾ أي: أتجعلها لنفسك آلهة على توجيه الإنكار إلى اتخاذ

الجنس من غير اعتبار الجمعية وإنما أريد صيغة الجمع باعتبار الوقوع. ﴿إني أراك وقومك﴾ الذين يتبعونك في عبادتها ﴿في ضلال﴾ عن الحق. ﴿مبين﴾ أي: بين كونه ضلالاً لا اشتباه فيه. والرؤية إما علمية فالظرف مفعولها الثاني وإما بصرية فهو حال من المفعول والجملة تعليل للإنكار والتوبيخ.

ثم اعلم أن عبادة الأصنام كفر فدلت الآية على أن آزر كان كافراً وذلك لا يقدح في شأن نسب نبينا ﷺ وأما قوله عليه السلام: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» فذلك محمول على أنه ما وقع في نسبه من ولد من الزنى ونكاح أهل الجاهلية صحيح كما يدل عليه قوله عليه السلام: «ولدت من نكاح لا من سفاح» أي: زنى وقوله: «لما خلق الله تعالى آدم أهبطني في صلبه إلى الأرض وجعلني في صلب نوح في السفينة، وقذفني في صلب إبراهيم ثم لم يزل تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام حتى أخرجني بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط» ـ وروي ـ أن حواء لما وضعت شيتا انتقل النور المحمدي من جبهتها إلى جبهته ولما كبر وبلغ مبلغ الرجال أخذ آدم عليه العهود والمواثيق أن لا يودع هذا السر إلا في المطهرات المحصنات من النساء ليصل إلى المطهرين من الرجال فانتقل ذلك النور إلى يانش ويقال أنوش ثم إلى قينان ثم إلى مهلائيل ثم إلى يرد ثم إلى خنوخ على وزن ثمود وهو إدريس عليه السلام ويقال أخنوخ ثم إلى متوشلح ثم إلى لمك ثم إلى نوح عليه السلام ثم إلى سام أبو العرب ثم إلى أرفخشذ ثم إلى شالخ ثم إلى عابر على وزن ناصر ويقال عيبر على وزن جعفر ثم إلى فالخ ويقال فالغ ثم إلى أرغو ويقال راغو ثم إلى شاروخ، ثم إلى ناخود ثم إلى تارح وهو آزر ثم إلى إبراهيم عليه السلام ثم إلى إسماعيل عليه السلام وفيه لغة أخرى وهي إسمعين بالنون على ما حكاه النوى ثم إلى قندار ثم إلى حمل، ثم إلى النبت ثم إلى سلامان ثم إلى يشجب على وزن ينصر ثم إلى يعرب على وزن ينصر أيضاً ثم إلى الهميسمع، ثم إلى اليسع ثم إلى أدد ثم إلى أد وإلى هنا اختلف في أسماء أهل النسب بخلاف ما بعده ثم إلى عدنان ثم إلى معد ثم إلى نزار، ثم إلى مضر ثم إلى إلياس بفتح الهمزة في الابتداء والوصل وقيل بكسر الهمزة ضد الرجاء ثم إلى مدركة ثم إلى خزيمة ثم إلى كنانة ثم إلى النضر ثم إلى مالك ثم إلى فهر ثم إلى غالب ثم إلى لوي ثم إلى كعب ويجتمع عمر رضي الله عنه مع النبي عليه السلام في النسب في كعب ثم إلى مرة ويجتمع أبو بكر مع النبي عليه السلام في النسب في مرة ثم إلى كلاب ثم إلى قصي ثم إلى عبد مناف ثم إلى هاشم ثم إلى عبد المطلب ثم إلى عبد الله أب السر المصون والدر المكنون محمد المصطفى ﷺ ولم يرض بعض أهل العلم بما اشتهر بين الناس من عبادة قريش صنماً استدلالاً بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] في سورة إبراهيم وقوله تعالى في حق إبراهيم: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] في حم الزخرف.

والجواب أن الآية الأولى تدل بظاهرها على الأبناء الصلبية ولو سلم دلالتها على الأحفاد أيضاً كما تدل على كل ولد من ذريته. ومعنى الآية الثانية وجعل الله كلمة التوحيد كلمة باقية في نسله وذريته على أنه لا تخلو سلسلة نسبه عن أهل التوحيد والإيمان فلا تدل على إيمان كل أعقابه وأحفاده وهو اللائح بالبال والله أعلم بحقيقة الحال.

والإشارة في الآية إن الله تعالى أظهر قدرته في إخراج الحي من الميت بقوله: ﴿وإذ قال

إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة﴾ دون الله إذ الأصل منهمك في الجحود لموت قلبه والنسل مضمحل في الشهود لحياة قلبه والأصنام ما يعبد من دون الله ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾ بما أراني الله ملكوت الأشياء كما في «التأويلات النجمية».

ومن بلاغات الزمخشري كم يحدث بين الخبيثين ابن لا يؤبن والفرث والدم يخرج من بينهما اللبن. قال السعدي:

چو كنعانرا طبيعت بى هنر بود پيمبر زادكى قدرش نيفزود
هنر بنماى اكر دارى نه كوهر كل ازخارست وإبراهيم ازآزر

وقال: [خاكستر اكرچه نسب عالى داركه آتش جوهر علويست وليكن بنفس خودچون هنرى ندارد باخاك برابراست قيمت شكرنه ازنى است كه آن خاصيت وى است] فظهر أن الله تعالى من شأنه القديم إخراج الحي من الميت ولا يختص به نسب وكذا أمر العكس ومن الله التوفيق. ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾ ذلك إشارة إلى الإراءة التي تضمنها قوله: ﴿نري﴾ لا إلى إراءة أخرى يشبه بها هذه الإراءة كما يقال ضربته كذلك أي هذا الضرب المخصوص والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة. والمعنى كذلك التبصير نبصره عليه السلام. ﴿ملكوت السموات والأرض﴾ أي: ربوبيته تعالى ومالكيته لهما وسلطانه القاهر عليهما وكونهما بما فيهما مربوباً ومملوكاً له تعالى لا تبصيراً آخر أدنى منه والملكوت مصدر على زنة المبالغة كالرهبوت والجبروت ومعناه الملك العظيم والسلطان القاهر والأظهر مختص بملك الله عز سلطانه وهذه الإراءة من الرؤية البصرية المستعارة للمعرفة ونظر البصيرة أي عرفناه وبصرناه وصيغة الاستقبال حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها.

فإن قيل: رؤية البصيرة حاصلة لجميع الموحدين كرؤية البصر ومقام الامتنان يأبى ذلك.

والجواب: أنهم وإن كانوا يعرفون أصل دليل الربوبية إلا أن الاطلاع على آثار حكمة الله تعالى في كل واحد من مخلوقات هذا العالم بحسب أجناسها وأنواعها وأشخاصها وأحوالها مما لا يحصل إلا لأكابر الأنبياء ولهذا كان عليه السلام يقول في دعائه «أرنا الأشياء كما هي».

قال في «التأويلات النجمية»:

اعلم: أن لكل شيء من العالم ظاهراً. يعبر عنه تارة بالجسماني لما له من الأبعاد الثلاثة من الطول والعرض والعمق ولتحيزه وقبول القسمة والتجزي، وتارة بالدنيا لدنوها إلى الحس. وتارة بالصورة لقبول التشكل ولإدراكه بالحس، وتارة بالشهادة لشهوده في الحس، وتارة بالملك لتملكه والتصرف فيه بالحس، وباطناً يعبر عنه تارة بالروحاني لخلوه عن الأبعاد الثلاثة وعن التحيز والتجزي في الحس، وتارة بالآخرة لتأخره عن الحس، وتارة بالمعنى لتعريه عن التشكل وبعده عن الحس، وتارة بالغيب لغيبوبته عن الحس، وتارة بالملكوت لملاك عالم الملك والصورة به فإن قيام الملك بالملكوت وقيام الملكوت بقدرة الحق كما قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس: ٨٣] أي: من طريق الملكوت والملكوت من الأوليات التي خلقها الله تعالى من لا شيء بأمر كُنْ إذ كان الله ولم يكن معه شيء يدل عليه قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥] فنبه على أن الملكوت لم يخلق من شيء وما سواه خلق من شيء وقد سمى الله تعالى ما خلق بالأمر أمراً وما خلق من الشيء خلقاً فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]

فالله تعالى أرى إبراهيم ملكوت الأشياء والآيات المودعة فيها الدالة على التوحيد انتهى وقد أطلق العلماء الملك على ما يدرك بالبصر والملكوت على ما يدرك بالبصيرة فالملكوت لا ينكشف لأرباب العقول بل لأصحاب القلوب فإن العقل لا يعطي إلا الإدراك الناقص بخلاف الكشف تلك المكاشفة لا تحصل إلا لأهل المجاهدة فإنها ثمرة المجاهدة وهي مما يعز: مناله جداً اللهم اجعلنا من أهل العيان دون السامعين للأثر. ﴿وليكون من الموقنين﴾ اللام متعلقة بمحذوف مؤخر والجملة اعتراض مقرر لما قبلها، أي: ليكن من زمرة الراسخين في الإيقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى فعلنا ما فعلنا من التبصير البديع المذكور لا لأمر آخر فإن الوصول إلى تلك الغاية القاصية كمال مترتب على ذلك التبصير لا عينه وليس القصر لبيان انحصار فائدته في ذلك كيف لا وإرشاد الخلق وإلزام المشركين من فوائده بل لبيان أنه الأصل الأصيل والباقي من مستتبعاته.

﴿فلما جن عليه الليل﴾ أي: ستره بظلامه ﴿رأى كوكباً﴾ جواب لما فإن رؤيته إنما تحقق بزوال نور الشمس عن الحس وهذا صريح في أنه لم يكن في ابتداء الطلوع بل كان غيبته عن الحس بطريق الاضمحلال بنور الشمس والتحقيق أنه كان قريباً من الغروب قيل كان ذلك هو الزهرة وقيل هو المشتري وكلاهما من الكواكب السبعة السيارة. ﴿قال﴾ كأنه قيل فماذا صنع عليه السلام حين رأى الكوكب فقيل قال على سبيل الموافقة مع الخصم. ﴿هذا ربي﴾ وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والمستدل على فساد قول يحكيه على رأي خصمه ثم يكر عليه بالإبطال. ﴿فلما أفل﴾ أي: غرب ﴿قال لا أحب الآفلين﴾ أي: الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان المتغيرين من حال إلى حال المحتجبين بالأستار فإنهم بمعزل عن استحقاق الربوبية قطعاً.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فلما رأى القمر بازغاً﴾ أي: مبتدئاً في الطلوع إثر غروب الكوكب ﴿قال هذا ربي فلما أفل﴾ كما أفل النجم ﴿قال لئن لم يهدني ربي﴾ إلى جنابه ﴿لأكونن من القوم الضالين﴾ تعريض لقومه بأنهم على ضلال ولعله عليه السلام كان إذ ذاك في موضع كان من جانبه الغربي جبل شامخ يستتر به الكواكب والقمر وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل وكان الكوكب قريباً منه وأفقه الشرقي مكشوف وإلا فطلوع القمر بعد أفول الكوكب ثم أفوله قبل طلوع الشمس مما لا يكاد يتصور.

﴿فلما رأى الشمس بازغة﴾ أي: مبتدئة في الطلوع ﴿قال هذا﴾ الجرم المشاهد. ﴿ربي هذا أكبر﴾ من الكوكب والقمر وهو تأكيد لما رامه من إظهار النصفة بقوله ﴿لأكونن من القوم الضالين﴾ ﴿فلما أفلت﴾ كما أفل الكوكب والقمر وقويت عليهم الحجة ولم يرجعوا ﴿قال﴾ مخاطباً للكل صادعاً بالحق بين أظهرهم. ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ بالله تعالى من الأصنام والأجرام المحتاجة إلى محدث فقالوا له ما تعبد قال: ﴿إني وجهت وجهي﴾، أي: أخلصت ديني وعبادتي وجعلت قصدي. ﴿للذي فطر السموات والأرض﴾ أي لله الذي خلقهما ﴿حنيفاً﴾ أي: مائلاً عن

الأديان الباطلة كلها إلى الدين الحق ميلاً لا رجوع فيه. ﴿وما أنا من المشركين﴾ به تعالى في شيء من الأفعال والأقوال وهذه حال من كملت صقالة مرآة قلبه عن طبع الطبع وتنزهت عن ظلمة هوى النفس وشهواتها فإنه لا يلتفت إلى الأجرام والأكوان بل إلى اليمين والشمال لأن شوق الخلة إلى الحضرة نصبه في محاذاة ذاته المقدسة عن الجهة. قال في «المثنوي»:

آفتاب از امر حق طباخ ماست ... ابلهى باشد كه كوئيم أو خداست
آفتابت كر بكيرد چون كنى ... آن سياهى زوتوچون بيرون كنى
نى بدركاه خدا آرى صداع ... كه سياهى را ببر داده شعاع
كر كشندت نيم شب خورشيدكو ... تابنالى يا امان خواهى ازو
حادثات اغلب بشب واقع شود ... وان زمان معبودتو غائب شود
سوى حق كرر استانه خم شوى ... وارهى از اختران محرم شوى

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وحاجه قومه﴾ أي: جادلوه في دينه وهددوه بالأصنام أن تصيبه بسوء إن تركها. ﴿قال أتحاجوني﴾ بنون ثقيلة أصله أتحاجونني بنونين أولاهما نون الرفع والثانية نون الوقاية فاستثقل اجتماعهما فأدغم الأولى في الثانية، أي: أتجادلونني. ﴿في الله﴾ أي في شأنه تعالى ووحدانيته ﴿وقد هدان﴾ أي: والحال أن الله تعالى هداني إلى الحق. ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ أي: ما تشركون به تعالى من الأصنام أن يصيبني بسوء لعدم قدرتها على شيء. ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ استثناء متصل والمستثنى منه وقت محذوف والتقدير لا أخاف معبوداتكم في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى شيئاً من إصابة مكروه بي من جهتها وذلك إنما يكون من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فيه أصلاً. ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ كأنه تعليل للاستثناء أي أحاط بكل شيء علماً فلا يبعد أن يكون في علمه تعالى أن يحيق به مكروه من قبلها بسبب من الأسباب لا بالطعن فيها. ﴿أفلا تتذكرون﴾ أي: أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم جمادات غير قادرة على شيء ما من نفع ولا ضرّ فلا تتذكرون أنها غير قادرة على إضراري.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ بالله من الأصنام وهي لا تضر ولا تنفع والاستفهام إنكار الوقوع ونفيه بالكلية. ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله﴾ حال من ضمير أخاف بتقدير مبتدأ أي وكيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلاً وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات وأهوالها وهو إشراككم بالله الذي ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء ما هو من جملة مخلوقاته وإنما عبر عنه بقوله: ﴿ما لم ينزل به﴾ أي: بإشراكه. ﴿عليكم سلطاناً﴾ أي: حجة وبرهاناً على طريقة التهكم مع الإيذان بأن الأمور الدينية لا يعول فيها إلا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى. ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن﴾ أنحن أم أنتم.

قال المولى أبو السعود: المراد بالفريقين الفريق الآمن في محل الأمن والفريق الآمن في محل الخوف. ﴿إن كنتم تعلمون﴾ من أحق به فأخبروني.

﴿الذين آمنوا﴾ أي أحد الفريقين الذين آمنوا ﴿ولم يلبسوا إيمانهم﴾ أي: لم يخلطوه ﴿بظلم﴾ أي: بشرك كما يفعله الفريق المشركون حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله تعالى وأن عبادتهم للأصنام من تتمات إيمانهم وأحكامه لكونها لأجل التقريب والشفاعة كما قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وهذا معنى الخلط ﴿أولئك لهم الأمن﴾ فقط من العذاب. ﴿وهم مهتدون﴾ إلى الحق ومن عداهم في ضلال مبين.

﴿وتلك﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله: ﴿فلما جن﴾ إلى قوله: ﴿وهم مهتدون﴾ ﴿حجتنا﴾ الحجة عبارة عن الكلام المؤلف للاستدلال على الشيء ﴿آتيناها إبراهيم﴾ أي أرشدناه إليها أو علمناه إياها وهو حال من حجتنا لا صفة لأنها معرفة بالإضافة. ﴿على قومه﴾ متعلق بحجتنا.

والإشارة أن محجة السلوك إلى الله تعالى إنما هي تحقق بالآيات التي هي أفعاله وهذه مرقاة لهم وهي الرتبة الأولى ثم شهود صفاته بإراءته لهم وهي الرتبة الثانية ثم التحقق بوجوده وذاته عند التجلي لأسرارهم وهذا مبدأ الوصول ولا غاية له فقوله وتلك، أي: إراءة الملكوت وشواهد الربوبية في مرآة الكواكب وصدق التوجه إلى الحق والإعراض والتبري مما سواه والخلاص من شرك الانانية والإيمان الحقيقي والإيقان بالعيان آتيناها إبراهيم وأريناه بذاتنا من غير واسطة حتى جعلها حجة على قومه. ﴿نرفع﴾ إلى ﴿درجات﴾ أي: رتباً عظيمة عالية من العلم والحكمة. ﴿من نشاء﴾ رفعه كما رفعنا درجات إبراهيم حتى فاق في زمن صباه شيوخ أهل عصره واهتدى إلى ما لم يهتد إليه إلا أكابر الأنبياء عليهم السلام:

دار حق را قابليت شرط نيست بلكه شرط قابليت داد اوست

﴿إن ربك حكيم﴾ في كل ما فعل من رفع وخفض ﴿عليم﴾ بحال من يرفعه واستعداده له على مراتب متفاوتة.

ثم إن المقصود من المباحث الجارية بين إبراهيم وبين قومه إنما هو إلزام القوم وإرشادهم إلى طريق النظر والاستدلال وتنبيههم على ضلالهم في أمر دينهم كما هو المختار عند إجلاء المفسرين وعلى هذا المسلك جريت في تفسير الآيات كما وقفت.

وقال بعضهم: المقصود مما حكى الله عن إبراهيم من الاستدلال على وحدانية الله تعالى وإبطال ألوهية ما سواه نظره واستدلاله في نفسه وتحصيل المعرفة لنفسه فيحمل على أن ذلك في زمان مراهقته وأول أوان بلوغه وأن المراد بالملكوت الآيات قال الحدادي وهو الأقرب إلى الصحة.

قال الكاشفي في «تفسيره» الفارسي: ﴿وكذلك﴾ وچنانكه بدو نموده بوديم كمراهىء قوم اورا همچنان ﴿نري إبراهيم﴾ بنموديم ابراهيم را. ﴿ملكوت السموات والأرض﴾ عجائب وبدائع آسمانها وزمينها ازذروهٔ عرش تاتحت الثرى بروى منكشف ساخته تا استدلال كندبدان در قدرت كاملهٔ حق تعالى. ﴿وليكون من الموقنين﴾ وتا باشد ازبى كما نان يا موفق بود در علم استدلال.

در معالم آورده كه نمرود بن كنعانكه پادشاهى روى زمين تعلق بدوداشت درشهر بابل

نشستى شبى در واقعه ديدكه كوكبى ازافق آن بلده طلوع نمود كه در شعشعه جمال اونور آفتاب وماه نابود كشت ازغايت فزع بيدارشد وكاهنان وحكماء مملكت تعبير اين واقعه برين وجه كردندكه درين سال بولايت بابل مولودى حجسته طالع ازخلوتخانه عدم بفضاء صحراى وجود خرامدكه هلاك تو واهل مملكت تو بدودست اوباشد وهنوزاين مولود از مستقر صلب بمستودع رحم نپيوسته نمرود بفرمود تاميان زنان وشوهران تفريق كردند وبر هؤده يكى برايشان مؤكل ساخت وآزرراكه يكى از محرمان ومقربان نمرود بود شبى بازن خود اوفى بنت نمر پنهان زمؤكلان خلوت دست داد وحامله شد وبامدادش راكاهنان بانمرود كفتند امشب آن كودك برحم پيوسته است نمرود خشم كرفته بفرمود تا برهر حامله يكى مؤكل ساختند تااكر پسر بزايد بكشند زنانى كه در تفحص أحوال حامله بودند چون ما در إبراهيم را اثر حمل ظاهر نبود ازو دركذشتند وديكر كسى بدو التفات نكرد تاوقتى كه وضع حمل نزديك رسيد اوفى ترسيدكه اكرپسرى زايدنا كاه خبر بكسان نمرود رسد في الحال اورابكشند ببهانه ازشهر بيرون رفت وغارى درميان كوه نشان داشت دران غار إبراهيم را بزاد ودر خرقه پچيد وهمانجا كذاشته درغار بسنك استوار كرد وآزر راكه ازحمل خبر داشت كفت كه ازترس كماشتكان نرود بصحرا رفتم وپسرى بزادم وفي الحال بمرد در خاكش دفن كردم وبازشتم آزر باور كرد وأوفى روز ديكر باغار آمد ديدكه إبراهيم انكشتان خودرا ازيكى شير واز ديكرى عسل بيرون ميكشد ومى نوشد اوفى چون اين حال بديد خوش وقت شد وباشهر مراجعت نمود: القصه إبراهيم چون شير تربيت از پستان عنايت الهي نوشيد بروزى چندان مى باليدكه كودك ديكر درماهى وبماهى چندان بزرك ميشدكه ديكرى درسالى.

چو ماه نو كه باروى دل افروز بود زاينده تورش روز تاروز

چون پانزده ماهه شد باجوانان پانزده ساله مقابل كشت وازخانه بيرون آمد وكفته اند هفت سال باسيزده سال يا هفتده سال درغار بود برهر تقدير چون إبراهيم بزرك شد اوفى بآزر كفت كه پسرتو آنروز خبر مرك أو بدروغ دادم جوانى رسيده است درغايت خوب رويى ونيكو خويى پس آزررا بغار آورد وإبراهيم را بوى نمود آزر بجمال پسر خوش آمد وبا او كفت اين را ازغار بخانه آوركه بملازمت نمرود بريم آزر برفت واوفى ازغار بدر آوردنماز شام بود در پايان غار كلهاى اسب واشتر ورمهاى كوسفند جمع بودند إبراهيم ازمادر پرسيدكه هر آيينه اين هارا پرورد كارى خواهد بودكه آفريده وروزى ميدهد پس ما دررا كفت كه هيچ مخلوقى را ازخالقى چاره نيست آفريده كارا وباشد وبمدد تربيت يا بد پرمورد كار من كيست ما درش كفت من پروردكار توام إبراهيم كفت پروردكار توكيست كفت پدرتو إبراهيم كفت خداى أو كيست كفت نمرود كفت خداى نمرود كيست ما درش بانك بر إبراهيم زدكه مثل اين سخنان مكوكه خطر عظيم دارد در زمان نمرود بعضى ستاره وآفتاب وماه مى پرستيدند وبرخى بت پرست بودند وجمعى پرستش نمرود مى كردند إبراهيم بامادر بشهر روانه شد ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً﴾ پس بعضى كه ستاره پرست بودندى روى بوى سجده كردند ﴿قال هذا ربي﴾ أى اينست پروردكار من بر سبيل استفهام يا بزعم آن قوم ﴿فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾ پس قدرى ديكرراه رفتند وشب چهاردهم بودماه طبق سيمين بر كناره خوان سبز فلك نمودار شد ﴿فلما رأى القمر بازغاً﴾ جمعى ماه پرستان پيش وى بسجده درفتادند ﴿قال هذا ربي فلما أفل﴾

يعني: ازخط نصف النهار بجانب مغرب ميل كرد ﴿قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ پس ازآنجا دركذشتند ونزديك شهر رسيدند آفتاب ابتداء طلوع كرد جمعى متوجه أو شده عزم سجود كردند ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي﴾ هذا أكبر ﴿فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً﴾ در حالتى كه من مائلم ازهمه اديان بدين توحيد ﴿وما أنا من المشركين﴾ در تفسير منير مذكور است كه چون إبراهيم عليه السلام بشهر در آمد اورا بديدن نمرود بردند او مردى ديدكه كريه منظر وإبراهيم اورا ديد برتختى نشسته وغلامان ماه منظر وكنيز ان پرى پيكر كرد تخت أو صف زده ازمادر پرسيدكه اين چه كس است كه مرا بدين أو آوريده آيد كفتند خداى همه كس است پرسيدكه اين ملازمان بر حوالىء تخت كيانند كفت آفريدكان أويند إبراهيم تبسم فرمود وكفت اى مادر چكونه است كه اين خداى شماديكرانرا ازخود خوبتر آفريده است بايستى كه اوازيشان خوبتر بودى كذا في ذلك التفسير للكاشفي مع اختصار.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿ووهبنا له﴾ الهبة في اللغة: التبرع والعطية الخالية عن تقدم الاستحقاق والضمير لإبراهيم عليه السلام. ﴿إسحاق﴾ ابنه الصلبي وهو أب أنبياء بني إسرائيل. ﴿ويعقوب﴾ ابن إسحاق. ﴿كلاً هدينا﴾ أي كل واحد منهما وفقنا وأرشدنا إلى الفضائل الدينية والكلمات العلمية والعملية لا أحدهما دون الآخر. ﴿ونوحاً﴾ منصوب بمضمر يفسره. ﴿هدينا من قبل﴾ أي: من قبل إبراهيم وعدّ هداه نعمة على إبراهيم من حيث إنه أبوه وشرف الوالد يتعدى إلى الولد ﴿و﴾ هدينا ﴿من ذريته﴾ أي: ذرية نوح ولم يرد من ذرية إبراهيم لأنه ذكر في جملتهم يونس ولوطاً ولم يكونا من ذرية إبراهيم كذا قال البغوي.

وقال ابن الأثير في «جامع الأصول»: يونس من ذرية إبراهيم لأنه كان من الأسباط في زمن شعيب أرسله الله إلى نينوى من بلد الموصل ولا بعد في عد لوط من ذرية إبراهيم أيضاً باعتبار أنه كان ابن أخيه هاجر معه إلى الشام.

قال سعدي چلبي المفتي: ومحيي السنة، يعني: البغوي أوثق من ابن الأثير. ﴿داود﴾ ابن ايشا ﴿وسليمان﴾ ابنه وسلسلتهما تنتهي إلى يهودا بن يعقوب ﴿وأيوب﴾ من أموص بن رازخ بن روم بن عيصا بن إسحاق بن إبراهيم. ﴿ويوسف﴾ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿وموسى﴾ ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. ﴿وهارون﴾ هو أخو موسى أكبر منه بسنة وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم ﴿وكذلك﴾ أي: كما جزيناهم برفعة الدرجات ﴿نجزي المحسنين﴾ على إحسانهم على قدر استحقاقهم. فاللام للجنس ويجوز أن تكون الكاف مقحمة واللام للعهد والمعنى ذلك الجزاء البديع الذي هو عبارة عما أوتي المذكورون من فنون الكرامات نجزيهم لا جزاء آخر أدنى منه فالمراد بالمحسنين هم المذكورون والإظهار في موضع الإضمار للثناء عليهم بالإحسان الذي هو عبارة عن الإتيان بالأعمال الحسنة على

الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المقارن لحسنها الذاتي.

﴿وزكريا﴾ أي: وهديناه أيضاً وهو ابن أذن وسلسلته تنتهي إلى سليمان ﴿ويحيى﴾ ابنه ﴿وعيسى﴾ ابن مريم بنت عمران من بني ماثان الذين هم ملوك بني إسرائيل. وفي ذكره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت فيكون الحسن والحسين من ذرية سيد المرسلين محمد ﷺ مع انتسابهما إليه بالأم ومن آذاهما فقد آذى ذريته عليه السلام.

يقول الفقير: فإذا كان النسب من طرف الأم صحيحاً معتبراً فالذي كانت سيادته من طرفها مقبول كما هو من طرف الأب إذ المعتبر انتهاء السلسلة إلى الحسنين، من أي جانب كان ﴿وإلياس﴾ ابن أخ هارون أخي موسى.

قال البغوي: الصحيح أن إلياس غير إدريس لأن الله تعالى ذكره في ولد نوح وإدريس هو جد أبي نوح. ﴿كل﴾ منهم ﴿من الصالحين﴾ الكاملين في الصلاح وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي.

﴿وإسماعيل﴾ عطف على نوحاً، أي: وهدينا إسماعيل بن إبراهيم كما هدينا نوحاً ولعل الحكمة في إفراد إسماعيل عن باقي ذرية إبراهيم أن رسول الله ﷺ كان من ذرية إسماعيل والكائنات كانت تبعاً لوجوده فما جعل الله إسماعيل تبعاً لوجود إبراهيم ولا هدايته تبعاً لهدايته لشرف محمد ﷺ فلذا أفرده عنهم وأخره في الذكر.

آنچه اول شد بديد از جيب غيب ... بود نور جان أو بى هيچ ريب
بعد ازان ان نور مطلق زد علم ... كشت عرش وكرسي ولوح وقلم
يك علم از نور پاكش علم اوست ... يك علم ذريت آدم ازوست

﴿واليسع﴾ بن أخطوب ابن العجوز واللام زائدة لأنه علم أعجمي ﴿ويونس﴾ بن متى ﴿ولوطاً﴾ بن هاران ابن أخي إبراهيم. ﴿وكلاً﴾ منهم ﴿فضلنا على العالمين﴾ أي عالمي عصرهم بالنبوة لا بعضهم دون بعض.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿ومن آبائهم﴾ من تبعيضية، أي: وفضلنا بعض آباء المذكورين كآدم وشيث وإدريس إذ من الآباء من لم يكن نبياً ولا مفضلاً مهدياً ﴿وذرياتهم﴾ أي وبعض ذرياتهم من بعضهم كأولاد يعقوب ومن جملة ذرياتهم نبينا محمد ﷺ كما في «تفسير الحدادي» وإنما أراد ذريعة بعضهم لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان ذرية بعضهم من كان كافراً. ﴿وإخوانهم﴾ كإخوة يوسف في عصرهم ويحتمل أن يكون المراد بهم كل من آمن معهم فإنهم كلهم دخلوا في هداية الإسلام. ﴿واجتبيناهم﴾ عطف على فضلنا أي اصطفيناهم ﴿وهديناهم﴾ أي: أرشدناهم ﴿إلى صراط مستقيم﴾ لا يضل من سلك إليه.

﴿ذلك﴾ الهدى ﴿هدى الله﴾ الإضافة للتشريف ﴿يهدي به من يشاء من عباده﴾ وهم مستعدون للهداية والإرشاد. ﴿ولو أشركوا﴾ أي: لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو شأنهم ﴿لحبط عنهم﴾ أي: بطل وذهب ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الأعمال المرضية الصالحة

فكيف بمن عداهم وهم هم وأعمالهم أعمالهم وهذا غاية التوبيخ والترهيب للعوام والخواص لئلا يأمنوا مكر الله.

﴿أولئك﴾ المذكورون من الأنبياء الثمانية عشر. ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ أي: جنس الكتاب المتحقق في ضمن أي فرد كان من أفراد الكتب السماوية والمراد بإيتائه التفهيم التام بما فيه من الحقائق والتمكين من الإحاطة بالجلائل والدقائق أعم من أن يكون ذلك بإنزال ابتداء أو بالإيراث بقاء فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين. ﴿والحكم﴾ أي: الحكمة أو فصل الخطاب على ما يقتضيه الحق والصواب ﴿والنبوة﴾ أي: الرسالة. ﴿فإن يكفر بها﴾ أي: بهذه الثلاثة. ﴿هؤلاء﴾ أهل مكة ﴿فقد وكلنا بها﴾ أي: أمرنا بمراعاتها وفقنا للإيمان بها والقيام بحقوقها ﴿قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ في وقت من الأوقات بل مستمرون على الإيمان بها وهم أصحاب النبي عليه السلام والباء صلة كافرين وفي بكافرين لتأكيد النفي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿أولئك﴾ الأنبياء المتقدم ذكرهم ﴿الذين هدى الله﴾ أي: هداهم الله إلى الحق والنهج المستقيم. ﴿فبهداهم اقتده﴾ أي: فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد بغيرهم والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ فإنها بعد النسخ لا تبقى هدى.

واحتج العلماء بهذه الآية على أنه عليه السلام أفضل جميع الأنبياء عليهم السلام؛ لأن خصال الكمال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلية، ويوسف كان جامعاً بينهما، وموسى كان صاحب المعجزات القاهرة، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس كانوا أصحاب الزهد، وإسماعيل كان صاحب الصدق فكل منهم قد غلب عليه خصلة معينة فجمع الله كل خصلة في حبيبه عليه السلام لأنه إذا كان مأموراً بالاقتداء لم يقصر في التحصيل.

هرچه بخوبان جهان داده اند   قسم تو نيكوتر ازان داده اند
هرچه بنازند بدان دلبران   جمله تراهست زيادت بران

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿أولئك الذين هداهم الله﴾ بصفاته إلى ذاته. ﴿فبهداهم اقتده﴾ لا أنهم سلكوا مسلكاً غير مسلوك حتى انتهى سير كل واحد منهم إلى منتهى قدر له، كما أخبرت أني رأيت آدم في السماء الدنيا، ويحيى وعيسى في السماء الثانية، ويوسف في السماء الثالثة، وإدريس في السماء الرابعة، وهارون في السماء الخامسة، وموسى في السماء السادسة، وإبراهيم في السماء السابعة فاقتد بهم حتى تسلك مسالكهم إلى أن تنتهي إلى سدرة المنتهى، وهو منتهى مقام الملائكة المقربين ثم يعرج بك إلى المحل الأدنى والمقام الأرفع حتى تخرج من نفسك وتدنو إليه به إلى أن تصل إلى مقام قاب قوسين، أو أدنى مقاماً لم يصل إليه أحد قبلك لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. ﴿قل﴾ لكفار قريش ﴿لا أسألكم عليه﴾ أي: على القرآن ﴿أجراً﴾ أي: جعلاً من جهتكم كما لم يسأله من قبلي من الأنبياء عليهم السلام، وهذا من جملة ما أمر بالاقتداء بهم فيه. ﴿إن هو﴾ أي: ما القرآن. ﴿إلا ذكرى للعالمين﴾

أي: إلاّ عظة وتذكير لهم من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون آخرين وعلى هذا جرى الأولياء من أهل الإرشاد، إذ لا أجر للتعليم والإرشاد؛ إذ الأجر من الدنيا ولا يجوز طمع الدنيا لأهل الآخرة، ولا لأهل الله تعالى وإنما خدمة الدين مجردة عن الأغراض مطلقاً.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ أصل القدر السبر والحزر يقال قدر الشيء يقدره بالضم قدراً إذا سبره وحزره ليعلم مقداره ثم استعمل في معرفة الشي مقداره، وأحواله وأوصافه فقيل لمن عرض شيئاً هو يقدر قدره ولمن لم يعرفه بصفاته أنه لا يقدر قدره ونصب حق قدره على المصدرية وهو في الأصل صفة للمصدر، أي قدره الحق وضميره يرجع إلى الله تعالى، وأما ضمير الجمع فإلى اليهود لما روي أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم خرج مع نفر إلى مكة معاندين ليسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء وكان رجلاً سميناً فأتى رسول الله بمكة، فقال له عليه السلام «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله تعالى يبغض الحبر السمين قال: نعم قال: فأنت الحبر السمين وقد سمنت من مأكلتك التي تطعمك اليهود ولست تصوم، أي: تمسك فضحك القوم فخجل مالك بن الصيف فقال غضباً ما أنزل الله على بشر من شيء فلما رجع مالك إلى قومه، قالوا له: ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك؟ أليس أن الله أنزل التوراة على موسى فلِمَ قلت ما قلت؟ قال: أغضبني محمد فقلت ذلك قالوا له وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق وتترك دينك فأخذوا الرياسة والحبرية منه وجعلوهما إلى كعب بن الأشرف فنزلت هذه الآية» والمعنى ما عرفوه تعالى حق معرفته في اللطف بعباده والرحمة عليهم ولم يراعوا حقوقه تعالى في ذلك، بل أخلوا بها إخلالاً فعبر عن المعرفة بالقدر لكونه سبباً لها وطريقاً إليها. ﴿إذ قالوا﴾ منكرين لبعثة الرسل وإنزال الكتب كافرين بنعمه الجليلة فيهما. ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ أي: كتاب ولا وحي مبالغة في إنكار إنزال القرآن؛ إذ القائلون من أهل الكتاب كما مر آنفاً. ﴿قل﴾ لهم على طريق التبكيت وإلقام الحجر. ﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ يعني: التوراة حال كون ذلك الكتاب. ﴿نوراً﴾ بيناً بنفسه ومبيناً لغيره. بالفارسي [روشناى دهنده]. ﴿وهدى﴾ بياناً ﴿للناس﴾ وحال كونه ﴿تجعلونه قراطيس﴾ أي: تضعونه في قراطيس مقطعة وورقات مفرقة بحذف الجار بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم، وهي جمع قرطاس بمعنى الصحيفة. ﴿تبدونها﴾ صفة قراطيس أي تظهرون ما تحبون إبداءه منها. ﴿وتخفون كثيراً﴾ مما فيها كنعوت النبي عليه السلام وآية الرجم وسائر ما كتموه من أحكام التوراة. ﴿وعلمتم﴾ أيها اليهود على لسان محمد ﴿ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ وهو ما أخذوه من الكتاب من المعلوم والشرائع. فقوله: ﴿علمتم﴾ حال من فاعل تجعلونه بإضمار قد مفيد لتأكيد التوبيخ فإن ما فعلوه بالكتاب من التفريق والتقطيع للإبداء والإخفاء شناعة عظيمة في نفسها، ومع ملاحظة كونه مأخذاً لعلومهم ومعارفهم أشنع وأعظم. ﴿قل الله﴾ أي: أنزله الله أمره عليه السلام بأن يجيب عنهم إشعاراً بأن

الجواب متعين لا يمكن غيره تنبيهاً على أنهم بهتوا وأفحموا ولم يقدروا على التكلم أصلاً.
﴿ثم ذرهم﴾ أي: دعهم واتركهم. ﴿في خوضهم﴾ أي: في باطلهم الذي يخوضون فيه أي يشرعون فلا عليك بعد إلا التبليغ وإلزام الحجة. ﴿يلعبون﴾ حال من الضمير الأول والظرف صلة ذرهم أو يلعبون ويقال لكل من عمل ما لا ينفعه إنما أنت لاعب.

﴿وهذا﴾ القرآن. ﴿كتاب أنزلناه﴾ وصفه به ليعلم أنه هو الذي تولى إنزاله بالوحي على لسان جبريل وليس تركيب ألفاظه على هذه الفصاحة من قبل الرسول. ﴿مبارك﴾ أي: كثير الفائدة والنفع وكيف وقد أحاط بالعلوم النظرية والعملية فإن أشرف العلوم النظرية هو معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه، ولا يوجد كتاب يفيد معرفة هذه الأمور مثل ما أفاده القرآن، وأما العلوم العملية فالمطلوب منها إما إعمال الجوارح وإما إعمال القلوب وهي المسمى بعلم الأخلاق وتزكية النفس فإنك لا تجد شيئاً منهما مثل ما تجده في القرآن العظيم.

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿مبارك﴾ على العوام بأن يدعوهم إلى ربهم. وعلى الخواص بأن يهديهم إلى ربهم، وعلى خواص الخواص بأن يوصلهم إلى ربهم ويخلقهم بأخلاقه وفي كتاب «المحبوب شفاء لما في القلوب» كما قيل:

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي ... وفيها شفاء للذي أنا كاتمه

اين چه منشور كريمست كه ازهر شكنش ... بوى جان پرور احسان وعطامى آيد
اين چه انفاس روان بخش عبير افشانست ... كه ازو رائحۀ مشك خطا مى آيد

﴿مصدق الذي بين يديه﴾ من التوراة لنزوله حسبما وصف فيها. ﴿ولتنذر أم القرى﴾ عطف على ما دل عليه مبارك، أي: للبركات ولإنذارك أهل أم القرى فالمضاف محذوف والمراد بأم القرى مكة وسميت بها لأن الأرض دحيت من تحتها فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل.

قال الكاشفي في «تفسيره الفارسي» قرى جمع قرية است واورا ازقرا كرفته اند بمعنى جمع است پس هرجاكه مجتمعى باشد ازشهروده انرا قريه توان كفت. ﴿ومن حولها﴾ أهل الشرق والغرب.

قال في «التأويلات النجمية»: أم القرى هي الذرة المودعة في القلب التي هي المخاطب في الميثاق، وقد دحيت جميع أرض القالب من تحتها ومن حولها من الجوارح والأعضاء والسمع والبصر والفؤاد والصفات والأخلاق بأن يتنوروا بأنواره وينتفعوا بأسراره ويتخلقوا بأخلاقه. ﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾ وبما فيها من أنواع العذاب. ﴿يؤمنون به﴾ أي: بالكتاب لأنهم يخافون العاقبة ولا يزال الخوف يحملهم على النظر والتأمل حتى يؤمنوا به. ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ يعني: المؤمنون بالكتاب يداومون على الصلوات الخمس التي هي أشرف التكاليف والطاعات ولذا خصص محافظتها من بين سائر العبادات.

وفي الآيات أمور:

الأول: أن المخلوق لا يَقْدِر قَدْرَ الخالق ولا يدركه باعتبار كنه ذاته وتجرده عن التعينات الاسمائية والصفاتية.

بخيال درنكنجد توخيال خود مرنجان

فكل من عرف الله بآلة محلوقة فهو على الحقيقة غير عارف ومن عرفه بآلة قديمة كما

قال بعضهم عرفت ربي بربي فقد عرف الله، ولكن على قدر استعداده في قبول فيض نور الربوبية الذي به عرف الله على قدره؛ لأنها بينت ذاته وصفاته فالذي يقدر الله حق قدره هو الله تعالى لا غيره.

كنه خردم در خور إثبات تونيست   دانندهٔ ذات توبجزذات تونيست

ما للترات ورب الأرباب.

والثاني: ذم السمن كما عرف في سبب النزول.

قال ابن الملك: السمن المذموم ما يكون مكتسباً بالتوسع في المأكل لا ما يكون خلقة وفي الحديث «ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة واقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٥].

قال العلماء: معنى هذا الحديث أنه لا ثواب لهم وأعمالهم مقابلة بالعذاب فلا حسنة لهم توزن في موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو في النار.

قال القرطبي في «تذكرته»: وفيه من الفقه ذم السمن لمن تكلفه لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم بل يدل على تحريم كثرة الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسمن انتهى.

وفي الفروع: إن الأكل فرض إن كان لدفع هلاك نفسه، ومأجور عليه إن كان لتمكينه من صومه وصلاته قائماً، ومباح إلى الشبع ليزيد قوته، وحرام فوق الشبع إلا لقصد قوة صوم الغد ولئلا يستحيي ضيفه. قال السعدي قدس سره:

باندازه خورزاد اكرمر دمى   چنين پرشكم آدمى يا خمى

ندارند تن پروان آكهى   كه پرمعده باشد زحكمت تهى

قال الإمام السخاوي في «المقاصد الحسنة» في الحديث: «إن الله يكره الحبر السمين» وفي التوراة «إن الله ليبغض الحبر السمين» وفي رواية «إن الله يبغض القارىء السمين».

قال الشافعي رحمه الله: ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن، فقيل له: ولِمَ؟ قال: لأنه لا يفكر والعاقل لا يخلو من إحدى حالتين إما أن يهمّ لآخرته ومعاده أو لدنياه ومعاشه والشحم مع الهمّ لا ينعقد فإذا خلا من المعنيين صار في حد البهائم بعقد الشحم.

ثم قال الشافعي: كان ملك في الزمان الأول كثير اللحم جداً فجمع المتطببين وقال احتالوا حيلة تخف عني لحمي هذا قليلاً فما قدروا فنقبوا له رجلاً عاقلاً أديباً متطبباً وبعثوه فأشخص إليه بصره وقال أيعالجني ذلك الفتى قال أصلح الله الملك أنا رجل متطبب منجم دعني أنظر الليلة في طالعك أي دواء يوافق فأشفيك فهدأ عليه فقال: أيها الملك الأمان قال لك الأمان قال: رأيت طالعك يدل على أن عمرك شهر فمتى أعالجك وإن أردت بيان ذلك فاحبسني عندك فإن كان لقولي حقيقة فخل عني وإلا فاقتص مني قال فحبسه ثم رفع الملك الملاهي واحتجب عن الناس وخلا وحده مغتماً ما يرفع رأسه يعد الأيام كلما انسلخ يوم ازداد غمّاً حتى هزل وخف لحمه ومضى لذلك ثمانية وعشرون يوماً فبعث إليه فأخرجه فقال ما ترى فقال أعزّ الله الملك أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب والله ما أعرف عمري فكيف أعرف عمرك إنه لم يكن عندي دواء إلا الهمّ فلم أقدر أن أجلب إليك الهمّ إلا بهذه العلة فأذابت شحم الكلى فأجازه وأحسن إليه.

والثالث: ما في قوله تعالى: ﴿قل الله﴾ من لطائف العبارات من أهل الإشارات.

قال في «التفسير الفارسي»: [شيخ أبو سعيد أبو الخير قدس سره در كلمه ﴿قل الله ثم ذرهم﴾ فرموده كه الله بس وما سواه هوس وانقطع النفس.

وشيخ الإسلام فرموده كه ﴿قل الله﴾ دل سوى اوداد ﴿ثم ذرهم﴾ غير اور افرو كذار.

وشبلى بابعض أصحاب خود ميكفت كه عليك بالله ودع ما سواء].

چون تفرقه دلست حاصل زهمه دلرا بيكى سپار وبكسل زهمه

فالآية بإشارتها تدل على أن من أراد الوصول إلى الله تعالى فلينقطع عما سواه فإنه لعب ولهو واللاهي واللاعب ليس على شيء نسأل الله سبحانه أن يحفظنا من اشتغال بما سواه.

والرابع: مدح القرآن وبيان فضيلته وفائدته.

قال أحمد بن حنبل: رأيت ربّ العزة في المنام فقلت يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك؟ قال كلامي يا أحمد، قلت يا رب بفهم أم بغير فهم؟ قال: بفهم وبغير فهم والنظر إلى المصحف عبادة برأسه وله أجر على حدته ما عدا أجر القراءة.

وعن حميد بن الأعرج قال: من قرأ القرآن وختمه، ثم دعا أمن على دعائه أربعة آلاف ملك، ثم لا يزالون يدعون له ويستغفرون ويصلون عليه إلى المساء أو إلى الصباح.

فعلى العاقل أن يجتهد حتى يختم القرآن في أوائل الأيام الصيفية والليالي الشتائية ليستزيد في دعائهم واستغفارهم وفي الحديث «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وينبغي أن يقتدي برسول الله ﷺ فلا يطلب عوضاً ولا يقصد جزاء ولا شكوراً، بل يعلم للتقرب إلى الله تعالى ويقتدي بالأنبياء حيث قدم كل واحد منهم على دعوته قوله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الشورى: ٢٣].

قال في «الأسرار المحمدية»: من أخذ الجراية ليتعلم فهي له حلال ولكن من تعلم ليأخذ الجراية فهي عليه حرام. وفيه أيضاً لا يتخذ صحيفة القرآن إذا درست وقاية للكتب بل يمحوها بالماء وكان من قبلنا يستشفي بذلك الماء وينبغي لقارىء القرآن أن يجود ويحسن صوته وفي الحديث: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن» وحسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً قيل: أراد بالتغني الاستغناء، وقيل الترنم وترديد الألحان، وهو أقرب عند أهل اللغة كذا في «الأسرار» ـ ويحكى ـ عن ظهير الدين المرغيناني أنه قال: من قال لمقرىء زماننا أحسنت عند قراءته يكفر كذا في «شرح الهداية» لتاج الشريعة.

وقال في «البزازية» من يقرأ القرآن بالألحان لا يستحق الأجر؛ لأنه ليس بقارىء قال الله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] انتهى.

وسأل الحجاج بعض جلسائه عن أرقّ الصوت عندهم، فقال أحدهم: ما سمعت صوتاً أرق من صوت قارىء حسن الصوت يقرأ كتاب الله تعالى في جوف الليل، قال: ذلك الحسن، وقال آخر: ما سمعت صوتاً أعجب من أن أترك امرأتي ماخضاً وأتوجه إلى المسجد بكيراً فيأتيني آت، فيبشرني بغلام، فقال: واحسناه، فقال شعبة بن علقمة التميمي: لا والله ما سمعت أعجب إليّ من أن أكون جائعاً فأسمع خفخفة الخوان، فقال الحجاج: أبيتم يا بني تميم إلا حب الزاد والمقصود من هذه الحكاية بيان اختلاف مشارب الناس فمن أحب الله وأنس بكلامه وتجرد عن الأعراض، وكان القارىء متحاشياً من الأنغام الموسيقية وألحان أهل الفسق قارئاً على لحون العرب محسناً صوته فلا مجال للطعن فيه والدخل ظاهراً وباطناً والله أعلم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾

﴿ومن﴾ استفهام مبتدأ، أي: لا أحد. ﴿أظلم﴾ خبره ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾ مفعول افترى، أي: اختلق كذباً وافتعله فزعم أنه تعالى بعثه نبياً كمسيلمة الكذاب، والأسود العبسي، أو اختلق عليه أحكاماً كعمرو بن لحي وهو أول من غير دين إسماعيل عليه السلام، ونصب الأوثان، وبحر البحيرة وسيب السائبة قال عليه السلام في حقه «رأيته يجر قصبه في النار».

قال قتادة كان مسيلمة يسجع ويتكهن، كما قال في معارضة سورة الكوثر: إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وهاجر إنا كفيناك المكابر والمجاهر فانظر كيف كان ساقل الألفاظ والبناء فاسد المعاني والجنى فادعى النبوة وكان قد أرسل إلى رسول الله ﷺ رسولين فقال عليه السلام «أتشهدان أن مسيلمة نبي» قالا نعم فقال عليه السلام: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما» وفي الحديث: «بينا أنا نائم أتيت بخزائن الأرض، فوضع في يدي سواران من ذهب فكبرا عليّ وأهماني فأوحي إلي أن أنفخهما فنفختهما فذهبا فأولتهما بالكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة».

قال القاضي: وجه تأويلهما بالكذابين أن السوار كالقيد لليد يمنعها عن البطش، فكذا الكذابان يقومان بمعارضة شريعته ويصدان عن نفاذ أمرها قتل صاحب صنعاء وهو الأسود العبسي في مرض موت النبي عليه السلام قتله فيروز الديلمي فلما بلغ خبر قتله النبي عليه السلام قال: «فاز فيروز» وقتل صاحب اليمامة. وهو مسيلمة في عهد الصديق قتله الوحشي قاتل حمزة فلما قتله قال: «قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في إسلامي» ﴿أو قال أوحي إلي﴾ من جهته تعالى ﴿ولم يوح إليه﴾ أي: والحال أنه لم يوح إليه. ﴿شيء﴾ أصلاً كعبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ فلما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢)﴾ [المؤمنون: ١٢] فلما بلغ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] قال عبد الله ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] تعجباً من تفصيل خلق الإنسان فقال عليه السلام «اكتبها فكذلك نزلت» فشك عبد الله وقال لئن كان محمد صادقاً أي في قوله فكذلك نزلت لقد أوحي إلي كما أوحي إليه ففي التحقيق أنا أكون مثله ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال فعليّ أن أدّعي نزول الوحي مثله فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة إذ نزل النبي عليه السلام بمرو. ﴿ومن﴾ أي: وممن ﴿قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ وهم المستهزئون الذين قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا.

﴿ولو ترى إذ الظالمون﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ومفعول ترى محذوف لدلالة الظرف عليه أي ولو ترى الظالمين إذ هم. فالظالمون مبتدأ وما بعده خبره وإذ مضاف إلى الجملة، والمراد بالظالمين الجنس فيدخل فيهم المتلبثة وغيرهم وجواب لو محذوف أي لو ترى الظالمين في هذا الوقت لرأيت أمراً عظيماً. ﴿في غمرات الموت﴾ أي: شدائده وسكراته. جمع غمرة وهي الشدة الغالبة من غمره الماء إذا علاه وغطاه. ﴿والملائكة﴾ أي: ملك الموت وأعوانه من ملائكة العذاب. ﴿باسطو أيديهم﴾ بقبض أرواحهم كالمتقاضي الملظ أي كالغريم

الملازم الملح الذي يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنفه عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له اخرج إليّ ما لي عليك الساعة ولا أزال من مكاني حتى أنزعه من كبدك وحدقتك أو باسطوها بالعذاب قائلين. ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ أي: أرواحكم إلينا من أجسادكم وهذا القول منهم تغليظ وتعنيف وإلا فلا قدرة لهم على الإخراج المذكور أو أخرجوها من العذاب وخلصوها من أيدينا. ﴿اليوم﴾ أي: وقت الإماتة أو الوقت الممتد بعده إلى ما لا نهاية له. ﴿تجزون عذاب الهون﴾ أي: العذاب المتضمن لشدة وإهانة والهون الهوان، أي: الحقارة. ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ كاتخاذ الولد ونسبة الشريك وادعاء النبوة والوحي كذباً. ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها، وفي الحديث: «إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك، وضبائر من الريحان، وتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين، ويقال لها: أيتها النفس الطيبة اخرجي راضية مرضية ومرضياً عنك إلى روح الله، وكرامته فإذا خرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين، وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعاً شديداً، ويقال لها: أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوطاً عليك إلى هوان الله وعذابه، فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وإن لها نشيجاً، أي: صوتاً ويطوي عليها المسح ويذهب بها إلى سجين» كذا في «تفسير أبي الليث» رحمه الله.

والإشارة أن الذين يراؤون في التأوه والزعقات وإظهار المواجيد والحالات لهم من الله خطرات ونظرات وليس لهم منها نصيب إلا الزفرات والحسرات والمتشبع بما لم يملك كلابس ثوبي زور وفي معناه أنشدوا:

إذا انسكبت دموع في خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

والذي نزل نفسه منزلة المحدثين وأهل الإشارة ولم يلق إلى أسرارهم خصائص الخطاب ولم تلهم نفوسهم بها والذين يتشدقون ويتفيهقون في الكلام الذين يدعون أنهم يتكلمون بمثل ما أنزل الله من الحقائق والأسرار على قلوب عباده الواصلين الكاملين فكلهم من الظالمين وتظهر مضرة ظلمهم وافترائهم عند انقطاع تعلق الروح عن البدن وإخراج النفس من القالب كرهاً لتعلقها بشهوات الدنيا ولذاتها وحرمانها من لذة الحقائق الغيبية والشهوات الأخروية؛ إذ الملائكة يبسطون أيديهم بالقهر إليهم لنزع أنفسهم بالهوان والشدة، وهي متعلقة بحسب الافتراء والكذب واستحلاء رفعة المنزلة عند الخلق وطلب الرياسة بأصناف المخلوقات فتكون شدة النزع والهوان بقدر تعلقها بها كما قال: ﴿اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ يعني: آياته المودعة في أنفسكم تعرضون عنها وتراؤون بما ليس لكم ولعل تعلق النفس يتقطع عن البدن بيوم أو يومين أو ثلاثة أيام وتعلقها عن أوصاف المخلوقات لا ينقطع بالسنين ولعله إلى الحشر والكفار إلى الأبد وهم في عذاب النزع بالشدة أبداً وهو العذاب الأليم والعذاب الشديد ومن نتائج هذه الحالة عذاب القبر فافهم جداً ـ وحكي ـ عن بعض العصاة أنه مات فلما حفروا قبره وجدوا فيه حية عظيمة فحفروا له قبراً آخر فوجدوها فيه ثم كذلك قبراً بعد قبر إلى أن حفروا نحواً من ثلاثين قبراً وفي كل قبر يجدونها فلما رأوا أنه لا يهرب من الله هارب ولا يغلب الله غالب دفنوه معها وهذه الحية هي عمله. قال الحافظ:

كارى كنيم ورنه خجالت برآورد ... روزى كه رخت جان بجهان دكر كشيم

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿ولقد جئتمونا﴾ للحساب والجزاء وهو بمعنى المستقبل، أي: تجيئوننا وإنما أبرز في صورة الماضي لتحققه كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] والخطاب لكفار قريش لأنها نزلت حين قالوا افتخاراً واستخفافاً للفقراء نحن أكثر أموالاً وأولاداً في الدنيا وما نحن بمعذبين في الآخرة. ﴿فرادى﴾ جمع فرد أي منفردين عن الأموال والأولاد وسائر ما آثرتموه من الدنيا. ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ بدل من فرادى أي على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد أو حال من ضمير فرادى أي: مشبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة غرلاً بهما أي ليس بهم شيء مما كان في الدنيا نحو البرص والعرج، كذا في «القاموس» وفي الخبر: «إنهم يحشرون يوم القيامة عراة حفاة غرلاً» قالت عائشة رضي الله عنها واسوءتاه الرجل والمرأة كذلك فقال عليه السلام: «لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض» ﴿وتركتم ما خولناكم﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة، والتخويل تمليك الخول، أي: الخدم والأتباع واحدهم خائل أو الإعطاء على غير جزاء. ﴿وراء ظهوركم﴾ ما قدمتم منه شيئاً ولم تحملوا نقيراً بخلاف المؤمنين فإنهم صرفوا همتهم إلى العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة فبقيت معهم في قبورهم وحضرت معهم في محفل القيامة فهم في الحقيقة ما حضروا فرادى.

چون ازنيجا وارهى انجاروى ... درشكر خانه ابد شاكر شوى

﴿وما نرى معكم شفعاءكم﴾ الأصنام ﴿الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ أي: شركاء لله في ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم. ﴿لقد تقطع بينكم﴾ أي: وقع التقطع بينكم كما يقال جمع بين الشيئين، أي: أوقع الجمع بينهما.

قال الكاشفي: [منقطع كشت آنچه ميان شما بود ازوصلت ومودت] ﴿وضل عنكم﴾ أي: بطل وضاع. ﴿ما كنتم تزعمون﴾ أنها شفعاؤكم فلم يقدروا على دفع شيء من العذاب عنكم، أو أنها شركاؤكم لله في ربوبيتكم وهو الأنسب لسياق النظم ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾.

اعلم أن للإنسان أعداء أربعة هي: المال والأهل والأولاد والأصدقاء، وهي لا تدخل في القبر مع الميت فيبقى فريداً وحيداً منهم، وأصدقاء أربعة هي: كلمة الشهادة والصلاة والصوم وذكر الله هي تدخل في القبر وتشفع عند الله تعالى فتصحب الميت فلا يبقى وحيداً.

فعلى العاقل أن يتفكر في تجرده وتفرده فيسعى في تحصيل لباس له هو التقوى ومصاحب هو العمل الصالح، وفي الحديث: «إن عمل الإنسان يدفن معه في قبره، فإن كان العمل كريماً أكرم صاحبه، وإن كان لئيماً أسلمه، وإن كان عملاً صالحاً آنس صاحبه وبشره ووسع عليه قبره ونوره وحماه من الشدائد والأهوال والعذاب والوبال، وإن كان عملاً سيئاً فزع صاحبه وروّعه وأظلم عليه قبره وضيقه وعذبه وخلّى بينه وبين الشدائد والأهوال والعذاب والوبال».

قال اليافعي: وقد سمعت عن بعض الصالحين في بعض بلاد اليمن أنه لما دفن بعض الموتى وانصرف الناس سمع في القبر صوتاً ودقاً عنيفاً ثم خرج من القبر كلب أسود فقال له الشيخ الصالح ويحك ايش أنت؟ فقال: أنا عمل الميت فقال: فهذا الضرب فيك أم فيه؟ قال: بل فيّ وجدت عنده سورة يس وأخواتها فحالت بيني وبينه وضربت وطردت فانظر أنه لما قوي عمله الصالح غلب على عمله الصالح وطرده عنه بكرم الله تعالى ولو كان عمله القبيح أقوى لغلب عليه وأفزعه وعذب. قال السعدي:

غم وشادمانى نماند وليك جزاى عمل ماندو نام نيك
مكن تكيه برملك وجاه وحشم كه پيش ازتوبودست وبعد ازتوهم

قال القشيري: ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾ أي: دخلتم الدنيا بخرقة وخرجتم منها بخرقة ألا وتلك الخرقة أيضاً لبسه وما دخلت إلا بوصف التجرد وما خرجت إلا بحكم التجرد ثم الأثقال والأوزار والأعمال والأوصال لا يأتي عليها حصر ولا مقدار فلا مالكم أغنى ولا حالكم يدفع عنكم ولا شفيع يخاطبنا فيكم، ولقد تفرق وصلكم وتبدد شملكم وتلاشى ظنكم وخاب سعيكم انتهى كلام القشيري.

والإشارة أن المجيء إلى الله يكون بالتجريد ثم بالتفريد ثم بالتوحيد، فالتجريد هو التجرد عن الدنيا وما يتعلق بها، والتفريد هو التفرد عن الدنيا والآخرة رجوعاً إلى الله خالياً عن التعلق بهما كما كان في بدء الخلقة روحاً مجرداً عن تعلقات الكونين كقوله: ﴿لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ يعين أول خلقة الروح قبل تعلقه بالقالب فإنه خلقه ثانية كما قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] فللعبد في السير إلى الله كسب وسعي بالتجريد والتفريد عن الدنيا والآخرة كما قال: ﴿وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ يعني من تعلقات الكونين ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ يعني: الأعمال والأحوال التي ظننتم أنها توصلكم إلى الله تعالى ﴿لقد تقطع بينكم﴾ وبينها عند انتهاء سيركم ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ أنها توصلكم إلى الله فإذا وصل العبد إلى سرادقات العزة انتهى سيره كما انتهى سير جبرائيل ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وهو منتهى سير السائرين من الملك والأنس والتوحيد هو التوحد لقبول فيض الوحدانية عن التجلي بصفات الواحدية لتوصل العبد بجذبة ارجعي إلى ربك إلى مقام الوحدة ولو لم تدركه العناية الأزلية بجذبات الربوبية لانقطع عن السير في الله بالله وبقي في السدرة وهو يقول وما منا إلا له مقام معلوم فافهم كذا في «التأويلات النجمية».

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

﴿إن الله فالق الحب﴾ الفلق الشق بإبانة، والحبّ: جمع حبة وهي اسم لجميع البزور المقصودة بذواتها كالبر والشعير والذرة ونحوها، والمعنى شاق الحب بالنبات أي يشق الحبة اليابسة فيخرج منها ورق أخضر. ﴿والنوى﴾ واحدتها نواة وهي الشيء الموجود في داخل الثمر مثل نواة الخوخ والمشمش والتمر ونحوها والمعنى شاق النوى بالشجر، أي: يشق النواة

الصلبة فيخرج شجرة ذات أوراق وأغصان. ﴿يخرج الحي من الميت﴾ بيان لما قبله أي يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات مما لا ينمو من النطفة والحب. ﴿ومخرج الميت﴾ كالنطفة والحب ﴿من الحي﴾ كالحيوان والنبات وهو معطوف على فالق الحب، فالحي والميت مجاز عن النامي والجامد تشبيهاً للنامي بالحي والحي حقيقة فيما يكون موصوفاً بالحياة المستتبعة للحس والحركة الإرادية والميت حقيقة فيما يكون خالياً عن صفة الحياة ممن تكون الحياة من شأنه، ومنهم من حمل اللفظ على الحقيقة وقال يخرج من النطفة الميتة بشراً حياً ومن الدجاجة بيضة ميتة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يخرج المؤمن من الكافر كما في حق إبراهيم عليه السلام والكافر من المؤمن كما في حق ولد نوح عليه السلام والعاصي من المطيع وبالعكس والعالم من الجاهل وبالعكس والعاقل من الأحمق وبالعكس.

والإشارة يخرج نخل الإيمان من نوى الحروف الميتة في كلمة لا إله إلا الله ومخرج ميت النفاق من الكلمة الحية وهي لا إله إلا الله. ﴿ذلكم﴾ القادر العظيم الشأن. ﴿الله﴾ المستحق للعبادة وحده. ﴿فأنى تؤفكون﴾ فكيف تصرفون عن عبادته إلى غيره ولا سبيل إليه أصلاً. والإفك في اللغة قلب الشيء وصرفه والخطاب لكفار قريش لأن السورة مكية.

﴿فالق الإصباح﴾ خبر آخر لإن. والإصباح: بكسر الألف مصدر بمعنى الدخول في ضوء النهار سمي به الصبح أي فالق عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره. ﴿وجعل الليل سكناً﴾ يسكن إليه التعب بالنهار لاستراحته من سكن إليه إذا اطمأن إليه استئناساً به أو سكن فيه الخلق من قوله تعالى: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧] ﴿والشمس والقمر﴾ أي: وجعلهما. ﴿حسباناً﴾ أي: على أدوار مختلفة يحسب بها الأوقات فإنه تعالى قدر حركه الشمس بمقدار من السرعة والبطء بحيث تتم دورتها في سنة وقدر حركة القمر بحيث تتم الدورة في شهر وبهذا التقدير تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة كنضج الثمار وأمور الحرث والنسل ونحو ذلك مما يتوقف عليه قوام العالم وباختلاف منازل القمر وتجدد الأهلة في كل شهر يعلم آجال الديون ومواقيت الأشياء فمعنى جعل الشمس والقمر حسباناً جعلهما علمي حساب. فالحسبان بالضم مصدر بمعنى الحساب والعد وبابه نصر، وأما الحسبان: بكسر الحاء فهو من باب علم ومعناه الظن والتخمين وتقديم الشمس لضيائها على القمر لأنها معدن الأنوار الفلكية من البدور والنجوم وأصلها في النورانية وأن أنوارهم مقتبسة من نور الشمس على قدر تقابلهم وصفوة أجرامهم.

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره: نور القمر ليس من نفسه وإنما هو من عالم الأنوار فهو ليس بناقص في ذاته وإنما ذلك بسبب عروض الكثافة بالتدريج ولولا ذلك لم تعرف الشهور والسنون والشمس والقمر عينا هذا التعين وظاهرهما إلى الفوق والذي نراه جانبهما الداخل فهو تارة يفتح عينيه وأخرى يغمض كما أنا نفعل كذلك والكواكب ليست مركوزة فيه وإنما هي بانعكاس الأنوار في بعض عروقه اللطيفة والذي يرى كسقوط النجم فكدفع الشمس من موضع إلى موضع وهذا لا يطلع عليه الحكماء، وإنما يعرفه أهل السلوك ثم قال الليل والنهار في عالم الآخرة ليسا بالظلمة والضياء بل لهما علامة أخرى بتجلي من التجليات فيعرفون به الليل والنهار وكيف يكون الليل هنا بالظلمة وقد قال عليه السلام: «لو

خرج ورق من أوراقها إلى الدنيا لأضاء العالم» انتهى كلامه ﴿ذلك﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً، أي: ذلك التسيير البديع بالحساب المعلوم. ﴿تقدير العزيز﴾ الذي قهرهما وسيرهما على الوجه المخصوص. ﴿العليم﴾ بما فيهما من المنافع والمصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم. قال السعدي:

ابر وباد ومه وخورشيد وفلك دركارند تاتو نانى بكف آرى وبغفلت نخورى
همه ازبهر توسر كشته وفرمان بردار شرط انصاف نباشد كه توفرمان نبرى

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وهو الذي﴾ [واوست خداونديكه بقدرت كامله] ﴿جعل لكم﴾ أي: أنشأ لأجلكم وأبدع. ﴿النجوم﴾ التي تختلف مواضعها من جهة الشمال والجنوب والصبا والدبور. ﴿لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ أي: في ظلمات الليل في البر والبحر وإضافتها إليهما للملابسة فإن الحاجة إلى الاهتداء بها إنما تحقق عند ذلك.

قال الحدادي: لتعرفوا بها الطرق من بلد إلى بلد في المفاوز ولجج البحار في الليالي المظلمة في السفن فإن من النجوم ما يجعله السائر تلقاء وجهه، ومنها ما يجعله على يمينه. ومنها ما يجعله على يساره، ومنها ما يجعله خلفه ليظهر له الطريق التي تؤديه إلى بغيته، وللنجوم فوائد أخر: وهي أنها زينة السماء ورمي الشياطين وغير ذلك. ﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي بينا الآيات الدالة على قدرتنا فصلاً فصلاً. ﴿لقوم يعلمون﴾ فإنهم المنتفعون بها.

﴿وهو الذي أنشأكم﴾ مع كثرتكم ﴿من نفس واحدة﴾ من نفس آدم وحدها فإنه خلقنا جميعاً منه وخلق أمّنا حواء من ضلع من أضلاع آدم فصار كل الناس محدثة مخلوقة من نفس واحدة حتى عيسى فإن ابتداء تكوينه من مريم التي هي مخلوقة من ماء أبويها، وإنما منّ علينا بهذا لأن الناس إذا رجعوا إلى أصل واحد كانوا أقرب إلى أن يألف بعضهم بعضاً.

قال أهل الإشارة: إن الله تعالى كما خلق آدم ابتداء وجعل أولاده منه كذلك خلق روح محمد ﷺ قبل الأرواح كما قال: «أول ما خلق الله روحي» ثم خلق الأرواح من روحه فكان آدم أبا البشر وكان محمد ﷺ أبا الأرواح وإليه يشير قوله تعالى: ﴿هو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ ﴿فمستقر ومستودع﴾ كل واحد منهما مصدر ميمي مرفوع على الابتداء والخبر محذوف أي فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض واستيداع في الأرحام أو تحت الأرض وجعل صلب الأب مستقر النطفة ورحم الأم مستودعاً لها لأن النطفة حصلت في صلب الأب لا من قبل الغير وحصلت في رحم الأم بفعل الغير فأشبهت الوديعة كأن الرجل أودعها ما كان مستقراً عنده.

وقال الحسن: يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك ويوشك أن تلحق بصاحبكم وأنشد قول لبيد:

ومـا الـمـال والأهـلـون إلا وديـعـة ولا بـد يـومـاً أن تـرد الـودائـع

والقلب أيضاً من الودائع والأمانات. قال الصائب:

تـرا بـكـوهـر دل كـرده انـد امـانـتـدار نه دزد امانت حق را نكاه دار مخسب

﴿قد فصلنا الآيات﴾ المبينة لتفاصيل خلق البشر من هذه الآية ونظائرها ﴿لقوم يفقهون﴾ غوامض الدقائق باستعمال الفطنة وتدقيق النظر وإنما ذكر مع ذكر النجوم يعلمون ومع ذكر تخليق بني آدم يفقهون لأن ذلك إشارة إلى آيات الآفاق وهذا إلى آيات الأنفس ولا شك أن آيات الآفاق أظهر وأجلى وآيات الأنفس أدق وأخفى فكان ذكر الفقه لها أنسب وأولى لأن الفقه عبارة عن الوقوف على المعنى الخفي وأصل تركيب الفقه يدل على الشق والفتح والفقيه العالم الذي يشق الأحكام ويفتش عن حقائقها ويفتح ما استغلق منها فالفقه إنما يطلق حيث يكون فيه حذاقة وتدقيق نظر.

قال الحدادي: الفقه في اللغة هو الفهم لمعنى الكلام إلا أنه قد جعل في العرف عبارة عن علم الغيب على معنى أنه استدراك معنى الكلام بالاستنباط من الأصول ولهذا لا يجوز أن يوصف الله تعالى بأنه فقيه لأنه لا يوصف بالعلم على جهة الاستنباط ولكنه عالم بجميع الأشياء على وجه أحد انتهى.

ثم هذه الآيات الآفاقية والأنفسية تفصح عن صنع الله البديع وتدعو أهل الشرك إلى التوحيد والإيمان وأهل الإخلاص إلى الشهود والعيان وأهل المعصية إلى الطاعة والتوبة باللسان والجنان فإن الامتنان بذكر النعم الجليلة يستدعي شكراً لها ومعرفة لحقها ولكل قوم وفريق سلوك إلى طريق التحقيق على حسب ما أنعم عليه من توحيد الأفعال والصفات والذات فعلى العاقل أن يجتهد في طلب الحق فإن المقصود من ترتيب مقدمات العوالم آفاقية كانت أو أنفسية هو الوصول إلى الظاهر من جهة المظاهر وإنما أصل الحجاب هو الغفلة ـ وحكي ـ أن الشيخ أبا الفوارس شاهين بن شجاع الكرماني رحمه الله خرج للصيد وهو ملك كرمان فأمعن في الطلب حتى وقع في برية مقفرة وحده فإذا هو بشاب راكب على سبع وحوله سباع فلما رأته ابتدرت نحوه فزجرها الشاب عنه فلما دنا إليه سلم عليه وقال له يا شاه ما هذه الغفلة عن الله اشتغلت بدنياك عن آخرتك وبلذتك وهواك عن خدمة مولاك إنما أعطاك الله الدنيا لتستعين بها على خدمته فجعلتها ذريعة إلى الاشتغال عنه فبينما الشاب يحدثه إذ خرجت عجوز بيدها شربة ماء فناولتها الشاب فشرب فدفع باقيه إلى الشاه فشربه فقال ما شربت شيئاً ألذ منه ولا أبرد ولا أعذب ثم غابت العجوز فقال الشاب هذه الدنيا وكّلها الله إلى خُدمتي فما احتجت إلى شيء إلا أحضرته إليّ حين يخطر ببالي أما بلغك أن الله تعالى لما خلق الدنيا قال لها: (يا دنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه) فلما رأى ذلك تاب وكان منه ما كان وأنشد بعضهم:

خدمت لما إن صرت من خدمك ... ودار عندي السرور من نعمك
وكانت الحادثات تطرقني ... فاستحشمتني إذ صرت من حشمك

اللهم اجعلنا من الملازمين لبابك ولا تقطعنا عن جنابك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وهو﴾ أي: الله تعالى ﴿الذي أنزل من السماء ماء﴾ خاصاً هو المطر ثم التفت من الغيبة إلى التكلم فقال ﴿فأخرجنا﴾ بعظمتنا فالنون للعظمة لا الجمع فإن الملك العظيم يعبر عن

نفسه بلفظ الجمع تعظيماً له ﴿به﴾ أيّ: بسبب ذلك الماء مع وحدته. ﴿نبات كل شيء﴾ ينبت كنبات الحنطة والشعير والرمان والتفاح وغيرها فشيء مخصص فلا يلزم أن يكون لكل شيء نبات كالحجر مثلاً والنبت والنبات ما يخرج من الأرض من الناميات سواء كان له ساق كالشجر أو لم يكن كالنجم.

فإن قيل: كيف جعل الله المطر سبباً للنبات والفاعل بالسبب يكون مستعيناً بفعل السبب والله تعالى مستغن عن الأسباب.

قيل: لأن المطر سبب يؤدي إلى النبات وليس بمولود له والله تعالى قادر على إنبات النبات بدون المطر وإنما يكون الفاعل بالسبب مستعيناً بذلك السبب إذا لم يمكنه فعل ذلك الشيء إلا بذلك السبب كما أن الإنسان إذا لم يمكنه أن يصعد السطح إلا بالسلم فإن السلم آلة للصعود والظاهر أنه إذا صعد السطح بالسلم لم يكن السلم آلة له لأنه يمكنه أن يصعد السطح بدون السلم. ﴿فأخرجنا منه﴾ شروع في تفصيل ما أجمل من الإخراج وقد بدأ بتفصيل حال النجم أي فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له شيئاً غضاً. ﴿خضراً﴾ بمعنى أخضر وهو أي الشيء الأخضر الخارج من النبات ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة. ﴿نخرج منه﴾ صفة لخضراً أي نخرج من ذلك الخضر المتشعب. ﴿حباً متراكباً﴾ هو السنبل المنتظم للحبوب المتراكبة بعضها فوق بعض على هيئة مخصوصة. ﴿ومن النخل﴾ شروع في تفصيل حال الشجر إثر بيان حال النجم وهو خبر مقدم. ﴿من طلعها﴾ بدل منه بإعادة العامل وهو شيء يخرج من النخل كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود. ﴿قنوان﴾ مبتدأ، أي: وحاصلة من طلع النخل قنوان جمع قنو وهو للثمر بمنزلة العنقود للعنب ﴿دانية﴾ سهلة المجتنى قريبة من القاطف فإنها وإن كانت صغيرة ينالها القاعد تأتي بالثمر لا تنتظر الطول أو ملتفة متقاربة وفيه اختصار معناه من النخل ما قنوانها دانية ومنها ما هي بعيدة فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لأن النعمة في القريبة أكمل وأكبر وفي الحديث: «أكرموا عماتكم النخل فإنها خلقت من فضلة طينة آدم وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران فأطعموا نساءكم الولد الرطب فإن لم يكن رطب فتمر» انتهى. فظهر أن السبب في إطعام النفساء رطباً أن مريم رضي الله عنها كان أول ما أكلت حين وضع عيسى عليه السلام هو الرطب كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: ٢٥] وورد في فضيلة السفرجل أيضاً أنه شكا بعض الأنبياء إلى الله تعالى من قبح أولاد أمته فأوحى الله إليه مُرْهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل في الشهر الثالث والرابع لأن فيه تصور الجنين فإنه يحسن الولد. ﴿و﴾ أخرجنا به ﴿جنات﴾ بساتين كائنة ﴿من أعناب﴾ فهو عطف على نبات كل شيء ولعل زيادة الجنات هنا من غير اكتفاء بذكر اسم الجنس كما فيما تقدم وما تأخر لما أن الانتفاع بهذا الجنس لا يتأتى غالباً إلا عند اجتماع طائفة من أفراده وكل نبت متكاثف يستر بعضه بعضاً فهو جنة من جنّ إذا استتر والأعناب جمع عنب وهو بالفارسية [انكور].

﴿والزيتون والرمان﴾ أي: وأخرجنا أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان. ﴿مشتبهاً﴾ أوراقهما ومشتملاً على الغصن من أوله إلى آخره في كليهما وهو حال. ﴿وغير متشابه﴾ ثمرهما.

وفي «التفسير الفارسي». [﴿مشتبهاً﴾ در حالتى كه آن درختان بعضى ببعضى ما نند دربرك ﴿وغير متشابه﴾ ونه ما نند يكديكر در طعم ميوه چه بعضى بغايت ترش ميباشد وبعضى

شيرين وبرخى ترش وشيرين]. ﴿انظروا﴾ يا مخاطبين نظر اعتبار ﴿إلى ثمره﴾ [بميوه هردرختى] ﴿إذا أثمر﴾ إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً لا يكاد ينتفع به ﴿وينعه﴾ وإلى حال نضجه كيف يعود ضخماً ذا نفع ولذة والينع في الأصل مصدر ينعت الثمرة إذا أدركت. وقوله إذا أثمر ظرف لقوله انظروا أمر بالنظر في أول حال حدوث الثمرة وفي كمال نضجها مع كونها نابتة من أرض واحدة ومسقية بماء واحد ليعلم كيف تتبدل وتنتقل إلى أحوال مضادة للأحوال السابقة وحصول هذه التغيرات مسند إلى القادر الحكيم العليم المدبر لهذا العالم على وفق الرحمة والحكمة والمصلحة.

قال القرطبي: هذا الينع هو الذي يتوقف عليه جواز بيع الثمرة وهو أن يطيب أكل الفاكهة وتأمن العاهة وهو عند طلوع الثريا بما أجرى الله تعالى عادته عليه ـ روى ـ أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال: «إذا طلعت الثريا صباحاً رفعت العاهة عن أهل البلد» وطلوعها صباحاً في اثنتي عشرة تمضي من شهر أيار وهو آخر الشهور الثلاثة من أول فصل الربيع وهي آذار ونيسان وأيار ﴿إن في ذلكم﴾ إشار إلى ما أمر بالنظر إليه ﴿لآيات﴾ عظيمة دالة على وجود القادر الحكيم ووحدته ﴿لقوم يؤمنون﴾ خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بالاستدلال بها والاعتبار.

والإشارة في الآية إن الله تعالى ينزل من سماء العناية ماء الهداية فيخرج به أنواع المعارف والأسرار على حسب مراتب أهل الزهد والفتوى وأهل العشق والتقوى إذ القلب كالروضة ينشأ منه ما هو مستعد له وكل نبت يترجم عن ترابه، كما قال في «المثنوي»:

درزمين كرنى شكر ورخود نى است ترجمان هر زمين نبت وى است

والنخل أعلى من غيره ولذا يقال إنه إشارة إلى أصحاب الولايات فمن ثمرات ولايتهم ما هو متدان للطالبين والمريدين يعني منهم من يكون مربياً فينتفع بثمرات ولايته ومنهم من يختار العزلة والانقطاع عن المتمسكين به وجملة شؤونهم ناظرة إلى أمر الله تعالى وإذنه ولذا لا يطعن فيهم إلا جاهل وهم في خلواتهم وجلواتهم يتفكهون من روضات القلوب ويتلذذون بلذائذ حبات الغيوب وأمرهم مستور عن الخلق وأعينهم.

وعن بعضهم قال: رأيت عند قبر النبي عليه السلام تسعة من الأولياء فتبعتهم فالتفت إليّ أحدهم وقال أين تمر؟ قلت: أسير معكم لحبي فيكم فإني سمعت عمن زرتموه عليه السلام أنه قال: «المرء مع من أحبّ» فقال أحدهم إنك لا تقدر على المسير إلى هذا الموضع الذي نقصده فإنه لا يقدر عليه إلا من بلغ سنه أربعين سنة فقال آخر دعه لعل الله يرزقه فسرت معهم والأرض تطوى من تحتنا طياً فلم نزل حتى انتهينا إلى مدينة مبنية بالذهب والفضة وأشجارها متكاثفة وأنهارها مطردة رائقة وفواكهها كبيرة فائقة فدخلنا وأكلنا من ثمرها وأخذت معي ثلاث تفاحات فلم يمنعوني من أخذها فسألتهم عند الانصراف عن المدينة قالوا مدينة الأولياء إذا أرادوا التنزه ظهرت لهم أينما كانوا ما دخلها أحد قبل الأربعين غيرك وكنت كلما جعت أكلت من التفاحة وهي لا تتغير ورجعت إلى أهلي وقد بقي معي تفاحة واحدة غير التي ادخرتها لنفسي فعانقتني أختي وقالت أين الذي أطرفتنا به من سفرك فقلت وما الذي أطرفكم به وأنا بعيد عن الدنيا وعن الراحة قالت فأين التفاحة فعميت عليها وقلت وأي تفاحة قالت يا مسكين والله لقد أدخلوني تلك المدينة وأنا بنت عشرين سنة وأما أنت فلم ترها إلا بعد أن طردوك وأنا والله جذبت إليها جذبة وخطبت إليها خطبة قلت أي أخت فالبدل الكبير منهم يقول لي لم

يدخلها أحد لم يبلغ أربعين سنة غيرك قالت نعم من المريدين وأما المرادون فيدخلونها ولا يرضون بها ومتى شئت أريتكها فقلت قد شئت فقالت يا مدينتي احضري فوالله لقد رأيت المدينة بعينها تتدلى إليها وترف عليها فمدت يدها وقالت أين تفاحك قال فتساقط عليّ من التفاح ما علاني فضحكت ثم قالت من عنده من الملك هذا يحتاج إلى تفاحتك قال فاستحقرت والله نفسي عند ذلك وما كنت أعلم أن أختي منهم رضي الله عنها وعنهم. قال السعدي:

نه هركس سزاوار باشد بصدر   كرامت بفضلست ورتبت بقدر

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾. قال الكاشفي: الأصح أنها نزلت في الزنادقة، أعني: المجوس ويقال لهم الثنوية أيضاً قالوا إن الله تعالى وإبليس أخوان فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام وكل خير ويعبرون عن الله بيزدان وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب وكل شر ويعبرون عن إبليس باهرمن وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] وإبليس من الجنة والمعنى وجعلوا الجن شركاء لله في اعتقادهم الباطل. ﴿وخلقهم﴾ حال من فاعل جعلوا بتقدير قد أي والحال أنهم قد علموا أن الله خالقهم دون الجن وليس من يخلق كمن لا يخلق فالضمير للجاعلين ويحتمل أن يكون للجن أي والحال أنه تعالى خلق الجن فكيف يجعلون مخلوقه شريكاً له. ﴿وخرقوا له﴾ أي: افتعلوا وافتروا له تعالى يقال خرق واخترق واختلق وافترى إذا كذب. ﴿بنين وبنات﴾ فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت طائفة من العرب الملائكة بنات الله ﴿بغير علم﴾ بحقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب بل رمياً بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية. والباء متعلقة بمحذوف هو حال من فاعل خرقوا أي خرقوا ملتبسين بغير علم. ﴿سبحانه﴾ أي: تنزه تعالى بذاته تنزهاً لائقاً به، ﴿وتعالى﴾ من العلو، أي: استعلى ويجوز في صفات الله تعالى علا ولا يجوز ارتفع لأن العلو قد يكون بالاقتدار والارتفاع يقتضي الجهة والمكان ولما في السبحان والتعالي من معنى التباعد قيل ﴿عما يصفون﴾ أي تباعد عما يصفونه من أن له شريكاً أو ولداً.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿بديع السموات والأرض﴾ أي: هو مبدع من غير مثال سبق لقطري العالم العلوي والسفلي بلا مادة فاعل على الإطلاق منزه عن الانفعال بالمرة والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه فكيف يكون له ولد فالفعيل بمعنى المفعل كالأليم والحكيم بمعنى المؤلم والمحكم والإضافة حقيقية وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أي بديع سمواته وأرضه من بدع إذا كان على نمط عجيب وشكل فائق وحسن رائق. ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أي: من أين أو كيف يوجد له ولد والحال أن أسباب الولادة منتفية فإن وجود الولد بلا والدة محال وإن أمكن بلا والد كعيسى عليه السلام والمراد بالصاحبة الزوجة. وفي «المثنوي»:

لم يلد لم يولد است أو ازقدم   نى پدر دارد نه فرزندونه عم

﴿وخلق كل شيء﴾ انتظم بالتكوين والإيجاد من الموجودات التي من جملتها ما سموه ولداً له تعالى فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه:

خالق أفلاك وأنجم برعلا   مردم وديو وپرى ومرغ را

﴿وهو بكل شيء﴾ من شأنه أن يعلم كائناً ما كان مخلوقاً أو غير مخلوق. ﴿عليم﴾ مبالغ في العلم أزلاً وأبداً فلا يخفى عليه خافية مما كان وما سيكون من الذوات والصفات والأحوال التي من جملتها ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز من المحالات التي كان ما زعموه فرداً من أفرادها.

﴿ذلكم﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات العظيمة أيها المشركون. ﴿الله﴾ المستحق للعبادة خاصة مبتدأ وخبره. ﴿ربكم﴾ أي: مالك أمركم.

نيست خلقش را دكركس مالكي   شركتش دعوى كند جزهالكى

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا شريك له أصلاً ﴿خالق كل شيء﴾ مما كان وما سيكون فلا تكرار وهذه أخبار مترادفة. ﴿فاعبدوه﴾ حكم مسبب عن مضمونها فإن من جمع هذه الصفات استحق العبادة خاصة ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي: وهو مع تلك الصفات متولي أموركم فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم الدنيوية والأخروية ورقيب على أعمالكم فيجازيكم.

قال الإمام الغزالي قدس سره: والوكيل ينقسم إلى من يفي بما وكل إليه وفاء تاماً من غير قصور وإلى من لا يفي بالجميع والوكيل المطلق هو الذي يفي بالأمور الموكولة إليه وهو ملي بالقيام بها وفي إتمامها وذلك هو الله تعالى فقط وقد فهمت من هذا مقدار مدخل العبد في معنى هذا الاسم انتهى كلامه.

وعن الشيخ أبي حمزة الخراساني رحمه الله قال: حججت سنة من السنين فبينما أنا أمشي إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن استغيث فقلت: لا والله لا أستغيث فما استتم هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر: تعالى حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد فأتيا بقصب وبارية وطمسا رأس البئر فهممت أن أصيح، ثم قلت في نفسي ألجأ إلى من هو أقرب منهما وسكت وفوضت أمري إلى الله تعالى فبينما أنا بعد ساعة إذا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في همهمة منه كنت أعرف منها ذلك فتعلقت به فأخرجني فإذا هو سبع فمر وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف فالله تعالى قادر على ذلك وهو على كل شيء وكيل.

والإشارة في الآيات أن الله تعالى كما أخرج بماء اللطف والهداية من أرض القلوب لأربابها أنواع الكمالات أخرج بماء القهر والخذلان من أرض النفوس لأصحابها أنواع الضلالات حتى أشركوا بالله تعالى وقالوا ما قالوا من أسوء المقال مع أنه تعالى متفرد بالذات والصفات والأفعال.

فعلى العاقل أن يستعيذ بالله من مكره وقهره ويستجلب بطاعته مزيد رضائه ورحمته ويقطع النظر عن الغير في كل شر وخير فإن الكل من الله تعالى وإن كان لا يرضى لعباده الكفر.

كناه اكرچه نبود اختيار ما حافظ   تودر طريق ادب كوش وكوكناه منست

اللهم لا تؤمنا مكرك فإنه لا يأمن منه إلا القوم الكافرون.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿لا تدركه الأبصار﴾ البصر حاسة النظر وقد تطلق على العين من حيث إنها محله وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إليه والإحاطة به أي لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به. ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ أي: يحيط بها علمه ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار ولهذا خص الأبصار بإدراكه تعالى إياها مع أنه يدرك كل شيء لأن الأبصار لا تدرك نفسها ولا يجوز في غيره أن يدرك البصر وهو لا يدركه ففيه دليل على أن الخلق لا يدركون بالأبصار كنه حقيقة البصر وهو الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه.

اعلم أن الإدراك غير الرؤية لأن الإدراك هو الوقوف على كنه الشيء والإحاطة به والرؤية المعاينة وقد تكون الرؤية بلا إدراك لأنه يصح أن يقال رآه وما أدركه، فالإدراك أخص من الرؤية ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، فالله يجوز أن يرى من غير إدراك وإحاطة كما يعرف في الدنيا ولا يحاط به يعني إن معرفة الله تعالى ممكنة من حيث الارتباط بينه وبين الخلق وانتشاء العالم منه بقدر الطاقة البشرية إذ منه ما لا تفيه الطاقة البشرية وهو ما وقع به الكمل في ورطة الحيرة وأقروا بالعجز عن حق المعرفة وقالوا ما عرفناك حق معرفتك فذات الله تعالى من حيث تجرده عن النسب والإضافات لا يدرك ولهذا سئل النبي عليه السلام هل رأيت ربك قال: «نوراني أراه» أي: النور المجرد لا يمكن رؤيته وكذا أشار الحق في كتابه لما ذكر ظهور نوره في مراتب المظاهر قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فلما فرغ من ذكر مراتب التمثيل قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] فأحد النورين هو الضياء والآخر هو النور المطلق الأصلي ولهذا تمم فقال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥] أي: يهدي الله بنوره المتعين في المظاهر والساري فيها إلى نوره المطلق الأحدي فإنما تتعذر الرؤية والإدراك باعتبار تجرد الذات عن المظاهر والنسب والإضافات فأما في المظاهر ومن ورائية حجابية المراتب فالإدراك ممكن كما قيل:

كالشمس تمنعك اجتلاءك وجهها فإذا اكتست برقيق غيم أمكنا

وإلى مثل هذا أشار النبي ﷺ في بيان الرؤية الجنانية المشبهة برؤية الشمس والقمر فأخبر عن أهل الجنة أنهم يرون ربهم وأنه ليس بينه وبينهم حجاب إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن فنبه ﷺ على بقاء الرتبة الحجابية وهي رتبة المظهر وتحقيقه إن أهل الاعتزال بالغوا في نفي الرؤية واستدلوا على مذهبهم بما ورد في الصحيحين عن أبي موسى «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه» قالوا إن الرداء حجاب بين المرتدي والناظرين فلا تمكن الرؤية وجوابهم أنهم حجبوا وأن المرتدي لا يحتجب عن الحجاب إذ المراد بالوجه الذات وبرداء الكبرياء وإضافته للبيان والكبرياء رداؤه الذي يلبسه عقول العلماء بالله.

يقول الفقير في شرح هذا المقام: قوله: ولكنهم حجبوا الخ وذلك لأن المرآة لا تكون حجاباً للناظر كما أن اللباس كذلك بالنسبة إلى البدن نفسه إذ لا واسطة بينهما فالرداء من المرتدي بمنزلة المرآة من النظر وكذا المرتدي من الرداء بمنزلة الناظر من المرآة إذ المراد

بالوجه الذات بطريق إطلاق اسم الجزء على الكل فالمرتدي وهو الذات لا يحتجب عن حجابه وإنما يحتجب به عن الغير كالقناع للعروس فإنه كشف بالإضافة إليها وحجاب بالنسبة إلى غيرها وبرداء الكبرياء إلخ. الحقيقة المحمدية التي هي حقيقة الحقائق ولكل موجود حصة من تلك الحقيقة بقدر قابليته لكنها في نفسها حقيقة واحدة، وهو الوجود العام الشامل، كالحيوان الناطق فإنه معنى واحد عام شامل لجميع الأفراد وكثرته بالنسبة إلى تلك الأفراد لا تنافي وحدته الحقيقية، فمعنى قوله عليه السلام: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه» حقيقة كل منهما التي تجلى الذات فيها بحسب صفاء مرآتها ومعرفتها وتلك الحقيقة ليست بحجاب بين القوم وبين الذات الأحدية إذ ما وراء تلك الحقيقة مع قطع النظر عن التجلي فيها وكونها مرآة له إطلاق صرف لا يتعلق به رؤية رداء أيا كان فكل ناظر ينكشف له جمال الذات من حقيقة نفسه فينظر إليه من تلك الحقيقة وهي ليست بحجاب للنظر ولا للذات؛ إذ هي كالمرآة فالنظر الظاهري قيد تام وما وراء تلك الحقيقة من الذات إطلاق صرف فلا مناسبة بينهما بوجه من الوجوه وتلك الحقيقة بين التقييد والإطلاق برزخ جامع لهما، كما قال عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فالعارف إذ لم يتعلق عرفانه بنفسه الكلية وحقيقته الجامعة لا يتأتى منه عرفان ربه لأن ربه مطلق عن القيود والنسب والإضافات وهو بهذا الاعتبار لا تتعلق به المعرفة وأما نفسه المتجلى فيها الرب بحقائق أسمائه فتتعلق بها تلك الرؤية من تلك الحيثية فتكون حقيقة نفسه ومعرفتها مرآة معرفة ربه فلا حجاب بين المرتدي وردائه أصلاً وإنما غلط من غلط بقياس الغائب على الشاهد وهو ممنوع باطل لأنه لا يلزم أن يكون هناك رداء مانع وبرزخ بين الناظر والمرتدي ولذا قال: الكبرياء رداؤه الذي يلبسه عقول العلماء بالله.

فالتردد في أن الرداء حجاب بين المرتدي والناظرين فلا يمكن الرؤية إنما هو من عمى البصيرة والعياذ بالله وهو في ثلاثة أشياء إرسال الجوارح في معاصي الله والتصنع بطاعة الله والطمع في خلق الله فالحق ليس بمحجوب عنك لثبوت إحاطته وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه بما تراكم على بصيرتك من العيوب العارضة وما يلازم بصرك من العيب اللازم الذي هو الفناء الحسي الذي لا يرتفع إلا في الدار الآخرة فلذلك كانت الرؤية موقوفة عليها وإلا فالحجاب في حقه تعالى ممتنع غير متصور فلا تكن ممن يطلب الله لنفسه ولا يطالب نفسه لربه فذلك حال الجاهلين.

وقال بعض المفسرين: إن الإدراك إذا قرن بالبصر كان المراد منه الرؤية فإنه يقال أدركت ببصري ورأيت ببصري بمعنى واحد فمعنى قوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ أي: لا تراه في الدنيا فهو مخصوص برؤية المؤمنين له في الآخرة لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] وحديث الشيخين «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» والمراد تشبيه الرؤية بالرؤية في الجلاء والوضوح لا تشبيه المرئي بالمرئي أي في الجهة وإنما يرونه في الآخرة لأنها قلب الدنيا فالبصيرة هناك كالبصر في الدنيا فيكون البصر الظاهر في الدنيا باطناً في الآخرة والبصيرة الباطنة ظاهرة فيستعد الكل للرؤية بحسب حاله وأما في الدنيا فالرؤية غاية الكرامة فيها وغاية الكرامة فيها لأكرم الخلق، وهو سيدنا محمد ﷺ صاحب المقام المحمود الذي شاهد ربه ليلة المعراج بعيني رأسه يعني رآه بالسر والروح في صورة الجسم

فكان كل وجوده الشريف عيناً لأنه تجاوز في تلك الليلة عن عالم العناصر ثم عن عالم الطبيعة ثم عن عالم الأرواح حتى وصل إلى عالم الأمر وعين الرأس من عالم الأجسام فانسلخ عن الكل ورأى ربه بالكل فافهم هداك الله خير السبل فإن العبارة ههنا لا تسع غير هذا.

قال في «التأويلات النجمية»: **﴿لا تدركه الأبصار﴾** أي لا تلحقه المحدثات لا الأبصار الظاهرة ولا الأبصار الباطنة تقدست صمديته عن كل لحوق ودرك ينسب إلى مخلوق ومحدث بل **﴿وهو يدرك الأبصار﴾** بالتجلي لها فيفني المحدثات فيكون هو بصره الذي يبصر به فاستوت عند التجلي الأبصار الظاهرة والباطنة في الرؤية بنور الربوبية. **﴿وهو اللطيف﴾** من أن يدركه المحدثات أو يلحقه المخلوقات. **﴿الخبير﴾** بمن يستحق أن يتجلى له الحق ويدرك أبصارها باطلاعه عليها فيستعدها للرؤية ومن لطف الله أنه أوجد الموجودات وكون المكونات فضلاً منه وكرماً من غير أن يكون استحقاقها للوجود انتهى ولو رآه إنسان في الموطن الدنيوي لوجب عليه شكره ولو شكره لاستحق الزيادة ولا مزيد على الرؤية ولذلك حرمها وهذا هو المعنى في قوله عليه السلام: «لن تروا ربكم حتى تموتوا».

قال ابن عطاء: إتمام النعيم بالنظر إلى وجه الله الكريم على الوجه اللائق بجلاله في الدار الآخرة حسبما جاء الوعد الصدق بذلك كما في الدنيا إذ غالب النصوص يقتضي منع ذلك بل يكاد يقع الإجماع على نفي وقوع ذلك ومنعه شرعاً وإن جاز عقلاً انتهى.

وأما الرؤية في المنام: فقد حكيت عن كثير من السلف كأبي حنيفة.

وعن أبي يزيد رحمه الله: رأيت ربي في المنام فقلت له كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك ثم تعال.

وروي عن حمزة القارىء أنه قرأ على الله القرآن من أوله إلى آخره في المنام حتى إذا بلغ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] قال الله تعالى يا حمزة وأنت القاهر ولا خفاء في أن الرؤية في المنام نوع مشاهدة يكون بالقلب دون العين وفي الحديث: «رأيت ربي في المنام في صورة شاب امرد» وسر تجليه في صورة الإنسانية بصفة الربوبية أن الحقيقة الإنسانية أجمع الحقائق فإنه تعالى لما استخلف الإنسان وجعله خاتماً على خزائن الدنيا والآخرة ظهر جميع ما في الصورة الإلٰهية من الأسماء في النشأة الإنسانية الجامعة بين النشأة العنصرية والروحانية وإليه يشير قوله عليه السلام: «إن الله خلق آدم على صورته» وإطلاق الصورة على الحق مجاز باعتبار أهل الظاهر إذ لا تستعمل في الحقيقة إلا في المحسوسات ففي المعقولات مجاز، وأما عند المحققين فحقيقة لأن العالم الكبير بأسره صورة الحضرة الإلٰهية ومظاهر أسمائها بحضراتها تفصيلاً وإجمالاً والإنسان الكامل صورته جمعاً.

فإن قلت: الرؤية أقوى أنواع الإدراك أم العلم؟.

قلت: قد قيل بالأول ولهذا يتلذذ المؤمنون برؤية الله تعالى فوق ما يتلذذون بمعرفته.

قال الإمام في «الإحياء»: إن الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنها أوضح وأتم من العلم فإذا جاز تعلق العلم به ليس في جهة جاز تعلق الرؤية من غير جهة وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك من غير كيفية وصورة.

قال بعضهم: الرؤية أعلى من المعرفة لأن العارفين مشتاقون إلى منازل الوصال والواصلون لا يشتاقون إلى منازل المعرفة.

وقال بعضهم: المعرفة ألطف والرؤية أشرف.

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره: وصلة العلماء على قدر علمهم واستدلالهم ووصلة الكمل على قدر مشاهدتهم وعيانهم لكن لا على وجه مشاهدة سائر الأشياء فإنه تعالى منزه عن الكيف والأين بل هي عبارة عن ظهوره وانكشاف الوجود الحقيقي عند اضمحلال وجود الرائي وفنائه انتهى.

أقول: فظهر من هذا أن من فنى عن ذاته وصفاته وأفعاله واضمحل عن بشريته وهويته فجائز أن يرى الله تعالى في الدنيا بالبصيرة بعد الانسلاخ التام.

چون تجلى كرد اوصاف قديم پس بسوزد وصف حادث راكليم

وذلك كالشمس في الجلاء لا يكابر فيه أحد أصلاً؛ لأن القلب من عالم المكوت والبصيرة كالبصر له وعالم الملكوت مطلق عن قيود الأمور الوهمية التي هي الزمان والمكان والجهة والكيفية وغيرها؛ لأنها من أحكام عالم الملك فأين هذا من ذاك ولا يقاس أحدهما على الآخر وحقيقة ذوق هذا المطلب الأعلى لا تعرف إلا بالسلوك. قال الحافظ:

شكر كمال حلاوت پس از رياضت يافت نخست درشكن ننك ازان مكان كيرد

ثم اللطيف من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دقّ منها وما لطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف وإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطيف ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله تعالى وحظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله تعالى والتلطف بهم في الدعوة إلى الله تعالى والهداية إلى سعادة الآخرة من غير إزراء وعنف ومن غير تعصب وخصام وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشمائل والسير المرضية والأعمال الصالحة فإنها أوقع وألطف من الألفاظ المزينة.

قال الشيخ الأكبر قدس سره قال رسول الله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي» ولم يقل صلوا كما قلت لكم لأن الفعل أرجح في نفس التابع المقتدي من القول كما قيل:

وإذا المقال مع الفعال وزنته رجح الفعال وخف كل مقال

انتهى: وفي «المثنوي»:

بند فعلى خلق را جذاب تر كه رسد درجان هربا كوش كر

والخبير: هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة ولا يجرى في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تضطرب نفس، ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها وهو بمعنى العليم لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة، وسمي صاحبه خبيراً وحظ العبد من ذلك أن يكون خبيراً بما يجري في عالمه وعالمه قلبه وبدنه والخفايا التي يتصف القلب بها من الغش والخيانة والطواف حول العاجلة وإضمار الشر وإظهار الخير والتجمل بإظهار الإخلاص والإفلاس عنه لا يعرفها إلا ذو خبرة بالغة قد خبر نفسه ومارسها وعرف مكرها وتلبيسها وخدعها فحاد بها وتشمر لمعاداتها وأخذ الحذر منها فذلك من العباد جدير بأن يسمى خبيراً.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿قد جاءكم﴾ أي قل يا محمد للناس وخصوصاً لأهل مكة قد جاءكم. ﴿بصائر﴾ كائنة

﴿من ربكم﴾ أي: دلائل التوحيد وحقية النبوة ودلائل البعث والحساب والجزاء وغير ذلك. والبصائر جمع بصيرة وهي نور تبصر به النفس كما أن البصر نور تبصر به العين فاستعير لفظ البصيرة من القوة المودعة في القلب لإدراك المعقولات للحجة البينة لكون كل واحدة منهما سبب الإدراك ﴿فمن أبصر﴾ أي ألحق بتلك البصائر وآمن به. ﴿فلنفسه﴾ أبصر لأن نفعه لها ﴿ومن عمي﴾ أي لم يبصر الحق بعد ما ظهر له بتلك ظهوراً بيناً وضل عنه وإنما عبر بالعمى عنه تقبيحاً له وتنفيراً عنه ﴿فعليها﴾ وباله.

والإشارة أن الله تعالى: أعطى لكل عبد بصيرة لقلبه يبصر بها الحقائق المودعة في الغيوب والكمالات المعدة لأرباب القلوب كما أعطى بصراً لقالبه يبصر به الأعيان في الشهادة، وما أعد لهم فيها من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح، فمن نظر ببصر البصيرة إلى المراتب العلوية الأخروية الباقية وأبصر كمالات القرب، وما أعد الله مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيشتغل بتحصيله، ويقبل على الله بسلوك سبيله، ويعرض عن الدنيا الدنية ويترك زينتها وشهواتها الفانية فذلك تحصيل سعادة وكرامة لنفسه فإن الله غني عن العالمين ومن عمي عن النظر بالبصيرة، وغير هذه الكمالات لما أبصر ببصر القالب إلى الدنيا وزينتها واستلذ بشهواتها واستحلى مراتعها الحيوانية فعميت بصيرته فإنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور فذلك تحصيل شقاوة وخسارة على نفسه كذا في «التأويلات النجمية». ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وإنما أنا منذر ومبلغ والله هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ أي: ومثل هذا التصريف البديع نصرف الآيات الدالة على المعاني الرائقة الكاشفة عن المعاني الفائقة ولا تصرف أدنى منه من الصرف وهو نقل الشيء من حال إلى حال. ﴿وليقولوا درست﴾ علة لمحذوف، واللام للعاقبة والدرس القراءة والتعلم، أي: وليقولوا في عاقبة أمرهم درست صرفنا أي قرأت وتعلمت من غيرك نحو سيار وجبير كانا عبدين لقريش من سبي الروم كان قريش يقولون له عليه السلام: إنك تتعلم هذه الأخبار منهما ثم تقرأ علينا على زعم أنها من عند الله. ﴿ولنبينه﴾ عطف على ليقولوا واللام على الأصل أي التعليل لأن التبيين مقصود التصريف والضمير للآيات باعتبار القرآن. ﴿لقوم يعلمون﴾ وتخصيص التبيين بهم لما أنهم المنتفعون به.

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿اتبع ما أوحي إليك من ربك﴾ أي: دم يا محمد على ما أنت عليه من اتباع القرآن الذي عمدة أحكامه التوحيد وإن قدحوا في تصريف آياته. ﴿لا إله إلا هو﴾ لا شريك له أصلاً ﴿وأعرض عن المشركين﴾ ولا تبال بأقوالهم ولا تلتفت إلى آرائهم فإنه لا يجوز الفتور في تبليغ الدعوة والرسالة بسبب جهل الجاهلين.

بكوى آنچه دانى سخن سودمند وكر هيچ كس را نيايد پسند
كه فردا پشيمان برآرد خروش كه آوخ چرا حق نكردم بكوش

﴿ولو شاء الله﴾ توحيدهم وعدم إشراكهم. ﴿ما أشركوا﴾ وهو دليل على أنه تعالى لا

يريد إيمان الكافر لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه مع توجهه إليه بل بمعنى أنه تعالى لا يريده منه لعدم صرف اختياره الجزئي نحو الإيمان وإصراره على الكفر ﴿وما جعلناك عليهم﴾ متعلق بما بعده وكذا عليهم الآتي. ﴿حفيظاً﴾ رقيباً مهيمناً من قبلنا تحفظ عليهم أعمالهم ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ من جهتهم تقوم بأمورهم وتدبر مصالحهم.

قال الحدادي: وإنما جمع بين حفيظ ووكيل لاختلاف معناهما. فإن الحافظ للشيء هو الذي يصونه عما يضره، والوكيل بالشيء هو الذي يجلب الخير إليه فقد ظهر أن عدم قبول الحق من الشقاوة الأصلية ولذا لم يشأ الله سعادتهم وهدايتهم، وعلامة الشقاوة: جمود العين وقساوة القلب وحبّ الدنيا وطول الأمل، وعلامة السعادة: حبّ الصالحين والدنو منهم وتلاوة القرآن وسهر الليل ومجالسة العلماء ورقّة القلب.

وعن إبراهيم المهلب السائح رحمه الله قال: بينا أنا أطوف إذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: بحبك لي ألا رددت عليّ قلبي، فقلت: يا جارية من أين تعلمين أنه يحبك؟ قالت بالعناية القديمة جيش في طلبي الجيوش وأنفق الأموال حتى أخرجني من بلاد الشرك، وأدخلني في بلاد التوحيد وعرّفني نفسي بعد جهلي إياها فهل هذا يا إبراهيم إلا لعناية أو محبة. قال الحافظ:

چون حسن عاقبت نه برندى وزاهديست آن به كه كار خود بعنايت رها كنند

والواجب على العبد أن يسارع إلى الأعمال الصالحة فإنها من علامات السعادة والتأخير وطول الأمل من علامات الشقاوة ـ حكي ـ أن بعض العباد كان يسأل الله تعالى أن يريه إبليس فقيل له اسأل الله العافية فأبى إلا ذلك فأظهره الله تعالى له فلما رآه العابد قصده بالضرب فقال له إبليس: لولا أنك تعيش مائة سنة لأهلكتك ولعاقبتك فاغترّ بقوله: فقال في نفسه إن عمري بعيد فأفعل ما أريد. ثم أتوب فوقع في الفسق وترك العبادة وهلك وهذه الحكاية تحذرك طول الأمل فإنه آفة عظيمة. قال الصائب:

درسر اين غافلان طول امل دانى كه چيست آشيان كردست مارى در كبوتر خانهٔ

واعلم أنه ما على الرسول عليه السلام إلا التبليغ ودلالة كل قوم إلى ما خلق له. فيدعو العوام إلى التوحيد. والخواص إلى الوحدانية. وخواص الخواص إلى الوحدة وكذا حال الولي الوارث لكن الوصول إلى هذه المقامات إنما يكون بهداية الله ومشيئته فليس في وسع المرشد أن يوصل كل من أراد إلى ما أراده فيبقى من يبقى في الإثنينية ويصل من يصل إلى عالم الوحدة والسبب الموصل هو التوحيد فكما أن الكافر لا يكون مؤمناً إلا بكلمة التوحيد فكذا المؤمن لا يكون مخلصاً إلا بتكرارها لأن الشرك مطلقاً جلياً كان أو خفياً لا يزول إلا بالتوحيد مطلقاً فالمؤمن الناقص كما أنه لا يلتفت إلى المشرك بالشرك الجلي وحاله كذلك المؤمن الكامل لا ينظر إلى جانب المشرك بالشرك الخفي، ولذا قال تعالى: ﴿لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين﴾ لكن الإعراض من حيث الحقيقة لا ينافي الإقبال من حيث الظاهر لأجل الدعوة حتى يلزم الحجة ويحصل الإفحام ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٣٥] فالسلام على من اتبع الهدى والملام على من اتبع الهوى. قال الحافظ:

چه شكرهاست درين شهركه قانع شده اند شاهبازان طريقت بمقام مكسى

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿ولا تسبوا﴾ أي: لا تشتموا أيها المؤمنون ﴿الذين﴾ أي: الأصنام ﴿يدعون﴾ أي: يدعونها آلهة ويعبدونها ﴿من دون الله﴾ أي: متجاوزين عبادة الله تعالى والمراد بالداعين كفار مكة.

وقال المولى أبو السعود رحمه الله: أي لا تشتموهم من حيث عبادتهم لآلهتهم كأن تقولوا تباً لكم ولما تعبدونه مثلاً. ﴿فيسبوا الله عدواً﴾ أي: تجاوزاً عن الحق إلى الباطل بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم وهو منصوب على المصدر لكونه نوعاً من عامله لأن السبب من جنس العدو أو على أنه مفعول له أي لأجل العدو. ﴿بغير علم﴾ حال أي يسبونه غير عالمين بالله تعالى وبما يجب أن يذكر به أي مصاحبين للجهل لأنهم لو قدروا الله حق قدره لما أقدموا عليه.

فإن قلت: إنهم كانوا مقرّين بالله وعظمته وإن الأصنام إنما تعبد ليكونوا شفعاء عند الله فكيف يسبونه.

قلت: إنهم لا يفعلون ذلك صريحاً لكن ربما يفضي فعلهم إلى ذلك وأيضاً إن الغيظ والغضب إنما يحمل الإنسان على التكلم بما ينافي العقل ألا يرى أن المسلم قد يتكلم لشدة غضبه بما يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله.

وفي الآية: دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الشرّ شرّ ألا يرى أن سبّ الأصنام وطعنها من أصول الطاعات وقد نهى الله تعالى عنه لكونه مؤدياً إلى معصية عظيمة وهي شتم الله وشتم رسوله وفتح باب السفاهة.

قال الحدادي: وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا أراد أن يأمر غيره بالمعروف ويعلم أن المأمور يقع بذلك في أشد مما هو فيه من شتم أو ضرب أو قتل كان الأولى أن لا يأمره ويتركه على ما هو فيه. قال السعدي قدس سره:

مجال سخن تانيابى مكوى چو ميدان نبينى نكهدار كوى

﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك التزيين القوي وهو تزيين المشركين سبّ الله تعالى وعبادة الأوثان. ﴿زينا لكل أمة عملهم﴾ من الخير والشر والطاعة والمعصية بإحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقاً أو تخذيلاً. ﴿ثم إلى ربهم﴾ مالك أمرهم ﴿مرجعهم﴾ أي: رجوعهم بالبعث بعد الموت. ﴿فينبئهم﴾ [پس خبر دهد ايشانرا] من غير تأخير ﴿بما كانوا يعملون﴾ في الدنيا على الاستمرار من السيئات المزينة لهم وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة وهي أن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التي بها يظهر في النشأة الآخرة فإن المعاصي سموم قاتلة قد برزت في الدنيا بصورة يستحسنها نفوس العصاة كما نطقت به هذه الآية الكريمة وكذا الطاعات فإنها مع كونها أحسن الأحاسن قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ولذلك قال عليه السلام: «حفّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات» فأعمال الكفرة قد

برزت لهم في هذه النشأة بصورة مزينة يستحسنها الطغاة وستظهر في النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها لما أن كلاً منهما سبب للعلم بحقيقتهما، كما هي كذا في «تفسير الإرشاد»، ويظهر صور الأعمال القبيحة لأهل السلوك في البرزخ الدنيوي فيجتهدون في تبديلها ـ حكي ـ عن الشيخ أبي بكر الضرير رحمه الله قال: كان في جواري شاب حسن الوجه يصوم النهار ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام فجاءني يوماً وقال يا أستاذ إني نمت عن وردي الليلة فرأيت كأن محرابي قد انشق وكأني بجوارٍ قد خرجن من المحراب لم أر أحسن أوجهاً منهن وإذا فيهن واحدة شوهاء لم أر أقبح منها منظراً فقلت لمن أنتن ولمن هذه فقلن نحن لياليك التي مضين وهذه ليلة نومك فلو متّ في ليلتك هذه لكانت هذه حظك ثم أنشأت الشوهاء تقول:

اسأل لمولاك واردُدني إلى حالي ... فأنت قبحتني من بين أشكالي
وقد أردت بخير إذا وعظت بنا ... أبشر فأنت من المولى على حال

قالت جارية من الحسان:

نحن الليالي اللواتي كنت تسهرها ... تتلو القرآن بترجيع ورنات

وقد قال بعض الكبار: انكشاف عيب النفس خير من انكشاف الملكوت إذ المقصود إصلاح الطبيعة والنفس والأكل والشرب والمنام من الصفات البهيمية التي هي مقتضى الطبيعة.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿زينا لكل أمة عملهم﴾ من المقبولين أعمال أهل القبول ومن المردودين أعمال أهل الرد ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم﴾ أي بأقدام تلك الأعمال كلا الفريقين يذهبون إلى ربهم ﴿فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ أما أهل القبول فيسلكون على أقدام الأعمال الصالحة طريق اللطف فينبئهم بالفضل والإحسان أنهم كانوا يحسنون وأما أهل الرد فيقطعون على أقدام المخالفات في بوادي القهر والهلكات فينبئهم بالعدل والخسران أنهم كانوا يسيئون انتهى وفي «المثنوي»:

جمله دانند هين اكرتو نكروى ... هرچه مى كاريش روزى بدروى

وعن بعض الصالحين قال: كانت في جانبي عجوز قد أضنتها العبادة فسألتها أن ترفق بنفسها، فقالت: يا شيخ أما علمت أن رفقي بنفسي غيبني عن باب المولى ومن غاب عنه مشتغلاً بالدنيا عرض نفسه للمحن والبلوى، وما قدر عملي إذا اجتهدت فكيف إذا قصرت ثم قالت واسوأتاه من حسرة السباق وفجعة الفراق. فأما حسرة السباق فإذا قام القائمون من قبورهم وركب الأبرار نجائب الأنوار وساروا إلى قصر من العز والجلال ورفعت لهم منازل المحبين وقدمت بين أيديهم نجائب المقربين وبقي المسبوق في جملة المخزونين فعند ذلك ينقطع فؤاده حسرة وتأسفاً ويذوب ندامة وتلهفاً، وأما فجعة الفراق فعند تمييز الناس والافتراق وذلك أن الله سبحانه إذا جمع الخلق في صعيد واحد أمر ملكاً فنادى أيها المجرمون امتازوا إن المتقين قد فازوا وهو قوله تعالى: ﴿وَامْتَٰزُوا۟ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ [يس: ٥٩] فيتميز الرجل من زوجته والولد من والدته والحبيب من حبيبه هذا يحمل مبجلاً إلى رياض النعيم وهذا يساق مسلسلاً مغلغلاً إلى عذاب الجحيم وقد طال منهم التلفت والوداع ودموعهم تجري كالأنهار بفجعة الفراق وأنشدوا بالبين والفراق.

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا ... ورأيت كيف نكرر التوديعا
لعلمت أن من الدموع لأبحراً ... تجري وعاينت الدماء دموعا

﴿وأقسموا بالله﴾ - روي - أن قريشاً قالوا يا محمد إنك تخبرنا أن موسى عليه السلام كانت معه عصا فيضرب بها الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً وتخبرنا أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى وأن صالحاً عليه السلام أخرج الناقة من الجبل فائتنا أنت أيضاً بآية بينة فإن فعلت ذلك لنصدقنك ونؤمنن لك وحلفوا على ذلك وبالغوا في تأكيد الحلف فقال عليه السلام: «أي شيء تحبون» قالوا تجعل لنا الصفا ذهباً أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل أو أرنا الملائكة يشهدون لك فقال عليه السلام: «فإن فعلت بعض ما تقولون تصدقونني» قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين وسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فهمّ عليه السلام بالدعاء فجاء جبريل عليه السلام فقال: إن شئت كان ذلك ولئن كان فلم يصدقوا عنده ليعذبنهم بعذاب الاستئصال ولئن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فأنزل الله تعالى هذه الآية» أي حلف كفار قريش بالله تعالى ﴿جهد أيمانهم﴾ مصدر في موقع الحال أي جاهدين في إيمانهم وجهد الإيمان أغلظها وأشدها ﴿لئن جاءتهم آية﴾ من مقترحاتهم ﴿ليؤمنن بها قل﴾ لهم ﴿إنما الآيات﴾ كلها ﴿عند الله﴾ أي: هو قادر عليها يظهر منها ما يشاء وليس شيء منها بقدرتي وإرادتي وإنما أنا نذير ثم بيّن تعالى الحكمة في عدم مجيء الآيات فقال مخاطباً للمسلمين. ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ أي: أيُّ شيء يعلمكم أن الآية التي يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بل يبقون على ما كانوا عليه من الكفر والعناد أي لا تعلمون ذلك فتتمنون مجيئها طمعاً في إيمانهم فأنكر السبب أي الإشعار مبالغة في نفي المسبب، أي الشعور وفيه بيان أن إيمانهم فاجرة وأنه لا يغني وضوح الأدلة لمن لم يساعده سوابق الرحمة.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿ونقلب أفئدتهم﴾ عطف على لا يؤمنون أي وما يشعركم أنا حينئذٍ نحول قلوبهم عن الحق فلا يفهمون ﴿وأبصارهم﴾ عن اجتلائه فلا يبصرونه فلا يؤمنون بها. ﴿كما لم يؤمنوا به﴾ أي: بما جاء من الآيات. ﴿أول مرة﴾ من انشقاق القمر ونحوه. ﴿ونذرهم﴾ أي: ندعهم عطف على لا يؤمنون داخل في حكم الاستفهام الإنكاري. ﴿في طغيانهم﴾ ضلالهم متعلق بنذرهم. ﴿يعمهون﴾ أي: متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين فهو حال من الضمير المنصوب في نذرهم ووجه هذا التقليب والترك فساد استعدادهم وإعراضهم عن الحق بالكلية، فإن الله تعالى لا يفعل بهم ذلك مع توجههم إلى الحق واستعدادهم لقبوله فإنه إجبار محض فإن كان مقهوراً مطبوعاً على قلبه فليعلم أن ذلك لعدم تأثير اللطف فيه أصلاً فلله الحجة البالغة ومن الله الهداية والتوفيق.

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ تفصيل ما ذكر على الإجمال بقوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ أي ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة كما سألوه بقولهم لو أنزل علينا الملائكة فنراهم عياناً. ﴿وكلمهم الموتى﴾ وشهدوا بحقية الإيمان بعد أن أحييناهم حسبما اقترحوه بقولهم فائت بآية.

قال صاحب «التيسير وأحيينا»: لهم كل الموتى فكلموهم بأن شهدوا لك وإن كانوا سألوا منك إحياء اثنين من موتاهم قصي بن كلاب وجدعان بن عمرو وكانا كبيرين منهم وصدوقين حيث قالوا لئن أحييتهما فشهدا لك بالنبوة لشهدنا نحن أيضاً. ﴿وحشرنا﴾ أي: جمعنا ﴿عليهم كل شيء قبلاً﴾ جمع قبيل بمعنى كفيل وانتصابه على الحالية من المفعول أي كفلاء بصحة الأمر وصدق النبي عليه السلام أو جمع قبيل الذي هو جمع قبيلة بمعنى جماعات أي وحشرنا كل شيء نوعاً نوعاً وفوجاً فوجاً من سائر المخلوقات.

وفي «التيسير»: أي: وبعثنا كل حيوان من الفيل إلى البعوض أي أقمنا القيامة ﴿ما كانوا ليؤمنوا﴾ في حال من الأحوال الداعية إلى الإيمان. ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي: إلا في حال مشيئة الله لإيمانهم وهيهات ذلك وحالهم حالهم من التمادي في العصيان والغلو في التمرد والطغيان ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ أي: ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمانهم عند مجيء الآيات لجهلهم عدم مشيئة الله تعالى لإيمانهم فيتمنون مجيئها طمعاً فيما لا يكون فالجملة مقررة لمضمون قوله تعالى: ﴿وما يشعركم﴾ الآية.

واعلم أن الآية وإن عظمت لا تضطر إلى الإيمان إن لم يشأ الله تعالى فإنه لا آية أعظم من قيام الساعة والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وجملة الأمر أن المشيئة تغير السجية وعدمها من فساد الاستعداد فلذا بقي أهل الضلال في يد القهر والجلال. قال السعدي:

زوحشى نه يايدكه مردم شود بسعى اندر اوتربيت كم شود
توان پاك كردن زژنك آينه ولكن نيايد زسنك آينه

وقال الحافظ:

كرجان بدهد سنك سيه لعل نكردد باطينت اصلى چه كند بدكهر افتاد

وأما قول المولوي قدس سره في «المثنوي»:

كرتو سنك خارهٔ ومرمر شوى چون بصاحب دل رسى كوهر شوى

فإشارة إلى المستبعد بحكم الأصل فإن التربية تنفع فيه فجميع المعجزات من الأنبياء والكرامات من الأولياء علمية كانت أو كونية تربية لمن في زمانهم فمن حسن استعداده مال واهتدى ومن فسد أعرض وضلّ وترى كثيراً من المغرورين المشغولين بأحكام طبائعهم الخبيثة ونفوسهم المتمردة يقولون كالطلبة، لو أنا صادفنا المرشد الكامل ورأينا منه العلامة واضحة لكنا أول من يسلك بطريقتهم ويتمسك بأذيال حقيقتهم فقل لهم إن الشمس شمس، وإن لم يرها الضرير والعسل عسل، وإن لم يجد طعمه الممرور والطالب المستعد لا يقع في الأمنية، ولا يضيع نقد عمره بخسارة بل يجتهد كل حين بما أمكن له من الطاعات ويكون في طريق الطلب فإن ما لا يدرك كله لا يترك قله. قال في «المثنوي»:

كركران وكرشتابنده بود عاقبت جوينده يابنده بود

ثم هذا الاستعداد وانشراح الصدر في طريق الحق نور من الله تعالى يقذفه في قلب أيّ عبد شاء وليس بحداثة السن ولا بالشيخوخة وكم رأيت وسمعت من غلبه الحال في عنفوان عمره وعنوان أمره.

وعن بعض الصالحين قال: حججت سنة من السنين وكانت سنة كثيرة الحر والسموم

فلما كان ذات يوم وقد توسطنا أرض الحجاز، انقطعت عن الحاج وغفلت قليلاً فلم أشعر ليلاً إلا وأنا وحدي في البرية فلاح لي شخص أمامي فأسرعت إليه ولحقته، وإذا به غلام أمرد لا نبات بعارضيه كأنه القمر المنير والشمس الضاحية وعليه أثر الدلال والترف، فقلت له: السلام عليك يا غلام، فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا إبراهيم فعجبت منه كل العجب ورابني أمره، فلم أتمالك أن قلت له يا غلام سبحان الله من أين تعرفني ولم ترني قبلها؟ فقال لي: يا إبراهيم ما جهلت مذ عرفت ولا قطعت مذ وصلت، فقلت: ما الذي أوقعك في هذه البرية في مثل هذه السنة الكثيرة الحر والقيظ؟ فأجابني يا إبراهيم ما آنس بسواه ولا رافقت غيره وأنا منقطع إليه بالكلية مقرّ له بالعبودية، فقلت له: من أين المأكول والمشروب فقال لي: تكفل به المحبوب فقلت والله إني خائف عليك لأجل ما ذكرت لك فأجابني ودموعه تتحدر على خديه كاللؤلؤ الرطب.

فلو أجوع فذكر الله يشبعني ... ولا أكون بحمد الله عطشانا

وإن ضعفت فوجد منه يحملني ... من الحجاز إلى أقصى خراسانا

فقلت له: بالله عليك يا غلام إلا ما أعلمتني حقيقة عمرك؟ فقال اثنتا عشرة سنة ثم رجوته فدعا لي باللحوق إلى أصحابي فلما وقفنا بعرفة ودخلنا الحرم إذا أنا بالغلام وهو متعلق بأستار الكعبة وهو يبكي ويناجي ثم وقع ساجداً ومات إلى رحمة الله تعالى، ثم رأيته في المنام فقلت ما الذي فعل بك إلهك فقال أوقفني بين يديه وقال لي ما بغيتك فقلت إلهي وسيدي أنت بغيتي، فقال لي: أنت عبدي حقاً ولك عندي أن أحجب عنك ما تريد، فقلت: أريد أن تشفعني في القرن الذي أنا فيه، قال شفعتك فيه ثم إنه صافحني فاستيقظت بعد المصافحة فلم أر أحداً إلا ويقول لي يا إبراهيم لقد أزعجت الناس من طيب رائحة يدك.

قال بعض المحدثين: ولم تزل رائحة الطيب تخرج من يد إبراهيم حتى قضى نحبه رحمه الله رحمة واسعة.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وكذلك﴾ أي: كما جعلنا لك عدواً كأبي جهل وغيره من كفار قريش **﴿جعلنا لكل نبي﴾** قبلك **﴿عدواً﴾** وفيه تسلية لرسول الله ﷺ حيث إن عداوتهم وما يبتني عليها مما لا خير فيه من الأقاويل الكاذبة والأفاعيل الباطلة ليس مختصاً به عليه السلام بل كما ابتلي هو وأمته بكيد الأعداء ابتلي جميع الأنبياء وأممهم. **﴿شياطين الإنس والجن﴾** أي: مردة الفريقين على أن الإضافة بمعنى من البيانية وهو بدل من عدواً، والشياطين جمع شيطان وهو يطلق على كل عات متمرد من الإنس والجن والشيطان من الجن إذا أعياه المؤمن وعجز عن إغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس فأغراه على المؤمن ليفتنه.

وعن مالك بن دينار أنه قال: شياطين الإنس أشد عليّ من شياطين الجن وذلك أني إن تعوذت بالله من شياطين الجن ذهبت عني وشياطين الإنس تجيئني فتجرني إلى المعاصي عياناً **﴿يوحي بعضهم إلى بعض﴾** كلام مستأنف مسوق لبيان أحكام عداوتهم وتحقيق وجه الشبه بين

المشبه والمشبه به. والوحي الكلام الخفي والقول السريع الذي يلقى سراً أي يلقى يوسوس شياطين الجن والإنس أو بعض الجن إلى بعض وبعض الإنس إلى بعض. ﴿زخرف القول﴾ أي: المموه منه المزين ظاهره والباطل باطنه يقال فلان زخرف كلامه إذا زينه بالكذب والباطل. ﴿غروراً﴾ مفعول له ليوحي أي ليغرّوهم. ﴿ولو شاء ربك﴾ عدم ما ذكر من العداوة والإيحاء. ﴿ما فعلوه﴾ أي ما ذكر فأعيد ضمير الواحد إلى الاثنين باعتباره. ﴿فذرهم﴾ أي: إذا كان ما فعلوه في حقك بمشيئته تعالى فاتركهم. ﴿وما يفترون﴾ وافتراءهم، أي: كفرهم وسائر مكائدهم فإن لهم في ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة لابتناء مشيئته تعالى على الحكم البالغة ألبتة.

﴿ولتصغى إليه﴾ إلى زخرف القول علة أخرى للإيحاء معطوفة على غروراً وإنما لم ينصب لفقد شرطه إذ الغرور فعل الموحي وإصغاء الأفئدة فعل الموحى إليه أي يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروهم به ولتميل إليه. ﴿أفئدة﴾ قلوب ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ وأما المؤمنون بها فلا يتصور منهم الميل إلى تلك المزخرفات لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتها. ﴿وليرضوه﴾ لأنفسهم بعد ما مالت إليه أفئدتهم. ﴿وليقترفوا﴾ أي: يكتسبوا بموجب ارتضائهم له. ﴿ما هم مقترفون﴾ له من القبائح التي لا يليق ذكرها وهي ما قضى عليهم في اللوح المحفوظ يقال اقترف فلان ذنباً إذا عمله ومالاً إذا اكتسبه.

وفي الآية: إشارة إلى أن البلايا للسائرين إلى الله هي المطايا وأن أشد البلاء شماتة الأعداء فلما كانت رتبة الأنبياء أعلى كانت عداوة الكفار لهم أوفى وفي ذلك ترقيات لهم وتجليات. قال الحافظ:

چه جورها كه كشيدند بلبلان ازدى ... ببوى آنكه دكر نوبهار باز آيد

والإشارة في شيطان الإنس إلى النفس الأمارة بالسوء وهي أعدى الأعداء ولهذا قدم ذكره على الجن ههنا بخلاف المواضع الأخر وليعلم أن عداوة النفس وأصحاب النفوس أشد وأصعب من عداوة شياطين الجن فإن كيد الشيطان مع كيد الإنسان ضعيف وأرباب القلوب لا يصغون إلى زخارف أقوال أصحاب النفوس بل كلما تشتد عداوة الأعداء يقوى إيمان الأولياء.

وفاكنيم وملامت كشيم وخوش باشيم ... كه در طريقت ما كافريست رنجيدن

وإنما يتسلط الشيطان على ابن آدم بفضول النظر والكلام والطعام وبمخالطة الناس ومن اختلط فقد استمع إلى الأكاذيب.

وعن بعض الشيوخ: أن الشيطان أشد بكاء على المؤمن إذا مات من بعض أهله لما فاته من افتتانه إياه في الدنيا وإذا عرج بروح المؤمن إلى السماء قالت الملائكة سبحان الذي نجّى هذا العبد من الشيطان يا ويحه كيف نجا.

فعلى المؤمن أن يحترز من وساوسه وحديث نفسه أيضاً كيلا يفتضح عند الله وعند الناس فإنه روي أن الوسواس الخناس يخبر بما وقع في قلب ابن آدم وحدث به نفسه وإن لم يخبره لغيره كما حكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر امرأة في نفسه فجعل الناس يتحدثون به فيما بينهم.

واعلم أن قرين المرء من الجنّ إذا أسلم سلم من شره ومن الجن قوم مؤمنون منتفعون بعلوم كل البشر محبون ـ حكي ـ عن إبراهيم الخواص قال: حججت سنة من السنين فبينا أنا

أمشي مع أصحابي إذا عارضني عارض من سري يقتضي الخلوة وخروجاً عن الطريق الجادة فأخذت طريقاً غير الطريق الذي عليه الناس فمشيت ثلاثة أيام بلياليهن ما خطر على سري ذكر طعام ولا شراب ولا حاجة فانتهيت إلى برية خضراء فيها من كل الثمرات والرياحين، ورأيت في وسطها بحيرة فقلت كأنها الجنة وبقيت متعجباً فبينا أنا أتفكر إذا أنا بنفر قد أقبلوا سيماهم سيما الآدميين عليهم المرقعات الحسان فحفوا بي وسلموا عليّ، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته فوقع في خاطري أنهم من الجن فقال قائل منهم قد اختلفنا في مسألة ونحن نفر من الجن قد سمعنا كلام الله تعالى من محمد ﷺ ليلة الجن وسلبتنا نغمة كلامه جميع أمور الدنيا وقد عين الله لنا هذه البحيرة في هذه البرية قلت وكم بيننا وبين الموضع الذي تركت فيه أصحابي فتبسم بعضهم وقال يا أبا إسحاق لله عز وجل عجائب وأسرار الموضع الذي أنت فيه لم يحضره آدمي قبلك إلا شاب من أصحابهم توفي ههنا وذاك قبره، أشار إلى قبر على شفير البحيرة حوله روضة ورياحين لم أر مثلها قبل ثم قال بينك وبين القوم الذين فارقتهم مسيرة كذا وكذا شهراً، أو قال كذا وكذا سنة فقلت أخبروني عن الشاب، فقال قائل منهم: بينما نحن قعود على شفير البحيرة نتذاكر المحبة إذ بشخص قد أقبل إلينا وسلم علينا فرددنا عليه السلام فقلنا له من أين أقبل الشاب قال من مدينة نيسابور قلنا له ومتى خرجت منها قال منذ سبعة أيام قلنا له وما الذي أزعجك على الخروج من وطنك قال سمعت قول الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٤] قلنا له ما معنى الإنابة وما معنى الإسلام وما معنى العذاب فقال الإنابة أن ترجع بك منك إليه والإسلام أن تسلم نفسك له وتعلم أنه أولى بك منك والعذاب الفرقة ثم صاح صيحة عظيمة فمات فواريناه، وهذا قبره رضي الله عنه قال إبراهيم: فتعجبت مما وصفوا ثم دنوت من قبره وإذا عند رأسه باقة نرجس، كأنها رحى عظيمة وعلى قبره مكتوب هذا حبيب الله فتيل الغيرة وعلى ورقها مكتوب صفة الإنابة، فقرأت ما هو على النرجس مكتوب فسألوني أن أفسره لهم ففسرته فوقع فيهم الطرب فلما أفاقوا وسكنوا قالوا قد كفينا جواب مسألتنا قال ووقع عليّ النوم فما انتبهت إلا وأنا قريب من مسجد عائشة رضي الله عنها وإذا في وعائي باقة ريحان فبقيت معي سنة كاملة لم تتغير فلما كان بعد فقدتها رضي الله عنه وعنهم وعن جميع الصالحين.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر وغير مفعول أبتغي وحكماً حال وتقديم المفعول للإيذان بأن مدار الإنكار هو ابتغاء غيره حكماً لا مطلق الابتغاء والحكم أبلغ من الحاكم وأدل على الرسوخ لما أنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم، وفي الكلام إرادة القول وإضماره ـ روي ـ أن مشركي مكة قالوا: يا محمد اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى يفصل بين المحق والمبطل فإنهم قرؤوا الكتب قبلك فأنزل الله هذه الآية وقال قل يا محمد أأميل عن الحق فأطلب غير الله تعالى حال كون ذلك الغير قاضياً بيني وبينكم. ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب﴾ الجملة حال من فاعل أبتغي، أي: والحال أن الله تعالى هو الذي أنزل إليكم وأنتم

أمة أمية لا تدرون ما تأتون وما تذرون القرآن الناطق بالحق والصواب. ﴿مفصلا﴾ أي: مبيناً فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام بحيث لم يبق في أمر الدين شيء من التخليط والإبهام فأي حاجة بعد ذلك إلى الحكم وهذا كما ترى صريح في أن القرآن الكريم كاف في أمر الدين مغنٍ عن غيره ببيانه وتفصيله. ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت القول المقدر مبين أن الذين وثقوا بهم ورضوا بحكميتهم من علماء أهل الكتابين عالمون بحقية القرآن، وتزوله من عند الله تعالى، والمعنى وعلماء اليهود النصارى الذين فهمناهم التوراة والإنجيل يعلمون أن ذلك الكتاب أي القرآن منزل من ربك حال كونه ملتبساً. ﴿بالحق﴾ والصدق وهو بالفارسي [براستى ودرستى] وهو متعلق بمحذوف وقع حالاً من الضمير المستكن في منزل. ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أي: من الشاكين في أنهم يعلمون بحقية القرآن لما لا تشاهد منهم آثار العلم وأحكام المعرفة فالفاء لترتيب النهي على الإخبار بعلم أهل الكتاب بشأن القرآن، وفي أنه منزل من ربك بالحق فيكون من باب التوبيخ والإلهاب أي الثبات على اليقين كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] فالفاء لترتيب النهي على نفس علمهم بحال القرآن.

ثم إنه تعالى لما بين كمال الكتاب المذكور من حيث إضافته إليه تعالى بكونه منزلاً منه بالحق بين أيضاً كماله من حيث ذاته فقال.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وتمت كلمة ربك﴾ عبر عن الكتاب أي القرآن بالكلمة لأنها الأصل في الاتصاف بالصدق والعدل وبها يظهر الآثار من الحكم ﴿صدقاً وعدلاً﴾ مصدران نصبا على الحال أي صادقة وعادلة ومعنى تمامها عبارة عن بلوغها الغاية في كونها كافية في بيان ما يحتاج إليه المكلفون إلى يوم القيامة علماً وعملاً وفي كونها صدقاً وعدلاً، والمعنى أنها بلغت الغاية القاصية صدقاً في الأخبار والمواعيد كالخبر عن وجود ذات الله تعالى وصفاته الثبوتية والسلبية، وكالخبر عن أحكام الله تعالى في الوعد والوعيد والثواب والعقاب، وكالخبر عن أحوال المتقدمين وعن الغيوب المستقبلة وعدلاً في الأقضية والأحكام المتعلقة بالمكلفين من الجن والإنس كالصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر التكاليف الشرعية سواء كانت أمراً أو نهياً ﴿لا مبدل لكلماته﴾ لا أحد يبدل شيئاً من ذلك بما هو أصدق وأعدل ولا بما هو مثله فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى ﴿وهو السميع﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿العليم﴾ بكل ما يمكن أن يعلم فيدخل في ذلك أقوال المتحاكمين وأحوالهم الظاهرة والباطنة دخولاً أولياً.

ومحصول الآية: أن القرآن حكم الله تعالى وحجته الغالبة بين الناس فلا عدول عنه إلى غيره؛ إذ لا يعدل عنه إلا المنكر سواء كان إنكاره عنادياً كالعالم بحقيته أو تكذيباً، كالجاهل بها وأما المقر فهو له جذبة إلهية ينجذب بالعمل بما فيه إلى درجات العلم والعرفان، وكمال الإيقان؛ إذ هو كلمة حق وصدق والصدق يهدي إلى الجنة والقربة والوصلة ولا ترتفع التكليفات عن العبد وإن وصل إلى تجلي الذات ما دام في عالم الدنيا لا كما زعمه بعض الزاعمين، وأما في عالم الآخرة فترتفع التكليفات فعبادة ذلك العالم التوحيد ليس إلا، ولا بد

من رعاية الشريعة في جميع المراتب فإن الكمال فيه، وإلا فهو ناقص ولذلك ترى المجاذيب لا يخلون عن نقصان ألا يرى أن الأنبياء عليهم السلام لم يسمع عن واحد منهم عروض السفه والجنون فكامل العقل يحس صرير الباب وصوت الذباب في حال استغراقه.

ـ حكي ـ أن الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر قال يوماً لمريديه هل صدر مني شيء يخالف الشريعة قالوا لا فحمد الله تعالى وقال ما كنت ههنا منذ ثلاثين سنة والإنسان أشرف المخلوقات وأشرف الإنسان نبينا محمد ﷺ ولذلك صار مظهراً للفرقان الكريم من المبتدأ القديم وهو الحكم الذي نصبه الله تعالى لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

ألا أي أحمد مرسل شود هر مشكل ازتوحل
كنم وصف ترا مجمل تويى سلطان هر مولى
شريعت ازتو روشن شد طريقت هم مبرهن شد
حقيقت خود معين شد زهى سلطان بى همتا

واعلم: أن هذه الآية متعلقة بمرتبة النفس وإصلاحها فإن ابتغاء حكم غير الله تعالى من هوى النفس فإصلاحها بالانقياد والتسليم وكل من له حظ من علم القرآن ظاهراً أو باطناً فهو وارث النبي عليه السلام بقدر حاله والحاكم هو عالم أمر الله لا الجاهل.

قال علي كرم الله وجهه «من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض».

وسألت بنت عليّ البلخي أباها عن القيء إذا خرج إلى الحلق، فقال: يجب إعادة الوضوء فرأى رسول الله ﷺ فقال: لا يا علي حتى يكون ملء الفم، فقال: علمت أن الفتوى تعرض على رسول الله ﷺ فآليت على نفسي أن لا أفتي أبداً.

وسئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أعلم، فقيل: ألا تستحيي وأنت فقيه العراقيين؟ قال: ولم لا أستحيي مما لا تستحيي منه الملائكة حيث قالت: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] فعلى العامة أن يرجوا في الأمور الظاهرة إلى أعلم البلدة أو العصر بقدر الإمكان وعلى الخاصة أن يستفتوا في الأحوال الباطنة من الأعرف، وإن كان أمياً لا يعرف اصطلاحات العلماء؛ إذ له حكمة معنوية تغني عن الاصطلاحات، وهو الذي يليق بأن يسمى حكيماً وقد اتفق أهل الله تعالى على أن العبد إذا وصل إلى الله فالله تعالى يعلمه ويلهمه فيميز بين الحق والباطل ولا يكون ما يتكلمه خارجاً عن الشريعة وإليه يشير قول من قال ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلمه وكما أن الأصحاب ما خرجوا عن حكم النبي عليه السلام كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] كذلك أهل الإرادة ما خرجوا عن أمر المرشد الكامل؛ إذ الحكم وإن كان لله تعالى في الحقيقة كما نطقت به الآية إلا أن رسول الله ﷺ هو خليفة الله تعالى وكذا من ورثه قولاً وحالاً.

﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض**﴾ وذلك أن أهل مكة كانوا يستحلون أكل الميتة ويدعون المسلمين إلى أكلها وكانوا يقولون إنما ذلك ذبح الله فهو أحل مما ذبحتم أنتم بسكاكينكم فأنزل الله تعالى هذه الآية والمعنى إن تطع الكفار يا محمد لأنهم أكثر من في الأرض ﴿**يضلوك عن سبيل الله**﴾ أي: دينه وشريعته كأنه قيل كيف يضلون فقيل: ﴿**إن يتبعون**﴾ أي ما يتبعون في

أمور دينهم ومجادلتهم لك في أمر الميتة. ﴿إلا الظن﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم على آثارهم يهتدون، فيضلون ضلالاً مبيناً ولا ريب أن الضال المتصدي للإرشاد إنما يرشد غيره إلى مسلك نفسه فهم ضالون مضلون فإن سبيل الحق لا يسلك بالظن والتقليد والهوى وإنما يسلك بالصدق والتحقيق والهدى. ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ أي: ما هم إلا يكذبون على الله تعالى في تحليل الميتة وغيره.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿إن ربك هو أعلم﴾ بعلم ﴿من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ فيجازي كلاً منهم بما يستحقون فاحذر أن تكون من الفريق الأول.

قال الحدادي: وإنما قال: اعلم؛ لأن الله يعلم الشيء من كل جهاته وغيره يعلم الشيء من بعض جهاته.

﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحرمون الحلال ويحللون الحرام. والمعنى كلوا أيها المؤمنون مما ذكر اسم الله تعالى خاصة على ذبحه، لا مما ذكر عليه اسم غيره فقط أو مع اسم الله تعالى أو مات حتف أنفه فإن الإيمان بالآيات القرآنية يقتضي استباحة ما أحله الله والاجتناب عما حرمه.

﴿وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ وأي سبب حاصل لكم في أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه.

قال الإمام: إن المشركين كانوا يبيحون أكل ما ذبح على اسم الله تعالى ولا ينازعون فيه وإنما النزاع في أنهم أيضاً كانوا يبيحون أكل الميتة، والمسلمون كانوا يحرمونها، وإذا كان كذلك كان ورود الأمر بإباحة ما ذكر اسم الله عليه عبثاً؛ لأنه يقتضي إثبات الحكم في المتفق عليه وترك الحكم في المختلف فيه، فأجاب بأن معنى كلوا اجعلوا أكلكم مقصوراً على ما ذكر اسم الله عليه ومعنى أن لا تأكلوا أن لا تجعلوا أكلكم مقصوراً عليه فيفيد تحريم أكل الميتة فقط. ﴿وقد فصل لكم﴾ أي: والحال أنه تعالى قد بيّن لكم. ﴿ما حرم عليكم﴾ مما لم يحرمه بقوله تعالى في هذه السورة ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية. فبقي ما عدا ذلك على الحل لا بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: ٣] الآية. لأنها مدنية وهذه السورة مكية.

فإن قلت قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية. مذكور بعده هذه الآية وصيغة فصل تقتضي التقدم.

قلت: إن التأخر في التلاوة لا يوجب التأخر في النزول، ويجوز أن يحمل على التفصيل بالوحي الغير المتلو كما ذهب إليه سعدي چلبي المفتي وجعله أولى عنده. ﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾ مما حرم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة فالاستثناء متصل والمستثنى منه ما حرم،

وما مصدرية بمعنى المدة، أي: وقد فصل لكم الأشياء التي حرمت عليكم في جميع الأوقات إلا وقت الاضطرار إليها وإن جعلت موصولة تعين أن يكون الاستثناء منقطعاً؛ لأن ما اضطر إليه حلال فلا يدخل تحت ما حرم عليهم. ﴿وإن كثيراً﴾ من الكفار ﴿ليضلون﴾ الناس ﴿بأهوائهم﴾ بما تهواه أنفسهم من تحليل الميتة وغيرها ﴿بغير علم﴾ مقتبس من الشريعة الشريفة مستند إلى الوحي. ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ المتجاوزين الحق إلى الباطل والحلال إلى الحرام.

اعلم: أن أهل الهوى على أنواع فالمعتزلة والشيعة ونحوهما من أهل القبلة أهل هوى لأنهم يخالفون أهل السنة والجماعة بتأويل الكتاب والسنة على حسب هواهم، فيضلون الناس بهواهم كما يضل الكفار وأهل الشرك، وأما أخذ الإشارات من الآيات والأحاديث على وجه يطابق الشرع الشريف فذلك ليس بهوى بل هو عرفان محض. قال في «المثنوي»:

تو زقرآن اي پسر ظاهر مبين ديو آدم را نبيند جزكه طين
ظاهر قرآن چوشخص آدميست كه نقوشش ظاهر وجانش خفيست

فالتقليد لأصحاب الإشارات ليس كالتقليد لأصحاب الضلالات؛ لأنهم بنوا أمرهم على العيان واليقين لا على الظن والتخمين، وكذا أهل الدنيا أهل هوى بالنسبة إلى أهل العقبى فإن الكون كله خيال وتابع الخيال لا يعد من العقلاء والرجال.

وعن بهلول رحمه الله قال: بينما أنا ذات يوم في بعض شوارع البصرة؛ إذ الصبيان يلعبون بالجوز واللوز، وإذا أنا بصبي ينظر إليهم ويبكي، فقلت: هذا صبي يتحسر على ما في أيدي الصبيان ولا شيء معه، فيلعب به، فقلت له: أي بني ما يبكيك أأشترِ لك من الجوز واللوز ما تلعب به مع الصبيان؟ فرفع بصره إليّ، وقال: يا قليل العقل ما للعب خلقنا، فقلت: أي بني فلماذا خلقنا؟ فقال: للعلم والعبادة فقلت من أين لك ذلك بارك الله فيك قال من قول الله عز وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] وكذا أهل العقبى أهل هوى بالنسبة إلى أهل المولى فأهل المولى تجردوا عن تعلق الكونين وتجاوزوا عن اعتبار الوصل والبين وما نزلوا إلى شيء غيره. قال صاحب «المحمدية»:

سالكان دركهت را هردو عالم يك نفس والهان حضرتت را ازحور جنت ملال

وقد حرم الله الدنيا على أهل الآخرة والآخرة على أهل الدنيا وحرم كلاً منهما على أهل الله تعالى لكن من تناول من الدنيا قدر ما يسد به جوعته ويستر به عورته فإنه ليس من أهل الدنيا لأن ذلك من الضرورات البشرية وفيه إذن الله تعالى لمحافظة الدائرة البدنية التي هي الأس.

والإشارة في قوله تعالى: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ يعني: إن من أمارات الإيمان أن تأكلوا الطعام بحكم الشرع لا على وفق الطبع وتذيبوه بذكر الله كما قال عليه السلام: «أذيبوا طعامكم بذكر الله» فإن الأكل على الغفلة والنسيان والاستعانة به على العصيان يورث موت الجنان، والحرمان من الجنان، وفي هذا الحديث إشارة إلى مشروعية الجهر؛ إذ ذوبان الطعام في صورة الجهر أظهر، ويدل عليه ما ورد أيضاً من الركعتين بعد الطعام أو من تلاوة عشر آيات من القرآن؛ إذ الحركة البدنية تفضي إلى استمراء الطعام وانهضامه الذي به تحصل قوة البدن وبقوة البدن يقوى المرء على العبادة، وفي العبادة بعد

الطعام شكر للنعمة والشكر إما بالقلب أو باللسان أو بالأعضاء والجوارح.

﴿وذروا﴾ أي: اتركوا أيها المؤمنون ﴿ظاهر الإثم وباطنه﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الإثم الظاهر والإثم الباطن والمراد بالإثم ما يوجب الإثم وهو المعاصي كلها؛ لأنها لا تخلو من هذين الوجهين فيدخل فيه ما يعلن وما يسر سواء كان من أعمال القلوب أو الجوارح، فأعمال الجوارح ظاهرة كالأقوال والأفعال وأعمال القلوب باطنة كالعقائد الفاسدة والعزائم الباطلة، وحقيقة ظاهر الإثم طلب نعم الدنيا وباطنه الميل إلى نعم العقبى لأن كلاً منهما يصير سبباً للبعد عن حضرة المولى.

ظاهر وباطن خود پاك كن ازلوث كناه تاكه پاكيزه شوى درصف مردان اله

﴿إن الذين يكسبون الإثم﴾ أي: يعملون المعصية ظاهراً وباطناً ﴿سيجزون﴾ سيعاقبون في الآخرة ﴿بما كانوا يقترفون﴾ أي: يكسبون في الدنيا كائناً ما كان فلا بد من اجتنابهما.

جمله دانند اين اكر تونكروى هرچه ميكاريش روزى بد روى

والإشارة أن الله تعالى كما خلق للإنسان ظاهراً هو بدن جسماني وباطناً هو قلب روحاني فكذلك جعل للإثم ظاهراً هو كل قول وفعل موافق للطبع مخالف للشرع وباطناً هو كل خلق حيواني وسبعي وشيطاني جبلت النفس عليه. ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ أي: اتركوا الأعمال الطبيعية باستعمال الأعمال الشرعية واتركوا الأخلاق الذميمة النفسانية بالتخلق بالأخلاق الملكية الروحانية. ﴿إن الذين يكسبون الإثم﴾ ظاهره وباطنه بالأفعال والأخلاق. ﴿سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ عاجلاً وآجلاً أما عاجلاً فلكل فعل وقول طبيعي ظلمة تصدأ مرآة القلب بها فيخرف مزاج الأخلاق القلبية الروحانية، ويتقوى مزاج الأخلاق النفسانية الظلمانية وبه يغلب الهوى ويميل إلى الدنيا وشهواتها، فبإظهار كل خلق منها على وفق الهوى يزيد ريناً وقسوة في القلب فيحتجب به عن الله تعالى كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤] وأما آجلاً فبهذه الموانع والحجب ينقطع العبد عن الله ويبقى محجوباً معذباً في النار خالداً مخلداً كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥] كذا في «التأويلات النجمية».

اعلم: أن العصاة كلهم في خطر المشيئة بل الطائعون لا يدرون بماذا يختم لهم فيا أيها العاصي لا تغتر فإن العناية لا تحصل لكل عاص ولا تدري أنك ممن أراد الله تعالى عفوه فإن المعفو من أول الأمر وقع قليلاً ـ كما حكي ـ عن مالك بن دينار قال: رأيت بالبصرة قوماً يحملون جنازة وليس معهم أحد ممن يشيع الجنازة فسألتهم عنه قالوا هذا رجل من كبار المذنبين قال: فصليت عليه وأنزلته في قبره، ثم انصرفت إلى الظل فنمت فرأيت ملكين قد نزلا من السماء فشقا قبره، ونزل أحدهما إليه، وقال لصاحبه: اكتبه من أهل النار فما فيه جارحة سلمت من المعاصي والأوزار فقال له صاحبه يا أخي لا تعجل عليه اختبر عينيه قال: قد اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بالنظر إلى محارم الله قال: فاختبر سمعه قال قد اختبرته فوجدته مملوءاً بسماع الفواحش والمنكرات قال: فاختبر لسانه قال: قد اختبرته فوجدته مملوءاً بالخوض في المحظورات وارتكاب المحرمات قال: فاختبر يديه قال: اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بتناول الحرام وما لا يحل من الشهوات واللذات قال: فاختبر رجليه قال: قد اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بالسعي في النجاسات والأمور المذمومات قال: يا أخي لا

تعجل عليه ودعني أنزل إليه فنزل إليه الملك الثاني وأقام عنده ساعة وقال: يا أخي قد اختبرت قلبه فوجدته مملوءاً إيماناً فاكتبه مرحوماً سعيداً ففضل الله تعالى يستغرق ما عليه من الذنوب والخطايا. قال السعدي قدس سره:

عروسى بود نوبت ما تمت   كرت نيك روزى بود خاتمت

يعني: يوم وفاتك يكون يوم فرح وسرور إن كنت ممن قبض على الإيمان نسأل الله عفوه ورجاه.

الهي بحق بني فاطمة   كه برقول ايمان كنم خاتمه

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ أي: عمداً إذ الناسي حال نسيانه لا يكون مكلفاً وذكر الله تعالى في قلب كل مؤمن، وأما العامد فلأنه لما ترك التسمية عمداً فكأنه نفى ما في قلبه ويدخل فيه الميتة لأنها مما لم يذكر اسم الله عليه وكذا ما ذبح على اسم غيره تعالى. ﴿وإنه﴾ أي الأكل منه أو عدم ذكر التسمية. ﴿لفسق﴾ أي: خروج لما لا يحل فإن من ترك التسمية عامداً حال الذبح لا يحل أكل ذبيحته عند الإمام الأعظم.

واعلم: أن المشركين جادلوا المسلمين، فقالوا: أتأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتله الله؟ فأنزل الله الآية وأجاب بجواب أعم وبنى الحرمة على وصف يشمل الكل وهو ترك الذكر. ﴿وإن الشياطين﴾ أي: إبليس وجنوده. ﴿ليوحون إلى أوليائهم﴾ أي: يوسوسون إلى المشركين، والوحي: إلقاء المعنى إلى النفس مع الخفية. ﴿ليجادلوكم﴾ أيها المؤمنون في تحليل الميتة بالوساوس الشيطانية ﴿وإن أطعتموهم﴾ في استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم ﴿إنكم لمشركون﴾ ضرورة إن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشرك به تعالى بل آثره عليه سبحانه.

والإشارة: لا تأكلوا طعاماً إلا بأمر الله وعلى ذكر الله وفي طلب الله ليندفع بنور الذكر ظلمة الطعام وشهوته وإن ظلمة الطعام وشهوته مؤدية إلى الفسق الذي هو الخروج من النور الروحاني إلى الظلمة النفسانية وفي الحديث: «إن الشيطان يستحل الطعام إلا بذكر اسم الله عليه» أي: لأنه لا يذكر اسم الله عليه بعد الشروع وما لم يشرع فيه أحد لايتمكن الشيطان من استحلاله.

وفيه إشارة: إلى أنه إن سمى واحد من الآكلين حصل أصل السنة، ومن نسي التسمية في أول الطعام فإنه يقول: حين يذكر بسم الله أوله وآخره، فإذا قال ذلك، فقد تدارك تقصيره وهذا بخلاف الوضوء، فإن التسمية سنة في أوله بحيث لو نسيها في أوله ثم تذكر في وسطه لم يكن هذا تداركاً لسنة التسمية، وذلك لأن الوضوء كله عمل واحد بخلاف الأكل فإن كل لقمة أكلة، وكان رجل يأكل فلم يسم حتى لم يبق من طعامه إلا لقمة فلما رفعها إلى فيه قال بسم الله أوله وآخره فضحك النبي عليه السلام ثم قال: «ما زال الشيطان يأكل معه فلما ذكر اسم الله تعالى استقاء ما في بطنه» وهذا الحديث يدل على أن الشيطان يأكل بمضغ وبلع كما ذهب إليه قوم وقال آخرون أكل الشيطان صحيح لكنه تشمم واسترواح وإنما المضغ والبلع لذوي الجثث والشياطين أجسام رقاق.

قال في «آكام المرجان»: كل ما لم يسم عليه من طعام أو شراب أو لباس أو غير ذلك مما ينتفع به فللشيطان تصرف واستعمال إما بإتلاف عينه كالطعام وإما مع بقاء عينه.

قال ثعلبة بن سهيل: كنت أصنع شراباً لي أشربه في السحر، فإذا جاء السحر جئت فلا أجد شيئاً فوضعت شراباً آخر وقرأت عليه يس، فلما كان السحر جئت فإذا الشراب على حاله، وإذا شيطان أعمى يدور حول البيت وفي الحديث: «إن الشيطان حساس لحاس فاحذروه على أنفسكم، من بات وفي يده ريح غمر فأصابه شيء فلا يلومنّ إلا نفسه» قال بعض أرباب الإشارة: إنما حرم أكل ما لم يذكر اسمه عليه لأن العارف حبيب الله والحبيب لا يذبح ولا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يفرش ولا يفعل شيئاً إلا باسم حبيب، ألا ترى أن يعقوب عليه السلام كان يقول في جميع أحواله يوسف، وإنما وجبت التسمية عند الذبائح؛ لأن مرارة النزع شديدة وذكر اسم الله تعالى أحلى من كل شيء، فأمرنا بالتسمية عند الذبائح كي تسمع الشاة ذكر الله عند الموت فلا تشتد مرارة النزع مع حلاوة اسم الله، ولذلك قال عليه السلام: «لقنوا موتاكم بشهادة أن لا إله إلا الله يسهل عليكم سكرات الموت» فلما كان الإحياء والإماتة من الله تعالى وحده، لم يجز أن يذبح باسم غيره تعالى «ونهى رسول الله ﷺ عن أكل ما ذبح للجن وعلى اسمها» واستنبط بعض الخلفاء عيناً وأراد إجراءها وذبح للجن عليها لئلا يغور ماؤها، فأطعم ذلك ناساً فبلغ ذلك ابن شهاب فقال: أما إنه قد ذبح ما لم يحل له وأطعم الناس ما لا يحل لهم وكان من عادة الجاهلية قبل الإسلام تزيين جارية حسناء وإلباسها أحسن ثيابها وإلقاءها في النيل، حتى يطلع ثم قطع تلك السنة الجاهلية على يدي من أخاف الجن وقمعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهكذا هذه العين، لو حفرها رجل عمري لم يذبح لهم عصفوراً فما فوقه ولكن لكل زمان رجال فلو داوم إنسان على اسم الله لا تحرقه النار، ولا تغرقه البحار ولا تنهشه الحيات، ولا تضره السموم، لأن كل مضر خلق مخوفاً لمن يخاف الله فإذا خاف العبد من الله بكماله فله التسخير والتأثير.

توهم كردن از حكم داور مپيچ كه كردن نپيچد زحكم توهيچ
محالست چون وست دارد ترا كه در دست دشمن كذارد ترا

وقد ظهر لك من هذا كله أن إحراق البخور، وإلقاء ماء الورد، ورشه وذبح شيء من مكان يتوهم فيه الجن، كله شرك يجب أن يحترز عنه، وكذا من ذبح دجاجة لتصويتها مثل الديك أو ذبح ديكاً لتصويته قبل الوقت وهو السحر وألقاها في مكان فقد ذبح ذلك للجن في اعتقاده؛ لأنه أراد به صيانة نفسه وأهله وأولاده وماله من إصابة الجن والبلاء، ولو كان لله تعالى لأكلها بل لو كان مخلصاً لما فعل مثل هذا.

﴿أو من كان ميتاً﴾ ـ روي ـ عن ابن عباس أن أبا جهل رمى النبي عليه السلام بفرث فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من الصيد بيده قوس وكان يومئذٍ لم يؤمن بعد فلقي أبا جهل فضرب رأسه بالقوس، فقال أبو جهل: أما ترى ما جاء به سفّه عقولنا وسبّ آلهتنا فقال حمزة: وأنتم أسفه الناس تعبدون الحجارة من دون الله تعالى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فنزلت هذه الآيات، والهمزة للإنكار والنفي والواو لعطف الجملة الاسمية على مثلها الذي يدل عليه الكلام، أي: أنتم أيها المؤمنون مثل المشركين ومن كان ميتاً. ﴿فأحييناه﴾ أعطيناه الحياة وما يتبعها من القوى المدركة والمتحركة

﴿وجعلنا له﴾ مع ذلك من الخارج ﴿نوراً﴾ عظيماً. ﴿يمشي به﴾ أي: بسببه ﴿في الناس﴾ أي: فيما بينهم آمنا من جهتهم. ﴿كمن مثله﴾ أي صفته العجيبة ﴿في الظلمات﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هو في الظلمات ﴿ليس بخارج منها﴾ بحال وهو حال من المستكن في الظرف فمن الأولى موصولة مبتدأة وكمن خبرها وهي أيضاً موصولة صلتها الجملة الاسمية الواقعة بعدها، فالأولى تمثيل لمن هداه الله تعالى وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات، يتأمل بها في الأشياء فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل كحمزة رضي الله عنه والثانية تمثيل لمن بقي على الضلالة لا يفارقها أصلاً كأبي جهل. ﴿كذلك﴾ أي: كما زين للمؤمن من إيمانه. ﴿زين﴾ أي: من جهة الله تعالى بطريق الخلق أو من جهة الشيطان بطريق الوسوسة. ﴿للكافرين ما كانوا يعملون﴾ أي: ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصي وبهذا التزيين بقوا في ظلمات الكفر والضلالة، ولم يهتدوا إلى نور الإيمان والهداية.

قال أرباب الحقيقة: الموت بهوى النفس والحياة بمحبة الحق، وأيضاً الموت بالنكرة والحياة بالمعرفة وفرق بين حياة المعرفة وحياة البشرية، فأهل العموم حي بحياة البشرية لكنه كالميت في قبر قالبه لا يمكنه الخروج من ظلمات وجوده المجازي، وأهل الخصوص حي بحياة المعرفة فحياة البشرية تزول لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] بخلاف حياة المعرفة لقوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] وقوله عليه السلام: «المؤمن حيّ في الدارين».

نميرد هر كرا جانش توباشى خوشا جانى كه جانانش توباشى

قال الحافظ:

هركز نميرد آنكه دلش زنده شد بعشق ثبت است بر جريدهٔ عالم دوام ما

وفي «التفسير الفارسي»: [شاه كرمانى اين آيت برخواندكه ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ كفت نشان اين آيت سه چيزاست ازخلق عزلت وباحق دعوت ودوام ذكر برزبان ودل وبزركى اين معنى را نظم فرموده].

برروى خلائق در صحبت مكشاى مى باش بكلى متوجه بخداى

غافل مشو ارذوق دل وذكر زبان تازندهٔ جاويد شوى دردو سراى

واعلم: أن الحي الحقيقي الذي ما كان ميتاً ولا يموت أبداً هو الله تعالى وما سواه فهو ميت لأنه كان ميتاً في العدم وسيموت أيضاً قال الحافظ:

من هماندم كه وضو ساختم ازچشمهٔ عشق چار تكبير زدم يكسره تر هرچه كه هست

يعني شاهدت جميع الخلق موتى بسبب الوصول إلى مقام العشق والفناء.

قال الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر: من شهد الخلق لا فعل لهم فاز، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد فاز، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل.

وعن عبد الواحد بن زيد رحمه الله قال: مررت براهب فسألته منذ كم أنت في هذا الموضع؟ فقال: منذ أربع وعشرين سنة، قلت: من أنيسك؟ قال: الفرد الصمد، قلت: ومن المخلوقين؟ قال: الوحش فسألته وما طعامك؟ قال: ذكر الله تعالى، قلت: ومن المأكولات؟ قال: ثمار هذه الأشجار ونبات الأرض، قلت: أفلا تشتاق إلى أحد؟ قال: نعم إلى حبيب قلوب العارفين، قلت: ومن المخلوقين قال من كان شوقه إلى الله تعالى سبحانه كيف يشتاق

إلى غيره؟ قلت: فلِمَ اعتزلت عن الخلق؟ قال: لأنهم سراق العقول وقطاع طريق الهدى، قلت: ومتى يعرف العبد طريق الهدى؟ قال: إذا هرب إلى ربه من كل شيء سواه واشتغل بذكره عن ذكر ما سواه، ولكل سالك خطوة في السلوك إلى ملك الملوك.

ـ كما حكي ـ أيضاً عن الشيخ عبد الواحد بن زيد قال: قصدت بيت المقدس فضلت الطريق فإذا بامرأة أقبلت إليّ، فقلت لها: يا غريبة أنت ضالة؟ فقالت: كيف يكون غريباً من يعرفه وكيف يكون ضالاً من يحبه؟ ثم قالت: خذ رأس عصاي وتقدم بين يدي فأخذت رأس عصاها وتقدمت بين يديها ست أقدام أو أقل أو أكثر، فإذا أنا بمسجد بيت المقدس فدلكت عيني وقلت لعل هذا غلط مني، فقالت: يا هذا سيرك سير الزاهدين وسيري سير العارفين فالزاهد سيار، والعارف طيار، ومتى يلحق السيار بالطيار، ثم غابت عني فلم أرها بعد ذلك، فظهر من هذه الحكاية أن للعارف نوراً يمشي به إلى حيث شاء، والجاهل يبقى في وادي الحيرة ولا يجد سبيلاً إلا بتوفيق الله تعالى وهدايته، فكما أن الأعمى والبصير ليسا على سواء، فكذلك البصير الجاهل والعالم سواء كان جهله وعلمه في مرتبة الشريعة أو الطريقة، أو المعرفة أو الحقيقة فالله تعالى باين بين أهل الحال، كما باين بين أهل المقال وعظم النور وسعته بالنسبة إلى فسحة القلب ومعرفته فالقلب بيد الله تعالى يقلبه كيف يشاء، ولذلك زين لأهل الإيمان وجوه الخير والطاعات وزين لأهل الكفر صنوف الشر والسيئات لكن العباد ليسوا بمجبورين فلهم اختيار في الخروج من الظلمات، فإذا لم يصرفوا استعداداتهم إلى ما خلقوا لأجله بقوا في ظلمات الطبيعة والنفس هذا هو الكلام بالنسبة إلى ظاهر الحال، وأما إن نظرت إلى إسناد الإحياء والجعل في الآية المذكورة إلى الله تعالى فمقتضى التوحيد أن الكل بيد الله، ولا تأثير إلا من عند الله فإن وجدت خيراً فلتحمد الله كثيراً فقد سبقت لك العناية وساعدك التوفيق فرب تقليد يوصل إلى التحقيق والله الهادي.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿وكذلك﴾ أي كما صيرنا في مكة فسّاقها أكابر. ﴿جعلنا في كل قرية﴾ متعلق بالفعل ﴿أكابر﴾ مفعول ثان جمع أكبر بمعنى عظيم. ﴿مجرميها﴾ مفعول أول جمع مجرم. بالفارسية [كنهكار] ﴿ليمكروا فيها﴾ أي: ليفعلوا المكر في تلك القرية لأنهم لأجل رياستهم أقدر على المكر والغدر وترويج الأباطيل على الناس من غيرهم وكان صناديد قريش ومجرموها أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ يقولون لكل من تقدم إياك وهذا الرجل فإنه كاهن ساحر كذاب.

قال البغوي: وذلك سنة الله تعالى أن جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم كما قال في قصة نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وجعل فساقهم أكابرها ليمكروا فيها والمكر السعي بالفساد في خفية ومداجاة والآية تسلية لرسول الله ﷺ ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم﴾ لأن وباله عليهم. ﴿وما﴾ والحال أنهم لا ﴿يشعرون﴾ بذلك أصلاً بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم.

﴿وإذا جاءتهم﴾ لما بيّن أن فساق كل قرية يكونون رؤساؤها المتميزين بكثرة المال والجاه بين ما كان من رؤساء مكة من الجرم والفسق وهو أنه إذا جاءتهم ﴿آية﴾ دالة على صحة النبوة ﴿قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ من الوحي والكتاب لما روي أن أبا جهل قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فأرادوا أي قوم مكة أن تحصل لهم النبوة والرسالة كما حصلتا لمحمد عليه السلام وأن يكونوا متبوعين لا تابعين.

قال صاحب «التيسير»: وهذه غاية السفه أن يقال لرجل آمن فيقول لا أؤمن حتى يجعلني الله نبياً.

قال الامام الثعلبي: المراد برسل الله هو حضرة النبي عليه السلام كما أنه المخاطب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] وصيغة الجمع للتعظيم.

وفي «شرح التعرف»: إن الله تعالى لم يجمع شمائل جميع الأنبياء إلا في النبي ﷺ خاطبه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١].

هـرجـه خـوبـان هـمـه دارنـد تـوتـنـهـا داری

واعلم: أن ما بين الجلالتين من هذه السورة من الأماكن التي يرجى فيها استجابة الدعاء فليحافظ على ذلك ﴿الله أعلم﴾ من كل شيء يعلم ﴿حيث يجعل رسالته﴾ أي الموضع الصالح لوضعها فيه ويضعها وهؤلاء ليسوا أهلا لها لأن الأهلية بالفضائل النفسانية لا بالنسب والمال فحيث نصب على المفعولية بيعلم المقدر توسعاً. ﴿سيصيب الذين أجرموا﴾ أي: يصيبهم البتة مكان ما تمنوه من عز النبوة وشرف الرسالة. ﴿صغار﴾ أي ذلة وحقارة بعد كبرهم ﴿عند الله﴾ أي: يوم القيامة فهو منصوب بقوله سيصيب مجاز عن حشرهم يوم القيامة ﴿وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ أي: بسبب مكرهم المستمر وحيث كان هذا من معظم مواد إجرامهم صرح بسببيته.

واعلم: أن النبوة اختصاص إلهي عطائي غير كسبي، كالسلطنة فلا ينالها المجاهد وإن أتى بجميع الشرائط والأسباب وكذا الولاية لكنها كالوزارة فيجوز أن ينالها بعض المجاهدين فليس كل مجاهد واصلاً وقد يكون الوصول بدون المجاهدة أيضاً إذا كمل الاستعداد وسبقت العناية ـ كما روي ـ عن بعض شيوخ اليمن أنه خرج يوماً من زبيد إلى نحو الساحل المعروف بالأهواز، ومعه تلميذ له فمر في طريقه على قصب ذرة كبار، فقال للتلميذ: خذ معك من هذا القصب ففعل المريد وتعجب في نفسه، وقال ما مراد الشيخ بهذا، ولم يقل له الشيخ شيئاً حتى إذا بلغ إلى محلة لعبيد يقال لهم السناكم، يأكلون الميتات ويشربون المسكرات، ولا يعرفون الصلوات وإذا بهم يشربون ويلعبون ويلهون ويطربون ويغنون ويضربون، فقال الشيخ للتلميذ: ائتني بهذا الشيخ الطويل الذي يضرب الطبل، فأتاه التلميذ، فقال له: أحب الشيخ فرمى الطبل من رقبته ومشى معه إلى الشيخ فلما وقف بين يديه، قال الشيخ للتلميذ: اضربه فضربه حتى استوفى منه الحد، ثم قال له الشيخ: امش قدامنا فمشى حتى بلغوا البحر فأمره الشيخ أن يغسل ثيابه ويغتسل وعلمه كيفية ذلك، وكيفية الوضوء ففعل ثم علمه كيف يصلي وتقدم الشيخ فصلى بهما الظهر، فلما فرغوا من الصلاة قام الشيخ ووضع سجادته على البحر، وقال له تقدم فقام ووضع قدميه على السجادة ومشى على الماء حتى غاب عن العين فالتفت التلميذ إلى الشيخ، وقال وامصيبتاه واحسرتاه لي معك كذا وكذا سنة ما حصل لي من هذا شيء. وهذا في ساعة

واحدة حصل له هذا المقام وهذه الكرامات العظام فبكى الشيخ، قال: يا ولدي وايش كنت أنا هذا فعل الله تعالى، قيل لي فلان من الأبدال توفي فأقم فلاناً مقامه فامتثلت الأمر كما يمتثل الخدام، وودت أنه حصل لي هذا المقام فظهر أن الله تعالى أعلم حيث يجعل ولايته أيضاً قال الحافظ:

چون حسن عاقبت نه برندى وزاهديست   آن به كه كارخود بعنايت رها كنند

والإشارة ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ أن القرية هي القالب. وأكابر مجرميها، أي: مفسدي حسن الاستعداد بقبول الشقاوة هي النفس والهوى والشيطان يمكرون فيها بمخالفات الشرع وموافقات الطبع. ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم﴾ لأن فساد استعدادهم عائد إلى أنفسهم بحصول الشقاوة وفوات السعادة. ﴿وما يشعرون﴾ ولا شعور لهم على ما يفعلون بأنفسهم وإن مرجعهم إلى النار. ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن﴾ أي: النفس والهوى والشيطان من دأبهم أن لا يؤمنوا برؤية الآيات إذ جبلوا على التمرد والإباء والإنكار ولسان حالهم يقول لن نؤمن. ﴿حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ أي: القلب والسر والروح لأنهم مهبط أسرار الحق وإلهاماته. ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ يخص بها القلب والسر والروح ونفساً تطمئن بذكر الله فتستحق رسالة ارجعي إلى ربك. ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله﴾ يعني: أصحاب النفس الأمارة بالسوء لهم ذلة البعد من عند الله. ﴿وعذاب شديد﴾ وهو عذاب الفرقة والانقطاع ﴿بما كانوا يمكرون﴾ أي: بما أفسدوا استعداد الوصلة وهو جزاء مكرهم وكيدهم كذا في «التأويلات النجمية».

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿فمن يرد الله﴾ معناه بالفارسية [پس هركرا خواهد خداى]. ﴿أن يهديه﴾ أي: يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان. ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ فيتسع له وينفسح وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيأة بحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه، فالمعنى: من أراد الله منه الإيمان قوى صوارفه عن الكفر ودواعيه إلى الإيمان وجعل قلبه قابلاً لحلول الإيمان مهيئاً لتحليه به صافياً خالياً عما ينافيه ويمنعه ولما نزلت هذه الآية سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر فقال: «نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح» فقالوا هل لذلك أمارة يعرف بها فقال: «نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله».

واعلم أن العلم علمان: علم المعاملة، وعلم المكاشفة، فالأول: هو العلم بما يقرب إليه تعالى وما يبعد عنه وهو مقدم على الثاني، الذي هو نور يظهر في القلب فيشاهد به الغيب لأنه الشرط له قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ولا ينفك عنه لأن الحديث المذكور صرح بأن الإنابة والتجافي والاستعداد التي هي من علم المعاملة علامة ذلك النور وفي فضل المكاشفة ورد قوله عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي»؛ إذ غير المكاشفة تبع للعمل لثبوته شرطاً له.

قال في «التأويلات النجمية»: كلما كان الحجاب أرقّ كان الإيمان أقوى والقلب أنور وأصفى إلى أن يصير الإيمان إيقاناً لكمال رقة الحجاب وتنور القلب إلى أن يصير الإيقان عياناً عند رفع الحجاب وتجلي الحق بصفة جماله إلى أن يصير العيان عيناً بتجلي صفة جلاله.
﴿ومن يرد أن يضله﴾ أي: يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه ﴿يجعل صدره ضيقاً﴾ بالفارسية [تنك] ﴿حرجاً﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان أي من أراد الله منه الكفر قوى صوارفه عن الإيمان وقوى دواعيه إلى الكفر، والحرج: بالفتح مصدر وصف به مبالغة وبالكسر اسم الفاعل وهو المتزايد في الضيق فهو أخص من الأول فكل حرج ضيق من غير عكس قيل الحرج موضع الشجر الملتف، يعني: أن قلب الكافر لا يصل إليه الإيمان كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذي التف فيه الشجر ﴿كأنما يصعد في السماء﴾.

قال الإمام: في كيفية هذا التشبيه وجهان: الأول: كما أن الإنسان إذا كلف الصعود إلى السماء نقل ذلك التكليف عليه وعظم وقعه عليه وقويت نفرته منه فكذلك الكافر يثقل عليه الإيمان وتعظم نفرته منه، والثاني: أن يكون التقدير أن قلبه يتباعد عن الإسلام ويتباعد عن قبول الإيمان فشبه ذلك البعد ببعد من يصعد من الأرض إلى السماء انتهى. كما قال الكاشفي في «تفسيره الفارسي» [كويى بالا ميرود درآسمان يعني ميكريزد از قبول حق ميخواهدكه بآسمان رود].

واعلم: أن القلوب متفاوتة. فمنها ما يشق عليه الإيمان وهي قلوب الكفرة. ومنها ما يشق عليه الذوق والوجدان وهي قلوب أهل النقصان من أهل الإيمان فإن بعض الناس منهم من يتباعد عن الكلمات العرفانية بل ينكر أحوال أصحاب الفضائل النفسانية، وهذا لأن من انهمك في الصفات الحيوانية وحكم عليه الصفات السبعية والشيطانية لا يسوغ له الشرب من المشارب الروحانية، ولذا يوصى بكتم ما يتعلق بالأسرار عن الأغيار.

چرا صدف نكند چاك سينه را صائب دربن زمانه كه جوهر شناس نايابست

﴿كذلك﴾ أي: مثل الجعل المذكور ﴿يجعل الله الرجس﴾ أي العذاب والخذلان أو اللعنة أو الشيطان أي يسلطه. ﴿على الذين لا يؤمنون﴾ أي عليهم فوضع الظاهر موضع المضمر للإشعار بأن جعله تعالى معلل بما في حيز الصلة من كمال نبوهم عن الإيمان وإصرارهم على الكفر والطغيان. ﴿وهذا﴾ أي: البيان الذي جاء به القرآن. ﴿صراط ربك﴾ أي: طريقه الذي ارتضاه حال كونه. ﴿مستقيماً﴾ لمن يسلكه فلا يعوج به حتى يورده إلى الجنة. ﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي: ذكرناها فصلاً فصلاً بحيث لا يختلط واحد منها بالآخر. ﴿لقوم يذكرون﴾ أي: يتعظون وخصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بتفصيل الآيات.

﴿لهم﴾ كأن سائلاً يسأل عما أعدّ الله تعالى للمتذكرين بما في تضاعيف الآيات فقيل لهم: ﴿دار السلام﴾ أي: السلامة من كل المكاره وهي الجنة. ﴿عند ربهم﴾ حال من دار السلام، أي: نزله وضيافته كما تقول نحن اليوم عند فلان، أي: في كرامته وضيافته. وقيل العندية: كناية عن وعدها والتكفل بها. ﴿وهو وليهم﴾ أي: مولاهم ومحبهم أو ناصرهم على أعدائهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ أي: بسبب الأعمال الصالحة.

واعلم: أن الله تعالى بيّن حسن الإيمان وقبح الكفر وحال السعيد والشقي، ورغب في طريق الأنبياء والأولياء وجعل العمل الصالح، وهو ما أريد به وجه الله سبباً لمحبة الله ودخول دار السلام، وهي دار القرار التي يأمن من دخلها من العذاب مطلقاً، فالله تعالى ولي الذين

آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور - روي - أن عمر بن الخطاب جهز جيشاً إلى فتح بعض حصون ديار العجم أربعة آلاف فارس، وأمّر عليهم ابنه عبد الله رضي الله عنهما، قال: فسرنا حتى حاصرنا قلعة على جبل عالٍ لا يصل إليه أسلحتنا فحاصرناها، وكان فيها جيش من الكفار وكانت أميرتهم امرأة حسناء فحصل لنا تعب شديد، ففي ذات يوم نظرت أميرتهم من المنظرة عسكرنا فرأت شاباً حسناً من شبان العرب، وكان شاباً فارساً ماهراً في الحرب فلما وقع نظرها عليه تأوهت فقالت لها بعض جواريها: لِمَ تأوهت يا ملكة وأنت في حصار ومنعة، فقالت: إن حصننا هذا يفتحه هذا الشاب، قالت: وكيف ذلك؟ قالت: سترين بعد ساعة ثم أرسلت إليه الملكة رسولاً تقول هل أجد إليك سبيلاً، فتكون لي وأكون لك؟ فقال الشاب: نعم بشرطين أن تسلمي الحصن الخارج إلينا والداخل إليه، فأرسلت مع الرسول تستفهم أما الخارج فعرفنا، وأما الداخل فما عرفنا، قال لها: تسلمي قلبك إلى الله تعالى وتقرّين له بالوحدانية، فأرسلت إليه قوماً أدخل بعسكرك فإني قد فتحت لك الباب فلما دخل الحصن عرض عليها الإسلام، فقالت: اعلم أني ملكة ذات همة عالية فهل في عسكرك من هو أكبر منك حتى أسلم على يديه؟ قال: نعم أميرنا وكبيرنا وهو ابن أمير المؤمنين فلما حضرت بين يدي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عرض عليها الإسلام، فقالت: كالأول هل أحد أكبر منك في المسلمين حتى أسلم بين يديه؟ فقال لها: نعم والدي أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقالت: أرسلني إليه حتى أسلم بين يديه، فأرسلها ومعها عسكر وأموال جزيلة أخرجتها معها من الحصار، فلا زالت حتى وصلت إلى عمر رضي الله عنه، فقالت له: يا أمير المؤمنين هل هنا أحد أكبر منك؟ قال: نعم محمد رسول الله وهذا قبره الشريف، وأشار إلى الروضة المطهرة فقالت لا أسلم إلا بين يديه فأجابها لما قالت، فلما أتت الروضة المنورة سلمت وجلست بأدب ووقار في حضرة النبي عليه السلام وقالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ثم قالت خرجت من الظلمات إلى النور وأنا أخشى يا رسول الله أن يدنس إيماني المعاصي، فاسأل ربك الذي أرسلك إلينا بالحق أن يقبض روحي قبل أن أعصيه مرة أخرى، ثم وضعت رأسها على عتبة المصطفى ﷺ فماتت من ساعتها فبكى عمر رضي الله عنه من حسن حالها وأمر بغسلها وتجهيزها ودفنها بالبقيع بين الصحابة رضي الله عنهم.

بروز واقعه تابوت من زسر وكنيد   كه ميروم بهواى بلند بالاني

اللهم اجعلنا من الذين سلكوا الصراط المستقيم ووصلوا إلى جنابك بالقلب السليم فنجوا من عذابك الأليم آمين يا كريم يا رحيم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي: واذكر يا محمد لأهل مكة وغيرهم يوم يحشر الله الثقلين جميعاً ويجمعهم في موقف القيامة فيقول بطريق التوبيخ، ﴿يا معشر الجن﴾ أي: يا جماعة الشياطين، فإن المعشر الجماعة التي تضبطهم جهة واحدة وحصل بينهم معاشرتهم ومخالطتهم ويجمع على معاشر. قال بعضهم: سميت الجماعة بالمعشر لبلوغها غاية الكثرة، فإن العشر هو

العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلا بتركيبه بما فيه من الآحاد فتقول: أحد عشر واثنا عشر، فإذا قيل معشر فكأنه قيل محل العشر الذي هو الكثرة الكاملة. وسمي الجن: جناً لاجتنانهم أي: استتارهم عن أعين الناس. **﴿قد استكثرتم من الإنس﴾** أي: من إغوائهم وإضلالهم أي: أضللتم خلقاً كثيراً من الإنس. **﴿وقال أولياؤهم﴾** أي: أولياء الشياطين الذين أطاعوهم حال كونهم. **﴿من الإنس﴾** فهو حال من أولياؤهم. **﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾** أي: انتفع الإنس بالجن والجن بالإنس، أما انتفاع الإنس بالجن فمن حيث إن الجن كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات وما يتوصل به إليها ويسهلون طريق تحصيلها عليهم، وأما انتفاع الجن بالإنس فمن حيث إن الإنس أطاعوهم ولم يضيعوا سعيهم والرئيس المطاع ينتفع بانقياد أتباعه له. **﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾** أي: أدركنا الوقت الذي وقت لنا، وهو يوم القيامة قالوه اعترافاً بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتكذيب البعث وإظهاراً للندامة عليها وتحسراً على حالهم واستسلاماً لربهم.

كنون بايد اي خفته بيدار بود چومرك اندر آرد زخوابت چه سود
چه خوش كفت باكودك آموزكار كه كارى نكرديم وشد روزكار

ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين للإيذان بأن المضلّين قد أفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلاً. **﴿قال﴾** كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذٍ فقيل قال **﴿النار مثواكم﴾** أي: منزلكم فهو اسم مكان بمعنى مكان الإقامة. **﴿خالدين فيها﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخلق أربعة: فخلق في الجنة كلهم، وخلق في النار كلهم، وخلقان في الجنة والنار، أما الذي في الجنة كلهم فالملائكة، وأما الذي في النار كلهم فالشياطين، وأما الذي في الجنة والنار فالإنس والجن لهم الثواب وعليهم العقاب، **﴿إلا ما شاء الله﴾**.

قال في «التأويلات النجمية»: **﴿إلا ما شاء الله﴾** أن يتوب ويرجع إلى الله فلا تكون النار مثواه فالاستثناء راجع إلى أهل التوبة في الدنيا لا إلى أهل الخلود في النار انتهى.

وقال بعضهم: ما مصدرية بتقدير مضاف كما في آتاك خفوق النجم والاستثناء من مضمون الجملة التي قبله، وهي قوله: **﴿النار مثواكم خالدين فيها﴾** كأنه قيل يخلدون في عذاب النار الأبد كله إلا أوقات مشيئة الله تعالى أن ينقلوا من النار إلى الزمهرير ـ فقد روي ـ أنهم ينقلون من عذاب النار ويدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم ففي الاستثناء تهكم بهم.

وفي «تفسير الجلالين»: **﴿إلا ما شاء الله﴾** من الأوقات التي يخرجون فيها لشوب من حميم فإنه خارجها، كما قال الله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨] وقيل: يفتح لهم وهم في النار باب إلى الجنة فيسرعون نحوه حتى إذا صاروا إليه سدّ عليهم الباب، وقيل: **﴿إلا ما شاء الله﴾** قبل الدخول، كأنه قيل: النار مثواكم أبداً إلا وقت إمهالكم إلى وقت الإدخال والخلود، كما ينتقص من الآخر، كذلك ينتقص من الأول هذا ما ذهب إليه علماء الظاهر في توجيه الاستثناء، إلا أن حضرة الشيخ نجم الدين قدس سره قال في ذلك: حفظاً لظاهر الشرع وللعلماء بالله تحقيق بديع في هذا المقام لا يتحمله عقول العوام، ونحن نشير إلى نبذ من ذلك ونوصي بالستر إلا على السالك.

قال المولى رمضان في «شرح العقائد»: اعلم أن أهل النار لم يقنطوا من الخلاص حتى

إذا ذبح كبش الموت بين الجنة والنار، ونودي أهلهما بالخلود أيس أهل النار من الخلاص فاعتادوا بالعذاب ولم يتألموا حتى آل أمرهم إلى أن يتلذذوا به، حتى لو صبّ عليهم نسيم الجنة استنكروه وتعذبوا به، كالجعل يستطيب الروث ويتألم من الورد انتهى كلامه، وهذا معنى ما قال الشيخ الأكبر: والمسك الأذفر والكبريت الأحمر قدس سره الأطهر تبقى جهنم خالية وإن العذاب من العذب انتهى، ولا يغرنك ظاهر هذا الكلام الأكبري فإن اتفاق العلماء من الطرفين على أن المخلد لا يخرج من النار ولا تبقى جهنم خالية من جسده.

قال حضرة شيخنا وسندنا الذي فضله الله تعالى على العالمين بما خصه من كمالات الدين: فكما إذا استقر أهل دار الجمال فيها يظهر عليهم أثر الجمال ويتذوقون دائماً أبداً، ويختفي منهم جلال الجمال، وأثره بحيث لا يحسونه ولا يرونه، ولا يتألمون به قطعاً سرمداً، فكذلك إذا استقر أهل دار الجلال فيها بعد مرور الأحقاب يظهر على بواطنهم أثر جمال الجلال ويتذوقون به أبداً، ويختفي منهم أثر نار الجلال بحيث لا يحسونه ولا يرونه ولا يتألمون به سرمداً، لكن كما عرفت ليس كذلك إلا بعد انقطاع إحراق النار بواطنهم وظواهرهم بعد مرور الأيام والأحقاب، وكل منهم تحرقه النار خمسين ألف سنة من سني الآخرة لشرك يوم واحد من أيام الدنيا، والظاهر عليهم بعد مرور الأحقاب هو الحال الذي يدوم عليهم أبداً، وهو الحال الذي كانوا عليه في الأزل وما بينهما ابتلاءات رحمانية والابتلاء حادث قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] عصمنا الله وإياكم من دار البوار انتهى كلام الشيخ رضي الله عنه. ﴿إن ربك حكيم﴾ في أفعاله ومنها تخليد أولياء الشياطين في النار. ﴿عليم﴾ بأحوال الثقلين وأعمالهم وبما يليق بها من الجزاء. ﴿وكذلك﴾ أي: كما خذلنا عصاة الجن والإنس حتى استمتع بعضهم ببعض ﴿نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ أي: نسلط بعضهم على البعض فنأخذ من الظالم بالظالم ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصي وجاء «من أعان ظالماً سلطه الله عليه» وعن ابن عباس رضي الله عنهما «إذا أراد الله بقوم خيراً ولى أمرهم خيارهم وإذا أراد بقوم شراً ولى أمرهم شرارهم» وجاء في بعض الكتب الإلهية: إني أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلته عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم، وفي الحديث: «الظالم عدل الله في الأرض ينتقم به ثم ينتقم منه» وفي المرفوع «يقول الله عز وجل أنتقم ممن أبغض بمن أبغض ثم أصير كلاً إلى النار» وفي الزبور: إني لأنتقم من المنافق بالمنافق ثم أنتقم من المنافقين جميعاً.

وقول القائل: كيف يجوز وصفه بالظلم وينسب إلى أنه عدل من الله تعالى؟

جوابه أن المراد بالعدل هنا ما يقابل بالفضل، فالعدل أن يعامل كل أحد بفعله إن خيراً فخير وإن شراً فشر والفضل أن يعفو مثلاً عن المسيء، وهذا على طريق أهل السنة بخلاف المعتزلة فإنهم يوجبون عقوبة المسيء ويدعون أن ذلك هو العدل ومن ثمة سموا أنفسهم أهل العدل وإلى ما صار إليه أهل السنة يشير قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] أي: لا تمهل الظالم ولا تتجاوز عنه، بل عجل عقوبته لكن الله تعالى يمهل من يشاء ويتجاوز عمن يشاء ويعطي من يشاء لا يسأل عما يفعل كذا في «المقاصد الحسنة» للإمام السخاوي. وفي «المثنوي»:

چونكه بدكردى بترس ايمن مباش زانكه تخمست وبرو ياند خداش
چند كاهى اوبپوشاند كه تا آيدت زان بد پشيمان وحيا
بارها پوشد پى اظهار فضل باز كيرد از پى اظهار عدل
تاكه اين هردو صفت ظاهر سود آن مبشر كردد اين منذر شود

واعلم: أن الظلم مطلقاً مفسد للاستعداد الفطري الروحاني القابل للفيض الرباني ولذا لا ينجع في الظالم الكلام الحق وأكثر ما يكون من أرباب الرياسة للقدرة والغلبة وفي الحديث: «إن من أشراط الساعة إماتة الصلوات واتباع الشهوات وأن تكون الأمراء خونة والوزراء فسقة» فوثب سلمان فقال: بأبي وأمي أهذا كائن قال: «نعم يا سلمان عندها يذوب قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء ولا يستطيع أن يغير» قال أو يكون ذلك قال: «نعم يا سلمان إن أذل الناس يومئذٍ المؤمن يمشي بين أظهرهم بالمخافة إن تكلم أكلوه وإن سكت مات بغيظه» كذا في «روضة الأخبار» قال السعدي قدس سره:

خبر دارى از خسروان عجم كه كردند بر زير دستان ستم
نه آن شوكت وپادشاهى بماند نه آن ظلم برروستايى بماند
مكن تاتوانى دل خلق ريش وكر ميكنى ميكنى بيخ خويش

اللهم احفظنا من الظلم والفساد إنك حافظ العباد والبلاد.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾

﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم﴾ أي: يقول الله تعالى يوم القيامة للثقلين جميعاً ألم يأتكم في الدنيا، أي كل فريق منكم ﴿رسل﴾ أي: رسول معين من الله تعالى ﴿منكم﴾ صفة لرسل أي كائنة منكم.

اعلم: أن الجن والإنس مكلفون بالاتفاق لكن الرسول إليهم يحتمل أن يكون من جنسهم كما كان جبريل ونحوه رسل الملائكة من جنسهم وخواص البشر رسل الإنس من أنفسهم لأن الجنس إلى الجنس أميل والاستفادة، والاستئناس في الجنسية أظهر ويحتمل أن يكون من غير جنسهم بأن يكون من البشر، وذلك لا يمنع الاستفادة لأنه يجوز أن يستفيد خواصهم من الرسل ويكونوا رسل الرسول إلى قومهم كاستفادة خواص البشر من خواص الملائكة وقد قام الإجماع على أن نبينا محمداً ﷺ مرسل إلى الثقلين ودعا كل واحد من الفريقين إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وقد كان الأنبياء قبله يبعثون إلى قومهم خاصة وأما سليمان عليه السلام فإنه لم يبعث إلى الجن بالرسالة العامة بل بالملك والضبط والسياسة التامة فقوله تعالى: ﴿رسل منكم﴾ إما محمول على المعنى الأول بأن يكون الرسل من جنس الفريقين.

وقد ذهب إليه الضحاك ومن تبعه حيث قالوا: لا معنى للعدول عن الظاهر بغير ضرورة وأيدوه بما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] في كل أرض نبي مثل نبيكم وآدم كآدمكم ونوح كنوح وإبراهيم كإبراهيم وعيسى كعيسى وصححه صاحب «آكام المرجان» كيف وابن عباس رضي الله عنهما سلطان المفسرين بالاتفاق ولا معنى

لقول السخاوي في «المقاصد الحسنة» أنه أخذه من الإسرائيليات وهذا كما قالوا: إن في كل سماء كعبة حيالها يطوفها أهلها، وكذا في كل أرض ويناسب هذا ما قاله حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره خطاباً لحضرة الهدائي الآن عوالم كثيرة يتكلم فيها محمود وافتاده كثير، وإما محمول على المعنى الثاني وهو الذي ادعو فيه الإجماع وفيه تفصيل شأن البشر فالرسل من الإنس خاصة لكن لما جمعوا مع الجنّ في الخطاب صح ذلك، ونظيره ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمان: ٢٢] والمرجان يخرج من الملح دون العذب، وقيل: الرسل يعم رسل الرسل وقد ثبت أن نفراً من الجن قد استمعوا القرآن وأنذروا به قومهم هذا ما وفقني الله تعالى لترتيبه وتهذيبه في هذا الباب والله يقول الحق ويهدي إلى الصواب. ﴿يقصون عليكم آياتي﴾ أي: يقرؤون عليكم كتبي ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ يعني: يوم القيامة. ﴿قالوا﴾ جواباً عند ذلك التوبيخ الشديد. ﴿شهدنا على أنفسنا﴾ أن قد بلغنا وهو اعتراف منهم بالكفر واستحقاق العذاب وشهدنا إنشاء الشهادة، مثل بعتُ واشتريتُ فلفظ الماضي لا يقتضي تقدم الشهادة. ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ فلم يؤمنوا ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ في الآخرة. ﴿أنهم كانوا﴾ في الدنيا ﴿كافرين﴾ أي: بالآيات والنذر التي أتى بها الرسل وهو ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المخدجة، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.

﴿ذلك﴾ أي: إرسال الرسل. ﴿أن﴾ اللام مقدرة وهي مخففة، أي: لأن الشأن ﴿لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾ أي: بسبب ظلم منها ﴿وأهلها غافلون﴾ لم يرسل إليهم رسول يبين لهم.

قال البغوي: وذلك أنّ الله تعالى أجرى السنة أي لا يأخذ أحداً إلا بعد وجود الذنب وإنما يكون مذنباً إذا أمر فلم يأتمر ونهى فلم ينته ويكون ذلك بعد إنذار الرسل.

وفي «التفسير الفارسي»: [استئصال هيچ قوم نباشد الأبعد از تقدم وعيد واكرنه ايشانرا برحق حجت باشدكه لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك].

قال في «التأويلات النجمية»: الاستعداد الروحاني لا يفسد باستيفاء الحظ الحيواني في الطفولية إلا بعد أن يصير العبد مستعداً لقبول فيض العقل، وفيض إلهام الحق عند البلوغ فيخالف الإلهام، ويتبع الهوى فيفسد بذلك حسن الاستعداد لقبول الفيض الإلهي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وهذا كما أنه تعالى لا يعذب قوماً ما بلغتهم الدعوة حتى يبعث فيهم رسولاً فيخالفونه فيعذبهم بها، وقد عبر لسان الشرع عن هذا المعنى بأن لا يجري عليه قلم تكاليف الشريعة إلا بعد البلوغ بالأوامر والنواهي؛ لأنه أوان ترقي الروح باستعمال المأمورات ونقصانه باستعمال المنهيات انتهى.

فعلى العاقل أن يتدارك حاله ويخاف من الخطاب القهري يوم القيامة.

كر بمحشر خطاب قهر كند انبيارا چه جاى معذرتست

قال الحسن البصري رحمه الله: الناس في هذه الدنيا على خمسة أصناف: العلماء وهم ورثة الأنبياء، والزهاد وهم الأدلاء، والغزاة وهم أسياف الله، والتجار وهم أمناء الله، والملوك وهم رعاة الخلق فإذا أصبح العالم طامعاً وللمال جامعاً فبمن يقتدي ولذا قال من قال:

شيخ چون مائل بمال آيدمريد أو معاش مائل دينار هر كز مالك ديدار نيست
وإذا أصبح الزاهد راغباً فبمن يستدل ويهتدي.
اززاهدان خشك رسائى طمع مدار سيل ضعيف واصل دريا نميشود
وإذا أصبح الغازي مرائياً والمرائي لا عمل له فمن يظفر بالأعداء.
عبادت بالإخلاص نيت نكوست وكرنه چه آيد زبى مغز پوست
وإذا كان التاجر خائناً فمن يؤمن ويرتضي.
درين زمانه مكر جبرئيل امين باشد
وإذا أصبح الملك ذئباً فمن يحفظ الغنم ويرعى
پاشاهى كه طرح ظلم افكند
پاى ديوار ملك خويش بكند
نكند جور پيشه سلطانى
كه نيايد زكرك چوبانى

والله ما أهلك الناس إلا العلماء المداهنون، والزهاد الراغبون والغزاة المراؤون والتجار الخائنون والملوك الظالمون. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ثم إن الأحكام الإلٓهية قد بلغت إلى كل إقليم وبلغ الشاهد الغائب إلى يومنا هذا من قديم وامتلاء الآذان من سماع الحق والكلام المطلق، فلم يبق للسلطان ولا للوزير ولا لغيرهما من الوضيع والخطير عذر ينجيه من الهلاك، وقهر مالك الأملاك والتنبيه مقدم لكل خامل ونبيه فهلاك القرى وأهلها وظهور الظلمات فرعها، وأصلها إنما هو من غفلة الإنسان أيقظه الله الملك المنان فلا تلومن عند وجود التنزل إلا نفسك الأبية، وظهور التسفل إلا طبيعتك الغبية فقد استبان البرهان والحجة ووضع لسالكيها المحجة ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] وأراك أنك ألقمت الحجر ولا تدري ما فعل بك بل تتمادى في تعبك وتتمرغ في غضبك، فعالج نفسك أيها المريض قبل الحلول إلى الحضيض.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِىُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ
ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ
إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ الدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿**ولكل**﴾ من المكلفين من الثقلين مؤمنين كانوا أو كفاراً. ﴿**درجات مما عملوا**﴾ أي: مراتب كائنة من أعمالهم صالحة كانت، أو مسيئة فلأهل الخير درجات في الجنة بعضها فوق بعض، ولأهل الشرك دركات في النار بعضها أشد عذاباً من بعض، وفسروا الدرجات بالمراتب؛ لأن الدرجات غلب استعمالها في الخير والثواب، والكفار لا ثواب لهم ﴿**وما ربك بغافل عما يعملون**﴾ فيخفى عليه عمل من أعمالهم طاعة أو معصية والمقصود أن الله يجزي كل عامل بما عمل.

﴿**وربك الغني**﴾ عن العباد والعبادة. والغني: هو الذي لا يحتاج إلى شيء فيكون وجود كل شيء عنده وعدمه سواء وغيره تعالى لا يسمى غنياً إلا إذا لم يبق له حاجة إلا إلى الله

تعالى، فأصل الحاجة لا ينقطع عن غير الله؛ لأنه في وجوده وغناه يحتاج إلى الغنى الحقيقي. ﴿ذو الرحمة﴾ يترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويمهلهم على المعاصي.

وفي «التأويلات النجمية»: يعني مع غناه عن الخلق له رحمة قد اقتضت إيجاد الخلق ليربحوا عليه لا ليربح عليهم. قال في «المثنوي»:

چون خلقت الخلق كي يربح على ... لطف توفر مود أي قيوم وحى
لا لأن أربح عليهم جود تست ... كه شود زو جمله ناقصها درست
عفو كن اين بند كان تن پرست ... عفو از درياى عفو أولى ترست
عفو خلقان همچو جو وهمچو سيل ... هم بدان درياى خود تازند خيل

﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أيها العصاة، أي: يهلككم ﴿ويستخلف﴾ بالفارسي [خليفه وجانشين شما سازد] ﴿من بعدكم﴾ أي: من بعد إذهابكم وإهلاككم. ﴿ما يشاء﴾ أي: خلقاً آخر أطوع لله منكم، وإيثار (ما) على (من) لإظهار كمال الكبرياء وإسقاطهم عن رتبة العقلاء. ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ أي: من قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام لكنه أبقاكم ترحماً عليكم.

وفي «التفسير الفارسي»: [همچنانكه شمارا پيدا كرد از ذرية قومى ديكركه پدران شمابودند] ﴿إن ما توعدون﴾ أي: الذي توعدون من البحث والعذاب، ﴿لآت﴾ لواقع لا محالة لا خلف فيه ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي: بفائتين ذلك وإن ركبتم في الهرب متن كل صعب وذلول.

﴿قل﴾ لأهل مكة ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ المكانة مصدر بمعنى التمكن وهو القوة والاقتدار، أي: اعملوا على غاية تمكنكم ونهاية استطاعتكم يعني اعملوا ما أنتم عاملون واثبتوا على كفركم وعداوتكم. ﴿إني عامل﴾ ما كتب عليّ من المصابرة والثبات على الإسلام، والاستمرار على الأعمال الصالحة، والأمر للتهديد من قبيل الاستعارة تشبيهاً للشر المهدد عليه بالمأمور به الواجب الذي لا بد أن يكون.

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي على ما جبلتم عليه نظيره قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] ﴿فسوف تعملون من﴾ استفهامية أو موصولة ﴿تكون له عاقبة الدار﴾ أي: أينا تكون له العاقبة المحمودة التي خلق الله تعالى هذه الدار لها أو فسوف تعرفون الذي له العاقبة الحسنى، فالدار دار الدنيا، والعاقبة الأصلية لهذه الدار هي عاقبة الخير، وأما عاقبة السوء فمن نتائج تحريف الفجار. ﴿إنه﴾ أي: إن الشان ﴿لا يفلح﴾ يسعد ﴿الظالمون﴾ أي: الكافرون أي لا يظفرون بمرادهم وبالفارسي [بدرستى كه پيروزى ورستكارى نيابند ستمكاران يعني كفار. صاحب كشف الأسرار فرموده كه هم درين روزى بدانيدكه دنيا كجارسد ودولت فلاح كرا رسد ببينيدكه درويشان شكسته بال را بسراى كرامت چون خوانند وخواجكان صاحب إقبال را سوى زندان ندامت چون رانند]:

باش تاكل يابى آنهاراكه امر وزند جزو ... باش تاكل بينى أنهاراكه امر وزندخار
تاكه ازدار الغرورى ساختن دار السرور ... تاكى ازدار الفرارى ساختن دار القرار

وليس الفلاح إلا في العلم والعمل، وترك الدنيا والكسل والذلل ـ حكي ـ عن بعضهم أنه دخل عليه بعض الفقراء ولم يجد في بيته شيئاً من المتاع فقال أما لكم شيء؟ قال: بلى لنا

داران إحداهما دار أمن والأخرى دار خوف فما يكون لنا من الأموال ندخره في دار الأمن يعني نقدمه للدار الآخرة، فقال له: إنه لا بد لهذا المنزل من متاع فقال إن صاحب هذا المنزل لا يدعنا فيه وذلك أن الدنيا عارية، ولا بد للمعير أن يرجع في عاريته فعاقبة الدار إنما هي للأخيار الأبرار الذين عملوا لله في ليلهم ونهارهم، ولم ينقطعوا عن التوجه إليه حال سكونهم وقرارهم.

وكان شاب يجتهد في العبادة، فقيل له في ذلك، فقال: رأيت في منامي قصراً من قصور الجنة مبنياً بلبنة من ذهب ولبنة من فضة، وكذلك شراريفه وبين كل شرافتين حورية لم ير الراؤون مثلها لما بها من الحسن والجمال، وقد أرخين ذوائب شعورهن فتبسمت إحداهن في وجهي فأنارت الجنة بنور ثناياها، ثم قالت: يا فتى جدّ لله تعالى في طلبي لأكون لك وتكون لي فاستيقظت فحقيق عليّ أن أجد فإذا كان هذا الاجتهاد في طلب حورية فكيف بمن يطلب ربّ الحورية.

فداى دوست نكرديم عمرو مال دريغ   كه كار عشق زما اين قدر نمى آيد

فظهر أن الاجتهاد في طريق الحق له عاقبة حميدة، فإنه موصل إلى الجنة والقربة والوصلة فسيظهر أثره في الدار الآخرة، وأما الظالمون الذين أفسدوا استعداداتهم بما عملوا من المعاصي فإنهم لا يفلحون بمثل هذه السعادة، بل يرجعون إلى دار البوار وحالهم في الدنيا هي الخسارة لا غير فإن الباطل يفور، ثم يغور والدولة في الدنيا والآخرة لأهل الإيمان والخلاص من التنزل لا يحصل إلا بالإيمان، فمن دخل في حصن الإيمان وقوة اليقين يترقى إلى ما شاء الله تعالى من الدرجات والشيطان، وإن كان ينبح عليه خارج الحصن لكنه لا يضره وفي الحديث: «جددوا إيمانكم» والمراد الانتقال من مرتبة إلى مرتبة فإن أصل الإيمان قد تم بالأول، ولكن الإيمان على ثماني عشرة مرتبة والعناية من الله تعالى وتوحيد كل شخص على قدر يقينه وهو قد يكون على قدر يقينه في ملك وجوده، وقد لا يكون على قدر هذا اليقين فالذين يظهرون الدعوى فتوحيدهم في ملك وجودهم فقط فلو أنهم جاوزوا إلى هذا اليقين لندموا عليها ورغبوا عن أنفسهم.

فعلى العاقل أن لا يسامح في باب الدين، بل يجتهد في تحصيل اليقين فإن الاجتهاد باب لهذا التحصيل ووسيلة في طريقة التكميل، وإن كان الله تعالى هو الموصل برحمته الخاصة والمؤثر في كل الأمور اللهم اجعلنا من أهل التوحيد الحقاني وشرفنا بالإيمان العياني فإنك الغني ونحن الفقراء.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿وجعلوا﴾ أي: مشركو العرب. ﴿لله مما ذرأ﴾ أي: خلق ﴿من الحرث﴾ أي: الزرع ﴿والأنعام نصيباً﴾ ولشركائهم أيضاً نصيباً. ﴿فقالوا هذا﴾ النصيب ﴿لله بزعمهم﴾ أي: بادعائهم

الباطل من غير أن يكون ذلك بأمر الله تعالى. ﴿وهذا لشركائنا﴾ أي: آلهتنا التي شاركونا في أموالنا من المتاجر والزروع والأنعام وغيرها فهو من الشركة لا من الشرك، والإضافة إلى المفعول - روي - أنهم كانوا يعينون شيئاً من الحرث والنتاج لله، ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين وشيئاً منهما لآلهتهم، وينفقونه على سدنتها ويذبحونه عندها، ثم إن رأوا ما عينوا لله أزكى رجعوا وجعلوه لآلهتهم وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه معتلين بأن الله تعالى غني، وما ذلك إلا لحب آلهتهم وإيثارهم لها. ﴿فما كان لشركائهم﴾ من نماء الحرث والأنعام ﴿فلا يصل إلى الله﴾ أي: إلى المساكين والأضياف، وقالوا: لو شاء الله زكى نصيب نفسه. ﴿وما كان لله﴾ من ذلك النماء ﴿فهو يصل إلى شركائهم﴾ بذبح النسائك عندها والأجراء على سدنتها؛ لأنهم إذا لم ينم نصيب الآلهة يبدلون ذلك النامي الذي عينوه لله تعالى ويجعلونه لآلهتهم. ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي: ساء الذي يحكمون حكمهم فيما فعلوا من إيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم بما لم يشرع لهم.

﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله تعالى وبين آلهتهم. ﴿زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾ أي: أولياؤهم من الجن أو من السدنة فقوله: قتل مفعول زين وشركاؤهم فاعله وكان أهل الجاهلية يدفنون بناتهم أحياء خوفاً من الفقر أو من التزويج أو من السبي وكان الرجل منهم يحلف بالله لئن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرنّ أحدهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله - روي - أن عبد المطلب رأى في المنام أنه يحفر زمزم ونعت له موضعها وقام يحفر وليس له ولد يومئذٍ إلا الحارث، فنذر لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا لينحرن أحدهم لله تعالى عند الكعبة، فلما تموا عشرة أخبرهم بنذره فأطاعوه وكتب كل واحد منهم اسمه في قدح فخرج على عبد الله فأخذ الشفرة لينحر فقامت قريش من أنديتها، فقالوا لا تفعل حتى ننظر فيه فانطلق به إلى عرّافة، فقالت: قربوا عشراً من الإبل ثم اضربوا عليه وعليها القداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإذا خرجت على الإبل فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم فقربوا من الإبل عشراً فخرج على عبد الله فزاد عشراً عشراً، فخرجت في كل مرة على عبد الله إلى أن قرب مائة فخرج القدح على الإبل فنحرت، ثم تركت لا يصدّ عنها إنسان ولا سبع ولذلك قال عليه السلام: «أنا ابن الذبيحين» يريد أباه عبد الله وإسماعيل عليه السلام. ﴿ليردوهم﴾ أي: ليهلكوهم بالإغواء ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام، واللام للتعليل إن كان التزيين من الشياطين، وللعاقبة إن كان من السدنة لظهور أن قصد السدنة لم يكن إلا رداء واللبس وإنما كان ذلك قصد الشياطين. ﴿ولو شاء الله﴾ أي: عدم فعلهم ذلك. ﴿ما فعلوه﴾ أي: ما فعل المشركون ما زين لهم من القتل. ﴿فذرهم وما يفترون﴾ الفاء فصيحة أي: إذا كان ما فعلوه بمشيئة الله تعالى فدعهم وافتراءهم على الله أنه أمرهم بدفن بناتهم أحياء فإن الله تعالى مع قدرته عليهم تركهم فاتركهم أنت فإن لهم موعداً يحاسبون فيه ولله تعالى فيما شاء حكم بالغة.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا

فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿**وقالوا هذه**﴾ إشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم ﴿**أنعام وحرث حجر**﴾ أي: حرام ﴿**لا يطعمها**﴾ بالفارسي [نچشد ونخورد آنرا] ﴿**إلا من نشاء**﴾ يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء. ﴿**بزعمهم**﴾ أي قالوه ملتبسين بزعمهم الباطل من غير حجة ﴿**وأنعام**﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة معطوفة على قوله تعالى هذه أنعام أي قالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم أي وهذه أنعام. ﴿**حرمت ظهورها**﴾ يعنون بها البحائر والسوائب والحوامي. ﴿**وأنعام**﴾ أي: وهذه أنعام كما مر وقوله تعالى. ﴿**لا يذكرون اسم الله عليها**﴾ صفة لأنعام لكنه غير واقع في كلامهم المحكي كنظائره بل مسوق من جهته تعالى تعييناً للموصوف وتمييزاً له عن غيره، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧] على أحد التفاسير كأنه قيل وأنعام ذبحت على الأصنام فإنها التي لا يذكر عليها اسم الله وإنما يذكر عليها الأصنام ﴿**افتراء عليه**﴾ أي: افتروا على الله افتراء، يعني: أنهم يفعلون ذلك ويزعمون أن الله تعالى أمرهم به. ﴿**سيجزيهم**﴾ بالفارسي [زود باشدكه خدا جزادهد ايشانرا]. ﴿**بما كانوا يفترون**﴾ أي بسبب افترائهم. ﴿**وقالوا ما في بطون هذه الأنعام**﴾ يعنون به أجنة البحائر والسوائب ﴿**خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا**﴾ أي: حلال للرجال خاصة دون الإناث وتأنيث خالصة محمول على معنى ما وتذكير محرم محمول على لفظه وهذا الحكم منهم إن ولد ذلك حياً. ﴿**وإن يكن ميتة**﴾ أي: ولدت ميتة. ﴿**فهم فيه**﴾ أي: ما في بطون الأنعام. ﴿**شركاء**﴾ يأكلون منه جميعاً ذكورهم وإناثهم ﴿**سيجزيهم وصفهم**﴾ أي: جزاء وصفهم الكذب على الله تعالى في أمر التحليل والتحريم. ﴿**إنه حكيم عليم**﴾ تعليل للوعد بالجزاء فإن الحكيم العليم بما صدر عنهم لا يكاد يترك جزاءهم الذي هو من مقتضيات الحكمة.

﴿**قد خسر الذين قتلوا أولادهم**﴾ جواب قسم محذوف وهم ربيعة ومضر وأضرابهم من العرب الذين كانوا يئدون بناتهم محافظة السبي والفقر، أي: خسروا دينهم ودنياهم بالفارسي [زيان كردند]. ﴿**سفهاً بغير علم**﴾ متعلق بقتلوا على أنه علة له وبغير علم صفة لسفهاً، أي: لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله تعالى هو الرزاق لهم ولأولادهم ﴿**وحرموا**﴾ على أنفسهم ﴿**ما رزقهم الله**﴾ من البحائر ونحوها. ﴿**افتراء على الله**﴾ أي: افتروا على الله افتراء حيث قالوا إن الله أمرهم بها. ﴿**قد ضلوا**﴾ عن الطريق المستقيم ﴿**وما كانوا مهتدين**﴾ إليه وإن هدوا بفنون الهدايات ـ روي ـ عن رسول الله ﷺ أن رجلاً من أصحابه كان لا يزال مغتماً بين يديه فقال عليه السلام: «ما لك تكون محزوناً» فقال يا رسول الله إني قد أذنبت في الجاهلية ذنباً، فأخاف أن لا يغفر لي وإن أسلمت فقال عليه السلام: «أخبرني عن ذنبك» فقال: يا رسول الله إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت فشفعت إليّ امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت فصارت من أجمل النساء فخطبوها، فدخلتْ عليّ الحمية ولم يتحمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي فسرّتْ بذلك وزينتها بالثياب والحلل، وأخذت عليّ المواثيق بأن لا

أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر، ففطنت الجارية بي أني أريد أن ألقيها في البئر فالتزمتني وجعلت تبكي، وتقول يا أبي أي شيء تريد أن تفعل بي؟ فرحمتها ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحمية، ثم التزمتني وجعلت تقول يا أبي لا تضيع أمانة أمي؟ فجعلت مرة أنظر إلى البئر ومرة أنظر إليها وأرحمها وغلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة، وهي تنادي في البئر يا أبي قتلتني فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت فبكى رسول الله وقال: «لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك بما فعلت».

واعلم أنهم لما انسد عليهم طريق الثقة بالله حملتهم خشية الفقر على قتل الأولاد، ولذلك قال أهل التحقيق: من أمارات اليقين وحقائقه كثرة العيال على بساط التوكل.

قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر: من دخل هذا الطريق وهو ذو زوج فلا يطلق أو عزب فلا يتزوج حتى يكمل فإذا كمل فهو في ذلك على ما يلقى إليه ربه انتهى، واختار أكثر الكمل موت أولادهم لأن كل ما يشغل الطالب عن الله من الأموال والأولاد فهو فتنة.

ومنهم إبراهيم بن أدهم حيث اجتمع بولده بمكة فرأى في قلبه ميلاً إليه، فقال: إلهي أمتني أو هذا مشيراً إلى ولده فمات، والأنسب أن يدفعه من قلبه بالتوحيد ولا يدعو عليه بالموت لأن الدعاء تصرف من عند نفسه والمتصرف في الحقيقة هو الله فإذا أدخل عبده في أمر لا يتولى العبد إخراج نفسه منه بل يصبر وينتظر إلى أمر الله تعالى، وقلة المال مع كثرة العيال والصبر عليها من المجاهدات المعتبرة عند السلاك.

قال حضرة الشيخ أفتاده أفندي: خطاباً لحضرة الهدائي إذا أظهر أهل بيتك جوعاً شديداً ورأيتهم قد أشرفوا على الهلاك فعليك أن تتوكل على الله وتسلم الأمر إليه بأن تقول عن صميم قلبك لا بمجرد لسانك إلهي، أنا عبد ذليل مثلهم، وهم عبادك فأمري وأمرهم إليك لا أحل أنا بينك وبين عبادك يتم المقصود بالسهولة، ويقضي الرب جميع حوائجك، قال: ويكون توكل الطالب على وجه لو أن أولاده ماتوا من الجوع لما ترحم عليهم، بل قال هذا الرب وهذا عبده وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد قال الصائب:

فكر آب أو دانه در كنج قفس بيحاصلست   زير چرخ انديشهٔ روزى چرا باشد مراد

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿وهو الذي أنشأ﴾ أي: خلق يقال نشأ الشيء نشأة إذا ظهر وارتفع وأنشأه الله تعالى، أي: أظهره ورفعه. ﴿جنات﴾ أي: بساتين من الكروم. ﴿معروشات﴾ أي: مرفوعات على ما يحملها من خشب ونحوه. ﴿وغير معروشات﴾ ملقيات على وجه الأرض، فإن بعض الأعناب يعرش وبعضها لا يعرش بل يلقى على وجه الأرض منبسطاً أو المعروشات الأعناب التي يجعل لها عروش وغير المعروشات كل ما نبت منبسطاً على وجه الأرض مثل القرع والبطيخ، أو المعروشات ما يحتاج إلى أن يتخذ له عريش يحمل عليه فيمسكه، وهو الكرم وما يجري مجراه

وغير المعروش ما لا يحتاج إليه بل يقوم على ساقه كالنخل والزرع، ونحوهما من الأشجار والبقول أو المعروشات ما يحصل في البساتين والعمرانات مما يهتم به الناس ويغرسونه وغير المعروشات ما أنبته الله تعالى في البراري والجبال. ﴿والنخل والزرع﴾ أي: أنشأهما وإفرادهما بالذكر مع أنهما داخلان في الجنات لكونهما أعم نفعاً من جملة ما يكون في البساتين، والمراد بالزرع ههنا جميع الحبوب التي يقتات بها، ﴿مختلفاً أكله﴾ حال مقدرة؛ إذ ليس كذلك وقت الإنشاء، أي: أنشأ كل واحد منهما في حال اختلاف ثمره الذي يؤكل في الهيئة والكيفية.

قال البغوي: ثمره وطعمه منها الحلو والحامض والجيد والرديء ﴿والزيتون والرمان﴾ أي: أنشأهما ﴿متشابهاً وغير متشابه﴾ نصب على الحالية، أي: يتشابه بعض أفرادهما في اللون والهيئة والطعم ولا يتشابه بعضها مثل الرمانين لونهما واحد وطعمهما مختلف. ﴿كلوا من ثمره﴾ أي: من ثمر كل واحد من ذلك. ﴿إذا أثمر﴾ وإن لم يدرك ولم يينع بعد ففائدة التقييد بقوله: إذا أثمر إباحة الأكل منه قبل إدراكه وينعه. ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أشهر الأقوال على أن المراد ما كان يتصدق به على المساكين يوم الحصاد، أي: يوم قطع العنب والنخل ونحوهما بطريق الوجوب من غير تعيين المقدار حتى نسخه افتراض العشر فيما يسقى بماء السماء ونصف العشر فيما يسقي بالدلو والدالية أو نحوهما. ﴿ولا تسرفوا﴾ أي: في التصدق كما روي أن ثابت بن قيس جذ خمسمائة نخلة فقسمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئاً وقد جاء في الخبر «ابدأ بمن تعول» وقيل: الخطاب للسلاطين، أي: لا تأخذوا فوق حقكم. ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ أي: لا يرضى فعلهم. ﴿ومن الأنعام﴾ أي: أنشأ من الأنعام. ﴿حمولة﴾ ما يحمل عليه الأثقال ﴿وفرشاً﴾ وما يفرش للذبح أو يتخذ من صوفه ووبره وشعره ما يفرش ولعله من قبيل التسمية بالمصدر ﴿كلوا ما رزقكم الله﴾ من تبعيضية وما عبارة عن الحمولة والفرش، أي: كلوا بعض ما رزقكم الله، أي: حلاله وفيه تصريح بأن إنشاءها لأجلهم ومصلحتهم وتخصيص الأكل بالذكر من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب وغير ذلك مما حرموه في السائبة وأخواتها لكونه معظم ما ينتفع به ويتعلق به الحل والحرمة. ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: لا تسلكوا الطريق التي سولها الشيطان لكم في أمر التحليل والتحريم فإنه لا يدعوكم إلا إلى المعصية. ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي: ظاهر العداوة وقد أبان عداوته لأبيكم آدم عليه السلام.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿ثمانية أزواج﴾ بدل من حمولة وفرشاً والزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل فالاثنان المصطحبان يقال لهما زوجان لا زوج فعلى هذا يقول مقراضان ومقصان لا مقراض ومقص؛ لأنهما اثنان والمراد بالأزواج الثمانية الأنواع الأربعة لأنها باعتبار مزاوجها ثمانية. ﴿من الضأن اثنين﴾ بدل من ثمانية أزواج، أي أنشأ من الضأن زوجين الكبش والنعجة

والضأن معروف، وهو ذو الصوف من النعم. ﴿ومن المعز اثنين﴾ أي: أنشأ من المعز زوجين التيس والعنز والمعز ذو الشعر من النعم. ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿ءآلذكرين﴾ من ذينك النوعين وهما الكبش والتيس. ﴿حرم﴾ أي: الله تعالى كما تزعمون أنه هو المحرم. ﴿أم الأنثيين﴾ وهما النعجة والعنز. ﴿أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أي: أم ما حملت إناث النوعين حرم ذكراً كان أو أنثى. ﴿نبئوني بعلم﴾ أي: أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب أو أخبار الأنبياء يدل على أنه تعالى حرم شيئاً مما ذكر. ﴿إن كنتم صادقين﴾ في دعوى التحريم عليه سبحانه.

﴿ومن الإبل اثنين﴾ عطف على قوله تعالى ﴿من الضأن اثنين﴾، أي وأنشأ من الإبل اثنين هما الجمل والناقة. ﴿ومن البقر اثنين﴾ ذكراً وأنثى. ﴿قل﴾ إفحاماً لهم أيضاً ﴿ءالذكرين﴾ منهما ﴿حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ من ذينك النوعين، والمعنى إنكار أن الله تعالى حرم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة ذكراً وأنثى أو ما يحمل إناثها رداً عليهم فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام، تارة كالحام فإنه إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموه ولم يمنعوه ماء ولا مرعى، وقالوا: إنه قد حمي ظهره، وكالوصيلة فإن الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، وإن ولدتهما وصلت الأنثى أخاها ويحرمون إناثها تارة كالبحيرة، والسائبة فإنه إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها وخلوا سبيلها فلا تركب ولا تحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيت فناقتي سائبة ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وكانوا إذا ولدت النوق البحائر والسوائب فصيلاً حياً حرموا لحم الفصيل على النساء دون الرجال، وإن ولدت فصيلاً ميتاً اشترك الرجال والنساء في لحم الفصيل، ولا يفرقون بين الذكور والإناث في حق الأولاد. ﴿أم كنتم شهداء﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة، ومعنى الهمزة الإنكار والتوبيخ، ومعنى بل الاضراب عن التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه آخر، أي: بل أكنتم حاضرين شاهدين. ﴿إذ وصاكم الله بهذا﴾ أي: حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبي فلا طريق لكم حسبما يؤول إليه مذهبكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسماع. ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم. ﴿ليضل الناس﴾ متعلق بافترى.

قال سعدي چلبي المفتي: الظاهر أن اللام للعاقبة. ﴿بغير علم﴾ حال من فاعل يضل، أي: ملتبساً بغير علم بما يؤدي بهم إليه. ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ كائناً من كان إلى ما فيه صلاح حالهم عاجلاً وآجلاً فإذا نفى الهداية عن الظالم فما ظنك بمن هو ظلم.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ
لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي﴾ طعاماً ﴿محرماً﴾ من المطاعم التي حرموها. ﴿على

طاعم﴾ أي: طاعم كان من ذكر أنثى رداً على قولهم ومحرم على أزواجنا، وقوله تعالى: ﴿يطعمه﴾ لزيادة التقرير ﴿إلا أن يكون﴾ ذلك الطعام ﴿ميتة﴾ لم تذك وهي التي تموت حتف أنفها. ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ أي: مصبوباً كالدماء التي في العروق لا كالطحال والكبد فإنهما جامدان وقد جاء الشرع بإباحتهما، وفي الحديث: «أحلت لنا ميتتان ودمان» والمراد من الميتتين السمك والجراد ومن الدمين الكبد والطحال، وما اختلط باللحم من الدم وقد تعذر تخلصه من اللحم عفو مباح لأنه ليس بسائل أيضاً ﴿أو لحم خنزير فإنه﴾ أي: الخنزير ﴿رجس﴾ أي: قذر لتعوده أكل النجاسة.

قال الحدادي: كل ما استقذرته فهو رجس ويجوز أن يعود الضمير إلى اللحم وتخصيصه مع أن لحمه وشحمه وشعره وعظمه وسائر ما فيه كله حرام لكونه أهم ما فيه فإن أكثر ما يقصد من الحيوان المأكول اللحم فالحل والحرمة يضاف إليه أصالة ولغيره تبعاً.

قال سعدي چلبي المفتي: الأصل عود الضمير إلى المضاف؛ لأنه المقصود والمضاف إليه لتعريفه وتخصيصه. ﴿أو فسقاً﴾ عطف على لحم خنزير ﴿أهل لغير الله به﴾ صفة موضحة، أي ذبح على اسم الأصنام وإنما سمي ذلك فسقاً لتوغله في الفسق. ﴿فمن اضطر﴾ أي: أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء من ذلك. ﴿غير باغ﴾ على مضطر مثله ﴿ولا عاد﴾ قدر الضرورة ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة لا يؤاخذ بذلك.

والآية محكمة؛ لأنها تدل على أنه عليه السلام لم يجد فيما أوحي إليه إلى تلك الغاية غيره ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك في شيء آخر.

قال في «التأويلات النجمية»: يشير بالميتة إلى ميتة الدنيا فإنها جيفة مستحيلة، كما قال بعضهم:

وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها

وفي الحديث: «أوحى الله إلى داود يا داود مثل الدنيا كمثل جيفة اجتمعت عليها الكلاب يجرونها أفتحب أن تكون كلباً مثلهم فتجرّ معهم» قال الحافظ:

همايى چون توعالى قدر حرص استخوان حيفست ... دريغاسايهٔ همت كه بر نااهل افكندى

والدم المسفوح هو الشهوات واللذات التي يهراق عليها دم الدين ولحم الخنزير هو كل رجس من عمل الشيطان كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] وحقيقة الرجس الاضطراب عن طريق الحق والبعد منه كما جاء في الخبر «لما ولد رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى»، أي: اضطرب وتحرك حركة سمع لها صوت فالرجس ما يبعدك عن الحق أو فسقاً أهل لغير الله به، أي: خروجاً عن طلب الحق في طلب غير الحق. قال السعدي:

خلاف طريقت بود كاوليا ... تمنا كنند ازخدا جز خدا

فالشروع في هذه الأشياء محرم؛ لأنها تحرمك من الله وقرباته إلا أن يكون بقدر ما يدفع الحاجة الإنسانية فإن الضرورات تبيح المحظورات.

قال بعضهم في قوله عليه السلام: «تمعددوا واخشوشنوا» أي اقتدوا بمعدّ بن عدنان والبسوا الخشن من الثياب وامشوا حفاة فهو حث على التواضع ونهى عن الإفراط في الترفه

والتنعم كما قال عليه السلام: «إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين».

بـــنـــاز ونـــعـــمـــت دنـــيـــا مـــنـــه دل كه دل بـرداشـتـن كـاريـسـت مـشـكـل

فعلى العاقل أن يكون أزهد الناس في الدنيا ويتجرد عن الأسباب كالأنبياء وكمل الأولياء.

وعن بعضهم قال: رأيت فقيراً ورد على بئر ماء في البادية، فأدلى ركوته فيها فانقطع حبله ووقعت الركوة فيها فأقام زماناً، وقال وعزتك لا أبرح إلا بركوتي، أو تأذن لي في الانصراف عنها قال فرأيت ظبية عطشانة جاءت إلى البئر ونظرت فيها وفاض الماء وطفح على البئر، وإذا بركوته على فم البئر فأخذها وبكى، وقال: إلهي ما كان لي عندك محل ظبية، فهتف به هاتف يا مسكين جئت بالركوة والحبل وجاءت الظبية ذاهبة عن الأسباب لتوكلها علينا.

ففي هذه الحكاية ما يدل على كمال الانقطاع عن غير الله تعالى.

﴿وعلى الذين هادوا﴾ أي: على اليهود خاصة لا على من عداهم من الأولين والآخرين. ﴿حرمنا كل ذي ظفر﴾ كل ما له أصبع سواء كان ما بين أصابعه منفرجاً كأنواع السباع والكلاب والسنانير، أو لم يكن منفرجاً كالإبل والنعام والإوز والبط وكان بعض ذوات الظفر حلالاً لهم فلما ظلموا عمّ التحريم. ﴿ومن البقر والغنم﴾ متعلق بقوله: ﴿حرمنا عليهم شحومهما﴾ لا لحومهما فإنها باقية على الحل. والشحوم الثروب وشحوم الكليتين. ﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾ استثناء من الشحوم، أي: إلا ما اشتملت على الظهور والجنوب من شحم الكتفين إلى الوركين من داخل وخارج. ﴿أو الحوايا﴾ عطف على ظهورهما، أي: أو إلا الذي حملته الأمعاء واشتمل عليها. جمع الحوية كما في «الصحاح» وهي المباعر والمصارين. ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ عطف على ما حملت وهو شحم الألية واختلاطه بالعظم اتصاله بالعصص وهو عجب الذنب أي عظمه وأصله ويقال إنه أول ما يخلق وآخر ما يبلى. ﴿ذلك﴾ الجزاء ﴿جزيناهم﴾ أي: اليهود ﴿ببغيهم﴾ أي: بسبب ظلمهم وهو قتلهم الأنبياء بغير حق وأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل وكانوا كلما أتوا بمعصية عوقبوا بتحريم شيء مما أحل لهم، وقد أنكروا ذلك وادعوا أنها لم تزل محرمة على الأمم الماضية فرد عليهم ذلك وأكد بقوله تعالى: ﴿وإنا لصادقون﴾ أي: في الإخبار عن كل شيء لا سيما في الإخبار عن التحريم المذكور وفي الإخبار عن بغيهم.

﴿فإن كذبوك﴾ أي: اليهود والمشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم. ﴿فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا بذلك فإنه إمهال لا إهمال. ﴿ولا يرد بأسه﴾ عذابه ﴿عن القوم المجرمين﴾ حين ينزل.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله﴾ عدم إشراكنا ﴿ما أشركنا﴾ نحن ﴿ولا آباؤنا ولا

حرمنا من شيء﴾ أرادوا به أن ما فعلوه حق مرضي عند الله تعالى. ﴿كذلك﴾ أي: كهذا التكذيب وهو قولهم إنا إنما أشركنا وحرمنا لكون ذلك مشروعاً مرضياً عند الله تعالى وإنك كاذب فيما قلت من أن الله تعالى منع من الشرك ولم يحرم ما حرمتموه. ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ أي: متقدموهم الرسل. ﴿حتى ذاقوا﴾ غاية لامتداد التكذيب ﴿بأسنا﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم. ﴿قل هل عندكم من﴾ زائدة ﴿علم﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم. ﴿فتخرجوه لنا﴾ فتظهروه لنا. ﴿إن تتبعون إلا الظن﴾ أي: ما تتبعون فيما أنتم عليه من الشرك والتحريم إلا الظن الباطل من غير علم ويقين. ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ تكذبون على الله تعالى.

﴿قل فللّه الحجة البالغة﴾ الفاء جواب شرط محذوف أي وإذا قد ظهر أن لا حجة لكم فللّه الحجة البالغة أي البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والثبات أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه والمراد بها الكتاب والرسول والبيان. ﴿فلو شاء﴾ هدايتكم جميعاً ﴿لهداكم أجمعين﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن شاء هداية قوم لصرف اختيارهم إلى سلوك طريق الحق وضلال آخرين لصرف هممهم إلى خلاف ذلك.

﴿قل هلم﴾ اسم فعل، أي أحضروا ﴿شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾ وهم قدوتهم الذين ينصرون قولهم ومذهبهم ولا من يشهد بصحة دعواهم كائناً من كان ولذلك قيد الشهداء بالإضافة إليهم وإنما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم وأنه لا متمسك لهم كمن يقلدهم. ﴿فإن شهدوا﴾ بعدما حضروا بأن الله تعالى حرم هذا. ﴿فلا تشهد معهم﴾ أي: فلا تصدقهم فإنه كذب محض وبيّن لهم فساده. ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ كعبدة الأوثان والموصول الثاني عطف على الموصول الأول بطريق عطف الصفة على الصفة مع اتحاد الموصوف، فإن من يكذب بآياته تعالى لا يؤمن بالآخرة وبالعكس. ﴿وهم بربهم يعدلون﴾ أي: يجعلون له عديلاً عطف على لا يؤمنون، والمعنى: لا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله وبين الكفر بالآخرة وبين الإشراك به سبحانه لكن لا على أن يكون مدار النهي المذكور بل على أن أولئك جامعون لها متصفون بكلها.

واعلم: أن الله تعالى أحل الطيبات وردَّ ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من تحريم من عند أنفسهم؛ لأن الدين يبتنى على الوحي لا على الهوى وحرم الخبائث كالخمر والميتة والدم والخنزير وغير ذلك، أي: تناولها وبيعها لأن ما يحرم تناوله يحرم بيعه وأكل ثمنه بخلاف ما إذا كان الانتفاع بغير ذلك كشحوم الميتة فإنه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس فإن ذلك ليس بحرام، وما حرمه الله تعالى إما أن يكون بلاء ونقمة كما فعل اليهود وجزاء على أنفسهم، وإما أن يكون رحمة ومنة لعلمه أن فيه ضرراً نفسانياً أو روحانياً، فالنفساني كضرر السم وأمثاله، والروحاني كضرر لحوم السباع والمؤذيات وأمثالها فإنه بتعدي أخلاقها تغير الأخلاق الروحانية كما قال عليه السلام: «الرضاع يغير الطباع».

ومن ثَمَّ لما دخل الشيخ أبو محمد الجويني بيته ووجد ابنه الإمام أبا المعالي يرتضع ثدي غير أمه اختطفه منها ثم نكس رأسه ومسح بطنه، وأدخل أصبعه في فيه ولم يزل يفعل ذلك حتى خرج ذلك اللبن قائلاً: يسهل عليّ موته ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير أمه، ثم لما كبر

الإمام كان إذا حصلت له كبوة في المناظرة يقول هذه من بقايا تلك الرضعة فعلم أن من ارتضع امرأة فالغالب عليه أخلاقهما من خير وشر، وكذا لحوم الحيوانات لها تأثير عظيم وفي الحديث: «عليكم بألبان البقر وسمنانها، وإياكم ولحومها فإن ألبانها وسمنانها دواء وشفاء ولحومها داء» وقد صح أن النبي عليه السلام «ضحى عن نسائه بالبقر».

قال الحليمي: هذا ليبس الحجاز ويبوسة لحم البقر ورطوبة لبنها وسمنها فكأنه يرى اختصاصه ذلك به وهذا التأويل المستحسن وإلا فالنبي عليه السلام لا يتقرب إلى الله تعالى بالداء، فهو إنما قال ذلك في البقر لتلك اليبوسة. وجواب آخر أنه عليه السلام ضحى بالبقر لبيان الجواز أو لعدم تيسر غيره كذا في «المقاصد الحسنة». ومن فوائد سمن البقر أنه لو شرب منه على الريق خمسين درهماً ينفع للجنون ويؤثر في دفعه.

قال الفقيه أبو الليث: يستحب للرجل أن يعرف من الطب مقدار ما يمتنع به عما يضر ببدنه، لأن العلم علمان علم الأبدان ثم علم الأديان، وأجاز عامة العلماء التداوي بالمحرمات عند الضرورة كإساغة اللقمة بالخمر إذا غص.

وفي «الأشباه»: الطعام إذا تغير واشتد تغيره تنجس وحرم واللبن والزيت والسمن إذا نتن لا يحرم أكله والدجاجة إذا ذبحت ونتف ريشها، وأغليت في الماء قبل شق بطنها صار الماء نجساً وصارت نجسة بحيث لا طريق لأكلها إلا أن تحمل الهرة إليها لا أن تحمل إلى الهرة.

فعلى العاقل أن يحترز عن الحرام وعما يضر بالبدن ومن المضر الامتلاء كما قال عليه السلام: «رأس الداء الامتلاء ورأس الدواء الاحتماء».

آن حكيمى كه در حكمت سفت   كل قليلا تعش كثيرا كفت

قال السعدي قدس سره:

ندارند تن پروران آكهى   كه پرمعده باشدز حكمت تهى

ومن الله التوفيق.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا
تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن
سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿قل﴾ يا محمد لكفار مكة. ﴿تعالوا﴾ أمر من تعالى والأصل فيه أن يقوله من في مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم اتسع فيه بالتعميم فتكلم به كل من تطلب أن يتقدم ويقبل إليه شخص سواء كان الطالب في علو أو سفل أو غيرهما. ﴿أتل﴾ جواب الأمر أي: أقرأ. ﴿ما حرم ربكم﴾ أي: الذي حرمه ربكم أي الآيات المشتملة عليه. ﴿عليكم﴾ متعلق بحرم ﴿أن﴾ مفسرة ﴿لا﴾ ناهية ﴿تشركوا به﴾ تعالى ﴿شيئاً﴾ من الأشياء فتقدير الكلام ذلك التحريم هو قوله: ﴿لا تشركوا به شيئاً﴾.

اعلم: أن هذه الآيات الثلاث إلى قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ تشتمل على عشر خصال جامعة للخير كله لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب فهن محرمات على بني آدم كلهم لم يختلفن باختلاف الأمم والأعصار، من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار. أولاهن قوله: ﴿لا تشركوا به شيئاً﴾ قدم الشرك لأنه رأس المحرمات، ولا يقبل الله تعالى معه شيئاً من الطاعات وهو ينقسم إلى جلي وخفي فالجلي عبادة الأصنام والخفي رؤية الأغيار مع الله الواحد القهار.

تادم وحدت زدى حافظ شوريده حال — خامهٔ توحيد كش بروَرق اين وآن

﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: وأحسنوا بهما إحساناً، أي: لا تسيئوا إليهما لأن المحرم هو الإساءة، والأمر بالشيء مستلزم للنهي عن ضده، وكذا معنى أوفوا لا تبخسوا وإنما وضع الأمر موضع النهي للمبالغة في إيجاب مراعاة حقوقهما، فإن مجرد ترك الإساءة غير كاف في قضاء حقوقهما، وهذا هو الأمر الثاني من الأحكام العشرة وإنما ذكر بعد تحريم الشرك تحريم العقوق لأن الوالدين سببان قريبان لوجوده كما أن الله تعالى موجده فالتقاعد عن أداء حقوقهما عقوق فهو أكبر الكبائر بعد الشرك.

قال بعض الأولياء: كنت في تيه بني إسرائيل، فإذا رجل يماشيني فتعجبت منه وألهمت أنه الخضر، فقلت له: بحق الحق من أنت قال أنا أخوك الخضر قلت بأي وسيلة رأيتك قال ببرك أمك.

جنت كه سراى مادرانست — زير قدمات مادرانست

﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ أي: لا تدفنوا بناتكم حية ﴿من إملاق﴾ من أجل فقر. والإملاق: نفاد الزاد والنفقة، يقال: أملق الرجل إذا نفد زاده ونفقته من الملق وهو بذل المجهود في طلب المراد. ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ لا أنتم فلا تخافوا الفقر بناء على عجزكم عن تحصيل الرزق. وهذا هو الحكم الثالث من الأحكام العشرة، وإنما حرم قتل الأولاد لما فيه من هدم بنيان الله وملعون من هدم بنيانه، وفيه إبطال ثمرة شجرته ومحصوده وقطع نسله وترك التوكل في أمر الرزق يؤدي إلى تكذيب الله تعالى لأنه قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

ما آبروى فقر وقناعت نمى بريم — با پادشه بگوى كه روزى مقدرست

﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ أي: الزنى وجيء بصيغة الجمع قصداً إلى النهي عن أنواعها ولذلك أبدل منها بدل اشتمال قوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ أي: ما يفعل منها علانية في الحوانيت كما هو دأب أرذالهم وما يفعل سراً باتخاذ الأخدان، كما هو عادة أشرافهم. وهذا هو الحكم الرابع منها وتوجيه النهي إلى قربانها للمبالغة في النهي عنها ويدخل في ذلك ما يبعده من الجنة ويدنيه من النار، وهو ما ظهر وما يبعده من الحق ويحجبه عنه، وإن لم يحجبه عن الجنة ولم يبعده منها وهو ما بطن، وأيضاً ما ظهر منها بالفعل وما بطن بالنية ومن الزنى زنى النظر.

اين نظر ازدور چون تيراست وسم — عشقت افزون ميشود صبر توكم

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن الشيطان من الرجل في ثلاثة منازل في عينيه وفي قلبه وفي ذكره وهو من المرأة في ثلاثة منازل في عينيها وفي قلبها وفي عجزها» ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله﴾ أي: حرم قتلها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد فيخرج منها الحربي ﴿إلا

بالحق﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق الذي هو أمر الشرع بقتلها، وذلك بالكفر بعد الإيمان، والزنى بعد الإحصان، وقتل النفس المعصومة، وهذا هو الحكم الخامس، وفي القتل ترك تعظيم أمر الحق وترك الشفقة على الخلق وهما ملاك الدين.

والإشارة: أن القتل الحق هو القتل في طلب الحق والمقتول في سبيل الله هو حي عند ربه.

وعن أبي سعيد الخراز: كنت بمكة فجزت يوماً بباب بني شيبة، فرأيت شاباً حسن الوجه ميتاً فنظرت في وجهه فتبسم في وجهي، وقال لي: يا أبا سعيد أما علمت أن الأحباب أحياء وإن ماتوا وإنما ينقلون من دار إلى دار.

مشو بمرك زامداد أهل دل نوميد ... كه خواب مردم آكاه عين بيداريست

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من التكاليف الخمسة. **﴿وصاكم به﴾** أي: أمركم ربكم بحفظه أمراً مؤكداً. **﴿لعلكم تعقلون﴾** أي: تستعملون عقولكم التي تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح المذكورة **﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾** أي: لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه واليتيم من الإنسان من لا أب له ومن الحيوان من لا أم له والخطاب للأولياء والأوصياء. **﴿إلا بالتي هي أحسن﴾** إلا بالخصلة التي هي أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثميره. **﴿حتى يبلغ أشده﴾** غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهي كأنه قيل احفظوه حتى يصير بالغاً رشيداً فحينئذٍ سلموه إليه.

وجعل أبو حنيفة غاية الأشد خمساً وعشرين سنة فإذا بلغها دفع إليه ماله ما لم يكن معتوهاً.

قال الجوهري: **﴿حتى يبلغ أشده﴾** أي: قوته وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين وهو واحد جاء على بناء الجمع مثل آنك وهو الأسرب ولا نظير لهما وكان سيبويه يقول واحدته شدة، وهذا هو الحكم السادس، وإنما وصى الله تعالى بحفظ مال اليتيم لأنه عاجز فتولى الله أمره وأمر بالشفقة والنظر في حقه.

ألا تانكريدكه عرش عظيم ... بلرزد همى چون بكريديتيم

﴿وأوفوا الكيل﴾ في المكيلات أي أتموه ولا تنقصوا منه شيئاً **﴿والميزان﴾** في الموزونات وهو بالفارسي [ترازو] **﴿بالقسط﴾** حال من فاعل أوفوا، أي: أوفوهما مقسطين أي ملتبسين بالقسط وهو العدل.

فإن قيل إيفاء الكيل والميزان هو عين القسط فما فائدة التكرير؟.

قلنا إن الله تعالى أمر المعطي بإيفاء ذي الحق حقه من غير نقصان وأمر صاحب الحق بأخذه من غير طلب زيادة. **﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾** إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وذكره عقيب الأمر للإيذان بأن مراعاة العدل عسير فعليكم بما في وسعكم، وما وراءه معفو عنكم فإذا اجتهد الإنسان في الكيل والوزن ووقعت فيه زيادة يسيرة أو نقصان يسير لم يؤاخذه به إذا اجتهد جهده، وإن أعيد الكيل على ذلك فزاد أو نقص لم يثبت التراجع إذا كان ذلك القدر من التفاوت مما يقع بين الكيلين، وأما التقصير القصدي فليس بمعفو وينبغي الاحتياط بقدر الإمكان ـ روي ـ عن بعضهم أنه قال لبعض الناس وهو في النزع وكان يعامل الناس بالميزان، قل: لا إله إلا الله فقال: ما أقدر أقولها، لسان الميزان على لساني يمنعني من النطق بها، قال

فقلت له: أما كنت توفي الوزن؟ قال: بلى ولكن ربما كان يقع في الميزان شيء من الغبار لا أشعر به.

وعن مالك بن دينار أنه دخل على جار له احتضر فقال يا مالك جبلان من النار بين يدي أكلف الصعود عليهما، قال مالك: فسألت أهله، فقالوا كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فدعوت بهما فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما، ثم سألت الرجل، فقال: ما يزداد الأمر إلا شدة. وهذا هو الحكم السابع.

والإشارة أوفوا بكيل العمر، وميزان الشرع حقوق الربوبية، واستوفوا بكيل الاجتهاد وميزان الاقتصاد حظوظ العبودية من الألوهية لا نكلف نفساً في إيفاء الحقوق واستيفاء الحظوظ إلا بحسب استعدادها.

هركس بقدر بال وپر خويش مى پرد

﴿وإذا قلتم﴾ قولاً في حكومة أو شهادة أو نحوهما. ﴿فاعدلوا﴾ فيه ﴿ولو كان﴾ المقول له أو عليه. ﴿ذا قربى﴾ أي: ذا قرابة منكم ولا تميلوا نحوهم أصلاً لأن مداد الأمر اتباع الحق المشروع وطلب مرضاة الله تعالى فلا فرق بين ذي قرابة وأجنبي، وهذا هو الحكم الثامن وحقيقة العدل في الكلام أن يذكر الله، ولا يذكر معه غيره وأن يتكلم لله وفي الله وبالله وهذا لا يتيسر إلا لأرباب التحقيق فإن كلام غيرهم مشوب بالغرض والدعوى.

بانك هدهدكر بيامو زد فتى   راز هدهد كوو پيغام سبا

﴿وبعهد الله أوفوا﴾ أي: ما عهد إليكم أي عهد كان من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع وغيرهما فهو مضاف إلى الفاعل أو ما عاهدتم الله عليه من الإيمان والنذور، فهو مضاف إلى المفعول ويحتمل أن يراد به العهد بين الإنسانين، ويكون إضافته إلى الله تعالى من حيث إنه أمر بحفظه والوفاء به.

وفاء عهد نكو باشد اربياموزى   وكرنه هركه توبينى ستمكرى داند

وهذا هو الحكم التاسع، وحقيقة العهد أن لا يعبد إلا مولاه ولا يحب إلا إياه ولا يرى سواه.

ازدم صبح ازل تا آخر شام ابد   دوستى ومهر بريك عهد ويك ميثاق بود

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما فصل من التكاليف الأربعة. ﴿وصاكم به﴾ أمركم به أمراً مؤكداً ﴿لعلكم تذكرون﴾ تتذكرون ما في تضاعيفه وتعملون بمقتضاه.

﴿وأن﴾ بتقدير اللام علة للفعل المؤخر أي ولأن ﴿هذا﴾ أي: ما ذكر في هذه السورة من إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة. ﴿صراطي﴾ أي: مسلكي وشريعتي، وسمي الشرع طريقاً لأنه يؤدي إلى الثواب في الجنة ومعنى إضافته إلى ضمير عليه السلام انتسابه إليه من حيث السلوك لا من حيث الوضع كما في صراط الله ﴿مستقيماً﴾ حال مؤكدة، أي مستوياً قويماً.

﴿فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾ أي: الطرق المختلفة التي عدا هذا الطريق مثل اليهودية والنصرانية وسائر الملل. ﴿فتفرق بكم﴾ منصوب بإضمار أن بعد الفاء في جواب النهي، أصله فتتفرق حذفت منه إحدى التاءين والباء للتعدية، أي: فتفرقكم وتزيلكم. ﴿عن سبيله﴾ أي: عن دين الله الذي ارتضى وبه أوصى وهو الإسلام، وفيه تنبيه على أن صراطه عليه السلام عين سبيله تعالى. وهذا هو العاشر من الخصال.

خلاف پيغمبر كسى ره كزيد | كه هر كز بمنزل نخواهد رسيد
محالست سعدى كه راه صفا | توان رفت جزدرپى مصطفا

﴿ذلكم﴾ أي: اتباع سبيله وترك اتباع سائر السبل. ﴿وصاكم به لعلكم تتقون﴾ اتباع سبيل الكفر والضلالة.

ولما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية خط خطاً فقال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه».

واعلم: أن الشرع ههنا هو الصراط المستقيم وهو أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر، ولذا لا نزال في كل ركعة من الصلاة نقول اهدنا الصراط المستقيم، ومن زلّ عن هذا الصراط في الدنيا زل عن صراط الآخرة. أيضاً قال عليه السلام: «الزالون عن الصراط كثير وأكثر من يزل عنه النساء» وأكثر الرجال في هذا الزمان في حكم النساء في اتباع الشهوات والأخذ بالعادات والدين بدأ غريباً وعاد غريباً فلا يوجد من يستأنس به ويستأهل له إلا نادراً.

قال في «التفسير الفارسي»: [محققان بر آنندكه صراط متعين نكردد الاميان بدايتى ونهايتى وعارف داندكه بدايت همه ازكيست ونهايت همه يكيست وحضرت شيخ صدر الدين قو نوى قدس سره وإعجاز البيان فرموده كه إحاطهٔ حق بهمه اشيا ثابت است والله بكل شيء محيط وآن احاطهٔ وجودى است يا علمى باختلاف أفعال وأقوال متنهاى سر صراط وغايت سر سالك خواهدبو چنانچه فرمود ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣].

هرجا قدمى زديم در كوى توبود | هركوشه كه برفتيم سوى توبود
كفتيم مكر سوى ديكر راهى هست | هر راه كه ديديم همه سوى تو بود

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾ عطف على مقدر أي فعلنا تلك التوصية باتباع صراط الله ثم آتينا موسى الكتاب أي التوراة وثم للتراخي في الأخبار، كما في قولك: بلغني ماصنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب. ﴿تماماً﴾ مصدر من أتم بحذف الزوائد، أي: إتماماً للكرامة والنعمة. ﴿على الذي أحسن﴾ أي: على من أحسن القيام به كائناً من كان من الأنبياء والمؤمنين. ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين وهذا لا ينافي الاجتهاد في شريعتهم كما لا ينافي قوله تعالى: في آخر سورة يوسف ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: ١١١] في شريعتنا لأن التفصيل في الأصول والاجتهاد في الفروع. ﴿وهدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ نجاة من العذاب لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿لعلهم﴾ أي: بني إسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى. ﴿بلقاء ربهم يؤمنون﴾ الباء متعلقة بيؤمنون، أي كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب.

﴿وهذا﴾ أي: القرآن ﴿كتاب أنزلناه﴾ ليس من قبل الرسول كما يزعم المنكرون. ﴿مبارك﴾ أي: كثير النفع ديناً ودنيا.

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿مبارك﴾ عليك وبركته أنه أنزل على قلبك بجعل خلقك

القرآن ومبارك على أمتك بأنه حيل بينهم وبين ربهم ليوصلهم إليه بالاعتصام. ﴿فاتبعوه﴾ واعملوا بما فيه ﴿واتقوا﴾ مخالفته ﴿لعلكم ترحمون﴾ بواسطة أتباعه والعمل بموجبه.

﴿أن تقولوا﴾ على حذف المضاف كما هو رأي البصريين، أي: أنزلناه كراهة أن تقولوا يا أهل مكة يوم القيامة لم تنزله ﴿إنما أنزل الكتاب﴾ أي: التوراة والإنجيل. ﴿على طائفتين﴾ كائنتين ﴿من قبلنا﴾ وهما اليهود والنصارى ولعل الاختصاص في إنما اشتهار الكتابين يومئذٍ فيما بين الكتب السماوية. ﴿وإن﴾ مخففة أي وإنه. ﴿كنا عن دراستهم﴾ قراءتهم ولم يقل عن دراستهما لأن كل طائفة جماعة ﴿لغافلين﴾ لا ندري ما في كتابهم؛ إذ لم يكن على لغتنا فلم نقدر على قراءته.

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب﴾ كما أنزل عليهم ﴿لكنا أهدى منهم﴾ إلى الحق الذي هو المقصد الأقصى أو إلى ما في تضاعيفه من جلائل الأحكام والشرائع ودقائقها لحدة أذهاننا ونقابة أفهامنا ولذلك تلقفنا فنوناً من العلم كالقصص والأشعار والخطب مع أنا أميون. ﴿فقد جاءكم﴾ متعلق بمحذوف معلل به أي لا تعتذروا بذلك القول فقد جاءكم ﴿بينة﴾ كائنة ﴿من ربكم﴾ أي: حجة واضحة ﴿وهدى ورحمة﴾ عبر عن القرآن بالبينة إيذاناً بكمال تمكنهم من دراسته لأنه على لغتهم ثم بالهدى والرحمة. ﴿فمن أظلم﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿ممن كذب بآيات الله﴾ أي: القرآن ﴿وصدف عنها﴾ أي: صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال. في «القاموس»: صدف عنه يصدف أعرض وفلاناً صرفه. ﴿سنجزي الذين﴾ بالفارسي [زود باشدكه جزادهم آنراكه] ﴿يصدفون﴾ الناس. ﴿عن آياتنا﴾ وعيد لهم ببيان جزاء إضلالهم بحيث يفهم منه جزاء ضلالتهم أيضاً. ﴿سوء العذاب﴾ أي: شدته ﴿بما كانوا يصدفون﴾ أي بسبب ما كانوا يفعلون الصدف والصرف على التجدد والاستمرار.

فعلى العاقل أن يعمل بالقرآن ويرغب غيره بقدر الإمكان؛ لأنه يكون شريكه في الثواب الفائض من الله الوهاب، والمعرض عن القرآن الذي هو غذاء الأرواح، كالمعرض عن شراب السكر الذي هو غذاء الأشباح، وله ظاهر فسره العلماء وباطن حققه أهل التحقيق وكل قد علم مشربه وفي الحديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي: على سبع لغات وهي لغات العرب المشهورين بالفصاحة من قريش وهذيل وهوازن واليمن وطي وثقيف، تسهيلاً وتيسيراً ليقرأ كل طائفة بما يوافق لغتهم بشرط السماع من النبي عليه السلام؛ إذ لو كلفوا القراءة بحرف واحد لشق عليهم إذ الفطام عن المألوف شاق أو على سبع قراءات، وهي التي استفاضت عن النبي عليه السلام وضبطتها الأمة وأضافت كل حرف منها إلى من كان أكثر قراءة به من الصحابة، ثم أضيفت كل قراءة منها إلى من اختارها من القراء السبعة وهم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي. ويقال إن جاحد القراءات السبع كافر وجاحد الباقي آثم مبتدع.

ولما تنزل القرآن العظيم من عالم الحقيقة كتب في جميع الألواح وفي لوح هذا التعين، حتى

في لوح وجودك وأودع القابلية في كل منها لقراءته ومعرفته، والمقصود الأصلي هو العمل به والتخلق بأخلاقه دون تصحيح المخرج ورعاية ظاهر النظم فقط. ونعم قول من قال:

نقد عمرش زفكرت معوج ... خرج شد در رعايت مخرج
صرف كردش همه حيات سره ... در قراآت سبعه وعشره

قال الحافظ:

عشقت رسد بفرياد كر خود بسان حافظ ... قرآن زبر بخوانى درچاردہ روايت

وفي الحديث: «لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار» قال القاضي البيضاوي، أي: لو صور القرآن وجعل في إهاب وألقي في النار ما مسته ولا أحرقته ببركة القرآن، فكيف بالمؤمن الحامل له المواظب على تلاوته.

وعن علي رضي الله عنه: «من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأ على غير وضوء فعشر حسنات» ـ وروي ـ عن بعض الأخيار من أهل التلاوة للقرآن الكريم أنه لما حضرته الوفاة كان كلما قالوا قل: لا إله إلا الله قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ [طه: ١-٢] إلى قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ٨] فلم يزل يعيدها كلما أعادوا عليه حتى مات على هذه الآية الكريمة فظهر أن الموت على ما عاش عليه الشخص.

وكان حرفة رجل بيع الحشيش وهو غافل عن الله فلما حضرته الوفاة كان كلما قيل له قل لا إله إلا الله، قال: حزمة بفلس نسأل الله تعالى التوفيق للموت على الإسلام.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٥٨﴾.

﴿هل ينظرون﴾ هل استفهامية معناها النفي وينظرون بمعنى ينتظرون فإن النظر يستعمل في معنى الانتظار، كأنه قيل إني أقمت على أهل مكة الحجة وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا فما ينتظرون. **﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾** أي: ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم. **﴿أو يأتي ربك﴾** أي: أمره بالعذاب والانتقام.

وقال البغوي: **﴿أو يأتي ربك﴾** بلا كيف لفصل القضاء بين موقف القيامة انتهى، أو المراد بإتيان الرب إتيان كل آية يعني آيات القيامة والهلاك الكلي بقرينة قوله تعالى: **﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾** يعني: أشراط الساعة التي هي: الدخان، ودابة الأرض، وخسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه السلام، ونار تخرج من عدن وهم ما كانوا منتظرين لأحد هذه الأمور الثلاثة وهي مجيء الملائكة أو مجيء الرب أو مجيء الآيات القاهرة من الرب لكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظرين شبهوا بالمنتظرين. **﴿يوم يأتي بعض آيات ربك﴾** ظرف لقوله: **﴿لا ينفع نفساً إيمانها﴾** كالمحتضر فإن معاينة أشراط الساعة بمنزلة نفسها ووقوع العيان يمنع قبول الإيمان لأنه إنما يقبل إذا كان بالغيب. **﴿لم تكن آمنت من قبل﴾** صفة نفساً، أي: من قبل إتيان بعض الآيات. **﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾** الآية تقتضي أن لا ينفع الإيمان بدون العمل الصالح ومذهب أهل

السنة أنه نافع حيث إن صاحبه لا يخلد في النار.

قال حضرة الشيخ الشهير بالهدائي الاسكداري في «الواقعات»: لاح لي في توفيق هذه الآية على مذهب أهل السنة وجهان: الأول: أن يكون قوله: ﴿أو كسبت﴾ معطوفاً على آمنت المقدر لا على آمنت المذكور والتقدير لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل سواء آمنت إيماناً مجرداً أو كسبت في إيمانها خيراً، والثاني: أن يعطف على آمنت المذكور ولكن يعتبر في اللف مقدر فيكون النشر أيضاً على أسلوبه، والتقدير لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها خيراً لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. ﴿قل انتظروا﴾ ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أيَّ شيء تنتظرون ﴿إنا منتظرون﴾ لذلك وحينئذٍ لنا الفوز، وعليكم الوبال بما حل بكم من سوء العاقبة.

قال البغوي: المراد ببعض الآيات طلوع الشمس من مغربها وعليه أكثر المفسرين.

قال الحدادي في «تفسيره»: قال رسول الله ﷺ: «إذا غربت الشمس رفع بها إلى السماء السابعة في سرعة طيران الملائكة، وتحبس تحت العرش فتستأذن من أين تطلع أمِن مطلعها أو من مغربها، وكذا القمر فلا تزال كذلك حتى يأتي الله بالوقت الذي وقتّه لتوبة عباده، وتكثر المعاصي في الأرض، ويذهب المعروف فلا يأمر به أحد وينتشر المنكر فلا ينهى عنه أحد، فإذا فعلوا ذلك حبست الشمس تحت العرش، فإذا مضى مقدار ليلة سجدت واستأذنت ربها من أين تطلع، فلم يجر لها جواباً حتى يوافيها القمر فيسجد معها ويستأذن من أين يطلع فلا يجر له جواباً، فيحبسان مقدار ثلاث ليال فلا يعرف مقدار تلك الليلة إلا المتهجدون في الأرض وهم يومئذٍ عصابة قليلة في هوان من الناس، فينام أحدهم تلك الليلة مثل ما ينام قبلها من الليالي، ثم يقوم فيتهجد ورده فلا يصبح، فينكر ذلك فيخرج وينظر إلى السماء فإذا هو بالليل مكانه والنجوم مستديرة، فينكر ذلك ويظن فيه الظنون، فيقول: أخففت قراءتي أم قصرت صلاتي، أم قمت قبل حيني، ثم يقوم فيعود إلى مصلاه فيصلي نحو صلاته في الليلة الثانية، ثم ينظر فلا يرى الصبح فيشتد به الخوف فيجتمع المتهجدون من كل بلدة في تلك الليلة في مساجدهم ويجأرون إلى الله بالبكاء والتضرع فيرسل الله جبريل إلى الشمس والقمر، فيقول لهما: إن الله يأمركما أن ترجعا إلى مغربكما فتطلعا منه فإنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور فيبكيان عند ذلك وجلاً من الله، بكاء يسمعه أهل السموات السبع وأهل سرادقات العرش، ثم يبكي من فيهما من الخلائق من خوف الموت والقيامة فبينما المتهجدون يبكون ويتضرعون والغافلون في غفلاتهم إذا بالشمس والقمر قد طلعا من المغرب أسودان لا ضوء للشمس ولا نور للقمر كصفتهما في كسوفهما، فذلك قوله تعالى ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة: ٩] فيرتفعان كذلك مثل البعيرين ينازع كل واحد منهما صاحبه استباقاً فيتصارخ أهل الدنيا حينئذٍ ويبكون، فأما الصالحون فينفعهم بكاؤهم ويكتب لهم عبادة، وأما الفاسقون: فلا ينفعهم بكاؤهم يومئذٍ ويكتب ذلك عليهم حسرة وندامة، فإذا بلغ الشمس والقمر سرة السماء ومنتصفها جاء جبريل فأخذ بقرونهما فردهما إلى المغرب فيغربان في باب التوبة» فقال عمر رضي الله عنه بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما باب التوبة فقال: «يا عمر خلق الله باباً للتوبة خلف المغرب له مصراعان من ذهب وما بين المصراع إلى المصراع أربعون سنة للراكب، فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله خلقه إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس من مغربها، فإذا غربا في ذلك الباب رد

المصراعان والتأم بينهما، فيصير كأن لم يكن بينهما صدع، فإذا أغلق باب التوبة لم يقبل للعبد توبة بعد ذلك، ولم ينفعه حسنة يعملها إلا من كان قبل ذلك محسناً، فإنه يجزى كما قبل ذلك اليوم فذلك قوله تعالى: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ وإنما لم يقبل الإيمان في ذلك الوقت لأنه ليس بإيمان اختياري في الحقيقة وإنما هو إيمان لخوف الهلاك قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] قال السعدي قدس سره:

چه سود ازدزد آنكه توبه كردن ... كه نتواند كمند انداخت بركاخ

بلند ازميوه كو كوتاه كن دست ... كه اين كوته ندارد دست برشاخ

وعدم قبول الإيمان والتوبة غير مخصوص بمن يشاهد طلوع الشمس من المغرب وهو الأصح، والظاهر أن من تولد بعد طلوعها أو ولد قبله ولم يكن مميزاً بعد ذلك يقبل إيمانه وجعله في «شرح المصابيح» أصح قالت عائشة رضي الله عنها «إذا خرجت أول الآيات طرحت الأقلام وحبست الحفظة وشهدت الأجساد بالأعمال».

قال الإمام السيوطي رحمه الله يظهر المهدي قبل الدجال بسبع سنين، ويخرج الدجال قبل طلوع الشمس بعشر سنين، ويقوم المهدي سنة مائتين بعد الألف أو أربع ومائتين، والله أعلم وقبل ظهور المهدي أشراط أخر من خروج بني الأصفر وغيرها.

وفي «التأويلات النجمية»: إن الله تعالى جعل نفس الإنسان وقلبه أرضاً صالحاً لقبول بذر الإيمان وإنباته وتربيته كما قال عليه السلام: «لا إله إلا الله ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقلة» فالبذر هو قول المرء أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله عند تصديق القلب بشهادة اللسان، وإنما كان زمان هذه الزراعة زمان الدنيا لا زمان الآخرة ولهذا قال عليه السلام: «الدنيا مزرعة الآخرة» فلا ينفع نفساً في زمان الآخرة بذر إيمانها لم تكن بذرت من قبل في زمان الدنيا أو كسبت في إيمانها خيراً من الأعمال الصالحة التي ترفع الكلمة الطيبة، وهي لا إله إلا الله وتجعلها شجرة طيبة مثمرة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من ثمار المعرفة والمحبة والكشف والمشاهدة والوصول والوصال ونيل الكمال انتهى ما في «التأويلات» ونسأل الله أن يرزقنا التوفيق لتحقيق التوحيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿إن الذين﴾ أي: اليهود والنصارى. ﴿فرقوا دينهم﴾ أي: بدّدوه وبعضوه فتمسك بكل بعض منه فرقة منهم. ﴿وكانوا شيعاً﴾ جمع شيعة يقال شايعه على الأمر إذا اتبعه أي فرقاً تشيع كل فرقة إماماً لها قال عليه السلام: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة» واستثناء الواحدة من فرق كل من أهل الكتابين إنما هو بالنظر إلى العصر الماضي قبل النسخ، وأما بعده فالكل في الهاوية. ﴿لست منهم في شيء﴾ لست من البحث عن تفرقهم والتعرض لمن يعاصرك منهم بالمناقشة والمؤاخذة

في شيء. ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ تعليل للنفي المذكور، أي هو يتولى وحده أولاهم وأخراهم ويدبرهم كيف يشاء حسبما تقتضيه الحكمة. ﴿ثم ينبئهم﴾ أي: يوم القيامة. ﴿بما كانوا يفعلون﴾ عبر عن إظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة في أنهما سببان للعلم تنبيهاً على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه من سوء عاقبته، أي: يظهر لهم على رؤوس الأشهاد ويعلمهم أي شيء شنيع كانوا يفعلونه في الدنيا على الاستمرار ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء.

واعلم أن كل فعل شنيع وعمل قبيح في الدنيا يتصور بصورة قبيحة في الآخرة، وهو قد كان بصورة قبيحة في الدنيا أيضاً لكنه برز لفاعله في صورة مستحسنة امتحاناً وابتلاء، فصار كالشهد المختلط بالسم نعوذ بالله من سيئات الأعمال حفت الجنة بمكروهاتنا، وحفت النيران بشهواتنا يعني جعلت الجنة محفوفة بالأشياء التي كانت مكروهة لنا وجعلت النار محاطة بالأشياء التي كانت محبوبة لنا، يعني: أن نفوسنا تميل إليها وتحب أن تفعلها لكونها على وفق هواها فكما أن في الآفاق فرقاً مختلفة ينفي بعضهم الصانع، وبعضهم صفاته، وبعضهم يعتقد في حقه تعالى ما لا يجوز اعتقاده وبعضهم يجري على ما جرى عليه الأنبياء والأولياء من حسن العقيدة وصالح العمل، كذلك في الأنفس قوى مختلفة لا تتحد في البنية ولا تجتمع على أمر واحد، فالطبيعة على التشهي والنفس على الهوى والروح على الإقبال إلى المولى، والدين الحقيقي الذي فيه كمالية الإنسان إنما يوجد بتوافق الظاهر والباطن فمن فارقه بقلبه وتمسك ببعض شعاره وبظاهره رياء وسمعة فهو من فرق أهل الدعوى من غير المعنى.

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي: مخاطباً لحضرة الهدائي قدس الله أسرارهما أشكر الله على عدم اقترانك بالملاحدة، فإن الإلحاد كمرض الجذام بعيد عن الإصلاح، قال: وأظن أنهم لا يخرجون من النار لأنهم في دعوى المقال بدون الحال انتهى. ومن المدعين القلندرية وهم الذين يقصون لحاهم وشعورهم بل يحلقون.

قلندرى نه بريشست وموى وياابرو حساب راه قلندر بدانكه موى بموست
كذشتن ازسر مو درقلندرى سهلست چو حافظ آنكه زسر بكذرد قلندر اوست

ومن الفرق المبتدعة الجوالقية: وهم الذين يحلقون لحاهم ويلبسون الجوالق والكساء الغليظ وقد نهى النبي عليه السلام عن لباس الشهرة سواء كان من جنس الرقيق أو الغليظ لأنه اشتهار بذلك وامتياز به عن المسلمين وقد قال عليه السلام: «كن كواحد من الناس» ولا ينفع الجوالق والكساء إذا كان المرء صاحب الرياء. قال السعدي قدس سره:

بروى ريا خرقه سهلست دوخت كرش باخدا در توانى فروخت
كر آوازه خواهى در اقليم فاش برون حله كن كودرون حشو باش

وقال:

درغزا كند مرد بايد بود بر مخنث سلاح جنك چه سود

وكان الشيخ قطب الدين حيدر مجذوباً صاحب حال جداً حتى حكي أنه أخذ حديداً حاراً من كير حداد صار كقطعة نار وألقاه على عنقه ساعة فلم يحترق فأخذ الحيدرية بذلك ولبسوا الحديد تقليداً ولبس الحديد أكثر إثماً من لبس الذهب.

فعلى العاقل أن يجتنب عن البدعة وأهلها ـ وروي ـ أن ابن المبارك رؤي في المنام فقيل له ما فعل ربك فقال: عاتبني وأوقفني ثلاثين سنة بسبب أني نظرت باللطف يوماً إلى مبتدع،

فقال: إنك لم تعاد عدوي في الدين فكيف حال القاعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين.

واعلم: أن أهل الهوى والبدعة ليس مخصوصاً بالبشر كما قال الأعمش تزوج إلينا جني، فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز فقال فائتنا به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً فقلت هل فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم قلت فما الرافضة فيكم قال شرّنا. والروافض: هم الذين رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لعدم تبريه من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولزم هذا اللقب كل من غلا في مذهبه واستجاز الطعن في الصحابة، وأصله أن زيداً خرج بالكوفة داعياً لنفسه فبايعه جماعة من أهلها، وأتاه طائفة من أهل الكوفة وقالوا تبرأ من أبي بكر وعمر نبايعك فأبى فقالوا إذاً نرفضك فمن ذلك سموا الروافض، وقالت طائفة من أهل الكوفة: نتولاهما ونتبرأ ممن تبرأ منهما وخرجوا مع زيد فسموا الزيدية. وسبب بغضهم للأصحاب أنه لما وقعت الهزيمة في غزوة أُحَد ونادَى الشيطان أن قد مات محمد اعتقده الأصحاب غير علي رضي الله عنه حتى وقع النزاع. فقال كرم الله وجهه: هل أقتلكم لو لم يكن واقعاً؟ قالوا: نعم فلما ظهر خلافه عفا عنهم فمن ثم أحبوا علياً وتركوا الباقي وأبغضوه.

چون خدا خواهدكه پردۂ كس درد ميلش اندر طعنۂ پاكان برد

فعلى العاقل أن يحب الصالحين حباً شديداً، كي ينال منهم شفاعة يوم القيامة فويل لمن كان شفعاؤه خصماءه اللهم اعصمنا ولا تزغ قلوبنا واهدنا وسددنا فمنك التوفيق لسلوك طريق التحقيق. ﴿من جاء بالحسنة﴾ أي: من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة من المؤمنين إذ لا حسنة بغير إيمان.

قال القاضي عياض: انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم، ولا تخفيف عذاب لكن بعضهم يكون أشد عذاباً من بعض بحسب جرائمهم انتهى، نعم إذا أسلموا يثابون على الخيرات المتقدمة لما ورد في الحديث «حسنات الكفار مقبولة بعد إسلامهم».

وفي «تفسير الكاشفي»: [هركه بيايد دردنيا بنكويى] ﴿فله عشر أمثالها﴾ أي: فله عشر حسنات أمثالها فضلاً من الله تعالى فالأمثال ليس مميزاً للعشر، بل مميزها هو الحسنات والأمثال صفة لمميزها، ولذا لم يذكر التاء للعشر. وقيل: إنما أنث عشر وإن كان مضافاً إلى ما مفرده مذكر لإضافة الأمثال إلى مؤنث هو ضمير الحسنة كقوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠] ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ أي: بالأعمال السيئة كائناً من كان من العالمين. ﴿فلا يجزى إلا مثلها﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة.

فإن قيل: كفر ساعة يوجب عقاب الأبد على نهاية التغليظ فما وجه المماثلة.

وأجيب: بأن الكافر على عزم أنه لو عاش أبداً لبقي على ذلك الاعتقاد فلما كان العزم مؤبداً عوقب بعقاب الأبد بخلاف المسلم المذنب، فإنه يكون على عزم الإقلاع عن ذلك الذنب فلا جرم كانت عقوبته منقطعة ﴿وهم لا يظلمون﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب.

قال الحدادي: وإنما قال ذلك لأن التفضل بالنعم جائز والابتلاء بالعقاب لا يجوز انتهى.

واعلم أن الحسنات العشر أقل ما وعد من الأضعاف. قال السعدي قدس سره:

نكو كارى از مردم نيك راى يكى را بده مينويسد خداى

تونيز اي پسر هر كرايك هنر به بيني زده عيبش اندر كذر

وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة وبغير حساب، ولذلك قيل المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر في العدد الخاص كما يقول القائل لئن أسديت إليّ معروفاً لأكافئنك بعشر أمثالها وحكمة التضعيف لئلا يفلس العبد إذا اجتمع الخصماء في طاعته فيدفع إليهم واحدة ويبقى له تسع فمظالم العباد توفى من التضعيفات لا من أصل حسناته؛ لأن التضعيف فضل من الله تعالى وأصل الحسنة الواحدة عدل منه واحدة بواحدة وفي الحديث: «ويل لمن غلب آحاده على أعشاره» أي سيئاته على حسناته، وفي الحديث: «الأعمال ستة موجبتان، ومثل بمثل وحسنة بحسنة وحسنة بعشر وحسنة بسبعمائة فأما الموجبتان فهو من مات ولا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات وهو مشرك بالله دخل النار، وأما مثل بمثل فمن عمل سيئة فجزاء سيئة مثلها، وأما حسنة بحسنة فمن همّ بحسنة حتى تشعر بها نفسه ويعلمها الله من قلبه كتبت له حسنة، وأما حسنة بعشر فمن عمل حسنة فله عشر أمثالها وأما حسنة بسبعمائة فالنفقة في سبيل الله».

كنون بركف دست نه هرچه هست كه فردا بدندان كزى پشت دست

قال في «أسئلة الحكم»: اعلم أن الشارع قد يرتب الثواب للعمل لئلا يترك، بل يرغب فيه فلا يكون ذلك العمل أفضل من العمل المؤكد عليه الذي لم يترتب عليه ذلك الثواب، فمن ذلك قوله عليه السلام: «من صلى الضحى اثنتي عشرة ركعة بنى الله له بيتاً في الجنة من ذهب» مع أن السنة الراتبة لفرض الظهر أفضل من الضحى ومن ذلك قوله عليه السلام: «من صلى ست ركعات بين المغرب والعشاء كتب الله له عبادة اثنتي عشرة سنة» مع أن سنة المغرب أفضل من ذلك وإنما رتب الثواب على ذلك لكثرة الغفلة فيه وأمثال ذلك كثيرة في الأخبار، فلا يفضل على الراتب المؤكد وإن لم يعين أجره غير الراتب من النوافل، وإن رتب أجره، وقد اتفق أهل العلم أنه لا يبلغ حد الفرض واجب وسنة راتبة أو غير راتبة في الأجر، والفضيلة في عمل أو حكم ولا يبلغ مرتبة الراتبة نقل من الأحكام وإن لم يتعين قدر أجرها، فإن السنن شرعت لتتميم نقائص الفرائض والنوافل الغير الراتبة لتتميم نقائص السنن الراتبة، فلا ينوب نفل مناب فرض يجب قضاؤه فقضاء فرض لا يسقط بالنوافل، كما يزعم بعض العوام يترك الفرائض، ويرغب في النوافل مما ورد كثرة الأجر عليه كالصلاة بعد المغرب يزعم سقوط الفرائض بها وتنوب مناب القضاء وذلك غير مشروع أصلاً، وترتيب أجور الأعمال والأذكار موقوف على الوحي والإلهام لا قدم فيه لتخمين العقول.

والإشارة في الآية أن الله تعالى من كمال إحسانه مع العبد أحسن إليه بعشر حسنات قبل أن يعمل العبد حسنة واحدة فقال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ يعني: قبل أن يجيء بحسنة أحسن إليه بعشر حسنات حتى يقدر أن يجيء بالحسنة وهي حسنة الإيجاد من العدم وحسنة الاستعداد بأن خلقه في أحسن تقويم مستعداً للإحسان، وحسنة التربية وحسنة الرزق وحسنة بعثة الرسل، وحسنة إنزال الكتب، وحسنة تبيين الحسنات والسيئات، وحسنة التوفيق وحسنة الإخلاص في الإحسان وحسنة قبول الحسنات، ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ والسر فيه أن السيئة بذر يزرع في أرض النفس والنفس خبيثة؛ لأنها أمارة بالسوء والحسنة بذر يزرع في أرض القلب والقلب طيب؛ لأن بذكر الله تطمئن القلوب وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٨٥] وأما ما جاء في القرآن والحديث من تفاوت الجزاء للحسنات.

فاعلم أنه كما أن للأعداد أربع مراتب آحاد وعشرات ومئات وألوف والواحد في مرتبة الآحاد واحد بعينه. وفي مرتبة العشرات عشرة وفي مرتبة المئات مائة، وفي مرتبة الألوف ألف فكذلك للإنسان مراتب أربع النفس والقلب والروح والسرّ فالعمل الواحد في مرتبة النفس أي إذا صدر منها يكون واحداً بعينه كما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] إذ هي في مرتبة الآحاد وفي مرتبة القلب يكون بعشر أمثالها لأنه بمرتبة العشرات، وفي مرتبة الروح يكون بمائة لأنه بمرتبة المئات وفي مرتبة السر يكون بألف إلى أضعاف كثيرة بقدر صفاء السر وخلوص النية إلى ما لا يتناهى؛ لأنه بمنزلة الألوف والله أعلم. ﴿وهم لا يظلمون﴾ المعنى: أن الله تعالى قد أحسن إليهم قبل أن يحسنوا بعشر حسنات شاملات للحسنات الكثيرة، فلا يظلمهم بعد أن أحسنوا بل يضاعف حسناتهم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠] كذا في «التأويلات النجمية».

﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝١٦٤﴾

﴿قل﴾ يا محمد لكفار مكة الذين يدعون أنهم على الدين الحق وقد فارقوه بالكلية. ﴿إنني هداني ربي﴾ أي: أرشدني بالوحي وبما نصب في الآفاق والأنفس من الآيات التكوينية. ﴿إلى صراط مستقيم﴾ موصل إلى الحق. ﴿ديناً﴾ بدل من محل إلى صراط والمعنى هداني صراطاً. ﴿قيماً﴾ مصدر بمعنى القيام وصف به الدين مبالغة، والقياس قوماً كعوض فاعل لإعلال فعله كالقيام. ﴿ملة إبراهيم﴾ عطف بيان لديناً والملة من أمللت الكتاب، أي: أمليته وما شرعه الله لعباده يسمى ملة من حيث إنه يدون ويملي ويكتب ويتدارس بين من اتبعه من المؤمنين ويسمى ديناً باعتبار طاعتهم لمن شرعه وسنّه، أي: جعله لهم سنناً وطريقاً. ﴿حنيفاً﴾ حال من إبراهيم، أي مائلاً عن الأديان الباطلة ميلاً لا رجوع فيه. ﴿وما كان من المشركين﴾ أي: ما كان إبراهيم منهم في أمر من أمور دينهم أصلاً وفرعاً، وإنما أضاف هذا الدين إلى إبراهيم لأن إبراهيم كان معظماً في عيون العرب، وفي قلوب أهل سائر الأديان؛ إذ أهل كل دين يزعمون أنهم ينتحلون إلى دين إبراهيم عليه السلام فرد الله تعالى بقوله: ﴿وما كان من المشركين﴾ على الذين يدعون أنهم على ملته عليه السلام عقداً وعملاً من أهل مكة واليهود المشركين بقولهم: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] والنصارى المشركين بقولهم: ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠] والمشرك في الحقيقة هو الذي يطلب مع الله تعالى شيئاً آخر ومن الله غير الله. قال السعدي قدس سره:

خلاف طريقت بود كاوليا   تمنا كنند از خدا جز خدا

﴿قل﴾ أعيد الأمر لما أن المأمور به متعلق بفروع الشرائع وما سبق بأصولها ﴿إن صلاتي﴾ يعني الصلوات الخمس المفروضة ﴿ونسكي﴾ أي: عبادتي كلها. وأصل النسك: كل ما تقربت به إلى الله تعالى ومنه قولهم للعابد ناسك. ويقال أراد بالصلاة صلاة العيد وبالنسك

الأضحية وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله أنه قرب كبشاً أملح أقرن فقال «لا إله إلا الله والله أكبر إن صلاتي ونسكي» إلى قوله تعالى: ﴿وأنا أول المسلمين﴾، ثم ذبح فقال: «شعره وصوفه فداء لشعري من النار وجلده فداء لجلدي من النار، ودمه فداء لدمي من النار، ولحمه فداء للحمي من النار وعظمه فداء لعظمي من النار وعروقه فداء لعروقي من النار» فقالوا يا رسول الله هنيئاً مريئاً هذا لك خاصة قال: «لا بل لأمتي عامة إلى أن تقوم الساعة. أخبرني به جبريل عليه السلام عن ربي عز وجل». ﴿ومحياي ومماتي﴾ أي: وما أنا عليه في حياتي وأكون عليه عند موتي من الإيمان والطاعة فالتقدير ذا محياي وذا مماتي فجعل ما يأتي به في حياته وعند موته ذا حياته وذا موته كقولك ذا إنائك تريد الطعام فإضافته بأدنى ملابسة. ﴿لله رب العالمين﴾.

﴿لا شريك له﴾ أي: خالصة له تعالى لا أشرك فيها غيره ﴿وبذلك﴾ الإخلاص ﴿أمرت﴾ لا بشيء غيره. ﴿وأنا أول المسلمين﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته، وفيه بيان مسارعته عليه السلام إلى الامتثال بما أمر به وأن ما أمر به ليس من خصائصه عليه السلام بل الكل مأمورون به يقتدي به عليه السلام من أسلم منهم.

والإشارة ﴿إن صلاتي ونسكي﴾ أي سيري على منهاج الصلاة هو معراجي إلى الله تعالى وذبيحة نفسي ﴿ومحياي﴾ حياة قلبي وروحي. ﴿ومماتي﴾، أي: موت نفسي ﴿لله رب العالمين﴾ لطلب الحق والوصول إليه ﴿لا شريك له﴾ في الطلب من مطلوب سواه ﴿وبذلك أمرت﴾ أي ليس هذا الطلب والقصد إلى الله من نظري وعقلي وطبعي إنما هو من فضل الله ورحمته وهدايته وكمال عنايته إذ أوحى إلي وقال: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] ﴿وأنا أول المسلمين﴾ يعني: أول من استسلم عند الإيجاد لأمر كن وعند قبول فيض المحبة لقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] والاستسلام للمحبة في قوله يحبونه دل عليه قوله عليه السلام: «أول ما خلق الله نوري» كذا في «التأويلات النجمية».

وفي الآية: حث على التوحيد والإخلاص وعلامتهما التبري من كل شيء سواه تعالى ظاهراً وباطناً ولو من نفسه والتحقق بحقائق المحبة الذاتية.

وعن مالك بن دينار قال: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وإذا شاب يمشي في الطريق بلا زاد ولا راحلة فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت: أيها الشاب من أين؟ قال: من عنده، قلت: وإلى أين؟ قال: إليه، قلت: وأين الزاد؟ قال: عليه قلت: إن الطريق لا يقطع إلا بالماء والزاد وهل معك شيء؟ قال: نعم قد تزودت عند خروجي بخمسة أحرف، قلت: وما هذه الخمسة الأحرف قال قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: ١] قلت: وما معنى كهيعص قال: أما قوله كاف فهو الكافي، وأما الهاء فهو الهادي، وأما الياء فهو المؤدي، وأما العين فهو العالم، وأما الصاد فهو الصادق ومن كان صاحبه كافياً وهادياً ومؤدياً وعالماً وصادقاً لا يضيع ولا يخشى ولا يحتاج إلى حمل الزاد والماء، قال مالك: فلما سمعت هذا الكلام نزعت قميصي على أن ألبسه إياه فأبى أن يقبله وقال: أيها الشيخ العري خير من قميص دار الفناء حلالها حساب وحرامها عقاب، وكان إذا جنّ الليل يرفع وجهه نحو السماء، ويقول: يا من تسره الطاعات ولا تضره المعاصي هب لي ما يسرك واغفر لي ما لا يضرك فلما أحرم الناس ولبوا

قلت: لم لا تلبي فقال يا شيخ أخشى أن أقول لبيك فيقول لا لبيك ولا سعديك لا أسمع كلامك، ولا أنظر إليك، ثم مضى فما رأيته إلا بمنى وهو يقول: اللهم إن الناس ذبحوا وتقربوا إليك بضحاياهم وهداياهم وليس لي شيء أتقرب به إليك سوى نفسي فتقبلها مني، ثم شهق شهقة فخرّ ميتاً، وإذا قائل يقول هذا حبيب الله هذا قتيل الله قتل بسيف الله فجهزته وواريته، وبت تلك الليلة متفكراً في أمره ونمت فرأيته في منامي فقلت ما فعل الله بك قال فعل بي كما فعل بشهداء بدر قتلوا بسيف الكفار وأنا قتلت بسيف الجبار.

جان كه نه قربانىء جانان بود جيفهٔ تن بهتر ازآنان بود
هركه نشد كشتهٔ شمشير دوست لاشهٔ مردار به ازجان اوست

نسأل الله الكريم أن يجعلنا على الصراط المستقيم.

﴿قل﴾ يا محمد لمن يقول من الكفار ارجع إلى ديننا. ﴿أغير الله أبغي﴾ أطلب حال كونه ﴿رباً﴾ آخر فأشركه في عبادته. ﴿وهو رب كل شيء﴾ أي: والحال أن ما سواه مربوب له مثلي، فكيف يتصور أن يكون شريكاً له في العبودية؟ ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ كانوا يقولون للمسلمين اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم إما بمعنى ليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لا عليكم، وإما بمعنى لنحمل يوم القيامة ما كتب عليكم من الخطايا فهذا رد له بالمعنى الأول، أي: لا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر حتى يتأتى ما ذكرتم، وقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ رد له بالمعنى الثاني، أي: لا تحمل يومئذٍ نفس حاملة حمل نفس أخرى حتى يصح قولكم ولنحمل خطاياكم. والوزر في اللغة: هو الثقل. ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ أي: إلى مالك أمركم رجوعكم يوم القيامة. ﴿فينبئكم﴾ يومئذٍ. ﴿بما كنتم فيه تختلفون﴾ أي: يبين الرشد من الغيّ ويميز المحق من المبطل.

وفي الآية أمور:

الأول: إن غاية المبتغي ونهاية المرام هو الله الملك العلام، فمن وجده فقد وجد الكل ومن فقده فقد فقد الكل، والعاقل العاشق لا يطلب غير الله؛ لأنه الحبيب والمحب لا يتسلى بغير المحبوب. قال الحافظ:

دردمرا طبيب نداند دواكه من بى دوست خسته خاطر وبادرد خوشترم

والثاني: إن كل ما تكسب النفس من خير أو شر فهو عليها، أما الشر فهي مأخوذة به، وأما الخير فمطلوب منها صحة القصد، والخلو من الرياء والعجب والافتخار به. قال السعدي قدس سره:

چه قدر آورد بندهٔ بدرديس كه زير قبادارد اندام پيس

والنفس أمارة بالسوء فلا تكسب إلا سوءاً والسوء عليها لا لها، وهذا دأب النفس ما وكلت إلى نفسها إلا أن رحمها ربها كما قال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣] ولهذا كان من دعائه عليه السلام: «رب لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقلّ من ذلك» وهي أي: النفس مأمورة بالسير إلى الله بقدم العبودية والأعمال الصالحة.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن الفضل: العجب ممن يقطع الأودية والمفاوز والقفار

ليصل إلى بيته وحرمه؛ لأن فيه آثار أنبيائه كيف لا يقطع بالله نفسه وهواه حتى يصل إلى قلبه فإن فيه آثار مولاه.

والثالث: إن كل نفس مؤاخذ بذنبه لا بذنب غيره.

فإن قلت قوله عليه السلام: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض، أو شيء فليستحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه». يدل على خلاف ذلك وكيف يجوز في حكم الله وعدله أن يضع سيئات من اكتسبها على من لم يكتسبها، وتؤخذ حسنات من عملها فتعطى من لم يعملها؟.

فالجواب على ما قال الإمام القرطبي في «تذكرته»: إن هذا لمصلحة وحكمة لا نطلع عليها والله تعالى لم يبن أمور الدين على عقول العباد ولو كان كل ما لا تدركه العقول مردوداً لكان أكثر الشرائع مستحيلاً على موضوع عقول العباد انتهى.

يقول الفقير: إن الذنب ذنبان ذنب لازم وذنب متعد، فالذنب اللازم: كشرب الخمر مثلاً يؤخذ به صاحبه دون غيره فهذا الذنب له جهة واحدة فقط، والذنب المتعدي: كقتل النفس مثلاً فهذا وإن كان يؤخذ به صاحبه أيضاً، لكن له جهتان: جهة التجاوز عن حد الشرع، وجهة وقوع الجناية على العبد: فحمل سيئاته وطرح حسناته عليه حمل سيئات نفسه في الحقيقة وما طرح حسنات غيره في نفس الأمر ولا ظلمه أصلاً، فالآية والحديث متحدان في المآل والله أعلم بحقيقة الحال.

والرابع: كما أن الاختلاف واقع بين أهل الكفر والإيمان، كذلك بين أهل الإخلاص والرياء والشرع، وإن كان محكماً يميز بين المحقق والمبطل إلا أن انكشاف حقيقة الحال وظهور باطن الأقوال والأفعال إنما يكون يوم تبلى السرائر وتبدى الضمائر. وفي «المثنوي»:

چون كند جان بازكونه يوستين	جند واويلا برآيد زاهل دين
بردكان هر زرنما خندان شده است	زانكه سنك امتحان پنهان شده است
قلب پهلومى زند بازر بشب	انتظار روز مى دارد ذهب
باز زبان حال زر كويدكه باش	أي مزور تا برآيد روز فاش

وفي الحديث: «يخرج في آخر الزمان أقوام يجتلبون الدنيا بالدين» يعني: يأخذونها ويلبسون لباس جلود الضأن من اللين «ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب فيقول الله تعالى أبي تقترفون أم عليّ تجترئون فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيها حيران» فعلى المؤمن أن يصحح الظاهر والباطن ويرفع الاختلاف فإن الحق واحد فماذا بعد الحق إلا الضلال. وأما اختلاف الأئمة فرحمة لعامة الناس وليس ذلك من قبيل الاختلاف بحسب المراء والجدال بل بحسب اختلاف الأشخاص والأحوال فالحق أحق أن يتبع عصمنا الله وإياكم من الاختلاف المفسد للدين والجدل المزيل لأصل اليقين وجعلنا من أهل التوفيق للصواب إنه الكريم المفيض الوهاب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿وهو﴾ أي: الله تعالى ﴿الذي جعلكم﴾ أيها الناس ﴿خلائف الأرض﴾ من بعد بني الجان أو خلائف الأمم السابقة البشرية أو خلفاء الله في أرضه تتصرفون فيها. والخلائف جمع الخليفة كالوصائف جمع الوصيفة وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفته لأنه يخلفه.

قال في «التأويلات النجمية»: هو جعل كل واحد من بني آدم آدم وقته وخليفة ربه في الأرض وسر الخلافة أنه صوره على صورة صفات نفسه حياً قيوماً سميعاً بصيراً عالماً قادراً متكلماً مريداً.

آدمـی جيـسـت بـرزخ جـامـع صـورت خـلـق وحـق در وواقـع
مـتـصـل بـادقـائـق جـبـروت مـشـتـمـل بـر حـقـائـق مـلـكـوت

﴿ورفع بعضكم﴾ في الشرف والغنى ﴿فوق بعض﴾ إلى ﴿درجات﴾ كثيرة متفاوتة ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ من المال والجاه، أي ليعاملكم معاملة من يبتليكم ويمتحنكم لينظر ماذا تعملون من الشكر وضده ـ حكي ـ أن جنيداً كان يلعب مع الصبيان في صباوته فمرّ به السري السقطي فقال ما تقول في حق الشكر يا غلام؟ قال: الشكر أن لا تستعين بنعمه على معاصيه. ﴿إن ربك﴾ يا محمد ﴿سريع العقاب﴾ أي: عقابه سريع الإتيان لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله ولم يشكره، وإنما قال: سريع العقاب مع أنه موصوف بالحلم والإمهال لأن كل ما هو آت قريب. قال الحافظ:

بـمـهـلـتى كـه سـپـهـرت دهـد زراه مـرو تراكه كفت كه اين زال ترك دستان كرد

﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن راعاها كما ينبغي وفي الحديث: «يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالاً من حرام وأنفقه في حرام، فيقال: اذهبوا به إلى النار، ويؤتى بالرجل قد جمع مالاً من حلال وأنفقه في حلال، فيقال له: قف لعلك فرطت في هذا في شيء مما فرض عليك من صلاة لم تصلها لوقتها أو فرطت في ركوعها وسجودها ووضوئها، فيقول: لا يا رب كسبت من حلال وأنفقت في حلال، ولم أضيع شيئاً مما فرضت، فيقال لعلك اختلت في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به، فقال: لا يا رب لم أختل ولم أباه في شيء، فيقال لعلك منعت حق أحد أمرتك أن تعطيه من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فيقول: لا يا رب كسبت من حلال وأنفقت في حلال، ولم أضيع شيئاً مما فرضت عليّ ولم أختل ولم أباه ولم أضيع حق أحد أمرتني أن أعطيه قال: فجيء بأولئك فيخاصمونه، فيقولون: يا رب أعطيته وجعلته بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا فإنه أعطانا وما ضيع شيئاً من الفرائض، ولم يختل في شيء، فيقال: قف الآن هات شكر نعمة أنعمتها عليك في أكلة أو شربة أو لذة فلا يزال يسأل».

واعلم: أن الله تعالى كما أعطى المال والجاه ليتميز من هو على الشكر ومن هو على الكفران كذلك أعطى الحال، أي استعداد الخلافة ليظهر من المتخلق بأخلاق الله القائم بأوامره في العباد والبلاد ومن الذي رجع القهقرى إلى صفات البهائم والأنعام، فمن أضاع صفات الحق بتبديلها بصفات الحيوانات عوقب بالختم على قلبه وسمعه وبصره، فهو لا يرجع إلى مكان الغيب الذي خرج منه بل حبس في أسفل سافلين الطبيعة، ومن تاب عن متابعة النفس والهوى ومخالفة الحق والهدى وآمن وعمل عملاً صالحاً للخلافة فقد اهتدى ولم يرجع

القهقرى - حكي - عن إبراهيم بن أدهم أنه حج إلى بيت الله الحرام فبينما هو في الطواف؛ إذ بشاب حسن الوجه قد أعجب الناس حسنه وجماله، فصار إبراهيم ينظر إليه ويبكي، فقال بعض أصحابه: إنا لله وإنا إليه راجعون غفلة دخلت على الشيخ بلا شك ثم قال: يا سيدي ما هذا النظر الذي يخالطه البكاء؟ فقال له إبراهيم: يا أخي إني عقدت مع الله تعالى عقداً لا أقدر على فسخه، وإلا كنت أدني هذا الفتى وأسلم عليه فإنه ولدي وقرة عيني تركته صغيراً، وخرجت فارّاً إلى الله تعالى وها هو قد كبر كما ترى وإني لأستحيي من الله سبحانه أن أعود لشيء، خرجت عنه قال: ثم قال لي امض وسلم عليه لعلي أتسلى بسلامك عليه وأبرد ناراً على كبدي قال: فأتيت الفتى فقلت له بارك الله لأبيك فيك فقال: يا عم وأين أبي إن أبي خرج فاراً إلى الله تعالى ليتني أراه، ولو مرة واحدة وتخرج نفسي عند ذلك هيهات وخنقته العبرة وقال والله أودّ أني رأيته وأموت في مكاني، قال: ثم رجعت إلى إبراهيم وهو ساجد في المقام وقد بلّ الحصى بدموعه وهو يتضرع إلى الله تعالى ويقول:

هجرت الخلق طراً في هواك ... وأيتمت العيال لكي أراك
فلو قطعتني في الحب إرباً ... لما سكن الفؤاد إلى سواك

قال: فقلت له ادع له، فقال: حجبه الله عن معاصيه وأعانه على ما يرضيه انتهى فانظر إلى حال من ترك السلطنة واختار الفقر والقناعة وأنت تؤثر الغنى والمقال على الفقر والحال وفي الحديث «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا» أي قدر ما يمسك الرمق وقيل: القوت هو الكفاية من غير إسراف وفيه بيان أن الكفاف أفضل من الغنى؛ لأن النبي عليه السلام إنما يدعو لنفسه بأفضل الأحوال قال الحافظ:

درين بازاركر سوديست يا درويش خر سندست
الهي منعم كردان بدرويشى وخرسندى

جعلنا الله وإياكم من المقتفين لآثار سنة سيد المرسلين، وحقق آمالنا من الوصول إلى مقام التوكل واليقين، إنه لا يخيب رجاء سائله وداعيه ولا يقطع أجر عبده في كل مساعيه.

تمت سورة الأنعام بمعونة الملك العلاّم في سلخ جمادى الأولى المنتظم في سلك شهور سنة ألف ومائة ويتلوها سورة الأعراف.

٧ - سورة الأعراف

وهي مكية إلا ثماني آيات من قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ إلى ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ محكم كلها
وقيل إلى قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وآيها مائتان وست
وفقنا الله لختمها تقريراً وتحريراً آمين يا معين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿المص﴾ (ا) إشارة إلى الذات الأحدية، (ل) إلى الذات مع صفة العلم، (م) إلى معنى محمد ﷺ، أي: نفسه وحقيقته، (ص) إلى الصورة المحمدية وهي جسده وظاهره.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما «(ص) جبل بمكة كان عليه عرش الرحمن حين لا ليل ولا نهار» أشار بالجبل إلى جسد محمد ﷺ. وبعرش الرحمن إلى قلبه كما ورد في الحديث: «قلب المؤمن عرش الله». وقوله: حين لا ليل ولا نهار، إشارة إلى الوحدة، لأن القلب إذا وقع في ظل أرض النفس واحتجب بظلمة صفاتها كان في الليل، وإذا طلع عليه نور شمس الروح واستضاء بضوئه كان في النهار، وإذا وصل إلى الوحدة الحقيقية بالمعرفة والشهور الذاتي واستوى عنده النور والظلمة لفناء الكل فيه كان وقته لا ليل ولا نهار ولا يكون عرش الرحمن إلا في هذا الوقت، فمعنى الآية: أن وجود الكل من أوله إلى آخره كتاب أنزل إليك علمه كذا في «التأويلات القاشانية».

وقال الشيخ نجم الدين: إنه تعالى بعد ذكر ذاته وصفاته بقوله: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾** عرف نفسه بقوله: **﴿المص﴾** يعني: الله إله من لطفه فرد عبده للمحبة والمعرفة، وأنعم عليه بالصبر والصدق لقبول كمالية المعرفة والمحبة بواسطة كتاب أنزل إليك انتهى.

وقال في «تفسير الفارسي»: [المص: نام قرآنست. يا اسم ابن سوره. يا هر حرفى أشارتست باسمى ار اسماى الهى چون اله ولطيف وملك وصبور. يا هر حرفى كنايتست از صفتى چون اكرام ولطف ومجد وصدق. يا ايمايست باسم المصور. يا بعض حروف دلالت براسما دارد بعض برافعال وتقدير چنان بودكه أنا الله أعلم وأفضل منم خداي كه ميدانم وبيان ميكنم يا ازهمه داناترم وحق از باطل جدا ميكردانم.

در حقايق سلمى كويدكه. الف ازلست. ولام ابد. وميم ما بين ازل وابد. وصاد اشارتست باتصال هر متصلي وانفصال هر منفصلي وفي الحقيقة نه اتصال را مجال كنجايش ونه انفصال رامحل نمايش].

اين چه راهست اين برون از فصل ووصل   كاندرونى فرع مى كنجد نه اصل

نی معانی نی عبارت نی عیان نی حقائق نی اشارت نی بیان
بر ترست ازمدركات عقل ووهم لا جرم كم كشت دروى فكر وفهم
چون بكلى روى كفت وكوى نيست هيچكس راجز خموشى روى نيست

يقول الفقير غفر الله ذنوبه: إن الحروف المقطعة من المتشابهات القرآنية التي غاب علمها عن العقول، وإنما أعطي فهمها لأهل الوصول، وكل ما قيل فيها فهو من لوازم معانيها وحقائقها فلنا أن نقول: إن فيها إشارة إلى أن هذا التركيب الصفاتي والفعلي الواحدي الأبدي كان إفراداً في مرتبة الوحدة الذاتية الأزلية، فبالتجلي الإلهي صار المفرد مركباً، والمقطع موصلاً، والقوة فعلاً والجمع فرقاً وتعين النسب والإضافات، كما أن أصل المركبات الكلامية هو حروف التهجي ثم بالتركيب يحصل أب ثم أبجد ثم الحمد لله، وكما أن أصل الإنسان بالنسبة إلى تعين الجسم هو النطفة، ثم بالتصوير يحصل التركيب الجسمي والله أعلم.

﴿**كتاب**﴾ أي: هذا كتاب. ﴿**أنزل إليك**﴾ أي: من جهته تعالى ﴿**فلا يكن في صدرك حرج منه**﴾ أي: شك ما في حقيته كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] خلا أنه عبر عنه بما يلازمه من الحرج فإن الشاك يعتريه ضيق الصدر كما أن المتيقن يعتريه انشراحه خاطب به النبي عليه السلام والمراد الأمة، أي: لا ترتابوا ولا تشكوا. قوله: (منه) متعلق بحرج يقال حرج منه، أي: ضاق به صدره ويجوز أن يكون الحرج على حقيقته، أي لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه مخافة أن يكذبوك، فإنه عليه السلام كان يخاف تكذيب قومه له، وإعراضهم عنه فكان يضيق صدره من الأداء، ولا ينبسط له فأمنه الله تعالى ونهاه عن المبالاة بهم. ﴿**لتنذر به**﴾ أي: بالكتاب المنزل متعلق بأنزل. ﴿**وذكرى للمؤمنين**﴾ أي: ولتذكر المؤمنين تذكيراً.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿**اتبعوا**﴾ أيها المكلفون ﴿**ما أنزل إليكم من ربكم**﴾ يعني: القرآن. ﴿**ولا تتبعوا من دونه**﴾ أي: من دون ربكم الذي أنزل إليكم ما يهديكم إلى الحق، وهو حال من الفاعل أي لا تتبعوا متجاوزين الله تعالى. ﴿**أولياء**﴾ من الجن والإنس بإطاعتهم في معصية الله. ﴿**قليلاً ما تذكرون**﴾ بحذف إحدى التاءين، وما مزيد لتأكيد العلة أي تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً، تذكرون لا كثيراً حيث لا تتأثرون بذلك ولا تعملون بموجبه وتتركون دين الله تعالى وتتبعون غيره.

ثم شرع في التهديد إن لم يتعظوا بما جرى على الأمم الماضية بسبب إصرارهم على اتباع دين أوليائهم، فقال:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿**وكم**﴾ للتكثير مبتدأ والخبر هو جملة ما بعدها. ﴿**من قرية**﴾ تمييز ﴿**أهلكناها**﴾ الضمير راجع إلى معنى كم، أي كثير من القرى أردنا إهلاكها أو كثيراً منها على أن يكون كم في موضع نصب بأهلكناها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩] ﴿**فجاءها**﴾ أي: فجاء أهلها. ﴿**بأسنا**﴾ أي: عذابنا ﴿**بياتاً**﴾ مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال أي: بائتين كقوم لوط.

قال الحدادي: سمي الليل بياتاً؛ لأنه يبات فيه والبيتوتة خلاف الظلول، وهو أن يدركك الليل نمت أو لم تنم وهي بالفارسية [شب كذاشتن]. ﴿أو هم قائلون﴾ عطف على بياتاً، أي: قائلين من القيلولة نصف النهار، كقوم شعيب أهلكهم الله في نصف النهار، وفي حرّ شديد وهم قائلون.

قال في «التفسير الفارسي»: [تخصيص اين دووقت بجهت آنست كه زمان آسايش واستراحتند وتصور وتوقع عذاب دران نيست پس بليهٔ غير منتظر صعبتر وسخت تراست چنانچه نعمت غير مترقب خوبتر ولذيذ ترست].

﴿فما كان دعواهم﴾ أي: دعاؤهم وتضرعهم ﴿إذ جاءهم بأسنا﴾ عذابنا وعاينوا أماراته. ﴿إلا أن قالوا﴾ جميعاً. ﴿إنا كنا ظالمين﴾ أي: إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتهم ببطلانه تحسراً عليه وندامة وطمعاً في الخلاص، وهيهات لأنه لا تنفع التوبة وقت نزول العذاب؛ إذ هو وارتفاع التكليف مقارنان وقوم يونس مستثنى من هذا، كما يجيء، وفي «المثنوي»:

همچو آن مرد مفلسف روز مرك ... عقل را مى ديد بس بى بال وبرك
بى غرض مى كرد آندم اعتراف ... كزذكاوت رانده ايم اسب ازكزاف
از غرورى سر كشيديم از رجال ... آشنا كرديم در بحر خيال
آشنا هيچست اندر بحر روح ... نيست انجا چاره جز كشتئ نوح
اينچين فرموده آن شاه رسل ... كه منم كشتى درين درياى كل
ياكى كودر بصيرتهاى من ... شد خليفه راستين برجاى من
كشتئ نوحيم در درياكه تا ... رو نكردانى زكشتى اي فتى

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

﴿فلنسئلن الذين أرسل إليهم﴾ الفاء لترتيب الأحوال الأخروية على الدنيوية، أي: لنسألن الأمم قاطبة يوم الحشر قائلين ماذا أجبتم المرسلين. ﴿ولنسئلن المرسلين﴾ عما أجيبوه أو المراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم، والذي نفى بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] سؤال الاستعلام، أو الأول في موقف الحساب، والثاني في موقف العقاب.

وفي «التفسير الكبير»: إنهم لا يسألون عن الأعمال ولكن يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال وعن الصوارف التي صرفتهم عنها.

﴿فلنقصن عليهم﴾ أي: على الرسل حين يقولون لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب. ﴿بعلم﴾ أي: عالمين بظواهرهم وبواطنهم. ﴿وما كنا غائبين﴾ عنهم في حال من الأحوال فيخفى علينا شيء من أعمالهم وأحوالهم.

واعلم: أن الرسل يقولون يوم الحشر: اللهم سلم سلم، ويخافون أشد الخوف على أممهم، ويخافون على أنفسهم، والمطهرون المحفوظون الذين ما تدنست بواطنهم بالشبه المضلة ولا ظواهرهم أيضاً بالمخالفات الشرعية آمنون، يغبطهم النبيون في الذي هم عليه من الأمن لما هم أي النبيون عليه من الخوف على أممهم فمن لقي الله تعالى في ذلك اليوم شاهداً

له بالإخلاص مقراً بنبيه ﷺ بريئاً من الشرك، ومن السحر، بريئاً من إهراق دماء المسلمين ناصحاً لله تعالى ولرسوله محباً لمن أطاع الله ورسوله مبغضاً لمن عصى الله ورسوله، استظل تحت ظل عرش الرحمن ونجا من الغم، ومن حاد عن ذلك ووقع في شيء من هذه الذنوب بكلمة واحدة أو تغير قلبه أو شك في شيء من دينه بقي ألف سنة في الحر والهم والعذاب، حتى يقضي الله فيه بما يشاء - روي - أن ملكاً من ملوك كندة كان طويل المصاحبة للهو واللذات كثير العكوف على اللعب فركب يوماً للاصطياد أو غيره، فانقطع عن أصحابه فإذا هو برجل جالس قد جمع عظاماً من عظام الموتى، وهي بين يديه يقلبها، فقال: ما قصتك أيها الرجل وما الذي بلغ بك ما أرى من سوء الحال ويبس الجلد وتغير اللون والانفراد في هذه الفلاة؟ فقال: أما ما ذكرت من ذلك فلأني على جناح سفر بعيد، وبي موكلان مزعجان يحدوان بي إلى منزل كبيت النمل مظلم القعر كريه المقر يسلماني إلى مصاحبة البلى ومجاورة الهلكى تحت أطباق الثرى، فلو تركت بذلك المنزل مع ضيقه ووحشته وارتعاء حشاش الأرض من لحمي حتى أعود رفاتاً وتصير أعظمي رماماً، لكان للبلى انقضاء وللشقاء نهاية، ولكني أدفع بعد ذلك إلى صيحة الحشر وارداً طول مواقف الجرائم، ثم لا أدري إلى أي الدارين يؤمر بي فأي حال يلتذ به من يكون هذا الأمر مصيره، فلما سمع الملك كلامه ألقى نفسه عن فرسه وجلس بين يديه، وقال: أيها الرجل لقد كدّر مقالك عليّ صفو عيشي وملك قلبي فأعد عليّ بعض قولك، فقال له: أما ترى هذه التي بين يدي؟ قال: بلى، قال هذه عظام ملوك غرّتهم الدنيا بزخرفها واستحوذت على قلوبهم بغرورها، فألهتهم عن التأهب لهذه المصارع حتى فاجأتهم الآجال وخذلتهم الآمال وسلبتهم بهاء النعمة وستنشر هذه العظام فتعود أجساماً، ثم تجازى بأعمالها، فإما إلى دار النعيم والقرار، وإما إلى دار العذاب والبوار، ثم غاب الرجل فلم يدر أين ذهب وتلاحق أصحاب الملك به، وقد تغير لونه وتواصلت عبراته فلما جنّ عليه الليل نزع ما عليه من لباس الملك ولبس طمرين وخرج تحت الليل فكان آخر العهد به وأنشدوا:

أفنى القرون التي كانت منعمة ... كر الليلات إقبالاً وإدبارا
يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
لا تأمنن بليل طاب أوله ... فرب آخر ليل أجج النارا

قال الإمام زين العابدين: عجبت للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة ويكون غداً جيفة، وعجبت كل العجب لمن شك في الله وهو يرى خلقه، وعجبت كل العجب لمن أنكر النشأة الآخرة، وهو يرى النشأة الأولى، وعجبت كل العجب لمن عمل لدار الفناء، وترك دار البقاء.

فعلى العاقل أن يعتبر بمن مضى قبل أن يجيء على رأسه القضاء ويجتهد في طريق الحق ذاكراً له في الغدو والرواح ويتهيأ للموت قبل نزوله، والوقت يمضي كالرياح فأين الذين وقعوا في إنكار الرسل وتكذيب الأنبياء؟ مضوا والله إلى دار الجزاء، وسينقضي الزمان كله فلا يبقى أحد على بساط العالم من ملك وجن وبني آدم، وتطوى صحائف الأعمال وتنشر يوم السؤال ويظهر كل جليل ودقيق فيا شقاوة أهل الخذلان، ويا سعادة أهل التوفيق اللهم إنا نسألك مراقبة الأوقات ومحافظة الطاعات والتمشي على الصراط السوي في المسلك الصوري، والمعنوي فأعن الضعفاء يا قوى آمين يا معين.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾.

﴿والوزن﴾ أي: وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها وجيدها ورديها والمعنى بالفارسية. «سنجيدن أعمال هريك».

﴿يومئذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الحق﴾ بالفارسية [راستست وبودنى] ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ أي: حسناته التي توزن فهو جمع موزون ويجوز أن يكون جمع ميزان باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن.

وقال في «التأويلات النجمية»: وإنما قال موازينه بالجمع لأن كل عبد ينصب له موازين بالقسط تناسب حالاته، فلبدنه ميزان يوزن به أوصافه، ولروحه ميزان يوزن به نعوته، ولسره ميزان يوزن به أحواله ولخفيه ميزان يوزن به أخلاقه، والخفي لطيفة روحانية قابلة لفيض الأخلاق الربانية ولهذا قال عليه السلام: «ما وضع في الميزان أثقل من حسن الخلق» وذلك لأنه ليس من نعوت المخلوقين، بل هو من أخلاق رب العالمين والعباد مأمورون بالتخلق بأخلاقه. ﴿فأولئك﴾ الجمع باعتبار معنى من ﴿هم﴾ ضمير فصل يفيد اختصاص المسند بالمسند إليه. ﴿المفلحون﴾ الفائزون بالنجاة والثواب.

﴿ومن خفت موازينه﴾ بالفارسية [عملهاى وزن كرده، او وآن سبكى بمعصيت خواهد بود] ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فطرت عليها واقتراف ما عرضها للعذاب.

قال الحدادي: الخسران إذهاب رأس المال ورأس مال الإنسان نفسه، فإذا هلك بسوء عمله فقد خسر نفسه ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ يعني: وضعوا التكذيب بها موضع التصديق. قوله: ﴿بما﴾ متعلق بخسروا وما مصدرية وبآياتنا متعلق بيظلمون على تضمين معنى التكذيب.

قال في «التأويلات النجمية»: الوزن عند الله يوم القيامة لأهل الحق وأرباب الصدق وأعمال البر فلا وزن للباطل وأهله ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥﴾ [الكهف: ١٠٥] ـ وروي ـ أنه «يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فيوزن فلا يزن جناح بعوضة» انتهى وهذه الرواية تدل على أن الموزون هو الأشخاص، كما ذهب إليه بعض العلماء، ولكن الجمهور على أن صحائف الأعمال هي التي توزن بميزان له لسان وكفتان ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد وكما تثبت في صحائفهم فيقرؤونها في موقف الحساب.

ويؤيده ما روي «أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فينشر له تسعة وتسعون سجلاً مدى البصر، فتخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فيطيش السجلات وتثقل البطاقة» والبطاقة رقعة صغيرة وهي ما يجعل في طي الثوب يكتب فيها ثمنه ـ روي ـ أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان الذي ينصب يوم القيامة فرأى كل كفة ملء ما بين المشرق والمغرب فغشي عليه فلما أفاق قال إلهي من يقدر أن يملأ كفته بالحسنات فقال الله تعالى يا داود إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة من صدقة.

وقال في «التفسير الفارسي»: [درتبيان از ابن عباس نقل ميكندكه درازى عمود ميزان نپجاه هزار ساله راهست وكفين اويكى از نورست ويكى ازظلمت حسنات درپلهٔ نورنهند وسيآت درپلهٔ ظلمت].

- ويحكى - عن بعضهم أنه قال: رأيت بعضهم في المنام، فقلت ما فعل الله بك؟ فقال: وزنت حسناتي فرجحت السيئات على الحسنات، فجاءت صرة من السماء وسقطت في كفة الحسنات فرجحت فحللت الصرة، فإذا فيها كف تراب ألقيته في قبر مسلم، ويجاء بعمل الرجل فيوضع في كفة ميزانه فيخف فيجاء بشيء أمثال الغمام فيوضع في كفة ميزانه فترجح، فيقال: له أتدري ما هذا؟ فيقول: لا فيقال له هذا فضل العلم الذي كنت تعلمه الناس وتستوي كفتا الميزان لرجل، فيقول الله تعالى: لستَ من أهل الجنة ولا من أهل النار، فيأتي الملك بصحيفة فيضعها في كفة الميزان فيها مكتوب أف، فيترجح على الحسنات لأنها كلمة عقوق ترجح بها جبال الدنيا، فيؤمر به إلى النار فيطلب الرجل أن يرد إلى الله تعالى، فيقول: ردوه، فيقول: أيها العبد العاق لأي شيء تطلب الرد إليّ؟ فيقول: إلهي رأيت أني سائر إلى النار، وأن لا بدّ لي منها، وكنت عاقاً لأبي وهو سائر إلى النار مثلي فضَعّفْ عليّ به عذابي وأنقذه منها، فيضحك الله تعالى، ويقول عققته في الدنيا وبررته الآخرة خذ بيد أبيك وانطلق إلى الجنة. قال الحافظ:

طمع زفيض كرامت مبركه خلق كريم كنه ببخشد وبر عاشقان ببخشايد

واعلم: أن السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب لا يرفع لهم ميزان، وكذا يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان فيصبّ لهم الأجر صبّاً حتى أن أهل العافية ليتمنون في الموقف أن أجسامهم قد قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله فهم يكونون تحت شجرة في الجنة تسمى شجرة البلوى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال أرباب التحقيق: التوحيد الرسمي يدخل في الميزان؛ لأنه يوجد له ضد كما أشير إليه بحديث صاحب السجلات، وأما التوحيد الحقيقي: فلا يدخل في الميزان لأنه لا يعادله شيء؛ إذ لا يجتمع إيمان وكفر بخلاف إيمان وسيئات ولهذا كانت لا إله إلا الله أفضل الأذكار، فالذكر بها أفضل من الذكر بكلمة الله الله وهو هو عند العلماء بالله لأنها جامعة بين النفي والإثبات وحاوية على زيادة العلم والمعرفة فمن نفى بلا إله عين الخلق حكماً لا علما، فقد أثبت كون الحق حكماً وعلماً والإله من له جميع الأسماء وما هو إلا عين واحدة هي مسمى الله الذي بيده ميزان الرفع والخفض.

قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره: لا تُدخل الموازين إلا أعمال الجوارح، وهي: سبع السمع، والبصر، واللسان، واليد، والبطن، والفرج، والرجل. وأما الأعمال المعنوية: فلا تدخل الميزان المحسوس لكن يقام فيها العدل، وهو الميزان المعنوي فحس لحس، ومعنى لمعنى يقابل كل شيء بشاكلته.

قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء ينبغي أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها كذا في «تفسير الفاتحة» للمولى الفناري.

فعلى العاقل أن يسارع إلى الطاعات ويبادر إلى الحسنات خصوصاً إلى أحسن الحسنات

وهو كلمتا الشهادة ليكون ممن ثقلت موازينه ويدخل في زمرة المفلحين.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿**ولقد مكناكم في الأرض**﴾ أي: جعلنا لكم منها مكاناً وقراراً وأقدرناكم على التصرف فيها على أي وجه شئتم. ﴿**وجعلنا لكم فيها معايش**﴾ أي: أنشأنا وأبدعنا لمصالحكم ومنافعكم فيها أسباباً تعيشون بها جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرهما، والخطاب لقريش فإنه تعالى فضّلهم على العرب بأن مكنهم من الرحلة إلى الشام أوان الصيف ومن الرحلة إلى اليمن أوان الشتاء آمنين بسبب كونهم سكان حرم الله تعالى ومجاوري بيته الشريف، ويتخطف الناس من حولهم فيتجرون بتينك الرحلتين ويكسبون ما يكون سبباً لحياتهم من المآكل والمشارب والملابس وغيرها. ﴿**قليلاً ما تشكرون**﴾ فيما صنعت إليكم.

والإشارة أن التمكين لفظ جامع للتمليك والتسليط والقدرة على تحصيل أسباب كل خير وسعادة دنيوية كانت أو أخروية، وكمال استعداد المعرفة والمحبة والطلب والسير إلى الله ونيل الوصول، والوصال ما تشرف بهذا التمكين إلا الإنسان وبه كرم وفضل وبه يتم أمر خلافته، ولهذا أمر الملائكة بسجود آدم وبه منّ الله على أولاده بقوله: ﴿**لقد مكناكم في الأرض**﴾ أي: سيرناكم ووهبنا لكم في خلافة الأرض ما لم نمكن أحداً غيركم في الأرض من الحيوانات ولا في السماء من الملائكة وجعلنا لكم خاصة فيها معايش، أي: جعلنا لكل صنف من الملك والحيوان والشيطان معيشة يعيش بها، أو جعلنا لكم فيها معايش؛ لأن الإنسان مجموع من الملكية والحيوانية والشيطانية والإنسانية، فمعيشة الملك هي معيشة روحه، ومعيشة الحيوان هي معيشة بدنه، ومعيشة الشيطان هي معيشة نفسه الأمارة بالسوء، ولما حصل للإنسان بهذا التركيب مراتب الإنسانية وأنها لم تكن لكل واحد من الملك والحيوان والشيطان، وهي القلب والسرّ والخفي فمعيشة قلبه هي الشهود ومعيشة سره هي الكشوف ومعيشة خفيه هي الوصال والوصول قليلاً ما تشكرون، أي: قليلاً منكم من يشكر هذه النعم، أي: نعمة التمكن ونعمة المعايش برؤية هذه النعم والتحدث بها، فإن رؤية النعم شكرها والتحدث بالنعم أيضاً شكر كذا في «التأويلات النجمية»:

نعمت بسى وشكر كزارنده اندكست   كوينده سپاس الهي زصد يكست

واعلم أن النعمة إنما تسلب ممن لا يعرف قدرها ولا يؤدي شكرها ـ روي ـ أن بعض الأنبياء عليهم السلام سأل الله تعالى عن أمر بلعم وطرده بعد تلك الآيات والكرامات، فقال الله تعالى: لم يشكرني يوماً من الأيام على ما أعطيته، ولو شكرني على ذلك مرة لما سلبته فتيقظ أيها الرجل واحتفظ بركن الشكر جداً جداً، واحمد الله على مننه التي أعلاها الإسلام والمعرفة وأدناها مثلاً توفيق لتسبيح أو عصمة من كلمة لا تعنيك، عسى أن يتم نعمه عليك ولا يبتليك بمرارة الزوال فإن أمر الأمور، وأصعبها الإهانة بعد الإكرام، والطرد بعد التقريب والفراق بعد الوصال. قال السعدي قدس سره:

ندانـد كـسـى قـدر روز خـوشـى   مكر روزى افتد بسختى كشى
مكن تكيه برد ستكاهى كه هست   كه باشد كه نعمت نماند بدست
بسا اهل دولت ببازى نشت   كه دولت برفتش ببازى زدست

فضيحت بود خوشه اندوختن پس ازخر من خويشتن سوختن
توپيش ازعقوبت در عفو كوب كه سودى ندارد فغان زيرچوب
اكر بنده كوشش كند بنده وار عزيزش ندارد خداوند كار
وكر كند رايست در بندكى ز جاندارى افتد بخر بندكى

اللهم احفظنا من الكفران ووفقنا للشكر كل حين وآن.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ أي: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور بصورته المخصوصة، ثم صورناه عبر عن خلق نفس آدم وتصويره بخلق الكل وتصويرهم تنزيلاً لخلقه، وتصويره منزلة خلق الكل، وتصويرهم من حيث إن المقصود من خلقه وتصويره تعمير الأرض بأولاده، فكان خلقه بمنزلة خلق أولاده فالإسناد في ضمير الجمع مجازي. **﴿ثم قلنا للملائكة﴾** كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصص. **﴿اسجدوا لآدم﴾** سجدة تحية وتكريم؛ لأن السجود الشرعي وهو وضع الجبهة على قصد العبادة، إنما هو لله تعالى حقيقة. **﴿فسجدوا﴾** أي: الملائكة بعد الأمر من غير تلعثم. **﴿إلا إبليس﴾** أي: لكن إبليس. **﴿لم يكن من الساجدين﴾** أي: ممن سجد لآدم، وإلا فهو كان ساجداً لله تعالى.

﴿قال﴾ استئناف كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذٍ فقيل قال **﴿ما﴾** أي: أي شيء. **﴿منعك أن لا تسجد﴾** أي: أن تسجد ولا صلة كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليتحقق علم أهل الكتاب. **﴿إذ أمرتك﴾** أي: وقت أمري إياك به. **﴿قال﴾** إبليس. **﴿أنا خير منه﴾** أي: الذي منعني من السجود هو أني أفضل منه لأنك **﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** والنار جوهر لطيف نوراني، والطين جسم كثيف ظلماني فهو خير منه، ولقد أخطأ اللعين حيث لاحظ الفضيلة باعتبار المادة والعنصر.

ز آدمى إبليس صورت ديد وبس غافل ازمعنى شد آن مردود خس
نيست صورت چشم را نيكو بمال تا ببيني شعشع نور جلال

ونعم ما قيل أيضاً:

صورت خاك ارچه دارد تيركى
نيك بنكر كزره معنى صفا اندر صفاست
اين هما يون خاك كاندر وصف أو صاحب دلى
نكتهٔ كفتش كه ازوى ديدهٔ جانر اجلاست
جستن كوكرد احمر عمر ضايع كردنست
روى برخاك سياه آوركه يكسر كيمياست

وفي «المثنوي»:

كفت نار ازخاك بى شك بهترست من زنارو او ز خاك اكدرست
پس قياس فرع بر اصلش كنيم أو ز ظلمت من زنور روشنيم

كفت حق نى بلكه لا أنساب شد زهد وتقوى فضل را محراب شد
اين نه ميراث جهان فانيست كه بانسابش بيان جانيست
بلكه اين ميراثهاى انبياست وارث اين جانهاى اتقياست
پور آن بوجهل شد مؤمن عيان پور آن نوح نبي از كمرهان
زادهٔ خاكى منور شد چوماه زادهٔ آتش توئى اى رو سياه
اين قياسات وتحرى روز ابر يا بشب مر قبله را كردست جبر
ليك با خورشيد وكعبه پيش رو اين قياس واين تحرى را مجو
كعبه ناديده مكن رو زومتاب از قياس الله أعلم بالصواب

وفي «التأويلات النجمية»: أن شرف مسجودية آدم وفضيلته على ساجديه، لم يكن بمجرد خواصه الطينية وأن تشرفه بشرف التخمير بغير واسطة، كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وكقوله عليه السلام: «خمر الله طينة آدم بيده أربعين صباحاً» وإنما كانت فضيلته عليهم لاختصاصه بنفخ الروح المشرف بالإضافة إلى الحضرة فيه من غير واسطة، كما قال ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] ولاختصاصه بالتجلي فيه عند نفخ الروح كما قال عليه السلام: «إن الله تعالى خلق آدم فتجلى فيه» ولهذا السر ما أمر الملائكة بالسجود بعد تسوية قالب آدم من الطين بل أمرهم بالسجود بعد نفخ الروح فيه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢] وذلك لأن آدم بعد أن نفخ فيه الروح صار مستعداً للتجلي لما حصل فيه من لطافة الروح، ونورانيته التي يستحق بها التجلي، ومن إمساك الطين الذي يقبل الفيض الإلهي ويمسكه عند التجلي فاستحق سجود الملائكة، فإنه صار كعبة حقيقة.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿قال﴾ الله تعالى **﴿فاهبط﴾** يا إبليس. **﴿منها﴾** أي: من الجنة والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها وكانوا في جنة عدن، لا في جنة الخلد، وفيها خلق آدم وهذا أمر عقوبة على معصية. **﴿فما يكون لك﴾** أي: فما يصح ويستقيم لك ولا يليق بشأنك. **﴿أن تتكبر فيها﴾** أي: في الجنة ولا دلالة فيه على جواز التكبر في غيرها. **﴿فاخرج﴾** تأكيد للأمر بالهبوط. **﴿إنك من الصاغرين﴾** أي: من الأذلاء وأهل الهوان على الله تعالى، وعلى أوليائه لتكبرك.

وفي الآية: تنبيه على أن الله تعالى إنما طرده وأهبطه لتكبره لا لمجرد عصيانه وفي الحديث: «من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله» وفي «المثنوي»:

علتى بدتر ز پندار كمال نيست اندرجانت اي مغرور ضال
ازدل وازديده ات بس خون رود تاز تواين معجبى بيرون شود
علت إبليس أنا خير بدست وين مرض در نفس هر مخلوق هست
كرچه خودرا بس شكسته بينداو آب صافى دان وسركين زيرجو
چون بشورانى مراوراز امتحان آب سركين رنك كردد در زمان
درتك جوهست سركين اى فتى كرچه جو صافى نمايد مر ترا

وكان الأصحاب رضي الله عنهم يكون دماً من أخلاق النفس ـ وذكر ـ أن قاضياً جاء إلى أبي يزيد البسطامي يوماً، فقال: نحن نعرف ما تعرفه ولكن لا نجد تأثيره، فقال أبو يزيد: خذ مقداراً من الجوز وعلق وعاءه في عنقك، ثم ناد في البلد كل من يلطمني ادفع له جوزة حتى لا تبقي منه شيئاً، فإذا فعلت ذلك تجد التأثير فاستغفر القاضي، فقال أبو يزيد: قد أذنبت لأني أذكر ما يخلصك من كبر نفسك وأنت تستغفر من ذلك لكمال كبرك.

قال أبو جعفر البغدادي: ست خصال لا تُحسن بست رجال: لا يحسن الطمع في العلماء، ولا العجلة في الأمراء، ولا الشح في الأغنياء، ولا الكبر في الفقراء، ولا السفه في المشايخ، ولا اللؤم في ذوي الأحساب فعليك بالتوحيد فإنه سيف صارم يقطع عرق كل خلق مذموم.

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قال﴾ الشيطان بعد كونه مطروداً. **﴿أنظرني﴾** أي: أمهلني ولا تمتني. **﴿إلى يوم يبعثون﴾** أي: آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وهو وقت النفخة الثانية، وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة من إغوائهم ويأخذ منهم ثاره وينجو من الموت لاستحالته بعد الموت.

﴿قال﴾ الله تعالى. **﴿إنك من المنظرين﴾** أي: من جملة الذين أخرت آجالهم إلى وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي هو المسؤول كما بيّن مدة المهلة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص: ٨٠-٨١] وهو يوم النفخة الأولى يموت الخلق فيه ويموت إبليس معهم وبين النفخة الأولى والثانية أربعون سنة فاستجيب بعض دعائه لا كله.

والفتوى على أن دعاء الكافر يستجاب استدراجاً ودلّ ظاهر قوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [ص: ٨٠] على أن ثمة مُنظرين غير إبليس، وعن ابن عباس قال: «إن الدهر يمر بإبليس فيهرم ثم يعود ابن ثلاثين».

غافلان از مرك مهلت خواستند   عاشقان كفتند نى نى زود باد

وإنما أنظره ابتلاء للعباد وتمييزاً بين المخلص لله ومتبع الهوى، وتعريضاً للثواب بمخالفته، وقيل: أنظره مكافأة له بعبادته التي مضت في السماء وعلى وجه الأرض؛ ليعلم أنه لا يضيع أجر العاملين وقيل أمهله وأبقاه إلى آخر الدهر استدراجاً له من حيث لا يعلم ليتحمل من الأوزار ما لا يتحمل غيره من الأشرار والكفار، فأنظره إلى يوم القرار ليحصل الاعتبار به لذوي الأبصار بأن أطول الأعمار في هذه الدار لرئيس الكفار وقائد زمرة الفجار.

واختلف العلماء هل كلم الله تعالى إبليس بغير واسطة أو لا؟ والصحيح أنّه كلّمه بواسطة ملك لأن كلام الباري لمن كلمه رحمة ورضى وتكرم وإجلال ألا ترى أن موسى عليه السلام فضل بذلك على الأنبياء ما عدا الخليل ومحمداً ﷺ.

فإن قيل: أليس رسالته أيضاً تشريفاً وقد كانت لإبليس على غير وجه التشريف، كذلك كلامه يكون تشريفاً لغير إبليس ولا يكون تشريفاً لإبليس. قيل: مجرد الإرسال ليس بتشريف وإنما يكون لإقامة الحجة بدلالة أن موسى عليه السلام أرسله الله إلى فرعون وهامان ولم يقصد

إكرامهما وإعظامهما لعلمه بأنهما عدوان، وكان كلامه إياه تشريفاً له، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ [القصص: ٦٢] أي: على لسان بعض ملائكته.

﴿قال﴾ إبليس ﴿فبما أغويتني﴾ الباء متعلقة بفعل القسم المحذوف. والإغواء الإضلال عن المنهج القويم، والهمزة فيه للصيرورة، أي: بسبب أن صيرتني غاوياً ضالاً عن الهدى محروماً من الرحمة لأجلهم أقسم بعزتك. ﴿لأقعدن لهم﴾ أي: لآدم وذريته ترصداً بهم كما يقعد القطاع للقطع على السابلة. ﴿صراطك﴾ أي: على صراطك ﴿المستقيم﴾ الموصل إلى الجنة وهو دين الإسلام فالقعود كناية عن الاجتهاد في إغواء بني آدم، فإن من هلك بسبب الاجتهاد في تكميل أمر من الأمور يقعد حتى يصير فارغ البال عما يشغله عن إتمام مقصوده ويتوجه إليه بكليته.

﴿ثم لآتينهم﴾ [پس بيايم بديشان]. ﴿من بين أيديهم﴾ أي: من قبل الآخرة فأشككهم فيها، وأيضاً من قبل الحسد فأزين لهم الحسد على الأكابر من العلماء والمشايخ في زمانهم ليطعنوا في أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم. ﴿ومن خلفهم﴾ من جهة الدنيا أرغبهم فيها، وأيضاً من قبل العصبية ليطعنوا في المتقدمين من الصحابة والتابعين والمشايخ الماضين ويقدحوا فيهم ويبغضوهم ﴿وعن أيمانهم﴾ من جهة الحسنات وأوقعهم في العجب والرياء. وأيضاً من قبل الانبساط فأحرض المريدين على سوء الأدب في صحبة المشايخ وترك الحشمة والتعظيم والتوسع في الكلام والمزاح لأنزلهم عن رتبة القبول. ﴿وعن شمائلهم﴾ من جهة السيئات فأزينها لهم، وأيضاً من قبل المخالفة فآمرهم بترك أوامر المشايخ ونواهيهم لأوردهم به موارد الرد وأهلكهم بسطوات غيرة الولاية، وردها بعد القبول والمقصود من الجهات الأربع التي يعتاد هجوم العدو منها، مثل قصده إياهم للتسويل والإضلال من أي وجه يتيسر بإتيان العدو من الجهات الأربع ولذلك لم يذكر الفوق والتحت، وإنما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما متوجه إليهم وإلى الآخرين بحرف المجاوزة، فإن الآتي منهما كالمنحرف المتجافي عنهم المار على عرضهم وجانبهم، كما تقول: جلست عن يمينه، إذا جلست متجافياً عن جانب يمينه غير ملاصق له فكأنك انحرفت عنه وتجاوزت. ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ أي: مطيعين.

وفي «التفسير الفارسي»: [يعني كافران باشندكه منعم را نشناسد]، وإنما قال: ظناً لا علماً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠] لما رأى فيهم مبدأ الشر متعدداً وهو الشهوة والغضب ومبدأ الخير واحداً وهو العقل. قال السعدي قدس سره:

نه ابليس در حق ما طعنه زد ... كزينان نيايد بجز كاربد
فغان ازبديها كه در نفس ماست ... كه ترسم شود ظن إبليس راست
چوملعون پسند آمدش قهرما ... خدايش بر انداخت ازبهرما
كجاسر برآريم ازين عارونك ... كه با او بصلحيم وباحق بجنك

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿قال﴾ الله تعالى لإبليس ﴿اخرج منها﴾ أي: من الجنة حال كونك. ﴿مذؤوماً﴾ أي: مذموماً من ذأمه إذا ذمه، فالذام من المهموز العين والذم من المضاعف كلاهما بمعنى واحد

وهو التعييب البليغ. ﴿مدحوراً﴾ أي: مطروداً، فاللعين مطرود من الجنة ومن كل خير لعجبه ونظره إلى نفسه، ففيه عبرة لكل مخلوق بعده. ﴿لمن تبعك منهم﴾ اللام لتوطئة القسم، ومن شرطية ومعناه بالفارسية [بخداى كه هركه دربى توبيا يد از اولاد آدم] ﴿لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ جواب القسم وهو ساد مسد جواب الشرط، ومعنى منكم، أي: منك ومن ذريتك ومن كفار ذرية آدم وفي الحديث: «تحاجت النار والجنة، فقالت هذه يدخلني الجبارون المتكبرون، وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين، فقال الله تعالى: لهذه أنت عذابي أعذّب بك من أشاء، وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها»، والتابعون للشيطان هم الذين يأتيهم من الجهات الأربع المذكورة فيقبلون منه ما أمره فليحذر العاقل عن متابعته وليجتهد في طاعة الله وعبادته حتى لا يدخل النار مع الداخلين، وفي الحديث: «إذا كان يوم القيامة رفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل هذا فداؤك من النار» وفي هذا الحديث دليل على كمال لطف الله بعباده وكرامتهم عليه حيث فدى أوليائه بأعدائه، ويحتمل أن يكون معنى الفداء أن الله تعالى وعد النار ليملأها من الجِنّة والناس فهي تستنجز الله موعده في المشركين وعصاة المؤمنين، فيرضيها الله تعالى بما يقدم إليها من الكفار فيكون ذلك كالمفاداة عن المؤمنين.

وقال بعضهم: معناه أن المؤمنين يتوقّون بالكفار من نفح النار إذا مروا على الصراط فيكونون وقاية وفداء لأهل الإسلام.

قال بعضهم: رأيت أبا بكر بن الحسين المقري في المنام في الليلة التي دفن فيها، فقلت له أيها الأستاذ ما فعل الله بك قال: إن الله تعالى أقام أبا الحسن العامري صاحب الفلسفة فدائي، وقال هذا فداؤك من النار، وقد كان أبو الحسن توفي في الليلة التي توفي فيها أبو بكر المقري وفي الحديث: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى»، ولا يستبعد من فضل الله مع أهل الإسلام والإيمان أن يفديهم بأهل الكفر والطغيان وذلك عدل من الله مع أهل المعصية، وفضل على أهل طاعته خلافاً للمعتزلة فإنهم أنكروا هذه واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] والذي صاروا إليه خلاف الكتاب والسنة. قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] فلا يصح استدلالهم بالآية لأن كل كافر معاقب بوزره والله أعلم بحقيقة الحال وإليه المآل.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ويا آدم﴾ أي: وقلنا لآدم بعد إخراج إبليس من الجنة يا آدم. ﴿اسكن أنت﴾ أي: لازم الإقامة على طريق الإباحة والتكريم ﴿وزوجك﴾ حواء والزوج في كلام العرب هو العدد الفرد المزاوج لصاحبه فأما الاثنان المصطحبان، فيقال لهما زوجان. ﴿الجنة﴾ أي: فيها وهي إما جنة الخلد التي جعلت دار الجزاء وعليه أكثر أهل العلم لوجوه ذكروها في كتبهم أو جنة في السماء هبطا منها أو جنة في الأرض كانت مرتفعة على سائر بقاع الأرض ذات أشجار، وأثمار

وظلال ونعيم ونضرة وسرور أعدها الله لهما، وجعلها دار ابتلاء، وعليه بعض المحققين من أهل الظاهر والباطن، لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ولا تكليف في الجنة الجزائية، ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ولا نوم في الجنة ولا خروج بعد الدخول ولا يجوز دخول الشيطان فيها بعد الطرد والإخراج ولقول قابيل: أنا من أولاد الجنة كما لا يخفى، ولما روي أن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من عنب الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه فلقيتهم الملائكة، فقالوا أين تريدون يا بني آدم؟ فقالوا: إن أبانا اشتهى قطفاً من عنب الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد كفيتموه فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبرائيل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا هذه سنتكم في موتاكم قالوا: فلولا أن الوصول إلى الجنة التي كان فيها آدم التي اشتهى منها القطف كان ممكناً لما ذهبوا يطلبون ذلك فدل على أنها في الأرض لا في السماء، وقد ثبت أن النيل يخرج من الجنة ولا شك أنها من جنان الأرض وبساتينها والله أعلم. **﴿فكلا من حيث شئتما﴾** من أي مكان شئتما، ومن أي شيء شئتما من نعم الجنة وثمارها موسعاً عليكما. **﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾** اختلفوا في هذه الشجرة أيضاً وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما في غيرها كذا في «آكام المرجان». **﴿فتكونا من الظالمين﴾** أي: فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم **﴿فوسوس لهما الشيطان﴾** قال في «الصحاح»: فوسوس لهما الشيطان يريد إليهما، ولكن العرب توصل بهذه الحروف كلها الفعل انتهى. والوسوسة: الكلام الخفي المكرر يلقيه الشيطان إلى قلب البشر ليزين له ما هو المنكر شرعاً، وأول ما ابتدأهما به من كيده إياهما أنه ناح عليهما نياحة أحزنتهما حين سمعاها فقالا له: ما يبكيك، قال: أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة فوقع ذلك في نفسهما، ثم أتاهما فوسوس إليهما وقال ما نهاكما كما يجيء. **﴿ليبدي لهما﴾** أي: ليظهر لهما. واللام للعاقبة لأن اللعين إنما وسوس لهما ليوقعهما في المعصية لا لظهور عورتهما لكن لما كان عاقبة وسوسته ظهور سوءاتهما شبه ظهورها بالغرض الحامل على الوسوسة، ويحتمل أن يكون اللام لام الغرض على أنه أراد بوسوسته أن يسوؤهما، أي يخزيهما بانكشاف عورتهما عند الملائكة، وكان قد علم أن لهما سوءة بقراءته كتب الملائكة ولم يكن آدم يعلم ذلك، وفي كون الانكشاف غرضاً لإبليس دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع، ولم يقع نظر علي رضي الله عنه إلى عورته حذراً من أن يراها بالعين التي يرى بها جمال رسول الله ﷺ فإذا كان النظر إلى سوءته بهذه المرتبة فما ظنك بالنظر إلى سوءة الغير، وما أشد قبح كشف العورة قالت عائشة رضي الله عنها «ما رأى مني ولا رأيت منه» أي العورة. **﴿ما ووري عنهما﴾** أي: الذي ستر عنهما وهو مجهول وارى. **﴿من سوءاتهما﴾** أي: عورتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر؛ لأنهما قد ألبسا ثوباً يستر عورتهما. والسوءات جمع السوءة والتعبير بلفظ الجمع عن اثنين لكراهة اجتماع لفظي التثنية، ويحتمل أن يكون الجمع على أصل وضعه باعتبار أن كل عورة هي الدبر والفرج، وذلك أربعة فهي جمع وسميت العورة سوءة؛ لأنه يسوء الإنسان انكشافها؛ **﴿وقال﴾** عطف على وسوس بياناً وتفصيلاً لكيفية وسوسته. **﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة﴾** أي: عن أكلها لأمر مّا. **﴿إلا﴾** كراهة **﴿أن تكونا ملكين﴾** أي: كالملائكة في لطافة البنية والاستغناء عن التغذي بالأطعمة والأشربة ونحوهما، وفضل

الملائكة من بعض الوجوه لا يدل على فضلهم على الأنبياء مطلقاً لجواز أن يكون لنوع البشر فضائل أخر راجحة على ما للملك، فليس المراد انقلاب حقيقتهما البشرية إلى الحقيقة الملكية فإنه محال.

قال سعدي المفتي: فيه بحث إذ لا مانع منه عند الأشاعرة لتجانس الأجسام انتهى.

واعلم: أن الله تعالى باين بين الملائكة والجن والإنس في الصورة والأشكال فمن حصل على بنية الإنسان ظاهراً وباطناً، فهو إنسان فلو قلب الإنسان إلى بنية الملك لخرج بذلك عن كونه إنساناً لكن الملك والشيطان لا يخرجان بالتشكلات الظاهرية المختلفة عن حقيقتهما، ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ الذين لا يموتون ويخلدون في الجنة. ﴿وقاسمهما﴾ أي: أقسم لهما، فالقسم إنما وقع من إبليس فقط إلا أنه عبر عن إقسامه بزنة المفاعلة للدلالة على أنه اجتهد في القسم اجتهاد المقاسم، وهو الذي حلف في مقابلة حلف شخص آخر. ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ فيما أقول، والنصح بذل المجهود في طلب الخير في حق غيره.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فدلاهما﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة وحطهما من المرتبة العالية وهي مرتبة الطاعة إلى المنزلة السافلة، وهي الحالة المغضبة والتدلية إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل كإرسال الدلو في البئر. ﴿بغرور﴾ أي: بسبب تغريره إياهما باليمين بالله كاذباً، وكان اللعين أول من حلف بالله كاذباً، وظن آدم أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً فاغترّ به فإن شأن المؤمن أن يعتقد بصدق من حلف بالله لتمكن عظمة اسم الله تعالى في قلبه وكان بعض العلماء. يقول: من خادعنا بالله خدعنا وفي الحديث: «المؤمن غرّ كريم والفاجر خبّ لئيم» ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ أي: فلما وجدا طعمها آخذين في الأكل منها أخذهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما لباسهما، وظهرت لهما عوراتهما فاستحييا.

وفي الأخبار أن غيرهما لم ير عورتهما، قيل كان لباسهما في الجنة ظفراً في أشد اللطافة واللين والبياض، يكون حاجباً من النظر إلى أصل البدن فلما أصابا الخطيئة نزع ذلك عن بدنهما وبقي عند رؤوس الأصابع، تذكيراً لما فات من النعم وتجديداً للندم، وقيل: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر إلى حد البدن، وقيل: كان حلة من حلل الجنة. ﴿وطفقا يخصفان﴾ أي: أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة. ﴿عليهما﴾ أي: على بدنهما أو على سوءاتهما من قبيل صغت قلوبكما في التعبير عن المثنى بالجمع لعدم التباس المراد، فجاز أن يرجع إليه ضمير التثنية ﴿من ورق الجنة﴾ قيل: كان ذلك ورق التين ولم يستره من الشجر إلا شجر التين، فقال الله تعالى «كما سترت آدم أخرج منك المعنى قبل الدعوى» وسائر الأشجار يخرج منها الدعوى قبل المعنى، فلهذه الحكمة يخرج ثمر سائر الأشجار في كمامها أولاً، ثم تظهر الثمرة من الكمام ثانياً وشجرة التين أول ما يبدو ثمره يبدو بارزاً من غير كمام.

وفي الآية. دليل على أن كشف العورة قبيح من لدن آدم عليه السلام، ألا ترى أنهما كيف بادرا إلى الستر لما تقرر في عقلهما من قبح كشف العورة. ﴿وناداهما ربهما﴾ مالك أمرهما بطريق العتاب والتوبيخ يحتمل أن يكون ذلك بأن أوحى إليهما بواسطة الملك ذلك

الكلام أو بأن ألهمهما ذلك في قلبهما، قيل: كانت بهذا العتاب أشد عليهما من كل محنة أصابتهما ﴿ألم أنهكما﴾ وهو تفسير للنداء فلا محل له من الإعراب. ﴿عن تلكما الشجرة وأقل لكما﴾ عطف على أنهكما، أي ألم أقل لكما، ﴿إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] ولكما متعلق بعدو لما فيه من معنى الفعل ـ روي ـ أن الله تعالى قال لآدم: «ألم يكن فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً، قال فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كداً» فأهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وطحن وعجن وخبز.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿قالا﴾ اعترافاً بالخطيئة وتسارعاً إلى التوبة. ﴿ربنا﴾ أي: يا ربنا. ﴿ظلمنا أنفسنا﴾ أي: ضررناها بالمعصية وعرضناها للإخراج من الجنة ﴿وإن لم تغفر لنا﴾ تستر علينا ذنبنا ﴿وترحمنا﴾ بقبول توبتنا. ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ أي: الهالكين الذين باعوا حظهم في الآخرة بشهوة ساعة، وهو دليل على أن الصغائر معاقب عليها إن لم تغفر والمغفرة مشكوك فيها، فكان ذنب آدم صغيرة لأنه لم يأكل من الشجرة قصداً لمخالفة حكم الله تعالى بل إنما أكل بناء على مقالة اللعين حيث أورثت فيه ميلاً طبيعياً، ثم إنه كفّ نفسه عنه مراعاة لحكم الله إلى أن نسي ذلك وزال المانع عن أكله فحمله طبعه عليه، ولأنه إنما أقدم عليه بسبب اجتهاد أخطأ فيه فإنه ظن أن النهي للتنزيه، أو أن الإشارة في قوله: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ إلى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها وقد كان المراد بها الإشارة إلى النوع كما روي أنه عليه السلام أخذ حريراً وذهباً بيده وقال: «هذان حرامان على ذكور أمتي حلّ لإناثها».

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿اهبطوا﴾ خطاب لآدم وحواء وذريتهما أولهما ولإبليس ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ جملة حالية من فاعل اهبطوا، أي: متعادين فطبع إبليس على العداوة، كطبع العقرب على اللّدغ والذئب على السلب، فعادى آدم لذهاب رياسته بين الملائكة بسبب خلافة آدم، وأمرنا بمعاداة إبليس لأن الابن يعادي عدو أبيه. ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ [قرار كاهى وآرام جايى]. ﴿ومتاع﴾ أي: تمتع وانتفاع ﴿إلى حين﴾ هو حين انقضاء آجالهم فاغتم آدم وظن أنه لا يرجع الجنة.

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿فيها تحيون﴾ أي: في الأرض تعيشون ﴿وفيها تموتون﴾ وتقبرون ﴿ومنها تخرجون﴾ للجزاء فعلم آدم من مضمون هذا الخطاب أنه يعود إلى الجنة فصار متسلياً بفضل الله تعالى ووعده.

قال الإمام القشيري: ونعم ما قال: أصبح آدم عليه السلام محسود الملائكة مسجوداً لكافتهم على رأسه تاج الوصلة، وعلى جسده لباس الكرامة، وفي وسطه نطاق القربة، وفي جيده قلادة الزلفى لا أحد من المخلوق فوقه من الرتبة، ولا شخص مثله في الرفعة يتوالى عليه النداء كل لحظة يا آدم فلم يمس حتى نزع عنه لباسه وسلب استئناسه، وتبدل مكانه وتشوش

زمانه فإذا كان شؤم معصية واحدة على من أكرمه الله بكل كرامة هكذا فكيف شؤم المعاصي الكثيرة علينا انتهى. قال الحافظ:

چه كونه دعوىء وصلت كنم بجانكه شدست — سم وكيل قضا ودلم ضمان فراق

وقضاء الله تعالى يجري على كل أحد نبياً كان أو ولياً.

نه من ازپردهٔ تقوى پدر افتادم وبس — پدرم نيز بهشت ابد از دست بهشت

واعلم: أن آدم تناول من شجرة المحبة حقيقة فوقع في شبكة المحنة، وأمر بالصبر على الهجر ووعد بالوجد بعد الفقد، فكان ما كان من الترقيات المعنوية بعد التنزلات الصورية.

مقام عيش ميسر نمى شود بى رنج — بلى بحكم بلا بسته اند حكم الست

وشجرة العلم المجرد منهي عن أن يقربها أحد بدون المكاشفة والمشاهدة والمعاينة، فإن صاحبه محجوب ومحروم من لذات ثمرات الحقيقة، فلتكن المشاهدة همته من أول أمره إلى أن يصل إلى ذروة الكمال قبل مجيء الآجال، فإن فاجأه الموت وهو في الطريق فالله تعالى يوصله إلى مطلبه ولو في البرزخ، وأيضاً لا ينبغي لأحد أن يقرب من شجرة التدبير فإن التقدير كاف لكل غني وفقير، ألا ترى إلى قيام الصلاة فإنه إشارة إلى التقدير الأزلي وهو التفويض، والركوع إشارة إلى التدبير الأبدي وهو التسليم، والسجدة إشارة إلى الفناء الكلي عنهما؛ إذ كما لا بد من التخلق بمثل هذه الصفات لا بد من الفناء عنها في غاية الغايات. قال تعالى: **﴿فيها تحيون﴾** أي: في المحبة وصدق الطلب، وقرع باب الفرج بالصبر والثبات على العبودية، وفي طلب الحق تموتون على جادة الشريعة بأقدام الطريقة، ومنها تخرجون إلى عالم الحقيقة يدل عليه قوله عليه السلام: «كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون».

بكوش خواجه واز عشق بى نصيب مباش — كه بنده را نخرد كس بعيب بى هنرى

مرادرين ظلمات آنكه رهنمايى كرد — دعاى نيم شبى بود وكريهٔ سحرى

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يا بني آدم﴾ خطاب للناس كافة ـ روي ـ أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها فنزلت إلى آخر الآيات الثلاث. **﴿قد أنزلنا عليكم لباساً﴾** أي: خلقناه لكم بإنزال سببه من السماء وهو ماء المطر فما تنبته الأرض من القطن والكتان من ماء السماء، وما يكون من الكسوة من أصواف الأنعام فقوام الأنعام أيضاً من ماء السماء.

واعلم: أن السماء فاعلة والأرض قابلة والحوادث الأرضية منسوبة إلى السماء فكل ما في الأرض إنما هو بتدبيرات سماوية. **﴿يواري سوآتكم﴾** أي: يستر عوراتكم فكشف العورة مع وجود ما يسترها من اللباس في غاية القباحة، ولا شك أن الشيطان أغوى من فعل ذلك، كما أغوى آدم وحواء فبدت لهما سوءاتهما ونستعيذ بالله من شره. **﴿وريشاً﴾** هو من قبيل ما حذف فيه الموصوف وأقيمت صفته مقامه، كأنه قيل ولباساً ريشاً، أي ذا ريش وزينة تتجملون به عبر عن الزينة بالريش تشبيهاً لها بريش الطائر؛ لأن الريش زينة الطائر كما أن اللباس زينة

لبني آدم، كأنه قيل: أنزلنا عليكم لباسين لباساً يواري سوءاتكم ولباساً يزينكم فإن الزينة غرض صحيح. قال تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

قال الحسين الكاشفي: [در تفسير امام زاهد فرموده كه لباس آنست كه از پنبه باشد وريش ازابرشيم وكتان وپشم]. ﴿ولباس التقوى﴾ أي: خشية الله تعالى مبتدأ خبره قوله: ﴿ذلك خير﴾ شبهت التقوى بالملبوس من حيث إنها تستر صاحبها وتحفظه مما يضره كما يحفظه الملبوس.

قال قتادة والسدي: هو العمل الصالح لأنه يقي من العذاب؛ كأنه قال لباس التقوى خير من الثياب لأن الفاجر وإن كان حسن الثياب فهو بادي العورة.

قال الشاعر:

إني كأني أرى من لا حياء له ... ولا أمانة وسط القوم عريانا

قال الحافظ:

قلندران حقيقت بنيم جو نخرند ... قباى اطلس آنكس كه ازهنر عاريست

وفي «التفسير الفارسي»: [﴿ولباس التقوى﴾ وپوشش تقوى يعني لباس كه براى تواضع پوشند چون پشيمينها وجامها درشت. ﴿ذلك خير﴾ آن بهتراست كه ازلباسهاى نرم] وفي الحديث: «من رقّ ثوبه رقّ دينه» وقيل: أول من لبس الصوف آدم وحواء حين خرجا من الجنة.

وكان عيسى عليه السلام يلبس الشعر، ويأكل من الشجر، ويبيت حيث أمسى فلبس الصوف والشعر علامة التواضع، وفيه تشبيه بالمساكين والعاقل من اختار ما اختاره الصلحاء.

قال الصائب:

جمعى كه پشت كرم بعشق نيند ... ناز سمور ومنت سنجاب ميكشند

واعلم أن لكل جزء من أجزاء الإنسان لباساً يواري سوأة ذلك الجزء من ظاهره وباطنه، فلباس الشريعة يواري سوأة الأفعال القبيحة بأحكام الشريعة في الظاهر، وسوأة الصفات الذميمة النفسانية والحيوانية بآداب الطريقة في الباطن، والتقوى هو لباس القلب والروح والسر والخفي. فلباس القلب من التقوى هو الصدق في طلب المولى يواري سوأة طبع الدنيا وما فيها، ولباس الروح من التقوى محبة الحق تعالى يواري به سوأة التعلق بغير المولى، ولباس السرّ هو شهود أنواع اللقاء يواري به سوأة رؤية ما سوى الله تعالى، ولباس الخفي هو البقاء بهوية الحق يواري به سوأة هوية الخلق [يعنى همه تعينات مضمحل ومتلاشى كردد وحجاب پندار ازسر وجودات متكثرة دركشيده آيد وسر] ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] برغرفه وحدت قهارى جلوه نمايد].

ملك ملك اوست او خود مالكست ... غير ذاتش كل شيء هالكست
كل شيء ما خلا الله باطل ... إن فضل الله غيم هاطل
هالك آيدپيشى وجهش هست نيست ... هستى اندرنيستى خود طرفه ايست

﴿ذلك﴾ أي: إنزال اللباس ﴿من آيات الله﴾ الدالة على فضله ورحمته ﴿لعلهم يذكرون﴾ فيعرفون نعمته حيث أغناهم باللباس عن خصف الورق، أو يتعظون فيتورعون عن القبائح نحو كشف العورة.

وفي «الأسرار المحمدية»: العالم مشحون بالأرواح فليس فيه موضع بيت، ولا زاوية إلا وهو معمور بما لا يعلمه إلا الله وما يعلم جنود ربك إلا هو.

قال حجة الإسلام في كتابه «معراج السالكين»: والدليل على ذلك أمر النبي عليه السلام «بالتستر في الخلوة وأن لا يجامع الرجل امرأته عريانين».

وكان الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر، يدخلون الماء وعليهم السراويلات تستراً عن سكان الماء ـ يحكى ـ عن أحمد بن حنبل قال: كنت يوماً مع جماعة يتجردون ويدخلون الماء فاستعملت خبر النبي عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر» فلم أتجرد فرأيت تلك الليلة في المنام، كأن قائلاً يقول: أبشر يا أحمد فإن الله تعالى قد غفر لك باستعمال السنة فقلت، ومن أنت؟ قال: أنا جبرائيل فقد جعلك الله إماماً يقتدى بك.

قال في «الشرعة»: وينوي بلبس الثياب ستر العورة والعيب الواقع في البدن والتزين بها تودداً إلى أهل الإسلام، لا لحظ النفس فإن ذلك اللبس بتلك النية يصفي وينور العقل عن الكدورات تصفية بحيث لا يشوبه شيء من أهوية النفس وحظوظها ويؤجر عليه بتلك النية.

قيل: الأعمال البهيمية ما كان بغير نية.

فعلى العاقل جمع الهمم بحيث لا يسخ في السر ذكر غيره تعالى:

﴿**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان**﴾ أي: لا يوقعنكم في الفتنة والمحنة بأن يمنعكم من دخول الجنة بإغوائكم ﴿**كما أخرج أبويكم من الجنة**﴾ نعت لمصدر محذوف، أي: لا يفتننكم فتنة مثل فتنة إخراج أبويكم آدم وحواء من الجنة، فإنه إذا قدر بكيده على إزلالهما فإن يقدر على إزلال أولاده أولى فوجب عليكم أن تحترزوا عن قبول وسوسته، والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيهم عن اتباعه والافتتان به وهو أبلغ من لا تقبلوا فتنة الشيطان. ﴿**ينزع عنهما لباسهما**﴾ حال من أبويكم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما «أن لباسهما كان من الظفر» أي كان يشبه الظفر فإنه كان مخلوقاً عليهما خلقة الظفر وأسند نزع اللباس إلى الشيطان مع أنه لم يباشر ذلك لكونه سبباً في ذلك النزع. ﴿**ليريهما سوآتهما**﴾ أي: ليظهر لهما عوراتهما وكانا قبل ذلك لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر، كما روي أن آدم كان رجلاً طوالاً وكأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع بالخطيئة بدت سوآته، وكان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره، فقال لها: أرسليني فقالت لست مرسلتك فناداه ربه يا آدم أمني تفرّ قال لا ولكني استحييت ﴿**إنه**﴾ أي: الشيطان أو الشأن ﴿**يراكم هو وقبيله**﴾ أي: جنوده وذريته ﴿**من حيث لا ترونهم**﴾ من لابتداء غاية الرؤية وحيث ظرف لمكان انتفاء الرؤية ومعناه بالفارسية [ازجايى كه شما اورانمى بينيد يعني أجسام ايشان از غايت رقت ولطافت در نظر شما نمى آيد وايشان أجسام شمارا بواسطهء غلظت وكثافت مى بينند حذر از چنين دشمن لازمست]، وفي «المثنوي»:

ازنبى برخوان كه ديو وقوم او ... مى برنداز حال سى خفيه بو
ازرهى كه انس ازان آكاه نيست ... زانكه زين محسوس وزين اشباه نيست
مسلكى دارند ازديده درون ... ما زدزديهاى ايشان سرنكون
دمبدم خبط وزيانى ميكنند ... صاحب نقب وشكاف زوربند

ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة، أي: في بعض أحوالهم وهو حال بقائهم على صورهم الأصلية لا يقتضي امتناع رؤيتنا إياهم بأن يتمثلوا لنا كما تواتر من أن بعض الناس رأى الجن جهاراً علناً.

قال في «آكام المرجان في أحكام الجان»: لو كشف الله أجسامهم وقوّى شعاع أبصارنا لرأيناهم، أو لو كثفهم وشعاع أبصارنا على ما هو عليه من غير أن يقوى لرأيناهم، ألا ترى أن الريح ما دامت رقيقة لطيفة لا ترى فإذا كشفت باختلاف الغبار رأيناهم ولم يمتنع دخولهم في أبداننا كما يدخل الريح والنفس المتردد الذي هو الروح في أبداننا من التخرق والتخلخل، وفي الحديث: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» وقد يحتاج في إبراء المصروع ودفع الجن عنه إلى الضرب فيضرب بعصا قوية على رجليه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ضربة أو أقل أو أكثر والضرب إنما يقع على الجني ولا يحس به المصروع، ولو كان على الإنسي لقتله وكذا يجوز دخولهم في الأحجار إذا كانت مخلخلة كما يجوز دخول الهواء فيها.

فإن قلت: لو دخل الجنّ في جسد ابن آدم لتداخلت الأجسام ولاحترق الإنسان؟.

قلت: الجسم اللطيف يجوز أن يدخل إلى مخاريق الجسم الكثيف كالهواء الداخل في سائر الأجسام، ولا يؤدي ذلك إلى اجتماع الجواهر في حيز واحد؛ لأنها لا تجتمع إلا على طريق المجاورة لا على سبيل الحلول، وإنما يدخل في أجسامنا كما يدخل الجسم الرقيق في الظروف، والجن ليسوا بنار محرقة، بل هم خلقوا من نار في الأصل، كما خلق آدم من التراب فالنسبة باعتبار الجزء الغالب.

قال في «بحر الحقائق»: الإشارة أنهم إنما يرونكم من حيث البشرية التي هي منشأ الصفات الحيوانية، وأنكم محجوبون بهذه الصفات عن رؤيتهم لا من حيث الروحانية التي هي منشأ علوم الأسماء والمعرفة، فإنهم لا يرونكم في هذا المقام وأنتم ترونهم بالنظر الروحاني بل بالنظر الرباني انتهى، ثم قوله: ﴿إنه يراكم﴾ تعليل للنهي ببيان أنه عدو صعب الاحتراز عن ضرره فإن العدو الذي يراك ولا تراه شديد المؤونة لا يتخلص منه إلا من عصمه الله فلا بد أن يكون العاقل على حذر عظيم من ضرره.

فإن قيل: كيف نحاربهم ونحترز عنهم ونحن لا نراهم؟.

قلنا: لم نؤمر بمحاربة أعيانهم وإنما أمرنا بدفع وسوستهم، وعدم قبول ما ألقاه في قلوبنا بالاستعاذة منه إلى الله تعالى ـ روي ـ عن ذي النون المصري أنه قال: إن كان هو يراك من حيث لا تراه، فإن الله يراه من حيث لا يرى الله، فاستعن بالله عليه فإن كيد الشيطان كان ضعيفاً. ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ بما أوجدنا بينهم من التناسب في الخذلان والغواية، فصار بعضهم قرين بعض وأغواه، فالأولياء: جمع ولي بمعنى الصديق ضد العدو يقال منه تولاه أي اتخذه صديقاً وخليلاً.

وذكر عن وهب بن منبه أنه قال: أمر الله تعالى إبليس أن يأتي محمداً عليه السلام ويجيبه عن كل ما يسأله فجاء على صورة شيخ وبيده عكازة فقال له: «من أنت»؟ قال أنا إبليس قال: «لماذا جئت»؟ قال: أمرني ربي أن آتيك وأجيبك فأخبرك عما تسألني، فقال عليه الصلاة والسلام: «فكم أعداؤكم من أمتي»؟ قال: خمسة عشر أنت يا محمد، وإمام عادل، وغني متواضع، وتاجر صدوق، وعالم متخشع، ومؤمن ناصح، ومؤمن رحيم القلب، وثابت على

التوبة، ومتورع عن الحرام، ومديم على الطهارة، ومؤمن كثير الصدقة، وحسن الخلق مع الناس، ومن ينفع الناس، وحامل القرآن مديم عليه، وقائم الليل والناس نيام قال: «فكم رفقاؤك من أمتي»؟ فقال عشرة. سلطان جائر، وغني متكبر، وتاجر خائن، وشارب الخمر والقتال، وصاحب الرياء، وآكل مال اليتيم، وآكل الربا، ومانع الزكاة، والذي يطيل الأمل فهؤلاء أصحابي وإخواني» فظهر أن الشياطين كما أنهم أولياء لأهل الكفر كذلك هم أولياء لمن هو في حكم أهل الكفر من أهل المعصية ونسأل الله العناية والتوفيق ـ ويحكى ـ أن الخبيث إبليس تبدى ليحيى بن زكرياء عليهما السلام فقال: إني أريد أن أنصحك، قال: كذبت أنت لا تنصحني، ولكن أخبرني عن بني آدم قال: هم عندنا على ثلاثة أصناف: أما الصنف الأول: منها فأشدّ الأصناف علينا نقبل عليه حتى نفتنه ونتمكن منه ثم يفزع إلى الاستغفار والتوبة، فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه، ثم نعود له فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن من ذلك في عناء. وأما الصنف الثاني، فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم نتلقفهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم، وأما الصنف الآخر: فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء، قال يحيى: بعد ذلك هل قدرت مني على شيء قال: لا إلا مرة واحدة فإنك قدمت طعاماً تأكله، فلم أزل أشهيه إليك حتى أكلت منه أكثر مما تريد فنمت تلك الليلة فلم تقم إلى الصلاة كما كنت تقوم إليها، فقال له يحيى: لا جرم أني لا أشبع من طعام أبداً قال له الخبيث لا أنصح آدمياً بعدك.

ولقي يحيى بن زكريا إبليس في صورته أيضاً، فقال له: أخبرني من أحبّ الناس إليك وأبغض الناس إليك، فقال: أحبّ الناس إليّ المؤمن البخيل، وأبغضهم إليّ الفاسق السخي قال يحيى: وكيف ذلك؟ قال لأن البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخاه فيقبله ثم ولّى، وهو يقول لولا أنك يحيى لم أخبرك كذا في «آكام المرجان في أحكام الجان».

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وإذا فعلوا﴾ أي: كفار قريش. **﴿فاحشة﴾** أي: فعلة متناهية في القبح كعبادة الصنم وكشف العورة في الطواف ونحوهما. **﴿قالوا﴾** جواباً للناهين عنها محتجين على حسنها بأمرين الأول تقليد الآباء وهو قولهم: **﴿وجدنا عليها آباءنا﴾** والثاني الافتراء على الله، وهو قولهم: **﴿والله أمرنا بها﴾** فأعرض الله تعالى عن رد احتجاجهم الأول لظهور فساده، فإن التقليد لا يعتبر دليلاً على صحة الفعل الذي قام الدليل على بطلانه، وإن كان معتبراً في غيره ورد الثاني بقوله: **﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾** لأن عادته تعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال والحث على مكارم الخصال. **﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾** إنه أمركم بذلك، وذلك لأن طريق العلم إما السماع من الله تعالى. ابتداء: أي: من غير توسط رسول يبلغهم أن الله تعالى أمرهم بذلك وانتفاؤه ظاهر، وإما المعرفة بواسطة الأنبياء: وهم ينكرون نبوة الأنبياء على الإطلاق، فلا طريق لهم إلى العلم بأحكام الله تعالى فكان قولهم والله أمرنا بها قولاً على الله بما لا يعملون، وهو أي: قوله **﴿أتقولون﴾** من تمام القول المأمور به والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه.

والإشارة في الآية أن الفاحشة طلب الدنيا وحبها والحرص على جمعها فإن أفحش الفواحش حب الدنيا لأنه رأس كل خطيئة، والمعنى إذا وقع أهل الغفلة في طلب الدنيا وزينتها والتمتع بها بتلقين الشياطين وتدبيرهم وتزيينهم، فيدعوهم داع إلى الله وطلبه وترك الدنيا وطلبها. ﴿قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾ أي: على محبة الدنيا وشهواتها. ﴿والله أمرنا بها﴾ أي: بطلبها بالكسب الحلال. ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ أي: لا يأمر بحب الدنيا والحرص على جمعها وإنما يأمر بالكسب الحلال بقدر الحاجة الضرورية لقوام القالب بالقوة، واللباس ليقوم بأداء حق العبودية. ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ أي: تفترون على الله ما لا تعلمون آفته ولا وبال عاقبته ولا تعلمون أن ذلك من فتنة الشيطان وتزيينه وإغوائه كذا في «التأويلات النجمية». وفي «المثنوي»:

اين جهان جيفه است ومردار رخيص   برچنين مردار چون باشم حريص

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ بيان للمأمور به إثر نفي ما أسند إليه أمره به تعالى من الأمور المنهي عنها، والقسط العدل وهو الوسط من كل شيء المتجاوز عن طرفي الإفراط والتفريط وفي الخبر «خير الأمور أوساطها».

توسط إذا ما شئت أمراً فإنه   كلا طرفي قصد الأمور ذميم

﴿وأقيموا وجوهكم﴾ معطوف على أمر بتقدير قل لئلا يلزم عطف الإنشاء على الإخبار، أي وقل لهم: توجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها أو أقيموا وجوهكم نحو القبلة. ﴿عند كل مسجد﴾ يحتمل أن يكون اسم زمان، وأن يكون اسم مكان أي في كل وقت سجود أو مكان سجود والمراد بالسجود الصلاة بطريق ذكر الجزء وإرادة الكل.

وقال الكلبي: معناه إذا حضرت الصلاة وأنتم في مسجد فصلوا فيه، ولا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي، وإذا لم يكن عند مسجد فليأت أي مسجد شاء وليصل فيه.

وفي الفروع: مسجد المحلة أفضل من الجامع إذا كان الإمام عالماً، ومسجد المحلة في حق السوقي نهاراً ما كان عند خانوته نهاراً وليلاً ما كان عند منزله.

قال الحدادي: وهذه الآية تدل على وجوب فعل الصلاة المكتوبة في الجماعة، وفي الحديث: «من سمع النداء فلم يجبه فلا صلاة له إلا من عذر».

وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة، وذلك لأن كل صلاة أقيمت في الجماعة كصلاة يوم وليلة إذا أقيمت بغير جماعة، لأن فرائض اليوم والليلة سبع عشرة ركعة والرواتب عشر فالجميع سبع وعشرون.

قال العلماء: كل ما شرعت فيه الجماعة كالفرائض والتراويح ونحوهما فالمسجد فيه أفضل من ثواب المصلين في البيت بالجماعة؛ لأن فيه إظهار شعائر الإسلام كما أن ثواب المصلين في البيت وحداناً دون ثواب المصلين في البيت بالجماعة. ﴿وادعوه﴾ أي: واعبدوه فهو من إطلاق الخاص على العام فإن الدعاء من أبواب العبادة، وهو الخضوع للباري مع

إظهار الافتقار والاستكانة وهو المقصود من العبادة والعمدة فيها. ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: الطاعة فإن مصيركم إليه في الآخرة.

فردا كه پيشكاه حقيقت شود بديد شر منده رهروى كه عمل بر مجاز كرد

﴿كما بدأكم﴾ أي: أنشأكم ابتداء ﴿تعودون﴾ إليه بإعادته فيجازيكم على أعمالكم والكاف في محل النصب على أنه صفة مصدر محذوف، تقديره تعودون عوداً مثل ما بدأكم وهو بالهمزة بمعنى أنشأ واخترع وإنما شبه الإعادة بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرة عليها، يعني: قيسوا الإعادة بالإبداء فلا تنكروها فإن من قدر على الإنشاء قدر على الإعادة؛ إذ ليس بعثكم أشد من ابتداء خلقكم.

﴿فريقاً﴾ منصوب بما بعده ﴿هدى﴾ بأن وفقهم للإيمان ﴿وفريقاً﴾ نصب بفعل مضمر يفسره ما بعده من حيث المعنى، أي وأضل فريقاً. ﴿حق عليهم﴾ [سزاوار كشت برايشان]. ﴿الضلالة﴾ بمقتضى القضاء السابق التابع للمشيئة المبنية على الحكم البالغة. ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ تعليل لما قبله، أي: حقت عليهم الضلالة لاتخاذهم الشياطين أولياء وقبولهم ما دعوا إليه بدون التأمل في التمييز بين الحق والباطل وكل واحد من الهدى والضلال، وإن كان يحصل بخلق الله تعالى إياه ابتداء إلا أن يخلق ذلك حسبما اكتسبه العبد وسعى في حصوله فيه. ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ أي: يظنون أنهم على الهدى، وفيه دلالة على أن الكافر المخطىء المعاند سواء من حيث إنه تعالى ذم المخطىء الذي ظن أنه في دينه على الحق بأنه حق عليه الضلالة، وجعله في حكم الجاحد والمعاند فعلم منه أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين، بل لا بد فيه من الجزم واليقين لأنه تعالى ذم الكفار بأنهم يحسبون أنهم مهتدون ولو كفى مجرد الحسبان فيه لما ذمهم بذلك.

فعلى العاقل تحصيل اليقين وترك التقليد والاقتداء بأصحاب التحقيق والتوحيد فإن المرء لا يعرف حاله ومقامه إلا بالتعريف. ونعم ما قال الصائب:

واقف نميشوند كه كم كرده اندراه تا رهروان براهنمايى نمى رسند

وكل واحد من التقليد الباطل والشك والرياء وحبّ الدنيا وحبّ الخلق مذموم لا يجدي نفعاً.

وعن ذي النون رضي الله عنه قال: بينما أنا في بعض جبال لكان إذا برجل قائم يصلي والسباع حوله ترتبض، فلما أقبلت نحوه نفرت عنه السباع، فأوجز في صلاته وقال: يا أبا الفيض لو صفوت لطلبتك السباع وحنت إليك الجبال، فقلت ما معنى قولك لو صفوت؟ قال تكون لله خالصاً حتى يكون لك مريداً قال: فقلت فبِمَ الوصول إلى ذلك؟ قال: لا تصل إلى ذلك حتى تخرج حب الخلق من قلبك كما خرج الشرك منه، فقلت هذا والله شديد علي، فقال: هذا أيسر الأعمال على العارفين فولاية الخلق مطلقاً إذا كانت سبيلاً للضلالة فما ظنك بولاية الشياطين سواء كانوا شياطين الإنس أو شياطين الجن، فلا بد من محبة الله تعالى، فويل لمن جاوز محبة الله تعالى إلى محبة ما سواه، وقد ذمه الله بقوله: من دون الله نسأل الله تعالى أن لا يزيغ قلوبنا بعدما هدانا إلى محبته وأرشدنا إلى طريق طاعته وعبادته.

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ الزينة وإن كانت اسماً لما يتزين به من الثياب الفاخرة إلا أن المفسرين أجمعوا على أن المراد بالزينة ههنا الثياب التي تستر العورة استدلالاً بسبب نزول الآية، وهو أن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، وقالوا لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب ودنسناها بها، فكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء بالليل عراة فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا عند كل مسجد سواء دخلوه للصلاة أو للطواف وكانوا قبل ذلك يدعون ثيابهم وراء المسجد عند قصد الطواف.

وفي «تفسير الحدادي»: كانوا إذا قدموا منى طرح أحدهم ثيابه في رحله فإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت منه، وكانت المرأة تطوف بالليل عريانة إلا أنها كانت تتخذ سيوراً مقطعة تشدها في حقويها فكانت السيور لا تسترها ستراً تاماً.

وهذه الآية، أصل في وجوب ستر العورة في الصلاة، والمعنى خذوا ثيابكم لمواراة عورتكم عند كل مسجد لطواف أو صلاة.

قال شيخ الإسلام خواهر زاده: فيه دليل على أن اللبس من أحسن الثياب مستحب حالة الصلاة؛ لأن المراد من الزينة الثوب بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب انتهى، فأخذ الثوب واجب ولباس التجمل مسنون، وكان أبو حنيفة رحمه الله اتخذ لباساً لصلاة الليل وهو قميص وعمامة ورداء وسراويل قيمة ذلك ألف وخمسمائة درهم يلبسه كل ليلة ويقول التزين لله تعالى أولى من التزين للناس.

قال الفقهاء: ولا اعتبار لستر الظلمة لأن الستر وجب لحق الصلاة وحق الناس.

وفي «التفسير الفارسي»: [كفته اند بزبان علم ستر عورتست براى نماز وبزبان كشف حضور دلست براى عرض راز.

ذوق طاعت بى حضور دل نيابد هيچكس   طالب حق را دل حاضر برين دركاه بس

﴿وكلوا واشربوا﴾ ما طاب لكم من الأطعمة والأشربة روي أن بني عامر في أيام حجهم كانوا لا يأكلون الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم فهم المسلمون به فنزلت.

والإشارة كلوا مما يأكل أهل البيات في مقام العبودية واشربوا مما يشربون، كما قال عليه السلام: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» وكان عليه السلام يخص رمضان من العبادات بما لا يخص به غيره من الشهور، حتى أنه كان يواصل أحياناً ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة، وكان ينهى أصحابه عن الوصال فيقولون له فإنك تواصل فيقول: «لست كأحدكم إني أبيت» وفي رواية «أظل عند ربي يطعمني ويسقيني»، وقد اختلف العلماء في هذا الطعام والشراب المذكور على قولين: أحدهما إنه طعام وشراب حسي بالفم، قالوا وهذا حقيقة اللفظ ولا يجب العدول عنه وكان يؤتى بطعام من الجنة، والثاني: أن المراد به ما يغذيه الله به من معارفه وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته وقرة عينه لقربه ونعيم محبته، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح وقرة الأعين وبهجة النفوس ـ حكي ـ أن مريداً خدم الشيخ

منصور الحلاج في الكعبة حين كان مجاوراً سنتين، قال: كان يجيء له طعام من أرباب الخيرات فأضعه عنده ثم أجده في الصبح من غير نقصان فأطعمه فقيراً فما رأيته في السنتين أكل لقمة.

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي: أن النبي عليه السلام إنما أكل في الظاهر لأجل أمته الضعيفة، وإلا فلا احتياج له إلى الأكل والشرب، وما روي من أنه، كان يشد الحجر» فهو ليس من الجوع بل من كمال لطافته لئلا يصعد إلى الملكوت فكان يشد الحجر حتى يحصل الاستقرار في عالم الإرشاد، قال يعني: إنه ﷺ كان ينظر إلى حدوث العالم فيتنعم بتجل البقاء انتهى كلامه. ﴿ولا تسرفوا﴾ بتحريم الحلال فإن بتحريم الحلال يتحقق تضييع المال وهو إسراف أو بالتعدي إلى الحرام بأن يتناول ما حرمه الله عليه من المأكول والمشروب والملبوس، أو بإفراط الطعام والشره عليه بأن يتناول ما لا يحتاج إليه البدن في قوامه، فإن ذلك أيضاً من قبيل الإسراف، ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ لا يرتضي فعلهم ولا يثني عليهم.

قال بعضهم: الإسراف هو أن يأكل الرجل كل ما يشتهيه، ولا شك أن من كان تمام همته مصروفاً إلى فكر الطعام والشراب كان أخس الناس وأذلهم.

خواجه را بين كه ازسحر تاشام دارد انديشهٔ شراب وطعام
شكم ازخوش دلى وخوش حالى كاه پر ميكند كهى خالى
فارغ ازخلد وايمن از دوزخ جاى أو مزبلست ويا مطبخ

[شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري فرموده كه اكرهمه دنيارا لقمه سازى ودردهان درويشى نهى إسراف نباشد إسراف آن بودكه نه برضاى حق تعالى صرف كنى]

يك جوانراكه خير دائم داشت پند ميداد راهبى در دير
كاى پسر خير نيست دراسراف كفت اسراف نيست اندرخير

قال في «التأويلات النجمية»: الإسراف نوعان: إفراط وتفريط فالإفراط ما يكون فوق الحاجة الضرورية، أو على خلاف الشرع أو على وفق الطبع والشهوة أو على الغفلة، أو على ترك الأدب أو بالشره أو على غير ذلك، والتفريط: أن ينقص من قدر الحاجة الضرورية ويقصر في حفظ القوة والطاقة للقيام بحق العبودية، أو يبالغ في أداء حق الربوبية بإهلاك نفسه فيضيع حقها، أو يضيع حقوق الربوبية بحظوظ نفسه أو يضيع حقوق القلب والروح والسر التي هي مستعدة لحصولها بحظوظ النفس فالمعنى لا تسرفوا، أي: لا تضيعوا حقوقنا ولا حقوقكم لحظوظكم انتهى ويروى أن هارون الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن حسين بن واقد، ليس في كتابكم من علم الطب شيء؟ والعلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان، فقال له: إن الله تعالى قد جمع الطب كله في نصف آية من كتابنا قال: وما هي قال قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ فقال النصراني: وهل يؤثر عن رسولكم شيء من الطب قال: نعم جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة قال: وما هي قال قوله: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وعودوا كل جسم ما اعتاد» فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً.

وعن ابن عباس: «كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة» وينبغي لأهل الرخصة أن يقتصروا على أكلتين في اليوم والليلة في غير شهر رمضان ولأهل

العزيمة على أكلة واحدة، فإن ما فوق الأكلتين للطائفة الأولى وما فوق الأكلة للثانية تجاوز عن الحد، وميل إلى الاتصاف بصفات البهائم. والهند: جل معالجتهم الحمية يمتنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عدة أيام فيبرأ فجانب الاحتماء أولى.

﴿قل﴾ لما طاف المسلمون في ثيابهم وأكلوا اللحم والدسم عيّرهم المشركون لأنهم كانوا يطوفون عراة، ولا يأكلون اللحم والدسم حال الإحرام فأمر الله حبيبه ﷺ أن يقول لهم: ﴿من﴾ استفهام إنكار ﴿حرم زينة الله﴾ من الثياب وسائر ما يتجمل به ﴿التي أخرج﴾ بمحض قدرته. ﴿لعباده﴾ من النبات كالقطن والكتان ومن الحيوان كالحرير والصوف ومن المعادن كالدروع. ﴿والطيبات من الرزق﴾ عطف على زينة الله، أي: من حرم أيضاً المستلذات من المآكل والمشارب كاللحوم والدسوم والألبان.

اعلم: أن الرجل إذا أدى الفرائض وأحب أن يتنعم بمنظر حسن وجوار جميلة فلا بأس به، فمن قنع بأدنى المعيشة وصرف الباقي إلى ما ينفعه في الآخرة فهو أولى؛ لأن ما عند الله خير وأبقى لأن الاقتصار على أدنى ما يكفيه عزيمة، وما زاد عليه من التنعم ونيل اللذة رخصة دلت عليها هذه الآية ودلت أيضاً على أن الأصل في المطاعم والملابس والتجمل بأنواع التجملات الإباحة؛ لأن الاستفهام في من إنكاري كما هو مذهب الشافعي، وأكثر أصحاب أبي حنيفة فإنهم قالوا إن الأصل في الأشياء الإباحة، وذهب بعضهم إلى التوقف وبعضهم إلى الحظر ووجه قول القائلين بالإباحة إنه سبحانه وتعالى غني على الحقيقة جواد على الإطلاق والغني الجواد لا يمنع ماله عن عبيده إلا ما كان فيه ضرر فتكون الإباحة هي الأصل باعتبار غناه سبحانه وجوده والحرمة لعوارض فلم تثبت فبقي على الإباحة، ووجه القول بالحظر أن الأشياء كلها مملوكة لله تعالى على الحقيقة والتصرف في ملك الغير لا يثبت إلا بإباحة المالك، فلما لم تثبت الإباحة بقي على الحظر لقيام سببه، وهو ملك الغير ووجه القول بالتوقف أن الحرمة والإباحة لا تثبت إلا بالشرع فقبل وروده لا يتصور ثبوت واحدة منهما فلا يحكم فيها بحظر ولا إباحة.

قال عبد القاهر البغدادي: وتفسير الوقف عندهم أن من فعل شيئاً قبل ورود الشرع لم يستحق بفعله من الله تعالى ثواباً ولا عقاباً. ﴿قل هي﴾ أي: الزينة والطيبات كما في «التفسير الفارسي» ﴿للذين آمنوا﴾ أي: مستقره لهم ﴿في الحياة الدنيا﴾ متعلق بآمنوا أو بالاستقرار الذي تعلق به للذين، والمقصود الأصلي من خلق الطيبات تقوية المكلفين على طاعة الله تعالى لا تقويتهم على الكفر والعصيان فهي مختصة لأصالة للمؤمنين والكفار تبع لهم في ذلك قطعاً لمعذرتهم ولذا لم يقل هي للذين آمنوا ولغيرهم في الدنيا. ﴿خالصة يوم القيامة﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم، وإن اشترك فيها المؤمنون والكفار في الدنيا وانتصابها على الحال من المنوي في قوله: (للذين آمنوا)، ويوم القيامة متعلق بخالصة.

والإشارة في الآية: من يمنعكم عن طلب كمالات أخرجها الله تعالى من غيب الغيب لخواص عباده من الأنبياء والأولياء، ومن حرم عليكم نيل هذه الكرامات والمقامات فمن تصدى لطلبها وسعى لها سعياً فهي مباحة له من غير تأخير ولا قصور، وإضافة الزينة إلى الله لأنه أخرجها من خزائن ألطافه وحقائق أعطافه، فزين الأبدان بالشرائع وآثارها وزين النفوس بالآداب وأقدارها وزين القلوب بالشواهد وأنوارها وزين الأرواح بالمعارف وأسرارها، وزين

الأسرار بالطوالع وأثمارها بل زين الظواهر بآثار التوفيق وزين البواطن بأنوار التحقيق، بل زين الظواهر بآثار السجود وزين البواطن بأنوار الشهود، بل زين الظواهر بآثار الجود وزين البواطن بأنوار الوجود والطيبات من الرزق، وإن أرزاق النفوس بحكم أفضاله، وأرزاق القلوب بموجب إقباله والطيبات من الرزق على الحقيقة ما لم يكن مشوباً بحقوق النفس وحظوظها، ويكون خالصاً من مواهبه وحقوقه، قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا، أي: هذه الكرامات والمقامات لهؤلاء السادات في الدنيا مشوبة بشوائب الآفات النفسانية وكدورات الصفات الحيوانية خالصة يوم القيامة من هذه الآفات والكدورات كما قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ أي: كتفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قل إنما حرم ربي الفواحش﴾ أي: ما تفاحش قبحه من الذنوب وتزايد وهي الكبائر ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ بدل من الفواحش، أي: جهرها وسرها كالكفر والنفاق وغيرهما ﴿والإثم﴾ أي: ما يوجب الإثم وهو يعم الصغائر والكبائر ﴿والبغي﴾ أي: الظلم أو الكبر أفرده بالذكر مع دخوله في الإثم للمبالغة في الزجر عنه. ﴿بغير الحق﴾ متعلق بالبغي مؤكد له؛ لأن البغي لا يكون بالحق. ﴿وأن تشركوا بالله﴾ معطوف على مفعول حرم، أي: وحرم عليكم إشراككم به تعالى ﴿ما لم ينزل به﴾ أي: بإشراكه وعبادته. ﴿سلطاناً﴾ أي: حجة وبرهاناً وهو تهكمٌ بالمشركين؛ لأنهُ إذا لم يجز إنزال البرهان بالإشراك كان ذكر ذلك تهكماً بهم واستهزاء ومعلوم أنه لا برهان عليه حتى ينزل. ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ بالإلحاد في صفاته والافتراء عليه كقولهم والله أمرنا بها.

وفي «التأويلات النجمية»: الفواحش ما يقطع على العبد طريق الرب ويمنعه عن السلوك ففاحشة العوام ما ظهر منها ارتكاب المناهي وما بطن خطورها بالبال، وفاحشة الخواص ما ظهر منها ما لأنفسهم نصيب فيه ولو بذرة، وما بطن الصبر عن المحبوب ولو بلحظة، وفاحشة الأخص ما ظهر منها ترك أدب من الآداب أو التعلق بسبب من الأسباب، وما بطن منها الركون إلى شيء من الدارين والالتفات إلى غير الله من العالمين، والإثم هو الإعراض عن الله ولو طرفة عين والبغي هو حب غير الله فإنه وضع في غير موضعه وأن تشركوا بالله يعني: وأن تستعينوا بغير الله ما لم ينزل به سلطاناً، أي: ما لم يكن لكم به حجة ورخصة من الشريعة المنزلة، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون أي وأن تحكموا بفتوى النفس وهواها أو تقولوا بنظر العقل على الله ما لا تعلمون حقيقته وفيه معنى آخر، وأن تقولوا في معرفة الله وبيان أحوال السائرين، وشرح المقامات وإثبات الكرامات ما أنتم عنه غافلون ولستم به عارفين انتهى، ثم هدد الله المشركين المكذبين للرسل بقوله:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿ولكل أمة﴾ من الأمم المهلكة ﴿أجل﴾ حد معين من الزمان مضروب لمهلكهم. ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ الضمير لكل أمة خاصة حيث لم يقل آجالهم، أي: إذا جاءها أجلها الخاص بها والوقت المعين لنزول عذاب الاستئصال عليها. ﴿لا يستأخرون﴾ عن ذلك الأجل. ﴿ساعة﴾ أي: شيئاً قليلاً من الزمان فإنها مثل في غاية القلة منه، أي لا يتأخرون أصلاً وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحرمانهم من ذلك مع طلبهم له ﴿ولا يستقدمون﴾ أي: لا يتقدمون عليه.

اجل چون فردا آيدت پيش وپس　　　پيش وپس نكذاردست يكنفس

روي أن بعض الملوك كان متنسكاً ثم رجع ومال إلى الدنيا ورياسة الملك وبنى داراً وشيدها وأمر بها ففرشت ونجدت، واتخذ مائدة ووضع طعاماً ودعا الناس فجعلوا يدخلون عليه ويأكلون ويشربون وينظرون إلى بنائه ويتعجبون من ذلك، ويدعون له وينصرفون فمكث بذلك أياماً ثم جلس هو ونفر من خاصة أصحابه، فقال: قد ترون سروري بداري هذه وقد حدثت نفسي أن أتخذ لكل واحد من أولادي مثلها فأقيموا عندي أياماً أستأنس بحديثكم، وأشاوركم فيما أريد من هذا البناء فأقاموا عنده أياماً يلهون ويلعبون ويشاورهم كيف يبني وكيف يصنع ويرتب ذلك فبينما هم ذات ليلة في لهوهم إذ سمعوا قائلاً من أقصى الدار يقول:

يا أيها الباني الناسي لميتته　　　لا تأمنن فإن الموت مكتوب
هذي الخلائق إن سروا وإن فرحوا　　　فالموت حتف لدى الآمال منصوب
لا تبنين دياراً لست تسكنها　　　وراجع النسك كيما يغفر الحوب

ففزع لذلك وفزع أصحابه فزعاً شديداً وراعهم فقال هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم قال: فهل تجدون ما أجد؟ قالوا: وما تجد قال: مسكة على فؤادي وما أراها إلا علة الموت، فقالوا: كلا بل البقاء والعافية، فبكى ثم أمر بالشراب فأهريق وبالملاهي فأخرجت، أو قال فكسرت وتاب إلى الله سبحانه ولم يزل يقول الموت الموت حتى خرجت نفسه رحمه الله. قال السعدي:

خواجه دربند نقش ايوانست　　　خانه از پاى بست ويرانست

وقال:

آنكه قرارش نكرفتى وخواب　　　تاكل ونسرين نفشاندى نخست
كردش كيتى كل رويش بريخت　　　خاربنان بر سرخا كش برست

والإشارة ﴿ولكل أمة أجل﴾ أي: لكل قوم من السائرين إلى الله وإلى الجنة وإلى النار مدة معلومة ومهلة موقتة. ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ مدتهم كما قدر الله في الأزل ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ هذا وعد للأولياء استمالة لقلوبهم ووعيد للأعداء سياسة لنفوسهم كذا في «التأويلات النجمية».

﴿يا بني آدم﴾ خطاب لكافة الناس ﴿إما﴾ أصله إن ما ضمت كلمة ما إلى إن الشرطية تأكيداً لما فيها من معنى الشرط. ﴿يأتينكم رسل﴾ كائنون ﴿منكم﴾ أي: من جنسكم فهو صفة لرسل ﴿يقصون عليكم آياتي﴾ صفة أخرى لرسل، أي: يبينون لكم أحكامي وشرائعي ومقتضى الظاهر كلمة إذا بدل إن لكون الإتيان محقق الوقوع في علم الله تعالى لكنه سيق المعلوم مساق المشكوك للتنبيه على أن إرسال الرسل أمر جائز لا واجب عقلاً، حتى لا يقدر على عدم إرساله؛ ولا واجب شرعاً حتى يأثم بترك إرساله لأنه لا يجب على الله شيء لا عقلاً ولا شرعاً

لكن مقتضى الحكمة إرسال الرسل لما فيه من الحكم والمصالح. ﴿فمن﴾ شرطية بالفارسية [پس هركه] ﴿اتقى﴾ منكم التكذيب. ﴿وأصلح﴾ عمله وأطاع رسوله الذي يقص آياته. ﴿فلا خوف عليهم﴾ أي: لا يخافون ما يلحق العصاة في المستقبل. ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم في الدنيا لاستغراقهم في الاستلذاذ بما أعد للمتقين في دار الكرامة والرضوان.

﴿والذين كذبوا﴾ منكم ﴿بآياتنا﴾ يعني: [تكذيب رسل كردند]. ﴿واستكبروا﴾ [وكبر آوردند وتعظم كردند يعني سركشى نمودند] ﴿عنها﴾ [ازايمان بدلائل وحدت ما]. ﴿أولئك أصحاب النار﴾ [ملازمان آتش اند] ﴿هم فيها خالدون﴾ [باقى اند ببقاء ابدى].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فمن أظلم﴾ أي: فمن أعظم ظلماً، أي لا أحد ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾ أي: ممن تقول عليه ما لم يقل ويدخل في التقول عليه إثبات الشريك والصاحبة والولد. ﴿أو كذب بآياته﴾ أي: كذب ما قاله وقد جعل الله الكذب عليه والتكذيب بآياته مساوياً في الإثم حيث قال: ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الافتراء والتكذيب ﴿ينالهم﴾ [برسد بديشان] ﴿نصيبهم﴾ كائناً ﴿من الكتاب﴾ أي: مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار. ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾ أي: ملك الموت وأعوانه ﴿يتوفونهم﴾ أي: حال كونهم متوفين لأرواحهم قابضين لها وحتى، وإن كانت هي التي يبتدأ بها الكلام لكنها غاية لما قبلها من الفعل، أي ينالهم نصيبهم من الكتاب إلى أن تأتيهم ملائكة الموت فإذا جاءتهم ﴿قالوا﴾ توبيخاً لهم ﴿أينما كنتم تدعون من دون الله﴾ أي: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا، وما وصلت بأين في خط المصحف وحقها الفصل لأنها موصولة ﴿قالوا﴾ أي: الكفار ﴿ضلوا عنا﴾ أي: غابوا عنا أي لا ندري مكانهم ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ عطف على قالوا أي اعترفوا على أنفسهم. ﴿أنهم كانوا﴾ أي: في الدنيا ﴿كافرين﴾ أي عابدين لمن لا يستحق العبادة أصلاً حيث شاهدوا مآله وضلاله ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] لاحتمال ذلك من طوائف مختلفة أو في أوقات مختلفة.

وفي الإرشاد: ولعله قصد بيان غاية سرعة وقوع البعث والجزاء كأنهما حاصلان عند ابتداء التوفي كما ينبىء عنه قوله عليه السلام: «من مات فقد قامت قيامته» وإلا فهذا السؤال والجواب وما يترتب عليهما من الأمر بدخول النار، وما جرى بين أهلها من التلاعن والتقاول إنما يكون بعد البعث لا محالة. ﴿قال﴾ الله تعالى لهم يوم القيامة أو أحد من الملائكة ﴿ادخلوا في أمم﴾ أي: كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم ﴿قد خلت﴾ أي مضت ﴿من قبلكم من الجن والإنس﴾ يعني كفار الأمم الماضية من النوعين ﴿في النار﴾ متعلق بقوله: (ادخلوا) وإنما قدم الجن على الإنس لتقدمهم عليهم في الخلقة وذلك أن الله تعالى لما خلق الجن، فمنهم مؤمن ومنهم كافر، فلما استولى أهل الكفر منهم على أهل الإيمان حتى استأصلوهم بعث الله

إليهم جنداً من الملائكة كان رئيسهم إبليس فسلطهم الله عليهم حتى أهلكوا جميعهم، ثم خلق الله آدم بعدهم فخلق منه ذريته فمنهم كافر كقابيل، ومنهم مؤمن كهابيل إذ كان في كل زمان منهم أمة كافرة مستحقة لدخول النار، وأمة مؤمنة مستحقة لدخول الجنة حتى الآن إلى انقراض العالم كما قال عليه السلام: «لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول الله الله». ﴿كلما دخلت أمة﴾ من الأمم السابقة واللاحقة، أي: في النار. ﴿لعنت أختها﴾ التي ضلت بالاقتداء بها فلعنت المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى والمجوس المجوس وعلى هذا القياس، ويلعن الأتباع القادة يقولون لعنكم الله أنتم غررتمونا، فالمراد الأخت في الدين والملة ولم يقل أخاها لأنه أراد الأمة والجماعة. ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً﴾ غاية لما قبلها، والمعنى: أنهم يدخلونها فوجاً فوجاً لاعناً بعضهم بعضاً إلى انتهاء تداركهم وتلاحقهم في النار واجتماعهم فيها وأصل اداركوا تداركوا أدغمت التاء في الدال فاجتلبت همزة الوصل ﴿قالت أخراهم﴾ أي: دخولاً وهم الأتباع وأخرى ههنا بمعنى آخرة مؤنث آخر مقابل أول لا مؤنث آخر بمعنى غير كقوله تعالى: ﴿ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ﴿لأولاهم﴾ أي: لأجل أولاهم إذ الخطاب مع الله تعالى. ﴿ربنا هؤلاء أضلونا﴾ أي: سنوا لنا الضلال عن الهدى بإلقاء الشبهة علينا فاقتدينا بهم. ﴿فآتهم عذاباً ضعفاً﴾ أي: مضاعفاً ﴿من النار﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿قال﴾ الله ﴿لكل﴾ من الأولين والآخرين ﴿ضعف﴾ أما القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم فليس المراد تضعيف ما يستحق كل واحد من العذاب لأنه ظلم بل تضعيفه عذاب الضلال بأن يضم إليه عذاب الإضلال والتقليد ﴿ولكن لا تعلمون﴾ ما لكم وما لكل فريق من العذاب.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وقالت أولاهم﴾ أي: مخاطبين ﴿لأخراهم﴾ حين سمعوا جواب الله لهم. ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ من حيث الاجتناب عن الكفر والضلال فكيف تطمعون أن يكون عذابكم أخف من عذابنا، ويكون عذابنا ضعف عذابكم والحال أنا ما ألجأناكم على الكفر، بل كفرتم لكون الكفر موافقاً لهواكم. ﴿فذوقوا العذاب﴾ المعهود المضاعف وهو قول القادة على سبيل التشفي. ﴿بما كنتم تكسبون﴾ [بسبب آنكه بوديدكه كسب مى كرديد از كفر اكنون أحواله عذاب بديكرى ميكنيد].

جمله داندداين اكرتونكروى هرچه مى كاريش روزى بدروى

واعلم: أن الكفار أهل الإنكار أعرضوا عن إرشاد الأخبار واكتسبوا سنناً سيئة وذهلوا عن السنن الحسنة التي سنتها الأنبياء العظام، والأولياء الكرام، ثم آل أمرهم إلى الاعتراف بجرائمهم وضلالهم حين لا ينفع الإقرار.

فعلى العاقل تدارك الحال قبل حلول الآجال، وفي الحديث: «جددوا إيمانكم» والمراد الانتقال من مرتبة إلى مرتبة فإن أصل الإيمان، قد تم بالأول ولكن الإيمان على ثماني عشرة مرتبة فالعناية من الله تعالى. وفي «المثنوي»:

تازه كن ايمان نه ازقول زبان اى هوارا تازه كرده درنهان
تاهواتازه است وايمان تازه نيست كين هو اجز قفل آن دروازه نيست

فالله تعالى دعا الخلق إلى الإيمان بواسطة الأنبياء عليهم السلام، فمن أجاب اهتدى إلى طريق الجنة ومن لم يجب سقط في النار.

قيل: إنما خلق الله النار لغلبة شفقته وموالاته كرجل يضيف الناس، ويقول من جاء إلى ضيافتي أكرمته ومن لم يجىء ليس عليه شيء، ويقول مضيف آخر من جاء إليّ أكرمته ومن لم يجىء ضربته وحبسته ليبين غاية كرمه وهو آكد وأتم من الإكرام الأول.

قال بعضهم: نار جهنم خير من وجه وشر من وجه كنار نمرود شر في أعينهم وبرد وسلام على إبراهيم، كالسوط في يد الحاكم السوط خير للطاغي، وشر للمطيع فمن أراد أن يسلم من عذاب النار فعليه بطريق الأخيار.

وكان المولى جلال الدين قدس سره: يعظ يوماً لأهل قرامان، ويحكي أن من كان عاصياً ومات قبل التوبة من العصيان، فإنه يدخل النار بعدله تعالى فبعد احتراقه بقدر خطاه يخرجه الله تعالى منها ويعتقه ويدخله الجنة، فقال شخص كان في ذلك المجلس ليت هذا حصل قبل أن يهدم عرض المرء وينكسر، فادع الله تعالى أيها المولى حتى يشرفنا بالجنة قبل انكسار الاعراض نسأل الله تعالى أن يعاملنا بلطفه وكرمه إنه ولي الهداية والتوفيق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إن الذين كذبوا بآياتنا﴾ وهي الحجج الدالة على أصول الدين من التوحيد ونبوة الأنبياء والبعث والجزاء. ﴿واستكبروا عنها﴾ أي: تعظموا وترفعوا عن الإيمان بها والعمل بمقتضاها وهم الكفار. ﴿لا تفتَّح﴾ التشديد لكثرة الأبواب. ﴿لهم أبواب السماء﴾ أي: لا تقبل أدعيتهم ولا أعمالهم أو لا تعرج إليها أرواحهم كما هو شأن أدعية المؤمنين وأعمالهم وأرواحهم، وفي الحديث: «إن روح المؤمن يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب إلى أن تنتهي إلى السماء السابعة، ويستفتح لروح الكافر، فيقال لها: ارجعي ذميمة فيهوي بها إلى سجّين» وهو مقر إبليس الأبالسة تحت الأرض السابعة، فالأرواح كلها سعيدها وشقيها متصلة بأجسادها فتعذب الأرواح وتتألم الأجساد منه كالشمس في السماء ونورها في الأرض.

واعلم: أن أرواح العصاة من المؤمنين تكون بين السماء والأرض بعضها في الهواء وبعضها في أفنية القبور إلى سبعة أيام إلى سنة إلى غير ذلك من الزمان حتى تصعد وتتخلص بدعوات الأحياء وأمداد الحسنات وتصل إلى المقر السماوي الدنيوي. ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ أي: حتى يدخل ما هو مثل في عظم الجرم وهو البعير في ما هو مثل في ضيق المسلك وهو ثقب الإبرة وذلك مما لا يكون فكذا ما توقف عليه. [هر كارى موقوف محالست محالست].

والعرب إذا أرادت تأكيد النفي علقته بما يستحيل كونه كما قال الشاعر:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي ... وصار القار كاللبن الحليب

والجمل: زوج الناقة وإنما يسمى جملاً إذا أربع، أي إذا دخل في السنة السابعة، فإنه يقال له في السنة السابعة رباع وللأنثى رباعية بالتخفيف. والخياط: ما يخاط به فسم الخياط بالفارسية [سوراخ سوزن]، وقرىء الجمل بضم الجيم وتشديد الميم، وهو الحبل الغليظ من القنب أو حبل السفينة التي يقال له القلس، وهي حبال مجموعة مفتولة. ﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع وهو الحرمان من الجنة. ﴿نجزي المجرمين﴾ أي: جنس المجرمين فدخلوا في زمرتهم دخولاً أولياً ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ من جهنم حال من مهاد ومعناه فراش من النار يضطجعون ويقعدون فيه. ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أي: أغطية جمع غاشية وهو ما يغشي الشيء ويستره، ومعنى الآية الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب حيث كانت غطاء لهم ووطاء وفي الحديث: «الكافر يكسى لوحين من نار في قبره». ﴿وكذلك﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الشديد وهو التعذيب بالنار. ﴿نجزي الظالمين﴾ ولما كان التعذيب المؤبد بنار جهنم أشد العقوبات دل ذكر الظلم معه على أنه أعظم الأجرام.

واعلم أن فوت النعيم أيسر من مقاساة الجحيم والمصيبة العظمى هي الخلود.

وذكر عند الحسن البصري: أن آخر من خرج من النار رجل يقال له: هناد عذب ألف عام، ينادي يا حنان ويا منان فبكى الحسن، وقال: ليتني كنت هناداً فتعجبوا منه، فقال: ويحكم أليس يوماً يخرج.

والإشارة ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا﴾ وهي السنن الحسنة المنزلة على الأنبياء وما أظهره الله تعالى على يد الأولياء من الكرامات والعلوم اللدنية فأنكروها. ﴿واستكبروا عنها﴾ أي: تكبروا عن قبولها والإيمان بها. ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ أي: أبواب سماء القلوب إلى الحضرة. ﴿ولا يدخلون الجنة﴾ أي: جنة القربة والوصلة. ﴿حتى يلج الجمل﴾ أي: جمل النفس المتكبرة. ﴿في سم الخياط﴾ وهو مدخل الطريقة التي بها تربى النفوس الأمارة وتزكى لتصير مطمئنة فتستحق بها خطاب ارجعي إلى ربك، فالمعنى: أن النفس المتكبرة لما صارت كالجمل لتكبرها لا تصلح لدخول جنة الحقيقة إلا بعد تزكيتها بأحكام الشريعة وآداب الطريقة، حتى تصير بالتربية في إزالة الصفات الذميمة، وقطع تعلقات ما سوى الله تعالى أدق من الشعر بألف مرة، فيلج في سم خياط الفناء فيدخل الجنة جنة البقاء فافهم جداً. ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ الذين أجرموا على أنفسهم الضعيفة اللطيفة حتى صارت من الأوزار كالجمل بأن نجعل ﴿لهم من جهنم﴾ المجاهدة والرياضة فراشاً، وهو قوله: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ يعني: من مخالفة النفس وقمع الهوى يكون فراشهم ولحافهم حتى تحيط بهم فتذيبهم وتحرق منهم أنانيتهم مع أثقال أوزارهم ليستحقوا دخول الجنة. ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ يعني: بهذه الطريقة نضع عنهم أوزارهم ونرد مظالمهم في الدنيا ليردوا القيامة مستعدين لدخول الجنة، ومن لم نجزه في الدنيا بهذه الطريقة فنجزه في الآخرة، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١] في الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١] فيه كذا في «التأويلات النجمية»: فالمجاهدة وسلوك طريق التصفية من دأب الأخيار.

ذكر عن إبراهيم بن أدهم أنه لما أراد أن يدخل البادية أتاه الشيطان فخوفه أن هذه بادية مهلكة، ولا زاد معك ولا مركب فعزم على نفسه رحمه الله أن يقطع البادية على تجرده ذلك

وأن لا يقطعها حتى يصلي تحت كل ميل من أميالها ألف ركعة، وقام بما عزم عليه وبقي في البادية اثنتي عشرة سنة حتى أن الرشيد حج في بعض تلك السنين فرآه تحت ميل يصلي فقيل له هذا إبراهيم بن أدهم، فأتاه فقال كيف نجدك يا أبا إسحاق؟ فأنشد إبراهيم بن أدهم يقول:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فطوبى لعبد آثر الله ربه ... وجاء بدنياه لما يتوقع

قال الحافظ:

دع التكاسل تغنم فقد جرى مثل ... كه زاد رهروان چستيست وچالاكى

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّلِحَتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَرُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَنَا اللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿والذين آمنوا﴾ بالآيات. **﴿وعملوا الصالحات﴾** أي: الأعمال الصالحات التي شرعت بالآيات وهي ما أريد به وجه الله تعالى. **﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾** أي: طاقتها وقدرتها هو اعتراض بين المبتدأ والخبر للدلالة على أن استحقاق الخلود في النعيم المقيم بسبب اتصافهم بالإيمان والعمل الصالح على حسب ما تسعه طاقتهم، وإن لم يبذلوا مجهودهم فيه، **﴿أولئك أصحاب الجنة﴾** [ملازمان بهشت اند] **﴿هم فيها خالدون﴾** حال من أصحاب الجنة.

﴿ونزعنا﴾ النزع قلع الشيء عن مكانه. **﴿ما في صدورهم﴾** قلوبهم **﴿من غل﴾** وهو الحقد الكامن والبغض المختفي في الصدور، أي: تخرج من قلوبهم أسباب الحقد الذي كان لبعضهم في حق بعض في الدنيا، فإن ذلك الحقد إنما نشأ من التعلق بالدنيا وما فيها، وبانقطاع تلك العلاقة انتهى ما يتفرع عليه من الحقد ومن جملة أسبابه أيضاً أن الشيطان كان يلقي الوساوس إلى قلوب بني آدم في الدنيا، وقد انقطع ذلك في الآخرة بسبب أن الشيطان لما استغرق في عذاب النيران لم يتفرغ لإلقاء الوسوسة في قلب الإنسان، ويجوز أن يكون المراد تطهر قلوبهم من الغل نفسه حتى لا يكون بينهم إلا التواد، يعني: لا يحسد بعض أهل الجنة بعضاً إذا رآه أرفع درجة منه ولا يغتم بسبب حرمانه من الدرجات الرفيعة العالية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وابن مسعود وعمار بن ياسر وسلمان وأبي ذر، ينزع الله في الآخرة ما كان في قلوبهم من غش بعضهم لبعض في الدنيا من العداوة والقتل الذي كان بعد رسول الله ﷺ، والأمر الذي اختلفوا فيه فيدخلون إخواناً على سرر متقابلين.

پاك وصافى شو وازچاه طبيعت بدرآى ... كه صفايى ندهد آب تراب آلوده

﴿تجري من تحتهم﴾ أي من تحت شجرهم وغرفهم **﴿الأنهار﴾** زيادة في لذتهم وسرورهم **﴿وقالوا﴾** أي: أهل الجنة إذا رأوا منازلهم. **﴿الحمد لله الذي هدانا﴾** بفضله **﴿لهذا﴾** أي: لدين وعمل جزاؤه هذا **﴿وما كنا لنهتدي﴾** أي: لهذا المطلب الأعلى **﴿لولا أن هدانا الله﴾** ووفقنا له:

كر بدرقهٔ لطف تو ننمايد راه ... ازراه تو هيچكس نكردد آكاه

آنكه كه بره رسند وبايد رفتن   توفيق رفيق نشد واو يلاه

روي عن السدي أنه قال في هذه الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غل وهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعده أبداً، والشعث انتشار شعر الرأس، والأشعث: مغبر الرأس، ويقال شحب جسمه يشحب بالضم إذا تغير وشربوا واغتسلوا ويبشرهم خزنة الجنة قبل أن يدخلوها بأن يقولوا لهم: **﴿أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾** فإذا دخلوها واستقروا في منازلهم منها قالوا **﴿الحمد لله﴾** الآية.

واعلم: أن الغل ظلمة الصفات البشرية وكدورتها وطهارة القلوب بنور الإيمان والأرواح بماء العرفان والأسرار بشراب طهور تجلي صفات الجمال، وليس في صدور أهل الحقيقة من غل وغش أصلاً لا في الدنيا ولا في العقبى. **﴿لقد جاءت رسل ربنا﴾** جواب قسم مقدر أي والله لقد جاؤوا **﴿بالحق﴾** فالباء للتعدية، أو لقد جاؤوا ملتبسين بالحق فهي للملابسة يقوله: أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عياناً واستقروا فيه إظهاراً لكمال نشاطهم وسرورهم.

قال الحدادي: شهادة منهم بتبليغ الرسل للحق إليهم، أي جاؤوا بالصدق فصدقناهم **﴿ونودوا أن تلكم الجنة﴾** يعني: أن الملائكة ينادونهم حين رأى المؤمنون الجنة من بعيد بأن يقولوا لهم: إن تلك التي رأيتموها هي الجنة التي وعدتم بها في الدنيا فإن مفسرة أو مخففة وتلك مبتدأ أشير به إلى ما رأوه من بعيد والجنة خبره واللام فيها للعهد **﴿أورثتموها﴾** أي: أعطيتموها والجملة حال من الجنة. **﴿بما كنتم تعملون﴾** في الدنيا من الأعمال الصالحة أي بسبب أعمالكم.

فإن قيل: هذه الآية تدل على أن العبد يدخل الجنة بعمله، وقد قال عليه السلام: «لن يدخل الجنة أحدكم بعمله وإنما تدخلونها برحمة الله تعالى وفضله» فما وجه التوفيق بينهما.

أجيب: بأن العمل لا يوجب دخول الجنة لذاته وإنما يوجبه من حيث إنه تعالى وعد للعاملين أن يتفضل بها بمحض رحمته وكمال فضله وإحسانه ولمّا كان الوعد بالتفضل في حق العاملين بمقابلة عملهم كان العمل بمنزلة السبب المؤدي إليها فلذلك قيل أورثتموها بأعمالكم كذا في «حواشي ابن الشيخ» وفي الخبر أنه يقال لهم يوم القيامة «جوزوا الصراط بعفوي وادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم»، وهي جنة الأعمال وهي التي ينزل الناس فيها بأعمالهم فمن كان أفضل من غيره في وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر سواء كان الفاضل بهذه الحالة دون المفضول، أو لم يكن فما من عمل إلا وله جنة يقع التفاضل فيها بين أصحابها ورد في الحديث الصحيح عن النبي عليه السلام أنه قال لبلال يا بلال: «بِمَ سبقتني إلى الجنة؟ فما وطئت منها موضعاً إلا سمعت خشخشتك» فقال يا رسول الله: ما أحدثت قط إلا توضأت وما توضأت إلا صليت ركعتين فقال عليه السلام: «بهما» فعلمنا أنها كانت مخصوصة بهذا العمل فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير ولا ترك محرم ومكروه إلا وله جنة مخصوصة ونعيم خاص يناله من دخلها.

والتفاضل على مراتب: فمنها بالسنّ: ولكن في الطاعة والإسلام فيفضل الكبير السنّ على الصغير السنّ إذا كانا على مرتبة واحدة من العمل، ومنها بالزمان فإن العمل في رمضان

وفي يوم الجمعة وفي ليلة القدر وفي عشر ذي الحجة وفي عاشوراء أعظم من سائر الزمان، ومنها بالمكان: فالصلاة في المسجد الحرام أفضل منها في مسجد المدينة وهي من الصلاة في المسجد الأقصى وهي منها في سائر المساجد، ومنهما بالأحوال: فإن الصلاة بالجماعة أفضل من صلاة الشخص وحده، ومنها بنفس الأعمال: فإن الصلاة أفضل من إماطة الأذى ومنها في العمل الواحد فالمتصدق على رحمه صاحب صلة رحم وصدقة، وكذا من أهدى هدية لشريف من أهل البيت أفضل ممن أهدى لغيره أو أحسن إليه، ومن الناس من يجمع في الزمن الواحد أعمالاً كثيرة فيصرف سمعه وبصره ويده فيما يبتغي في زمان صومه وصدقته بل في زمان صلاته في زمان ذكره في زمان نيته من فعل وترك فيؤجر في الزمن الواحد من وجوه كثيرة فيفضل غيره ممن ليس له ذلك.

ومن الجنات جنة اختصاص إلهي: وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حد العمل وحدّه من أول ما يولد، أي: يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام ويعطي الله من شاء من عباده من جنات الاختصاص ما شاء، ومن أهلها المجانين الذين ما عقلوا، ومن أهلها أهل التوحيد العلمي، ومن أهلها أهل الفترات ومن لم يصل إليهم دعوة رسول.

ومن الجنات جنة ميراث: ينالها كل من دخل الجنة ممن ذكرنا ومن المؤمنين وهي الأماكن التي كانت معينة لأهل النار لو دخلوها وفي الحديث: «كل من أهل النار يرى منزله في الجنة، فيقولون لو هدانا الله، فيكون عليهم حسرة، وكل من أهل الجنة يرى منزله في النار، فيقولون لولا أن الله هدانا».

واعلم: أن الجنة صورية ومعنوية صورية محسوسة مؤجلة ومعنوية معقولة معجلة وأهلها أهل الفناء في الله والبقاء بالله: قال الحافظ:

جنت نقدست اين جا عشرت وعيش وحضور

زانكه درجنت خدا بربنده ننويسد كناه

اللهم شرفنا بالجنان إنك أنت المنان.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ سروراً بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيراً لهم لا لمجرد الإخبار بحالهم والاستخبار عن حال مخاطبهم، ووجه تيسر المناداة والمكالمة بين أهل الجنة وأهل النار مع أن بعد ما بين الجنة والنار لا يعلم مقداره إلا الله تعالى؛ إذ كل درجة من درجات الجنان يقابلها دركة من دركات النيران، فأي درجة فيها العامل بسبب عمله يستحق تارك ذلك العمل بسبب تركه إياه دركة من دركات الجحيم فيكون أهل الدرجة مشرفاً على أهل الدركة التي تقابلها، كما قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات: ٥٥] فأمكن لهم تقريع أهل النار وتحسيرهم بقولهم: ﴿أن﴾ تفسيرية للمنادى له لأن النداء في معنى القول أو مخففة. ﴿قد وجدنا ما وعدنا ربنا﴾ من الثواب والكرامة ﴿حقاً﴾ بالفارسية [راست

ودرست] ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم﴾ من العذاب، والوعد يستعمل في الخير والشر، ﴿حقاً﴾ حذف المفعول من الفعل الثاني حيث لم يقل ما وعدكم كما قال: ما وعدنا إسقاطاً لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد. ﴿قالوا نعم﴾ أي: وجدناه حقاً فاعترفوا في وقت لا ينفعهم الاعتراف: ولذا قيل:

كنون بايد اي خفته بيدار بود چو مرك اندر آرد زخوابت چه سود
تو پيش از عقوبت در عفو كوب كه سودى ندارد فغان زير چوب

﴿فأذن﴾ [پس آواز دهد] ﴿مؤذن﴾ [آواز دهنده] وهو ملك ينادي من قبل الله تعالى نداء يسمعه كل واحد من أهل الجنة وأهل النار، وقيل: هو صاحب الصور، أي: إسرافيل عليه السلام. ﴿بينهم﴾ منصوب بأذن أي أوقع ذلك الأذان بين الفريقين أي في وسطهم. ﴿أن﴾ تفسيرية لأن التأذين في معنى القول أو مخففة ﴿لعنة الله﴾ استقرت ﴿على الظالمين﴾ أي: على الكافرين دون المؤمنين؛ لأن الظلم إذا ذكر مطلقاً يصرف إلى الكمال، وكمال الظلم هو الشرك وهو إخبار، وقيل: هو ابتداء لعن منه عليهم.

﴿الذين يصدون﴾ يعرضون فهو لازم لأن جعله متعدياً بمعنى يمنعون الناس محوج إلى تقدير المفعول ولا يصار إليه من غير ضرورة. ﴿عن سبيل الله﴾ أي عن الدين الذي هو طريق الله إلى جنته، والسبيل الطريق وما وضح منه كذا في «القاموس»: ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي: يبغون لها عوجاً بأن يصفوها بالزيغ والميل عن الحق وهي أبعد شيء منهما. ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ جاحدون بالبعث بعد الموت فلما كان الظالمين بمعنى الكافرين كانت الأوصاف الجارية عليه من قبيل الصفات المؤكدة، فإن الظالم وصف في الآية بثلاث صفات مختصة بالكفار، الأولى: كونهم صادين معرضين عن سبيل الله، والثانية: كونهم طالبين إمالة سبيل الله ودينه الحق وتغييره إلى الباطل بإلقاء الشكوك والشبهات في دلائل حقيته، والثالثة: كونهم منكرين للآخرة مختصين بهذا الوصف وكل واحدة من هذه الصفات الثلاث مقررة لظلمهم بمعنى الكفر.

والإشارة ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾ أي: أرباب المحبة ﴿أصحاب النار﴾ يعني: نار القطيعة ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا﴾ أي فيما قال «ألا من طلبني وجدني» ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً﴾ أي فيما قال: «ومن يطلب غيري لم يجدني» ﴿قالوا نعم﴾ فأجابوهم بلى وجدناه حقاً ﴿فأذن مؤذن﴾ العزة والعظمة بينهم ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ الذين وضعوا استعداد الطلب في غير موضع مطلبه وصرفوه في غير مصرفه. ﴿الذين يصدون﴾ أي: وهم الذين يصدون القلب والروح. ﴿عن سبيل الله﴾ وطلبه. ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي: يصرفون وجوههم إلى الدنيا وما فيها ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ أي: وهم ينكرون على أهل المحبة فيما يطلبون مما تأخر من حسهم وهم يطلبون ما يدركون بالحواس الظاهرة دون ما في الآخرة كذا في «التأويلات النجمية» فالناس على مراتب بحسب إقرارهم وإنكارهم وسلوكهم وقِعودهم. وفي «المثنوي»:

كودكان كرچه بيك مكتب درند در سبق هريك زيك بالاترند
خود ملائك نيز تاهمتا بدند زين سبب بر آسمان صف صف شدند

فعلى السالك الاجتهاد في طلب الحق إلى ظهور كنز الحقيقة فإن المطلب الأعلى عند من يميز النقد الجيد من النبهرج والزيوف.

وعن ذي النون رضي الله عنه قال: أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام يا موسى كن كالطير الوحداني يأكل من رؤوس الأشجار ويشرب الماء القراح، أو قال من الأنهار إذا جنه الليل أوى إلى كهف من الكهوف استئناساً بي واستيحاشاً ممن عصاني يا موسى إني آليت على نفسي أن لا أتم لمدعي عملاً، ولأقطعن أمل من أمل غيري ولأقصمنّ من استند إلى سواي ولأطيلن وحشة من أنس بغيري ولأعرضن عمن أحب حبيباً سواي يا موسى إن لي عباداً إن ناجوني أصغيت إليهم وإن نادوني أقبلت عليهم، وإن أقبلوا عليّ أدنيتهم وإن دنوا مني قربتهم وإن تقربوا مني كفيتهم وإن والوني واليتهم وإن صافوني صافيتهم، وإن عملوا إليّ جازيتهم أنا مدبر أمرهم وسائسُ قلوبهم ومتولي أحوالهم لم أجعل لقلوبهم راحة في شيء إلا في ذكري فهؤلاء سقامهم شفاء وعلى قلوبهم ضياء لا يستأنسون إلا بي، ولا يحطون رحال قلوبهم إلا عندي ولا يستقر بهم قرار في الإيواء إلا إليّ.

﴿وبينهما﴾ أي بين الفريقين أو بين الجنة والنار ﴿حجاب﴾ كسور المدينة حتى لا يقدر أهل النار أن يخرجوا إلى الجنة ولئلا يتأذى أهل الجنة بالنار ولا يتنعم أهل النار بنعيم الجنة لأن الحجاب المضروب بينهما يمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى؛ لأنه قد جاء «أن الحور العين لو نظرت واحدة منهن إلى الدنيا نظرة لامتلأت الدنيا من ضوئها وعطرها» وجاء في وصف النار «أن شرارة منها لو وقعت في الدنيا لأحرقتها».

قال الحدادي: فإن قيل كيف يصح هذا التأويل في الحجاب بين الجنة والنار ومعلوم أن الجنة في السماء والنار في الأرض، قيل: لم يبين الله حال الحجاب المذكور في الآية ولا قدر المسافة فلا يمتنع أن يكون بين الجنة والنار حجاب وإن بعدت المسافة. ﴿وعلى الأعراف﴾ أي: أعراف ذلك الحجاب، أي أعاليه وهو السور المضروب بينها قيل هو جبل أحد يوضع هناك جمع عرف وهو كل عال مرتفع ومنه عرف الديك والفرس سمي عرفاً؛ لأنه بسبب ارتفاعه يكون أعرف مما انخفض منه. ﴿رجال﴾ طائفة من المؤمنين تساوت حسناتهم وسيئاتهم فهم ينظرون إلى النار وينظرون إلى الجنة وما لهم رجحان بما يدخلهم إحدى الدارين، فإذا دعوا إلى السجود وهو الذي يبقى يوم القيامة من التكليف يسجدون فيرجح ميزان حسناتهم فيدخلون الجنة وهو أحد الأقوال في تعيين أصحاب الأعراف وسيجيء الباقي. ﴿يعرفون﴾ صفة رجال ﴿كلا﴾ أي: كل فريق من أصحاب الجنة وأصحاب النار ﴿بسيماهم﴾ أي بسبب علاماتهم التي أعلمهم الله بها كبياض الوجه وسواده وهذا في العرصات قبل دخول الجنة والنار، فإن المعرفة بعد الدخول تحصل بالمشاهدة والإحساس ولا يحتاج إلى الاستدلال بسيماهم، وأما النداء والصرف والإتيان فبعد الدخول: ﴿ونادوا﴾ أي: الرجال وهو صفة ثانية لرجال عدل إلى لفظ الماضي تنزيلاً للنداء منزلة الواقع ﴿أصحاب الجنة أن﴾ تفسيرية أو مخففة ﴿سلام عليكم﴾ يعني: إذا نظروا إليهم سلموا عليهم سلام التحية والإكرام وبشروهم بالسلامة من جميع المكاره والآفات. ﴿لم يدخلوها﴾ حال من فاعل نادوا أي نادوا حال كونهم لم يدخلوها. ﴿وهم يطمعون﴾ أي: والحال أنهم طامعون في دخولها حال من فاعل يدخلوها أي نادوهم، وهم لم يدخلوها حال كونهم طامعين في دخولها مترقبين له، أي: لم يدخلوها وهم في وقت عدم الدخول طامعين وسبب طمعهم أنهم من أهل لا إله إلا الله ولا يرونها في ميزانهم ويعلمون أن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة ولو جيء بذرة لإحدى الكفتين لرجحت بها؛

لأنها في غاية الاعتدال فيطمعون في كرم الله وعدله وأنه لا بد أن يكون لكلمة لا إله إلا الله عناية بصاحبها، فيظهر لها أثر عليهم فيقفون هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء ثم يدخلهم الجنة برحمته، وهم آخر من يدخل الجنة وإذا أراد الله أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قضب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، ثم يؤتى بهم فيدخلون الجنة ويسمون مساكين أهل الجنة. قال الحافظ:

هست اميدم على رغم عدو روز جزا   فيض عفوش ننهد باركنه بر دوشم

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ أي: إلى جهنم وفي عدم التعرض لتعلق أنظارهم بأصحاب الجنة، والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف إشعار بأن التعلق الأول بطريق الرغبة والميل والثاني بخلافه.

وفي «تفسير الزاهدي»: إن الملك يصرف أبصارهم إليهم بأمر الله تعالى ﴿قالوا﴾ متعوذين بالله تعالى من سوء حالهم ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ أي: في النار أي يدعون بذلك خوفاً من الله تعالى لأجل معاصيهم.

والقول الثاني: في تعيين أصحاب الأعراف أنهم الأنبياء أجلسهم الله على أعالي ذلك السور تمييزاً لهم عن سائر أهل القيامة ليكونوا مشرفين على أهل الجنة، وأهل النار مطلعين على أحوالهم ومقادير ثوابهم وعقابهم شاهدين على أممهم، وعلى هذا فقوله: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ حال من مفعول نادوا وهو أصحاب الجنة؛ لأن طمع دخول الجنة لا يليق بأشراف أهل الموقف، أي نادى أشراف أهل الموقف وهم على الأعراف أصحاب الجنة حال كون أصحابها لم يدخلوها وهم طامعون في دخولها، وكذا التقدير في سائر الوجوه الآتية المرادة بها أهل الدرجات العالية.

والقول الثالث: هم الشهداء الذين يميزون من بين أهل الموقف بالاستحقاق لمزيد التعظيم والإجلاس في أعالي السور المضروب ليشاهدوا حكم الله تعالى في أهل الموقف بمقتضى فضله وعدله.

والرابع: هم أفاضل المؤمنين فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس، وفي الحديث: «إذا جمع الخلائق يوم القيامة نادى مناد أين أهل الفضل؟ فيقوم أناس وهم يسيرون فينطلقون سراعاً إلى الجنة، فيقولون: نحن أهل الفضل فيقال لهم ما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أسيء إلينا غفرنا، وإذا جهل علينا حلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين».

والخامس: قوم صالحون فقهاء علماء، وذلك لمزيتهم على غيرهم بشرف الفقه والعلم.

والسادس: هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة.

والسابع: هم العباس وحمزة وعلي بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين رضي الله عنهم يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسواد الوجوه.

والثامن: أنهم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم

الجنة والنار عبر عنهم باسم الرجال لكونهم يرون في صورة الرجال، كما عبر به عن الجن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] لكونهم في صورة الرجال يقولون حين أشرفوا على أهل النار، ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين لأنهم مكلفون كبني آدم فلا ينكر أن يدعوا الله لأنفسهم بالأمن.

والتاسع: هم الشهداء الذين خرجوا إلى الغزو وغزوا في سبيل الله بغير إذن آبائهم فقتلوا شهداء، فأعتقوا من النار بأن قتلوا في سبيل الله واحتبسوا عن الجنة بعصيانهم آباءهم.

والعاشر: قوم رضي عنهم آباؤهم دون أمهاتهم أو أمهاتهم دون آبائهم.

والحادي عشر: أنهم أولاد الزنى.

والثاني عشر: أولاد المشركين.

والثالث عشر: هم الذين ماتوا في الفترة ولم يبدلوا دينهم وزمان الفترة هو الزمان الذي بين عيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما.

والرابع عشر: هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب في الدنيا، فوقفوا وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غم فيقع في مقابلة صغائرهم.

والخامس عشر: هم الذين ذكرهم الله في القرآن أصحاب الذنوب العظام من أهل القبلة.
روي عن بعض الصالحين أنه قال أخذتني ذات ليلة سنة فنمت فرأيت في منامي كأن القيامة قد قامت وكأن الناس يحاسبون فقوم يمضي بهم إلى الجنة، وقوم يمضي بهم إلى النار قال فأتيت إلى الجنة، فناديت يا أهل الجنة بماذا نلتم سكنى الجنان في محل الرضوان؟ فقالوا لي: بطاعة الرحمن ومخالفة الشيطان، ثم أتيت إلى باب النار فناديت يا أهل النار بماذا نلتم النار؟ قالوا بطاعة الشيطان ومخالفة الرحمن، قال: فنظرت فإذا بقوم موقوفون بين الجنة والنار فقلت: ما بالكم موقوفون بين الجنة والنار؟ فقالوا: لنا ذنوب جلّت وحسنات قلّت فالسيئات منعتنا من دخول الجنة والحسنات منعتنا من دخول النار وأنشدوا:

نحن قوم لنا ذنوب كبار ... منعتنا من الوصول إليه
تركتنا مذبذبين حيارى ... أمسكتنا عن القدوم عليه

هذا ما تيسر لي جمعه من الأقوال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

والإشارة أن بين أهل النار وأهل الجنة حجاباً وهو من أوصاف البشرية والأخلاق الذميمة النفسانية، فلا يرى أهل النار أهل الجنة من وراء ذلك الحجاب وبين أهل الجنة، وأهل الله وهم أصحاب الأعراف حجاباً وهو من الأصاف الخلقية والأخلاق الحميدة الروحانية، فلا يرى أهل الجنة أهل الله من وراء ذلك الحجاب كما قال الله تعالى: ﴿**وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم**﴾ يعني: أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة والنار بما يتوسمون في سيماهم من آثار نور القلب وظلمته، وسميت الأعراف أعرافاً لأنها مواطن أهل المعرفة وإنما سمى الله أهل المعرفة رجالاً لأنهم بالرجولية يتصرفون فيما سوى الله تصرف الرجال في النساء ولا يتصرف فيهم شيء منه كقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وحيث ما ذكر الله الخواص ذكرهم برجال كقوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾ [الأحزاب: ٢٣] وكقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ [التوبة: ١٠٨] لأن وجه الامتياز بين الخواص والعوام بالرجولية في طلب الحق وعلو الهمة فإن أصحاب الأعراف بعلو هممهم ترقوا عن حضيض

البشرية ودركات النيران وصعدوا على ذروة الروحانية ودرجات الجنان وما التفتوا إلى نعيم الدارين، وما ركنوا إلى كمالات المنزلين حتى عبروا عن المكونات وأقاموا على الأعراف وهي مرتبة فوق الجنان في حظائر القدس عند الرحمن وهم مشرفون على أهل الجنة والنار فلما رأوا أهل الجنة وأنهم في شغل فاكهون. ﴿و﴾ قد شغلوا بنعيمها عن المولى ﴿نادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم﴾ يعني هنيئاً لكم ما أنتم فيه من النعيم المقيم والحور والقصور ثم أخبر عن همة أصحاب الأعراف فقال: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ أي: شاهدوا نعيم الجنة ودرجاتها ولم يركنوا إلى شيء منها فعبروا عليها، ولم يدخلوها وهم على الأعراف يطمعون في الوصول إلى الله والدخول في الجنة التي أضافها الله تعالى إلى نفسه بقوله: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٣٠] ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ ابتلاء ليريهم أنه تعالى من أية دركة خلصهم وبأية كرامة خصهم فيعرفوا قدر ما أنعم الله عليهم به ومن هذا القبيل يكون ما سنح لأرباب الكمالات من الخواطر النفسانية وما ابتلاهم بشيء من الدنيا والجاه والقبول والاشتغال بالخلق ليعرفوا قدر العزلة والتجريد والأنس مع الله في الخلوات ففي أداء حق الشكر ورؤية النعمة. ﴿قالوا﴾ مع المنعم ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ أي: بعد أن خلصتنا من أوصافهم وأخلاقهم ودركاتهم ومما هم فيه لا تجعلنا مرة أخرى من جهتهم، ولا تدخلنا في زمرتهم كذا في «التأويلات النجمية».

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾ وهم الذين علت درجاتهم من الأنبياء وأشراف أهل الموقف وهو الأنسب بما بعد الآية؛ إذ قولهم ادخلوا الجنة لا يليق بالمقصرين في العمل ﴿رجالاً﴾ من رؤساء الكفار حين رأوهم فيما بين أصحاب النار، وهم أبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وعاص بن وائل وأضرابهم. ﴿يعرفونهم بسيماهم﴾ أي: علاماتهم الدالة على سوء حالهم حينئذٍ وعلى رياستهم في الدنيا والباء سببية. ﴿قالوا﴾ بدل من نادى أي قال أصحاب الأعراف: وهم على السور مخاطبين لرؤساء الكفار توبيخاً وشماتة ﴿ما أغنى عنكم﴾ ما استفهامية للتقريع أو نافية ومعناه على الثانية [دفع نكرد عذاب ازشما] ﴿جمعكم﴾ أي: أتباعكم وأشياعكم أو جمعكم للمال ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ ما مصدرية أي واستكباركم المستمر على الخلق [يعني استكبار شما مانع عذاب نشد].

﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ هو من تمام قول أصحاب الأعراف للرجال الذين هم رؤساء الكفرة فيكون في محل النصب بالقول المتقدم.

والإشارة إلى ضعفاء المؤمنين الذين كانت الكفرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون صريحاً أنهم لا يدخلون الجنة قوله: ﴿لا ينالهم الله برحمة﴾ جواب أقسمتم، ومعناه بالفارسية [اين كروه آنا نندكه دردنيا سوكند ميخورديدكه البته خداى هركز بديشان نرساند بخشايش خودرا]. ﴿ادخلوا الجنة﴾ أي: فالتفت أصحاب الأعراف إلى فقراء المسلمين مثل بلال وصهيب وسلمان وخباب وأمثالهم، وقالوا لهم، ادخلوا الجنة على رغم أنوف رؤساء الكفار. ﴿لا خوف عليكم﴾ حين يخاف أهل النار ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ حين يحزن أهل النار.

وفي الآية: ذم المال والاستكبار والافتخار بكثرة الخدم والأعوان والأنصار.

نه منعم بمال ازكسى بهترست خرا ارجل اطلس بپوشد خرست
بدين عقل وهمت نخوانم كست وكر ميرود صد غلام ازپست
تكبر كند مرد حشمت پرست نداند كه حشمت بحلم اندرست
چومنعم كند سفله را روزكار نهد بر دل تنك درويش بار
چوبام بلندش بود خود پرست كند بول وخاشاك بر بام پست

واعلم: أن حب المال والاستكبار من أخلاق النفس فلا بد للسالك من تزكيتها وكان من دعاء النبي عليه السلام: «اللهم حسّن خلقي وخلقي» وقد مدحه الله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] وكان عليه السلام يجالس الفقراء والمساكين ويواكلهم وكان يمر على الصبيان ويسلم عليهم وأتى رجل فارتعد من هيبته فقال: «هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد» وكان يجلس مختلطاً بأصحابه كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل وكان لا يدعوه أحد إلا قال لبيك وكل ذلك من تواضعه ﷺ.

قال ذو النون المصري: علامة السعادة حب الصالحين والدنو منهم وتلاوة القرآن وسهر الليل ومجالسة العلماء ورقة القلب.

والإشارة: أن المؤمنين والعلماء بعلم الظاهر في بعض الأوقات يقولون لأهل المحبة والمعرفة وأرباب الطلب من دناءة هممهم أن أحداً منكم لا ينال درجة الوصول ومرتبة الوصال ويقسمون على ذلك ثم يقول الله لأصحاب الأعراف. ﴿**ادخلوا الجنة**﴾ المضافة إليّ في حظائر القدس وعالم الجبروت ﴿**لا خوف عليكم**﴾ من الخروج منها. ﴿**ولا أنتم تحزنون**﴾ على ما فاتكم من نعيم الجنة إذ تفرغتم لشهود جمالنا ووجود وصالنا.

واعلم: أن أهل النار يرون أهل الله وهم أصحاب الأعراف بالصورة ما داموا في مواطن الكونين، فإذا دخلوا جنة الحقيقة المضافة إلى الله في سرادقات العزة وعالم الجبروت انقطع عنهم نظرهم ونظر الملائكة المقربين فافهم جداً.

وقد حكي عن بابا جعفر الأبهري: أنه دخل على بابا طاهر الهمذاني، فقال: أين كنت؟ فإني حضرت البارحة مع الخواص على باب الله فما رأيتك، ثم قال: بابا طاهر صدقت كنت على الباب مع الخواص وكنت داخلاً مع الأخص فما رأيتني.

فعلى السالك أن لا ينقطع عنهم وعن اعتقادهم وفي الحديث: «لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبر هم جلساء الله يوم القيامة».

حب درويشان كليد جنت است دشمن ايشان سزاى لعنت است

قال في «المثنوي» في حق حسن الظن بالفقراء:

كركدايان طامعند وزشت خو درشكم خوران توصاحب دل بجو
درتك دريا كهر يا سنكهاست فخرها اندرميان ننكهاست

ومن دعائه ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين» وحقيقة المسكين من لا شيء له غير الله تعالى وهو أهل الله وأصحاب الأعراف.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة﴾ بعد الاستقرار في الدارين **﴿أن﴾** مفسرة أو مخففة كما سبق غير مرة **﴿أفيضوا علينا﴾** أي صبوا **﴿من الماء﴾** أي: ماء الجنة حتى يطفىء عنا حرّ ما نجد من العطش وذلك أنهم لما بقوا فيها جياعاً عطاشاً، قالوا: يا ربنا إن لنا قرابات في الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فيؤذن لهم في ذلك، فينظرون إلى قراباتهم في الجنة، وإلى ما هم فيه من أنواع النعيم فيعرفونهم ولا يعرفهم أهل الجنة لسواد وجوههم، فينادون قراباتهم من أهل الجنة بعد إخبارهم بقرابتهم، ويقولون أفيضوا علينا من الماء **﴿أو مما رزقكم الله﴾** من سائر الأشربة ليلائم الإفاضة فإن الأصل فيها أن تستعمل في المائعات من المشروبات، أو من الأطعمة فنأكلها لعلها تدفع عنا الجوع على أن الإفاضة عبارة عن الإعطاء بكثرة.

قال أبو حيان: الصحيح تضمين أفيضوا معنى ألقوا، وهؤلاء القائلون كانوا في الدنيا عبيد البطون حريصين على الطعام والشراب حتى ماتوا على ما عاشوا فيه، فحشروا على ما ماتوا عليه، وإن أهل الجنة لما طالوا الجوع والعطش في الدنيا، وإنما جوعوا بطونهم لوليمة الفردوس كان اشتغالهم في الجنة بشهوات النفس.

وفي الآية: بيان أن الإنسان لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب.

قال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس رضي الله عنهما أي الصدقة أفضل قال الماء أرأيت أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء.

وعن سعد بن عبادة أنه قال يا رسول الله إن أم سعد ماتت، فأي صدقة أفضل قال عليه السلام: «الماء» فحفر بئراً فقال عليه السلام: «هذه لأم سعد» يقول الفقير في الحديث دلالة على نفع الصدقة في الأموات كما ذهب إليه أهل السنة، وتخصيص الماء إما لأن أرض الحجاز أحوج شيء إليه فيكون أكثر ثواباً، وإما لأن جهنم بيت الحرارة واندفاعها بضدها وهي البرودة التي من أوصاف الماء فإن كل شيء يقابل بنقيضه والله أعلم. **﴿قالوا﴾** روي أنه لا يؤذن لأهل الجنة في الجواب مقدار أربعين سنة ثم يؤذن لهم في جوابهم فيقولون: **﴿إن الله حرمهما على الكافرين﴾** أي: منع طعام الجنة وشرابها عنهم منع المحرم عن المكلف فلا سبيل إلى ذلك قطعاً، وإنما جعل شراب الكافرين الحميم الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود وطعامهم الضريع والزقوم.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿الذين اتخذوا دينهم﴾ الذين أمروا بالتدين به وهو دين الإسلام. **﴿لهواً ولعباً﴾** ملعبة يتلاعبون به يحرمون ما شاؤوا ويحلون ما شاؤوا ولا يتبعون أمر الله تعالى وإنما يتبعون أهواءهم التي زينها الشيطان لهم.

وقيل: كان دينهم دين إسماعيل عليه السلام فغيروه وتدينوا بما شاؤوا أو صرفوا همتهم فيما لا ينبغي أن تصرف إليه الهمم وطلبوا أن يفرحوا بما لا ينبغي أن يطلب.

وفي «التفسير الفارسي»: ﴿دينهم﴾ [عيد خودرا] ﴿لهواً ولعباً﴾ مشغول وبازيچهء ايشان درعيد خود بحوالى كعبه مى آمدند ودست ميزدند وبازيچه ميكردند] انتهى. ويرخص اللعب في يوم العيد بالسلاح والركض، أي التسابق بالأفراس والأرجل وغير ذلك مما هو مباح مشروع وكانوا يضربون في القرن الأول بالدف ولكن لم يكن فيه جلاجل فما يفعلونه في هذا الزمان وقت العيد والختان، وعند اجتماع الإخوان من ضرب المزمار، وضرب الدف الذي فيه جلاجل ونحوها هو آلة اللهو ليس بمرخص وقولهم إن في ديننا فسحة إنما هو بالنسبة إلى الأمور المرخصة ألا يرى أن المزاح مباح إذا كان بما لا يخالف الشرع. ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ بزخارفها العاجلة وطول الأمل ولذلك كانوا يستهزئون بالمسلمين كما روي في الخبر أن أبا جهل بعث إلى النبي عليه السلام رجلاً يستهزىء به أن أطعمني من عنب جنتك أو شيئاً من الفواكه فقال أبو بكر رضي الله عنه: «إن الله حرمهما على الكافرين» فعلى العاقل أن لا يغتر بالدنيا لأنها غدارة مكارة.

درديدهٔ اعتبار خوابيست ... بر رهكذر اجل سرابيست
مشغول مشو بسرخ وزردش ... انديشه مكن زكرم وسردش
سرمايهٔ آفتست زنهار ... خودرا زفريب او نكهدار

﴿فاليوم﴾ أي: يوم القيامة والفاء فصيحة. ﴿ننساهم﴾ نفعل بهم ما يفعل الناسي بالمنسي من عدم الاعتداد بهم، وتركهم في النار تركاً كلياً شبه معاملته تعالى مع الكفار بمعاملة من نسي عبده من الخير ولم يلتفت إليه وإلا فالله تعالى منزه عن حقيقة النسيان ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ في محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي ننساهم نسياناً مثل نسيانهم لقاء يومهم هذا فلم يخطروه ببالهم ولم يستعدوا له، يعني: أنه وإن لم يصح وصفهم بنسيانه حقيقة لأن النسيان يكون بعد المعرفة وهم لم يكونوا معترفين بلقاء يوم القيامة ومصدقين به لكنه شبه عدم إخطارهم لقاء الله تعالى ببالهم وعدم مبالاتهم به بحال من عرف شيئاً ونسيه، ومثل هذه الاستعارات كثير في القرآن لأن تفهيم المعاني الواقعة في عالم الغيب إنما يكون بأن يعبر عنها بما يماثلها من عالم الشهادة. ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ عطف على ما نسوا، أي وكما كانوا منكرين بأنها من عند الله إنكاراً مستمراً فما مصدرية ويظهر أن الكاف في كما للتعليل فإن التشبيه غير ظاهر في ما كانوا إلا باعتبار لازمه وهو الترك.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه﴾ أي: بيناه معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصلة والضمير للكفرة قاطبة والمراد بالكتاب الجنس أو للمعاصرين منهم والكتاب هو القرآن. ﴿على علم﴾ حال من فاعل فصلناه أي عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيماً أو من مفعوله أي مشتملاً على حكم كثيرة. ﴿هدى ورحمة﴾ حال من هاء فصلناه أي حال كون ذلك الكتاب هادياً وذا رحمة ﴿لقوم يؤمنون﴾ يصدقون أنه من عند الله لأنهم المنتفعون بآثاره المقتبسون من أنواره.

﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي: ما ينتظر هؤلاء الكفرة بعدم إيمانهم به إلا ما يؤول إليه أمره من تبين صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد. ﴿يوم يأتي تأويله﴾ أي: يوم يأتيهم عاقبة ما وعدوا فيه وهو يوم القيامة وشاهدوا إتيانه عياناً ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي: تركوه ترك المنسي من قبل إتيان تأويله ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ الباء للتعدية أو للملابسة أي: ملتبسين به، يعني: اعترفوا بأن ما جاءهم الرسل به من حقية البعث والحساب والجزاء حق واضطروا إلى أن يتمنوا أمرين: أحدهما: الخلاص من عذاب القبر بشفاعة الشفعاء كما قال: ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ اليوم ويدفعوا عنا العذاب وثانيهما الرد إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً كما قال: ﴿أو نرد﴾ أي: أو هل نرد إلى الدنيا ﴿فنعمل﴾ بالنصب على أنه جواب الاستفهام الثاني ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ أي: في الدنيا يعني نصدق الرسل ونعمل الأعمال الصالحة فبين الله تعالى أن الذي تمنوه لا يحصل لهم البتة حيث قال: ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأس مالهم إلى الكفر والمعاصي ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي: ظهر بطلان ما كانوا يفترونه من أن الأصنام شركاء الله تعالى وشفعاؤهم يوم القيامة.

دى روز بدو دلم اميدى ميداشت   امروز برفت ونا اميدم بكذاشت

واعلم أن الكفار تمنوا الرد إلى الدنيا ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه. قال في «المثنوي»:

قصهٔ آن آبكيرست اى عنود   كه درو سه ماهئ اشكرف بود
چند صيادى سوى آن آبكير   بر كذ شتند وبديدند آن ضمير
پس شتابيدند تا دام آورند   ما هيان واقف شدندو هو شمند
آنكه عاقل بود عزم راه كرد   عزم راه مشكل نا خواه كرد
كفت با اينها ندارم مشورت   كه يقين سستم كنند از مقدرت
مهر زاد وبود بر جانشان تند   كاهلى وجهل شان برمن زنند
مشورت را زندهٔ بايد نكو   كه ترا زنده كند آن زنده كو

نيست وقت مشورت هين راه كن   چون على تو آه اندر چاه كن
محرم آن راه كم يابست وبس   شب رووپنهان روى كن چون عسس
سوى دريا عزم كن زين آب كير   بحر جو وترك اين كرداب كير
سينه را پا ساخت مى رفت آن حذورهٔ   از مقام با خطر تا بحر نور
رنجها بسيار ديد وعاقبت   رفت آخر سوى امن وعافيت
خويشتن افكند دردرياى ژرف   كه نيا بد حد آنرا هيچ طرف
پس چو صيادان بياوردند دام   نيم عاقل را ازان شد تلخكام
كفت آه من فوت كردم وقت را   چون نكشتم همره آن رهنما
بركذشته حسرت آوردن خطاست   باز نايد رفته ياد آن هباست

ليك زان نندیشم وبر خود زنم   خويشتن را اين زمان مرده كنم
همچنان مرد وشكم بالا فكند   آب مى بردش نشيب وكه بلند
هر يكى زان قاصدان بس غصه برد   كه دريغا ما هئ مهتر بمرد

پس كرفتش يك صياد ارجمند برسرش تف كردوبرخا كش فكند
غلط غلطان رفت پنهان اندر آب مانند آن احمق همى كرد اضطراب
ازچب وازراست مى جست آن سليم تاكه بجهد خويش برهاند كليم
دام افكندند واندر دام ماند احمقى اورا دران آتش نشاند
بر سر آتش به پشت تابهٔ با حماقت كشت او هم خوابهٔ
او همى جوشيد از تف سعير عقل ميكفتش ألم يأتك نذير
او همى كفت از شكنجه وزبلا همچو جان كافران قالوا بلا
باز مى كفت او كه كر اين بارمن وارهم زين محنت كردن شكن
من نسازم جز بدرياى وطن آبكيريرا نسازم من سكن
آب بيحد جويم وايمن شوم تا ابد در امن ودرصحت مى روم

آن ندامت از نتيجه رنج بود نى ز عقل روشن چون كنج بود
ميكند او توبه وپير خرد بانك لو ردوا لعادوا مى زند

فعلى العاقل أن يتدارك حاله ولا يطول آماله.

قال الإمام الغزالي قدس سره: من زرع واجتهد وجمع بيدراً، ثم يقول: أرجو أن يحصل لي منه مائة قفيز فذلك منه رجاء، والآخر لا يزرع زرعاً ولا يعمل يوماً فذهب ونام وأغفل سنته فإذا جاء وقت البيادر يقول: أرجو أن يحصل لي مائة قفيز فهو أمنية بلا أصل، فكذلك العبد إذا اجتهد في عبادة الله تعالى والانتهاء عن معصية الله، يقول: أرجو أن يتقبل الله هذا اليسير ويتم هذا التقصير ويعظم الثواب ويعفو عن الزلل فهذا منه رجاء، وأما إذا أغفل ذلك وترك الطاعات فارتكب المعاصي ولم يبال سخط الله ولا رضاه ووعده ووعيده، ثم أخذ يقول: أنا أرجو من الجنة والنجاة من النار فذلك منه أمنية لا حاصل تحتها ويبين هذا قوله عليه السلام: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والفاجر من يتبع نفسه هواها ويتمنى على الله عز وجل» قال بعضهم: إن الغموم ثلاثة: غم الطاعة أن لا تقبل، وغم المعصية أن لا تغفر، وغم المعرفة أن لا تسلب.

قال يوسف بن أسباط: دخلت على سفيان فبكى ليله أجمع فقلت بكاؤك هذا على الذنوب فحمل تبناً، وقال: الذنوب أهون على الله تعالى من هذا إنما أخشى أن يسلبني الله الإسلام فكل الرسل والأبدال والأولياء مع كل هذا الاجتهاد في الطاعة، والحذر عن المعصية فأي شيء تقول أما كان لهم حسن الظن بالله قال بلى فإنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأحسن ظن بجوده منك، ولكن علموا أن ذلك دون الاجتهاد أمنية وغرور جعلنا الله وإياكم من العالمين بكتابه والواصلين إلى جنابه دون من نسي الله واتبع هواه آمين آمين ألف آمين.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إن ربكم﴾ الخطاب لكفار مكة المتخذين أرباباً. والمعنى [بدرستى كه پروردكارشما] على التحقيق. ﴿الله﴾ [خدا ييست] جامع جميع صفات كمال. ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ لا على مثال سبق ﴿في ستة أيام﴾ أي: في ستة أوقات ولو شاء لخلقها في أسرع من لحظة ولكنه علم عباده التأني في الأمور. وفي «المثنوي»:

مكر شيطانست تعجيل وشتاب   خوى رحمانست صبر واحتساب

باتأنى كشت موجود از خدا   تابشش روز اين زمين وچرخها
ورنه قادر بود كز كن فيكون   صد زمين وچرخ آوردى برون
اين تأنى ازپى تعليم تست   صبركن دركار دير آى ودرست

قالوا: لا يحسن التعجيل إلا في التوبة من الذنوب، وقضاء الدين بعد انقضاء مدته، وقرى الضيف، وتزويج البكر بعد بلوغها، ودفن الميت، والغسل من الجنابة.

واعلم: أن الله تعالى بالقادرية والخالقية أوجد السموات والأرض وبالمدبرية والحكيمية خلقها في ستة أيام، وإنما حصر في الستة أنواع المخلوقات الستة، وهي الأرواح المجردة، والثاني: الملكوتيات فمنها الملائكة والجن والشياطين وملكوت السموات، ومنها العقول المفردة والمركبة، والثالث: النفوس كنفوس الكواكب ونفس الإنسان ونفس الحيوان ونفس النبات والمعادن، والرابع: الأجرام وهي البسائط العلوية من أجسام اللطيفة كالعرش والكرسي والسموات والجنة والنار، والخامس: الأجسام المفردة وهي العناصر الأربعة، والسادس: الأجسام المركبة الكثيفة من العناصر فعبر عن خلق كل منها بيوم وإلا فالأيام الزمانية لم تكن قبل خلق السموات والأرض. ﴿ثم استوى على العرش﴾ العرش يطلق على السرير الذي يجلس عليه الملوك وعلى كل ما علاك وأظل عليك، وهو بهذين المعنيين مستحيل في حقه تعالى فجعل الاستواء على العرش كناية عن نفس الملك والعز والسلطنة على طريق ذكر اللازم وإرادة الملزوم، فالمعنى بعد أن خلق الله عالم الملك في ستة أيام كما أراد استوى على الملك وتصرف فيه كيف شاء فحرك الأفلاك وسير الكواكب وكور الليالي والأيام ودبر أمر مصنوعاته على ما تقتضيه حكمته، وهذا معنى قول القاضي استوى أمره، أي: استقر أمر ربوبيته وجرى أمره وتدبيره ونفذ قدرته في مصنوعاته وتخصيص العرش؛ لأنه أعظم المخلوقات فإنه الجسم المحيط بجميع الأجسام فالاستواء عليه استواء على ما عداه أيضاً من الجنة والنار والسموات والعناصر وغيرها.

وفي «التفسير الفارسي»: ﴿ثم استوى﴾ [پس قصد كرد على العرش بآفرينش عرش].

قال الحدادي: ويقال ثم هنا بمعنى الواو على طريق الجمع والعطف دون التراخي فإن خلق العرش كان قبل خلق السموات والأرض وقد ورد في الخبر «إن أول شيء خلق الله القلم ثم اللوح فأمر الله القلم أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ثم خلق العرش ثم خلق حملة العرش ثم خلق السموات والأرض».

قال شيخي العلامة أبقاه الله بالسلامة: المراد بهذا الاستواء استواؤه سبحانه، لكن لا باعتبار نفسه وذاته تعالى علواً كبيراً عما يقول الظالمون، بل باعتبار أمره الإيجادي وتجليه التجلي الأحدي المعبر عنه في القرآن بالحق، واستواء الأمر الإرادي الإيجادي على العرش

بمنزلة استواء الأمر التكليفي الإرشادي على الشرع، فكما أن كل واحد من الأمرين قلب الآخر وعكسه المستوي السوي، فكذلك كل واحد من العرش والشرع قلب الآخر وعكسه السوي المستوي انتهى باختصار.

قال في «التأويلات النجمية»: لما أتم خلق المكونات من الأنواع الستة استوى على العرش بعد الفراغ من خلقها استواء التصرف في العالم، وما فيه التدبر في أموره من العرش إلى تحت الثرى وإنما خص العرش بالاستواء؛ لأنه مبدأ الأجسام اللطيفة القابلة للفيض الرحماني وهذا الاستواء صفة من صفات الله تعالى لا يشبه استواء المخلوقين، كالعلم صفة من صفاته لا يشبه علم المخلوقين؛ إذ ليس كمثله شيء وهو السميع العليم ولو أمعنت النظر في خصوصية خلافتك الحق تعالى لعرفت نفسك فعرفت ربك وذلك أن الله تعالى لما أراد خلق شخصك من النطفة المودعة في الرحم استعمل روحك بخلافته ليتصرف في النطفة أيام الحمل فيجعلها عالماً صغيراً مناسباً للعالم الكبير، فيكون بدنه بمثابة الأرض ورأسه بمثابة السماء وقلبه بمثابة العرش وسره بمثابة الكرسي وهذا كله بتدبير الروح وتصرفه خلافة عن ربه، ثم استوى الروح بعد فراغه من الشخص الكامل على عرش القلب استواء مكانياً، بل استوى ليتصرف في جميع أجزاء الشخص ويدبر أموره بإفاضة فيضه على القلب فإن القلب هو القابل لفيض الحق تعالى إلى المخلوقات كلها كما أن القلب مغتنم فيض الروح إلى القالب كله، فإذا تأملت في هذا المثال تأملاً شافياً وجدته في نفي الشبيه عن الصفات المنزهة المقدسة كافياً وتحققت حقيقة من عرف نفسه فقد عرف ربه إن شاء الله تعالى.

ثم إنه تعالى لما ذكر استواءه على العرش وأخبر بما أخبر من نفاذ أمره واطراد تدبيره بين ذلك بطريق الاستئناف فقال: ﴿**يغشي الليل النهار**﴾ أي: يجعل الليل غاشياً يغشي النهار بظلمته فيذهب بنور النهار ويغطيه بظلمة الليل ولم يذكر العكس اكتفاء بأحد الضدين.

وفيه إشارة إلى ليل ظلمات النفس عند استيلاء صفاتها وغلبات هواها على نهار أنوار القلب وإلى نهار القلب عند غلبات أنواره واستيلاء المحبة عليه. ﴿**يطلبه حثيثاً**﴾ حال من الليل أي يجعل الليل غاشياً للنهار حال كون الليل طالباً أي: لمجيئه عقيب الليل سريعاً، وحثيثاً منصوب على أنه صفة مصدر محذوف، أي: يطلبه طلباً حثيثاً، أي: سريعاً ولما كان كل واحد من الليل والنهار يعقب الآخر ويجيء بعده من غير أن يفصل بينهما بشيء صار كأنه يطلب الآخر على منهاج واحد. ﴿**والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره**﴾ عطف على السموات أي خلق كل هذه المخلوقات حال كونها مسخرات بقضائه وتصرفه أي مذللات لما يراد منها من الطلوع والأفول والحركات المقدرة والأحوال الطارئة عليها ﴿**ألا**﴾ تنبيه معناه اعلموا ﴿**له**﴾ أي: لله تعالى والتقديم للتخصيص. ﴿**الخلق والأمر**﴾ فإنه الموجد للكل والمتصرف فيه على الإطلاق.

وفي «التأويلات النجمية»: ما خلق بأمره تعالى من غير واسطة أمر وما خلق بواسطة خلق.

وذكر الإمام أن العالم وهو ما سوى الله تعالى منحصر في نوعين: عالم الخلق وعالم الأمر، وأن المراد بعالم الخلق عالم الأجساد والجسمانيات وبعالم الأمر عالم الأرواح والمجردات، وإن قوله تعالى: ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾ إشارة إلى هذين العالمين عبر عن العالم

الأول بعالم الخلق لأن الخلق عبارة عن التقدير وكل ما كان جسماً أو جسمانياً كان مخصوصاً بمقدار معين فعبر عنه بعالم الخلق وكل ما كان مجرداً عن الحجم والمقدار كان من عالم الأرواح ومن عالم الأمر مكونات بمجرد أمر كن فخص كل واحد منهما باسم مناسب له، وقيل ألا له الخلق والأمر انتهى كلام الإمام.

وقال حضرة شيخنا العلامة أبقاه الله بالسلامة: الخلق عالم العين والكون والحدوث روحاً وجسماً والأمر عالم العلم والآلة والوجوب وعالم الخلق تابع لعالم الأمر إذ هو أصله ومبدؤه ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] والله غالب على أمره. ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ أي: تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية.

قال ابن الشيخ: أي تعاظم الإله الواحد الموجد للكل المتصرف فيه بالربوبية رد به على الكفرة الذين كانوا يتخذون أرباباً فدعاهم إلى التوحيد بالحكمة والحجة وصدر الآية بأن ردا لإنكارهم فقال إن ربكم المستحق للربوبية ليس إلا واحداً، وهو الله الموجد للكل على الترتيب المحكم المتقن الدال على كمال العلم والحكمة والقدرة، وهو الذي أنشأ ملكه على ما يشاهد ثم أخذ في تدبيره كالملك المتمكن في مملكته بتدبير ملكه انتهى يروى أن الصاحب بن عباد كان يتردد في معنى الرقيم وتبارك والمتاع ويدور على قبائل العرب، فسمع امرأة تسأل أين المتاع ويجيب ابنها الصغير بقوله جاء الرقيم أي الكلب وأخذ المتاع وتبارك الجبال فاستفسر منهم وعرف أن الرقيم هو الكلب، وأن المتاع هو ما يبل بالماء فيمسح به القصاع، وأن (تبارك) بمعنى صعد وتعالى وفي الحديث: «من لم يحمد الله على عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر، وحبط عمله ومن زعم أن الله خلق للعباد من الأمر سبباً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه» لقوله تعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ قال الشاعر:

إلى الله كل الأمر في خلقه معا   وليس إلى المخلوق شيء من الأمر

﴿ادعوا ربكم﴾ بمعنى المربي من التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً وهو تعالى مربي الظواهر بالنعمة وهي النفوس، ومربي البواطن بالرحمة وهي القلوب ومربي نفوس العابدين بأحكام الشريعة، ومربي قلوب المشتاقين بآداب الطريقة، ومربي أسرار المحبين بأنوار الحقيقة وهو أي الرب اسم الله الأعظم ولذلك كل اسم قلبته بطل معناه إلا الرب فإن مقلوبه البر وهو من أسمائه تعالى وإليه يشير ما روي عن الخضر عليه السلام أنه قال الاسم الأعظم ما دعا به كل نبي وولي وعدو أشار إلى أنه مقدمة دعوات الأنبياء نحو: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية ونحوه والصحابة نحو ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: ١٩١] الآيات والأعداء نحو ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ [الحجر: ٣٦]، ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا﴾ [السجدة: ١٢] ﴿تضرعاً وخفية﴾ التضرع [زارى كردن] كذا في «تاج المصادر» يقال ضرع الرجل يضرع ضراعة من باب فتح أي خضع وذل وهما حالان من فاعل ادعوا أي متضرعين متذللين مخفين الدعاء ليكون أقرب إلى الإجابة لكون الإخفاء دليل الإخلاص والاحتراز عن الرياء روي عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا في غزوة فأشرفوا على واد فجعلوا يكبرون ويهللون رافعي أصواتهم فقال عليه السلام لهم «اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً بصيراً قريباً وإنه لمعكم» أي: بالعلم والإحاطة وفي الحديث استحباب الإخفاء في ذكر الله لكن ذكر شارح «الكشاف» إن هذا بحسب المقام، والشيخ المرشد قد يأمر المبتدي برفع الصوت لينقلع

عن قلبه الخواطر الراسخة فيه كذا في «شرح المشارق» لابن الملك.

قال حسين الكاشفي في «الرسالة العلية»: [اى درويش قومى كه كمين كاه نفس را ديدند ودانستند ذكر بجهر كفتن مناسب نديدند كه بريا انجامد ومخفى بذكر مشغول شدند وقول حق تعالى راكه]. ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] [كار بستند وجمعى كه بمرتبهٔ اخلاص رسيدند وباطن خودرا از ريا پاك يافتند ذكررا بجهر كفتند وهريكى را ازين وطائفه بر عمل خود دلائل است]. وفي «المثنوي»:

كفت ادعوا الله بى زارى مباش تا بيايد فيضهاى دوست فاش

تا سقاهم ربهم آيد خطاب تشنه باش الله أعلم بالصواب

وعن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ «إذا رفع يديه في الدعاء لا يردهما حتى يمسح بهما وجهه» وذلك ليصل شيء من البركة الفائضة على اليد إلى الوجه كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] وذلك المسح في الحقيقة رجوع إلى الحقيقة الجامعة فإن الوجه هو الذات كما قال في «الأسرار المحمدية»: إن الإنسان حال دعائه متوجه إلى الله تعالى بظاهره وباطنه ولذا يشترط حضور القلب فيه وصحة الاستحضار فسر الرفع والمسح أن اليد الواحدة مترجمة عن توجهه بظاهره، واليد الأخرى عن توجهه بباطنه واللسان مترجم عن جملته ومسح الوجه هو التبرك والتنبيه على الرجوع إلى الحقيقة الجامعة بين الروح والبدن؛ لأن وجه الشيء حقيقته والوجه الظاهر مظهرها، وقال أيضاً: السنة للداعي في طلب الحاجة له أن ينشرهما يعني: كفيه إلى السماء، وللمكروب أن ينصب ذراعيه حتى يقابل بكفيه وجهه وإذا دعا على أحد أن يقلب كفيه ويجعل ظهرهما إلى السماء والسنة أن يخرج يديه حين الدعاء من كميه.

قال سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي: دعوت الله ليلة فأخرجت إحدى يدي والأخرى ما قدرت على إخراجهما من شدة البرد فنمت فرأيت في منامي أن يدي الظاهرة مملوءة نوراً والأخرى فارغة فقلت ولم ذاك يا رب فنوديت اليد التي خرجت للطلب ملأناها والتي توارت حرمناها، ورفع الأيدي إلى السماء والنظر إليها وقت الدعاء بمنزلة أن يشير سائل إلى الخزانة السلطانية، ثم يطلب من السلطان أن يفيض عليه سجال العطاء من هذه الخزانة قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢] فالسماء قبلة الدعاء ومحل نزول البركات والأفضل أن يبسط كفيه ويكون بينهما فرجة.

وإن قلت: ولا يضع إحدى يديه على الأخرى فإن كان وقت عذر أو برد فأشار بالمسبحة قام مقام بسط كفيه. والمستحب أن يرفع يديه عند الدعاء بحذاء صدره كذا روى ابن عباس رضي الله عنهما فعل النبي عليه السلام كذا في «القنية» ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي: المجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره نبه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق كرتبة الأنبياء والصعود إلى السماء وقيل هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه.

وعن النبي ﷺ: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل، ثم قرأ ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ فاللائق للداعي أن يدعو بأهمّ الأمور هو الفوز بالجنة والنجاة من النار كما قال النبي عليه السلام للأعرابي الذي قال إني أسأل الله الجنة وأعوذ به من

النار إني لا أعرف دندنتك ولا دندنة معاذ وقال: «حولهما ندندن» ومعناه إني لا أعرف ما تقول أنت ومعاذ يعني من الأذكار والدعوات المطولة ولكني أختصر على هذا المقدار فأسأل الله الجنة وأعوذ به من النار ومعنى قوله عليه السلام: «حولهما ندندن» إن القصد بهذا الذكر الطويل الفوز بهذا الأجر الجزيل ﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ بالكفر والمعاصي ﴿بعد إصلاحها﴾ ببعث الأنبياء وشرع الأحكام.

قال الحدادي وقيل: معناه لا تعصوا في الأرض فيمسك المطر عنها ويهلك الحرث بمعاصيكم ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ مصدران في موقع الحال أي خائفين من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطامعين في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ وتذكير قريب مع أنه مسند إلى ضمير الرحمة لتأويل الرحمة بالرحم فإن الرحم بضم الراء بمعنى الرحمة قال الله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] قال الكسائي: أراد أن إتيان رحمة الله قريب كقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] أي: لعل إتيانها والمعنى إن رحمة الله قريب من الداعين بلسان ذاكر شاكر وقلب حاضر طاهر وترجيح للطمع وتغليب لجانب الرحمة وتنبيه على وسيلة الإجابة أعني الإحسان المفسر «بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وفي الحديث: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة» يعني: ليكن الداعي ربه على يقين بأن الله يجيب لأن رد الدعاء إما للعجز في إجابته أو لعدم كرم في المدعو أو لعدم علم المدعو بدعاء الداعي وهذه الأشياء منتفية عن الله تعالى فإنه عالم كريم قادر لا مانع له من الإجابة.

قال سهل: ما أظهر عبد فقره إلى الله تعالى في وقت الدعاء في شيء يحل به إلا قال الله تعالى لملائكته لولا أنه لا يحتمل كلامي لأجبته لبيك حكي أن موسى عليه السلام مرّ برجل يدعو ويتضرع فقال موسى لو كانت حاجته بيدي لقضيتها فأوحى الله تعالى إليه أنا أرحم به منك ولكنه يدعوني وله غنم وقلبه في غنمه وأنا لا أقبل دعوة عبد قلبه عند غيري فذكر ذلك للرجل فتوجه إلى الله بقلبه فقضيت حاجته فيلزم حضور القلب وحسن الظن بالله في إجابة الدعاء وحكي عن بعض البله وهو في طواف الوداع أنه قال له رجل وهو يمازحه هل أخذت من الله براءتك من النار فقال الأبله لا وهل أخذ الناس ذلك فقال: نعم فبكى ذلك الأبله ودخل الحجر وتعلق بأستار الكعبة وجعل يبكي ويطلب من الله أن يعطيه كتابه بعتقه من النار فجعل أصحابه والناس يلومونه ويعرفونه أن فلاناً مزح معك وهو لا يصدقهم بل بقي مستقراً على حاله فبينا هو كذلك إذ سقطت عليه ورقة من جهة الميزاب فيها مكتوب عتقه من النار فسرّ بها وأوقف الناس عليها وكان من آية ذلك الكتاب أن يقرأ من كل ناحية على السواء لا يتغير كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها فعلم الناس أنه من عند الله. قيل: دعاء العامة بالأقوال. ودعاء الزاهدين بالأفعال. ودعاء العارفين بالأحوال وإذا وفق الله عبداً إلى نطق بأمر مّا فما وفقه إليه إلا وقد أراد إجابته فيه وقضاء حاجته وعدم الدعاء بكشف الضر مذموم عند أهل الطريقة لأنه كالمقاومة مع الله ودعوى التحمل لمشاقه كما قال الشيخ المحقق ابن الفارض قدس سره:

ويحسن إظهار التجلد للعدى ويقبح غير العجز عند الأحبة

قال الحافظ:

فقير وخسته بدركاهت آمدم رحمى كه جزدعاى توام نيست هيج دست آويز

[ودرمناجات شيخ الإسلام است كه خدايا اكر وفاداران بتواميد دارند جفا كاران نيز بغير توپناهى ندارند].

والإشارة أن التضرع ما يطلع عليه الخلق والخفية ما يطلع عليه الحق أي تضرعاً بالجوارح وخفية بالقلوب والاعتداء في الدعاء طلب الغير منه والرضى بما سواه ولا تفسدوا في الأرض أي في أرض القلوب بعد إصلاحها أي بعد أن أصلحها الله برفع الوسائط بينه وبين القلوب فإن فساد القلوب في رؤية غير الحق وصلاحها في رؤية الحق ويقال من إفساد القلوب بعد إصلاحها إرسالها في أودية المنى بعد إمساكها عن متابعة الهوى ومن ذلك الرجوع إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق وادعوه خوفاً من الانقطاع وطمعاً في الاصطناع أن رحمة الله وهي بذل المتمني قريب من المحسنين الذين يرون الله في الطاعات أي يعبدونه طمعاً فيه لا منه كذا في «التأويلات النجمية».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وهو الذي يرسل الرياح﴾ كل ما كان في القرآن من ذكر الرياح فهو للرحمة، وما كان من ذكر الريح فهو للعذاب، ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام كان يجثو على ركبتيه عند هبوب الرياح ويقول: «اللهم اجعلها لنا رياحاً ولا تجعلها ريحاً، اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك»، وفي الحديث: «لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به».

قال بعض المشايخ: لا تعتمد على الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا شرك في توحيد الأفعال وجهل بحقائق الأمور، ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه يعلم أن الريح لا تتحرك بنفسها بل لها محرك والمحرك له محرك إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا يتحرك هو في نفسه أيضاً، بل هو منزه عن ذلك وعما يضاهيه سبحانه. ﴿بشرا﴾ تخفيف بشر بضمتين جمع بشير نحو رغيف ورغف، أي: مبشرات. ﴿بين يدي رحمته﴾ أي: قدام رحمته التي هي المطر فإن الصبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدرّه والدبور تفرقه. الصبا: ريح تهب من موضع طلوع الشمس عند استواء الليل والنهار، والدبور: ريح تقابل الصبا أي تهب من موضع غروب الشمس. والشمال بالفتح: الريح التي تهب من ناحية القطب، والجنوب: الريح التي تقابل الشمال والجنوب تدر السحاب، أي: تستحلبه قال ابن عباس رضي الله عنهما: يرسل الله الرياح فتحمل السحاب فتمريه كما يمري الرجل الناقة والشاة حتى تدر، وفي الآية إطلاق الرحمة على المطر، فقول: من قال إني أفر من الرحمة محمول على المطر ﴿حتى إذا أقلّت﴾ غاية لقوله: يرسل ﴿سحاباً﴾ أي: حملته ورفعته باليسر والسهولة بأن وجدته خفيفاً قليلاً يقال أقللت كذا، أي: حملته بالسهولة ومن حمل الشيء بسهولة لا شك أنه يعده قليلاً فلذلك اشتق هذا الفعل من القلة ﴿ثقالاً﴾ جمع ثقيل أي بالماء جمعه مع كونه وصفاً للسحاب، لأن السحاب اسم جنس يصح إطلاقه على سحابة واحدة وما فوقها فيكون بمعنى الجمع، أي: السحائب. والسحاب: هو الغيم الجاري في السماء. ﴿سقناه﴾ من

السوق والضمير للسحاب والإفراد باعتبار اللفظ والمعنى بالفارسية [برانيم ما آن ابررا]. ﴿لبلد ميت﴾ أي: لإحياء بلد لا نبات فيه والبلد يطلق على كل موضع من الأرض سواء كان عامراً، أي: ذا عمارة أو غير عامر خالياً أو مسكوناً والطائفة منها بلدة والجمع بلاد. ﴿فأنزلنا به الماء﴾ أي: بالبلد والباء للإلصاق أي التصق إنزال الماء بالبلد. ﴿فأخرجنا به﴾ أي: بسبب ذلك الماء ﴿من كل الثمرات﴾ أي: من كل أنواعها والظاهر أن الاستغراق عرفي ﴿كذلك نخرج الموتى﴾ الإشارة فيه إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميت أي كما نحييه بإحداث القوة النباتية فيه وتطريته بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الأجداس ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس. ﴿لعلكم تذكرون﴾ بطرح إحدى التاءين، أي تتذكرون فتعلمون أن من قدر على هذا من غير شبهة.

قال ابن عباس وأبو هريرة: إذا مات الناس كلهم في النفخة الأولى مطرت السماء أربعين يوماً قبل النفخة الأخيرة مثل مني الرجال فينبتون من قبورهم بذلك المطر، كما ينبتون في بطون أمهاتهم وكما ينبت الزرع من الماء، حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيها الروح ثم يلقى عليهم نومة فينامون في قبورهم، فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية، وهي نفخة البعث جاشوا وخرجوا من قبورهم وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم، كما يجده النائم إذا استيقظ من نومه فعند ذلك يقولون: من بعثنا من مرقدنا فيناديهم المنادي هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.

والإشارة في الآية: أن الرياح رياح العناية، والسحاب سحاب الهداية، والماء ماء المحبة فيخرج الله تعالى بهذا الماء سمرات المشاهدات والمكاشفات وأنواع الكمالات، كذلك نخرج الموتى، أي موتى القلوب من قبور الصدور لعلكم تذكرون، أي: تذكرون أيام حياتكم دون حياض الأنس ورياض القرب عند حظائر القدس.

واعلم: أن العمدة هي العناية الأزلية، وهي تصل إلى العباد في الخلا والملا حكي أنه قيل لولي من أولياء الله تعالى: اذهب إلى دار الشرك فإن فيها صديقاً فكان ذلك الولي يقدر على الاختفاء فذهب إلى دار المشركين فأسره مشرك وباعه لخادم كنيسة فخدم فيها زماناً بالصدق، فجاء السلطان يوماً إلى الكنيسة فخلاها ثم صلى فاستتر الولي ثم ظهر للسلطان، فقال: من أنت؟ قال: مسلم مثلك، وقيل للولي هو الصديق، ثم سأل الولي ذلك السلطان الصديق عن حاله، فقال: في أحسن الأحوال وأرغد عيش آكل الرزق الحلال، وأعبد خالصاً عن الرياء وأقتل الكفار وأعين المسلمين بحيث لو كنت سلطانهم ما قدرت، ثم خرج من الكنيسة وقعد عند بابها فسأل عني البطارقة والرهبان والخدام، ثم قتل الكل، وقال: تتكبرون عن خدمة بيت الرب بأنفسكم وتستخدمون غير أهل الملة، ثم خلى سبيلي وفي هذه الحكاية إشارة إلى أن الله تعالى إذا أراد أهلك العدو بأدنى سبب من حيث لا يحتسب فإن له ألطافاً خفية. قال الحافظ:

تيغى كه آسمانش ازفيض خوددهد آب   تنها جهان بكيرد بى منت سپاهى

وقال أيضاً:

دلا طمع مبراز لطف بى نهايت دوست   كه ميرسد همه را لطف بى نهايت او

فنظر أهل التوحيد وأرباب البصيرة إلى المؤثر الحقيقي والفيض الأزلي لا إلى الخلق والوسائط والأسباب، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين فازوا بالسعادة الأبدية والعناية

السرمدية، ويسلك بنا مسلك الحقيقة والطريقة الأحمدية إنه هو البر الرحيم.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿والبلد الطيب﴾ أي: الأرض الكريمة التربة.

وفي «التفسير الفارسي»: [وزمين پاك ازسنك وريك كه شايسته وصالح زراعت باشد]. ﴿يخرج نباته بإذن ربه﴾ بمشيئته وتيسيره ما أذن الله في خروجه لا يكون إلا أحسن أكثر عزيز النفع. ﴿والذي خبث﴾ والبلد الذي خبث ترابه كالحرة والسبخة. الحرة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار، والسبخة: الأرض المالحة التي لا تنبت شيئاً. ﴿لا يخرج﴾ نباته في حال من الأحوال. ﴿إلا﴾ في حال كونه ﴿نكداً﴾ قليلاً عديم النفع فهو مستثنى مفرغ من أعم الأحوال. والنكد بكسر الكاف القليل الخير الممتنع عن إفادة النفع على جهة البخل والضنة والمصدر النكد بفتحتين، يقال نكد عيشهم بكسر الكاف ينكد بالفتح نكداً إذا اشتد عيشهم وضاق. ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك التصريف البديع. ﴿نصرف الآيات﴾ نرددها ونكررها ﴿لقوم يشكرون﴾ نعمة الله فيتفكرون فيها ويعتبرون بها وتخصيصهم بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بها كقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] والآية مثل لإرسال الرسل عليهم السلام بالشرائع التي هي ماء حياة القلوب إلى المكلفين المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها والمحرومين من مغانم آثارها.

وفي «التفسير الفارسي»: [هركاه كه باران مواعظ ازسحاب كلام رب الأرباب بردل مؤمن بارد أنوار طاعات وعبادات برجوارح أو ظاهر كرد دچون كافر استماع سخن كند زمين دلش تخم نصحيت قبول نكند ازو هيج صفت كه بكار آيددر ظهور نيايد]. قال السعدي قدس سره:

زميـن شـوره سـنـبـل بـرنـيـارد دروتـخـم عـمـل ضـايـع مـكـردان

وقال الحافظ قدس سره:

كوهـر پاك بيايدكه شود قابل فيض ورنه هرسنك وكلى لؤلؤ ومرجان نشود

وعن عبد الله بن مهران قال: حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً، ثم أمر بالرحيل فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن خرج فجلس بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به؛ إذ أقبلت هوادج هارون فكف صبيان عن الولوع به، فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته يا أمير المؤمنين يا أمير المؤمنين، فكشف هارون السجاف بيده وقال لبيك يا بهلول فقال: يا أمير المؤمنين حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال: رأيت النبي ﷺ يمضي على جمل وتحته رحل رث فلم يكن ضرب ولا طرد ولا إليك إليك وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك، فبكى هارون حتى سقطت الدموع على الأرض وقال يا بهلول زدنا يرحمك الله فقال:

هـب أنـك قـد مـلـكـت الأرض طـرا وأن لـك الـعـبـاد فـكـان مـا ذا

ألـيـس غـداً مـصـيـرك جـوف قـبـر ويـحـثـو الـتـرب هـذا ثـم هـذا

فبكى هارون ثم قال: أحسنت يا بهلول هل غيره قال نعم يا أمير المؤمنين رجل آتاه الله مالاً وجمالاً فأنفق في ماله وعفّ في جماله كتب في خالص ديوان الله من الأبرار، فقال:

أحسنت يا بهلول ثم أمر له بجائزة فقال: اردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها، قال: يا بهلول إن يكن عليك دين قضيناه قال: يا أمير المؤمنين لا يقضى دين بدين. اردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك يا أمير المؤمنين من نفسك قال: يا بهلول فنجري عليك ما يكفيك فرفع بهلول رأسه إلى السماء ثم قال: يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله تعالى فمحال أن يذكرك وينساني فأسبل هارون السجاف ومضى. والمقصود من هذه الحكاية بيان استماع هارون الحق وقبوله وذلك لأنه كان كالمكان الزاكي وقلبه حياً بالحياة الطيبة، فلذا لم يخرج منه إلا الأخلاق الحميدة، وأما أرض النفس الأمارة التي هي البلد الخبيث فلا يخرج منها إلا الأخلاق الذميمة والأفعال الرديئة فمن كان قلبه حياً بنور الله انعكس نور قلبه على نفسه فتنورت النفس فتبدلت أوصافها بأوصاف القلب وتلاشت ظلمتها بنور القلب فيطمئن إلى ذكر الله وطاعته، كما هو من أوصاف القلوب وإن كان القلب ميتاً والنفس حية فظلمات صفات النفس تطل على القلب وتبدل صفاته بصفاتها عند استيلاء صفاتها عليه فيحصل اطمئنانه بالدنيا، وما فيها نسأل الله تعالى أن يجعل اطمئناننا إلى ذكره وفكره وشكره ويجعلنا من الذين يعرفون قدر نعمة الله وحق المنعم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ جواب قسم محذوف تقديره: والله لقد أرسلنا نوحاً وهو ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس النبي ابن يرد بن مهلا بيل بن قينان بن أنوش بن آدم عليهم السلام، ونوح أول نبي بعد إدريس بعد شيث، وكان نوح نجاراً بعثه الله إلى قومه على رأس أربعين سنة وكان عمره ألفاً ومائتين وأربعين سنة.

وفي «التفسير الفارسي»: ﴿إلى قومه﴾ [بسوى قوم او كه اكثر أولاد قابيل بودند وبت مى پرستيدند] وذلك أن قابيل لما قتل أخاه هابيل طرده آدم فسكن مع أولاده وأتباعه في اليمن وهو أول من عبد الصنم. ﴿فقال﴾ أي: نوح ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ وحده فإن العبادة بالإشراك ليس من العبادة في شيء. ﴿ما لكم من إله غيره﴾ أي: من مستحق للعبادة وغيره بالرفع صفة لإله باعتبار محله الذي هو الرفع على الابتداء، ومن زائدة في المبتدأ والخبر لكم. ﴿إني أخاف عليكم﴾ أي: إن لم تعبدوه حسبما أمرت به وهو بيان للداعي إلى عبادته. ﴿عذاب يوم عظيم﴾ أي: عذاب يوم القيامة أو يوم الطوفان.

﴿قال الملأ من قومه﴾ استئناف، أي الرؤساء من قومه والأشراف الذين يملؤون صدور المحافل بأجرامهم والقلوب بجلالهم وهيبتهم والأبصار بجمالهم وبهجتهم. ﴿إنا لنراك﴾ يا نوح ﴿في ضلال﴾ ذهاب عن طريق الحق والصواب لمخالفتك لنا والرؤية قلبية ﴿مبين﴾ بين كونه ضلالاً.

﴿قال﴾ استئناف أيضاً ﴿يا قوم﴾ ناداهم بإضافتهم إليه استمالة لقلوبهم نحو الحق. ﴿ليس بي﴾ الباء للملابسة أو للظرفية ﴿ضلالة﴾ بالغ في النفي حيث نفى عن نفسه ملابسة ضلالة واحدة، أي ليس بي شيء من أفراد الضلال وجزئياته فضلاً عن أن يكون بي ضلال

عظيم بين كما بالغوا في الإثبات حيث جعلوه مستقراً في الضلال الواضح كونه ضلالاً.
﴿ولكني رسول﴾ أي: رسول كائن ﴿من رب العالمين﴾ فمن لابتداء الغاية مجازاً والرسالة يلزمها الهدى التام الغير القابل للضلال فاستدرك الملزوم ليكون كالبرهان على استدراك اللازم كأنه قال: ولكني على هدى كامل في الغاية؛ لأني رسول من رب العالمين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ الرسالة صفة واحدة قائمة بذات الرسول متعلقة بالإضافة إلى المرسل والمرسل إليه إلا أنها جمعت نظراً إلى تعددها بحسب تنوع معانيها كالعقائد والمواعظ والأحكام، أو لأن المراد بها ما أوحي إليه وإلى الأنبياء قبله كصحف شيث وهي خمسون صحيفة وصحف إدريس وهي ثلاثون صحيفة. ﴿وأنصح لكم﴾ زيادة اللام مع تعدي النصح بنفسه يقال نصحتك للدلالة على إمحاض النصح لهم وإنها لمنفعتهم ومصلحتهم خاصة، فإنه ربَّ نصيحة ينتفع بها الناصح أيضاً وليس الأمر ههنا كذلك والفرق بين تبليغ الرسالة وتقرير النصيحة أن تبليغ الرسالة معناه، أن يعرف أنواع تكاليف الله وأحكامه والنصيحة المراد بها الترغيب في الطاعة والتحذير من المعاصي والإرشاد إلى ما فيه مصالح المعاد.

قال الحدادي: النصح إخراج الغش من القول والفعل. ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي: أعلم من قدرته القاهرة وبطشه الشديد على أعدائه، وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين ما لا تعلمونه قيل كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا غافلين آمنين لا يعلمون ما علمه نوح عليه السلام بالوحي.

﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر، أي استبعدتم وعجبتم من أن جاءكم وحي أو موعظة من مالك أموركم ومربيكم. ﴿على رجل منكم﴾ أي: على لسان رجل من جنسكم فإنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون لا مناسبة بينه تعالى وبين البشر من حيث إنه تعالى في غاية التقدس والتنزه والبشر في غاية التعلق والتكدر فأنكر عليهم نوح عليه السلام؛ لأنه لا سبيل إلى أن يكلف الله البشر بنفسه من غير واسطة لأن حجاب العظمة والكبرياء يمنع من أن يتحقق بينهم الفيض والاستفاضة فتعين أن يكون التكليف بأن يرسل بشراً ذا جهتين يستفيض من عالم الغيب بجهة تجرده وصفاء روحانيته ويفيض لبني نوعه بجهة مشاركته لهم في الحقيقة النوعية. ﴿لينذركم﴾ علة للمجيء، أي ليحذركم عاقبة الكفر والمعاصي. ﴿ولتتقوا﴾ منها بسبب الإنذار. ﴿ولعلكم ترحمون﴾ أي: ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم وفائدة حرف الترجي التنبيه على عزة المطلب وأن التقوى غير موجبة للرحمة، بل هي منوطة بفضل الله تعالى وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله تعالى.

﴿فكذبوه﴾ واستمروا على ذلك في هذه المدة المتطاولة؛ إذ هو الذي يعقبه الإنجاء والإغراق لا مجرد التكذيب روي أن نوحاً عليه السلام دعا بهلاك قومه فأمره الله تعالى بصنع الفلك فلما تم دخل فيه مع المؤمنين فأرسل الله الطوفان وأغرق الكفار وأنجى نوحاً مع

المؤمنين فذلك قوله تعالى: ﴿فأنجيناه والذين معه﴾ من المؤمنين وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة. ﴿في الفلك﴾ متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف، أي والذين استقروا معه في الفلك. ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي: استمروا على تكذيبها وليس المراد بهم الملأ المتصدين للجواب فقط، بل كل من أصر على التكذيب منهم ومن أعقابهم، وتقديم ذكر الإنجاء على الإغراق للإيذان بسبق الرحمة التي هي مقتضى الذات وتقدمها على الغضب الذي يظهر أثره بمقتضى جرائمهم. ﴿إنهم كانوا قوماً عمين﴾ أصله عميين جمع عم أصله عمى على وزن خضر فأعل كإعلال قاضٍ.

قال أهل اللغة: يقال رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر، والمعنى عمين قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد غير مستبصرين وهذا العمى مانع عن رؤية الآيات ومشاهدة البينات. قال الحافظ:

جمال يار ندارد نقاب وپرده ولى غبار ره بنشان تا نظر توانى كرد

بخلاف أعمى البصر إذا كان مستعداً للنظر فإنه كم من أعمى قادر على الرؤية من حيث الحقيقة. قال الصائب:

دل چو بينا ست چه غم ديده اكرنا بيناست خانهٔ آيينه را روشنى از روزن نيست

وفي الآية: إشارة، إلى نوح الروح الذي أرسله الله إلى قومه ببلاد القالب وهو القلب وصفاته والنفس وصفاتها، ومن صفة الروح العبودية والطاعة ودعوة القلب والنفس وصفاتهما إلى الله وعبوديته، ومن صفات النفس وشأنها تكذيب الروح ومخالفته والإباء عن قبول نصحه والروح يحذر قومه من عبادة الدنيا وزينتها لئلا يحرموا من مساعدة الرحمة فكذبه قومه من النفس وصفاتها، فأنجينا الروح من ظلمات النفس وتمردها والذين معه وهم القلب وصفاته الذين قبلوا دعوة نوح الرسول وركبوا معه في الفلك، وهو فلك الشريعة والدين فأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا أي النفس وصفاتها في بحر الدنيا وشهواتها إنهم كانوا قوماً عمين عن رؤية الله والوصول إليه هذه حال الأنفس والآفاق وأهليهما، ولو أصغوا إلى داعي الحق واجتنبوا عما ارتكبوا لنجوا كما حكي أن الشيخ بقا رضي الله عنه كان يوماً جالساً على شط نهر الملك فمرت به سفينة فيها جند ومعهم خمر وفواكه ونساء متبرجات وصبيان ومغاني وهم في غاية من اللهو والطغيان فقال الشيخ بقا للملاح اتق الله وقدم إلى الله، فلم يلتفتوا إلى كلامه، فقال: أيها النهر المسخر خذ الفجرة فنما الماء عليهم حتى طلع إلى السفينة فأشرفوا على الغرق فصاحوا بالشيخ وأعلنوا بالتوبة فعاد الماء إلى حاله وحسنت توبتهم وكانوا بعد ذلك يكثرون من زيارته. قال الحافظ:

امروز قدر پند عزيزان شناختم يا رب روان ناصح ما ازتوشاد باد

فعلى العاقل أن يقبل النصيحة ممن فوقه ودونه فإن النصيحة سهلة والمشكل قبولها ونعم ما قال السعدي قدس سره:

مردبايدكه كيرد اندر كوش ورنوشت است پند برديوار

اللهم اجعلنا ممن قبل دعوتك ودخل جنتك.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ
أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

﴿وإلى عاد﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد وهم قوم من أهل اليمن وكان اسم ملكهم عاداً فنسبوا إليه وهو عاد بن إرم بن سام بن نوح. ﴿أخاهم﴾ أي: واحداً منهم في النسب لا في الدين كقولهم يا أخا العرب. ﴿هوداً﴾ عطف بيان لأخاهم وهو هود بن عبد الله بن رياح بن خلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وإنما جعل الرسول من تلك القبيلة، لأنهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وأقرب إلى اتباعه ﴿قال﴾ استئناف.

وفي «التفسير الفارسي»: [قبيلهء عاد مردم تن آور وبلند بالابودند واز ايشان درتمام روى زمين دران زمان قبيلهء عظيمه نبود ومردم بسيار بودند ومال فراوان داشتند وعمر در پرستش بت مى كذرانيدند حق سبحانه وتعالى هودرا بديشان فرستاد پس هود بميان قبيله آمد وايشانرا بحق دعوت كرد] قال: ﴿يا قوم﴾ (أي: قوم من) ﴿اعبدوا الله﴾ وحده ﴿ما لكم من إله غيره﴾ غيره بالرفع صفة لإله باعتبار محله وهو الابتداء ومن زائدة في المبتدأ ولكم خبره. ﴿أفلا تتقون﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر أي ألا تتفكرون فلا تتقون عذاب الله تعالى.

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ استئناف كما مر وإنما وصف الملأ بالكفر إذ لم يكن كلهم على الكفر كملأ قوم نوح بل كان منهم من آمن به عليه السلام كمرثد بن سعد وكتم إيمانه ولم يظهر إلا عند مجيء وفد عاد إلى مكة يستغيثون كما سيجيء قال:

عصت عاد رسولهمو فأمسوا ... عطاشاً ما تبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود ... يقابله صداء والبهاء
فبصرنا الرسول سبيل رشد ... فأبصرنا الهدى وجلى العماء
وإن إله هود هو إلهي ... على الله التوكل والرجاء

والملأ: أشراف القوم وهو في الأصل بمعنى الجماعة. ﴿إنا لنراك في سفاهة﴾ أي: متمكناً في خفة عقل راسخاً فيها حيث فارقت دين آبائك. والسفاهة. في اللغة: خفة الحلم والرأي. ﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أي: فيما ادعيت من الرسالة، وفيه إشارة إلى أن قلوب قوم هود وسخة خبيثة كقلوب قوم نوح لم يخرج منها الخبث إلا نكداً فلما أراد هود عليه السلام أن يبذر فيها بذر التوحيد والمعرفة ولم تكن صالحة وقلما خرج منها إلا نبت التسفيه والتكذيب سلكوا طريق سلفهم وإخوانهم وصنعوا مثل حالتهم. وفي «المثنوي»:

در زمين كرنى شكر ورخود نى است ... باز كويد باتو أنواع نبات
زانكه خاك اين زمين بإثبات ... ترجمان هرزمين نبت وى است

﴿قال﴾ أي: هود عليه السلام سالكاً طريق حسن المجادلة مع ما سمع منهم من الكلمة الشنعاء الموجبة لتغليظ القول والمشافهة بالسوء وهكذا ينبغي لكل ناصح. ﴿يا قوم ليس بي سفاهة﴾ أي: شيء منها ولا شائبة من شوائبها والباء للملابسة أو للظرفية. ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي: لكني في غاية الرشد والصدق لأني رسول رب العالمين فالاستدراك باعتبار

ما يلزمه وهو كونه في الغاية القصوى من الرشد والصدق. والرشد هو الاهتداء لمصالح الدين والدنيا وهو إنما يكون بالعقل التام.

﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ معروف بالنصح والأمانة مشهور بين الناس بذلك قد سبق في القصة المقدمة سر جمع الرسالات ومعنى النصح والفرق بين تبليغ الرسالة وتقرير النصيحة وفي قوله ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ تنبيه على أنهم عرفوه بالأمرين لأن الجملة الحالية إنما يؤتى بها لبيان هيئة ذي الحال والشيء لا يوصف إلا بما يعلم المخاطب اتصافه به، أو لأن في جعل ذكر متعلق النصح والأمانة من قبل المهجور دلالة على أنه أوحدي فيه موجد للحقيقتين كأنه صناعته.

﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ أي: استبعدتم وعجبتم من أن جاءكم وحي من مالك أموركم ومربيكم. ﴿على رجل منكم﴾ أي: على لسان رجل من جنسكم. ﴿لينذركم﴾ ويحذركم عاقبة ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي فمن فرط الجهالة وغاية الغباوة عجبوا من كون رجل رسولاً ولم يتعجبوا من كون الصنم شريكاً. ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء﴾ شروع في بيان ترتيب أحكام النصح والأمانة والإنذار وتفصيلها؛ وإذ منصوب باذكروا على المفعولية دون الظرفية أي اذكروا وقت استخلافكم.

قال صاحب «الفوائد»: يشكل هذا بقولهم إذ وإذا وقوعهما ظرفين لازم.

وأجيب: بأن باب الاتساع واسع.

قال المولى أبو السعود: ولعله معطوف على مقدر كأن قيل لا تعجبوا من ذلك وتدبروا في أموركم واذكروا وقت جعله تعالى إياكم خلفاء. ﴿من بعد قوم نوح﴾ أي: في مساكنهم أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شحر عمان.

قال في «التأويلات النجمية»: جعل الله الخلق بعضهم خلفاء عن بعض وجعل الكل خلفاء في الأرض ولا يفني جنساً منهم إلا أقام قوماً خلفاء عنهم من ذلك الجنس فأهل الغفلة إذا انقرضوا أخلف عنهم قوماً وأهل الوصلة إذا انقرضوا ودرجوا أخلف عنهم قوماً. ﴿وزادكم في الخلق﴾ أي: في الإبداع والتصوير بالفارسي [وبيفزود شما] أو في الناس ﴿بصطة﴾ قامة وقوة فإنه لم يكن في زمانهم مثلهم في عظم الأجرام كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة الصغير ستين ذراعاً.

قال وهب: كان رأس أحدهم كالقبة العظيمة وكان عين أحدهم يفرخ فيها السباع وكذلك مناخرهم.

والإشارة كما أن الله تعالى زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخلق، زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخلق فكما أوقع التفاوت بين شخص وشخص فيما يعود إلى المباني أوقع التباين بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعاني. قال الفرزدق:

وقد تلتقي الأسماء في الناس والكنى ... كثيراً ولكن فرقوا في الخلائق

جمع الخليقة وهي الطبيعة وفي هذا المعنى. قال الخاقاني:

نى همه يك رنك دارد درنيستانها وليك ... ازيكى نى قند خيزد وزدكرنى بوريا

﴿فاذكروا آلاء الله﴾ جمع ألى بمعنى النعمة وهو تعميم بعد تخصيص. ﴿لعلكم

تفلحون﴾ لكي يؤديكم ذلك، أي ذكر النعم إلى الشكر المؤدي إلى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب ولما لم يبق للقوم جواب إلا التمسك بالتقليد.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾

﴿قالوا﴾ مجيبين عن تلك النصائح الجليلة ﴿أجئتنا﴾ يا هود ﴿لنعبد الله وحده﴾ أي لنخصه بالعبادة ﴿ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ أي: نترك الآلهة التي كان آباؤنا يعبدونها ومعنى المجيء في أجئتنا إما المجيء من مكان اعتزل عن قومه يعبد فيه ربه كما كان يعبد رسول الله ﷺ بحراء فلما أوحي إليه جاء قومه يدعوهم وإما من السماء كمجيء الملك منها استهزاء به عليه السلام لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملك، وإما القصد على المجاز وهو أن يكون مرادهم بالمجيء مجرد قصد الفعل ومباشرته كأنهم قالوا أتريد منا أن نعبد الله وحده وتقصد أن تكلفنا بذلك كما يقال ذهب يشتمني من غير إرادة معنى الذهاب. ﴿فائتنا بما تعدنا﴾» من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أي: في الإخبار بنزول العذاب.

﴿قال﴾ هود عليه السلام ﴿قد وقع عليكم﴾ أي: قد وجب فيكون مجازاً من باب إطلاق المسبب على السبب فإن نزول العذاب عليهم مسبب عن وجوب نزوله في علمه تعالى. ﴿من ربكم﴾ أي: من جهته تعالى ﴿رجس﴾ عقاب من الارتجاس الذي هو الاضطراب ﴿وغضب﴾ إرادة انتقام ﴿أتجادلونني في أسماء﴾ عارية عن السمى. جعل المجادل فيه أسماء مجردة عن المسميات؛ لأنهم كانوا يسمون الأصنام آلهة ويزعمون كونهم مستحقين للعبادة والحال إنهم بمعزل عن الألوهية واستحقاق العبادة. ﴿سميتموها﴾ أي: سميتم بها ﴿أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان﴾ أي: حجة وبرهان في عبادتها قوله سميتموها صفة للأسماء وكذا قوله ما أنزل الله، وقوله من سلطان مفعول أنزل ومن مزيدة والمعنى أتجادلونني في مسميات لها اسم بدون ما يليق بها وتوجه الذم للتسمية الصرفة الخالية عن المعنى، فلا يلزم أن يكون الاسم هو المسمى.

قال في «التفسير الفارسي»: [في أسماء دركار اين نامها يعنى اين بتان كه هريك را نامى نهاده آيد بعضى را سائقه مى كفتند وكمان ايشان آن بودكه باران از ايشان مى بارد وبعضى را حافظه مى خوانند ند بمظنهء آنكه نكهبان درسفر ايشانند وهمچنين رازقه وسالمه واين الفاظ اسما بودند بى مسما چه أصنام راكه جمادات بودند قدرت برينها نبوده پس هود عليه السلام فرموده كه شما جدال ميكنيد بدين چيزها كه ازروى جهالت شما نام نهاده آيد ايشانرا]. ﴿فانتظروا﴾ مترتب على قوله تعالى قد وقع عليكم أي فانتظروا ما تطلبونه بقولكم فائتنا بما تعدنا. ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لما يحل بكم من العذاب.

﴿فأنجيناه﴾ الفاء فصيحة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ [البقرة: ٦٠] أي فوقع فأنجينا هوداً ﴿والذين معه﴾ أي: في الدين ﴿برحمة منا﴾ أي: برحمة عظيمة كائنة من جهتنا عليهم وفيه

إشارة أن هوداً مع رتبته في النبوة ودرجته في الرسالة إنما نجا برحمة من الله هو والذين آمنوا معه ليعلم أن النجاة لا تكون باستحقاق العلم وإنما تكون ابتداء فضل من الله ورحمة فما نجا إلا بفضل الحق سبحانه. ﴿وقطعنا دابر﴾ القوم ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي: استأصلناهم أي أهلكناهم جميعاً بأن قطعنا عرقهم وأصلهم لأن دابر الشيء آخره فقطع دابر القوم إهلاكهم من أولهم إلى آخرهم. ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ عطف على كذبوا داخل معه في حكم الصلة أي أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعوا عن ذلك أبداً، وفيه تنبيه على أن مناط النجاة هو الإيمان بالله تعالى وتصديق آياته كما أن مدار البوار هو الكفر والتكذيب.

وقصتهم: أنّ عاداً كانوا يسكنون اليمن بالأحقاف وهي رمال يقال رمل عالج ودهمان ومرين ما بين عمان إلى حضرموت، وكانوا قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بقوتهم التي أعطاها الله إياهم وكانت لهم أصنام يعبدونها صداء وصمود والهباء فبعث الله إليهم هوداً نبياً من أوسطهم في النسب وأفضلهم في الحسب، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يعبدوا غيره وأن يكفروا عن ظلم الناس فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة وازدادوا عتواً وتجبراً فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء وجهد مضوا إلى البيت الحرام بمكة مسلمهم وكافرهم وسألوا الله الفرج وكان أهل مكة يومئذٍ العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان رئيس العماليق يومئذ بمكة رجلاً يقال له معاوية بن بكر وكانت أمه من عاد فلما قحط المطر من عاد وجهدوا قالوا جهزوا منكم وفداً إلى مكة يستسقوا فجهزوا قيل بن عتر ومرثد بن سعد في سبعين رجلاً، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو في خارج مكة فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية اسم إحداهما وردة واسم الأخرى جرادة فغلبت جرادة على وردة فسميتا جرادتين فلما رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوثون من البلاء الذي أصابهم شق ذلك عليه وقال قد هلك أخوالي وأصهاري جهداً وعطشاً وهؤلاء مقيمون عندي والله ما أدري كيف أصنع بهم أستحيي أن آمرهم بالخروج إلى حاجتهم فيظنون أن ذلك لثقل مقامهم علي فشكا ذلك إلى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله لعل ذلك يخرجهم فقال معاوية:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد إن عاداً ... قد أمسوا ما يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس ترجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمو بخير ... فقد أمست نساؤهمو أيامى
وإن الوحش تأتيهم جهاراً ... فلا تخشى لعادي سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركمو وليلكمو التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلاما

فلما غنتهم الجرادتان بهذا، قال بعضهم لبعض: يا قوم لقد أبطأتم على أصحابكم فقوموا وادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم، فقال لهم مرثد: والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم هوداً وتبتم إلى الله سقيتم وأظهر إسلامه، فقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثداً لا يقدمن معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقام قيل يستسقي في المسجد، وقال:

اللهم إني لم أجيء لمريض فأداويه ولا لأسير فأفاديه اللهم اسقنا فإنا قد هلكنا، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم وقال القوم اللهم أعط قيلاً ما يسألك واجعل سؤلنا مع سؤله فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل: اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب ما شئت فقال: اخترت السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فنودي اخترت دماراً رمداً لا يبقى من آل عاد ولداً ولا شيوخاً إلا فصاروا همداً ثم ساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة والبلاء إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها فرحوا وقالوا ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥]، أي: كل شيء مرت به فجاءتهم من تلك السحابة ريح عقيم سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً أي دائماً فكانت الريح تحمل الظعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة، وكانوا قد حفروا لأرجلهم في الأرض وغيبوها إلى ركبهم فجعلت الريح تدخل أقدامهم وترفع كل اثنين وتضرب بأحدهما الآخر في الهواء، ثم تلقيهما في الوادي والباقون ينظرون حتى رفعتهم كلهم ثم رمت بالتراب عليهم فكان يسمع أنينهم من تحت التراب فاعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة فما كان يصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم وتلذ به أنفسهم قالوا ولما أراد الله إرسال الريح العقيم إلى عاد أوحى إلى الريح أن تخرج إلى عاد فتنتقم منهم فخرجت على قدر منخر ثور حتى رجفت الأرض ما بين المشرق والمغرب، فقالت الخزان، يا رب لن نطيقها ولو خرجت على حالها لأهلكت ما بين مشارق الأرض ومغاربها فأوحى الله تعالى اخرجي على قدر خرق الخاتم فخرجت على قدر ذلك.

قال السدي: فلما بعث الريح إليهم ودنت منهم نظروا إلى الإبل والرحال تطير بهم الريح بين السماء والأرض فتبادروا إلى البيوت، فأخرجتهم الريح من البيوت حتى أهلكتهم على ما ذكر وسبب هلاك الإبل وغيرها من الحيوانات اتصالها بملك أهل الغضب والبلية إذا نزلت فإنما تنزل عامة، ولله تعالى حكم ومصالح جليلة في كل ما يحكم ويريد ولما نجا هود ومن معه من المؤمنين أتوا مكة فعبدوا الله فيها إلى أن ماتوا، وهكذا فعل كل نبي هلك قومه ونجا هو مع المؤمنين قال بعضهم بين الركن والمقام وزمزم تسعة وتسعون نبياً وإن قبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل في تلك البقعة وسبب الهجرة أن أرض أهل الكفر والمعاصي، قد حل فيها غضب الله وذهب خيرها فاقتضى كمال الخشية من جلال الله تعالى الرحلة إلى دار الأمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] مع أن أمكنة العبادات على طبقات مختلفة متفاوتة في مراتب الثواب فعمل واحد بمكة خير من ألف عمل في غيرها إذ هي محل أنفاس الأنبياء ونفوسهم ومحط رحال الأولياء ورؤوسهم كما أن حال الأزمنة كذلك، فطوبى لعبد هاجر من أرض أهل البدعة والهوى ونزل بأرض أهل السنة والهدى لأن نظر الله تعالى على أهل الخير والصلاح وأما من أخلد إلى أرضه مع جمود أهلها وخمود نار محبتها لمجرد غرض دنيوي من المعاش وغيره فهو ممن أهبطه الله إلى أرض طبيعته وزحزحه عن جنته وأراد خسرانه في تجارته وإلا فالمهتدي إلى سبيل السلام لا يقيم مع الضالين مع وضوح البرهان التام.

سعد يا حب وطن كرچه حديث است صحيح   نتوان مرد بسختى كه من اينجا زادم

يقول الفقير: اللهم إني هاجرت من أرض أهل البغي والفساد، واخترت سلوك طريق

أهل الرشاد فانتقلت من ديار الروم إلى ما يلحق بأرضك المقدسة أعني بروسة المحروسة اللهم ثبت قدمي في طريقك الحق فأنا الحق أرشدني إلى ما في الهجرة من النسر المطلق آمين يا معين.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وإلى ثمود﴾ أي: أرسلنا إلى ثمود وهي قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وثمود في كتاب الله مصروف وغير مصروف. قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨] فمن صرفه جعله اسماً للحي ومن لم يصرفه جعله اسماً للقبيلة. ﴿أخاهم﴾ من حيث النسب كهود عليه السلام كما تقدم ﴿صالحاً﴾ عطف بيان لأخاهم وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ﴿قال﴾ استئناف ﴿يا قوم﴾ بحذف ياء المتكلم ﴿اعبدوا الله﴾ وحده ﴿ما لكم من إله غيره﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى وإن غاير بين الرسل من حيث الشرائع إلا أنه جمع بينهم في التوحيد حيث سلك كل واحد منهم في الدعوة مسلك الآخر فقال نوح وهود وصالح يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. روي أنه لما هلكت عاد عمرت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض وكثروا في خصب وسعة فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام فبعث الله إليهم صالحاً وكانوا قوماً عرباً وصالح من أوسطهم نسباً فدعاهم إلى الله تعالى حتى شمط وكبر فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية تكون مصداقاً لقوله فقال أية آية تريدون قالوا تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة فتدعو إلهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال صالح نعم فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوا الاستجابة فلم تجبهم إلى سؤلهم ولم يظهر إثم الإنجاح فافتضحوا ثم قال سيدهم جندع بن عمرو وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاتبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخدجة على خلقة الجمل في الجسامة وغلظة العظام والقوائم شبيهة بالبختي جوفاء وبراء عشراء فإن فعلت صدقناك وأجبناك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت ذلك لنؤمنن ولنصدقن قالوا: نعم فصلى ركعتين ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله وهم ينظرون ثم نتجت ولداً مثلها في العظم فآمن به جندع ورهط من قومه ومنع الباقين من الإيمان ذواب بن عمرو والجباب صاحب أوثانهم ورباب كاهنهم.

يكى بنور عنايت ره هدايت يافت — يكى بوادى خذلان بماند سر كردان
يكى بوسوسهٔ ديورفت سوى سقر — يكى زپيروى حق كرفت ملك جنان

فمكثت الناقة مع ولدها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء فبعد ظهور هذه المعجزة، قال لهم صالح: ﴿قد جاءتكم بينة﴾ أي: آية ومعجزة ظاهرة وشاهدة بنبوتي ﴿من ربكم﴾ متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صفة لبينة.

قال المولى أبو السعود. وليس هذا الكلام منه عليه السلام أول ما خاطبهم إثر دعوتهم إلى التوحيد بل إنما قاله بعد ما نصحهم وذكرهم بنعم الله فلم يقبلوا كلامه وكذبوه ألا يرى إلى ما في سورة هود من قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] إلى آخر الآيات ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ استئناف كأنه قيل ما هذه البينة فقال هذه ناقة الله أنبهكم عليها أو أشير إليها في حال كونها آية وعلامة دالة على صحة نبوتي، وإضافة الناقة إلى الاسم الجليل لتعظيمها كما يقال بيت الله أو لمجيئها من جهته تعالى بلا أسباب معهودة ووسائط معتادة، يعني: كانت بالتكوين من غير اجتماع ذكر وأنثى ولم تكن في صلب ولا رحم ولم يكن للخلق فيها سعي ولكم بيان لمن هي آية له وخصوا بذلك لأنهم هم الذين طلبوها وينتفعون بها لو تركوا العناد وطلبوا الاهتداء بالدليل والبرهان. ﴿فذروها﴾ تفريع على كونها آية من آيات الله تعالى فإن ذلك مما يوجب عدم التعرض لها أي دعوها. ﴿تأكل في أرض الله﴾ جواب الأمر، أي الناقة ناقة الله والأرض أرض الله فاتركوها ترتع ما ترتع في أرض الحجر من العشب فليس لكم أن تحولوا بينها وبينها وعدم التعرض للشرب للاكتفاء عنه بذكر الأكل. ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ الباء للملابسة أي لا تمسوها ملتبسين بسوء ولا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً من قتل أو ضرب أو مكروه إكراماً لآية الله تعالى، والسوء: اسم جامع لأنواع الأذى ويجوز أن تكون الباء للتعدية والمعنى بالفارسية [ومرسانيد بوى هيچ بدى] وفيه مبالغة حيث نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة. ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ جواب للنهي.

قال في «التفسير الفارسي»: [استحقاق عذاب نه بواسطهٔ ضرر ناقه است بلكه باقامات ايشان بركفر بعد ازشهود معجزه وعقر ناقه دليل عتو ايشانست دركفر].

والإشارة: أن المعجزة للعوام أن يخرج لهم من حجارة الصخرة ناقة عشراء، والمعجزة للخواص أن يخرج لهم من حجارة القلب ناقة السر بسقب سر السر وهو الخفي، وناقة الله التي تحمل أمانة معرفته وتعطي ساكني بلد القالب من القوى والحواس لبن الواردات الإلهية فذروها تأكل في أرض الله، أي ترتع في رياض القدس وتشرب في حياض الأنس ولا تمسوها بسوء مخالفات الشريعة ومعارضات الطريقة فيأخذكم عذاب أليم بالانقطاع عن مواصلات الحقيقة

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ أي. اذكروا وقت جعله تعالى إياكم خلفاء في أرض الحجر أو خلفاء لقوم عاد من بعد إهلاكهم فنصب إذ على المفعولية كما سبق في القصة المتقدمة ﴿وبوأكم في الأرض﴾ أي أنزلكم في أرض الحجر بالفارسي [جاى داد شمارا].

قال أبو السعود: أي جعل لكم مباءة ومنزلاً في أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿تتخذون من سهولها قصوراً﴾ استئناف مبين لكيفية التبوئة أي تبنون في سهولها قصوراً رفيعة على أن من بمعنى في كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩] أو سهولة الأرض بما تعملون منها من اللبن والآجر. ﴿وتنحتون الجبال﴾ أي: الصخور والنحت نجر الشيء الصلب وانتصاب الجبال على المفعولية. ﴿بيوتاً﴾ حال مقدرة من الجبال كما تقول خط هذا الثوب قميصاً، قيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء وقيل إنهم

لطول أعمارهم كانوا يحتاجون إلى أن ينحتوا من الجبال بيوتاً لأن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم. ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ أي: احفظوا نعم الله عليكم فإن حق آلائه تعالى أن تشكر ولا يغفل عنها ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ العثي: أشد الفساد فقيل لهم لا تتمادوا في الفساد حال كونكم مفسدين فالمراد بهذه الحال تعريفهم بأنهم على الفساد لا تقييد العامل، وإلا لكان مفهومه مفيداً معنى تمادوا في الفساد حال كونكم مصلحين وهذا غير جائز، وقيل: إنما قيد به لما أن العثي في الأصل مطلق التعدي وإن غلب في الفساد، فقد يكون في غير الفساد كما في مقابلة غير الظالم الظالم المتعدي بفعله، وقد يكون فيه صلاح راجح كقتل الخضر عليه السلام للغلام وخرقه السفينة فيكون التقييد بالحال تقييداً للعام بالخاص.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قال﴾ استئناف ﴿الملأ﴾ أي: الأشراف والرؤساء ﴿الذين استكبروا من قومه﴾ أي: تعظموا عن الإيمان به ﴿للذين استضعفوا﴾ اللام للتبليغ، أي: للذين استضعفوهم واستذلوهم. ﴿لمن آمن منهم﴾ بدل من الذين استضعفوا بدل الكل والضمير للقوم. ﴿أتعلمون﴾ [اياشما ميدانيد] ﴿أن صالحاً مرسل من ربه﴾ قالوه بطريق الاستهزاء بهم ﴿قالوا﴾ أي: المؤمنون المستضعفون ﴿إنّا بما أرسل به﴾ من التوحيد والعبادة ﴿مؤمنون﴾ عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا نعم أو نعلم أنه مرسل منه تعالى تنبيهاً على أن إرساله أمر معلوم مقرر عندهم حيث أوردوه صلة للموصول ومن المعلوم أن الصلة لا بد أن تكون جملة معلومة الانتساب إلى ذات الموصول فكأنهم قالوا لا كلام في إرساله لأنه أظهر من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذي رأي لما أتى به من هذا المعجز العظيم الخارق وإنما الكلام في الإيمان به فنحن مؤمنون به فهذا الجواب من أسلوب الحكيم وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب.

﴿قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون﴾ عدلوا عن الجواب المطابق، وهو إنا بما أرسل به كافرون لدلالته على أن إرساله معلوم مسلم عندهم، كما دل عليه قول المؤمنين فكأنهم قالوا ليس إرساله معلوماً لنا مسلماً عندنا وليس هناك إلا دعواه وإيمانكم به ونحن بما آمنتم به كافرون فالمؤمنون فرعوا إيمانهم على الإرسال الثابت والكفار فرّعوا كفرهم على إيمان المؤمنين.

واعلم: أن الله تعالى ذم الكفار بوجهين أحدهما الاستكبار وهو رفع النفس فوق قدرها وجحود الحق والآخر أنهم استضعوا من كان يجب أن يعظموه ويبجلوه ومدح المؤمنين حيث ثبتوا على الحق وأظهروه مع ضعفهم عن مقاومة الكفار كما دل عليه قوله: ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾.

﴿فعقروا الناقة﴾ أي: نحروها وبالفارسي [پس پى كردند وبكشتند ناقه را] أسند العقر إلى الكل مع أن المباشر بعضهم للملابسة أو لأن ذلك كان برضاهم فكأنه فعله كلهم. روي أن الناقة كانت ترد الماء غباً فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ما

فيها لا تدع قطرة واحدة ثم تتفحج فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم كلها فيشربون ويدخرون ثم تصدر من أعلى الفج الذي وردت منه لأنها لا تقدر أن تصدر من حيث ترد لضيقه.

قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً وكانوا إذا جاء يومهم وردوا الماء فيشربون ويسقون مواشيهم ويدخرون من الماء ما يكفيهم اليوم الثاني، وكانت الناقة إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي فيهرب منها أنعامهم إلى بطنه وإذا وقع البرد تشتت ببطن الوادي فيهرب منه مواشيهم إلى ظهره فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان عنيزة أم غنم، وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتي المواشي.

قال الحدادي: كان في ثمود امرأة يقال لها صدوق كانت جميلة الخلق غنية ذات إبل وبقر وغنم، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح وكانت تحب عقر الناقة لأجل أنها أضرت بمواشيها فطلبت ابن عم لها يقال له مصدع بن دهر وجعلت له نفسها إن عقر الناقة، فأجابها إلى ذلك ثم طلبت قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه ولد زنى، ولكنه ولد على فراش سالف فقالت يا قدار أزوجك أيُّ بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان منيعاً في قومه فأجابها أيضاً فانطلق قدار ومصدع فاستعووا عواة ثمود فأتاهم تسعة رهط فاجتمعوا على عقر الناقة فأوحى الله تعالى إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة، فقال لهم صالح: بذلك، فقالوا: ما كنا لنفعل ثم تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله، وقالوا نخرج فيرى الناس أنا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده قتلناه ثم رجعنا إلى الغار فكنا فيه فإذا رجعنا قلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون، أي يعلمون أنا خرجنا في سفر لنا وكان صالح لا ينام في القرية وكان له مسجد خارج القرية يقال له مسجد صالح يبيت فيه فإذا أصبح أتاهم فوعظهم، وإذا أمسى خرج إلى المسجد فانطلقوا ودخلوا الغار فلما كان الليل سقط عليهم الغار فقتلهم فلما أصبحوا رآهم رجل فصاح في القرية، فقال: ما رضي صالح حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة.

وقال ابن إسحاق: إنما اجتمع التسعة الذين عقروا الناقة فقالوا هلموا لنقتل صالحاً فإن كان صالح صادقاً منعنا قتله، وإن كان كذباً ألحقناه بناقته فأتوا ليلاً فبيتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة، وقال بعضهم: انطلق قدار ومصدع وأصحابهما التسعة فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها مصدع في أصل صخرة أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ثم خرج قدار فعقرها بالسيف فخرت ترغو ثم طعنها في لبتها ونحرها وخرج أهل البلد واقتسموا لحمها فلما رآها سقبها كذلك رقى جبلاً اسمه قارة فرغا ثلاثاً ودموعه تنحدر حتى أتى الصخرة التي خلق منها فانفتحت فدخلها. فذلك قوله تعالى: ﴿**فعقروا الناقة**﴾ ﴿**وعتوا عن أمر ربهم**﴾ أي: استكبروا عن امتثاله وهو ما بلغهم صالح من الأمر بقوله: فذروها ومن النهي بقوله: ولا تمسوها أو استكبروا عن اتباع أمر الله وهو شرعه ودينه ويجوز أن يكون المعنى صدر عتوهم عن أمر ربهم كان أمر ربهم بترك الناقة كان هو السبب في عتوهم ونجوا من هذه كما في قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] كذا في «الكشاف». ﴿**وقالوا**﴾ مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيز والإفحام ﴿**يا صالح ائتنا بما تعدنا**﴾ من العذاب على

قتل الناقة ﴿إن كنت من المرسلين﴾ فإن كونك من جملتهم يستدعي صدق ما تقول من الوعد والوعيد.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي: الزلزلة الشديدة لكن لا أثر ما قالوا بل بعد ما جرى عليهم ما جرى من مبادي العذاب في الأيام الثلاثة كما سيجيء ورد في حكاية هذه القصة. ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ وفي موضع ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣] وفي موضع ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] ولا تناقض لأن الرجفة مترتبة على الصيحة لأنه لما صيح بهم رجفت قلوبهم فماتوا فجاز أن يسند الإهلاك إلى كل واحدة منهما.

وقال الحدادي: فأخذتهم الزلزلة ثم صيحة جبريل.

وفي «التفسير الفارسي: [پس فرا كرفت ايشانرا بسبب كشتن ناقه زلزله، بعد ازسفيدن صيحه، عظيم] وأما قوله بالطاغية فالباء فيها سببية والطاغية مصدر بمعنى الطغيان كالعاقبة والتاء للمبالغة كما في علامة ومعناه أهلكوا بسبب طغيانهم. ﴿فأصبحوا في دارهم﴾ أي: صاروا في أراضيهم وبلدهم أو في مساكنهم ﴿جاثمين﴾ أي: خامدين موتى لاحراك بهم وأصل الجثوم البروك يقال الناس جثوم أي قعود لاحراك بهم.

قال أبو عبيدة: الجثوم للناس، والطير والبروك للإبل والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب وحركية كما يكون عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من شدة الأخذ وسرعة البطش اللهم إنا بك نعوذ من نزول سخطك وحلول غضبك، قيل: حيث ذكرت الرجفة وحدت الدار وحيث ذكرت الصيحة جمعت لأن الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فقرن كل منهما بما هو أليق به. روي أنهم لما عقروا الناقة هرب ولدها إلى جبل فرغا ثلاثاً وكان صالح قال لهم بعد بلوغ خبر القتل إليه أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه فانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها، قال صالح: لكل رغوة أجل يوم. تمتعوا في داركم أي في بلادكم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب وقد عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح: أبشروا بعذاب الله ونقمته، فقالوا له: وما علامة ذلك فقال تصبحون غداة يوم الخميس وجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم الجمعة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم السبت ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب أول يوم الأحد فكان الأمر كما وصف نبيهم حيث أصبحوا يوم الخميس كأن وجوههم طليت بالزعفران صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فأيقنوا بالعذاب، وعلموا أن صالحاً قد صدق فطلبوه ليقتلوه فهرب منهم واختفى في موضع فلم يجدوه فجعلوا يعذبون أصحابه ليدلوهم عليه، فلما أصبحوا يوم الجمعة أصبحت وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدماء فصاحوا بأجمعهم وضجوا وبكوا وعرفوا أن العذاب قد دنا إليهم وجعل كل واحد منهم يخبر الآخر بما يرى في وجهه، ثم أصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودة كأنها طليت بالقار والنيل فصاحوا جميعاً ألا قد حضر العذاب، فلما كان ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومن آمن به إلى الشام فنزل رملة فلسطين فلما كان يوم الأحد وهو اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر لئلا يتعرض لهم السباع لمرارته

وتكفنوا بالأنطاع وألقوا نفوسهم على الأرض يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض أخرى لا يدرون من أين يأتيهم العذاب فأتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء له صوت ورجفة من الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك.

فإن قلت: مشاهدة العلامات المذكورة تلجىء المكلف إلى الإيمان فهل يحتمل أن يبقى العاقل بعدها مصرّاً على كفره.

قلت: لما شاهدوا علامات نزول العذاب خرجوا عن حد التكليف فلم تقبل توبتهم بعد ذلك.

﴿فتولى عنهم﴾ أثر ما شاهد ما جرى عليهم من الهلاك تولى مغتماً متحسراً على ما فاتهم من الإيمان متحزناً عليهم. ﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي﴾ [پيغام پروردكار من كه بأداء آن مأمور بودم] ﴿ونصحت لكم﴾ وقت الدعوة بالترغيب والترهيب وبذلت فيكم وسعي، ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ صيغة المضارع حكاية حال ماضية أي شأنكم الاستهزاء على بعض الناصحين لأن قول الناصح ثقيل والحق مرّ وهما يفيدان البغضة كما قال قائلهم:

وكم سقت في آثاركم من نصيحة ... وقد يستفيد البغضة المتنصح

وذلك أيضاً من خباثة أرض النفس الخبيثة لم تقبل بذر النصح ولم ينبت فيها. وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال لما مر النبي عليه السلام بالحجر في غزوة تبوك يعني: مواضع ثمود قال لأصحابه: «لا يدخلن أحد منكم هذه القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم» ثم قال: «لا تسألوا رسولكم الآيات فإن هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية، فبعث الله إليهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها وأراهم مرتقى الفصيل حيث ارتقى» ثم أسرع رسول الله السير حتى جاوز الوادي، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لعلي: «يا علي أتدري من أشقى الأولين»؟ قال الله ورسوله أعلم قال: «عاقر الناقة» ثم قال: «أتدري من أشقى الآخرين»؟ قال الله ورسوله أعلم قال: «قاتلك». وفي «المثنوي»:

ناقهٔ صالح بصورت بد شتر ... پى بريدندش زجهل آن قوم مر
ناقة الله آب خورد از جوى ميغ ... آب حق را داشتند از حق دريغ
شحنهٔ قهر خدا زيشان بجست ... خونبهاى اشترى شهرى درست
صالح ازخلوت بسوى شهر رفت ... شهر ديد اندر ميان دود وتفت
زاستخوانها شان شنيد اونالها ... اشك خون ازجان شان چون ژالها
صالح آن بشنيد وكريه سازكرد ... نوحه بر نوحه كنان آغاز كرد
كفت اي قومى بباطن زيسته ... واز شما من پيش حق بكريسته
حق بكفته صبركن برجورشان ... پندشان ده بس نماند از دورشان
من بكفته پند شد پند از جفا ... شير پند از مهر جوشد وز صفا
بس كه كرديد از جفا برجاى من ... شير پند افسرد در ركهاى من
حق مرا كفته ترا لطفى دهم ... بر سر آن زخمها مرهم نهم

صاف كرده حق دلم را چون سما ... روفته از خاطرم جور شما
در نصيحت من شده بار دكر ... كفته أمثال سخنها چون شكر
شير تازه از شكر انكيخته ... شير شهدى با سخن آميخته
درشما چون زهر كشته اين سخن ... زانكه زهرستان بديد از بيخ وبن
چون شوم غمكين كه غم شد سر نكون ... غم شما بوديد اي قوم حرون
هيچ كس برمرك غم نوحه كند ... ريش سر چون شد كسى مو بركند

والإشارة أن صالح الروح أرسل بنفخة الحق إلى بلد القلب وساكنيه ليدعوهم من الأوصاف الرديئة السفلية الظلمانية الحيوانية إلى الأخلاق الحميدة العلوية النورانية الروحانية والنفس وصفاتها عقروا ناقة سر القلب بسكاكين مخالفات الحق والاستكبار وعتوا عن أمر ربهم من التوحيد والمعرفة فصاروا إلى الهلاك وبقوا في أودية الجهل والإنكار عصمنا الله وإياكم من كل ما يسوء الروح ويمنع الفتوح.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿ولوطاً﴾ أي: وأرسلنا لوطاً وهو لوط بن هاران بن تارخ فهو ابن أخي إبراهيم كان من أرض بابل العراق فهاجر مع عمه إبراهيم إلى الشام ونزل الأردن وهو كورة بالشام فأرسله الله إلى أهل سدوم بلد بحمص.

قال في «التفسير الفارسي»: [خداى تعالى ويرا پيغمبرى داد وباهل مؤتفكات فرستاد وآن پنج شهر بوده سدوم أعظم مداين بود وديكر عامه وداود وصابورا وصفود كويند درهر شهرى چهار بارهزار هزار آدمى بوند لوط عليه السلام بسدوم آمد وخلق را بخداى تعالى دعوت كرد وبيست سال درميان ايشان بود وبخيرات امر مينمود واز فواحش نهى فرمود ويكى از فواحشها لواطه بود] كما حكى الله تعالى بقوله: ﴿إذ قال لقومه﴾ [مرقوم سدوم راكه لوط عليه السلام درميان ايشان بود] وهو ظرف لأرسلنا المضمر أي أرسلنا لوطاً إلى قومه وقت قوله لهم.

قيل: الإرسال قبل وقت القول لا فيه.

وأجيب بأن هذا من قبيل قولك في ظرف المكان زيد في أرض الروم فهو ههنا غير حقيقي فيكفي وقوع المظروف في بعض أجزائه. ﴿أتأتون الفاحشة﴾ إنكار وتقريع على تلك الفعلة المتمادية في القبح أي البالغة إلى غاية القبح وهي اللواطة والمعنى أتفعلونها ﴿ما سبقكم بها﴾ ما فعلها قبلكم على أن الباء للتعدية، كما في قوله عليه السلام: «سبقك بها عكاشة» من قولك سبقته بالكرة أي ضربتها قبله ﴿من أحد﴾ من مزيدة لتأكيد النفي وإفادة الاستغراق ﴿من العالمين﴾ من للتبعيض والجملة استئناف نحوي أي مبتدأة جيء بها تأكيداً للإنكار السابق كأنه وبخهم أولاً بإتيان الفاحشة ثم باختراعها فإنه أسوأ.

﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ بيان لتلك الفاحشة. قرأ نافع وحفص إنكم بطريق الخبر والباقون ائنكم بطريق الاستفهام يقال أتى المرأة إذا غشيها وفي إيراد لفظ الرجال دون الغلمان والمردان ونحوهما مبالغة في التوبيخ. ﴿شهوة﴾ مفعول له وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الشهوة.

﴿من دون النساء﴾ أي: متجاوزين النساء اللاتي أباح الله لكم ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ إضراب عن الإنكار المذكور إلى الإخبار بحالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثاله وهي اعتياد الإسراف في كل شيء، يعني: إنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحد في كل شيء فمن ثمة أسرفوا في باب قضاء الشهوة وتجاوزوا عما عين لها إلى غيره.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء، أي ما كان جواباً من جهة قومه شيء من الأشياء إلا قول بعضهم لبعض ﴿أخرجوهم﴾ أي: لوطاً ومن معه من المؤمنين. ﴿من قريتكم﴾ أي: إلا هذا القول الذي يستحيل أن يكون جواباً لكلام لوط وليس المراد لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن مقالات لوط ومواعظه إلا هذه المقالة الباطلة كما هو المتسارع إلى الأفهام، بل إنه لم يصدر عنهم في المرة الأخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم وبينه عليه السلام إلا هذه الكلمة الشنيعة، وإلا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الترهات حسبما حكى عنهم في سائر السور الكريمة وهذا هو الوجه في نظائره الواردة بطريق القصر، وقوله: ﴿من قريتكم﴾ أي: من بلدكم فإن العرب تسمي المدينة قرية والمراد بلدة سدوم. ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: يطلبون الطهارة من الفواحش قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية بهم. ﴿فأنجيناه﴾ أي: لوطاً ﴿وأهله﴾ ابنتيه رعوزا وريثا وسائر من آمن به فإن الأهل يفسر بالأزواج والأولاد وبالعبيد والإماء وبالأقارب وبالأصحاب وبالمجموع وأهل الرجل خاصته الذين ينسبون إليه. ﴿إلا امرأته﴾ وأهله فإنها تسر الكفر وتغري الكفار على إنكار لوط وهو استثناء من أهله. ﴿كانت من الغابرين﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا كان حالها فقيل كانت من الغابرين أي الباقين في ديارهم الهالكين فيها من الغبور بالفارسي [باقى بماندن] والتذكير مع أن الظاهر أن يقال من الغابرات مبني على أنه بقي في ديارهم رجال ونساء فغلب الرجال فقيل في حقها إنها كانت منهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وأمطرنا﴾ [بارانيديم] ﴿عليهم﴾ [بركفا قوم لوط] ﴿مطراً﴾ نوعاً من المطر عجيباً وهي الحجارة، أي: أرسلنا عليهم الحجارة إرسال المطر. ﴿فانظر﴾ خطاب لكل من يتأتى من التأمل والنظر تعجيباً من حالهم وتحذيراً من أعمالهم. ﴿كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي: تفكر في آخر أمر الكافرين المكذبين كيف فعلنا بهم.

قيل: كان السبب في اختراعهم هذه الخصلة القبيحة، أي اللواطة أن بلادهم وهي أرض الشام أخصبت بأنواع الثمار والحبوب فتوجه إليهم الناس من النواحي والأطراف لطلب المعروف فتأذوا من كثرة ورود الفقراء فعرض لهم إبليس في صورة شيخ، وقال: إن فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فأبوا، فلما ألح الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلماناً صباحاً فأخبثوا فاستحكم فيهم ذلك وكانوا لا ينكحون إلا الغرباء.

وقال الكلبي: أول من فعل به ذلك الفعل إبليس الخبيث حيث تمثل لهم في صورة شاب جميل فدعاهم إلى نفسه ثم عملوا ذلك العمل بكل من ورد عليهم من المرد قضاء لشهوتهم ودفعاً لهجوم الناس عليهم وعاشوا بذلك العمل زماناً فلما كثر فيهم عجت الأرض إلى ربها

فسمعت السماء فعجت إلى ربها فسمع العرش فعج إلى ربه فأمر الله السماء أن تحصبهم والأرض أن تخسف بهم أمطروا أولاً بالحجارة ثم خسف بهم الأرض وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم. وروي أن تاجراً منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه.

دلت الآية على أن اللواطة أفحش الفواحش وأقبحها لأن الله تعالى ما أمطر الحجارة على أهل الذنوب العظام مثل الزنى والعقوق والسرقة والقتل بغير الحق وغير ذلك من الكبائر حتى الشرك.

قال ابن سيرين: ليس شيء من الدواب يعمل هذا العمل إلا الخنزير والحمار، فاللواطة ذنب عظيم يجب أن يحترز عنها وعن مباديها أيضاً كاللمس والقبلة.

قال الإمام: مَنْ قَبّل غلاماً بشهوة، فكأنما زنى بأمه سبعين مرة، ومن زنى مع أمه مرة فكأنما زنى بسبعين بكراً، ومن زنى من البكر مرة، فكأنما زنى مع سبعين ألف امرأة، وضرر النظر في الأمرد أشد لامتناع الوصول في الشرع؛ لأنه لا يحل الاستمتاع بالأمرد أبداً. قال الشيخ سعدى قدس سره:

خرابت كند شاهد خانه كن ... بروخانه آباد كردان بزن
نشايد هوس باختن باكلى ... كه هر بامدادش بود بلبلى
مكن بد بفرزند مردم نكاه ... كه فرزند خويشت بر آيد تباه
چرا طفل يك روزه هوشش نبرد ... كه در صنع ديدن چه بالغ چه خر
محقق همى بيند اندر ابل ... كه درخوب رويان چين وچكل

وحكي أن سليمان بن داود عليهما السلام قال يوماً لعفريت من الجن: ويلك أين إبليس قال: يا نبي الله هل أمرت فيه بشيء قال: لا قال: أين هو قال: انطلق يا نبي الله فانطلق ومشى العفريت بين يدي سليمان حتى هجم به على البحر فإذا إبليس على بساط على الماء فلما رأى سليمان ذعر منه وفرق فقام فتلقاه فقال يا نبي الله هل أمرت فيّ بشيء قال: لا ولكن جئت لأسألك عن أحب الأشياء إليك وأبغضها إلى الله تعالى فقال إبليس أما والله لولا ممشاك إليّ ما أخبرتك ليس شيء أبغض إلى الله تعالى من أن يأتي الرجل الرجل والمرأة المرأة وفي الحديث: «سحاق النساء زنى بينهن» وفي «ملتقطة الناصري» الغلام إذا بلغ مبلغ الرجال ولم يكن صبيحاً فحكمه حكم الرجال وإن كان صبيحاً فحكمه حكم النساء، وهو عورة من قرنه إلى قدمه يعني لا يحل النظر إليه عن شهوة فأما السلام والنظر لا عن شهوة فلا بأس به، ولذا لم يؤمر بالنقاب والأمرد إذا كان صبيحاً فأراد أن يخرج في طلب العلم فلأبيه أن يمنعه.

وكان محمد بن الحسن صبيحاً، وكان أبو حنيفة يجلسه في درسه خلف ظهره أو خلف سارية المسجد حتى لا يقع عليه بصره مخافة من خيانة العين مع كمال تقواه حتى إن واحداً من العلماء مات فرؤي في المنام قد اسودّ وجهه، فسئل عن ذلك فقال رأيت غلاماً في موضع كذا فنظرت إليه فاحترق وجهي في النار.

قال القاضي: سمعت الإمام يقول: إن مع كل امرأة شيطانين ومع كل غلام ثمانية عشر شيطاناً، ويكره مجالسة الأحداث والصبيان والسفهاء لأنه يذهب بالمهابة ويورث التهمة. قال الشيخ سعدي:

چو خواهى كه قدرت بماند بلند دل اى خواجه درساده رويان مبند
وكر خود نباشد غرض درميان حذركن كه دارد بحرمت زيان

ويكره بيع الأمرد ممن يعلم أنه يفضي إليه غالباً لأنه إعانة على المعصية.

فإن قلت: سلمنا أن الغلام ليس محلاً للحرث والتولد لكنه يكون محلاً لقضاء الشهوة واستيفاء اللذة فالعقل يقتضي أن يتصرف المالك في ملكه كيف يشاء.

قلت: الشرع لم يأذن في هذا المحل بالتصرف لغاية قباحته ونهاية خبائثه، ومجرد المملوكية لا يقتضي التصرف في المملوك ألا ترى أن من ملك مجوسية أو وثنية لم يجز له تصرف فيهما أصلاً ما لم تدخلا في الإسلام، وكذا لا يجوز التصرف للسيدة في عبدها المملوك في محل لم يأذن الشرع بالتصرف فيه كالتقبيل والتفخيذ وغيرها من دواعي الوطء فلو جاز للسيد التصرف في عبده لجاز للسيدة التصرف في عبدها بطريق الأولى لكونها محلاً للحرث.

والإتيان في دبر الذكر هو اللواطة الكبرى، وفي دبر المرأة هو اللواطة الصغرى وفي الحديث: «ملعون من أتى امرأة في دبرها» وهل تجوز اللواطة في الجنة قيل إن كان حرمتها عقلاً وسمعاً لا تجوز وإن كان سمعاً فقط تجوز والصحيح أنها لا تجوز فيها لأن الله تعالى استبعدها واستقبحها فقال: ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ وسماها خبيثة فقال: ﴿كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٤] والجنة منزهة عنها.

قال المولى زيرك زاده في «حواشي الأشباه» رحمه الله تعالى رحمة واسعة قد قال الله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩﴾ [الإنسان: ١٩] وفي موضع آخر ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ [فصلت: ٣١] والآية تدل على أن في الجنة مرداً ملاحاً وبعيد أن يكونوا غير مشتهين وغير المعقول في الدنيا أن يكون خلاف الوضع والاستقذار وقطع النسل وأما في النشأة الأخروية فهذه المحذورات منتفية انتهى كلام زيرك زاده.

يقول الفقير: هذا ليس بمرضي عند القلب السليم والعقل المستقيم يأبى عنه من يعرف القبيح من الحسن ويتنفر من يميز الزيوف والنبهرج من النقد الجيد المستحسن. فإن الطواف في الآية الأولى إنما يدل على كونهم خدام أهل الجنة وإن أهل الجنة يتلذذون بالنظر إلى جمالهم وبهجتهم وهذا لا يقتضي التلذذ بالاستمتاع أيضاً كما في حق الحور، والاشتهاء في الآية الثانية وإن كان عاماً لكنه يجوز أن لا تكون اللواطة مشتهاة لأهل الجنة للحكمة التي عليها مدار حرمتها في جميع الأديان كالزنى بخلاف الخمر فإنها كانت حلالاً في بعض الأديان ولذا صارت من نعيم الجنان أيضاً ومطلق ارتفاع موانع الحرمة لا يقتضي الحل والجواز ألا ترى إلى تستر أهل الجنة عند الوقاع فإن أهليهم لا يظهرن لغير المحارم كما في «الواقعات المحمودية» هذا.

وأما حكم الوطء بحسب الشرع فذهب الشافعي إلى أنه يقتل.

وذهب أحمد بن حنبل: إلى أنه يرجم وإن كان غير محصن.

قال في «شرح الوقاية»: إن من أتى دبر أجنبي أو امرأة فعند أبي حنيفة لا يحد، بل يعزر ويودع في السجن حتى يتوب، وعندهما يحد حد الزنى فيجلد إن لم يكن محصنا ويرجم إن كان محصناً قال: قيدنا بدبر الأجنبي لأنه لو فعل ذلك بعبده أو أمته أو بمنكوحته لا يحد اتفاقاً

لهما أن الصحابة أجمعوا على حده ولكن اختلفوا في وجوهه فقال بعضهم يحبس في أنتن المواضع حتى يموت وقال بعضهم يهدم عليه الجدار انتهى. وقد يقال: يلقى من مكان عال كالمنارة.

قال أبو بكر الوراق: يحرق بالنار صرح به في «شرح المجمع».

قال في «الزيادات» والرأي إلى الإمام إن شاء قتله إن اعتاد ذلك وإن شاء حبسه كما في «شرح الأكمل».

والظاهر أن ما ذهب إليه أبو حنيفة إنما هو استعظام لذلك الفعل فإنه ليس في القبح بحيث أن يجازي كالقتل والزنى، وإنما التعزير لتسكين الفتنة الناجزة كما أن يقول في اليمين الغموس إنه لا يجب فيه الكفارة لأنه لعظمه لا يستتر بالكفارة.

وفي كتاب «الحظر والإباحة»: رجل وطأ بهيمة.

قال أبو حنيفة: إن كانت البهيمة للواطىء يقال له: اذبحها وأحرقها إن كانت مأكولة وإن لم تكن مما تؤكل تذبح ولا تحرق.

قال في ترجمة الجلد الأخير من «الفتوحات المكية» [وازنكاح بهايم اجتناب كن نه شرع است ونه دين ونه مروت شخصى بود صالح أما قليل العلم درخانه، خود منقطع بود ناكاه بهيمه، خريد راردا بدان حاجتى ظاهر نه بعد ازچند سال كسى ازوى پرسيد تواين را چه ميكنى وترابوى شغلى وحاجتى نيست كفت دين خودرا باين محافظت ميكنم او خود با آن بهيمه جمع مى آمده است تااززنا معصوم ماند اورا أعلام كردندكه آن حرامست وصاحب شرع نهى فرموده است بسيار كريست وتوبه كرد وكفت ندانستم پس برتو فرض عين است كه از دين خوم باز جويى وحلال وحرام را تمييز كنى تا تصرفات تو بر طريق استقامت باشد انتهى كلام الترجمة]

وفي الحديث: «ومن لم يستطع فعليه بالصوم» استدل به بعض المالكية على تحريم الاستمناء لأنه أرشد عند العجز عن التزوج إلى الصوم الذي يقطع الشهوة فلو كان الاستمناء مباحاً لكان الإرشاد إليه أسهل وقد أباح الاستمناء طائفة من العلماء، وهو عند الحنابلة وبعض الحنفية لأجل تسكين الشهوة جائز.

وفي رواية «الخلاصة» الصائم إذا عالج ذكره حتى أمنى يجب عليه القضاء ولا كفارة عليه ولا يحل هذا الفعل خارج رمضان إن قصد قضاء الشهوة وإن قصد تسكين شهوته أرجو أن لا يكون عليه وبال.

وفي بعض «حواشي البخاري»: والاستمناء باليد حرام بالكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون: ٥] إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧] أي الظالمون المتجاوزون الحلال إلى الحرام.

قال البغوي في الآية: دليل على أن الاستمناء باليد حرام.

قال ابن جريج: سألت عطاء عنه فقال سمعت أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى وأظنهم هؤلاء.

وعن سعيد بن جبير: عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم، والواجب على فاعله التعزير كما قال ابن الملقن وغيره: نعم يباح عند أبي حنيفة وأحمد رحمهما الله إذا خاف على نفسه الفتنة، وكذلك يباح الاستمناء بيد زوجته أو جاريته لكن قال القاضي حسين مع الكراهة لأنه في

معنى العزل وفي «التتارخانية» قال أبو حنيفة حسبه أن ينجو رأساً برأس كذا في «أنوار المشارق» لمفتي حلب الشهباء والله أعلم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وإلى مدين﴾ أي: وأرسلنا إلى قبيلة مدين وهم أولاد مدين بن إبراهيم خليل الله عليه السلام ﴿أخاهم﴾ في النسب، أي واحداً منهم ﴿شعيباً﴾ عطف بيان لأخاهم وهو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين، الذي تزوج ريثا بنت لوط فولدت له وكثر نسله فصار مدين قبيلتهم.

قال الضحاك: بكى شعيب من خشية الله حتى ذهب عيناه وصار أعمى، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين مع كفرهم. ﴿قال﴾ استئناف بياني. ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ وحده ﴿ما لكم من إله غيره﴾ مر تفسيره ﴿قد جاءتكم بينة﴾ معجزة ﴿من ربكم﴾ متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صفة لفاعله مؤكدة لفخامة الذاتية المستفادة من تنكيره بفخامته الإضافية، أي بينة عظيمة كائنة من مالك أموركم ولم يذكر معجزته في القرآن كما لم يذكر أكثر معجزات نبينا عليه السلام.

قال في «التفسير الفارسي»: [درقران معجزهٔ شعيب مذكور نيست ودر احاديث نيز بنظر فقير نرسيده أما در آيات باهرات كه ذكر معجزات أنبيا ميكنند ميكويدكه معجزهٔ شعيب آن بودكه چون بكوه بلند برآمدى كوه سرفرود آوردى تا شعيب بآسانى بروى صعود كردى] وذكر بعض معجزاته في «الكشاف» فارجع إليه. ﴿فأوفوا الكيل﴾ الكيل مصدر قولك كلت الطعام كيلاً والمعنى المصدري لا يمكن إيفاؤه لأن النقص والإتمام من خواص الأعيان فحمله القاضي على حذف المضاف، أي: آلة الكيل وفسره أبو السعود بالمكيال ويؤيده قوله: ﴿والميزان﴾ فإن المتبادر منه الآلة وإن جاز كونه مصدراً كالميعاد فحمل الكيل على ما يكال به كما يطلق العيش على ما يعاش به وكان لهم ميكالان وميزانان أحدهما أكبر من الآخر، فإذا اكتالوا على الناس يستوفون بالأكبر وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون بالأصغر والمعنى أدوا حقوق الناس بالمكيال والميزان على التمام ﴿ولا تبخسوا الناس﴾ أي لا تنقصوا ﴿أشياءهم﴾ التي يشترونها بهما معتمدين على تمامها أي شيء كان وأي مقدار كان فإنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير فالتعبير بالأشياء دون الحقوق للتعميم فإن مفهوم الشيء أعم بالنسبة إلى مفهوم الحق.

واعلم: أن بخس الناس أشياءهم في المكيل والموزون من خساسة النفس ودناءة الهمة وغلبة الحرص ومتابعة الهوى والظلم وهذه الصفات الذميمة من شيم النفوس وقد ورد الشرع بتبديل هذه الصفات وتزكية النفس فإن الله تعالى يحب معالي الأمور ويبغض سفسافها وفي الحديث: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف» وفي الحديث: «الصلاة أمانة والوضوء أمانة والوزن أمانة والكيل أمانة» وروي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «الكيل والوزن أنتم قد وليتم أمراً فيه هلكت الأمم السالفة قبلكم» ﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ أي: بالكفر والحيف ﴿بعد إصلاحها﴾ بعدما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم

بإجراء الشرائع. ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه. ﴿خير لكم﴾ من التطفيف والبخس والإفساد وقيل خير ههنا ليس على بابه من التفضيل، بل بمعنى نافع عند الله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي: مصدقين بي في قولي هذا.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ الباء للإلصاق أو المصاحبة لأن القعود ملصق بالمكان وإن القاعد ملابسه ويحتمل أن تكون بمعنى في؛ لأن القاعد يحل بمكان قعوده وأن تكون بمعنى على لاستيلاء القاعد على المكان. ﴿توعدون﴾ حال من فاعل لا تقعدوا ولم يذكر الموعد به ليذهب الذهن كل مذهب، والمعنى ولا تقعدوا بكل طريق من طرق الدين موعودين أي مخوفين كالشيطان حيث قال: لأقعدن لهم صراطك المستقيم وصراط الله وإن كان واحداً لكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام وكانوا إذا رأوا أحداً يسعى في شيء منها منعوه، وقيل: كانوا يجلسون على المرصد فيقولون لمن يريد شعيباً إنه كذاب لا يفتننك عن دينك ويتوعدون من آمن به وقيل يقطعون الطريق، ﴿وتصدون﴾ عطف على ما توعدون أي تمنعون وتصرفون، ﴿عن سبيل الله﴾ أي: السبيل الذي قعدوا عليه. ﴿من آمن به﴾ أي: بكل صراط وهو مفعول تصدون. ﴿وتبغونها﴾ من باب الحذف والإيصال والتقدير وتبغون لها أنث ضمير السبيل لأنه يذكر ويؤنث. والمعنى وتطلبون لسبيل الله. ﴿عوجاً﴾ زيغاً وعدولاً عن الحق بإلقاء الشبه أو بوصفها للناس بأنها معوجة وهي أبعد شيء من شائبة الاعوجاج.

وفيه إشارة إلى الذين قطعوا طريق الوصول إلى الله على الطالبين بأنواع الحيل بالمكايد وطلبوا الاعوجاج فيه بإظهار الباطل، كما قطعوا على أنفسهم فإن شر المعاصي ما لا يكون لازماً لصاحبه بل يكون متعدياً عنه إلى غيره؛ لأن ضرر التعدية عائد إلى المبتدىء بقدر الأثر في التعدي. ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ بالبركة في النسل والمال فصار ضعفكم قوة وفقركم غنى ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ من الأمم الماضية كقوم نوح ومن بعدهم من عاد وثمود وأضرابهم واعتبروا بهم واحذروا من سلوك مسالكهم.

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به﴾ من الشرائع والأحكام. ﴿وطائفة لم يؤمنوا﴾ أي به.

قال في «التفسير الفارسي»: [قومى از مدين بشعيب عليه السلام ايمان آوردند جمعى ديكر انكار كردند وكفتند قوت وثروت ما راست نه مؤمنارا پس حق باما باشد واكر حق باايشان بودى بايستى كه توانكرى ووسعت معاش ايشانرا بودى شعيب عليه السلام فرمودكه اكرچه شما دوكروه شده ايد]. ﴿فاصبروا﴾ فتربصوا ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ أي: الفريقين بنصر المحقين على المبطلين فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين. ﴿وهو خير الحاكمين﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه وهو أعدل القاضين.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى

مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ بعدما سمعوا هذه المواعظ من شعيب عليه السلام وهو استئناف بياني. ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا﴾ عطف على الكاف في لنخرجنك ويا شعيب اعتراض بين المتعاطفين ونسبة الإخراج إليه أولاً وإلى المؤمنين ثانياً تنبيه على أصالته في الإخراج وتبعيتهم له فيه، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿معك﴾ فإنه متعلق بالإخراج لا بالإيمان. والمعنى: واللّهِ لنخرجنك واتباعك ﴿من قريتنا﴾ بغضاً لكم ودفعاً لفتنتكم المرتبة على المساكنة والجوار.

وفيه إشارة إلى أن من شأن المتكبرين ودأب المتجبرين الاستعلاء وأن يخرج الأعز الأذل وذلك لما فيهم من بطر النعم وطغيان الاستغناء وعمه الاستبداد، ولمّا كان حب الدنيا رأس كل خطيئة وفتنتها أعظم من كل بلية جعل الله تعالى أهلها في البلاد سبباً للهلاك والفساد كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] الآية. قال الحافظ:

ايمن مشو زعشوهٔ دنيا كه اين عجوز مكاره مى نشيند ومحتاله مى رود

﴿أو لتعودن في ملتنا﴾ العود: هو الرجوع إلى الحالة الأولى ومن المعلوم أن شعيباً لم يكن على دينهم وملتهم قط؛ لأن الأنبياء لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير فضلاً عن الكبائر فضلاً عن الكفر إلا أنه أسند العود إليه وإلى من معه من المؤمنين تغليباً لهم عليه؛ لأن العود متصور في حقهم. والمعنى والله ليكونن أحد الأمرين البتة على أن المقصد الأصلي هو العود وإنما ذكر النفي والإجلاء بمحض القسر والإلجاء كما يفصح عنه عدم تعرضه عليه السلام لجواب الإخراج، كأنهم قالوا لا ندعكم فيما بيننا حتى تدخلوا في ملتنا وإنما لم يقولوا أو لنعيدك على طريقة ما قبله لما أن مرادهم أن يعودوا إليها بصورة الطواعية حذر الإخراج باختيار أهون الشرين لا إعادتهم بسائر وجوه الإكراه والتعذيب.

وفيه إشارة إلى أن أهل الخير كما لا يميلون إلا إلى أشكالهم فكذلك أهل الشر لا يرضون ممن رأوا إلا بأن يساعدهم على ما هم عليه من أحوالهم والأوحد في بابه من باين نهج أضرابه.

همه مرغان كند باجنس پرواز كبوتر باكبوتر باز باباز

﴿قال﴾ شعيب رداً لمقالتهم الباطلة وتكذيباً لهم في أيمانهم الفاجرة. ﴿أو لو كنا كارهين﴾ تقديره أنعود فيها ولو كنا كارهين، أي كيف نعود فيها ونحن كارهون لها على أن الهمزة لإنكار الوقوع ونفيه لا لإنكار الواقع واستقباحه كالتي في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠] ﴿قد افترينا على الله كذباً﴾ عظيماً. ﴿إن عدنا في ملتكم﴾ التي هي الشرك وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي إن عدنا في ملتكم. ﴿بعد إذ نجانا الله منها﴾ فقد افترينا على الله كذباً عظيماً حيث نزعم حينئذٍ أن لله تعالى نداً وليس كمثله شيء وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه من الإسلام باطل وأن ما كنتم عليه من الكفر حق وأي افتراء أعظم من ذلك. ﴿وما يكون لنا﴾ أي: وما يصح وما يستقيم لنا. ﴿أن نعود فيها﴾ في حال من الأحوال

أو في وقت من الأوقات. ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي: إلا حالة مشيئة الله تعالى لعودنا فيها وذلك مما لا يكاد يكون كما ينبىء عنه قوله ﴿ربنا﴾ فإن التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم مما ينبىء عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعاً، وكذا قوله تعالى: ﴿بعد إذ نجانا الله منها﴾ فإن تنجيته تعالى لهم منها من دلائل عدم مشيئته تعالى لعودهم فيها.

وقيل: معناه إلا أن يشاء الله خذلاننا وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله تعالى وأياً ما كان فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها في حير الإمكان وخطر الوقوع بناء على كون مشيئته تعالى كذلك بل بيان استحالة وقوعها كأنه قيل: وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وهيهات ذلك بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له. ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ علماً نصب على التمييز منقول عن الفاعلية تقديره وسع علم ربنا كل شيء كقوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: ٤] والمعنى: إحاطة علمه بكل ما كان وما سيكون من الأشياء التي من جملتها أحوال عباده وعزائمهم ونياتهم وما هو اللائق بكل واحد منهم فمحال من لطفه أن يشاء عودنا فيها بعد ما نجانا منها مع اعتصامنا به خاصة حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿على الله توكلنا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار ثم أعرض عن المعاندين وتوجه إلى مناجاة رب العالمين فقال: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ احكم بيننا وبينهم واقض بما يدل على أنّا على الحق وهم على الباطل وافصل بما يليق بحال كل من الفريقين. ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ والفاتح: هو الحاكم بلغة أهل عُمان سمي فاتحاً؛ لأنه يفتح المشكلات ويفصل الأمور ويجوز أن يكون من فتح المشكل إذا بينه. والمعنى أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز الحق من المبطل.

وفي «التأويلات النجمية»: احكم بيننا وبينهم بإظهار حقيقة ما قدرت لنا من خاتمة الخير وإظهار ما قدرت لهم من خاتمة السوء.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٩٢﴾

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ عطف على قوله: ﴿قال الملأ الذين استكبروا﴾ أي قال أشرافهم الذين أصروا على الكفر لأعقابهم بعد ما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين في الإيمان، وخافوا أن يستتبعوا قومهم تثبيطاً لهم عن الإيمان وتنفيراً لهم منه على طريقة التوكيد القسمي، والله ﴿لئن اتبعتم شعيباً﴾ ودخلتم في دينه وتركتم دين آبائكم ﴿إنكم إذاً لخاسرون﴾ أي: في الدين لاشترائكم الضلالة بهداكم أو في الدنيا لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف.

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي: الزلزلة الشديدة وهكذا في سورة العنكبوت وفي سورة هود ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٦٧] أي صيحة جبريل ولعلها من مبادىء الرجفة فأسند هلاكهم إلى السبب القريب تارة وإلى البعيد أخرى.

قال ابن عباس: رجفت بهم الأرض وأصابهم حر شديد فرفعت لهم سحابة فخرجوا إليها يطلبون الروح منها فلما كانوا تحتها سالت عليهم بالعذاب، ومعه صيحة جبريل عليه السلام

﴿فأصبحوا في دارهم﴾ أي: صاروا في مدينتهم وفي سورة هود. ﴿فِي دِيَٰرِهِمْ﴾ [هود: ٦٧].

قال الحدادي: أي بقرب دارهم تحت الظلة كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ﴿جاثمين﴾ أي: ميتين على وجوههم وركبهم لازمين لأماكنهم لابراح لهم منها. وروي أنهم احترقوا تحت السحابة فصاروا ميتين بمنزلة الرماد الجاثم أجساماً ملقاة على الأرض محترقة.

وقال ابن عباس: فتح الله عليهم باباً من جهنم فأرسل عليهم منه حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم فدخلوا جوف البيوت، فلم ينفعهم ماء ولا ظل وأنضجهم الحر فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برد الريح وطيبها وظل السحابة، فتنادوا عليكم بها فخرجوا نحوها فلما اجتمعوا تحتها رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي وصاروا رماداً وهو عذاب يوم الظلة.

قال في «التأويلات النجمية»: من عنادهم رأوا الحق باطلاً والباطل حقاً والفلاح خسراناً والخسران فلاحاً ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ فصارت صورتهم تبعاً لمعناهم فإنهم كانوا جاثمين الأرواح في ديار الأشباح.

﴿الذين كذبوا شعيباً﴾ استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم فيما سبق. ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ وعقوبتهم بمقابلته والموصول مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي: استأصلوا بالمرة وصاروا كأنهم لم يقيموا بقريتهم أصلاً أي عوقبوا بقولهم ذلك، وصاروا هم المخرجين من القرية إخراجاً لا دخول بعده أبداً والمغنى المنزل والمغاني المنازل التي كانوا بها يقال غنينا بمكان كذا، أي نزلنا فيه. وفيه إشارة إلى أن المكذبين والمتكبرين وإن كانت لهم غلبة في وقتهم ولكن تنقضي أيامهم بسرعة ويسقط صيتهم ويخمل ذكرهم ويضمحل آثارهم ويكون أهل الحق مع الحق غالباً في كل أمر والباطل زاهق بكل وصف. وفي «المثنوي»:

يك مناره در ثناى منكران كودرين عالم كه تاباشد عيان
منبرى كوكه برانجا مخبرى يادا آرد روز كار منكرى
يا رغالب شوكه تاغالب شوى يار مغلوبان مشوهين اى غوى

﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير، أي: الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بمقالتهم الأخيرة، فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لا الذين اتبعوه، وبهذا الحصر اكتفى عن التصريح بإنجائه عليه السلام كما وقع في سورة هود من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [هود: ٥٨] الآية.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾ قاله عليه السلام بعدما هلكوا تأسفاً بهم لشدة حزنه عليهم، ثم أنكر على نفسه ذلك، فقال: ﴿فكيف آسى﴾ أي: أحزن حزناً شديداً بالفارسية [پس چه كونه اندوه خورم وغمناك شوم] فهو مضارع متكلم

من الأسى من باب علم وهو شدة الحزن. ﴿على قوم كافرين﴾ مصرين على الكفر ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم، أو قاله اعتذاراً من عدم تصديقهم له وشدة حزنه عليهم، والمعنى: لقد بالغت في الإبلاغ والإنذار وبذلت وسعي في النصح والإشفاق فلم تصدقوا قولي فكيف آسى عليكم. وفي «المثنوي»:

چون شوم غمكين كه غم شدسر نكون   غم شما بوديد اي قوم حرون

كژمخوان اي راست خواننده ببين   كيف آسى خلف قوم ظالمين

قال في «التأويلات النجمية»: يعني خرجت عن عهدة تكليف التبليغ فإنه ما على الرسول إلا البلاغ فإنه وإن نصحت لكم فما علي من إقراركم وإنكاركم شيء إن أحسنتم فالميراث الجميل لكم، وإن أسأتم فالضرر بالتألم عائد عليكم ومالك الأعيان أولى بها من الأعيان فالخلق خلقه والملك ملكه إن شاء هداهم، وإن شاء أغواهم فكيف آسى على قوم كافرين فلا تأسف على نفي وفقد ولا أثر من كون ووجود لأن الكل صادر من حكيم بالغ في حكمته كامل في قدرته انتهى. قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] وهذا إنما يحصل عند الفناء الكلي وهو للأنبياء عليهم السلام وكمل الأولياء.

واعلم: أن كل أهل ابتلاء ليس بمحل للرحمة عند نظر الحقيقة لأن الله تعالى ابتلاه بسبب جفائه إياه فقد اكتسبه بعلمه فكيف يترحم له ولذا كان أهل الحقيقة كالسيف الصارم مع كونهم رحم خلق الله تعالى ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: ٢]. قال السعدي قدس سره:

كرا سرع فتوى دهد برهلاك   ألا تانداري زكشتنش باك

والله تعالى غيور وعبده في غيرته فالحلم والغضب بقدر ما أذن فيه الشرع من أخلاق الأنبياء، وهو لا يقدح في فراغ القلب عن كل وصف؛ لأن رعاية الأحكام الظاهرة لا تنافي التوغل في الحقيقة فعلى العاقل أن يدور بالأمر الإلهي ويرفع عن لسانه وقلبه لِمَ لا، وكيف فإن الأمر بيد الله تعالى لا بيده.

قال إبراهيم بن أدهم لرجل: أتحب أن تكون لله ولياً؟ قال: نعم قال لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة وفرغ نفسك لله وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك، فعلم من هذا أن من كان إقباله إلى نفسه وإلى هواها لا يجد الحق وإقباله وموالاته في كل حالاته ومقاماته كما لا يخفى ﴿وما أرسلنا في قرية﴾ [در شهرى وديهى] ﴿من﴾ مزيدة ﴿نبي﴾ كذبه أهلها ﴿إلا﴾ قد ﴿أخذنا أهلها﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، والمعنى: وما أرسلنا في قرية من القرى المهلكة نبياً من الأنبياء المكذبين في حال من الأحوال إلا في حال كوننا آخذين أهلها. ﴿بالبأساء﴾ بالبؤس والفقر. ﴿والضراء﴾ بالضر والمرض لكن لا على معنى أن ابتداء الإرسال مقارن للأخذ المذكور بل على أنه مستتبع له غير منفك عنه بالآخرة لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه. ﴿لعلهم يضرعون﴾ كي يتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر والعزة عن أكتافهم، فإن الشدة خصوصاً الجوع يؤدي إلى التواضع والانقياد في حق أكثر العباد، ومن بلاغات الزمخشري المرض والحاجة خطبان أمرّ من نقيع الخطبان وهم بضم الخاء نوع من ورق الحنظل أصفر وهو أبلغ في المرارة.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿ثم بدلنا﴾ عطف على أخذنا داخل في حكمه ﴿مكان السيئة﴾ التي أصابتهم ﴿الحسنة﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة لأن ورود النعمة بعد الشدة يدعو إلى الانقياد والاشتغال بالشكر، إنما سميت الشدة سيئة لأنها تسوء الإنسان كما سمي الرخاء حسنة؛ لأنه يحسن أثره على الإنسان وإلا فالسيئة هي الفعلة القبيحة والله تعالى لا يفعل القبيح والحسنة والسيئة من الألفاظ المستغنية عن ذكر موصوفاتها حالة الإفراد والجمع سواء كانتا صفتين للأعمال أو المثوبة أو الحالة من الرخاء والشدة. ﴿حتى عفوا﴾ كثروا عدداً وعدداً وأبطرتهم النعمة يقال عفا النبات إذا كثر وتكاثف ومنه أعفا اللحى في الحديث وهو: «احفوا الشوارب واعفوا اللحى» قال الشاعر:

عفوا من بعد إقلال وكانوا زمانا ليس عندهمو بعير

﴿وقالوا﴾ غير واقفين على أن ما أصابهم من الأمرين ابتلاء من الله سبحانه ﴿قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ كما مسنا ذلك وما هو إلا عادة الدهر يسيء تارة ويحسن أخرى فكما أن آباءنا قد ثبتوا على دينهم ولم ينتقلوا عنه مع ما أصابهم فاثبتوا أنتم على دينكم ولا تنتقلوا عنه. ﴿فأخذناهم﴾ أثر ذلك ﴿بغتة﴾ فجأة أشد الأخذ وأفظعه ﴿وهم لا يشعرون﴾ بنزول العقاب وهم لا يخطرون ببالهم شيئاً من المكاره وهو أشد وحسرته أعظم لأن المرء إذا رأى مقدمات الابتلاء يوطن نفسه عليها بخلاف حال الفجأة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿ولو أن أهل القرى﴾ أي: القرى المهلكة المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿من قرية﴾ ﴿آمنوا واتقوا﴾ مكان كفرهم وعصيانهم ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء وبعضها من الأرض، وأكثر أهل التفسير على أن بركات السماء هي المطر وبركات الأرض النبات والثمار. ﴿ولكن كذبوا﴾ الرسل ﴿فأخذناهم﴾ هذا الأخذ عبارة عما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ٩٥] ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من أنواع الكفر والمعاصي.

وفي الآية دلالة: على أن الكفاية والسعة في الرزق من سعادة المرء إذا كان شاكراً أو المراد بقوله لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة الكثرة التي تكون وبالاً على من لا يشكر الله تعالى.

قال في «التفسير الفارسي»: [در حقايق سلمى فرموده كه اكر بندكان بكرديدندى بمواعد من وحذر كردندى از مخالفت يا بترسيدندى ازتهديد من دلهاء ايشانرا بنور مشاهدهٔ خود روشنى دادمى كه ببركت سما أشارت بدانست وجوارح وأعضاء ايشانرا بخدمت خود بيا راستمى كه بركت زمين عبارت ازآنست].

در زمين وآسمان درهاء جود مى كشايند ازپى اهل سجود
از زمين پر اطاعت بازكن بر سماى معرفت پرواز كن

﴿أفأمن أهل القرى﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه لا لإنكار الوقوع ونفيه والفاء للعطف على قوله فأخذناهم بغتة، والمعنى: أبعد ذلك الأخذ أمن أهل مكة ومن حولها من المكذبين لك يا محمد. ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ عذابنا ﴿بياتاً﴾ ليلاً ﴿وهم نائمون﴾ في فرشهم ومنازلهم لا يشعرون بالعذاب لغفلتهم.

﴿أو أمن أهل القرى﴾ [يا ايمن شدند اهل شهرها] ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾ ضحوة النهار وبالفارسي [دروقت چاشت] وهو في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت ﴿وهم يلعبون﴾ أي: يلهون من فرط الغفلة بصرف الهمم فيما لا ينفع لا في أمر الدين ولا في أمر الدنيا أو يشتغلون بما لا ينفعهم من أمور الدنيا فإن من اشتغل بدنياه وأعرض عن آخرته فهو كاللاعب. [ملخص سخن آنست كه بعد ازتكذيب رسل ازعذاب الهي ايمن نتوان بود نه بروز ونه بشب] ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ مكر الله استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب والمراد به إتيان بأسه تعالى في الوقتين المذكورين.

قال الحدادي: إنما سمي العذاب مكراً على جهة الاتساع والمجاز لأن المكر ينزل بالممكور من جهة الماكر من حيث لا يشعر وأما المكر الذي هو الاحتيال للإظهار بخلاف الإضمار فذلك لا يجوز على الله. ﴿فلا يأمن مكر الله﴾ الفاء فاء جواب شرط محذوف، أي إذا كان استدراجه وأخذه على هذا الوجه فلا يأمن مكره بهذا المعنى: ﴿إلا القوم الخاسرون﴾ الذين ليسوا من القوم الرابحين قيل: معنى الآية ولا يأمن عذاب الله من العصاة أو لا يأمن عذاب الله من المذنبين والأنبياء عليهم السلام لا يأمنون عذاب الله على المعصية ولهذا لا يعصون بأنفسهم انتهى.

قال في «التأويلات النجمية»: مكره تعالى مع أهل القهر بالقهر ومع أهل اللطف باللطف ﴿فلا يأمن مكر الله﴾ من أهل القهر ﴿إلا القوم الخاسرون﴾ الذين خسروا سعادة الدارين ومن أهل اللطف إلا الخاسرون الذين خسروا الدنيا والعقبى وربحوا المولى فعلى هذا أهل الله هم الآمنون من مكر الله؛ لأن مكر الله في حقهم مكر باللطف دل عليه قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] لأن مكرهم مكر في مستحقيه وغير مستحقيه بالقهر ومكره في مستحقيه باللطف فافهم واعتبر جداً انتهى.

واعلم: أن الأمن من مكر الله تعالى قد عد كفراً لكن هذا بالنسبة إلى أهل المكر دون أهل الكرم فإن كمل الأولياء مبشرون بالسلامة في حياتهم الدنيوية كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: ٦٤] فلهم سلامة دنيوية وأخروية كما قال تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [يونس: ٦٢] لكنهم يكتمون سلامتهم لكونهم مأمورين بالكتمان وعلمهم بسلامتهم يكفي لهم ولا حاجة لهم بعلم غيرهم، وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلهم أن يخبروا بسلامتهم لكونهم شارعين فلا بد لغيرهم من العلم بسلامتهم حتى يؤمن ويقبل دعوتهم.

﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾

﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ عدي فعل الهداية باللام لأنها بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل قوله أن لو نشاء ومعنى يرثون الأرض من بعد أهلها يخلفون من خلا قبلهم من الأمم المهلكة ويرثون ديارهم والمراد بهم أهل مكة ومن حولها، والمعنى: أو لم يبين ويوضح لهم عاقبة أمرهم إن سلكوا طريق أسلافهم ﴿أن﴾ مخففة، أي: أن الشأن ﴿لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ أي: بجزاء ذنوبهم وسيئاتهم أو بسبب ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم.

قال سعدي چلبي المفتي: ويجوز أن يضمن معنى أهلكناهم فلا حاجة إلى تقدير المضاف. ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ عطف على ما يفهم من قوله تعالى: ﴿أو لم يهد﴾ كأنه قيل لا يهتدون ونطبع على قلوبهم أي نختم عليها عقوبة لهم. ﴿فهم لا يسمعون﴾ أي: أخبار الأمم المهلكة فضلاً عن التدبر والنظر فيها والاغتنام بما في تضاعيفها من الهدايات.

قال الكاشفي: [كوش دل ازاستماع سخن حق فائده داردنه كوش آب وكل].

اين سخن ازكوش دل بايد شنود كوش كل انيجا ندارد هيچ سود
كوش سربا جمله حيوان همدم است كوش سر مخصوص نسل آدم است
كوش سرچون جانب كوينده است كوش سر سهلت اكر آكنده است

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿تلك القرى﴾ يعني: قرى الأمم المار ذكرهم فاللام للعهد. ﴿نقص عليك﴾ [خوانده ايم برتو] ﴿من أنبائها﴾ من للتبعيض، أي: بعض أخبارها التي فيها عظة وتذكير. ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ الباء متعلقة إما بالفعل المذكور على أنها للتعدية وإما بمحذوف وقع حالاً من فاعله أي ملتبسين بالبينات. والمعنى وبالله لقد جاء كل أمة من تلك الأمم المهلكة رسولهم الخاص بهم بالمعجزات البينة المتكثرة المتواردة عليهم الواضحة الدلالة على صحة رسالته الموجبة للإيمان حتماً. ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ أي: فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام أن يؤمنوا عند مجيء الرسل بها ﴿بما كذبوا من قبل﴾ الباء صلة لم يؤمنوا، أي بما كذبوه من قبل مجيء الرسل بل كانوا مستمرين على التكذيب فما كذبوه عبارة عن أصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسل قاطبة، ودعوا أممهم إليها مثل ملة التوحيد ولوازمها، ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء رسلهم أنهم ما كانوا في زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا كلمة التوحيد قط، بل كانت كل أمة من أولئك الأمم يتسامعون بها من بقايا من قبلهم فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجيء رسلهم كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث إليهم أحد، ويجوز أن يكون المراد بعدم إيمانهم المذكور إصرارهم على ذلك وبما أشير بقوله تعالى ﴿بما كذبوا من قبل﴾ تكذيبهم من لدن مجيء الرسل إلى وقت الإصرار والعناد. فالمعنى: حينئذٍ فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة فما كذبوه عبارة عن جميع الشرائع التي جاء بها كل رسول أصولها وفروعها وعلى كلا التقديرين، فالضمائر الثلاثة متوافقة في المرجع. وقيل ضمير كذبوا: راجع إلى أسلافهم.

والمعنى فما كان الأبناء ليؤمنوا بما كذب به الآباء وحمله المولى أبو السعود على التعسف.
يقول الفقير: لو كانت الضمائر الثلاثة متوافقة في المرجع أيضاً وجعل التكذيب تكذيب الآباء في الحقيقة وإنما أسند إلى الأبناء ما حقه أن ينسب إليهم من حيث الاتصال بينهم ورضي بعضهم عن بعض فيما فعله لكان معنى لا تعسف فيه أصلاً كما سبق أمثاله في البقرة في مخاطبات اليهود المعاصرين إلى رسول الله ﷺ ﴿كذلك﴾ في محل النصب على أنه مفعول.
﴿يطبع﴾ أي: مثل ذلك الطبع الشديد المحكم يطبع ﴿الله على قلوب الكافرين﴾ أي: من المذكورين وغيرهم فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر ويجوز أن يكون إشارة إلى ما قبله أي مثل ذلك الطبع الذي طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية يطبع على قلوب الكفرة الذين كتب عليهم أن لا يؤمنوا أبداً.

﴿وما وجدنا لأكثرهم﴾ لقينا فوجدنا بمعنى صادفنا. ﴿من عهد﴾ من مزيدة في المفعول والمضاف محذوف؛ إذ لا وجه لنفي نفس العهد أي ما وجدنا لأكثرهم من وفاء عهد فإنهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه عند مساس البأساء والضراء، قائلين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين وتخصيص هذا الشان بأكثرهم ليس لأن بعضهم كانوا يفون بعهودهم بل لأن بعضهم كانوا لا يعاهدون ولا يفون، ويحتمل أن يكون وجدنا بمعنى علمنا ويكون من عهد مفعوله الأول ولأكثرهم مفعوله الثاني. ﴿وإن﴾ مخففة أي: إن الشأن ﴿وجدنا أكثرهم﴾ أي: علمنا أكثر الأمم ﴿لفاسقين﴾ خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود.

وفي ترجمة المجلد الأخير من «الفتوحات المكية».

[حق تعالى بموسى عليه السلام وحى كرد هركه بإميدتو آيد اورا بى بهره مكذار وهركه زينهار خواست اورا زينهارده موسى عليه السلام درسياحت بود ناكاه كبوترى بر كتف نشست وبازى عقب أو آمد وقصد آن كبوتر داشت بر كتف ديكر فرود آمد آن كبوتر در آستين موسى عليه السلام در آمد وزينهار ميخواست وباز بزبان فصيح بموسى آوازدادكه اي پسر عمران مرا بى بهره مكذار وميان من ورزق من جدايى ميفكن موسى عليه السلام كفت چه زود مبتلا شدم ودست كرد تا ازران خود پاره قطع كند براى طعمه باز تا حفظ عهد كرده باشد وبكار هردو وفانموده كفتند يا ابن عمران تعجيل مكن كه مارسولا نيم وغرض آن بودكه صحت عهد توآز مايش كنيم].

أيا سامعاً ليس السماع بنافع إذا أنت لم تفعل فما أنت سامع
إذا كنت في الدنيا عن الخير عاجزاً فما أنت في يوم القيامة صانع

ولا كلام في وفاء الأنبياء بعهودهم ونقض الفاسقين لمواثيقهم وإنما الكلام فيمن ادعى الإيمان والاستسلام ثم لم يف بعهده يوماً من الإيمان. قال الحافظ:

وفامجو زكس ورسخن نمى شنوى بهرزه طالب سيمرغ وكيميا ميباش

وعن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي قال كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله» وكنا حديثي عهد ببيعته فقلنا قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتقيموا الصلوات الخمس وتطيعوا» وأسر كلمة خفية «ولا تسألوا الناس»، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم لم يسأل أحداً يناوله» إياه يعني: خوفاً من نقض العهد واهتماماً في أمر الوفاء فانظر إلى هؤلاء

الرجال ومبايعتهم ودخولهم في طريق الحق ومسارعتهم، فإذا احترزوا عن سؤال مناولة السوط الذي سقط من أيديهم فما ظنك في الاحتراز عما فوقه من الأحوال المتواردة عليهم، وأنت يا رجل وكلنا ذلك الرجل تجول في ميدان الخواطر الفاسدة، ثم لا تقنع بذلك بل تطير إلى جانب مرادك من الأفعال الباطلة والأقوال الكاسدة ولعمري هذا ليس في طريق العوام، فكيف في طريق الصوفية الذين عقدوا عقداً على أن لا يخطر بباله سوى الله ولا يسألوا منه تعالى غير الوصول إلى ذاته أين هم والله إن هذا زمان لم يُبقِ من التصوف إلا الاسم ولا من لباس التقوى إلا الرسم، نسأل الله تعالى أن يوجهنا إلى محراب ذاته ويسلك بنا إلى طريق أفعاله وصفاته ويفيض علينا من سجال بركاته ويشرفنا بالخاصة من هداياته إنه هو الفياض من مشرع عناياته.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾ أي: أرسلنا من بعد انقضاء وقائع الرسل المذكورين، وهم نوح وهود ولوط وصالح وشعيب عليهم السلام، والتصريح بذلك مع دلالة ثم على التراخي للإيذان بأن بعثه عليه السلام جرى على سنن السنة الإلهية من إرسال الرسل تترى، فإن الله تعالى من كمال رحمته على خلقه يبعث عند انصرام كل قرن وانقراض كل قوم نبياً بعد نبي كما يخلف قوماً بعد قوم وقرناً بعد قرن ويظهر المعجزات على يدي النبي ليخرجهم بظهور نور المعجزات من ظلمات الطبيعة إلى نور الحقيقة فإن أغلب أهل كل زمان وقرن وأكثرهم غافلون عن الدين وحقائقه مستغرقون في بحر الدنيا مستهلكون في أودية الشهوات واللذات النفسانية الحيوانية ظلمات بعضها فوق بعض. ﴿بآياتنا﴾ حال من مفعول بعثنا وهو موسى، أي بعثناه عليه السلام ملتبساً بآياتنا، وهي الآيات التسع المفصلات التي هي: العصا واليد البيضاء والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، كما سيأتي. ﴿إلى فرعون﴾ هو لقب لكل من ملك مصر من العمالقة، كما أن كسرى لقب لكل من ملك فارس، وقيصر لكل من ملك الروم، وخاقان لكل من ملك الصين، وتبع لكل من ملك اليمن. والقيل لكل من ملك العرب، والنجاشي لكل من ملك الحبش، والخليفة لكل من ملك بغداد. والسلطان لآل سلجوق واسمه قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن ريان وكان من القبط وعمّر أكثر من أربعمائة سنة. ﴿وملئِهِ﴾ أي أشراف قومه وتخصيصهم مع عموم رسالته للقوم كافة لأصالتهم في تدبر الأمور واتباع غيرهم لهم في الورود والصدور. ﴿فظلموا بها﴾ عدّي بالباء لتضمين ظلموا معنى كفروا، أي كفروا بالمعجزات وظلموا عليها بأن جعلوها سحراً فوضعوها في غير موضعها ﴿فانظر﴾ بعين عقلك يا من من شأنه النظر والتأمل. ﴿كيف كان عاقبة المفسدين﴾ إلى كيفية ما فعلنا بهم فكيف خبر كان وعاقبة اسمها والجملة في محل النصب بنزع الخافض إذ التقدير فانظر إلى كذا ووضع المفسدين موضع ضميرهم للإيذان بأن الظلم مستلزم للإفساد.

وفي «التفسير الفارسي»: [حضرت موسى عليه السلام چون از مصر فرار نمود ودرمدين بصحبت شعيب عليه السلام رسيد ودختراو صفورا بعقد در آورده عزم مراجعت بامصر نمود

درائناى طريق بوادى ايمن رسيد وخلعت پيغمبرى يافت بمعجزهٔ عصا ويد بيضا اختصاص پذيرفت حق سبحانه وتعالى فرمودكه بمصر رو وفرعون را بخداى تعالى دعوت كن موسى بيامد وبعد ازمدتى كه ملاقات فرعون دست داد آغاز دعوت كرد].

قال الحدادي: نقلاً عن ابن عباس كان طول عصا موسى عشرة أذرع على طوله، وكانت من آس الجنة يضرب بها الأرض، فيخرج بها النبات، فيلقيها فإذا هي حبة تسعى ويضرب بها الحجر فيتفجر وضرب بها باب فرعون ففزع منها فشاب رأسه فاستحيى فخضب بالسواد وأول من خضب بالسواد فرعون وهو حرام لا يجد فاعله رائحة الجنة.

قال صاحب «المحيط»: هذا في حق غير الغزاة أما من فعله من الغزاة ليكون أهيب في عين العدو لا للتزين فغير حرام.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وقال موسى﴾ أي لما دخل على فرعون ومعه أخوه هارون بعثهما الله إليه بالرسالة قال ﴿يا فرعون إني رسول﴾ أي: إليك ﴿من رب العالمين﴾ أدعوك إلى عبادة رب العالمين وأنهاك عن دعوى الربوبية فقال له فرعون كذبت ما أنت برسول فقال موسى.

﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ أي: جدير بأن لا أقول على الله إلا الحق فوضع على موضع الباء لإفادة التمكن، كقولك: رميت على القوس، وجئت على حالة حسنة، أي: رميت بالقوس وجئت بحالة حسنة أو ضمن حقيق معنى حريص.

وفي «المدارك»: ويجوز تعلق على بمعنى الفعل في الرسول أي إني رسول حقيق جدير بالرسالة أرسلت على أن لا أقول على الله إلا الحق انتهى. وقرأ نافع على بتشديد الياء.

ثم إن موسى لما ادعى أنه رسول من رب العالمين ذكر ما يدل على صحة دعواه فقال: ﴿قد جئتكم ببينة﴾ أي: بمعجزة ظاهرة كائنة. ﴿من ربكم﴾ يعني العصا واليد. ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾ أي: فخلهم حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم وكان قد استعبدهم [وسبب آن بودكه چون يعقوب عليه السلام باأولاد وأحفاد خود بمصر آمدند همانجا قرار كرفتند ونسل ايشان بسيار شد ويعقوب ويوسف بابرادران دركذشتند وملك ريان كه فرعون زمان يوسف بود وبمرد پسرش مصعب بني إسرائيل را حرمت ميداشت ومتعرض إيشان نمى شد چون أو بمرد وليدكه فرعون زمان موسى بود برتخت سلطنت نشست وزبان بلاف أنا ربكم الأعلى بكشاد بني إسرائيل دعوى أو قبول نكردند كفت پدر شما درمخريدهٔ كسان ما بود وشما بنده زادكان ما ييد پس ايشانرا ببندكى كرفت]، وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة مثل ضرب اللبن ونقل التراب وبناء المنازل وأشباه ذلك فلما جاء موسى أراد أن يرجع بهم إلى موطن آبائهم الذي هو الأرض المقدسة وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر واليوم الذي دخل فيه موسى أربعمائة عام. ﴿قال﴾ فرعون: وهو استئناف بياني ﴿إن كنت جئت بآية﴾ أي: من عند من أرسلك كما تدعيه. ﴿فائت بها﴾ فأحضرها عندي ليثبت بها

صدقك فإن الإتيان والمجيء وإن كانا بمعنى واحداً لأن بينها فرقاً من حيث إن المجيء يلاحظ فيه نقل الشيء من جانب المبدأ، والإتيان يلاحظ فيه إيصاله إلى المنتهى فإن مبدأ المجيء هو جناب المرسل ومنتهى الإتيان هو المرسل إليه. ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في دعواك.

﴿فألقى عصاه﴾ من يده ﴿فإذا هي ثعبان﴾ وهو الحية الصفراء الذكر أعظم الحيات لها عرف كعرف الفرس ﴿مبين﴾ أي ظاهر أمره لا يشك في كونه ثعباناً ولا يختلج ببال أحد كونه من جنس العصا. روي أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعر أي كان له على ظهره شعور سود مثل الرماح الطوال فاغراً فاه، أي فاتحاً بين لحييه ثمانون ذراعاً وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً فصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل فأخذه فعاد عصا.

والإشارة: أن الله تعالى جعل عصاه ثعباناً لأنه أضافها إلى نفسه حين قال: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾ [طه: ١٨] ثم جعلها محل حاجاته حيث قال: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] ففيه إشارة إلى أن كل شيء أضفته إلى نفسك، ورأيت محل حاجاتك فإنه ثعبان يبتلعك ولهذا ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [طه: ٩] يعني: لا تتمسك بها ولا تتوكأ عليها ولا كان قادراً على أن يجعلها في يده ثعباناً كذا في «التأويلات النجمية».

ثم قال له فرعون: هل معك آية أخرى؟ قال نعم.

﴿ونزع يده﴾ أي: أخرجها من جيبه أو من تحت إبطه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي: بيضاء بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة ويجتمع عليها النظارة تعجباً من أمرها وذلك ما يروى أنه أرى فرعون يده وقال ما هذه فقال يدك ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة من صوف، ونزعها فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً غلب شعاعه شعاع الشمس وكان عليه السلام آدم شديد الأدمة.

وفيه إشارة: إلى أن الأيدي قبل تعلقها بالأشياء كانت بيضاء فلما تمسكت بالأشياء صارت ظلمانية فإذا نزعت عنها تصير بيضاء كما كانت فافهم جداً.

فلما شاهد فرعون هذه المعجزة تشاور مع أشراف قومه في أمر موسى.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ أي: الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته ﴿إن هذا لساحر﴾ [جادويست] ﴿عليم﴾ مبالغ في علم السحر ماهر فيه، ولما كان السحر غالباً في ذلك الزمان ولا شك أن أهل كل صنعة على طبقات مختلفة بحسب الحذاقة والمهارة زعم القوم أن موسى كان حاذقاً في علم السحر بالغاً فيه إلى أقصى الغاية، وأنه جعل علمه وسيلة إلى طلب الملك والرسالة فلذلك قالوا.

﴿يريد أن يخرجكم﴾ بسحره ﴿من أرضكم﴾ مصر ويجعل الحكومة لبني إسرائيل فلما سمع فرعون هذا قال: ﴿فماذا تأمرون﴾ بفتح النون وما في فماذا في محل النصب على أنه مفعول ثانٍ لتأمرون بحذف الجار والأول محذوف، والتقدير بأي شيء تأمرونني أي فإذا كان كذلك فماذا تشيرون؟

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿قالوا﴾ لفرعون ﴿أرجه﴾ أصله أرجئه بهمزة ساكنة وهاء مضمومة والإرجاء التأخير ﴿وأخاه﴾ هارون وعدم التعرض لذكره، قيل: لظهور كونه معه حسبما تنادي به الآيات الأخر. والمعنى أخّر أمرهما ولا تعجل. ﴿وأرسل في المدائن﴾ الجار متعلق بأرسل. والمدائن جمع مدينة وهي البقعة المسوّرة المستولى عليها ملك، والمدائن صعيد مصر، وكان له مدائن فيها السحرة المعدة لوقت الحاجة إليهم. والمعنى: وابعث الشرط إلى هذه المدائن ﴿حاشرين﴾ مفعوله محذوف، أي حاشرين السحرة. والمعنى ليحشروا ويجمعوا إليك من فيها من السحرة.

﴿يأتوك بكل ساحر عليم﴾ أي: ماهر في السحر. والسحر في اللغة: لطف الحيلة في إظهار الأعجوبة، وأصل ذلك من خفاء الأمر ومن ذلك سمي آخر الليل سحراً لخفاء الشخص ببقاء ظلمته والسحر الرئة سميت بذلك لخفاء أمرها بانتفاخها تارة وضمورها أخرى [آورده اندكه بهيچ قرن چندان ساحر نبوده كه در قرن موسى ورؤساء سحره بأقصى مداين صعيد بودند در تفسير دمياطى آورده كه درمداين صعيد دو برادر بودندكه ايشانرا در فن سحر وقوفى تمام بود چون فرستاده فرعون بديشان رسيد ما در خودرا كفتند مارا بسر قبر پدرما بر چنان كرد وايشان پدر خودرا اواز دادندكه يا ابتا ملك مصر مارا طلبيده بجهت آنكه دوكس آمده اند بى لشكر وسپاه وكاربرو بد وننك آورده وايشانرا عصا ييست چون مى افكنند اژدرها ميشود وهرچه پيش او آيد مى خورد وفرعون داعيه نموده كه ايشان در خواب ميشود آن عصا همان اژدرها ميشود يانه اكر ميكردد بدانيدكه جادويى نيست چه سحر ساحر وقتى كه در خواب باشد اثر ندارد چون حال بدين منوال باشد نه شما وهيچكس ازعالميان را قوت معارضه باايشان نخواهد بود القصه برادران با شاكردان ومصاحبان كه دوازده هزار بودند ودرزاد المسير كويد هفتاد هزار بمصر آمدند وبنزد فرعون جمع شدند] توهموا أنهم بالتأخير وحسن التدبير وبذل الجد والتشمير يغيرون شيئاً من التقدير ولم يعلموا أن الحق غالب والحكم سابق وعند حلول الحكم فلا سلطان للعلم والفهم.

﴿وجاء السحرة فرعون﴾ بعدما أرسل إليهم الحاشرين ﴿قالوا﴾ واثقين بغلبتهم ﴿إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ بطريق الإخبار بثبوت الأجر وإيجابه، كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر عظيم حينئذٍ أو بطريق الاستفهام التقريري بحذف الهمزة، وقولهم إن كنا بمجرد تعيين مناط ثبوت الأجر لا لترددهم في الغلبة وتوسيط الضمير وتحلية الخبر باللام للقصر أي إن كنا نحن الغالبين لا موسى.

﴿قال نعم﴾ أي: إن لكم لأجراً ﴿وإنكم﴾ مع ذلك ﴿لمن المقربين﴾ عندي في المنزلة.

قال الكلبي: قال لهم تكونون أول من يدخل مجلسي وآخر من يخرج منه.

وفي «التأويلات النجمية»: أجرى الله هذا على لسان فرعون حقاً وصدقاً بأنهم صاروا من المقربين عند الله لا عند فرعون انتهى. [آورده اندكه مهتراين جماعت چهارتن بودند وآن دو برادركه شابور وغادور ميكفتند وديكر حطط ومصفى ودرلباب آورده كه اين چهارنيز مهترى بود شمعون نام چون بمصر آمدند وشابور وغادور واقعه سؤال وجواب پدر باقوم كفتند ايشان

ازقصهء خواب وبيداريء موسى واژدرها شدن عصا استفسار بليغ نمودند معلوم شدكه هركاه موسى درخوابست عصا اژدرهاشده پاسبانى ميكند ايشانرا ترددى بديد آمد ودغدغه در خاطر خطور كرد نهان ميداشتند تاوقتى كه فرعون موسى را طلبيده ومقرر شدكه جادوان مناظره كنند ومجلس معارضه انتظام يافت ساحران وعصا ورسنى چند بميدان آوردند فرعون بالاى تخت بتفرج بنشست ومردم مصر بنظاره حاضر شدند هفتاد هزار ساحر بريك طرف وموسى وهاريون بريك جانب بايستادند جادوان بطريق ادب پيش آمده].

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي﴾ أي: عصاك أولاً ﴿وإما أن نكون نحن الملقين﴾ أي: حبالنا وعصينا أوّلاً خيروا موسى عليه السلام فإن كلمة إما فيها للتخيير ويطلق عليها حرف العطف مجازاً.

قال المفسرون: تأدبوا مع موسى عليه السلام فكان ذلك سبب إيمانهم.

﴿قال ألقوا﴾.

إن قيل: كيف قال ألقوا والأمر بالسحر لا يجوز.

أجيب يجوز ألقوا إن كنتم محقين على زعمكم ويجوز أن يكون أمرهم بالإلقاء لتأكيد المعجزة.

قال القاضي: قال ألقوا كرماً وتسامحاً وازدراء بهم ووثوقاً على شأنه، يعني: ليس أمرهم بالإلقاء قبله من قبيل الإباحة للسحر والرضى بالكفر، والمعنى ألقوا ما تلقون. ﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقوا ﴿سحروا أعين الناس﴾ [جادويى كردند برچشمهاى مردمان] بأن خيلوا إليهم ما لا حقيقة له.

قال ابن الشيخ: قلبوها وصرفوها على أن تدرك الشيء على ما هو عليه بسبب ما فعلوه من التمويهات. ﴿واسترهبوهم﴾ استفعل ههنا بمعنى أفعل والسين لتأكيد معنى الرهبة، أي بالغوا في إرهابهم. ﴿وجاؤوا بسحر عظيم﴾ في وقته. روي أنهم جمعوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات جسام غلاظ ولطخوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا الزئبق داخل تلك العصي فلما أثرت حرارة الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض وكانت كثيرة جداً تخيل الناس أنها تتحرك وتلتوي باختيارها وصار الميدان كأنه مملوء بالحيات.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ الفاء فصيحة، أي: فألقاها فصارت حية فإذا هي تلقف، أي: تلقم وتبتلع من لقف يلقف على وزن علم يعلم، يقال لقفته ألقفه لقفاً وتلقفته أتلقفه تلقفاً إذا أخذته بسرعة فأكلته وابتلعته ويأفكون، أي: يزورون من الإفك وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه. روي أنها لما تلقفت حبالهم وعصيهم وابتلعتها بأسرها أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم لا يعلم عددهم

إلا الله تعالى، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت وأعدم الله بقدرته القاهرة تلك الأجرام العظام أو فرقها أجزاء لطيفة، فقالت السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا.

﴿فوقع الحق﴾ أي: ثبت وصدق موسى عليه السلام في قوله ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأعراف: ١٠٤] حيث صدقه الله تعالى بما أظهر على يده من المعجزة الباهرة. ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ أي: ظهر بطلان ما كانوا مستمرين على عمله وهو السحر.

﴿فغلبوا﴾ أي: فرعون وأتباعه ﴿هنالك﴾ أي: في مجلسهم. ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ أي: صاروا أذلاء مبهوتين فالانقلاب هنا بمعنى الصيرورة. ﴿وألقي السحرة ساجدين﴾ أي: خروا سجداً كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم كيف لا وقد بهرهم الحق واضطرهم إلى ذلك، ففي الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه حالهم في سرعة الخرور وشدته حين شاهدوا المعجزة القاهرة بحال من ألقي على وجهه فعبر عن حالهم بما يدل على حال المشبه به.

﴿قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾ أبدلوا الثاني من الأول لئلا يتوهم أن مرادهم فرعون لأن فرعون وإن ربى موسى وهو صغير إلا أنه لم يربّ هارون قطعاً قال ابن عباس: آمنت السحرة واتبع موسى من بني إسرائيل ستمائة ألف.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿قال فرعون﴾ منكراً على السحرة موبخاً لهم على ما فعلوه. ﴿آمنتم به﴾ بهمزة واحدة إما على الإخبار المحض المتضمن للتوبيخ أو على الاستفهام التوبيخي بحذف الهمزة، كما مر في ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: ١١٣] ﴿قبل أن آذن لكم﴾ أي: بغير أن آذن لكم، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩] لا أن الإذن منه ممكن في ذلك. ﴿إن هذا لمكر مكرتموه﴾ يعني: إن ما صنعتموه ليس مما اقتضى الحال صدوره عنكم لقوة الدليل وظهور المعجزة بل هو حيلة احتلتموها أنتم وموسى. ﴿في المدينة﴾ يعني: مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد. روي أن موسى وأمير السحرة التقيا، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك لتؤمنن بي وتشهدن أن ما جئت به الحقّ فقال الساحر والله لئن غلبتني لأؤمنن لك وفرعون يسمعها وهو الذي نشأ عنه هذا القول. ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ يعني: القبط وتخلص لكم ولبني إسرائيل. ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة ما فعلتم وهو تهديد مجمل تفصيله.

﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي: من كل شق طرفاً يعني أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى. ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ على شاطىء نهر مصر على جذوع النخل تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم.

قيل: هو أول من سنّ ذلك فشرعه الله تعالى لقطاع الطريق تعظيماً لجرمهم ولذلك سماهم تعالى محاربة الله ورسوله.

﴿قالوا﴾ ثابتين على ما أحدثوا من الإيمان وهو استئناف بياني. ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ راجعون، أي: بالموت لا محالة سواء كان ذلك من قبلك أم لا فلا نبالي بوعيدك أو إنا إلى

رحمة ربنا وثوابه، منقلبون إن فعلت بنا ذلك كأنهم استطابوه شغفاً على لقاء الله تعالى. وفي «المثنوي»:

جانهاى بسته اندر آب وكل چون رهند ازآب وكلها شاد دل
درهواى عشق حق رقصان شوند همچو قرص بدر بى نقصان شوند
چون نقاب تن برفت ازروى روح ازلقاى دوست دارد صد فتوح
ميزند جان در جهان آبكون نعرهٔ يا ليت قومي يعلمون

﴿وما تنقم منا﴾ أي: وما تنكر وما تعيب منا. ﴿إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ وهو خير الأعمال وأصل المناقب ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلباً لمرضاتك.

ثم فزعوا إلى الله تعالى فقالوا ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي: أفض علينا من الصبر على وعيد فرعون ما يغمرنا كما يغمر الماء فإفراغ الماء أي صبه من قبيل الاستعارة شبه الصبر على وعيد فرعون بالماء الغامر تشبيهاً مضمراً في النفس وجعل نسبة الإفراغ إليه تخييلاً للاستعارة بالكناية لأن الإفراغ من لوازم الماء وملائماته. ﴿وتوفنا مسلمين﴾ ثابتين على ما رزقتنا من الإسلام غير مفتونين من الوعيد قيل لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فأخذ فرعون السحرة فقطعهم ثم صلبهم على شاطىء نيل مصر.

وفي «المثنوي»:

ساحران چون حق او بشناختند دست وپا در جرمها در باختند

وفي القصة: إشارة إلى أن فرعون النفس أيضاً منكر على إيمان سحرة صفاتها ويقول: ﴿آمنتم به﴾ أي: بموسى الروح ﴿من قبل أن آذن لكم﴾ يعني: بالإيمان به ﴿إن هذا لمكر مكرتموه﴾ يا سحرة الصفات في موافقة موسى الروح.

﴿في المدينة﴾ مدينة القالب والبدن ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ وهو اللذات والشهوات البدنية الجسمانية، فإن صفات النفس إذا آمنت ووافقت الروح وصفاته خرجت من البدن لذات الدنيا وشهواتها. ﴿فسوف تعلمون﴾ حيلي ومكايدي في إبطالكم واستيفاء اللذات والشهوات. ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ بسكين التسويل عن الأعمال الصالحة. ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ في جذوع تعلقات الدنيا وزخارفها. ﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ لا إلى الدنيا وما فيها ﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ على قطع تعلقات الدنيا ﴿وتوفنا مسلمين﴾ لعبوديتك.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ
أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟
إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن
تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وقال الملأ من قوم فرعون﴾. روي أن فرعون بعد ما رأى من موسى عليه السلام ما رأى من معجزة العصا واليد البيضاء خافه أشد الخوف، فلذلك لم يجب ولم يتعرض له بسوء بل خلى سبيله، فلذلك قال له أشراف قومه: ﴿أتذر موسى وقومه﴾ أي: أتتركهم. ﴿ليفسدوا في الأرض﴾ أي: يفسدوا على الناس دينهم في أرض مصر ويصرفوهم عن متابعتك. ﴿ويذرك﴾ عطف على يفسدوا ﴿وآلهتك﴾ معبوداتك.

قيل: كان يعبد الكواكب والأصح كما في «التفسير الفارسي» أنه صنع لقومه أصناماً على صورته وأمرهم بأن يعبدوها تقرباً إليه، ولذلك قال: أنا ربكم الأعلى، ﴿قال﴾ فرعون مجيباً لهم ﴿سنقتل أبناءهم﴾[زود باشدكه بكشيم پسران ايشانرا]. ﴿ونستحيي نساءهم﴾ أي: نتركهن أحياء ولا نقتلهن بل نستخدمهن والمقصود سنعود إلى قتل أبنائهم واستخدام نسائهم كما كنا نفعل وقت ولادة موسى ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه. ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ أي: مستعلون عليهم بالقوة كما كنا لم يتغير حالنا أصلاً، وهم مقهورون تحت أيدينا كذلك.

﴿قال موسى لقومه﴾ تسلية لهم وعدة لحسن العاقبة حين سمعوا قول فرعون وعجزوا عنه ﴿استعينوا بالله﴾[يا رى خواهيد ازخداى تعالى دردفع بلاى فرعون] ﴿واصبروا﴾ على ما سمعتم من أقاويله الباطلة ﴿إن الأرض لله﴾ أي أرض مصر. ﴿يورثها من يشاء من عباده﴾ [ميراث دهدهر كرا ميخواهد ازبندكان خود] ﴿والعاقبة﴾[عاقبة نيكويانصرت وظفر يابهشت] ﴿للمتقين﴾ الذين أنتم منهم؛ لأنه روي أنه لما غلب سحرة فرعون وتبين نبوة موسى بسطوع حجته آمن بموسى من بني إسرائيل ستمائة ألف نفس واتقوا عن الشرك والعصيان، وفيه إيذان بأن الاستعانة بالله تعالى والصبر من باب التقوى. قال الحافظ:

آنكه پيرانه سرم صحبت يوسف بنواخت اجر صبريست كه دركلبۀ أحزان كردم

﴿قالوا﴾ أي: بنو إسرائيل. ﴿أوذينا﴾ أي: من جهة فرعون. ﴿من قبل أن تأتينا﴾ أي: بالرسالة يعنون بذلك قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام وبعده. ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ أي: رسولاً، يعنون به ما توعدهم به من إعادة قتل الأبناء وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجور والظلم والعذاب. ﴿قال﴾ أي: موسى عليه السلام لما رأى شدة جزعهم مما يشاهدونه مسلياً لهم بالتصريح بما لوّح به في قوله: ﴿إن الأرض لله﴾ الآية ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ أي: يرجى أن ربكم قارب إهلاك عدوكم الذي فعل بكم ما فعل وتوعدكم بإعادته، فعسى من العبد لطمع مضمون خبرها، ومن الله تعالى إطماع وما أطمع الله فيه فهو واجب لأن الكريم إذا أطمع ووعد وفى فيصير كأنه أوجبه على نفسه. ﴿ويستخلفكم في الأرض﴾ أي يجعلكم خلفاء في أرض مصر وفي الأرض المقدسة. ﴿فينظر﴾ النظر قد يراد به الفكر المؤدي إلى العلم وقد يراد به تقليب الحدقة نحو المرئي ليترتب عليه الرؤية، وكل واحد من المعنيين مستحيل في حقه تعالى فهو مجاز عن الرؤية التي هي غاية للنظر أي: فيرى ﴿كيف تعملون﴾ أحسناً أم قبيحاً فيجازيكم حسبما يظهر منكم من شكر وكفران وطاعة وعصيان وفي الحديث: «إن الدنيا حلوة خضرة» يعني: حسنة في المنظر تعجب الناظر والمراد من الدنيا صورتها ومتاعها، وإنما وصفها بالخضرة؛ لأن العرب تسمي الشيء الناعم خضراً أو لتشبهها بالخضراوات في سرعة زوالها وفيه بيان كونها غرارة يفتتن

الناس بحسنها وطعمها، «وإن الله مستخلفكم فيها» أي: جاعلكم خلفاء في الدنيا يعني إن أموالكم ليست هي في الحقيقة لكم وإنما هي لله تعالى جعلكم في التصرف فيها بمنزلة الوكلاء، «فناظر كيف تعملون» أي: تتصرفون، قيل: معناه جاعلكم خلفاء ممن كان قبلكم ومعطى ما في أيديهم إياكم فناظر هل تعتبرون بحالهم وتتدبرون في مآلهم. قال السعدي قدس سره:

نرود مرغ سوى دانه فراز چون دكر مرغ بيند اندر بند
پند كير از مصائب دكران تا نكيرند ديكران زتو پند

والإشارة: أن فرعون النفس قال له قوم الهوى والغضب والكبر ﴿أتذر﴾ موسى الروح ﴿وقومه﴾ من القلب والسر والعقل. ﴿ليفسدوا في الأرض﴾ في أرض البشرية. ﴿ويذرك وآلهتك﴾ من الدنيا والشيطان والطبع لا تعبد. ﴿قال﴾ فرعون النفس ﴿سنقتل أبناءهم﴾ وأبناء صفات الروح والقلب والنفس أعمالها الصالحة، أي نبطل أعمالهم بالرياء والعجب. ﴿ونستحيي نساءهم﴾ أي: الصفات التي منها تتولد الأعمال ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ بالمكر والخديعة والحيلة. ﴿قال موسى﴾ الروح ﴿لقومه﴾ وهم القلب والعقل والسر. ﴿استعينوا بالله واصبروا﴾ على جهاد النفس ومخالفتها ومتابعة الحق ﴿إن الأرض﴾ أي: أرض البشرية ﴿لله يورثها من يشاء من عباده﴾ يورث أرض بشرية السعداء الروح وصفاته فيتصف بصفاته ويورث أرض بشرية الأشقياء النفس وصفاتها فتتصف بصفاتها. ﴿والعاقبة للمتقين﴾ يعني عاقبة الخير والسعادة للأتقياء والسعداء منهم. ﴿قالوا﴾ يعني قوم الروح له ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا﴾ أي: قبل أن تأتينا بالواردات الروحانية قبل البلوغ كنا نتأذى من أوصاف البشرية ومعاملاتها. ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ بالواردات والإلهامات الروحانية بعد البلوغ تتأذى من دواعي البشرية. ﴿قال﴾ يعني: الروح ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ النفس وصفاتها بالواردات الربانية ويدفع أذيته عنكم فبه يشير إلى أن الواردات الروحانية لا تكفي لإفناء النفس وصفاتها ولا بد في ذلك من تجلي صفات الربوبية. ﴿ويستخلفكم﴾ يعني: إذا تجلى الرب بصفة من صفاته لا يبقى في أرض البشرية من صفات النفس صفة إلا ويبدلها بصفات الروح والقلب ويستخلفها ﴿في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ في إقامة العبودية وأداء شكر نعم الربوبية كذا في «التأويلات النجمية».

﴿ولقد أخذنا آل فرعون﴾ أي: قوم فرعون وأهل دينه وآل الرجل خاصته الذين يؤول أمره إليهم وأمرهم إليه. ﴿بالسنين﴾ جمع سنة: وهي في الأصل بمعنى العام مطلقاً إلا أنها غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به حتى صارت كالعلم له كالنجم غلب على الثريا. ﴿ونقص من الثمرات﴾ بإصابة العاهات زيادة في القحط لأن الثمار قوت الناس وغذاؤهم.

وعن كعب، يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة.

قال ابن عباس: أما السنون فكانت لباديتهم وأهل ماشيتهم وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم. ﴿لعلهم يذكرون﴾ كي يتذكروا ويتعظوا بذلك ويتيقنوا أن ذلك لأجل معاصيهم وينزجروا عما هم عليه من العتو والعناد، فلعل علة المأخذ إما بناء على تجويز تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة إلى العباد كما ذهب إليه كثير من أهل السنة، وإما تنزيلاً لترتب الغاية على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض له فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متقنة جليلة

من غير أن تكون هي علة غائية لها بحيث لولاها لما أقدم عليها مما لا نزاع فيه.

دلت الآية على أن المحن والشدائد والمصيبات موجبات الانتباه والاعتبار، ولكن لأهل السعادة وأولي الأبصار فأما أهل الشقاوة فلا ينبههم كثرة النعمة ولا يوقظهم شدة النقمة. قال الشيخ السعدي قدس سره:

بكوشش نرويد كل از شاخ بيد نه زنكى بكرمابه كردد سفيد

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ أي: السعة والخصب وغيرهما من الخيرات. ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: لأجلنا واستحقاقنا لها ولم يروا ذلك فضلاً من الله. ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي: جدب وبلاء ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي: يتشاءموا بموسى وأصحابه ويقولوا ما أصابتنا إلا بشؤمهم وأصله يتطيروا أدغمت التاء في الطاء لقرب مخرجهما واشتقاق التطير من الطير كالغراب وشبهه سمي الشؤم ضد اليمن طيراً وطائراً تسمية للمدلول باسم ما يدل عليه، فإنهم يجعلون الطير والطائر أمارة ودليلاً على شؤم الأمر وبناء التفعل فيه للتجنب أي لبعد الفاعل عن أصله كتحوب أي تجنب وتباعد من الحوب وهو الإثم وسيجيء تفصيل الطيرة.

قال سعيد بن جبير: كان ملك فرعون أربعمائة سنة فعاش ثلاثمائة سنة لا يرى مكروهاً ولو رأى في تلك المدة جوع يوم، أو حمى يوم، أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية، ولما قالوا سبب ما جاءنا من الخير والحسنة هو استحقاق أنفسنا إياه وسبب ما أصابنا من السيئة والشر هو شأمة موسى ومن معه كذبهم الله تعالى في كل واحد من الحكمين بقوله: ﴿ألا﴾ اعلموا ﴿إنما طائرهم عند الله﴾ أي: سبب ما أصابهم من الخير والشر إنما هو عند الله تعالى وصفة قائمة به، وهي قضاؤه وتقديره ومشيئته وهو الذي أيهما شاء أصابهم به وليس بيمن أحد ولا بشؤمه عبر عما عند الله تعالى بالطائر تشبيهاً له بالطائر الذي يستدل به على الخير والشر، أو سببه شؤمهم عند الله تعالى وهو أعمالهم السيئة المكتوبة عنده فإنها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم لا ما عداها، فالطائر عبارة عن الشؤم على طريق تسمية المدلول باسم الدليل بناء على أنهم يستدلون بالطير على الشؤم، ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى أو من شؤم أعمالهم فيقولون ما يقولون مما حكي عنهم وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم للإشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك ولكن لا يعملون بمقتضاه عناداً واستكباراً.

واعلم أن الطير بمعنى التشاؤم والاسم منه الطيرة على وزن العنبة وهو ما يتشاءم به من الفأل الرديء.

والأصل في هذا: أن العرب كانوا يتفاءلون بالطير فإن خرج أحدهم إلى مقصده وأتى الطير من ناحية يمينه يتيمن به ويتبرك ويسميه سانحاً، وإن أتى من ناحية شماله يتشاءم به ويسميه بارحاً فيرجع إلى بيته ثم كثر قولهم في الطير حتى استعملوه في كل ما تشاءموا به، وأبطل النبي عليه السلام الطيرة بقوله: «الطيرة شرك» قاله: «ثلاثاً» وإنما قال شرك لاعتقادهم أن الطيرة تجلب لهم

نفعاً أو تدفع عنهم ضرراً إذا عملوا بموجبها، فكأنهم أشركوها مع الله تعالى.

قال عبد الله: من خرج من بيته ثم رجع لم يرجعه إلا الطيرة رجع مشركاً أو عاصياً.

وذكر في «المحيط»: إذا صاحت الحمامة، فقال رجل: يموت المريض كفر القائل عند بعض المشايخ، وإذا خرج الرجل إلى السفر فصاح العقعق فرجع من سفره فقد كفر عند بعض المشايخ.

قال عكرمة: كنا عند ابن عمر وعنده ابن عباس رضي الله عنهما فمر غراب يصيح، فقال: رجل من القوم خير خير، فقال ابن عباس: لا خير ولا شر، وإنما اختص الغراب غالباً بالتشاؤم به أخذاً من الاغتراب بحيث قالوا غراب البين؛ لأنه بان عن نوح عليه السلام لما وجهه لينظر إلى الماء فذهب ولم يرجع، ولذا تشاءموا به واستخرجوا من اسمه الغربة.

قال ابن مسعود: لا تضر الطيرة إلا من تطير ومعناه أن من تطير تطيراً منهياً عنه أو يراه مما يتطير به حتى يمنعه مما يريده من حاجته فإنه قد يصيبه ما يكرهه، فأما من توكل على الله ووثق به بحيث علق قلبه بالله خوفاً ورجاء، وقطعه عن الالتفات إلى الأسباب المخوفة وقال ما أمر به من الكلمات ومضى فإنه لا يضره فالمراد بالكلمات ما في قوله عليه السلام: «ليس عبد إلا سيدخل قلبه الطيرة، فإذا أحس بذلك فليقل: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله ما شاء الله كان لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يذهب بالسيئات إلا الله وأشهد أن الله على كل شيء قدير»، ثم يمضي إلى حاجته أي كل ما أصاب الإنسان من الخير والشر واليمين والشؤم ليس إلا بقضائك وتقديرك وحكمك ومشيئتك وفي الحديث: «الشؤم في المرأة والفرس والدار». فشؤم المرأة سوء خلقها أو غلاء مهرها، وقيل أن لا تلد. وشؤم الفرس عدم انقياده أو أنه لا يغزى عليه، وشؤم الدار ضيقها أو سوء جارها وهذا الحكم على وجه الغلبة لا القطع خص الثلاث بالذكر لأن فيها يصل الضرر الكثير إلى صاحبها أو لأنها أقرب إلى الآفة فيما يبتلى به الإنسان فمن تشاءم بالمذكورات فليفارقها واعترض عليه بحديث: «لا طيرة» أجاب ابن قتيبة بأن هذا مخصوص منه أي لا طيرة إلا في هذه الثلاث.

وسمع فيلسوف صوت مغن بارد، فقال: يزعم أهل الكهانة أن صوت البوم يدل على موت الإنسان فإن كان ما ذكروه حقاً فصوت هذا يدل على موت البومة.

زيبقم در كوش كن تانشنوم — يا درم بكشاى تا بيرون روم

وتساقطت النجوم في أيام بعض الأمراء فخاف من ذلك وأحضر المنجمين والعلماء فما أجابوا بشيء فقال جميل الشاعر:

هذي النجوم تساقطت — لرجوم أعداء الأمير

فتفاءل به وأمر له بصلة حسنة ولا بأس بأن يتفاءل بالفأل الحسن، وكان النبي عليه السلام يحب الفأل ويكره الطيرة، والفأل الحسن هي الكلمة الصالحة يسمعها من أخيه نحو أن يسمع أحد وهو طالب أمر يا واجد يا نجيح أو يكون في سفر فيسمع يا راشد، يعني: يا واجد الطريق المستقيم أو مريضاً فيسمع يا سالم فالتفاؤل بالأمور المشروعة مشروع والطيرة منهي عنها.

والفرق بين الفأل والطيرة: مع أن كل واحد منهما استدلال بالأمارة على مآل الأمر وعاقبته أن الأرواح الإنسانية أقوى وأصفى من الأرواح البهيمية والطيرية فالكلمة الحسنة التي تجري على لسان الإنسان يمكن الاستدلال بها بخلاف طيران الطير وحركات البهائم فإن

أرواحها ضعيفة فلا يمكن الاستدلال بها على شيء من الأحوال.

ويروى أن النبي عليه السلام «حول رداءه في الاستسقاء» وذكر في «الهداية» أنه كان تفاؤلاً يعني قلب علينا الحال كما قلبنا رداءنا.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه فقال: «ابسط رداءك» فبسطته ففرق بيديه ثم قال: «ضمه» فضممته فما نسيت شيئاً بعده»، وهذا البسط والفرق والضم ليس إلا تفاؤلاً وإلا فالعلم ليس مما يسقط على الرداء ويمكن فيه الفرق والضم ولكن التفاؤل يحصل به يعني كما بسطت ردائي توقياً لما يسقط فيه فكذلك أصغيت سمعي لما يقع فيه من الكلام، وكما أعطيت شخصاً كثيراً من الرزق يفرق بين اليدين فكذا أعطيته شيئاً كثيراً من العلم، وكما يؤمن بالضم من سقوط ما في الرداء كذلك يؤمن من خروج ما في السمع أو نسيان ما في الخاطر فبعض الأوضاع يدل على بعض الأحوال كما أن بعض الأسماء يدل على بعض الأمور، كما حكي أن عمر رضي الله عنه قال لرجل: ما اسمك؟ قال جمرة، قال ابن من قال ابن شهاب، قال من أين؟ قال: من الخرقة، قال أين تسكن؟ قال: في الحرة وهي أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت فقال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا فرجع فوجدهم قد احترقوا، وأراد عمر رضي الله عنه الاستعانة برجل فسأله عن اسمه فقال: ظالم بن سراق فقال: تظلم أنت ويسرق أبوك ولم يستعن ودل هذا على تبديل الأسماء القبيحة بالأسماء الحسنة فإن في الأسماء الحسنة التفاؤل ونظير ذلك ما يفهم من قوله عليه السلام: «لا تمارضوا فتمرضوا» يعني أن من أظهر المرض، وقال: أنا مريض فهذا القول والفعل منه يثمر المرض ويؤاخذ به.

كفت پيغمبركه رنجورى بلاغ رنج آرد تا بميرد چون چراغ

والله الهادي إلى الحسنات وهو دافع السيئات.

﴿وقالوا﴾ أي: فرعون وقومه بعد ما رأوا من شأن العصا والسنين ونقص الثمرات ﴿مهما﴾ اسم شرط يجزم فعلين كقولك مهما تفعل أفعل كأن قائلاً قال لك لا تقدر على أن تفعل ما أفعل فتقول له مهما تفعل أفعل ومحله الرفع على الابتداء وخبره فما نحن لك بمؤمنين، أي أيّ شيء وبالفارسية [هرچيزكه] ﴿تأتنا به﴾ تظهر لدينا وتحضره والضمير لمهما. ﴿من آية﴾ بيان لمهما وإنما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ﴿لتسحرنا بها﴾ أي لتسحر بتلك الآية أعيننا وتسكرها، ﴿فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي: بمصدقين لك ومؤمنين بنبوتك ﴿فأرسلنا عليهم﴾. روي أن القوم لما عالجهم موسى بالآيات الأربع العصا واليد والسنين ونقص الثمرات فكفروا ودعا وكان حديداً فقال يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا وإن قومه نقضوا عهدك فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم عبرة فأرسل الله عليهم عقوبة لجرائمهم ﴿الطوفان﴾ أي الماء الذي طاف بهم وأحاط وغشى أماكنهم وحرثهم من مطر أو سيل ﴿والجراد﴾ في التفسير الفارسي [ملخ پرنده].

وفي «حياة الحيوان»: الجراد البري إذا خرج من بيضته يقال له: الدباء فإذا بدت فيه الألوان واصفرت الذكور واسودت الإناث يسمى جراداً حينئذٍ وفي الحديث: «لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم» وهذا إن صح أراد به إذا لم يتعرض لإفساد الزرع فإن تعرض له جاز دفعه بالقتل وغيره، ووقعت بين يدي النبي عليه السلام، جرادة فإذا مكتوب على جناحيها بالعبرانية

نحن جند الله الأكبر ولنا تسع وتسعون بيضة، ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا وما فيها فقال النبي عليه السلام: «اللهم أهلك الجراد اقتل كبارها وأمت صغارها وأفسد بيضها وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معايشهم إنك سميع الدعاء» فجاء جبرائيل عليه السلام فقال: إنه قد استجيب لك في بعضه.

وعن حسن بن علي: كنا على مائدة نأكل أنا وأخي محمد ابن الحنفية وبنو عمي عبد الله وقثم والفضل بن العباس فوقعت جرادة على المائدة فأخذها عبد الله، وقال لي ما مكتوب على هذه؟ فقلت سألت أبي أمير المؤمنين عن ذلك فقال سألت عنه رسول الله فقال مكتوب عليها أنا الله لا إله إلا أنا رب الجراد ورازقها وإن شئت بعثتها رزقاً لقوم وإن شئت بعثتها بلاء على قوم فقال عبد الله هذا من العلم المكنون» وليس في الحيوان أكثر فساداً لما يقتاته الإنسان من الجراد.

وأجمع المسلمون على إباحة أكله، قال الأربعة: يحل أكله سواء مات حتف أنفه أو بذكاة أو باصطياد مجوس أو مسلم قطع منه شيء أو لا والدليل على عموم حله قوله عليه السلام: «أحلت لنا ميتتان ودمان الكبد والطحال والسمك والجراد» وإذا تبخر إنسان بالجراد البري نفعه من عسر البول.

وقال ابن سينا: إذا أخذ منها اثنا عشر ونزعت رؤوسها وأطرافها وجعل معها قليل آس يابس وشرب للاستسقاء نفعه. وأما الجراد البحري فهو من أنواع الصدف كثير بساحل البحر ببلاد المغرب ويأكلونها كثيراً مشوياً ومطبوخاً ولحمها نافع للجذام. ﴿والقمل﴾ في التفسير الفارسي [ملخ پياده] وقيل: هو كبار القردان وهو جمع قراد يقال له بالتركي «كنه» مسلط على البعير وفي الأمثال أسمع من قراد وذلك أنه يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم فيتحرك لها وقيل: هو السوس الذي يخرج من الحنطة وقيل: إنه شيء يقع في الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهي غضة قبل أن تقوى فيطول الزرع ولا سنبل له وقرأ الحسن والقمل بفتح القاف وسكون الميم يريد به القمل المعروف الذي يقع في بدن الإنسان وثوبه وإذا ألقيت القملة حية أورثت النسيان.

قال الجاحظ: وفي الحديث: «أكل الحامض، وسؤر الفار، ونبذ القمل يورث النسيان» وإذا أردت أن تعلم هل المرأة حامل بذكر أو أنثى فخذ قملة واحلب عليها من لبنها في كف إنسان فإن خرجت من اللبن فهي جارية وإن لم تخرج فهو ذكر وإن حبس على إنسان بوله فخذ قملة من قمل بدنه واجعلها في إحليله فإنه يبول من وقته، والقمل المعروف يتولد من العرق والوسخ إذا أصاب ثوباً أو ريشاً أو شعراً حتى يصير المكان عفناً.

قال الجاحظ: وربما كان للإنسان قمل الطباع وإن تنطف وتعطر وبدل الثياب كما عرض لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام حين استأذنا رسول الله ﷺ في لباس الحرير فأذن لهما فيه ولولا أنهما كانا في حد ضرورة لما أذن لهما لما في ذلك من التشديد فيجوز لبس الثوب الحرير لدفع القمل لأنه لا يقمل بالخاصية.

قال في «أنوار المشارق»: والأصح أن الرخصة لا تختص بالسفر انتهى.

وفي «الواقعات المحمودية»: أن القمل يكون من البرودة ولذلك يكثر في الشتاء ولا يكون في الصيف.

قال السيوطي: ولم يقع على ثيابه عليه السلام ذباب قط ولا أذاه القمل. ﴿والضفادع﴾ جمع ضفدع مثل خنصر وهو الأشهر الصحيح من حيث اللغة والأنثى ضفدعة وناس يقولون بفتح الدال كدرهم، وأنكره الخليل حيث قال: ليس في الكلام فعلل إلا أربعة أحرف درهم وهجدم وهبلع وبلعم وهو اسم والضفادع أنواع كثيرة ويكون من سفاد وغير سفاد فالذي من سفاد يبيض في البر ويعيش في الماء والذي من غير سفاد يتولد في المياه القائمة الضعيفة الجري ومن العفونات وغب الأمطار الغزيرة حتى يظن أنه يقع من السحاب لكثرة ما يرى منه على الأسطحة عقيب المطر والريح وليس ذلك عن ذكر وأنثى، وإنما الله تعالى يخلقه في تلك الساعة من طباع تلك التربة وهي من الحيوانات التي لا عظام لها وفيها ما ينق وفيها ما لا ينق والذي ينق منها يخرج صوته من قرب أذنه وتوصف بحدة السمع إذا تركت النقيق وكانت خارج الماء، وإذا أرادت أن لا تنق أدخلت فكها الأسفل في الماء ومتى دخل الماء في فيها لا تنق وما أظرف قول بعض الشعراء وقد عوتب في كلامه:

قالت الضفدع قولاً ... فسرته الحكماء

في فمي ماء وهل ... ينطق من في فيه ماء

قال سفيان: يقال إنه ليس شيء أكثر ذكراً لله منه.

قال الزمخشري: تقول في نقيقها سبحان الملك القدوس. روي أن داود عليه السلام قال: لأسبحن الله الليلة تسبيحاً ما سبحه أحد من خلقه فنادته ضفدع من ساقية في داره يا داود أتفخر على الله تعالى بتسبيحك وإن لي لسبعين سنة ما جفّ لي لسان من ذكر الله وإن لي لعشر ليال ما طعمت خضراء ولا شربت ماء اشتغالاً بكلمتين، قال: ما هما قالت يا مسبحاً بكل لسان ومذكوراً بكل مكان، فقال داود في نفسه: وما عسى أن أكون أبلغ من هذا. وعن أنس «لا تقتلوا الضفادع فإنها مرت بنار إبراهيم عليه السلام فحملت في أفواهها الماء وكانت ترشه على النار».

وقال ابن سينا: إذا كثرت الضفادع في سنة وزادت على العادة يقع الوباء عقيبه.

وفي «الواقعات المحمودية»: تعبير الضفدع أنه نقصان خفي فإنه يذكر أنه كان في الأصل كيالاً فلأجل نقصانه في الكيل أدخل فيه، ومن خواصه أنه إذا أخذت امرأة ضفدع الماء وفتحت فاه وبصقت فيه ثلاث مرات ورمته إلى الماء فإنها لا تحبل ودمه إذا طلي به الموضع الذي نتف شعره لم ينبت أبداً، وشحم الضفادع الإجامية إذا وضع على الأسنان قلعها من غير وجع.

قال القزويني: ولقد كنت بالموصل ولنا صاحب في بستان بنى مجلساً وبركة فتولدت فيها الضفادع وتأذى سكان المكان بنقيقها وعجزوا عن إبطاله حتى جاء رجل وقال اجعلوا طشتاً على وجه الماء مقلوباً ففعلوا فلم يسمعوا لها نقيقاً بعد ذلك. ﴿والدم﴾. روي أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يستطيع أن يخرج واحد من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم وهي جمع ترقوة وهي العظم الذي بين ثغرة النحر، والعاتق وهو موضع الرداء من المنكب ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منه قطرة مع أنها كانت مختلطة ببيوت القبط فاض الماء على أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والتصرف ودام سبعة أيام، فقالوا له عليه السلام: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك فدعا فكشف عنهم فنبت من العشب والكلأ ما لم

يعهد مثله فقالوا هذا كنا نتمناه وما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصباً، فلا والله لا نؤمن بك يا موسى فنقضوا العهد وأقاموا على كفرهم شهراً فبعث الله عليهم الجراد بحيث وقع على الأرض بعضه على بعض ذراعاً فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منه شيء ففزعوا إليه عليه السلام كما ذكر فخرج إلى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع إلى النواحي التي جاء منها بعد أن أقام في أرضهم سبعة أيام فلم يبق جرادة واحدة ثم نظروا فإذا في بعض المواضع من نواحي مصر بقية كلأ وزرع فقالوا هذا يكفينا بقية عامنا هذا فلا والله لا نؤمن بك فسلط الله عليهم القمل فمكث في أرضهم سبعة أيام فلم يبق لهم عوداً أخضر ولحس جميع ما في أراضيهم مما أبقاه الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين ثيابهم وجلودهم فيمصها وينهشهم ويأكل شعورهم وحواجبهم وأشفار عيونهم ومنعهم النوم والقرار وظهر بهم منه الجدري.

قال الحدادي في «تفسيره»: هم أول من عذبوا بالجدري وبقي في الناس إلى الآن ثم فزعوا إليه عليه السلام ثالثاً فرفع عنهم فقالوا قد تحققنا الآن أنك ساحر قالوا وما عسى ربك أن يفعل بنا وقد أهلك كل شيء من نبات أرضنا فعلى أي شيء نؤمن بك اذهب فما استطعت أن تفعل فافعله ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه وكانت تمتلىء منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم، وهي تغلي وإلى أفواههم عند التكلم وكان بعضهم لا يسمع كلام بعض من كثرة صراخ الضفادع، وكانوا إذا قتلوا واحداً منها خافوا ما حول محله حتى لا يستطيعون الجلوس فيه ففزعوا إليه رابعاً وتضرعوا فأخذ عليهم العهود فدعا فكشف الله عنهم بريح عظيمة نبذتها في البحر فنقضوا العهد، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم وآبارها وأنهارها دماً أحمر عبيطاً، حتى كان يجتمع القبطي والإسرائيلي على إناء فيكون ما يليه دماً وما يلي الإسرائيلي ماء على حاله ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً فيه.

قوم موسى شو بخور اين آب را صلح كن بامه بين مهتاب را

ثم إن فرعون أجهده العطش وكانوا يأتونه بأوراق الأشجار الرطبة فيمصها فتصير دماً عبيطاً أو أجاجاً وكانوا لا يأكلون ولا يشربون سبعة أيام إلا الدم فقال فرعون أقسم بإلهك يا موسى لئن كشفت عنا هذا الدم لنؤمنن لك فدعا فعذب ماؤهم فعادوا لكفرهم إلى أن كان من أمر الغرق ما كان ﴿**آيات مفصلات**﴾ حال من مفعول أرسلنا أي أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات وعلامات مبينات لا يشكل على عاقل أنها آيات الله ونقمته، وقيل معنى مفصلات مفرقات ومنفصلات بأن فصل بعضها عن بعض بزمان لامتحان أحوالهم هل يعتبرون أو يستمرون على المخالفة والعناد وما كان بين كل اثنتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها أسبوعاً. ﴿**فاستكبروا**﴾ أي: تعظموا عن الإيمان بها. ﴿**وكانوا قوماً مجرمين**﴾ [كروهى مجرم يعنى معاندر كفركه باوجود تظاهرء آيات وتتابع آن ايمان نياوردند].

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿**ولما وقع عليهم الرجز**﴾ أي: العذاب المذكور من الطوفان وغيره، أي كلما وقع عليهم عقوبة من تلك العقوبات. ﴿**قالوا**﴾ في كل مرة ﴿**يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك**﴾

الباء صلة لادع وما مصدرية، والمراد بالعهد النبوة أي ادع لنا ربك يكشف عنا العذاب بحق ما عندك من عهد الله تعالى. وهو النبوة فإن حق النبوة ومقتضاها أن يدعو النبي، لأمته لدفع ما أصابهم من البلايا والمحن سميت النبوة عهداً للمبالغة في كونها معهوداً بها فإنه تعالى لما بعثه رسولاً وأوصاه بتحمل أعباء الرسالة وميثاق التبليغ فقد جعلت النبوة مما أوصى به وعهده فجعلت نفس العهد للمبالغة في كونها معهوداً بها.

وفي «التفسير الفارسي»: ﴿**بما عهد عندك**﴾ [بآنچه عهدكرده وآن عهد نزديك تست يعنى خداى توباتو وعده كرده كه چون اورا بخوانى اجابت كند] فما موصولة عبر بها عما يدعو به المتضرع إلى الله تعالى في طلب حاجته والباء أيضاً صلة لادع. ﴿**لئن كشفت**﴾ أي: [بازبرى وزائل كردانى] ﴿**عنا الرجز**﴾ الذي وقع علينا. ﴿**لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل**﴾ إلى موطن آبائهم وهو الأرض المقدسة ولنطلقنهم من التسخير والأعمال الشاقة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿**فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه**﴾ أي: إلى حد من الزمان معذبون فيه أو مهلكون وهو وقت الغرق وإلى أجل متعلق بقوله لما كشفنا وقوله هم بالغوه في محل الجر على أنه صفة لأجل. ﴿**إذا هم ينكثون**﴾ جواب لما أي فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث من غير تأمل وتوقف والنكث بالفارسي [عهد شكستن] ﴿**فانتقمنا منهم**﴾ الفاء لسببية النكث للانتقام والعقاب وأريد بالانتقام العقاب الواقع على مجازاة السيئة بالسيئة وإنما أسند الانتقام إلى ذاته لأن الأنبياء وكمل الأولياء كانوا فانين عما سوى الله باقين بالله فكان الله خليفتهم في أخذ الانتقام من أعدائهم. والمعنى فأردنا الانتقام منهم أي من فرعون وقومه لما أسلفوا من المعاصي والجرائم فإن قوله تعالى: ﴿**فأغرقناهم**﴾ عين الانتقام منهم فلا يصح دخول الفاء بينهما فأطلق اسم المسبب على السبب تنبيهاً على أن الانتقام لم ينفك عن الإرادة ويجوز أن يكون المراد مطلق الانتقام. والفاء تفسيرية كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود: ٤٥] الخ ﴿**في اليم**﴾ أي في البحر الذي لا يدرك قعره أو في لجته ولجة البحر معظم مائه.

قال الحدادي: في اليم، أي: في البحر بلسان العبرية وهي لغة اليهود.

وفي «التفسير الفارسي»: ﴿**في اليم**﴾ [در درياى قلزم بنزديك مصر] وذلك أن الله تعالى أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل فاستعار نسوة بني إسرائيل من نساء آل فرعون حليهم وقلن إن لنا خروجاً إلى عيد فخرج ببني إسرائيل في أول الليل وهم ستمائة ألف من رجل وامرأة وصبي فبلغ الخبر فرعون فركب ومعه ألف ألف ومائتا ألف، فأدركهم فرعون حين طلعت الشمس وانتهى موسى إلى البحر فضرب البحر فانفلق اثني عشر طريقاً، وكانت بنو إسرائيل اثني عشر سبطاً فعبر كل سبط طريقاً فأقبل فرعون ومن معه فدخلوا بعدهم من حيث دخلوا فلما صاروا جميعاً في البحر أمر الله البحر فالتطم عليهم فغرقوا. ﴿**بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾ تعليل للإغراق أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات التسع التي جاء بها موسى وإعراضهم عنها وعدم تفكرهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية، والفاء وإن دلت على ترتيب الإغراق على ما قبله من النكث لكنه صرح بالتعليل إيذاناً بأن مدار جميع ذلك

تكذيب آيات الله والإعراض عنها ليكون ذلك مزجرة للسامعين عن تكذيب الآيات الظاهرة على يد رسول الله ﷺ والإعراض عنها.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿وأورثنا﴾ [ميراث داديم] ﴿القوم الذين﴾ يعني: بني إسرائيل والقوم مفعول أول لأورثنا ﴿كانوا يستضعفون﴾ أي: يستضعفهم القبط ويقهرونهم ويستذلونهم بذبح الأبناء واستخدام النساء والاستعباد ﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾ مفعول ثان لأورثنا والأرض أرض الشام ومشارقها ومغاربها جهاتها الشرقية والغربية ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها ﴿التي باركنا فيها﴾ بالخصب وسعة الأرزاق صفة للمشارق والمغارب. ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى﴾ المراد بالكلمة وعده تعالى إياهم بالنصر والتمكين وهو ما ذكره بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥-٦] وتمامها مضيها وانتهاؤها إلى الإنجاز لأن العدة بالشيء التزام لإيقاعه بالعبارة واللسان وتمامها لا يكون إلا بوقوع الموعود في الخارج والعيان. ﴿على بني إسرائيل بما صبروا﴾ أي: بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من جهة فرعون وقومه. ﴿ودمرنا﴾ أي: خربنا وأهلكنا. ﴿ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ من العمارات والقصور، أي: ودمرنا الذي كان فرعون يصنعه على أن فرعون اسم كان ويصنع خبر مقدم والجملة الكونية صلة ما والعائد محذوف، وقيل اسم كان ضمير عائد إلى ما الموصولة ويصنع مسند إلى فرعون والجملة خبر كان والعائد محذوف تقديره ودمرنا الذي كان يصنعه فرعون: ﴿وما كانوا يعرشون﴾ أي يرفعون من الجنات، أي: الكروم والأشجار.

قال في «زبدة التفاسير»: العرش سقف في الكروم والأشجار وأشارت الآية إلى أن العزيز من أعزه الله والذليل من أذله الله ومن صبر على مقاساة الذل في الله توجه بتاج العزة وجعل له حسن العاقبة والله تعالى كما وعد لبني إسرائيل وأنجز وعده فاستخلفهم في مشارق الأرض ومغاربها كذلك وعد لهذه الأمة، كما قال تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥] والمراد بالأرض: أرض الكفار من العرب والعجم والمراد بالذين من قبلهم بنو إسرائيل وفي الحديث: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها» يقول: إن الله تعالى جمع وضم جميع هذه الأرض ليلة المعراج أو في غير ذلك الوقت، فرأيت جميع آفاق الأرض من المشارق والمغارب ثم وعد أمته بأن الله تعالى يملأ الدنيا كلها عدلاً وقسطاً كما ملئت قبل ذلك جوراً وظلماً ويملك المؤمنين جميع الأرض هذا على تقدير حمل اللام في الأرض على الاستغراق.

وقيل: اللام للعهد الخارجي كما إذا قيل أغلق الباب إذا كان مشاهداً، ومن للتبيين ولا دليل على جمع جميع الأرض ولم يبلغ ملك أمته جميع أجزائها فأي موضع من الأرض وقع

نظره عليه السلام عليه كان دار الإسلام وأي مكان كان محجوباً عنه كان دار الكفر والله أعلم بحقيقة الحال ومنه الكرم والنوال وإليه الرجوع والمآل.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ فاعل بمعنى فعل يقال: جاوز وجاز بمعنى واحد، وجاوز الوادي إذا قطعه وجاوز بغيره البحر عبر به، فالباء هنا معدية كالهمزة والتشديد، فكأنه قال وجزنا ببني إسرائيل البحر أي أجزناهم البحر وجوزناهم بالفارسية [وبكذرانيديم بنى إسرائيل را از دريا بسلامت] والمراد بحر القلزم وأخطأ من قال إنه نيل مصر.

قال في «القاموس»: القلزم: كقنفذ بلد بين مصر ومكة قرب جبل الطور وإليه يضاف بحر القلزم؛ لأنه على طرفه أو لأنه يبتلع من ركبه لأن القلزمة الابتلاع. روي أنه عبر بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراء فصاموا شكراً لله تعالى. ﴿فأتوا﴾ أي: مروا ﴿على قوم﴾ كانوا من العمالقة الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم وقيل: كانوا من لخم وهو حي من اليمن ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهلية.

وعن الزمخشري: إنه قبيلة بمصر ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ أي: يواظبون على عبادتها ويلازمونها.

قال في «تاج المصادر»: العكوف [كرد چيزى در آمدن ودر جايى مقيم شدن] يقال: عكفه حبسه وعكف عليه أقبل عليه مواظباً. ﴿قالوا﴾ عند ما شاهدوا أحوالهم ﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً﴾ مثالاً نعبده ﴿كما لهم آلهة﴾ يعبدونها، والكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لإلهاً وما موصولة ولهم صلتها وآلهة بدل من ما والتقدير اجعل لنا إلهاً كائناً كالذي استقر هو لهم فالعائد محذوف وكانت أصنامهم تماثيل بقر وهو أول شأن العجل. ﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾ وصفهم بالجهل المطلق حيث لم يذكر المفعول لبعد ما صدر عنهم عن العقل بعد ما شاهدوا من الآية الكبرى والمعجزة العظمى.

﴿إن هؤلاء﴾ يعني: القوم الذين يعبدون تلك التماثيل. ﴿متبر﴾ اسم مفعول من باب التفعيل يقال تبره تتبيراً، أي: كسره وأهلكه والمعنى مكسر ومهلك. ﴿ما هم فيه﴾ أي من الدين الباطل. يعني إن الله تعالى يهدم دينهم الذي هم عليه عن قريب ويحطم أصنامهم ويجعلها رضاضاً أي فتاتاً، قوله: ما هم فيه مبتدأ ومتبر خبر له ويجوز أن يكون ما هم فيه فاعل متبر لاعتماده على المسند إليه. ﴿وباطل﴾ أي: مضمحل بالكلية ﴿ما كانوا يعملون﴾ من عبادتها وإن كان قصدهم بذلك التقرب إلى الله تعالى فإنه كفر محض.

﴿قال﴾ موسى ﴿أغير الله﴾ أغير المستحق للعبادة ﴿أبغيكم﴾ بحذف اللام، أي: أبغي لكم، أي: أطلب لكم ﴿إلها﴾ تمييز من غير أو حال فإنه مفعول أبغي والهمزة فيه للإنكار والمنكر هو كون المبغي غيره تعالى. ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ أي: والحال أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم وهي الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة وإنما لم يحصل مثلها لأحد من العالمين.

قال الحدادي: على عالمي زمانكم من القبط وغيرهم بعدما كنتم مستعبدين أذلاء وفيه تنبيه على سوء معاملتهم حيث قابلوا تخصيص الله إياهم من بين أمثالهم بما لم يستحقوه تفضلاً بأن قصدوا إلى أخس شيء من مخلوقاته تعالى فجعلوه شريكاً له تعالى. قال الحافظ:

همايى چون توعا لى قدر حرص استخوان تاكى
دريغ آن سايهٔ دولت كه بر ناهل افكندى

فتبا لمن لا يعرف قدره ويعلق همته بما لا ينبغي له.

خلق را نيست سيرت پدران همه برسيرت زمانه روند

ثم ذكر نعمة الإنجاء وما يتبعه فقال تعالى:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

﴿**وإذ أنجيناكم من آل فرعون**﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل صنيعة الله معكم في وقت إنجائكم وتخليصكم من أيدي آل فرعون بإهلاكهم بالكلية ثم استأنف ببيان ما أنجاهم منه فقال: ﴿**يسومونكم سوء العذاب**﴾ أي: يبغونكم أشد العذاب وأفظعه من سام السلعة إذا طلبها ثم أبدل منه وبين فقال: ﴿**يقتلون أبناءكم**﴾ أي: يذبحونهم ﴿**ويستحيون نساءكم**﴾ أي: يستبقونهن للاستخدام. ﴿**وفي ذلكم**﴾ أي: الإنجاء أو سوء العذاب ﴿**بلاء**﴾ أي نعمة أو محنة، فإن البلاء يطلق على كل واحد منهما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ﴿**من ربكم**﴾ من مالك أموركم فإن النعمة والنقمة كلتيهما منه سبحانه وتعالى ﴿**عظيم**﴾ لا يقادر قدره، تقدم الكلام على الإنجاء وفضيلة عاشوراء في سورة البقرة فليطلب ثمة.

والإشارة: أن بني إسرائيل صفات القلب كانت معذبة في مصر القالب وصفاتها فلما خلصها الله تعالى من بحر الدنيا وفرعون النفس: ﴿**فأتوا على قوم**﴾ أي: وصلوا إلى صفات الروح ﴿**يعكفون على أصنام لهم**﴾ من المعاني المعقولة والمعارف الروحانية فاستحسنوها وأرادوا العكوف على عتبة عالم الأرواح. ﴿**قالوا**﴾ لموسى الوارد الرباني الذي جاوز بهم بحر الدنيا. ﴿**يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**﴾ يشير إلى أنه لولا أن فضل الله ورحمته على العبد يثبته على قدم العبودية وصدق الطلب إلى أن يبلغه إلى المقصد الأعلى لكان العبد يركن إلى كل شيء من خسائس الدنيا فضلاً عن نفائس العقبى كقوله تعالى لسيد البشر عليه السلام: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤] ﴿**قال**﴾ لهم موسى الوارد الرباني عند ركونهم إلى الروحانية ﴿**إنكم قوم تجهلون**﴾ قدر الله وعنايته معكم. ﴿**إن هؤلاء**﴾ يعني: صفات الروح ﴿**متبر ما هم فيه**﴾ من الركون والعكوف على استجلاء المعاني المعقولة والمعارف الروحانية. ﴿**وباطل ما كانوا يعملون**﴾ في غير طلب الحق والوصول إلى المعارف الربانية. ﴿**قال أغير الله أبغيكم إلَهاً**﴾ أي: أنزلكم منزلاً غير الوصول والوصال. ﴿**وهو فضلكم على العالمين**﴾ من الحيوانات والجن والملك تفضيل العبور من الجسمانيات والروحانيات والوصول إلى المعارف والحقائق الإلَهيات ﴿**وإذ أنجيناكم من آل فرعون**﴾ يعني: من النفس وصفاتها ﴿**يسومونكم سوء العذاب**﴾ أي: سوء عذاب البعد ﴿**يقتلون أبناءكم**﴾ أي يبطلون أعمالكم الصالحة التي هي متولدات من صفات القلب بآفة الرياء والعجب النفساني.

﴿ويستحيون نساءكم﴾ يعني: صفات القلب لاستخدام النفس وصفاتها ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ يعني: فكان في استخدام صفات القلب للنفس وصفاتها بأن تعمل الصالحات رياء وسمعة لجلب المنافع الدنيوية لحظوظ النفس بلاء عظيم من ربكم فخلصكم منه لئلا تطلبوا غيره ولا تعبدوا سواه، فلا تركنوا إلى الروحانية وإلى المعقولات لكي تظفروا بمراتب الوصول ودرجات الوصال كذا في «التأويلات النجمية».

وعن بعض الكبار: أول وصال العبد الحق هجرانه لنفسه، وأول هجران الحق العبد مواصلته لنفسه، وأول درجات القرب محو شواهد النفس وإثبات شواهد الحق ومن طلب الدلالة فإنها لا غاية لها، ومن طلب الله عز وجل وجده بأول خطوة يقصده بها. قال الحافظ:

غرض زمسجد وميخانه ام وصال شماست جز اين خيال ندارم خدا كواه منست

قال بعض الصالحين: عرضت عليّ الدنيا بزينتها فأعرضت عنها، ثم عرضت الأخرى بحورها وقصورها وزينتها فأعرضت عنها، فقيل لي لو أقبلت على الأولى حجبناك عن الأخرى ولو أقبلت على الأخرى حجبناك عنا فها نحن لك وقسمتك في الدارين تأتيك.

وقال أحمد بن حضرويه: رأيت رب العزة في المنام فقال لي يا أحمد كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد فإنه يطلبني.

وقال إبراهيم بن أدهم: رأيت جبريل عليه السلام في المنام وبيده قرطاس فقلت ما تصنع به قال: أكتب أسماء المحبين فقلت: اكتب تحتهم محب المحبين إبراهيم بن أدهم فنودي يا جبريل اكتبه في أولهم.

﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿وواعدنا﴾ الوعد عبارة عن الإخبار بإيصال المنفعة قبل وقوعها. ﴿موسى﴾ اسم أعجمي لا اشتقاق فيه وأما موسى الحديد فهو مفعل من أوسيت رأسه إذا حلقته أو فعلى من ماس يميس إذا تبختر في مشيه فسميت موسى لكثرة اضطرابها وتحركها وقت الخلق. ﴿ثلاثين ليلة﴾[سى شبانه روز چون مدار حساب شهور عرب برؤية هلالست وآن بشب مرئى ميشود تاريخ را بشب مقيد كرد] وثلاثين مفعول ثان لواعدنا على حذف المضاف أي تمام أو مكث ثلاثين.

قال ابن الشيخ: الموعود: يجب أن يكون من فعل الواعد ونفس الثلاثين ليس كذلك فكأنه قيل وواعدنا موسى ما يتعلق بثلاثين ليلة وهو منا إنزال عند إتمام صوم الثلاثين، ومن موسى صوم تلك المدة وإتيان الطور انتهى بتغيير عبارته فواعدنا ليس بمعنى وعدنا بل على بابه بناء على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلة الوعد. ﴿وأتممناها بعشر﴾ أي: زدنا على تلك الثلاثين عشر ليال ﴿فتم ميقات ربه﴾ ما وقت له في الوقت الذي ضرب له والفرق بين الميقات والوقت أن الميقات وقت تقدر لأن يقع فيه عمل من الأعمال وأن الوقت ما يقع فيه شيء سواء قدره مقدر لأن يقع فيه ذلك الشيء أم لا؟ ﴿أربعين ليلة﴾ حال من قوله ميقات ربه، أي: تم بالغاً هذا العدد وقيل هو مفعول تم لأنه بمعنى بلغ ـ روي ـ أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك

فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين وهو ذو القعدة بتمامه ليكلمه ويوحي إليه ويكرمه بما يتم به أمر نبوته فصامهن موسى عليه السلام على طريق المواصلة بين ليلهن ونهارهن، وإنما لم يجع في تلك المدة وصبر ولم يصبر نصف يوم في سفر الخضر حيث قال: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، قيل لأن سفر الخضر سفر التأدب والامتحان والابتلاء فزاد البلاء على الابتلاء حتى جاع في نصف يوم في صحبة المخلوق وحضوره الجبل وسفره إليه سفر اللقاء وصحبة الحق فأنساه هيبة الموقف الطعام والشراب وأغناه من غيره ثم لما أتم الثلاثين وانسلخ الشهر أنكر خلوف فيه أي كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم فتسوك بعود خرنوب وتناول شيئاً من نبات الأرض فمضغه فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك.

وقيل: أوحى الله تعالى إليه أما علمت أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ولذا كره التسوك عند الشافعي في آخر نهار الصوم بناء على أن السواك يزيل الخلوف فأمر الله تعالى بأن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة ليعود فوه إلى ما كان عليه فصام فتشرف بالوحي والكليم يوم النحر كذا قال أهل التفسير.

وفيه: أن الوحي والتكليم إذا كان يوم النحر يلزم أن لا يكون أيام الصوم أربعين كملاً، وهو مخالف للنص اللهم إلا أن تعتبر الليالي أو كان صوم يوم النحر مشروعاً في شريعته هكذا لاح بالبال.

ثم إن موسى عليه السلام لما أراد الانطلاق إلى الجبل للمناجاة أمره الله تعالى أن يختار سبعين رجلاً من قومه من ذوي الحجى والعقل ليشهدوا له على ما يشاهدونه من كرامة الله تعالى إياه ففعل واستخلف هارون أخاه في قومه، كما قال تعالى: ﴿**وقال موسى لأخيه هارون**﴾ قبل انطلاقه إلى الجبل الذي أمر بالعبادة فيه كما في «تفسير الحدادي» وهارون عطف بيان. ﴿**اخلفني**﴾ كن خليفتي وقم مقامي ﴿**في قومي**﴾ وراقبهم فيما يأتون ويذرون ﴿**وأصلح**﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح من أمورهم وسرْ فيهم السيرة الصالحة التي لا فساد فيها وثبتهم على ما أخلفهم عليه من الإيمان وإخلاص العبادة. ﴿**ولا تتبع سبيل المفسدين**﴾ أي: ولا تتبع من سألك الإفساد ولا تطع من دعاك إليه وذلك أن موسى عليه السلام كان يشاهد كثرة خلافهم حالاً بعد حال فأوصاه في أمرهم.

فإن قيل: إن هارون كان شريك موسى في النبوة قال تعالى خبراً عن موسى. ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٣٢] فكيف استخلفه.

قلنا المأموران بشيء لا ينفرد أحدهما بفعله إلا بأمر صاحبه، فلذلك قال: اخلفني ولأن موسى كان أصلاً فيها وهارون معيناً له قال موسى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٣٤] ولهذا كان هو المناجي على الخصوص والمعطى للألواح ولما أمر بالذهاب إلى فرعون سأل الله أن يشرك معه هارون ولما ذهب إلى الطور للمناجاة خلفه في قومه واستخلفه وهو موضع الاعتراض في الظاهر، ولكن لا اعتراض على الأكابر لأن حركاتهم الظاهرة إنما تنبعث من دواعي قلوبهم وتلك الدواعي إلهامات واردة من الله تعالى لاصنع لهم فيها فمن عرف دورانهم بأمر إلهي هان عليه التطبيق والتوفيق وسقط عنه الاعتراض على أصحاب التحقيق مع أن

درجات الأنبياء متفاضلة، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فمن منع الرؤية عن موسى منع المناجاة عن هارون وكون هارون شريكه في الأمر الظاهر لا يقتضي أن يكون رديفه في الأمر الباطن فإن لكل مقام رجالاً.

رموز مصلحت ملك خسروان دانند كداى كوشه نشيني توحافظا مخروش

انظر أن موسى عليه السلام استخلف هارون واعتمد عليه في حفظ قومه فعبدوا العجل في العشر الذي زيد على الثلاثين ورسولنا ﷺ قال الله خليفتي على أمتي فثبتهم الله على الحق.

واعلم: أن ذا القعدة وذا الحجة من الأشهر الحرم ويكفي شرفاً لهما أن الله تعالى أمر موسى بصومهما وجعلهما محل قبول الحاجات وميقات المناجاة وفي الحديث: «صيام يوم من الأشهر الحرم يعدل شهراً وصيام يوم من غير الأشهر الحرم يعدل عشراً» وفي الحديث: «من صام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله له عبادة تسعمائة سنة» وقال كعب الأحبار: اختار الله الزمان فأحبه إليه الأشهر الحرم وذو القعدة من الأشهر الحرم بغير خلاف وسمي ذا القعدة لقعودهم فيه عن القتال احتراماً له.

فعلى السالك أن يتهيأ فيه لمناجاة ربه بالصوم الظاهري والإمساك الباطني فإن موسى روحه متشوف لنوال الوصال ومتطلب لرؤية الجمال.

والإشارة في الآية: أن الميعاد في الحقيقة كان أربعين ليلة وإنما أظهر الوعد ثلاثين ليلة لضعف البشرية ولئلا تستكثر النفس الأربعين وتسوّل له أن لا يقوى على ذلك فيداخله خوف البشرية فواعده ثلاثين ليلة ثم أتمها بالعشر، وفيه أن للأربعين خصوصية في استحقاق استماع الكلام للأنبياء كما أن لها اختصاصاً في ظهور ينابيع الحكمة من قلوب الأولياء كقوله عليه السلام: «من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

قال أهل العرفان: إن سر التربيع جار في الحقائق الكلية كتربيع العرش الأعظم والعناصر الأربعة والأركان الأربعة والأربعين الموسوية وكان بين خلق آدم ونفخ روحه أربع جمع من جمع الآخرة فأكمل الأشكال تأثيراً صورة التربيع في الآحاد والأعشار والمئات والألوف كما أشار ﷺ بقوله: «خير الأصحاب أربعة وخير السرايا أربعمائة».

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ أي: لوقتنا الذي وقتناه وعيناه وحددناه له وهو تمام الأربعين أي اختص مجيئه بميقاتنا كما في قولك أتيته لعشر خلون من الشهر فاللام للاختصاص وليست بمعنى عند والميقات بمعنى الوقت وقد سبق الفرق بينهما في المجلس المتقدم.

إن قيل: لِمَ وعده الله بالكلام في الجبل؟ وفوق العلى وتحت الثرى واحد عند حضرته وهو منزه عن الجهات.

قيل: إن في الجبل وصف الثبات والعلو والتفرد لأن الأرض ما استقرت بغير الجبال فأثبتها الحق بها وأوتدها حكمة منه وعرض الأمانة عليها لاتصافها بصفة التثبت والتمكن والتفرد والتعلي، ولذلك فضل الجبال في الأمكنة وشرفها بمشهد الكلام وتعلق تجلي الجمال وعرض

الأمانة عليها وشرح الصدر المحمدي فيها ومناجاة موسى عليها فبدا من ذلك أن في المقامات فاضلاً ومفضولاً.

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي البروسوي: خير الجماعة جماعة الأرواح وجماعتهم في الجبال والمواضع الخالية وعلامة مجمعهم أنه لا يذهب خضرة ذلك الموضع ونظارته في الصيف والشتاء قال ونحن إنما جئنا إلى هذا المكان في هذا الجبل بناء على مجيئهم.

يقول الفقير: عنى به موضع زاويته المنيفة في مدينة بروسة في سفح الجبل المعروف هناك وقد زرته وزرت مرقده العالي في داخل القلعة قدس الله سره.

وقال وهب: جاء إلى طور سيناء ومعه جبريل فتطهر وطهر ثوبه وأنزل الله الظلمة على سبعة فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد عنه هوام الأرض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياماً في الهواء ورأى العرش بارزاً وسمع صرير القلم. ﴿وكلمه ربه﴾ من غير واسطة وكيفية كما يكلم الملائكة وكان جبريل معه فلم يسمع ما كلمه ربه ولذا خص باسم الكليم لاختصاصه بذلك من بين البشر فإن سائر الأنبياء عليهم السلام إنما يكلمهم الله بواسطة الكتاب والملك.

فإن قيل: بأي شيء علم موسى أنه كلام الله؟.

قيل: لم ينقطع كلامه بالنفس مع الحق كما ينقطع مع المخلوق، بل كلمه بمدد وحداني غير منقطع شاهد نفسه بمنزلة الآلة عند الصانع والآلة يحركها الأستاذ كيف يشاء لأنه ليس للآلة تصنع وتعمل.

وقيل: علم أنه كلام الحق وميزه عن غيره بأنه سمع الكلام من الجوانب الستة فصارت جميع جوارحه كسمعه فصار الوجود كله سمعاً فوجد لذة الكلام بوجوده كما وجدها بسمعه.

قال ابن الشيخ في «حواشيه» كلامه تعالى صفة أزلية قائمة بذاته ليست من جنس هذه الحروف والأصوات وكما لا تبعد رؤيته تعالى مع أن ذاته ليست جسماً ولا عرضاً فكذلك لا يبعد سماع كلامه مع كونه ليس من جنس الحرف والصوت انتهى.

وفي حل الرموز المؤمن في الآخرة وجه محض وعين محض وسمع محض ينظر من كل جهة وبكل جهة وعلى كل جهة وكذا يسمع بكل عضو من كل جهة بغير جهة خاصة وإذا شاهد الحق يشهده بكل وجه ليس فيه من الجهات ولا يحتجب سمعه وبصره بالجهات كما أشار سبحانه بقوله: «كنت سمعه وبصره» والكامل الواصل له حكم الآخرة في الدنيا كما قال سيد الواصلين: «موتوا قبل أن تموتوا وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا» انتهى.

يقول الفقير: هذا ليس بمحل الجرح والإنكار لأن الله تعالى وإن خلق حاسة السمع لإدراك الأصوات لكن يجوز أن يدرك بحاسة ما يدرك بحاسة أخرى، كما ذهب إليه علماء الكلام لأن ذلك الإدراك بمحض خلق الله تعالى من غير تأثير للحواس، فلا يمتنع أن يخلق عقيب صرف الباصرة إدراك الأصوات مثلاً فثبت أن كل عضو من الأعضاء الإنسانية يجوز أن يخلق الله تعالى فيه ما خلق في السمع من إدراك الأصوات.

إن قيل: لِمَ لم يكلم الله سائر الأنبياء مشافهة إلا موسى؟.

قيل: لأنه لم يكن لهم من الأعداء ما لموسى كفرعون وهامان وقارون واليهود ولم يكن قوم أسوأ أدباً وأقسى قلباً من قومه فخصه الله بكلامه ألا ترى سحرة القبط آمنوا في أول دعوته

وكفر قوم من اليهود بعد مشاهدتهم معجزات كثيرة فأيده الله بكلامه ليتحمل به ما امتحن به من البلايا في قومه.

يقول الفقير: كون عدو موسى أقوى وأشد إنما هو بالنسبة إلى أعداء الأنبياء غير نبينا ﷺ فإنه قد ثبت أن فرعون آمن عند الغرق، وأما أبو جهل فلا بل أظهر العداوة عند النزع فاعتبر منه قوة حاله وعلو مقامه ﷺ في المكالمة والرؤية ليلة المعراج وفي الحديث: «ناجى موسى ربه بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام وصايا كلها» كذا في «الوسيط».

وقال بعضهم: كلم الله موسى أربعين يوماً وليلة وهذا والله أعلم غير الأربعين المتقدمة على الوحي والتعليم.

وعن فضيل بن عياض: قال حدثني بعض أشياخي أن إبليس جاء إلى موسى وهو يناجي ربه فقال الملك ويلك ما ترجو منه وهو على هذه الحال يناجي ربه قال أرجو منه ما رجوت من أبيه آدم وهو في الجنة.

وكذا قال السدي: لما كلم الله موسى غاص الخبيث إبليس في الأرض حتى خرج من بين يدي موسى فوسوس إليه أن مكلمك شيطان.

يقول الفقير: يرده ما سبق من أن الشيطان طرد عنه وقتئذٍ وهو الصحيح لأن المقام لا يسع الشيطان وإنما سلطانه على أهل الملك دون أرباب الملكوت وفرق بينه وهو مناج في الطور وبين آدم وهو معاشر في الجنة.

فإن قلت قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] يدل على أن كل نبي مبتلى بذلك خصوصاً وقت التلاوة وهي من أنواع المناجاة.

قلت: فرق بين التلاوة الظاهرة والمناجاة الباطنة ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل». فما ظنك بالشيطان المردود إلى أسفل سافلين البعد هكذا لاح ببالي والله أعلم ولما سمع موسى كلام ربه غلب عليه الشوق إلى رؤيته وقال: هذه لذة الخبر فكيف لذة النظر مع أن الكل يعمل على شاكلته وشاكلة البشر وفطرته على طلب العلو والترقي إذا ظفر بشيء طلب ما هو أعلى منه ولا أعلى من تجلي الجمال وفيض الوصال فسأل الرؤية.

وفي «التفسير الفارسي»: [چون موسى كلام حق شنيد وازجام كلام ربانى جرعهء ذوق محبت چشيد فراموش كردكه او دردنياست خيال بست كه درفردوس اعلاست وچون جنت جاى مشاهدهء لقاست]. ﴿قال رب أرني﴾ ذاتك، أي: مكنني من رؤيتك. ﴿أنظر إليك﴾ أرك فالنظر بمعنى الرؤية إلا أن المطلوب بقوله أرني ليس أن يخلق الله تعالى رؤية ذاته المقدسة في موسى حتى يلزم كون الشيء غاية لنفسه بأن يكون المعنى أرني نفسك حتى أراك؛ لأنه فاسد بل المطلوب به أن يمكنه من رؤية ذاته المقدسة وتمكينه تعالى إياه من الرؤية سبب لرؤية موسى إياه تعالى فأطلق عليه اسم الرؤية المسببة عنه مجازاً. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قال موسى عليه السلام: ﴿أرني أنظر إليك﴾ كشف الحجاب وأبرز له الجبل وقال انظر فنظر فإذا أمامه مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي محرمين ملبين كلهم يقول: أرني أرني.

واعلم: أن الأجساد تنمو بنماء الأقوات كذلك الأحوال تصفو بصفاء الأوقات فقوت جسدك ما غذيته من الطيبات وقوت روحك ما ربيت به من أقوات الطاعات في أوقات الخلوات وكلما صفت الأواني جلت ما فيها من جوهر المعاني فإذا كان عين بصيرتك منطمسة وخيول همتك منحبسة فما لك والتطاول إلى منازل قوم عيون قلوبهم منبجسة، وسرائرهم لأنوار معارفهم من جذوة الغيب مقتبسة فلا تدع بما ليس فيك وحسبك ما يعلم الله منك ويكفيك فينبغي لك أن تقف وقوف الأصاغر وتتأدب بآداب الأكابر هذا كليم الله موسى لما كان طفلاً في حجر تربية الحق سبحانه ما تجاوز حده بل قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] فلما بلغ مبلغ الرجال ما رضي بطعام الأطفال بل قال: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ وهو حجة أهل السنة والجماعة على جواز رؤية الله تعالى فإن موسى اعتقد جوازها حين سألها واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله تعالى كفر ومن جوز ذلك على موسى أو على أحد من الأنبياء فهو كافر كما في «التيسير».

قال حضرة الشيخ الكبير صدر الدين القنوي في فك ختم الفص الداودي: من شأن الكمل أن كل ما هو متعذر الحصول لأحد من الخلق هو عندهم وبالنسبة إلى كمال قابليتهم غير متعذر ولا يستحيل إلا أن يخبرهم الحق بأخبار مخصوص خارج من خواص المواد والوسائط فحينئذٍ يصدقون ربهم ويحكمون باستحالته وحصول ذلك كحال موسى في طلب الرؤية على وجه مخصوص فلما أخبر بتعذر ذلك تاب وآمن انتهى. ﴿قال﴾ الله تعالى وهو استئناف بياني ﴿لن تراني﴾ لم يقل لن تنظر إليّ كقوله أنظر إليك لأن المطلوب هي الرؤية التي معها إدراك لا النظر الذي هو عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئي لأنه قد تخلف عنه الإدراك في بعض الصور.

قال في «التفسير»: ﴿لن تراني﴾ [نتوانى ديد مرا در دنيا چه حكم أزلي برآن وجه واقع شده كه هربشرى كه در دنيا بمن نظر كندبميرد] وفي المدارك ﴿لن تراني﴾ بالسؤال بعين فانية بل بالعطاء والنوال بعين باقية [صاحب كشف الأسرار كويدكه مقام موسى دران ساعت كه خطاب لن تراني شنيد عالى بود ازان وقتكه كفت أرني زيرا اين ساعت درعين مراد حق بود وآن وقت درعين مراد خود قائم بمراد حق بود كاملترست ارقيام بمراد خود].

لن تراني ميرسد ازطور موسى را جواب هرچه آن ازدوست آيدسربنه كردن متاب

وهو دليل لنا أيضاً لأنه لم يقل لن أرى ليكون نفياً للجواز ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنه ليس بمرئي إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان فهو لا يدل على امتناع رؤيته في نفس الأمر بل يدل على قصور الطالب عن رؤيته لتوقف الرؤية على حصول ما يستعد به الطالب لرؤيته وعدم حصول ذلك المعد فيه بعد فإنه يجوز أن يبقى فيه حينئذٍ شيء من الحجاب المانع لرؤيته إياه لم يرتفع ذلك الحجاب بعد.

يقول الفقير: هذا ما عليه أكثر أهل التفسير وهو ليس بمرضي عندي لأن إتيان الطور لم يكن في أوائل حاله عليه السلام بل كان ذلك نظير المعراج المحمدي بالنسبة إلى مرتبته والتحقيق بعيد عن درك أهل التقليد.

وقد سألت حضرة شيخي العلامة أبقاه الله بالسلامة عن قولهم في قوله تعالى: ﴿لن تراني﴾ أي: ببشريتك ووجودك فقال إن البشرية تنافي الرؤية وموسى عليه السلام إنما سأل

الرؤية بالنسبة إلى ظاهر البشرية والوجود الكوني وهي لا تمكن أبداً بل لو تعلقت الرؤية بذات الله تعالى لتعلقت حالة الفناء في الله واضمحلال حال البشرية، فقلت يرد عليه ما وقع ليلة المعراج من الرؤية بعين الرأس، فقال: إنه حبيب الله رأى ربه في تلك الليلة بالسر والروح في صورة الجسم ولا جسم هناك لأنه تجاوز في سيره عن عالم الأجسام كلها بل عن عالم الأرواح حتى وصل إلى عالم الأمر.

فقلت: يرد عليه أن الأنبياء والأولياء مشتركون في الرؤية بالبصيرة حالة الفناء الكلي فلا فرق بين موسى ومحمد عليهما السلام، فأي فائدة في قوله: ﴿لن تراني﴾ وأيضاً في عروجه عليه السلام إلى ما فوق العرش فإن تلك الرؤية إنما تحصل في مقام العينية الجمعية القلبية لا في مقام الغيرية الفرقية القالبية فقال إن أمر الرؤية وإن كان محتاجاً إلى الانسلاخ التام عن الأكوان مطلقاً إلا أن الانسلاخ بالقلب والقالب مختص بنبينا عليه السلام فإن موسى وكذا غيره من الأنبياء عليهم السلام إنما يرون بالانسلاخ حين كون قوالبهم في عالم العناصر. وأما محمد ﷺ فقد تجاوز عن عالم العناصر ثم عن عالم الطبيعة وذلك بالقلب والقالب جميعاً فأنى يكون هذا لغيره فافهم جداً انتهى ما جرى بيني وبين حضرة الشيخ من السؤال والجواب وما تحاورناه في المجلس الخاص المفتوح بابه للأحباب لا للأغيار وأهل الإنكار والارتياب وقد كان ذلك كالقطرة من البحر الزاخر بالنسبة إلى ما يحويه قلبه الحاضر قدس الله سره ورزقني وجميع الأحباب شفاعته.

قال مرجع طريقتنا الجلوتية: بالجيم حضرة الشيخ الشهير بافتاده البروسوي كما أن للإنسان عينين في الظاهر كذلك له عينان في قلبه فإذا انفتحتا يشاهد بهما تجلي الصفات؛ ولهما أيضاً حدقتان لكنهما في غاية اللطافة وإنما قلنا يشاهد بهما تجلي الصفات لأن تجلي الذات لا يشاهد إلا بعين معنوية وراء عين القلب لا حدقة لها لا كما زعمت الملاحدة والعياذ بالله تعالى فإن الممكن الحقيقي غير الواجب الحقيقي كيف والسالك الواصل إذا أفنى وجوده يصير معدوماً والمعدوم لا يحكم عليه بشيء فضلاً عن الحلول والاتحاد، بل إذا عبر بالاتحاد يراد به التقرب التام على وفق رضاه تعالى كما يراد ذلك في قولهم فلان متحد مع فلان إذ لا شك أنهما شخصان مستقلان حقيقة ومعنى كونه معدوماً إذ ذاك أنه يتلاشى ويغيب في بحر الاستغراق وأنوار التجلي بحيث يغيب عن نظره ما سوى الله تعالى حتى ينظر ولا يجد نفسه للتوجه التام إلى جنابه والإعراض الكلي عما سوى الله تعالى كمن جعل نظره إلى جانب السماء لا ترى له الأرض ومن نظر إلى المشرق لا يرى له المغرب لا أنه يعدم وجوده الخارجي ويضمحل والأنبياء عليهم السلام وإن تجلى لهم الذات إلا أن تعين نبينا فوق الكل حتى أن موسى لما سأل ربه التجلي عن تعين نبينا قال تعالى: ﴿لن تراني﴾ كذا أوله بعضهم وليس بشيء لأنه عالم بمرتبة المصطفى ﷺ فكيف يطلبها فخاطب موسى ﴿لن تراني﴾ لقطع طمع قومه حيث ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] لأنه إذا خوطب بذلك فهم أولى به فهذا في الحقيقة ليس بالنسبة إلى موسى عليه السلام، فإنه قد نال سعادة التجلي مراراً واصطفاه برسالته وبكلامه إلى هنا كلام افتاده أفندي كما في «الواقعات المحمودية».

وقال الشيخ علي دده في «أسئلة الحكم».

فإن قلت: ما الحكمة الربانية في منعة الرؤية في الموطن الدنيوي؟.

قيل: لأن الرؤية غاية الكرامة في الدنيا وغاية الكرامة فيها لأكرم الخلق وهو سيدنا محمد ﷺ صاحب المقام المحمود الذي شاهد ربه ليلة المعراج بعيني رأسه على هذا فابحث، وقيل: لو أعطاه الرؤية بالسؤال لكانت الرؤية مكافأة لسؤاله والرؤية فضل لا مكافأة وهي ربانية لا مدخل للسؤال والتعمل فيها فهي امتنان محض من الله تعالى.

قال الإمام الواحدي: كون كلمة (لن) مفيدة لتأبيد النفي دعوى باطلة على أهل اللغة لا يشهد لصحتها كتاب معتبر ولا نقل صحيح، ويدل على فساده قوله تعالى في صفة اليهود ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]: مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة ويقولون فيه: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. و ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحاقة: ٢٧] أي الموت فالإخبار بأن موسى لا يرى الله لا يدل على أنه لا يراه أبداً كما ذهبت إليه المعتزلة. قال المولى الجامي:

جهان مرآت حسن شاهدماست فشاهد وجهه في كل ذرات

قال الحافظ:

چو مستعد نظر نيستى وصال مجوى كه جام جم نكندسود وقت بى بصرى

﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ أي: لا تطلب النظر إليّ فإنك لا تطيقه ولكن اجعل بيني وبينك ما هو أقوى منك وهو الجبل الذي بحضرتك.

قال الكلبي: هو أعظم جبل بمدين يقال له زبير، وفي «القاموس»: زبير، كأمير الجبل الذي كلم الله عليه موسى.

وقال ابن الجوزي في «مرآة الزمان»: والأصح إنما خوطب موسى على جبل الطور الذي بقرب بحر القلزم فلما سمعت الجبال تعاظمت رجاء أن يتجلى لها وجعل زبير أو الطور يتواضع فلما رأى الله تواضعه رفعه من بينها وخصه بالتجلي كذا في عقد «الدرر واللآلي» وفي «المثنوي»:

اى خنك آنراكه ذلت نفسه واى آن كزسر كشى شدچون كه او

وقال أهل الإشارة: إن موسى عليه السلام لما أراد الخروج إلى الميقات جعل بين قومه وبين ربه واسطة بقوله: ﴿لأخيه هارونَ اخلفني في قومي﴾ فلما سأله الرؤية جعل الله بينه وبينها واسطة وهي الجبل فقال: ﴿لن تراني ولكن انظر إلى الجبل﴾ فقال: إن لم أصلح لخلافتك دون أخيك فأنت لا تصلح لرؤيتي دون الجبل. ﴿فإن استقر مكانه﴾ أي: سكن وثبت ﴿فسوف تراني﴾ فسوف تطيق أن تنظر إليّ وإن لم يستقر مكانه فإنك لا تطيق النظر إليّ فإن الجبل مع صلابته لما تأثر من التجلي ولم يطق ذلك بل اندك وتفتت وتلاشى فكيف يطيق الإنسان الذي يدهش عند مشاهدة الأمور الهائلة فكيف عند مشاهدة ذي العظمة والجلال المطلق الذي لا يوصف جلاله وكبرياؤه وهو دليل لنا أيضاً لأنه علق الرؤية باستقرار الجبل وهو ممكن وتعليق الشيء بما هو ممكن يدل على إمكانه كالتعليق بالممتنع يدل على امتناعه ألا ترى أن دخول الكفار الجنة لما استحال علقه بمستحيل قال: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] والدليل على أنه ممكن قوله: ﴿جعله دكاً﴾ ولم يقل اندك وما أوجده تعالى كان جائزاً أن لا يوجد لأنه مختار في فعله ولأنه تعالى ما أيأسه من ذلك ولا عاتبه عليه ولو كان ذلك محالاً لعاتبه كما عاتب نوحاً عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] حين سأل إنجاء ابنه من الغرق ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ ظهر له عظمته وتصدى له اقتداره

وأمره ومعنى ظهور عظمته واقتداره للجبل تعلقها به وظهور أثرها فيه وإنما حمل على هذا المعنى لأن ظهور ذاته للجماد غير معقول.

قال في «تفسير العيون»: كشف نوره من حجبه قدر ما بين الخنصر والإبهام إذا جمعتهما أي إذا وضعت الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر.

وعن سهل بن سعد الساعدي أن الله أظهر من سبعين ألف حجاب نوراً قدر الدرهم.

وفي «التفسير الفارسي»: يعني [ظاهر كردانيدازنور خود يا ازنور عرش بمقدار سوفار سوزنى].

وقال الشيخ أبو منصور: معنى التجلي للجبل ما قال الأشعري إنه تعالى خلق في الجبل حياة وعلماً ورؤية حتى رأى ربه، وهذا أيضاً فيه إثبات كونه مرئياً. ﴿جعله دكاً﴾ مصدر بمعنى المفعول أي صيره مدكوكاً مفتتاً وإذا حل بالجبل ما حل مع عظم خلقه فما ظنك بابن آدم الضعيف كما في «تفسير الكواشي».

قال بعض الكبار: جعل الله الجبل فداء لموسى ولولا أن موسى كان مدهوشاً لذاب كما ذاب الجبل قالوا عذب إذ ذاك كل ماء، وأفاق كل مجنون، وبرىء كل مريض، وزال الشوك عن الأشجار واخضرت الأرض وأزهرت وخمدت نيران المجوس وخرت الأصنام لوجوههن وانقطعت أصوات الملائكة وجعل الجبل ينهدم وينهال ويضطرب من تحت موسى حتى اندق كله فصار ذرات في الهواء والذر هو الذي يرى إذا دخل الشعاع في الكوى بتلك الكوة.

وفي بعض التفاسير: صار لعظمته ستة أجبل وقعت ثلاثة بالمدينة أحد ورقان ورضوى وثلاثة بمكة ثور وثبير وحراء.

وفي «تفسير الحدادي»: فصار ثماني فرق أربع قطع منه وقعن بمكة ثور وثبير وحراء وغار ثور وأربع قطع وقعن بالمدينة أحد ورقان ورضوى والمهراس.

وقال الحسن: صار الجبل ثلاث فرق ساخت فرقة منه في الأرض وطارت فرقة في البحر وطارت فرقة فوقعت بعرفات فهو شاحب مقشعر من مخافة الله تعالى.

وفي «التفسير الفارسي»: [عجب سريست كه كوه بآن عظمت تحمل ديدار نداشت ودل انسانرا بحكم «ولكن ينظر إلى قلوبكم» طاقت آن نظر هست نكته درين آنست كه تجلى بركوه بنظر وهيبت بود وتجلى بردل بنظر رحمت آن نظر كوهرا ويران ساخت واين نظر دلرا معمور سازد].

والإشارة: أن الجبل صورة الجسم الحجابي، والجسم غير مستعد للتجلي ما لم يندك وينحل بالرياضة والفناء وإنما التجلي للروح في مقام القلب والجبل صورة التحيز الكوني والحصر الجسماني ومشهد التجلي غير متحيز والسر فافهم وعليه فابحث كذا في «أسئلة الحكم»: ﴿وخر موسى صعقاً﴾ أي: سقط مغشياً عليه من هول ما رأى من عشية الخميس وهو يوم عرفة إلى عشية يوم الجمعة وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال قتادة: ميتاً وقول ابن عباس أظهر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فلما أفاق﴾ ولا يقال للميت أفاق من موته ولكن يقال بعث من موته كما قال في حديث السبعين: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦] وفي «المثنوي»:

جسم خاك از عشق بر افلاك شد   كوه در رقص آمد وچالاك شد

عـشـق جـان طـور آمـد عـاشـقـا طـور مـسـت وخرّ مـوسـى صـعـقـا

قال حضرة الشيخ بافتاده أفندي قدس سره: الجبل المذكور وإن احترق ظاهره ولكن له وجود معنوي كان ذلك لعلا خالصاً بانعكاس التجلي من موسى ولذلك رآه كاللعلل وكالمه وذلك الجبل يدخل الجنة وإن كان من الدنيا بسبب كونه مظهراً للتجلي كما أن الكعبة ومسجد المدينة وبيت المقدس تدخل الجنة. ﴿فلما أفاق﴾ من صعقته.

قال المولى أبو السعود رحمه الله: الإفاقة رجوع العقل والفهم إلى الإنسان بعد ذهابهما بسبب من الأسباب. ﴿قال﴾ تعظيماً لما شاهده. ﴿سبحانك﴾ أي: تنزيهاً لك من أن أسألك بغير إذن منك. ﴿تبت إليك﴾ أي: من الجراءة والإقدام على السؤال بغير إذن أو من السؤال في الدنيا فإنك إنما وعدتها في الآخرة. ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أي: بعظمتك وجلالك أو أول من آمن بأنك لا ترى في الدنيا [اي كه زيك لمعه ات كوه بصد پاره شد چه عجب ازمشت كل عاجز وبيچاره شد].

قال وهب بن إسحاق: لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل إليه الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق، وأحاطت بالجبل الذي عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب وأمر الله عز وجل ملائكة السموات أن يعرضوا على موسى فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد، ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى فهبطوا عليه أمثال الأسود ولهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع موسى مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة في رأسه وجسده، ثم قال: لقد ندمت على مسألتي فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيء فقال له خير الملائكة ورأسهم يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطوا على موسى فهبطوا عليه أمثال النسور لهم لجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس كجلبة الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففزع موسى واشتد نفسه وأيس من الحياة، وقال له خير الملائكة: مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا تصبر عليه ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة فهبطوا ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية مرتفعة بالتسبيح والتقديس لا يشبههم شيء من الذين مروا به قبلهم فاصطكت ركبتاه وارتعد قلبه واشتد بكاؤه، فقال له رئيس الملائكة: اصبر يا ابن عمران لما سألت فقليل من كثير ما أريت ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة فهبطوا ولهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفاً واشتد حزنه وكثر بكاؤه، فقال له خير الملائكة: يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة فهبطوا وفي يد كل ملك منهم نار مثل النخلة الطويلة أشد ضوءاً من الشمس ولباسهم كلهب النار كلهم، يقولون: بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبداً لا يموت في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه فجعل يسبح موسى معهم وهو يبكي ويقول رب اذكرني ولا تنس عبدك فقال كبير الملائكة يا ابن عمران اصبر لما سألت ثم أمر الله أن يحمل عرشه في السماء السابعة وقال أروه إياه فلما بدا نور العرش انفرج الجبل من عظمة الرب ورفعت ملائكة السموات جميعاً أصواتهم يقولون سبحان الله القدوس رب العزة أبداً لا يموت فاندك الجبل وكل شجرة كانت فيه وخر موسى على وجهه ليس معه روح فأرسل الله برحمته الروح فتغشاه وقلب الحجر الذي عليه موسى وجعله كهيئة القبة لئلا

يحترق موسى ثم أقامه كما تقيم الأم جنينها إذا وضعته فقام موسى يسبح الله تعالى ويقول آمنت بك رب وصدقت أنه لا يراك أحد في الدنيا فيحيا من نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت رب الأرباب وملك الملوك لا يعدلك شيء ولا يقوم لك شيء تبت إليك الحمد لك لا شريك لك.

قال في «التيسير»: قد روي في هذا أحاديث فيها ذكر نزول الملائكة والتعنيف على موسى بما سأل ولكن ليس ورودها على وجه يصح ولا يجوز قبولها لأنها لا تليق بحال الأنبياء انتهى.

قال بعض المحققين من أرباب المكاشفة: إن موسى عليه السلام طلب رؤية ذاته تعالى مع هوية نفسه حيث قال: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ مشيراً إلى هويته بصيغة المتكلم فرد الله تعالى بقوله: ﴿لن تراني﴾ أي مع بقاء هويتك التي تخاطب بها ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ أي بذاتك وهويتك ﴿فإن استقر مكانه﴾ ولم يكن فانياً ﴿فسوف تراني﴾ بهويتك ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ أي ألقى عليه من نوره فاضطرب بدنه من رهبته ﴿جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً﴾ وفني عن هويته فرأى الحق بعين الحق ﴿فلما أفاق قال سبحانك تبت﴾ الآن من مسألة الرؤية مع بقاء الهوية.

وقال في «التأويلات النجمية»: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾ يعني: ولما حصل على بساط القرب تتابع عليه كاسات الشراب من صفو الصفات ودارت أقداح المكالمات وأثر فيه لذاذات الكلمات فطرب واضطرب إذ سكر من شراب الواردات وتساكر من سماع الملاطفات في المخاطبات، فطال لسان انبساطه عند التمكن على بساطه وعند استيلاء سلطان الشوق وغلبات دواعي المحبة في الذوق. ﴿قال رب أرني أنظر إليك﴾ قيل: هيهات أنت في بعد الاثنينية منكوب وبحجب جبل الأنانية محجوب وإنك إذا نظرت بك إلي ﴿لن تراني﴾ لأنه لا يراني إلا من كنت له بصراً فبي يبصر ﴿ولكن انظر﴾ إلى الجبل جبل الأنانية ﴿فإن استقر مكانه﴾ عند التجلي ﴿فسوف تراني﴾ ببصر أنانيتك ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ جبل أنانيته ﴿جعله دكاً﴾ فانياً كأن لم يكن ﴿وخر موسى صعقاً﴾ بلا أنانية وكان ما كان بعد أن بان ما بان فأشرقت الأرض بنور ربها وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

قد كان ما كان سراً لا أبوح به فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

ولو لم يكن جبل أنانية النفس بين موسى الروح وتجلي الرب لطاش في الحال وما عاش ولولا القلب كان خليفته عند الفناء بالتجلي لما أمكنه الإفاقة والرجوع إلى الوجود فافهم جداً ولو لم يكن تعلق الروح بالجسد لما استعد بالتجلي ولا بالتحلي تفهم إن شاء تعالى: ﴿فلما أفاق﴾ من غشية الأنانية بسطوة تجلي الربوبية ﴿قال﴾ موسى بلا هويته ﴿سبحانك﴾ تنزيهاً لك من خلقك واتصال الخلق بك ﴿تبت﴾ من أنانيتي ﴿إليك﴾ إلى هويتك بك ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ بأنك لا ترى بالأنانية ولا ترى إلا بنور هويتك بك انتهى.

وقال القشيري: ﴿ولما جاء موسى﴾ مجيء المشتاقين ومجيء المغلوبين جاء موسى بلا موسى ولم يبق من موسى لموسى وآلاف آلاف رجال قطعوا مسافات وتحملوا مخافات فلم يذكرهم أحد وهذا موسى خطا خطوات وإلى يوم القيامة يقرأ الصبيان ولما جاء موسى لميقاتنا باسطه الحق بالكلام فلم يتمالك أن ﴿قال رب أرني أنظر إليك﴾ فإن غلبات الوجد استنطقته

بكمال الوصلة من الشهود وقالوا لا يؤاخذ المغلوب بما يقول وقالوا إنه لا يشكر ثم ينكر قال وأشد الخلق شوقاً إلى الحبيب أقربهم من الحبيب هذا موسى وقف في محل المناجاة وحفت به الكرامات وكلمه بلا واسطة ولا جهات ﴿**قال رب أرني أنظر إليك**﴾ كأنه غائب هو شاهد لكن ما ازداد القوم شرباً إلا ازدادوا عطشاً ولا ازدادوا قرباً إلا ازدادوا شوقاً وقال سأل موسى الرؤية بالكلام فأجيب ﴿**لن تراني**﴾ بالكلام وأسر المصطفى في قلبه ما كان يرجوه من تحويل القبلة من ربه فقيل له ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] وقال إنه سأل الله الرؤية فقال: ﴿**لن تراني**﴾ وقال للخضر ﴿مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الكهف: ٦٦-٦٧] فصار جوابه لن من الحق ومن الخلق ليبقى موسى بلا موسى ويصفو موسى عن كل نصيب لموسى بموسى وأنشد في معناه فقيل:

أبني أبينا نحن أهل منازل ... أبداً غراب البين فينا يزعق

والبلاء الذي ورد عليه بقوله تعالى: ﴿**فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً**﴾ أشد من قوله: ﴿**لن تراني**﴾ لأنه صريح في الرؤية وفي اليأس راحة وقوله: ﴿**فإن استقر مكانه فسوف تراني**﴾ هذا إطماع فيما يمنعه فلما اشتد توقعه جعل الجبل دكاً وكان قادراً على إمساك الجبل لكنه قهر الأحباب وبه سبق الكتاب وفي قوله: ﴿**انظر إلى الجبل**﴾ بلاء شديد لموسى لأنه منع عن رؤية مقصوده وأمر برؤية غيره ولو أمر بأن يغمض عينيه ولا ينظر إلى شيء بعده لكان الأمر أسهل عليه ولكنه قيل له ﴿**لن تراني ولكن انظر إلى الجبل**﴾ ثم أشد من ذلك أن الجبل أعطي التجلي ثم أمر موسى عليه السلام بالنظر إلى الجبل الذي قدم عليه في هذا السؤال وهذا صعب شديد ولكن موسى رضي به وانقاد لحكمه وفي معناه أنشدوا:

أريد وصاله ويريد هجري ... فأترك ما أريد لما يريد

وقيل: بل هو لطف به حيث لم يصرح برده بل علله عوناً له على صبره.

وقيل: قد دنا اصبر قليلاً قليلاً ولما منع النظر رجع إلى رأس الأمر فقال تبت إليك إن لم تكن الرؤية التي هي غاية الرتبة من رأس الأمر وهو التوبة ثم هذا إناخة لعقوق العبودية وشرطها أن لا تبرح عن محل الخدمة إن حال بينك وبيني وجود القربة لأن القربة حظ نفسك والخدمة حق ربك ولأن تكون بحق ربك أتم من أن تكون بحظ نفسك كذا في «تفسير التيسير» نقلاً عن القشيري.

ذكر بعضهم: أن رؤية الله تعالى ممكنة في الدنيا.

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي: الرؤية في الآخرة موعود وأما في الدنيا وإن كانت في حيز الإمكان لكنها غير موعودة ولم تجر عادة الله عليها انتهى.

وقد ذكرنا موانع الرؤية في سورة البقرة وأنواع الرؤية في سورة الأنعام.

وفي «الواقعات المحمودية»: سأل بعض الكبار من العلماء وقال الذي لا زمان له ولا مكان في أي مكان والأدب في السؤال أن يقال المنزه ذاته عن الزمان والمكان بأي وجه يطلب وبأي طريق يوجد ويوصل إليه وكذا الأدب في الجواب أن يقال من أراد رؤية جماله فلينظر في قلوب أوليائه فإن قلوبهم مظاهر ومرايا لجماله.

واعلم: أن المعتزلة أنكروا رؤية الله تعالى حتى قال صاحب «الكشاف» تشنيعاً وتقبيحاً

وتضليلاً لأهل السنة والجماعة ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة فإنه من مصوبات أشياخهم والقول ما قال بعض العدلية فيهم:

لجماعة سموا هواهم سنة ... لكنهم حمر لعمري مؤكفه
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفه

وقال بعضهم جواباً عنهم:

عجباً لقوم ظالمين تلقبوا ... بالعدل ما فيهم لعمري معرفه
قد جاءهم من حيث لا يدرونه ... تعطيل ذات الله مع نفي الصفه

قال المولى إبراهيم الأروسقي:

رضينا كتاب الله للفصل بيننا ... وقول رسول الله أوضح فاصل
وتحريف آيات الكتاب ضلالة ... وليس بعدل رد نص الدلائل
وتضليل أصحاب الرسول وذمهم ... وتصويب آراء النظام وواصل
ولو كان تكذيب الرسول عدالة ... فأعدل خلق الله عاص بن وائل
فلولاك جار الله من فرقة الهوى ... لكنت جديراً باجتماع الفضائل

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿قال﴾ الله تعالى لموسى حين قال تبت إليك وأنا أول المؤمنين. ﴿يا موسى﴾ إن منعتك الرؤية لصلاح حالك وبقاء ذاتك فلا تكن مغموماً محزوناً لذلك ﴿إني اصطفيتك﴾ أي: اخترتك واتخذتك صفوة وآثرتك ﴿على الناس﴾ أي: الموجودين في زمانك وهارون وإن كان نبياً وأكبر منه سناً كان مأموراً باتباعه وما كان كليماً ولا صاحب شرع أو على الناس جميعاً لأن الرسالة مع الكلام ولم يحصل هذا المجموع لغيره وإنما قال على الناس ولم يقل على الخلق لأن الملائكة قد سمعوا كلامه تعالى من غير واسطة كما سمعه موسى عليه السلام. ﴿برسالاتي﴾ جمع الرسالة وهي في الأصل مصدر بمعنى الإرسال، والمراد به هنا الشيء المرسل به إلى الغير وهو أسفار التوراة جمع سفر بمعنى الكتاب يقال سفره إذا كتبه وألواح التوراة أسفار من حيث إنها كتب فيها التوراة ﴿وبكلامي﴾ أي: وبتكلمي إياك بلا واسطة، وقيل المضاف محذوف أي وسماع كلامي وهذا يرد قول من يقول إن السبعين الذين اختارهم موسى سمعوا كلام الله تعالى لأن في الآية بيان الاصطفاء وهو تنصيص على التخصيص.

واعلم: أن كل نبي قد اصطفاه الله على الخلق بنوع أو نوعين أو أنواع من الكمال عند خلقته وركب في ذرة طينته استعداده لظهور ذلك النوع من الكمال حين خمر طينة آدم بيده فاصطفى موسى بالرسالة والمكالمة دون نوح، وكمال الرؤية مخصوص بنبينا محمد ﷺ وأمته حتى استدعى موسى لنيل مقام رؤية ربه فقال اللهم اجعلني من أصحابه. روي أنه لما كلم الله تعالى موسى عليه السلام يوم الطور كان على موسى جبة من صوف مخللة بالعيدان محزوم وسطه بشريط ليف وهو قائم على الجبل، وقد أسند ظهره إلى صخرة من الجبل فقال الله يا

موسى إني قد أقمتك مقاماً لم يقمه أحد قبلك ولا يقومه أحد بعدك وقربتك نجياً فقال موسى عليه السلام يا رب فلم أقمتني هذا المقام قال لتواضعك يا موسى فلما سمع موسى لذاذة الكلام من ربه نادى إلهي أقريب فأناجيك أم بعيد فأناديك قال يا موسى أنا جليس من ذكرني وكان موسى عليه السلام بعدما كلمه الله تعالى لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لما غشي وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات. ويروى أن امرأته قالت له: أنا أيم منك أي كأني بلا زوج منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها ساعة وقالت ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة قال ذاك إن لم تتزوجي بعدي فإن المرأة لآخر أزواجها. وقيل: إن الرجل إذا تبكر بالمرأة تزوجها في الجنة. وقيل: إنها تكون لأحسن أزواجها خلقاً ومن خصائص نبينا ﷺ تحريم أزواجه اللاتي توفي عنهن على غيره أبداً.

﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي: أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿وكن من الشاكرين﴾ على النعمة.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿فخذ ما آتيتك﴾ يعني ما ركبت فيك استعداده واصطفيتك به من الرسالة والمكالمة ﴿وكن من الشاكرين﴾ فإن الشكر يبلغك إلى ما سألت من الرؤية لأن الشكر يستدعي الزيادة لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] والزيادة هي الرؤية لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وقال عليه السلام: «الزيادة هي الرؤية والحسنى هي الجنة» ﴿وكتبنا﴾ [ونوشتيم ما يعنى قلم أعلى را فرموديم كه كتابت كرد يا جبريل راك كفتيم كه بقلم ذكر امداد نهر النور نوشت] ﴿له﴾ [براى موسى] ﴿في الألواح﴾ أي: في تسعة ألواح من الزمرد الأخضر وهو الأصح وفيها التوراة كنقش الخاتم طول كل لوح عشرة أذرع.

وفي «القاموس»: اللوح كل صفيحة عريضة خشباً أو عظماً جمعه ألواح. روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة وإعطاء التوراة يوم النحر. ﴿من كل شيء﴾ مما يحتاجون إليه من أمور دينهم ﴿موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ بدل من الجار والمجرور؛ لأنه في محل النصب على أنه مفعول كتبنا ومن مزيدة لا تبعيضية أي كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام.

قال مقاتل: كتب في الألواح إني أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بي شيئاً ولا تقطعوا السبيل ولا تزنوا ولا تعقوا الوالدين. ﴿فخذها﴾ على إضمار القول عطفاً على كتبنا أي فقلنا خذها أي: الألواح. ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة. ﴿وأمر قومك﴾ أي: على طريق الندب والحث على اختيار الأفضل ﴿يأخذوا﴾ أي: ليأخذوا ﴿بأحسنها﴾ الباء زائدة في المفعول به. الأحسن العزائم والحسن الرخص يعني: ليعلموا أن ما هو عزيمة يكون ثوابه أكثر كالجمع بين الفرائض والنوافل والصبر بالإضافة إلى الانتصار وغير ذلك.

قال قطرب: أي بحسنها وكلها حسن كقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ﴿سأريكم﴾ يا بني إسرائيل ﴿دار الفاسقين﴾ دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها ومنازل عاد وثمود وأضرابهم لتعتبروا فلا تفسقوا بمخالفة ما أمرتم به من العمل بأحكام التوراة أو أرض مصر وأرض الجبابرة والعمالقة بالشام، ومعنى الإراءة الإدخال بطريق الإيراث فعلى الأول يكون وعيداً وترهيباً وعلى الثاني وعداً وترغيباً.

وفي الآية: إشارة إلى أن طلب الآخرة كان أحسن من طلب الدنيا كذلك طلب الله أحسن من طلب الآخرة فعلى العاشق أن يختار الأحسن، وقوله: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ يعني:

الخارجين من طلب الآخرة فدارهم الجنة ودار الخارجين من طلب الآخرة إلى طلب الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر. قال الحافظ:

سايهٔ طوبى ودلجويىء حورولب حوض   بهواى سركوى توبرفت ازيادم
نيست بر لوح دلم جز الف قامت دوست   چه كنم حرف دكر يا دنداد استادم

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض﴾ المراد بالآيات ما كتب في ألواح التوراة من المواعظ والأحكام وغيرها من الآيات التكوينية التي من جملتها ما وعد إراءته من دار الفاسقين ومعنى صرفهم عنها الطبع على قلوبهم بحيث لا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر، والمعنى: سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء ويرون لهم على الخلق مزية وفضلاً فلا ينتفعون بآياتي التنزيلية والتكوينية المنصوبة في الأنفس والآفاق ولا يغتنمون بمغانم آثارها فلا تسلكوا يا بني إسرائيل مسلكهم فتكونوا أمثالهم ﴿بغير الحق﴾ صلة للتكبر أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط.

قال ابن الشيخ: لما كان التكبر مؤدياً إلى الحرمان من الانتفاع بالآيات المذكورة وتضييعها كان المقصود من الآية تحذير بني إسرائيل عن التكبر المفضي إلى أن يصرفهم الله عن التفكر في الآيات والاهتداء بها حتى يأخذوا أحكام التوراة بجد ورغبة انتهى، فالآية متصلة بقصة بني إسرائيل ويحتمل أن تكون كلاماً معترضاً خلال قصتهم أخبر به رسول الله أنه حرم المتكبرين من أمته فهم معاني القرآن والتدبر فيها، كما قيل أبى الله تعالى أن يكرم قلوب الظالمين بتمكينهم من فهم حكمة القرآن والاطلاع على عجائبه.

حيفست چنين كنج دران ويرانه

﴿وإن يروا﴾ يشاهدوا ﴿كل آية﴾ من الآيات كانت معجزة. ﴿لا يؤمنوا بها﴾ أي: كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم إياها كما هي. ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً﴾ أي: لا يتوجهون إلى الحق ولا يسلكون سبيله أصلاً لاستيلاء الشيطنة عليهم ومطبوعيتهم على الانحراف والزيغ. ﴿وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾ أي: يختارونه لأنفسهم مسلكاً مستمراً لا يكادون يعدلون عنه لموافقته لأهوائهم الباطلة وإفضائه بهم إلى شهواتهم. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من تكبرهم وعدم إيمانهم بشيء من الآيات، وإعراضهم عن سبيل الرشد وإقبالهم التام على سبيل الغي. ﴿بأنهم﴾ أي: حاصل بسبب أنهم ﴿كذبوا بآياتنا﴾ الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح وعلى حقية أضدادها وهي الآيات المنزلة والمعجزة. ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ لا يتفكرون فيها وإلا لما فعلوا ما فعلوا من الأباطيل فالمراد بالغفلة عنها عدم التفكر والتدبر فيها عبر عن عدم تدبر الآيات بالغفلة عنها تشبيهاً للمعرض عن الشيء بمن غفل عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟

يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿**والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة**﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله والفاعل محذوف، أي: ولقائهم الدار الآخرة. ﴿**حبطت أعمالهم**﴾ أي: ظهر بطلان أعمالهم التي كانوا عملوها من صلة الأرحام وإغاثة الملهوفين ونحو ذلك فلا ينتفعون بها ﴿**هل يجزون**﴾ استفهام بمعنى النفي والإنكار يعني: لا يجزون ﴿**إلا ما كانوا يعملون**﴾ أي: الإجزاء ما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي.

قال في «التأويلات النجمية»: يعني: لما حبطت أعمالنا عندهم من بعثة الأنبياء وإنزال الكتب وإظهار المعجزات لتكبرهم عنها جازيناهم بأن حبطت أعمالهم عندنا لكبريائنا وغنانا عن أهل الشرك وشركهم نظيره قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وفي الآية ذم التكبر وإنه من أعظم أوصاف البشر حجباً لأنه يزيد في الأنانية وما لعن إبليس وطرد إلا للتكبر.

وصف بعض البلغاء متكبراً، فقال: كأن كسرى حامل غاشيته وقارون وكيل نفقته وبلقيس إحدى داياته وكأن يوسف لم ينظر إلا بمقلته ولقمان لم ينطق إلا بحكمته كأن الخضراء له عرشت والغبراء باسمه فرشت. وفي «المثنوي»:

اين تكبر زهر قاتل دانكه هست ... ازمى پرزهر شد آن كيج مست
چون مى پر زهر نوشد مدبرى ... از طرب يكدم بجنباند سرى
بعد يكدم زهر بر جانش زند ... زهر برجانش كند داد وستد
كر نداری زهريش را اعتقاد ... كرچه زهر آمد نكر در قوم عاد
چونكه شاهى دست يابد بر شهى ... بكشدش يا باز دارد در چهى
ور بيابد خستهٔ افتاده را ... مرهمش سازد شه وبدهد عطا
كه نه زهراست اين تكبر پس چرا ... كشت شه را بى كناه وبى خطا
وين دكرراپى زخدمت چون نواخت ... زين دو جنبش زهررا شايد شناخت
نردبان خلق اين ما ومنيست ... عاقبت زين نردبان افتاد نيست
هركه بالاتر رود ابلهتر است ... كاستخوان أو بترخواهد شكست
اين فروعست واصولش آن بود ... كه ترفع شركت يزدان بود
چون نمردى ونكشتى زنده زو ... باغىٔ باشى بشركت ملك جو
چون بدوزنده شدى آن خود ويست ... وحدت محض است آن شركت كى است

فعلى العاقل أن يزكي نفسه عن الكبر ويأخذ التواضع في طريق الحق ويخلص العمل لله تعالى فإن من أخلص في العمل، وإن لم ينو ظهرت آثار بركته عليه وعلى عقبه إلى يوم القيامة كما قيل: إنه لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض جاءت وحوش الفلاة تسلم عليه وتزوره فيدعو لكل جنس بما يليق به فجاءت طائفة من الظباء، فدعا لهن ومسح على ظهورهن فظهر فيهن نوافج المسك فلما رأى بواقيها ذلك قلن من أين هذا لكن؟ فقلن زرنا صفي الله آدم فدعا لنا ومسح على ظهورنا فمضى البواقي إليه فدعا لهن ومسح على ظهورهن فلم يظهر لهن من ذلك شيء، فقالوا قد فعلنا كما فعلتم فلم نر شيئاً مما حصل لكنّ فقالوا أنتم كان عملكم لتنالوا

كما نال إخوانكم وأولئك كان عملهم لله من غير شوب فظهر ذلك في نسلهم وعقبهم إلى يوم القيامة فظهر أن الخلق لا يجزون إلا ما كانوا يعملون والجزاء لا بد وأن يكون من جنس العمل نسأل الله تعالى دفع الكسل ورفع الزلل.

﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ أي: من بعد ذهابه إلى الطور ومن لابتداء الغاية ﴿من﴾ للتبعيض ﴿حليهم﴾ جمع حلي كثدي وثدي وهو ما تزين به من الذهب والفضة وإضافة الحلي إليهم مع أنها كانت للقبط لأدنى الملابسة حيث كانوا استعاروها من أربابها حين هموا بالخروج من مصر. ﴿عجلا﴾ مفعول أول لقوله اتخذ لأنه متعد إلى اثنين بمعنى التصيير والمفعول ثاني محذوف أي صيروه إلهاً والعجل ولد البقر وأبو العجل الثور والجمع العجاجيل والأنثى عجلة سمي عجلاً لاستعجال بني إسرائيل عبادته وكانت مدة عبادتهم له أربعين يوماً فعوقبوا في التيه أربعين سنة فجعل الله تعالى كل سنة في مقابلة يوم. ﴿جسداً﴾ بدل من عجلاً أي جثة ذا دم ولحم أو جسداً من ذهب لا روح معه فإن الجسد اسم لجسم له لحم ودم ويطلق على جثة لا روح لها. ﴿له خوار﴾ أي: صوت البقر.

وذلك أن موسى كان وعد قومه بالانطلاق إلى الجبل ثلاثين يوماً فلما تأخر رجوعه قال لهم السامري رجل من قرية يقال لها سامرة وكان رجلاً مطاعاً من قوم موسى إنكم أخذتم الحلي من آل فرعون فعاقبكم الله بتلك الجناية ومنع موسى عنكم فاجمعوا الحلي حتى أحرقها لعل الله يرد علينا موسى، أو سألوه إلهاً يعبدونه وقد كان لهم ميل إلى عبادة البقر منذ مروا على العمالقة التي كانوا يعبدون تماثيل البقر وذلك بعد عبور النهر، وقد مرت قصته فجعل السامر الحلي بعد جمعها في النار وصاغ لهم من ذلك عجلاً لأنه كان صاغاً وألقى في فمه تراباً من أثر فرس جبريل عليه السلام وكان ذلك الفرس فرس الحياة ما وضع حافره في موضع إلا اخضر وكان قد أخذ ذلك التراب عند فلق البحر أو عند توجهه إلى الطور فانقلب ذلك الجسد لحماً ودماً وظهر فيه خوار وحركة ومشي، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى فعبدوه إلا اثني عشر ألفاً من ستمائة ألف وقيل إنه جعل ذلك العجل مجوفاً وجعل في جوفه أنابيب على شكل مخصوص وكان وضع ذلك التمثال على مهب الريح كانت الريح تدخل في تلك الأنابيب فظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل فأوهم بني إسرائيل أنه حي يخور فزفنوا حوله أي رقصوا.

نقل القرطبي عن الطرشوشي: أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان يقرؤون شيئاً من القرآن ثم ينشد لهم منشد شيئاً من الشعر يرقصون ويطربون ويضربون بالدف والشنانير هل الحضور معهم حلال أو لا.

قال مذهب الصوفية: بطالة وجهالة وضلالة وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري فلما اتخذوا عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حوله ويتواجدون فهو دين الكفار وعباد العجل وإنما كان يجلس النبي عليه السلام مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم هذا مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم من أئمة المسلمين كذا في «حياة الحيوان».

قال في «نصاب الاحتساب: هل يجوز له الرقص في السماع الجواب لا يجوز ذكر في

«الذخيرة» أنه كبيرة ومن أباحه من المشايخ فذلك للذي صارت حركاته كحركات المرتعش وهل يجوز السماع الجواب إن كان السماع سماع القرآن أو الموعظة يجوز وإن كان السماع الغناء فهو حرام؛ لأن التغني واستماع الغناء حرام ومن أباحه من مشايخ الصوفية فلمن تخلى عن الهوى وتحلى بالتقوى واحتاج إلى ذلك احتياج المريض إلى الدواء.

وله شرائط. إحداها: أن لا يكون فيهم أمرد. والثانية: أن لا يكون جمعيتهم إلا من جنسهم ليس فيهم فاسق ولا أهل دنيا ولا امرأة. والثالثة: أن يكون نية القوال الإخلاص لا أخذ الأجرة والطعام. والرابعة: أن لا يجتمعوا لأجل طعام أو نظر إلى فتوح والخامسة: لا يقومون إلا مغلوبين. والسادسة: لا يظهرون الوجد إلا صادقين.

قال الشيخ عمر بن الفارض في القصيدة الموسومة بنظم الدر:

إذهام شوقاً بالمناغى وهمّ ان ... يطير إلى أوطانه الأوليه
يسكن بالتحريك وهو بمهده ... إذا ناله أيدي المربي بهزه

قال الإمام القاشاني في «شرحه»: إذا هام الولي واضطرب شوقاً إلى مركزه الأصلي ووطنه الأولي بسبب مناغاة المناغي وهم طائر روحه إلى أن يطير إلى عشه ووكره الأولي تهزه أيدي من يربيه في المهد فيسكن بسبب التحريك من قلقه وهمه بالطيران والمقصود من إيراد هذا المعنى أن يشير إلى فائدة الرقص والحركة في السماع وذلك أن روح السامع يهم عند السماع أن يرجع إلى وطنه المألوف ويفارق النفس والقالب فتحركه يد الحال وتسكنه عما يهم به بسبب التحريك إلى حلول الأجل المعلوم وذلك تقدير العزيز العليم انتهى. قال السعدي قدس سره:

مكن عيب درويش مدهوش ومست ... كه غرقست ازآن مى زند پاودست
نكويم سماع اى برادر كه چيست ... مكر مستمع را بدانم كه كيست
كر از برج معنى پرد طير او ... فرشته فروماند از سير او
اكر مرد بازى ولهوست ولاغ ... قوى تر شود ديوش اندر دماغ
چه مرد سماعست شهوت پرست ... بآواز خوش خفته خيزد نه مست

قال السروري: [چون سماع آواز خوش سبب حركت شد حركت را سماع كفتند] بطريق تسمية المسبب باسم السبب [وچون كسى آوازى خوش شنود در وحالتى پيداشود اين حالت را وجد كويند]، وفي المثنوى:

پس غداى عاشقان آمد سماع ... كه دراو باشد خيال واجتماع
قوتى كيرد خيالات ضمير ... بلكه صورت كردد ازبانك صفير

واعلم: أن الرقص والسماع حال المتلون لا حال المتمكن ولذا تاب سيد الطائفة الجنيد البغدادي قدس سره عن السماع في زمانه فمن الناس من هو متواجد ومنهم من هو أهل وجد ومنهم من هو أهل وجود. فالأول: المبتدىء الذي له انجذاب ضعيف، والثاني: المتوسط الذي له انجذاب قوي، والثالث: المنتهي الذي له انجذاب قوي وهو مستغن عن الدوران الصوري بالدوران المعنوي بخلاف الأولين ولا بد من العشق في القلب والصدق في الحركة حتى يصح الدوران والعلماء وإن اختلفوا في ذلك فمن مثبت ومن ناف لكن الناس متفاوتون والجواز للأهل المستجمع لشرائطه لا لغيره.

قال حضرة الشيخ أفتاده أفندي قدس سره: ليس في طريقتنا رقص ولا في طريق الشيخ الحاج بيرام ولي أيضاً لأن الرقص والأصوات كلها إنما وضع لدفع الخواطر ولا شيء في دفعها أشد تأثيراً من التوحيد ونبينا عليه الصلاة والسلام لم يلقن إلا التوحيد. ذكر أن علياً قال يوماً لا أجد لذة العبادة يا رسول الله فلقنه التوحيد ووصاه أن لا يكلم أحداً بما ظهر له من آثار التوحيد فلما امتلأ باطنه من أنوار التوحيد واضطر إلى التكلم جاء إلى بئر فتكلم فيها فنبت منها قصب فأخذه راع وعمل منه المزمار وكان ذلك مبدأ لعلم الموسيقى وقال وقد يقال إن رجلاً يقال له عبد المؤمن سمع صوت الأفلاك في دورها فأخذ منه العلم الموسيقى ولذلك كان أصله اثني عشر على عدد البروج ولكن صداها على طرز واحد فالإنسان لقابليته ألحق به زيادات كذا في «الواقعات المحمودية» فقد عرفت من هذا البيان أنه ليس في الطريقة الجلوتية بالجيم دور ورقص بل توحيد وذكر قياماً وقعوداً بشرائط وآداب وإنما يفعله الخلوتية بالخاء المعجمة ما يتوارثون من أكابر أهل الله تعالى لكن إنما يقبل منهم ويمدح إذا قارن شرائطه وآدابه كما سبق وإلا يرد ويذم وقد وجدنا في زماننا أكثر المجالس الدورية على خلاف موضوعها فالعاقل يختار الطريق الأسلم ويجتنب عن القيل والقال وينظر إلى قولهم لكل زمان رجال ولكل رجال مقام وحال.

قال الشيخ أبو العباس: من كان من فقراء هذا الزمان آكلاً لأموال الظلمة مؤثراً للسماع ففيه نزعة يهودية قال الله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال الحاتمي: السماع في هذا الزمان لا يقول به مسلم ولا يفتدى بشيخ يعمل السماع وقد عرفت وشاهدت في هذا الزمان أن المجالس الدورية يحضرها المرادان الملاح والنساء وحضورهم آفة عظيمة فإنهم والاختلاط بهم والصحبة معهم كالسم القاتل ولا شيء أسرع إهلاكاً للمرء في دينه من صحبتهم فإنهم حبائل الشيطان ونعوذ بالله من المكر بعد الكرم ومن الحور بعد الكور إنه هو الهادي إلى طريق وصاله وكاشف القناء عن ذاته وجماله والمواصل إلى كماله بعد جماله وجلاله وهو الصاحب والرفيق في كل طريق. ﴿ألم يروا﴾ [آيانديدند وندانستند] ﴿أنه﴾ أي: العجل ﴿لا يكلمهم﴾ أي: ليس فيه شيء من أحكام الألوهية حيث لا يقدر على كلام ولا أمر ولا نهي ﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾ أي ولا يرشدهم طريقاً إلى خير ليأتوه ولا إلى شر لينتهوا عنه. ﴿اتخذوه﴾ إلهاً ولو كان إلهاً لكلمهم وهداهم لأن الإله لا يهمل عباده قوله اتخذوه تكرير للذم، أي اتخذوه إلهاً وحسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر ﴿وكانوا ظالمين﴾ أي: واضعين الأشياء في غير موضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم.

وفي «التفسير الفارسي»: [در لطائف قشيرى مذكورست كه چه دورست ميان أمتي كه مصنوع خودرا پرستند وأمتي كه عبادت صانع خود كنند].

آنراكه توساختى نسازد كارت　　سازندهٔ توست در دو عالم يا رب

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿ولما سقط في أيديهم﴾ كناية عن شدة ندمهم فإن الذي يشتد ندمه وتحسره يعض يده مسقوطاً فيها كأنّ فاه وقع فيها، والمعنى ندموا على ما فعلوا من عبادة العجل غاية الندم وسقط

مسند إلى في أيديهم. ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ باتخاذ العجل إلهاً أي تبينوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كأنهم رأوه بأعينهم. ﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا﴾ بإنزال التوراة المكفرة ﴿ويغفر لنا﴾ بالتجاوز عن الخطيئة ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ [از زيانكاران وهلاك شد كان] وما حكي عنهم من الندامة والرؤية والقول وإن كان بعدما رجع موسى عليه السلام إليهم كما ينطق به الآيات الواردة في سورة طه لكن أريد بتقديمه عليه حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿ولما رجع موسى﴾ من جبل الطور ﴿إلى قومه﴾ حال كونه ﴿غضبان أسفاً﴾ أي: شديد الغضب يقال آسفني فأسفت أي: أغضبني فغضبت ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] وهو يدل على أنه عليه السلام كان عالماً باتخاذهم العجل إلهاً قبل مجيئه إليهم بسبب أنه تعالى أخبره في حال المكالمة بما كان من قومه من عبادة العجل. ﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾ أي: ساء ما عملتم خلفي أيها العبدة بعد غيبتي وانطلاقي إلى الجبل لأنه يقال خلفه بما يكره إذا عمل خلفه ذلك، و(ما) نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بئس المستكن فيه والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعد خلافتكم. ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ الهمزة للإنكار أي أتركتموه غير تام كأنه ضمن عجل معنى سبق وإلا فعجل يتعدى بعن يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ونقيضه تم عليه، والمعنى: أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به إلى أن يجيء، فالأمر واحد الأوامر أو أنه بمعنى المأمور به، والعجلة: العمل بالشيء قبل وقته ولذلك صارت مذمومة بخلاف السرعة فإنها غير مذمومة لكونها عبارة عن العمل بالشيء في أول وقته.

وفي «التأويلات النجمية»: استعجلتم يا صفات الروح بالرجوع إلى الدنيا وزينتها والتعلق بها قبل أوانه من غير أن يأمر به ربكم وفيه إشارة إلى أن أرباب الطلب، وأصحاب السلوك لا ينبغي أن يلتفتوا إلى شيء من الدنيا ولا يتعلقوا بها في أثناء الطلب والسلوك لئلا ينقطعوا عن الحق اللهم إلا إذا قطعوا مفاوز النفس والهوى ووصلوا إلى كعبة وصال المولى، فلهم أن يرجعوا إلى الدنيا لدعوة الخلق إلى المولى وتسليكهم في طريق الدنيا والعقبى. ﴿وألقى الألواح﴾ التي كانت فيها التوراة من يده. ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ أي: بشعر رأس هارون حال كونه، أي: موسى ﴿يجره إليه﴾ [بطرف خود كشيد اورا بطريق معاتبه نه ازروى اهانت] توهماً أنه قصر في كفّهم وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين وكان حمولاً ليناً ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل. ﴿قال﴾ أي: هارون مخاطباً لموسى. ﴿ابن أم﴾ بحذف حرف النداء، وأصله يا ابن أما حذفت الألف المبدلة من الياء اكتفاء بالفتحة زيادة في التخفيف لطوله باشتماله على إضافة بعد إضافة، وكان هارون أخاه لأب وأم ولكنه ذكر الأم ليرفقه عليه أي يحمله على الرفق والشفقة وعلى هذا طريق العرب. ﴿إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ إزاحة لتوهم التقصير في حقه، والمعنى: بذلت وسعي في كفّهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي.

﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ أي: فلا تفعل بي ما يكون سبباً لشماتتهم بي وبالفارسي [پس شادمان مكردان بمن دشمنانرا وچنان مكن كه آرزوى ايشان حاصل شود از اهانت من] يقال شمت به يشمت شماتة من باب علم يعلم إذا فرح ببلية أصابت عدوه ثم ينقل إلى باب الأفعال للتعدية فالشماتة [شادى كردن بمكر وهى كه دشمن رارسد] ويعدى بالباء. والإشمات [شاد كام كردن دشمن] كما في «تاج المصادر» وشماتة العدو أشد من كل بلية فلذلك قيل والموت دون شماتة الأعداء. ﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي: معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير.

والإشارة: أن هارون القلب أخ موسى الروح والأعداء النفس والشيطان والهوى والقوم الظالمون هم الذين عبدوا عجل الدنيا وهم صفات القلب يشير إلى أن صفات القلب تتغير وتتلون بلون صفات النفس ورعوناتها ومن هنا يكون شنشنة الشطار من أرباب الطريقة ورعوناتهم وزلات أقدامهم ولكن القلب من حيث هو هو لا يتغير عما جبل عليه من محبة الله وطلبه وإنما تتغير صفاته كما أن النفس لا تتغير من حيث هي هي عما جبلت عليه من حب الدنيا وطلبها وإنما تتغير صفاتها من الأمارية إلى اللوامية والملهمية والمطمئنية والرجوع إلى الحق ولو وكلت إلى نفسها طرفة عين لعادت المشومة إلى طبعها وجبلتها سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿قال﴾ موسى وهو استئناف بياني ﴿رب اغفر لي﴾ أي: ما فعلت بأخي من غير ذنب مقرر من قبله ﴿ولأخي﴾ أي: إن فرط في كفهم استغفر عليه السلام لنفسه ليرضي أخاه ويظهر للشامتين رضاه لئلا تتهم به ولأخيه للإيذان بأنه محتاج إلى الاستغفار حيث كان عليه أن يقاتلهم ﴿وأدخلنا في رحمتك﴾ بمزيد الإنعام علينا بعد غفران ما سلف منا.

قال الحدادي: أي في جنتك. ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ وأنت أرحم بنا منا على أنفسنا ومن آبائنا وأمهاتنا. حكي أنه اعتقل لسان فتى عن الشهادة حين أشرف على الموت فأخبروا النبي عليه السلام فدخل عليه وعرض الشهادة فاضطرب ولم يعمل لسانه فقال عليه السلام: «أما كان يصلي أما كان يزكي أما كان يصوم؟ قالوا: بلى قال فهل عقّ والديه؟ قالوا: نعم قال هاتوا بأمه فجاءت وهي عجوز عوراء فقال عليه السلام هلا عفوت عنه فقالت: لا أعفو لأنه لطمني ففقأ عيني قال هاتوا بالحطب والنار قالت ما تصنع قال: أحرقه بالنار بين يديك جزاء لما عمل، قالت: عفوت عفوت أللنار حملته تسعة أشهر أللنار أرضعته سنتين، فأين رحمة الأم فعند ذلك انطلق لسانه بالكلمة» والنكتة أنها كانت رحيمة لا رحمانة فللقليل من رحمتها ما جوزت إحراقه بالنار فالله الذي لا يتضرر بجناية العباد كيف يستجيز إحراق المؤمن المواظب على كلمة الشهادة سبعين سنة وهو أرحم الراحمين. قال الحافظ:

لطف خدا بيشتر ازجرم ماست   نكتهٔ سربسته چه دانى خموش

وقال:

دلا طمع مبر از لطف بى نهايت دوست   كه ميرسد همه را لطف بى نهايت او

قال بعض أهل التفسير: إن قابيل لما قتل أخاه هابيل اشتد ذلك على آدم، فقال الله تعالى: يا آدم جعلت الأرض في أمرك مرها فلتفعل ما تهوى بمكان ابنك قابيل فقال آدم عليه السلام: يا أرض خذيه فأخذت الأرض قابيل فقال قابيل يا أرض بحق الله أن تمهليني حتى أقول قولي ففعلت فقال يا رب إن أبي قد عصاك فلم تخسف به الأرض فقال الله تعالى نعم ولكنه ترك أمراً واحداً وأنت تركت أمري وأمر أبيك وقتلت أخاك فقال آدم ثانياً يا أرض خذيه فقال قابيل بحرمة محمد عليه السلام أن تمهليني حتى أقول قولي ففعلت فقال: يا رب إن إبليس ترك أمرك وعاداك ولم تخسف به الأرض فما بالي تخسف بي الأرض فأجاب الله تعالى مثل الأولى فقال: إلهي أليس لك تسعة وتسعون اسماً فقال الله تعالى بلى فقال أليس الرحمن الرحيم من جملة ذلك قال: بلى قال: ألست سميت نفسك رحماناً رحيماً لكثرة الرحمة قال: بلى قال: يا رب إن أردت إهلاكي فأخرج هذين الاسمين من بين أسمائك ثم أهلكني لأن أخذ العبد بجريمة واحدة لا يكون رحمة فأمر الله الأرض حتى خلت سبيله ولم تهلكه فاعتبر إذا كانت رحمته بهذه المرتبة للكافر فما ظنك للمؤمن فينبغي للمقصر أن يرفع حاجته إلى المولى ويستغفر من ذنبه الأخفى والأجلى كي يدخل في الرحمة التي هي الفردوس الأعلى. قال الحافظ:

سياه نامه ترازخود كسى نمى بينم چكونه چون قلمم دودذل بسر نرود

وفي قوله تعالى: ﴿رب اغفر لي﴾ الآية إشارة إلى السير في الصفات لأن المغفرة والرحمة من الصفات فيشير إلى أن لموسى الروح ولأخيه هارون القلب استعداد لقبول الجذبة الإلهية التي تدخلهما في عالم الصفات. ﴿وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ لأن غيرك من الراحمين عاجز عن إدخال غيره في صفاته وأنت قادر على ذلك لمن تشاء ويدل عليه قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى: ٨] كذا في «التأويلات النجمية».

﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ أي: إلهاً واستمروا على عبادته كالسامري وأشياعه من الذين أشربوه في قلوبهم ﴿سينالهم﴾ أي: في الآخرة ﴿غضب﴾ عظيم كائن ﴿من ربهم﴾ أي: مالكهم لما أن جريمتم أعظم الجرائم وأقبح الجرائر والمراد بالغضب ههنا غايته وهي الانتقام والتعذيب لأن حقيقة الغضب لا تتصور في حقه تعالى ﴿وذلة في الحياة الدنيا﴾ هي ذلة الاغتراب والمسكنة المنتظمة لهم ولأولادهم والذلة التي اختص بها السامري من الانفراد بالناس والابتلاء بلا مساس كما روي أن موسى عليه السلام هم بقتل السامري، فأوحى الله إليه لا تقتل السامري فإنه سخي ولكن أخرجه من عندك فقال له موسى فاذهب من بيننا مطروداً فإن لك في الحياة أي في عمرك أن تقول لمن أراد مخالطتك جاهلاً بحالك لا مساس أي لا يمسني أحد ولا أمس أحداً وإن مسه أحدهما جميعاً في الوقت وروي أن ذلك موجود في أولاده إلى الآن وإيراد ما نالهم في حيز السين مع مضيه بطريق تغليب حال الأخلاف على حال الأسلاف. ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ على الله ولا فرية أعظم من فريتهم هذا إلهكم وإله موسى ولعله لم يفتر مثلها أحد قبلهم ولا بعدهم.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿والذين عملوا السيئات﴾ أية سيئة كانت ﴿ثم تابوا﴾ من تلك السيئات. ﴿من بعدها﴾ أي: من بعد عملها. ﴿وآمنوا﴾ إيماناً صحيحاً خالصاً واشتغلوا بما هو من مقتضياته من الأعمال الصالحة ولم يصروا على ما فعلوا كالطائفة الأولى. ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي: من بعد تلك التوبة المقرونة بالإيمان ﴿لغفور﴾ للذنوب وإن عظمت وكثرت ﴿رحيم﴾ مبالغ في إفاضة فنون الرحمة الدنيوية والأخروية.

والإشارة: ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ عجل الهوى إلهاً يدل عليه قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] ﴿سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا﴾ يعني عبادة الهوى موجبة لغضب الله تعالى دل عليه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «ما عبد في الأرض إله أبغض على الله من الهوى» وإن عابد الهوى يكون ذليل شهوات النفس وأسير صفاتها الذميمة من الحيوانية والسبعية والشيطانية ما دام يميل إلى الحياة الدنيوية. ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ يعني: وكذلك نجازي بالغضب والطرد والإبعاد والذلة عباد الهوى المدعين الذين يفترون على الله أنه أعطانا قوة لا تضر بنا عبادة الهوى والدنيا ومتابعة النفس وشهواتها ﴿والذين عملوا السيئات﴾ يعني: سيئات عبادة الهوى والدنيا والافتراء على الله تعالى. ﴿ثم تابوا من بعدها وآمنوا﴾ بعبودية الحق تعالى وطلبه بالصدق. ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي: من بعد ترك عبادة الهوى والرجوع إلى طلب الحق ﴿لغفور رحيم﴾ يعني يعفو عنهم تلك السيئات ويرحمهم بنيل القربات والكرامات كذا في «التأويلات النجمية».

واعلم: أن التوبة عند المعتزلة علة موجبة للمغفرة وعندنا سبب محض للمغفرة والتوبة الرجوع فإذا وصف بها العبد كان المراد بها الرجوع عن المعصية وإذا وصف بها الباري تعالى أريد بها الرجوع عن العذاب بالمغفرة.

والتوبة على ضربين: ظاهر وباطن. فالظاهر: هو التوبة من الذنوب الظاهرة وهي مخالفات ظواهر الشرع وتوبتها ترك المخالفات واستعمال الجوارح بالطاعات، والباطن: هو توبة القلب من ذنوب الباطن وهي الغفلة عن الذكر حتى يتصف به بحيث لو صمت لسانه لم يصمت قلبه وتوبة النفس قطع علائق الدنيا والأخذ باليسير والتعفف، وتوبة العقل التفكر في بواطن الآيات وآثار المصنوعات، وتوبة الروح التحلي بالمعارف الإلهية، وتوبة السر التوجه إلى الحضرة العليا بعد الإعراض عن الدنيا والعقبى. قال حضرة جلال الدين الرومي قدس سره:

كرسيه كردى تونامه عمر خويش ... توبه كن زانها كه كردستى تو پيش
عمر اكر بكذشت بيخش اين دم است ... آب توبش ده اكر اويى نم است
چون برآرند از بشيمانى انين ... عرش لرزد از انين المذنبين

والعبد إذا رجع عن السيئة وأصلح عمله أصلح الله تعالى شأنه وأعاد عليه نعمه الفائتة.

عن إبراهيم بن أدهم: بلغني أن رجلاً من بني إسرائيل ذبح عجلاً بين يدي أمه فيبست يده فبينما هو جالس إذ سقط فرخ من وكره وهو يتبصبص فأخذه ورده إلى وكره فرحمه الله

تعالى لذلك ورد عليه يده بما صنع فينبغي للمؤمن أن يسارع إلى التوبة والعمل الصالح فإن الحسنات يذهبن السيئات.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ يا رسول الله علمني عملاً يقربني إلى الجنة ويباعدني عن النار «قال إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة فإنها عشر أمثالها قال الله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» فقلت: يا رسول الله لا إله إلا الله من الحسنات قال: «هي أحسن الحسنات».

كار نيكوتر بدان جز ذكر نيست

والله الهادي. ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ أي: لما سكن عنه الغضب باعتذار أخيه وتوبة القوم والسكوت قطع الكلام وقطع الكلام فرع ثبوته وهو لا يتصور في الغضب فلا يتصور قطعه أيضاً فهو محمول على المعنى المجازي الذي هو السكون شبه الغضب بإنسان يغري موسى عليه السلام ويقول له إن أخاك قصر في كف قومك عن الكفر فاستحق إهانتك وعقوبتك فخذ بشعر رأسه فجره إلى نفسك، وقل له كذا وكذا وألق ما في يدك من الألواح ثم يقطع الإغراء ويترك الكلام ففيه استعارة مكنية وسكت قرينة الاستعارة.

قال الحدادي: قيل معناه سكت موسى عن الغضب وهذا من المقلوب كما يقال أدخلت قلنسوة في رأسي يريد أدخلت رأسي في قلنسوة. ﴿أخذ الألواح﴾ التي ألقاها وهو دليل على أنها لم تتكسر حين ألقاها وعلى أنه لم يرفع منها شيء كما ذهب إليه بعض المفسرين. ﴿وفي نسختها﴾ أي: والحال أنه فيما نسخ فيها وكتب نقلاً عن الأصل وهو اللوح المحفوظ فإن النسخ عبارة عن نقل أشكال الكتابة وتحويلها من الأصل المنقول عنه فإذا كتبت كتاباً من كتاب آخر حرفاً بعد حرف قلت نسخت هذا الكتاب من ذلك الكتاب أي: نقلته منه. ﴿هدى﴾ أي: بيان للحق وهو مبتدأ وفي نسختها خبره. ﴿ورحمة﴾ للخلق بإرشادهم إلى ما فيه الخير والصلاح كائنة ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾ أي: يخشون واللام في لربهم لتقوية عمل الفعل المؤخر كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] يعني أنها دخلت جابرة للضعف العارض للفعل بسبب تأخره عن مفعوله وإنما خص أهل الرهبة بالذكر لأنهم هم المنتفعون بآيات الكتاب فالعبد إذا رغب إلى الله بصدق الطلب وإلى الجنة بحسن العمل ورهب من اليم عذاب فرقته والانقطاع ومن دخول النار فقد أخذ بالخوف والرجاء ووصل بهما إلى ما هوى.

واعلم: أن الخشية إنما تنشأ عن العلم بصفات الحق سبحانه وعلامة خشية الله تعالى ترك الدنيا والخلق ومحاربة النفس والشيطان قالوا رهبوت خير من رحموت أي لأن ترهب خير من أن ترحم وذلك لأن التخلية قبل التحلية.

ومن الترهيبات: ما حكي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه شبع مرة من خبز شعير فنام عن حزبه تلك الليلة فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى هل وجدت داراً خيراً لك من داري؟ أو جواراً خيراً لك من جواري؟ وعزتي وجلالي لو اطلعت على الفردوس اطلاعة لذاب جسمك ولزهقت نفسك اشتياقاً إلى الفردوس الأعلى ولو اطلعت على نار جهنم اطلاعة لبكيت الصديد بعد الدموع وللبست الحديد بعد المنسوج.

قال الحسن البصري: الكلب إذا ضرب وطرد وجفى عليه وطرح له كسرة، أجاب ولم

يحقد على ما مضى وذلك من علامة الخاشعين فينبغي لكل مؤمن أن تكون فيه تلك الصفة. قال الحافظ:

وفاكنيم وملامت كشيم وخوش باشيم   كه در طريقت ما كافريست رنجيدن

وفي الحديث: «من لم يخف الله خف منه» قال الإمام السخاوي معناه صحيح فإن عدم الخوف من الله تعالى يوقع صاحبه في كل محذور ومكروه. وفي «المثنوي»:

لا تخافوا هست نزل خائقان   هست درخور ازبراى خائف آن

هركه ترسد مروراً ايمن كنند   مردل ترسنده را ساكن كنند

آنكه خوفش نيست چون كويى مترس   درس چه دهى نيست او محتاج درس

﴿واختار موسى﴾ الاختيار افتعال من لفظ الخير، يقال اختار الشيء إذا أخذ خيره وخياره. ﴿قومه﴾ أي: من قومه بحذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور وهو مفعول ثانٍ. ﴿سبعين رجلاً﴾ مفعول أول. ﴿لميقاتنا﴾ أي: للوقت الذي وقتناه له وعيناه ليأتي فيه بسبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل، ليعتذروا عن ما كان من القوم من عبادة العجل فهذا الميقات ميقات التوبة لا ميقات المناجاة والتكليم، وكان قد اختار موسى عليه السلام عند الخروج إلى كل من الميقاتين سبعين رجلاً من قومه وكانوا اثني عشر سبطاً فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان، فقال موسى: ليتخلف منكم رجلان فإني إنما أمرت بسبعين فتنازعوا فقال إن لمن قعد مثل أجر من خرج فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين إلى الجبل. ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ مما اجترأوا عليه من طلب الرؤية حيث قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] والرجفة هي الارتعاد والحركة الشديدة والمراد أخذتهم رجفة الجبل فصعقوا منها أي: ماتوا، وأكثر المفسرين على أنهم سمعوه تعالى يكلم موسى يأمره بقتل أنفسهم توبة فطمعوا في الرؤية وقالوا ما قالوه ويرده قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤] كما ذهب إليه صاحب «التيسير» ﴿قال﴾ موسى ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ أي: حين فرطوا في النهي عن عبادة العجل وما فارقوا عبدته حين شاهدوا إصرارهم عليها. ﴿وإياي﴾ أيضاً حين طلبت منك الرؤية أي لو شئت إهلاكنا بذنوبنا لأهلكتنا حينئذٍ أراد به تذكر العفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق. ﴿أتهلكنا﴾ الهمزة لإنكار وقوع الإهلاك ثقة بلطف الله تعالى، أي: لا تهلكنا. ﴿بما فعل السفهاء﴾ حال كونهم ﴿منا﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، وكأن ذلك قاله بعضهم، أي: لا يليق بشأنك أن تهلك جماً غفيراً بذنب صدر عن بعضهم الذي كان سفيهاً خفيف الرأي. ﴿إن هي﴾ أي: ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء. ﴿إلا فتنتك﴾ أي: محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يتثبتوا فطمعوا في الرؤية.

يقول الفقير: هذا يدل على أنهم سمعوا كلامه تعالى على وجه الامتحان والابتلاء لا على وجه التكرمة والإجلال، وذلك لا يقدح في كون موسى عليه السلام مصطفى بالرسالة والكلام مع أنه فرق كثير بين سماعهم وسماعه عليه السلام والله أعلم. [ودر فصل الخطاب مذكورست كه حق تعالى موسى عليه السلام را در مقام بسط بداشت تابكمال حال انس رسيده وازروى دلال بدين جراءت أقدام نمود ودلال در مرتبهء محبو بيت است وحضرت مولوي قدس سره فرموده كه كستاخى عاشق ترك أدب نيست بلكه عين ادبست].

كفت وكوى عاشقان دركار رب جوشش عشقست نه ترك أدب
هركه كردازجام حق يكجرعه نوش نه ادب ماند درونه عقل وهوش

﴿تضل بها﴾ أي: بسبب تلك الفتنة ﴿من تشاء﴾ ضلاله فيتجاوز عن حده بطلب ما ليس له ﴿وتهدي من تشاء﴾ هدايته إلى الحق فلا يتزلزل في أمثالها فيقوى بها إيمانه ﴿أنت ولينا﴾ أي: القائم بأمورنا الدنيوية والأخروية وناصرنا وحافظنا لا غير. ﴿فاغفر لنا﴾ أي: ما اقترفناه من المعاصي. ﴿وارحمنا﴾ بإفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية.

قال ابن الشيخ: المغفرة هي إسقاط العقوبة والرحمة إيصال الخير وقدم الأول على الثاني لأن دفع المضرة مقدم على تحصيل المنفعة. ﴿وأنت خير الغافرين﴾ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة. وأيضاً كل من سواك إنما يتجاوز عن الذنب إما طلباً للثناء الجميل أو للثواب الجزيل أو دفعاً للقسوة من القلب، وأما أنت فتغفر ذنوب عبادك لا لأجل غرض وعوض بل بمحض الفضل والكرم فلا جرم أنت خير الغافرين وأرحم الراحمين وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم بحسب المقام.

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿واكتب لنا﴾ أي: أثبت وعين لنا وذكر الكتابة لأنها أدوم. ﴿في هذه الدنيا حسنة﴾ حسن معيشة وتوفيق طاعة. ﴿وفي الآخرة﴾ أي: واكتب لنا فيها أيضاً حسنة وهي المثوبة الحسنى أو الجنة. ﴿إنا هدنا إليك﴾ تعليل لطلب الغفران والرحمة من هاد يهود إذا رجع، أي تبنا ورجعنا إليك عما صنعنا من المعصية العظيمة التي جئناك للاعتذار عنها وعما وقع ههنا من طلب الرؤية فبعيد من لطفك وفضلك أن لا تقبل توبة التائبين. قيل: لما أخذتهم الرجفة ماتوا جميعاً فأخذ موسى عليه السلام يتضرع إلى الله حتى أحياهم وقد تقدم في سورة البقرة. ﴿قال﴾ استئناف بياني، كأنه قيل فماذا قال الله تعالى عند دعاء موسى عليه السلام فقيل قال: ﴿عذابي﴾ [عذاب من وصفت او آنست كه] ﴿أصيب به﴾ الباء للتعدية معناه بالفارسية [ميرسانم] ﴿من أشاء﴾ تعذيبه من غير دخل لغيري فيه. ﴿ورحمتي﴾ [ورحمت من وصفت أو آنست كه] ﴿وسعت﴾ في الدنيا معناه [رسيده است] ﴿كل شيء﴾ المؤمن والكافر بل المكلف وغيره من كل ما يدخل تحت الشيئية وما من مسلم ولا كافر إلا وعليه آثار رحمته ونعمته في الدنيا فبها يتعيشون وبها ينقلبون ولكنها تختص في الآخرة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فسأكتبها﴾ أي: أثبتها وأعينها في الآخرة. ﴿للذين يتقون﴾ الكفر والمعاصي. ﴿ويؤتون الزكاة﴾ خصها بالذكر لأنها كانت أشق عليهم ﴿والذين هم بآياتنا﴾ جميعاً ﴿يؤمنون﴾ إيماناً مستمراً فلا يكفرون بشيء منها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أنزلت هذه الآية تطاول لها إبليس فقال: أنا شيء

من الأشياء فأخرجه الله تعالى من ذلك بقوله: ﴿فسأكتبها﴾ إلخ فقالت اليهود والنصارى نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فأخرجهم الله تعالى منها بقوله:

﴿الذين يتبعون الرسول﴾ في محل الجر على أنه صفة للذين يتقون أو بدل منه يعني: محمداً ﷺ الذي نوحي إليه كتاباً مختصاً به ﴿النبي﴾ أي: صاحب المعجزة.

وقال البيضاوي: إنما سماه رسولاً بالإضافة إلى الله ونبياً بالإضافة إلى العباد. ﴿الأمي﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ، وكونه عليه السلام أمياً من جملة معجزاته فإنه عليه السلام لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً بأنه ربما طالع في كتب الأولين والآخرين، فحصل هذه العلوم بتلك المطالعة فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على علوم الأولين والآخرين من غير تعلم ومطالعة كان ذلك من جملة معجزاته الباهرة.

نكار من كه بمكتب نرفت وخط ننوشت بغمزه مسأله آموز صد مدرس شد

من كان القلم الأعلى يخدمه واللوح المحفوظ مصحفه ومنظره لا يحتاج إلى تصوير الرسوم.

وقد وصف الله تعالى هذه الأمة في الإنجيل أمة محمد أناجيلهم في صدورهم، ولو لم يكن رسم الخطوط لكانوا يحفظون شرائعه ﷺ بقلوبهم لكمال قوتهم وظهور استعداداتهم.

والأم: الأصل وعنده أم الكتاب ﴿الذي يجدونه مكتوباً﴾ باسمه وصفته ﴿عندهم﴾ متعلق بيجدون أو بمكتوباً وكذا قوله ﴿في التوراة والإنجيل﴾ اللذين تعبد بهما بنو إسرائيل سابقاً ولاحقاً. وفي «المثنوي»:

پيش ازانكه نقش أحمد رونمود نعت اوهر كبررا تعويذ بود
سجده مى كردند كارى رب بشر درعيان آريش هرچه زودتر
نقش اومى كشت اندر راهشان دردل ودر كوش درافواه شان
اين همه تعظيم وتفخيم ووداد چون بديدندش بصورت بردباد
قلب آتش ديددردم شد سياه قلب را در قلب كى بودست راه

فإن قيل: الرحمة المذكورة لو اختصت بهم لزم أن لا تثبت لغيرهم من المؤمنين وليس كذلك.

أجيب: بأن هذا الاختصاص بالإضافة إلى بني إسرائيل الموجودين في زمان النبي الأمي ولم يؤمنوا به لا بالإضافة إلى جميع ما عداهم. ﴿يأمرهم بالمعروف﴾ أي: بالتوحيد وشرائع الإسلام. ﴿وينهاهم عن المنكر﴾ أي: عن كل ما لا يعرف في شريعة ولا سنة. ﴿ويحل لهم الطيبات﴾ التي حرمت عليهم بشؤم ظلمهم كالشحوم. ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ كالدم ولحم الخنزير، فالمراد بالطيبات: ما يستطيبه الطبع ويستلذه، وبالخبائث ما يستخبثه الطبع ويتنفر منه، فتكون الآية دليلاً على أن الأصل في كل ما يستطيبه الطبع الحل وكل ما يستخبثه الطبع الحرمة إلا لدليل منفصل، ويجوز أن يراد بهما ما طاب في حكم الشرع، وما خبث كالربا والرشوة ومدلول الآية حينئذٍ أن ما يحكم الشرع بحله فهو حلال وما يحكم بحرمته فهو حرام ولا حكم لاستطابة الطبع واستخباثه فيهما. ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ أي: يخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة كتعين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدية وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وعدم الاكتفاء

بغسله وإحراق الغنائم وتحريم العمل يوم السبت بالكلية شبهت هذه التكاليف الشاقة بالحمل الثقيل وبالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه، أي يحبسه من الحراك لثقله. ﴿**فالذين آمنوا به**﴾ أي: بنبوة الرسول النبي الأمي وأطاعوه في أوامره ونواهيه. ﴿**وعزروه**﴾ أي: عظموه ووقروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه. ﴿**ونصروه**﴾ على أعدائه في الدين ﴿**واتبعوا النور الذي أنزل معه**﴾ يعني: القرآن الذي ضياؤه في القلوب كضياء النور في العيون.

قال صاحب «الكشاف»: فإن قلت ما معنى قوله (أنزل معه)، وإنما أنزل مع جبريل قلت: أنزل مع نبوته؛ لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به انتهى فمعه متعلق بأنزل حال من ضميره بتقدير المضاف، أي: أنزل ذلك النور مصاحباً لنبوته. ﴿**أولئك**﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجلية. ﴿**هم المفلحون**﴾ أي: الفائزون بالمطلوب الناجون من الكروب لا غيرهم من الأمم فيدخل فيهم قوم موسى دخولاً أولياً حيث لم ينجوا مما في توبتهم من المشقة الهائلة وبه يتحقق التحقيق ويتأتى التوفيق والتطبيق بين دعائه عليه السلام وبين الجواب، وهو من قوله: (عذابي) إلى هنا فقد علم أن اتباع القرآن وتعظيم النبي عليه السلام بعد الإيمان سبب للفوز والفلاح عند الرحمن ونصرته عليه السلام على العموم والخصوص، فالعموم للعامة من أهل الشريعة، والخصوص للخاصة من أرباب الطريقة وأصحاب الحقيقة، وهم الواصلون إلى كمال أنوار الإيمان وأسرار التوحيد بالإخلاص والاختصاص.

واعلم: أن المقصود الإلهي من ترتيب سلسلة الأنبياء عليهم السلام هو وجود محمد ﷺ، فوجود الأنبياء قبله كالمقدمة لوجوده الشريف فهو الخلاصة والنتيجة والزبدة وأشرف الأنبياء والمرسلين كما قال عليه السلام: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون» وكذلك المقصود من الكتب الإلهية السالفة هو القرآن الذي أنزل على النبي عليه السلام، فهو زبدة الكتب الإلهية وأعظمها ومصدق لما بين يديه؛ لأنه بلفظ قد أعجز البلغاء أن يأتوا بسورة من مثله وبمعناه جامع لما في الكتب السالفة من الأحكام والآداب والفضائل متضمن للحجج والبراهين والدلائل، وكذا المقصود من الأمم السالفة هو هذه الأمة المرحومة أعني أمة محمد ﷺ فهي كالنتيجة لما قبلها، وهي الأمة الوسط كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وكذا المقصود من الملوك الماضية والسلاطين السالفة هو الملوك العثمانية فهم زبدة الملوك ودولتهم زبدة الدول حيث لا دولة بعدها لغيرهم إلى ظهور المهدي وعيسى ويقاتلون من هم مبادي الدجال من الكفرة الفجرة من الإفرنج والانكروس وغيرهم ولهم الجمعية الكبرى واليد الطولى والدولة العظمى في الأقاليم السبعة وأطراف البلاد من المغرب والمشرق ولم يعط هذا لواحد قبل دولتهم ويدل على هذه الجمعية كون اسم جدهم الأعلى عثمان فإن عثمان رضي الله عنه جامع القرآن فهم مظاهر لاسم الحق كما كان عمر رضي الله عنه كذلك حيث إنه لما أسلم قال: يا رسول الله ألسنا على الحق قال عليه السلام: «والذي بعثني بالحق نبياً كلنا على الحق» قال: أنا والذي بعثك بالحق نبياً لا نعبد الله بعد اليوم سراً، فأظهر الله الدين بإيمانه فكان ظهور الدين مشروطاً بإيمانه فهذا أول الظهور ثم، وثم إلى أن انتهى إلى زمن الدولة العثمانية ولذلك يقاتلون على الحق فالسيف الذي بيدهم قد ورثوه كابراً عن كابر ومجاهداً عن مجاهد. حكي أن عثمان الغازي جد السلاطين العثمانية إنما

وصل إلى ما وصل برعاية كلام الله تعالى وذلك أنه كان من أسخياء زمانه يبذل النعم للمترددين، فثقل ذلك على أهل قريته وانعكس إليه ذلك وذهب ليشتكي من أهل القرية إلى الحاج بكتاش أو غيره من الرجال، فنزل في بيت رجل قد علق فيه مصحف فسأل عنه، فقالوا: هو كلام الله تعالى؟ فقال: ليس من الأدب أن نقعد عند كلام الله فقام وعقد يديه مستقبلاً إليه فلم تزل إلى الصبح فلما أصبح ذهب إلى طريقه فاستقبله رجل، وقال أنا مطلبك، ثم قال له: إن الله تعالى عظمك وأعطاك وذريتك السلطنة بسبب تعظيمك لكلامه ثم أمر بقطع شجرة وربط برأسها منديلاً وقال ليكن ذلك لواء ثم اجتمع عنده جماعة فجعل أول غزوته إلى بلاجك وفتح بعناية الله تعالى، ثم أذن له السلطان علاء الدين في الظاهر أيضاً فصار سلطاناً ثم بعد ارتحاله صار ولده أورخان سلطاناً ففتح هو بروسة المحروسة بالعون الإلهي فالدولة العثمانية من ذلك الوقت إلى هذا الآن على الازدياد بسبب تعظيم كلام الله القديم، وكما أن الله تعالى أظهر لطفه للأولين كذلك يظهره للآخرين، وإن كان في بعض الأوقات يظهر القهر والجلال تأديباً وتنبيهاً فتحته لطف وجمال. قال السعدي قدس سره:

ز ظلمت مترس اي پسنديده دوست   كه ممكن بود كاب حيوان دروست
دل از بى مرادى بفكرت مسوز   شب آبستن است اي برادر بروز

والإشارة في الآيات: أن الله تعالى امتحن موسى عليه السلام باختيار قومه ليعلم أن المختار من الخلق من اختاره الله لا الذي اختاره الخلق وأن الله الاختيار الحقيقي لقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وليس للخلق الاختيار الحقيقي لقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] ثم استخرج من القوم المختار ما كان موجباً للرجفة والصعقة والهلاك، وهو سوء الأدب في سؤال الرؤية جهاراً وكان ذلك مستوراً عن نظر موسى متمكناً في جبلتهم وكان الله المتولي للسرائر وحكم موسى بظاهر صلاحيتهم فأراه الله أن الذي اختاره يكون مثلك، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾ [طه: ١٣] والذي تختاره يكون كالقوم فلما تحقق لموسى أن المختار من اختاره الله حكم بسفاهة القوم وأظهر الاستكانة والتضرع والاعتذار والتوبة والاستغفار والاسترحام كما قال: **﴿فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾** وفيه إشارة أخرى إلى أن نار شوق الرؤية كما كانت متمكنة في قلب موسى بالقوة، وإنما ظهرت بالفعل بعد أن سمع كلام الله تعالى فإن من اصطكاك زناد الكلام وحجر القلب ظهر شرر نار الشوق فاشتعل منه كبريت اللسان الصدوق وشعلت شعلة السؤال فقال: **﴿رب أرني أنظر إليك﴾** كذلك كانت نار الشوق متمكنة في أحجار قلوب القوم فباصطكاك زناد سمع الكلام ظهر شرر الشوق فاشتعل منه كبريت اللسان، ولما لم يكن اللسان لسان النبوة صعد منه دخان السؤال الموجب للصعقة والرجفة والسر فيه أن يعلم موسى وغيره أن قلوب العباد مختصة بكرامة إيداع نار المحبة فيها لئلا يظن موسى أنه مخصوص به، ويعذر غيره في تلك المسألة فإنها من غلبات الشوق تطرأ عند استماع كلام المحبوب ولذا قال عليه السلام: «ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه». وبالأصبعين يشير إلى صفتي الجمال والجلال وليس لغير الإنسان قلب مخصوص بهذه الكرامة وإقامة القلب وإزاغته في أن يجعله مرآة صفات الجمال فيكون الغالب عليه الشوق والمحبة لطفاً ورحمة، وفي أن يجعله

مرآة صفات الجلال فيكون الغالب عليه الحرص على الدنيا والشهوة قهراً وعزة فالنكتة فيه أن قلب موسى عليه السلام لما كان مخصوصاً بالاصطفاء للرسالة والكلام دون القوم كان سؤاله لرؤية شعلة نار المحبة مقروناً بحفظ الأدب على بساط القرب بقوله: **﴿رب أرني أنظر إليك﴾** قدم عزة الربوبية وأظهر ذلة العبودية وكان سؤال القوم من القلوب الساهية اللاهية، فإن نار الشوق تصاعدت بسوء الأدب فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] قدموا الجحود والإنكار وطلبوا الرؤية جهاراً فأخذتهم الصاعقة بظلمهم فشتان بين صعقه موسى وصعقة قومه فإن صعقته كانت صعقة اللطف مع تجلي صفة الربوبية، وإن صعقتهم كانت صعقة القهر عند إظهار صفة العزة والعظمة ولما كان موسى عليه السلام ثابتاً في مقام التوحيد كان ينظر بنور الوحدة فيرى الأشياء كلها من عند الله فرأى سفاهة القوم وما صدر منهم من آثار صفة قهره فتنة واختباراً لهم فلما دارت كؤوس شراب المكالمات وسكر موسى بأقداح المناجاة زل قدمه على بساط الانبساط فقال: **﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء﴾** أي: تزيغ قلب من تشاء بأصبع صفة القهر **﴿وتهدي من تشاء﴾** أي: تقيم قلب من تشاء بأصبع صفة اللطف **﴿أنت ولينا﴾** أي: المتولي لأمورنا والناصر في هدايتنا **﴿فاغفر لنا﴾** ما صدر منا. **﴿وارحمنا﴾** بنعمة الرؤية التي سألناكها. **﴿وأنت خير الغافرين﴾** أي: خير من يستر على ذنوب المذنبين يعني أنهم يسترون الذنب ولا يعطون سؤلهم، فأنت الذي تستر الذنب وتبدله بالحسنات وتعطي سؤل أهل الزلات **﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾** يعني: حسنة الرؤية كما كتبت لمحمد عليه السلام ولخواص أمته هذه الحسنة في الدنيا، وفي الآخرة، يعني: خصنا بهذه الفضيلة في الدنيا **﴿وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾** رجعنا إليك في طلب هذه الفضيلة بالسر لا بالعلانية وأنت الذي تعلم السر والأخفى وأجابهم الله تعالى سراً بسر وإضماراً بإضمار **﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾** أي: بصفة قهري آخذ من أشاء وبقراءة من قرأ من أساء، أي: من أساء في الأدب عند سؤال الرؤية حيث قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة آخذهم على سوء أدبهم فأدبهم بتأديب عذاب الفرقة. **﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾** نعمة وإيجاداً وتربية. **﴿فسأكتبها﴾** يعني: حسنة الرؤية والرحمة بها التي أنتم تسألونها. **﴿للذين يتقون ويؤتون الزكاة﴾** يعني: يتقون بالله عن غيره ويؤتون من نصاب هذا المقام الزكاة إلى طلابه. **﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾** يعني: الذين هم يؤمنون بأنوار شواهد الآيات لا بالتقليد بل بالتحقيق وهم خواص هذه الأمة كما عرف أحوالهم وصرح أعمالهم بقوله: **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾** وفيه إشارة إلى أن في أمته من يكون مستعداً لاتباعه في هذه المقامات الثلاثة، وهي: مقامات الرسالة، والنبوة التي هي مشتركة بينه وبين الرسل والأنبياء، والمقام الأمي الذي هو مخصوص به ﷺ من بين الأنبياء والرسل عليهم السلام، ومعنى الأمي: أنه أم الموجودات وأصل المكونات كما قال: «أول ما خلق الله روحي» وقال حكاية عن الله: «لولاك لما خلقت الكون» فلما كان هو أول الموجودات وأصلها سمي أمياً كما سميت مكة أم القرى؛ لأنها كانت مبدأ القرى وأصلها، وكما سمي أم الكتاب إما لأنه مبدأ الكتب وأصلها فأما اتباعه في مقام الرسالة والنبوة فبأن يأخذ ما آتاه الرسول وينتهي عما نهاه عنه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] فإن الرسالة تتعلق وأحكام الظاهر والنبوة تتعلق بأحوال الباطن فللعوام شركة مع الخواص في الانتفاع من الرسالة، وللخواص اختصاص بالانتفاع من النبوة فمن أدى حقوق

أحكام الرسالة في الظاهر يفتتح له بها أحوال النبوة في الباطن من مقام تنبئة الحق تعالى بحيث يصير صاحب الإشارات والإلهامات الصادقة والرؤيا الصالحة والهواتف الملكية، وربما يؤول حاله إلى أن يكون صاحب المكالمة والمشاهدة والمكاشفة ولعله يصير مأموراً بدعوة الخلق إلى الحق بالمتابعة لا بالاستقلال كما قال عليه السلام: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» يشير إلى هذا القوم وذلك أن المتقدمين من بني إسرائيل في زمن الأنبياء عليهم السلام لما وصلوا إلى مقام الأنبياء أعطوا النبوة والله أعلم وكانوا مقررين لدين رسولهم حاكمين بالكتب المنزلة على رسلهم فكذلك هذا القوم كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤] الآية. وأما أتباعه في مقام أميته ﷺ فذلك مخصوص بأخص الخواص من متابعيه، وهو أنه ﷺ رجع من مقام بشريته إلى مقام روحانيته الأولى ثم بجذبات الوحي أنزل في مقام التوحيد ثم اختطف بأنوار الهوية عن أنانيته إلى مقام الوحدة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] وكما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝﴾ [النجم: ٨-٩] فقاب قوسين عبارة عن مقام التوحيد وأو أدنى عن مقام الوحدة تفهم إن شاء الله تعالى فمن رجع بالسير في متابعته من مقام البشرية إلى أن بلغ مقام روحانيته ثم بجذبات النبوة أنزل في مقام التوحيد ثم اختطف بأنوار المتابعة عن أنانيته إلى مقام الوحدة فقد حظي بمقام أميته ﷺ وبقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] يشير إلى أنه مكتوب عندهم وإلا فهو مكنون عنده في مقعد صدق. ﴿يأمرهم بالمعروف﴾ وهو طلب الحق والنيل إليه. ﴿وينهاهم عن المنكر﴾ وهو طلب ما سواه والانقطاع عنه ﴿ويحل لهم الطيبات﴾ أي: القربات إلى الله أو أن الطيب هو الله ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ وهي الدنيا وما يباعدهم عن الله ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ يعني إصرهم من العهد الذي كان بين الله تعالى وبين حبيبه ﷺ بأن لا يصل أحد إلى مقام أميته وحبيبته إلا أمته وأهل شفاعته بتبعيته كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١] الآية وقال عليه السلام: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم» فكان من هذا العهد عليهم شدة وإغلال تمنعهم من الوصول إلى هذا المقام فقد وضع النبي عليه السلام عنهم هذا الإصر والأغلال بالدعوة إلى متابعته ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: وقروه باختصاص هذا المقام فإنه مخصوص به من بين سائر الأنبياء والرسل ونصروه بالمتابعة. ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ يعني: حين اختطف بأنوار الهوية عن أنانيته فاستفاد نور الوحدة فلم يبق من ظلمة أنانيته شيء وكان نوراً صرفاً فلما أرسل إلى الخلق أنزل معه نور الوحدة كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥] يعني: محمداً ﷺ وكتاب مبين يعني القرآن فأمروا بمتابعة هذا النور ليقتبسوا منه نور الوحدة فيفوزوا بالسعادة الكبرى والنعمة العظمى ﴿أولئك هم المفلحون﴾ في حجب الأنانية الفائزون بنور الوحدة كذا في «التأويلات النجمية».

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾

﴿قل﴾ يا محمد ﴿يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ الخطاب عام وكان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى الكافة من الثقلين إلى من وجد في عصره، وإلى من سيوجد بعده إلى يوم القيامة بخلاف سائر الرسل فإنهم بعثوا إلى أقوامهم أهل عصرهم ولم تستمر شرائعهم إلى يوم القيامة وإليكم متعلق بقوله: (رسول) وجميعاً حال من ضمير إليكم.

قال الحدادي: إني رسول الله إليكم كافة أدعوكم إلى طاعة الله وتوحيده واتباعه فيما أؤديه إليكم.

وفي «آكام المرجان»: لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في أن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الجن والإنس والعرب والعجم فإن قلت: في بعثة سليمان عليه السلام مشاركة له لأنه أيضاً كان مبعوثاً إلى الإنس والجن وحاكماً عليهما بل على جميع الحيوانات قلت: إن سليمان لم يبعث إلى الجن بالرسالة بل بالملك والضبط والسياسة والسلطنة؛ لأنه عليه السلام استخدمهم وقضى بينهم بالحق وما دعاهم إلى دينه لأن الشياطين والعفاريت كانوا يقومون في خدمته وينقادون له مع أنهم على كفرهم وطغيانهم كذا حققه والهي الأسكوبي.

قال ابن عقيل: الجن داخلون في مسمى الناس لغة وهو من ناس ينوس إذا تحرك.

قال الجوهري: وصاحب «القاموس» الناس يكون من الإنس ومن الجن جمع أنس أصله أناس جمع عزيز أدخل عليه أل. ﴿الذي﴾ منصوب أو مرفوع على المدح، أي: أعني الله الذي أو هو الذي ﴿له ملك السموات والأرض﴾ [مراوراست پادشاهى آسمانها وزمينها وتدبير وتصرف دران]. ﴿لا إله إلا هو﴾ [هيچ معبودى نيست مستحق عبادت جزاو] وهو بدل من الصلة التي قبله وفيه بيان لها لأن من ملك العالم كان هو الإله المتفرد بالألوهية واسم هو ضمير غيبة وهو من أخص أسمائه تعالى إذ الغيبة الحقيقية إنما هي له إذ لا تتصوره العقول ولا تحده الأوهام، وهو اسم لحضرة الغيب الثانية التي هي أول تعينات الذات الذي هو برزخ جامع بين حكمي الاسم الباطن والظاهر وحيث تخفى فيه الواو فهو اسم لحضرة غيب الغيب وهي الحضرة الأولى من حضرات الذات وهو فاتحة الأسماء وأم كتابها تنزل منزلة الألف من الحروف كذا في «ترويح القلوب» لعبد الرحمن البسطامي قدس سره.

واعلم: أن المقربين لا يرون موجوداً سوى الله تعالى فإذا قالوا هو أشاروا به إلى الحق سبحانه سواء تقدم له مرجع أو لا وتحقيقه في «حواشي ابن الشيخ» في سورة الإخلاص. ﴿يحيي ويميت﴾ زيادة تقرير للألوهية لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة إلا الذي لا إله إلا هو.

قال الحدادي: يحيي الخلق من النطفة ويميتهم عند انقضاء آجالهم لا يقدر على ذلك أحد سواه وقيل: معناه يحيي الأموات للبعث ويميت الأحياء في الدنيا. ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ الفاء لتفريع الأمر على ما تمهد وتقرر من رسالته عليه الصلاة والسلام. ﴿النبي الأمي﴾ مدح له عليه السلام، ومعنى الأمي: لا يقرأ ولا يكتب فيؤمن من جهته أن يقرأ الكتب وينقل إليهم أخبار الماضين ولكن يتبع لما يوحى إليه ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي: ما أنزل عليه من أخبار سائر الرسل ومن كتبه ووحيه وإنما وصف به لحمل أهل الكتابين على الامتثال بما أمروا به، والتصريح بإيمانه بالله تعالى للتنبيه على أن الإيمان به تعالى لا ينفك عن الإيمان بكلماته ولا يتحقق إلا به. ﴿واتبعوه﴾ أي: في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين. ﴿لعلكم تهتدون﴾ علة للفعلين أو حال من فاعليهما، أي: رجاء لاهتدائكم إلى المطلوب أو راجين له، وفي

تعليقه بهما إيذان بأن من صدقه ولم يتبعه بالتزام أحكام شريعته فهو بمعزل من الاهتداء مستمر على الغي والضلالة.

قال سيد الطائفة الجنيد قدس سره: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ، واتبع سنته، ولزم طريقته؛ لأن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه وعلى المقتفين أثره والمتابعين سنته.

قال الشيخ العارف الواصل الوارث الكامل محيي الدين بن العربي قدس سره في بيان السنة، والسني: الإنسان لا يخلو أن يكون واحداً من ثلاثة بالنظر الشرعي، وهو إما أن يكون باطنياً محضاً، وهو القائل بتجريد التوحيد عندنا حالاً وفعلاً، وهذا يؤدي إلى تعطيل أحكام الشرائع وقلب أعيانها وكل ما يؤدي إلى هدم قاعدة من قواعد الدين أو سنة من سننه ولو في العادات كالأكل والشرب والوقاع، فهو مذموم بالإطلاق عصمنا الله وإياكم من ذلك.

وإما أن يكون ظاهرياً محضاً متقلقلاً بحيث أن يؤديه ذلك إلى التجسيم والتشبيه نعوذ بالله منهما في باب الاعتقادات، أو يكون معتمداً على مذهب فقيه من الفقهاء أصحاب علوم الأحكام المحجوبة قلوبهم بحب الدنيا عن معاينة الملكوت فتراه خائفاً من الخروج عن مذهبه فإذا سمع سنة من سنن النبي عليه السلام يحيلها على مذهب فقيه آخر فيترك العمل بها، ولو أوردت ألف حديث مأثور في فضائلها فيتصامم عن سماعها بل يسيء الظن برواية المتقدمين من التابعين والسلف بناء على عدم إيراد ذلك الفقيه إياها في كتابه، فمثل ذلك أيضاً ملحوق بالذم شرعاً وإلى الله نفزع ونلتجىء من أن يجعلنا وإياكم منهم.

وإما أن يكون جارياً مع الشريعة على فهم اللسان حيث ما مشى الشارع مشى وحيث ما وقف وقف قدماً بقدم حتى في أقل شيء من الفضائل في العبادات والعادات صارفاً جل عنايته وباذلاً كل مجهوده في أن لا يفوته شيء من الأفعال المحمدية في عباداته وعاداته على حسب ما سنح له في أثناء مطالعاته من كتب الأحاديث المعول عليها أو ألقي في أذنه من أستاذه وشيخه المعتمد عليه إن لم يكن من أهل المطالعة فهذا هو الوسط وهو السنة والآخذ به هو السني وبهذا يصح محبة الله له.

وحكي أن الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر قال: راعيت جميع ما صدر عن النبي عليه السلام سوى واحد وهو أنه عليه السلام زوج بنته علياً رضي الله عنه وكان يبيت في بيتها بلا تكلف ولم يكن لي بنت حتى أفعل كذلك.

وحكي عن سلطان العارفين أبي يزيد البسطامي قدس سره أنه قال ذت يوم لأصحابه قوموا بنا حتى ننظر إلى ذلك الذي قد سهر نفسه بالولاية قال فمضينا فإذا بالرجل قد قصد المسجد فرمى بزاقه نحو القبلة فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال هذا ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين. وحكي عن أحمد بن حنبل رحمه الله قال: كنت يوماً مع جماعة تجردوا ودخلوا الماء فعملت بالحديث وهو: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر» ولم أتجرد فرأيت تلك الليلة قائلاً يقول لي: يا أحمد أبشر فإن الله قد غفر لك باستعمالك السنة وجعلك إماماً يقتدى بك فقلت من أنت قال جبريل عليه السلام.

وعن عابس بن ربيعة قال رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقبل الحجر الأسود

ويقول: إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك.

واتفق المشايخ على أن من ألقى زمامه في يد كلب مثلاً حتى لا يكون تردده بحكم طبعه فنفسه أقوم لقبول الرياضة ممن جعل زمامه في حكم نفسه يسترسل بها حيث شاء كالبهائم فالواجب عليك أن تكون تابعاً لا مسترسلاً.

سك أصحاب كهف روزى چند   پى مردم كرفت ومردم شد

فإذا اتبعت فاتبع سيد المرسلين محمداً ﷺ الذي آدم ومن دونه من الأنبياء والأولياء تحت لوائه فإذا اتبعت واحداً من أمته فلا تتبعه لمجرد كونه رجلاً مشهوراً بين الناس مقبولاً عند الأمراء والسلاطين بل كان الواجب عليك أن تعرف أولاً الحق ثم تزن الرجال به، وفيه قال باب العلم الرباني علي رضي الله عنه: من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال، بل اعرف الحق تعرف أهله وبقدر متابعتك للنبي ﷺ تستحكم مناسبتك به وتتأكد علاقة المحبة بينك وبينه وبكل ما يتعلق بالرسول ﷺ من الصلاة عليه أو زيارة قبره أو جواب المؤذن والدعاء له عقيبه كنت مستحقاً لشفاعته قالوا لو وضع شعر رسول الله ﷺ أو عصاه أو سوطه على قبر عاص لنجا ذلك العاصي ببركات تلك الذخيرة من العذاب وإن كانت في دار إنسان أو بلدة لا يصيب سكانها بلاء ببركاتها، وإن لم يشعروا بها ومن هذا القبيل ماء زمزم والكفن المبلول به وبطانة أستار الكعبة والتكفن بها.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: وإذا أردت مثالاً من خارج فاعلم أن كل من أطاع سلطاناً وعظمه فإذا دخل بلدته ورأى فيها سهماً من جعبته أو سوطاً له فإنه يعظم تلك البلدة وأهلها، فالملائكة يعظمون النبي ﷺ فإذا رأوا ذخائره في دار أو بلدة أو قبر عظموا صاحبه وخففوا عنه العذاب ولذلك السبب ينفع الموتى أن توضع المصاحف على قبورهم ويتلى عليهم القرآن ويكتب القرآن على القراطيس وتوضع في أيدي الموتى كذا في «الأسرار المحمدية». قال في الجلد الثالث من «المثنوي»:

از انس فرزند مالك آمدست   كه بمهمانىء أو شخصى شدست
او حكايت كرد كز بعد طعام   ديد انس دستار خوانرا زردفام
چرك آلوده وكفت اي خادمه   اندر افكن درتنورش يكدمه
درتنور پر زآتش درفكند   آن زمان دستار خوانرا هوشمند
جمله مهما نان دران حيران شدند   انتظار دود كندورى بدند
بعد يكساعت بر آورد ازتنور   پاك واسپيدو ازان اوساخ دور
قوم كفتند اى صحابىء عزيز   چون نسوزيد ومنقا كشت نيز
كفت زانكه مصطفى دست ودهان   بس بما ليد اندرين دستار خوان
اي دل ترسنده ازنار وعذاب   باچنان دست ولبى كن اقتراب
چون جمادى راچنين تشريف داد   جان عاشق راچها خواهد كشاد

اللهم اجعل حرفتنا محبته وارزقنا شفاعته.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا

عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾.

﴿ومن قوم موسى﴾ لما ذكر الله تعالى عبدة العجل ومن قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وهم الأشقياء اتبع ذكرهم بذكر أضدادهم السعداء فالمراد بالقوم بنو إسرائيل الموجودون في زمن موسى عليه السلام. ﴿أمة﴾ أي: جماعة. ﴿يهدون﴾ [راه مينما يندخلق را] فالمفعول محذوف ﴿بالحق﴾ ملتبسين به، أي: محقين. ﴿وبه﴾ أي: بالحق ﴿يعدلون﴾ أي: في الأحكام الجارية بينهم وصيغة المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية، والأشهر أن المراد بهذه الأمة قوم وراء الصين بأقصى المشرق، وذلك أن بني إسرائيل لما بالغوا في العتو والطغيان بعد وفاة موسى ووفاة خليفة يوشع حتى اجترأوا على قتل أنبيائهم، ووقع الهرج والمرج تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا، وسألوا الله تعالى أن يفرق بينهم وبين أولئك الطاغين ففتح الله لهم وهم في بيت المقدس نفقاً في الأرض وجعل أمامهم المصابيح لتضيء لهم بالنهار، فإذا أمسوا أظلم عليهم النفق فنزلوا فإذا أصبحوا أضاءت لهم المصابيح فساروا ومعهم نهر من ماء يجري وأجرى الله تعالى عليهم أرزاقهم فساروا فيه على هذا الوجه سنة ونصف سنة حتى خرجوا من وراء الصين إلى أرض بأقصى المشرق طاهرة طيبة، فنزلوها وهم مختلطون بالسباع والوحوش والهوام لا يضر بعضهم بعضاً وهم متمسكون بالتوراة مشتاقون إلى الإسلام لا يعصون الله تعالى طرفة عين تصافحهم الملائكة، وهم في منقطع من الأرض لا يصل إليهم أحد منا ولا أحد منهم إلينا إما لأن بين الصين وبينهم وادياً جارياً من رمل فيمنع الناس من إتيانهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أو نهراً من شهد، كما قال السدي: وإنهم كبني أب واحد ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويضحون بالنهار ويزرعون ويحصدون جميعاً فيضعون الحاصل في أماكن من القرية فيأخذ كل رجل منهم قدر حاجته ويدع الباقي. روي أن رسول الله ﷺ قال لجبرائيل ليلة المعراج إني أحب أن أرى القوم الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿ومن قوم موسى أمة﴾ الآية فقال: إن بينك وبينهم مسيرة ست سنين ذهاباً وست سنين إياباً ولكن سل ربك حتى يأذن لك فدعا النبي عليه السلام وأمن جبريل فأوحى الله تعالى إلى جبريل أنه أجيب إلى ما سأل فركب البراق فخطا خطوات فإذا هو بين أظهر القوم فسلم عليهم وردوا عليه سلامه وسألوه من أنت فقال: «أنا النبي الأمي» قالوا أنت الذي بشر بك موسى عليه السلام وأوصانا بأن قال لنا من أدرك منكم أحمد عليه الصلاة والسلام فليقرأ عليه مني السلام فرد رسول الله ﷺ على موسى سلامه وقالوا فمن معك قال: «أو ترون قالوا» نعم قال هو جبريل قال: «فرأيت قبورهم على أبواب دورهم فقلت فلِمَ ذلك»؟ قالوا: أجدر أن نذكر الموت صباحاً ومساء فقال: «أرى بنيانكم مستوياً» قالوا ذلك لئلا يشرف بعضنا على بعض ولئلا يسد أحد على أحد الريح والهواء قال: «فما لي لا أرى لكم قاضياً ولا سلطاناً»؟ قالوا: أنصف بعضنا بعضاً وأعطينا الحق فلم نحتج إلى قاض ينصف بيننا قال: «فما لي أرى أسواقكم خالية»؟ قالوا: نزرع جميعاً ونحصد جميعاً فيأخذ كل أحد منا ما يكفيه ويدع الباقي لأخيه فلا نحتاج إلى مراجعة الأسواق قال: «فما لي أرى هؤلاء القوم يضحكون؟ قالوا: مات لهم ميت فيضحكون سروراً بما قبضه الله

على التوحيد قال: «فما لهؤلاء القوم يبكون»؟ قالوا: ولد لهم مولود فهم لا يدرون على أي دين يقبض فيغتمون لذلك قال: «فإذا ولد لكم ذكر فماذا تصنعون»؟ قالوا: نصوم لله شكراً شهراً قال: «فالأنثى» قالوا نصوم لله شكراً شهرين قال: «ولِمَ»؟ قالوا: لأن موسى عليه السلام أخبرنا أن الصبر على الأنثى أعظم أجراً من الصبر على الذكر قال: «أفتزنون»؟ قالوا: وهل يفعل ذلك أحد لو فعل ذلك أحد لحصبته السماء وخسفت به الأرض من تحته قال: «أفترابون»؟ قالوا: إنما يرابي من لا يؤمن برزق الله قال: «أفتمرضون»؟ قالوا: لا نمرض ولا نذنب إنما تذنب أمتك فيمرضون ليكون ذلك كفارة لذنوبهم قال: «هل في أرضكم سباع وهوام»؟ قالوا: نعم تمر بنا ونمر بها ولا تؤذينا ولا نؤذيها فعرض رسول الله ﷺ شريعته والصلوات الخمس عليهم وعلمهم الفاتحة وسوراً من القرآن.

قال الحدادي: أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم يكن يومئذٍ نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة فأمرهم بالصلاة والزكاة وأن يتركوا تحريم السبت ويجمعوا وأمرهم أن يقيموا مكانهم فهم اليوم هناك حنفاء مسلمون مستقبلون قبلتنا.

يقول الفقير: التجميع وهو بالفارسي [نماز آذينه آمدن وكزاردن آن] إنما شرع بعد الهجرة فتناقض أول الكلام مع آخره وكذا أمر القبلة ولعل النبي عليه السلام علمهم أولاً ما نزل بمكة من الشرائع والأحكام، ثم أكمل لهم الدعوة بطريق آخر فإن المعراج بالروح والجسد معاً وإن حصل له عليه السلام مرة واحدة بمكة وفي ليلته فرضت الصلاة على ما عليه الكل إلا أنه عليه السلام كان يصل جسده الشريف في لمحة إلى حيث يصل إليه بصره وكان عنده القريب والبعيد على السواء هذا ما خطر بالضمير بعد ما رأيت من أهل التفسير ما يتنافى الأول منه بالأخير والله هو العليم الخبير.

والإشارة في الآية: **﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق﴾** يعني: خواصهم يهدون بالحق يرشدون الخلق بالكتاب المنزل بالحق على موسى عليه السلام: **﴿وبه يعدلون﴾** أي: به يحكمون بين العوام وشتان بين أمة أمية بلغوا أعلى مراتب الروحانية بالسير في متابعة النبي الأمي ثم اختطفوا عن أنانية روحانيتهم بجذباب أنوار المتابعة إلى مقام الوحدة، التي هي مصدر وجودهم في بقاء الوحدة كما قال تعالى: «كنت له سمعاً وبصراً ولساناً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق» وبالرجوع إلى هذا المقام سموا أميين فإنهم رجعوا إلى أصلهم الذي صدروا عنه إيجاداً وبين أمة كان نبيهم محجوباً بحجاب الأنانية عند سؤال الرؤية بقوله: **﴿أرني أنظر إليك﴾** فأجيب **﴿لن تراني﴾** لأنك كنت بك لا بي فإنه لا يراني إلا من كان بي لا به فأكون بصره الذي يبصر به وهذا مقام الأمة الأمية فلهذا قال موسى عليه السلام: اللهم اجعلني من أمة أحمد شوقاً إلى لقاء ربه فافهم جداً كذا في «التأويلات النجمية»:

مصطفى را انبيا امت شدند جمله در زير لواء اوبدند
پايهٔ اين امت مرحومه بين كى يقالوا بين ارباب اليقين
رفعتش بين الأمم چون آفتاب درميان انجم اى عالى جناب
پيشه كن اى حقى شرع اين نبى تا نباشد فوت ازتو مطلبى

﴿وقطعناهم﴾ أي: قوم موسى لا الأمة المذكورة منهم. **﴿اثنتي عشرة﴾** ثاني مفعولي قطع لتضمنه معنى التصيير والتأنيث للحمل على الأمة أو القطعة، أي: صيرناهم اثنتي عشرة

أمة أو قطعة متميزاً بعضها من بعض. ﴿أسباطاً﴾ بدل منه ولذلك جمع؛ لأن مميز أحد عشر إلى تسعة عشر يكون مفرداً منصوباً وأسباطاً جمع فلا يصلح أن يكون مميزاً له وهي جمع سبط والسبط من ولد إسحاق كالقبيلة من ولد إسماعيل وهو في الأصل ولد الولد. ﴿أمماً﴾ بدل بعد بدل جمع أمة، وهي: بمعنى الجماعة وانحصر فرق بني إسرائيل في اثنتي عشرة فرقة؛ لأنهم تشعبوا من اثني عشر رجلاً من أولاد يعقوب فأنعم الله عليهم بهذا التقطيع والتمييز لتنتظم أحوالهم ويتيسر عيشهم وكانوا أقواماً متباغضة متعصبة. ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه﴾ أي: طلبوا منه الماء حين استولى عليهم العطش في التيه الذي وقعوا فيه بسوء صنيعهم. ﴿أنْ﴾ مفسرة لفعل الإيحاء ﴿اضرب بعصاك﴾ كان عصاه من آس الجنة وكان آدم حملها معه من الجنة إلى الأرض فتوارثها الأنبياء صاغراً عن كابر حتى وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى. ﴿الحجر﴾ قد سبق في البقرة على الاختلاف الواقع فيه.

وقال في «التفسير الفارسي»: [آن سنك راكه چون بتيه در آمدى باتو بسخن در آمدكه مرابرداركه ترا بكار آيم وتوبرداشتى وحالا درتوبره دارى موسى عليه السلام عصار بران سنك زد] ﴿فانبجست﴾ [پس شكافته شد وكشاده كشت] ﴿منه﴾ [از آن سنك] ﴿اثنتا عشرة عيناً﴾ [دوازده چشمه] بعدد الأسباط.

قال الحدادي: الانبجاس: خروج الماء قليلاً والانفجار خروجه واسعاً وإنما قال فانبجست لأن الماء كان يخرج من الحجر في الابتداء قليلاً ثم يتسع فاجتمع فيه صفة الانبجاس والانفجار. ﴿قد علم كل أناس﴾ كل سبط عبر عنهم بذلك إيذاناً بكثرة كل واحد من الأسباط. ﴿مشربهم﴾ أي: عينهم الخاصة بهم وكان كل سبط يشربون من عين لا يخالطهم فيها غيرهم للعصبية التي كانت بينهم.

قال ابن الشيخ: كان في ذلك الحجر اثنتا عشرة حفرة، فكانوا إذا نزلوا وضعوا الحجر وجاء كل سبط إلى حفرته فحفروا الجداول إلى أهلهم فذلك قوله تعالى: ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ أي: موضع شربهم. ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ أي: جعلناها بحيث تلقي عليهم ظلها تسير في التيه بسيرهم وتسكن بإقامتهم لتقيهم حر الشمس في النهار، وكان ينزل بالليل عمود من نار يسيرون بضوئه. ﴿وأنزلنا عليهم المنّ﴾ الترنجبين.

قال في القاموس: المن كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ كالشيرخشت والترنجبين. ﴿والسلوى﴾ قال القزويني وابن البيطار: إنه السماني، وقال غيرهما: طائر قريب من السماني.

قال في «التفسير الفارسي»: [مرغى بر شكل سمانى وآن طائريست در طرف يمن ازكنجشك بزركتر وازكبوتر خردتر] وإنما سمي سلوى لأن الإنسان يسلو به عن سائر الأدام.

وفي الحديث: «أطيب اللحم لحم الطير» وفي الحديث أيضاً: «سيد الإدام في الدنيا والآخرة اللحم، وسيد الشراب في الدنيا والآخرة الماء، وسيد الرياحين في الدنيا والآخرة الفاغية» ويدل على كون اللحم سيد الطعام أيضاً قوله ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» قيل: كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاع، وتبعث الجنوب عليهم السماني فيذبح الرجل منه ما يكفيه. ﴿كلوا﴾ أي: قلنا

لهم كلوا ﴿من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى.

قال في «التفسير الفارسي»: [از پاكيزها آنچه بمحض عنايت روزى كرديم شمارا يعنى هرچه روزى ميرسد بخوريد وبراى خود ذخيره منهيد پس ايشان خلاف كرده وذخيره مى نهادند همه متعفن ومتغير ميشد]. ﴿وما ظلمونا﴾ عطف على جملة محذوفة للإيجاز، أي: فظلموا بأن كفروا بتلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ إذ لا يتخطاهم ضرره.

قال الحدادي: أي يضرون أنفسهم باستيجابهم عذابي وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا كلفة ولا مشقة في الدنيا ولا حساب ولا تبعة في العقبى.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿وإذ قيل لهم﴾ أي: واذكر لهم يا محمد وقت قوله تعالى لأسلافهم. ﴿اسكنوا هذه القرية﴾ منصوبة على المفعولية يقال سكنت الدار، وقيل على الظرفية اتساعاً، وهي بيت المقدس أو أريحاء وهي قرية الجبارين بقرب بيت المقدس وكان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة رأسهم عوج بن عنق ﴿وكلوا منها﴾ أي: من مطاعمها وثمارها. ﴿حيث شئتم﴾ أي: من نواحيها من غير أن يزاحمكم فيها أحد. ﴿وقولوا حطة﴾ أي: مسألتنا حطة ذنوبنا عنا فعلة من الحط كالردة من الرد. والحط: وضع الشيء من أعلى إلى أسفل والمراد هنا بالحط المغفرة وحط الذنوب. ﴿وادخلوا الباب﴾ أي: باب القرية ﴿سجداً﴾ منحنين متواضعين أو ساجدين شكراً على إخراجهم من التيه، ثم إن كان المراد بالقرية أريحاء فقد روي أنهم دخلوها حيث سار إليها موسى عليه السلام بمن بقي من بني إسرائيل أو بذرياتهم على اختلاف الروايتين ففتحها كما مر في سورة المائدة، وإن كان بيت المقدس فقد روي أنهم لم يدخلوه في حياة موسى، فقيل: المراد بالباب باب القبة التي كانوا يصلون فيها كذا في «الإرشاد» ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ ما سلف من ذنوبكم باستغفاركم وخضوعكم. ﴿سنزيد المحسنين﴾ استئناف بياني كأنه قيل فماذا لهم بعد الغفران فقيل سنزيد المحسنين إحساناً وثواباً فالمغفرة مسببة عن الامتثال والإثابة محض تفضل.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿فبدل الذين ظلموا منهم﴾ ما أمروا به من التوبة والاستغفار حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعه. ﴿قولا﴾ آخر مما لا خير فيه. روي أنهم دخلوا زاحفين على استاههم وقالوا مكان حطة حنطة استخفافاً بأمر الله تعالى واستهزاء بموسى عليه السلام وعدولاً عن طلب عفو الله تعالى ورحمته إلى طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا الفانية الدنية. ﴿غير الذي قيل لهم﴾ نعت لقولاً صرح بالمغايرة مع دلالة التبديل عليها قطعاً تحقيقاً للمخالفة وتنصيصاً على المغايرة

من كل وجه. ﴿فأرسلنا عليهم﴾ أي: على الذين ظلموا أثر ما فعلوا من غير تأخر والإرسال من فوق كالإنزال. ﴿رجزاً من السماء﴾ عذاباً كائناً منها والمراد الطاعون. روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً. ﴿بما كانوا يظلمون﴾ بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق لا بسبب التبديل فقط، كذا من لم يعرف قدر النعماء يقرع باب البلاء ليجري عليه أحكام القضاء فامتحن بأنواع المحن والوباء.

واعلم: أن الذين ظلموا من بني إسرائيل أفسدوا عليهم النعمتين نعمة الدنيا وهي المن والسلوى وغيرهما ونعمة العقبى وهي المغفرة والإثابة وبعد فوت زمان التدارك لا ينفع نفساً إيمانها ولا تحسرها وندمها حكي أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين فنزلا في ظل شجرة تحت صفاة فلما دنا الرواح خرجت لهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً فألقته إليهما فقالا إن هذا لمن كنز فأقاما عليه ثلاثة أيام كل يوم تخرج لهما ديناراً، فقال أحدهما للآخر: إلى متى ننتظر هذه الحية ألا نقتلها ونحفر عن هذا الكنز فنأخذه فنهاه أخوه فقال: ما تدري لعلك تعطب ولا تدرك المال فأبى عليه فأخذ فأساً معه ورصد الحية حتى خرجت وضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها فبادرت الحية فقتلته ورجعت إلى حجرها فدفنه أخوه وأقام حتى إذا كان الغد خرجت الحية معصوباً رأسها ليس معها شيء، فقال: يا هذه إني والله ما رضيت بما أصابك ولقد نهيت أخي عن ذلك فهل لك أن نجعل الله بيننا لا تضريني ولا أضرك وترجعين إلى ما كنت عليه فقالت الحية لا فقال ولم قالت لأني أعلم أن نفسك لا تطيب لي أبداً وأنت ترى قبر أخيك ونفسي لا تطيب لك وأنا أذكر هذه الشجة كذا في «حياة الحيوان». قال في «المثنوي»:

بركذشته حسرت آوردن خطاست باز نايد رفته ياد آن هباست

اللهم اجعلنا من المتيقظين قبل طلوع صبح الآخرة ولا تجعلنا غافلين عما يهمنا من الأمور الباطنة والظاهرة ووفقنا كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً وعن بواطننا خبيراً ﴿واسألهم﴾ عطف على واذكر المقدر عند قوله: ﴿وإذ قيل﴾ والضمير البارز عائد إلى اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ وليس المقصود من السؤال استعلام ما ليس معلوماً للسائل لأنه عليه السلام كان قد علم هذه القصة من قبل الله تعالى بالوحي، بل المقصود منه أن يحملهم الرسول ﷺ على أن يقروا بقديم كفرهم وتجاوزهم لحدود الله تعالى ومخالفتهم الأنبياء على طريق التوارث من أسلافهم وتقريعهم بذلك وأن يظهر بذلك معجزة دالة على أنه نبي حق أوحي إليه ما لا يعلم إلا بتعليم أو وحي فإنه عليه السلام لما كان أمياً ولم يخالط أهل الكتب السابقة وبين هذه القصة على وجهها من غير زيادة ولا نقصان تعين أنه علم ذلك بالوحي فكان بيانها على ما وقعت معجزة ظاهرة من جملة معجزاته عليه السلام. ﴿عن القرية﴾ أي: عن حالها وخبرها وما جرى على أهلها من الداهية الدهياء وهي أيلة بين مدين والطور والعرب تسمي المدينة قرية. ﴿التي كانت حاضرة البحر﴾ أي: قريبة منه مشرفة على شاطئه. ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي: يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت وهم منهيون عن الاشتغال فيه بغير العبادة وإذ ظرف للمضاف المحذوف ﴿إذ تأتيهم حيتانهم﴾ ظرف ليعدون، والحيتان جمع حوت قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها كنون ونينان لفظاً ومعنى. وكان علي بن أبي طالب يقول: سبحان من يعلم اختلاف النينان في البحار الغامرات وإضافتها إليهم لأن المراد بالحيتان الكائنة في تلك الناحية ﴿يوم سبتهم﴾ ظرف لتأتيهم أي تأتيهم يوم تعظيمهم

لأمر السبت فالسبت هنا مصدر سبتت اليهود إذا عظمت السبت بالتجرد للعبادة.

وفي «التفسير الفارسي»: [روز شنبهء ايشان] فهو اسم لليوم ﴿شرعاً﴾ جمع شارع من شرع عليه إذا دنا وأشرف وهو حال من حيتانهم أي تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل. ﴿ويوم لا يسبتون﴾ أي: لا يراعون أمر السبت لكن لا بمجرد عدم المراعاة مع تحقق يوم السبت، كما هو المتبادر بل مع انتفائهما معاً، أي: لا سبت ولا مراعاة. ﴿لا تأتيهم﴾ كما كانت تأتيهم يوم السبت حذاراً من صيدهم فإن الله تعالى قوى دواعيها إلى الشروع في يوم السبت معجزة لنبي ذلك الوقت وابتلاء لتلك التي فصلت بين يوم السبت وغيره من الأيام. ﴿كذلك نبلوهم﴾ الكاف في موضع النصب بقوله نبلوهم، أي مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع نعاملهم معاملة من يختبرهم ليظهر عدوانهم نؤاخذهم به. ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي: بسبب فسقهم المستمر في كل ما يأتون وما يذرون.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿وإذ قالت﴾ عطف على إذ يعدون ﴿أمة منهم﴾ أي: جماعة من صلحائهم الذين ركبوا في عظتهم متن كل صعب وذلول حتى يئسوا من احتمال القبول لآخرين لا يقلعون عن التذكير رجاء للنفع والتأثير مبالغة في الأعذار وطمعاً في فائدة الإنذار. ﴿لم تعظون﴾ [جراپند ميدهيد] ﴿قوماً﴾ [كروهى راكه بى شبهه]. ﴿الله مهلكهم﴾ أي: مستأصلهم ومطهر الأرض منهم. ﴿أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ دون الاستئصال بالمرة. والمفهوم من بقية الآية كون المراد عذاب الدنيا قالوه مبالغة في أن الوعظ لا ينجح فيهم لا إنكاراً لوعظهم ورضي بالمعصية منهم. ﴿قالوا﴾ أي: الوعاظ ﴿معذرة إلى ربكم﴾ مفعول له أي نعظم معذرة إليه تعالى. والمعذرة: اسم مصدر بمعنى العذر وهو بضم فسكون في الأصل تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه بأن يقول لم أفعل أو فعلت لأجل كذا أو فعلت ولا أعود وهذا الثالث التوبة فكل توبة عذر بلا عكس وقيل المعذرة بمعنى الاعتذار يقال: اعتذرت إلى فلان من جرمي ويعدى بمن والمعتذر قد يكون محقاً وغير محق كذا في «تاج المصادر». قال السعدي قدس سره:

كر بمحشر خطاب قهر كند انبيارا چه جاى معذرتست
پرده از لطف كوك بردارد كاشقيارا اميد مغفرتست

﴿ولعلهم يتقون﴾ عطف على معذرة، أي: ورجاء لأن يتقوا بعض التقاة ويتركوا المعصية لأن قبول الحق الواضح يرجى من العاقل. واليأس لا يحصل إلا بالهلاك وهذا صريح في أن القائلين لم تعظون إلخ ليسوا من الفرقة الهالكة وإلا لوجب الخطاب أي: ولعلكم.

﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي: تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم ترك الناسي للشيء وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً بحيث لم يخطر ببالهم شيء من تلك المواعظ أصلاً فيكون من ذكر المسبب وإرادة السبب. ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ أي: خلصنا الذين ينهون عن الاصطياد وهم الفريقان المذكوران.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل والله بالمداهن ما نزل بالمستحل.

وقال الحسن: نجت فرقتان وهلكت فرقة وأنكر القول الذي ذكر له عن ابن عباس وقال ما هلك إلا فرقة لأنه ليس شيء أبلغ في الأمر بالمعروف والوعظ من ذكر الوعيد وقد ذكرت الفرقة الثالثة الوعيد، فقالت: لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، وقول الحسن أقرب إلى ظاهر الآية كذا في «تفسير الحدادي». ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ بالاعتداء ومخالفة الأمر ﴿بعذاب بئيس﴾ أي: شديد وزناً ومعنى ﴿بما كانوا يفسقون﴾ متعلق بأخذنا كالباء الأولى ولا ضير فيه لاختلافهما معنى، أي: أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب تماديهم في الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة وهو الظلم والعدوان أيضاً ولعله تعالى قد عذبهم بعذاب شديد دون الاستئصال فلم يقلعوا عما كانوا عليه، بل ازدادوا في الغي فمسخهم بعد ذلك لقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه﴾ أي: تمردوا وتكبروا وأبوا عن ترك ما نهوا عنه قدر المضاف إذ التكبر والإباء من نفس المنهي عنه لا يذم فهو كقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧] أي: عن امتثال أمر ربهم والعاتي هو شديد الدخول في الفساد المتمرد الذي لا يقبل الموعظة. ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ صاغرين أذلاء بعداء عن الناس. في «القاموس» خسأ الكلب كمنع طرده والكلب بعد. والقردة جمع قرد بالفارسي [بوزينه] والأنثى قردة وجمعها قرد مثل قربة وقرب والمراد هو الأمر التكويني لا القولي التكليفي لأنهم لا يقدرون على قلب أنفسهم قردة وتكليف العاجز غير معقول فليس ثمة قول ولا أمر ولا مأمور حقيقة وإنما هو تعلق قدرة وإرادة بمسخهم نعوذ بالله تعالى. روي أن اليهود أمروا باليوم الذي أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت وهو المعني بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ١٢٤] فابتلوا به وحرم عليهم الصيد وأمروا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كأنها المخاض، وكالكباش البيض السمان تنتطح لا يرى وجه الماء لكثرتها ولا تأتيهم في سائر الأيام فكانوا على ذلك برهة من الدهر ثم جاءهم إبليس فقال لهم إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضاً سهلة الورود صعبة الصدور ففعلوا فجعلوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج ويأخذونها يوم الأحد وأخذ رجل منهم حوتاً وربط في ذنبه خيطاً إلى خشبة في الساحل، ثم شواه يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع على تنوره، فقال له: إني أرى الله سيعذبك فلما لم يره عذاب أخذ في السبت القابل حوتين فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم استمروا على ذلك فصادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحواً من سبعين ألفاً فكان أهل القرية أثلاثاً، ثلث استمروا على النهي، وثلث ملوا التذكير وشموه وقالوا للواعظين لم تعظون إلخ. وثلث باشروا الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون نحن لا نساكنكم فباعوا الدور والمساكن وخرجوا من القرية فضربوا الخيام خارجاً منها أو اقتسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود عليه السلام فأصبح

الناهون ذات يوم فخرجوا من أبوابهم وانتشروا لمصالحهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: لعل الخمر غلبتهم أو أن لهم لشأناً من خسف أو مسخ أو رمي بالحجارة فعلوا الجدر، فنظروا فإذا هم قردة أو صار الشبان قردة والشيوخ خنازير ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابهم من الإنس وهم لا يعرفونها فجعل القرد يأتي نسيبه فيشم ثيابه فيبكي ويقول له نسيبه ألم ننهكم فيقول القرد برأسه بلى ودموعهم تسيل على خدودهم ثم ماتوا عن مكث ثلاثة أيام، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعش ممسوخ قط أكثر من ثلاثة أيام وعليه الجمهور. وأما قوله عليه السلام: «فقدت أمة من بني إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلت ولا أرَاها إلا الفأر ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربها وإذا وضع لها ألبان غيرها شربتها» وما روي أن النبي عليه السلام أتي بضب فأبى أن يأكله وقال: «لا أدري لعله من القرون التي مسخت» فالجواب عنهما أن ذلك كان قبل أن يوحى إليه أن الله لم يجعل لممسوخ نسلاً فلما أوحى إليه زال عنه ذلك المتخوف وعلم أن الضب والفأر ليسا مما مسخ فعند ذلك أخبرنا بقوله ﷺ: لمن سأله عن القردة والخنازير أهي مما مسخ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً، أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك وثبت» النصوص «بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم ينكره» كذا في «حياة الحيوان».

وعن مجاهد وإنما مسخت قلوبهم فقط وردت أفهامهم كأفهام القردة وهذا قول تفرد به عن جميع المسلمين.

يقول الفقير: مسخ القلب مشترك بين عصاة جميع الأمم وعادة الله تعالى في النبوة الأولى تعجيل عقوبة الدنيا على أقبح وجه وأفظعه ولا عقوبة أدهى من تبديل الصورة الحسنة الإنسانية إلى صورة أخس الحيوانات، وهي صورة القردة والخنازير القبيحة نعم مسخ القلب والمعنى سبب لمسخ القالب والصورة نعوذ بالله.

وعن الحسن: وايم الله ما حوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله جعل ذلك موعداً والساعة أدهى وأمر.

قال أنس بن مالك: عن رسول الله ﷺ أنه سئل هل في أمتك خسف؟ «قال نعم» قيل: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا لبسوا الحرير واستباحوا الزنى وشربوا الخمور وطففوا المكيال والميزان واتخذوا القينات والمعازف وضربوا بالدفوف واستحلوا الصيد في الحرم».

والإشارة: أن القرية هي قرية الجسد الحيواني على شاطىء بحر البشرية وأهل قرية الحس الصفات الإنسانية وهي على ثلاثة أصناف. منها صنف روحاني كصفات الروح، وصنف قلبي كصفات القلب، وصنف نفساني كصفات النفس الأمارة بالسوء وكل قد نهوا عن صيد حيتان الدواعي البشرية في سبت محارم الله، فصنف أمسك عن الصيد ونهى عنه وهو الصفات الروحانية وصنف أمسك ولم ينه وهو الصفات القلبية، وصنف انتهك الحرمة وهو الصفات النفسانية.

قال حضرة شيخنا العلامة أبقاه الله بالسلامة: يوم طور النفس الأمارة بالسوء يوم السبت لانقطاع أهله باتباع الطاغوت والجبت وشهره شهر المحرم لحرمانه من القربة والنيل والوصلة ونجمه القمر وفلكه فلك السماء الدنيا وآيته قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] انتهى وتتوفر الدواعي البشرية فيما حرم الله بإغراء الشيطان

وتزيينه لأن الإنسان حريص على ما منع ولا يرغب فيما لم يحرم الله فمن كان الغالب عليه صفات الروح وقهر النفس وتبديل صفاتها بالتزكية والتحلية فإنه من أهل النجاة وأرباب الدرجات وأصحاب القربات، ومن كان الغالب عليه النفس وصفاتها فإنه من أهل الهلاك وأرباب الدركات وأصحاب المباعدات. وفي «المثنوي»:

نفس تو تامست وتازه است وقديد دانكه روحت حاسة غيبى نديد
كه علامتست زان ديدار نور التجافى منك عن دار الغرور
واى آنكه عقل أو ماده بود نفس زشتش نرو آماده بود
لا جرم مغلوب باشد عقل او جزسوى خسران نباشد نقل او
وصف حيواني بود بر زن فزون زانكه سوى رنك وبودارد ركون

﴿وإذ تأذن ربك﴾ بمعنى آذن مثل توعد بمعنى أوعد، والإيذان الإعلام وبمعنى عزم لأن من عزم على الأمر وصمم نيته عليه يحدث به نفسه ويؤذنها بفعله وعزم الله تعالى على الأمر عبارة عن تقرر ذلك الأمر في علمه وتعلق إرادته بوقوعه في الوقت المقدر له، والمعنى: واذكر يا محمد لليهود وقت إيجابه تعالى على نفسه ﴿ليبعثن﴾ ألبتة ﴿عليهم إلى يوم القيامة﴾ متعلق بقوله: ليبعثن واللام فيه لام جواب القسم لأن قوله: ﴿وإذ تأذن ربك﴾ جار مجرى القسم كعلم الله وشهد الله من حيث دلالته على تأكد الخبر المؤذن به ﴿من يسومهم﴾ السوم [رنج بخشانيدن] كذا في «تاج المصادر» فالمعنى [كسى كه بخشاند ايشانرا] ﴿سوء العذاب﴾ [عذابى سخت] كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك من فنون العذاب، وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام بخت نصر فخرب ديارهم وقتل مقاتليهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقي منهم وكانوا يؤدونها إلى المجوس حتى بعث الله محمداً ﷺ ففعل ما فعل ثم ضرب الجزية فلا تزال مضروبة إلى آخر الدهر.

قال الحدادي: وفي هذه الآية دلالة على أن اليهود لا ترفع لهم راية عز إلى يوم القيامة ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ يعاقبهم في الدنيا ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب وآمن منهم.

وفي الآية: إشارة إلى أن الشيطان وهو المنظر إلى يوم القيامة يبعث ليسوم الخلق سوء العذاب وهو الإبعاد من القربة والإغراء في الضلالة والإقعاد عن العبودية والإضلال عن الصراط المستقيم إن ربك لسريع العقاب يعاقبهم في الدنيا ويملي لهم ليزدادوا إثماً هذا عقوبة في الدنيا، وهي تورث العقوبة في الآخرة وإنه لغفور يغفر ذنوب من يرجع إليه ويتوب أي الأرواح والقلوب لو رجعت عن متابعة النفس وهواها وتابت إلى الله واستغفرت لغفر لها؛ لأنه رحيم يرحم من تاب إليه، وفيه معنى آخر إنه لسريع العقاب، أي: يعاقب المؤمنين في الدنيا بأنواع البلاء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ويوفقهم إلى الصبر على ذلك ليجعله كفارة لذنوبهم حتى إذا خرجوا من الدنيا خرجوا أنقياء لا يعذبون في الآخرة، وإنه لغفور رحيم لهم في الآخرة.

لقي يحيى عيسى عليهما السلام فتبسم عيسى في وجه يحيى فقال ما لي أراك لاهياً كأنك آمن فقال الآخر: ما لي أراك عابساً كأنك آيس فقالا لا نبرح حتى ينزل علينا الوحي فأوحى الله تعالى أحبكما إليّ أحسنكما ظناً بي. قال السعدي:

نه يوسف كه چندان بلا ديد وبند چوحكمش روان كشت وقدرش بلند

كنه عفو كرد آل يعقوب را | كه معنى بود صورت خوب را
بكردار بدشان مقيد نكرد | بضاعات مزجات شان رد نكرد
ز لطفت همى چشم داريم نيز | برين بى بضاعت ببخش اى عزيز

فينبغي للعاقل أن يحسن الظن بربه، ولا يتكاسل في باب العبادة فإن السفينة لا تجري على اليبس.

وعن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: دخلت جبانة البصرة فإذا أنا بسعدون المجنون فقلت: كيف حالك وكيف أنت؟ قال: يا مالك كيف يكون حال من أمسى وأصبح يريد سفراً بعيداً بلا أهبة ولا زاد، ويقدم على رب عدل حاكم بين العباد، ثم بكى بكاء شديداً، فقلت ما يبكيك؟ قال: والله ما بكيت حرصاً على الدنيا ولا جزعاً من الموت والبلى لكن بكيت ليوم مضى من عمري لا يحسن فيه عمل أبكاني والله قلة الزاد وبعد المفازة والعقبة الكؤود ولا أدري بعد ذلك أصير إلى الجنة أم إلى النار؟ فسمعت منه كلام حكمة فقلت: إن الناس يزعمون أنك مجنون، فقال: وأنت اغتررت بما اغتر به بنو إسرائيل زعم الناس أني مجنون وما بي جنة ولكن حب مولاي قد خالط قلبي وأحشائي وجرى بين لحمي ودمي وعظامي فأنا والله من حبه هائم مشغوف، فقلت: يا سعدون فلِمَ تجالس الناس وتخالطهم فأنشأ يقول:

كن من الناس جانبا | وارض بالله صاحبا
قلّبِ الناس كيف شئـ | ـت تجدهم عقاربا

كذا في «روض الرياحين» لليافعي.

﴿وقطعناهم﴾ أي: فرقنا بني إسرائيل ﴿في الأرض﴾ وجعلنا كل فرقة منهم في قطر من أقطارها بحيث لا تخلو ناحية منها منهم تتميماً لجزاء إدبارهم وإعراضهم عن الحق حتى لا يكون لهم شوكة بالاجتماع أبداً. ﴿أمماً﴾ حال من مفعول قطعناهم أي: حال كونهم جماعات أو مفعول ثان لقطعنا باعتبار تضمنه معنى صيرنا. ﴿منهم الصالحون﴾ صفة لا مما وهم المتدينون بدين موسى ﴿ومنهم دون ذلك﴾ تقديره ومنهم ناس دون ذلك على أن دون ذلك صفة لموصوف محذوف مرفوع على الابتداء. وقوله: منهم خبر قدم عليه.

قال التفتازاني: قد شاع في الاستعمال وقوع المبتدأ والخبر ظرفين واستمر النحاة على جعل الأول خبراً والثاني مبتدأ بتقدير موصوف دون العكس وإن كان أبعد من جهة المعنى والتأخير بالخبر أولى وكأنهم يرون المصير إلى أن الحذف في أوانه أولى انتهى وذلك إشارة إلى الصلاح المدلول عليه بقوله: الصالحون بتقدير المضاف ليصح المعنى، أي: ومنهم دون أهل ذلك الصلاح منحطون عنهم وهم كفرتهم وفسقتهم وجوز بمعنى أولئك فالإشارة إلى الصالحين وقد ذكر النحويون أن اسم الإشارة المفرد قد يستعمل للمثنى والمجموع كذا في «حواشي سعدي چلبى» ﴿وبلوناهم﴾ أي: عاملناهم معاملة المبتلى المختبر ﴿بالحسنات والسيئات﴾ بالنعم والنقم حيث فتحنا عليهم تارة باب الخصب والعافية وتارة باب الجدب والشدائد. ﴿لعلهم يرجعون﴾ ينتهون فيرجعون عما كانوا عليه من الكفر والمعاصي فإن كل واحد من الحسنات والسيئات يدعو إلى الطاعة أما الحسنات فللترغيب فيها، وأما السيئات فللترهيب عن المعصية.

قال الكاشفي: [ايشانرا درنعمت شكر بايست كرد بطر واستغنا ظاهر كردند وكفتند إن الله

فقير ونحن أغنياء ودر محنت صبرى بايست كرد آغاز ناسزا كردند وكفتند يد الله مغلولة برمحك اختبار تمام عيار بيرون نيامدند].

خوش بود كر محك تجربه آيدبميان تاسيه روى شودهركه دروغش باشد

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وبلوناهم بالحسنات﴾ أي: بكثرة الطاعات ورؤيتها والعجب بها كما كان حال إبليس ﴿والسيئات﴾ أي: المعاصي ورؤيتها والندامة عليها والتوبة منها والخوف والخشية من ربهم كما كان حال آدم عليه السلام رجع إلى الله تعالى: وقال ربنا ظلمنا أنفسنا.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿فخلف من بعدهم﴾ من بعد المذكورين ﴿خلف﴾ أي: بدل سوء وهم الذين كانوا في عصر النبي ﷺ الذين خلفوا من اليهود الذين فرقهم الله في الأرض أمماً موصوفين بأنهم منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، والخلف: مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع يقال خلف فلان فلاناً إذا كان خليفته وخلفه في قومه خلافة أي قام مقامه في تدبير أحوال قومه.

قال ابن الأعرابي: الخلف بفتح اللام الصالح وبإسكان اللام الطالح ومنه قيل لرديء الكلام خلف.

وقال محمد بن جرير: أكثر ما جاء في المدح بفتح اللام وفي الذم بتسكينها وقد يحرك في الذم ويسكن في المدح، قال: وأحسبه في الذم مأخوذاً من خلف اللبن إذا حمض من طول تركه في السقاء حتى يفسد، ومنه قولهم خلف فم الصائم إذا تغيرت ريحه وفسدت فكان الرجل الفاسد مشبه به، والحاصل أن كليهما يستعملان في الشر والخير إلا أن أكثر الاستعمال في الخير بالفتح كذا في «تفسير الحدادي» ﴿ورثوا الكتاب﴾ أي: التوراة من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها. والميراث ما صار للباقي من جهة الهالك وهو في محل الرفع على أنه نعت لقوله: خلف ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ استئناف، أي: يأخذون حطام هذا الشيء الأدنى يعني الدنيا وهو من الدنو، أي القرب سميت هذه الدار وهذه الحياة دنيا لدنوها وكونها عاجلة، يقال: دنوت منه دنواً أي قربت والداني القريب أو من الدناءة يقال دنا الرجل دناءة أي صار دنيئاً خسيساً لا خير فيه والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشى في الحكومات وعلى تحريف الكلام.

قال الحدادي: سمي متاع الدنيا عرضاً لقلة بقائه كأنه يعرض فيزول قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ [الأحقاف: ٢٤] يريدون بذلك السحاب ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه يقال غفر الله له ذنبه غطى عليه وعفا عنه. قوله: سيغفر إما مسند إلى الجار والمجرور بعده وهو لنا وإما إلى ضمير الأخذ في يأخذون كقوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ [المائدة: ٨] أي: سيغفر لنا أخذ العرض الأدنى.

وفي «التأويلات النجمية»: من شأن النفوس أن يجعلوا المواهب الربانية والكشوف

الروحانية ذريعة العروض الدنيوية ويصرفها في تحصيل المال والجاه واستيفاء اللذات والشهوات ويقولون سيغفر لنا؛ لأنا وصلنا إلى مقام ورتبة يغفر لنا مثل الزلات والخطيئات كما هو مذهب أهل الإباحة جهالة وغروراً منهم، وفيه معنى آخر وهو أنهم يقولون: سيغفر لنا إذا استغفرنا منها وهم يستغفرون باللسان لا بالقلب. ﴿**وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه**﴾ حال من فاعل يقولون، أي: يأخذون الرشى في الأحكام وعلى تحريف الكلم للتسهيل على العامة، ويقولون إنه تعالى لا يؤاخذنا بأخذ ما أخذناه من عرض الدنيا ويتجاوز عنه والحال أنهم مصرون على أخذه عائدون إلى مثله غير تائبين عنه. ﴿**ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب**﴾ أي: العهد المذكور في التوراة. ﴿**أن لا يقولوا على الله إلا الحق**﴾ عطف بيان للميثاق، أي: لا تفتروا على الله مثل القطع على المغفرة مع الإصرار على الذنب. ﴿**ودرسوا ما فيه**﴾ [وخوانده اند آنچه دروست واين حكم دروى نديده اند] وهو معطوف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فإنه تقرير، أي: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه ولك أن تقول درسوا عطف على لم يؤخذ فالاستفهام التقريري متعلق بهما. ﴿**والدار الآخرة**﴾ [ورستكارى سراى ديكركه عقابست ﴿**خير**﴾ بهترست از عرض دنيا] ﴿**للذين يتقون**﴾ المعاصي والشرك وأكل الحرام والافتراء على الله تعالى. ﴿**أفلا تعقلون**﴾ تعلمون ذلك فلا تستبدلوا الأدنى المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلد.

﴿**والذين**﴾ أي: وخير أيضاً للذين ﴿**يمسكون بالكتاب**﴾ أي: يتمسكون به في أمور دينهم يقال مسك بالشيء وتمسك به.

قال مجاهد: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة، أي: وسيلة وسبباً لأكل أموال الناس.

وقال عطاء: هم أمة محمد عليه السلام فالمراد بالكتاب القرآن. ﴿**وأقاموا الصلاة**﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد ذكر العام للتنبيه على شرف الخاص وفضله فإن إقامة الصلاة أعظم العبادات وأفضلها بعد الإيمان فأفردت بالذكر لعلو قدرها بالنسبة إلى سائر أنواع التمسكات.

خانهٔ دين خويش راچو خدا بر ستون نماز كردبنا
بى شكى تاستون بجاى بود خانهٔ دين حق بپاى بود

﴿**إنا لا نضيع أجر المصلحين**﴾ أي: نعطيهم أجرهم في القول والعمل.

قال الكاشفي: [مزدكار بصلاح آرند كان كردار خودرا بلكه بتمام بديشان رسانيم].

والإصلاح: أما إصلاح الظواهر، وإما إصلاح السرائر وذلك بالتقيد بالأعمال الظاهرة وتربية النفس إلى أن تصلح لقبول فيض نور الله.

واعلم: أن الغالب في آخر الزمان ترك العمل بالقرآن ولقد خلف من بعد السعداء أشقياء اطمأنوا إلى زخارف الدنيا.

قال الحسن: رأيت سبعين بدرياً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم وكانوا بالبلاء أشد منكم فرحاً بالرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين ولو رأوا أخياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق ولو رأوا أشراركم حكموا بأنهم ما يؤمنون بيوم الحساب إذا عرض عليهم الحلال من المال تركوه خوفاً من فساد قلوبهم.

قال هرم لأويس: أين تأمرني أن أكون؟ فأومأ إلى الشام، فقال هرم: كيف المعيشة بها؟ قال أويس: أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها العظة قال من قال:

خانه پركندم ويك جونفر ستاده بكور غم مركت چوغم برك زمستانى نيست

وهذا الشك لا يزول إلا بالتوفيق الخاص الإلهي ولا بد من تربية المرشد الكامل فإنه أعرف بمصالح النفس ومفاسدها.

زمن اى دوست اين يك پندبپذير بروفتراك صاحب دولتى كير

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ النتق: قلع الشيء من موضع والجبل هو الطور الذي سمع موسى كلام الله وأعطى الألواح وهو عليه أو جبل من جبال فلسطين، أو الجبل الذي كان عند بيت المقدس وفوقهم منصوب بنتقنا باعتبار تضمنه لمعنى رفعنا، كأنه قيل رفعنا الجبل فوق بني إسرائيل بنتقه وقلعه من مكانه فالنتق من مقدمات الرفع وسبب لحصوله. ﴿كأنه ظلة﴾ أي: سقيفة وهي كل ما أظلك بالفارسية [سايبان] ﴿وظنوا﴾ أي: تيقنوا ﴿أنه واقع بهم﴾ أي: ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت في الجو ولأنهم كانوا يوعدون به على تقدير عدم قبولهم أحكام التوراة. روي أن موسى عليه السلام لما أتى بني إسرائيل بالتوراة وقرأها عليهم وسمعوا ما فيها من التكاليف الشاقة أبوا أن يقبلوها ويتدينوا بما فيها، فأمر الله الجبل فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم بحيث حاذى معسكرهم جميعاً ولم يبق منهم أحد إلا والجبل فوقه وكان معسكرهم فرسخاً في فرسخ، وقيل لهم إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجداً على جانبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على جانبه الأيسر، ويقولون هي السجدة التي رفعت بها عنا العقوبة فقبلوها جبراً قيل كل من أتى بشيء جبراً ينكص على عقبيه حين يجد فرصة، كذلك أهل التوراة لما قبلوها جبراً ما لبثوا حتى شرعوا في تحريفها. ﴿خذوا﴾ على إضمار القول، أي: قلنا خذوا ﴿ما آتيناكم﴾ من الكتاب ﴿بقوة﴾ بجد وعزم على تحمل مشاقه وهو حال من الواو. ﴿واذكروا ما فيه﴾ بالعمل ولا تتركوه كالمنسي. ﴿لعلكم تتقون﴾ بذلك قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

وفي الآية: إشارة إلى أن الإنسان لو وكل إلى نفسه وطبيعته لا يقبل شيئاً من الأمور الدينية طبعاً ولا يحمل أثقاله قطعاً إلا أن يعان على القبول والحمل بأمر ظاهر أو باطن، فيضطر إلى القبول، والحمل فالله تعالى أعان أرباب العناية حتى حملوا أثقال المجاهدات والرياضات وأخذوا ما آتاهم الله بقوة منه لا بقوتهم وإرادتهم. وفي «المثنوي»:

جشمها وكوشهارا بسته اند جزمر آنهاراكه ازخود رسته اند

جز عنايت كه كشايد چشم را حز محبت كه نشايد خشم را

جهد بى توفيق خودكس را مباد درجهان والله أعلم بالرشاد

قال حضرة الشيخ أفتاده أفندي قدس سره: مخاطباً لحضرة الهدايي إن كثيراً قد اجتهدوا ثلاثين سنة فلم يتيسر ما حصل لك، فقال الهدايي: إن بابنا الذي نخدم فيه أعلى مما خدموا

فينبغي أن تكون لنا العناية بهذا القدر فتبسم حضرة الشيخ يحكي أن أبا يزيد البسطامي لم يأكل البطيخ الأخضر زماناً لعدم وقوفه على أن النبي عليه السلام بأي وجه قطعه والشمس التبريزي قال إن البسطامي كان في الحجاب بسبب قصة البطيخ.

قال أفتاده أفندي: كأنه أراد أن قوة زهد البسطامي جعلته محجوباً ولكن التحقيق أن كلاً منهما على الكمال غايته أن أبا يزيد البسطامي وصل من طريق الرياضة، والشمس التبريزي وصل من طريق المعرفة والطرق إلى الله كثيرة ولكن طريق الرياضة أحكم وأثبت فصاحب الزهد الغالب وإن لم ينفتح له الطريق زماناً، ولكنه إذا انفتح يكون دفعة وبذلك لم يقدر الحلاج على ضبطه لكماله في الشريعة والطريقة فظهر حقيقة الحال على الأسلوب المذكور فعناية الله تعالى تهدي أولاً إلى القبول ثم إلى الزهد والرياضة ثم إلى العشق والحالة ثم إلى عالم الحقيقة، والطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق فكل أحد يصل إلى الله تعالى من طريق وهي غير متعينة وليست هي كما يزعمها الناس؛ إذ ليست على الأسلوب الظاهر قال الله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] فالمراد بها الطريق المناسب لكل أحد وطريق الوصول هو التقوى والذكر.

واعلم: أن الكتب الإلهية إنما جاءت رحمة من الله تعالى وعناية وكذا الأنبياء عليهم السلام فمن اتبعهم وقبل ما جاؤوا به فقد نجا من العقبات وخرج من محبس هذا العالم وطار إلى الملكوت الأعلى وللهمة تأثير عظيم. ذكر أن في الهند قوماً إذا اهتموا بشيء اعتزلوا عن الناس وصرفوا همتهم إلى ذلك الشيء فيقع على وفق اهتمامهم.

ومن هذا القبيل ما ذكر أن السلطان محمود غزا بلاد الهند وكانت فيها مدينة كلما قصدها مرض فسأل عن ذلك فقيل له: إن عندهم جمعاً من الهند إذا صرفوا همتهم إلى ذلك يقع المرض على وفق ما اهتموا، فأشار إليه بعض أصحابه بدق الطبول ونفخ البوقات الكثيرة لتشوش همتهم ففعل ذلك فزال المرض واستخلصوا المدينة فأنت أيها السالك بضرب طبول الذكر وجهره وتشوش همّ النفس وخواطرها الفاسدة تخلص مدينة القلب من يدها بعناية الله تعالى وكان رسول الله ﷺ إذا سلم من صلاته قال بصوته الأعلى «لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

قال الشيخ أبو النجيب السهروردي المراد بقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ [البقرة: ٢٧١] الجهر بالذكر.

وقال عمر النسفي والإمام الواحدي في تفسيريهما: الذكر من جملة الفرائض وإعلان الفرائض أولى وأحب دفعاً للتهمة والجهر يوقظ قلب الذاكر ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط. وفي «المثنوي»:

يادهان خويشتن را پاك كن ... روح خودرا چابك وچالاك كن
ذكر حق پاكست چون پاكى رسيد ... رخت بربندد برون آيد پليد
مى كريزد ضدها از ضدها ... شب كريزد چون برافر وزد ضيا
چون در آيد نام پاك اندر دهان ... نى پليدى ماندو نى اندهان

قوله تعالى: ﴿**واذكروا ما فيه**﴾ يتناول الذكر اللفظي والحفظ الظاهري وإن كان العمدة هي العمل كما قال سعدي قدس سره: [مراد از نزول قرآن تحصيل سيرت خوبست نه ترتيل

سوره مكتوب عامیء متعبد پیاده رفتست وعالم متهاون سوار خفته] أيقظنا الله وإياكم من منام الغفلة والجهالة وختم عواقب أمورنا بأحسن الخاتمة والحالة آمين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿وإذ أخذ ربك﴾ أي: واذكر يا محمد لبني إسرائيل وقت أخذ ربك ﴿من بني آدم﴾ أي: آدم وأولاده كأنه صار اسماً للنوع كالإنسان والبشر والمراد بهم الذين ولد لهم كائناً من كان نسلاً بعد نسل سوى من لم يولد له بسبب من الأسباب كالعقم وعدم التزوج والموت صغيراً. ﴿من ظهورهم﴾ بدل من بني آدم بدل البعض، أي من أصلابهم وفيه تنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم وهم في أصلاب الآباء ولم يستودعوا في أرحام الأمهات ﴿ذريتهم﴾ مفعول أخذ، أي: نسلهم قرناً بعد قرن، يعني: أخرج بعضهم من بعض كما يتوالدون في الدنيا بحسب الأصلاب والأرحام والأدوار والأطوار إلى آخر ولد يولد ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ أي: أشهد كل واحد من أولئك الذريات المخصوصين المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسه لا على غيره تقريراً لهم بربوبيته التامة وما تستتبعه من العبودية على الاختصاص وغير ذلك من أحكامها. ﴿ألست بربكم﴾ على إرادة القول، أي: قائلاً ألست بربكم ومالك أمركم ومربيكم على الإطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل في شأن من شؤونكم ﴿قالوا﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قالوا فقيل قالوا: ﴿بلى شهدنا﴾ أي: على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك والفرق بين بلى ونعم أن بلى إثبات لما بعد النفي، أي: أنت ربنا فيكون إيماناً ونعم لتقرير ما سبق من النفي، أي لست بربنا فيكون كفراً وهذا تمثيل وتخييل نزل تمكينهم من العلم بربوبيته بنصب الدلائل الآفاقية والأنفسية وخلق الاستعداد فيهم منزلة الإشهاد وتمكينهم من معرفتها والإقرار بها منزلة الاعتراف، فلم يكن هناك أخذ وإشهاد وسؤال وجواب وباب التمثيل باب واسع ورد في القرآن والحديث وكلام البلغاء قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ﴿أن تقولوا﴾ مفعول له لما قبله من الأخذ والإشهاد، أي فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا ﴿يوم القيامة﴾ عند ظهور الأمر ﴿إنا كنا عن هذا﴾ أي: عن وحدانية الربوبية وأحكامها ﴿غافلين﴾ لم ننبه عليه بدليل فإنهم حيث جبلوا على الفطرة ومعرفة الحق في القوة القريبة من الفعل صاروا محجوجين عاجزين عن الاعتذار بذلك ولو لم تكن الآية على طريقة التمثيل، بل لو أريد حقيقة الإشهاد والاعتراف وقد أنسى الله تعالى بحكمته تلك الحال لم يصح قوله أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين كما في «حواشي سعدي چلبي» المفتي.

﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا﴾ عطف على أن تقولوا وأو لمنع الخلو دون الجمع أي: اخترعوا الإشراك وهم سنوه. ﴿من قبل﴾ من قبل زماننا. ﴿وكنا﴾ نحن ﴿ذرية من بعدهم﴾ لا نهتدي إلى السبيل ولا نقدر على الاستدلال بالدليل فاقتدينا بهم. ﴿أفتهلكنا﴾ أي: أتؤاخذنا فتهلكنا ﴿بما فعل المبطلون﴾ من آبائنا المضلين بعد ظهور أنهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبر والاستبداد بالرأي، فإن ما ذكر من استعدادهم الكامل يسد عليهم باب الاعتذار بهذا أيضاً فإن التقليد بعد قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها مما لا مساغ له أصلاً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

﴿وكذلك﴾ إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده ومحله النصب على المصدرية، أي مثل ذلك التفصيل البليغ المستتبع للمنافع الجليلة. ﴿نفصل الآيات﴾ المذكورة لا غير ذلك. ﴿ولعلهم يرجعون﴾ وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء نفعل التفصيل المذكور. فالواوان ابتدائيتان، ويجوز أن تكون الثانية عاطفة على مقدر مرتب على التفصيل، أي: وكذلك نفصل الآيات ليقفوا على ما فيها ومن المرغبات والزواجر وليرجعوا إلخ هذا والأكثر على أن المقاولة المذكورة في الآية حقيقة لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «من أنه لما خلق الله آدم عليه السلام مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فقال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى فنودي يومئذٍ جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن الآية الكريمة فقال سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: «إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون». فقال رجل ففيم العمل يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار» وليس المعنى أنه تعالى أخرج الكل من ظهره عليه السلام بالذات بل أخرج من ظهره عليه السلام أبناءه الصلبية ومن ظهورهم أبناءهم الصلبية وهكذا إلى آخر السلسلة لكن لما كان الظهر الأصلي ظهره عليه السلام، وكان مساق الحديثين الشريفين بيان حال الفريقين إجمالاً من غير أن يتعلق بذكر الوسائط غرض علمي نسب إخراج الكل إليه وأما الآية الكريمة حيث كانت مسوقة للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله ﷺ وبيان عدم إفادة الاعتذار بإسناد الإشراك إلى آبائهم اقتضى الحال نسبة إخراج كل واحد منهم إلى ظهر أبيه من غير تعرض لإخراج الأبناء الصلبية لآدم عليه السلام من ظهره قطعاً كذا في «الإرشاد».

وقال الحدادي: فإن قيل كيف يكون الميثاق حجة على الكفار منهم وهم لا يذكرون ذلك حين أخرجهم من صلب آدم قيل: لما أرسل الله الرسل فأخبروهم بذلك الميثاق صار قول الرسل حجة عليهم وإن لم يذكروا ألا ترى أن من ترك من صلاته ركعة ونسي ذلك فذكرت له ذلك الثقات كان قولهم حجة عليه.

قال المولى أبو السعود: على القول الثاني وهو ما ذهب إليه الأكثر من حقيقة المقاولة أن قوله تعالى: ﴿أن تقولوا﴾ إلخ ليس مفعولاً له لقوله تعالى: ﴿وأشهدهم﴾ وما يتفرع عليه من قولهم: ﴿بلى شهدنا﴾ حتى يجب كون ذلك الإشهاد والشهادة محفوظاً لهم في إلزامهم بل لفعل مضمر ينسحب الكلام عليه والمعنى فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاق وبيانه كراهة أن تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه في دار التكليف وإلا لعملنا بموجبه انتهى.

وقال الكاشفي: [اي درويش اين آيت مركز عهد ازلست بى خبران سركوچهٔ غفلت را

متنبه سازد وإلا هو شمندان بيداردل ازان سؤال وجواب غافل نيستند].

ألست ازازل همچنانش بكوش بفرياد قالوا بلى در خروش

[در نفحات مذكور ست كه على سهل اصفهانى را كفتندكه روز بلى را ياد دارى كفت چون ندارم كوئى دى بود شيخ الإسلام خواجه أنصارى فرمود كه درين سخن نقض است صوفى را دى وفردا چه بود آنروزرا هنوز شب در نيامده وصوفى در همان روزست].

روز امروزاست اى صوفى وشان كى بود ازدى واز فردا نشان

آنكه از حق نيست غافل يكنفس ماضى ومستقبل وحالست وبس

وسئل ذو النون رضي الله عنه: عن سر ميثاق مقام ألست بربكم هل تذكره؟ فقال: كأنه الآن في أذني.

واعلم: أن لبعض أرواح الكمل تحقق الاتصاف بالعلم قبل تعينه بهذا المزاج الجزئي العنصري في مرتبة العين والخارج من جهة كلية الروحانية المتعينة قبله في مرتبة النفس الكلي بنفس تعين الروح الإلهي الأصلي فالروح الكلي الوصف، والذات من أرواح الكمل يتعين في كل مرتبة وعالم من المراتب، والعوالم التي يمر عليها عند النزول والهبوط إلى مرتبة الحس الظاهر وعالم المزاج العنصري إلى حين اتصاله بهذه النشأة العنصرية تعيناً يقتضيه حكم الروح الأصلي في ذلك العالم وفي تلك المرتبة فيعلم حالتئذٍ أي حالة إذ تعين حين الاتصال بهذه النشأة العنصرية مما يعلم الروح الإلهي الأصلي ما شاء الله أن يعلمه من علومه ومتى كشفت هذا السر عرفت سر قوله عليه السلام: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» وسر قول ذي النون كما سبق وإن شئت زيادة تحقيق هذا المقام فارجع إلى مطالعة «مفتاح الغيب» للصدر القنوي قدس سره.

وقال في «التأويلات النجمية»: في الآية إشارة إلى أن أخذ المخلوقين يكون أخذ الشيء الموجود من الشيء الموجود وأن أخذ الخالق تارة هو أخذ الشيء المعدوم من العدم كقوله: ﴿خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] وتارة هو أخذ الشيء المعدوم من الشيء المعدوم كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فكان بنو آدم معدومين وظهورهم معدومين وذرياتهم معدومين فأخذ بكمال قدرته ذرياتهم المعدومة إلى يوم القيامة من ظهورهم المعدومة من بني آدم المعدومين، فأوجدهم الله في تلك الحالة وأعطاهم وجوداً مناسباً لتلك الحالة فلما استخرج الله من ظهر آدم ذرات بنيه، واستخرج من ظهورهم ذرات ذرياتهم المودعة فيها إلى يوم القيامة والأرواح في تلك الحالة جنود مجندة في ثلاثة صفوف: الصف الأول: أرواح السابقين، والصف الثاني: أرواح أصحاب الميمنة، والصف الثالث: أرواح أصحاب المشأمة تنورت الذرات بأنوار أرواحها ولبست تلك الذرات الموجودة بالوجود الرباني لباس الوجود الروحاني ولبست الأسماع والأبصار والأفئدة لباساً روحانياً، ثم خاطبهم الحق بخطاب ألست بربكم فسمع السابقون بسمع نوراني روحاني خطابه وشاهدوا بأبصار نورانية جماله وأحبوه بأفئدة روحانية ربانية نورانية بنور المحبة للقائه، فأجابوه على المحبة فقالوا: بلى أنت ربنا المحبوب والمعبود شهدنا، أي: شاهدنا محبوبيتك وربوبيتك فأخذ مواثيقهم أن لا يحبوا ولا يعبدوا إلا إياه، وسمع أصحاب الميمنة بسمع روحاني خطابه وطالعوا بأبصار روحانية جلاله وآمنوا بأفئدة ربانية إلهية، فأجابوه على العبودية وقالوا: بلى أنت ربنا

المعبود سمعنا وأطعنا فأخذ مواثيقهم أن لا يعبدوا إلا إياه، وسمع أصحاب المشأمة خطابه بسمع روحاني من وراء حجاب العزة، وفي آذانهم وقر الغرة وعلى أبصارهم غشاوة الشقاوة وعلى أفئدتهم ختم المحنة، فأجابوه على الكلفة، وقالوا: بلى أنت ربنا سمعنا كرهاً فأخذ مواثيقهم على العبودية، فالآن يرجع التفاوت بين الخليقة في الكفر والإيمان إلى تفاوت الاستعدادات الروحانية والربانية فافهم جداً.

ثم اعلم: أنا لا نجد أن الله تعالى ذكر أنه كلم أحداً وهو بعد في العدم إلا بني آدم فإنه كلمهم وهم غير موجودين وأجابوه وهم معدومون فجرى بالجود ما جرى لا بالوجود فهذا بدايتهم، وإلى هذا تنتهي نهايتهم بأن يكون الله تعالى هو سمعهم وأبصارهم وألسنتهم كما قال: «كنت له سمعاً وبصراً ولساناً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق» وإلى هذا أشار الجنيد حين سئل ما النهاية؟ قال: الرجوع إلى البداية انتهى كلام «التأويلات النجمية» باختصار وقد عرفت من هذا أن أهل الحقيقة جار في هذا المسلك على حقيقته؛ لأن من غلب روحانيته على جسمانيته يرى الأمر سهلاً ولا يصعب عليه شيء خلافاً لأهل الظاهر، والمعتزلة: أنكروا هذه الرواية وقالوا إن البينة شرط لحصول الحياة والعقل والفهم فتلك الذريات المأخوذة من ظهور بني آدم لا يكون أحد منهم عالماً فاهماً عاقلاً إلا إذا حصل له قدر من الجسامة والبنية اللحمية والدموية وإذا كان كذلك فمجموع تلك الأشخاص الذين خرجوا إلى الوجود من أول تخليق آدم إلى قيام الساعة لا تحويهم عرصة الدنيا، فكيف يمكن أن يقال إنهم حصلوا بأسرهم دفعة واحدة في صلب آدم فانظر إلى هذا القول الضعيف والرأي السخيف، ولو قلت لهم هل يستطيع الله أن يجعل السموات والأرضين والجبال والشجر والماء في بيضة من غير أن يزيد في البيضة شيئاً ومن غير أن ينقص من هذا شيئاً؟ لقالوا: لا والعياذ بالله فعليك برعاية عهد ألست حتى ينكشف لك ما هو مستور عنك وعن أمثالك وينجلي الغيب كالشمس في مرآة بالك فتنظر كيف الصورة والمعنى والظهور والخفاء.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿واتل﴾ اقرأ يا محمد **﴿عليهم﴾** أي: على اليهود **﴿نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾** أي: خبره الذي له شأن وخطر فإن النبأ خبر عن أمر عظيم ومعنى آتيناه آياتنا، أي علمناه دلائل ألوهيتنا ووحدانيتنا وفهمناه تلك الدلائل وفيه أقوال، والأنسب بمقام توبيخ اليهود ببهتانهم أنه أحد علماء بني إسرائيل كما في «الإرشاد» أو هو بلعم بن باعورا كما في «منهاج العابدين» للإمام الغزالي وقولهم إنه من الكنعانيين الجبارين إنما هو لكونه ساكناً في دارهم والمرء ينسب إلى منشئه ومولده كما هو اللائح فافهم.

والأسلم في تقرير القصة ما ذكره الحدادي في «تفسيره»: نقلاً عن ابن عباس وابن مسعود حيث قال كان عابداً من عباد بني إسرائيل وكان في المدينة التي قصدها موسى عليه السلام وكان أهل تلك المدينة كفاراً، وكان عنده اسم الله الأعظم فسأله ملكهم أن يدعو على

موسى بالاسم الأعظم ليدفعه عن تلك المدينة، فقال لهم: دينه وديني واحد وهذا شيء لا يكون وكيف أدعو عليه وهو نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون، وأنا أعلم من الله ما أعلم، وإني إن فعلت ذلك أذهبت دنياي وآخرتي فلم يزالوا به يفتنونه بالمال والهدايا حتى فتنوه فافتتن، قيل: كان لبلعم امرأة يحبها ويطيعها فجمع قومه هدايا عظيمة فأتوا بها إليها وقبلتها، فقالوا لها قد نزل بنا ما ترين فكلمي بلعم في هذا، فقالت لبلعم: إن لهؤلاء القوم حقاً وجواراً عليك وليس مثلك يخذل جيرانه عند الشدائد وقد كانوا محسنين إليك وأنت جدير أن تكافئهم وتهتم بأمرهم، فقال لها: لولا أني أعلم أن هذا الأمر من عند الله لأجبتهم فلم تزل به حتى صرفته عن رأيه، فركب أتاناً له متوجهاً إلى الجبل ليدعو على موسى فما سار على الأتان إلا قليلاً فربضت فنزل عنها فضربها حتى كاد يهلكها فقامت فركبها فربضت فضربها فأنطقها الله تعالى، فقالت: يا بلعم ويحك أين تذهب ألا ترى إلى هؤلاء الملائكة أمامي يردونني عن وجهي، فكيف أريد أن تذهب لتدعو على نبي الله وعلى المؤمنين فخلى سبيلها وانطلق حتى وصل إلى الجبل وجعل يدعو فكان لا يدعو بسوء إلا صرف الله به لسانه على قومه ولا يدعو بخير إلا صرف الله به لسانه إلى موسى، فقال له قومه: يا بلعم إنما أنت تدعو علينا وتدعو له، فقال هذا والله الذي أملكه وأنطق الله به لساني ثم امتد لسانه حتى بلغ صدره، فقال لهم قد ذهبت والله مني الآن الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال، حَلّوا النساء وزينوهن وأعطوهن الطيب وأرسلوهن إلى العسكر، وأمروهن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى منهم رجل واحد كفيتموهم ففعلوا فلما دخلت النساء المعسكر مرت امرأة منهم برجل من عظماء بني إسرائيل، فقام إليها وأخذ بيدها حين أعجبته بحسنها، ثم أقبل بها إلى موسى، وقال له: إني لأظنك أن تقول هذه حرام قال: نعم هي حرام عليك لا تقربها، قال فوالله لا نطيعك في هذا ثم دخل بها قبة فوقع عليها فأرسل الله على بني إسرائيل الطاعون في الوقت وكان فنحاص بن العيزار صاحب أمر موسى رجلاً له بسطة في الخلق وقوة في البطش وكان غائباً حين صنع ذلك الرجل بالمرأة ما صنع فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل، فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل على القبة فوجدهما متضاجعين فدفهما بحربته حتى انتظمهما بها جميعاً فخرج بهما يحملهما بالحربة رافعاً بهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه وأسند الحربة إلى لحيته وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك فرفع الطاعون من حينئذٍ عنهم فحسب من هلك من بني إسرائيل في ذلك الطاعون فوجدهم سبعين ألفاً في ساعة من نهار وهو ما بين أن زنى ذلك الرجل بها إلى أن قتل ثم إن موسى عليه السلام أفتاه يوشع بن نون حاربوا أهل تلك البلدة وغلبوهم وقتلوا منهم وأسروا وأتوا ببلعم أسيراً فقتل فجاؤوا بما قبل من العطايا الكثيرة وغنموها. ﴿**فانسلخ منها**﴾ أي: من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة والحية ولم يخطرها بباله أصلاً. ﴿**فأتبعه الشيطان**﴾ أتبع وتبع بمعنى واحد كاردف وردف. والمعنى: أن الشيطان كان وراءه طالباً لإضلاله وهو يسبقه بالإيمان والطاعة لا يدركه الشيطان ثم لما انسلخ من الآيات لحقه وأدركه. ﴿**فكان**﴾ [پس كشت آن داننده آيات] أي: فصار ﴿**من الغاوين**﴾ من زمرة الضالين الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين. والغي يذكر بمعنى الهلاك ويذكر بمعنى الخيبة وفي «القاموس» غوى ضل.

قال الإمام الغزالي: كان بلعم بن باعورا بحيث إذا نظر رأى العرش ولم يكن له إلا زلة واحدة مال إلى الدنيا وأهلها ميلة واحدة ولم يترك لولي من أوليائه حرمة واحدة فسلبه معرفته وكان في أول أمره بحيث يكون في مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه ثم صار بحيث كان أول من صنف كتاباً أن ليس للعالم صانع نعوذ بالله من سخطه انتهى، فلا يأمن السالك المحق مكر الله، ولو بلغ أقصى مقامات الأنبياء والمرسلين فلا يغلق على نفسه أبواب المجاهدات والرياضات ومخالفات النفس وهواها في كل حال كما كان حال النبي عليه السلام والأئمة الراشدين والصحابة والتابعين وأئمة السلف والمشايخ المتقدمين ولا يفتح على نفسه التنعم والتمتع الدنيوي في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمركب والمسكن لأنه كما أن لله تعالى في مكامن الغيب للسعداء ألطافاً خفية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كذلك له فيها بلايا لهم، فليحترز السالك الصادق بل البالغ الواصل والكامل الحاذق من أن يتعرض لتلك البلايا بالتوسع في الدنيا والتبسط في الأحوال وتتبع الهوى كما في «التأويلات النجمية».

قال الكاشفي [شيخ الإسلام فرمود تاباد تقدير ازكجا برآيد وچه بوالعجبي نما يدا كراز جانب فضل وزد زنار بهرام كبر راكمر عشقبازى راه دين كرداند واكراز طرف عدل وزد توحيد بلعم را برانداخته باسك خسيس برابرى دهدى].

انرا برى از صومعه برديركبران افكنى وين راكشى ازبتكده سر حلقهٔ مردان كنى
چون وچرا دركار توعقل زبونراكى رسد فرمان ده مطلق تويى حكمى كه خواهى آن كنى

﴿ولو شئنا﴾ رفعه ﴿لرفعناه﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء، ﴿بها﴾ أي: بسبب تلك الآيات وملازمتها.

وقال بعضهم: هي صحف إبراهيم عليه السلام وكان بلعم قد قرأها أو الكلمات التي اشتملت على الاسم الأعظم. ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ أي: مال إلى الدنيا فلم نشأ رفعه لمباشرته لسبب نقيضه، والإخلاد إلى الشيء الميل إليه مع الاطمئنان عبر عن الدنيا بالأرض لأن ما فيها من العقار والرباع كلها أرض وسائر متاعها مستخرج من الأرض والإخلاد إلى الأرض كناية عن الإعراض عن ملازمة الآيات والعمل بمقتضاها، والكناية أبلغ من التصريح. ﴿واتبع هواه﴾ في إيثار الدنيا واسترضاه قومه فانحط أبلغ انحطاط وارتد أسفل سافلين وإلى ذلك أشير بقوله تعالى: ﴿فمثله﴾ أي: فصفته التي هي مثل في الخسة والرذالة، والمثل لفظ مشترك بين الوصف وبين ما يضرب مثلاً والمراد ههنا الوصف كذا في «البحر» ﴿كمثل الكلب﴾ أي: كصفته في أخس أحواله وهو ﴿إن تحمل عليه﴾ [اكر حمله كنى برو وبرانى اورا] والخطاب لكل أحد ممن له حظ من الخطاب فإنه أدخل في إشاعة فظاعة حاله ﴿يلهث﴾ اللهث ادلاع اللسان أي إخراجه بالنفس الشديد. ﴿أو تتركه يلهث﴾ أي: يلهث دائماً سواء حمل عليه بالزجر والطرد أو ترك ولم يتعرض له فإن في الكلاب طبعاً لا تقدر على نفض الهواء السخن وجلب الهواء البارد بسهولة لضعف قلبها وانقطاع فؤادها بخلاف سائر الحيوانات، فإنها لا تحتاج إلى التنفس الشديد ولا يلحقها الكرب والمضايقة إلا عند التعب والإعياء، فكما أن الكلب دائم اللهث ضيق الحال فكذا هذا الكافر إن زجرته ووعظته لم ينزجر ولم يتعظ، وإن تركته لم يهتد ولم يعقل فهو متردد إلى ما لا غاية وراءه في الخسة والدناءة

فانظر حب الدنيا وشؤمها ماذا يجلب للعلماء خاصة، وفي الحديث: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى، لم يزدد من الله تعالى إلا بعداً» والنعمة إنما تسلب ممن لا يعرف قدرها وهو الكفور الذي لا يؤدي شكرها، وكما أن الكلب لا يعرف الإكرام من الإهانة والرفعة والشرف من الحقارة، وإنما الكرامة كلها عنده في كسرة يطعمها أو عراق مائدة يرمى إليه سواء تقعده على سرير معك، أو في التراب والقذر فكذا العبد السوء لا يعرف قدر الكرامة ويجهل حق النعمة فينسلخ عن لباس الفضل والكرم ويرتدي برداء القهر والمكر.

قال في «التأويلات النجمية»: فلا يغترن جاهل مفتون بأن اتباع الهوى لا يضره فإن الله تعالى حذر الأنبياء عن اتباع الهوى وأوعدهم عليه بالضلال كقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] قال الحافظ:

مباش غره بعلم وعمل فقيه مدام   كه هيچكس زقضاى خداى جان نبرد

﴿ذلك﴾ أي: ذلك المثل السيىء ﴿مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وهم اليهود وكما أن بلعم بعدما أوتي آيات الله انسلخ منها ومال إلى الدنيا حتى صار كالكلب، كذلك اليهود بعدما أوتوا التوراة المشتملة على نعت الرسول ﷺ وذكر القرآن المعجز وبشرى الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به انسلخوا مما اعتقدوا في حقه وكذبوه وحرفوا اسمه. ﴿فاقصص القصص﴾ [پس بخوان برايشان اين خبررا] والقصص: مصدر سمي به المفعول كالسلب واللام للعهد. ﴿لعلهم يتفكرون﴾ راجياً تفكرهم تفكراً يؤدي بهم إلى الاتعاظ.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

﴿ساء مثلاً﴾ ساء بمعنى بئس ومثلاً تمييز من الفاعل المضمر في ساء مفسر له. ﴿القوم﴾ مخصوص بالذم بتقدير المضاف لوجوب التصادف بينه وبين الفاعل والتمييز أي ساء مثلاً مثل القوم وبئس الوصف وصف القوم.

قال الحدادي: وهذا السوء إنما يرجع إلى فعلهم لا إلى نفس المثل كأنه قال ساء فعلهم الذي جلب إليهم الوصف القبيح، فأما المثل فهو من الله حكم وصواب. ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها. ﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي: ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتخطاها.

﴿من يهد الله﴾ أي: يخلق فيه الاهتداء ﴿فهو المهتدي﴾ لا غير كائناً من كان وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية في حصول الاهتداء من غير تأثير لها فيه سوى كونها دواعي إلى صرف العبد اختياره نحو تحصيله. ﴿ومن يضلل﴾ بأن لم يخلق فيه الاهتداء بل خلق الله فيه الضلالة لصرف اختياره نحوها. ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ أي: الكاملون في الخسران لا غير.

وفيه إشارة إلى أن من أدركته العناية ولحقته الهداية اليوم لم ينزل عن المراتب العلوية إلى المدارك السفلية، فهم الذين أصابهم رشاش النور الذي رش عليهم من نوره ومن خذله حتى اتبع هواه فأضله الهوى عن سبيل الله فهم الذين أخطأهم ذلك النور، ولم يصبهم فوقعوا في الضلالة والخسران.

وكان سفيان الثوري يقول: اللهم سلم سلم كأنه في سفينة يخشى الغرق.

ولما قدم البشير على يعقوب عليه السلام، قال: على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام قال: الآن تمت النعمة.

وقيل: ما من كلمة أحب إلى الله تعالى ولا أبلغ عنده في الشكر من أن يقول العبد: الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا إلى الإسلام، وإياك أن تغفل عن الشكر وتغتر بما أنت عليه في الحال من الإسلام والمعرفة والتوفيق والعصمة، فإنه مع ذلك لا موضع للأمن والغفلة فإن الأمور بالعواقب.

قال بعض العارفين: إن بعض الأنبياء عليهم السلام سأل الله تعالى عن أمر بلعم وطرده بعد تلك الآيات والكرامات؟ فقال الله تعالى: لم يشكرني يوماً من الأيام على ما أعطيته ولو شكرني على ذلك مرة لما سلبته، فمن كان له جوهر نفيس يمكنه أن يأخذ في ثمنه ألف ألف دينار فباعه بفلس أليس يكون ذلك خسراناً عظيماً وغبناً فظيعاً ودليلاً بينا على خسة الهمة وقصور العلم وضعف الرأي وقلة العقل، فتيقظ حتى لا تذهب عنك الدنيا والآخرة وتنبه فإن الأمر خطير والعمر قصير وفي العمل تقصير والناقد بصير فإن ختم الله بالخير أعمالنا وأقال عثراتنا فما ذلك عليه بعسير اللهم حقق رجاء عبدك الفقير.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿ولقد ذرأنا﴾ أي: وبالله قد خلقنا.

قال في «القاموس»: ذرأ كجعل خلق والشيء كثر ومنه الذرية مثلثة لنسل الثقلين. ﴿لجهنم﴾ أي: لدخولها والتعذيب بها وهي سجن الله في الآخرة سميت جهنم لبعد قعرها، يقال: بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر وهي تحتوي على حرور وزمهرير ففيها الحر والبرد على أقصى درجاتهما وبين أعلاها وقعرها خمس وسبعون مائة من السنين. ﴿كثيراً﴾ كائناً ﴿من الجن والإنس﴾ يعني: المصرين على الكفر في علم الله تعالى، فاللام في لجهنم للعاقبة لأن من علم الله أن يصر على الكفر باختياره فهو يصير من أهل النار. والجن: أجسام هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة لها عقول وأفهام وقدرة على الأعمال الشاقة وهي خلاف الإنس سميت بذلك لاستجنانهم واستتارهم عن العيون، يقال: جنه الليل ستره. والإنس: البشر كالإنسان من آنس الشيء أبصره وقدم الجن على الإنس لأنهم أكثر عدداً وأقدم خلقاً، ولأن لفظ الإنس أخف بمكان النون الخفيفة والسين المهموسة فكان الأثقل أولى بأول الكلام من الأخف لنشاط المتكلم وراحته والإجماع على أن الجن متعبدون بهذه الشريعة على الخصوص وإن نبينا ﷺ مبعوث إلى الثقلين ولا شك أنهم مكلفون في الأمم الماضية، كما هم مكلفون في هذه الأمة لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: ١٨] وجمع الفريقين إنما هو باعتبار استعدادهم الكامل الفطري للعبادة والسعادة وإلا لم يصح التكليف عليهم.

فإن قلت: ما الحكمة في أن الله تعالى جعل الكفار أكثر من المؤمنين؟.

قلت ليريهم أنه مستغنٍ عن طاعتهم وليظهر عز المؤمنين فيما بين ذلك لأن الأشياء تعرف بأضدادها والشيء إذا قل وجوده عز.

فإن قلت: إن رحمته غلبت غضبه فيقتضي الأمر أن يكون أهل الرحمة أكثر من أهل الغضب، وأهل الغضب تسع وتسعون وتسعمائة من كل ألف وواحد يؤخذ للجنة.

قلت: هذه الكثرة بالنسبة إلى بني آدم وأما بالنسبة إلى الملائكة وأهل الجنة فكثير لأن بني آدم قليل بالنسبة إلى الملائكة والحور والغلمان فيكون أهل الرحمة أكثر من أهل الغضب، وقيل: أكثر الكفار بشارة للأخيار بكثرة الفداء لأنه ورد في الخبر الصحيح: «إن كل مؤمن يأخذ كافراً بناصيته ويرميه إلى النار فداء عن نفسه» وفي الحديث: «إن الله لما ذرأ لجهنم ما ذرأ كان ولد الزنى ممن ذرأ لجهنم».

قال في «المقاصد» حديث: «لا يدخل الجنة ولد زنية» إن صح فمعناه إذا عمل بمثل عمل أبويه واتفقوا على أنه لا يحمل على ظاهره.

وقيل في تأويله أيضاً: إن المراد به من يواظب الزنى كما يقال للشهود بنو الصحف وللشجعان بنو الحرب ولأولاد المسلمين بنو الإسلام واتفق المشايخ من أهل الوصول أن ولد الزنى لا يكون أهلاً للولاية الخاصة. ﴿لهم قلوب﴾ في محل النصب على أنه صفة أخرى لكثيراً. ﴿لا يفقهون بها﴾ في محل الرفع على أنه صفة لقلوب أي لا يعقلون بها إذ لا يلقونها إلى معرفة الحق والنظر في دلائله والقلب كالمرآة يصدأ من الإنكار والغفلة وجلاؤه التصديق والإنابة. قال السعدي قدس سره:

غبار هوا چشم عقلت بدوخت   سموم هوا كشت عمرت بسوخت
بكن سرمهٔ غفلت از چشم پاك   كه فردا شوى سرمه درچشم خاك

﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ أي: لا ينظرون إلى ما خلق الله نظر اعتبار.

دوچشم ازپى صنع بارى نكوست   زعيب برادر فروكيرو دوست

﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر.

كذر كاه قرآن وبندست كوش   به بهتان وباطل شنيدن مكوش

﴿أولئك﴾ الموصوفون بالأوصاف المذكورة ﴿كالأنعام﴾ [ما نندچها رپانند] في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها، والأنعام: جمع نعم بالتحريك وقد يسكن عينه وهي الإبل والشاة أو خاص بالإبل كذا في «القاموس»: ﴿بل هم أضل﴾ بل للإضراب وليس إبطالاً، بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم آخر وهو كونهم أضل من الأنعام طريقاً، فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجهد في جلبها ودفعها غاية جهدها وهم ليسوا كذلك وهي بمعزل من الخلود وهم يتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد، وقيل: لأنها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه وفي الخبر: «كل شيء أطوع لله من بني آدم».

دريغ آدمى زادهٔ پرمحل   كه باشد چو انعام بل هم اضل

﴿أولئك هم الغافلون﴾ عن أمر الآخرة وما أعد فيها للعصاة، وفي الإنسان جهة روحانية وجهة جسمانية وقد ركب فيه عقل وشهوة، فإن كان عقله غالباً على هواه كان أفضل من الملائكة وإن كان مغلوباً للنفس والهوى كان أخس وأرذل من البهائم. كما قيل في هذا المعنى:

بهرهٔ از ملكت هست ونصيبى ازديو ترك ديويى كن وبكذر بفضيلت زملك

واعلم: أن الله تعالى خلق الخلق أطواراً، فخلق طوراً: منها للقرب والمحبة وهم أهل الله وخاصته إظهاراً للحسن والجمال وكانوا به يسمعون كلامه وبه يبصرون جماله وبه يعرفون كماله، وخلق طوراً منها: للجنة ونعيمها إظهاراً للطف والرحمة فجعل لهم قلوباً يفقهون بها دلائل التوحيد والمعرفة وأعيناً يبصرون بها آيات الحق، وخلق طوراً منها للنار وجحيمها وهم أهل النار إظهاراً للقهر والعزة أولئك كالأنعام لا يحبون الله ولا يطلبونه بل هم أضل لأنه لم يكن للأنعام استعداد المعرفة والطلب وإنهم كانوا مستعدين للمعرفة والطلب فأبطلوا الاستعداد الفطري للمعرفة والطلب بالركون إلى شهوات الدنيا وزينتها واتباع الهوى فباعوا الآخرة بالأولى والدين بالدنيا وتركوا طلب المولى فصاروا أضل من الأنعام لإفساد الاستعداد أولئك هم الغافلون عن الله وكمالات أهل المعرفة وعزتهم كما قال في «التأويلات النجمية» قدس الله سره.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ تأنيث الأحسن أي الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها لأنها دالة على معاني هي أحسن المعاني وأشرفها والمراد بها الألفاظ الدالة الموضوعة على المعاني المختلفة دل على أن الاسم غير المسمى ولو كان هو المسمى لكان المسمى عدد الأسماء وهو محال.

قال الإمام الغزالي: الحق أن الاسم غير التسمية وغير المسمى فإن هذه ثلاثة أسماء متباينة غير مترادفة ﴿فادعوه بها﴾ فسموه بتلك الأسماء واذكروه بها وفي الحديث: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور». واستحسن المشايخ المتقدمون أن يبدأ أولاً ويقول اللهم إني أسألك يا رحمن يا رحيم إلى آخره فيجيء بجميع الأسماء بحرف النداء ثم يقول في آخر الكل أن تصلي على محمد وآله وأن ترزقني.

وجميع من يتعلق بي بتمام نعمك ودوام عافيتك يا أرحم الراحمين كما في «الأسرار المحمدية» قال عبد الرحمن البسطامي في «ترويح القلوب»: إن العارفين يلاحظون في الأسماء

آلة التعريف وأصل الكلمة. والملامية يطرحون منها آلة التعريف لأنها زائدة على أصل الكلمة ومن السر المكنون في الدعاء أن تأخذ حروف الأسماء التي تذكر بها مثل قولك الكبير المتعال ولا تأخذ الألف واللام، بل تأخذ كبير متعال وتنظر كم لها من الأعداد بالجمل الكبير فتذكر ذلك العدد في موضع خال من الأصوات بالشرائط المعتبرة عند أهل الخلوات لا تزيد على العدد ولا تنقص منه، فإنه يستجلب لك للوقت وهو الكبريت الأحمر بإذن الله تعالى فإن الزيادة على العدد المطلوب إسراف والنقص منه إخلال والعدد في الذكر بالأسماء كأسنان المفتاح لأنها إن زادت أو نقصت لا تفتح باب الإجابة البتة فافهم السر وحسن الدر.

واعلم: أنه لما كانت المقامات الدنية ثلاثة، مقام الإسلام ومقام الإيمان، ومقام الإحسان، ومراتب الجنان المرتبة على الإحصاء لأهل الدين ثلاثاً، جنة الأعمال. وجنة الميراث، وجنة الامتنان لا جرم كانت أنواع الإحصاء ثلاثة. التعلق في مقام الإسلام، والتخلق في مقام الإيمان، والتحقق في مقام الإحسان، فإحصاؤها بالتعلق في مقام الإسلام هو أن يتطلب السالك آثار كل اسم منها في نفسه وبدنه وجميع قواه وأعضائه وأجزائه وجزئياته في جميع حالاته وهيئاته النفسانية والجسمانية وفي جملة تطوراته وأنواع ظهوراته، فيرى جميع ذلك من أحكام هذه الأسماء وآثارها فيقابل كل أثر بما يليق به كمقابلة الإنعام بالشكر والبلاء بالصبر وغير ذلك فبمثل هذا الإحصاء يدخل جنة الأعمال التي هي محل ستر الأغراض الزائلة بالأعيان الثابتة الباقية، وهي التي أخبر عنها إبراهيم الخليل عليه السلام بأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله، وإحصاؤها بالتخلق في مقام الإيمان يكون بتطلع الروح الروحانية إلى حقائق هذه الأسماء ومعانيها ومفهوماتها، والتخلق بكل اسم منها على نحو ما أمر به من قوله عليه السلام: «تخلقوا بأخلاق الله» بحيث يكون المتخلق هو عين ذلك الاسم أي ينفعل عنه ما ينفعل عن ذلك الاسم فبمثل هذا الإحصاء يدخل هذا المتخلق جنة الميراث التي هي أعلى من الجنة الأولى بل هي باطنها المنزل منها بمنزلة عالم الملكوت من عالم الملك وهي المشار إليها بقوله عليه السلام: «ما منكم من أحد إلا وله منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات ودخل النار ورث منزله أهل الجنة وإن شئتم فاقرؤوا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١٠-١١] وإحصاؤها بالتحقق في مقام الإحسان يكون بالتقوى والانخلاع عما قام بك أو ظهر فيك من الصور والمعاني المتسمة بسمة الحدوث والاستتار بسبحات الحضرة الحقية والاحتجاب بسجف أستارها وأعيانها. كما قال:

تسترت عن دهري بظل جناحه ... بحيث أرى دهري وليس يراني
فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت ... وأين مكاني ما درين مكاني

فبمثل هذا الإحصاء يدخل المتحقق جنة الامتنان التي هي محل سر غيب الغيب المشار إليها بقوله عليه الصلاة والسلام: «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» وإليها الإشارة أيضاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾ [القمر: ٥٤-٥٥] قال ابن ملك: من أحصاها أي من أطاق القيام بحق هذه الأسماء وعمل بمقتضاها بأن وثق بالرزق إذا قال الرزاق وعلم أن الخير والشر من الله تعالى إذا قال الضار النافع فشكر على المنفعة وصبر على المضرة وعلى هذا سائر الأسماء وقيل معناه من عقل معانيها وصدقها وقيل معناه من عدها كلمة كلمة تبركاً وإخلاصاً.

وقال البخاري: المراد به حفظها وهذا هو الأظهر لأنه جاء في الرواية الأخرى من حفظها مكان من أحصاها انتهى ولا يظن أن أسماء الله تعالى منحصرة في هذا المقدار بل هي أشهر الأسماء ويجوز أن تتفاوت فضيلة أسماء الله تعالى بتفاوت معانيها كالجلال والشرف ويكون التسعة والتسعون منها تجمع أنواعاً للمعاني المنبئة عن الجلال لا يجمع ذلك غيرها فتختص بزيادة شرف ويدل على أن أسماء الله تعالى كثيرة قوله عليه السلام: «ما أصاب أحداً همّ ولا حزن فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله عنه كل همه وحزنه وأبدل مكانه فرحاً» وعن بريرة أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال ﷺ: «دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب».

واعلم: أن اسم الله أعظم الأسماء التسعة والتسعين لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها حتى لا يشذ منها شيء وسائر الأسماء لا يدل آحادها إلا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره، ولأنه أخص الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازاً وسائر الأسماء قد يسمى بها غيره كالقادر والعليم والرحيم وغيرها وقد جعل العلماء من خصائص هذا الاسم أنه ينسب جميع أسماء الحق إليه، كما قال الله تعالى: **﴿ولله الأسماء الحسنى﴾**.

قال حضرة شيخنا العلامة أبقاه الله بالسلامة في بعض تحريراته: واعلم أن الهوية الإلٓهية السارية في جميع المراتب تعينت أولاً في مرتبة الحياة تعين تلك المرتبة بالأولية الكبرى فتعينت نسبة عالم الغيب، ثم في مرتبة العلم تعينت تلك المرتبة ثانياً بالآخرية العظمى فتعينت نسبة عالم المعاني، ثم في مرتبة الإرادة بصورة تلك المرتبة تعينت ثالثاً بالظاهرية الأولى فتعينت نسبة عالم الأرواح، ثم في مرتبة القدرة تعينت تلك المرتبة رابعاً بالباطنية الأولى فتعينت نسبة عالم الشهادة هو الحي العليم المريد القدير وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وبذلك السريان ظهرت الحقائق الأربع التي هي أمهات جميع الحقائق، والأسماء الإلهية الكلية التي هي تسعة وتسعون أو ألف وواحد وتلك الحقائق الكلية تعينت من دوران تعين الأمهات الأربع في عوالمها الأربعة فبضرب الأربعة في الأربعة كانت ستة عشر، ثم باعتبار الظهور والبطون صارت اثنين وثلاثين، ثم باعتبار أحدية جمع الجميع كانت ثلاثاً وثلاثين ثم باعتبار دوران تعينها بعالم السمع ورتبة البصر ورتبة الكلام فيها صارت تسعة وتسعين، ثم باعتبار أحدية جمع الجميع كانت مائة لذلك سن رسول الله عليه السلام في «دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين تسبيحة وثلاثاً وثلاثين تحميدة وثلاثاً وثلاثين تكبيرة ثم تمم المائة بقوله: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» ثم كانت ألفاً باعتبار تعيناتها في الحضرات الخمس من جهة الظهور والبطون حاصلة من ضرب المائة في العشرة الكائنة من تلك الحضرات الخمس باعتبار ظواهرها وبواطنها ثم باعتبار أحدية جمع الجميع كانت ألفاً وواحداً فأمهات الأسماء والحقائق سبع وكلياتها تسع وتسعون أو ألف وواحد وجزئيات تلك الأسماء الحسنى لا تعد ولا تحصى انتهى باختصار. **﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾** الإلحاد: واللحد: الميل

والانحراف عن القصد، أي: واتركوا الذين يميلون في شأنها عن الحق إلى الباطل إما بأن يسموه تعالى بما لم يسم به نفسه ولم ينطق به كتاب سماوي ولا ورد فيه نص نبوي أو بما يوهم معنى فاسداً، وإن كان له محمل شرعي كما في قول أهل البدو يا أبا المكارم يا أبيض الوجه فإن أبا المكارم وإن كان عبارة عن المستجمع لصفات الكمال إلا أنه يوهم معنى لا يصح في شأنه تعالى، وكذا أبيض الوجه وإن كان عبارة عن تقدس ذاته عن النقائص المكدرة إلا أنه يوهم معنى فاسداً، فالمراد بالترك المأمور به الاجتناب عن ذلك وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم لا أسماؤه حقيقة وإما بأن يعدلوا عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة كما قالوا وما الرحمن ما تعرف سوى رحمان اليمامة. فالمراد بالترك الاجتناب أيضاً، وبالأسماء أسماؤه تعالى حقيقة فالمعنى سموه تعالى بجميع الأسماء الحسنى واجتنبوا إخراج بعضها من البعض. روي أن رجلاً من الصحابة دعا الله تعالى في صلاته باسم الله وباسم الرحمن فقال رجل من المشركين أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا الرجل يدعو ربين اثنين فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» رغماً لأنوف المشركين فإن تعدد الاسم لا يستلزم تعدد المسمى **﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾** أي: اجتنبوا إلحادهم كيلا يصيبكم ما أصابهم فإنه سينزل بهم عقوبة إلحادهم فقوله: **﴿وذروا الذين﴾** الخ معناه واتركوا تسمية الزائغين فيها بتقدير المضاف إذ لا معنى لترك نفس الملحدين.

وقال بعض العلماء: المراد بالأسماء الحسنى الصفات العلى فإن لفظ الاسم قد يطلق على ما يسمونه الذات من صفاتها العظام يقال طار اسمه في الآفاق أي انتشرت صفته ونعته فكأنه قيل ولله الأوصاف.

قال في «التأويلات النجمية»: **﴿ولله الأسماء الحسنى﴾** يشير إلى أن اسم الله له بمثابة اسم العلم للخلق وهو اسم ذاته تبارك وتعالى والباقي من الأسماء هو أسماء الصفات لأنه قال ولله الأسماء الحسنى فأضاف الأسماء إلى اسم الله وأسماؤه كلها مشتقة من صفاته إلا اسم الله فإنه غير مشتق عندنا وعند الأكثرين لأنه اسم الذات فكما أن ذاته تعالى غير مخلوق من شيء كذلك اسمه غير مشتق من شيء فإن الأشياء مخلوقة فأسماء صفاته تعالى بعضها مشتق من الصفات الذاتية فهو غير مخلوق وبعضها مشتق من صفات الفعل فهو مخلوق؛ لأن صفات الذات كالحياة والسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة والإرادة والبقاء قديمة غير مخلوقة، وصفات الفعل مخلوقة تضاف إليه عند الإيجاد فلما أوجد الخلق وأعطاهم الرزق سمي خالقاً ورازقاً إلا أنه تعالى كان في الأزل قادراً على الخالقية والرازقية فقوله، ولله الأسماء الحسنى، أي: الصفات الحسنى. **﴿فادعوه بها﴾** أي: فادعوا الله بكل اسم مشتق من صفة من صفاته بأن تتصفوا وتتخلقوا بتلك الصفة فالاتصاف بها بالأعمال والنيات الصالحة كصفة الخالقية، فإن الاتصاف بها بأن تكون مناكحته للتوالد والتناسل بخلاف الخالق كما قيل لحكيم وهو يواقع زوجته ما تعمل قال: إن تم فإنسان. والاتصاف بصفة الرازقية بأن ينفق ما رزقه الله على المحتاجين ولا يدخر منه شيئاً وعلى هذا فقس البواقي. وأما التخلق بها فبالأحوال وذلك بتصفية مرآة القلب ومراقبته عن التعلق بما سوى الله والتوجه إليه ليتجلى له بتلك الصفات فيتخلق بها وهذا تحقيق قوله: «كنت له سمعاً وبصراً فبي يسمع وبي يبصر» **﴿وذروا الذين

يلحدون في أسمائه﴾ أي: يميلون في صفاته أي لا يتصفون بها وتسميته تعالى باسم لم يسم به نفسه أيضاً من الإلحاد كما يسمونه الفلاسفة بالعلة الأولى والموجب بالذات يعنون به أنه تعالى غير مختار في فعله وخلقه وإيجاده تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ومن وصفه تعالى بوصف أو بصفة لم يرد بها النص فأيضاً إلحاد **﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾** يعني: سيجزون الخذلان ليعملوا بالطبع والهوى ما كانوا يعملون بالإلحاد في الأسماء والصفات انتهى كلام «التأويلات»:

پـــچـــيـــده شـــود بـــپـــاى هـــركـــس عـــمـــلـــش

قال الحافظ:

دهقان سالخورده چه خوش كفت باپسر   اى نور چشم من بجزاز كشته ندروى

﴿وممن خلقنا﴾ اعلم أن الله تعالى كما جعل من قوم موسى أئمة هادين مهديين كما قال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩] جعل من هذه الأمة المرحومة أيضاً كذلك فقال: وممن خلقنا ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ إما باعتبار مضمونه أو تقدير الموصوف وما بعده خبره، أي: وبعض ما خلقنا أو وبعض ممن خلقنا.

﴿أمة﴾ أي: طائفة كثيرة **﴿يهدون﴾** الناس ملتبسين **﴿بالحق﴾** أي: محقين أو يهدونهم بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة. **﴿وبه﴾** أي: وبالحق **﴿يعدلون﴾** أي: يحكمون في الحكومات الجارية فيما بينهم ولا يجورون فيها.

وعنه عليه الصلاة والسلام: «إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى» والمراد لا يخلو الزمان منهم، وفي الحديث: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله».

قال الشيخ الكبير صدر الدين القنوي قدس سره: أكده بالتكرار ولا شك أن لا يذكر الله ذكراً حقيقياً وخصوصاً بهذا الاسم الأعظم الجامع المنعوت بجميع الأسماء إلا الذي يعرف الحق بالمعرفة التامة، وأتم الخلق معرفة بالله في كل عصر خليفة الله وهو كامل ذلك العصر فكأن يقول ﷺ لا تقوم الساعة وفي الأرض إنسان كامل وهو المشار إليه بأنه العمد المعنوي الماسك وإن شئت.

قلت: الممسك لأجله فإذا انتقل انشقت السماء وكورت الشمس وانكدرت النجوم ونشرت الصحف وسيرت الجبال وزلزلت الأرض وجاءت القيامة انتهى كلامه في «الفكوك».

ورووا عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله في الأرض ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم، وله أربعون قلوبهم على قلب موسى، وله سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم، وله خمسة قلوبهم على قلب جبريل، وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل، وله واحد قلبه على قلب إسرافيل، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة وإذا مات من الخمسة، أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة يدفع الله بهم البلاء عن هذه الأمة» والواحد المذكور في هذا الحديث هو القطب وهو الغوث ومكانه ومكانته من الأولياء كالنقطة من الدائرة التي هي مركزها به يقع صلاح العالم.

ورووا عن أبي الدرداء أنه قال: «إن لله عباداً يقال لهم الأبدال لم يبلغوا ما بلغوا بكثرة

الصوم والصلاة والتخشع وحسن الحلية، ولكن بلغوا بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين اصطفاهم الله بعلمه واستخلصهم لنفسه وهم أربعون رجلاً على مثل قلب إبراهيم لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه».

واعلم: أنهم لا يسبون شيئاً ولا يلعنونه ولا يؤذون من تحتهم ولا يحقرونه ولا يحسدون من فوقهم أطيب الناس خبراً وألينهم عريكة وأسخاهم نفساً لا تدركهم الخيل المجراة ولا الرياح العواصف فيما بينهم وبين ربهم إنما قلوبهم تصعد في السقوف العلى ارتياحاً إلى الله تعالى في استباق الخيرات أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون انتهى كلامه في «روض الرياحين» للإمام اليافعي رحمه الله تعالى.

واعلم: أن أهل الحق إنما نالوا ما نالوا بهدايتهم للناس وعدلهم فيما بين الخلق بعد ما كانوا مهديين وعادلين في أنفسهم. وروي عن عبد الله بن المبارك أنه كان يتجر ويقول: لولا خمسة ما اتجرت السفيانان، وفضيل، وابن السماك، وابن علية ليصلهم فقدم سنة فقيل له قد ولي ابن علية القضاء فلم يأته ولم يصله بشيء فأتاه ابن علية فلم يرفع رأسه إليه ثم كتب إليه ابن المبارك:

يا جاعل العلم له بازياً ... يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنوناً بها بعدما ... كنت دواء للمجانين
أين رواياتك في سردها ... لترك أبواب السلاطين
إن قلت أكرهت فذا باطل ... زلّ حمار العلم في الطين

فلما وقف إسماعيل بن علية على الأبيات ذهب إلى الرشيد ولم يزل به إلى أن استعفاه من القضاء فأعفاه، ونعم ما قيل:

أبو حنيفة قضا نكرد وبمرد ... تو بميرى اكر قضا نكنى

وقيل:

اعدل تكن من صروف الدهر ممتنعاً ... فالصرف ممتنع للعدل في عمر

والعدل: من أسماء الله تعالى ومعناه العادل، وهو الذي يصدر منه فعل العدل المضاد للجور والظلم ولن يعرف العادل من لم يعرف عدله ولا يعرف عدله من لم يعرف فعله وحظ العبد من العدل لا يخفى وأول ما عليه من العدل في صفات نفسه هو أن يجعل الشهوة والغضب أسيرين تحت إشارة العقل والدين ومهما جعل العقل خادماً للشهوة والغضب فقد ظلم نفسه هذا جملة عدله في نفسه وتفصيله مراعاة حدود الشرع كله وعدله في كل عضو أن يستعمله على الوجه الذي أذن الشرع فيه. وأما عدله في أهله وذويه، ثم في رعيته إن كان من أهل الولاية فلا يخفى وربما ظن أن الظلم هو الإيذاء والعدل هو إيصال النفع إلى الناس وليس كذلك بل لو فتح الملك خزائنه المشتملة على الأسلحة والكتب وفنون الأموال ولكن فرق الأموال على الأغنياء ووهب الأسلحة للعلماء وسلم إليهم القلاع ووهب الكتب للأجناد وأهل القتال وسلم إليهم المساجد والمدارس فقد نفع ولكنه قد ظلم وعدل عن العدل إذ وضع كل شيء في غير موضعه اللائق به ولو آذى المريض بسقي الأدوية والحجامة والفصد بالإجبار عليه وآذى الجناة بالعقوبة قتلاً وقطعاً وضرباً كان عادلاً لأنه وضعها في موضعها وحظ العبد ديناً من

هذا الوصف أنه لا يعترض على الله تعالى في تدبيره وحكمه وسائر أفعاله وافق مراده أو لم يوافق لأن كل ذلك عدل وهو كما ينبغي وعلى ما ينبغي ولو لم يفعل ما فعله لحصل منه أمر آخر هو أعظم ضرراً مما حصل كما أن المريض لو لم يحتجم أبصر ضرراً يزيد على ألم الحجامة وبهذا يكون الله تعالى عدلاً والإيمان يقطع الإنكار والاعتراض ظاهراً وباطناً. وتمامه أن لا يسب الدهر ولا ينسب الأشياء إلى الفلك ولا يعترض عليه كما جرت به العادة بل يعلم أن كل ذلك أسباب مسخرة وأنها رتبت ووجهت إلى المسببات أحسن ترتيب وتوجيه بأقصى وجوه العدل واللطف كذا في «المقصد الأقصى في شرح معاني أسماء الله الحسنى» للإمام الغزالي عليه رحمة الملك المتعالي.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾.

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ إضافة الآيات إلى نون العظمة لتشريفها واستعظام الإقدام على تكذيبها أي بآياتنا التي هي معيار الحق ومصداق الصدق والعدل. ﴿سنستدرجهم﴾ أي: سنقربهم البتة إلى الهلاك على التدريج وأصل الاستدراج إما الاستصعاد وهو النقل من سفل إلى علو درجة درجة. وإما الاستنزال وهو النقل من علو إلى سفل كذلك والأنسب هو النقل إلى أعلى درجات المهالك ليبلغ أقصى مراتب العقوبة والعذاب. ﴿من حيث لا يعلمون﴾ صفة لمصدر الفعل المذكور، أي: سنستدرجهم استدراجاً كائناً من حيث لا يعلمون أنه كذلك، بل يحسبون أنه إكرام من الله تعالى وتقريب منه أو لا يعلمون ما نريد بهم وذلك أن يتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله بهم فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغي إلى أن تحق عليهم كلمة العذاب على أفظع حال وأشنعها.

مده خودرا فريب ازرنك وبويم كه هست از خندهٔ من كريه آميز

قال الحافظ:

بمهلتى كه سپهرت دهد ز راه مرو تراكه كفت كه اين زال ترك دستان كفت

﴿وأملي لهم﴾ الإملاء: إطالة مدة أحدهم بإبقائه على ما هو عليه وعدم الاستعجال في مؤاخذته.

قال المولى أبو السعود: عطف على سنستدرجهم غير داخل في حكم السين لما أن الإملاء وهو عبارة عن الإمهال والإطالة وليس من الأمور التدريجية كالاستدراج الحاصل في نفسه شيئاً فشيئاً بل هو فعْل يحصل دفعة، وإنما الحاصل بطريق التدريج آثاره وأحكامه لا نفسه كما يلوّح به تغيير التعبير بتوحيد الضمير. ﴿إن كيدي متين﴾ أي: إن أخذي شديد وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

قال سعدي چلبي المفتي: الأولى أن يقول: سماه كيداً لنزوله بهم من حيث لا يشعرون، والكيد: الأخذ بخفية.

وقال الحدادي: الكيد هو الإضرار بالشيء من حيث لا يشعر به.

قال في «الحكم العطائية» خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجاً لك قال الله تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾.

قال سهل رضي الله عنه في معنى هذه الآية: نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا.

وقال أبو العباس بن عطاء: يعني: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة.

وقال الشيخ أبو القاسم القشيري رحمه الله: الاستدراج تواتر المنة بغير خوف الفتنة الاستدراج انتشار الذكر دون خوف المكر، الاستدراج: التمكن من المنية والصرف عن البغية. الاستدراج تعليل برجاء وتأميل بغير وفاء، الاستدراج: ظاهر مضبوط وسر بالأغيار منوط انتهى. ومن وجوه الاستدراج أن يجهل المريد بنفسه ويحق ربه فيسيء الأدب بإظهار دعوى أو تورط في بلوى فتؤخر العقوبة عنه إمهالاً له فيظنه إهمالاً فيقول لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن من قطع المدد عنه من حيث لا يشعر إلا منع المزيد لكان قطعاً لأن من لم يكن في زيادة فهو في نقصان.

وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه يوصي بعض أصحابه ويقول: خف من سطوة العدل وارج رقة الفضل، ولا تأمن مكره ولو أدخلك الجنة وقع لأبيك آدم ما وقع.

فإن قلت: ما الحكمة في إمهال الله العصاة في الدنيا؟.

قلت: ليرى العباد أن العفو والإحسان أحب إليه من الأخذ والانتقام، وليعلموا شفقته وبره وكرمه وأن رحمته سبقت غضبه وإمهاله تعالى من أخلاق كرمه وجوده. وقيل يمهل من يشاء حكمة ليأخذ الظالم أخذ عزيز مقتدر ويعجل عقوبة من يشاء رحمة منه وتخفيفاً بالنسبة إلى عذاب الآخرة.

فعلى العاقل أن يخاف من المكر الإلهي ويرى الفقر والانكسار نعمة وإكراماً فإن الله تعالى يحب الفقراء وهو عند المنكسرة قلوبهم، وحال الدنيا ليس على القرار تسلب كما تهب وتهب كما تسلب. ونعم ما قيل:

زمانه به نيك وبد آبستن است   ستاره كهى دوست وكه دشمن است

﴿أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان كثيراً ما يحذر قريشاً عقوبة الله تعالى ووقائعه النازلة في الأمم الماضية فقام ليلاً على الصفا وجعل يدعوهم إلى عبادة الله تعالى قبيلة قبيلة يا بني فلان يا بني فلان إلى الصباح يحذرهم بأس الله فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا يعني محمداً ﷺ لمجنون بات يهوت إلى الصباح فنزلت. والهمزة للإنكار والتعجب والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر وما إما استفهامية إنكارية في محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم، وأما نافية اسمها جنة وخبرها بصاحبهم والجملة معلقة لفعل التفكر لكونه من أفعال القلوب ومحلها على الوجهين النصب على نزع الجار والجنة بناء نوع من الجنون ودخول من يدل على أنه ليس به نوع من أنواع الجنون. والمعنى: أكذبوا بالآيات ولم يتفكروا في أي شيء من جنون ما كائن بصاحبهم؟ أو في أنه ليس بصاحبهم شيء من جنة حتى يؤديهم التفكر في ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحة نبوته فيؤمنوا به وبما أنزل عليه من الآيات فالتصريح بنفي الجنون للرد على عظيمتهم الشنعاء والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم وارد على شاكلة كلامهم مع ما فيه من الإيذان بأن طول مصاحبتهم له عليه السلام مما يطلعهم على نزاهته عليه السلام عن شائبة الجنة وقد كانوا يسمونه قبل إظهار النبوة

محمداً الأمين ﷺ ﴿إن هو﴾ أي: ما هو عليه السلام. ﴿إلا نذير مبين﴾ أي: مبالغ في الإنذار مظهر له غاية الإظهار إبرازاً لكمال الرأفة ومبالغة في الأعذار.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿أو لم ينظروا﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر أي أكذبوا بها ولم ينظروا نظر تأمل واستدلال ﴿في ملكوت السموات الأرض﴾ فيما تدل عليه السموات والأرض من عظم الملك وكمال القدرة فيعلموا أنه لم يخلقهما عبثاً ولم يترك عباده سدى.

قال بعضهم: ملكوت السموات النجوم والشمس والقمر وملكوت الأرض البحور والجبال والشجر والملكوت الملك العظيم من الملك كالرهبوت من الرهب زيدت التاء للمبالغة يقال له ملكوت العراق، أي: الملك الأعظم متعلق به ﴿وما خلق الله﴾ عطف على ملكوت، أي: وفيما خلق الله ﴿من شيء﴾ بيان لما خلق مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بجلائل المصنوعات دون دقائقها أي من جليل ودقيق مما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها، أي أن كل فرد فرد من الموجودات محل للنظر والاعتبار والاستدلال على الصانع ووحدانيته كما قيل:

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ عطف على ملكوت وأن مخففة من أن واسمها ضمير الشان والخبر قد اقترب أجلهم. والمعنى: أو لم ينظروا في أن الشان عسى أن يكون الشأن قد اقترب أجلهم لعلهم يموتون عن قريب فما لهم لا يسارعون إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مجيء الموت ونزول العذاب.

زان پيش كاجل فرا رسد تنك   وأيام عنان ستاند ازچنك

برمركب فكر خويش نه زين   مردانه در آى درره دين

﴿فبأي حديث﴾ هو في اللغة الجديد، وفي عرف العامة الكلام ﴿بعده﴾ أي: بعد القرآن ﴿يؤمنون﴾ إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في البيان وليس بعده كتاب منزل ولا نبي مرسل وهو قطع لاحتمال إيمانهم ونفي له بالكلية والباء متعلقة بيؤمنون.

﴿من يضلل الله﴾ [هركرا كمراه كرداند خداى تعالى وبقرآن نكرود] ﴿فلا هادي له﴾ [پس هيچ راه نماينده نيست كه اورابراه آرد] ﴿ويذرهم﴾ بالياء والرفع على الاستئناف، أي وهو تعالى يتركهم. ﴿في طغيانهم﴾ في مجاوزتهم الحد في كفرهم. ﴿يعمهون﴾ حال من مفعول يذرهم أي حال كونهم مترددين ومتحيرين في «القاموس» العمه محركة التردد في الضلال والتحير في منازعة أو طريق أو أن لا يعرف الحجة.

وفي الآية حث على التفكر ودلالة على أن العاقل لو تفكر بالعقل السليم من آفات الوهم والخيال والتقليد والهوى في حال النبي ﷺ وأخلاقه وسيره فضلاً عن معجزاته لتحقق عنده أنه النبي الصادق وأن ما يدعوه إليه كله حق وصدق وإنه لينجو بهذا التفكر من النار كما أخبر الله تعالى عن حال أهل النار بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠] وفي قوله تعالى: ﴿أو لم ينظروا﴾ إلخ إشارة إلى أن المكونات على

نوعين نوع منها ما خلق من غير شيء وهو الملكوت الذي هو باطن الكون والكون به قائم وهو قائم بيد القدرة كقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣] ونوع منها ما خلق من شيء وهو الملك الذي هو ظاهر الكون فكما أن النظر إلى الملك بحسن البصر فالنظر إلى الملكوت بالعقل والقلب فنظر أرباب العقول فيه يفيد رؤية الآيات والاستدلال بها على معرفة الخالق وإثبات الصانع ونظر أصحاب القلوب فيه يفيد شهود شواهد الغيب بالولوج ليصير إيمانه إيقاناً بل عياناً كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥] وهذه الإراءة سنة إلّهية قديمة للحق سبحانه يري بها كل من جعله نبياً أو ولياً ناسوت العالم وملكوته وجبروته ولاهوته سواء كان عالماً صغيراً أو عالماً كبيراً ولا تزال تلك السنة باقية إلى يوم القيامة ما دام لم ينقطع السير والسلوك إلى الحق سبحانه فلولاها لنوع الإنسان لكان كسائر الحيوان إلا أن الله الرحمن منّ بها على نوع الإنسان وسار وسلك بها من شاء من أهل عنايته إلى قبل الملك المنان حتى ترقى عن جميع الأكوان ونال الشهود والعيان ووصل إلى الحق المحسان وأتاه كمال الإيقان وتمام الإحسان ثم جاء نبياً أو ولياً لإرشاد الإخوان فقام بالحكمة والبيان وبين الإسلام والإيمان ودعا إلى الله الحليم الحنان وبشر بالجنان وأنذر بالنيران فمن أجاب نال اللطف والإحسان ومن لم يجب خسر خسراناً مبيناً وقال عليه الصلاة والسلام عن عيسى «لن يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين» فالولوج لأصحاب القلوب والمشاهدة والنظر لأرباب العقول والاستدلال كذا في «التأويلات النجمية» مع مزج من كلام شيخنا العلامة أحياه الله بالسلامة [روزى إمام أبي حنيفة رحمه الله در مسجد نشسته بود جماعتى ازد زنادقه در آمدند وقصد هلاك أو كردند إمام كفت يك سؤال را جواب دهيد بعد ازان تيغ ظلم را آب دهيد كفتند مسأله چيست كفت من سفينهٔ ديدم پربار كران بروري دريا روان بى آنكه هيچ ملاحى محافظت ميكرد كفتند اين محالست زيراكه كشتى بى ملاح بريك نسق رفتن محال باشد كفت سبحان الله سير جملهٔ أفلاك وكواكب ونظام عالم علوي وسفلي ازسيريك سفينه عجبترست همه ساكت كشتند واكثر مسلمان شدند] قال الحافظ الشيرازي:

در حشمت سليمان هركس كه شك نمايد بـرعـقـل ودانـش اوخـنـدنـد مـرغ ومـاهـى

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿يسألونك عن الساعة﴾ أي: عن القيامة وهي من الأسماء الغالبة فيها كالنجم في الثريا، وسميت القيامة ساعة لوقوعها بغتة أو لكون الحساب الواقع فيها يتم وينقضي في ساعة يسيرة؛ لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن، أو لأنها على طولها عند الله تعالى كساعة من الساعة عند الخلق وأصلها ساعة قيام الناس من الأجداث فلما غلبت تعينت فاستغنت عن الإضافة. روي أن قوماً من اليهود قالوا يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً فإنا نعلم متى هي وكان ذلك امتحاناً منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها فنزلت **﴿أيان مرساها﴾** أيان ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام محله الرفع على أنه خبر مقدم ومرساها مبتدأ مؤخر أي متى إرساؤها

أي إثباتها وتقريرها فإنه مصدر ميمي من أرساه إذا أثبته وأقره ولا يكاد يستعمل إلا في الشيء الثقيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٣٢] ولما كان أثقل الأشياء على الخلق هو الساعة سمى الله تعالى وقوعها وثبوتها بالإرساء ومحل الجملة النصب بنزع الخافض فإنها بدل من الجار والمجرور لا من المجرور فقط، كأنه قيل: يسألونك عن الساعة عن أيان مرساها **﴿قل إنما علمها﴾** لم يقل إنما علم وقت إرسائها لأن المقصد الأصلي من السؤال نفسها باعتبار حلولها في وقتها المعين لا وقتها باعتبار كونه محلاً لها، ولذلك أضاف العلم المطلوب بالسؤال إلى ضميرها. **﴿عند ربي﴾** خاصة قد استأثر به لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً. **﴿لا يجليها﴾** أي: لا يظهر أمرها من التجلية وهو إظهار الشيء والتجلي ظهوره **﴿لوقتها﴾** أي: في وقتها فاللام للتأقيت كاللام في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] **﴿إلا هو﴾** والمعنى أنه تعالى يخفيها على غيره إخفاء مستمراً إلى وقت وقوعها ولا يظهرها إلا في ذلك الوقت الذي وقعت فيه بغتة بنفس الوقوع لا بالإخبار عنها لكون إخفائها أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كإخفاء الأجل الخاص الذي هو وقت الموت كتم الله تعالى وقت قيام الساعة عن الخلق ليصير المكلف مسارعاً إلى التوبة والطاعة في جميع الأوقات فإنه لو علم وقت قيام الساعة لتقاصر الخلق عنها وأخروها. وكذلك أخفى ليلة القدر ليجتهد المكلف في العبادة في ليالي الشهر كلها وأخفى ساعة الإجابة من يوم الجمعة ليكون المكلف مجداً في الدعاء في جميع ساعاته **﴿ثقلت في السموات والأرض﴾** أي: كبرت وشقت على أهلهما من الملائكة والثقلين كل منهم أهمه خفاؤها وخروجها عن دائرة العقول.

وقيل: عظمت على أهلهما خوفاً من شدائدهما وما فيها من الأهوال ومن جملة أهوالها فناء من في السموات والأرض وهلاكهم وذلك ثقيل على القلوب. **﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾** إلا فجأة على غفلة فتقوم والرجل يسقي ماشيته، والرجل يصلح حوضه، والرجل يقوم سلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه والرجل يهوي لقمة في فمه فما يدرك أن يضعها في فمه. **﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾** أي: عالم بها من حفي عن الشيء إذا بالغ في السؤال عنه، ومن استقصى في تعلم الشيء وبالغ في السؤال عنه لزمه أن يستحكم علمه به ويعلمه بأقصى ما يمكن ويكون ماهراً في العلم، فلذلك كنى بقوله تعالى: **﴿كأنك حفي عنها﴾** عن كونه عليه السلام عالماً بها بأقصى ما يمكن والتعدية بعن مع كونه بمعنى العالم، وهو يتعدى بالباء لكونه متضمناً لمعنى بليغ في السؤال عنها حتى أحكمت علمها والجملة التشبيهية في محل النصب على أنها حال من الكاف أي يسألونك مشبهاً حالك عندهم بحال من هو حفي عنها، أي: مبالغ في العلم بها. **﴿قل إنما علمها عند الله﴾** الفائدة في إعادته رد المعلومات كلها إلى الله تعالى، فيكون التكرار على وجه التأكيد والتمهيد للتعريض بجهلهم بقوله: **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** اختصاص علمها به تعالى فبعضهم ينكرونها رأساً وبعضهم يعلمون أنها واقعة البتة ويزعمون أنك واقف على وقت وقوعها فيسألونك جهلاً وبعضهم يدعون أن العلم بذلك من مواجب الرسالة فيتخذون السؤال عنها ذريعة إلى القدح في رسالتك.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً﴾ أي: جلب نفع ولا دفع ضر فمن لا يعلم أن نفعه في أي الأشياء ومضرته في أيها كيف يعلم وقت قيام الساعة واللام متعلق بأملك.

قال سعدي چلبي المفتي: والظاهر أنه متعلق بنفعاً ولا ضراً ﴿إلا ما شاء الله﴾ أن أملكه من ذلك بأن يلهمنيه فيمكنني منه ويقدرني عليه فالاستثناء متصل أو لكن ما شاء الله من ذلك كائن، فالاستثناء منقطع وهذا أبلغ في إظهار العجز عن علمها. ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ أي: جنس الغيب ﴿لاستكثرت من الخير﴾ أي: لجعلت المال والمنافع كثيراً على أن يكون بناء استفعل للتعدية كما في نحو استذله. ﴿وما مسني السوء﴾ من كيد العدو والفقر والضر وغيرها. ﴿إن أنا إلا نذير وبشير﴾ أي: ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار، والبشارة شأني ما يتعلق بهما من العلوم الدينية والدنيوية لا الوقوف على الغيوب التي لا علاقة بينها وبين الأحكام والشرائع وقد كشفت من أمر الساعة ما يتعلق به الإنذار من مجيئها لا محالة واقترابها، وأما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الإنذار بل هو مما يقدح فيه لما مر من أن إبهامه أدعى إلى الانزجار عن المعاصي. ﴿لقوم يؤمنون﴾ إما متعلق بهما جميعاً لأنهم ينتفعون بالإنذار كما ينتفعون بالبشارة، وإما بالبشير فقط وما يتعلق بالنذير محذوف أي نذير للكافرين أي الباقين على الكفر وبشير لقوم يؤمنون أي في أي وقت كان ففيه ترغيب للكفرة في إحداث الإيمان وتحذير عن الإصرار على الكفر والطغيان.

قال الحدادي في «تفسيره»: في الآية دلالة على بطلان قول من يدعي العلم بمدة الدنيا ويستدل بما روي أن الدنيا سبعة آلاف سنة لأنه لو كان كذلك كان وقت قيام الساعة معلوماً وأما قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار إلى السبابة والوسطى فمعناه تقريب الوقت لا تحديده كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] أي: مبعث النبي عليه السلام من أشراطها انتهى.

يقول الفقير: رواية عمر الدنيا وردت من طرق شتى صحاح لكنها لا تدل على التحديد حقيقة فلا يلزم أن يكون وقت قيام الساعة معلوماً لأحد أياً من كان من ملك أو بشر.

وقد ذهب بعض المشايخ إلى أن النبي ﷺ كان يعرف وقت الساعة بإعلام الله تعالى وهو لا ينافي الحصر في الآية كما لا يخفى.

وفي «صحيح مسلم» عن حذيفة قال: «أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة» وفي الحديث: «إن لله ديكاً جناحاه موشيان بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت جناح له بالمشرق، وجناح له بالمغرب، وقوائمه في الأرض السفلى، ورأسه مثني تحت العرش فإذا كان السحر الأعلى خفق بجناحيه، ثم قال: سبوح قدوس ربنا الله لا إله غيره فعند ذلك تضرب الديكة أجنحتها، وتصيح فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى ضم جناحك وغض صوتك فيعلم أهل السموات والأرض أن الساعة قد اقتربت».

ومن أشراط الساعة: كثرة السبي والتسري وذلك دليل على استعلاء الدين واستيلاء المسلمين الدال على التراجع والانحطاط إذا بلغ الأمر كماله، ومنها كون الغنم دولاً يعني إذا كان الأغنياء وأصحاب المناصب يتداولون بأموال الغنيمة ويمنعون عنها مستحقيها وكون الزكاة مغرماً يعني يشق عليهم أداء الزكاة ويعدونها غرامة وكون الأمانة مغنماً، يعني: إذا اتخذ الناس الأمانات الموضوعة عندهم مغانم يغتنمونها ومن الأمانة الفتوى والقضاء والأمارة والوزارة وغيرها فإذا آتوها إلى غير أهاليها كما ترى في زماننا فانتظر الساعة.

وفي رواية عن أبي هريرة «لا تقوم الساعة حتى يكون الزهد رواية والورع تصنعاً ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق».

فإن قيل: قد ورد في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة».

قيل: معناه إلى قريب قيام الساعة لأن قريب الشيء في حكمه.

واعلم: أن القيامة ثلاث حشر الأجساد والسوق إلى المحشر للجزاء وهي القيامة الكبرى وموت جميع الخلائق وهي الوسطى ولا يعلم وقته يقيناً إلا الله تعالى وإنما يعلم بالعلامات المنقولة عن الرسول ﷺ كما ذكرنا بعضاً منها وموت كل أحد وهي الصغرى، وفي الحديث: «من مات فقد قامت قيامته» وروي أن النبي ﷺ ذكر يوماً أحوال جهنم، فقال واحد من الأصحاب رضي الله عنه: ادع لي يا رسول الله أن أدخل فيها فتعجبوا من قوله، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه يريد أن يكون صاحب القيامة الكبرى» قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره نحن لا نعرف حقيقة مراده عليه السلام إلا أنا نوجهه بأن يريد أن يشاهد القيامة الكبرى بأن يصل إلى مرتبة يتجلى فيها معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فإن السالك إذا جاوز عن مرتبة الطبيعة والنفس والروح والسر يغيب عنه ما سوى الله تعالى فلا يرى له غير الله تعالى فاضمحلال ما سواه وفناؤه هو القيامة الكبرى وهذه مرتبة عظمى لا يصل إليها إلا أهل العناية. قال الحافظ:

عنقا شكاركس نشوددام بازچين — كانجا هميشه باد بدستست دام را

فعلى العاقل الاجتهاد وبذل المجهود ليترقى إلى ما ترقى إليه أهل الخير والجود.

بال بكشا وصفير ازشجر طوبى زن — حيف باشدچو تومرغى كه اسير قفسى

كاروان رفت وتودرراه كمين كاه بخواب — وه كه بس بيخبرى زين همه بانك جرسى

ونعم ما قيل:

عاشق شورانه روزى كارجهان سرآيد — تاخوانده نقش مقصوداز كاركاه هستى

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى ويداوي هذه القلوب المرضى وهو المعين على كل حال وفي كل حين.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾.

﴿هو﴾ أي: الله تعالى. ﴿الذي﴾ أي: العظيم الشأن الذي ﴿خلقكم﴾ جميعاً وحده من غير أن يكون لغيره مدخل في ذلك بوجه من الوجوه ﴿من نفس واحدة﴾ هو آدم عليه السلام فكما أن النفوس خلقت من نفس واحدة هي نفس آدم فكذا الأرواح خلقت من روح واحد هو روح محمد ﷺ فكان هو أبا الأرواح كما كان آدم أبا البشر لقوله عليه السلام: «إنما أنا لكم كالوالد لولده» وقوله: «أول ما خلق الله روحي» فإن أول كل نوع هو المنشأ منه ذلك النوع من الحيوان والنبات.

كـــر بـــصـــورت مـــن زآدم زاده ام مـــن بـمـعـنـى جد جد افـتـاده ام

﴿وجعل﴾ أنشأ ﴿منها﴾ أي: من جنس تلك النفس الواحدة. ﴿زوجها﴾ حواء أو من جسدها لما يروى أن الله تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه الصلاة والسلام والأول هو الأنسب إذ الجنسية هي المؤدية إلى الغاية الآتية لا الجزئية. ﴿ليسكن﴾ تلك النفس والتذكير باعتبار المعنى يعني: آدم ﴿إليها﴾ أي: إلى الزوج وهي حواء أي ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئناناً مصححاً للازدواج. ﴿فلما تغشاها﴾ لم يقل تغشتها باعتبار آدم أيضاً. والتغشي والتغشية التغطية بالفارسي [چيزى بركسى پوشانيدن] كنى به عن الجماع لأن الرجل يغطي المرأة ويسترها حال الوقاع لاستعلائه عليها ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ في مبادي الأمر فإنه عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب فانتصاب حملاً على المصدرية أو حملت محمولاً خفيفاً وهو ما في البطن من النطفة ونفس الجنين فانتصابه على المفعول به كقوله حملت زيداً وهو الظاهر والمشهور أن الحمل بالفتح ما كان في البطن أو على رأس الشجر وبالكسر ما كان على ظهر إنسان أو على الدابة. ﴿فمرت به﴾ أي: فاستمرت به كما كان قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت ولم تكترث بحملها فمرت من المرور بمعنى الذهاب والمضي لا من المرّ بمعنى الاجتياز والوصول يقال مرّ عليه وبه يمر مراً أي اجتاز ومر يمر مراً ومروراً، أي: ذهب واستمر مثله والسين فيه للطلب التقديري كما في استخرجته ﴿فلما أثقلت﴾ أي: صارت ذا ثقل بكبر الولد في بطنها ﴿دعوا الله﴾ أي: آدم وحواء عليهما السلام لما دهمهما أمر لم يعهداه ولم يعرفا مآله فاهتماماً به وتضرعا إليه تعالى ﴿ربهما﴾ أي: مالك أمرهما الحقيق بأن يخص به الدعاء ومتعلق الدعاء محذوف أي دعواه تعالى في أن يؤتيهما ولداً صالحاً ووعداً بمقابلته الشكر وقالا ﴿لئن آتيتنا صالحاً﴾ أي: ولداً سويّ الأعضاء أو صالحاً في أمر الدين. ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ لك على هذه النعمة المجددة ووجه دعائهما بذلك أن آدم رأى حين أخذ الميثاق على ذريته أن منهم سويّ الأعضاء وغير السويّ وأن منهم التقي وغير التقي فسألا أن يكون هذا الولد سويّ الأعضاء أو تقياً نقياً عن المعصية فلما أعطاهما صالحاً شكرا لأنهما ليسا بحيث يعدان من أنفسهما بذلك ثم لا يفعلان ذلك يقال إن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى ويقال ولدت لآدم في خمسمائة بطن ألف ولد.

ثم شرع في توبيخ المسلمين بقوله:

﴿فلما آتاهما صالحاً﴾ أي: فلما أعطى أولادهما المشركين البالغين مبلغ الوالد ولداً صالحاً سويّ الأعضاء ﴿جعلا﴾ أي: جعل هذان الأبوان ﴿له﴾ أي: لله تعالى ﴿شركاء فيما آتاهما﴾ بأن سميا أولادهما بعبد العزى وعبد مناف ونحو ذلك وسجدا للأصنام شكراً على هذه النعمة والأظهر تقرير أبي السعود حيث قال في «تفسيره»: ﴿فلما آتاهما صالحاً﴾ أي: لما آتاهما ما طلباه أصالة واستتباعاً من الولد وولد الولد ما تناسلوا جعلا أي جعل أولادهما له تعالى: ﴿شركاء فيما آتاهما﴾ أي: فيما أتى أولادهما من الأولاد ففي الكلام حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وإلا لزم نسبتهما أي آدم وحواء إلى الشرك وهما بريئان منه بالاتفاق ويدل على الحذف المذكور صيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿فتعالى الله﴾ [پس بزركست خداى تعالى وپاك] ﴿عما يشركون﴾ أي: عن إشراكهم وهو تسميتهم المذكورة ولو كان المراد بالآية آدم وحواء لقال عما يشركان.

﴿أيشركون﴾ به تعالى ﴿ما لا يخلق شيئاً﴾ أي: لا يقدر على أن يخلق شيئاً من الأشياء أصلاً ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعابده. ﴿وهم يخلقون﴾ عطف على ما لا يخلق يعني الأصنام وإيراد الضميرين بجمع العقلاء مبني على اعتقاد الكفار فيها ما يعتقدونه في العقلاء وكانوا يصورونها على صورة من يعقل ووصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفي الخالقية لإبانة كمال منافاة حالها لما اعتقدوه في حقها.

﴿ولا يستطيعون لهم﴾ أي: لعبدتهم إذا حزبهم أمر مهم ﴿نصراً﴾ أي: نصر إما بجلب منفعة أو دفع مضرة ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث كما إذا أراد أحد أن يكسرها أو يلطخها بالألوات والأرواث.

قال الحدادي: وكانوا يلطخون أفواه الأصنام بالخلوف والعسل وكان الذباب يجتمع عليها فلا تقدر على دفع الذباب عن أنفسها.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿وإن تدعوهم﴾ أيها المشركون ﴿إلى الهدى﴾ إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم ﴿لا يتبعوكم﴾ إلى مرادكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله ﴿سواء عليكم﴾ أيها المشركون ﴿أدعوتموهم﴾ أي: الأصنام ﴿أم أنتم صامتون﴾ ساكتون أي مستوي عليكم في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم، فإنه لا يتغير حالكم في الحالين كما لا يتغير حالهم بحكم الجمادية ولم يقل أم صمتم لرعاية رؤوس الآي.

﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ أي: تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة. ﴿عباد أمثالكم﴾ أي: مماثلة لكم من حيث إنها مملوكة لله تعالى مسخرة لأمره عاجزة عن النفع والضر.

وقال الحدادي: سماها عباداً لأنهم صوروها على صورة الإنسان. ﴿فادعوهم﴾ في جلب نفع وكشف ضر. ﴿فليستجيبوا لكم﴾ صيغته صيغة الأمر ومعناه التعجيز ﴿إن كنتم صادقين﴾ في زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه.

﴿ألهم﴾ أي: للأصنام ﴿أرجل يمشون بها﴾ حتى يمكن استجابتهم لكم والاستجابة من الهياكل الجسمانية إنما تتصور إذا كان لها محرك حياة وقوى محركة ومدركة وما ليس له شيء من ذلك فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة ووصف الأرجل بالمشي بها للإيذان بأن مدار الإنكار هو الوصف. ﴿أم لهم أيد يبطشون بها﴾ أم منقطعة مقدرة ببل والهمزة والبطش الأخذ بقوة. والمعنى بل ألهم أيد يأخذون بها ما يريدون أخذه وبل للإضراب المفيد للانتقال من فن من التبكيت بعد تمامه إلى فن آخر منه ﴿أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ قدم المشي لأنه حالهم في أنفسهم والبطش حالهم بالنسبة إلى الغير. وأما تقديمه على قوله: ﴿أم لهم أعين﴾ الخ مع أن الكل سواء في أنها من أحوالهم بالنسبة إلى الغير فلمراعاة المقابلة بين الأيدي والأرجل. وأما تقديم الأعين فلما أنها أشهر من الآذان وأظهر عيناً وأثراً ثم إن الكفار

كانوا يخوفونه عليه السلام بآلهتهم قائلين نخاف أن يصيبكم بعض آلهتنا بسوء فقال الله تعالى: ﴿قل ادعوا﴾ أيها المشركون ﴿شركاءكم﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثم كيدون﴾ فبالغوا فيما تقدرون عليه من مكر، وهي أنتم وشركاؤكم فالخطاب في كيدون للأصنام وعبدتها ﴿فلا تنظرون﴾ فلا تمهلون ساعة فإني لا أبالي بكم لوثوقي على ولاية الله وحفظه.

اكر هر دو جهانم خصم كردند نترسم چون نكهبا نم تو باشى

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب﴾ تعليل لعدم المبالاة المنفهم من السوق انفهاماً جلياً قوله: ﴿وليي﴾ بثلاث ياءات. الأولى ياء فعيل وهي ساكنة. والثانية لام الفعل وهي مكسورة أدغمت فيها الياء الأولى. والثالثة ياء الإضافة وهي مفتوحة. والولي هنا بمعنى الناصر والحافظ أضيف إلى ياء المتكلم. والمعنى أن الذي يتولى نصرتي وحفظي هو الذي أكرمني بتنزيل القرآن وإيحائه إليّ وإيحاء الكتاب إليه يستلزم رسالته لا محالة ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ أي: ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده وينصرهم لا يخذلهم فضلاً عن أنبيائه ﴿والذين تدعون﴾ يا عبدة الأصنام ﴿من دونه﴾ أي: متجاوزين الله تعالى ودعاءه ومضمون هذه الآية ذكر أوّلاً لتقريع عبدة الأصنام وذكر ههنا إتماماً لتعليل عدم مبالاته بهم فلا تكرار ﴿لا يستطيعون نصركم﴾ في أمر من الأمور ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ إذا نابتهم نائبة.

﴿وإن تدعوهم﴾ أي: الأصنام ﴿إلى الهدى﴾ إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم من الكيد وغيره ﴿لا يسمعوا﴾ أي: دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإمداد وهذا بخلاف التوجه إلى روحانية الأنبياء والأولياء وإن كانوا مخلوقين فإن الاستمداد منهم والتوسل بهم والانتساب إليهم من حيث إنهم مظاهر الحق ومجالي أنواره ومرائي كمالاته وشفعاؤه في الأمور الظاهرة والباطنة له غايات جليلة وليس ذلك بشرك أصلاً بل هو عين التوحيد ومطالعة الأنوار من مطالعها ومكاشفة الأسرار من مصاحفها. قال الصائب:

مشو بمرك زامداد اهل دل نوميد كه خواب مردم آكاه عين بيداريست

﴿وتراهم﴾ الرؤية بصرية والخطاب لكل واحد من المشركين، أي: وترى الأصنام أيها الرائي رأي العين. ﴿ينظرون إليك﴾ حال من المفعول أي يشبهون الناظرين إليك ويخيل إليك أنهم يبصرونك لما أنهم صنعوا لها أعيناً مركبة بالجواهر المضيئة المتلالئة وصوروها تصوير من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه. ﴿وهم لا يبصرون﴾ حال من فاعل ينظرون، أي: والحال أنهم غير قادرين على الأبصار وهو بيان عجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع وقيل ضمير الفاعل في تراهم لرسول الله ﷺ، وضمير المفعول للمشركين على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى: ﴿لا يسمعوا﴾ أي: وترى المشركين يا محمد ينظرون إليك بأعينهم وهم لا يبصرونك ببصائرهم أي كما أنت عليه فهم غائبون عنك في الحقيقة إلا أن يقروا بالتوحيد وصدق الرسالة. ذكر أن السطر الأول من خاتم سليمان عليه الصلاة والسلام كان بسم الله الرحمن الرحيم. والسطر الثاني: لا إله إلا الله. والسطر الثالث محمد رسول الله فلما أدخله

جبريل في أصبعه لم يقدر أصحابه أن يروه فتضرعوا فقال قولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله فلما قالوه رأوه. وسره أنه أحاطه المهابة فلما اشتغلوا بالتوحيد حصل لهم الاستعداد والقدرة. وحكي أن السلطان محمود الغازي دخل على الشيخ الرباني أبي الحسن الخرقاني قدس سره لزيارته وجلس ساعة ثم قال يا شيخ ما تقول في حق أبي يزيد البسطامي فقال الشيخ هو رجل من رآه اهتدى واتصل بسعادة لا تخفى فقال محمود وكيف ذلك وأبو جهل رأى رسول الله ﷺ ولم يتصل بالسعادة ولم يتخلص من الشقاوة، فقال الشيخ في جوابه إن أبا جهل ما رأى رسول الله ﷺ وإنما رأى محمد بن عبد الله يتيم أبي طالب حتى لو كان رأى رسول الله ﷺ لخرج من الشقاوة ودخل في السعادة ثم قال الشيخ ومصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ فالنظر بعين الرأس لا يوجب هذه السعادة بل النظر بعين السر والقلب يورث ذلك فمن رأى أبا يزيد بهذه العين فاز بالسعادة.

براى ديدن روى تو چشم ديكرم باشد ... كه اين چشم كه من دارم جمالت را نمى شايد

وفي الحديث: «طوبى لمن رآني، ولمن رأى من رآني، ولمن رأى من رأى من رآني، ولمن رأى من رأى من رأى من رآني» كما في «الرسالة العلية» للكاشفي. وفي «المثنوي»:

كفت طوبى من رآني مصطفى ... والذي يبصر لمن وجهي رأى
چون چراغى نور شمعى راكشيد ... هركه ديد آنرا يقين آن شمع ديد
همچنين تاصد چراغ ازنقل شد ... ديدن آخر لقاى اصل شد
خواه نور از واپسين بستان بجان ... هيچ فرقى نيست خواه ازشمع دان

وظهر من هنا أن رؤية الأولياء أيضاً إنما تفيد إذا كانت بالبصيرة ثم إن الرؤية تتناول ما في اليقظة وما في المنام قال بعضهم في قوله عليه السلام: «من رآني فقد رأى الحق» من رآني مطلقاً أي: سواء كانت الرؤية في اليقظة أو في المنام فقد رأى الرسول الحق.

وقال بعضهم من رآني في المنام فقد رأى الرؤيا الصادقة لا الرؤيا التي يلعب بها الشيطان.

قال الشيخ الأكمل في «شرح المشارق»: المنام الحق هو الذي يريه الملك الموكل على الرؤيا فإن الله تعالى قد وكل بالرؤيا ملكاً يضرب من الحكمة والأمثال، وقد اطلعه الله سبحانه على قصص ولد آدم من اللوح المحفوظ فهو ينسخ منها ويضرب لكل قصة مثلاً، فإذا نام يمثل له تلك الأشياء على طريق الحكمة لتكون بشارة له أو نذارة أو معاتبة ليكونوا على بصيرة من أمرهم كذا قيل انتهى.

واعلم: أن جميع الأنبياء معصومون من أن يظهر شيطان بصورهم في النوم واليقظة لئلا يشتبه الحق بالباطل.

يقول الفقير: أصلحه الله القدير سمعت من حضرة شيخي المتفرد في زمانه بعلمه وعرفانه أن الشيطان لا يتمثل أيضاً بصور الكمل من الأولياء الكرام كقطب الوجود في كل عصر فإنه مظهر تام للهدى سار في سره سر النبي المصطفى ﷺ تسليماً كثيراً.

فعلى العاقل أن يترك القيل والقال ويدع الاعتراض بالمقال والحال ويستسلم لأمر الله الملك المتعال إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويتخلص من مكر الشيطان البعيد عن ساحة العز والإجلال ويكون هادياً بعد كونه مهدياً إن كان ذلك أمراً مقضياً اللهم اهدنا إلى رؤية الحق

وأرنا الأشياء كما هي وخلصنا من الإشغال بالمناهي والملاهي إنك أنت الجواد لكل صنف من العباد منك المبدأ وإليك المعاد.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿خذ العفو﴾. روي أنه ﷺ سأل جبريل «ما الأخذ بالعفو» فقال: لا أدري حتى أسأل؟ ثم رجع فقال يا محمد إن ربك أمرك أن تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وأن تحسن إلى من أساء إليك».

هـركـه زهـرت دهـد بـدوده قـنـد وآنـكـه ازتـو بـرد بـدوپـيـونـد

والعفو من أخلاقه تعالى.

قال سعيد بن هشام: دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق النبي عليه السلام قالت أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قالت كان خلق رسول الله القرآن وإنما أدبه بالقرآن بمثل قوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وبقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] وبقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣] وغير ذلك من الآيات الدالة على مكارم أخلاقه ﴿وأمر بالعرف﴾ بالجميل المستحسن من الأفعال لأنها قريبة من قبول الناس من غير نكير.

قال في «التيسير»: قالوا في العرف: تقوى الله صلة الأرحام وصون اللسان عن الكذب ونحوه وغض البصر عن المحارم وكف الجوارح عن المآثم. ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عنهم واغضض عما يسوؤك منهم، وذلك لأنه ربما أقدم بعض الجاهلين عند الترغيب والترهيب على السفاهة والأذى والضحك والاستهزاء، فلهذا السبب أمر الله تعالى حبيبه في آخر الآية بتحمل الأذى والحلم عمن جفا فظهر بهذا أن الآية مشتملة على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الناس معه ولم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح كذا في «الكواشي». روى أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «كيف يا رب والغضب» فنزل قوله تعالى:

﴿وإما﴾ كلمتان إن التي هي للشرط وما التي هي صلة زائدة ﴿ينزغنك﴾ النزغ والنخس الغرز يقال نزغه طعن فيه ونزغ بينهم أفسد وأغرى ووسوس ونخس الدابة غرز مؤخرها أو جنبها بعود ونحوه ﴿من الشيطان نزغ﴾ أي: نازغ كرجل عدل بمعنى عادل وشبهت وسوسته للناس وإغراؤه لهم على المعاصي بغرز السائق لما يسوقه. والمعنى وإما يحملنك من جهته وسوسة ما على خلاف ما أمرت به من اعتراء غضب أو نحوه ﴿فاستعذ بالله﴾ فالتجيء إليه تعالى من شره واعتصم ﴿إنه﴾ تعالى ﴿سميع﴾ يسمع استعاذتك به قولاً ﴿عليم﴾ يعلم تضرعك إليه قلباً في ضمن القول أو بدونه فيعصمك من شره.

قال في «البحر»: وختم بهاتين الصفتين؛ لأن الاستعاذة التي تكون باللسان لا تجدي إلا باستحضار معناها. فالمعنى سميع للأقوال عليم بما في الضمائر واختلفوا هل المراد الشيطان أو

القرين فقط والظاهر أنه في حقنا القرين قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦] وفي حق رسول الله ﷺ إبليس إما نحن فلأن الإنسان لا يؤذيه من الشياطين إلا ما قرن به وما بعده فلا يضر شيئاً والعاقل لا يستعيذ ممن لا يؤذيه وأما الرسول ﷺ فإن قرينه قد أسلم فلا يستعيذ منه فالاستعاذة حينئذٍ من غيره وغيره يتعين أن يكون إبليس أو أكابر جنوده لأنه قد ورد في الحديث: «إن عرش إبليس على البحر الأخضر وجنوده حوله وأقربهم إليه أشدهم بأساً ويسأل كلاً منهم عن عمله وإغوائه ولا يمشي هو إلا في الأمور العظام» والظاهر أن أمر رسول الله ﷺ من أهم المهمات عنده فلا يؤثر به غيره من ذريته كما ورد «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة» والدعوة قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥] وإنما لم يشده ولم يأخذه لأن التسخير التام مختص بسليمان عليه السلام.

فإن قلت: لم لم يمنع إبليس عن النبي ﷺ كما منع به عن السماء الشياطين.

قلت: إن الله تعالى جعل أكثر الأشياء كذلك يمنع بها ولا يمنع عنها ألا ترى أن الليل يمنع النهار والنهار يمنع الليل ولا يمنع عنهما النور والظلمة وكذلك إحياء الموتى لعيسى عليه السلام ولم يمنع عنه الموت وأيضاً لما منع الشياطين عن السماء ظنوا أنهم لا يقدرون على محمد ﷺ فسلطهم عليه ثم عصمه منهم ليعلموا أنه ليس بأيديهم شيء.

وقال النيسابوري: أراد أن يظهر لخلقه أن غيره مقهور غير معصوم ولا قاهر إلا الله تعالى.

وعن بعض العلماء أن الخطاب في قوله: «وإما ينزغنك» وإن كان للنبي عليه السلام إلا أن المراد أمته وتشريع الاستعاذة لهم.

يقول الفقير حفظه الله القدير: يعضده ما قال بعض الأولياء من أمته وهو أبو سليمان الداراني قدس سره ما خلق الله خلقاً أهون علي من إبليس لولا أن الله أمرني أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبداً، وما قال البعض الآخر حين قيل له: كيف مجاهدتك للشيطان؟ وما الشيطان نحن قوم صرفنا هممنا إلى الله فكفانا من دونه فإذا كان هذا حال الولي فما ظنك بحال النبي ويدل عليه أيضاً كلمة إن الدالة على عد الجزم.

واعلم: أن الغضب لغير الله من نزغات الشيطان وإنه بالاستعاذة يسكن. روي أنه ﷺ رأى رجلاً يخاصم أخاه قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه من الغضب فقال عليه السلام: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان لذهب عنه ما يجده» وفي الحديث: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ» وفي «المثنوي»:

چون زخشم آتش تودر دلها زدى — مايهٔ نار جهنم آمدى
آتشت اينجاچه آدم سوز بود — آنچه ازوى زاد مرد افروز بود
آتش توقصد مردم ميكند — نار كزوى زاد برمردم زند
اين سخنهاى چومار وكژدست — مار وكژدم كشت وميكردد دمت

خشم تو تخم سعير ودوزخست هين بكش اين دوزخت راكين فخست

وفي الحديث: «لما أراد الله أن يخلق لإبليس نسلاً وزوجة ألقى عليه الغضب فطارت منه شظية من نار فخلق منها امرأته» كذا في «حياة الحيوان».

والإشارة ﴿خذ العفو﴾ أي: تخلق بخلق الله فإن العفو من أخلاقه تبارك وتعالى: ﴿وأمر بالعرف﴾ أي: بالمعروف وهو طلب الحق تعالى لأنه معروف العارفين. ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ يعني عن كل ما يدعوك إلى غير الله وعمن يطلب ما سوى الله فإن الجاهل هو الذي لا يعرف الله ولا يطلبه والعالم من يطلبه ويعرفه. ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ في طلب غير الله ﴿فاستعذ بالله﴾ من غير الله بأن تفر إلى الله وتترك ما سواه. ﴿إنه سميع﴾ يسمع القول والإجابة لما تدعوه إليه ﴿عليم﴾ بما ينفعك ويضرك فيسمع ما ينفعك دون ما يضرك كذا في «التأويلات النجمية». ﴿إن الذين اتقوا﴾ أي: اتصفوا بوقاية أنفسهم ما يضرها. ﴿إذا مسهم طائف من الشيطان﴾ أدنى لمة منه وهي الوسوسة والمس، والطائف اسم فاعل من طاف يطوف إذا دار حول الشيء كأنها تطوف بهم وتدور حولهم لتوقع بهم أو من طاف به الخيال يطيف طيفاً، أي ألمّ فالطائف بمعنى الجائي والنازل. وفي «الصحاح»: طيف الخيال مجيئه في النوم وطيف من الشيطان وطائف منه لمم منه والخيال في الأصل اسم بمعنى التخيل وارتسام الصورة في محل القوة المتخيلة ويطلق على نفس تلك الصورة وطيفه نزوله في محل المتخيلة. ﴿تذكروا﴾ أي: ما أمر به ونهى عنه.

وقال المولى أبو السعود: أي: الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه. ﴿فإذا هم﴾ بسبب ذلك التذكر ﴿مبصرون﴾ مواقع الخطأ ومكائد الشيطان فيتحرزون عنها ولا يتبعونه فيها.

﴿وإخوانهم﴾ أي: إخوان الشياطين وهم المنهمكون في الغي المعرضون عن وقاية أنفسهم عن المضار فضمير إخوانهم للشيطان والجمع لكون المراد به الجنس. ﴿يمدونهم في الغي﴾ أي: يكون الشياطين مدداً لهم فيه ويعضدونهم بالتزيين والحمل عليه والغي الضلال. ﴿ثم لا يقصرون﴾ أي: لا يمسكون عن الإغواء حتى يردونهم بالكلية يقال أقصر عن الشيء إذا كف عنه وانتهى.

فعلى العاقل مباعدة أهل الطغيان ومجانبة وسوسة الشيطان. حكي أن بعض الأولياء سأل الله تعالى أن يريه كيف يأتي الشيطان ويوسوس فأراه الحق تعالى هيكل الإنسان في صورة بلور وبين كتفيه خال أسود كالعش والوكر فجاء الخناس يتحسس من جميع جوانبه وهو في صورة خنزير له خرطوم كخرطوم الفيل فجاء من بين الكتفين فأدخل خرطومه قبل قلبه فوسوس إليه فذكر الله تعالى فخنس وراءه ولذلك سمي بالخناس لأنه ينكص على عقبيه مهما حصل نور الذكر في القلب ولهذا السر الإلهي احتجم ﷺ بين كتفيه وأمر بذلك ووصاه جبريل بذلك لتضعيف مادة الشيطان وتضييق مرصده لأنه يجري وسوسته مجرى الدم ولذلك كان خاتم النبوة بين كتفيه عليه السلام إشارة إلى عصمته عليه السلام من وسوسته لقوله عليه السلام: «أعانني الله عليه فأسلم» أي بالختم الإلهي أيده به وخصه وشرفه وفضله بالعصمة الكلية فأسلم قرينه وما أسلم قرين آدم فوسوس إليه لذلك.

واعلم: أن أصل الخواطر اثنان ما يكون بإلقاء الملك وما يكون بإلقاء الشيطان والفرق أن كل ما يكون سبباً للخير بحيث يكون مأمون الغائلة أي الآفة في العاقبة ولا يكون سريع الانتقال إلى

غيره ويحصل بعده توجه تام إلى الحق ولذة عظيمة مرغبة في العبادة فهو ملكي وبالعكس شيطاني.

قال بعضهم قد يلبس الشيطان ويري الباطل في صورة الحق فأجمع المشايخ على أن ما كان قوته من الحرام لا يفرق بين الخواطر الملكية والشيطانية بل منهم من قال من كان قوته غير معلوم لا يفرق بينهما. وفي «المثنوي»:

طفل جان ازشير شيطان بازكن — بعد ازانش باملك انباز كن
تاتو تارك وملول وتيرهٔ — دانكه باديو لعين همشيرهٔ
لقمهٔ كان نور افزود وكمال — آن بود آورده از كسب حلال
چون زلقمه توحسد بينى ودام — جهل وغفلت زايد آنرادان حرام
زايد ازلقمه حلال اندر دهان — ميل خدمت عزم رفتن آن جهان

قال حضرة شيخنا الفريد أمده الله بالمزيد في كتاب «اللائحات البرقيات»: الملك الموكل بأمر الله على قلوب أهل الحق يلقي إليهم الحق دائماً فإذا مسهم طائف من الشيطان فيذكرهم بذلك الطائف الشيطاني فهم يتذكرون ويبصرون ويمحون والشيطان المتسلط بخذلان الله على صدور أهل الباطل يلقي إليهم الباطل دائماً فإذا مسهم طائف من الرحمن فينسيهم ذلك فهم لا يتذكرون ولا يبصرون ولا يمحون فالشأن الرحماني دائماً إراءة الحق حقاً والباطل باطلاً والشأن الشيطاني إراءة الحق باطلاً والباطل حقاً وهذا هو السر والحكمة في كون عباد الرحمن هادين ومهديين وعباد الشيطان ضالين ومضلين لأن الإراءة الأولى هي الهداية بعينها والثانية هي الإضلال بعينه والإضلال لا بد من أنه يستلزم الضلال كما أن الهداية لا بد من أنها تستلزم الاهتداء انتهى كلامه.

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿**إن الذين اتقوا**﴾ هم أرباب القلوب والتقوى من شأن القلب كما قال عليه الصلاة والسلام: «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره والتقوى نور يبصرون به الحق حقاً والباطل باطلاً فلذا قال: ﴿**إذا مسهم طائف من الشيطان**﴾ أي: إذا طاف حول القلب التقي النقي نوع طيف من عمل الشيطان يراه القلب بنور التقوى ويعرفه فيتذكر أنه يفسده ويكدر صفاءه ويقسيه فيجتنبه ويحترز منه فذلك قوله: ﴿**تذكروا فإذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم في الغي**﴾ يعني النفوس إخوان القلب فإن النفس والقلب توأمان ولدا من ازدواج الروح والقالب فالقلب يمد النفس في الطاعة ولولا ذلك ما صدر من القلب معصية لأنه جبل على الاطمئنان بذكر الله وطاعته. ﴿**ثم لا يقصرون**﴾ لا يسأم كل واحد منهما من فعله ولا يدع ما جبل عليه لئلا يأمن أرباب القلوب من كيد النفوس أبداً ولا يقنط أرباب النفوس المسرفين على أنفسهم من رحمة الله من إصلاح أحوال قلوبهم.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

﴿**وإذا لم تأتهم**﴾ أي: أهل مكة. ﴿**بآية**﴾ من القرآن عند تراخي الوحي أو بآية مما اقترحوه، كقولهم أحي لنا فلاناً الميت يكلمنا ويصدقك فيما تدعونا إليه ونحو ذلك. ﴿**قالوا لولا اجتبيتها**﴾ اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه، أي: جمعه. فالمعنى هلاّ جمعتها من تلقاء

نفسك تقوّلاً كسائر ما تقرأه من القرآن فإنهم يقولون كله إفك أو هلا ميزتها واصطفيتها عن سائر مهماتك وطلبتها من الله تعالى فيكون الاجتباء بمعنى الاصطفاء. ﴿قل﴾ رداً عليهم. ﴿إنما أتبع﴾ أي: ما أفعل إلا اتباع ﴿ما يوحى إليّ من ربي﴾ لست بمختلق للآيات ولست بمقترح لها ﴿هذا﴾ القرآن ﴿بصائر من ربكم﴾ بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق وتدرك الصواب أخبر عن المفرد بالجمع لاشتماله على سور وآيات. ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ ؛ إذ هم المقتبسون من أنواره والمغتنمون من آثاره والجملة من تمام القول المأمور به.

وفي الآية: إشارة إلى أنه كما أن النبي يتبع الوحي الإلهي كذلك الولي يتبع الإلهام الرباني فلا قدرة على تزكية النفوس إلا بالوحي والإلهام وأيضاً لو لم يتبع الهدى لكان أهل هوى غير صالح للإرشاد وخائناً والخائن لا يكون أميناً على أسرار النبوة والولاية.

وعن بعض أهل العلم قال: كنت بالمصطبة وإذا برجلين يتكلمان في الخلوة مع الله تعالى فلما أرادا أن ينصرفا قال أحدهما للآخر تعال نجعل لهذا العلم ثمرة ولا يكون حجة علينا فقال له اعزم على ما شئت فقال عزمت على أن لا آكل ما للمخلوق فيه صنع قال فتبعتهما فقلت أنا معكما فقالا على الشرط قلت على أي شرط شرطتما فصعدا جبل لكام ودلاني على كهف وقالا تعبد فيه فدخلت فيه وجعل كل واحد منهما يأتيني بما قسم الله تعالى وبقيت مدة ثم قلت إلى متى أقيم ههنا أسير إلى طرطوس وآكل من الحلال وأعلم الناس العلم وأقرأ القرآن فخرجت ودخلت طرسوس وأقمت بها سنة وإذا أنا برجل منهما قد وقف عليّ وقال يا فلان خنت في عهدك ونقضت الميثاق أما إنك لو صبرت كما صبرنا لوهب لك ما وهب لنا قلت ما الذي وهب لكما قال ثلاثة أشياء طي الأرض من المشرق إلى المغرب بقدم واحد والمشي على الماء والحجبة إذا شئنا ثم احتجب عني فقلت بالذي وهب لكما هذا الحال ألا ما ظهرت لي فقد شويت قلبي فظهر وقال سل فقلت هل لي إلى ذلك الحال عودة فقال هيهات لا يؤمن الخائن. قال الحافظ:

وفامجوى زكس ورسخن نمى شنوى بهرزه طالب سيمرغ وكيميا ميباش

وفي الحكاية إشارة إلى أن الله تعالى يمن على من يشاء. حكي أن الشيخ جوهر المدفون في عدن كان مملوكاً فعتق وكان يبيع ويشتري في السوق ويحضر مجالس الفقراء ويعتقدهم وهو أمي فلما حضرت وفاة الشيخ الكبير سعد الحداد المدفون في عدن، قالت له الفقراء: من يكون الشيخ بعدك، قال الذي يقع على رأسه الطائر الأخضر في اليوم الثالث من موتي عند ما يجتمع الفقراء فلما توفي اجتمع الفقراء عند قبره ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث وفرغوا من الذكر والقرآن قعدوا ينتظرون ما وعدهم الشيخ، وإذا بطائر أخضر وقع قريباً منه فبقي كل واحد من كبار الفقراء يترجى ذلك ويتمناه فبينما هم كذلك إذا بالطائر قد طار ووقع على رأس الشيخ جوهر ولم يكن يخطر له ولا لأحد من الفقراء ذلك فقام إليه الفقراء ليزفوه إلى زاوية الشيخ وينزلوه منزلة المشيخة فبكى، وقال كيف أصلح للمشيخة وأنا رجل سوقي وأنا لا أعرف طريق الفقراء وآدابهم وعلي تبعات وبيني وبين الناس معاملات فقالوا له هذا أمر سماوي ولا بد لك منه والله يتولى تعليمك فقال أمهلوني حتى أمضي إلى السوق وأبرأ من حقوق الخلق فأمهلوه فذهب إلى دكانه ووفى كل ذي حق حقه، ثم ترك السوق ولزم الزاوية ولازمه الفقراء فصار جوهراً كاسمه. قال الحافظ:

طالب لعل وكهر نيست وكرنه خورشيد همچنان در عمل معدن وكانست كه بود

وقال:

كوهر پاك ببايد كه شود قابل فيض ورنه هرسنك وكلى لؤلؤ ومرجان نشود

ولما عظم سبحانه وتعالى شأن القرآن. بقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ﴾ [الجاثية: ٢٠] أردفه بقوله:

﴿وإذا قرىء القرآن﴾ الذي ذكرت شؤونه العظيمة. ﴿فاستمعوا له﴾ استماع قبول وعمل بما فيه فإن شأنه يوجب الاستماع مطلقاً ولما في الافتعال من التصرف والسعي والاعتمال في ذلك الفعل فرقوا بين المستمع والسامع بأن المستمع من كان قاصداً للسماع مصغياً إليه والسامع من اتفق سماعه من غير قصد إليه فكل مستمع سامع من غير عكس. ﴿وأنصتوا﴾ أي: واسكتوا في خلال القراءة وراعوها إلى انقضائها تعظيماً له وتكميلاً للاستماع والفرق بين الإنصات والسكوت أن الإنصات مأخوذ في مفهومه الاستماع والسكوت فلا يقتصر في معناه على السكوت بخلاف السكوت ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي: تفوزون بالرحمة التي هي أقصى ثمراته.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان المسلمون قبل نزول هذه الآية يتكلمون في الصلاة ويأمرون بحوائجهم ويأتي الرجل الجماعة وهم يصلون فيسألهم كم صليتم وكم بقي فيقولون كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمرهم بالإنصات عند الصلاة بقراءة القرآن لكونها أعظم أركانها.

استدل الإمام أبو حنيفة بهذه الآية على أن إنصات المقتدي واجب وأن قراءة الإمام قراءة المأموم فلا يقرأ خلف الإمام سواء أسر الإمام أم جهر لأنه تعالى أوجب عليه أمرين الاستماع والإنصات فإذا فات الاستماع بقي الإنصات واجباً. وجه الاستدلال أن المراد بالإنصات المأمور به وإن كان هو النهي عن الكلام لا عن القراءة لكن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب على أن جماعة من المفسرين قالوا إن الآية نزلت في الصلاة خاصة حين كانوا يقرؤون القرآن خلفه عليه السلام وجعله الحدادي في «تفسيره» أصح.

قال في «الأشباه» أسقط أبو حنيفة القراءة عن المأموم بل منعه منها شفعة على الإمام دفعاً للتخليط عليه كما يشاهد بالجامع الأزهر انتهى فقراءة المأموم مكروهة كراهة التحريم وهو الأصح كما في «شرح المجمع» لابن ملك.

قال علي رضي الله عنه: من قرأ خلف الإمام فقد أخطأ الفطرة، أي السنة. يحكى أن جماعة من أهل السنة جاؤوا إلى أبي حنيفة رضي الله عنه ليناظروه في القراءة خلف الإمام ويبكتوه ويشنعوا عليه فقال لهم لا يمكنني مناظرة الجميع ففوضوا أمر المناظرة إلى أعلمكم لأناظره فأشاروا إلى واحد فقال هذا أعلمكم فقالوا نعم قال والمناظرة معه مناظرة لكم قالوا نعم قال والإلزام عليه كالإلزام عليكم قالوا: نعم قال وإن ناظرته وألزمته الحجة فقد لزمتكم الحجة قالوا: نعم قال: وكيف قالوا: لأنا رضينا به إماماً فكان قوله قولنا فقال أبو حنيفة فنحن لما اخترنا الإمام في الصلاة كانت قراءته قراءة لنا وهو ينوب عنا فأقروا له بالإلزام. قال الفقهاء: المطلوب من القراءة التدبر والتفكر والعمل به ولا يحصل ذلك إلا بالاستماع والإنصات فيجب على المؤتم ذلك وهو كالخطبة يوم الجمعة لما شرعت وعظاً وتذكيراً وجب الاستماع ليحصل

فائدتها لا أن يخطب كل لنفسه بخلاف سائر الأركان لأنها شرعت للخشوع ولا يحصل لهم الخشوع إلا بالسجود معه والركوع.

اعلم: أن ظاهر النظم الكريم يقتضي وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها وعامة العلماء على استحبابها خارج الصلاة كما في التفاسير.

قال الحدادي: ولا يجب على القوم الإنصات لقراءة كل من يقرأ في غير الصلاة.

وقال الحلبي: رجل يكتب الفقه وبجنبه رجل يقرأ القرآن ولا يمكن للكاتب الاستماع فالإثم على القارىء لقراءته جهراً في مواضع اشتغال الناس بأعمالهم وعلى هذا لو قرأ على السطح في الليل جهراً والناس نيام يأثم كذا في «الخلاصة». صبي يقرأ في البيت وأهله مشغولون بالعمل يعذرون في ترك الاستماع إن افتتحوا العمل قبل القراءة وإلا فلا. وكذا قراءة الفقه عند قراءة القرآن ولو كان القارىء في المكتب واحداً يجب على المارين الاستماع وإن أكثر ويقع الخلل في الاستماع لا يجب عليهم. ويكره للقوم أن يقرؤوا القرآن جملة لتضمنها ترك الاستماع والإنصات. وقيل: لا بأس به والأصل فيه أن الإنصات والاستماع للقرآن فرض كفاية على ما حققه الحلبي في «الشرح الكبير».

قال في «القنية»: ولا بأس باجتماعهم على قراءة الإخلاص جهراً عند ختم القرآن ولو قرأ واحد واستمع الباقون فهو أولى. ورجل يكتب من الفقه أو يكرر منه وغيره يقرأ القرآن لا يلزمه الاستماع لأن النبي عليه السلام دخل على أصحابه وهم في المسجد حلقتان حلقة في مذاكرة الفقه وحلقة في قراءة القرآن وجلس في حلقة مذاكرة الفقه ولو لزم الاستماع لما فعل ذلك وفيه إشارة فضيلة الفقه ومذاكرته.

علم دين فقهست وتفسير وحديث   هركه خواند غيرازين كردد خبيث

قال في «نصاب الاحتساب»: قراءة القرآن في القبور تكره عند أبي حنيفة وعند محمد لا تكره ومشايخنا أخذوا بقول محمد لكن لا يقرأ جهراً إذا كان أهل المصيبة مشتغلين بالناس فإن القراءة جهراً عند قوم مشاغيل مكروهة.

ثم اعلم أنه يدخل في الآية الخطبة لأنها ملتبسة بقراءة القرآن فنعمل بظاهره في حق قراءة القرآن وفي حق الخطبة بطريق الاحتياط إثباتاً للحرمة بدليل فيه شبهة فيسمع الخطبة وينصت وإن صلى الخطيب على النبي ﷺ لأن ذلك جزء من الخطبة فنعمل فيه ما نعمل في الباقي إلا إذا قرأ صلوا عليه فيصلي المستمع سراً أي في نفسه وقلبه ولا يحرك لسانه لأنه توجه عليه أمران صلوا عليه وقوله أنصتوا فيصلي في نفسه وينصت بلسانه حتى يكون آتياً بهما. واختلفوا في البعيد عن المنبر والأحوط السكوت إقامة لفرض الإنصات وإن تعذر الاستماع ولأن فيه تشبهاً بالمستمعين ولأن صوت كلامه قد يبلغ الصفوف التي أمامه فيشغلهم ويمنعهم عن استماع الخطبة.

قال في «التتارخانية»: إذا شرع الخطيب في الدعاء لا يجوز للقوم رفع الأيادي ولا أن يكون بلسانه وكذا الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام باللسان جهراً فإن فعلوا أثموا ويجوز بالقلب ويجب على العلماء منعهم فإن لم يمنعوا أثموا.

وقال في «نصاب الاحتساب»: ولا يتكلم حال الخطبة وإن كان أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر ولو لم يتكلم لكن أشار بيده أو بعينه حين رأى منكراً الصحيح أنه لا بأس به وفي الحديث: «إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت» أي: تكلمت بما لا ينبغي.

قال النووي: فيه نهي عن جميع أنواع الكلام لأن قوله أنصت إذا كان لغواً مع أنه أمر بمعروف فغيره من الكلام أولى وإنما طريق النهي هنا الإنكار بالإشارة. وفي قوله والإمام يخطب إشعار بأن هذا النهي إنما هو في حال الخطبة وهو مذهب الشافعي وقال أبو حنيفة يجب الإنصات بخروج الإمام لقوله عليه السلام: «إذا خرج الإمام فلا صلاة ولا كلام» أي مطلقاً سواء خطب أو لم يخطب والترجيح للمحرم وقال لا بأس بالكلام إذا خرج الإمام قبل أن يخطب وإذا فرغ قبل أن يشتغل بالصلاة لأن التكلم بما لا إثم فيه إنما كره للاستماع إذ الكلام يخل بفرض استماعها ليقصر على حال الخطبة إذ لا استماع قبلها وبعدها.

وفي «القنية» الكلام في خطبة العيدين غير مكروه لأن خطبة العيدين سنة فخطبة الجمعة شرط لصحة الصلاة بخلاف خطبة العيدين لقوله عليه السلام: «يوم العيد من شاء منكم أن يخرج فليخرج» والحاصل أنه إذا خرج الامام حرم كلام الناس والناقلة أما الفائتة فلا كراهة في قضائها وقت الخطبة نص عليه في «النهاية» وكذا التسبيح ونحوه جائز بالاتفاق.

قال في «الأشباه»: خرج الخطيب بعد شروعه متنفلاً قطع على رأس الركعتين يعني إن صلى ركعة ضم إليها أخرى وسلم كما في «الكافي» وإن كان شرع في الشفع الثاني أتمه كما في «الاختيار» ولو كان شرع في سنة الجمعة يتمها أربعاً على الصحيح كما في «الأشباه» وغيره وعبارة الخروج واردة على عادة العرب لأنهم يتخذون للإمام مكاناً خالياً تعظيماً لشأنه فيخرج منه حين أراد الصعود إلى المنبر وأما القاطع عن الصلاة والكلام في ديارنا فهو قيام الإمام للصعود.

قال في «التأويلات النجمية»: الإنصات شرط في حسن الاستماع وحسن الاستماع شرط في الإسماع والإشارة ﴿أنصتوا﴾ بألسنتكم الظاهرة لتستمعوا له بآذانكم الظاهرة وأنصتوا بألسنتكم الباطنة لتستمعوا بآذانكم الباطنة ﴿لعلكم ترحمون﴾ بالاستماع بالسمع الحقيقي وهو قوله: «كنت له سمعاً فبي يسمع» فمن سمع القرآن بسمع بارئه فقد سمع من قارئه وهذا سر ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ ﴾ [الرحمن: ١-٢]. قال المولى الجامي كوبنده سنائي غزنوى است:

عجب نبودكه ازقر آن نصيبت نيست جز حرفى

كه ازخرشيد جز كرمى نبيند چشم نابينا

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾

﴿واذكر﴾ يا محمد. ﴿ربك﴾ ويجوز أن يكون المراد جميع الخلق والذكر طرد الغفلة ولذا لا يكون في الجنة لأنها مقام الحضور الدائم. ﴿في نفسك﴾ وهو الذكر بالكلام الخفي فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب من الإجابة وهذا الذكر يعم الأذكار كلها من القراءة والدعاء وغيرها كما قال في «الأسرار المحمدية» ليس فضل الذكر منحصراً في التهليل والتسبيح والتكبير والدعاء بل كل مطيع لله في عمل فهو ذاكر. ﴿تضرعاً﴾ مصدر واقع موقع الحال من فاعل اذكر أي متضرعاً ومتذللاً. والضراعة الخضوع والذل والاستكانة يقال تضرع إلى الله أي ابتهل وتذلل والابتهال الاجتهاد في الدعاء وإخلاصه.

قال بعض العارفين بالله: الصلاة أفضل الحركات، والصوم أفضل السكنات، والتضرع في هياكل العبادات يحل ما عقدته الأفلاك الدائرات.

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه   من فضل جودك ما علمتني الطلبا

﴿وخيفة﴾ بكسر الخاء أصلها خوفة قلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها أي وحال كونك خائفاً.

قال ابن الشيخ: وهذا الخوف يتناول خوف التقصير في الأعمال وخوف الخاتمة وخوف السابقة فإن ما يكون في الخاتمة ليس إلا ما سبق به الحكم في الفاتحة ولذلك قال عليه السلام: «جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» انتهى.

يقول الفقير: هذا بالنسبة إلى أن يكون المراد بالخطاب في الآية هو الأمة وإلا فالأنبياء بل وكمل الأولياء آمنون به من خوف الخاتمة والفاتحة نعم لهم خوف لكن من نوع آخر يناسب مقامهم ولما كان أكمل أحوال الإنسان أن يظهر عزة ربوبية الله وذلة عبودية نفسه أمر الله بالذكر ليتم المقصود الأول وقيده بالتضرع والخيفة ليتم المقصود الثاني.

اي خنك آنراكه ذلت نفسه   واي آنكسى راكه بردى رفسه

﴿ودون الجهر من القول﴾ صفة لمحذوف هو الحال أي ومتكلماً كلاماً هو دون الجهر فإنه أقرب إلى حسن التفكر فمن أمّ في صلاة الجهر ينبغي له أن لا يجهر جهراً شديداً بل يقتصر على قدر ما يسمعه من خلفه.

قال في «الكشف»: لا يجهر فوق حاجة الناس وإلا فهو مسيء. والفرق بين الكراهة والإساءة هو أن الكراهة أفحش من الإساءة ولما رأى رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه يقرأ رافعاً صوته فسأله فقال أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان قال عليه السلام: «اخفض من صوتك قليلاً» وأتى أبا بكر رضي الله عنه فوجده يقرأ خافضاً صوته فسأله فقال قد أسمعت من ناجيت فقال عليه السلام: «ارفع من صوتك قليلاً» وقد جمع النووي بين الأحاديث الواردة في استحباب الجهر بالذكر والواردة في استحباب الإسرار به بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى المصلون أو النائمون والجهر أفضل في غير ذلك لأن العمل فيه أكثر ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ولأنه يوقظ قلب الذاكر ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط وبالجملة إن المختار عند الاخيار أن المبالغة والاستقصاء في رفع الصوت بالتكبير في الصلاة ونحوه مكروه والحالة الوسطى بين الجهر والإخفاء مع التضرع والتذلل والاستكانة الخالية عن الرياء جائز غير مكروه باتفاق العلماء كذا في «أنوار المشارق» وقد سبق من شارح «الكشاف» أن الشيخ المرشد قد يأمر المبتدي برفع الصوت لتنقلع من قلبه الخواطر الراسخة فيه. ﴿بالغدو والآصال﴾ متعلق باذكر، أي: اذكره في هذين الوقتين وهما البكرات والعشيات فإن الغدو جمع غدوة وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس، والآصال: جمع أصيل وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب والعشي والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة وخص هذان الوقتان لأن فيهما تتغير أحوال العالم تغيراً عجيباً يدل على أن المؤثر فيه هو الإله الموصوف بالحكمة الباهرة والقدرة القاهرة فكل من شاهد هذه التغيرات ينبغي له أن يذكر المؤثر فيها بالتضرع والابتهال والخوف من تحويل حاله إلى سوء الحال، وقيل: الغدو والآصال عبارتان عن الليل والنهار اكتفى عن ذكرهما بذكر طرفيهما والمراد بذكره تعالى فيهما المواظبة عليه بقدر الإمكان. ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ عن ذكر الله تعالى أمر أولاً بأن يذكر ربه على وجه يستحضر في نفسه معاني الأذكار التي يقولها بلسانه فإن المراد بذكر الله في نفسه أن

يذكره تعالى عارفاً بمعاني ما يقول من الأذكار ثم أتبعه بقوله: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ للدلالة على أن الإنسان ينبغي له أن لا يغفل قلبه عن استحضار جلال الله تعالى وكبريائه وفي الحديث: «ألا أنبئكم بما هو خير لكم وأفضل من أن تلقوا عدوكم فتضربوا رقابهم ويضربوا رقابكم ذكر الله» أي: ما هو خير لكم مما ذكر ذكر الله سبحانه؛ لأن ثواب الغزو والشهادة في سبيل الله حصول الجنة، والذاكر جليس الحق تعالى كما قال: «أنا جليس من ذكرني» والجليس لا بد أن يكون مشهوداً فالحق مشهود الذاكر وشهود الحق أفضل من حصول الجنة ولذلك كانت الرؤية بعد حصول الجنة وكمال تلك النعمة، والذكر المطلوب من العبد، أن يذكر الله باللسان ويكون حاضراً بقلبه وروحه وجميع قواه بحيث يكون بالكلية متوجهاً إلى ربه فتنتفي الخواطر وتنقطع أحاديث النفس عنه. ثم إذا داوم عليه ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه ولا يزال يذكر بذلك حتى يتجلى له الحق من وراء أستار غيوبه فينور باطن العبد بحكم، ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] ويعده إلى التجليات الصفاتية والاسمائية ثم الذاتية فيفنى العبد في الحق فيذكر الحق نفسه بما يليق بجلاله وجماله فيكون الحق ذاكراً ومذكوراً وذلك بارتفاع الثنوية وانكشاف الحقيقة الأحدية كذا في «شرح الفصوص» لداود القيصري في الكلمة اليونسية:

چون تجلى كرد أوصاف قديم — پس بسوزد وصف حادث راكليم

واعلم: أن من اشتغل باسم من الأسماء وداوم فيه فلا ريب أن يحصل بينه وبين سر هذا الاسم المشتغل به وروحه بعناية الله تعالى وفضله مناسبة ما بقدر الاشتغال ومتى قويت تلك المناسبة وكملت بحسب قوة الاشتغال وكماله يحصل بينه وبين مدلوله من الأسماء الحقية بواسطة هذه المناسبة الحاصلة مناسبة بقدرها قوة وكمالاً ومتى بلغت إلى حد الكمال أيضاً هذه المناسبة الثانية الحاصلة بينه وبين هذا الاسم بجود الحق سبحانه وعطائه يحصل بينه وبين مسماه الحق تعالى مناسبة بمقدار المناسبة الثانية من جهة القوة والكمال لأن العبد بسبب هذه المناسبة يغلب قدسه على دنسه ويصير مناسباً لعالم القدس بقدر ارتفاع حكم الدنس فحينئذٍ يتجلى الحق سبحانه له من مرتبة ذلك الاسم بحسبها وبقدر استعداده ويفيض عليه ما شاء من العلوم والمعارف والأسرار الإلهية والكونية حسبما يقتضيه الوقت ويسعه الموطن وتستدعيه القابلية فيطلع بعد ذلك على ما يطلع عليه قبله فيحصل له العلم والمعرفة بعد الجهل والغفلة كذا في «حواشي تفسير الفاتحة» لحضرة شيخنا الأجل أمدنا الله بمدده إلى حلول الأجل، واتفق المشايخ والعلماء بالله على أن من لا ورد له لا وارد له، وانقطاعه عن بعض ورده بسبب من الأسباب سوى السفر والمرض والهرم والموت علامة البعد من الله تعالى والخذلان، فينبغي لمن كان له ورد ففاته ذلك أن يتداركه ويأتي به ولو بعد أسبوع ومن هنا تقضي الصوفية التهجد مع أنه ليس من الفرائض والسر في هذا أن المراد من الأوراد بل من سائر العبادات تغيير صفات الباطن وقمع رذائل القلب وآحاد الأعمال يقال آثارها بل لا يحس بآثارها وإنما يترتب الأثر على المجموع وإذا لم يكن يعقب العمل الواحد أثراً محسوساً ولم يردف بثان وثالث على القرب والتوالي انمحى الأثر الأول أيضاً ولهذا السر قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» أي العمل.

قال ابن ملك: وإنما كان العمل الذي يداوم عليه أحب لأن النفس تألف به ويدوم بسببه الإقبال على الله تعالى ولهذا ينكر أهل التصوف ترك الأوراد كما ينكرون ترك الفرائض انتهى.

قال بعض العلماء بالله: لا يستحقر الورد إلا جهول، يعني: بحق ربه وحظ نفسه ووجه وصوله إليهما أن الوارد يوجد في الدار الآخرة على حسب الورد إذ جاء في الحديث: «إن الله تعالى يقول ادخلوا الجنة برحمتي وتقاسموها بأعمالكم» والورد ينطوي بانطواء هذه الدار فيفوت ثوابه بحسب فواته إذ هو مرتب عليه. وأولى ما يعتني به عند العقلاء الأكياس ما لا يخلف وجوده؛ إذ تذهب فائدته بذهابه فإذا تعللت نفسك بعدم طلب الثواب فقل لها الورد هو طالب ذكره منك إذ هو حق العبودية وإن ركنت إلى طلب العوض فقل والوارد أنت تطلبينه منه لا من حظ نفسك وأين ما هو طالبه منك من واجب حقه مما هو مطلبك منه من غرضك وحظك فطب نفساً بالعمل لمولاك وسلم له فيما به يتولاك فقد قالوا كن طالب الاستقامة ولا تكن طالب الكرامة فإن نفسك تهتز وتطلب الكرامة ومولاك يطالبك بالاستقامة ولأن تكون بحق ربك أولى لك من أن تكون بحظ نفسك. قال الحافظ:

صحبت حور نخواهم كه بود عين قصور باخيال تواكر با دكرى پردازم

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ أي: اذكره بالأفعال والأخلاق والذات في نفسك بأن تبدل أفعال نفسك بالأعمال التي أمر الله بها وتبدل أخلاقها بأخلاق الله وتفني ذاتها في ذات الله وهذا كما قال: «وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي» وهو سر قوله ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٢] ألا ترى أن الفراش لما ذكر الشمعة في نفسه بإفناء ذاته في ذاتها كيف ذكرته الشمعة بإبقائه ببقائها على أن تلك الحضرة منزهة عن المثل والمثال ﴿تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول﴾ التضرع من باب التكلف أي بداية هذا الذكر بتبديل أفعال النفس بأعمال الشريعة تكون بالتكلف ظاهرة ووسطه بالتخلق بأخلاق الله وبآداب الطريقة يكون مخفياً باطناً ونهايته بإفناء ذاتها في ذاته بأنوار الحقيقة تكون منهياً عن جهر القول بها وهذا حقيقة قوله عليه السلام: «إفشاء سر الربوبية كفر» ﴿بالغدو والآصال﴾ يشير إلى غدو الأزل وآصال الأبد فإن الذكر الحقيقي والمذكور الحقيقي هو الذاكر الحقيقي والذاكر والمذكور في الحقيقة هو الله الأزلي الأبدي لأنه تعالى قال في الأزل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٢] ففي الأزل ذكرهم لما خاطبهم وكان هو الذاكر والمذكور على الحقيقة على أنا نقول ما ذكره إلا هو وهذا حقيقة قول يوسف بن حسين الرازي ما ذكر أحد الله إلا الله ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ الذين لا يعلمون أن الذاكر والمذكور هو الله في الحقيقة انتهى ما في «التأويلات النجمية».

﴿إن الذين﴾ قال الكاشفي: [آورده اندكه كفار مكه تعظم ميكردند از سجده نمودن مر خدايرا وتنفر نموده ميكفتند ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠] [حق سبحانه وتعالى ميفر مايد اي محمد اكركافران ازسجود من سركشى ميكنند بدرستى آنانكه]. ﴿عند ربك﴾ أي: الملائكة المقربين لديه قرب الشرف والمكانة لاقرب المسافة والمكان. ﴿لا يستكبرون﴾ [كردن نمى كشند] ﴿عن عبادته﴾ بل يؤدونها حسبما أمروا به. ﴿ويسبحونه﴾ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه ﴿وله﴾ تقديم الجار على الفعل للحصر. ﴿يسجدون﴾ أي: يخصونه بغاية العبودية والتذلل لا يشركون به شيئاً وهو تعريض بسائر المكلفين ولذلك شرع السجود عند قراءتها.

واعلم أن السجدة نهاية الخضوع وإنما شرعت في موضع جبراً للنقصان كسجود السهو وفي موضع لمخالفة الكفار والموافقة للمسلمين.

قال الكاشفي: [سجدهٔ تلاوت چهارده موضع است در قرآن واختلاف درد وموضع است يكى در آخر سورهٔ حج بمذهب امام شافعي وإمام أحمد سجده هست وبمذهب امام أعظم نيست ودوم درسورهٔ ص بمذهب إمام أعظم هست لأن النبي عليه السلام قرأ سورة ص وسجد وبمذهب باقي ائمه نه] لأن المذكور فيها ركوع لا سجود واختلف في موضع السجود في فصلت فعند علي رضي الله عنه هو قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] وبه أخذ الشافعي وعند عمر وابن مسعود رضي الله عنهما هو قوله: ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨] فأخذنا به احتياطاً فإن تأخير السجدة لازم لا تقديمها [ونزد امام أعظم سجدهٔ تلاوت برخواننده وشنونده درنماز وغير نماز واجبست درحال واكر فوت شود قضا لازمست وبمذهب أئمة ديكر سنت وقضا لازم نه] ويكره تأخير السجدة من غير ضرورة ويستحب أن يقوم القاعد فيكبر ويسبح تسبيح الصلاة ويكبر ويقوم ثم يقعد لكون الخرور فيه أكمل. قوله تسبيح الصلاة أي يقول «سبحان ربي الأعلى» ثلاثاً وهو الأصح وقيل يقول: «خضعت للرحمن فاغفر لي يا رحمن» وقيل يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك» وهو مختار صاحب «الأسرار المحمدية» ويروي فيه عن نفسه سماع هاتف يأمره بالدعاء بذلك وكان ﷺ يقول في سجود التلاوة «سجد وجهي للذي خلقه وصوره فأحسن صورته وشق سمعه وبصره بحوله وقوته» يقولها مراراً ثم يقول: «فتبارك الله أحسن الخالقين اللهم اكتب لي بها عندك أجراً وضع عني بها وزراً واجعلها لي عندك ذخراً وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود عليه الصلاة والسلام» قال ابن فخر الدين الرومي إن قرأ سجدة سبحان ضم إليها ما ذكره سبحانه وتعالى عن الطائفة الساجدين واستحسن عنهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] وإن قرأ آية التنزيل أو الأعراف قال: «اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك» وإن قرأ ألم السجدة قال: «اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة كتابك» وإن قرأ سجدة والنجم قال: «اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك» وكذا في غيره.

قال المولى أخي چلبي وإن لم يذكر فيها شيئاً أجزأه لأنها لا تكون أقوى من السجدة الصلاتية ويستحب للسامع أن يسجد مع التالي ولا يرفع رأسه قبله لأنه بمنزلة إمامه ويشترط نية السجود للتلاوة لا التعيين حتى لو كان عليه سجدات متعددة فعليه أن يسجد عددها وليس له أن يعين أن هذه السجدة لآية كذا وهذه لآية كذا ويستحب للتالي إخفاؤها إذا لم يكن السامع متهيئاً للسجود تحرزاً عن تأثيمه وإذا كان متهيئاً يستحب له أن يجهل حثاً له على العبادة.

قال الإمام الخبازي في «حواشي الهداية»: يستحب أن يصلي على النبي عليه السلام كلما ذكر ولا تستحب السجدة كلما تليت تلك الآية إذا كان المجلس واحداً والفرق أن الرسول عليه السلام محتاج والرب عزّ وجل غير محتاج.

قال الإمام محمد بن العربي قدس سره في روح القدس له: اعلم أن لا شيء أنكأ على إبليس من ابن آدم في جميع أحواله في صلاته من سجوده لأنه خطيئته فكثرة السجود وتطويله يحزن الشيطان وليس الإنسان بمعصوم من إبليس في صلاته إلا في سجوده لأنه حينئذٍ يذكر

الشيطان معصيته فيحزن فيشتغل بنفسه عنك ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول يا ويلتي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» فالعبد في سجوده معصوم من الشيطان غير معصوم من النفس فخواطر السجود كلها إما ربانية أو ملكية أو نفسية وليس للشيطان عليه من سبيل فإذا قام من سجوده غابت تلك الصفة عن إبليس فزال حزنه فاشتغل بك انتهى كلامه.

يقول الفقير: فيه إشارة إلى أن الشيطان إنما أبى عن السجود لاستكباره فكل من استكبر عنه كالكفار كان الشيطان قرينه في جميع أحواله وكل من تواضع فسجد كالمؤمنين اعتزل عنه الشيطان في تلك الحال لا في جميع الأحوال إلا أن يزكي نفسه عن رذيلة الكبر فحينئذٍ يتخلص في جميع أحواله ويكون من العباد المخلصين:

زينت تو پس كمر بند كى ... تاج تودر سجده سر افكند كى

شرم تو بادا كه بيالاو بست ... سجدهٔ طاعت بردش هرچه هست

توكنى از سجدهٔ او سر كشى ... به كه ازين شيوه قدم در كشى

[وحضرت شيخ الإسلام قدس سره فرموده سرى كه دروسجودى نيست سفچه به ازدست وكفى كه دروجودى نيست كفچه به ازدست] ونعم ما قال:

شرف نفس بجودست وكرامت بسجود ... هركه اين هردونداردد عدمش به زوجود

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿إن الذين عند ربك﴾ يعني: الذين أفنوا أفعالهم وأخلاقهم وذواتهم في أوامر الله وأخلاقه وذاته فما بقوا عند أنفسهم وإنما بقوا ببقاء الله عنده. ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ لأن الاستكبار من أخلاقهم وقد أفنوها في أخلاقه فما بقي لهم الاستكبار فكيف يستكبرون عن عبادته وقد أفنوا أفعاله في أوامر الله وهي عبادته فأعمالهم قائمة بالعبادة لا بالفعل وهم في حال الفناء عن أنفسهم والبقاء بالله. ﴿ويسبحونه﴾ أي: ينزهونه عن الحلول والاتصال والاتحاد وعن أن يكون هو العبد أو العبد إياه بل هو هو كما كان في الأزل لم يكن شيئاً مذكوراً. ﴿وله يسجدون﴾ في الوجود والعدم من الأزل والأبد سجدوا له من الأزل في العدم منقادين مسخرين قابلين لأحكام القدرة في الإيجاد للوجود وسجدوا له إلى الأبد في الوجود ببذل الموجود منقادين مسخرين قابلين لأحكام القدرة في تصاريف الإعدام والإيجاد والإبقاء.

تمت سورة الأعراف بالرحم والراف مع ما يتعلق بها من التفسير والتأويل على وجه عديل سويّ من غير تطويل وذلك في العشر الأول من صفر الخير المنتظم في سلك شهور سنة إحدى ومائة وألف من هجرة من له العز والشرف ويتلوها سورة الأنفال وقد حان الاغتنام بغنائمها بعون الله الملك العزيز القوي المتعال.

٨ - سورة الأنفال

مدنية وآيها خمس وسبعون وقيل مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

﴿يسألونك عن الأنفال﴾ أي: عن حكم الغنائم فالسؤال استفتائي، ولهذا عُدِّي بكلمة عن لا استعطائي، كما يقال سألته درهماً لأن السؤال قد يكون لاقتضاء معنى في نفس المسؤول فيتعدى؛ إذ ذاك بعن كما قال:

سلي إن جهلت الناس عني وعنهمو

وقد يكون لاقتضاء مال ونحوه فيتعدى؛ إذ ذاك إلى المفعولين كالمثال المذكور. والنفل الزيادة وسميت الغنيمة به؛ لأنها عطية من الله زائدة على ما هو الأجر في الجهاد من الثواب الأخروي وعلى ما أعطاه لسائر الأمم حيث لم يحل لهم الغنائم وكانت تنزل نار من السماء فتأكلها، والنافلة من الصلاة: ما زاد على الفرض ويقال لولد الولد نافلة لأنه زيادة على الولد ويطلق على ما يشرطه الإمام لمقتحم خطر عطية له وزيادة على سهمه من الغنم. روي أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا رسول الله ﷺ كيف تقسم وإلى أين تصرف ومن الذين يتولون قسمتها أهم المهاجرون أم الأنصار أم هم جميعاً فنزلت فضمير يسألون لأصحاب بدر لتعينهم حال نزول الآية فلا حاجة إلى سبق الذكر صريحاً. والمعنى يستفتونك في حكم الأنفال. **﴿قل الأنفال لله والرسول﴾** أي: أمرها وحكمها مختص به تعالى يقسمها الرسول كيفما أمر به من غير أن يدخل فيه رأي أحد.

قال الحدادي: إضافة الغنائم إلى الله على جهة التشريف لها وإضافتها إلى الرسول لأنه كان بيان حكمها وتدبيرها إليه. **﴿فاتقوا الله﴾** أي: إذا كان أمر الغنائم لله ورسوله فاتقوا الله تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لسخطه تعالى. **﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾** ذات البين هي الأحوال التي تقع بين الناس كما ذات الصدور هي المضمرات الكائنة فيها وذات الإناء هي ما حل فيه من الطعام والشراب، ولما كان ما حل في الشيء ملابساً له قيل إنه صاحب محله وذوه، مثل أن يقال: اسقني ذا إنائك، أي الماء الذي فيه أي واصلحوا ما بينكم من الأحوال بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى وتفضل به عليكم وذلك لأن المقاتلة قالوا لنا الغنائم وأرادوا أن لا يواسوا الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات.

قال عبادة بن الصامت: نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسوله فقسمه بين المسلمين على السواء. ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ بتسليم أمره ونهيه. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة، والمراد بالإيمان كماله فإن أصل الإيمان لا يتوقف على التحلي بمجموع تلك الأمور كلها، بل يتحقق بمجرد الطاعة بقبول ما حكم الله ورسوله به والاعتقاد بحقيته، والمعنى: إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث.

واعلم: أن كثرة السؤال توجب الملال ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، والمنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» ففي الحديث فوائد. منها النهي عن عقوق الوالدين لأنه من الكبائر وإنما اقتصر على الأم اكتفاء بذكر أحدهما كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] أو لأن حقها أكثر وخدمتها أوفر. وفيه نهي عن وأد البنات وهو فعل الجاهلية كان الواحد منهم إذا ولد له ابن تركه، وإذا ولد له بنت دفنها حية وإنما حملهم على ذلك خوف الإملاق ودفع العار والأنفة عن أنفسهم وأراد بالمنع الامتناع عن أداء ما يجب ويستحب. وبهات الإقدام على أخذ ما يكره ويحرم. وفيه نهي عن المقاولة بلا ضرورة وقصد ثواب فإنها تقسي القلوب. وفيه نهي عن كثرة السؤال.

قال ابن ملك: يجوز أن يراد به سؤال أموال الناس وأن يراد به سؤال الإنسان عما لا يعنيه. وفيه نهي عن إضاعة المال: وهي إنفاقه في المعاصي والإسراف به في غيرها كالإسراف في النفقة والبناء والملبوس والمفروش وتمويه الأواني والسيوف بالذهب.

قال في «التأويلات النجمية»: فلما أكثروا السؤال قال عليه السلام: «ذروني ما تركتكم فإنه إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» ومن كثرة سؤالهم قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ وإنما سألوا ليكون الأنفال لهم فقال على خلاف ما تمنوا ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ يعملان فيها ما شاءا لا كما شئتم لتتأدبوا ولا تعترضوا على الله والرسول بطريق السؤال وتكونوا مستسلمين لأحكامهما في دينكم ودنياكم، ولا تحرصوا على الدنيا لئلا تشوبوا أعمالكم الدينية بالأعراض الدنيوية. ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي: اتقوا بالله عن غير الله وأصلحوا ما بينكم من الأخلاق الرديئة والهمم الدنيئة، وهي الحرص على الدنيا والحسد على الإخوان وغيرهما من الصفات الذميمة التي يحجب بها نور الإيمان عن القلوب. ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ بالتسليم لأحكامهما والائتمار بأوامرهما والانتهاء عن نواهيهما. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ تحقيقاً لا تقليداً فإن المؤمن الحقيقي هو الذي كتب الله بقلم العناية في قلبه الإيمان وأيده بروح منه فهو على نور من ربه. وفي «المثنوي»:

بود كبرى در زمان بايزيد — كفت او را يك مسلمان سعيد
كه چه باشد كرنو اسلام آورى — تا بيابى صد نجات وسرورى
كفت اين ايمان اكرهست اي مريد — آنكه دارد شيخ عالم بايزيد
من ندارم طاقت آن تاب آن — كان فزون آمدزكو ششهاى جان
كرچه درايمان ودين نا موقنم — ليك در ايمان أو بس مؤمنم
مؤمن ايمان أو يم در نهان — كرچه مهرم هست محكم بردهان

باز ايمان كرخود ايمان شماست — نى بدان ميلستم ونى اشتهاست
آنكه صد ميلش سوى ايمان بود — چون شمارا ديد آن باطل شود
زانكه نامى بيند ومعنيش نى — چون بيابان را مفازه كفتنى

اللهم اجعلنا متحققين بحقائق الإيمان وأوصلنا إلى درجات العرفان والإحسان.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ
دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

﴿إنما المؤمنون﴾ أي: إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿الذين إذا ذكر الله﴾ عندهم ﴿وجلت قلوبهم﴾ من هيبة الجلال وتصور عظمة المولى الذي لا يزال وهذا الخوف لازم لأهل كمال الإيمان سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً أو مؤمناً تقياً نقياً، وهذا بخلاف خوف العقاب فإنه لا يحصل بمجرد ذكر الله بل بملاحظة المعصية وذكر عقاب الله انتقاماً من العصاة وأين من يهم بمعصية فيقال له: اتقِ الله، فينزع عنها خوفاً من عقابه ممن ينزع بمجرد ذكره من غير أن يذكر هناك ما يوجب النزع من صفاته وأفعاله استعظاماً لشأنه الجليل وتهيباً منه.

واعلم: أن شأن نور الإيمان أن يرق القلب ويصفيه عن كدورات صفات النفس وظلماتها ويلين قسوته فيلين إلى ذكر الله ويجد شوقاً إلى الله وهذا حال أهل البدايات، وأما حال أهل النهايات فالطمأنينة والسكون بالذكر ولما جاء قوم حديثو عهد بالإسلام فسمعوا القرآن كانوا يبكون ويتأوّهون، فقال أبو بكر رضي الله عنه: هكذا كنا في بداية الإسلام ثم قست قلوبنا يشير بذلك إلى نهايته في الاطمئنان. ﴿وإذا تليت﴾ قرئت ﴿عليهم آياته﴾ أي: آيات الله يعني القرآن أمراً ونهياً وغير ذلك. ﴿زادتهم﴾ أي: تلك الآيات والإسناد مجازي. ﴿إيماناً﴾ أي: يقيناً وطمأنينة نفس فإن تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين.

قال الفاضل التفتازاني، وتبعه المولى أبو السعود في «تفسيره»: إن نفس التصديق مما يقبل الزيادة والنقصان للفرق الظاهر بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات وبين يقين الأمة ولهذا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» وكذا بين ما قام عليه دليل واحد من التصديقات وما قامت عليه أدلة كثيرة.

قال الكاشفي: [در حقايق سلمى مذكورست كه ببركت تلاوت نور يقين در باطن ايشان ظاهر كردد وزيادتى طاعت بر ظاهر ايشان هو يدا شود. ودر بحر الحقايق فرموده كه ايمان حقيقي نوريست كه بقدر سعت روزنهٔ دل دروى مى تابد پس چون قرآن برارباب قلوب خوانند روزنهٔ دل ايشان ببركت قرائت كشادة تركردد ونور ايمان بيشتر دروى افتد پس درنور جمال مستغرق كردند] ﴿وعلى ربهم﴾ مالكهم ومدبر أمورهم خاصة. ﴿يتوكلون﴾ يفوضون أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿على ربهم يتوكلون﴾ لا على الدنيا وأهلها فإن من شاهد بنور الإيمان جمال الحق وجلاله، فقد استغرق في بحر لجي من شهود الحق بحيث لا يتفرغ لغيره ويرى الأشياء مضمحلة تحت سطوات جلاله فيكون توكلهم عليه لا على غيره:

هركه او در بحر مستغرق شود	فارغ از كشتى واز زورق شود
غرقهٔ دريا بجز دريا نديد	غير دريا هست بروى نا پديد

ولما ذكر أولاً من الأعمال الحسنة أعمال القلوب من الخشية والوجل عند ملاحظة عظمة الله تعالى وجلاله والإخلاص والتوكل عقب بأفعال الجوارح التي هي العيار عليها كالصلاة والصدقة فقال:

﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ بوضوئها وركوعها وسجودها في مواقيتها وهو مرفوع على أنه نعت للموصول الأول ﴿ومما رزقناهم﴾ أعطيناهم من الأموال. ﴿ينفقون﴾ في طاعة الله وإنما خص الله الصلاة والزكاة لعظم شأنهما وتأكيد أمرهما.

﴿أولئك﴾ الجامعون لأعمال القلب والقالب. ﴿هم المؤمنون﴾ إيماناً ﴿حقاً﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه الأعمال الصالحة ﴿لهم درجات﴾ كائنة ﴿عند ربهم﴾ أي: كرامة وزلفى وعلو مرتبة وقيل درجات عالية في الجنة على قدر أعمالهم.

قال في «أنوار المشارق»: الدرجة إن كانت بمعنى المرقاة فجمعها درج وإن كانت بمعنى المرتبة والطبقة فجمعها درجات. ﴿ومغفرة﴾ لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ [وروزى بزرك صافى باشد ازكدّ اكتساب وخالى ازخوف حساب] لا ينتهي ولا ينقطع كأرزاق الدنيا.

قال في «القاموس»: رزقاً كريماً كثيراً وقولاً كريماً سهلاً ليناً وأكرمه وكرمه عظمه ونزهه [امام قشيرى قدس سره فرموده كه رزق كريم آنست كه مرزوق را ازشهود رازق باز ندارد].

تو زروزى ده بروزى وامان	از سبب بكذر مسبب بين عيان
از مسبب ميرسد هر خير وشر	نيست زاسباب وسائط اي پدر
اصل بيند ديده چون اكمل بود	فرع بيند ديده چون احول بود

قال في «المجالس المحمودية»: اعلم أن الصلاة أعظم الأعمال القالبية والصدقة خير العبادات المالية. وروي أن فاطمة أعطت قميصها علياً ليشتري لها ما اشتهاه الحسن، فباعه بستة دراهم فسأله سائل فأعطاه إياها فاستقبله رجل ومعه ناقة فاشتراها على المدة بستين ديناراً ثم استقبله رجل فاشترى منه الناقة بستين ديناراً وستة دراهم، ثم طلب بائع الناقة ليدفع له ثمنها فلم يجده فعرض القصة على النبي عليه السلام فقال عليه السلام: «أما السائل فرضوان، وأما البائع فميكائيل وأما المشتري فجبرائيل» وفي الحديث: «يأتي يوم القيامة أربعة على باب الجنة بغير حساب، الحاج الذي حج البيت بغير إفساد، والشهيد الذي قتل في المعركة، والسخي الذي لم يلتمس بسخاوته رياء، والعالم الذي عمل بعلمه فيتنازعون في دخول الجنة أولاً، فيرسل الله جبرائيل ليحكم بينهم بالعدل، فيقول للشهيد: ما فعلت في الدنيا حتى تريد أن تدخل الجنة أولاً؟ فيقول قتلت في المعركة لرضى الله تعالى، فيقول: ممن سمعت أن من قتل في سبيل الله يدخل الجنة، فيقول من العلماء فيقول احفظ الأدب ولا تتقدم على معلمك، ثم يسأل الحاج والسخي كذلك ثم يقول لهما احفظا الأدب ولا تتقدما على معلمكما، ثم يقول العالم إلهي أنت تعلم أني ما حصلت العلم إلا بسخاوة السخي وأنت لا تضيع أجر المحسنين، فيقول الله: صدق العالم يا رضوان افتح الباب وأدخل السخي أولاً» وفي ذلك إشارة إلى أن المراد بالعالم هو الذي يعمل بعلمه فإن الإنصاف من شأنه إذ الإنصاف لا يحصل إلا بصلاح النفس، ولا يمكن ذلك إلا بالعمل فلا يغترّ أهل الهوى من علماء الظاهر بذلك فإن كون العلم

المجرد منجياً مذهب فاسد، فإن العالم الفاجر أشد عذاباً من الجاهل بل العالم هو الذي يعمل بعلمه ويصل إلى العرفان بتصفية القلب ولا شك أن كون المذكورين في الآية مؤمنين حقاً بسبب خدمتهم لله تعالى بأنفسهم وأموالهم وتجردهم عن العلائق البدنية والمالية وبقائهم مع الله تعالى وإيثارهم له على جميع ما سواه حتى على أنفسهم فمن آثر الحق على ما سواه، فقد وصل إلى أقصى مراداته فلا بد أن الله تعالى يدبر أمره ويقضي حاجاته.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾.

﴿كما أخرجك ربك﴾ المراد بإخراج الله تعالى إياه كونه سبباً آمراً له بالخروج وداعياً إليه فإن جبرائيل عليه السلام أتاه وأمره بالخروج. **﴿من بيتك﴾** في المدينة **﴿بالحق﴾** حال من مفعول أخرجك أي أخرجك ملتبساً بالحق، وهو إظهار دين الله وقهر أعداء الله والكاف في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال، وهي قسمة غنائم بدر بين الغزاة على السواء من غير تفرقة بين الشبان المقاتلين وبين الشيوخ الثابتين تحت الرايات كحال إخراجك يعني أن حالهم في كراهتهم لما رأيت فإن في طبع المقاتلة شيئاً من الكراهة لهذه القسمة مع كونها حقاً كحالهم في كراهتهم لخروجك للحرب وهو حق. **﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾** أي: والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج إما لنفرة الطبع عن القتال أو لعدم الاستعداد.

قال سعدي چلبي المفتي: الظاهر أن المراد هي الكراهة الطبيعية التي لا تدخل تحت القدرة والاختيار فلا يرد أنها لا تليق بمنصب الصحابة رضي الله عنهم. روي أن عير قريش أي: قافلتهم أقبلت من الشام، وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل، وكان في السنة الثانية من الهجرة فأخبر جبريل رسول الله بإقبالها فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا سمعه أبو سفيان فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستفزهم ويخبرهم أن محمداً قد اعترض لعيركم فأدركوها، فلما بلغ أهل مكة هذا الخبر نادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول عيركم وأموالكم، أي: تداركوها إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً وقد رأت عاتكة أخت العباس بن عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا، فقالت لأخيها: إني رأيت عجباً كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها أي رمى بها إلى فوق فلم يبقَ بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة فحدث بها العباس صديقاً له، يقال له: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وذكرها عتبة لابنته ففشا الحديث: فقال أبو جهل للعباس: يا أبا الفضل ما يرضى رجالكم أن يتنبؤوا حتى تنبأت نساؤكم، فخرج أبو جهل بأهل مكة وهم النفير، فقيل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكة، فقال: لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فتتسامع جميع العرب بمخرجنا وأن محمداً لم يصب العير، وأنا قد أغضضناه فمضى بهم إلى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة فنزل جبريل فقال يا محمد إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريشاً فاستشار

النبي عليه السلام أصحابه فقال: «ما تقولون إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب إليكم أم النفير» فقالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله ﷺ ثم ردد عليهم فقال: «إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل» يريد ﷺ بذلك أن تلقي النفير وجهاد المشركين آثر عنده وأنفع للمؤمنين من الظفر بالعير لما في تلقي النفير من كسر شوكة المشركين، وإظهار الدين الحق على الأديان كلها، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عند ما غضب رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا الكلام في اتباع مراد رسول الله ﷺ ثم قام سيد الخزرج سعد بن عبادة فقال انظر في أمرك وامضِ فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار ثم قال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امضِ لما أمرك الله فإنا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف فتبسم رسول الله ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس» وهو يريد الأنصار، أي: بينوا لي ما في ضميركم في حق نصرتي ومعاونتي في هذه المعركة وذلك لأن الأنصار كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة أن ينصروه ما دام في المدينة، وإذا خرج منها لا يكون عليهم معاونة ونصرة فأراد عليه السلام أن يعاهدهم على النصرة، في تلك المعركة أيضاً فقام سعد بن معاذ: فكأنك تريدنا يا رسول الله قال: «أجل» قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامضِ يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل وما نكره أن تلقى بنا عدونا إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله تعالى يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله ﷺ ونشطه قول سعد ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم» فالمعنى أخرجك ربك من بيتك لأن تترك التوجه إلى العير وتؤثر عليه مقاتلة النفير في حال كراهة فريق من أصحابك ما آثرته من محاربة النفير.

﴿يجادلونك في الحق﴾ الذي هو تلقي النفير لإيثارهم عليه تلقي العير. **﴿بعدما تبين﴾** منصوب بيجادلونك وما مصدرية، أي: يخاصمونك بعد تبين الحق وظهوره لهم بإعلامك أنهم ينصرون أينما توجهوا ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير وهلا قلت لنا إن الخروج لمقاتلة النفير لنستعد ونتأهب فمن قال ذلك إنما قال كراهة لإخراجه عليه الصلاة والسلام من المدينة وكراهتهم القتال. **﴿كأنما يساقون إلى الموت﴾** الكاف في محل النصب على الحالية من الضمير في لكارهون أي مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار إلى القتل. **﴿وهم ينظرون﴾** حال من ضمير يساقون أي والحال أنهم ينظرون إلى أسباب الموت ويشاهدونها عياناً وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع إلا لقلة عددهم وعدم تأهبهم وكونه رجالة. وروي أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ليس فيهم إلا فارسان الزبير والمقداد ولهم سبعون بعيراً وست أدرع وثمانية أسياف وكان المشركون أكثر عدداً وعدداً بالأضعاف.

والإشارة: أن الله تعالى أخرج المؤمنين الذين هم المؤمنون حقاً من أوطان البشرية إلى مقام العندية بجذبات العناية. **﴿كما أخرجك ربك من بيتك﴾** أي: من وطن وجودك بالحق أي

بمجيء الحق من تجلي صفات جماله وجلاله. ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ أي: القلب والروح يعني للفناء عند التجلي فإن البقاء محبوب والفناء مكروه على كل ذي وجود يجادلونك أي الروح والقلب في الحق أي مجيء الحق من بعد ما تبين مجيئه لكراهة الفناء كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون يعني كأنهم ينظرون إلى الفناء ولا يزول البقاء بعد الفناء كمن يساق إلى الموت كذا في «التأويلات النجمية». وفي «المثنوي»:

شير دنيا جويد اشكارى وبرك ... شير مولى جويد آزادى ومرك
چونكه اندر مرك بيند صد وجود ... همچو پروانه بسوزاند وجود
كل شيء هالك جز وجه او ... چون نهٔ در وجه اوهستى مجو
هركه اندر وجه ما باشد فنا ... كل شيء هالك نبود جزا
زانكه در «الا» ست اواز «لا» كذشت ... هركه در «الا» ست أو فانى نكشت

واعلم: أنه كما لا اعتراض على الأنبياء في وحيهم وعباراتهم كذلك لا اعتراض على الأولياء في إلهامهم وإشاراتهم وأن السعادة في العمل والأخذ بآياتهم والوجود وإن كان محبوباً لأهل الوجود لكن الفناء محبوب لأهل الشهود.

فعلى السالك أن ينقطع عن جميع اللذات الدنيوية ويطهر نفسه عن لوث الأغراض الدنية ويكون الرسول وأمره أحب إليه من نفسه إلى أن ينفد عمره.

روى البخاري عن عبد الله بن هشام أنه قال: كنا مع النبي عليه السلام وهو آخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله أنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال ﷺ: «لا والذي نفس محمد بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» أي: لا يكون إيمانك كاملاً حتى تؤثر رضاي على رضى نفسك وإن كان فيه هلاكك فقال عمر الآن والله أنت أحب إلي من نفسي فقال: «الآن يا عمر» يعني صار إيمانك كاملاً.

قال ابن ملك: والمراد من هذه المحبة محبة الاختيار لا محبة الطبع لأن كل أحد مجبول على حب نفسه أشد من غيرها انتهى. قوله محبة الاختيار وهو أن يختار رضى النبي عليه السلام على رضى نفسه فالمراد هو الإيثار، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] فكما أن هذا الإيثار لا يقتضي عدم احتياج المؤثر فكذلك إيثار رضى الغير لا يستدعي أن تكون المحبة له أشد من كل وجه هذا ولكن فوق هذا كلام فإن من فني عن طبيعته ونفسه بل عن قالبه وقلبه فقد فني عن محبتها أيضاً وتخلص من الاثنينية ووصل إلى مقام المحبوبية الذي لا غاية وراءه رزقنا الله وإياكم ذلك بفضله وكرمه.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿وإذ يعدكم الله﴾ أي: اذكروا أيها المؤمنون وقت وعد الله تعالى إياكم. ﴿إحدى الطائفتين﴾ أي: الفريقين إحداهما أبو سفيان مع العير والأخرى أبو جهل مع النفير. ﴿أنها لكم﴾ بدل اشتمال من إحدى الطائفتين مبين لكيفية الوعد أي يعدكم أن إحدى الطائفتين كائنة لكم مختصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليها تسلط الملاك على أملاكهم وتتصرفون فيها كيف

شئتم. ﴿وتودون﴾ عطف على يعدكم داخل تحت الأمر بالذكر أي: تحبون. ﴿أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ من الطائفتين لا ذات الشوكة وهي النفير ورئيسهم أبو جهل وهم ألف مقاتل وغير ذات الشوكة هي العير؛ إذ لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ورئيسهم أبو سفيان ولذلك يتمنونها. والشوكة: الحدة، أي السلاح الذي له حدة كسنان الرمح والسيف ونصل السهم مستعار من واحدة الشوك والشوك نبت في طرفه حدة كحدة الإبرة. ﴿ويريد الله﴾ عطف على تودون منتظم معه في سلك التذكير أي اذكروا وقت وعده تعالى إياكم إحدى الطائفتين ووادادتكم لأدناهما، وقوله تعالى: ﴿أن يحق الحق﴾ أي: يثبته ويعليه ﴿بكلماته﴾ بأمره لكم بالقتال. ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي: آخرهم ويستأصلهم بالمرة. والمعنى أنكم تريدون أن تصيبوا مالاً ولا تلقوا مكروهاً والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين.

﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ اللام متعلقة بفعل مقدر مؤخر عنها، أي: لهذه الغاية الجليلة وهي إظهار الدين الحق وإبطال الكفر فعل ما فعل لا لشيء آخر وليس فيه تكرار؛ إذ الأول مذكور لبيان تفاوت ما بين الإرادتين إرادة الله وإرادة المؤمنين، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول ﷺ على اختيار التوجه إلى ذات الشوكة ونصره عليها وقطع دابر المشركين ومعنى إحقاق الحق إظهار حقيته لا جعله حقاً بعد أن لم يكن كذلك وكذا حال إبطال الباطل. ﴿ولو كره المجرمون﴾ أي: المشركون ذلك أي إحقاق الحق وإبطال الباطل.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ أي: اذكروا وقت استغاثتكم وهي طلب الفوز والنصر والعون وذلك أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال جعلوا يدعون الله تعالى قائلين أي رب انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين أغثنا.

وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه، وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز ما وعدك فهذه الاستغاثة كانت من النبي عليه السلام ومن المؤمنين وإسناد الفعل إلى الجماعة لا ينافي كونه من النبي عليه السلام لأنه دعا وتضرع والمؤمنون كانوا يؤمنون. ﴿فاستجاب لكم﴾ أي: أجاب عطف على تستغيثون داخل معه في حكم التذكير. ﴿أني﴾ بأني ﴿ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ أي: جاعلين غيرهم من الملائكة رديفاً لأنفسهم فالمراد رؤساؤهم المستتبعون لغيرهم حتى صاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف.

﴿وما جعله الله﴾ عطف على مقدر أي فأمدكم الله بإنزال الملائكة عياناً وما جعل ذلك الإمداد لشيء من الأشياء. ﴿إلا بشرى﴾ أي: إلا للبشارة لكم بأنكم تنصرون فهو استثناء مفرغ من أعم العلل. ﴿ولتطمئن به﴾ أي: بالإمداد ﴿قلوبكم﴾ فيزول ما بها من الوجل لقلتكم وذلتكم وفي قصر الإمداد عليها إشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال وإنما كان إمدادهم بتقوية

قلوب المباشرين وتكثير سوادهم ونحوه ولو بعثهم الله بالمحاربة لكان يكفي ملك واحد فإن جبريل أهلك بريشة واحدة من جناحه سبعاً من مدائن قوم لوط وأهلك بصيحة واحدة جميع بلاد ثمود.

قال الحدادي: وهذا القول أقرب إلى ظاهر الآية وقيل: نزل جبرائيل في خمسمائة من الملائكة على الميمنة، وفيها أبو بكر رضي الله عنه ونزل ميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقاتلوا وقيل قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ويوم حنين. وروي أن رجلاً قال تبعت رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي ﴿وما النصر﴾ أي: حقيقة النصر على الإطلاق. ﴿إلا﴾ كائن ﴿من عند الله﴾ من غير أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب فإن إمداد الملائكة وكثرة العدد والأهب ونحوهما وسائط لا تأثير لها فلا تحسبوا النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدها ونعم ما قيل:

النصر ليس بأجناد مجندة ... لكنه بسعادات وتوفيق

﴿إن الله عزيز﴾ لا يغالب في حكمه ولا ينازع في أقضيته. ﴿حكيم﴾ يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

واعلم أن للملائكة أمداداً في كل جيش حق، وإن لم يكونوا مرئيين ومشاهدين بحسب أبصارنا وهم في الحقيقة إشارة إلى القوى الروحانية الغالبة، فإنها إذا ظهرت في وجود المجاهر بالجهاد الأكبر لا يقابلها شيء من القوى الأنفسية الشريرة المغلوبة وكذا ما كان مظاهرها من كفار الظاهر وإنما العمدة هي اليقين والاطمئنان. روي أن بني إسرائيل أعطوا السكينة وهي ريح ساكنة تخلع قلب العدو بصوتها رعباً إذا التقى الصفان وهي معجزة لأنبيائهم وكرامة لملوكهم وللسكينة معنيان آخران: أحدهما شيء من لطائف صنع الحق يلقي على لسان محدث الحكمة كما يلقي الملك الوحي على قلوب الأنبياء مع ترويح الأسرار وكشف السر، وثانيهما ما أنزل على قلب النبي عليه السلام وقلوب المؤمنين وهو شيء يجمع نوراً وقوة وروحاً يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين وقد ورثه المجاهدون في سبيل الله بعدهم إلى قيام الساعة وإنما لا يظهر في بعض الأحيان والوقائع لحكمة أخفاها الله عن الغافلين.

هر خلل كاندر عمل بينى زنقصان دلست ... رخنه كاندر قصر بينى ازقصور قيصر ست

وكل عصر على التنزل بالنسبة إلى ما قبله ولهذا لا يظهر النصر في بعض السرايا بل يقال يا أيها الكفرة اقتلوا الفجرة.

قيل لعلي رضي الله عنه: ما بال خلافة عثمان مع خلافتك كانت متكدرة بخلاف خلافة الشيخين قال: كنت أنا وعثمان من أعوانهما وأنت وأمثالك من أعواننا فعلى المجاهدين أن يستغيثوا ربهم ويتضرعوا إليه كما تضرع الأصحاب رضي الله عنهم ومن يليهم لعل الله تعالى يظهر نصره.

دعاى ضعيفان اميدواره ... ز بازوى مردى به آيد بكار

ألا يا أيها المرء الذي في عسره أصبح ... إذا اشتد بك الأمر فلا تنس ألم نشرح

واعلم: أن أصدق المقال قول الله تعالى وقول رسوله وقد وعد وأمد فعليك بقوة الإيمان واليقين.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي قدس سره في وصايا «الفتوحات»: ولقد ابتلي عندنا

رجل من أعيان الناس بالجذام نعوذ بالله منه، وقال الأطباء بأسرهم لما أبصروه: وقد تمكنت العلة فيه ما لهذا المرض دواء فرآه شيخ من أهل الحديث يقال له سعد السعود، وكان عنده إيمان بالحديث عظيم، فقال له: يا هذا لِمَ لا تطيب نفسك فقال له الرجل إن الأطباء قالوا ليس لهذه العلة دواء، فقال سعد السعود كذبت الأطباء والنبي عليه السلام أحذق منهم وقد قال في الحبة السوداء «إنها شفاء من كل داء» وهذا الداء الذي نزل بك من جملة ذلك، ثم قال عليّ بالحبة السوداء والعسل فخلط هذا بهذا وطلى بهما بدنه كله ووجهه ورأسه إلى رجليه وألعقه من ذلك وتركه ساعة، ثم إنه غسل فانسلخ من جلده ونبت له جلد آخر ونبت ما كان قد سقط من شعره وبرىء وعاد إلى ما كان عليه في حال عافيته، فتعجب الأطباء والناس من قوة إيمانه بحديث رسول الله ﷺ. وكان رحمه الله يستعمل الحبة السوداء في كل داء يصيبه، حتى في الرمد إذا رمدت عينه اكتحل بها فبرىء من ساعته انتهى كلام الشيخ فقد عرفت أن الاطمئنان وقوة الإيمان يجلب للمرء ما يهواه بعناية الملك المنان لكنه قليل أهله خصوصاً في هذا الزمان والله المعين.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

﴿إذ يغشيكم النعاس﴾ قال جماعة من المفسرين: لما أمر الله النبي عليه السلام بالمسير إلى الكفار سار بمن معه حتى إذا كان قريباً من بدر لقي رجلين في الطريق فسألهما هل مرت بكما العير؟ قالا: نعم مرت بنا ليلاً وكان بين يدي رسول الله ﷺ عشرة من المسلمين فأخذوا الرجلين وكان أحدهما عبداً للعباس بن عبد المطلب، يقال له أبو رافع، والآخر عبداً لعقبة بن أبي معيط، يقال له: أسلم كانا يسقيان الماء فدفع أسلم إلى أصحابه يسألونه، وأخذ هو يسأل أبا رافع عمن خرج من أهل مكة فقال ما بقي بها أحد إلا وقد خرج، فقال عليه السلام «تأتي مكة اليوم بأفلاذ كبدها» ثم قال: «هل رجع منهم أحد» قال نعم أبيّ بن سريق في ثلاثمائة من بني زهرة وكان خرج لمكان العير فلما أقبلت العير رجع فسماه النبي عليه السلام الأخنس حين خنس بقومه، ثم أقبل على أصحابه وهم يسألون أسلم وكان يقول لهم خرج فلان وفلان وأبو بكر يضربه بالعصا، ويقول له كذبت أتجبن الناس فقال عليه السلام: «إن صدقكم ضربتموه وإن كذبكم تركتموه» فعلموا أن رسول الله ﷺ قد عرف أمرهم فساروا حتى نزلوا في كثيب أعفر، أي: في تل من الرمل الأحمر تسوخ فيه الأقدام أي تدخل وتغيب على غير ماء بالجانب الأقرب من المدينة من الوادي، ونزل المشركون بجانبه الأبعد من المدينة الأقرب إلى مكة والوادي بينهما ثم باتوا ليلتهم تلك وناموا، ثم استيقظوا وقد أجنب أكثرهم وغلب المشركون على ماء بدر وليس معهم ماء فتمثل لهم الشيطان فوسوس إليهم وقال: أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم أولياء الله وفيكم رسوله وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحق ما سبقكم المشركون إلى الماء وغلبوكم عليه وما ينتظرون إلا أن يضعفكم العطش، فإذا قطع أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة فحزنوا حزناً شديداً فأشفقوا فأنزل الله عليهم المطر ليلاً حتى سال الوادي وامتلأ من الماء فاغتسل المسلمون وتوضؤوا وشربوا وسقوا دوابهم وبنوا على عدوته أي جانبه حياضاً

واشتد الرمل وتلبدت بذلك أرضهم وأوحل أرض عدوهم حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس وقويت القلوب وتهيؤوا للقتال من الغد فذلك قوله تعالى: ﴿إذ يغشيكم النعاس﴾ أي: اذكروا أيها المؤمنون وقت جعل الله النعاس وهو أول النوم قبل أن يثقل غاشياً لكم ومحيطاً وملقى عليكم. ﴿أمنة منه﴾ منصوب على العلية بفعل مترتب على الفعل المذكور أي يغشيكم النعاس فتنعسون أمناً كائناً من الله تعالى لا كلالاً لا وإعياء فيتحد الفاعلان لأن الأمن فعل النعاس.

قال في «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن النعاس في المعركة عند مواجهة العدو والأمن منه بدل الخوف إنما هو من تقليب الحال إلى ضده بأمر التكوين، كما قال تعالى للنار: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت كذلك قال للخوف كن أمناً على محمد وأصحابه فكان انتهى.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «النعاس عند القتال أمن من الله تعالى وهو في الصلاة من الشيطان».

قال الحسن: إن للشيطان ملعقة ومكحلة فملعقته الكذب ومكحلته النوم عند الذكر.

﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾ أي: بذلك الماء يعني المطر من الحدث والجنابة.

﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي: وسوسته وتخويفه إياكم من العطش، ويقال أراد بالرجز الجنابة التي أصابتهم بالاحتلام فإن الاحتلام إنما يكون من رجز الشيطان، أي: تخييله ووسوسته ولذلك قال بعضهم من كتب اسم عمر على صدره لم يحتلم فإن الشيطان كان يفر منه ويسلك فجاً غير الفج الذي أقبل هو منه. ﴿وليربط على قلوبكم﴾ الربط الشد والتقوية وعلى صلة. والمعنى وليربط قلوبكم ويشدها ويقويها بجعلها واثقة بلطف الله تعالى وكرمه وجيء بكلمة على للإيذان بأن قلوبهم امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها.

﴿ويثبت به﴾ أي: بذلك الماء ﴿الأقدام﴾ حتى لا تسوخ في الرمل، ويجوز أن يكون الضمير للربط فإن الأقدام إنما تثبت في الحرب بقوة القلب وتمكن الصبر والجراءة فيه.

دلا در عاشقى ثابت قدم باش   كه در اين ره نباشد كار بى اجر

وبمثل الصدق والصبر وارتباط القلب وثبات الأقدام سادت الصحابة الكرام من عداهم إلى يوم القيام ولا فضل لأحد على أحد إلا بالديانة والتقوى.

قال الزهري: قدمت على عبد الملك بن مروان، قال من أين قدمت يا زهري؟ قلت: من مكة، قال فمن خلفت فيها يسود أهلها؟ قال: قلت عطاء بن رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي قال: بِمَ سادهم قلت بالديانة والرواية قال: إن أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا الناس، قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فبِمَ سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال من كان كذلك ينبغي أن يسود الناس قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي؛ فقال: كما قال في الأولين ثم قال فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول الدمشقي، فقال: من العرب أم من الموالي؟ قلت من الموالي عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل، فقال: كما قال ثم قال فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، فقال: كما

قال، ثم قال فمن يسود أهل حرمنا؟ قلت الضحاك بن مزاحم، فقال من العرب أم من الموالي؟ قلت من الموالي، فقال: كما قال، ثم قال فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن، قال من العرب أم من الموالي؟ قلت من الموالي، قال ويلك فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعي، قال من العرب أم من الموالي؟ قلت من العرب قال ويلك يا زهري فرجت عني والله ليسودن الموالي على الأكابر حتى يخطب لها على المنابر، وإن العرب تحتها قال قلت يا أمير المؤمنين إنما هو أمر الله ودينه فمن حفظه ساد ومن ضيعه سقط.

وفي الآية: بيان نعمة الماء وأن الخوف من العطش وكذا من الجوع من الشيطان ووسوسته فإن المرء إذا كان قوي التوكل يستوي عنده الفقد والوجود والله تعالى من اسمه الخالق والرازق قالوا وللأسد من الصبر على الجوع وقلة الحاجة إلى الماء ما ليس لغيره من السباع ولا يأكل من فريسة غيره وإذا شبع من فريسة تركها ولم يعد إليها وإذا امتلأ بالطعام ارتاض ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب فينبغي للمؤمن أن لا يكون أدون من الأسد في هذه الصفات.

على المرء أن يسعى لتحسين حاله وليس عليه أن يساعده الدهر

والله تعالى قد سنّ الإعانة بإعانته للمؤمنين فالمؤمن الكامل يساعد المؤمن حسب الطاقة. وحكي أن فيروز بن يزدجرد بن بهرام من آل ساسان لما ملك عدل وأنصف ولما مضى سبع سنين من ملكه ولم ينزل من السماء مطر أرسل إلى كل بلد بأن يقسم طعام كل بلد بين الأغنياء والفقراء وإذا مات فقير من الجوع قتل من الأغنياء رجلاً بدلاً منه. قال الحافظ:

توانكرا دل درويش خود بدست آور كه مخزن زر وكنج درم نخواهد ماند

اللهم احفظنا من البخل والكسل إلى حلول الأجل.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة﴾ الوحي إلقاء المعنى إلى النفس من وجه خفي، والمعنى: اذكر يا محمد وقت إيحائه تعالى إلى الملائكة ﴿أني معكم﴾ مفعول يوحي، أي: بالإمداد والتوفيق في أمر التثبيت فليس القصد إزالة الخوف كما في ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]؛ إذ لا خوف للملائكة من الكفار حتى يقال لهم إني معكم فلا تخافوهم وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية الملائكة إنما هو من حيث إنهم المباشرون للتثبيت صورة فلهم الأصالة من تلك الحيثية، كما في أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ بالبشارة وتكثير السواد ونحوهما مما تقوى به قلوبهم والتثبيت عبارة عن الحمل على الثبات في مواطن الحرب والجد في مقاساة شدائد القتال. ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي: سأقذف في قلوبهم المخافة من المؤمنين وهو تلقين للملائكة ما يثبتونهم به كأنه قيل قولوا لهم قولي سألقي إلخ ﴿فاضربوا﴾ أيها المؤمنون فلا دلالة في الآية على قتال الملائكة ﴿فوق الأعناق﴾ أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس.

قال الحدادي: وإنما أمر الله بضرب الأعناق لأن أعلى جلدة العنق هو المقتل.
﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ البنان في اللغة: هو الأصابع وغيرها من الأعضاء التي بها يكون قوام الإنسان وحياته، والمقصود اضربوهم في جميع الأعضاء من أعاليها إلى أسافلها. وقيل: الوجه أن يراد بها المدافعة والمقاتلة، وكذا قال التفتازاني.

﴿ذلك﴾ الضرب والقتل والعقاب واقع عليهم. ﴿بأنهم﴾ أي: بسبب أنهم ﴿شاقوا الله ورسوله﴾ أي: خالفوا وغالبوا من لا سبيل إلى مغالبته أصلاً.

قال ابن الشيخ: معنى شاقوا الله شاقوا أولياء الله واشتقاق المشاقة من الشق لما أن كلاً من المشاقين في شق خلاف شق الآخر كما أن المحادة أن يصير أحدهما في حد غير حد الآخر.

وفي الآية: إشارة إلى أن كل سعادة وشقاوة تحصل للعبد في الدنيا والآخرة يكون للعبد فيها مدخل بالكسب. ﴿ومن يشاقق الله ورسوله﴾ أي: ومن يخالف أولياء الله ورسوله ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ له.

قال الحدادي: أما إظهار التضعيف في موضع الجزم في قوله: ﴿يشاقق الله﴾ فهو لغة أهل الحجاز وغيرهم يدغم أحد الحرفين في الآخر لاجتماعهما من جنس واحد، كما قال تعالى في سورة الحشر ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ٤] بقاف واحدة.

﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ قوله ذلكم خبر مبتدأ محذوف وقوله وأن إلخ معطوف عليه، وقوله: (فذوقوه) اعتراض والضمير لما في ضمن المشار إليه من العقاب، والتقدير حكم الله ذلكم أي ثبوت هذا العقاب لكم عاجلاً وثبوت عذاب النار آجلاً، وإنما قال في عذاب الدنيا فذوقوه لأن الذوق يتناول اليسير من الشيء فكل ما يلقي الكفار من ضرب أو قتل أو أسر أو غيرها في الدنيا فهو بالنسبة إلى ما أعد لهم في الآخرة بمنزلة ذوق المطعوم بالنسبة إلى آكله.

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿فذوقوه﴾ أي: ذوقوا العاجل منه صورة ومعنى أما صورة فبالقتل والأسر والمصائب والمكروهات، وأما معنى فبالبعد والطرد عن الحضرة وتراكم الحجب وموت القلب وعمى البصيرة وضعف الروح وقوة النفس واستيلاء صفاتها وغلبة هواها وما يبعده عن الحق ويقربه إلى الباطل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال سوى أصحاب رسول الله ﷺ صفوفهم وقدموا راياتهم فوضعوها مواضعها فوقف رسول الله ﷺ على بعير له يدعو الله ويستغيث فهبط جبريل عليه السلام في خمسمائة على ميمنتهم وميكائيل عليه السلام في خمسمائة على ميسرتهم فكان الملك يأتي الرجل من المسلمين على صورة رجل، ويقول له دنوت من عسكر المشركين فسمعتهم يقولون، والله لئن حملوا علينا لا نثبت لهم أبداً وألقى الله في قلوب الكفرة الرعب بعد قيامهم للصف، فقال عتبة بن ربيعة: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قريش نقاتلهم فقام إليهم بنو عفراء من الأنصار عوذ ومعوذ أمّهم عفراء وأبوهم الحارث، فمشوا إليهم، فقالوا لهم: ارجعوا وأرسلوا إلينا أكفاءنا من بني هاشم، فخرج عليهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، فقال علي: مشيت إلى الوليد بن عتبة ومشى إلي فضربته بالسيف أطرت يده ثم بركت عليه فقتلته، فقام شيبة بن ربيعة إلى عبيدة بن الحارث فاختلفا بضربتين ثم ضرب عبيدة

ضربة أخرى فقطع ساق شيبة، ثم قام حمزة إلى عتبة، فقال: أنا أسد الله وأسد رسوله، ثم ضربه حمزة فقتله فقام أبو جهل في أصحابه يحرضهم يقول: لا يهولنكم ما لقي هؤلاء فإنهم عجلوا فاستحقوا ثم حمل هو بنفسه ثم حمل المسلمون كلهم على المشركين فهزموهم بإذن الله تعالى» وفي حق هؤلاء السادات ورد «اطلع الله على أهل بدر» يعني نظر إليهم بنظر الرحمة والمغفرة «فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» المراد به إظهار العناية بهم وإعلاء رتبتهم لا الترخيص لهم في كل فعل كما يقال للمحبوب اصنع ما شئت.

فعلى العاقل أن يقتفي بأثرهم في باب المجاهدة مطلقاً. قال الحافظ:

درره نفس كزوسينهٔ ما بتكده شد تير آهى بكشاييم وغزايى بكنيم

وقال في حق أهل الجزع:

ترسم كزين چمن نبرى آستين كل كز كلشنش تحمل حارى نميكنى

اللهم اجعلنا من الصابرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا﴾ لقيه أي رآه ﴿زحفاً﴾ الزحف الدبيب يقال زحف الصبي زحفاً من باب فتح إذا دب على استه قليلاً قليلاً سمي به الجيش الدهم المتوجه إلى العدو؛ لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف وذلك لأن الكل يرى كجسم واحد متصل فيحس حركته بالقياس إليه في غاية البطء وإن كانت في نفس الأمر في غاية السرعة ونصبه على حال من مفعول لقيتم بمعنى زاحفين نحوكم، والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل. ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ فلا تولوهم أدباركم فضلاً عن الفرار بل قابلوهم وقاتلوهم مع قلتكم فضلاً عن أن تدانوهم في العدد وتساووهم، عدل عن لفظ الظهور إلى لفظ الأدبار تقبيحاً لفعل الفار وتشنيعاً لانهزامه والتولية جعل الشيء يلي غيره وهو متعد إلى مفعولين وولاه دبره إذا جعله إليه.

﴿ومن يولهم يومئذٍ دبره﴾ أي: ومن يجعل ظهره إليهم وقت اللقاء والقتال فضلاً عن الفرار فيومئذٍ هنا بمعنى حينئذٍ؛ لأن اليوم وإن كان اسماً لبياض النهار إذا أطلق لكنه إذا قرن به فعل لا يمتد يراد به مطلق الوقت. ﴿إلا متحرفاً لقتال﴾ إما بالتوجه إلى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء، وإما بالفر للكر بأن يخيل لعدوه أنه منهزم ليغره ويخرجه من بين أعوانه ثم يعطف عليه وحده أو مع من في المكمن من أصحابه وهو باب من خدع الحرب ومكايدها، يقال: انحرف وتحرف إذا مال من جانب إلى جانب آخر والحرف الطرف والجانب وانتصابه على الحالية والتقدير ومن يولهم ملتبساً بحال من الأحوال أية حال كانت إلا في حال كذا. ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ أي: منحازاً إلى جماعة أخرى من المؤمنين قريبة أو بعيدة لينضم إليهم، ثم يقاتل معهم العدو فالانهزام حرام إلا في هاتين الحالتين فإن كل واحدة منهما ليست انهزاماً في الحقيقة بل من قبيل التهيؤ والتقوى للحرب فمن ولى ظهره لغير أحد هذين الغرضين. ﴿فقد باء﴾ أي: رجع ﴿بغضب﴾ عظيم كائن ﴿من الله﴾ تعالى ﴿ومأواه﴾ في الآخرة ﴿جهنم﴾ أي:

بدل ما أراد بفراره أن يأوي إليه من مأوى ينجيه من القتل والمأوى المكان الذي يأوي إليه الإنسان أي يأتيه. ﴿وبئس المصير﴾ أي: المرجع جهنم وهذا الوعيد وإن كان بحسب الظاهر متناولاً لكل من يولي دبره وقت ملاقاة الكفار إلا أنه مخصوص بما إذا لم يزد العدو على ضعف المسلمين لقوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

قال ابن عباس رضي الله عنه: من فر من ثلاثة لم يفر ومن فرّ من اثنين فقد فر أي ارتكب المحرم وهو كبيرة الفرار من الزحف. وفي «المثنوي»:

اين چنين هوشى كه ازموشى پريد ... اندر آن صف تيغ چون خواهد كشيد
چالش است آن حمزه خوردن نيست اين ... تاتو بر مالى بخوردن آستين
نيست حمزه خودن اينجا تيغ بين ... حمزهٔ بايد درين صف آهنين
كار هر نازك دلى نبود قتال ... كه كر يزد از خيالى چون خيال
كار تركانست نى تركان برو ... جاى تركان هست خانه خانه شو

وعد بعض العلماء الكبائر إلى سبعين منها: الفرار من الجيش في الغزو إذا كان مثلاً أو ضعفاً، وكل ما كان شنيعاً بين المسلمين وفيه هتك حرمة الله والدين فهي كبيرة تسقط العدالة في الشهادة، فعلى العاقل أن يقدم على الحرب بقلب جريء ويعلم أن الجبن لا يؤخر أجله وأن الإقدام على القتال لا يعجل موته ويتشبه الغازي في أوان المقاتلة بأصناف من الخلق فيكون كقلب الأسد لا يجبن ولا يفر كما أن الأسد مقدام غير جبان وكرار غير فرار وفي كبر النمر بالفارسية [پلنك] لا يتواضع للعدو وفي شجاعة الدب يقاتل بجميع جوارحه وفي جملة الخنزير لا يولي دبره إذا حمل أي لا يعرض وجهه عما توجه إليه وفي إغارة الذئب إذا يئس من وجه أغار من وجه آخر والإغارة بالفارسية [يغما كردن]، وفي حمل السلاح الثقيل كالنملة تحمل أضعاف وزن بدنها وفي الثبات كالحجر لا يزول عن مكانه وفي الصبر كالحمار وفي الوفاء كالكلب لو دخل سيده النار يتبعه، وفي التماس الفرصة والظفر كالديك ويكون في الصف ساكناً كالمصلي الخاشع، ويكون في متابعة أمير العسكر كمتابعة المأموم إمامه في الصلاة أي لا يخالفه أصلاً ويغطي نفسه بالسلاح كتغطية البكر نفسها بالثياب إذا زفت أي أرسلت إلى الزوج وفي تكثير قليل سلاحه وماله كالمرائي إذا قل ماله وعبادته ويكون في المكر والحيلة إذا هزمه العدو أي غلب عليه كالثعلب إذا اضطره الكلب فإن مدار الحرب على الخداع وفي التبختر والخيلاء بين الصفين كالعروس وفي الخفة في تحريف القتال من جانب إلى آخر كالصبي وفي صياحه إذا صاح بالعدو كالرعد وهو اسم ملك على قول وفي سوء ظنه أي في الحذر عما يهلكه في جميع أحواله كالغراب الأبقع وهو الذي فيه سواد وبياض وفي حراسته والاحتراز عن المكاره كالكركي وهو طير معروف لازوردي اللون يشابه اللقلق في الهيئة بالفارسية [كلنك] ومن الحيوان الذي لا يصلح إلا برئيس لأن في طبعه الحرس والتحارس بالنوبة والذي يحرس يهتف بصوت خفي كأنه ينذر بأنه حارس فإذا قضى نوبته قام الذي كان نائماً يحرس مكانه حتى يقضي كل ما يلزمه من الحراسة.

قال القزويني والكركي: لا يمشي على الأرض إلا بإحدى رجليه ويعلق الأخرى وإن وضعها وضعها خفيفاً مخافة أن تخسف به الأرض كذا في «حياة الحيوان».

والإشارة: أيها القلوب المؤمنة إذا لقيتم كفار النفوس وصفاتها مجتمعين على قهر القلوب وصفاتها فلا تنهزموا من سطوات النفوس وغلبات صفاتها بل اثبتوا بالصبر عند صدمات النفوس فإن الصبر عند الصدمة الأولى كما روي أن النبي عليه السلام أتى على امرأة تبكي على صبي ميت لها فقال: «اتقي الله واصبري» فقالت وما تبالي على مصيبتي فلما ذهب عليه السلام قيل لها إنه رسول الله فأخذها مصيبة مثل موت صبيها فجاءت بابه تستعذره وتقول لم أعرفك يا رسول الله فقال عليه السلام: «الصبر عند الصدمة الأولى» الصدم ضرب الشيء الصلب بمثله والصدمة مرة منه، يعني: الصبر المأجور عليه صاحبه ما كان عند فجأة المصيبة وحدتها لأنه إذا طالت الأيام عليه صار الصبر أيسر له ﴿ومن يولهم يومئذٍ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة﴾ يعني: إلا قلباً ينحرف ليهيىء أسباب القتال مع النفس أو راجعاً إلى الاستمداد من الروح وصفاتها أو إلى ولاية الشيخ يستمد منها إلى الحضرة الربانية في قمع النفس وقهرها بطريق المجاهدة والرياضة. ﴿فقد باء بغضب من الله﴾ يعني: بطرد وإبعاد منه ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ أي: مرجعه جهنم البعد عن الحضرة ونار القطيعة وبئس المرجع والمعاد.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿فلم تقتلوهم﴾ أي: إن افتخرتم بقتل الكفار يوم بدر فاعلموا أنكم لم تقتلوهم بقوتكم وقدرتكم. ﴿ولكن الله قتلهم﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم. روي أنه لما طلعت قريش من العقنقل وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي قال عليه السلام: «هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم إني أسألك ما وعدتني» فأتاه جبريل فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلي رضي الله عنه «أعطني من حصباء الوادي» فرمى بها في وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» أي: قبحت فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه تراب فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا من المعركة غالبين غانمين أقبلوا على التفاخر يقولون قتلت وأسرت وفعلت وتركت فنزلت والظاهر أن قوله: ﴿فلم تقتلوهم﴾ رجوع إلى بيان بقية قصة بدر والفاء جواب شرط مقدر يستدعيه ما مر من ذكر إمداده تعالى وأمره بالتثبيت وغير ذلك كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم تقتلوهم أنتم كما هو مختار المولى أبي السعود في «تفسيره» ﴿وما رميت﴾ يا محمد حقيقة ﴿إذ رميت﴾ صورة وإلا لكان أثر الرمي من جنس آثار الأفاعيل البشرية. ﴿ولكن الله رمى﴾ أتى بما هو غاية الرمي فأوصل أجزاء تلك القبضة إلى عيون جميع المشركين حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم فصورة الرمي صدرت منه عليه السلام إلا أن أثرها إنما صدر من الله تعالى إذ ليس في وسع البشر أن يرمي كفاً من الحصباء في وجوه جيش فلا يبقى فيهم عين إلا ويصيبها منه شيء. واللفظ يطلق على المسمى وعلى ما هو كماله والمقصود منه كإطلاق المؤمن على المؤمن الكامل.

قال في «التأويلات النجمية»: إن الله نفى عن الصحابة القتل بالكلية وأحاله إلى نفسه لأنه تعالى كان مسبب أسباب القتل من إمداد الملائكة وإلقاء الرعب في قلوب الكفار وتقوية قلوب المؤمنين وغير ذلك فالفعل يحال إلى السبب، كقولهم القلم يكتب مليحاً والكاتب يكتب مليحاً

وهو المسبب للكتابة. قال في «المثنوي»:

هر چه خواهد آن مسبب آورد — قدرت مطلق سببها بر درد
از مسبب ميرسد هر خير وشر — نيست أسباب ووسائط را اثر
اين سببها بر نظرها پردهاست — كه نه هرديدار صنعش راسزاست
ديدهٔ بايد سبب سوراخ كن — تا حجب رابر كند از بيخ وبن
تامسبب بيند اندر لامكان — هرزه بيند جهدوا ساب ودكان

والفرق فيما بين النبي عليه السلام وبين الصحابة رضي الله عنهم أن الله تعالى نفى القتل عن الصحابة بالكلية وأحاله إلى نفسه، فجعلهم سبباً للقتل وهو المسبب وما نفى الرمي عن النبي عليه السلام بالكلية بل أسند إليه الرمي ولكن نفى وجوده بالكلية في الرمي، وأثبته لنفسه تعالى، أي: وما رميت بك إذ رميت، ولكن رميت بالله وذلك في مقام التجلي فإذا تجلى الله لعبد بصفة من صفاته يظهر على العبد منه فعلاً يناسب تلك الصفة، كما كان من حال عيسى عليه السلام لما تجلى الله له بصفة الإحياء كان يحيي الموتى بإذنه أي به وهذا كقوله تعالى: «كنت له سمعاً وبصراً» الحديث فلما تجلى الله للنبي عليه السلام بصفة القدرة كان قد رمى به حين رمى وكان يده يد الله في ذلك كما كشف القناع عن هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

واعلم: أن الله أسند القتل إلى داود عليه السلام في قوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وفرق كثير بين عبد أضيف فعله إلى نفسه والعبد محل الآفات والحوادث وبين عبد أضيف فعله إلى الله تعالى والله منزه عن الآفات والحوادث.

ما رميت اذرميت كفت حق — كارحق بركارها دارد سبق
كر بپرانيم تيران نى زماست — ما كمان وتير اندارش خداست
تانشد مغلوب كس اين سر نيافت — كرتوخواهى آن طرف بايد شتافت

﴿وليبلي المؤمنين منه﴾ أي: ليعطيهم من عنده تعالى وينعم عليهم. ﴿بلاء حسناً﴾ أي: عطاء جميلاً ونعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات غير مشوبة بمقاساة الشدائد والمكاره. والبلاء: يطلق على النعمة وعلى المحنة؛ لأن أصله الاختيار وهو كما يكون بالمحنة لإظهار الصبر يكون بالنعمة أيضاً لإظهار الشكر، والاختبار من الله تعالى إظهار ما علم كما علم لا تحصيل علم ما لم يعلم لأنه تعالى منزه عنه. واللام: متعلقة بمحذوف مؤخر أي وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة والأجر العظيم فعل ما فعل لا لشيء غير ذلك مما لا يجديهم نفعاً. وإما برمي فالواو للعطف على علة محذوفة أي ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلي المؤمنين.

قال ابن الشيخ: والظاهر أن بلاء اسم مصدر ليبلي أي ليبليهم إبلاء حسناً والمتبادر من عبارة القاضي أنه حمله على نفس الشيء المبلوّ به على طريق إطلاق المصدر على المفعول حيث قال ولينعم عليهم نعمة عظيمة قال الكاشفي: [در حقائق سلمى از امام جعفر صادق رضي الله عنه نقل ميكندكه بلاء حسن آنست كه ايشانرا از نفوس ايشان فانى كرداند وبعد از فنا بهويت خود شان باقى سازد امام. قشيرى كويد بلاء حسن آنست كه مبتلى مشاهده كندميلى را در عين بلا].

چودانستى كه اين درد تواز كيست زرنج خويشتن مى باش خرم
كر او زهرت دهد بهتر زشكر وراوزحمت زندخوشتر زمرهم

﴿إن الله سميع﴾ لاستغاثتهم ودعائهم ﴿عليم﴾ بنياتهم وأحوالهم الداعية إلى الإجابة.
﴿ذلكم﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقوله تعالى: ﴿وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ معطوف على ذلكم، أي: المقصود إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم. والإيهان [سست كردن] والنعت موهون كذا في «تاج المصادر». والوهن الضعف والكيد المكر والحيلة والحرب.

وفي الآية: إشارة إلى أن التأثير من الله تعالى والعبد آلة في البين فينبغي للمرء أن لا يعجب بنفسه وعمله، ولذا قال الله تعالى: ﴿فلم تقتلوهم﴾ وأظهر منته عليهم والعجب استعظام العمل الصالح من غير ذكر التوفيق.

قال المسيح عليه السلام: يا معشر الحواريين كم من سراج قد أطفأته الريح، وكم من عابد قد أفسده العجب.

واعلم: أن الناس في العجب ثلاثة أصناف: صنف، هم معجبون بكل حال وهم المعتزلة والقدرية الذين لا يرون لله تعالى عليهم منة في أفعالهم وينكرون العون والتوفيق الخاص واللطف وتلك الشبهة استولت عليهم. وصنف هم الذاكرون المنة بكل حال وهم المستقيمون لا يعجبون بشيء من الأعمال وذلك لبصيرة أكرموا بها وتأييد خصوا به. والصنف الثالث المخلطون وهم عامة أهل السنة تارة يتنبهون فيذكرون منة الله تعالى وتارة يغفلون فيعجبون وذلك لمكان الغفلة العارضة والفترة في الاجتهاد والنقص في البصيرة فحق للعاقل أن يرى حقارة عمله وقلة مقداره من حيث هو وأن يرى أن منة الله عليه أشرف من قدر عمله وأعظم من جزائه وأن يحذر على فعله من أن يقع على وجه لا يصلح لله تعالى ولا يقع منه موقع الرضى، فتذهب عنه القيمة التي حصلت له، ويعود إلى ما كان في الأصل من الثمن الحقير من دراهم أو دوانق ومثاله أن العنقود من العنب أو الإضبارة من الريحان تكون قيمته في السوق دانقاً، فإذا أهداه واحد إلى الملك دستجة فوقع منه موقع الرضى يهب له على ذلك ألف دينار فصار ما قيمته حبة بألف دينار فإذا لم يرضه الملك أو رده عليه رجع إلى قيمته الخسيسة من حبة أو دانق فكذلك ما نحن فيه.

قال وهب: كان فيمن قبلكم رجل عبد الله سبعين سنة يفطر من سبت إلى سبت فطلب من الله حاجة فلم يقض فأقبل على نفسه وقال لو كان عندك خير قضيت حاجتك فأنزل الله تعالى ملكاً فقال يا ابن آدم ساعتك التي أزريت بنفسك فيها خير من عبادتك التي مضت. ونعم ما قال الحافظ الشيرازي:

در راه ما شكسته دلى ميخرند وبس بازار خودفروشى ازان سوى ديكرست

اللهم اجعلنا من أهل التوفيق ومن السالكين بطريق التحقيق.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إن تستفتحوا﴾ الخطاب لأهل مكة على سبيل التهكم بهم وذلك أنهم حين أرادوا

الخروج إلى بدر تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدين. وروي أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم انصر أفضل الفريقين وأحقهما بالنصر، اللهم أينا أقطع للرحم وأفسد للجماعة فأهلكه دعا على نفسه لغاية حماقته فاستجاب الله دعاءه حيث ضربه ابنا عفراء عوذ ومعاذ وأجهز عليه ابن مسعود رضي الله عنه. فالمعنى إن تستنصروا يا أهل مكة لا على الجندين. ﴿فقد جاءكم الفتح﴾ حيث نصر أعلاهما وقد زعمتم أنكم الأعلى فالتهكم في المجيء أو فقد جاءكم الهزيمة والقهر والخزي فالتكهم في نفس الفتح حيث وضع موضع ما يقابله. ﴿وإن تنتهوا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول. ﴿فهو﴾ أي: الانتهاء ﴿خير لكم﴾ أي: من الحراب الذي ذقتم غائلته لما فيه من السلامة من القتل والأسر ومبنى اعتبار أصل الخيرية في المفضل عليه هو التكهم. ﴿وإن تعودوا﴾ لمحاربته. ﴿نعد﴾ لنصره. ﴿ولن تغني﴾ أي: لن تدفع أبداً ﴿عنكم فئتكم﴾ أي: جماعتكم التي تجمعونهم وتستغيثون بهم. ﴿شيئاً﴾ أي: من الإغناء فنصب شيئاً على المصدر أو من المضار فنصبه على المفعولية. ﴿ولو كثرت﴾ فئتكم في العدد ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ أي: ولأن الله مع المؤمنين بالنصر والمعونة فعل ذلك.

وفي الآية: إشارة إلى أن النجاة في الإيمان والإسلام، والتسليم لأمر الله الملك العلام وأن غاية الباطل هو الزوال والاضمحلال وإن ساعده الإمهال. قال الحافظ:

اسم أعظم بكندكار خوداى دل خوش باش *** كه بتلبيس وحيل ديو سليمان نشود

واعلم: أن المحاربة مع الأولياء الكرام كالمحاربة مع الأنبياء العظام وكل منهم منصور على أعدائه لأن الله معهم وهو لا ينساهم ولا يتركهم بحال. حكي أن دانيال عليه السلام طرح في الجب، وألقيت عليه السباع فجعلت السباع تلحسه وتبصبص إليه فأتاه رسول فقال: يا دانيال فقال: من أنت، قال: أنا رسول ربك إليك أرسلني إليك بطعام فقال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره.

وإذا السعادة لاحظتك عيونها *** نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهي حبالة *** واقتد بها الجوزاء فهي عنان

وحكي الماوردي في كتاب «أدب الدنيا والدين» أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف فخرج له قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٥] فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد *** فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر *** فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث أياماً حتى قتل شرّ قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده.

جزم القاضي أبو بكر في الأحكام في سورة المائدة بتحريم أخذ الفأل من المصحف. ونقله القرافي عن الطرطوشي وأقره وأباحه ابن بطة من الحنابلة. وقال بعضهم: بكراهته كذا في «حياة الحيوان» للإمام الدميري.

والإشارة في الآية: ﴿إن تستفتحوا﴾ أبواب قلوبكم بمفتاح الصدق والإخلاص وترك ما سوى الله تعالى في طلب التجلي. ﴿فقد جاءكم الفتح﴾ بالتجلي فإن الله تعالى متجل في ذاته أزلاً وأبداً فلا تغير له وإنما التغير في أحوال الخلق فإنهم عند انغلاق أبواب قلوبهم إلى الله

محرومون من التجلي وعند انفتاح أبوابها محفوفون به. ﴿وإن تنتهوا﴾ أي: عن غير الله في طلب الله فهو خير لكم مما سواه ﴿وإن تعودوا﴾ إلى الدنيا وطلب لذاتها وشهواتها وزخارفها وإلى ما سوى الله تعالى ﴿نعد﴾ إلى خذلانكم إلى أنفسكم وهواها ودواعيها وغلبات صفاتها.

﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً﴾ أي: تقوم لكم الدنيا والآخرة وما فيهما مقام شيء من مواهب الله وألطافه ولو كثرت، يعني: وإن كثرت نعم الله من الدنيوية والأخروية فلا توازي شيئاً مما أنعم الله على أهل الله وخاصته وإن الله بأصناف ألطافه مع المؤمنين بهذه المقامات، وطالبيها ليبلغهم إليها بفضله ورحمته لا بحولهم وقوتهم كذا في «التأويلات النجمية».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا﴾ بحذف إحدى التاءين، أي: لا تتولوا والتولي الإعراض. وبالفارسية [روى بكر دانيدن]. ﴿عنه﴾ أي: عن الرسول ولم يقل عنهما لأن طاعة الله إنما تكون بطاعة رسوله. ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي: والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع فهم وتصديق ﴿ولا تكونوا﴾ بمخالفة الأمر والنهي. ﴿كالذين قالوا سمعنا﴾ على جهة القبول ﴿وهم لا يسمعون﴾ للقبول، وإنما سمعوا به للرد والإعراض عنه، كالكفار الذين قالوا سمعنا وعصينا وكالمنافقين الذين يدعون السماع والقبول بألسنتهم ويضمرون الكفر والتكذيب. قال في «المثنوي»:

نيست راجه خوانده چه ناخوانده ... هست پاى أو بكل در مانده
كرسرش جنبد بسير باد رو ... تو بسر جنبانيش غره مشو
آن سرش كويد سمعنا اي صبا ... پاى أو كويد عصينا خلنا

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إن شر الدواب﴾ أي: شر ما يدب على الأرض، فلفظ الدابة محمول على معناه اللغوي أو شر البهائم فهو محمول على معناه العرفي والبهيمة، كل ذات أربع من حيوانات البر والبحر. ﴿عند الله﴾ أي: في حكم قضائه ﴿الصم﴾ الذين لا يسمعون الحق. ﴿البكم﴾ الذين لا ينطقون به. ﴿الذين لا يعقلون﴾ الحق عدهم من البهائم، ثم جعلهم شرها لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله. وإنما وصفهم بعدم العقل؛ لأن الأصم الأبكم إذا كان له عقل ربما يفهم بعض الأمور ويفهمه غيره بالإشارة ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه، وأما إذا كان فاقداً للعقل أيضاً فهو الغاية في الشرية وسوء الحال. قال السعدي:

بهائم خموشند وكويا بشر ... پراكنده كوى از بهائم بتر
بنطق است وعقل آدمي زاده فاش ... چوطوطى سخن كوى ونادان مباش

﴿ولو علم الله فيهم خيراً﴾ شيئاً من جنس الخير الذي من جملته صرف قواهم إلى تحري الحق واتباع الهدى. ﴿لأسمعهم﴾ سماع تفهم وتدبر ولوقفوا على حقيقة الرسول وأطاعوه وآمنوا به ولكن لم يعلم فيهم شيئاً من ذلك لخلوهم عنه بالمرة فلم يسمعهم لذلك لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة.

قال ابن الشيخ: عبر عن عدم استقرار الخير فيهم بعدم علم الله تعالى بوجوده فيهم لأن كل ما وقع واستقر يجب أن يعلم الله تعالى بحصوله ووجوده، فعدم علم الله تعالى بوجود الشيء من لوازم عدمه في نفسه فعبر باللازم عن الملزوم فقيل: ﴿**لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم**﴾ مقام أن يقال لو كان فيهم خيراً لأسمعهم لكونه أبلغ في الدلالة على انعدام الخير فيهم، لأن نفي لازم الشيء نفي لنفس ذلك الشيء ببينة فيكون أبلغ من نفي نفس ذلك الشيء. ﴿**ولو أسمعهم**﴾ سماع تفهم وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية. ﴿**لتولوا**﴾ عما سمعوه من الحق ولم ينتفعوا به قط أو ارتدوا بعد ما صدقوه وصاروا، كأن لم يسمعوه أصلاً. ﴿**وهم معرضون**﴾ أي: لتولوا على أدبارهم والحال أنهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم لعنادهم، وفيه إشارة إلى أن من قدر له الشقاوة فإنه يتولى عن المتابعة في أثناء السلوك ويعرض عن الله وطلبه ويقبل على الدنيا وزخارفها.

واعلم: أن الإنسان خلق في أحسن تقويم قابلاً للتربية والترقي مستعداً لكمال لا يبلغه الملك المقرب فهو في بدء الخلقة دون الملك وفوق الحيوان فبتربية الشريعة يصير فوق الملك. فيكون خير البرية وبمخالفة الشريعة ومتابعة الهوى يصير دون الحيوان فيكون شر البرية فيؤول حال من يكون خيراً من الملك إلى أن يكون شر الدواب.

فعلى العاقل أن لا يخالف أمر الرسول وشريعته فإن الحيوان يستسلم لأمره فكيف بالإنسان. حكي أنه جاء رجل في بعض أسفاره ﷺ فقال: يا رسول الله إنه كان لي حائط فيه عيشي وعيش عيالي ولي فيه ناضحان والناضخ البعير الذي يستسقى عليه فمنعاني أنفسهما وحائطي وما فيه فلا نقدر أن ندنو منهما فنهض النبي ﷺ وأصحابه حتى أتى الحائط فقال لصاحبه: «افتح» قال أمرهما عظيم قال: «افتح» فلما حرك الباب أتيا ولهما جلبة فلما انفرج الباب نظرا إلى النبي عليه السلام وبركا ثم سجدا، فأخذ رسول الله ﷺ رؤوسهما ثم دفعهما إلى صاحبهما وقال: «استعملهما وأحسن إليهما» فقال القوم تسجد لك البهائم أفلا تأذن لنا في السجود لك فقال ﷺ: «إن السجود ليس إلا للحي القيوم ولو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» وكل ما أمر به النبي عليه السلام أو نهى عنه ففيه حكمة ومصلحة ولست بمأمور بالتفتيش عنها، وإنما يلزم عليك الإطاعة والانقياد فقط. أفترضى لنفسك أن تصدق ابن البيطار فيما ذكره في العقاقير والأحجار فتبادر إلى امتثال ما أمرك به ولا تصدق سيد البشر ﷺ فيما يخبر عنه وتتوانى بحكم الكسل عن الإتيان بما أمر به أو فعل وأنت تحقق أنه عليه السلام مكاشف من العالم بجميع الأسرار والحكم كما أخبر عن نفسه وقال: «فعلمت علم الأولين والآخرين» ولما أخرجك الله من صلب آدم في مقام ألست رددت إلى أسفل السافلين ثم منه دعيت لترتفع بسعيك وكسبك إلى أعلى عليين حيث ما قدر لك على حسب قابليتك ولا يمكنك ذلك إلا بأمرين: أحدهما: بمحبته ﷺ وبأن تؤثر حبه على نفسك وأهلك ومالك. والثاني: بمتابعته ﷺ في جميع ما أمر به ونهى عنه وبذلك تستحكم مناسبتك به وبكمال متابعتك يحصل لك الارتفاع إلى أوج الكمال ومن علامات المحبة حب القرآن وحب تلاوته وإلا كان من المعرضين عن سلوك طريقته ﷺ ومن تمام محبته إيثار الفقر والزهد في الدنيا.

كين جهان جيفه است ومردار ورخيص بر چنين مردار چون باشم حريص

اللهم اعصمنا من المهالك واجعلنا من السالكين إلى خير المسالك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول﴾ أي: أجيبوا الله ورسوله بأن تطيعوهما. **﴿إذا دعاكم﴾** أي: الرسول إذ هو المباشر لدعوة الله تعالى ودعاؤه بأمر الله فهو دعاء الله تعالى ولذا وحد الفعل **﴿لما يحييكم﴾** اللام بمعنى إلى أي الذي يحييكم وهو أنواع منها العلوم الدينية فإنها حياة القلب والجهل موته. قال:

لا تعجبن الجهول حلته فذاك ميت وثوبه كفن

وقال:

جاهلى كان بعلم زنده نشت ميتش دان ومسكنش مدفن

از جنازه نشان جمازهٔ او جامهاى تنش بجاى كفن

وفي الخبر: إن الله تعالى ليحيي القلب الميت بالعلم كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر والعلوم الدينية الشرعية هي التفسير والحديث والأصول والفقه والفرائض.

علم دين فقهست وتفسير وحديث هركه خواند غيرازين كردد خبيث

ومنها العقائد، والأعمال فإنها تورث الحياة الأبدية في النعيم الدائم. ومنها الجهاد فإنه سبب البقاء إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ومنها الشهادة فإن الشهداء أحياء عند ربهم سواء كانوا مقتولين بسيف الكفار أو بسيف الرياضات الشاقة والمجاهدات القوية.

دانهٔ مردن مراشيرين شداست بل هم أحياء پى من آمده است

اقتلوني يا ثقاتي لائما إن في قتلي حياتي دائما

فالموت هو الفناء عن الكل والحياة هو البقاء بنور الله تعالى. **﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾** قال في «القاموس»: كل ما حجز بين شيئين فقد حال بينهما وهو تمثيل لغاية قربه من العبد وهو أقرب إلى قلبه منه لأن ما حال بينك وبين الشيء فهو أقرب إلى الشيء منك وتنبيه على أنه مطلع من مكنونات القلوب على ما عسى يغفل عنه صاحبها.

قال علي رضي الله عنه: اللهم اغفر لي ما أنت أعلم به مني أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله بينه وبين القلب بالموت أو غيره من الآفات، كأنه قيل: بادر إلى تكميل النفوس وتصفية القلوب بإجابة الرسول المبعوث من علام الغيوب قبل فوات الفرصة، فإنها قد تفوت بأن يحدث الله أسباباً لا يتمكن العبد معها من تصريف القلب فيما يشاؤه من إصلاح أمره، فيموت غير مستجيب لله ورسوله، ويحتمل أن يكون المراد بالحيلولة تصوير تملكه تعالى قلب العبد وغلبته عليه فيفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده ولا يمكنه من إمضائها على حسب إرادته فيحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته وكان عليه السلام يقول كثيراً: «يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك» ويبدل بالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً وما أشبه ذلك من الأمور المعترضة المفوّتة للفرصة

[در كشف الأسرار فرموده كه علما دلرا پايند ولمن كان له قلب أشارت بدانست وعرفادلراكم كنند يحول بين المرء وقلبه عبارت از آنست در بدايت از دل ناچارست ودر نهايت حجاب ديدارست].

زيد پيش همى ديدمش اندر دل خويش ... دل نيز حجاب بود بر داشت زپيش

فالله تعالى يحول بتجلي صفاته بين المرء وقلبه يعني إذا تجلى الله على قلب المرء يحول بسطوات أنوار جماله وجلاله بين مرآة قلبه وظلمة أوصافه. ﴿وأنه﴾ أي: واعلموا أيضاً أن الله تعالى ﴿إليه﴾ تعالى لا إلى غيره. ﴿تحشرون﴾ تبعثون وتجمعون فيجازيكم على حسب أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر فسارعوا إلى طاعة الله وطاعة رسوله وبالغوا في الاستجابة لهما.

واعلم: أن الاستجابة لله بالسرائر وللرسول بالظواهر وأيضاً الاستجابة لله إجابة الأرواح للشهود واستجابة القلوب للشواهد وإجابة الأسرار للمشاهدة وإجابة الخفي للفناء في الله والاستجابة للرسول بالمتابعة في الأقوال والأحوال والأفعال. وروي أنه عليه السلام مر على أبي وهو يصلي فدعاه فعجل في صلاته ثم جاء فقال عليه السلام: «ما منعك عن إجابتي» قال كنت أصلي «قال ألم تخبر فيما أوحي إلي استجيبوا لله وللرسول».

واختلف العلماء في جواز قطع الصلاة لإجابة الداعي. فقال بعضهم إنه مختص باستجابة رسول الله ﷺ ولا يجوز قطع الصلاة لإجابة غيره لأن قطعها إبطال لها وإبطال العمل حرام. وقال بعضهم: يجوز لكل مصل أن يقطع صلاته لأمر لا يحتمل التأخير كما إذا خاف أن يسقط أحد من سطح أو تحرقه النار أو يغرق في الماء وجب عليه أن يقطع الصلاة وإن كان في الفريضة كذا في «غنية الفتاوى». ويجيب في صلاة النافلة دعاء أمه دون نداء أبيه، أي: يقطع الصلاة ويقول لبيك مثلاً وذلك لأن مشقة الأم وتحملها التعب من الولد أكثر ولذا ورد «الجنة تحت أقدام الأمهات» معناه أن التواضع للأمهات سبب دخول الجنة. وقال بعض المشايخ: الأب يقدم على الأم في الاحترام والأم في الخدمة حتى لو دخلا عليه يقوم للأب وإجابة الدعوة من قبيل الخدمة غالباً.

قال الطحاوي: مصلي النافلة إذا ناداه أحد أبويه إن علم أنه في الصلاة وناداه لا بأس بأن لا يجيبه وإن لم يعلم يجيب وأما مصلي الفريضة إذا دعاه أحد أبويه فلا يجيب ما لم يفرغ من صلاته إلا أن يستغيثه لشيء فإن قطع الصلاة لا يجوز إلا لضرورة وكذا الإفطار في صوم النفل فإنه إذا ألح عليه أحد بالإفطار يجوز قبل الزوال وأما إذا كان بعده فلا يفطر إلا إذا كان في ترك الإفطار عقوق الوالدين أو أحدهما كذا في «شرح التحفة» و«الوقاية». وأما في صوم القضاء فيكره الإفطار مطلقاً كذا في «الزاهدي».

ثم اعلم: أن استجابة الرسول يدخل فيها بطريق الإشارة استجابة الأولياء العلماء الأدباء الأمناء لأنهم الورثة وطريقتهم طريقة النبي عليه السلام ولا بد لمن أراد الوصول إلى الله تعالى من صحبة مرشد كامل عارف بالمقامات والمراتب وقبول ما دعا إليه سواء كان محبوباً له أو لا فإن هذا ليس طريق العقل بل طريق الكشف والإلهام.

كردر سرت هواي وصالست حافظاً ... بايدكه خاك دركه أهل نظر شوى

وأهل الطريقة ثلاثة: عباد، ومريدون، وعارفون. فطريق العباد: كثرة الأعمال والتجنب

من الزنى والضلال. وطريق المريدين: تخليص الباطن من الشوائب، والنفور عن المشغلات، وطريق العارفين: تخليص القلب لله وبذل الدنيا والآخرة في طلب رضاه اللهم اجعلنا من المستجيبين للدعوة الحقة وأذقنا من حلاوة الأسرار المحققة آمين.

﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾.

قال الحدادي في «تفسيره»: نزلت في عثمان وعلي رضي الله عنهما أخبر الله تعالى النبي ﷺ بالفتنة التي تكون بسببهما أنها ستكون بعدك تلقاها أصحابك تصيب الظالم والمظلوم ولا تكون للظلمة وحدهم خاصة ولكنها عامة فأخبر النبي عليه السلام بذلك أصحابه فكان بعد وفاة النبي ﷺ من الفتن بسبب علي وعثمان رضي الله عنهما ما لا يخفى على أحد انتهى. والمعنى لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم بل تعمه وغيره كإقرار المنكر بين أظهرهم والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في الجهاد. ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه وفيه تحذير من شدة العقوبة لمن أهاج الفتن وفي الحديث: «الفتنة راتعة في بلاد الله واضعة خطامها فالويل لمن أهاجها» وفي بعض الأخبار «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها». قال السعدي:

ازان همنشين تاتوانى كريز كه مرفتنهٔ خفته را كفت خيز

قال القرطبي: فإن قيل قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وهذا يوجب أن لا يؤاخذ أحد بذنب غيره وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب، فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على من رآه أن يغيره فإن سكت عليه فكلهم عاص هذا بفعله وهذا برضاه وقد جعل الله في حكمه وحكمة الراضي بمنزلة العامل فانتظم في العقوبة قاله ابن العربي انتهى.

قال حضرة الشيخ صدر الدين القنوي قدّس سره في «شرح الأربعين حديثاً» وأحياناً تظهر سلطنة العمل الفاسد فيسري حكمها في حال ذي العمل الصالح فيتضرر بذلك وإن لم يتعد الضرر إلى أعماله، والإشارة إلى ذلك قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا﴾ الآية. وليس هذا بمخالف للأصل المترجم عنه بقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فإن هذا الأثر لا يقع ولا يسري بحكم ما به امتاز الصالح من الطالح بل بموجب ما به يثبت الاتحاد والاشتراك بينهما وقوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ لسان غلبته حكم ما به الامتياز وأيضاً ففعل الحق من حيث صدوره من جنابه وحداني كلي شامل لا تخصيص فيه بل التخصيص من القوابل المتأثرة وهذا عام في الشر والخير ففي الشر ما ذكر في قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة﴾ الآية. وفي الخير ما أشار إليه عليه السلام في الحديث المذكور في حق الذين يجتمعون لذكر الله وكون الحق يباهي بهم الملائكة ويقول «أشهدكم أني قد غفرت لهم» وقول بعض الملائكة إن فيهم فلاناً ليس منهم وإنما أتاهم لحاجة فيقول الحق سبحانه وتعالى: «وله قد غفرت هم القوم لا يشقى جليسهم» فهذا أثر عموم الحكم من جهة الحق وكليته وأثر صلاح الحال الفاسد بمجاورة ذي الحال والعمل الصالح والحضور معه فتذكر انتهى كلام القنوي. وفي «المثنوي»:

اى خنك آن مرده كزخودرسته شد درو جود زندهٔ پيوسته شد
واى آن زنده كه بامرده نست مرده كشت وزندكى ازوى بجست

حـق ذات پـاك الله الـصـمـد كـه بـود بـه مـاربـد از يـار بـد
مـاربـد جـانـى سـتـانـد ازسـليـم يـا ربـد آرد سـوى نـار مـقـيـم

والإشارة في الآية: ﴿واتقوا﴾ يا أيها الواصلون. ﴿فتنة﴾ يعني: ابتلاء النفوس بشيء من حظوظها الدنيوية والأخروية. ﴿لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ يعني: لا تصيب تلك الفتنة النفوس الظالمة فقط بل تصيب ظلمتها الأرواح النورانية والقلوب الربانية فتجتذبها من حظائر القدس ورياض الأنس إلى حضائض صفات الأنس كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ فيعاقب الواصلين بالانقطاع والاستدراج عند الالتفات إلى ما سواه كذا في «التأويلات النجمية».

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿واذكروا﴾ أيها المهاجرون ﴿إذ أنتم قليل﴾ أي: وقت كونكم قليلاً في العدد. ﴿مستضعفون﴾ خبر ثان، أي: مقهورون تحت أيدي قريش ﴿في الأرض﴾ أي: أرض مكة. ﴿تخافون﴾ خبر ثالث ﴿أن يتخطفكم الناس﴾ التخطف الأخذ والاستلاب بسرعة وهم كانوا يخافون أن يخرجوا من مكة حذراً من أن يستلبهم كفار قريش ويذهبوا بهم. ﴿فآواكم﴾ أي: جعل لكم مأوى ترجعون إليه وهو المدينة دار الهجرة. ﴿وأيدكم بنصره﴾ على الكفار ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من الغنائم التي لم تكن حلالاً للأمم السالفة. ﴿لعلكم تشكرون﴾ هذه النعم.

قال الجنيد قدس سره: كنت عند السري وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي يا غلام ما الشكر فقلت أن لا تعصي الله بنعمه فقال يوشك أن يكون حظك من الله لسانك فلا أزال أبكي على هذه الكلمة.

واعلم أن الدولة العثمانية التي هي آخر الدول الإسلامية كانت على الضعف في الأوائل وأهلها قليلون مستضعفون تحت أيدي فارس والروم حتى قوّاهم الله بالعَدَدِ والعُدَدِ ونصرهم على أعدائهم فكانوا يستفتحون من مشارق الأرض ومغاربها ويأوون إلى الأماكن في الأقطار إلى أن آل الأمر إلى ما آل، فكل ذلك نعم جسيمة وستعود هذه الحال إلى ما كانت عليه في الابتداء فإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وما ذلك إلا بالغرور والكفران وادعاء الاستحقاق من غير برهان قال السعدي قدس سره:

تـرا آنـكـه چـشـم ودهـان داد وكـوش اكـر عـاقـلـى درخـلافـش مـكـوش
مـكـن كـردن ازشـكـر مـنـعـم مـپـيـچ كـه روزى پـسـيـن سـربـر آرى بـهـيـچ

ثم اعلم: أن الروح والقلب في بدء الخلقة وتعلقهما بالقالب وكذا صفاتهما مستضعفون من غلبات النفس لإعواز التربية بألبان آداب الطريقة وانعدام جريان أحكام الشريعة عليهم إلى أوان البلوغ والتربية في هذه المدة للنفس وصفاتها لاستحكام القالب لحمل أعباء تكاليف الشريعة وهما أعني الروح والقلب يخافون أن تستلبهم النفس وصفاتها ويغتالهم الشيطان وأعوانه فآواكم إلى حظائر القدس وأيدكم بنصره بالواردات الربانية. ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي: من المواهب الطاهرة من لوث الحدوث. ﴿لعلكم تشكرون﴾ فتستحقون المزيد.

شكر نعمت نعمتت افزون كند كفر نعمت ازكفت بيرون كند

والعمدة قلة الأكل وكثرة الشكر والطاعة. ويقال: أربع في الطعام فريضة: أن لا يأكل إلا من الحلال، وأن يعلم أنه من الله تعالى، وأن يكون راضياً، وأن لا يعصي الله ما دامت قوة ذلك الطعام فيه.

وأربع سنّة: أن يسمي الله في الابتداء، وأن يحمد الله في الانتهاء، وأن يغسل يديه قبل الطعام وبعده، وأن يثني رجله اليسرى وينصب اليمنى على الجلوس.

وأربع آداب: أن يأكل مما يليه، وأن يصغر اللقمة، وأن يمضغها مضغاً ناعماً، وأن لا ينظر إلى لقمة غيره.

واثنان دواء، أن يأكل ما سقط من المائدة، وأن يلعق القصعة.

واثنان مكروهان: أن يشم الطعام، وأن ينفخ فيه ولا يأكل حاراً حتى يبرد فإن اللذة في الحار والبركة في البارد.

فعلى العاقل الساعي في طلب مرضاة الله تعالى تحصيل القوت الحلال وكثرة شكر المنعم المفضال ولله على العبد نعم ظاهرة وباطنة وألطاف جليلة وخفية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾ أصل الخون: النقص، كما أن أصل الوفاء التمام واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه فإنك إذا خنت الرجل فقد أدخلت عليه النقصان. روي أنه عليه السلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوه الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحا من الشام فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله كانت في أيديهم فبعثه إليهم فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد فأشار إلى حلقه بالذبح، أي: إن حكم سعد فيكم أن تقتلوا صبراً، فلا تنزلوا على حكمه يقال فلان مقتول صبراً إذا صار محبوساً على القتل حتى يقتل قال أبو لبابة فما زالت قدماي من مكانهما حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله وذلك لأنه عليه السلام أراد منهم أن ينزلوا على حكم سعد ويرضوا بما حكم فيهم وهو صرفهم عنه فنزلت هذه الآية فشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه، فقيل له: قد تيب عليك فحل نفسك فقال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني فجاءه عليه السلام فحله فقال: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي فقال عليه السلام: «يجزئك الثلث أن تتصدق به» ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ فيما بينكم، أي: لا تخونوها فهو مجزوم معطوف على الأول. ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم تخونون، يعني: أن الخيانة توجد منكم عن عمد لا عن سهو ولما نهى عن الخيانة نبه على أن الداعي إليها إنما هو حب المال والأولاد ألا يرى أن أبا لبابة إنما حمله على ما فعل ماله وأهله وولده الذين كانوا في بني قريظة؛ لأنه إنما ناصحهم لأجلهم وخان المسلمين بسببهم، فقال:

﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ الفتنة قد تطلق على الآفة والبلاء وقد تطلق على الابتلاء والامتحان، فالمعنى على الأول إنما أموالكم وأولادكم أسباب مؤدية إلى الوقوع في الآفة التي هي ارتكاب المعصية في الدنيا والوقوع في عقاب الآخرة، وعلى الثاني: إنها أسباب لوقوع العبد في محن الله تعالى واختباراته حيث يظهر من اتبع الهوى ممن آثر رضى المولى.
﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ لمن آثر رضى الله وراعى حدوده فيهم فأنيطوا، أي: علقوا هممكم بما يؤديكم إليه ولا يحملنكم حبهما على الخيانة [احمد انطاكى فرموده كه حق سبحانه وتعالى مال وفرزندانرا فتنه كفت تا ازفتنه بيكسو رويم وما پيوسته بخلاف حكم خداوند آن فتنه را زيادت ميخواهيم].

جوان وپيركه دربند مال وفرزندند   نه عاقلندكه طفلان ناخرد مندند

قال بعض السلف: كل ما شغلك عن الله سبحانه من مال وولد فهو مشؤوم عليك، وأما ما كان من الدنيا يقرب من الله ويعين على عبادته فهو المحمود بكل لسان المحبوب لكل إنسان. قال في «المثنوي»:

چيست دنيا از خدا غافل بدن   نى قماش ونقره وميزان وزن
مال راكز بهر دين باشى حمول   نعم مال صالح خواندش رسول
آب دركشتى هلاك كشتى است   آب اندر زير كشتى پشتى است
چونكه مال وملك را ازدل براند   زان سليمان خويش جز مسكين نخواند

وفي الحديث: «إن العبد إذا قال لعن الله الدنيا قالت الدنيا لعن الله من عصى ربه» فعلى العاقل أن لا يشتغل بسبب الدنيا ولعنها بل يلوم نفسه ولعنها في حب الدنيا.

قال أبو يزيد قدس سره: جمعت فكري وأحضرت ضميري ومثلت نفسي واقفاً بين يدي ربي فقال لي يا أبا يزيد بأي شيء جئتني قلت يا رب بالزهد في الدنيا. قال: يا أبا يزيد إنما كان مقدار الدنيا عندي مثل جناح بعوضة ففيم زهدت منها فقلت إلهي وسيدي أستغفرك من هذه الحالة جئت بالتوكل عليك قال: يا أبا يزيد ألم أكن ثقة فيما ضمنت لك حتى توكلت عليّ قلت إلهي وسيدي أستغفرك من هاتين الحالتين جئتك بالافتقار إليك فقال عند ذلك قبلناك فهذه حال العارفين بالله تعالى وفوا عهودهم في طلبه فجعلهم الله أمناء لأسراره.

واعلم: أن الخيانة على أنواع فالفرائض والسنن أعمال ائتمن الله تعالى عليها عباده ليحافظوا على أدائها في أوقاتها برعاية حدودها وحقوقها فمن ضيعها فقد خان الله تعالى فيها. والوجود وما يتبعه من الأعضاء والقوى أمانات والأهل والأولاد والأموال أمانات والإماء والعبيد وسائر الخدم أمانات والسلطنة والوزارة والإمارة والقضاء والفتوى وما يلحقها أمانات وفي الحديث: «من قلد إنساناً عملاً وفي رعيته من هو أولى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين». قال السعدي قدس سره:

كسى راكه باخواجهٔ تست جنك   بد ستش چرا ميدهى چوب وسنك
سك آخر كه باشدكه خوانش نهند   بفرماى تا استخوانش دهند

وفي الحديث: «أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه فإذا خان خرجت من بينهما وجاء الشيطان» ففي كل ذلك يلزم العبد أن يكون أميناً غير خائن وإلا فقد تعرض لسخط الله تعالى ونعوذ بالله منه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما كلب أمين خير من صاحب خائن.

وكان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم وكان شديد المحبة لهم، فخرج في بعض منتزهاته ومعه ندماؤه فتخلف منهم واحد فدخل على زوجته فأكلا وشربا ثم اضطجعا فوثب الكلب عليهما فلما رجع الحارث إلى منزله وجدهما قتيلين فعرف الأمر فأنشد يقول:

وما زال يرعى ذمتي ويحوطني ويحفظ عرسي والخليل يخون
فيا عجباً للخل تحليل حرمتي ويا عجباً للكلب كيف يصون

والإشارة في الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أي: يا أيها الأرواح والقلوب المنورة بنور الإيمان المستعدة بسعادات العرفان. ﴿لا تخونوا الله﴾ فيما آتاكم من المواهب فتجعلوها شبكة الدنيا واصطياد أهلها. ﴿والرسول﴾ بترك السنة والقيام بالبدعة. ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ فالأمانة هي محبة الله وخيانتها تبديلها بمحبة المخلوقات يشير إلى أن أرباب القلوب وأصحاب السلوك إذا بلغوا إلى أعلى مراتب الطاعات والقربات، ثم التفتوا إلى شيء من الدنيا وزينتها وخانوا الله بنوع من التصنع وخانوا الرسول بالتبدع وترك التتبع بتعدي الخيانة وآفاتها إلى الأمانة التي هي المحبة فتسلب منهم بالتدريج فيكون لهم ركونهم إلى الدنيا وسكونهم إلى جمع الأموال حرصاً على الأولاد. ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم تبيعون الدين بالدنيا والمولى بالأولى. ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم﴾ التي تعرضون عن الله لها ﴿فتنة﴾ يختبركم الله بها لكي يتميز الموافق من المنافق والصديق من الزنديق فمن أعرض عن الدنيا وما فيها صدق في طلب المولى ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ فمن ترك ما عنده في طلب ما عند الله يجده عنده أو أن الله عنده أجر عظيم والعظيم هو الله في الحقيقة فيجد الله تعالى كذا في «التأويلات النجمية»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله﴾ أي: في كل ما تأتون وتذرون. ﴿يجعل لكم﴾ بسبب ذلك ﴿فرقاناً﴾ هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أو نصراً يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] وأراد به يوم عز المؤمنين وخذلان الكافرين. ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي: يسترها والفرق بين السيئة والخطيئة أن السيئة قد تقال فيما يقصد بالذات والخطيئة تغلب فيما يقصد بالعرض لأنها من الخطأ. ﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي: عظيم الفضل على عباده وهو تعليل لما قبله وتنبيه على أن وعد الله لهم على التقوى تفضل وإحسان لا أنه مما توجب التقوى كما إذا وعد السيد عبده إنعاماً على عمل.

وفي الآية أمور:

الأول: التقوى وهو في مرتبة الشريعة ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وفي مرتبة الحقيقة ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

[متقى آنست كه حق سبحانه وتعالى را وقايهء خود كرفته باشد در ذات وصفات وأفعال فعل أو در أفعال حق فانى شاه باشد وصفت اودر صفات حق مستهلك كشته]

كم شده چون سايه نور آفتاب 		يا چو بوى كل در اجزاى كلاب

قال ابن المبارك: سألت الثوري من الناس؟ فقال العلماء، قلت: من الأشراف؟ قال: المتقون، قلت من الملوك؟ قال: الزهاد: قلت: من الغوغاء؟ قال القصاص، الذين يستأكلون أموال الناس بالكلام قلت من السفلة قال الظلمة.

الثاني: أن التقوى أسندت إلى المخاطبين وجعل الفرقان إلى الله تعالى فالله تعالى إذا أراد بالعبد خيراً اصطفاه لنفسه وجعل في قلبه سراجاً من نور قدسه يفرق به بين الحق والباطل والوجود والعدم والحدوث والقدم ويتبصر به عيوب نفسه كما حكي عن أحمد بن عبد الله المقدسي قال صحبت إبراهيم بن أدهم فسألته عن بداية أمره وما كان سبب انتقاله من الملك الفاني إلى الملك الباقي فقال لي يا أخي كنت جالساً يوماً في أعلى قصر ملكي والخواص قيام على رأسي فأشرفت من الطاق فرأيت رجلاً من الفقراء جالساً بفناء القصر وبيده رغيف يابس فبله بالماء وأكله بالملح الجريش وأنا أنظر إليه إلى أن فرغ من أكله ثم شرب شيئاً من الماء وحمد الله تعالى وأثنى عليه ونام في فناء القصر فألهمني الله سبحانه وتعالى الفكر فيه فقلت لبعض مماليكي إذا قام ذلك الفقير فائتني به فلما استيقظ من نومه قال له الغلام يا فقير إن صاحب هذا القصر يريد أن يكلمك قال بسم الله وبالله وتوكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقام معه ودخل علي فلما نظر إليّ سلم عليّ فرددت عليه السلام وأمرته بالجلوس فجلس فلما اطمأن قلت له يا فقير أكلت الرغيف وأنت جائع فشبعت قال نعم قلت وشربت الماء على شهوة فرويت قال نعم قلت ثم نمت طيباً بلا هم وغم فاسترحت قال نعم فقلت في نفسي وأنا أعاتبها يا نفس ما أصنع بالدنيا والنفس تقنع بما رأيت وسمعت فعقدت التوبة مع الله تعالى فلما انصرم النهار وأقبل الليل لبست مسحاً من صوف وقلنسوة من صوف وخرجت حافياً سائحاً إلى الله تعالى وهذه إحدى الروايتين في بداية أمره.

والثالث: أن المغفرة فضل عظيم من الله تعالى فلا بد للمرء من حسن الظن بالله تعالى فإنها ليست بمقطوعة.

قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «إني أعلمك خمس كلمات هن عماد الدين ما لم تعلم أن قد زال ملكي فلا تترك طاعتي».

همه تحت وملكى پذيرد زوال 		بجز ملك فرمانده لا يزال

«وما لم تعلم أن خزائني قد نفدت فلا تهتم برزقك».

در دائرهٔ قسمت ما نقطهٔ تسليم 		لطف آنچه تو انديشى وحكم آنچه توفرمايى

«وما لم تعلم أن عدوك قد مات يعني إبليس فلا تأمن مفاجأته ولا تدع محاربته».

كچاسر بر آريم ازين عارونتك 		كه با او بصلحيم وباحق بجنك

«وما لم تعلم أني قد غفرت لك فلا تعب المذنبين».

مكن بنامه سياهى ملامت من مست 		كه آكه است كه تقدير برسرش چه نوشت

«وما لم تدخل جنتي فلا تأمن مكري».

زاهد ايمن مشو از بازىء غيرت زنهار 		كه ره از صومعه تادير مغان اين همه نيست

فعلى العاقل أن يجتهد إلى آخر العمر كي يكفر الله عنه سيئات وجوده الفاني ويستره بأنوار جماله وجلاله والله ذو الفضل العظيم لمن تجاوز عما عنده راغباً فيما عند الله والفضل العظيم هو البقاء بالله بعد الفناء فيه كما في «التأويلات النجمية».

﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ تذكير لمكر قريش حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في خلاصه من مكرهم واستيلائه عليهم.

قال ابن إسحاق لما رأوا أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا سعة فحذروا خروج رسول الله ﷺ وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم فاجتمعوا له في الدار الندوة وهي الدار التي بناها قصيّ بن كلاب بمكة وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها وسميت دار الندوة لأنهم ينتدون فيها أي يجتمعون للمشاورة والنديّ والندوة والنادي مجلس القوم ومتحدثهم فإن تفرق القوم عنه لا يسمى ندياً كما لا يسمى الظرف كأساً إذا لم يكن فيه شراب فتشاوروا في أمر النبي عليه السلام منهم عتبة وشيبة ابنا أبي ربيعة وأبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأبو البختري بن هشام وأبي بن خلف وزمعة بن الأسود وغيرهم من الرؤساء والأكابر فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ كبير عليه ثياب اطمار فجلس بينهم فقالوا ما لك يا شيخ دخلت في حلوتنا بغير إذننا فقال أنا رجل من أهل نجد قدمت مكة فأراكم حسنة وجوهكم طيبة روائحكم فأحببت أن أسمع حديثكم فأقتبس منكم خيراً فدخلت وإن كرهتم مجلسي خرجت وما جئتكم إلا أني سمعت باجتماعكم فاردت أن أحضر معكم ولن تعدموا مني رأيا ونصحا فقالوا هذا رجل لا بأس عليكم منه فتكلموا فيما بينهم فبدأ عمرو بن هشام فقال أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً فتجعلوه في بيت تسدون عليه بابه وتشدون عليه وثاقه وتجعلون له كوة تدخلون عليه طعامه وشرابه فيكون محبوساً عندكم إلى أن يموت فقال إبليس بئس الرأي يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم فقالوا صدق والله الشيخ ثم تكلم أبو البختري فقال أرى أن تحملوه على بعير فتشدوا وثاقه عليه، ثم تخرجوه من أرضكم حتى يموت أو يذهب حيث شاء فقال إبليس بئس الرأي تعمدون إلى رجل افسد جماعتكم ومعه منكم طائفة فتخرجوه إلى غيركم فيأتيهم فيفسد منهم أيضاً جماعة بما يرون من حلاوة كلامه وطلاقة لسانه وتجتمع إليه العرب وتستمع إلى حسن حديثه ثم ليأتينكم بهم فيخرجكم من دياركم. ويقتل أشرافكم فقالوا صدق والله الشيخ فتكلم أبو جهل فقال: أرى أن يجتمع من كل بطن منكم رجل، ويأخذون السيوف فيضربونه جميعاً ضربة رجل واحد فيفرق دمه في القبائل فلا يدري قومه من يأخذونه ولا يقومون على حرب قريش كلهم فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا فقال إبليس صدق والله هذا الشاب وهو أجودكم رأياً القول قوله لا أرى غيره فتفرقوا على رأيه فنزل جبرائيل عليه السلام، فأخبر النبي بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه. وأمره بالهجرة إلى المدينة فبيت علياً رضي الله عنه على مضجعه وخرج هو مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى الغار. والمكر حيلة وتدبير في إهلاك أحد وإفساد أمره بطريق الخفية بحيث لا يعلم المرء ذلك إلا عند وقوعه. والمعنى اذكر يا محمد وقت مكرهم بك. ﴿ليثبتوك﴾ بالوثاق والحبس فإن إثبات الشيء وتثبيته عبارة عن الزامه بموضع ومن شد فقد أثبت لأنه لا يقدر على الحركة والمراد ما قال عمرو بن هشام. ﴿أو يقتلوك﴾ أي بسيوفهم المختلفة وهو ما قال أبو جهل ﴿أو

يخرجوك﴾ أي: من مكة من بين اظهرهم إلى غيرهم وهو ما قال أبو البختري. **﴿ويمكرون ويمكر الله﴾** أي: يرد مكرهم عليهم والمكر وأمثاله لا يسند إليه تعالى إلا على طريق المقابلة والمشاكلة ولا يحسن ابتداء لتضمنه معنى الحيلة والخدعة وهي لا تليق بعظمة الله تعالى. **﴿والله خير الماكرين﴾** لا يعبأ بمكرهم عند مكره.

قال الحدادي: لأنه لا يمكر إلا بحق وصواب ومكرهم باطل وظلم.

واعلم أن للخلق مكراً وللحق مكراً فمكر الخلق من الحيلة والعجز ومكر الخالق من الحكمة والقدرة فمكر الخلق مع مكر الحق باطل زاهق ومكر الحق حق ثابت: قال الحافظ:

سحر بامعجزه پهلو نزند ايمن باش سامرى كيست دست از يد بيضا ببرد

وقال آخر:

صعوه كو با عقاب سازد جنك دهد ازخون خود پرش را رنك

قال أبو العيناء كانت لي خصماء ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي دؤاد وقلت قد تظاهروا فصاروا يداً واحدة فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] فقلت لهم مكر فقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] فقلت هم كثير فقال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

هر كرا اقبال باشد رهنمون دشمنش كردد بزودى سرنكون

وجد في وقائع الاسكندر مكتوباً بالذهب إذا كان الله هو غاية الغايات فالمعرفة به أجل العبادات. وإذا كان الموت حقاً فالركون إلى الدنيا غرور. وإذا كان القدر حقاً فالحرص على الدنيا باطل. وإذا كان الغدر في النفوس طبعاً فالثقة بكل أحد عجز. وإذا كان الله عدلاً في أحكامه فعقوبات الخلق بما كسبت أيديهم. ولما قصد أبو جهل اضرار النبي عليه السلام بالقتل قتله الله في بدر وأزال شره عن المسلمين وذلك عدل محض منه تعالى فانظر إلى قريش حيث شاهدوا الآيات العظام من جهة النبي عليه السلام فما زادوا إلا كفراً وعناداً وعداوة فهم أشد الناس في ذلك. ولو رأى اليوم واحد من الكفرة كرامة لولي أمسك عن الأذى بل سارع إلى التبجيل كما حكي أن بعض سلاطين الكفار استولى على بعض المسلمين بسفك دمائهم ونهب أموالهم وأراد أن يقتل فقراء بعض المشايخ فاجتمع به الشيخ ونهاه عن ذلك فقال لهم السلطان إن كنتم على الحق فأظهروا لي آية فأشار الشيخ إلى بعر الجمال هناك فإذا هي جواهر تضيء وأشار إلى كيزان الأرض فارغة عن الماء فتعلقت في الهواء وامتلأت ماء وأفواهها منكسة إلى الأرض ولا يقطر منها قطرة فدهش السلطان من ذلك فقال له بعض جلسائه لا يكبر هذا في عينك فإنه سحر فقال له السلطان أرني غير هذا فأمر الشيخ بالنار، وأمر الفقراء بالسماع فلما عمل فيهم الوجد دخل بهم الشيخ إلى النار وكانت ناراً عظيمة ثم خطف الشيخ ولد السلطان ودار به في النار ثم غاب به ولم يدر أين ذهبا. والسلطان حاضر فبقي متفجعاً على ولده فلما كان بعد ساعة ظهراً وفي إحدى يدي ابن السلطان تفاحة وفي الأخرى رمانة فقال له السلطان: أين كنت فقال كنت في بستان فأخذت منه هاتين الحبتين وخرجت فتحير السلطان من ذلك فقال له جلساء السوء وهذا عمل بصنعة باطلة فقال السلطان عند ذلك كل ما تظهره لا أصدق به حتى تشرب من هذه الكأس وأخرج له كأساً مملوءة سماً تقتل القطرة منه في الحال فأمر الشيخ بالسماع حتى وصل إليه الحال فأخذ الكأس حينئذ وشرب جميع ما فيها فتمزقت ثيابه التي عليه

فألقوا إليه ثياباً أخرى فتمزقت كذلك ثم أخرى مراراً عديدة ثم ترشح عرقاً وبقيت الثياب بعد ذلك ولم تتقطع فأعتقه السلطان وعظمه وبجله ورجع عن ذلك القتل والإفساد ولعله اسلم والله أعلم. ﴿**وإذا تتلى**﴾. روي أن النضر بن الحارث من بني عبد الدار كان يختلف تاجراً إلى فارس والروم والحيرة فيسمع أخبار رستم واسفنديار وأحاديث العجم واشترى أحاديث كليلة ودمنة وكان يمر باليهود والنصارى فيراهم يقرأون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون فجاء مكة فوجد رسول الله ﷺ يصلي ويقرأ القرآن فطفق يقعد مع المستهزئين وهو منهم ويقرأ عليهم أساطير الأولين أي ما سطروه في كتبهم من أخبار الأمم الماضية وأسمائهم وكان يزعم أنها مثل ما يذكره رسول الله ﷺ من قصص الأولين فقال تعالى: ﴿**وإذا تتلى**﴾ ﴿**عليهم**﴾ أي على النضر ومتابعيه. ﴿**آياتنا**﴾ القرآنية ﴿**قالوا قد سمعنا**﴾ هذا الكلام. ﴿**لو نشاء لقلنا مثل هذا**﴾ وهذا كما ترى غاية المكابرة ونهاية العناد وكيف لا ولو استطاعوا شيئاً من ذلك فما الذي كان يمنعهم من المشيئة وقد تحدّاهم عشر سنين فما استطاعوا معارضته مع فرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصاً في باب ما يتعلق بالفصاحة والبيان فما تحقق إفحامهم دعتهم شدة المكابرة والعناد إلى أن علقوا معارضته بمشيئتهم. ﴿**إن**﴾ ما ﴿**هذا إلا أساطير الأولين**﴾ أي: ما سطره الأولون من القصص جمع أسطورة وهي المسطورة المكتوبة.

وفي «التأويلات النجمية»: قالوا قد سمعنا وما سمعوا على الحقيقة فإنها قرآن يهدي إلى الرشد كما سمعت الجن وأنهم سمعوا أساطير الأولين ولهذا قالوا ما قالوا فإنهم يقدرون على أن يقولوا أساطير الأولين ولكن لا يقدرون على أن يقولوا مثل القرآن لأن القرآن كلام الله وصفته القديمة وما يقولون هو كلام المحدث المخلوق فلا يكون مثل القرآن في الصورة والمعنى والحقيقة والأسرار والأنوار ولا يقدر على مثله الخلائق كلهم كما قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] وفي «المثنوي»:

چون كتاب اللّه برآمد هم بران	اين چنين طعنه زدند آن كافران
كه اساطير است وافسانه نژند	نيست تعميقى وتحقيقى بلند
كو دكان خرد فهمش ميكنند	نيست جز امر پسند وناپسند
ذكر يوسف ذكر زلف پرخمش	ذكر يعقوب وزليخا وغمش
ظاهر است وهركسى پى ميبرد	كوبيان كه كم شود در روى خرد
كفت اكر آسان نمايد اين بتو	اينچنين يك سوره كو اى سخت رو
جنيان وانسيان وأهل كار	تو يكى آيت ازين آسان بيار

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿**وإذ قالوا**﴾ أي واذكر وقت قول النضر ومتابعيه ـ روي أنه لما قال ﴿**إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾ قال النبي ﷺ ويلك إنه كلام الله تعالى فقال: ﴿**اللهم**﴾ [بار خدايا] ﴿**إن كان هذا**﴾ القرآن ﴿**هو**﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب ﴿**الحق**﴾ المنزل ﴿**من عندك**﴾ ومعنى الحق

بالفارسية [راست ودرست] ﴿فأمطر علينا حجارة﴾ نازلة ﴿من السماء﴾ عقوبة علينا كما أمطرتها على قوم لوط وأصحاب الفيل ﴿أو ائتنا بعذاب أليم﴾ سواه مما عذب به الأمم والمراد به التهكم وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً وحاشاه.

قيل: نزل في النضر بن الحارث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر فإنه عليه السلام قتل يوم بدر ثلاثة من قريش صبراً، وهم: طعيمة بن عدي، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث وكان قد أسره المقداد بن الأسود فانظر أنه من غاية ضلالته وجهالته قال ما قال ولم يقل بدلاً عنه: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ومتعنا به واجعله شفاء قلوبنا ونور به صدورنا وأمثال هذا فكيف بمن يكون هذا حاله أن يكون مثل القرآن مقاله.

﴿وما كان الله﴾ مريداً ﴿ليعذبهم وأنت فيهم﴾ لأن العذاب إذا نزل عمّ ولم يعذب أمة إلا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها وفيه تعظيم للنبي عليه السلام وحفظ لحرمته، وقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين والرحمة والعذاب ضدان والضدان لا يجتمعان قيل إن الرسول عليه السلام هو الأمان الأعظم ما عاش ودامت سنّته باقية، والآية دليل على شرفه عليه السلام واحترامه عند الله حيث جعله سبباً لأمان العباد وعدم نزول العذاب وفي ذلك إيماء إلى أن الله تعالى يرفع عذاب قوم لاقترانهم بأهل الصلاح والتقى.

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره: جميع الانتظام بوجوده الشريف فإنه مظهر الذات وطلسم العوالم حتى قيل في وجه عدم ارتحال جسده الشريف من الدنيا مع أن عيسى عليه السلام قد عرج إلى السماء بجسده أنه إنما بقي جسمه الطاهر هنا لإصلاح عالم الأجساد وانتظامه. قال الشيخ العطار قدس سره:

خويشتن را خواجهٔ عرصات كفت — إنـمـا أنـا رحـمـة مـهـداة كـفـت

رزقنا الله شفاعته ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ المراد استغفار من بقي فيهم من المؤمنين المستضعفين الذين لا يستطيعون المهاجرة عنهم.

وقيل: معناه وفي أصلابهم من يستغفر وقيل معناه وفيهم من يؤول أمره إلى الاستغفار من الكفر.

قال أمير المؤمنين علي المرتضى رضي الله عنه: كان في الأرض أمانان فرفع أحدهما وبقي الآخر. فأما الذي رفع فهو رسول الله. أما الذي بقي فالاستغفار وقرأ بعده هذه الآية.

وفي «نفائس المجالس»: المؤمن الصادق في إيمانه لا يعذبه الله في الآخرة لأن نبيه يكون فيهم يوم القيامة وأقسم الله سبحانه أن لا يعذب أمته ما دام هو بينهم والصدق في التوبة يؤدي إلى النجاة وهو الندم مع الإقلاع لا باللسان فقط واستغفار العوام من الذنوب واستغفار الخواص من رؤية الأعمال دون رؤية المنة والفضل واستغفار الأكابر من رؤية شيء سوى الله.

كفت حق كآمرزش ازمن مى طلب — كان طلب مر عفورا باشد سبب

ازپى زهر كناه ار بشنوى — هست استغفار ترياق قوى

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً

وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله﴾ أي: أي شيء حصل لهم في انتفاء العذاب عنهم يعني لاحظّ لهم في ذلك وهم معذبون لا محالة بعد زوال المانع والموجب لإمهالهم هما الأمران المذكوران وكيف لا يعذبون ﴿وهم﴾ أي: والحال إنهم ﴿يصدون﴾ يمنعون الرسول والمؤمنين. ﴿عن المسجد الحرام﴾ أي: عن طواف الكعبة شرفها الله كما وقع عام الحديبية ومن صدهم عنه ألجأ رسول الله ﷺ إلى الهجرة وكانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء فرد الله عليهم بقوله: ﴿وما كانوا أولياءه﴾ أي: مستحقين ولاية أمر المسجد الحرام مع شركهم. ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن لا ولاية لهم عليه، وفيه إشعار بأن منهم من يعلم ذلك ولكنه يعاند وقيل أريد بأكثرهم كلهم كما يراد بالقلة العدم.

وفي «التأويلات»: ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ فيه إشارة إلى أن الولي هو المتقي بالله عما سواه ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: ولكن الأكثرين من الأولياء لا يعلمون أنهم أهل الولاية وبه يشير إلى أن بعض الأولياء يجوز أن يعلم أنه ولي ولكن الأكثرين من الأولياء لا يعلمون أنهم أولياء الله.

﴿وما كان صلاتهم﴾ أي دعاء المشركين ﴿عند البيت﴾ أي بيت الله وهو الكعبة ﴿إلا مكاء﴾ صفيراً من مكا يمكو مكواً ومكاء إذا صفر.

وقال الحدادي: المكاء طائر أبيض يكون في الحجاز يصفر فسمي تصويته باسمه ﴿وتصدية﴾ تصفيقاً وهو تصويت اليدين إحداهما على الأخرى وأصلها إحداث الصدى وهو ما يسمع من رجع الصوت في الأمكنة الخالية الصلبة يقال صدى يصدى تصدية وكان تقرب المشركين إلى الله بالصفير والتصفيق يفعلونهما عند البيت مكان الدعاء والتسبيح ويعدونهما نوعاً من العبادة والدعاء لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال كانت قريش يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون فمساق الآية لتقرير استحقاقهم العذاب وعدم ولايتهم المسجد فإنها لا تليق بمن هذه صلاته.

وقال مقاتل: كان النبي عليه السلام إذا صلى في المسجد قام رجلان من بني عبد الدار عن يمينه ورجلان عن يساره فيصفرون كما يصفر المكاء ويصفقون بأيديهم ليخلطوا على النبي عليه السلام صلاته وقراءته وكانوا يفعلون كذلك بصلاة من آمن به ويريدون أنهم يصلون أيضاً فالمراد بالصلاة على هذا التقدير هي المأمور بها ﴿فذوقوا العذاب﴾ أي عذاب القتل والأسر يوم بدر ويقال أراد بهذا أنه يقال لهم يوم القيامة فذوقوا العذاب. ﴿بما كنتم تكفرون﴾ اعتقاداً وعملاً فالكفر والمعصية سبب للوقوع في العذاب والتوبة والاستغفار وسيلة إلى فيض الرحمة من الوهاب وهي صابون الأوزار فحيث لا توبة ولا طهارة كان كل مسلم لا يصلح لأن يلي أمر مسجد القلب وإنما يليق بولايته من كان فارغاً من الشواغل معرضاً عن العلائق طاهراً من

العيوب والله تعالى لا يعذب أولياءه بعد إدخالهم جنات التجليات العالية والأذواق والحالات المتوالية فإنهم تخلصوا من الوجود المضاف إلى النار المشابه للحطب وما بقي فيهم غير النور الإلهي المضيء في بيت القلب الحقاني وإنما يعذب بعدله من لم يستعد للرحمة أو من خلط عملاً صالحاً بآخر سيئاً ليخلصه من ذلك اللوث فالاقتداء بالنبي عليه السلام قبول ما جاء به من الأحكام والشرائع مؤد إلى الخلاص وسبب للتصفية فعليك بالاختيار والاجتناب فإنهما فرضان وحقيقة التقوى عبارة عن كليهما وبالاحتماء يصح المريض ومعالجة القلوب المرضى أولى من كل أمر وأهمّ من كل شيء للعبد العاقل وذلك بالتقوى وإحياء سنة خير الورى وفي الحديث: «من أحيا سنتي فقد أحياني ومن أحياني فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة يوم القيامة» وفي الحديث أيضاً: «من حفظ سنتي أكرمه الله بأربع خصال: المحبة في قلوب البررة، والهيبة في قلوب الفجرة، والسعة في الرزق والثقة بالدين» فإن فاتت صحبة الرسول فقد تيسرت صحبة سنته، وصحبة من أحب سنته وذلك ماضٍ إلى يوم القيامة ولصحبة الكبار واقتران المتقين تأثير عظيم ولاستماع كلام الحق والرسول نفعٌ تام ولكن العمدة توفيق الله وهدايته، نسأل الله تعالى أن يصحح أغراضنا ويكثر صالحات أعمالنا وأعواضنا ويؤيدنا بنور الكتاب والسنة ويشرفنا بالمقامات العالية في الجنة.

﴿**إن الذين كفروا**﴾ نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً من أشراف قريش يطعم كل واحد منهم عسكر الكفار كل يوم عشر جزر، وهو جمع جزور وهو البعير ذكراً كان أو أنثى إلا أن لفظه مؤنث تقول هذه الجزور وإن أردت ذكراً. ﴿**ينفقون أموالهم**﴾ على عداوة الرسول ﷺ. ﴿**ليصدوا**﴾ أي يمنعوا الناس ﴿**عن سبيل الله**﴾ أي: دين الله وأتباع رسوله لأنه طريق ثوابه والخلود في جنته لمن سلكه على ما أمر به واللام في ليصدوا لام الصيرورة وهي لام العاقبة والمآل. ﴿**فسينفقونها**﴾ بتمامها ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم وهو إنفاق بدر والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو إنفاق أحد، ويحتمل أن يراد بهما واحد بأن يكون ينفقون للاستمرار التجددي، ويكون السين في قوله. ﴿**فسينفقونها**﴾ للتأكيد لا للتسويف فيتحد الإنفاقان إلا أن مساق الأول لبيان غرضهم من الإنفاق ومساق الثاني لبيان عاقبته. ﴿**ثم تكون**﴾ تلك الأموال ﴿**عليهم حسرة**﴾ ندماً وغماً لفواتها من غير حصول المقصود، ولما كانت عاقبة إنفاقها حسرة في قلوبهم جعلت ذوات الأموال كأنها عين الحسرة للمبالغة.

قال الحدادي: والحسرة مأخوذة من الكشف يقال حسر رأسه إذا كشفه والحاسر كاشف الرأس فيكون المعنى ثم يكشف لهم عن ذلك ما يكون حسرة عليهم ﴿**ثم يغلبون**﴾ آخر الأمر وإن كانت الحرب بينهم سجالاً قبل ذلك. ﴿**والذين كفروا**﴾ وأصروا على الكفر ﴿**إلى جهنم يحشرون**﴾ أي يساقون لا إلى غيرها.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿**ليميز الله**﴾ اللام متعلقة بيحشرون أو يغلبون والميز بالفارسية [جدا كردن]. ﴿**الخبيث**﴾ فريق الكفار ﴿**من الطيب**﴾ فريق المؤمنين ﴿**ويجعل**﴾ الفريق ﴿**الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً**﴾ أي يجمعهم ويضم بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا ويتزاحموا فالركم ليس

عبارة عن الجمع مطلقاً بل هو الجمع بين أشياء بحيث يتراكب بعضها فوق بعض ومنه السحاب المركوم ﴿فيجعله في جهنم﴾ كله ﴿أولئك﴾ الفريق الخبيث ﴿هم الخاسرون﴾ الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أموالهم وأنفسهم.

والإشارة: أن الله تعالى خلق الروح نورانياً علوياً وخلق النفس ظلمانية سفلية ثم أشرك بينهما وجعل رأس مالهما الاستعداد الفطري القابل للترقي، والكمال في القربة والمعرفة والخسارة والنقصان فمن اتجر فآمن وجاهد بنفسه وماله في سبيل الله وطلبه وبلغ مبلغ الرجال البالغين فقد ربح روحه ونفسه جميعاً ومن آمن بالله ورسوله، لكن وجد منه العصيان ومخالفة الشريعة فقد ربح روحه وخسر نفسه ومن لم يؤمن بالله ورسوله وكفر بهما فقد خسر روحه ونفسه جميعاً.

قيل: دخل على الشبلي قدس سره في وقت وفاته، وهو يقول: يجوز يجوز، فقيل له ما معنى قولك يجوز؟ فقال: خلق الله الروح والنفس وأشرك بين الروح والنفس فعملا واتجرا سنين كثيرة فحوسبا فإذا هما قد خسرا وليس معهما ربح، فقد عزما على الافتراق، وأنا أقول شركة لا ربح فيها يجوز أن يقع بين الشريكين افتراق. قال السعدي:

كوس رحلت بكوفت دست اجل ... اى دو چشم وداع سر بكنيد
اى كف ودست وساعد وبازو ... همه توديع يكد كر بكنيد
بر من افتاده مرك دشمن كام ... آخراى دوستان حذر بكنيد
روز كارم بشد بنادانى ... من نكردم شما حذر بكنيد

فعلى العاقل أن يجتهد قبل مجيء الفوت ويربح في تجارته ببذل النفس والمال والطيب من الأموال ما يبذل في طلب الله على الطالبين والخبيث ما يلتفت إليه الطالب من غير حاجة ضرورية فيشغله عن الله وطلبه فيكون قاطع طريقه. ويروى أن الله تعالى يضم الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض فيلقيها في جهنم ويعذب أربابها كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥] وروي أن أبا سفيان استأجر ليوم أحد ألفين من العرب على محاربة الرسول ﷺ سوى من استجاش من العرب أي: صار جيشاً وأنفق عليهم أربعين أوقية والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً.

وفي «القاموس» سبعة مثاقيل فانظر إلى الكفار وجسارتهم على الإنفاق لغرض فاسد وهو الصد عن سبيل الله وأقل من القليل من المسلمين من يبذل ماله ولو قليلاً لجذب القلوب والوصول إلى رضى المحبوب فلا بد للمرء من قطع النفس عن مألوفها وهو حب المال.

ومن كلمات الجنيد قدس سره: ما أخذنا التصوف عن القال والقيل لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رجل يا رسول الله، أيّ الناس أفضل؟ قال: مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قال: ثم من؟ قال: رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره» وفيه دليل على فضل العزلة وهي مستحبة عند فساد الزمان وتغير الإخوان وتقلب الأحوال ووقوع الفتن وتراكم المحن كما فعله جماعة من الصحابة رضي الله عنهم وقد كان النبي عليه السلام عند تقلب الأحوال واختلاف الرجال وكثرة القيل والقال يأمر بالاعتزال وملازمة البيوت وكسر السيوف واتخاذها من العراجين والخشب.

قال الإمام الغزالي: إن السلف الصالح أجمعوا على التحذير من زمانهم وأهله: وآثروا العزلة وأمروا بذلك وتواصوا بها ولا شك أنهم كانوا بصدد النصح وأن الزمان لم يصر بعدهم خيراً مما كان بل أدهى وأمر. قال الحافظ:

توعمر حواه وصبورى كه چرخ شعبدباز ... هزار بازى ازين طرفه تربرانكيزد
ان دام هذا ولم يحدث له غير ... لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

اللهم اجعلنا من الصابرين.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قل للذين كفروا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجلهم، والمراد أبو سفيان وأصحابه. **﴿إن ينتهوا﴾** عن معاداة الرسول بالدخول في الإسلام. **﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾** من ذنوبهم قبل الإسلام **﴿وإن يعودوا﴾** إلى قتاله انتقمنا منهم وأهلكناهم **﴿فقد مضت سنة الأولين﴾** الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك وأنشد بعضهم:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف ... ثم انتهى عما أتاه واقترف
لقوله قل للذين كفروا ... إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

﴿وقاتلوهم﴾ [وكار زار كنيداى مؤمنان بأهل كفر] **﴿حتى﴾** إلى أن **﴿لا تكون﴾** توجد منهم **﴿فتنة﴾** أي شرك يعني [مشرك نماندا زوثنى وأهل كتاب] **﴿ويكون الدين كله لله﴾** وتضمحل الأديان الباطلة إما بإهلاك أهلها جميعاً أو برجوعهم عنها خشية القتل **﴿فإن انتهوا﴾** عن الكفر **﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾** فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم.

﴿وإن تولوا﴾ أي أعرضوا عن قبول الحق. **﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾** ناصركم فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم **﴿نعم المولى﴾** لا يضيع من تولاه **﴿ونعم النصير﴾** لا يغلب من نصره.

وفي الآية: حث على الجهاد، وفي الحديث: «موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود» وعن معاذ بن جبل قال عهد إلينا رسول الله في خمس من فعل واحدة منهن كان ضامناً على الله تعالى: «من عاد مريضاً، أو خرج مع جنازة، أو خرج غازياً في سبيل الله، أو دخل على إمام يريد بذلك تعزيره وتوقيره، أو قعد في بيته فسلم وسلم الناس منه» وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من خرج حاجاً فمات كتب الله له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً فمات كتب الله له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً فمات كتب الله له أجر الغازي إلى يوم القيامة» فعلى العاقل أن يجتهد في إحياء الدين بما أمكن له من الأسباب ويتوقع النصرة الموعودة من رب الأرباب ولا يلتفت إلى مخلوق مثله فإنهما سيان في باب العجز خصوصاً إذا كان استمداده من الفسقة كما يفعل ولاة الزمان فإنه لا يجيء خير لأهل الخير من أهل الشر والعدوان ونعم ما قيل:

دركار دين زمردم بى دين مدد مخواه ... ازماه منخسف مطلب نور صبحكاه

ثم إن حقيقة النصرة أن ينصرك الله تعالى على نفسك التي هي أعدى عدوك بقهر هواها

وقمع مشتهاها فإن انفتاح باب الملك في الأنفس سبب وطريق لانفتاح باب الملك في الآفاق وكذا الملكوت:

دوستى نفس را بگذار وبگذار ازهوس

همچو مردان طالب حق باش بى جوياى نفس

والإشارة: ﴿وقاتلوهم﴾ كفار النفوس والهوى بسيف الصدقة. ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ النفس والهوى آفة مانعة لكم عن الوصول إلى عالم الحقيقة. ﴿ويكون الدين كله لله﴾ ببذل الوجود وفقد الوجود لنيل الجود. ﴿فإن انتهوا﴾ أي: النفوس عن معاملاتها وتبدلت عن أوصافها وطاوعت القلوب والأرواح وصارت مأمورة مطمئنة تحت الأحكام. ﴿فإن الله بما يعملون﴾ في عبوديته وصدق طلبه. ﴿بصير﴾ لا يخفى عليه نقيرها وقطميرها فيجازيهم على قدر مساعيهم. ﴿وإن تولوا﴾ أي وإن أعرضوا عن الحقوق وأقبلوا إلى الشهوات والحظوظ ﴿فاعلموا﴾ أيها القلوب والأرواح. ﴿أن الله مولاكم﴾ في الهداية وناصركم على قهر النفوس وقمع الهوى ﴿نعم المولى﴾ الذي هو وليكم لتهتدوا به إليه. ﴿ونعم النصير﴾ في دفع ما يقطعكم عنه وناصركم في الوصول إليه.

واعلم: أن النور الذي هو حقائق ما يستفاد من معاني الأسماء والصفات جند القلب الذي يقابل النفس والهوى والشيطان ونحو ذلك، كما أن الظلمة التي هي معاني ما يستفاد من الهوى والعوائد الرديئة جند النفس التي به تتقوى آثارها والحرب بينهما سجال، فإذا أراد الله أن ينصر عبده على ما طلب منه أمده بجنود الأنوار فكلما اعترته ظلمة قام لها نور فأذهبها وقطع عنه مواد الظلم والأغيار، فلم يبقَ للهوى مجال ولا للشهوة والأخلاق الذميمة مقال ولا حال كذا في «التأويلات النجمية».

وفي «شرح الحكم العطائية»: نسأل الله سبحانه أن يمدنا بما أمد به أخياره ويفيض علينا من سجال فيضه أنواره.

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿واعلموا﴾ أيها المؤمنون ﴿أنما﴾ حق ما هذه أن تكتب منفصلة عن أن لكونها موصولة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤] لكنها كتبت متصلة اتباعاً للرسم، أي: الذي ﴿غنمتم﴾ أخذتموه وأصبتموه من الكفر قهراً وغلبة، والغنم: الفوز بالشيء وأصل الغنيمة إصابة الغنم من العدو ثم اتسع وأطلق على كل ما أصيب منهم كائناً ما كان، قالوا إذا دخل الواحد والاثنان دار الحرب مغيرين بغير إذن الإمام فأخذوا شيئاً لم يخمس؛ لأن الغنيمة هو المأخوذ قهراً وغلبة لا اختلاساً وسرقة هذا عند أبي حنيفة ويخمس عند الشافعي. ﴿من شيء﴾ حال من عائد الموصول أي ما غنمتموه كائناً مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط خلا أن سلب المقتول للقاتل إذا نفله الإمام وأن الأسارى يخير فيها الإمام وكذا الأراضي المغنومة.

والآية نزلت ببدر.

وقال الواقدي: كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. ﴿**فأن لله خمسه**﴾ مبتدأ خبره محذوف أي حكمه ثابت فيما شرعه الله وبينه لعباده أن خمسه لله أو خبر مبتدأ محذوف، أي: فالحكم أن لله خمسه والخمس بالفارسية [پنج يك]. ﴿**وللرسول ولذي القربى**﴾ أعاد اللام في لذي القربى دون غيرهم من الأصناف الثلاثة لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ لمزيد اتصالهم به عليه الصلاة والسلام وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل.

واعلم: أنه عليه السلام: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وكان لعبد مناف أربعة بنين: هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل، وكان لهاشم ولدان عبد المطلب وأسد، وكان لعبد المطلب عشرة بنين منهم: عبد الله وأبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب والحارث وزبير، فكلهم وما يتفرع منهم هاشميون لكونهم من أولاد هاشم وعبد مناف هو ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وكل من كان من ولد النضر فهو قرشي دون ولد كنانة ومن فوقه فقريش قبيلة أبوهم النضر وإنما خص ذوو قرابة رسول الله ﷺ ببني هاشم وبني المطلب؛ لأنهم لم يفارقوه عليه السلام في جاهلية ولا في إسلام فكانت قرابتهم قرابة كاملة، وهي القرابة نسباً وتواصلاً في حال العسر واليسر فأعطوا الخمس، وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل فمع مساواتهما بني المطلب في القرب حرموا الخمس، لأن قرابة نوفل بالتواصل والتناصر لم تنضم إلى قرابتهم النسبية.

﴿**واليتامى**﴾ جمع يتيم وهو الصغير المسلم الذي مات أبوه يصرف إليه سهم من الخمس إذا كان فقيراً ﴿**والمساكين**﴾ جمع مسكين وهو الذي أسكنه الضعف عن النهوض لحاجته، أي: أهل الفاقة والحاجة من المسلمين. ﴿**وابن السبيل**﴾ أي: المسافر البعيد عن ماله.

قال الكاشفي: [ومسافران مسلمانان يا قومى كه بر مسلمانان نزول كنند].

واعلم: أن اللام في الآية لام الاستحقاق لخمس الغنيمة، فاقتضى الظاهر أن تكون المصارف ستة أقسام، لكن الجمهور على أن ذكر الله تعالى للتعظيم وافتتاح الكلام باسمه تعالى على طريق التبرك، لا لأن لله نصيباً من الخمس فإن الدنيا والآخرة كلها له سبحانه فلا يسدس خمس الغنيمة بأن يصرف سهم منها إلى الله تعالى بصرفه إلى عمارة الكعبة إن كانت قريبة وإلا فإلى مسجد كل بلدة ثبت فيها الخمس، كما ذهب إليه البعض أو بضمه إلى سهم الرسول كما ذهب إليه الآخر وسهم رسول الله ﷺ سقط بوفاته، لأن الأنبياء لا يورثون.

قال ابن الشيخ لأنه عليه السلام لم يخلفه أحد في الرسالة فلا يخلفه في سهمه هذا عند الإمام الأعظم، وأما الشافعي فيصرف سهمه عليه السلام، إلى مصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام وكذا سقط سهم ذوي القربى بوفاته عليه السلام فلا يعطى لهم لأجل قرابتهم، بل يعطى لفقرهم، وكان عليه السلام يعطيهم غنيهم وفقيرهم لقرابتهم لا لفقرهم حتى كان يعطي العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله. والحاصل: أن ذوي القربى أسوة لسائر الفقراء أي يدخلون فيهم ويقدمون على غيرهم ولا يعطى أغنياؤهم.

وفي شرح الآثار: عن أبي حنيفة إن الصدقات كلها، أي: فرضها ونفلها جائزة على بني هاشم والحرمة كانت في عهد النبي عليه السلام لوصول خمس الخمس إليهم فلما سقط ذلك بموته حلت لهم الصدقة.

قال الطحاوي: وبالجواز نأخذ ولما سقط السهمان وهما سهم الرسول وسهم ذوي القربى فخمس الغنيمة اليوم يجعل ثلاثة أقسام، ويصرف إلى ثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وأبناء السبيل، وتقسم الأخماس الأربعة بين الغانمين للفارس سهمان وللراجل سهم.

وفي «حياة الحيوان» إن الفيل يقاتل به وراكبه يرضخ له أكثر من راكب البغل.

وفي «التحفة»: هذه الثلاثة مصارف الخمس عندنا لا على سبيل الاستحقاق حتى لو صرفت إلى صنف واحد منهم جاز ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ متعلق بمحذوف دل عليه واعلموا، أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقطعوا أطماعكم منه واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية ووجه دلالته عليه أنه تعالى إنما أمر بالعلم بهذا الحكم ليعمل به لأن العلم بمثل هذا المعلوم ليس مما يقصد لنفسه بل إنما يقصد للعمل به. ﴿وما أنزلنا﴾ أي: وبما أنزلناه. ﴿على عبدنا﴾ محمد ﷺ من الآيات والنصر على أن المراد بالإنزال مجرد الإيصال والتيسير فينتظم الكل انتظاماً حقيقياً. ﴿يوم الفرقان﴾ ظرف لأنزلنا، أي: يوم بدر فإنه فرق فيه بين الحق والباطل بنصر المؤمنين وكبت الكافرين. ﴿يوم التقى الجمعان﴾ أي: المسلمون والكفار، وهو بدل من الظرف الأول [وآن روز جمعه بود هفد هم رمضان درسنه ثانيه از هجرت]، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ لقتال المشركين لإعلاء الحق والدين. ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

﴿إذ أنتم﴾ نازلون ﴿بالعدوة الدنيا﴾ أي: شفير الوادي الأدنى من المدينة وهو بدل ثان من يوم الفرقان. ﴿وهم﴾ أي: وعدوكم نازلون. ﴿بالعدوة القصوى﴾ أي: في جانبها الأبعد منها وهو الجانب الذي يلي مكة، والعدوة: شط الوادي أي جانبه وشفيره، وسميت بذلك لأنها عدت ما في الوادي من ماء عن أن يتجاوز، أي: منعته والدنيا من دنا يدنو دنواً والقصوى من قصا المكان يقصو قصواً إذا بعد، والقياس القصيا بقلب الواو ياء كالدنيا إلا أن واوها بقيت على حالها كواو القود. ﴿والركب﴾ جمع راكب مثل صحب وصاحب، والراكب هو راكب البعير خاصة كما أن الفارس من على الفرس والمراد بالركب ههنا العير، أي: القافلة المقبلة المتوجهة من الشام أو قوادها وهم أبو سفيان وأصحابه وكانوا جميعاً على البعير. ﴿أسفل منكم﴾ أي: نازل في مكان أسفل من مكانكم وكانوا بقرب ساحل البحر بينهم وبين المسلمين ثلاثة أميال. وأسفل، وإن كان منصوباً على الظرفية واقعاً موقع خبر المبتدأ إلا أنه في الحقيقة صفة لظرف مكان محذوف والجملة حال من الظرف قبله، وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وضعف حال المسلمين ولهذه الفائدة ذكر مراكز الفريقين فإن العدوة الدنيا

كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب، ولم يكن فيها ماء بخلاف العدوة القصوى فورد النظم على هذا الوجه الدال على القوة والضعف؛ ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعاً من الله خارقاً للعادة فيزدادوا إيماناً وشكراً. ﴿ولو تواعدتم﴾ أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم. ﴿لاختلفتم في الميعاد﴾ [در وعده· خودرا] هيبة منهم ويأساً من الظفر عليهم ﴿ولكن﴾ ما اختلفتم وما تخلفتم عن القتال بل جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد. ﴿ليقضي الله﴾ ليتم الله ﴿أمراً كان مفعولاً﴾ حقيقاً بأن يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه جعل ما اقتضت الحكمة أن يفعل مفعولاً لقوة ما يستدعي أن يفعل ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ بدل من ليقضي.

قال سعدي چلبي المفتي: الظاهر والله أعلم أن عن هنا بمعنى بعد، كقوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] انتهى. والمعنى ليكون هلاك من شارف الهلاك بعد مشاهدة بينة واضحة الدلالة على أن الدين المرضي عند الله تعالى هو الإسلام لا عن مخالجة شبهة حتى لا تبقي له عند الله تعالى معذرة وحجة في عدم تحليه بحلية الإسلام. ﴿ويحيى من حي عن بينة﴾ أي: يعيش من يعيش عن حجة شاهدها حتى يقوى يقينه ويكمل إيمانه، فإن وقعة بدر كانت من الآيات الواضحة الدالة على حقيقة الإسلام فمن كفر بعد مشاهدتها كان مكابراً معانداً عادلاً عن الحق الذي وضحت حقيته والمراد بمن هلك ومن حي المشارف للهلاك والحياة.

قال سعدي چلبي: المراد هو الاستمرار على الحياة بعد وقعة بدر فيظهر صحة اعتبار معنى المشارفة في الحياة أيضاً. ﴿وإن الله لسميع عليم﴾ أي: بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه. ولعل الجمع بين وصفي السميع والعليم لاشتمال كل واحد من الكفر والإيمان على القول والاعتقاد [نقلست كه حضرت پيغمبر ﷺ دران شب كه روزش جنك بدر واقع شده بود در واقعه ديد لشكر قريش را درغايت قلت وذلت تأويل فرمودكه دوستان غالب ودشمنان مغلوب خواهند شد مؤمنان بعد از استماع اين رؤيا وتعبير آن بغايت مسرور وفرحان شدند وحق سبحانه وتعالى تذكار آن نعمت ميفرمايد وميكويد].

﴿إذ يريكهم الله﴾ أي: اذكر يا محمد وقت إراءة الله المشركين إياك. ﴿في منامك﴾ مصدر ميمي بمعنى النوم. ﴿قليلا﴾ حال من المفعول الثاني، أي: حال كونهم قليلاً والإراءة بصرية تتعدى إلى اثنين ـ روي عن مجاهد أنه قال: أرى الله تعالى كفار قريش لنبيه ﷺ في منامه قليلاً فأخبر بذلك أصحابه، فقالوا: رؤيا النبي حق والقوم قليل فكان ذلك سبباً لقوة قلوبهم ﴿ولو أراكهم كثيراً لفشلتم﴾ أي لجبنتم وتأخرتم عن الصف.

قال الحدادي: الفشل هو الضعف مع الوجل ﴿ولتنازعتم في الأمر﴾ أي: أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار، والتنازع أن يحاول كل واحد من الاثنين أن ينزع صاحبه مما هو عليه ﴿ولكن الله سلم﴾ أي: أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع. ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع ولذلك دبر ما دبر.

﴿وإذ يريكموهم﴾ الضميران مفعولا يرى وفاعل الإراءة هو الله تعالى. والمعنى بالفارسية [وآنراياد كنيداى صحابه كه بنمود خداى تعالى دشمنانرا بشما]. ﴿إذ التقيتم في أعينكم﴾ حال كونهم ﴿قليلاً﴾ وإنما قللهم في أعين المسلمين، حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لمن إلى جنبه أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة مع أنهم كانوا ألفاً وتسعمائة وخمسين تثبيتاً لهم وتقوية

لقلوبهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ فإنها وحي لا خلف فيه أصلاً. ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وهو مثل يضرب في القلة، أي: قلتهم بحيث يشبعهم جزور واحد قللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليجترئوا عليهم ولا يبالغوا في الاجتهاد والاستعداد والتأهب والحذر، ثم كثرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم.

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ لأنهم ينظرون إليكم بالأبصار الظاهرة لا يرون كثرة معناكم وقوة قلوبكم ومددكم من الملائكة، فإنهم عمي البصائر والقلوب ولئلا يفروا من القتال كما فر إبليس لما رأى مدد الملائكة وهو قد جاء مع الكفار في صورة سراقة فقالوا له أين تفر فقال لهم إني أرى ما لا ترون. ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ كرره لاختلاف الفعل المعلل به وهو الجمع بين الفريقين على الحالة المذكورة في الأول وتقليل كل واحد من الفريقين في عين الآخر في الثاني. ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ كلها يصرفها كيف يريد لا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه. وفيه تنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها وإنما المراد منها ما يكون وسيلة إلى سعادة الآخرة ومؤدياً إلى مرضاة الرحمٰن.

وفي الآيات إشارات: منها أن أركان الإسلام خمسة. وهي غنائم دينية لكن التوحيد أعلى من الكل ولذا كان خمساً راجعاً إلى الله تعالى وباقي الأخماس حظ الجوارح فعلى العاقل أن يحرز غنائم العبادات وما يتعلق بالمعارف والكمالات التي تتحقق بها السادات ليكون الروح والجوارح كلاهما محفوظين غير محرومين.

وفي «التأويلات النجمية»: ما غنمتم عند رفع الحجب من أنوار المشاهدات وأسرار المكاشفات فلكم أربعة أخماس تعيشون بها مع الله وتكتمونها عن الأغيار.

دانـد ويـوشـد بـامـر ذو الـجـلال   كـه نـبـاشـد كـشـف راز حـق حـلال

ولا تنفقون أكثر من خمسها في الله مخلصاً وللرسول متابعاً ولذي القربى يعني الإخوان في الله مواصلاً واليتامى، يعني: أهل الطلب من الذين غاب عنهم مشايخهم قبل بلوغهم إلى حد الكمال والمساكين، يعني: الطالبين الصادقين إذا أمسكوا بأيدي الإرادة أذيال إرشادكم وابن السبيل يعني الصادر الوارد من أهل الصدق والإرادة من أغيار جانب كل طائفة منهم على حسب صدقهم وإرادتهم وطلبهم واستعدادهم واستحقاقهم مؤدياً حقوقهم لله وفي الله وبالله في متابعة رسول الله وقانون سيرته وسنته.

ومنها: أن الله تعالى كما جمع بين الفريقين بحيث لو تركهم على حالهم لما اجتمعوا ليظهر عز الإسلام وذل الكفر، كذلك جمع بين الأرواح والنفوس في هذه الهياكل والقوالب بحيث لو تركهما على حالهما وهما على تلك الضدية واختلاف الطبيعة لما اجتمعت ليحصل الأرواح في مقعد صدق والنفوس مع الملائكة المقربين كما قال: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩﴾ [الفجر: ٢٩] بعدما كانت محبوسة في سجن الدنيا والأجساد في جنات النعيم وأعلى عليين بعد ما كانت في أسفل سافلين، هذا بالنسبة إلى السعداء المخلوقين للتحيات والقربات، وأما الأشقياء المذروؤون لجهنم فعلى خلاف ذلك وقد خلق الله الاستعداد للترقي والتنزل ولله على الناس الحجة البالغة.

قال الكاشفي: [در ترجمة شفا مذكور ست كه كوهر شب آنكه فروز عقل را همچنانچه

درحقهٔ سينهٔ دوستان مى سپارند دراستين دشمنان تر دامن نيز مى نهند ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ يعني: بارقة نور عقل اكر ازجانب عنايت وتوفيق لامع شود دوستان بدان مهتدى كردند واكر ازطرف قهر وخذلان استضاءت پذيرد سبب اختطاف أبصار بصائر دشمنان شود ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾].

كرت صورت حال بد يانكوست نكاريدهٔ دست تدير اوست

ومنها: أن من سنة الله أن يرى النبي عليه السلام حقائق الأشياء حقاً وصدقاً، وهو يخبر بها ثم يراها أرباب الصورة في الظاهر بضدها ابتلاء واختباراً للمؤمن والمنافق، فالمؤمن يثبت على إيمانه بتصديق النبي عليه السلام وتسليمه في أقواله وأعماله وأحواله من غير اعتراض، فيزيده الله إيماناً مع إيمانه، والمنافق تزل قدمه وتشوش حاله بالاعتراض ويزيد نفاقه على النفاق وعماه على العمى وإلى الله ترجع الأمور فحال المؤمن وأمره يرجع إلى رضاه وحال المنافق وأمره يرجع إلى سخطه والرضى والسخط من آثار لطفه وقهره يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد وقس على هذا إلهامات الأولياء وأحوالهم مع معتقديهم ومنكريهم، فإن الاختبار والابتلاء سنة قديمة وكم ترى من الصوفية من يزعم أنه يحب فلاناً ويعتقده وطريقته حقاً فإذا جاء سطوة القهر بإراءة ما هو غير ملائم لطبعه نكص على عقبيه واتخذه غرضاً لطعنه وتشنيعه وأين هو من المحبة وهو مقام عال يجتمع عنده اللطف والقهر والجمال والجلال فلا يتشوش صاحبه من الأحوال العارضة المرئية في صورة التنزل والتدلي، ولذا كثر أرباب الصورة وقل أصحاب المعنى ويكفي لكل مرشد كامل واحد ممن يلزم طريقته وينبع هداه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة﴾ أي: حاربتم جماعة كافرة لأن اللقاء مما غلب في الحرب والقتال وهم ما كانوا يحاربون إلا الكفار. ﴿فاثبتوا﴾ وقت لقائهم وقتالهم ولا تنهزموا وفي الحديث: «لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا» وإنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب والوثوق بالقوة ولأنه يتضمن قلة الاهتمام بالعدو وتحقيرهم وهذا يخالف الاحتياط، كما قالوا في آداب المناظرة إنه ينبغي أن لا يحسب المناظر الخصم حقيراً، أي: صغيراً ذليلاً لأن استحقار الخصم ربما يؤدي إلى صدور الكلام الضعيف من المناظر لعدم المبالاة فيكون سبباً لغلبة الخصم الضعيف عليه فيكون الضعيف قوياً والقوي ضعيفاً والشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أعم.

فعلى العاقل أن يسأل العفو والعافية فإنه لا يدري ما يفعل به.

أول شكسته باش كه اوج سرير ملك يوسف پس ازمجاورت قعر چاه يافت

﴿واذكروا الله كثيراً﴾ أي في تضاعيف القتال ومواطن الشدة بالتكبير والتهليل وغيرهما، وادعوه بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين كالذين ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي: تفوزون بمرامكم

وتظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله وأن يلتجىء إليه عند الشدائد ويقبل إليه بالكلية فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال، وعلى أن ذكر الله تعالى له تأثير عظيم في دفع المضار وجلب المنافع.

توبهر حالى كه باشى روز وشب يك نفس غافل مباش ازذكررب
درخوشى ذكرتوشكر نعمتست در بلاها التجا باحضر تست

قال بعض الحكماء: إن لله جنة في الدنيا من دخلها يطيب عيشه وهي مجالس الذكر، وفي الحديث: «إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر فإذا أتوا عليهم حفوا بهم ثم بعثوا رائدهم إلى السماء إلى رب العزة تبارك وتعالى فيقولون ربنا أتينا على عباد من عبادك يعظمون آلاءك ويتلون كتابك ويصلون على نبيك محمد ﷺ ويسألونك لآخرتهم ودنياهم فيقول الله تبارك وتعالى غشوهم رحمتي فهم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم».

قال في «أنوار المشارق»: وكما يستحب الذكر يستحب الجلوس في حلق أهله والعادة جرت في حلق الذكر بالعلانية إذ لم يعرف في كرّ الدهور حلقة ذكر اجتمع عليها قوم ذاكرون في أنفسهم فالذكر برفع الصوت أشد تأثيراً في قمع الخواطر الراسخة على قلب المبتدىء، وأيضاً يغتنم الناس بإظهار الدين ببركة الذكر من السامعين في الدور والبيوت ويشهد له يوم القيامة كل رطب ويابس سمع صوته خصوصاً في مواضع الازدحام بين الغافلين من العوام لتنبيه الغافلين وتوفيق الفاسقين.

وفي بعض الفتاوى لو ذكر الله في مجلس الفسق ناوياً أنهم يشتغلون بالفسق وأنا أشتغل بالذكر فهو أفضل كالذكر في السوق أفضل من الذكر في غيره وحضور مجلس الذكر يكفر سبعين مجلساً من مجالس السوء وقد نهي عن أن يجلس الإنسان مجلساً لا يذكر الله فيه ولا يصلي على نبيه محمد ﷺ ويكون ذلك المجلس حسرة عليه يوم القيامة وفي الحديث: «من جلس مجلساً كثر فيه لغطه، فقال: قبل أن يقوم من مجلسه ذلك، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر له ما كان في مجلسه ذلك» فعلى العاقل أن يكون رطب اللسان بالذكر والدعاء والاستغفار دائماً خصوصاً في الأوقات المباركة روي أن النبي عليه السلام بعث بعثاً إلى نجد فغنموا وأسرعوا، وقال رجل: ما رأينا بعثاً أفضل غنيمة وأسرع رجعة فقال النبي عليه السلام: «ألا أدلكم على قوم أفضل غنيمة وأسرع رجعة الذين شهدوا صلاة الصبح ثم جلسوا يذكرون الله حتى تطلع الشمس، ثم يصلون ركعتين ثم يرجعون إلى أهاليهم وهي صلاة الإشراق وهو أول وقت الضحى وذلك بعد أن تطلع الشمس ويصلي ركعتين كانت كأجر حجة وعمرة تامة تامة».

ذكر في «شرح المصابيح» أن في قوله: «ثم قعد يذكر الله تعالى» دلالة على أن المستحب في هذا الوقت إنما هو ذكر الله تعالى لا القراءة؛ لأن هذا وقت شريف وأن للمواظبة للذكر فيه تأثيراً عظيماً في النفوس.

وقال في «المنية»: ناقلاً عن جمع العلوم ومن وقت الفجر إلى طلوع الشمس ذكر الله تعالى أولى من القراءة، ويؤيده ما ذكره في «القنية» من أن الصلاة على النبي عليه السلام والدعاء والتسبيح أفضل من قراءة القرآن في الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها وعن النبي ﷺ: «ألا أدلكم على ساعة من ساعات الجنة الظل فيها ممدود، والرزق فيها مقسوم، والرحمة فيها

مبسوطة، والدعاء مستجاب؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس» قال علي المرتضى رضي الله عنه مر النبي عليه السلام بعائشة رضي الله عنها قبل طلوع الشمس وهي نائمة فحركها برجله فقال: «قومي لتشاهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين إن الله يقسم أرزاق العباد بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس» واختلف في أن التهليل والتسبيح ونحوهما بمجرد القلب أفضل أو باللسان مع حضور القلب.

احتج من رجح الأول بأن عمل السر أفضل واحتج من رجح الثاني بأن العمل فيه أكثر فاقتضى زيادة والصحيح هو الثاني ذكره النووي في «شرح مسلم» والذكر الكثير ما كان بصفاء القلب فصفاء القلب جنة العارف في الدنيا، فإنه يجاوز بذكر الله تعالى عن جحيم النفس الأمارة وهاويتها فيترقى إلى نعيم الحضور.

قال أبو بكر الفرغاني: كنت أسقط في بعض الأيام عن القافلة، فقلت: يا رب لو علمتني الاسم الأعظم فدخل على رجلان، وقال أحدهما للآخر: الاسم الأعظم أن تقول: يا الله ففرحت به، فقال ليس كما تقول بل بصدق اللجأ، أي: الالتجاء والاضطرار كما يقول من كان في لجة البحر ليس ملجأ غير الله.

واعلم: أن الجهاد من أعظم الطاعات ولذلك لا يجتمع غبار المجاهد مع دخان جهنم وبخطوة من المجاهد يغفر ذنب وبأخرى تكتب حسنة، ولكن ينبغي للمجاهد أن يصحح نيته ويثبت في مواطن الحرب فإن بثبات القلب والقدم يتبين أقدار الرجال، كما كان للصديق رضي الله عنه حين صدمته الوجيعة بوفاة رسول الله حين قال «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت» ويجتنب عن الظلم وارتكاب المعاصي فإن الغلبة على الأعداء بالقوة القدسية والتأييد الإلهي لا بالقوة الجسمانية وكثرة العدد والعدد، ألا يرى إلى الله تعالى كيف أيد المؤمنين بالملائكة في غزوة بدر مع قلتهم وكثرة الكافرين فالذين جاهدوا في سبيل الله بالتقى والصبر والثبات فقد غلبوا على الأعداء ووصلوا إلى الدرجات.

كه شتاب چو صرصر كه قرار چوكوه   كه نشيب كبوتركه فراز عقاب

واستعرض الاسكندر جنده فتقدم إليه رجل بفرس أعرج فأمر بإسقاطه فضحك الرجل فاستعظم ضحكه في ذلك المقام، فقال له ما أضحكك؟ وقد أسقطتك؟ قال: العجب منك قال كيف قال تحتك آلة الهرب وتحتي آلة الثبات ثم تسقطني فأعجب بقوله وأثبته.

ثم اعلم أن الفئة الباغية ظاهرة كالطائفة الكافرة والجماعة الفاجرة وباطنة كطائفة القوى النفسانية وجماعة النفس الأمارة، فكما أن المؤمن مأمور بالثبات عند ظهور الفئة الباغية الظاهرة فكذلك مأمور بالثبات عند ظهور الفئة الباغية الباطنة بالمجاهدات والجهاد مع الكفار جهاد أصغر والجهاد مع النفس جهاد أكبر والأكبر أفضل من الأصغر ولذلك يكون القتيل في الأكبر صديقاً وفي الأصغر شهيداً فالصديق فوق الشهيد، كما قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [النساء: ٦٩] والخلاص من ظلمات الخلقية والفوز بأنوار الذكر الذي الاشتغال به من أكبر أنواع الجهاد وأسرع قدم في الوصول إلى رب العباد نسأل الله تعالى أن يحققنا بحقائق الذكر والتوحيد.

﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ في كل ما تأتون وما تذرون خصوصاً في أمر الجهاد وثبات القدم في معركة القتال ﴿ولا تنازعوا﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر وأُحد ﴿فتفشلوا﴾ جواب للنهي

يقال فشل أي كسل وضعف وتراخى وجبن ﴿وتذهب ريحكم﴾ بالنصب عطف على جواب النهي أي تذهب دولتكم وشوكتكم فإنها مستعارة للدولة من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه مشبهة بها في هبوبها وجريانها. وقيل: المراد بها الحقيقة فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى ويقال لها ريح النصرة. وروي أنه حاصر المدينة قريش وغطفان وبنو قريظة وبنو النضير يوم الخندق فهبت ريح الصبا شديداً فقلعت خيامهم وأراقت قدورهم وهربوا فقال عليه السلام: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» والصبا بفتح الصاد وبالقصر ريح تهب من المشرق، والدبور: هي ما يقابل الصبا في الهبوب يعني الريح مأمورة تجيء تارة للنصرة وتارة للإهلاك، وفي «المثنوي»:

جمله ذرات زمين وآسمان لشكر حقند كاه امتحان
بادرا ديديكه باعادان چه كرد ابرا ديديكه باطوفان چه كرد

﴿واصبروا﴾ على شدائد الحرب وقتال المشركين ولا تولوهم الأدبار. ﴿إن الله مع الصابرين﴾ بالنصرة والكلاءة وما يفهم من كلمة مع من أصالتهم إنما هي من حيث إنهم المباشرون للصبر فهم متبوعون من تلك الحيثية ومعيته تعالى إنما هي من حيث الإمداد والإعانة ﴿ولا تكونوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كالذين خرجوا من ديارهم﴾ يعني: أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير أي القافلة المقبلة من الشام. ﴿بطراً﴾ مفعول له. أي: افتخاراً بمآثر الأصول من الآباء والأمهات وأشراً وهو مقابلة النعمة بالتكبر والخيلاء. ﴿ورئاء الناس﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة أتاهم رسول أبي سفيان، وقال: ارجعوا فقد سلمت عيركم من أصحاب محمد ومن نهبهم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدراً ونشرب بها الخمور وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب فوافوها، أي أتوا بدراً ولكن سقوا كأس المنايا بدل كأس الخمور وناحت عليهم النوائح مكان تغني القيان، فنهى المؤمنون أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين وأمرهم بالتقوى والإخلاص لأن النهي عن الشيء مستلزم للأمر بضده ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ عطف على بطراً بتأويل المصدر أي وصداً ومنعاً للناس عن دين الله المؤدي إلى الجنة والثواب. ﴿والله بما يعملون محيط﴾ فيجازيهم عليه. وفيه تهديد على الأعمال القبيحة خصوصاً ما ذكر في هذه الآية من البطر. والرئاء: هو إظهار الجميل وإبطان القبيح وهو من الصفات المذمومة للنفس. وحكي عن بعض الصالحين أنه قال: كنت ليلة في وقت السحر في غرفة لي على الطريق أقرأ سورة طه فلما ختمتها غفوت غفوة فرأيت شخصاً نزل من السماء بيده صحيفة فنشرها بين يدي فإذا فيها سورة طه، وإذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة إلا كلمة واحدة فإني رأيت مكانها محواً ولم أرَ تحتها شيئاً، فقلت: والله لقد قرأت هذه الكلمة ولا أرى ثواباً ولا أراها أثبتت فقال الشخص صدقت قد قرأتها وكتبناها إلا أنا قد سمعنا منادياً ينادي من قبل العرش امحوها وأسقطوا ثوابها فمحوناها، قال فبكيت في منامي فقلت لم فعلتم ذلك فقال مر رجل فرفعت بها صوتك لأجله فذهب ثوابها وفي الحديث: «إن النار وأهلها يعجون من أهل الرياء» أي: يتضرعون ويرفعون الصوت قيل يا رسول الله وكيف تعج النار قال: «من ضر الناس الذين يعذبون بها» فويل للمرائي في عمله، ومن الرياء التزيي بزي القوم تصنعاً ودوران البلاد تفرجاً ليتباهى بذلك على الإخوان، كما يفعله أكثر المتسمين بالصوفية في هذا الزمان فإن مقصودهم ليس التقليد بلباس القوم تبركاً مع التحقق بمعانيهم فهم

محرومون من أنوار المعرفة وأسرار الحقيقة خارجون عن دائرة الطريقة. قال الحافظ:

مدعى خواست كه آيد بتماشا كه راز　　دست غيب آمد وبر سينهٔ نا محرم زد

فعلى العاقل إخلاص العمل وهو إرادة التقرب إلى الله تعالى وتعظيم أمره وإجابة دعوته سواء كان من العبادات المالية أو البدنية.

وفي «التتارخانية»: لو افتتح الصلاة خالصاً لله تعالى ثم دخل في قلبه الرياء فهو على ما افتتح والرياء أنه لو خلا عن الناس لا يصلي، ولو كان مع الناس يصلي فأما لو صلى مع الناس يحسنها ولو صلى وحده لا يحسن فله ثواب أصل الصلاة دون الإحسان ولا رياء في الصوم إلا أن يكون مراده من الرياضة اصفرار الوجه وهزال البدن ليظنه الناس.رجلاً صالحاً متقياً مريداً للآخرة فانظر إلى تعبه لأجل الناس ولو كان له عقل صحيح وفكر ثاقب لما فعل هذا وفي مثل هذا قالوا أخف حلماً من عصفور قال حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه:

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم　　جسم البغال وأحلام العصافير

وما الدنيا حتى يطلبها العاقل بعمله ويضيع عمره إلى حلول أجله وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي عليه السلام مر بدمنة قوم فيها سخلة ميتة فقال ما لأهلها، فيها حاجة؟ قالوا: يا نبي الله لو كان لأهلها فيها حاجة ما نبذوها قال: «فوالله الدنيا أهون على الله من هذه السخلة على أهلها». قال السعدي قدس سره:

وكرسيم اندوده باشد نحاس　　توان خرج كردن برناشناس

منه آب زرجان من بر پشيز　　كه صراف دانا نكيرد بچيز

چه قدر آورد بندهٔ خورديس　　كه زير قبادارد اندام پيس

نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزلل في مسالك الدين ويوصلنا إلى رضاه في كل قول وعمل وهو المعين آمين بجاه النبي الأمين.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ [آورده اندكه چون قريش از مكه برون آمده بحوالى منزل بنى كنانه رسيدند بجهت كيفيت قديمى كه ميان ايشان بود انديشه ناك شده خواستند باز كردند إبليس بصورة سراقة بن مالك مهتر كنانه بود برآمد برايشان ملاقات نمودو كفت شمانيكو حمايتى ميكنيد برويد من ضامن كه از بنى كنانه ضرر بشمانرسد ومن نيز طريق رفاقه مرعى دارم پس إبليس باجمعى از شياطين همراه ايشان روى ببدر آوردند حق سبحانه وتعالى ازين قصه خبر ميد هد] والمعنى: واذكر يا محمد وقت تزيين الشيطان أعمال كفار مكة في معاداة المؤمنين وغيرها [ودر حقائق سلمى فرموده كه قوة ايشانرا بنظر ايشان درآورد تا اعتماد بدان كردند] **﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾** فإنكم كثير وهم قليل. قوله: (لكم) خبر لا غالب، أي: لا غالب كائن لكم واليوم منصوب بما تعلق به الخبر ومن الناس حال من الضمير فيه، والمراد من الناس المؤمنون. **﴿وإني جار لكم﴾** أي مجيركم من بني كنانة ومعين لكم فمعنى الجار المجير الحافظ الذي يدفع عن صاحبه أنواع الضر كما يدفع الجار عن جاره تقول

العرب أنا جار لك من فلان، أي حافظ لك من مضرته فلا يصل إليك منه مكروه.

وقال في «القاموس»: الجار المجاور: والذي أجرته من أنه يظلم والمجير وأجاره أنقذه ﴿فلما تراءت الفئتان﴾ أي تلاقى الفريقان يوم بدر.

قال الكاشفي: [پس آن هنكام كه بديدند هر دو كروه لشكر يكديكررا] ﴿نكص على عقبيه﴾ رجع القهقرى وهو أصل معنى النكوص لأن الغالب فيمن يفر عن موضع القتال أن يرجع قهقرى لخوفه من جهة العدو. وقوله على عقبيه حال مؤكدة لأن رجوع القهقرى إنما يكون على العقبين [واين عبارتست از هزيمت كردن بمكر وحيله آورده اندكه چون روز بدر ملائكه فرود آمدند إبليس ايشانرا ديد روى بفرار نهاد درآن محل دست بردست حارث بن هشام بود حارث كفت أي سراقه در چنين حال مارا فروميكذارى إبليس دست برسينهء اوزد] ﴿وقال إني بريء منكم﴾ [من بيزارم از زنهار شما] ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ من نزول الملائكة للإمداد فقال الحارث وما نرى إلا جعاشيش أهل يثرب والجعشوش الرجل القصير. ﴿إني أخاف الله﴾ من أن يصيبني بمكروه من الملائكة أو يهلكني على أن يكون الوقت هو الوقت المعلوم الذي أنظر إليه. ﴿والله شديد العقاب﴾ لمن يخاف منه وقد صدق الكذاب أنه يخاف من شدة عذاب الله فإن عقابه لو وقع عليه لتلاشى ولذلك كان يفر من ظل عمر رضي الله عنه «وما سلك فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً آخر» لئلا يقع عليه عكس نور ولاية عمر فيحرقه وقد علم الشيطان أنه من المعذبين المعاقبين وإنما خوفه من الله من شدة عقابه لأنه يعلم أنه لا نهاية لشدة عقابه والله قادر على أن يعاقبه بعقوبة أشد من الأخرى. وفيه إشارة إلى أن خوفه من الله يدل على أنه غير منقطع الرجاء منه كذا في «التأويلات النجمية».

[نقلست كه منهزمان بدر بعد از رجوع بمكه سراقه را پيغام فرستادندكه لشكر ماراتو منهزم ساختى سراقه سوكند يا دكردكه تا هزيمت شمانشنيدم ازعزيمت شما وقوف نيافتم پس همه را معلوم شدكه آن شيطان بودكه خودرا برصورت سراقه نموده].

فإن قيل: كيف يجوز أن يتمكن إبليس من أن يخلع صورة نفسه ويلبس صورة سراقة ولو كان قادراً على أن يجعل نفسه في مثل صورة إنسان لكان قادراً على أن يجعل غيره إنساناً.

قيل: إذا صحت هذه الرواية فالجواب أن الله خلق إبليس في صورة سراقة والله تعالى قادر على خلق إنسان في مثل صورة سراقة ابتداء فكان قادراً على أن يصور إبليس في مثل صورة سراقة كما في «التفسير الحدادي».

وقال القاضي أبو يعلى: ولا قدرة للشياطين على تغيير خلقهم والانتقال في الصور وإنما يجوز أن يعلمهم الله تعالى كلمات وضرباً من ضروب الأفعال إذا فعله أو تكلم بها نقله الله تعالى من صورة إلى صورة فيقال إنه قادر على التصوير والتخييل على معنى أنه قادر على قول إذا قاله أو فعل إذا فعله نقله الله تعالى من صورته إلى صورة أخرى بجري العادة وأما أن يصور نفسه فذاك محال؛ لأن انتقالها من صورة إلى صورة إنما يكون بنقض البنية وتفريق الأجزاء وإذا انتقضت بطلت الحياة واستحال وقوع الفعل بالجملة فكيف بنقل نفسها قال والقول في تشكيل الملائكة مثل ذلك والذي روي أن إبليس تصور في صورة سراقة بن مالك وأن جبريل تمثل في صورة دحية وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] محمول على ما ذكرنا وهو أنه قدره الله تعالى على قول قاله فنقله الله تعالى من صورته إلى صورة أخرى كذا

في «آكام المرجان» ونظر فيه والهي الأسكوبي بأن من قال تمثل جبريل عليه السلام وتصور إبليس عليه ما يستحق ليس مراده أنهما أحدثا تلك الصورة والمثال من قدرتهما نفسهما بل بإقدار الله لهما على التصور والتمثل كيف شاءا فلا منافاة بين القولين غاية ما في الباب أن العمل من طريق ما أقدره الله به من الأسباب المخصوصة انتهى.

يقول الفقير: إن الملائكة والشياطين من قبيل الأرواح اللطيفة وللأرواح التصور بأنواع الصور كما أن للأجسام التلون بألوان الألبسة وكل ذلك بإقدار الله تعالى في الحقيقة لكن هذا المعنى صعب المسلك فلا يهتدي إلى دركه إلا الأنبياء والأولياء المكاشفون عن حقيقة الأمر والله أعلم.

ثم إن من عادة الشيطان أن يقحم من أطاعه ورطة الهلاك ثم يتبرأ منه. حكي أن عابداً عبد الله في صومعته دهراً طويلاً فولدت لملكهم ابنة فأنف الملك أن يمسها الرجال فأخرجها إلى صومعته وأسكنها معه كيلا يعرف أحد مكانها ويستخطبها منه فكبرت الابنة فحضر إبليس على صورة شيخ وخدعه بها حتى واقعها الزاهد وأحبلها، فلما ظهر بها الحبل رجع إليه فقال له إنك زاهدنا وإنها لو ولدت يظهر زناك فتصير فضيحة فاقتلها قبل الولادة، وأعلم والدها أنها قد ماتت فيصدقك فتنجو من العذاب والشين فقتلها الزاهد فجاء الشيطان إلى الملك في زيّ العلماء فأخبره بصنع الزاهد بابنته من الإحبال والقتل، وقال: إن أردت أن تعرف حقيقة ما أخبرتك فانبش قبرها وشق بطنها فإن خرج منها ولد فهو مصداق مقالتي وإن لم يخرج فاقتلني ففعل الملك ذلك فإذا الأمر كما قال: فأخذ الزاهد وأركبه الإبل وحمله إلى بلده فصلبه فجاءه الشيطان وهو مصلوب فقال له إنك زنيت بأمري وقتلت نفساً بأمري فآمن بي أنجك من عذاب الملك فأدركته الشقاوة فآمن به فهرب الشيطان منه ووقف من بعيد فقال الزاهد نجني فقال الشيطان إني أخاف الله رب العالمين. فعلى العاقل الحذر من كيده.

وفي «المثنوي»:

آدمى را دشمن پنهان بسيست — آدمىء باحذر عاقل كسيست

واعلم أن الشيطان إذا ظفر بالسالك يغره بالقوة والكمال والبلوغ إلى مرتبة الرجال وأنه لا يضره التصرف في الدنيا وارتكاب بعض المنهيات، بل ينفعه في نفي الرياء والعجب كما هو طريقة أهل الملامة.

قال بعض أرباب الحقيقة: يجوز أن تظهر لنفسك ما يوجب نفي دعواها من مباح مستبشع أو مكروه لم يمنع دواء لعلة العجب لا محرماً متفقاً عليه انتهى، فليكن هذا على ذكر منك فإن صوفية الزمان قد تجاوزوا الحلال إلى الحرام وتركوا العهود بينهم وبين المشايخ الكرام ولم يعرفوا أن السلامة في الأخذ بالكتاب وسنة النبي عليه السلام والتأدب بآداب وضعها الخواص من الأنام لمن يطلب الدخول إلى حرم أسرار الله الملك العلام. قال الحافظ:

در راه عشق وسوسهٔ اهر من بسيست — هش دار وكوش دل بپيام سروش كن

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿إذ﴾ منصوب باذكر ﴿يقول المنافقون﴾ من أهل المدينة من الأوس والخزرج. ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ من قريش كانوا قد أسلموا ولم يهاجروا لعدم قوة إسلامهم، ولمنع أقربائهم إياهم من الهجرة فلما خرجت قريش إلى بدر أخرجوهم معهم كرهاً، ولما رأوا قلة عدد المسلمين ارتابوا وارتدوا، وقالوا لأهل مكة: ﴿غر هؤلاء﴾ يعنون المؤمنون ﴿دينهم﴾؛ إذ خرجوا مع قلة عددهم وعددهم لحرب قريش مع كثرتهم وشوكتهم ولم يشكوا، بل قطعوا بأن قريشاً تغلبهم لأنهم زهاء الألف والمؤمنون ثلاثمائة وبضعة عشر، فقال الله تعالى: جواباً لهم ﴿ومن﴾ [هركه] ﴿يتوكل على الله﴾ أي: ومن يسلم أمره إلى الله تعالى ويثق به وبقضائه، ﴿فإن الله عزيز﴾ غالب لا يذل من توكل عليه واستجار به وإن قل ﴿حكيم﴾ يفعل بحكمته البالغة ما تستبعده العقول وتحار في فهمه ألباب الفحول. روي أن الحجاج بن يوسف سمع ملبياً يلبي حول البيت رافعاً صوته بالتلبية، وكان إذ ذاك بمكة فقال عليّ بالرجل فأتي به إليه، فقال: ممن الرجل؟ قال من المسلمين، فقال: ليس عن الإسلام سألتك قال فعم سألت؟ قال: سألتك عن البلد قال من أهل اليمن، قال كيف تركت محمد بن يوسف؟ يعني: أخاه قال تركته عظيماً جسيماً لباساً ركاباً خراجاً ولاجاً، قال: ليس عن هذا سألتك قال: فعم سألت؟ قال: سألتك عن سيرته قال تركته ظلوماً غشوماً مطيعاً للمخلوق عاصياً للخالق، فقال له الحجاج: ما حملك على هذا الكلام وأنت تعلم مكانه مني، قال الرجل: أترى مكانه منك أعز مني بمكاني من الله، وأنا وافد بيته وزائر نبيه وقاضي دينه ومتبع دينه فسكت الحجاج ولم يجر جواباً وانصرف الرجل من غير إذن، فتعلق بأستار الكعبة، وقال: اللهم بك أعوذ وبك ألوذ، اللهم فرجك القريب ومعروفك القديم وعادتك الحسنة، فانظر إلى هذا الرجل كيف أظهر الحق ولم يخف من المخلوق خصوصاً من الحجاج الذي كان أظلم خلق الله في زمانه حتى كسر الأعراض وسفك الدماء، وفعل ما فعل إلى حيث يضيق نطاق البيان عنه فلما توكل على الله واستجار به نصره الله وهو بانفراده على الحجاج وهو مع جمعه لأن الصحيح السالم وهو المؤمن غالب على السقيم المبتلى، وهو المنافق والحجاج كان من منافقي هذه الأمة.

واعلم: أن مرض القلوب على نوعين: نوع منه الشك في الإيمان والدين وحقيقته فذلك مرض قلوب الكفار والمنافقين. والثاني: ميلها إلى الدنيا وشهواتها وملاحظة الحظوظ النفسانية وهو مرض قلوب المسلمين.

والإشارة فيه: أن المعالجة لما يكون في قلوب الكفار والمنافقين بالإيمان والتصديق واليقين وإن ماتوا في مرضهم فهم من الهالكين، ومعالجة مرض قلوب المسلمين بالتوبة والاستغفار والزهد والطاعة والورع والتقوى وإن ماتوا في مرضهم فهم من أهل النجاة من النار بعد العذاب وشفاعة الأنبياء، وربما يؤدي مرضهم بترك المعالجة والاحتماء إلى الهلاك وهو الكفر ألا ترى إلى حال بعض المسلمين من أهل مكة لما تركوا العلاج، وانقطعوا عن الطبيب وهو النبي عليه السلام وما احتموا عن الغذاء المخالف وهو قولهم غر هؤلاء دينهم هلكوا مع الهالكين ظاهراً وباطناً.

فعلى العاقل تحصيل حسن الحال قبل حلول الأجل وهو إنما يكون بصحبة واصل إلى الله عز وجل والله تعالى يجود على الخلق عامة فكيف على العقلاء والعشاق. قال الحافظ:

عاشق كه شدكه يار بحالش نظر نكرد أي خواجه دردنيست وكرنه طبيب هست

وقال آخر:

مكو أصحاب دل رفتند وشهر عشق شد خالى

جهان پر شمس تبر يزاست ومردى كوچو مولانا

اللهم وفقنا لما تحب وترضى وسهل علينا مداواة هذه القلوب المرضى.

﴿ولو ترى﴾ يا محمد حال الكفرة، أي لو رأيت فإن لو تجعل المضارع ماضياً عكس إن ﴿إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ أي حين تقبض أعوان ملك الموت أرواح الكفار ببدر فالملائكة فاعل يتوفى ﴿يضربون﴾ أي حال كون الملائكة يضربون بمقامع من حديد كلما ضربوا التهب النار منها ﴿وجوههم﴾ أي: ما أقبل من أعضائهم ﴿وأدبارهم﴾ أي ما أدبر منها ﴿وذوقوا﴾ أي يضربون ويقولون ذوقوا بعد السيف في الدنيا. ﴿عذاب الحريق﴾ أي: العذاب المحرق الذي هو مقدمة عذاب الآخرة فهو فعيل بمعنى مفعل يقال حرقه بالنار وأحرقه وحرقه فاحترقِ وتحرق وجواب لو محذوف للإيذان بخروجه عن حدود البيان أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ذلك﴾ المذكور من الضرب والعذاب واقع. ﴿بما قدمت أيديكم﴾ أي: بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي، فاليد عبارة عن النفس الدراكة عبر عنها باسم أغلب آلاتها في اكتساب الأفعال. ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ محله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها، أي: والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم فلا يجازي أهل الإيمان بجهنم وعذابها وإنما يجازي أهل الكفر والنفاق والارتداد بظلمهم على أنفسهم وسر التعبير عن نفي التعذيب بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعاً عند أهل السنة فضلاً عن كونه ظلماً بالغاً قد مر في سورة آل عمران.

فإن قلت ظلام أخص من ظالم لأنه للمبالغة المقتضية للتكثير ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم.

قلت: المراد بكثرة الظلم كثرته باعتبار كثرة متعلقه فإن لفظ العبيد يدل على الكثرة فيكون ما أصابهم من الظلم كثيراً نظراً إلى كثرتهم فالمنفي عن كل واحد منهم أصل الظلم، فالمعنى: أنه تعالى لا يظلم أحداً من عبيده وأيضاً أنه إذا نفي الظلم الكثير انتفى القليل لأن الذي يظلم إنما يظلم للانتفاع بالظلم فإذا ترك كثيره مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضر كان لقليله مع قلة نفعه اترك. وأيضاً إن الظلام للنسبة كما في بزاز وعطار أي لا ينسب إليه ظلم البتة ﴿كدأب آل فرعون﴾ تسلية لرسول الله ﷺ، أي: عادة كفار قريش في كفرهم وعنادهم كعادة آل فرعون المشهورين بقباحة الأعمال، وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل يقال فلان يدأب في كذا أي يداوم عليه ويواظب ويتعب نفسه فيه، ثم سميت العادة دأباً؛ لأن الإنسان يداوم على عادته وآل الرجل الذين يرجعون إليه بأوكد الأسباب ولهذا لا يقال لقرابة الرجل آل الرجل ولا يقال لأصحابه آله والمقصود هنا كدأب فرعون وآله أي: أتباعه. ﴿والذين

من قبلهم﴾ أي: من قبل آل فرعون كقوم نوح وثمود وعاد وغيرهم من أهل الكفر والعناد. **﴿كفروا بآيات الله﴾** تفسير للدأب، والآيات هي دلائل التوحيد المنصوبة في الأنفس والآفاق أو معجزات الأنبياء على الإطلاق **﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾** أي: عاقبهم الله تعالى بسبب كفرهم وسائر معاصيهم. **﴿إن الله قوي شديد العقاب﴾** لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿ذلك﴾ أي: ترتب العقاب على أعمالهم السيئة دون أن يقع ابتداء مع قدرته تعالى على ذلك. **﴿بأن الله﴾** أي: بسبب أنه تعالى. **﴿لم يك﴾** في حد ذاته. وأصله يكن فحذفت النون تخفيفاً لشبهها بحرف اللين من حيث كونها حرف غنة فكما يحذف حرف اللين حال الجزم حذفت النون الساكنة أيضاً للتخفيف لكثرة استعمال فعل الكون، ولم يحذف في نحو لم يصن ولم يخن لقلة استعمالهما بالنسبة إلى لم يكن وكثرة الاستعمال تستدعي التخفيف. **﴿مغيراً نعمة أنعمها﴾** أي: لم ينبغ له سبحانه ولم يصح في حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أنعم بها **﴿على قوم﴾** من الأقوام، أي: نعمة كانت جلت أو هانت. **﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها وقت ملابستهم للنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة، أو قريبة من الصلاح بالنسبة إلى الحادثة كدأب هؤلاء الكفرة حيث كانوا قبل البعثة كفرة عبدة الأصنام مستمرين على حالة مصححة لإفاضة نعمة الإمهال وسائر النعم الدنيوية عليهم، فلما بعث إليهم النبي عليه السلام بالبينات غيروها إلى أسوأ منها وأسخط حيث كذبوه عليه الصلاة والسلام وعادوه ومن تبعه من المؤمنين وتحزبوا عليهم يبغونهم الغوائل فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال وعاجلهم بالعذاب والنكال.

وقال الحدادي: أطعمهم الله من جوع وآمنهم من خوف وأرسل إليهم رسولاً منهم وأنزل عليهم كتاباً بألسنتهم ثم إنهم غيروا هذه النعم ولم يشكروها ولم يعرفوها من الله فغير الله ما بهم وأهلكهم وعاقبهم ببدر. **﴿وأن الله سميع عليم﴾** أي: وبسبب أن الله تعالى يسمع ويعلم جميع ما يأتون وما يذرون من الأقوال والأفعال السابقة واللاحقة فيرتب على كل منها ما يليق بها من إبقاء النعمة وتغييرها.

﴿كدأب آل فرعون﴾ تكرير للتأكيد **﴿والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم﴾** وعطف قوله تعالى: **﴿وأغرقنا آل فرعون﴾** على (أهلكنا) مع اندراجه تحته للإيذان بكمال هول الإغراق وفظاعته كعطف جبرائيل على الملائكة **﴿وكل﴾** من غرقى القبط وقتلى قريش **﴿كانوا ظالمين﴾** أنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرّضوها للهلاك أو واضعين للكفر والتكذيب مكان الإيمان التصديق.

والإشارة: أن فرعون وقومه اختصوا بالاستغراق في بحر الهلاك عن غيرهم لادعاء فرعون الربوبية وإقرار قومه وتصديقهم إياه بها وهذا غاية فساد جوهر الروحانية باستيلاء الصفات النفسانية، وكل ممن كفر بالله وكذب بآياته كانوا ظالمي أنفسهم لإفساد استعدادهم وإن لم يبلغوا في الظلم والكفر ما بلغ فرعون وقومه فعليك بمحافظة الاستعداد الفطري وإكثار

الشكر عليه وإياك وشؤم المعاملات السيئة المؤدية إلى الإفساد والإهلاك ولا يحملك العناد على مخالفة الحق وعدم قبوله فإنه لا ينبغي لأحد خصوصاً للسلاك.

كسى راكه پندار درسربود مپندار هركزكه حق بشنود

قال الإمام الغزالي قدس سره: إن النعمة إنما تسلب ممن لا يعرف قدرها وأقنع في هذا الباب بمثال ملك يكرم عبداً له فيخلع عليه خاصة ثيابه ويقربه منه ويجعله فوق سائر حجابه وخدامه ويأمره بملازمة بابه ثم يأمر أن يبتني له في موضع آخر القصور وتوضع له الأسرة وتنصب له الموائد وتزين له الجواري ويقام له الغلمان حتى إذا رجع من الخدمة أجلس هنالك ملكاً مخدوماً مكرّماً وما بين حال خدمته إلى ملكه وولايته إلا ساعة من نهار أو أقل فإن أبصر هذا العبد بجانب باب الملك سائساً للدواب يأكل رغيفاً أو كلباً يمضع عضماً فجعل يشتغل عن خدمة الملك بنظره إليه وإقباله عليه ولا يلتفت إلى ما له من الخلع والكرامة فيسعى إلى ذلك السائس ويمد يده ويسأله كسرة من رغيفه أو يزاحم الكلب على العظم ويعظمهما ويعظم ما هما فيه أليس الملك إذا نظر إليه على مثل هذه الحالة، يقول هذا السفيه لم يعرف حق كرامتنا ولم ير قدر إعزازنا إياه بخلعنا والتقرب إلى حضرتنا مع صرفنا إليه من عنايتنا وأمرنا له من الذخائر وضروب الأيادي ما هذا إلا ساقط عظيم الجهل قليل التمييز اسلبوه الخلع واطردوه عن بابنا، فهذا حال العالم إذا مال إلى الدنيا والعابد إذا اتبع الهوى فعليك أيها الرجل ببذل المجهود حتى تعرف نعم الله تعالى عليك واحذر من أن تكون النعمة نقمة والولاء بلاء والعز ذلاً والإقبال إدباراً واليمين يساراً فإن الله تعالى غيور. وفي «المثنوي»:

هركه شد مرشاه را او جامه وار هست خسران بهر شاهش اتجار
هركه باسلطان شود او همنشين بر درش شستن بود حيف وغبين
دست پوسش چون رسيد از پادشاه كر كزيند بوس پاباشد كناه
كرچه سر برپانهادن خدمتست پيش آن خدمت خطا وزلتست
شاه را غيرت بود بر هركه او بو كزيند بعد ازانكه ديدرو

والمقصود: أن من عرف الله وعرف قدر نعمته عليه ترك الالتفات إلى الدنيا بل إلى الكونين فإن الله أجل من كل شيء وذكره أفضل من كل ذكر وكلام. وحكي أن سليمان بن داود عليهما السلام مر في موكبه والطير تظله والدواب من الوحوش والأنعام والجن والإنس وسائر الحيوانات عن يمينه ويساره فمر بعابد من عباد بني إسرائيل، فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً فسمع ذلك سليمان فقال لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن داود فإن ما أعطي ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى فهذا إرشاد عظيم لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وتوجه إلى الحضرة العليا فارغاً عن شواغل الدنيا.

﴿إن شر الدواب﴾ أي: شر ما يدب على الأرض ويتحرك من الحيوانات. ﴿عند الله﴾ أي: في حكمه وقضائه. ﴿الذين كفروا﴾ أي: أصروا على الكفر ورسخوا فيه. ﴿فهم لا يؤمنون﴾ فلا يتوقع منهم إيمان لكونهم من أهل الطبع وجعلوا شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى أنهم بمعزل عن مجانستهم وإنما هم من جنس الدواب ومع ذلك هم شر من جميع أفرادها كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤].

دريغ آدمى زادهٔ پرمحل كه باشد چو انعام بل هم اضل

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿الذين عاهدت منهم﴾ بدل من الموصول الأول بدل البعض للبيان أو للتخصيص، أي: الذين أخذت منهم عهدهم فمن لابتداء الغاية. ﴿ثم ينقضون عهدهم﴾ الذي أخذته منهم عطف على عاهدت. ﴿في كل مرة﴾ من مرات المعاهدة. ﴿وهم لا يتقون﴾ أي: يستمرون على النقض والحال أنهم لا يتقون سيئة الغدر ولا يبالون فيه من العار والنار وهم يهود قريظة عاهدهم رسول الله ﷺ على أن لا يعينوا عليه عدواً فنقضوا العهد وأعانوا أهل مكة يوم بدر بالسلاح ثم قالوا نسينا وأخطأنا ثم عاهدهم مرة أخرى فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق أي ساعدوا وعاونوا وذلك أنهم لما رأوا غلبة المسلمين على المشركين يوم بدر قالوا إنه هو النبي الموعود بعثه في آخر الزمان فلا جرم يتم أمره ولا يقدر أحد على محاربته ثم إنهم لما رأوا يوم أحد ما وقع من نوع ضعف المسلمين شكوا وقد كان احترق كبدهم بنار الحسد من ظهور دينه وقوة أمره فركب كعب بن أسد سيد بني قريظة مع أصحابه إلى مكة وواثقوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ فأدى ذلك إلى غزوة الخندق، وفيه ذم بطريق الإشارة للذين عاهدوا الله على ترك المعاصي والمنكرات ثم نقضوا العهد مرة بعد أخرى.

نه مارا درميان عهد وفابود جفا كردى وبد عهدى نمودى
هنوزت ارسر صلحست باز آى كزان محبوبتر باشى كه بودى

﴿فإما تثقفنهم﴾ ثقفه كسمعه صادفه أو أخذه أو ظفر به أو أدركه كما في «القاموس» وإما مركبة من إن للشرط وما للتأكيد، أي: فإذا كان حالهم كما ذكر فإما تصادفنهم وتظفرنّ بهم. ﴿في الحرب﴾ أي: في تضاعيفها. ﴿فشرد﴾ فرق.

قال الكاشفي: [پس رميده كردان ومتفرق ساز] ﴿بهم﴾ أي بسبب قتلهم ﴿من خلفهم﴾ مفعول شرد أي من وراءهم من الكفرة من أعدائك، والتشريد: الطرد وتفريق الشمل وتبديد الجمع، يعني: إن صادفت هؤلاء الناقضين في الحرب افعل بهم وأوقع فيهم من النكاية والقهر ما يضطرب به حالهم ويخاف منك أمثالهم بحيث يذهب عنهم بالكلية ما يخطر ببالهم من مناصبتك، أي: معاداتك ومحاربتك ﴿لعلهم يذكرون﴾ أي: لعل المشردين وهم من خلفهم يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالمنافقين فيرتدعون عن النقض أو عن الكفر.

نرود مرغ سوى دانه فراز چون دكر مرغ بيند اندر بند
پند كيراز مصائب دكران تانكيرند ديكران زتوپند

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وإما تخافن﴾ تعلمن فالخوف مستعار للعلم. ﴿من قوم﴾ من المعاهدين ﴿خيانة﴾ نقض عهد فيما سيأتي بما لاح لك منهم من علامات الغدر. ﴿فانبذ إليهم﴾ أي: فاطرح إليهم عهدهم حال كونك. ﴿على سواء﴾ أي: ثابتاً على طريق سويّ في العداوة بأن تظهر لهم النقض وتخبرهم أخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة، فلا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد كيلا يكون من قبلك شائبة خيانة أصلاً فالجار متعلق

بمحذوف وهو حال من النابذ أو على استواء في العلم بنقض العهد بحيث يستوي فيه أقصاهم وأدناهم فهو حال من المنبوذ إليهم أو تستوي فيه أنت وهم فهو حال من الجانبين. **﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾** تعليل للأمر بالنبذ على طريقة الاستئناف كأنه قيل: لِمَ أمرتنا بذلك ونهيتنا عن المحاربة قبل نبذ العهد فأجيب بذلك ويحتمل أن يكون طعناً على الخائنين الذين عاهدهم الرسول عليه السلام كأنه قيل: وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم ثم قاتلهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ وهم من جملتهم لما علمت حالهم.

واعلم أن النبذ إنما يجب على الإمام إذا ظهرت خيانة المعاهدين بأمارات ظنية وأما إذا ظهر أنهم نقضوا العهد ظهوراً مقطوعا به فلا حاجة إلى نبذ العهد كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة النبي عليه السلام، ولما أمر الله بنبذ العهد والتصريح به قبل المحاربة خطر بالبال أن يقال: كيف نوقظ العدو ونعلمهم بطرح العهد إليهم قبل المحاربة مع أنهم إن علموا ذلك إما أن يتأهبوا للقتال ويستجمعوا أقصى ما يمكن لهم من أسباب التقوى والغلبة أو يفروا ويتخلصوا وعلى التقديرين يفوت المقصود وهو الانتقام منهم أما يكفي لصحة المحاربة معهم بغير نبذ العهد إليهم وإعلامهم به ظهور أمارات الخيانة منهم فأزاح الله تعالى هذا المحذور بقوله:

﴿ولا يحسبن﴾ أي: لا يظن **﴿الذين كفروا﴾** وهو فاعل والمفعول الأول محذوف أي أنفسهم حذف هرباً من تكرار ذكرهم. **﴿سبقوا﴾** مفعول ثانٍ، أي: فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم ويدخل فيه من لم يظفر به يوم بدر وغيره من معارك القتال من الذين آذوه عليه السلام وبالغوا في عصيانه. **﴿إنهم لا يعجزون﴾** تعليل للنهي على سبيل الاستئناف المبني على تقدير السؤال، أي: لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم على أن همزة أعجز لوجود المفعول على فاعلية أصل الفعل وهو العجز، كما تقول أبخلته إذا وجدته بخيلاً يقال أعجزه الشيء إذا فاته وأعجزت الرجل إذا وجدته عاجزاً.

وفي الآية: تهديد للنفوس التي اجترأت على المعاصي وهي في الحقيقة مجترئة على الله تعالى.

وعن السري السقطي رضي الله عنه قال: كنت يوماً أتكلم بجامع المدينة فوقف عليّ شاب حسن الشباب، فأخر الثياب ومعه أصحابه فسمعني أقول في وعظي عجباً لضعيف يعصي قوياً فتغير لونه. وانصرف فلما كان الغد جلست في مجلسي، وإذا به قد أقبل فسلم وصلى ركعتين وقال يا سري: سمعتك بالأمس تقول عجباً لضعيف كيف يعصي قوياً فما معناه؟ قلت: لا أقوى من الله ولا أضعف من العبد وهو يعصيه.

كرچه شاطر بود خروس بجنك ... چه زند پيش باز رويين چنك

فنهض وخرج ثم أقبل من الغد وعليه ثوبان أبيضان وليس معه أحد، فقال: ياسري كيف الطريق إلى الله فقلت: إن أردت العبادة فعليك بصيام النهار وقيام الليل، وإن أردت الله فاترك كل شيء سواه تصل إليه وليس إلا المساجد والخراب والمقابر، فقام وهو يقول والله لاسلكت إلا أصعب الطرق وولى خارجاً، فلما كان بعد أيام أقبل إليّ غلمان كثير فقالوا ما فعل أحمد بن يزيد الكاتب؟ فقلت: لا أعرف إلا رجلاً جاءني من صفته كذا وكذا وجرى لي معه كذا وكذا ولا أعلم حاله، فقالوا: بالله عليك متى عرفت حاله فعرفنا ودلنا على داره فبقيت سنة لا أعرف

حاله ولا أعرف له خبراً، فبينا أنا ذات ليلة بعد العشاء الأخيرة جالس في بيتي إذا بطارق يطرق الباب، فأذنت له في الدخول فإذا بالفتى عليه قطعة من كساء في وسطه وأخرى على عاتقه ومعه زنبيل فيه نوى فقبل بين عيني، وقال يا سري أعتقك الله من النار كما أعتقتني من رق الدنيا فأومأت إلى صاحبي أن امض إلى أهله فأخبرهم فمضى فإذا زوجته قد جاءت ومعها ولده وغلمانه فدخلت وألقت الولد في حجره وعليه حلي وحلل، وقالت له يا سيدي أرملتني وأنت حي وأيتمت ولدك وأنت حي، قال السري: فنظر إليّ فقال ياسري ما هذا وفاء ثم أقبل عليها وقال والله إنك لثمرة فؤادي وحبيبة قلبي وإن هذا ولدي لأعز الخلق عليّ غير أن هذا السري أخبرني أن من أراد الله قطع كل ما سواه ثم نزع ما على الصبي وقال ضعي هذا في الأكباد الجائعة والأجساد العارية وقطع قطعة من كسائه فلف فيها الصبي فقالت المرأة: لا أرى ولدي في هذه الحالة وانتزعته منه فحين رآها قد اشتغلت به نهض وقال: ضيعتم عليّ ليلتي بيني وبينكم الله، وولى خارجاً وضجت الدار بالبكاء، فقالت: إن عاد ياسري وسمعت له خبراً فأعلمني، فقلت: إن شاء الله فلما كان بعد أيام أتتني عجوز فقالت: ياسري بالشونيزية غلام يسألك الحضور فمضيت فإذا به مطروح تحت رأسه لبنة فسلمت عليه ففتح عينيه، وقال لمثل هذا فليعمل العاملون ثم مات فأخذت الدراهم فاشتريت ما يحتاج إليه ثم سرت نحوه، فإذا الناس يهرعون فقلت: ما الخبر فقيل مات ولي من أولياء الله نريد أن نصلي عليه. فجئت فغسلته ودفناه فلما كان بعد مدة وفد أهله يستعلمون خبره فأخبرتهم بموته فأقبلت امرأته باكية فأخبرتها بحاله فسألتني أن أريها قبره، قلت أخاف أن تغيروا أكفانه قالت لا والله، فأريتها القبر فبكت وأمرت بإحضار شاهدين فأحضرا فأعتقت جواريها ووقفت عقارها وتصدقت بمالها ولزمت قبره حتى ماتت رحمة الله عليهما.

فداى دوست نكرديم عمر ومال دريغ   كه كار عشق زما اين قدر نمى آيد

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وأعدوا﴾ [وآماده سازيد اي مؤمنان] **﴿لهم﴾** أي لقتال الكفار وهيئوا لحرابهم. **﴿ما استطعتم﴾** أي: ما استطعتموه حال كونه. **﴿من قوة﴾** من كل ما يتقوى به في الحرب كائناً ما كان من خيل وسلاح وقسي وغيرها. الحصر المستفاد من تعريف الطرفين في قوله عليه السلام: «ألا إن القوة الرمي» من قبيل حصر الكمال لأن الرمي أكمل أفراد ما يتقوى به في الحرب. روي أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رمى يوم أحد ألف سهم ما منها سهم إلا ورسول الله ﷺ قال: «فداك أبي وأمي يا سعد».

كره بعض العلماء تفدية المسلم بأبويه المسلمين قالوا إنما فداه عليه السلام بأبويه لأنهما كانا كافرين.

قال النووي: الصحيح أنه جائز مطلقاً لأنه ليس فيه حقيقة الفداء وإنما هو تلطف في الكلام وإعلام بمحبته وفي الحديث فضيلة الرمي والدعاء لمن فعل خيراً وجاء في الحديث: «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير، والمهدى له والرامي

به» وفي الحديث: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة» ومن رمى بسهم في سبيل الله فبلغ العدو أو لم يبلغ كان له: كعتق رقبة مؤمنة كانت له فداء من النار عضواً بعضو» وفي الحديث: «من مشى بين الغرضين كان له بكل خطوة حسنة» والغرض بفتح الغين المعجمة والراء بعدهما الضاد المعجمة هو ما يقصده الرماة بالإصابة وفي الحديث: «كل شيء ليس من ذكر الله تعالى فهو لهو إلا أربع خصال مشى الرجل بين الغرضين وتأديب فرسه وملاعبة أهله وتعليم السباحة» [رمى برسه كونه است. رمى ظاهر به تيروكمان. ورمى باطن به تيرآه درصبحكاه ازكمان خضوع. ورمى سهام حظوظ ازدل وتوجه بحق وفراغت ازماسوى]. قال الحافظ:

نيست برلوح دلم جز الف قامت دوست — چه كنم حرف دكر ياد نداد استادم

واعلم أن صاحب المجاهدة الباطنة يتقوى على قتال النفس وهواها بذكر الله تعالى فهو القوة في حقه. ﴿ومن رباط الخيل﴾ فعال بمعنى مفعول كلباس بمعنى ملبوس. فرباط الخيل بمعنى خيل مربوطة كما قيل جرد قطيفة بمعنى قطيفة جرد أضيف العام إلى الخاص للبيان أو التخصيص كخاتم فضة وعطفها على القوة مع كونها من جملتها للإيذان بفضلها على بقية أفرادها كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة. ويقال إن الجن لا تدخل بيتاً فيه فرس ولا سلاح وفي الحديث: «من نقى شعيراً لفرسه ثم جاء به حتى يعلفه كتب الله له بكل شعيرة حسنة» والفرس يرى المنامات كبني آدم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الفرس يقول: إذا التقت الفئتان سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح ولذلك كان لهم في الغنيمة سهمان وفي الحديث: «عليكم بإناث الخيل فإن ظهورها حرز وبطونها كنز» وفي الحديث: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً به وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» يعني: كفة حسناته.

قال موسى للخضر: أي الدواب أحب إليك؟ قال: الفرس والحمار والبعير، لأن الفرس مركب أولي العزم من الرسل والبعير مركب هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام والحمار مركب عيسى وعزير عليهما السلام وكيف لا أحب شيئاً أحياه الله تعالى بعد موته قبل الحشر.

واعلم أن الخيل ثلاثة: فرس للرحمن وهو ما اتخذ في سبيل الله وقتل عليه أعداء الله. وفرس للإنسان: وهو ما يلتمس بطنه وهو ستر من الفقر، وفرس للشيطان: وهو ما يقامر عليه ويراهن. ﴿ترهبون به﴾ حال من فاعل أعدوا، أي حال: كونكم مرهبين مخوفين بالأعداء. ﴿عدو الله وعدوكم﴾ وهم كفار مكة خصوا بذلك من بين الكفار مع كون الكل كذلك لغاية عتوهم ومجاوزتهم الحد في العداوة، وفيه إشارة إلى أن المجاهد الباطني يرهب بالذكر والمراقبة أعدى العدو وهو النفس والشيطان. ﴿وآخرين من دونهم﴾ أي: ترهبون به أيضاً عدواً آخرين من غيرهم من الكفرة كاليهود والمنافقين والفرس ومنهم كفار الجن فإن صهيل الفرس يخوفهم. ﴿لا تعلمونهم﴾ العلم بمعنى المعرفة لتعديته إلى مفعول واحد ومتعلق المعرفة هو الذات، أي: لا تعرفونهم بأعيانهم ولو كان النسب كالعلم لكان المعنى لا تعرفونهم من حيث كونهم أعداء ﴿الله يعلمهم﴾ أي: يعرفهم لا غيره تعالى.

فإن قلت: المعرفة تستدعي سبق الجهل فلا يجوز إسنادها إلى الله تعالى؟.

قلت: المراد بالمعرفة في حقه تعالى مجرد تعلق علمه بالذوات دون النسب مع قطع

النظر عن كونها مجهولة قبل تعلقه بها ودلت الآية على أن الإنسان لا يعرف كل عدو له.

آدمي را دشمن پنهان بسيست آدمي باحذر عاقل كسيست

﴿وما﴾ شرطية ﴿تنفقوا من شيء﴾ لإعداد العتاد قلّ أو جلّ ﴿في سبيل الله﴾ الذي أوضحه الجهاد. ﴿يوف إليكم﴾ أي جزاؤه كاملاً. ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ بترك الإثابة أو بنقص الثواب والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلماً لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى. روي أن رسول الله ﷺ أتى بفرس يجعل كل خطوة منه أقصى بصره، فسار وسار معه جبريل عليه السلام فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا شيئاً عاد كما كان فقال: «يا جبريل من هؤلاء» قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه» وفي الحديث: «من أعان مجاهداً في سبيل الله أو غارماً في عسرته أو مكاتباً في رقبته أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله». قال الحافظ:

أحوال كنج قارون كأيام داد برباد باغنچه بازكوييد نازا نهان ندارد

وقال أيضاً:

چه دوزخى چه بهشتى چه آدمى چه ملك بمذهب همه كفر طريقتست امساك

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وإن جنحوا﴾ الجنوح الميل ومنه الجناح لأن الطائر يميل به إلى أي جهة شاء ويعدى باللام وإلى، أي: مال الكفار. ﴿للسلم﴾ للصلح والاستسلام بوقوع الرهبة في قلوبهم بمشاهدة ما لكم من الاستعداد واعتاد العتاد. ﴿فاجنح لها﴾ أي: للسلم والتأنيث لحمله على نقيضه الذي هو الحرب وهي مؤنثة أو لكونه بمعنى المسالمة أي: مصالحة ﴿وتوكل على الله﴾ أي: لا تخف من إبطان مكرهم في الصلح فإن الله يعصمك. ﴿إنه هو السميع﴾ فيسمع ما يقولون في خلواتهم من مقالات الخداع. ﴿العليم﴾ فيعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه ويرد كيدهم في نحرهم، والآية عامة لأهل الكتاب وغيرهم. والأمر في قوله: (فاجنح) للإباحة والأمر فيه مفوض لرأي الإمام وليس يجب عليه أن يقاتلهم أبداً ولا أن يسعفهم إلى الصلح عند طلبهم ذلك أبداً، بل يبني الأمر على ما فيه صلاح المسلمين فإذا كان للمسلمين قوة فلا ينبغي أن يصالحهم وينبغي أن يحاربهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وإن رأى المصلحة في المصالحة ومال إليها لا يجوز أن يصالحهم سنة كاملة إلا إذا كانت القوة والغلبة للمشركين فحينئذٍ جاز له أن يصالحهم عشر سنين ولا تجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله ﷺ فإنه عليه السلام فعل كذلك ثم إنهم نقضوا العهد قبل تمام المدة وكان ذلك سبباً لفتح مكة.

﴿وإن يريدوا﴾ أي: الذين يطلبون منك الصلح. ﴿أن يخدعوك﴾ بإظهار الصلح لتكف عنهم. ﴿فإن حسبك الله﴾ فإن محسبك الله وكافيك من شرورهم وناصرك عليهم يقال أحسبني فلان أي أعطاني حتى أقول: حسبي ﴿هو الذي أيدك بنصره﴾ أي: قواك بإمداد من عنده بلا

واسطة سبب معلوم مشاهد. ﴿وبالمؤمنين﴾ من المهاجرين والأنصار ثم إنه تعالى بيّن كيف أيده بالمؤمنين فقال.

﴿وألف بين قلوبهم﴾ [وپيوند افكند بدوستى ميان دلهاى ايشان] مع ما كان بينهم قبل ذلك من العصبية والضغينة والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان وكان إذا لطم رجل من قبيلة لطمة قاتل عنها قبيلته حتى يدركوا ثاره فكان دأبهم الخصومة الدائمة والمحاربة، ولا تتوقع بينهم الإلفة والاتفاق أبداً فصاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة هذا من أبهر معجزاته عليه السلام.

قال الكاشفي: [أوس وخزرج صد وبيست سال درميان ايشان تعصب وستيزه بود همواره بقتل وغارت هم اشتغال مى نمودند حق تعالى ببركت تودلهاى ايشانرا الفت داد].

يك حرف صوفيانه بكويم اجازتست اي نور ديده صلح به ازجنك آورى

﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً﴾ أي: لتأليف ما بينهم. ﴿ما ألفت بين قلوبهم﴾ أي: تناهت عداوتهم إلى حد لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم جميع ما في الأرض من الأموال والذخائر لم يقدر على التأليف والإصلاح. ﴿ولكن الله ألف بينهم﴾ قلباً وقالباً بقدرته الباهرة فإنه المالك للقلوب فيقلبها كيف يشاء. ﴿إنه عزيز﴾ كامل القدرة والغلبة لا يستعصي عليه شيء مما يريده ﴿حكيم﴾ يعلم كيفية تسخير ما يريده.

واعلم: أن التودد والتألف والموافقة مع الإخوان من ائتلاف الأرواح وفي الحديث: «المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» وفي الحديث: «مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى وما التقى المؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيراً».

وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ إني أحبك في الله فقال: أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تنصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس وهم لا يفزعون ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». فقيل من هؤلاء يا رسول الله؟ فقال: «المتحابون في الله» قيل: لو تحاب الناس وتعاطوا المحبة لاستغنوا بها عن العدالة، فالعدالة خليفة المحبة تستعمل حيث لا توجد المحبة. وقيل: طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة فإن طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج ولهذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثرة من البعض في البعض لأنهم لما تحابوا في الله تواصوا بمحاسن الأخلاق ووقع القبول لوجود المحبة فانتفع لذلك المريد بالشيخ والأخ بالأخ، ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس في كل يوم خمس مرات في المساجد من أهل كل درب وكل محلة، وفي الجامع في الأسبوع مرة من أهل كل بلد وانضمام أهل السواد إلى البلدان في الأعياد في جميع السنة مرتين وأهل الأقطار من البلدان في العمر مرة للحج كل ذلك لحكم بالغة منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين وفي الحديث: «ألا إن مثل المؤمنين في توادهم وتحابهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر والحمى». قال السعدي قدس سره:

بنى آدم أعضاى يكديكرند كه در آفرينش زيك جوهرند

چو عضوى بدرد آوردروزكار دكر عضو هارا نماند قرار

والتألف والتودد يؤكد الصحبة مع الأخيار مؤثرة جداً بل مجرد النظر إلى أهل الصلاح

يؤثر صلاحاً والنظر في الصور يؤثر أخلاقاً مناسبة لخلق المنظور إليه كدوام النظر إلى المحزون يحزن ودوام النظر إلى المسرور يسر. وقد قيل من لا ينفعك لحظه لا ينفك لفظه والجمل الشرود يصير ذلولاً بمقارنة الجمل الذلول فالمقارنة لها تأثير في الحيوان والنبات والجماد والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف والزروع تنقى من أنواع العروق في الأرض والنبات لموضع الإفساد بالمقارنة وإذا كانت المقارنة مؤثرة في هذه الأشياء ففي الصور الشريفة البشرية أكثر تأثيراً. وقيل: سمي الإنسان إنساناً لأنه يأنس بما يراه من خير أو شر والتألف والتودد مستجلبان للمزيد وإنما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة إلى أراذل الناس وأهل الشر فأما أهل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة فتغتنم مقارنتهم والاستئناس بهم استئناس بالله تعالى كما أن محبتهم من محبة الله تعالى والجامع معهم رابطة الحق ومع غيرهم رابطة الطبع فالصوفي مع غير الجنس كائن بائن ومع الجنس كائن معاين والمؤمن مرآة المؤمن إذا التقى مع أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات إلهية وتعريفات وتلويحات من الله الكريم خفية غابت عن الأغيار وأدركها أهل الأنوار كذا في «عوارف المعارف».

يقول الفقير، أصلحه الله القدير: سمعت من بعض العلماء المتورعين والمشايخ المتزهدين ممن له زوجتان متباغضتان أنه قال قرأت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾ [الأنفال: ٦٢] إلى آخرها على ماء في كوز ونفخت فيه ثم أشربته إياهما فوقع التودد والألفة بينهما بإذن الله تعالى وزال التباغض والتنافر إلى الآن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿يا أيها النبي﴾ المخبر عن الله تعالى المرتفع شأنه ﴿حسبك الله﴾ أي كافيك في جميع أمورك ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾ الواو بمعنى مع، أي: كفاك وكفى أتباعك ناصراً كقولك حسبك وزيداً درهم أو عطف على اسم الله تعالى أي كفاك الله والمؤمنون والكافي الحقيقي هو الله تعالى وإسناد الكفاية إلى المؤمنين لكونهم أسباباً ظاهرة لكفاية الله تعالى.

والآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال تقوية للحضرة النبوية وتسلية للصحابة رضي الله عنهم فالمراد بالمؤمنين الأنصار.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في إسلام عمر رضي الله عنه فتكون الآية مكية كتبت في سورة مدنية بأمر رسول الله ﷺ. روي أنه أسلم مع النبي عليه السلام ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر رضي الله عنه فكمل الله الأربعين بإسلامه فنزلت وكان ﷺ يدعو ويقول: «اللهم أعز الإسلام» وفي رواية «أيد الإسلام بأحد الرجلين إما بأبي جهل بن هشام وإما بعمر بن الخطاب» وكان دعاؤه بذلك يوم الأربعاء فأسلم عمر رضي الله عنه يوم الخميس وكان وقتئذٍ ابن ست وعشرين سنة وسبقه حمزة بن عبد المطلب بالإسلام بثلاثة أيام أو بثلاثة أشهر. روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨] قام أبو جهل بن هشام: وكان يكنى في الجاهلية بأبي الحكم لأنهم يزعمون أنه عالم ذو حكمة ثم كناه النبي عليه السلام بأبي جهل وغلبت عليه

كنيته، وكان خال عمر؛ لأن أم عمر أخت أبي جهل لأن أم عمر بنت هشام بن المغيرة والد أبي جهل فأبو جهل خال عمر أو لأن أم عمر بنت عم أبي جهل وعصبة الأم أخوال الابن، فلما قام خطب فقال: يا معشر قريش إن محمداً قد شتم آلهتكم وسفه أحلامكم وزعم أنكم وآباءكم وآلهتكم في النار؛ فهل من رجل يقتل محمداً وله عليّ مائة ناقة حمراء وسوداء وألف أوقية من فضة، فقام عمر بن الخطاب: وقال أتضمن ذلك يا أبا الحكم؟ فقال: نعم يا عمر فأخذ عمر بيد أبي جهل ودخلا الكعبة وكان عندها صنم عظيم يسمونه هبل فتحالفا عنده وأشهدا على أنفسهما هبل، فإنهم كانوا إذا أرادوا أمراً من سفر أو حرب أو سلم أو نكاح لم يفعلوا شيئاً حتى يستأمروا هبل ويشهدوه عليه، وتلك الأصنام التي كانت حوله كانت ألف صنم وخمسمائة صنم ثم خرج عمر متقلداً سيفه متنكباً كنانته، أي: واضعاً له في منكبه يريد رسول الله ﷺ وكان النبي عليه السلام مختفياً مع المؤمنين في دار الأرقم رضي الله عنه تحت الصفا يعبدون الله تعالى فيها ويقرؤون القرآن، فلما أتى إلى البيت الذي هم فيه قرع الباب فنظر إليه رجل من خلال الباب فرآه متوشحاً سيفه فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع فقال يا رسول الله: هذا عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه ولم يرد إلا سفك الدم وهتك العرض، فقال حمزة: فائذن له فإن جاء يريد خيراً بذلنا له، وإن جاء يريد شراً قتلناه بسيفه فأذن له في الدخول فلما رآه النبي عليه السلام قال: «ما أنت منتهي يا عمر حتى ينزل الله بك قارعة» ثم أخذ بساعده أو بمجامع ثوبه وحمائل سيفه وانتهره فارتعد عمر هيبة لرسول الله ﷺ وجلس، فقال: اعرض عليّ الإسلام الذي تدعو إليه فقال النبي عليه السلام: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة وضرب النبي عليه السلام صدر عمر بيده حين أسلم ثلاث مرات وهو يقول: «اللهم أخرج ما في صدر عمر من غلّ وأبدله إيماناً» ونزل جبرائيل عليه السلام فقال يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر ولما أسلم قال المشركون لقد انتصف القوم منا، وقيل له رضي الله عنه ما تسمية النبي عليه السلام لك بالفاروق قال لما أسلمت والنبي عليه السلام وأصحابه مختفون قلت يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا قال: «بلى» فقلت ففيم الاختفاء والذي بعثك بالحق ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف والله لا نعبد الله سراً بعد اليوم فخرج رسول الله ﷺ ومعه المسلمون وعمر رضي الله عنه أمامهم معه سيف ينادي لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى دخل المسجد ثم صاح مسمعاً لقريش كل من تحرك منكم لأمكنن سيفي منه ثم تقدم أمام رسول الله ﷺ وهو يطوف والمسلمون ثم صلوا حول الكعبة وقرؤوا القرآن جهراً وكانوا قبل ذلك لا يقدرون على الصلاة عند الكعبة ولا يجهرون بالقرآن فسماه النبي عليه السلام الفاروق لأنه فرق الله به الحق والباطل. وجاء بسند حسن «إن أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب» وكان عمر شديداً من حيث مظهريته للاسم الحق وجاء «ما ترك الحق لعمر من صديق».

لما لزمت النصح والتحقيقا   لم يتركا لي في الوجود صديقا

قال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة كان لنا جار طحان رافضيّ ملعون وكان له بغلان سمي أحدهما أبا بكر والآخر عمر فرمحه ذات ليلة أحد البغلين فقتله فأخبر جدي أبو حنيفة فقال: انظروا فإني أخال أن البغل الذي اسمه عمر هو الذي رمحه فنظروا فكان كما قال.

واستأذن عمر رضي الله عنه في العمرة، فأذن له عليه السلام وقال: «يا أخي لا تنسنا من دعائك» قال: ما أحب أن دعا لي بقوله: يا أخي ما طلعت عليه الشمس وجاء: «أول من يصافحه الحق عز وجل عمر بن الخطاب وأول من يسلم عليه» وجاء «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب» وجاء «إن الله تعالى أيدني بأربعة وزراء: اثنين من أهل السماء جبرائيل وميكائيل عليهما السلام واثنين من أهل الأرض أبي بكر وعمر رضي الله عنهما» فكانا بمنزلة الوزيرين من رسول الله ﷺ وكان عليه الصلاة والسلام يشاورهما في الأمور كلها وفيهما نزل ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وجاء «إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون» المحدث بفتح الدال المشددة وهو الذي يلقى في نفسه الشيء فيخبر به فراسة ويكون كما قال وكأنه حدثه الملا الأعلى وهذه منزلة جليلة من منازل الأولياء «فإنه إن كان في أمتي هذه فهو عمر بن الخطاب» لم يرد النبي عليه السلام بقوله: إن كان في أمتي التردد في ذلك فإن أمته أفضل الأمم فإذا وجد في غيرها محدثون ففيها أولى بل أراد به التأكيد لفضل عمر كما يقال إن يكن لي صديق فهو فلان يريد بذلك اختصاصه بكمال الصداقة لا نفي سائر الأصدقاء وقد قيل في فضيلة عمر.

له فضائل لا تخفى على أحد ... إلا على أحد لا يعرف القمرا

وجاء «إنه يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك» والفج طريق واسع. وفيه دليل على علو درجة عمر رضي الله عنه حيث لا يقدر الشيطان أن يسلك طريقاً فيه عمر والطريق واسع فكيف يتصور أن يجري منه مجرى الدم كما يجرى في سائر الخلق. وفيه تنبيه على صلابته في الدين واستمرار حاله على الحق المحض. وكان نقش خاتم أبي بكر نعم القادر الله وكان نقش خاتم عمر كفى بالموت واعظاً يا عمر. وكان نقش خاتم عثمان آمنت بالله مخلصاً. وكان نقش خاتم علي رضي الله عنه الملك لله. وكان نقش خاتم أبي عبيدة بن الجراح الحمد لله هذا هو النقش الظاهر المضاف إلى البدن وأما نقش الوجود فنفسه فقد قيل:

كرت صورت حال بد يانكوست ... نكار يدهٔ دست تقدير اوست

وقيل:

نقش مستورى ومستى نه بدست من وتست ... آنچه سلطان ازل كفت بكن آن كردم

نسأل الله تعالى أن يحفظ نقش إيماننا في لوح القلب من مس يد الشك والريب ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، واجعلنا من أهل الإيقان الذي قلت فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] فما نقشه قبضة جمالك لا يطرأ عليه محو من جلالك وإن تطاول الزمان وامتد عمر الإنسان.

﴿يا أيها النبي﴾ يا رفيع القدر ﴿حرض المؤمنين على القتال﴾ أي بالغ في حثهم على قتال الكفار ورغبهم فيه بوعد الثواب أو التنفيل عليه. والتحريض على الشيء أن يحث الإنسان غيره ويحمله على شيء حتى يعلم منه أنه إن تخلف عنه كان حارضاً أي قريباً من الهلاك فتكون الآية إشارة إلى أن المؤمنين لو تخلفوا عن القتال بعد حث النبي عليه السلام إياهم على القتال لكانوا حارضين مشرفين على الهلاك والحث إنما يكون بعد الإقدام بنفسه ليقتدي القوم به ولهذا كان النبي عليه السلام إذا اشتدت الحرب أقرب إلى العدو منهم كما قال علي رضي

الله عنه كنا إذا أحر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه». قال السلطان سليم فاتح مصر:

كر لشكر عدو بود از قاف تابقاف ... بالله كه هيچ روى نمى تابم ازمصاف
چون آفتاب ظلمت كفر ازجهان برم ... كاهى چو صبح تيغ برون آرم ازغلاف

وفي الآية: بيان فضيلة الجهاد وإلا لما وقع الترغيب عليه، وفي الحديث: «ما جميع أعمال العباد عند المجاهدين في سبيل الله إلا كمثل خطاف أخذ بمنقاره من ماء البحر» **﴿إن يكن منكم﴾** أيها المؤمنون **﴿عشرون صابرون﴾** في معارك القتال **﴿يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾** بيان للألف وهذا القيد معتبر في المائتين أيضاً كما أن قيد الصبر معتبر في كل من المقامين. **﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾** متعلق بيغلبوا، أي: بسبب أنهم قوم جهلة بالله وباليوم الآخر لا يقاتلون احتساباً وامتثالاً لأمر الله وإعلاء لكلمته وابتغاء لمرضاته وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع الشهوات وخطوات الشيطان وإثارة نائرة البغي والعدوان فيستحقون القهر والخذلان وهذا القول وعد كريم منه تعالى متضمن لإيجاب مقاومة الواحد للعشرة وثباته لهم. وقد بعث رسول الله ﷺ حمزة في ثلاثين راكباً، فلقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب فهزمهم فثقل عليهم ذلك وضجوا منه بعد مدة فنسخ الله هذا الحكم بقوله.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿الآن خفف الله عنكم﴾ ففرض على الواحد أن يثبت لرجلين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: من فر من ثلاثة لم يفر ومن فر من اثنين فقد فر أي ارتكب المحرم وهو كبيرة الفرار من الزحف.

قال الحدادي: وهذا إذا كان للواحد المسلم من السلاح والقوة ما لكل واحد من الرجلين الكافرين كان فاراً. وأما إذا لم يكن لم يثبت حكم الفرار **﴿وعلم أن فيكم ضعفاً﴾** أي ضعف البدن.

قال التفتازاني: تقييد التخفيف بقوله: (الآن) ظاهر الاستقامة لكن في تقييد العلم به إشكال توهم انتفاء العلم بالحادث قبل وقوعه. والجواب إن العلم متعلق به أبداً أما قبل الوقوع فبأنه سيقع وحال الوقوع بأنه يقع وبعد الوقوع بأنه وقع.

وقال الحدادي وعلم في الأزل أن في الواحد منكم ضعفاً عن قتال العشرة والعشرة عن قتال المائة والمائة عن قتال الألف **﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله﴾** بتيسيره وتسهيله وهذا القيد معتبر فيما سبق أيضاً ترك ذكره تعويلاً على ذكره ههنا **﴿والله مع الصابرين﴾** بالنصر والتأييد فكيف لا يغلبون وما تشعر به كلمة مع من متبوعية مدخولها لأصالتهم من حيث إنهم المباشرون للصبر دلت الآية على أن من صبر ظفر فإن الصبر مطية الظفر.

صبر وظفر هر دو دوستان قديمند ... صبر كن اى دل كه بعد زان ظفر آيد
از چمن صبر رخ متاب كه روزى ... باغ شود سبز وشاخ كل ببرآيد

قال السلطان سليم الأول:

سليمى خصم سيه دل چه داند اين حالت كه ازظهور آلهيست فتح لشكر ما

قال في «التأويلات النجمية»: في قوله تعالى: ﴿بإذن الله﴾ يعني: أن الغلبة والظفر ليس من قوتكم لأنكم ضعفاء وإنما هو بحكم الله الأزلي ونصره. وأما الأقوياء: وهم محمد عليه السلام ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] لقوة توكلهم ويقينهم وفقه قلوبهم لا يفر واحد منهم من مائة من العدو كما كان حال النبي عليه السلام ومن معه من أهل القوة على ما قال عباس بن عبد المطلب شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلم أفارقه ورسول الله على بغلة بيضاء فلما التقي المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق النبي عليه السلام يركض بغلته قِبَل الكفار وأنا آخذ بلجام بغلته أكفها إرادة أن لا يسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله فلما كان رسول الله ومن معه صابرين أولي قوة لم يفروا مع القوم. قال السلطان سليم:

سيمرغ جان ما كه رميدست ازدوكون منت خدا يراكه بجان رام مصطفاست

وفي ترجمة وصايا «الفتوحات المكية» [آدمى از جهت انسانيت مخلوقست برهلع وبردلى وأما از روى ايمان مخلوقست برقوت وشجاعت واقدام ودر روايت آمده است ازبعضى ازصحابه رسول الله ﷺ رسول اوراخبر داده بود كه تو والى شوى در مصر وحكم كنى وقتى قلعه را حصار كرده بودند وآن صحابى نيز درميان بود سائر اصحابرا كفت مرا دركفه منجنيق نهيد وسوى كفار در قلعه انداز يد چون من آنجا رسم قتال كنم ودر حصار بكشايم چون از سبب اين جرأت پرسيدند كفت رسول الله ﷺ مرا خبرداده است كه در مصر والى شوم وهنوز نشدم يقين ميدانم كه نميرم تاوالى نشوم فهم كن كه قوت ايمان اينست والاازروى عرف معلومست كه چون كسى را در كفه منجنيق نهند وبيندازند حال اوچه باشد پس دل مؤمن قوى ترين دلهاست] ألا إنما الإنسان غمد لقلبه ولا خير في غمد إذا لم يكن نصل وجاء في دعاء النبي عليه السلام: «اللهم إني أعوذ بك من الشك في الحق بعد اليقين، وأعوذ بك من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك من شر يوم الدين» قال بعضهم: العمل سعي الأركان إلى الله، والنية سعي القلوب إلى الله تعالى القلب ملك والأركان جنوده ولا يحارب الملك إلا بالجنود ولا الجنود إلا بالملك.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿ما كان﴾ ما صح وما استقام. ﴿لنبي﴾ من الأنبياء عليهم السلام. ﴿أن يكون له أسرى﴾ أي: يثبت له فكان هذه تامة. وأسرى جمع أسير كجرحى جمع جريح وأسارى جمع الجمع. روي أنه عليه السلام أتي يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار فيهم، فقال أبو بكر: هم قومك وأهلك استبقهم لعل الله يهديهم إلى الإسلام، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك، وقال عمر: كذبوك وأخرجوك من ديارك وقاتلوك فاضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر مكّني من فلان لنسيب له، ومكّن علياً من عقيل وحمزة من العباس فلنضرب أعناقهم فلم يهوَ ذلك رسول الله ﷺ وقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب الرجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم، ومثلك يا عمر مثل

نوح قال لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» فخير أصحابه بأن قال لهم: «إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم أطلقتموهم بأن تأخذوا من كل أسير عشرين أوقية» والأوقية أربعون درهماً في الدراهم وستة دنانير في الدنانير «إلا أن يستشهد منكم بعدتهم» فقالوا: بل نأخذ الفداء ويدخل منا الجنة سبعون وفي لفظ ويستشهد منا عدتهم فاستشهدوا يوم أحد بسبب قولهم هذا وأخذهم الفداء فنزلت الآية في فداء أسارى بدر فدخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يا رسول الله أخبرني فإن أجد بكاء بكيت وإلا تباكيت فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة منه.

قال في «السيرة الحلبية»: أسرى بدر منهم من فدي ومنهم من خلي سبيله من غير فداء وهو أبو العاص ووهب بن عمير ومنهم من مات ومنهم من قتل وهو النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معط. **﴿حتى يثخن في الأرض﴾** يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الإسلام ويستولي أهله وحتى لانتهاء الغاية، فدل الكلام على أن له أن يقدم على الأسر والشد بعد حصول الإثخان وهو مشتق من الثخانة وهي الغلظة والكثافة في الأجسام ثم استعير في كثرة القتل والمبالغة فيه لأن الإمام إذا بالغ في القتل يكون العدو كشيء ثقيل يثبت في مكانه ولا يقدر على الحركة يقال أثخنه المرض إذا أضعفه وأثقله وسلب اقتداره على الحركة. **﴿تريدونَ عرضَ الدنيا﴾** استئناف مسوق للعتاب، أي: تريدون حطامها بأخذكم الفداء وسمي المال عرضاً لقلة لبثه فمنافع الدنيا وما يتعلق بها لاثبات لها ولا دوام فصارت كأنها تعرض ثم تزول والخطاب لهم لا لرسول الله ﷺ وأجلة أصحابه فإن مراد أبي بكر كان إعزاز الدين وهداية أسارى، وفيه إشارة إلى أن أخذ الفداء من أسارى المشركين ما كان شيمة للنبي عليه السلام ولا لسائر الأنبياء فإنه رغبة في الدنيا ومن شيمة النبي عليه السلام أنه قال: «ما لي وللدنيا».

كين جهان جيفه است ومردار ورخيص   بر چنين مردار چون باشم حريص

وإنما رغب فيها بعضهم بعد أن شاورهم بأمر الله تعالى إذ أمره بقوله وشاورهم في الأمر **﴿والله يريد الآخرة﴾** يريد لكم ثواب الآخرة الذي لا مقدار عنده للدنيا وما فيها.

قال سعدي چلبي المفتي: لعل المراد والله أعلم والله يرضى فأطلق الإرادة على الرضى على سبيل المشاكلة فلا يرد أن الآية تدل على عدم وقوع مراد الله تعالى خلاف مذهب أهل السنة. **﴿والله عزيز﴾** يغلب أولياؤه على أعدائه **﴿حكيم﴾** يعلم بما يليق بكل حال ويخصها به كما أمر بالإثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه وبين المنّ بقوله تعالى: **﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾** [محمد: ٤] لما تحولت الحال وصار الغلبة للمؤمنين.

قال بعضهم: دلت الآية على أن الأنبياء مجتهدون لأن العتاب الذي فيها لا يكون فيما صدر عن وحي ولا فيما كان صواباً، وإنه قد يكون خطأ ولكن لا يتركون عليه بل ينبهون على الصواب **﴿لولا كتاب من الله سبق﴾** لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده وأن لا يعذب أهل بدر أو قوماً لم يصرح لهم بالنهي.

وفي «التأويلات النجمية»: **﴿لولا كتاب من الله سبق﴾** باستبقاء هؤلاء الأسارى ليؤمن بعضهم ويؤمن أولاد بعضهم وذراريهم **﴿لمسكم﴾** أي لأصابكم **﴿فيما أخذتم﴾** أي لأجل ما أخذتم من الفداء **﴿عذاب عظيم﴾** لا يقادر قدره. روي أنه عليه السلام قال: «لو نزل العذاب

لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ» وذلك لأنه أيضاً أشار بالإتخان. وفيه دليل على أنه لم يكن أحد من المؤمنين ممن حضر بدراً إلا أحب أخذ الفداء غيرهما.

قال عبد الله بن عمر: ما نزل بالناس أمر فقال الناس وقال عمر إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر وفي الحديث: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» وقد وافق الوحي في مواضع منها ما في هذه القصة ومنها أنه قال يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمعن على رسول الله ﷺ في الغيرة فقال لهن عمر: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

﴿فكلوا مما غنمتم﴾ ـ روي ـ أنهم أمسكوا عن الغنائم فقال تعالى قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتموه [از آنچه غنيمت كرفتيد وفديه ازان جمله است] ﴿حلالاً﴾ حال من المغنوم وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم من عدم حل المغنوم بسبب تلك المعاتبة فإن من سمع العتاب المذكور وقع في قلبه اشتباه في أمر حله ﴿طيباً﴾ الطيب المستلذ ويوصف الحلال بذلك على التشبيه فإن المستلذ ما لا يكون فيه كراهية في الطبع وكذا الحلال ما لا يكون فيه كراهية في الدين. ﴿واتقوا الله﴾ أي: في مخالفة أمره ونهيه ﴿إن الله غفور رحيم﴾ فيغفر لكم ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل ورود الإذن فيه ويرحمكم ويتوب عليكم إذا اتقيتموه.

قال الكاشفي: [رحيم مهر بانست كه غنيمت برشما حلال كرده وبرامم ديكر حرام بوده] كما قال ابن عباس رضي الله عنهما كانت الغنائم حراماً على الأنبياء فكانوا إذا أصابوا مغنماً جعلوه للقربان فكانت تنزل نار من السماء فتأكله ولله تعالى عنايات لهذه الأمة لا تحصى. روي عن النبي عليه السلام أنه قال لآدم ليلة المعراج «أنت خير الناس لأن الله تعالى قد فعل معك ستة أشياء: خلقك بيده. وأكرمك بالعلم. وأسجد لك ملائكته. ولعن من لم يسجد لك. وكرمك بامرأة منك حواء. وأباح لك الجنة بحذافيرها» فقال: لا بل أنت خير الناس لأنه أعطاك ستة أشياء لم يعطها أحداً غيرك: جعل شيطانك مسلماً. وقهر عدوك. وأعطاك زوجة مثل عائشة تكون سيدة نساء الجنة. وأحيا جميع الأنبياء لأجلك. وجعلك مطلعاً على سرائر أمتك.

وعامل أمتك بستة أشياء: أولها أخرجني من الجنة بمعصية واحدة ولا يخرج أمتك من المسجد بالمعصية. ونزع مني الحلة ولم ينزع الستر من أمتك. وفرق عني زوجتي ولا يفرق عن أمتك أزواجهم. ونقص من قامتي ولا ينقص من قامتهم وفضحني بقوله وعصى آدم وستر على أمتك. وبكيت مائتي سنة حتى غفر لي ويغفر لأمتك بعذر واحد». قال السعدي قدس سره:

محالست اكر سر برين درنهى   كه بازآيدت دست حاجت نهى
بضاعت نياوردم الا اميد   خدايا زعفوم مكن نا اميد

وينبغي للمؤمن أن يأخذ الحذر فإن عتاب الله تعالى إذا كان بهذه المرتبة في صورة الخطأ في الأمور الاجتهادية فما ظنك في عتابه بل بعقابه في الأمور العمدية المخالفة لكتاب الله تعالى، ألا ترى أن الهدهد لما خالف سليمان في الغيبة استحق التهديد والزجر والعقوبة، فإنك

إن خالفت أمر سلطانك تستحق العقوبة، فإن أنت واظبت على الخدمة والطاعة أقمت عذرك وفي القصة بيان لزوم البكاء عند وقوع الخطأ لأن النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه بكيا.

قيل: إن النار تقرب يوم القيامة فيشفع النبي ﷺ بالانصراف فلا تنصرف حتى يأتي جبريل بقدح من الماء ويقول اضربه على وجهها فيضربه فتفر النار فيقول: «يا جبرائيل من أين هذا الماء» فيقول إنه من دموع العصاة. وفي «المثنوي»:

تانكريد ابر كى خندد چمن ‌‌‌‌‌‌‌ تانكريد طفل كى جوشد لبن
طفل يك روزه همى داند طريق ‌‌‌‌‌‌‌ كه بكريم تارسد دايه شفيق
تونمى دانى كه دايه دايكان ‌‌‌‌‌‌‌ كم دهد بى كريه شير اورا يكان
چون بر آرند ازپشيمانى انين ‌‌‌‌‌‌‌ عرش لرزد ازانين المذنبين

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿يا أيها النبي﴾ من الألقاب المشرفة لرسول الله ﷺ، أي يا أيها المخبر عن الله وعن أحكامه. **﴿قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾** جمع أسير. روي أنها نزلت في العباس بن عبد المطلب عم النبي عليه السلام وكان أسر يوم بدر وكان أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام من خرج من مكة لحماية العير، وكان يوم بدر قد خرج بعشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الكفار فوقع القتال قبل أن يطعم بها وبقيت العشرون أوقية معه فأخذت منه في الحرب فكلم النبي عليه السلام في أن يحتسب العشرين أوقية من فدائه فأبى وقال: «أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا أتركه لك» فكلفه أن يفدي نفسه بمائة أوقية زائداً على فداء غيره لقطع الرحم وكلفه أن يفدي أيضاً ابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث كل واحد بأربعين أوقية، فقال يا محمد تركتني أي صيرتني أتكفف قريشاً ما بقيت. والتكفف: هو أن يمد كفه يسأل الناس يعني غنم المسلمون مالي وما بقي لي شيء حتى أفدي نفسي وابني أخوي فقال: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل» يعني: زوجته «وقت خروجك من مكة، وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله والفضل وقثم» وهم أبناؤه فقال العباس: وما يدريك قال: «أخبرني به ربي» قال أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك رسول الله والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل ولقد كنت مرتاباً في أمرك فأما إذ أخبرتني بذلك فلا ريب. والآية وإن نزلت في حق العباس خاصة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب أي قل للعباس وعقيل وغيرهما من الأسارى **﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾** إيماناً وإخلاصاً هذا الشك بالنسبة إلينا كما في قوله عليه السلام «إن كنت تعلم» في دعاء الاستخارة فإن معناه إن تعلق علمك وإرادتك فلما كان تعلق هذا العلم مشكوكاً بالنسبة إلى العبد عبر عن هذا المعنى بما ترى هكذا سمعته من حضرة شيخنا العلامة أبقاه الله

بالسلامة ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ من الفداء ﴿ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ قال العباس فأبدلني الله خيراً مما أخذ مني لي الآن عشرون عبداً وإن أدناهم ليضرب، أي: يتجر في عشرين ألف درهم وأعطاني سقّاية زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة أنجز لي أحد الوعدين، وأنا أرجو أن ينجز لي الوعد الثاني أي انتظر المغفرة من ربي فإنه لا خلاف في وعد الكريم.

خلاف وعده محالست كز كريم آيد   لئيم اكر نكنند وعدهٔ وفا شايد

﴿وإن يريدوا﴾ يعني: الأسرى ﴿خيانتك﴾ أي: نقض ما عاهدوك عليه من الإسلام بالارتداد على دين آبائهم. ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ بكفرهم ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه في الأزل. ﴿فأمكن منهم﴾ أي: أقدر عليهم كما فعل يوم بدر فإن أعادوا الخيانة فيمكنك منهم أيضاً، يقال: مكنه من الشيء وأمكنه منه، أي: أقدره عليه فتمكن منه. ﴿والله عليم﴾ فيعلم ما في نياتهم وما يستحقونه من العقاب.

برو علم يك ذره پوشيده نيست   كه پيدا وپنهان بنزدش يكيست

﴿حكيم﴾ يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه حكمته البالغة.

وفي بعض الروايات: إن العباس كان قد أسلم قبل وقعة بدر ولكن لم يظهر إسلامه لأنه كان له ديون متفرقة في قريش وكان يخشى إن أظهر إسلامه ضياعها عندهم وإنما كلفه النبي عليه السلام الفداء لأنه كان عليه ظاهراً لا له ولما كان يوم فتح مكة وقهرهم الإسلام أظهر إسلامه ولم يظهر النبي عليه السلام إسلام العباس رفقاً به كيلا يضيع ماله عند قريش وكان قد استأذن النبي عليه السلام في الهجرة فكتب إليه: «يا عم أقم مكانك الذي أنت فيه فإن الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوة» فكان كذلك.

وفي الآية: بيان قدرة الله تعالى وأن مريد الخلاص من يد قهره في الدنيا والآخرة لا يجد إليه سبيلاً إلا بالإيمان والإخلاص فهو القادر القوي الخالق وما سواه العاجز الضعيف المخلوق.

وفي الخبر أن النبي عليه السلام قال: «إن الله تعالى قال: قل للقوي لا يعجبنك قوتك، فإن أعجبتك قوتك ادفع الموت عن نفسك، وقل للعالم لا يعجبنك علمك فإن أعجبك فأخبرني متى أجلك وقل للغني لا يعجبنك غناك فإن أعجبك فأطعم خلقي غداء واحداً».

وفي الآية: إشارة إلى النفوس المأسورة التي أسرت في الجهاد الأكبر عند استيلاء سلطان الذكر عليها والظفر بها إن اطمأنت إلى ذكر الله والعبودية والانقياد تحت أحكامه يؤتها الله نعيم الجنة ودرجاتها وهي خير من شهوات الدنيا ونعيمها وزينتها فإن الدنيا ونعيمها فانية والجنة ونعيمها باقية وخيانة النفس التجاوز عن حد الشريعة والطريقة.

يقال: إن متابعة سبعة أصناف أورثت سبعة أشياء. الأول: إن متابعة النفس أورثت الندامة كما قال تعالى في قتل قابيل هابيل ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٣٠]. والثاني: إن متابعة الهوى أورثت البعد كما قال لبلعام ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] يعني في البعد والخساسة. والثالث: إن متابعة الشهوات أورثت الكفر كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] يعني الكفر. والرابع: أن متابعة فرعون أورثت الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟

أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ [هود: ٩٧] إلى قوله: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ [هود: ٩٨]. والخامس: إن متابعة القادة الضالة أورثت الحسرة كما قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ [البقرة: ١٦٦]إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة: ١٦٧]. والسادس: إن محبة النبي عليه السلام أورثت المحبة كما قال الله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾. والسابع: إن متابعة الشيطان أورثت جهنم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحجر: ٤٢-٤٣].

﴿إن الذين آمنوا﴾ بالله تعالى وبمحمد عليه الصلاة والسلام وبالقرآن. ﴿وهاجروا﴾ أوطانهم وهي مكة حباً لله ولرسوله ﴿وجاهدوا بأموالهم﴾ بأن صرفوها إلى الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاويج. ﴿وأنفسهم﴾ بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوض في المهالك ولعل تقديم الأموال على الأنفس؛ لأن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً وأتم دفعاً للحاجة حيث لا تتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال هكذا في «تفسير الإرشاد».

يقول الفقير أصلحه الله القدير: وجه التقديم عندي أن المال من توابع النفس والوجود وتوابعها أقدم منها في البذل. وفي الآية: أسلوب الترقي من الأدنى إلى الأعلى ولذا قال سادات الصوفية قدس الله أسرارهم بذل المال في مقابلة توحيد الأفعال وبذل الوجود في مقابلة توحيد ذات المعبود. ﴿في سبيل الله﴾ متعلق بجاهدوا قيد لنوعي الجهاد والمراد بسبيل الله الطريق الموصل إلى ثوابه وجناته ودرجاته وقرباته وهو إنما يكون موصلاً بالإخلاص فبذل المال والنفس بطريق الرياء لا يوصل إلى رضى الله ذي العظمة والكبرياء اللهم اجعلنا من الذين جاهدوا في سبيلك لا في سبيل غيرك. قال الشيخ المغربي قدس سره:

كل توحيد نرويدززميني كه درو   خار شرك وحسد وكبر ورياو وكين است

﴿والذين آووا﴾ النبي والمهاجرين معه أي أعطوهم المأوى وأنزلوهم ديارهم بالمدينة والإيواء الضم. ﴿ونصروا﴾ أي: نصروهم على أعدائهم وأعانوهم بالسيف على الكفار فالأول في حق المهاجرين والثاني في حق الأنصار والأنصار كالعلم للقبيلتين الأوس والخزرج، ولهذا جازت النسبة إلى لفظ الجمع حيث قالوا الأنصاري نسبة إلى الأنصار وسموا الأنصار لأنهم نصروا رسول الله ﷺ وواحد الأنصار نصير كشريف وأشراف. قال السلطان سليم الأول:

شاهنشه آن كدا كه بودخاك راه او   آزاد بندۀ كه كرفتار مصطفاست

آن سينه شادكزغم اوساخت دل حزين   وآن جان عزيز كزپى ايثار مصطفاست

﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من النعوت الفاضلة ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ في الميراث وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] أي: أولى بميراث بعض من الأجانب. والحاصل إن التوارث في الابتداء بالهجرة والنصرة لا بمجرد القرابة فكان المهاجر يرثه أخوه الأنصاري إذا لم يكن بالمدينة وليّ مهاجري ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجري، واستمر أمرهم كذلك إلى أن فتحت مكة فسقطت فرضية الهجرة ثم توارثوا بالقرابة، فالأولياء: جمع ولي كصديق وأصدقاء والولي من الولي بمعنى القرب والدنو فكأنه قيل بعضهم أقرباء بعض لا قرابة بينهم وبين من لم يؤمن ولا بين من آمن ولم يهاجر كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ كسائر المؤمنين ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء﴾ أي: من توليهم في الميراث وإن

كانوا من أقرب أقاربكم ﴿حتى يهاجروا﴾ ولما بين تعالى أن حكم المؤمن الذي لم يهاجر انقطاع الولاية بينه وبين المؤمنين وتوهم أنه يجب أن يتحقق بينهم التقاطع التام لتحققه بينه وبين الكفار أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وإن استنصروكم في الدين﴾ أي: إن طلب منكم المؤمنون الذين لم يهاجروا النصرة. ﴿فعليكم النصر﴾ أي: فوجب عليكم نصرهم على من يعاديهم في الدين. ﴿إلا على قوم﴾ منهم ﴿بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي: إلا إذا كان من يعاديهم ويحاربهم من الكفار بينهم وبينكم عهد موثق فحينئذٍ يجب عليكم الوفاء بالعهد وترك المحاربة معهم ولا يلزمكم نصر الذين آمنوا ولم يهاجروا عليهم بل الإصلاح بينهم على وجه غير القتال. ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلا تخالفوا أمره كيلا يحل بكم عقابه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ آخر في الميراث منطوق الآية إثبات الموالاة بين الكفار والكفار ليسوا بمخاطبين بفروع الإيمان، فالمراد منه بطريق المفهوم المخالف نهي المسلمين عن موالاتهم وموارثتهم وإيجاب المباعدة بينهم إن وجد بينهم قرابة نسبية لأن الموالاة بين الكفار مبنية على التناسب في الكفر، كما أنها بين المؤمنين مبنية على التناسب في الإيمان فكما لا مناسبة بين الكفر والإيمان من حيث إن الأول ظلمة والثاني نور، فكذا لا مناسبة بين أهلهما فإن الكافر عدو الله والمؤمن ولي الله فوجب التقاطع وإزالة الوصلة من غير الجنس. قال الحافظ:

نخست موعظهٔ پير صحبت اين پندست كه از مصاحب ناجنس احتراز كنيد

﴿إلا﴾ أي: إن لا ﴿تفعلوه﴾ أي: ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولي بعضكم بعضاً حتى في التوارث ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار. ﴿تكن﴾ تامة ﴿فتنة في الأرض﴾ أي: تحصل فتنة عظيمة فيها وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر. ﴿وفساد كبير﴾ في الدارين وفيه إشارة إلى مساعدة طالب النصرة بأي وجه كان فإن تركها يؤدي إلى الخسران وارتفاع الأمان، وفي الحديث: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» ونصرة الظالم بنهيه عن الظلم.

وفي «فتاوى ضيخان»: إذا وقع النفير من قبل الروم فعلى كل من يقدر على القتال أن يخرج إلى الغزو إذا ملك الزاد والراحلة ولا يجوز له التخلف إلا بعذر بين انتهى. وكما أنه لا كلام في فضيلة الإعانة والإمداد كذلك لا كلام في الهجرة إلى ما يقوم به دين المرء من البلاد. روي أن رسول الله ﷺ لما رأى ما نزل بالمسلمين من توالي الأذى عليهم من كفار قريش مع عدم قدرته على إنقاذهم مما هم فيه قال لهم: «تفرقوا في الأرض فإن الله سيجمعكم» قالوا إلى أين تذهب قال: «ههنا» وأشار بيده إلى جهة الحبشة وفي رواية قال لهم: «اخرجوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً عظيماً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

يقول الفقير، أصلحه الله القدير: سمعت من حضرة شيخي العلامة أبقاه الله بالسلامة أنه قال: لو كان لي مال لهاجرت من قسطنطينية إلى أرض الهند لأنه لا فائدة في الإقامة مع سلطان لا غيرة له أصلاً من جهة الدين، ثم ذكر تورع سلطان الهند وهذا الكلام مطابق للشريعة والطريقة. وقد قال بعض الكبار: إن الأولياء لا يقيمون في بلاد الظلم وجاء في الحديث: «من

فر بدينه من أرض إلى أرض، وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة، وكان رفيق أبيه خليل الله إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام» فهاجر إلى الحبشة ناس من مخافة الفتنة وفراراً إلى الله تعالى بدينهم منهم من هاجر إلى الله بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه وهي الهجرة الأولى فمن آمن بأن طلب الله تعالى حق واجب هاجر من غير الله فهاجر من أفعاله القبيحة الطبيعية إلى الأفعال الحسنة الشرعية ومن الأوصاف الذميمة إلى الأخلاق الحميدة ومن الوجود المجازي إلى الوجود الحقيقي، وبذل ماله ونفسه في طلب الحق وترك كل باطل هو غير الحق. قال السيد البخاري قدس سره:

هست تاج عارفان اندرجهان ازچار ترك ترك دنيا ترك عقبا ترك هستى ترك ترك

وفي الحديث: «كان فيما كان قبلكم رجل قتل تسعاً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعاً وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا فقتله فكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينك وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا بلغ نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم حكماً، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو لها فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة». وفي رواية: «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي».

فإن قلت: الظاهر من الحديث أنه قبلت توبة ذلك الرجل وهذا مخالف لما ثبت في الشرع من أن حقوق العباد لا تسقط بالتوبة.

قلنا إذا تاب ظالم لغيره وقبل الله توبته يغفر له ذنب مخالفة أمر الله وما بقي عليه من حق العبد فهو في مشيئة الله إن شاء أرضى خصمه وإن شاء أخذ حقه منه والحديث من القسم الأول وعلى تقدير الإرضاء لا يكون ساقطاً أيضاً لأخذه عوضه من الله وفي الحديث استحباب أن يفارق التائب موضع الذنب والمساعدين ويستبدل منهم صحبة أهل الصلاح اللهم اجعلنا من المهاجرين وألحقنا بعبادك الصالحين.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿والذين آمنوا﴾ بجميع ما يجب أن يؤمن به إجمالاً وتفصيلاً. **﴿وهاجروا﴾** أوطانهم تأسياً برسول الله ﷺ وطلباً لمرضاة الله. **﴿وجاهدوا﴾** الكفار والمجاهدة. والجهاد [باكسى كار زاركردن درراه خداى] **﴿في سبيل الله﴾** هو دين الإسلام والإخلاص الموصلان إلى الجنة ودرجاتها. **﴿والذين آووا﴾** أي ضموا المؤمنين إلى أنفسهم في مساكنهم ومنازلهم وواسوهم يقال أويت منزلي وإليه أوياً نزلته بنفسي وسكنته وأويته وآويته أنزلته والمأوى المكان فالإيواء بالفارسية [جايكاه دادن]. **﴿ونصروا﴾** أي: أعانوهم على أعدائهم فالموصول الأول عبارة عن

المهاجرين الأولين والثاني عن الأنصار كما سبق. ﴿أولئك هم المؤمنون﴾ إيماناً ﴿حقاً﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق. فالآية الأولى: مذكورة لبيان حكمهم وهو أنهم يتوارثون ويتولى بعضهم بعضاً في الميراث. وهذه الآية مذكورة لبيان أن الكاملين في الإيمان منهم هم المهاجرون الأولون والأنصار لا غيرهم فلا تكرار. ﴿لهم مغفرة﴾ لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ أي: واسع كثير يطعمهم الله تعالى في الجنة طعاماً يصير كالمسك رشحاً ولا يستحيل في أجوافهم نجواً وهو ما يخرج من البطن من ريح أو غائط ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم فقال.

﴿والذين آمنوا من بعد﴾ أي: من بعد الهجرة الأولى. ﴿وهاجروا﴾ بعد هجرتكم ﴿وجاهدوا معكم﴾ في بعض مغازيكم. ﴿فأولئك منكم﴾ أي: من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار وهم الذين جاؤوا من بعدهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] ألحقهم الله بالسابقين وجعلهم منهم تفضلاً منه وترغيباً في الإيمان والهجرة. روي أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار فكان المهاجر يرثه أخوه الأنصاري دون قريبه الغير المهاجر وإن كان مسلماً فنسخ الله تعالى ذلك الحكم بقوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ آخر منهم في التوارث من الأجانب ﴿في كتاب الله﴾ أي: في حكمه. ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ومن جملته ما في تعليق التوارث بالقرابة الدينية أولاً وبالقرابة النسبية آخراً من الحكم البالغة.

نه در أحكام اوست چون وچرا نه در افعال او چكونه وچند

اعلم: أن المهاجرين الأولين من حيث إنهم أسسوا قاعدة الإيمان واتباع الرسول ﷺ أفضل من الأنصار يدل عليه قوله عليه السلام: «لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار» فإن المراد منه إكرام الأنصار بأن لا رتبة بعد الهجرة أعلى من نصرة الدين. والمهاجرون على طبقات. منهم من هاجر معه عليه السلام أو بعد هجرته قبل صلح الحديبية وهو في سنة ثنتين من الهجرة وهم المهاجرون الأولون.

ومنهم من هاجر بعد صلح الحديبية قبل فتح مكة وهم أهل الهجرة الثانية. ومنهم ذو هجرتين هجرة إلى الحبشة وهجرة إلى المدينة وكانت الهجرة إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله ﷺ فرضاً على المؤمن المستطيع ليكون في سعة أمر دينه ولينصر رسول الله ﷺ في إعلاء كلمة الله فلما فتح مكة أعلمهم بأن الهجرة المفروضة قد انقطعت وأنه ليس لأحد بعد ذلك أن ينال فضيلة الهجرة وأن ينازع المهاجرين في مراتبهم.

وأما الهجرة التي تكون من المسلم لصلاح دينه إلى مكة أو إلى غيرها فإنها باقية أبد الدهر غير منقطعة وفي الحديث: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» وفي الحديث: «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي ومن مات بأحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة».

وروى الإمام في «الإحياء»: أن النبي عليه الصلاة والسلام لما عاد إلى مكة استقبل الكعبة وقال: «إنكِ خير أرض الله وأحب بلاد الله إليّ ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» فما هو محبوب للنبي عليه السلام محبوب لأمته أيضاً فالإقامة بمكة مع الوفاء بحق المقام أفضل كيف لا والنظر إلى البيت عبادة والحسنات فيها مضاعفة وللقاصر عن القيام بحق

الموضع ترك الإقامة فإن بعض العلماء كرهها لمثله. حكي أن عمر بن عبد العزيز وأمثاله من الأمراء كان يضرب فسطاطين فسطاطاً في الحل وفسطاطاً في الحرم، فإذا أراد أن يصلي أو يعمل شيئاً من الطاعات دخل فسطاط الحرم رعاية لفضل المسجد الحرام، وإذا أراد أن يأكل أو يتكلم أو غير ذلك خرج إلى فسطاط الحل ومقدار الحرم من قبل المشرق ستة أميال ومن الجانب الثاني اثني عشر ميلاً ومن الجانب الثالث ثمانية عشر ميلاً ومن الجانب الرابع أربعة وعشرون ميلاً هكذا قال الفقيه أبو جعفر. وكما أن للأماكن الشريفة والبقاع المنيفة قدراً وحرمة عند الله تعالى وعند الناس فكذا القلوب الصافية لأهل الكمالات الوافية بل خطرها أعظم.

مسجدى كواندرون اولياست — سجده كاه جمله است آنجا خداست
آن مجازاست اين حقيقت اي خران — نيست مسجد جزدرون سروران

وفي قوله تعالى: ﴿فأولئك منكم﴾ إشارة إلى أن كل سالك صادق سلك طريق الحق من المتأخرين على قدم الإيمان والهجرة والجهاد الحقيقي فهو من المتقدمين لأنه ليس عند الله صباح ولا مساء فالواصلون كلهم كنفس واحدة وهم متبرئون من الزمان والمكان استوى عندهم الأمس واليوم والغد والقرب والبعد والعلو والسفل ولهذا قال عليه السلام: «أمتي كالمطر لا يدري أولهم خير أم آخرهم» وعد المتأخرين من إخوانه وقال: «واشوقاه إلى لقاء إخواني» هذا.

وكان الحسن: إذا قرأ سورة الأنفال قال طوبى لجيش قائدهم رسول الله ﷺ ومبارزهم أسد الله وجهادهم طاعة الله ومددهم ملائكة الله وثوابهم رضوان الله نسأل الله تعالى أن يوفقنا لصالحات الأعمال وحسنات الأقوال والأحوال وأن تجعلنا مشغولين بطاعة الله في كل آن وحال.

تمت سورة الأنفال بفضل الله المتعال في أواخر شهر

ربيع الآخر من شهور سنة ألف ومائة وواحد

٩ ـ سورة التوبة

مائة وتسع وعشرون آية وهي مدنية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

إنما تركت التسمية أول براءة لعدم المناسبة بين الرحمة التي تدل عليها البسملة والتبري الذي يدل عليه أول براءة.

ورده في «الفتوحات» بأنها جاءت في أوائل السور المبدوءة بويل قال وأين الرحمة من الويل.

وقال في «التأويلات النجمية»: الحكمة في ترك كتابة بسم الله الرحمن الرحيم في أول سورة براءة وكتابتها في سورة النمل ليعلم أنها آية مكررة في القرآن، وأكثر ما أنزلت في أوائل السور لتكون فاصلة بين السورتين ولتكون كل سورة متوجّة بتاج اسم الله تعالى وصفة جماله وجلاله فحيث نزلت كتبت، وحيث لم تنزل لم تكتب فلمّا لم تنزل في أول براءة ما كتبت في أولها ونزلت في أول النمل وأثنائها فكتبت في الموضعين جميعاً اهـ. [در ترجمهٔ أسباب نزول از بستان فقيه أبو الليث نقلى ميكندكه ثقات مشايخ بعنعنه از ذي النورين رضي الله عنه روايت كردكه كاتب خاتمهٔ يسألونك عن الأنفال وفاتحهٔ براءة من الله من بودم حضرت مصطفى عليه الصلاة والسلام ميان اين دوسوره املاء بسم الله نفر مودند] كذا في «تفسير الكاشفي» وهو مؤيد لكلام «التأويلات».

وقال حضرة الشيخ الأكبر والمسك الأذفر قدس سره الأطهر.

اعلم أن بسملة سورة براءة هي التي في سورة النمل، فإن الحق سبحانه إذا وهب شيئاً لم يرجع فيه ولا يرده إلى العدم فلما خرجت رحمة براءة، وهي البسملة وحكم التبري من أهلها برفع الرحمة الاختصاصية عنهم ووقف الملك بها لا يدري أين يضعها فإن كل أمة من الأمم الإنسانية أخذت رحمتها بإيمانها قال تعالى أعطوا هذه البسملة للبهائم التي آمنت بسليمان عليه السلام وهي لا يلزمها إيمان إلا برسولها فلما عرفت قدر سليمان وآمنت به أعطيت من الرحمة الإنسانية حظاً وهو بسم الله الرحمن الرحيم الذي سلب من المشركين فلما وسعت الرحمة الرحمانية كل شيء في الوجود الكوني أقيمت الباء في براءة مقامها لأنها من حروف آية الرحمة والأمان لأن كل شيء في الوجود الكوني لا يخلو من رحمة الله عامة أو خاصة انتهى.

واعلم: أن الاستعاذة واجبة على كل من شرع في قراءة القرآن سواء بدأ من أوائل السور أو من أجزائها مطلقاً وإن أراد بها افتتاح الكتب والدرس كما يقرأ التلميذ على الأستاذ لا يتعوذ ثم إن البسملة لا بد منها في أول الفاتحة مطلقاً وفي أول كل سورة ابتدأت بها سوى براءة فإنها لا تسمية في أولها إجماعاً.

والقارىء مخير في التسمية وعدمها فيما بين أجزاء السور سوى أجزاء براءة فإنه لا بسملة في أجزائها أيضاً كذا في «شرح الشاطبية» للجعبري.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾.

﴿براءة من الله ورسوله﴾ أي: هذه براءة مبتدأه من جهة الله ورسوله واصلة. **﴿إلى الذين عاهدتم﴾** أيها المسلمون **﴿من المشركين﴾** فمن لابتداء الغاية وإلى لانتهاء الغاية متعلقان بمحذوف كما تقول هذا كتاب من فلان إلى فلان أي واصل منه إليه وليست كلمة من صلة براءة، كما في قولك: برئت من فلان، والبراءة من الله: انقطاع العصمة ونقض العهد ولم يذكر ما تعلق به البراءة كما في **﴿أن الله بريء من المشركين﴾** اكتفاء بما في حيز الصلة واحترازاً عن تكرير لفظة من ولما كانت المعاهدة غير واجبة بل مباحة مأذونة وكان الاتفاق للعهد من المسلمين مع رسول الله ﷺ نسب إليهم مع أن مباشرة أمرها إنما تتصور من المسلمين لا من الله تعالى وإن كانت بإذن الله تعالى، بخلاف البراءة فإنها واجبة أوجبها الله تعالى وأمر منوط بجناب الله تعالى كسائر الأوامر غير متوقفة على رأي المخاطبين. والمعنى: أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين فإنه منبوذ إليهم والعهد العقد الموثق باليمين وقد كانوا عاهدوا مشركي العرب من أهل مكة وغيرهم بإذن الله واتفاق الرسول فنكثوا إلا بني ضمرة وبني كنانة فأمر المسلمون بنبذ العهد إلى الناكثين وأمهلوا أربعة أشهر كما قال تعالى: **﴿فسيحوا﴾** أي: فقولوا لهم سيحوا وسيروا **﴿في الأرض أربعة أشهر﴾** مقبلين مدبرين آمنين من القتال غير خائفين من النهب والغارة. والسيح والسياحة الذهاب في الأرض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ما ليس في سيروا ونظائره وزيادة في الأرض لقصد التعميم لأقطارها من دار الإسلام وغيرها، والمراد إباحة ذلك لهم وتخليتهم وشأنهم للحرب أو تحصين الأهل والمال أو تحصيل الحرب أو غير ذلك لا تكليفهم بالسياحة فيها، والمراد بالأشهر الأربعة: هي الأشهر الحرم التي علق القتال بانسلاخها هي شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم؛ لأن السورة نزلت في شوال سنة تسع من الهجرة بعد فتح مكة فإنه كان في السنة الثامنة منها أمروا بأن لا يتعرضوا للكفار بتلك المدة صيانة للأشهر الحرم عن القتال فيها، ثم نسخ وجوبها ليتفكروا ويعلموا أن ليس لهم بعد هذه المدة إلا الإسلام أو السيف فيصير ذلك حاملاً لهم على الإسلام ولئلا ينسبوا المسلمين إلى الخيانة ونقض العهد على غفلة المعاهدين، وقيل هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر لأن التبليغ كان يوم النحر كما روي أن رسول الله ﷺ ولى سنة الفتح عتاب بن أسيد الوقوف بالناس في الموسم واجتمع في تلك السنة في الوقوف المسلمون والمشركون فلما كانت سنة تسع بعث أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الموسم فلما خرج منطلقاً نحو مكة أتبعه علياً رضي الله عنه راكب العضباء ليقرأ هذه السورة على أهل الموسم فقيل له عليه السلام لو بعثت بها إلى أبي بكر

فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل مني» وذلك؛ لأن عادة العرب أن لا يتولى أمر العهد والنقض على القبيلة إلا رجل منها سيدهم أو واحد من رهطه وعترته فبعث علياً إزاحة للعلة لئلا يقولوا هذا خلاف ما نعرفه فينا في العهد والنقض، فلما دنا علي سمع أبو بكر الرغاء، وهو صوت ذوات الحوافر، فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله فلما لحقه قال أمير أم مأمور قال مأمور فمضيا فلما كان قبل يوم التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن مساكنهم وقام عليّ يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: «يا أيها الناس إني رسول الله إليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية من أول هذه السورة، ثم قال: أمرت بأربع «أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك. ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده».

وقال الحدادي: كان الحج في السنة التي قرأ علي رضي الله عنه فيها هذه السورة في العاشر من ذي القعدة ثم صار الحج في السنة الثانية في ذي الحجة وكان السبب في تقديم الحج في سنة العهد ما كان يفعله بنو كنانة في النسيء وهو التأخير انتهى فعلى هذا كان المراد بالأشهر الأربعة من عشر ذي القعدة إلى عشر من شهر ربيع الأول كما ذهب إليه البعض **﴿واعلموا أنكم﴾** بسياحتكم في أقطار الأرض في العرض والطول وإن ركبتم متن كل صعب وذلول **﴿غير معجزي الله﴾** أي: لا تفوتونه بالهرب والتحصين.

قال في «ربيع الأبرار»: غير معجزي الله سابقي الله وكل معجز في القرآن سابق بلغة كنانة. **﴿وأن الله﴾** أي: واعلموا أنه تعالى. **﴿مخزي الكافرين﴾** أي: مذلكم في الدنيا بالقتل والأسر وفي الآخرة بالعذاب وما يحصل لكم من الافتضاح. والإخزاء هو الإذلال بما فيه فضيحة وعار.

قال القشيري: قطع لهم مدة على وجه المهلة على أنهم إن أقلعوا عن الضلال وجدوا في المال ما فقدوا من الوصال وإن أبوا إلا التمادي في الحرمة والجريمة انقطع ما بينهم وبينه من العصمة ثم ختم الآية بما معناه إن أصررتم على قبيح آثاركم مشيتم إلى هلاككم بقدمكم وسعيتم في عاجلكم في إراقة دمكم وحصلتم في آجلكم على ندمكم فما خسرتم إلا في صفقتكم.

تبدلت وتبدلنا واخسرنا ... من ابتغى عوضاً يسعى فلم يجد

ففي الآية دعوة إلى الصلح والإيمان بعد الحراب والكفران فمن كفر وعصى فقد خاصم ربه فجاء الندم في تأخيره التوبة والاستغفار وعدم مبالاته بمباغتة قهر الملك الجبار.

قال بعض العرفاء: إن شئت أن تصير من الأبدال فحول خلقك إلى بعض خلق الأطفال ففيهم خمس خصال لو كانت في الكبار لكانوا أبدالاً لا يهتمون للرزق. قال الصائب:

فكر آب ودانه در كنج قفس بى حاصلست ... زير چرخ انديشهٔ روزى چرا باشد مرا

ولا يشكون من خالقهم إذا مرضوا.

حافظ ازجور توحاشاك بنالد روزى ... كه ازان روز كه دربند توام دلشادم

ويأكلون الطعام مجتمعين.

اكر خواهى كه يابى ملك ودولت ... بخور شاها بدرويشان نعمت

وإذا تخاصموا تسارعوا إلى الصلح. قال السلطان سليم الأول:

خواهى كه كنج عشق كنى لوح سينه را ... ازدل بشوى آينه سان كرد كينه را

وإذا خافوا جرت عيونهم بالدموع. وفي «المثنوي»:

سوز مهر وكرية ابر جهان — چون همى داردجهانرا خوش دهان

آفتاب عقل را در سوز دار — چشم را چون ابر اشك افروز دار

جشم كريان بايدت چون طفل خرد — كم خوراين نانراكه نان آب توبرد

وأشارت الآية الكريمة إلى النفوس المتمردة المشركة التي اتخذت الهوى إلهاً، وعبدت صنم الدنيا فهادنها الروح والقلب في أوان الطفولية وعاهداها على أن لا يجاهداها ولا يقاتلاها إلى حد البلوغ، وهي أيضاً لا تتعرض لهما إلى استكمال القالب واستواء القوى البشرية التي بها تتحمل حمل الأمانة وأعباء أركان الشريعة وظهور كمال العقل الذي به يستعد لقبول الدعوة وإجابتها، وبه يعرف الرسل ومعجزاتهم، وبه يثبت الصانع ويرى تعبده واجبا لأداء شكر نعمة الله وإن الله ورسوله بريء من تلك المعاهدة بعد البلوغ، فإنه أوان نقض عهد النفوس مع القلوب والأرواح لأن النفس قبل البلوغ كانت تتصرف في المأكول والمشروب والملبوس لتربية القالب ودفع الحاجة الماسة غالباً، وذلك لم يكن مضراً جداً للقلب والروح، فأما بعد البلوغ فزادت في تلك التربية بالمأكول والمشروب والملبوس الضروري لأجل الشهوة، ولما ظهرت الشهوة شملت آفتها المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح واشتعلت نيرانها يوماً فيوماً وفيها مرض القلب والروح وبعثت الأنبياء لدفع هذا المرض وعلاجه كما قال عليه السلام: «بعثت لدفع العادات وترك الشهوات» وفي قوله: ﴿**فسيحوا في الأرض أربعة أشهر**﴾ إشارة إلى أن للنفوس في أرض البشرية سيراً وسياحة لتكميل الأوصاف الأربعة من النباتية والحيوانية والشيطانية والإنسانية التي تتولد بازدواج الروح العلوي الروحاني المفرد والقالب السفلي المركب من العناصر الأربعة. فالنباتية تولد الماء، والحيوانية تولد الريح، والشيطانية تولد النار، والإنسانية تولد التراب فلتكميل هذه الصفات أرخيت أزمة النفوس في مراتع الدنيا ونعيمها إلى البلاغة ثم قال: ﴿**واعلموا**﴾ يعني: نفوس أهل السعادة ﴿**أنكم غير معجزي الله**﴾ أي: لا تعجزونه أن ينزعكم عن المراتع الدنيوية ويمتعكم بالمنافع الأخروية. ﴿**وأن الله مخزي الكافرين**﴾ يعني: مهلك أهل الشقاوة في تية الغفلات والشهوات كذا في «التأويلات النجمية».

﴿**وأذان من الله ورسوله**﴾ الأذان بمعنى الإيذان كالعطاء بمعنى الإعطاء، أي: هذا إعلام واصل منهما ﴿**إلى الناس**﴾ كافة المؤمنين والكافرين ناكثين أو غيرهم فالأذان عام والبراءة خاصة بالناكثين من المعاهدين والجملة عطف على قوله براءة. ﴿**يوم الحج الأكبر**﴾ منصوب بما يتعلق به إلى الناس.

وفيه قولان: أحدهما: أنه يوم العيد فإنه يتم فيه أركان الحج كطواف الزيارة وغيره ويتم فيه معظم أفعاله كالنحر والرمي وغيرهما وإعلام البراءة كان فيه. وروي أن النبي ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر» وروي أن علياً رضي الله عنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء إلى الجبانة، فجاء رجل فأخذ بلجامها وسأله عن يوم الحج الأكبر فقال: «هو يومك هذا خلِ سبيلها». والثاني أنه يوم عرفة لقوله عليه الصلاة والسلام: «الحج عرفة» حصر النبي عليه السلام أفعال الحج في الوقوف بعرفة لأنه معظم أفعاله من حيث إن من أدرك الوقوف بعرفة فقد أدرك الحج ومن فاته الوقوف فاته الحج ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ولاجتماع المسلمين والمشركين في ذلك اليوم،

وموافقته لأعياد أهل الكتاب ولم يتفق ذلك قبله وبعده فعظم ذلك اليوم في قلوب جميع الطوائف والملل وورد «إن الوقفة يوم الجمعة تعدل سبعين حجة» وهو الحج الأكبر ﴿**أن الله**﴾ أي: بأن الله والباء صلة الأذان حذفت تخفيفاً ﴿**بريء من المشركين**﴾ أي من عهدهم الذي نقضوه فالمراد بالمشركين المعاهدون الناكثون ﴿**ورسوله**﴾ قال المفسرون هو مرفوع معطوف على المستكن في بريء أو منصوب على أن الواو بمعنى مع أي بريء معه منهم أو مجرور على القسم ولا تكرير في ذكر بريء لأن قوله براءة إخبار بثبوت البراءة وهذا إخبار بوجوب الإعلام بذلك ولذلك علقه بالناس ولم يخصه بالمعاهدين كما قال أولاً: ﴿**إلى الذين عاهدتم**﴾ ﴿**فإن تبتم**﴾ من الكفر والغدر ﴿**فهو**﴾ أي: فالتوبة. ﴿**خير لكم**﴾ في الدارين من الإقامة على الكفر والغدر. ﴿**وإن توليتم**﴾ أي: أعرضتم عن التوبة. ﴿**فاعلموا أنكم غير معجزي الله**﴾ غير سابقين ولا فائتين أي لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً في الدنيا. وبالفارسية [شما نه عاجز كنند كانيد خدا يرا يعني توانيد كه ازوبكر يزيد يا با او ستيزيد] ﴿**وبشر الذين كفروا بعذاب أليم**﴾ في الآخرة والخطاب لرسول الله ﷺ وذكر التبشير في مقام الإنذار تهكم بهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنت مع عليّ رضي الله عنه حين بعثه رسول الله بالبراءة إلى مكة، فقيل لأبي هريرة بماذا كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ولا يحجن هذا البيت بعد هذا العام مشرك ولا عريان ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله إلى أربعة أشهر فإذا مضت أربعة أشهر فإن الله بريء من عهد المشركين ورسوله.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿**إلا الذين عاهدتم من المشركين**﴾ استدراك، أي استثناء منقطع من النبذ السابق الذي أخر فيه القتال أربعة أشهر كأنه قيل: لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر لكن الذين لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين في المسارعة إلى قتلهم بل أتموا إليهم عهدهم. ﴿**ثم**﴾ للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة. ﴿**لم ينقصوكم شيئاً**﴾ من شروط العهد ولم ينكثوا وينقص يتعدى إلى اثنين فكم مفعول أول وشيئاً مفعول ثان وإلى واحد فشيئاً منصوب على المصدرية أي شيئاً من النقصان.

قال الكاشفي: [پس ايشان كم نكردند چيزى از عهدهاء شما يعنى نشكستند پيمان شمارا] ﴿**ولم يظاهروا**﴾ لم يعاونوا ﴿**عليكم أحداً**﴾ من أعدائكم كما عدت بنو بكر على خزاعة حلفاء النبي عليه السلام فظاهرتهم قريش بالسلاح. ﴿**فأتموا إليهم عهدهم**﴾ عدي أتموا بإلى لتضمنه معنى فأدوا أي فأدوه إليهم تاماً كاملاً ﴿**إلى مدتهم**﴾ ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضي الأجل المضروب للناكثين ولا تعاملوهم معاملتهم. روي أن بني ضمرة وهم حي من بني كنانة عاهدهم رسول الله ﷺ عام الحديبية عند البيت، وكان بقي لهم من عهدهم تسعة أشهر فأتم عليه الصلاة والسلام إليهم عهدهم. ﴿**إن الله يحب المتقين**﴾ تعليل لوجوب الامتثال وتنبيه على أن مراعاة حقوق العهد من باب التقوى وأن التسوية بين الوفي والغادر منافية لذلك وإن كان المعاهد مشركاً. قال الحافظ:

وفا وعهد نكو باشد را بياموزى وكرنه هركه تو بينى ستمكرى داند

قال الشيخ نصر آبادي: للمتقي علامات أربع: حفظ الحدود، وبذل المجهود، والوفاء بالعهود، والقناعة بالموجود. قيل في الترجمة:

متقى را بود چهار نشان حفظ أحكام شرع أول آن
ثانياً آنچه دست رس باشد بر فقيران وبى كسان باشد
عهدرا با وفا كند پيوند هرچه باشد بدان شود خرسند

واعلم: أن الحج الأكبر يوم الوصول إلى كعبة الوصال والحج الأصغر يوم الوصول إلى كعبة القلب. وزيارة كعبة الوصال وطوافها حرام على مشركي الصفات الناسوتية لأنها تميل إلى غير الله وتركن إلى ما سواه، فلا تطوف الناسوتية حول كعبة اللاهوتية إلا بعد فنائها وفناؤها إنما يكون بالجذبات الإلهية فإذا تداركت العناية الأزلية العبد يخاطب ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨] إما في حال الحياة وإما في وقت الوفاة ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد: ٣٨] أما ترى إلى سحرة فرعون كيف قالوا ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف: ١٤] وفي حديث المعراج «ثم ذهبت إلى الجنة فرأيت رضوان خازنها، فلما رآني فرح بي ورحب بي، وأدخلني الجنة وأراني فيها من العجائب ما وعد الله فيها لأوليائه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ورأيت فيها درجات أصحابي ورأيت فيها الأنهار والعيون وسمعت فيها صوتاً وهو يقول آمنا برب العالمين فقلت ما هذا الصوت يا رضوان قال هم سحرة فرعون وسمعت صوتاً آخر، وهو يقول: لبيك اللهم فقلت من هو قال أرواح الحجاج وسمعت التكبير فقال: هؤلاء الغزاة فسمعت التسبيح فقال هؤلاء الأنبياء ورأيت قصور الصالحين ثم بلغت إلى سدرة المنتهى» وسميت المنتهى لأن علم الخلائق ينتهي إليها «ثم تخلف عني جبريل فقلت له أتتركني وحيداً فقال يا أكرم الخلق على الله ما جاوز هذا المكان أحد قبلك ولا يجاوز بعدك فإذا ناداني ربي فقال لي ادن مني يا محمد فلم أزل أدنو وهو يقول ادن ألف كرة حتى قربت منه كما قال تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩﴾ [النجم: ٩] وما من مرة أدنو من ربي إلا قضى لي فيها حاجة ثم وقفت فقطرت على لساني قطرة كانت أحلى من العسل وأبرد من الثلج فعلمت علم الأولين والآخرين وقال لي يا محمد قد جعلت الإسلام حلواً في قلوب أمتك حتى أحبوه وجعلت الكفر مراً في قلوبهم حتى أبغضوه».

يقول الفقير: ومنه يعرف أن الله تعالى جعل الإيمان حلواً في قلوب أمة الدعوة حتى أحبوه وجعل الكفر مراً في قلوبهم حتى أبغضوه فحب الإيمان من الجذبة الإلهية والعناية الأزلية وبه اتقى المؤمن من الكفر ثم من العصيان، ثم من الجهل ثم من رؤية ما سوى الله والميل إليه. فيا أهل الإيمان أدركتكم العناية العامة. ويا أهل العرفان جذبتكم الهداية الخاصة فقوموا واشكروا الله تعالى على ما أنعم عليكم وأوصله من كمال كرمه إليكم وقد نص على أنه يحب المتقين فتارة تكون محباً وهو محبوب وتارة تكون محبوباً وهو محب ومقام المحبوبية أعلى المقامات ولو كان فوقه ما هو أعلى منه لما قيل لرسول الله ﷺ حبيب الله.

فعليك أيها العاقل بالرجوع إلى المولى قبل تمام المدة وهو حلول الأجل وقبل أن تكتنفك الموانع من الجبن والكسل وطريق الاختيار مقبولة دون طريق الاضطرار فإن أقبلت فلك سعادة الوقت، وإن أعرضت فلك الشقاوة والمقت نسأل الله تعالى أن يهدينا إلى طريق الرضى ويقبل عثرتنا فيما مضى آمين.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

﴿فإذا انسلخ﴾ أي: انقضى استعير له من الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده **﴿الأشهر الحرام﴾** وانفصلت عما كانت مشتملة عليه ساترة له انفصال الجلد عن الشاة وانكشفت عنه انكشاف الحجاب عما وراءه وتحقيقه أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد للحيوان وكذا كل جزء من أجزائه الممتدة من الأيام والشهور والسنين فإذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه ووصفت الأشهر بالحرم وهي جمع حرام؛ لأن الله تعالى حرم فيها القتال وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها لا الأشهر الدائرة في كل سنة وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم؛ لأن نظم الآية يقتضي توالي الأشهر المذكورة وهذه ليست كذلك لأن ثلاثة منها سرد وواحد فرد. **﴿فاقتلوا المشركين﴾** الناكثين أبد الآباد.

فهذه الآية ناسخة لكل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على إيذائهم على وفق ما أجمع عليه جمهور العلماء. **﴿حيث وجدتموهم﴾** أدركتموهم في حل أو حرم **﴿وخذوهم﴾** أي: ائسروهم والأخيذ الأسير. **﴿واحصروهم﴾** الحصر المنع والمراد إما حبسهم ومنعهم عن التبسط والتقلب في البلاد أو منعهم عن المسجد الحرام. **﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾** أي: كل ممر ومجتاز يجتازون منه في أسفارهم وانتصابه على أنه ظرف لاقعدوا أي أرصدوهم في كل مكان يرصد فيه وارقبوهم حتى لا يمروا به وهذا أمر لتضييق السبيل عليهم فليس معناه حقيقة القعود.

قال الكاشفي: [بسته كردانيد برايشان راهها تا منتشر نشوند در بلاد وقرى]. **﴿فإن تابوا﴾** عن الشرك بالإيمان حسبما اضطروا بما ذكر من القتل والأسر والحصر. **﴿وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾** تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم واكتفى بذكرهما عن بقية العبادات لكونهما رئيسي العبادات البدنية والمالية. **﴿فخلوا سبيلهم﴾** فدعوهم وشأنهم لا تتعرضوا لهم بشيء مما ذكر.

قال القاضي في تفسيره: فيه دليل على أن تاركي الصلاة ومانعي الزكاة لا يخلى سبيلهم انتهى.

وعن أبي حنيفة رحمه الله: أن من ترك الصلاة ثلاثة أيام فقد استحق القتل.

قال الفقهاء: الكافر إذا أكره على الإسلام فأجرى كلمة الإسلام على لسانه يكون مسلماً، فإذا عاد إلى الكفر لا يقتل ويجبر على الإسلام كما في «هدية المهديين» للمولى أخي چلبي.

وفيه أيضاً: كافر لم يقر بالإسلام إلا أنه إذا صلى مع المسلمين بجماعة يحكم بإسلامه وبلا جماعة لا وإن صام أو حج أو أدى الزكاة لا يحكم بإسلامه في ظاهر الرواية وفي أخرى إنه إن حج على وجه الذي يفعله المسلمون في الإتيان بجميع الأحكام والتلبية وشهود كل المناسك يصير مسلماً. **﴿إن الله غفور رحيم﴾** تعليل للأمر بتخلية السبيل أي فخلوهم فإن الله يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر لأن الإيمان يجب ما قبله أي يقطعه كالحج ويثيبهم بإيمانهم وطاعتهم.

واعلم أن الله تعالى أمر في هذه الآية بالجهاد وهو أربعة أنواع: جهاد الأولياء بالقلب

بتخليته بالأخلاق الحميدة. وجهاد الزهاد بالنفس بتزكيتها عن الأوصاف الرذيلة، وجهاد العلماء: بإظهار الحق خصوصاً عند سلطان جائر وإمام ظالم، وجهاد الغزاة: ببذل الروح.

بهر روز مرك اين دم مرده باش تاشوى باعشق سر مد خواجه تاش

كشته ومرده به پيشت أي قمر به كه شاه زند كان جاى دكر

فالقتل إما قتل النفوس المشركة بالسيف الظاهر وإما قتل النفوس العاصية بالسيف الباطن وقتلها في نهيها عن هواها ومنعها عن مشتهاها واستعمالها على خلاف طبعها وضد طبيعتها.

قيل: للحسين بن علي رضي الله عنهما: أي الجهاد أفضل؟ قال: مجاهدتك هواك.

ووصى رجل ولده فقال: يا بنيّ أعصِ هواك والنساء واصنع ما شئت، وقوله تعالى: ﴿حيث وجدتموهم﴾ يشير إلى قتلها في الطاعة والمعصية فقتلها في الطاعة بملازمتها ومداومتها عليها وفطامها عن مشاربها فيها وإعجابها وتخليصها إياها. قال في القصيدة الشهيرة بالبردة.

وراعها وهي في الأعمال سائمة وإن هي استحلت المرعى فلا تسم

أي: راع النفس في اشتغالها بالأعمال عما هو مفسد ومنقص للكمال من الرياء والعجب والغفلة والضلال وإن عدت النفس بعض التطوعات حلوا واعتادت به وألفته فاجتهد في أن تقطع نفسك عنه، واشتغل بما هو أشق عليها لأن اعتبار العبادة إنما هو بامتيازها من العادة. ﴿فإن تابوا﴾ ورجعوا إلى الله، أي: رجعت النفوس عن هواها إلى طلب الحق تعالى: ﴿وأقاموا الصلاة﴾ وداومت على العبودية والتوجه إلى الحق. ﴿وآتوا الزكاة﴾ أي: تزكت عن أوصافها الذميمة. ﴿فخلوا سبيلهم﴾ عن مقاساة الشدائد بالرياضات والمجاهدات ليعملوا بالشريعة بعد الوصول إلى الحقيقة فإن النهاية هي الرجوع إلى البداية كما في «التأويلات النجمية».

يقول الفقير: ظهر من هذا أن السالك وإن بلغ إلى غاية المراتب، ونهاية المطالب فهو متقيد في إطلاقه بمرتبة الشريعة والعمل بأحكامها بحيث لو انخلع عن الأحكام والآداب كان ملحداً سيىء الأدب مطروداً عن الباب مهجوراً عن حريم قرب رب الأرباب، فالشريعة الشريفة محك لكل سالك مبتدىء ولكل واصل منتهى يظهر بها صدق الطلب وخدمة الشكر.

وفي الكتب الكلامية: ولا يصل العبد ما دام عاقلاً بالغاً إلى حيث يسقط الأمر والنهي لعموم الخطابات الواردة في التكاليف وإجماع المجتهدين على ذلك اللهم اجعلنا من المتقيدين بوثاق عبوديتك والمراعين لحقوق ربوبيتك.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

﴿وإن أحد﴾ رفع بفعل يفسره ما بعده لا بالابتداء لأن إن من عوامل الفعل. ﴿من المشركين﴾ الذين أمرتك بقتلهم. ﴿استجارك﴾ أي: طلب منك الأمان والجوار بعد انسلاخ الأشهر الحرم. ﴿فأجره﴾ فآمنه ولا تسارع إلى قتله. ﴿حتى يسمع﴾ أي: إلى أن يسمع أو ليسمع. ﴿كلام الله﴾ أي: القرآن فيما له وما عليه من الثواب والعقاب.

استدل الأشعري بهذه الآية إلى أنه يجوز أن يسمع الكلام القديم الذي هو صفة الله تعالى ومنعه الشيخ أبو منصور. فمعنى حتى يسمع كلام الله يسمع ما يدل عليه كما يقال سمعت علم

فلان فإن حقيقة العلم لا تسمع بل سمعت خبراً دالاً على علمه وكما يقال انظر إلى قدرته تعالى أي إلى ما يدل على قدرته تعالى والتفصيل في كتب الكلام. ﴿ثم أبلغه﴾ بعد استماعه له إن لم يؤمن ﴿مأمنه﴾ أي: مسكنه الذي يأمن فيه وهو دار قومه [وبعد ازان باو مقاتله نماى]. ﴿ذلك﴾ يعني: الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن. ﴿بأنهم﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قوم لا يعلمون﴾ ما الإسلام وما حقيقته أو قوم جهلة فلا بد من إعطاء الأمان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة أصلاً. ومن ههنا قال الفقهاء: حربي أسلم في دار الحرب ولا يعلم بالشرائع من الصوم والصلاة ونحوهما ثم دخل دار الإسلام لم يكن عليه قضاؤها ولا يعاقب عليه إذا مات، ولو أسلم في دار الإسلام ولم يعلم بالشرائع يلزمه القضاء.

واعلم كما أن الكفار قوم لا يعلمون أحكام الله فكذا النفس وصفاتها قوم لا يعلمون الله وألطافه فلا يقبلون إليه ويعملون الدنيا وشهواتها فيرغبون فيها، وقد أمهل الله تعالى بفضله ليرجع العبد إليه وإلى طاعته. روي أنه كان في بني إسرائيل شاب قد عبد الله عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال إلهي أطعتك عشرين سنة وعصيتك عشرين سنة فإن رجعت إليك تقبلني فسمع هاتفاً من وراء البيت ولم ير شخصاً وهو يقول أحببتنا فأحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فأمهلناك فإن رجعت إلينا قبلناك.

وينبغي للعبد أن يسارع إلى التوبة والاستغفار فإن توبة الشاب أحسن من توبة الشيخ فإن الشاب ترك الشهوة مع قوة الداعي إليها والشيخ قد ضعفت شهوته وقل داعيه فلا يستويان. قال السعدي قدس سره:

[قحبه پيراز نا بكارى چه كندتوبه نكند] لأنه لا رغبة في مجامعتها فإنها تؤدي إلى موت الفجأة: [وشحنة معزول ازمردم ازاري] لأنه لا ولاية له على الناس.

جوان كوشه نشين شير مردراه خداست ... كه پيرخود نتواندز كوشة برخاست

شيخ كبير له ذنوب ... تعجز عن حملها المطايا
قد بيضت شعره الليالي ... وسودت قلبه الخطايا

يا من يأتي عليه عام بعد عام وقد غرق في بحر الخطايا وهام. يا من يشاهد الآيات والعبر كلما توالت عليه الأعوام والشهور ويسمع الآيات والسور ولا ينتفع بما يسمع ولا بما يرى من عظائم الأمور ما الحيلة فيمن سبق عليه الشقاء في الكتاب المسطور فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور اللهم اجعلنا من المتلذذين بحسن خطابك والمستسعدين بقرب جنابك والمتصفين بمعرفة آيات صفاتك والواصلين إلى أسرار ذاتك إنك أنت الفياض.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَـٰمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ۝٨ اشْتَرَوْا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾.

﴿كيف﴾ في محل النصب على التشبيه بالحال والظرف والاستفهام إنكاري لا بمعنى إنكار الواقع كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨] بل بمعنى إنكار الوقوع. ﴿يكون﴾ من الكون التام ﴿للمشركين﴾ هم الناكثون. والمعنى: على أي حال يوجد لهم ﴿عهد﴾ معتد به ﴿عند الله وعند رسوله﴾ يستحق أن يراعى حقوقه ويحافظ عليه إلى تمام المدة ولا يتعرض لهم بحسبه قتلاً وأخذاً، أي: مستنكر مستبعد أن يكون لهم عهد يجب الوفاء به. ﴿إلا الذين﴾ استدراك من النفي المفهوم من الاستفهام المتبادر شموله لجميع المعاهدين أي لكن الذين ﴿عاهدتم﴾ يعني: بني ضمرة وبني كنانة ﴿عند المسجد الحرام﴾ [نزديك مسجد حرام يعني درحدييه كه قريبست بمكهء معظمه]، والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والإشعار بسبب وكادتها ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ والفاء لتضمنه معنى الشرط، وما إما مصدرية منصوبة المحل على الظرفية بتقدير المضاف، أي فاستقيموا لهم بوفاء أجلهم مدة استقامتهم لكم في وفاء العهد فلم ينقضوه كما نقض غيرهم وإما شرطية منصوبة المحل على الظرفية الزمانية أي أي زمان استقاموا لكم في عهدهم فاستقيموا لهم فيه. ﴿إن الله يحب المتقين﴾ لنقض العهد تعليل للأمر بالاستقامة وإشعار بأن المحافظة على العهد من لوازم التقوى وفي الحديث: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف بقدر غدره» قال في «شرح الشهاب»: المراد باللواء التشهير، يعني: يفتضح الغدّار يوم القيامة بقدر غدره. وفي «المثنوي»:

سوى لطف بيوفايان هين مرو كان پل ويران بود نيكو شنو
نقض ميثاق وعهود از احمقيست حفظ ايمان ووفاكار تقيست

﴿كيف﴾ يكون للمشركين عهد حقيق بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿وإن يظهروا عليكم﴾ أي: وحالهم أنهم إن يظفروا بكم ﴿لا يرقبوا فيكم﴾ أي: لا يراعوا في شأنكم، وأصل الرقوب النظر بطريق الحفظ والرعاية. ومنه الرقيب ثم استعمل في مطلق الرعاية ﴿إلاً﴾ أي: حلفاً أو قرابة.

وقيل: الإل اسم عبري بمعنى الإله.

قال الأزهري: أيل من أسماء الله تعالى بالعبرانية فجاز أن يكون معرب أل، أي: لا يراعوا حق الله تعالى. ﴿ولا ذمة﴾ أي: عهداً حقاً يعاقب على إغفاله وإضاعته مع ما سبق لهم من تأكيد الإيمان والمواثيق يعني أن وجوب مراعاة حقوق العهد على كل من المتعاهدين مشروطة بمراعاة الآخر لها فإذا لم يراعها المشركون فكيف تراعونها. ﴿يرضونكم بأفواههم﴾ استئناف بياني كأنه قيل بأي وجه لا يراعون الحلف أو القرابة فكيف يقدمون على عدم المراعاة فأجيب بأنهم يرضونكم بأفواههم حيث يظهرون الوفاء والمصافاة ويعدون لكم بالإيمان والطاعة ويؤكدون ذلك بالإيمان الفاجرة ويتعللون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة ونسبة الإرضاء للأفواه للإيذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق في قلوبهم. ﴿وتأبى قلوبهم﴾ ما تتفوه به أفواههم يعني أن ألسنتهم تخالف قلوبهم وما في بطونهم من الضغائن ينافي ما أظهروه بألسنتهم من وعد الإيمان والطاعة والوفاء بالعهد فهم إما يقولون كلاماً حلواً مكراً وخديعة، وفي الحديث: «المكر والخديعة في النار» يعني: أربابهما وفي الحديث «اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع» وهي: جمع بلقعة وهي الأرض القفر التي لا شيء

فيها وامرأة بلقعة إذا كانت خالية من كل خير والمعنى يفتقر الحالف ويذهب ماله وجاهه.

فينبغي للعاقل أن لا يجعل عادته أن يحلف في كل صغير وكبير فإنه ربما يحلف كاذباً فيستحق العقوبة. ورد أنّ البياع الحلاف إذا كان كاذباً في يمينه يكون ثمن ما باعه أشد حرمة من لحم الخنزير. ﴿وأكثرهم﴾ أي: أكثر المشركين ﴿فاسقون﴾ خارجون عن الطاعة فإن مراعاة حقوق العهد من باب الطاعة متمردون في الكفر ليست لهم عقيدة تمنعهم ولا مروءة تردعهم وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التفادي عن الغدر والتعفف عما يجر أحدوثة السوء والأحدوثة ما يتحدث الناس في حقه من المثالب والمعائب.

يقول الفقير: ذكر عند حضرة شيخي العلامة أبقاه الله بالسلامة مروءة بعض أهل الذمة فقال: إنه من آثار السعادة الأزلية ويرجى أن ذلك يدعوه إلى الإيمان والتوحيد ويصير عاقبته إلى النجاة والفلاح. وفي «المثنوي»:

من نديدم در جهان جست وجو — هيچ اهليت به از خوى نكو
درپى خوباش وباخوشخو نشين — خو پذيرى روغن وكل رابين
پس يقين دان صورت خوب ونكو — با خصال بد نيرزد يك طسو
ور بود صورت حقير وناپذير — چون بود خلقش نكو دوپاش مير

وقد أوصى رسول الله ﷺ معاذاً بوصية جامعة لمحاسن الأخلاق فقال: «يا معاذ أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجوار، ورحمة اليتيم ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح، وإياك أن تسب حكيماً أو تكذب صادقاً، أو تطيع آثماً، أو تعصي إماماً عادلاً، أو تفسد أرضاً. أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية بذلك أدب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب» كذا في «العوارف».

اعلم أن النفس خلقت من السفليات وجبلت ميالة إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها وإلى الجفاء والغدر والرياء والنفاق وقد عاهدها الله يوم الميثاق على الصدق والإخلاص فهي ما دامت حية باقية على صفاتها الذميمة لا يمكنها العبودية الخالصة من شوب الطمع في المقاصد الدنيوية والأخروية، فإذا تنورت بالأنوار المنعكسة من تجلي صفات الجمال والجلال لمراءة القلب تفنى عن أوصافها المخلوقة وتبقى بالأنوار الخالقية فيثبتها الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة فتسلم من نقض العهد والمسجد الحرام إشارة إلى مقام الوصول الذي هو حرام على أهل الدنيا والآخرة وهو مقام أهل الله وخاصته نسأل الله الوصول إلى هذا المقام المكين والدخول في هذا الحرم الأمين. قال بعضهم:

الزم الصدق والتقى — واترك العجب والريا
واغلب النفس والهوى — ترزق السؤل والمنى

فعلى العاقل المجاهدة مع النفس ورعاية العهود والحقوق ومجانبة الفسوق والعقوق.

قال الشبلي قدس سره: عقدت وقتاً أن لا آكل إلا من الحلال فكنت أدور في البراري، فرأيت شجرة تين فمددت يدي إليها لآكل فنادتني الشجرة احفظ عليك عقدك لا تأكل مني فإني ليهودي.

يقول الفقير في هذه الحكاية شيئان: الأول: ظهور الكرامة وهو تكلم الشجرة. والثاني: تذكير الله تعالى إياه عقده وذلك بسبب صدقه في إرادته وإخلاصه في طلبه فمن أراد أن يصل إلى هذه الرتبة فليحافظ وقته وليراقب فإن في المراقبة حصول المطالب عصمنا الله وإياكم من تجاوز الحد والخروج عن الطريق وشرفنا بالوقوف في حد الحق والثبات في طريق التحقيق ﴿اشتروا بآيات الله﴾ يعني: المشركين الناقضين تركوا الآيات الآمرة بالإيفاء بالعهود والاستقامة في كل أمر وأخذوا بدلها. ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي: شيئاً حقيراً من حطام الدنيا وهو أهواؤهم وشهواتهم التي اتبعوها ﴿فصدوا﴾ أي: عدلوا وأعرضوا من صد صدوداً فيكون لازماً أو منعوا وصرفوا غيرهم من صده عن الأمر صداً فيكون متعدياً. ﴿عن سبيله﴾ أي: دينه الموصل إليه أو سبيل بيته الحرام حيث كانوا يصدون الحجاج والعمار عنه ويحصرونهم. ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أي: بئس العمل عملهم المستمر فما المصدرية مع ما في حيزها في محل الرفع على أنها فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف.

وقيل: إن أبا سفيان بن حرب جمع الأعراب وأطعمهم ليصدهم بذلك عن متابعة رسول الله ﷺ وليحملهم على نقض العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله فنقضوه بسبب تلك الأكلة ففاعل اشتروا الأعراب والثمن القليل هو ما أطعمهم أبو سفيان.

يقول الفقير: هذا جار إلى الآن فإن بعض أهل الهوى والظلم يضيف بعض أهل الطمع والمداهنة ممن يعد من أعيان القوم ليشهدوا له عند السلطان أو القاضي بالحق والعدل فيشترون بآيات الله ثمناً قليلاً هو الضيافة لهم.

﴿لا يرقبون﴾ أي: لا يراعون ولا يحفظون. ﴿في مؤمن﴾ أي: في شأنه وحقه. ﴿إلاً﴾ أي: حلفاً أو حق قرابة. ﴿ولا ذمة﴾ أي: عهداً هذا ناعى عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين على الإطلاق فلا تكرار. ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما عدّ من الصفات السيئة. ﴿هم المعتدون﴾ المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشرارة.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿فإن تابوا﴾ عن الكفر وسائر العظائم. ﴿وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي: التزموا إقامتهما واعتقدوا فرضيتهما. ﴿فإخوانكم﴾ أي: فهم إخوانكم ﴿في الدين﴾ متعلق بإخوانكم لما فيه من معنى الفعل، أي: لهم ما لكم وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملة الإخوان ومتى لم توجد هذه الثلاثة لا تحصل الأخوة في الدين ولا عصمة الدماء والأموال. ﴿ونفصل الآيات﴾ أي: نبين الآيات المتعلقة بأحوال المشركين الناكثين وغيرهم وأحكامهم حالتي الكفر والإيمان. ﴿لقوم يعلمون﴾ أي: ما فيها من الأحكام ويتفكرونها ويحافظون عليها.

﴿وإن نكثوا﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿فإن تابوا﴾ أي وإن لم يفعلوا ذلك بل نقضوا ﴿أيمانهم من بعد عهدهم﴾ الموثق بها وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القوة إلى الفعل. ﴿وطعنوا في دينكم﴾ عابوه وقدحوا فيه بتصريح التكذيب وتقبيح الأحكام ﴿فقاتلوا﴾ [پس بكشيد] ﴿أئمة الكفر﴾ أي: فقاتلوهم فوضع الظاهر موضع الضمير للإشارة

إلى علة وجوب مقاتلتهم أي للإيذان بأنهم صاروا بذلك ذوي رياسة وتقدم في الكفر أحقاء بالقتل وقيل المراد بأئمتهم رؤساؤهم كأبي سفيان والحرث بن هشام وأبي جهل بن هشام وسهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وأشباههم، وتخصيصهم بالذكر ليس لنفي الحكم عما عداهم بل لأن قتلهم أهم من حيث إنهم هم المعتدون في الشرارة ويدعون أتباعهم إلى الأفعال الباطلة كأنه قيل فقاتلوا من نكث الوفاء بالعهود لا سيما أئمتهم والرؤساء منهم. وأصل أئمة أاممة جمع إمام نحو مثال وأمثلة ﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ أي: على الحقيقة حيث لا يراعونها ولا يعدون نقضها محذوراً وإن أجروها على ألسنتهم فالمراد بالأيمان المثبتة لهم بقوله تعالى: ﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ ما أظهروه من الأيمان وبالمنفية ما هو أيمان على الحقيقة، فإنهم إذا لم يراعوها فلا وجود لها في الحقيقة ولا اعتبار بها لأن ما لم يترتب عليه أحكامه ولوازمه فهو في حكم المعدوم، وهو تعليل لاستمرار القتال المأمور به المستفاد من سياق الكلام، كأنه قيل: فقاتلوهم إلى أن يؤمنوا لأنهم لا أيمان لهم حتى تعقدوا معهم عقداً آخر. ﴿لعلهم ينتهون﴾ متعلق بقوله فقاتلوا، أي: قاتلوهم إرادة أن ينتهوا، أي: ليكن غرضكم من القتال انتهاءهم عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم التي يرتكبونها لا إيصال الأذية كما هو ديدن المؤذين والأذية، هو المكروه اليسير.

أقول: فيه إشارة إلى أن الفاعل ينبغي أن يكون له غرض صحيح شرعي في فعله كدفع المضرة في قتل القملة والنملة وأشباههما، لا إرادة التشفي والانتقام وإيصال الأذى والآلام للقرص أو لغيره، وليكن هذا على ذكر من الصوفية المحتاطين في كل الأمور والساعين في طريق الفناء إلى يوم ينفخ في الصور.

قال الحدادي: في الآية بيان أن أهل العهد متى خالفوا شيئاً مما عاهدوهم عليه فقد نقضوا العهد وأما إذا طعن واحد منهم في الإسلام فإن كان شرط في عهودهم أن لا يذكروا كتاب الله ولا يذكروا محمداً ﷺ بما لا يجوز، ولا يفتنوا مسلماً عن دينه، ولا يقطعوا عليه طريقاً ولا يعينوا أهل الحرب بدلالة على المسلمين فإنهم إذا فعلوا ذلك فقد برئت منهم ذمة الله، وذمة رسول الله فإن فعلوا شيئاً من هذه الأشياء حل دمهم، وإن كان لم يشرط ذلك عليهم في عهودهم وطعنوا في القرآن وشتموا النبي عليه الصلاة والسلام ففيه خلاف من الفقهاء، قال أصحابنا: يعزرون ولا يقتلون واستدلوا بما روى أنس بن مالك أن امرأة يهودية أتت النبي عليه السلام بشاة مسمومة ليأكل منها فجيء بها، وقيل له أنقتلها فقال: لا» ولحديث عائشة رضي الله عنها «فإن الله عز وجل يحب الرفق في الأمر كله» فقالت يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا فقال: «بلى قد قلت عليكم» ولم يقتلهم النبي عليه السلام بذلك وذهب مالك إلى أن من شتم النبي عليه السلام من اليهود والنصارى قتل إلا أن يسلم انتهى ما في «تفسير الحدادي».

قال ابن الشيخ في الآية: دليل على أن الذمي إذا طعن في الإسلام، أي عابه وازدراه جاز قتله لأنه عوهد على أن لا يطعن في الدين فإذا طعن فقد خرج عن الذمة وعند أبي حنيفة يستتاب الذمي بطعنه في الدين ولا ينقض عهده بمجرد طعنه ما لم يصرح بالنكث انتهى.

قال المولى أخي چلبي في «هدية المهديين»: الذمي إذا صرح بسبه عليه السلام أو عرض أو استخف بقدره أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فلا خلاف عند الشافعي في قتله إن لم يسلم؛ لأنه لم يعط له الذمة أو العهد على هذا وهو قول عامة العلماء إلا أن أبا حنيفة والثوري

وأتباعهما من أهل الكوفة قالوا لا يقتل لأن ما هو عليه من الشرك أعظم لكن يعزر ويؤدب. وقيل لا يسقط إسلام الذمي الساب قتله لأنه حق النبي عليه السلام وجب عليه لهتكه حرمته وقصده لحاق النقيصة والمعرة به عليه السلام فلم يكن رجوعه إلى الإسلام مسقطاً له كما لم يسقط سائر حقوق المسلمين من قبل إسلامه من قتل أو قذف وإذا كنا لا نقبل توبة المسلم فلأن لا نقبل توبة الكافر أولى كما في «الأسرار» و«الحاوي» فالمختار أن من صدر منه ما يدل على تخفيفه عليه السلام بعمد وقصد من عامة المسلمين يجب قتله ولا تقبل توبته بمعنى الخلاص من القتل وإن أتى بكلمتي الشهادة والرجوع والتوبة لكن لو مات بعد التوبة أو قتل حدّاً مات ميتة الإسلام في غسله وصلاته ودفنه ولو أصر على السب وتمادى عليه وأبى التوبة منه فقتل على ذلك كان كافراً وميراثه للمسلمين ولا يغسل ولا يصلى عليه ولا يكفن بل تستر عورته ويوارى كما يفعل بالكفار. والفرق بين من سب الرسول وبين من سب الله على مشهور القول باستتابته أن النبي عليه السلام بشر والبشر من جنس تلحقهم المعرة إلا من أكرمه الله تعالى بنبوته والباري منزه عن جميع المعائب قطعاً وليس من جنس تلحقهم المعرة بجنسه.

واعلم أنه قد اجتمعت الأمة على أن الاستخفاف بنبينا وبأي نبي كان من الأنبياء كفر سوّاء فعله فاعل ذلك استحلالاً أم فعله معتقداً بحرمته ليس بين العلماء خلاف في ذلك والقصد للسب وعدم القصد سواء إذ لا يعذر أحد في الكفر بالجهالة ولا بدعوى زلل اللسان إذا كان عقله في فطرته سليماً. فمن قال إن النبي ﷺ كان أسود أو يتيم أبي طالب أو زعم أن زهده لم يكن قصداً بل لكمال فقره ولو قدر على الطيبات أكلها ونحو ذلك يكفر وكذا من عيره برعاية الغنم أو السهو أو النسيان أو السحر أو بالميل إلى نسائه أو قال لشعره شعير بطريق الإهانة وإن أراد بالتصغير التعظيم لا يكفر ومن قال جن النبي ساعة يكفر ومن قال أغمي عليه لا يكفر. وحكي عن أبي يوسف أنه كان جالساً مع هارون الرشيد على المائدة فروي عن النبي عليه السلام أنه كان يحب القرع فقال حاجب من حجابه أنا لا أحبه فقال لهارون: إنه كفر فإن تاب وأسلم فبها وإلا فاضرب عنقه فتاب واستغفر حتى أمن من القتل ذكره في «الظهيرية» قالوا هذا إذا قال ذلك على وجه الإهانة أما بدونها فلا كما في «الخاقانية» ولو قال رجل إن رسول الله ﷺ إذا أكل يلحس أصابعه الثلاث فقال الآخر [اين بى ادبيست] فهذا كفر والحاصل أنه إذا استخف سنة أو حديثاً من أحاديثه عليه السلام يكفر ولو قال لو كانت الصلاة زائدة على الأوقات الخمسة أو الزكاة على خمسة دراهم والصوم على شهر لا أفعل منها شيئاً يكفر ولو قال لآخر صل فقال الآخر إن الصلاة عمل شديد الثقل يكفر ولو صلى رجل في رمضان لا في غيره فقال [اين خود بسيارست] يكفر ولو ترك الصلاة متعمداً ولم ينو القضاء ولم يخف عقاب الله فإنه يكفر ولو قال عند مجيء شهر رمضان [آمد آن ماه كران] أو جاء الضيف الثقيل يكفر.

ومن إشارات الآية: أن الطعن في الدين هو الإنكار على مذهب السلوك والطلب وأئمة الكفر هم النفوس كما أن أئمة الإيمان هم القلوب والأرواح والنفوس لا وفاء لهم بالعهد على طلب الحق تعالى وترك ما سواه فلا بد من جهادهم حق جهادهم كي ينتهوا عن طبيعتهم وعما جبلوا عليه من الأمارية بالسوء.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿ألا تقاتلون قوماً﴾ [آيا كارزار نميكنيد باكروهى كه] ﴿نكثوا﴾ [بشكنند] ﴿أيمانهم﴾ التي حلفوها مع الرسول والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بني بكر على خزاعة.

قال الكاشفي: [ديكر از عهدها ميان پيغمبر وقريش آن بودكه حلفا يكديكررا نرنجانند وبرقتال ايشان بايكديكر مظاهره نكنند قريش ببنى بكررا كه حلفاء ايشان بودند بسلاح ومردمدد دادند بابني خزاعة كه حلفاي رسول بودند جنك كردند]. ﴿وهموا﴾ [وقصد كردند مشركان] ﴿بإخراج الرسول﴾ حين تشاوروا في أمره بدار الندوة فيكون نعياً عليهم جنايتهم القديمة وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهموا بإخراجه من المدينة. ﴿وهم بدأوكم﴾ أي: بدؤوا نقض العهد بالمعاداة والمقاتلة ﴿أول مرة﴾ لأن رسول الله ﷺ جاءهم أولاً بالكتاب المبين وتحداهم به فعدلوا عن المحاجة لعجزهم عنها إلى المقاتلة فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم.

﴿أتخشونهم﴾ أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم. ﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ فقاتلوا أعداءه ولا تتركوا أمره. قوله: (فالله) مبتدأ خبره أحق وأن تخشوه بدل من الله أي أي خشية أحق من خشيتهم فإن تخشوه في موضع رفع ويجوز أن يكون في موضع نصب أو جر على الخلاف إذا حذف حرف الجر وتقديره بأن تخشوه أي أحق من غيره بأن تخشوه. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فإن قضية الإيمان أن لا يخشى إلا منه. قال في «التأويلات النجمية» أتخشون فوات حظوظ النفس في اجتهادها وخشية فوات حقوق الله والوصول إليه أولى إن كنتم مؤمنين بالوصول إليه.

﴿قاتلوهم﴾ [كارزار كنيد بامشركان]. ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾ يعني: [بشمشير هاى شما مقتول شوند] ﴿ويخزهم﴾ [ورسواسازد شان بمقهوريت ومغلوبيت]. ﴿وينصركم عليهم﴾ أي: يجعلكم جميعاً غالبين عليهم أجمعين ولذلك أخر عن التعذيب. ﴿ويشف﴾ [شفا بخشد] ﴿صدور قوم مؤمنين﴾ ممن لم يشهد القتال وهم خزاعة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بطن من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيراً فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه فقال عليه السلام: «أبشروا فإن الفرج قريب». قال الحافظ:

آنكه پيرانه سرم صحبت يوسف بنو اخت اجر صبريست كه در كلبهٔ احزان كردم

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿ويذهب﴾ [وببرد خداى تعالى بنصرت شما بركفار] ﴿غيظ قلوبهم﴾ [اندوه دلهاء آنا نراكه بواسطهٔ أذاء كفار ملول بودند] ولقد أنجز الله ما وعدهم به على أجمل ما يكون.

﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ كلام مستأنف ينبىء عما سيكون من بعض أهل مكة من التوبة المقبولة فكان كذلك حيث أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهل بن عمر وغيرهم. ﴿والله عليم﴾ بما كان وما سيكون. ﴿حكيم﴾ لا يفعل ولا يأمر إلا على وفق الحكمة.

﴿أم حسبتم﴾ [آيا مى پندار يداي مؤمنان] وأم منقطعة. والمعنى بل أحسبتم ومعنى بل الإضراب عن أمرهم بالقتال إلى توبيخهم على الحسبان. ﴿أن تتركوا﴾ مهملين غير مأمورين بالجهاد ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ أي: والحال أنه لم يتبين الخلص وهم الذين جاهدوا من غيرهم وفائدة التعبير عن عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقاً للعلم ومداراً للثواب.

قال الحدادي: وكان الله تعالى قد علم قبل أمرهم بالقتال من لا يقاتل ممن يقاتل ولكنه يعلم ذلك غيباً وأراد العلم الذي يجازي عليه، وهو علم المشاهدة لأنه يجازيهم على علمهم لا على علمه فيهم انتهى وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين. ﴿ولم يتخذوا﴾ عطف على جاهدوا داخل في حيز الصلة أي ولما يعلم الله الذين لم يتخذوا ﴿من دون الله﴾ متعلق بالاتخاذ إن أبقى على حاله أو مفعول ثانٍ له إن جعل بمعنى التصيير. ﴿ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أي: بطانة وصاحب سر وهو الذي تطلعه على ما في ضميرك من الأسرار الخفية من الولوج وهو الدخول.

قال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء وليس منه فهو وليجة تكون للواحد والاثنين والجمع بلفظ واحد. ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي: بجميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها فيعلم غرضكم من الجهاد هل فيه إخلاص أو هو مشوب بالعلل كإحراز الغنيمة أو جلب الثناء أو نحو ذلك. قال السعدي:

منه آب زرجان من بر پشيز ... كه صراف دانا نكيرد بچيز
زراند ودكانرا بآتش برند ... بديد آيد آنكه كه مس يازرند

وفي الآية: حث على الجهاد قال رسول الله ﷺ: «لرباط يوم في سبيل الله محتسباً من غير شهر رمضان أفضل عند الله وأعظم أجراً من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ورباط يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين محتسباً من شهر رمضان أفضل عند الله، وأعظم أجراً من عبادة ألفي سنة صيامها وقيامها فإن رده الله إلى أهله سالماً لم يكتب عليه سيئة ألف سنة ويكتب له الحسنات ويُجرىٰ له أجر الرباط إلى يوم القيامة» وفي الحديث: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخل الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» قالوا أفلا نبشر الناس قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمٰن ومنه تفجر أنهار الجنة» وفي الحديث: «المجاهد من جاهد نفسه لله تعالى» جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم أشجع الناس أقهرهم لهواه» كم عاقل أسير هواه عليه أمير عبد الشهوات أذل من عبد الرق إن المرآة لا تريك خدوش وجهك مع صداها وكذلك نفسك لا تريك عيوب نفسك مع هواها.

وفي الآية بيان أن المؤمن المخلص يجتنب عن الكافر والمنافق ولا يتخذهما صاحبي سر. روي عن شداد بن أوس وعبادة بن الصامت قالا بينما كنا عند رسول الله ﷺ إذ قال: «هل فيكم غريب» يعني: أهل الكتاب قلنا لا يا رسول الله فأمر بغلق الباب فقال: «ارفعوا أيديكم فقولوا لا إله إلا الله» فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع رسول الله يده ثم قال: «الحمد لله اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة إنك لا تخلف الميعاد» ثم

قال: «أبشروا فإن الله قد غفر لكم» أقول: هذا التلقين تلقين خاص قد توارثه الخواص من لدنه عليه السلام إلى هذا اليوم ولم يطلعوا عليه العوام ولم يفشوا أسرارهم إلى الأجانب فإن ذلك من الخيانة وكذا ولاية المؤمن للكافر ومحبته له من الخيانة وما الاختلاط إلا من محبة الكفر والعياذ بالله تعالى من ذلك.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ما كان للمشركين﴾ نزلت الآية في جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر فيهم العباس عم النبي عليه السلام فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله فعيروهم بالشرك وجعل علي رضي الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطع رحمه وعون المشركين عليه وأغلظ القول له فقال العباس ما لكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقال له علي وهل لكم من محاسن قال: نعم نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحاج فقال الله تعالى رداً: ﴿ما كان للمشركين﴾ أي ما صح وما استقام على معنى نفي الوجود والتحقق لا نفي الجواز كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١١٤] أي: ما وقع وما تحقق لهم ﴿أن يعمروا﴾ عمارة معتداً بها ﴿مساجد الله﴾ أي: المسجد الحرام وإنما جمع لأنه قبلة المساجد وإمامها فعامره كعامرها أو لأن كل ناحية من نواحيه المختلفة الجهات مسجد على حاله بخلاف سائر المساجد إذ ليس في نواحيها اختلاف الجهة قيل لعكرمة لم تقرأ مساجد وإنما هو مسجد واحد قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] أي: شيئاً من المساجد فضلاً عن المسجد الحرام الذي هو أفضل أفراد الجنس على أن تعريف الجمع بالإضافة للجنس فالآية على هذا الوجه كناية عن عمارة المسجد على وجه آكد من التصريح بذلك.

ذكر في «القنية» أن أعظم المساجد حرمة المسجد الحرام ثم مسجد المدينة ثم مسجد بيت المقدس ثم الجوامع ثم مساجد الشوارع فإنها أخف مرتبة حتى لا يعتكف فيها إذا لم يكن لها إمام معلوم ومؤذن ثم مساجد البيوت فإنه لا يجوز الاعتكاف فيها إلا للنساء انتهى وهذه المساجد هي المساجد المجازية، وأما المساجد الحقيقية فهي القلوب الطاهرة عن لوث الشرك مطلقاً كما قال من قال:

مسجدي كو اندرون اوليا است ... سجده كاه جمله است آنجا خداست

آن مجازست اين حقيقت اي خران ... نيست مسجد جز درون سروران

ولهذا يعبر عن هدم المسجد بهدم قلب المؤمن ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ أي بإظهار آثار الشرك من نصب الأوثان حول البيت للعبادة فإن ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر وإن أبوا أن يقولوا نحن كفار كما نقل عن الحسن.

وقال السدي: شهادتهم على أنفسهم بالكفر أن اليهودي لو قيل له ما أنت قال يهودي ويقول النصراني هو نصراني ويقول المجوسي هو مجوسي أو قولهم نعبد الأصنام ليقربونا إلى الله زلفى وهو حال من الضمير في يعمروا أي محال أن يكون ما سموه عمارة عمارة بيت الله مع ملابستهم لما ينافيها ويحبطها من عبادة غيره تعالى فإنها ليست من العمارة في شيء.

﴿أولئك﴾ الذين يدعون عمارة المسجد وما يضاهيها من أعمال البر مع ما بهم من الكفر. ﴿حبطت﴾ [تباه وباطل شده است بواسطه كفر] ﴿أعمالهم﴾ التي يفتخرون بها وإن كانت من جنس طاعة المسلمين ﴿وفي النار هم خالدون﴾ لكفرهم ومعاصيهم.

قال القاضي عياض انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا بتخفيف عذاب لكن بعضهم يكون أشد عذاباً من بعض بحسب جرائمهم.

وذكر الإمام الفقيه أبو بكر البيهقي: أنه يجوز أن يراد مما ورد في الآيات والأخبار في بطلان خيرات الكفار أنهم لا يتخلصون بها من النار ولكن يخفف عنهم ما يستوجبونه بجنايات ارتكبوها سوى الكفر ووافقه المازري.

قال الواحدي: دلت الآية على أن الكفار ممنوعون من عمارة مسجد المسلمين ولو أوصى لم تقبل وصيته وهو مجمع عليه بين الحنفية ويمنع من دخول المساجد فإن دخل بغير إذن مسلم استحق التعزير وإن دخل بإذنه لم يعزر والأولى تعظيم المساجد ومنعها منهم.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ شامل للمسجد الحرام وغيره. ﴿من آمن بالله﴾ وحده والإيمان بالرسول داخل في الإيمان بالله لما علم من تقارنهما وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر في مثل الشهادة والأذان والإقامة ﴿واليوم الآخر﴾ بما فيه من البعث والحساب والجزاء ﴿وأقام الصلاة﴾ مع الجماعة وأكثر المشايخ على أنها واجبة وفي الحديث: «صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً» والجماعة في التراويح أفضل وكل ما شرع فيه الجماعة فالمسجد فيه أفضل فثواب المصلين في البيت بالجماعة دون ثواب المصلين في المسجد بالجماعة. ﴿وآتى الزكاة﴾ أي: الصدقة المفروضة عن طيب نفس وقرن الزكاة بالصلاة في الذكر لما أن إحداهما لا تقبل إلا بالأخرى أي إنما تستقيم عمارتها ممن جمع هذه الكمالات العلمية والعملية. ﴿ولم يخش﴾ في أمور الدين ﴿إلا الله﴾ فعمل بموجب أمره ونهيه غير آخذ له في الله لومة لائم ولا خشية ظالم فيندرج فيه عدم الخشية عند القتال ونحو ذلك، وأما الخوف الجبلي من الأمور المخوفة كالظلمة والسباع المهلكة والدواهي العظيمة فهو لا يقدح في الخشية من الله إذ الخشية من الله إرادة ناشئة من تصور عظمة الله وإحاطة علمه بجميع المعلومات وكمال قدرته على مجازاة الأعمال مطلقاً وهذا الخوف الجبلي لا يدخل تحت القصد والإرادة ﴿فعسى أولئك﴾ [پس آن كروه شايد] ﴿أن يكونوا من المهتدين﴾ إلى مباغيهم من الجنة وما فيها من فنون المطالب العلية وإبراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات السنية في معرض التوقع لقطع أطماع الكفرة عن الوصول إلى مواقف الاهتداء والانتفاع بأعمالهم التي يحسبون أنهم لها محسنون ولتوبيخهم بقطعهم بأنهم مهتدون فإن المؤمنين مع ما بهم من هذه الكمالات إذا كان أمرهم دائراً بين لعل وعسى فما بال الكفرة وهم هم وأعمالهم أعمالهم.

جايى كه شير مردان در معرض عتابند ... روباه سيرتانرا آنجا چه تاب باشد

[وديكر منع مؤمنا نست ازاغترار بأعمال خويش وبران اعتماد نمودن] كما قال الحدادي كلمة عسى من الله واجبة والفائدة في ذكرها في آخر هذه الآية ليكون الإنسان على حذر من فعل ما يحبط ثواب عمله [كه هر كه بعمل مغرورست ازفيض ازل مهجورست]

مباش غره بعلم وعمل كه شد ابليس بدين سبب زدر باركاه عزت دور

واعلم أن عمارة المساجد تعم أنواعاً منها البناء وتجديد ما انهدم منها وفي الحديث: «سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته من علّم علماً أو كرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو ورث مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته» وفي الحديث: «من بنى مسجداً لله تعالى أعطاه الله بكل شبر أو بكل ذراع أربعين ألف ألف مدينة من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ في الجنة في كل مدينة ألف ألف بيت في كل بيت ألف ألف سرير على كل سرير زوجة من الحور العين في كل بيت أربعون ألف مائدة على كل مائدة أربعون ألف قصعة في كل قصعة أربعون ألف ألف لون من طعام ويعطي الله له من القوة حتى يأتي على تلك الأزواج وعلى ذلك الطعام والشراب» ذكره الزندوستي في «الروضة». فإن خرب المسجد وتعطل أو خربت المحلة ولا يصلي فيه أحد صار المسجد ميراثاً لورثة الباني عند محمد. وقال أبو يوسف هو على حاله مسجد وإن تعطل ولو أرادوا أن يجعلوا المسجد مستغلاً والمستغل مسجداً لم يجز.

يقول الفقير: من الناس من جعل المسجد اصطبل الدواب أو مطمورة الغلة أو نحوه وكذا الكتاب ونحوه من محال العلم والعبادات وقد شاهدناه في ديار الروم والعياذ بالله تعالى.

قال علي رضي الله عنه: ست من المروءة ثلاث في الحضر وثلاث في السفر. فأما اللاتي في الحضر فتلاوة كتاب الله وعمارة مسجد الله واتخاذ الإخوان في الله. وأما اللاتي في السفر فبذل الزاد وحسن الخلق والمزاح في غير معاصي الله ذكره الخطيب في «الروضة».

ومنها قمها أي كنسها وتنظيفها.

قال الحسن: مهور الحور العين كنس المساجد وعمارتها وفي الحديث: «نظفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا باليهود بجمع الأكباء» أي الكناسات في دورها وفي الحديث «غسل الإناء وطهارة الفناء يورثان الغنى» فإذا كان الأمر في طهارة الفناء وهو فناء البيت والدكان ونحوهما هكذا فما ظنك في تنظيف المسجد والكتاب ونحوهما.

ومنها تزيينها بالفرش.

قال بعضهم: أول من فرش الحصير في المساجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت قبل ذلك مفروشة بالحصى، وهو بالفارسية [سنك ريزه] أي في زمنه ﷺ وذلك أن المطر جاء ذات ليلة فأصبحت الأرض مبتلة فجعل الرجل يأتي بالحصباء في ثوبه فيبسطها تحته ليصلي عليها فلما قضى رسول الله الصلاة قال ما أحسن هذا البساط ثم أمر أن يحصب جميع المسجد فمات قبل ذلك فحصبه عمر رضي الله عنه.

وفي «الإحياء»: أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات في عصر الصحابة؛ إذ من عد المعروف في زماننا من فرش المساجد بالبسط الرقيقة وقد كان يعد فرش البواري في المسجد بدعة كانوا لا يرون أن يكون بينهم وبين الأرض حائل انتهى.

قال الفقهاء: يستحب له أن يصلي على الأرض بلا حائل أو ما تنبته كالحصير والبوريا

لأنه أقرب إلى التواضع وفيه خروج عن خلاف الإمام مالك فإن عنده يكره السجود على ما ليس من جنس الأرض ولا بأس بأن يصلي على اللبود وسائر الفرش إذا كان المفروش رقيقاً بحيث يجد الساجد تمكنه من الأرض وقد روي أنه عليه السلام سجد على فروة مدبوغة ولا بأس بتبييض المسجد بالجص أو بالتراب الأبيض. ذكر أن الوليد بن عبد الملك أنفق على عمارة مسجد دمشق في تزيينه مثل خراج الشام ثلاث مرات. وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام بنى مسجد بيت المقدس وبالغ في تزيينه حتى نصب الكبريت الأحمر على رأس القبة وكان ذلك أعز ما يوجد في ذلك الوقت وكان يضيء من ميل وكانت الغزالات يغزلن في ضوئه من مسافة اثني عشر ميلاً وكان على حاله حتى خربه بخت نصر ونقل جميع ما فيه من الذهب والفضة والجواهر والآنية إلى أرض بابل وحمل مائة ألف وسبعين عجلة.

ومنها تعليق القناديل في المساجد وإسراج المصابيح والشموع وفي الحديث: «من علق قنديلاً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى ينكسر ذلك القنديل» كما في «الكشف» وقال أنس رضي الله عنه: «من أسرج في مسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه». وكان سليمان عليه السلام أمر باتخاذ ألف وسبعمائة قنديل من الذهب في سلاسل الفضة. ذكر أن مسجد النبي ﷺ كان إذا جاءت العتمة يوقد فيه سعف النخل فلما قدم تميم الداري المدينة صحب معه قناديل وحبالاً وزيتاً وعلق تلك القناديل بسواري المسجد وأوقدت فقال ﷺ «نورت مسجدنا نور الله عليك أما والله لو كان لي بنت لأنكحتها هذا» وفي كلام بعضهم أول من جعل في المسجد المصابيح عمر بن الخطاب ويوافقه قول بعضهم والمستحب من بدع الأفعال تعليق القناديل فيها يعني المساجد وأول من فعل ذلك عمر بن الخطاب فإنه لما جمع الناس على أبي بن كعب رضي الله عنه في صلاة التراويح علق القناديل فلما رآها علي كرم الله وجهه تزهر قال: «نورت مسجدنا نور الله قبرك يا ابن الخطاب» ولعل المراد تعليق ذلك بكثرة فلا يخالف ما تقدم عن تميم الداري. وعن بعضهم قال: أمرنا المأمون أن أكتب بالاستكثار من المصابيح في المساجد فلم أدر ما أكتب لأنه شيء لم أسبق إليه فأريت في المنام اكتب فإن فيه أنساً للمتهجدين ونفياً لبيوت الله تعالى عن وحشة الظلم فانتبهت وكتبت بذلك.

قال بعضهم: لكن زيادة الوقود كالواقع ليلة النصف من شعبان ويقال لها ليلة الوقود ينبغي أن يكون ذلك كتزيين المساجد ونقشها وقد كرهه بعضهم والله أعلم الكل من «إنسان العيون في سيرة النبي المأمون».

قال الشيخ عبد الغني النابلسي في «كشف النور عن أصحاب القبور»: ما خلاصته أن البدعة الحسنة الموافقة لمقصود الشرع تسمى سنة فبناء القباب على قبور العلماء والأولياء والصلحاء ووضع الستور والعمائم والثياب على قبورهم أمر جائز إذا كان القصد بذلك التعظيم في أعين العامة حتى لا يحتقروا صاحب هذا القبر، وكذا إيقاد القناديل والشمع عند قبور الأولياء والصلحاء من باب التعظيم والإجلال أيضاً للأولياء فالمقصد فيها مقصد حسن. ونذر الزيت والشمع للأولياء يوقد عند قبورهم تعظيماً لهم ومحبة فيهم جائز أيضاً لا ينبغي النهي عنه.

ومنها: الدخول والقعود فيها والمكث والعبادة والذكر ودراسة العلوم ونحو ذلك قال ابن

عباس رضي الله عنهما ألا أدلكم على ما هو خير لكم من الجهاد قالوا بلى قال أن تبنوا مسجداً فيتعلم فيه القرآن والفقه في الدين أو السنة كما في «الأسرار المحمدية».

ومنها صيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا وعن رسول الله ﷺ «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش» ويقال حديث الدنيا في المسجد وفي مجلس العلم وعند الميت وفي المقابر وعند الآذان وعند تلاوة القرآن يحبط ثواب عمل ثلاثين سنة وفي الحديث: «قال الله تعالى: إن بيوتي في أرضي المساجد وإن زواري فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحق على المزور أن يكرم زائره».

قال الإمام القشيري قدس سره عمارة المساجد التي هي مواقف العبودية لا تتأتى إلا بتخريب أوطان البشرية فالعابد يعمر المسجد بتخريب أوطان شهوته والزاهد يعمره بتخريب أوطان ملاحظته ولكل منهم صنف مخصوص وكذلك رتبهم بالإيمان مختلفة فإيمان من حيث البرهان وإيمان من حيث البيان وإيمان من حيث العيان وشتان ما بينهم انتهى كلامه نسأل الله الغفار أن يجعلنا من العمار والزوار.

﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ روي أن المشركين قالوا القيام على السقاية وعمارة المسجد الحرام خير ممن آمن وجاهد وكانوا يفتخرون بالحرم ويستكثرون به من أجل أنهم أهله وعماره فأنزل الله هذه الآية».

قال الكاشفي: [آورده اندكه بعض از اهل حرم در جاهليت زمرهٔ حاج را نبيذ زبيب باعسل وسويق ميدادند ودرزمان آنحضرت رسالت پناه ﷺ آن منصب سقايت بعباس تعلق داشت ومتصدىء عمارة مسجد الحرام شيبة بن طلحة بود روزى اين هر دو با مرتضى على بمقام مفاخرت در آمده عباس بسقايت وشيبه بعمارت مباهات مى نمودند وعلى بإسلام وجهاد مفتخرمى بود حق سبحانه وتعالى بتصديق على آيت فرستاد] ـ وروي النعمان بن بشير قال كنت عند منبر رسول الله فقال رجل ما أبالي أن لا أعمل بعد أن أسقي الحاج وقال آخر ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتما فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليتم استفتيت رسول الله فيما اختلفتم فيه فدخل فأنزل الله هذه الآية. والمعنى أجعلتم أيها المشركون أو المؤمنون المؤثرون للسقاية والعمارة ونحوهما على الهجرة والجهاد ونظائرهما سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام في الفضيلة وعلو الدرجة. ﴿كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله﴾ السقاية والعمارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالجثث فلا بد من تقدير مضاف في أحد الجانبين، أي: أجعلتم أهلهما كمن آمن أو أجعلتموها كإيمان من آمن فإن السقاية والعمارة وإن كانتا في أنفسهما من أعمال البر والخير لكنهما بمعزل عن صلاحية أن يشبه أهلهما بأهل الإيمان والجهاد أو يشبه نفسهما بنفس الإيمان والجهاد وذلك قوله تعالى: ﴿لا يستوون عند الله﴾ أي: لا يساوي الفريق الأول الثاني من حيث اتصاف كل واحد منهما بوصفيهما ومن ضرورته عدم التساوي بين الوصفين الأولين وبين الآخرين لأن المدار في التفاوت بين الموصوفين. ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الكفرة الظلمة بالشرك ومعاداة الرسول منهمكون في الضلالة فكيف يساوون الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿**الذين آمنوا**﴾ استئناف لبيان مراتب فضلهم إثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم. ﴿**وهاجروا**﴾ من أوطانهم إلى رسول الله. ﴿**وجاهدوا في سبيل الله**﴾ العدو في طاعة الله ﴿**بأموالهم**﴾ [ببذل كردن ما لهاى خود بمجاهدان وتهيهء أسباب قتال ايشان] ﴿**وأنفسهم**﴾ [در باختن نفسهاى خود در معارك حرب] أي هم باعتبار اتصافهم بهذه الأوصاف الجليلة. ﴿**أعظم درجة عند الله**﴾ أي أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يتصف بها كائناً من كان وإن حاز جميع ما عداها من الكمالات التي من جملتها السقاية والعمارة.

قال الحدادي: وإنما قال أعظم وإن لم يكن للكفار درجة عند الله لأنهم كانوا يعتقدون أن لهم درجة عند الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤] ﴿**وأولئك**﴾ المنعوتون بتلك النعوت ﴿**هم الفائزون**﴾ المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق كأن فوز من عداهم ليس بفوز من نسبة إلى فوزهم وأما على الثاني فهو لمن يؤثر السقاية والعمارة من المؤمنين على الهجرة والجهاد.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿**يبشرهم ربهم**﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿**برحمة**﴾ عظيمة ﴿**منه**﴾ هي النجاة من العذاب في الآخرة. ﴿**ورضوان**﴾ [خشنودى كامل ازيشان] ﴿**وجنات**﴾ أي: بساتين عالية ﴿**لهم فيها**﴾ أي: في تلك الجنات ﴿**نعيم مقيم**﴾ نعم لا نفاد لها.

﴿**خالدين فيها**﴾ أي: في الجنات. ﴿**أبداً**﴾ تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد إذ قد يراد به المكث الطويل. ﴿**إن الله عنده أجر عظيم**﴾ أي: ثواب كثير في الجنة لا قدر عنده لأجور الدنيا [در كشف الأسرار فرمود كه رحمت براى عاصياً نست ورضوان براى مطيعان وجنت براى كافهء مؤمنان رحمت را تقديم كردتا أهل عصيان رقم نا اميدى بر صفحات أحوال خود نكشند كه هرچند كناه عظيم بود رحمت ازان أعظم است].

كنه ما فزون بود زشمار عفوت افزونتر ازكناه همه
قطرهٔ زآب رحمت توبس است شستن نامهٔ سياه همه

اعلم أنه كما أن الكفار بالكفر الجلي لا يساوون المؤمنين في أعمالهم وطاعاتهم كذلك المشركون بالشرك الخفي لا يساوون المخلصين في أحوالهم ومقاماتهم فالزهد والتصوف والتعرف والتعبد المشوبة بالرياء والهوى والأغراض لا ثمرة لها عند أهل الطلب لأنها خدمة فاسدة كبذر فاسد.

دنا دارى وآخرت مى طلبى اين ناز بخانهٔ پدر بايد كرد

قيل: لا تطمع في المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس وفرقوا بين الخادم والمتخادم بأن المتخادم من كانت خدمته مشوبة بهواه فلا يراعي واجب الخدمة في طرفي الرضى والغضب لانحراف مزاج قلبه بوجود الهوى وبحب المحمدة والثناء من الخلق والخادم من ليس كذلك.

قال السري: الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ويجمع هذه الحظوظ المالية والجاهية حب المنزلة عند الناس وحب المحمدة والثناء. وجاء في الأثر «لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يبالوا بما نقص من دنياهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى كذبتم لستم بها صادقين». روي أن عابداً من بني إسرائيل راودته ملكة عن نفسه فقال اجعلوا لي ماء في الخلاء أتنظف به ثم صعد أعلى موضع في القصر فرمى بنفسه فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبدي قال فلزمه ووضعه على الأرض وضعاً رفيقاً فقيل لإبليس ألا أغويته قال ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله فهذا هو الجهاد في الله وثمرته الخلاص من الهلاك مطلقاً.

قال العلماء بالله: ينبغي للمريد أن يكون له في كل شيء نية لله تعالى حتى في أكله وشربه وملبوسه فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله، ولا ينام إلا لله وقد ورد في الخبر «من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة» فالمريد ينبغي أن يتفقد جميع أقواله وأفعاله ولا يسامح نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى. وفي الأخير من الآيات إشارة إلى من جاهد النفس وبذل الوجود والموجود جميعاً فإنه أعظم قربة في مقام العندية من النفوس المتمردة ومن وصل إلى مقام العندية فالله يعظم أجره أي يجده في مقام العندية فافهم واسأل ولا تغفل عن حقيقة الحال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ سبب نزولها أنه لما أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة كان من الناس من يتعلق به زوجته وولده وأقاربه، فيقولون: ننشدك الله أن لا تروح وتدعنا إلى غير شيء فنضيع بعدك فيرق لهم ويدع الهجرة، فقال الله تعالى أيها المؤمنون. ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم﴾ الكفرة بمكة ﴿أولياء﴾ يعني [اين كروه بدوستى مكيريد]. ﴿إن استحبوا الكفر﴾ أي: اختاروه. ﴿على الإيمان﴾ عدي استحب بعلى لتضمنه معنى اختار وحرص. ﴿ومن يتولهم منكم﴾ [وهر كرا ازشما ايشانرا دوست دارد يعني اين عمل ازيشان پسندد] ومن للجنس لا للتبعيض. ﴿فأولئك﴾ المتولون ﴿هم الظالمون﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها كأن ظلم غيرهم كلا ظلم عند ظلمهم.

قال الإمام: الصحيح أن هذه السورة إنما نزلت بعد فتح مكة فكيف يمكن حمل هذه الآية على إيجاب الهجرة والحال أن الهجرة إنما كانت واجبة قبل فتح مكة. والأقرب أن تكون هذه الآية محمولة على إيجاب التبري من أقربائهم المشركين وترك الموالاة معهم باتخاذهم بطانة وأصدقاء بحيث يفشون إليهم أسرارهم ويؤثرون المقام بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ أي: المشركون مثلهم.

قال الحدادي: إنما جعلوا ظالمين لموالاة الكفار لأن الراضي بالكفر يكون كافراً.

قال الكاشفي: [چواين آيت آمد متخلفان ازهجرت كفتندكه حالا ما درميان قبائل وعشائر خوديم وبمعاملات وتجارات اشتغال نموده أوقات ميكذرانيم چون عزيمت هجرت كنيم

بالصرورة قطع پدر وفرزند بايد كرد تجارت ازدست برود وما بى كسبى وبى مالى بمانيم آيت ديكر آمدكه].

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قل﴾ يا محمد للذين تركوا الهجرة ﴿إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم﴾ أي أقرباؤكم من المعاشرة وهي المخالطة ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أي: اكتسبتموها وأصبتموها بمكة وإنما وصفت بذلك إيماء إلى عزتها عندهم لحصولها بكدّ اليمين. ﴿وتجارة﴾ أي: أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح. ﴿تخشون كسادها﴾ بفوات وقت رواجها بغيبتكم عن مكة المعظمة في أيام الموسم. ﴿ومساكن ترضونها﴾ أي: منازل تعجبكم الإقامة فيها لكمال نزاهتها من الدور والبساتين. ﴿أحب إليكم من الله ورسوله﴾ أي: من طاعة الله وطاعة رسوله بالهجرة إلى المدينة ﴿وجهاد في سبيله﴾ أي: وأحب إليكم من الجهاد في طاعة الله والمراد الحب الاختياري المستتبع لأثره الذي هو الملازمة وعدم المفارقة لا الحب الجبلي الذي لا يخلو عنه البشر فإنه غير داخل تحت التكليف الدائر على الطاقة. ﴿فتربصوا﴾ أي انتظروا جواب للشرط. ﴿حتى يأتي الله﴾ [تابيارد خداى تعالى] ﴿بأمره﴾ هي عقوبة عاجلة أو آجلة وهو وعيد لمن آثر حظوظ نفسه على مصلحة دينه ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن الطاعة في موالاة المشركين أي لا يرشدهم إلى ما هو خير لهم.

وفي الآية الكريمة: وعيد شديد لا يتخلص منه إلا أقل قليل فإنك لو تتبعت إخوان زماننا من الزهاد الورعين لوجدتهم يتحيرون ويتحزنون بفوات أحقر شيء من الأمور الدنيوية ولا يبالون بفوات أجلّ حظ من الحظوظ الدينية فإن محصول الآية إن من آثر هذه المشتهيات الدنيوية على طاعة الرحمن فليستعد لنزول عقوبة آجلة أو عاجلة ولينظر أن ما آثره من الحظوظ العاجلة هل يخلص من الأهوال والدواهي النازلة اللهم عفوك وغفرانك يا أرحم الراحمين.

قال الكاشفي: [اي عزيز مردى بايدكه إبراهيم وار روى ازكون بكرداند ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٧] مال رابذل مهمان. وفرزندرا قصد قربان وخودرا فداى آتش سوزان كند تادرو دعوىء دوستى صادق باشد]

آنكس كه تراشنا خت جانرا چه كند فرزند وعيال وخانما نراچه كند
ديوانه كنى هر دو جهانش بخشى ديوانهٔ توهر دوجهـا نراچه كند

[آورده نماندكه حضرت ﷺ فرموده است كه] «لا يؤمن أحدكم -حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين».

قال ابن ملك المراد به نفي كمال الإيمان وبالحب الحب الاختياري مثلاً لو أمر رسول الله مؤمناً بأن يقاتل الكافر حتى يكون شهيداً أو أمر بقتل أبويه وأولاده الكافرين لأحب أن يختار ذلك لعلمه أن السلامة في امتثال أمره عليه السلام وأن لا يخير كما أن المريض ينفر بطبعه عن الدواء ولكن يميل إليه ويفعله لظنه أن صلاحه فيه كيف ونبينا عليه السلام أعطف علينا منا ومن آبائنا وأولادنا لأنه عليه السلام يسعى لنا لا لغرض.

قال القاضي ومن محبته عليه السلام نصرة سنته والذب أي المنع والدفع عن شريعته [ازحضرت شيخ الإسلام قدس سره منقولست كه أحمد بن يحيى دمشقى روزى پيش مادر وپدر نشسته بود قصهء قربان كردن حضرت إسماعيل ازقرآن بريشان ميخواند كفتند اي أحمد ازپيش ما برخيز وبروكه ما ترادركار خدا كرديم احمد برخاست وكفت الهى اكنون جزتوكسى ندارم روبكعبه نهاد وبعد ازان كه بيست وچهار موقف ايستاده بود قصد زيارت والدين كردچون بدمشق آمد وبدر سراى خود رسيد حلقه دربجنبانيد ما درش آوازدادكه من على الباب جواب دادكه أنا أحمد ابنك ما درش كفت پيش ازين مارا فرزندى بود اورا دركار خدا كرديم احمد ومحمود درا باماچه كار.

ما هرچه داشتيم فداى توكرده ايم جانرا اسيربند هواى توكرده ايم

ما كرده ايم ترك خود وهردوكون نيز وينهاكه كردا ايم براى تو كرده ايم

وهذا لما أن المهاجرين كانوا يكرهون الموت في بلدة هاجروا منها وتركوها لله تعالى لئلا ينقص ثواب الهجرة إذ في العود نقض العمل إلا أن يكون لضرورة دون اختيار.

قال في «التأويلات» أصل الدين هو محبة الله تعالى وإن صرف استعداد محبة الله في هذه الأشياء المذكورة فيه فسق وهو الخروج من محبة الخالق إلى محبة المخلوق وإن من آثر محبة المخلوق على محبة الخالق فقد أبطل الاستعداد الفطري لقبول الفيض الإلهي واستوجب الحرمان وأدركه القهر والخذلان. ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ أي: بقهره ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن حسن الاستعداد يعني لا يهديهم إلى حضرة جلاله وقبول فيض جماله بعد إبطال حسن الاستعداد.

وعن بشر بن الحارث رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: يا بشر أتدري لِمَ رفعك الله تعالى على أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله قال باتباعك لسنتي وخدمتك الصالحين ونصحك لإخوانك ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي هو الذي بلغك منازل الأبرار.

أقول: المحبة الخالصة باب عظيم لا يفتح إلا لأهل القلب السليم وتأثيرها غريب وأمرها عجيب، نسأل الله تعالى سبحانه أن يجعلنا من الذين آثروا حب الله وحب رسوله على حب ما سواهما آمين.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿لقد نصركم الله﴾ أي: بالله قد أعانكم يا أصحاب محمد على عدوكم وأعلامكم عليهم مع ضعفكم وقلة عددكم وعددكم. ﴿في مواطن كثيرة﴾ من الحروب وهي مواقعها ومقاماتها. جمع موطن، وهو كل موضع أقام به الإنسان لأمر والمراد بها واقعات بدر والأحزاب وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة. ﴿ويوم حنين﴾ عطف على محل في مواطن بحذف المضاف في أحدهما، أي: وموطن يوم حنين ليكون من عطف المكان على المكان، أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين ليكون من عطف الزمان على الزمان، وأضيف اليوم إلى حنين لوقوع الحرب يومئذٍ بها فيوم حنين هي غزوة حنين، ويقال لها: غزوة هوازن، ويقال لها غزوة أوطاس باسم الموضع الذي كانت به الواقعة في آخر الأمر وحنين واد بين مكة والطائف. ﴿إذ

أعجبتكم كثرتكم﴾ [چون بشكفت آوردشمارا] أي: سرتكم كثرة عددكم ووفور عددكم والإعجاب هو السرور بالتعجب وهو بدل من يوم حنين، وكانت الواقعة في حنين بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفاً عشرة آلاف منهم ممن شهد فتح مكة من المهاجرين والأنصار وألفان من الطلقاء وهم أهل مكة سموا بذلك، لأنه عليه السلام أطلقهم يوم فتح مكة عنوة ولم يقيدهم بالإسار وبين هوازن وثقيف وكانوا أربعة آلاف سوى الجم الغفير من أمداد سائر العرب. روي أنه عليه السلام فتح مكة في أواخر رمضان وقد بقيت منه ثلاثة أيام، وقيل: فتحها لثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان ومكث فيها إلى أن دخل شوال فغدا يوم السبت السادس منه خارجاً إلى غزوة حنين، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد يصلي بهم ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه وحين فتحت مكة أطاعه عليه الصلاة والسلام قبائل العرب إلا هوازن وثقيفاً، فإن أهلهما كانوا طغاة مردة فخافوا أن يغزوهم رسول الله ﷺ وظنوا أنه عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام فثقل ذلك عليهم فحشدوا وبغوا وقالوا إن محمداً لاقى قوماً لا يحسنون القتال فأجمعوا أمرهم على ذلك، فأخرجوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم وراءهم فحملوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال، ثم جاؤوا بالإبل والغنم والذراري وراء ذلك كي يقاتل كل منهم عن أهله وماله ولا يفر أحد بزعمهم فساروا كذلك حتى نزلوا بأوطاس، وقد كان عليه السلام بعث إليهم عيناً ليتجسس عن حالهم وهو عبد الله بن أبي حذر من بني سليم فوصل إليهم فسمع مالك بن عوف أمير هوازن يقول لأصحابه أنتم اليوم أربعة آلاف رجل فإذا لقيتم العدو فاحملوا عليهم حملة رجل واحد، واكسروا جفون سيوفكم فوالله لا تضربون بأربعة آلاف سيف شيئاً إلا فرج فأقبل العين إلى النبي عليه السلام فأخبره بما سمع من مقالتهم فقال سلمة بن سلامة الوقسي الأنصاري يا رسول الله: «لن نغلب اليوم من قلة» معناه بالفارسية [ما امروز ازقلت لشكر مغلوب نخواهم شد] فساءت رسول الله كلمته وقيل: إن هذه الكلمة قالها أبو بكر رضي الله عنه وقيل: قالها رسول الله ﷺ.

قال الإمام صاحب «التفسير الكبير»: وهو بعيد لأنه عليه السلام كان في أكثر الأحوال متوكلاً على الله منقطع القلب عن الدنيا وأسبابها.

قال ابن الشيخ في «حواشيه»: الظاهر أن القول بها لا ينافي التوكل على الله ولا يستلزم الاعتماد على الأسباب الظاهرة، فإن قوله: لن نغلب اليوم من قلة نفي للقلة وإعجاب بالكثرة. والمعنى إن وقعت مغلوبية فلأمر آخر غير القلة فركب ﷺ بغلته دلدل ولبس درع داود عليه السلام التي لبسها حين قتل جالوت، ووضع الألوية والرايات مع المهاجرين والأنصار فلما كان بحنين وانحدروا في الوادي وذلك عند غبش الصبح يوم الثلاثاء خرج عليهم القوم وكانوا كمنوا لهم في شعاب الوادي ومضايقه وكانوا رماة فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم المشركون وخلوا الذراري فأكب المسلمون فتنادى المشركون يا حماة السوء اذكروا الفضائح فتراجعوا وحملوا عليهم فأدركت المسلمين كلمة الإعجاب، أي: لحقهم شؤم كلمة الإعجاب فانكشفوا ولم يقوموا لهم مقدار حلب شاة وذلك قوله تعالى: ﴿فلم تغن عنكم شيئاً﴾ [پس دفع نكرد ازشما آن كثرت شما].

والإغناء: إعطاء ما تدفع به الحاجة، أي: لم تعطكم تلك الكثرة مما تدفعون به حاجتكم شيئاً من الإغناء. ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ أي: رحبها وسعتها على أن ما

مصدرية والباء بمعنى مع، أي: لا تجدون فيها مقراً تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب ولا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه قال الشاعر:

كـأن بـلاد الله وهـي عـريـضـة   على الخائف المطلوب كفة حابل

أي: حبالة صيد ﴿ثم وليتم﴾ الكفار ظهوركم. ﴿مدبرين﴾ أي: منهزمين لا تلوون على أحد يقال ولى هارباً، أي أدبر، فالإدبار الذهاب إلى خلف خلاف الإقبال. روي أنه بلغ فلهم أي منهزمهم مكة وسر بذلك قوم من أهل مكة وأظهروا الشماتة حتى قال أخو صفوان بن أمية لأمه ألا قد أبطل الله السحر اليوم فقال له صفوان وهو يومئذٍ مشرك اسكت فض الله فاك أي أسقط أسنانك والله لأن يربني من الربوبية أي يملكني ويدبر أمري رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن ولما انهزموا بقي رسول الله ﷺ وحده وليس معه إلا عمه العباس آخذاً بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن حرب بن عبد المطلب آخذاً بركابه وهو يركض البغلة نحو المشركين ويقول:

أنـا الـنـبـي لا كـذب   أنـا ابـن عـبـد الـمـطـلـب

وهذا ليس بشعر لأنه لم يقع عن قصد وإنما قال: أنا ابن عبد المطلب، ولم يقل أنا ابن عبد الله لأن العرب كانت تنسبه ﷺ إلى جده عبد المطلب لشهرته ولموت عبد الله في حياته فليس من الافتخار بالآباء الذي هو من عمل الجاهلية.

وقال الخطابي: إنه عليه السلام إنما قال أنا ابن عبد المطلب لا على سبيل الافتخار ولكن ذكرهم عليه السلام بذلك رؤيا رآها عبد المطلب أيام حياته، وكانت القصة مشهورة عندهم فعرفهم بها وذكرهم إياها وهي إحدى دلائل نبوته عليه السلام.

وقصة الرؤيا على ما في «عقد الدرر واللآلي»: أن عبد المطلب جد النبي عليه السلام بينا هو نائم في الحجر انتبه مذعوراً، قال العباس: فتبعته وأنا يومئذٍ غلام أعقل ما يقال فأتى كهنة قريش فقال: رأيت كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهري، ولها أربعة أطراف طرف قد بلغ مشارق الأرض، وطرف قد بلغ مغاربها، وطرف قد بلغ عنان السماء، وطرف قد جاوز الثرى فبينا أنا أنظر عادت شجرة خضراء لها نور، فبينا أنا كذلك قام عليّ شيخان فقلت لأحدهما: من أنت؟ قال: أنا نوح نبي رب العالمين، وقلت للآخر: من أنت؟ قال أنا إبراهيم خليل رب العالمين، ثم انتبهت قالوا إن صدقت رؤياك ليخرجن من ظهرك نبي يؤمن به أهل السموات وأهل الأرض، ودلت السلسلة على كثرة أتباعه وأنصاره لتداخل حلق السلسلة ورجوعها شجرة يدل على ثبات أمره وعلو ذكره وسيهلك من لم يؤمن به، كما هلك قوم نوح وستظهر به ملة إبراهيم وإلى هذا وقعت إشارة النبي ﷺ يوم حنين قال:

أنـا الـنـبـي لا كـذب   أنـا ابـن عـبـد الـمـطـلـب

كأنه يقول: أنا ابن صاحب تلك الرؤيا مفتخراً بها لما فيها من علم نبوته وعلو كلمته انتهى. روي أنه عليه السلام كان يحمل على الكفار فيفرون ثم يحملون عليه، فيقف لهم فعل ذلك بضع عشرة مرة قال العباس: كنت أكف البغلة لئلا تسرع به نحو المشركين وناهيك بهذا شهادة على تناهي شجاعته حيث لم يخف اسمه في تلك الحال ولم يخف الكفار على نفسه ما ذلك إلا لكونه مؤيداً من عند الله العزيز الحكيم فعند ذلك قال: «يا رب ائتني بما وعدتني» وقال للعباس وكان صيتاً جهوريّ الصوت «صح بالناس» يروى من شدة صوته أنه أغير يوماً

على مكة فنادى واصباحاه فأسقطت كل حامل سمعت صوته وكان صوته يسمع من ثمانية أميال فنادى الأنصار فخذاً فخذاً ثم نادى يا أصحاب الشجرة وهم أهل بيعة الرضوان يا أصحاب سورة البقرة وهم المذكورون في قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وكانوا يحفظون سورة البقرة ويقولون من حفظ سورة البقرة وآل عمران فقد جد فينا فكروا عنقاً واحداً، أي: جماعة واحدة، يعني: دفعة وهم يقولون: لبيك لبيك، وذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله﴾ أي: رحمته التي تسكن بسببها القلوب وتطمئن إليها اطمئناناً كلياً مستتبعاً للنصر القريب، وأما مطلق السكينة فقد كانت حاصلة له عليه السلام قبل ذلك أيضاً. ﴿وعلى المؤمنين﴾ شامل للمنهزمين وغيرهم فعاد المنهزمون وظفروا. ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ أي: بأبصاركم كما يرى بعضكم بعضاً، وهم الملائكة عليهم البياض على خيول بلق وكان يراهم الكفار دون المؤمنين، فنظر النبي عليه السلام إلى قتال المشركين فقال: «هذا حين حمي الوطيس»: والوطيس حجارة توقد العرب تحتها النار يشوون عليها اللحم وهو في الأصل التنور وهذه من الكلمات التي لم تسمع إلا منه ﷺ. وحمي الوطيس كناية عن شدة الحرب ثم نزل عن بغلته وقيل لم ينزل بل قال: «يا عباس ناولني من الحصباء» أو انخفضت بغلته حتى كادت بطنها تمس الأرض ثم قبض قبضة من تراب فرمى به نحو المشركين وقال: «شاهت الوجوه» فلم يبق منهم أحد إلا امتلأت به عيناه ثم قال عليه السلام: «انهزموا ورب الكعبة» وهو أعظم من انقلاب العصا حية لأن ابتلاعها لحبالهم وعصيهم لم يقهر العدو ولم يشتت شمله بل زاد بعدها طغيانه وعتوه على موسى بخلاف هذا الحصى فإنه أهلك العدو وشتت شمله وكان من دعائه عليه السلام يومئذٍ «اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان» فقال له جبريل عليه السلام: لقد لقنت الكلمات التي لقنها الله موسى يوم فلق البحر. واختلفوا في عدد الملائكة يومئذٍ فقيل خمسة آلاف وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفاً. وفي قتالهم أيضاً فقيل قاتلوا وقيل لم يقاتلوا إلا يوم بدر وإنما كان نزولهم لتقوية قلوب المؤمنين بإلقاء الخواطرالحسنة وتأييدهم بذلك وإلقاء الرعب في قلوب المشركين. ﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالقتل والأسر والسبي ﴿وذلك﴾ أي: ما فعل بهم مما ذكر ﴿جزاء الكافرين﴾ في الدنيا.

ولما هزم الله المشركين بوادي حنين ولوا مدبرين ونزلوا بأوطاس وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله رجلاً من الأشعريين، يقال له: أبو عامر وأمره على جيش إلى أوطاس فسار إليهم فاقتتلوا وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيالهم وهرب أميرهم مالك بن عوف فأتى الطائف وتحصن بها وأخذوا أهله وماله فيمن أخذ، وقتل أمير المؤمنين أبو عامر ثم إنه عليه السلام أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم فأتى الجعرانة وهو موضع بين مكة والطائف سمي المحل باسم امرأة وهي ريطة بنت

سعد وكانت تلقب بالجعرانة وهي المرادة في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾ [النحل: ٩٢] فأحرم منها بعمرة بعد أن قام بها ثلاث عشرة ليلة وقال اعتمر منها سبعون نبياً وقسم بها غنائم حنين وأوطاس وكان السبي ستة آلاف رأس والإبل أربعة وعشرين ألفاً والغنم أكثر من أربعين وأربعة آلاف أوقية فضة وتألف أناساً فجعل يعطي الرجل الخمسين والمائة من الإبل ولما قسم ما بقي خص كل رجل أربع من الإبل وأربعون شاة فقال طائفة من الأنصار يا للعجب إن أسيافنا تقطر من دمائهم وغنائمنا ترد عليهم فبلغ ذلك النبي عليه السلام فجمعهم فقال: «يا معشر الأنصار ما هذا الذي بلغني عنكم» فقالوا هو الذي بلغك وكانوا لا يكذبون فقال: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي وكنتم أذلة فأعزكم الله بي وكنتم وكنتم أما ترضون أن ينقلب الناس بالشاء والإبل وتنقلبون برسول الله إلى بيوتكم» فقالوا بلى رضينا يا رسول الله والله ما قلنا ذلك إلا محبة لله ولرسوله فقال ﷺ: «إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم».

﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك﴾ [از پس اين جنك] ﴿على من يشاء﴾ أن يتوب عليه منهم لحكمة تقتضيه، أي: يوفقه للإسلام. ﴿والله غفور﴾ يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي ﴿رحيم﴾ يتفضل عليهم ويثيبهم. روي أن ناساً منهم جاؤوا رسول الله وبايعوه على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرّ الناس وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا، فقال عليه السلام: «إن عندي ما ترون أن خير القول أصدقه اختاروا إما ذراريكم ونساءكم وإما أموالكم» قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً هو جمع حسب وهو ما يعد من المفاخر كنوا بهذا القول عن اختيار ما سبي منهم من الذراري والنسوان على استرجاع الأموال فإن ترك الذراري والنسوان في ذل الأسر واختيار استرجاع الأموال عليها يفضي إلى الطعن في أحسابهم وينافي المروءة فقام النبي عليه السلام فقال: «إن هؤلاء جاؤونا مسلمين وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرد فشأنه» أي فيلزم شأنه «وليفعل ما طاب له ومن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه» قالوا رضينا وسلمنا فقال عليه السلام: «إنا لا ندري لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا» فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا ثم قال ﷺ: «لوفد هوازن ما فعل مالك بن عوف» قالوا يا رسول الله هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف فقال ﷺ: «أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل» فلما بلغه هذا الخبر نزل من الحصن مستخفياً خوفاً أن تحبسه ثقيف إذا علموا الحال وركب فرسه وركضه حتى أتى الدهناء محلاً معروفاً وركب راحلته ولحق برسول الله فأدركه بالجعرانة وأسلم فرد عليه أهله وماله واستعمله عليه السلام على من أسلم من هوازن وكان مالك بن عوف بعد ذلك ممن افتتح عامة الشأم.

ثم في القصة إشارات.

منها أن عسكر رسول الله ﷺ في تلك الواقعة كانوا في غاية الكثرة والقوة فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين فلما تضرعوا في حال الانهزام إلى الله تعالى قواهم حتى هزموا عسكر الكفار وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه. وكما أن أكثر الأسباب الصورية وإن كان مداراً للفتح الصوري لكنه في الحقيقة لا يحصل إلا بمحض فضل الله. فكذا كثرة الأعمال

والطاعات وإن كانت سبباً للفتح المعنوي لكنه في الحقيقة أيضاً لا يحصل إلا بخصوص هداية الله تعالى فلا بد من العجز والافتقار والتضرع إلى الله الغفار. قال الحافظ:

تكيه بر تقوى ودانش در طريقت كافريست — راهرو كرصد هنر دارد توكل بايدش

ومنها: أن المؤمن لا يخرج من الإيمان وإن عمل الكبيرة لأنهم قد ارتكبوا الكبيرة حيث هربوا وكان عددهم أكثر من عدد المشركين فسماهم الله تعالى مؤمنين في قوله: ﴿**ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**﴾ وذلك لأن حقيقة الإيمان هو التصديق القلبي فلا يخرج المؤمن عن الاتصاف به إلا بما ينافيه ومجرد الإقدام على الكبيرة لغلبة شهوة أو غيرة جاهلية أو عار أو كسل أو خوف خصوصاً إذا اقترن به خوف العقاب ورجاء العفو والعزم على التوبة لا ينافيه قال الحافظ:

بپوش دامن عفوى بزلت من مست — كه آب روى شريعت بدين قد نرود

وقال السعدي:

پرده از روى لطف كو بردار — كه اشقيارا اميد مغفرتست

ومنها: أنه ﷺ لم ينهزم قط في موطن من المواطن.

وأما ما روي عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه «مررت برسول الله ﷺ. منهزماً» فمنهزماً حال من سلمة لا من النبي عليه السلام.

قال القاضي عبد الله بن المرابط: من قال إن نبي الله عليه السلام هزم في بعض غزواته يستتاب فإن تاب فيها ونعمت وإلا قتل فإنه نسب إليه ما لا يليق بمنصبه وألحق به نقصاً وذلك لا يجوز عليه إذ هو على بصيرة من أمره ويقين من عصمته وقد أعطاه الله تعالى من الشجاعة ورباطة الجأش ما لم يعط أحداً من العالمين فكيف يتصور الانهزام في حقه.

شاهى وملائكه سپاهست — خلق تو عظيم وحق كواهست

ومنها: أن ذا القعدة شهر شريف ينبغي أن يعرف قدره ويجاهد المرء فيه نفسه وهو الثلاثون يوماً التي واعد الله فيها موسى عليه السلام وأمره أن يصومها حتى يجيء بعدها إلى طور المناجاة والمكالمات والمشاهدات.

قال كعب الأحبار رضي الله عنه: اختار الله الزمان فأحبه إليه الأشهر الحرم وذو القعدة من الأشهر الحرم بلا خلاف وسمي ذا القعدة لقعودهم فيه عن القتال.

وعن قتادة قال: سألت أنساً كم اعتمر النبي عليه السلام قال أربعاً. عمرة الحديبية في ذي القعدة حيث صده المشركون. وعمرة من العام القابل حيث صالحهم. وعمرة الجعرانة إذ قسم غنيمة أراها حنين قلت كم حج قال واحدة ومعناه بعد الهجرة إلى المدينة فإنه ﷺ قد حج قبلها كما في «عقد الدرر واللآلي» وكذا قال صاحب «الروضة» وفي السنة التاسعة حج أبو بكر رضي الله عنه بالناس. وفي العاشرة كانت حجة الوداع ولم يحج النبي عليه السلام بعد الهجرة سواها وحج قبل النبوة وبعدها حجات لم يتفق على عددها واعتمر بعد الهجرة أربع عمر وفي هذه السنة مات إبراهيم ابن النبي عليه السلام. وفي الحادية عشرة فاته ﷺ انتهى اللهم اختم لنا بالخير واجعل لنا في رياض أنسك مبوأ ومنزلاً وفي حظائر قدسك مستقراً ومقاماً وموئلاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾
قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ
دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾ النجس بفتحتين مصدر بمعنى النجاسة وصفوا بالمصدر مبالغة كأنهم عين النجاسة يجب الاجتناب عنهم والتبري منهم وقطع مودتهم.

قال الحدادي: سمي المشرك نجساً لأن الشرك يجري مجرى القذر في أنه يجب تجنبه كما يجب تجنب النجاسات أو لأنهم لا يتطهرون من الجنابة والحدث ولا يجتنبون عن النجاسة الحقيقية فهم ملابسون لها غالباً فحكم عليهم بأنهم نجس بمعنى ذوي نجاسة حكمية وحقيقية في أعضائهم الظاهرة أو أنهم نجس بمعنى ذوي نجاسة في باطنهم حيث تنجسوا بالشرك والاعتقاد الباطل، فعلى هذا يحتمل أن يكون نجس صفة مشبهة كحسن فيجوز ترك تقدير المضاف. ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾ الفاء سببية، أي: فلا يقربوه بسبب أنهم عين النجاسة فضلاً عن أن يدخلوه فإن نهيهم عن اقترابه للمبالغة في نهيهم عن دخوله.

قال في «التبيان» أي لا يدخلوا الحرم كله وحدود الحرم من جهة المدينة على ثلاثة أميال ومن طريق العراق على سبعة أميال ومن طريق الجعرانة على تسعة أميال ومن طريق الطائف على تسعة أميال ومن طريق جدة على عشرة أميال انتهى. ﴿بعد عامهم هذا﴾ وهو السنة التاسعة من الهجرة التي حج فيها أبو بكر رضي الله عنه أميراً وكانت حجة الوداع في السنة العاشرة هو الظاهر الذي عليه الإمام الشافعي وأما على مذهب الإمام الأعظم، فالمراد من الآية المنع من الدخول حاجاً أو معتمراً، فالمعنى لا يحجوا ولا يعتمروا بعد هذا العام ويدل عليه قول علي رضي الله عنه حين نادى ببراءة «ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك» فلا يمنع المشرك عنده من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد.

قال في «الأشباه»: في أحكام الذمي ولا يمنع من دخول المسجد جنباً بخلاف المسلم ولا يتوقف دخوله على إذن مسلم عندنا ولو كان المسجد الحرام. ثم قال في أحكام الحرم ولا يسكن فيه كافر وله الدخول فيه انتهى.

يقول الفقير: لعل الحكمة في أن الجنب المسلم يمنع من دخول المسجد دون الجنب الكافر أن ما هو عليه الكافر من الشرك أو الخبث القلبي والجنابة المعنوية أعظم من حدثه الصوري فلا فائدة في منعه نعم إذا كان عليه نجاسة حقيقية يمنع؛ لأنا مأمورون بتطهير المساجد عن القاذورات ولذا قالوا بحرمة إدخال الصبيان والمجانين في المساجد حيث غلب تنجيسهم وإلا فيكره كما في «الأشباه» هذا فلما منعوا من قربان المسجد الحرام. قال أناس من تجار بكر بن وائل وغيرهم من المشركين بعد قراءة علي هذه الآية ستعلمون يا أهل مكة إذا فعلتم هذا ماذا تلقون من الشدة ومن أين تأكلون أما والله لنقطعن سبلكم ولا نحمل إليكم شيئاً فوقع ذلك في أنفس أهل مكة وشق عليهم وألقى الشيطان في قلوب المسلمين الحزن، وقال لهم: من أين تعيشون وقد نفي المشركون وانقطعت عنكم الميرة فقال المسلمون قد كنا نصيب من تجاراتهم فالآن تنقطع عنا الأسواق والتجارات ويذهب عنا الذي كنا نصيبه فيها فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وإن خفتم عيلة﴾ أي: فقراً بسبب منعهم من الحج وانقطاع ما كانوا يجلبونه

إليكم من الأرزاق والمكاسب. ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ من عطائه أو من تفضله بوجه آخر وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليكم مدراراً أكثر من خيرهم وميرهم ووفق أهل تبالة وجرش وأسلموا وامتاروا لهم ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض. ﴿إن شاء﴾ أن يغنيكم قيده بالمشيئة مع أن التقييد بها ينافي ما هو المقصود من الآية وهو إزالة خوفهم من العيلة لفوائد:

الفائدة الأولى: أن لا يتعلق القلب بتحقق الموعود بل يتعلق بكرم من وعد به ويتضرع إليه في نيل جميع المهمات ودفع جميع الآفات والبليات.

والثانية: التنبيه على أن الإغناء الموعود ليس يجب على الله تعالى بل هو متفضل في ذلك لا يتفضل به إلا عن مشيئته وإرادته.

والثالثة: التنبيه على أن الموعود ليس بموعود بالنسبة إلى جميع الأشخاص ولا بالنسبة إلى جميع الأمكنة والأزمان ﴿إن الله عليم﴾ بمصالحكم ﴿حكيم﴾ فيما يعطي ويمنع.

قال الكاشفي: [حكم كننده است بتحقيق آمال ايشان اكردرى دربندد ديكرى بكشايد].

كمان مدار اكر ضايعم توبكذارى ... كه ضايعم نكذارد مسبب الأسباب

براى من دراحسان اكر تودربندى ... درى دكر بكشايد مفتح الأبواب

روي عن الشيخ أبي يعقوب البصري رضي الله عنه، قال: جعت مرة في الحرم عشرة أيام فوجد ضعفاً، فحدثتني نفسي أن أخرج إلى الوادي لعلي أجد شيئاً ليسكن به ضعفي فخرجت فوجدت سلجمة مطروحة فأخذتها فوجدت في قلبي منها وحشة، وكأن قائلاً يقول لي: جعت عشرة أيام فآخرها يكون حظك سلحمة مطروحة متغيرة فرميت بها فدخلت المسجد فقعدت فإذا برجل جاء فجلس بين يدي ووضع قمطرة وقال هذه لك، قلت كيف خصصتني بها؟ فقال: اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام فأشرفت السفينة على الغرق فنذر كل واحد منا نذراً إن خلصنا الله أن يتصدق بشيء ونذرت أنا إن خلصني الله أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين وأنت أول من لقيته قلت: افتحها فإذا فيها كعك سميذ ممصر ولوز مقشر وسكر كعاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي إلى صبيانك هدية مني إليهم وقد قبلتها ثم قلت في نفسي رزقك يسير إليك منذ عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي.

قال الصائب:

فكر آب ودانه دركنج قفس بي حاصلست ... زير چرخ انديشهٔ روزى چرا باشد مرا

وفي الآية: إشارة إلى أن الله تعالى قد رفع قلم التكليف عن الإنسان إلى أن يبلغ استكمال القالب ففي تلك المدة كانت النفس وصفاتها يطفن حول كعبة القلب مستمدة من القوى العقلية والروحانية وبهذا يظفرن بمشتهياتهن من الدنيا ونعيمها حتى صار تعبد الدنيا دأبهن والإشراك بالله طبعهن وبذلك تكامل القالب واستوت أوصاف البشرية الحيوانية عند ظهور الشهوة بالبلوغ ثم أجرى الله عليهم قلم التكليف ونهى القلب عن اتباع النفوس وأمره بقتالها ونهاها عن تطوافها لئلا تنجس كعبة القلب بنجاسة شرك النفس والأوصاف الذميمة فلما منعت النفس عن تطوافها بحوالي القلب خاف القلب من فوات حظوظه من الشهوات بتبعية النفس فأغناه الله عن تلك الحظوظ بما يفتح عليه من فضل مواهبه من الواردات الربانية والشواهد

والكشوف الرحمانية وفي قوله: ﴿إن شاء﴾ إشارة إلى أن ما عند الله لا ينال إلا بمشيئة الله كذا في «التأويلات النجمية». قال الحافظ:

سكندررا نمى بخشند آبى   بزورو زر ميسر نيست اين كار

﴿قاتلوا﴾ [بكشيدى اى مؤمنان وكارزار كنيد] ﴿الذين﴾ [با آنا نكه] ﴿لا يؤمنون بالله﴾ كما ينبغي فإن اليهود مثنية والنصارى مثلثة فإيمانهم بالله كلا إيمان ﴿ولا باليوم الآخر﴾ كما ينبغي فإن اليهود ذهبوا إلى نفي الأكل والشرب في الجنة والنصارى إلى إثبات المعاد الروحاني فعلمهم بأحوال الآخرة كلا علم، فكذا إيمانهم المبني عليه ليس بإيمان والمؤمن الكامل هو الذي يصف الله تعالى بما يليق به فيوحده وينزهه ويثبت المعاد الجسماني والروحاني كليهما، والنعيم الصوري والمعنوي أيضاً فإن لكل من الجسم والروح حظاً من النعيم يليق بحاله ويناسب لمقامه. ﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ أي: ما ثبت تحريمه بالوحي المتلو هو الكتاب أو غير المتلو وهو السنة وذلك مثل الدم الميتة ولحم الخنزير والخمر ونظائرها. ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ يجوز أن يكون مصدر يدينون وأن يكون مفعولاً به ويدينون بمعنى يعتقدون ويقبلون، والحق صفة مشبهة بمعنى الثابت وإضافة الدين إليه من قبيل إضافة الموصوف إلى صفته وأصل الكلام ولا يدينون الدين الحق وهو دين الإسلام فإنه دين ثابت نسخ جميع ما سواه من الأديان.

وعن قتادة أن الحق هو الله تعالى. والمعنى ولا يدينون دين الله الذي هو الإسلام فإن الدين عند الله الإسلام. ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ من التوراة والإنجيل وهو بيان للذين لا يؤمنون. ﴿حتى﴾ للغاية ﴿يعطوا﴾ أي: يقبلوا أن يعطوا فإن غاية القتال ليست نفس هذا الإعطاء بل قبوله ﴿الجزية﴾ فعلة من جزى دينه إذا قضاه سمي ما يعطيه المعاهد مما تقرر عليه بمقتضى عهده جزية لوجوب قضائه عليه أو لأنها تجزي عن الذمي، أي: تقضي وتكفي عن القتل فإنه إذا قبلها يسقط عنه القتل. ﴿عن يد﴾ حال من الضمير في يعطوا، أي: عن يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدي غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه أو عن يد مطيعة غير ممتنعة، أي: منقادين مطيعين فإذا احتيج في أخذها منهم إلى الجبر والإكراه لا يبقى عقد الذمة بل يعود حكم القتل والقتال فالإعطاء عن يد كناية عن الانقياد والطوع يقال أعطى فلان بيده إذا استسلم وانقاد، وعلاقة المجاز أن من أبى وامتنع لا يعطي بيده بخلاف المطيع أو عن غنى، ولذلك قيل: لم تجب الجزية على الفقير العاجز عن الكسب أو عن إنعام عليه، فإن إبقاء مهجتهم بما بذلوا من الجزية نعمة عظيمة عليهم أو عن يد قاهرة مستولية عليهم وهي يد الآخذ فعن سببية كما في قولك يسمنون عن الأكل والشرب أي يبلغون إلى غاية السمن وحسن الهيئة بسبب الأكل والشرب. ﴿وهم صاغرون﴾ أي: أذلاء وذلك بأن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ويؤخذ بتلبيبه أي بجيبه ويجر ويقال له أد الجزية يا ذمي أو يا عدو الله وإن كانوا يؤدونها.

واعلم أن الكفار ثلاثة أنواع.

نوع منهم يقاتلون حتى يسلموا؛ إذ لا يقبل منهم إلا الإسلام وهم مشركو العرب والمرتدون، أما مشركو العرب: فلأن النبي عليه السلام بعث منهم فظهرت المعجزات لديهم فكفرهم يكون أفحش، وأما المرتدون: فلأنهم عدلوا عن دين الحق بعد اطلاعهم على محاسنه

فيكون كفرهم أقبح فالعقوبة على قدر الجناية وفي وضع الجزية تخفيف لهم فلم يستحقوه.

ونوع آخر يقاتلون حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وهم اليهود والنصارى والمجوس. أما اليهود والنصارى فبهذه الآية. وأما المجوس فبقوله عليه السلام: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم وآكلي ذبحائهم».

والنوع الثالث: منهم الكفرة الذين ليسوا مجوساً ولا أهل كتاب ولا من مشركي العرب كعبدة الأوثان من الترك والهند ذهب أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله إلى جواز أخذ الجزية منهم لجواز اجتماع الدينين في غير جزيرة العرب وهم من غير العرب ومقدارها على الفقير المعتمل اثنا عشر درهماً في كل شهر درهم هذا إذا كان في أكثر الحول صحيحاً أما إذا كان في أكثره أو نصفه مريضاً فلا جزية عليه وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهماً في كل شهر درهمان وعلى الغني ثمانية وأربعون درهماً في كل شهر أربعة دراهم ولا شيء على فقير عاجز عن الكسب ولا على شيخ فانٍ أو زمن أو مقعد أو أعمى أو صبي أو امرأة أو راهب لا يخالط الناس وإنما لم توضع عليهم الجزية لأن الجزية شرعت زجراً عن الكفر وحملاً له على الإسلام فيجري مجرى القتل فمن لا يعاقب بالقتل وهم هؤلاء لا يؤاخذ بالجزية لأن الجزية خلف من القتال وهم ليسوا بأهله فإذا حصل الزاجر في حق المقاتلة وهم الأصل انزجر التبع.

قال الحدادي: أما طعن الملحدة كيف يجوز إقدار الكفار على كفرهم بأداء الجزية بدلاً من الإسلام.

فالجواب أنه لا يجوز أن يكون أخذ الجزية منهم رضى بكفرهم وإنما الجزية عقوبة لهم على إقامتهم على الكفر وإذا جاز إمهالهم بغير الجزية للاستدعاء إلى الإيمان كان إمهالهم بالجزية أولى انتهى.

فعلى الولاة والمتسلمين أن لا يتعدوا ما حد الله تعالى في كتابه فإن الظلم لا يجوز مطلقاً ويعود وباله على الظالم بل يسري إلى غيره أيضاً وفي الحديث «خمس بخمس إذا أكل الربا كان الخسف والزلزلة، وإذا جار الحكام قحط المطر، وإذا ظهر الزنى كثر الموت، وإذا منعت الزكاة هلكت الماشية، وإذا تعدى على أهل الذمة كانت الدولة لهم» كذا في «الأسرار المحمدية» لابن فخر الدين الرومي. وفي «المثنوي»:

جمله دانند اين اكر تونكروى هرچه مى كاريش روزى بدروى

يقول: الفقير رأينا من السنة الرابعة والتسعين بعد الألف إلى هذا الآن وهي السنة الأولى بعد المائة والألف من استيلاء الكفار على البلاد الرومية، وعلى البحر الأسود والأبيض ما لم يره أحد قبلنا ولا يدري أحد ماذا يكون غداً والأمر بيد الله تعالى وذلك بسبب الظلم المفرط على أهل الإسلام وأهل الذمة الساكنين في تلك الديار فعاد الصغار، والذل من الكفار إلى المسلمين الكاذبين فصاروا هم صاغرين والعياذ بالله تعالى وليس الخبر كالمعاينة نسأل الله تعالى اللحوق بأهل الحق والدخول في الأرض المقدسة.

ثم إن مما حرم الله على أهل الحق الدنيا ومحبتها فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة والكفار لما قصروا أنظارهم على الدنيا وأخذوها بدلاً من الآخرة وضعت عليهم الجزية وجزية النفس الأمارة معاملاتها على خلاف طبعها لتكون صاغرة ذليلة تحت أحكام الشرع وآداب الطريقة فلا بد من جهادها وتذليلها ليعود العز والدولة إلى طرف الروح. وفي «المثنوي»:

آنچه در فرعون بود اندر توهست ليك اژدرهات محبوس چهست
آتشت را هيزم فرعون نيست زانكه چون فرعون اوراعون نيست

فهذه حال النفس فلا بد من قهرها إلى أن تفنى عن دعواها وإسناد العز إليها وعند ذلك تكون فانية مطمئنة مستسلمة لأمر الله منقادة مسخرة تحت حكمه.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿**وقالت اليهود عزير ابن الله**﴾ يقرأ بالتنوين على أن عزير مبتدأ وابن خبره ولم يحذف التنوين إيذاناً بأن الأول مبتدأ وأن ما بعده خبره وليس بصفة [وعزير بن شرحيا ازنسل يعقوبست ازسبط لاوى وبچهارده پشت بهارون بن عمران ميرسد] وهو قول قدمائهم ثم انقطع فحكى الله تعالى عنهم ذلك ولا عبرة بإنكار اليهود.

وفي «البحر»: وتذم طائفة أو تمدح بصدور ما يناسب ذلك من بعضهم. روي أن بخت نصر البابلي لما ظهر على بني إسرائيل قتل علماءهم ولم يبق فيهم أحد يعرف التوراة وكان عزير إذ ذاك صغيراً فاستصغره فلم يقتله وذهب به إلى بابل مع جملة من أخذه من سبايا بني إسرائيل فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل بدير هرقل على شط دجلة فطاف في القرية فلم ير فيها أحداً وعامة شجرها حامل فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زق فلما رأى خراب القرية وهلاكها، قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] قالها تعجباً لا شكاً في البعث فألقى الله تعالى عليه النوم ونزع منه الروح وبقي ميتاً مائة عام وأمات حماره وعصيره وتينه عنده وأعمى الله تعالى عنه العيون فلم يره أحد ثم إنه تعالى أحياه بعدما أماته مائة سنة وأحيا حماره أيضاً فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر هو أيضاً الناس ومنازله فتتبع أهله وقومه فوجد ابناً له شيخاً ابن مائة سنة وثماني عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فوجد من دونهم عجوزاً عمياء مقعدة أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة لهم وقد كان خرج عزير عنهم هي بنت عشرين سنة، فقال لهم: أنا عزير كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني قالت العجوز إن عزيراً كان مستجاب الدعوة يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية فادع الله يرد إليّ بصري حتى أراك فإن كنت عزيراً عرفتك فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحت وأخذ بيدها وقال لها قومي بإذن الله تعالى فأطلق رجلها فقامت صحيحة فنظرت فقالت أشهد أنك عزير وقال ابنه كان لأبي شامة مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير.

قال السدي والكلبي: لما رجع عزير إلى قومه وقد أحرق بخت نصر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلق بكى عزير على التوراة فأتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فمثلت التوراة في صدره، فقال لبني إسرائيل: يا قوم إن الله بعثني إليكم لأجدد لكم توراتكم قالوا فأملها علينا فأملاها عليهم من ظهر قلبه ثم إن رجلاً قال إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم كذا فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير

فلم يجدوه غادر منها حرفاً فقالوا إن الله تعالى لم يقذف التوراة في قلب رجل إلا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود المتقدمون عزير ابن الله. ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه استحالة؛ لأن يكون ولد بلا أب أو لأن يفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن إلهاً. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمتين ﴿قولهم بأفواههم﴾ أي: ليس فيه برهان ولا حجة وإنما هو قول بالفم فقط كالمهمل.

قال الحدادي: معناه أنهم لا يتجاوزون في هذا القول عن العبارة إلى المعنى: إذ لا برهان لهم لأنهم يعترفون أن الله لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولداً. ﴿يضاهئون﴾ أي يضاهي ويشابه قولهم في الكفر والشناعة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً. ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ أي: من قبلهم وهم المشركون الذين يقولون الملائكة بنات الله أو اللات والعزى بنات الله. ﴿قاتلهم الله﴾ دعاء عليهم جميعاً بالإهلاك فإن من قاتله الله هلك، فهو من قبيل ذكر الملزوم وإرادة اللازم لتعذر إرادة الحقيقة، ويجوز أن يكون تعجباً من شناعة قولهم من قطع النظر عن العلاقة المصححة للانتقال من المعنى الأصلي إلى المعنى المراد. ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يصرفون من الحق إلى الباطل والحال أنه لا سبيل إليه أصلاً والاستفهام بطريق التعجب. ﴿اتخذوا﴾ أي: اليهود ﴿أحبارهم﴾ أي: علماءهم هم جمع حبر بالكسر وهو أفصح وسمي العالم حبراً لكثرة كتابته بالحبر أو لتحبره المعاني أو بالبيان الحسن وغلب في علماء اليهود من أولاد هارون. ﴿ورهبانهم﴾ أي: اتخذوا النصارى علماءهم جمع راهب وهو الذي تمكنت الرهبة والخشية في قلبه وظهرت آثارها في وجهه ولسانه وهيئته وغلب في عباد النصارى وأصحاب الصوامع منهم. ﴿أرباباً من دون الله﴾ أي: كالأرباب فهو من باب التشبيه البليغ. والمعنى أطاعوا علماءهم وعبادهم فيما أمروهم به طاعة العبيد للأرباب فحرموا ما أحل الله وحللوا ما حرم الله، وفي الحديث: «إن محرم الحلال كمحلل الحرام» أي: أن عقوبة محرم الحلال كعقوبة محلل الحرام وذلك كفر محض ومثاله أن من اعتقد أن اللبن حرام يكون كمن اعتقد أن الخمر حلال ومن اعتقد أن لحم الغنم حرام يكون كمن اعتقد أن لحم الخنزير حلال. ﴿والمسيح ابن مريم﴾ عطف على رهبانهم أي اتخذه النصارى رباً معبوداً بعد ما قالوا إنه ابن الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً وجمع اليهود والنصارى في ضمير اتخذوا لأمن اللبس ﴿وما أمروا﴾ أي: والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا في التوراة والإنجيل وبادىء العقل. ﴿إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ عظيم الشأن هو الله تعالى ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه فإن ذلك مخل بعبادته فإن جميع الكتب السماوية متفقة على ذلك قاطبة، وأما إطاعة الرسول وسائر من أمر الله بطاعته فهي في الحقيقة إطاعة الله تعالى. ﴿لا إله إلا هو﴾ صفة ثانية لا لها ﴿سبحانه عما يشركون﴾ ما مصدرية، أي: تنزيهاً عن الإشراك به في العبادة والطاعة.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿يريدون﴾ أي: يريد أهل الكتابين، ﴿أن يطفئوا﴾ يخمدوا ﴿نور الله﴾ أي: يردوا القرآن ويكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والأولاد والشرائع التي من جملتها ما

خالفوه من أمر الحل والحرمة. ﴿بأفواههم﴾ بأقاويلهم الباطلة الخارجة منها من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه وأصل تستند إليه حسبما حكي عنهم. ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ إنما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفي أي لا يريد الله شيئاً من الأشياء إلا إتمام نوره بإعلاء كلمة التوحيد وإعزاز دين الإسلام. ﴿ولو كره الكافرون﴾ جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة قبلها مقدرة كلتاهما في موقع الحال، أي: لا يريد الله إلا إتمام نوره ولو لم يكره الكافرون ذلك بل ولو كرهوا أي على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى في الباب حذفاً مطرداً لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة لأن الشيء إذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى.

چراغى راكه ايزد بر فروزد كسى كش پف كند سبلت بسوزد

﴿هو الذي﴾ أي: الذي لا يريد شيئاً إلا إتمام نوره ودينه هو الذي ﴿أرسل رسوله﴾ ملتبساً ﴿بالهدى﴾ أي: القرآن الذي هو هدى للمتقين. ﴿ودين الحق﴾ أي: الدين الحق وهو دين الإسلام ﴿ليظهره﴾ أي: ليغلب الرسول. ﴿على الدين كله﴾ أي: على أهل الأديان كلهم فالمضاف محذوف أو ليظهر الدين الحق على سائر الأديان بنسخه إياها حسبما تقتضيه الحكمة واللام في ليظهره لإثبات السبب الموجب للإرسال، فهذه اللام لام الحكمة، والسبب شرعاً ولام العلة عقلاً لأن أفعال الله تعالى ليست بمعللة بالأغراض عند الأشاعرة لكنها مستتبعة لغايات جليلة، فنزل ترتب الغاية على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له. ﴿ولو كره المشركون﴾ ذلك الإظهار ووصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الكفر بالله.

قال ابن الشيخ: وغلبة دين الحق على سائر الأديان تكون على التزايد أبداً وتتم عند نزول عيسى عليه السلام لما روي أن رسول الله ﷺ قال في نزول عيسى «ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام» وقيل ذلك عند خروج المهدي فإنه حينئذٍ لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام والتزم أداء الخراج، وفي الحديث: «لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الدنيا إلا إدباراً ولا الناس إلا شحاً ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ولا مهدي إلا عيسى ابن مريم» ومعناه لا يكون أحد صاحب المهدي إلا عيسى بن مريم فإنه ينزل لنصرته وصحبته والمهدي الذي من عترة النبي عليه السلام إمام عادل ليس بنبي ولا رسول، والفرق بينهما أن عيسى هو المهدي المرسل الموحى إليه والمهدي ليس بنبي موحى إليه وأيضاً أن عيسى خاتم الولاية المطلقة والمهدي خاتم الخلافة المطلقة وكل منهما يخدم هذا الدين الذي هو خير الأديان وأحبها إلى الله تعالى.

وعن بعض الروم، قال: كان سبب إسلامي أنه غزانا المسلمون فكنت أساير جيشهم فوجدت غزاة في الساقة فأسرت نحو عشرة نفر وحملتهم على البغال بعد أن قيدتهم وجعلت مع كل واحد منهم رجلاً موكلاً به، فرأيت في بعض الأيام رجلاً من الأسرى يصلي فقلت للموكل به في ذلك، فقال لي: إنه في كل وقت صلاة يدفع إليّ ديناراً، فقلت: وهل معه شيء؟ قال: لا ولكنه إذا فرغ من صلاته ضرب بيده إلى الأرض ودفع لي ذلك، فلما كان الغد لبست ثوباً خلقاً وركبت فرساً دوناً وسرت مع الموكل لأتعرف صحة ذلك، فلما دنا وقت صلاة الظهر أومى إلي أن يدفع لي ديناراً حتى أتركه يصلي فأشرت إليه إني لا آخذ إلا دينارين، فأومى برأسه نعم فلما فرغ من صلاته رأيته قد ضرب بيده إلى الأرض فدفع إليّ منها دينارين،

فلما كان وقت العصر أشار كالمرة الأولى فأشرت إليه إني لا آخذ إلا خمسة دنانير، فأشار إليّ بالإجابة فلما فرغ من صلاته فعل كفعله الأول فدفع إليّ خمسة دنانير، فلما كان وقت المغرب أشار كذلك فقلت لا آخذ إلا عشرة فأجابني، فلما صلى فعل كما تقدم فدفع إليّ عشرة فلما نزلنا وأصبحنا دعوت به وسألته عن خبره وخيرته في رجوعه إلى بلاد الإسلام فاختار الرجوع فأركبته بغلاً ودفعت له زاداً وحملته بنفسي على البغل، فقال: أماتك الله تعالى على أحب الأديان إليه، فوقع في قلبي من ذلك الوقت الإسلام.

فعلى المؤمن المخلص أن يعظم الرسول الذي أرسله الله بهذا الدين الحق، وقد عظمه الله ورفع ذكره وكتب اسمه على صفحات الكون.

قال بعض الشيوخ: دخلت بلاد الهند فوصلت إلى مدينة رأيت فيها شجرة تحمل ثمراً يشبه اللوز له قشرة فإذا كسرت خرجت منها ورقة خضراء مطوية مكتوب عليها بالحمرة لا إله إلا الله محمد رسول الله كتابة هندية، وأهل الهند يتبركون بها ويستسقون بها إذا منعوا الغيث ويتضرعون عندها، فحدثت بهذا الحديث أبا يعقوب الصياد، فقال لي: ما أستعظم هذا كنت بالأيلة فاصطدت سمكة مكتوب على أذنها اليمنى لا إله إلا الله، وعلى اليسرى محمد رسول الله، فقذفت بها إلى الماء وإنما قذف بها احتراماً لها لما عليها من اسم الله تعالى واسم رسوله عليه السلام.

شهباز هواى قاب قوسين پرشد زتو آشيان كونين

وفي الحديث: «لا تجعلوني كقدح الراكب» أي لا تنسوني في حالة الشدة والرخاء «ولا تذكروني كصنيع الراكب مع قدحه المعلق في مؤخر رحله، إذا احتاج إليه من العطش استعمله وإذا لم يحتج إليه تركه» وقيل لا تجعلوني في آخر الدعاء فإن اللائق أن يذكر اسمه الشريف أولاً وآخراً ويجعل الدعاء له عنوان الأدعية.

هر چند شد آخرين مقدم شد بر همه نورتو مقدم

جعلنا الله وإياكم من خدام عتبة بابه والمتقربين بكل وسيلة إلى عالي جنابه.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار﴾ أي: علماء اليهود وهم من ولد هارون. **﴿والرهبان﴾** وهم: أصحاب الصوامع من النصارى جمع راهب وقد سبق. **﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾** يأخذونها بطريق الرشوة لتغيير الأحكام والشرائع والتخفيف والمسامحة فيها ويوهمون الناس أنهم حذاق مهرة في تأويل الآية وبيان مراد الله تعالى منها.

يقول الفقير: وهكذا يفعل المفتون الماجنون والقضاة الجائرون في هذا الزمان يفتون على مراد المستفتي طمعاً لماله ويقضون بمرجوح الأقوال بل على خلاف الشرح ويرون أن لهم في ذلك سنداً قوياً قاتلهم الله، وإنما عبر عن الأخذ بالأكل مع أن المذموم منهم مجرد أخذها بالباطل أي بطريق الارتشاء سواء أكلوا ما أخذوه، أو لم يأكلوا بناء على أن الأكل معظم

الغرض من الأخذ. ﴿ويصدون﴾ أي: يمنعون الناس ﴿عن سبيل الله﴾ عن دين الإسلام أو يعرضون عنه بأنفسهم بأكلهم الأموال بالباطل. ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ أي: يجمعونهما ويحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن أو بوجه آخر والكنز في كلام العرب هو الجمع وكل شيء جمع بعضه إلى بعض فهو مكنوز يقال هذا جسم مكتنز الأجزاء إذا كان مجتمع الأجزاء، وسمي الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى وسميت فضة لأنها تنفض، أي: تتفرق ولا تبقى وحسبك بالاسمين دلالة على فنائهما وأنه لا بقاء لهما. يقال لما خرج آدم عليه السلام من الجنة بكى له كل شيء فيها إلا شجرة العود والذهب والفضة فقال الله تعالى لو كان في قلوبكم رأفة لبكيتم من خوفي ولكن من قسا قلبه أحرقته بالنار وعزتي وجلالي لا يصاغ منكم حلقة ولا دينار ولا درهم ولا سوار إلا بتوقد النار وأنت يا شجرة العود لا تبرحي في النار والأحزان إلى يوم القيامة. ثم المراد بالموصول ما يعم الكثير من الأحبار والرهبان وغيرهم من المسلمين الكانزين الغير المنفقين وهو مبتدأ خبره فبشرهم. ﴿ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ أي: لا ينفقون منها، أي يؤدون زكاتها ولا يخرجون حق الله منها فحذف من وأريد إثباتها بدليل قوله تعالى في آية أخرى. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال عليه السلام: «في مائتي درهم خمسة دراهم وفي عشرين مثقالاً من الذهب نصف مثقال» ولو كان الواجب إنفاق جميع المال لم يكن لهذا التقدير وجه كما في «تفسير الحدادي».

وإنما قيل: ﴿ولا ينفقونها﴾ مع أن المذكور شيئان لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة، وقيل الضمير يعود على الأموال أو على الكنوز المدلول عليها بالفعل أو على الفضة لكونها أقرب فاكتفى ببيان أحدهما عن بيان الآخر ليعلم بذلك، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١] وكذا الكلام في قوله: ﴿عليها﴾ الآتي. ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وضع الوعيد لهم بالعذاب موضع البشارة بالتنعم لغيرهم. ﴿يوم﴾ منصوب بعذاب. ﴿يحمى عليها في نار جهنم﴾ يقال: حميت النار أي اشتدت حرارتها أي يوم توقد النار الحامية أي الشديدة الحرارة على تلك الدنانير والدراهم وعليها في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل. ﴿فتكوى﴾ [پس داغ كرده شود] ﴿بها﴾ [بدان دينارها ودرمهاى سوزان] ﴿جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ وإنما تكوى هذه الأعضاء دون غيرها لأن الغني إذا رأى الفقير الطالب للزكاة كان يعبس جبهته، وإذا بالغ في السؤال يعرض عنه بجنبه، وإذا بالغ يقوم من موضعه ويولي ظهره ولم يعطه شيئاً غالباً، أو لأن مقصود الكانز من جميع المال لما كان طلب الوجاهة بالغنى تعلق الكي بأعلى وجهه وهو الجبهة ولما قصد به أيضاً التنعم بالمطاعم الشهية التي ينتفخ بسببها جنباه وبالملابس البهية التي يلقيها على ظهره تعلق الكي بالجنوب والظهور أيضاً. ﴿هذا ما كنزتم﴾ أي: يقال لهم حين الكي في ذلك اليوم هذا ما جمعتم في دار الدنيا. ﴿لأنفسكم﴾ أي: لمنفعتها فكان عين مضرتها وسبب تعذيبها. ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أي: وبال كنزكم فما مصدرية والمضاف محذوف لأن المعنى المصدري ليس بمذوق وإنما يذاق وباله وعذابه وإنما ذاقوه في الآخرة؛ لأنهم في الدنيا في منام الغفلة عن الآخرة والنائم لا يذوق ألم الكي في النوم وإنما يذوقه عند الانتباه والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

مردمان غافلند از عقبى … همه كويا بخفتكان مانند
ضرر غفلتى كه مى ورزند … چون بميرند آنكهى دانند

[درا مالى امام ظهير الدين ولو اجى مذكور راست كه. اكرديكران خزينه• مال كننند توخزانه• اعمال كن. واكر ديكران كنوز أعراض فانية جويند تو رموز أسرار باقيه جوى].

يكدرم كان دهى بدرويشى بهتراز كنجهاى مدخرست
زانچه دارى تمتعى بر دار كان دكر روزى كسى دكرست

وفي الحديث: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليها في نار جهنم، فتجعل صفائح فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر تستن عليه بقوائمها وأخفافها» أي ترفع يديها «وتطرحهما معاً على صاحبها كلما مضى عليه آخرها رد عليه أولها حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر تطأه بأظلافها وتنطحه بقرونها ليس فيها جماع ولا منكسر قرنها كلما مضى عليه آخرها رد عليه أولها حتى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

واعلم أن الزكاة شكر لنعمة المال كما أن الصوم والصلاة، والحج شكر لنعمة الأعضاء، ولذا صارت صلاة الضحى شكراً لنعمة ثلاثمائة وستين مفصلاً في البدن، وهي، أي: الزكاة تمليك خمسة دراهم في مائتين للفقير المسلم لله تعالى ولرضاه، فالتمليك رجاء للعوض ليس بزكاة وعائل يتيم لو أطعمه من زكاته صح خلافاً لمحمد لوجود الركن وهو التمليك وهذا إذا سلم الطعام إليه وأما إذا لم يدفع إليه فلا يجوز لعدم التمليك، وهذا أيضاً إذا لم يستخدمه فلو دفع شيئاً من زكاته إلى خادمه الغير المملوك وجاء للعوض وهو خدمته لم يكن لله تعالى وهذا غافل عنه أكثر الناس ولو أنفق على أقاربه بنية الزكاة جاز إلا إذا حكم عليه بنفقتهم، قالوا: الأفضل في صرف الزكاة أن يصرفها إلى إخوته ثم أعمامه ثم أخواله ثم ذوي الأرحام ثم جيرانه ثم أهل سكنه ثم أهل مصره.

والفرق بين الزكاة وصدقة الفطر: أنه لا يجوز دفع الزكاة لذمي بخلاف صدقة الفطر ولا وقت لها ولصدقة الفطر وقت محدود يأثم بالتأخير عن اليوم الأول.

قال الفقهاء: افتراض الزكاة عمري وقيل فوري وعليه الفتوى فيأثم بتأخيرها وترد شهادته. أيّ رجل يستحب له إخفاؤها؟ فقل: الخائف من الظلمة حتى لا يعلموا كثرة ماله. أي رجل غني عند الإمام فلا تحل له فقير عند محمد فتحل له فقل من له دور يستغلها ولا يملك نصاباً فمن كان له دار لا تكون للسكنى ولا للتجارة وقيمتها تبلغ النصاب يجب بها صدقة الفطر دون الزكاة ولو اشترى زعفراناً ليجعله على كعك التجارة لا زكاة فيه ولو كان سمسماً وجبت والفرق أن الأول مستهلك دون الثاني والملح والحطب للطباخ والحرض والصابون للقصار والشب والقرظ للدباغ كالزعفران والعصفر والزعفران للصباغ كالسمسم كذا في «الأشباه» ثم المعتبر في الذهب والفضة الوزن وجوباً وأداء لا الذي يروج بين الناس من ضرب الأمير وجاز دفع القيمة في زكاة وكفارة غير الإعتاق وعشر ونذر وإذا قال الناذر على أن أتصدق اليوم بهذا الدرهم على هذا الفقير فتصدق غداً بدرهم آخر على غيره يجزئه عندنا ولا تؤخذ الزكاة من تركته بغير وصية وإن أوصى اعتبرت من الثلث والمريض إذا خاف من ورثته يخرجها سراً عنهم.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إن عدة الشهور﴾ العدة مصدر بمعنى العدد، أي: إن عدد الشهور التي تتعلق بها الأحكام الشرعية من الحج والعمرة والصوم والزكاة والأعياد وغيرها، وهي الشهور العربية القمرية التي تعتبر من الهلال إلى الهلال وهي تكون مرة ثلاثين يوماً ومرة تسعة وعشرين، ومدة السنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وثلث يوم دون الشهور الرومية والفارسية التي تكون تارة ثلاثين يوماً وتارة أحداً وثلاثين، ومدة السنة الشمسية: ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم، وللشمس اثنا عشر برجاً: تسير في كلها في سنة والقمر في كل شهر وهي: حمل ثور، جوزاء، سرطان، أسد، سنبلة، ميزان، عقرب، قوس، جدي، دلو، حوت.

واصطلحوا على أن جعلوا ابتداء السنة الشمسية من حين حلول مركز الشمس نقطة رأس الحمل إلى عودها إلى تلك النقطة؛ لأن الشمس إذا حلت هناك ظهر في النبات قوة ونشو ونماء وتغير الزمان من رثاثة الشتاء إلى نضارة الربيع واعتدل الزمان في كيفيتي الحر والبرد. ولما كانت السنة عند العرب عبارة عن اثني عشر شهراً من الشهور القمرية، وكانت السنة القمرية أقل من السنة الشمسية بمقدار وبسبب ذلك النقصان تنتقل الشهور القمرية من فصل إلى فصل كان الحج والصوم والفطر يقع تارة في الصيف وأخرى في الشتاء. ولما كانت عند سائر الطوائف عبارة عن مدة تدور فيها الشمس دورة تامة كانت أعيادهم وصومهم تقع في موسم واحد أبداً.
﴿عند الله﴾ أي في حكمه وهو ظرف لقوله: عدة. ﴿اثنا عشر﴾ خبر لأن ﴿شهراً﴾ تمييز مؤكد كما في قولك عندي من الدنانير عشرون ديناراً. ﴿في كتاب الله﴾ صفة لاثنا عشر والتقدير اثنا عشر شهراً مثبتة في كتابه وهو اللوح المحفوظ، وإنما قال: في كتاب الله لأن كثيراً من الأشياء توصف بأنها عند الله ولا يقال إنها في كتاب الله. ﴿يوم خلق السموات والأرض﴾ ظرف منصوب بما تعلق به قوله في كتاب الله، أي: مثبتة في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، أي: منذ خلق الأجرام اللطيفة والكثيفة، وإنما قال: ذلك لأن الله تعالى أجرى الشمس والقمر في السموات يوم خلق الله السموات والأرض فمبلغ عدد الشهور اثنا عشر من غير زيادة أولها المحرم وآخرها ذو الحجة وإنما خصت باثني عشر لأنهم كانوا ربما جعلوها ثلاثة عشر وذلك أنهم كانوا يؤخرون الحج في كل عامين من شهر إلى آخر ويجعلون الشهر الذي أنسؤوا فيه، أي: أخروا ملغى فتكون تلك السنة ثلاثة عشر شهراً ويكون العام الثاني على ما كان عليه الأول سوى أن الشهر الملغى في الأول لا يكون في العام الثاني وعلى هذا تمام الدورة فيستدير حجهم في كل خمس وعشرين سنة إلى الشهر الذي بدىء منه ولذا خرج الحساب من أيديهم وربما يحجون في بعض السنة في شهر ويحجون من قابل في غيره إلى أن كان العام الذي حج فيه رسول الله ﷺ فصادف حجهم ذا الحجة فوقف بعرفة يوم التاسع وأعلمهم بطلان النسيء كما سيجيء وهذه الشهور قد نظمها بعضهم بقوله:

چون محرم بكذرد آيد بنزد توصفر ... پس ربيعين وجمادين ورجب آيدبر
بازشعبا نست وماه صوم وعيد وذي القعد ... بعد ازان ذي الحجة نام ماهها آيدبسر

أما المحرم: فسمي بذلك لأنهم كانوا يحرمون القتال فيه حتى أن أحدهم كان يظفر بقاتل أبيه أو ابنه فلا يكلمه ولا يتعرض له. وأما صفر: فسمي بذلك لخلوهم من الطعام وخلو منازلهم من الزاد ولذلك كانوا يطلبون الميرة فيه ويرحلون لذلك يقال صفر السقاء إذا لم يكن فيه شيء والصفر الخالي من كل شيء كذا في «التبيان».

وقال في «شرح التقويم» سمي بذلك لخلوه عن التحريم الذي كان في المحرم. وأما الربيعان: فسميا بذلك؛ لأن العرب كانت تربع فيهما لكثرة الخصب فيهما. والربيع عند العرب اثنان ربيع الشهور وربيع الأزمنة. أما ربيع الشهور فهو شهران بعد صفر، أي ربيع الأول وربيع الآخر بتنوين ربيع على أن الأول صفته وكذا الآخر والإضافة غلط. وأما ربيع الأزمنة فهو أيضاً اثنان البيع الأول وهو الذي تأتي فيه الكماة والنور ويسمونه ربيع الكلاء والربيع الثاني وهو الفصل الذي تدرك فيه الثمار فربيعا الشهور لا يقال فيهما الأشهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر ليمتازا عن الربيعين في الأزمنة. وأما الجماديان: فسميا بذلك لأن الماء كان يجمد فيهما لشدة البرد فيهما كذا في «التبيان».

وقال في «شرح التقويم»: جمادى الأولى بضم الجيم وفتح الدال فعالى من الجمد بضم الجيم والميم وسكون الميم لغة فيه وهو المكان الصلب المرتفع الخشن، وإنما سمي بذلك لأن الزمان في أول وضع هذا الاسم كان حاراً والأمكنة في الصلابة والارتفاع والخشونة من تأثير الحرارة وجمادى الآخرة تالية للشهر المتقدم في المعنى المذكور.

قال ابن الكمال: جمادى الأولى والآخرة، فعالى كحبارى والدال مهملة والعوام يستعملونها بالمعجمة المكسورة ويصفونها بالأول فيكون فيها ثلاث تحريفات قلب المهملة معجمة والفتحة كسرة والتأنيث تذكيراً، وكذا جمادى الآخرة يقولون جمادى الآخر بلا تاء والصحيح الآخرة بالتاء أو الأخرى وهما معرفتان من أسماء الشهور فإدخال اللام في وصفهما صحيح. وكذا ربيع الأول وربيع الآخر في الشهور وأما ربيع الأزمنة فالربيع الأول باللام انتهى. وأما رجب: فسمي بذلك لأن العرب في الجاهلية كانوا يعظمونه ويتركون فيه القتال والمحاربة يقال رجبته بالكسر أي: عظمته والترجيب التعظيم وكانوا يسمونه رجب مضر وهو اسم قبيلة لكونه أشد تعظيماً له من بقية العرب ولذلك قال عليه السلام فيه: «رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» وإنما وصف رجب بقوله: الذي للتأكيد أو لبيان أن رجب الحرام هو الذي بينهما إلا ما كانوا يسمونه رجب على حساب النسيء أو يسمون رجب وشعبان رجبين فيغلبون رجب عليه وربما يقال شعبانان تغليباً له على رجب. وأما شعبان: فسمي بذلك لأنهم كانوا يتفرقون ويتشعبون من التشعيب وهو التفريق. وأما رمضان: فسمي بذلك لشدة الحر الذي كان يكون فيه حتى ترمض الفصال كما قيل للشهر الذي يحج فيه ذو الحجة.

قال في «شرح التقويم»: الرمض شدة وقع الشمس على الرمل وغيره وسبب تسمية هذا الشهر بهذا الاسم أن العرب كانت تسمي الشهور بلوازم الأزمنة التي كانت الشهور واقعة فيها وكانت اللوازم وقت التسمية ههنا رمض الحر أي شدته انتهى. وقيل سمي رمضان لأنه ترمض فيه الذنوب رمضاً أي تغفر. وكان مجاهد يكره أن يقول رمضان ويقول لعله اسم من أسماء الله فالوجه أن يقال شهر رمضان لما روي «لا تقولوا جاء رمضان وذهب رمضان ولكن قولوا جاء شهر رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى» على ما في «التيسير».

قال في «التلويح»: العلم هو شهر رمضان بالإضافة ورمضان محمول على الحذف للتخفيف ذكره في «الكشاف» وذلك لأنه لو كان رمضان علماً لكان شهر رمضان بمنزلة إنسان زيد ولا يخفى قبحه ولهذا كثر في كلام العرب شهر رمضان ولم يسمع شهر رجب وشهر شعبان على الإضافة انتهى.

قال المولى حسن چلبي: قد يمنع القبح بأن الإضافة البيانية شائعة عرفاً فلا مجال لاستقباحها بعد أن تكون مطردة انتهى. وأما شوال: فسمي بذلك لأنه يشول الذنوب أي يرفعها ويذهبها لأنه من شال يشول إذا رفع الشيء ومن ذلك قولهم شالت الناقة بذنبها أي رفعته إذا طلبت الضراب كذا في «التبيان».

وقال في «شرح التقويم»: هو من الشول وهو الخفة من الحرارة في العمل والخدمة وإنما سمي بذلك لخروج الإنسان فيه عن مخالفة النفس الأمارة وقمع شهواتها اللذين كانا في الإنسان في رمضان بإطلاق طوع المستلذات والمشتهيات فعند خروجه عن ذلك كان يجد خفة في نفسه ويستريح. وأما ذو القعدة: فسمي بذلك لأنهم كانوا يقعدون فيه لكثرة الخصب فيه أو يقعدون عن القتال.

قال في «شرح التقويم»: إنما سمي هذا الشهر بهذا الاسم لأنه زمان يحصل فيه قعود مكة. والقعدة بفتح القاف وسكون العين المهملة.

قال ابن ملك: قولهم (ذو القعدة وذو الحجة) يجوز فيهما فتح القاف والحاء وكسرهما لكن المشهور في القعدة الفتح وفي الحجة الكسر. وأما ذو الحجة فسمي بذلك لأنهم كانوا يحجون فيه.

وقال في كتاب «عقد الدرر واللآلي في فضائل الأيام والشهور والليالي» تكلم بعض أهل العلم على معاني أسماء الشهور، فقال: كانت العرب إذا رأوا السادات تركوا العادات وحرموا الغارات قالوا المحرم، وإذا مرضت أبدانهم وضعفت أركانهم واصفرت ألوانهم قالوا صفر، وإذا نبتت الرياحين واخضرت البساتين قالوا ربيعين، وإذا قلت الثمار وبرد الهواء وانجمد الماء قالوا جماديين، وإذا ماجت البحار وجرت الأنهار ورجبت الأشجار قالوا رجب، وإذا تشعبت القبائل وانقطعت الوسائل قالوا شعبان، وإذا حر الفضاء ورمضت الرمضاء قالوا رمضان، وإذا ارتفع التراب وكثر الذباب وشالت الإبل الأذناب قالوا شوال، وإذا رأوا التجار قعدوا من الأسفار والمماليك والأحرار قالوا: ذو القعدة، وإذا قصدوا الحج من كل فج ووج وكثر العج والثج قالوا ذو الحجة. انتهى ﴿منها﴾ أي: من تلك الشهور الاثني عشر. ﴿أربعة حرم﴾ واحد فرد وهو رجب وثلاثة سرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. والحرم: بضمتين جمع الحرام، أي: أربعة أشهر حرم يحرم فيها القتال جعلت أنفس الأشهر حرماً لكونها أزمنة لحرمة ما حل فيها من القتال وهو من قبيل إسناد الحكم إلى ظرفه إسناداً مجازياً وأجزاء الزمان وإن كانت متشابهة في الحقيقة إلا أنه تعالى له أن يميز بعض الأمور المتشابهة بمزيد حرمة لم يجعلها في البعض الآخر. كما ميز يوم الجمعة، ويوم عرفة بحرمة لم يجعلها في سائر الأيام حيث خصهما بعبادة مخصوصة تميزا بها عن سائر الأيام، وكذا ميز شهر رمضان عن سائر الشهور بمزيد حرمة لم يجعلها لسائر الشهور. وميز بعض ساعات الليل والنهار بأن جعلها أوقاتاً لوجوب الصلاة فيها، وكما ميز الأماكن والبلدان وفضلها على سائرها كالبلد الحرام والمسجد

الحرام فخص الله تعالى بعض الأوقات وبعض الأماكن بمزيد التعظيم والاحترام فلا بعد في تخصيص بعض الأشهر بمزيد الحرمة بأن جعل انتهاك المحارم فيها أشد وأعظم من انتهاكها في سائر الأشهر ويضاعف فيها السيئات بتكثير عقوباتها ويضاعف فيها الحسنات بتكثير مثوباتها.

وفي «أسئلة الحكم»: فضل الأشهر والأيام والأوقات بعضها على بعض كما فضل الرسل والأمم بعضها على بعض لتبادر النفوس وتسارع القلوب إلى إدراكها واحترامها وتتشوق الأرواح إلى إحيائها بالتعبد فيها ويرغب الخلق في فضائلها، وأما تضاعف الحسنات في بعضها فمن المواهب اللدنية والاختصاصات الربانية.

وفي «الأسرار المحمدية»: إن الله تعالى إذا أحب عبداً استعمله في الأوقات الفاضلات بفواضل الأعمال الصالحات وإذا مقته والعياذ بالله شتت همه واستعمله بسيىء الأعمال وأوجع في عقوبته وأشد لمقته بحرمان بركة الوقت وانتهاك حرمته فليبذل المريد كل وسعه حتى لا يغفل عنها أي عن الأوقات الفاضلة، فإنها موسم الخيرات ومظانّ التجارات ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح ومتى غفل عن فضائل الأوقات لم تنجح دع التكاسل تغنم قد جرى مثل [كه زاد راهروان جستيست وچالاكى].

واتفق أهل العلم على أفضلية شهر رمضان لأنه أنزل فيه القرآن، ثم شهر ربيع الأول لأنه مولد حبيب الرحمن، ثم رجب لأنه فرد أشهر الحرم، ثم شعبان لأنه شهر حبيب الرحمن مقسم الأعمال والآجال بين شهرين عظيمين رجب ورمضان ففيه فضل الجوارين العظيمين ليس لغيره. ثم ذو الحجة لأنه موطن الحج والعشر التي تعادل كل ليلة منها ليلة القدر، ثم المحرم شهر الأنبياء عليهم السلام ورأس السنة وأحد الأشهر الحرم ثم الأقرب إلى أفضل الأشهر من وجوه ﴿ذلك﴾ أي: تحريم الأشهر الأربعة المعينة هو ﴿الدين القيم﴾ المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام والعرب ورثوه منهما حتى أحدثت النسيء فغيروا ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم فيهن.

قال في «التبيان»: قال في الاثني عشر منها فوحد الضمير لأنه للكثرة. وقال في الأربعة فيهن فجمع الضمير لأنه للقلة وسببه أن الضمير في القلة للمؤنث يرجع بالهاء والنون وفي الكثرة يرجع بالهاء والألف للفرق بين القلة والكثرة والجمهور على أن حرمة القتال فيهن منسوخة وأوّلوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهن فإنه أعظم وزراً كارتكابها في الحرم وخلال الإحرام يعني أن هذه الأشهر الأربعة خصت بالنهي عن ظلم النفس فيها مع أن الظلم حرام في كل وقت لبيان أن الظلم فيها أغلظ كأنه قيل فلا تظلموا فيهن خصوصاً أنفسكم. ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ مصدر كف فإن مصدر الثلاثي قد يجيء على فاعلة نحو عافية ومعناه معنى كل وجميع وهو منصوب على الحال إما من الفاعل وهو الواو، فالمعنى قاتلوا جميعاً المشركين أي مجتمعين على قتالهم متعاونين متناصرين ومن التعاون الدعاء بالنصرة إذ هو سلاح معنوي كما أن السيف سلاح صوري فمن تأخر ودعا فقلبه مجتمع بمن أقدم وغزا إذ التفرق الصوري لا يقدح في الاجتماع المعنوي. كما قال الحافظ:

در راه عشق مرحلهٔ قرب وبعد نيست   مى بينمت عيان ودعا مى فرستمت

﴿كما يقاتلونكم كافة﴾ كذلك، أي: مجتمعين وإما من المفعول فالمعنى قاتلوا المشركين جميعاً أي بكليتهم ولا تتركوا القتال مع بعضهم كما أنهم يستحلون قتال جميعكم

وإما منهما معاً نحو ضرب زيد عمراً قائمين، فإن المصدر عام للتثنية والجمع، فجميع المؤمنين يقاتل جميع الكافرين ويجوز أن يكون منصوباً على الظرف، أي: في الحل والحرم وفي جميع الأزمان في الأشهر الحرم وفي غيرها وإلى الأبد فإن الجهاد مستمر إلى آخر الزمان، ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي معكم بالنصر والإمداد فيما تباشرون من القتال وإنما وضع المظهر موضعه مدحاً لهم بالتقوى وحثاً للقاصرين عليه وإيذاناً بأنه المدار في النصر كذا في «الإرشاد».

وقال القاضي: هي بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم فإن السلاح والدعاء لا ينفذان إلا بالتقوى على مراتبها فكلمة التقوى هي كلمة الشهادة وبها يقي المؤمن نفسه وماله وعياله من التعرض في الدنيا ومن العذاب في العقبى، ثم إنها إذا قارنت بشرائطها الظاهرة والباطنة يحصل تقوى القلب وهو التخلي عن الأوصاف الذميمة ثم يحصل تقوى السر وهو التخلي عما سوى الله فمن كان لله كان الله له بالنصرة والإمداد.

واعلم: أن السيف سيفان سيف ظاهر وهو سيف الجهاد الصوري وسيف باطن وهو سيف الجهاد المعنوي فبالأول تنقطع عروق الكفرة الظاهرة الباغية، وبالثاني عروق القوى الباطنة الطاغية والأول بيد مظهر الاسم الظاهر وهو السلطان وجنوده والثاني بيد مظهر الاسم الباطن وهو القطب وجنوده فنسأل الله تعالى أن ينصر سلطاننا بالاسم الممد والناصر والمعين ويخذل أعداءنا بالاسم المنتقم والقهار وذي الجلال. وقد قال السعدي:

دعـاى ضعـيـفـان اميـدوار   زبـازوى مـردى بـه آيـد بـكـار

ففي الآية: حث على المجاهدة مع الأعداء وفي الحديث: «القتل في سبيل الله مَصْمَصَة» أي مطهرة غاسلة من الذنوب يقال مصمص الإناء إذا جعل فيه الماء وحركه ومضمضه كذلك عن الأصمعي كذا في «تاج المصادر» وفي الحديث: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» يعني: كون المجاهد في القتال بحيث يعلوه سيوف الأعداء سبب للجنة حتى كأن أبوابها حاضرة معه أو المراد بالسيوف سيوف المجاهد هذا كناية عن الدنو من العدو في الضراب لأنه إذا دنا منه كان تحت ظل سيفه حين رفعه ليضربه وإنما ذكر السيوف لأنها أكثر سلاح العرب ومن التقوى الاحتراز عن الرياء والسمعة في حضور معارك الحروب ومحافل الدعاء. قال خسرو الدهلوي:

غـازىء رسـمـى كـه بـغـارت رود   هـست چـو حـاجـى كـه تـجـارت رود
آنـكـه غـزا خـوانـى وجـويـى رضـا   كـر غـرضـى هـسـت نـبـاشـد غـزا
رو بـغـزا دل غـرض آلـوده واى   جـهـد خـوداست اين نه جـهـاد خـداى

ه والإشارة: ﴿إن عدة الشهور﴾ أي: تعديد عدة الشهور ﴿عند الله﴾ في الأزل ﴿اثنا عشر شهراً في كتاب الله﴾ في علم الله ﴿يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم﴾ يعني: اقتضت الحكمة الإلَهية الأزلية أن يكون من الشهور يوم خلق السموات والأرض أربعة أشهر حرم أي يعظم انتهاك المحارم فيها بأشد مما يعظم في غيرها، بل هي أشهر الطاعات والعبادات محرمة فيها الشواغل الدنيوية والحظوظ النفسانية على الطلاب، وفيه إشارة إلى أن أيام الطالب وأوقات عمره ينبغي أن تصرف جملتها في الطلب، فإن لم يتيسر له ذلك فثلثها وإلا فنصفها وإن لم يكن فمحرم صرف ثلثها في غير الطلب ولا يفلح من نقص من صرف الثلث شيئاً في الطلب؛ إذ لا بد له من صرف بعض عمره في تهييء معاشه ومعاش أهله وعياله، ومن استغنى

عن هذا المانع فمحرم عليه صرف لحظة من عمره في غير الطلب وتوابعه كما قال: ﴿**ذلك الدين القيم**﴾ أي: المستقيم، يعني: من صرف شيئاً من عمره في شيء غير طلب الحق ما استقام دينه، بل فيه اعوجاج بقدر ذلك فافهم جداً ثم قال: ﴿**فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ أي: في ثلث العمر لأن الأربعة هي ثلث الاثني عشر يعني: إن صرفتم شيئاً من ثلث أعماركم المحرم في شيء من المصالح الدنيوية، فقد ظلمتم أنفسكم باستيلائها على القلوب والأرواح عند غلبات صفاتها لأنه مهما يكن صرف أكثر العمر في الدنيا ومصالحها واستيفاء الحظوظ النفسانية تكون النفس غالبة على القلب والروح فتخالفهما وتنازعهما بجميع صفاتها الذميمة، وتميل إلى الدنيا وشهواتها وتعبد هواها فتكون مشركة بالله فلهذا قال: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة**﴾ أي: قلوبكم وصفاتها وأرواحكم وصفاتها. ﴿**كما يقاتلونكم كافة**﴾ أي: النفوس وصفاتها جميعاً ومقاتلة النفوس بمخالفتها وردعها عن هواها وكسر صفاتها ومنعها عن شهواتها وشغلها بالطاعات والعبادات واستعمالها في المعاملات الروحانية والقلبية، وجملتها التزكية عن الأوصاف الذميمة والتحلية بالأخلاق الحميدة ثم قال: ﴿**واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ وهم القلوب والأرواح المتقية عن الشرك يعني عن الالتفات لغير الله ولو لم يكن الله معهم بالنصر والتوفيق لما اتقوا وإنما اتقوا بالله عما سواه كذا في «التأويلات النجمية».

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾

﴿**إنما النسيء**﴾ مصدر نسأه، أي: أخره كمس مسيساً كانت العرب إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر حتى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد.

قال الكاشفي: [آورده اندكه طباع أهل جاهليت بقتل وغارت مستأنس شده بود ودرماههاى حرام قتال نميكردند وچون سه ماه متصل حرام بودبتنك آمده كفتند ماسه ماه پى درپى بى تاراج وغارت تحمل نداريم پس قلمش كنانى صورتى برانكيخت ودر موسم ندا كردوايستاده شد وخطبه خواندكه يا معشر العرب خداى شمارا درين محرم حلال كردانيد وحرمت اورا تأخير كردبماه صفر مردمان قول اورا قبول نمودندبازسال ديكر منادى فرمودكه خداى تعالى درين سال محرم را حرام ساخت وصفر راخلال كردوكاه بودى كه در اثناى محاربات ايشان حرام نوشتى حرمت اورا تأخير كردندى بما هى بعد ازواورا حلال داشتندى ودرهر سالى چهارماه را حرام ميدانستند أما اختصاص أشهر حرم را فرو كذاشته مجرد عددرا اختيار كردندى واعتبار داشتندى واين عمل را نسىء مى كفتند حق سبحانه وتعالى فرمود] ﴿**إنما النسيء**﴾ أي: إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر. ﴿**زيادة**﴾ [افزنيست] ﴿**في الكفر**﴾ لأنه تحليل ما حرمه الله وتحريم ما حلله فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم وبدعة زائدة على بدع سائر الكفار. ﴿**يضل**﴾ على بناء المفعول من أضل ﴿**به**﴾ [بدين عمل] وهو النسيء ﴿**الذين كفروا**﴾ والمضل هو الله تعالى، أي: يخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه أو الرؤساء فالموصول عبارة عن الأتباع، أي الاتباع يضلون به بإضلال الرؤساء أو الشيطان فإنه مظهر الاسم المفضل.

يقول الفقير: سمعت من حضرة شيخنا العلامة أبقاه ـ الله بالسلامة ـ أن الشيطان والنفس والضلال أمر واحد في الحقيقة لكن الأول بحسب الشريعة والثاني بحسب الطريقة والثالث بحسب الحقيقة فلكل مقام تعبير لا يناسب تعبير المقام الآخر. ﴿يحلونه﴾ أي الشهر المؤخر فالضمير إلى النسيء المدلول عليه بالنسيء. ﴿عاماً﴾ من الأعوام ويحرمون مكانه شهراً آخر مما ليس بحرام. ﴿ويحرمونه﴾ أي يحافظون على حرمته كما كانت والتعبير عن ذلك بالتحريم باعتبار إحلالهم له في العام الماضي. ﴿عاماً﴾ آخر إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم ﴿ليواطئوا﴾ المواطأة عبارة عن الموافقة والاجتماع على حكم أي ليوافقوا.

قال الكاشفي: [تاموافق سازند وتمام كنند] ﴿عدة ما حرم الله﴾ أي عدد ما حرمه من الأشهر الأربعة فإنهم كانوا يقولون الأشهر الحرم أربعة وقد حرمنا أربعة أشهر ﴿فيحلوا ما حرم الله﴾ أي يتوصلوا بهذه الحيلة إلى إحلال الشهر الذي حرمه الله بخصوصه من الأشهر المعينة فهم وإن راعوا أحد الواجبين وهو نفس العدد إلا أنهم تركوا الواجب الآخر وهو رعاية حكم خصوص الشهر. ﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ أي: جعل أعمالهم مشتهاة للطبع محبوبة للنفس والمزين هو الله تعالى في الحقيقة أو الشيطان أو النفس على تفاوت المراتب. ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ هداية موصلة إلى المطلوب البتة وإنما يهديهم إلى ما يوصل إليه عند سلوكه وهم قد أعرضوا عنه بسوء اختيارهم فتاهوا في تيه الضلال [در ينابيع آورده كه جاهلان عرب در سالى چهار ماه حرام ميداشتند وخلق را ازدست وزبان خود ايمن ميساختند مؤمنان مؤدب بدان سزاوار ترندكه درهمه ماهها مسلمانا نرا ازضرر خود سالم دارند وايذا وآزار خلق بزبان ودست فروكذا ردنكه مجازات اضرار همان اضرارست ومكافات آزار آزار].

آزار دل خلق مجو بى سببى ... تابر نكشند يا ربى نيمشبى
برمال وجمال خويشتن تكيه مكن ... كانرا بشبى برند واين را به تبى

يقول الفقير سامحه الله القدير بلغت مسامحات الناس في هذا الزمان إلى حيث تساوت عندهم الأشهر الحرم وغيرها، أما ترى إليهم في شهر رمضان الذي جعله الله شهر هذه الأمة المرحومة وفضله على سائر الشهور كيف لا يبالون من ارتكاب المحرمات فيه، وأمسكوا عنها في النهار بسبب نوم أو غيره من الموانع البشرية وأكبوا عليها في الليالي، فوا أسفا على غربة هذا الدين وزوال أنوار اليقين، ومن الله التوفيق إلى الأعمال المرضية خصوصاً في الأوقات الفاضلة نهراً أو ليالي، ثم إن النسيء المذكور وقعت إليه الإشارة في قوله عليه السلام: «لا عدوى ولا هامة ولا صفر» أما العدوى: فهو اسم من الأعداء كالدعوى من الادعاء، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره وكانت العرب في الجاهلية تعتقد أن الأمراض تعدى بطبعها من غير اعتقاد تقدير الله لذلك. فالمعنى ليس نفي سراية العلة فإن السراية والتعدية واقعة بل إضافتها إلى العلة من غير أن يكون ذلك بفعل الله تعالى، ويدل عليه قوله عليه السلام: «لا يورد ممرض على مصحح» والممرض صاحب الإبل المريضة والمصحح صاحب الإبل الصحيحة، والمراد النهي عن إيراد الإبل المريضة على الصحيحة وهو من باب اجتناب الأسباب التي هي سبب البلاء إذا كان في عافية منه فكما أنه مأمور أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو يدخل تحت ما أشرف على الانهدام ونحوه مما جرت العادة بأنه يهلك أو يؤذي، فكذلك مأمور بالاجتناب عن مقاربة المريض كالمجزوم والقدوم على بلد الطاعون فإن هذه

كلها أسباب المرض والتلف والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها، ففي الأمر بالاجتناب صيانة للمؤمن الضعيف يقينه لئلا يعتقد التأثير من الأسباب أي عند وقوع البلاء أو يعتقد أن السراية كانت بالطبع لا بقضاء الله تعالى وقدره، وأما إذا قوي التوكل على الله والإيمان بقضائه وقدره فتجوز مباشرة بعض هذه الأسباب كما ورد أن النبي عليه السلام أكل مع مجذوم وقال: «بسم الله ثقة بالله توكلت على الله» ونظيره ما روي عن خالد بن الوليد وعمر رضي الله عنهما من شرب السم وإنما لم يؤثر فيهما لأنهما إنما شرباه في مقام الحقيقة لا ببشريتهما، وإنما أثر في النبي عليه السلام بعد تنزله إلى حالة بشرية وذلك أن إرشاده عليه السلام كان في عالم التنزل غير أن تنزله كان من مرتبة الروح وهي أعدل المراتب ولم يؤثر فيه حتى مضى عليه اثنتا عشرة سنة فلما احتضر تنزل إلى أدنى المراتب لأن الموت إنما يجري على البشرية فلما تنزل إلى تلك المرتبة أثر فيه فليفهم هذا المقام فإنه من مزالق الأقدام.

وأما قوله: «ولا هامة» بالتخفيف ففيه تأويلان: أحدهما: أن العرب كانت تتشاءم بالهامة وهي الطير المعروف من طير الليل وقيل هي البومة كانت إذا سقطت على دار أحدهم قالوا نعت إليه نفسه أو بعض أهله هذا تفسير مالك بن أنس. والثاني: أن العرب كانت تعتقد أن روح القتيل الذي لم يؤخذ بثاره تصير هامة فتنشر جناحيها عند قبره وتصحيح اسقوني اسقوني من دم قاتلي فإذا أخذ بثاره طارت وقيل كانوا يزعمون أن عظام الميت إذا بليت تصير هامة ويسمونها الصدى بالفارسية [كوف] وتخرج من القبر وتتردد وتأتي الميت بأخبار أهله وهذا تفسير أكثر العلماء وهو المشهور ويجوز أن يكون المراد النوعين وأنه عليه السلام نهى عنهما جميعاً.

وفي «فتاوى قاضيخان»: إذا صاحت الهامة، فقال أحد: يموت رجل قال بعضهم: يكون ذلك كفراً وكذا لو رجع فقال ارجع لصياح العقعق كفر عند بعضهم.

وأما قوله: «ولا صفر»: ففيه تأويلان أيضاً الأول: أن الجاهلية كانت تعتقد أن في الجوف حية يقال لها الصفر تعض كبد الإنسان عضاً إذا جاع. والثاني: أن المراد تأخيرهم تحريم المحرم إلى صفر وهو النسيء الذي كانوا يفعلونه ويجوز أن يكون المراد هذا والأول جميعاً وإن الصفرين جميعاً باطلان لا أصل لهما وقيل كانوا يتشاءمون بصفر فنفاه النبي عليه السلام بقوله ولا صفر يحكى أن بعض الأعراب أراد السفر في أول السنة فقال: إن سافرت في المحرم كنت جديراً أن أحرم وإن رحلت في صفر خشيت على يدي أن تصفر فأخر السفر إلى شهر ربيع الأول فلما سافر مرض ولم يحظ بطائل فقال ظننته من ربيع الرياض فإذا هو من ربيع الأمراض. وكانت وقعة صفين بين علي ومعاوية غرة صفر سنة سبع وثلاثين قيل لذلك احترز عن صفر.

قال في «روضة الأخبار»: ذهب الجمهور إلى أن القعود في صفر أولى من الحركة.

عن النبي عليه السلام: «من بشرني بخروج صفر أبشره بالجنة» انتهى.

يقول الفقير هذا الحديث، لا يدل على مدعاه وهو أولوية القعود في صفر فإن النبي عليه السلام إنما قال كذلك شغفاً بشهر ولادته ووفاته وحباً لدخوله فإن الأنبياء والأولياء يستبشرون بالموت لكونه تحفة لهم وينتظرون زمانه إذ ليس انتقالهم إلا إلى جوار الله تعالى وفي الحديث: «لا تسافروا في محاق الشهر ولا إذا كان القمر في العقرب» وكان علي «يكره التزوج والسفر إذا

نزل القمر في العقرب» وهو إسناد صحيح.

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده افندي: إن نحوسة الأيام قد ارتفعت عن المؤمنين بشرف نبينا عليه السلام وأما ما نقل عن علي من أنه عد سبعة أيام في كل شهر نحساً فعلى تقدير صحة النقل محمول على نحوسة النفس والطبيعة، فليست السعادة والشقاوة إلا لسعادتهما وشقاوتهما فإذا تخلصنا من الشقاوة لم يبق نحوسة انتهى.

قال في «عقد الدرر واللآلي»: وكثير من الجهال يتشاءم من صفر وربما ينهى عن السفر والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذا التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وأيام العجائز في آخر الشتاء، وكذا تشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة. وقد قيل: إن طاعوناً وقع في شوال في سنة من السنين فمات فيه كثير من العرائس فتشاءم بذلك أهل الجاهلية وقد ورد الشرع بإبطاله قالت عائشة رضي الله عنها «تزوجني رسول الله في شوال وبنى بي في شوال» فأي نسائه كان أحظى عنده مني فتخصيص الشؤم بزمان دون زمان كصفر أو غيره غير صحيح، وإنما الزمان كله خلق الله تعالى وفيه تقع أعمال بني آدم فكل زمان اشتغل فيه المؤمن بطاعة الله فهو زمان مبارك عليه وكل زمان اشتغل فيه بمعصية الله فهو مشؤوم عليه فالشؤم في الحقيقة هو المعصية كما قال ابن مسعود رضي الله عنه إن كان الشؤم في شيء ففيما بين اللحيين يعني اللسان وفي الحديث: «الشؤم في ثلاث في المرأة والدار والفرس» وتفسيره: إن شؤم المرأة إذا كانت غير ولود، وشؤم الدار جار السوء، فإن المرء يتأذى به كما جاء في الحديث: «ادفنوا موتاكم وسط قوم صالحين، فإن الميت يتأذى بجار السوء كما يتأذى الحي بجار السوء» وشؤم الفرس: إذا لم يغز عليه في سبيل الله فإن الخيل، ثلاثة: فرس للرحمٰن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان فأما الذي للرحمٰن فما اتخذ في سبيل الله وقوتل عليه أعداؤه، وأما الذي للإنسان فهو الذي يرتبطها يلتمس بطنها فهو ستر من الفقر، وأما الذي للشيطان فهو ما روهن عليه وقومر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ شروع في بيان غزوة تبوك وهي أرض بين الشام والمدينة ويقال لها غزوة العسرة ويقال لها الفاضحة لأنها أظهرت حال كثير من المنافقين. وروي أنه عليه السلام لما فتح مكة وغزا هوازن وثقيفاً بحنين وأوطاس وحاصر الطائف وفتحها وأتى الجعرانة وأحرم بها للعمرة واعتمر، ثم أتى المدينة فأمر بالخروج إلى غزوة الروم قبل الشام وذلك في شهر رجب سنة تسع بلغه عليه السلام أن الروم قد جمعت له جموعاً كثيرة بالشام وأنهم قدموا مقدماتهم إلى البلقاء المحل المعروف، وقيل: للروم بنو الأصفر لأنهم ولد روم بن العيص بن إسحاق نبي الله عليه الصلاة والسلام وكان يسمى الأصفر لصفرة به. فقد ذكر العلماء بأخبار القدماء أن العيص تزوج بنت عمه إسماعيل فولدت له الروم وكان به صفرة فقيل له الأصفر وقيل الصفرة كانت بأبيه العيص، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وجدب في البلاد وشدة

من الحر حين طابت ثمار المدينة وأينعت واستكملت ظلالها وطالت المسافة بينهم وبين العدو فشق عليهم الخروج فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال أيها المؤمنون: ﴿ما لكم﴾ استفهام في اللفظ وإنكار وتوبيخ في المعنى ﴿إذا قيل لكم﴾ من طرف رسول الله الآمر بأمر الله ﴿انفروا في سبيل الله﴾ [بيرون رويدد رراه خداى تعالى وجهاد كنيد] ومعناه بالعربية اخرجوا إلى الغزوة يقال نفر القوم ينفرون نفراً ونفيراً إذا خرجوا إلى مكان لمصلحة توجب الخروج والقوم الذين يخرجون يقال لهم النفير واستنفر الإمام الناس لجهاد العدو أي طلب منهم الخروج إلى الغزو وحثهم عليه. ﴿اثاقلتم﴾ أصله تثاقلتم وهو ماض لفظاً مضارع معنى لأنه حال من ما لكم. ﴿إلى الأرض﴾ متعلق باثاقلتم على تضمينه معنى الميل والإخلاد. والمعنى: أيُّ سبب وغرض حصل لكم واستقر إذا قيل لكم ذلك كنتم متثاقلين، أي: مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قريب وكرهتم مشاق السفر والجهاد المستتبعة للراحة الخالدة فالأرض هي الدنيا وشهواتها وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم ﴿أرضيتم﴾ باستفهام التوبيخ [آيا راضى شديد وخوشدل كشتيد] ﴿بالحياة الدنيا﴾ ولذاتها من الثمار والظلال. ﴿من الآخرة﴾ أي: بدل الآخرة ونعيمها فكلمة من بمعنى البدل كما في قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً﴾ [الزخرف: ٦٠] أي: بدلكم ﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ أي: فما التمتع بها وبلذائذها ﴿في الآخرة﴾ أي: في جنب الآخرة. ﴿إلا قليل﴾ أي: مستحقر لا يعتد به لأن متاع الدنيا فانٍ معيوب ومتاع الآخرة باق مرغوب. روي أنه عليه السلام قال: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع».

﴿إلا﴾ كلمتان إن للشرط ولا للنفي أي: إن لم ﴿تنفروا﴾ تخرجوا إلى الغزو. ﴿يعذبكم﴾ أي: الله تعالى ﴿عذاباً أليماً﴾ وجيعاً لأبدانكم وقلوبكم أي يهلككم بسبب فظيع كقحط وظهور عدو. ﴿ويستبدل﴾ بكم بعد إهلاككم ﴿قوماً غيركم﴾ أي: قوماً مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا ليسوا من أولادكم ولا أرحامكم كأهل اليمن وأبناء فارس. ﴿ولا تضروه﴾ أي الله تعالى بترك الجهاد. ﴿شيئاً﴾ أي: لا يقدح تثاقلكم في نصرة دينه أصلاً فإنه الغني عن كل شيء في كل شيء. ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على إهلاككم والإتيان بقوم آخرين.

واعلم: أن البطالة تقسي القلب كما جاء في الحديث [زيرا مرد بايد بشغل معاد مشغول باشد يا بشغل معاش ازوجه مباح تا درشغل دين فضل وثواب مى ستاند ودرشغل معاش خانه را آبادان مى دارد پس چون نه باين شغل مشغول شود ونه بآن بى كارماند وازبى كارى سياه دل وسخت طبع شود] فلا بد من الحركة فإن البركات في الحركات الحضرية والسفرية والسفر على نوعين سفر الدنيا وسفر الآخرة وفي كليهما مشقة وإن كان الثاني أشق، وفي الحديث: «السفر قطعة من العذاب» [بعض مشايخ كفته اندكه اكر نه آنستى كه لفظ رسول الله ﷺ نشايد كردانيدن من كفتمى السفر قطعة من السقر وپيغمبر عليه السلام سفررا پاره ازدوزخ كفت ازمرك نكفت زيراكه درمرك رنج تن باشد رنج دل نبود ودر سفر رنج دل وتن باشد وحجاج كفتى كه اكر نه شادى بخانه آمدن بودى كه مسافر چون بخانه رسد همه رنج سفر فراموش كند من مردمانرا نكشتمى بسفر عذاب دادمى] ومن سفر الدين الخروج إلى الغزو، وفي الحديث: «لغدوة في سنبيل الله» وهو الذهاب في أول النهار «أو روحة» وهو الذهاب في آخره «خير من

الدنيا وما فيها» يعني: إن فضل الغدوة والروحة في سبيل الله وثوابهما خير من نعيم الدنيا بأسرها لأنه زائل ونعيم الآخرة باق وحق الجهاد أن ينوي نصرة الدين بقهر أعداء الله وبذل النفوس في رضاه تعالى ويكثر ذكره تعالى ويكف عن ذكر النساء والأولاد والأموال والمواطن فهو يفتره فالجهاد بهذا الوجه أفضل الأعمال [على مرتضى رضي الله عنه كويدكه معصيت غازيان زيان ندارد طاعت سخن چينان سود ندارد ودعاى مخنث نشنوند ونماز خمر خواره نپذيرند] فعلى المرء أن يغتنم أيام حياته ويجتهد في تحصيل مرضاة ربه، وفي الحديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ» شبه النبي عليه السلام المكلف بالتاجر والصحة والفراغ برأس المال لأنهما من أسباب الأرواح ومقدمات نيل النجاح فمن عامل الله تعالى بامتثال أوامره يربح كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١٠-١١] ومن عامل الشيطان باتباعه يضيع رأس ماله ولا ينفعه ندم باله وفي امتثال أمر الله عاقبة حميدة إذ رب شيء تكرهه النفس كالجهاد وهو عند الله محبوب فبترك الراحة واختيار المشقة ينال العبد أمانيه الدنيوية والأخروية والتوفيق إليه من الله تعالى وليس كل أحد من لا يبالي بانتقاص دنياه إذا كان التكامل في طرف دينه. قال الحافظ:

حام راطاقت پروانۀ پرسوخته نيست ... ناز كانرا نرسد شيوۀ جان افشانى

ثم اعلم أنه كما أن الله تعالى يستبدل بذوات ذواتاً أخر كذلك يستبدل بصفات صفات أخر فالذاهب خلف مشتهياته والتابع لهواه في كل حركاته وسكناته يهلك في وادي الطبيعة والنفس ولا يصل إلى مقامات رجال عالم القدس والأنس ولا يتفق له معهم الصحبة في مقالهم ومقامهم وحالهم إذ بينهما بون بعيد من حيث إن صفاته صفات النفس وأحواله أحوال الطبيعة وصفاتهم صفات الروح وأخلاقهم أخلاق الله ولذا يحشر كثير من الناس في صورة صفاته الغالبة المذمومة إلا أن يتداركه الله تعالى بفضله ويكسوه كسوة الوجود الإنساني على الحقيقة.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إلا تنصروه﴾ إن لم تنصروا محمداً في غزوة تبوك. ﴿فقد نصره الله﴾ فسينصره الله كما نصره ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ أي تسببوا لخروجه بأن هموا بقتله وإلا فهو عليه السلام إنما خرج بإذن الله تعالى وأمره لا بإخراج الكفرة إياه ﴿ثاني اثنين﴾ حال من ضميره عليه السلام، أي: أحد اثنين من غير اعتبار كونه عليه السلام ثانياً فإن معنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربع ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقاً لا الثالث والرابع خاصة والاثنان أبو بكر ورسول الله ﷺ ﴿إذ هما في الغار﴾ بدل من إذ أخرجه بدل البعض إذ المراد به زمان متسع والغار ثقب في أعلى ثور وثور جبل في يمنى مكة على مسير ساعة.

وقال في «التبيان»: على فرسخين أو نحوهما.

وفي «القاموس»: ويقال له ثور اطحل واسم الجبل اطحل نزله ثور بن عبد مناة فنسب إليه.

وفي «إنسان العيون»: وإنما قيل للجبل ذلك لأنه على صورة الثور الذي يحرث عليه. وتحرير القصة أنه لما ابتلي المسلمون بأذى الكفار أذن ﷺ لهم في الهجرة وقال: «إني رأيت دار هجرتكم ذات نخيل بين لابتين» وهما الحرتان وقال: «إني لأرجو أن يؤذن لي في الهجرة إليها» فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت قال «نعم» فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه عند هجرته فلم يتخلف إلا هو وعليّ وصهيب ومن كان محبوساً أو مريضاً أو عاجزاً عن الخروج فابتاع أبو بكر بعد هذا المقال النبوي راحلتين بثمانمائة درهم فحبسهما في داره يعلفهما الخبط إعداداً لذلك، والخبط محركة ورق ينفض بالمخابط ويجفف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره ويعجن بالماء فتوجره الإبل أي تأكله فكانتا عنده قريباً من ثلاثة أشهر؛ لأن الهجرة كانت في ذي الحجة ومهاجرته عليه السلام كانت في ربيع الأول، ولما رأت قريش قوة أمر رسول الله حيث بايعه الأوس والخزرج وصار له أنصار في القبائل والأقطار خافوا من أن يخرج ويجمع الناس على حربهم وقد وقعوا فيما خافوا منه ولو كان بعد حين ونعم ما قيل: «إذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة. فاجتمعوا في دار الندوة ليتشاوروا في أمره عليه السلام ودار الندوة هي أول دار بنيت بمكة كانت منزل قصي بن كلاب وكانت جهة الحجر عند مقام الحنفي الآن، وكان لها باب للمسجد، وقيل لها دار الندوة لاجتماع الندوة وهي الجماعة فيها، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة لأنه اجتمع فيه أشراف بني عبد شمس وبني نوفل وبني عبد الدار وبني أسد وبني مخزوم وغيرهم ممن لا يعد من قريش ولم يتخلف من أهل الرأي والحجى أحد وكانت مشاورتهم في يوم السبت فقد سئل ﷺ عن يوم السبت فقال: «يوم مكر وخديعة» قالوا ولِمَ يا رسول الله قال: «إن قريشاً أرادوا أن يمكروا فيه» وجاء إليهم إبليس في صورة شيخ نجدي وقال أنا من أهل نجد وإنما قال ذلك لأن قريشاً قالوا لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة لأن هواهم كان مع محمد فعند ذلك قالوا هو من أهل نجد لا من مكة فلا يضركم حضوره معكم وعند المشورة قال بعضهم بالحبس وبعضهم بالنفي كما بين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٣٠] في سورة الأنفال فمنعه إبليس واتفقت آراؤهم على قول أبي جهل وهو أن يخرجوا إليه من كل قبيلة من قريش شاباً جليداً، أي: قوياً بسيف صارم ويقتلوه فيفرق دمه في القبائل بحيث لا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فيرضون بالدية واستحسن الشيخ النجدي هذا الرأي وتفرقوا عن تراض فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل فأخبره بمكر قريش وأمره بمفارقة مضجعه تلك الليلة فلما علم ما يكون منهم قال لعلي رضي الله عنه «نم على فراشي واتشح بردائي هذا الحضرمي فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم» وكان عليه السلام يشهد العيدين في ذلك الرداء وكان طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعين وشبراً وهل كان أخضر أو أحمر يدل للثاني قول جابر رضي الله عنه، كان يلبس رداء أحمر في العيدين والجمعة».

وفي «سيرة الحافظ الدمياطي»: وارتد بردائي هذا الأحمر والحضرمي منسوب إلى حضرموت التي هي القبيلة أو البلدة باليمن كان عليه السلام يتسجى بذلك البرد عند نومه وإنما أمر علياً رضي الله عنه أن يضطجع على فراشه ليمنعهم سواد عليّ عن طلبه حتى يبلغ هو وصاحبه إلى ما أمر الله أن يبلغا إليه فلما مضىٰ عتمة من الليل، أي الثلث الأول منه اجتمعوا على باب رسول الله وكانوا مائة فجعلوا يتطلعون من شق الباب ويرصدون متى ينام فيثبون عليه

فيقتلونه فخرج عليه السلام عليهم وهم ببابه وقرأ قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١-٢] إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩] فأخذ الله أبصارهم عنه عليه السلام فلم يبصروه حتى خرج من بينهم. وعن النبي عليه السلام أنه ذكر في فضل يس أنها «إذا قرأها خائف أمن، أو جائع شبع، أو عار كسي أو عاطش سقي أو سقيم شفي» وعند خروجه عليه السلام أخذ حفنة من تراب فذرها عليهم فأتاهم آت فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال قد خيبكم الله والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك رجلاً منكم إلا وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته فما ترون ما بكم فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب فدخلوا على عليّ، فقالوا له يا علي أين محمد؟ فقال: لا أدري أين ذهب وكان قد انطلق إلى بيت أبي بكر بإشارة جبرائيل عليه السلام فلما دخل عليه قال: «قد أذن لي في الخروج» فقال أبو بكر الصحبة يا رسول الله بأبي أنت، أي أسألك الصحبة قال: «نعم» فبكى أبو بكر سروراً ولله در القائل:

ورد الكتاب من الحبيب بأنه ... سيزورني فاستعبرت أجفاني
هجم السرور عليّ حتى إنه ... من فرط ما قد سرني أبكاني
يا عين صار الدمع عندك عادة ... تبكين من فرح ومن أحزان

قال أبو بكر فخذ بأبي أنت إحدى راحلتي هاتين فإني أعددتهما للخروج فقال عليه السلام: «نعم بالثمن» وذلك لتكون هجرته عليه السلام إلى الله بنفسه وماله وإلا فقد أنفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله أكثر ماله. فعن عائشة رضي الله عنها أربعين ألف درهم. وفي رواية أربعين ألف دينار وهي الناقة القصوى أو الجدعاء وقد عاشت بعده عليه السلام وماتت في خلافة أبي بكر وأما ناقته عليه السلام العضباء فقد جاء أن ابنته فاطمة رضي الله عنها تحشر عليها ثم استأجر رسول الله وأبو بكر رجلاً من بني الدئل وهو عبد الله بن أريقط ليدلهما على الطريق للمدينة وكان على دين قريش فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار جبل ثور بعد ثلاث ليال أن يأتي بالراحلتين صباح الليلة الثالثة فمكث عليه السلام في بيت أبي بكر إلى الليلة القابلة فخرجا إلى طرف الغار وجعل أبو بكر يمشي مرة أمام النبي ومرة خلفه فسأله رسول الله عن ذلك فقال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك وأذكر الطلب فأكون خلفك لأكون فداءك فمشى عليه السلام ليلته على أطراف أصابعه، أي لئلا يظهر أثر رجليه على الأرض حتى حفيت رجلاه فلما رآهما أبو بكر قد حفيتا حمله على كاهله وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله وفي رواية كانت قدما رسول الله قد قطرتا دماً ويشبه أن يكون ذلك من خشونة الجبل وإلا فبعد المكان لا يحتمل ذلك ولعلهم ضلوا طريق الغار حتى بعدت المسافة ويدل عليه قوله: فمشى ليلته أو أنه عليه السلام ذهب إلى جبل حنين فناداه اهبط عني فإني أخاف أن تقتل على ظهري فأعذب فناداه جبل ثور إلي يا رسول الله وكان الغار معروفاً بالهوام فلما أراد رسول الله دخوله قال له أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى استبرىء الغار فدخل واستبرأه وجعل يسد الحجرة بثيابه خشية أن يخرج منها شيء يؤذيه أي رسول الله فبقي جحر وكان فيه حية فوضع رضي الله عنه عقبه عليه ثم دخل رسول الله فجعلت تلك الحية تلسعه وصارت دموعه تتحدر فتفل رسول الله على محل اللدغة فذهب ما يجده وقال بعضهم والسر في اتخاذ رافضة العجم اللباد المفضض على رؤوسهم تعظيماً للحية التي لدغت أبا بكر في الغار وذلك لأنهم يزعمون أن

ذلك على صورة تلك الحية ولما دخل رسول الله وأبو بكر الغار أمر الله شجرة وهي التي يقال لها القتاد وقيل أم غيلان فنبتت في وجه الغار فسترته بفروعها ويقال إنه عليه السلام دعا تلك الليلة الشجرة وكانت أمام الغار فأقبلت حتى وقفت على باب الغار وإنها كانت مثل قامة الإنسان.

وقال الحدادي: وكان عليه السلام مر على ثمامة وهي شجرة صغيرة ضعيفة فأمر أبا بكر أن يأخذها معه فلما صار إلى باب الغار أمره أن يجعلها على باب الغار وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين فروعها نسجاً متراكماً بعضه على بعض كنسج أربع سنين كما قال في القصيدة البردية.

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم

أي: ظنوا أن الحمام ما وكر وما باض على باب الغار الذي فيه خير البرية وظنوا أن العنكبوت لم تنسج ولم تحم أي لم تطف من حام حوله أي طاف ودار فهو من قبيل علفتها تبناً وماء بارداً. وقال المولى الجامي:

شد دوسه تارى كه عنكبوت تنيد بر دران غار برده دار محمد

وقد نسج العنكبوت أيضاً على نبي الله داود عليه السلام لما طلبه جالوت. ونسج أيضاً على عورة سيدنا زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب وهو أخو الإمام محمد الباقر وعم جعفر الصادق وقد كان يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقين من قبل هشام بن عبد الملك صلبه عرياناً للخروج عليه وذلك في سنة ست وعشرين ومائة وأقام مصلوباً أربع سنين وقيل خمس سنين فلم تر عورته، وقيل بطنه الشريف ارتخى على عورته فغطاها ولا مانع من وجود الأمرين وكانوا عند صلبه وجهوه إلى غير القبلة فدارت خشبته التي عليها إلى أن صار وجهه إلى القبلة ثم أحرقوا خشبته وجسده رضي الله عنه قال العلماء ويكفي للعنكبوت شرفاً نسجها على الغار ونهى النبي عليه السلام يومئذٍ عن قتل العنكبوت وقال: «إنها جند من جنود الله تعالى». قال في «المثنوي»:

جمله ذرات زمين وآسمان لشكر حقنده كاه امتحان

وأما قوله عليه السلام: «العنكبوت شيطان فاقتلوه» وفي لفظ: «العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه» فإن صح فلعله صدر قبل وقعة الغار فهو منسوخ. وعن علي «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر وهذا لا يقدح في شرفها».

وذكر في «حياة الحيوان»: أن ما تنسجه العنكبوت يخرج من خارج جلدها لا من جوفها. ومن خواصها أنها إذا وضع نسجها على الجراحة الطرية في ظاهر البدن حفظها بلا ورم ويقطع سيلان الدم إذ وضع عليه والعنكبوت التي تنسج على الكنيف إذا علقت على المحموم يبرأ قاله ابن زهير. وأمر الله تعالى حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار وباضتا وبارك عليه السلام على الحمامتين وانحدرتا في الحرم وهل حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين أو لا ففيه اختلاف والظاهر أنه ليس من نسلهما لأنه روي في قصة نوح عليه السلام أنه بعث الحمامة من السفينة لتأتيه بخبر الأرض ووقعت بوادي الحرم فإذا الماء قد نضب من موضع الكعبة وكانت طينتها حمراء فاختضبت رجلها ثم جاءته فمسح عنقها وطوّقها طوقاً ووهب لها الحمرة في رجليها وأسكنها الحرم ودعا لها بالبركة. وذكر أن حمام مكة أظلته عليه السلام يوم

فتحها فدعا لها بالبركة. وكان المسيح عليه السلام يقول لأصحابه إن استطعتم أن تكونوا بلهاً في الله مثل الحمام فافعلوا وكان يقال إنه ليس شيء أبله من الحمام إنك تأخذ فرخه من تحته فتذبحه ثم يعود إلى مكانه ذلك فيفرخ فيه ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو أرسل من ألف فرسخ يحمل الأخبار ويأتي بها من المسافة البعيدة في المدة القريبة كما قال في «المغرب» الحمام بأرض العراق والشام تشترى بأثمان غالية وترسل من الغايات البعيدة بكتب الأخبار فتؤديها وتعود بالأجوبة.

قال الجاحظ: لولا الحمام لما عرف بالبصرة ما حدث بالكوفة في بياض يوم واحد وإليه الإشارة في أشعار البلغاء. كما قال المولى جلال الدين قدس سره في «المثنوي»:

رقعه كر بر پرّ مرغى دوختى   پرّ مرغ ازتف رقعه سوختى

قال السلطان سليم الأول، يعني: فاتح مصر:

مرغ چشم من كه پروازش بجز سوى تونيست   بسته ام از اشك صد جانامهٔ شوقش ببال

وقال في «حياة الحيوان» اتخاذ الحمام للبيض والفراخ وللأنس ولحمل الكتب جائز بلا كراهة وأما اللعب بها والتطير والمسابقة فقيل يجوز لأنه يحتاج إليها في الحرب لنقل الأخبار والأصح كراهيته فإن قامر بالحمام ردت شهادته.

ولما فقد المشركون رسول الله شق عليهم ذلك وخافوا وطلبوه بمكة أعلاها وأسفلها وبعثوا القافة، أي الذين يقفون الأثر في كل وجه ليقفوا أثره فوجد الذي ذهب إلى جبل ثور وهو علقمة بن كرز أسلم عام الفتح أثره انتهى إلى الغار فقال ههنا: انقطع الأثر ولا أدري أخذ يميناً أم شمالاً أم صعد الجبل وكان عليه السلام شثن الكفين والقدمين يقال شثنت كفه شثناً وشثونة خشنت وغلظت فهو شثن الأصابع بالفتح كذا في «القاموس» فأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وسيوفهم فلما انتهوا إلى فم الغار قال قائل منهم ادخلوا الغار فقال أمية بن خلف وما أر بكم أي: حاجتكم إلى الغار إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد ولو دخل لما نسج ذلك العنكبوت وتكسر البيض وعند ما حاموا حول الغار حزن أبو بكر رضي الله عنه خوفاً على رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿إذ يقول﴾ بدل ثانٍ أو ظرف ثان والقائل هو رسول الله ﷺ ﴿لصاحبه﴾ وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولذلك قالوا من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لإنكاره كلام الله تعالى وكذا الروافض إذا كانوا يسبون الشيخين، أي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ويلعنونهما يكفرون وإذا كانوا يفضلون علياً عليهما يكونون مبتدعين والمبتدع صاحب الكبيرة والبدعة الكبيرة كما في «هدية المهديين» وعن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لجماعة أيكم يقرأ سورة التوبة قال رجل: أنا أقرأ فلما بلغ إلى قوله: ﴿إذ يقول لصاحبه﴾ الآية بكى رضي الله عنه وقال أنا والله صاحبه ﴿لا تحزن﴾ ولم يقل لا تخف لأن حزنه على رسول الله يغفله عن حزنه على نفسه، وهذا النهي تأنيس وتبشير له كما في قوله تعالى له عليه السلام: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: ٦٥] وبه يرد ما زعمته الرافضة أن ذلك كان غضباً من أبي بكر وذماً له لأن حزنه إن كان طاعة فالنبي عليه السلام لا ينهى عن الطاعة فلم يبق إلا أنه معصية كذا في «إنسان العيون» ﴿إن الله معنا﴾ بالعون والعصمة والمراد بالمعية الولاية التي لا تحوم حولها شائبة من الحزن وما هو المشهور من اختصاص مع بالمتبوع فالمراد ما فيه من المتبوعية في الأمر المباشر وتأمل الفرق بين قوله عليه السلام: ﴿إن الله معنا﴾ وبين قول موسى عليه

السلام ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ [الشعراء: ٦٢] كيف تجده دقيقاً والله الهادي. روي أن المشركين لما طلعوا فوق الغار وعلوا على رؤوسهما أشفق أبو بكر على رسول الله عليه السلام فقال عليه السلام: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروه وذكر أن أبا بكر لما قال للنبي عليه السلام لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا قال له النبي عليه السلام: «لو جاؤونا من ههنا لذهبنا من ههنا» فنظر الصديق إلى الغار فإذا هو قد انفرج من الجانب الآخر وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه.

قال ابن كثير، هذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة.

وفي الآية: دلالة على علو طبقة الصديق وسابقة صحبته وهو ثاني رسول الله في عالم الأرواح حين خرج من العدم وثانيه حين خرج مهاجراً وثانيه في الغار وثانيه في الخلافة وثانيه في القبر بعد وفاته وثانيه في انشقاق الأرض عنه يوم البعث وثانيه في دخول الجنة كما قال عليه السلام: «أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي» وقال أيضاً: «ألا أبشرك» قال بلى بأبي أنت وأمي قال: «إن الله عز وجل يتجلى للخلائق يوم القيامة ويتجلى لك خاصة» وروي أن أبا بكر عطش في الغار فقال عليه السلام: «اذهب إلى صدر الغار فاشرب فانطلق أبو بكر إلى صدر الغار فوجد ماء أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأذكى رائحة من المسك فشرب منه فقال عليه السلام: «إن الله أمر الملك الموكل بأنهار الجنة أن يخرق نهراً من جنة الفردوس إلى صدر الغار لتشرب يا أبا بكر» قال أبو بكر يا رسول الله ولي عند الله هذه المنزلة فقال عليه السلام: «نعم وأفضل والذي بعثني بالحق نبياً لا يدخل الجنة مبغضك ولو كان عمله عمل سبعين نبياً» ﴿فأنزل الله سكينته﴾ أمنته التي تسكن عندها القلوب.

وقال الكاشفي: [رحمت خودراكه سبب آرامش است] ﴿عليه﴾ أي: على النبي عليه السلام فالمراد بها ما لا يحوم حوله شائبة الخوف أصلاً أو على صاحبه وهو الأظهر إذ هو المنزعج وكان رسول الله ساكناً وعلى طمأنينة من أمره وإليه أشار الشيخ فريد الدين العطار قدس سره:

خواجهٔ اول كه اول يار اوست ... ثاني اثنين إذ هما في الغار اوست

چون سكينه شد زحق منزل برو ... كشت مشكلهاى عالم حل برو

وقال سعدي چلبي المفتي في «حواشيه»: بل الأول هو الأظهر المناسب للمقام وإنزال السكينة لا يلزم أن يكون لرفع الانزعاج بل قد يكون لدفعه كما سبق في قصة حنين والفاء للتعقيب الذكرى انتهى. وفي مصحف حفصة: ﴿فأنزل الله سكينته عليهما﴾ ﴿وأيده﴾ أي قوّى النبي عليه السلام ﴿بجنود لم تروها﴾ وهم الملائكة النازلون يوم بدر والأحزاب وحنين ليعينوه على العدو والجملة معطوفة على نصره الله. ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ يعني: جعل الله الشرك مقهوراً مغلوباً أبداً إلى يوم القيامة أو دعوتهم إلى الكفر. يعني [دعوت كفرراكه ازايشان صادر مى شد خوار وبيمقدار ساخت] ﴿وكلمة الله﴾ أي: التوحيد أو الدعوة إلى الإسلام وهي بالرفع على الابتداء ﴿هي﴾ ضمير فصل لدفع توهم أنه قد يفوق غير كلمة الله ﴿العليا﴾ إلى يوم القيامة وهو خبر المبتدأ وجعل الله ذلك بأن أخرج رسوله من بين الكفر. وقرأ يعقوب كلمة الله بالنصب عطفاً على كلمة الذين هو ضعيف لأنه يشعر بأن كلمة الله كانت سفلى ثم صارت عليا وليس كذلك بل هي عالية في نفسها أبداً. وفي «مناظرات المكي» لو قال

أحد وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله وقطع ولم يقل وكلمة الله هي العليا كان كافراً إن كان عمداً ﴿والله عزيز﴾[وخداى تعالى عاليست عزيز كند اهل توحيدرا] ﴿حكيم﴾ في أمره وتدبيره وحكمه.

قال الكاشفي: [داناست خوارساز داهل كفررا ومقصودازايراد قصهٔ غاردراثناى امر بغزوهٔ تبوك آنست كه اكرشما أي كارهان جهاديارى نكنيد پيغمبر مرا من اورا يارى كنم چنانچه درآن محل كه با او يك كس بيش نبود تمام صناديد قريش بقصد او برخواسته بودند من اورا يارى كردم وازميان دشمنانش بسلامت بيرون آوردم پس مفتاح نصرت بقبضهٔ منست. وما النصر إلا من عند الله]:

يـا رى از مـن جو نـه ازخيـل وسپـاه ... راز بـامـن كـوى نـه بـاميـر وشـاه

هـركـرا يـارىِ كـنـم بـرتـر شـود ... هـركـرا دور افـكـنـم ابـتـر شـود

وتمام القصة أنه لما انصرف قريش من الغار وأيسوا منهما أرسلوا لأهل السواحل إن من أسر أو قتل أحدهما كان له مائة ناقة، وفي رواية مائتان ومكثا في الغار ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام يعرف يأتيهما حين يختلط الظلام ويخبرهما بما وعاه من أخبار أهل مكة ويدلج من عندهما بفجر فيصبح مع قريش بمكة كبائت في بيته وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى لأبي بكر أغناماً له نهاره، ثم يروح عليهما فيحلبها لهما وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما إذا أمست بطعامهما وشرابهما فلما طلع صبح الليلة الثالثة أتى الدليل بالراحلتين فركباهما وانطلقا نحو المدينة وانطلق معهما عامر بن فهيرة رديفاً لأبي بكر وأنزل الله عليه ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠].

قال زيد بن أسلم: جعل الله له مدخل صدق المدينة ومخرج صدق مكة وسلطاناً نصيراً الأنصار رضي الله عنهم، ولما خرج من مكة التفت إليها وبكى وقال: «إني لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله وأكرمها على الله ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت» وهو يدل على أن مكة أفضل من سائر البلاد، وفي الحديث: «من صبر على حر مكة ساعة من نهار، تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام والحسنة فيها بمائة ألف حسنة» والكلام في غير ما ضم أعضاءه الشريفة من أرض المدينة وإلا فذاك أفضل بقاع الأرض بالإجماع حتى من العرش والكرسي. ذكر أن الطوفان موّج تلك التربة المكرمة عن محل الكعبة حتى أرساها بالمدينة فهي من جملة أرض مكة ولما سمع سراقة بن مالك بن جعشم الكناني أن الكفار جعلوا فيهما إن قتلا أو أسرا مائة ناقة ركب خلفهما حتى أدركهما في طريق الساحل فصاح وقال يا محمد من يمنعك مني اليوم فقال عليه السلام: «يمنعني الجبار الواحد القهار» ونزل جبريل وقال يا محمد إن الله يقول لك قد جعلت الأرض مطيعة لك فائمرها بما شئت فقال عليه السلام: «يا أرض خذيه» فأخذت أرجل جواده إلى الركب فقال يا محمد الأمان فقال عليه السلام: «يا أرض أطلقيه» فأطلقته يقال عاهد سبع مرات ثم نكث العهد وكلما نكث تغوص قوائم فرسه في الأرض وفي السابعة تاب توبة صدق ورجع إلى مكة وصار لا يرى واحداً من طلابه عليه السلام إلا رده يقول اختبرت الطريق فلم أر أحداً وقصة نزوله المدينة مذكورة في السير.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿انفروا﴾ أي: اخرجوا أيها المؤمنون مع النبي عليه السلام إلى غزوة تبوك.

قال «تاج المصادر»: النفير والنفور [بسفر بيرون شدن] ﴿خفافاً وثقالاً﴾ جمع خفيف وثقيل أي حال كونكم شباناً وشيوخاً أو فقراء وأغنياء أو ركباناً ومشاتاً أو أصحاء ومرضى أو عزباً أو متأهلين أو خفافاً مسرعين خارجين ساعة استماع النفير وثقالاً بعد التروية فيه والاستعداد له أو مقلين من السلاح ومكثرين منه أو نشاطاً وغير نشاط، أي خفت عليكم الحركة أو ثقلت أو مشاغيل وغير مشاغيل أو مهازيل وسماناً أو أقوياء وضعفاء يا غريبان وكدخدايان كما في «الكاشفي» وهذا ليس لتخصيص الأمرين المتقابلين بالإرادة من غير مقارنة للباقي.

قال المولى أبو السعود: أي على أي حال كان من يسر أو عسر بأي سبب كان من الصحة والمرض أو الغنى والفقر أو قلة العيال وكثرتهم أو غير ذلك مما ينتظمه مساعدة الأسباب وعدمها بعد الإمكان والقدرة في جملة. وعن ابن أم مكتوم أعليّ أن أنفر؟ فقال عليه السلام: «نعم» فرجع إلى أهله فلبس سلاحه ووقف بين يديه فنزل قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ [النور: ٦١] وعن ابن عباس رضي الله عنهما نسخت بقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١] الآية [سلمى ميكويدسبك روحان بارتكاب طاعات وكران باران ازمباشرت مخالفات. إمام قشيري ميفرما يدكه خفاف آنانندكه از بند شهود ما سوى آزادند وثقال ايشانندكه بقيد تعلقات مقيدانند] وفي «بحر الحقائق» انفروا أيها الطلاب في طلب الحق خفافاً مجردين عن علائق الأولاد والأهالي منقطعين عن عوائق الأموال والأملاك وثقالاً متمولين ومتأهلين وأيضاً خفافاً مجذوبين بالعناية وثقالاً سالكين بالهداية [يعني خفاف مجذوبا نند از كشش عنايت براه سلوك در آمده وثقال سالكا نندكه بپرورش متوجه جذبهٔ حقانى شده هرد وطائفه درراهند أما يكى ببال كشش مى پرد ويكى بپاى كوشش راه ميبرد آنكه بپاميره د درهر قدمى عالمى زير پاميكند وآنكه ببال إقبال مى پرديدم بساط مشاهدهٔ ما سوى را طى مى كند].

مرد عارف چون بدان پرمى پرد ‏ ‏ ‏ در دمى از نه فلك مى بكذرد

سير زاهد هر زمان تا تخت شاه ‏ ‏ ‏ سير عارف در دمى يك روزه راه

﴿وجاهدوا﴾ [وجهاد كنيد] والجهاد في الاصطلاح قتال الكفار لتقوية الدين كما في «شرح الترغيب المنذري» وهو المراد بما في «خالصة الحقائق» نقلاً عن «أهل الحكمة» الجهاد بذل المجهود وقتال المتمردين حملاً لهم على الإسلام ومنعاً لهم عن عبادة الأصنام.

واعلم: أن الجهاد لا ينافي كونه عليه السلام نبي الرحمة وذلك أنه مأمور بالجهاد مع من خالفه من الأمم بالسيف ليرتدعوا عن الكفر وقد كان عذاب الأمم المتقدمة عند مخالفة أنبيائهم بالهلاك والاستئصال فأما هذه الأمة فلم يعاجلوا بذلك كرامة لنبيهم عليه السلام ولكن يجاهدوا بالسيف وله بقية بخلاف العذاب المنزل وقد روي أن قوماً من العرب قالوا يا رسول الله أفنانا السيف فقال: «ذلك أبقى لآخركم» كذا في «أبكار الأفكار» ﴿بأموالكم﴾ [بما لهاى خودكه تهيهٔ زاد

وسلاح كنيد] ﴿وأنفسكم﴾ [وبنفسهاى خود كه مباشر كار زار كرديد] فهو إيجاب للجهاد بهما إن أمكن وبأحدهما عند إمكانه وإعواز الآخر حتى أن من ساعده النفس والمال يجاهد بهما ومن ساعده المال دون النفس يغزى مكانه من حاله على عكس حاله.

وفي «التأويلات النجمية» وإنما قدم إنفاق المال في طلب الحق على بذل النفس لأن بذل النفس مع بقاء الصفات الذميمة غير معتبر وهي الحرص على الدنيا والبخل بها فأشار بإنفاق المال إلى ترك الدنيا وفي الحديث: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم» قوله تعس بفتح العين وكسرها عثر أو هلك أو لزمه الشر أو سقط لوجهه أو انتكب وهو دعاء عليه أي أتعسه الله وإنما دعا عليه السلام على عبد الدينار والدراهم لأنه حرص على تحصيل المال من الحرام والحلال وبخل بالإنفاق في سبيل الملك الخلاق فوقف على متاع الدنيا الفاني وترك العمل لنعيم الآخرة الباقي. قال السلطان ولد قدس سره:

بكذار جهان راكه جهان آن تونيست ... وين دم كه همى زنى بفرمان تونيست
كرمال جهان جمع كنى شاد مشو ... ورتكيه بجان كنى جان آن تو نيست

﴿في سبيل الله﴾ هذا اللفظ عام يقع على كل عمل خالص لله تعالى سلك به طريق التقرب إلى الله تعالى بأداء الفرائض والنوافل وأنواع الطاعات وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه كما في «شرح الترغيب».

يقول الفقير: فمعنى في سبيل الله، أي في الطريق الموصل إلى الجنة والقربة والرضى وهو أن لا يكون بهوى وغرض وإن كان حصول الجنة كما في «المفاتيح» حكي أنه كتب واحد إلى يوسف بن أسباط وهو من متقدمي الصوفية إن نفسي تنازعني إلى الغزو فما تقول فيه فكتب في الجواب لأن ترد نفسك عن هواها خير من أن تقتل أو تقتل في المعركة. وحكي أنه لما دنا قتيبة بن مسلم من بلدة بخارى ليفتحها فانتهى إلى جيحون أخذ الكفار السفن حتى لا يعبر جيش المسلمين عليها فقال قتيبة اللهم إن كنت تعلم أني ما خرجت إلا للجهاد في سبيلك ولإعزاز دينك ولوجهك فلا تغرقني في هذا البحر وإن خرجت لغير هذا فأغرقني في هذا البحر ثم أرسل دابته في جيحون فعبره مع أصحابه بإذن الله. روي أن بعضهم رأى إبليس في صورة شخص يعرفه وهو ناحل الجسم مصفر اللون باكي العين محقوقف الظهر فقال له ما الذي أنحل جسمك قال صهيل الخيل في سبيل الله ولو كان في سبيلي لكان أحب إليّ فقال له فما الذي غير لونك فقال تعاون الجماعة على الطاعة ولو تعاونوا على المعصية لكان أحب إليّ قال فما الذي أبكى عينك قال خروج الحاج إليه لا بتجارة أقول قد قصدوه وأخاف أن لا يخيبهم فيحزنني ذلك وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد يرفعه قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله: «مؤمن مجاهد بنفسه وماله» قالوا ثم من قال: «مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره» ﴿ذلكم﴾ أي: ما ذكر من النفير والجهاد ﴿خير لكم﴾ من القعود وترك الإمداد.

فإن قيل: ما معنى كون الجهاد خيراً من تركه والحال أنه لا خير في تركه.

أجيب بأن معناه أن ما يستفاد من الجهاد من ثواب الآخرة خير مما يستفيده القاعد عنه من الراحة وسعة العيش والتنعم بهما كما قال في «البحر» الخيرية في الدنيا بغلبة العدو ووراثة الأرض، وفي الآخرة بالثواب ورضوان الله تعالى.

قال سعد چلبي: وفي الترك خير دنيوي فيه الراحة ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ الخير علمتم أنه خير لأن فيه استجلاب خير الدنيا وخير الآخرة وفي خلافه مفاسد ظاهرة.

وفي «بحر الحقائق»: ترك الدنيا وبذل النفس خير لكم في طلب الحق من المال والنفس. ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ قدر طلب الحق وعزة السير إليه فإن الحاصل من المال والنفس الوزر والوبال والحاصل من الطلب الوصول والوصال انتهى.

قال في «زبدة التفاسير»: عن أنس رضي الله عنه إن أبا طلحة رضي الله عنه قرأ سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً**﴾ فقال: أي بني جهزوني فقال بنوه رحمك الله قد غزوت مع النبي عليه السلام حتى مات ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حتى ماتا فنحن نغزو عنك فقال لا جهزوني فغزا بحراً فمات في البحر فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها ولم يتغير.

يقول الفقير: وذلك لأن أجساد الأنبياء والأولياء والشهداء لا تبلى ولا تتغير لما أن الله تعالى قد نقى أبدانهم من العفونة الموجبة للتفسخ وبركة الروح المقدس إلى البدن كالأكسير، ثم إن الناس صنفان أرباب رخصة وأصحاب عزيمة ولله در أصحاب العزيمة في مسابقتهم ومسارعتهم فعليك بطريقتهم وسيرتهم.

وهذه الآية الكريمة متعلقة بمرتبة النفس وإصلاحها فإن النفس مجبولة على حب المال وفي بذله تزكيتها عن هذه الرذيلة، فمن علم أن الغنى والفقر من الله تعالى وآمن بالقدر إيمانياً عيانياً هان عليه البذل ولم يبق عنده مقدار للمال كما أن من علم أن الموت بالأجل وأن المرء لا يموت قبل حلول ذلك الأجل لا يفر من محاربة العدو وحفظ المال وإمساكه إنما يحسن لأجل الإنفاق وقت الحاجة وإلا فكنزه مذموم [كو يندكه نافع مولاى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كه استاد امام شافعي بوددروقت مردن كفت اين جايكه را بكنيد بكندند بيست هزار درم درسبويى بديد آمد كفت آنكاه كه ازجنازهٔ من باز آمده باشيد بدرويش دهيد اوراكفتند يا شيخ چون توكسى درم نهد كفت بحق اين وقت تنك كه زكاة وى بركردن من نيست وهر كزعيالان خودرا بسختى نداشتم لكن هركاه كه مرا آرزويى بودمى آنچه بدان آرزو بايستى دادن درسبو افكندمى تااكر مرا سختى پيش آيد بدر سفلهٔ نبايد رفتن] كذا في «شرح الشهاب».

وفي هذه الحكاية أمور: الأول: إن من كان إماماً للناس ومقتدى في الدين لا ينبغي له أن يدخر ويكنز المال طمعاً وحرصاً لأن الناس على دين ملوكهم وقد قيل: [شيخ چون مائل بمال آيد مريداو مباش مائل دينار هركز مالك ديدار نيست]، والثاني: إن من غلبت عليه شهوته فمنع طبيعته عن مقتضاها بإمساك ماله عن الصرف لها رجاء بذله لخير منه فقد جاهد مع نفسه وطبيعته أما مع نفسه فلأنه ما كتم المال لأجل الكنز بل لأجل البذل لأنفع شيء في وقت مّا. وأما مع طبيعته فلأنه منعها من مقتضاها وراضها ومثل هذا هو الجهاد الأكبر. والثالث: إن عرض الاحتياج على اللئيم ملوم مذموم شرعاً وطريقة ولذا من جاع واحتاج فكتمه عن الناس وأقبل إلى الله تعالى كان على الله أن يفتح له رزق سنة والشكاية من الحبيب إلى الحبيب عين التوحيد وإلى غيره شرك تعلق به الوعيد.

فعلى العاقل أن يختار طريق أصحاب الصفة فإنهم كانوا مع الحق وفي معاونته دائماً ببذل أموالهم إن منحوا وأنفسهم إن منعوا لأن ما لا يدرك كله لا يترك كله فكل مأمور بمقدار طاقته

وليست الطاعة إلا بقدر الطاقة هذا هو اللائح بالبال، والله أعلم بحقيقة الحال نسأل الله سبحانه أن يوفقنا لبذل المجهود وترك ملاحظة المفقود ويوصلنا إلى جنابه إنه هو المروم والمقصود.

﴿لو كان﴾ [آورده اندكه چون حضرت رسول الله ﷺ مردمانرا بغزوهٔ تبوك أشارت فرمود ايشان سه فرقه شدند. جمعى مسارعت نمودند وفرمانرا بسمع اطاعت شنودندو آن اكابر مهاجرين وأنصار بودند. وبعضى ضعفاء مؤمنا نراكران آمد فرمان خدا وحكم رسول الله ﷺ برهواى نفس اختيار كردند. وبرخى دستورى اقامت وتخلف طلبيدند وآنها منافقان بودند ودرشان ايشان نازل شدكه] لو كان يا محمد ما دعوتهم إليه فاسم كان محذوف دل عليه ما قبله. **﴿عرضاً قريباً﴾** العرض ما عرض لك من نافع الدنيا أي غنماً سهل المأخذ قريب المنال. **﴿وسفراً قاصداً﴾** ذا قصد وتوسط بين القريب والبعيد ففاعل بمعنى ذي قصد كلابن وتامر بمعنى ذي لبن وذي تمر وسمي السفر سفراً لأنه يسفر أي يكشف عن أخلاق الرجال **﴿لاتبعوك﴾** في الخروج طمعاً في المال وتعليق الاتباع بكلا الأمرين يدل على عدم تحققه عند توسط السفر فقط **﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾** أي المسافة الشاقة التي تقطع بمشقة. **﴿وسيحلفون بالله﴾** السين للاستقبال أي سيحلف المتخلفون عن الغزو إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك وقد صنع كما أخبر فهو من جملة المعجزات النبوية. **﴿لو استطعنا﴾** أي: قائلين لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتهما جميعاً **﴿لخرجنا معكم﴾** أي: إلى الغزاة، فقوله (بالله) متعلق بسيحلفون. وقوله (لخرجنا) ساد مسد جوابي القسم والشرط جميعاً؛ لأن قولهم لو استطعنا في قوة بالله لو استطعنا فيكون بالله قسماً. **﴿يهلكون أنفسهم﴾** بدل من سيحلفون لأن الحلف الكاذب إهلاك للنفس ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع» جمع بلقع وبلقعة وهي الأرض القفر التي لا شيء بها والمرأة البلقعة الخالية من الخير يعني من حلف عمداً كذباً لأجل الدنيا وزيادة المال وبقاء الجاه فقد تعرض لزوال ما في يده من المال والجاه وبزواله يفتقر وتخرب داره من البركة وفي الحديث: «اليمين الكاذبة منفقة للسلعة» أي سبب لنفاقها ورواجها في ظن الحالف «ممحقة للكسب» أي: سبب لمحق بركة المكسوب وذهابها إما بتلف يلحقه في ماله أو بإنفاقه في غير ما يعود نفعه إليه في العاجل أو ثوابه في الآجل أو بقي عنده وحرم نفعه أو ورثه من لا يحمده. **﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾** أي: في مضمون الشرطية وفيما ادعوا ضمناً من انتفاء تحقيق المقدم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ لام لم ولام لهم متعلقتان بالإذن لاختلافهما في المعنى فإن الأولى للتعليل والثانية للتبليغ والضمير المجرور لجميع المستأذنين أي لأي سبب أذنت لهم في التخلف حين اعتلوا بعللهم.

واعلم أن قوله تعالى: **﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾** دل على أن قوماً

تخلفوا عن اتباعه عليه السلام؛ لأن لو لانتفاء الجواب لانتفاء الشرط وقوله: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ دل على أن ذلك التخلف كان بإذن رسول الله والعفو يستدعي سبق الخطأ وهذا الخطأ ليس من قبيل الذنب بل من ترك الأولى والأفضل الذي هو التأني والتوقف إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال. فقوله عفا خبر: يعني [دركذار پندخداى ازتو]. وقوله لم أذنت لهم بيان لما أشير إليه بالعفو من ترك الأولى وإنما قدم الله العفو على العتاب تصديقاً وتحقيقاً لقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وقوله لم أذنت لهم ما كان على وجه العتاب حقيقة بل كان على إظهار لطفه به وكمال رأفته في حقه كما في «التأويلات النجمية».

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ولقد أخطأ وأساء الأدب وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت كما في «الإرشاد».

ويجوز أن يكون إنشاء كما قال الكاشفي في «تفسيره» ﴿عفا الله عنك﴾ [دعاء له است حق سبحانه وتعالى پيغمبر خودرا ميفرما يدكه عفو كناد ازتوخداى وعادت مردم مى باشدكه دعا كند كسى را بعفو ورحمت ومغفرت بى وقوع خطايى ازوى چنانچه مثلا يكى تشنه را آب دهد او در جواب ميكويد غفر الله لك يا در جواب عاطس ميكويد يرحمك الله] انتهى.

أقول: ولقد أصاب في تفسيره وأجاد في تقريره فإن خطأ النبي عليه السلام وسهوه ونسيانه ليس من قبيل خطأ الأمة وسهوهم ونسيانهم فالأولى للتأدب أن يسكت عما يشين بحاله أو لا يليق بكماله. ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ أي: فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة من جهة المال أو من جهة البدن أو من جهتهما معاً. ﴿وتعلم الكاذبين﴾ في ذلك فتعامل كلاً من الفريقين بما يستحقه وهو بيان لذلك الأولى والأفضل، و(حتى) متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام تقديره لم سارعت إلى الاذن لهم وهلا أخرتهم وتأنيث إلى أن يتبين الأمر وينجلي أو ليتبين كما هو قضية الجزم فحتى بمعنى إلى أو بمعنى اللام ولا يجوز أن يتعلق بأذنت لأن ذلك يوجب أن يكون أذن لهم إلى هذه الغاية أو لأجل التبين وهذا لا يعاتب عليه.

واعلم أن الآية الأولى أشارت إلى أن من كان مطلوبه الدنيا وزينتها يجد له مساعداً ومصاحباً كثيراً ومن كان مطلوبه الحق والوصول إليه لا يجد له مرافقاً وموافقاً إلا أقل من القليل لصعوبة الانقطاع عن الحظوظ والأماني. وفي «المثنوي»:

حفت الجنة بمكروهاتنا حفت النيران من شهواتنا

يعني: جعلت الجنة محفوفة بالأشياء التي كانت مكروهة لنا وجعلت النار محاطة بالأمور التي كانت محبوبة لنا وإتيان الحظوظ أسهل من تركها ولذا ترى الرجل يدخل النار بألف درهم ولا يدخل الجنة بدرهم واحد.

والآية الأخيرة أفادت التحري والتأني في الأمور وفي حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي أوصني فقال النبي عليه السلام: «خذ الأمر بالتدبر فإن رأيت في عاقبته خيراً فأمضه وإن خفت غياً فأمسك» والعجلة صفة من صفات الشيطان. روي أنه لما رأى خلقة آدم من الطين قبل أن ينفخ فيه الروح عجل في أمره وقال وعزة ربي إن جعل هذا خيراً وفضله علي فلا أطيعه وإن جعلني خيراً منه لأهلكنه فلما نفخ فيه الروح وأمر الملائكة وإبليس بالسجود له عجل

إبليس بالإباء لإظهار العداوة والسعي في هلاكه على ما عزم عليه أولاً ولم يتأن وينظر في أمره. وأما التأني فمن أوصاف الرحمن ولذا خلق السموات والأرض في ستة أيام وإن كان قادراً على أن يخلقها في مقدار طرفة عين.

فعلى العاقل العمل بالتأني والأفضل والجهاد إلى آخر العمر وحلول الأجل كيلا يكون من المتخلفين.

قال شقيق: إن الله تعالى أظهر هذا الدين وجعل عزه في الجهاد فمن أخذ منه حظه في زمانه كان كمن شاهده كله وشارك من مضى قبله من الغزاة ومن تبطأ عنه في زمانه فقد شارك المتخلفين عن رسول الله ﷺ في إثمهم وعارهم والتبطؤ والتخلف إنما هو من الكسل الطبيعي البدني ومن كان له حظ روحاني يجد في نفسه المسارعة إلى الخيرات. وفي «المثنوي»:

هر كرانى وكسل خود ازتنست جان زخفت جمله درپر يدنست

اللهم اعصمنا من الكسل في باب الدين وأعنا إنك أنت المعين.

﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ في ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ وإن الخلص منهم يبادرون إليه من غير توقف على الإذن فضلاً عن أن يستأذنوك في التخلف وحيث استأذنك هؤلاء في التخلف كان مظنة للتأني في أمرهم بل دليلاً على نفاقهم وعلة عدم الاستئذان الإيمان كما أن علة الاستئذان عدم الإيمان بناء على قاعدة أن تعليق الحكم بالوصف يشعر بعلية الوصف له. ﴿والله عليم بالمتقين﴾ شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين وعدة لهم بإجزال الثواب وإشعار بأن ما صدر عنهم معلل بالتقوى.

﴿إنما يستأذنك﴾ في التخلف ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ قال في «التبيان» كان الاستئذان في ذلك الوقت علامة النفاق، قيل كانوا تسعة وثلاثين رجلاً. ﴿وارتابت قلوبهم﴾ عطف على الصلة والماضي للدلالة على تحقق الريب والريب شك مع اضطراب القلب ودل على أن الشاك المرتاب غير مؤمن. ﴿فهم﴾ حال كونهم ﴿في ريبهم﴾ وشكهم المستقر في قلوبهم ﴿يترددون﴾ أي يتحيرون فإن التردد [ديدن المتحير] كما أن الثبات [ديدن المستبصر].

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿ولو أرادوا الخروج﴾ يدل على أن بعضهم قالوا عند الاعتذار كنا نريد الخروج لكن لم نتهيأ له وقد قرب الرحيل بحيث لا يمكننا فكذبهم الله وقال لو أرادوا الخروج معك إلى العدو في غزوة تبوك. ﴿لأعدوا له﴾ أي: للخروج في وقته ﴿عدة﴾ أي: أهبة من الزاد والراحلة والسلاح وغير ذلك مما لا بد منه للسفر ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ ولكن ما أرادوه لما أنه تعالى كره نهوضهم للخروج لما فيه من المفاسد الآتية. والانبعاث [برانكيخته شدن] كما في «التاج» فلكن للاستدراك من المقدم.

وفي «حواشي سعدي چلبي»: الظاهر أن لكن ههنا للتأكيد انتهى ﴿فثبطهم﴾ أي حبسهم بالجبن والكسل فتثبطوا عنه ولم يستعدوا له والتثبيط صرف الإنسان عن الفعل الذي يهم به ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ الذين شأنهم القعود وملازمة البيوت وهم الزمنى والمرضى

والعميان والنساء والصبيان ففيه ذم لهم وظاهره يخالف قوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ فلذا حملوه على التمثيل بأن يشبه إلقاء الله تعالى في قلوبهم كراهة الخروج بأمر آمر أمرهم بالقعود ثم بين سر كراهته تعالى لانبعاثهم فقال:

﴿لو خرجوا فيكم﴾ [درميان شما] أي مخالطين لكم ﴿ما زادوكم﴾ أي: ما أورثوكم شيئاً من الأشياء. ﴿إلا خبالاً﴾ أي: فساداً وشراً كالتجبين وتهويل أمر الكفار والسعي للمؤمنين بالنميمة وإفساد ذات البين وإغراء بعضهم على بعض وتحسين الأمر لبعضهم وتقبيحه للبعض الآخر ليتخلفوا وتفترق كلمتهم فهو استثناء مفرغ من أعم العام الذي هو الشيء فلا يلزم أن يكون في أصحاب رسول الله ﷺ خبال وفساد ويزيد المنافقون ذلك الفساد بخروجهم فيما بينهم لأن الزيادة المستثناة إنما هي الزيادة بالنسبة إلى أعم العام لا بالنسبة إلى ما كان فيهم من القبائح والمنكرات.

وفي «البحر»: قد كان في هذه الغزوة منافقون كثير ولهم لا شك خبال فلو خرج هؤلاء لالتأموا فزاد الخبال انتهى ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أي لسعوا بينكم وأسرعوا بإلقاء ما يهيج العداوة أو ما يؤدي إلى الانهزام، والإيضاع تهييج المركوب وحمله على الإسراع من قولهم وضع البعير وضعاً إذا أسرع وأوضعته أنا إذا حملته على الإسراع. والمعنى لأوضعوا ركائبهم بينكم على حذف المفعول، والمراد به المبالغة في الإسراع بالنمائم لأن الراكب أسرع من الماشي، والخلال جمع خلل وهو الفرجة بين الشيئين وهو بمعنى بينكم منصوب على أنه ظرف أوضعوا. ﴿يبغونكم الفتنة﴾ حال من فاعل أوضعوا، أي حال كونهم باغين أي طالبين الفتنة لكم وهي افتراق الكلمة ﴿وفيكم﴾ [ودرميان شما] ﴿سماعون لهم﴾ أي: نمامون يسمعون حديثكم لأجل نقله إليهم فاللام للتعليل أو فيكم قوم ضعفة يسمعون للمنافقين أي يطيعونهم فاللام لتقوية العمل لكون العامل فرعاً كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] ﴿والله عليم بالظالمين﴾ علماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم وما فعلوا فيما مضى وما يأتي منهم فيما سيأتي وهو شامل للفريقين السماعين والقاعدين.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿لقد ابتغوا﴾ أي: طلب هؤلاء المنافقون ﴿الفتنة﴾ تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك ﴿من قبل﴾ أي قبل غزوة تبوك يعني يوم أحد فإن أبياً انصرف يوم أحد مع ثلاثمائة من أصحابه وبقي النبي عليه السلام مع سبعمائة من خلص المؤمنين، وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضاً بعد ما خرج النبي عليه السلام إلى ذي جدة أسفل من ثنية الوداع، وكذا ابتغوا الفتنة في حرب الخندق حيث قالوا يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، وفي ليلة العقبة أيضاً حيث ألقوا شيئاً بين قوائم ناقة رسول الله ﷺ بالليل حتى تنفر وتلقى النبي عليه السلام عن ظهرها، وأيضاً وقف اثنا عشر رجلاً من المنافقين على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا به عليه السلام فأخبره الله بذلك وسلمه منهم، والفتك: أن يأتي الرجل صاحبه وهو غارّ غافل حتى يشد عليه فيقتله. ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ تقليب الأمر تصريفه من وجه إلى وجه وترديده لأجل التدبير والاجتهاد في المكر والحيلة يقال للرجل المتصرف في وجوه الحيل حول قلب، أي اجتهدوا ودبروا لك الحيل

والمكايد ورددوا الآراء في إبطال أمرك. ﴿حتى جاء الحق﴾ أي: النصر والتأييد الإلهي. ﴿وظهر أمر الله﴾ غلب دينه وعلا شرفه ﴿وهم كارهون﴾ والحال إنهم كارهون لذلك أي على رغم منهم.

وقال الكاشفي: [وايشان ناخواها نند نصرت ودولت ترا اما چون خداى تعالى مى خواهد كراهت ايشانرا اثرى نيست].

چون ترا اندر حريم قرب خودره داده شاه ازنفير پرده دار وطعن دربان غم مخور

انظر إلى ما في هذه الآيات من تقبيح حال المنافقين وتسلية رسول الله والمؤمنين وبيان كون العاقبة للمتقين ولن يزال الناس مختلطاً مخلصهم بمنافقهم من ذلك الوقت إلى هذا الحين لكن من كان له نية صادقة صالحة يختار فراق أهل الهوى والرياء أجمعين؛ لأن صحبة غير الجنس لا تزيد إلا تشويشاً وتفرقة في باب الدين وكسلاً في عزيمة أهل اليقين فاجهد أن لا ترى الأضداد ولا تجاورهم فكيف أن تعاشرهم وتخالطهم يا مسكين. وفي «المثنوي»:

چون ببندى تو سر كوزه تهى درميان حوض وياجوئى نهى
تاقيامت او فرو نايد ببست كه دلش خاليست دروى بادهست
ميل بادش چون سوى بالا بود ظرف خودرا هم سوى بالا كشد
باز آن جانهاكه جنس انبياست سوى ايشان كش كشان چون سايه هاست
جان هامان جاذب قبطى شده جان موسى جاذب سبطى شده
معدۀ خركه كشد در اجتذاب معدۀ آدم جذوب كندم آب

ثم في قوله تعالى: ﴿ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم﴾ ذم للنمام والنميمة وهي كشف ما يكره كشفه يقال إن ثلث عذاب القبر من النميمة.

قال عبد الله بن المبارك ولد الزنى لا يكتم الحديث.

قال الإمام الغزالي: أشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد الزنى وفي حديث المعراج «قلت لمالك أرني جهنم، فقال: لا تطيق على ذلك، فقلت مثل سم الخياط فقال: انظر، فنظرت فرأيت قوماً على صورة القردة قال هم القتاتون» أي: النمامون وفرق بعضهم بين القتات والنمام بأن النمام هو الذي يتحدث مع القوم والقتات هو الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون ثم ينم كذا في «شرح المصابيح» روي أن الحسن البصري جاء إليه رجل بالنميمة، وقال: إن فلاناً وقع فيك، فقال له الحسن: متى قال؟ قال اليوم قال أين رأيته قال في منزله قال ما كنت تصنع في منزله قال كانت له ضيافة قال ماذا أكلت في منزله، قال كيت وكيت حتى عدد ثمانية ألوان من الطعام، فقال الحسن: يا هذا قد وسع بطنك ثمانية ألوان من الطعام ألا وسع حديثا واحداً قم من عندي يا فاسق. وفيه إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بصداقته. وذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه وأخبره بخبر عن غيره فقال له الحكيم قد أبطأت في الزيارة وأتيتني بثلاث جنايات بغضت إليّ أخي وشغلت قلبي الفارغ واتهمت نفسك الأمينة كذا في «الروضة» و«الأحياء» وهذا عادة الإخوان خصوصاً في هذا الزمان سامحهم الله الملك الديان.

فعلى العاقل حفظ اللسان وحفظ الجوارح من مساوىء الكلام وأنواع الآثام فإن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿ومنهم﴾ أي من المنافقين. ﴿من يقول﴾ لك يا محمد. ﴿ائذن لي﴾ في القعود عن غزوة تبوك ﴿ولا تفتني﴾ من فتنه يفتنه أوقعه في الفتنة كفتنه وافتتنه يلزم ويتعدى كما قال في «تاج المصادر» الفتون والفتن [دوفتنه افكندن وفتنه شدن] والمعنى لا توقعني في الفتنة وهي المعصية والإثم يريد إني متخلف لا محالة أذنت أو لم تأذن فائذن لي حتى لا أقع في المعصية بالمخالفة أو لا تلقني في الهلكة فإني إن خرجت معك هلك مالي وعيالي لعدم من يقوم بمصالحهم. ﴿ألا﴾ [بدانكه] ﴿في الفتنة﴾ أي: في عينها ونفسها وأكمل أفرادها. ﴿سقطوا﴾ لا في شيء مغاير لها وهي فتنة التخلف ومخالفة الرسول وظهور النفاق. يعني إنهم وقعوا فيما زعموا أنهم محترزون عنه فالفتنة هي التي سقطوا فيها لا ما احترزوا عنه من كونهم مأمورين بالخروج إلى غزوة تبوك. ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ معطوف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه أي جامعة للمنافقين وغيرهم من الكفار يوم القيامة من كل جانب، أي: إنهم يدخلون جهنم لا محالة لأن الشيء إذا كان محيطاً بالإنسان فإنه لا يفوته كما في الحدادي أو جامعة لهم الآن لإحاطة أسبابها من الكفر والمعاصي.

وقيل: تلك المبادي المتشكلة بصور الأعمال والأخلاق هي النار بعينها ولكن لا يظهر ذلك في هذه النشأة وإنما يظهر عند تشكلها بصورها الحقيقة في النشأة الآخرة وقس عليها الأعمال والأخلاق المرضية ألا ترى أن دم الشهيد يتشكل بصورة المسك فلا يفوح منه إلا المسك كما ورد في الشرع.

وقال بعضهم: هذه الآية نزلت في جد بن قيس من المنافقين دعاه النبي عليه السلام إلى الخروج إلى العدو وحرضه على الجهاد «فقال له يا جد بن قيس هل لك في جلاد بني الأصفر» يعني: طوال القدّ منهم فإن الجلاد من النخل هي الكبار الصلاب «تتخذ منهم سراري ووصفاء» فقال جد ائذن لي في القعود ولا تفتني بذكر نساء الروم، فإنه قد علمت الأنصار أني رجل مولع بالنساء أي مفرط في التعلق بهن فأخشى إن ظفرت ببنات الأصفر أن لا أصبر عنهن فأواقعهن قبل القسمة فأقع في الفتنة والإثم فلما سمع النبي عليه السلام قوله اعرض عنه وقال: «أذنت لك» ولم يقبل الله تعالى عذر جد وبين أنه قد وقع في الفتنة بمخالفة النبي عليه السلام، والمراد ببني الأصفر الروم وهم جيل من ولد روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، والوجه في تسمية الروم ببني الأصفر أن ملوك الروم انقضوا في الزمان الأول فبقيت منهم امرأة فتنافسوا في الملك حتى وقع بينهم شر عظيم فاتفقوا على أن يملكوا أول من أشرف عليهم فجلسوا مجلساً لذلك وأقبل رجل من اليمن معه عبد له حبشي يريد الروم فأبق العبد فأشرف عليهم فقالوا انظروا في أي شيء وقعتم فزوجوه تلك المرأة فولدت غلاماً فسموه الأصفر فخاصمهم المولى فقال صدق أنا عبده فأرضوه، فلذلك قيل للروم بنو الأصفر لصفرة لون هذا الولد لكونه مولداً بين الحبشي والمرأة البيضاء.

وفي «الروض» قيل لهم: بنو الأصفر لأن عيصو بن إسحاق كان به صفرة وهو جدهم وقيل إن الروم بن عيصو هو الأصفر وهو أبوهم وأمه نسمة بنت إسماعيل عليه السلام وليس كل الروم من ولد بني الأصفر فإن الروم الأول فيما زعموا من ولد يونان بن يافث بن نوح عليهم السلام انتهى.

وقيل: قيل لهم بنو الأصفر لأن جدهم روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم تزوج بنت ملك الحبشة فجاء لون ولده بين البياض والسواد فقيل له الأصفر وقيل لأولاده بنو الأصفر.

وقيل: لأن جيشاً من الحبشة غلب على ناحيتهم في وقت فوطىء نساءهم فولدت أولاداً صفراء بين سواد الحبشة وبياض الروم. حكي عن بعض العارفين أنه رأى النبي عليه السلام في المنام فقال يا رسول الله إني أريد أن أتوجه إلى الروم فقال عليه السلام الروم لا يدخله المعصوم فاختلج في صدره أن في الروم العلماء والصلحاء والأولياء أكثر من أن يحصى ثم تتبع فوجد أن المراد من المعصوم الأنبياء وأما هؤلاء فيسمون المحفوظين الكل من «أنوار المشارق» وثبت في الصحيح أنه «لا يبقى مسلم وقت قيام الساعة» لكن يكون الروم وهم قوم معروف أكثر الكفرة في ذلك الوقت كما كانوا اليوم أكثرهم.

ثم إن القعود عن الغزو من بخل الرجل وهو من أذم الصفات.

قال إبراهيم بن أدهم: إياك والبخل قيل وما البخل قال أما البخل عند أهل الدنيا فهو أن يكون الرجل شحيحاً بماله وأما الذي عند أهل الآخرة فهو الذي يبخل بنفسه عن الله تعالى ألا وإن العبد إذا جاد بنفسه لله تعالى أورث قلبه الهدى والتقى وأعطاه السكينة والوقار والعلم الراجح والعقل الكامل.

فعلى العاقل الجود بماله ونفسه في الجهاد الأصغر والأكبر حتى ينال الرضى من الله تعالى والجود من أمدح الصفات. وحكي عن أبي جهيم بن حذيفة قال انطلقت يوم تبوك أطلب عمي ومعي ماء أردت أن أسقيه إن كان به رمق فرأيته ومسحت وجهه فقلت له أسقيك الماء فأشار برأسه نعم فإذا رجل يقول آه من العطش فأومى برأسه أن اذهب إليه فإذا هو هشام بن العاص فقلت اسقيك قال: نعم فلما دنوت منه سمعت صوتاً يقول آه من العطش فأشار إلى أن اذهب به إليه فذهبت فإذا هو ميت فرجعت بالماء إلى هشام فإذا هو ميت فرجعت إلى عمي فإذا هو ميت كذا في «خالصة الحقائق». قال الحافظ الشيرازي قد سره:

فداى دوست نكرديم عمرو مال دريغ   كه كار عشق زما اين قدر نمى آيد

قال السعدي قدس سره:

اكر كنج قارون بچنك آورى   نماند مكر آنچه بخشى برى

﴿**إن تصبك**﴾ في بعض غزواتك ﴿**حسنة**﴾ ظفر وغنيمة كيوم بدر. ﴿**تسؤهم**﴾ تلك الحسنة أي تورثهم يعني المنافقين مساءة وحزناً لفرط حسدهم وعداوتهم لك. ﴿**وإن تصبك**﴾ في بعضها ﴿**مصيبة**﴾ جراحة وشدة كيوم أحد أو قتل وهزيمة على أن يكون المراد بالخطاب المؤمنين كما يدل عليه ما بعد الآية من إيراد ضمائر المتكلم مع الغير وإلا فمن قال إن النبي عليه السلام هزم في بعض غزواته يستتاب فإن تاب فيها ونعمت وإلا قتل لأنه نقص ولا يجوز ذلك عليه خاصة إذ هو على بصيرة من أمره ويقين من عصمته كما في «هدية المهديين» نقلاً عن القاضي عبد الله بن المرابط ﴿**يقولوا قد أخذنا أمرنا**﴾ [احتياط كار خودرا] ﴿**من قبل**﴾ أي:

من قبل إصابة المصيبة: يعني [دور انديشى كرديم وبدين حرب نرفتيم] ﴿ويتولوا﴾ أي: يدبروا عن مجلس الاجتماع والتحدث إلى أهاليهم. ﴿وهم فرحون﴾ بما صنعوا من الاعتزال عن المسلمين والقعود عن الحرب والجملة حال من الضمير في يقولوا أو يتولوا لا من الأخير فقط لمقارنة الفرح لهما معاً. ﴿قل﴾ بياناً لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد. ﴿لن يصيبنا﴾ أبداً ﴿إلا ما كتب الله﴾ في اللوح المحفوظ. ﴿لنا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجلنا من خير وشر وشدة ورخاء لا يتغير بموافقتكم ومخالفتكم وأمور العباد لا تجري إلا على تدبير قد أحكم وأبرم ﴿هو مولانا﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا. ﴿وعلى الله﴾ وحده وهو من تمام الكلام المأمور به ويجوز أن يكون ابتداء كلام من الله تعالى. ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ التوكل تفويض الأمر إلى الله تعالى والرضى بما فعله وإن كان ذلك بعد ترتيب المبادي العالية والمعنى إن حق العبد أن يتوكل على مولاه ويبتغي رضوانه ويعتقد أنه لن يصيبه شيء من الأشياء إلا ما قدر له.

پير ما كفت خطا بر قلم صنع نرفت آفرين بر نظر پاك خطا پوشش باد

وفي الحديث: «إن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قل﴾ للمنافقين ﴿هل تربصون بنا﴾ التربص التمكث مع انتظار مجيء شيء خيراً كان أو شراً والباء للتعدية وإحدى التاءين محذوفة إذ الأصل تتربصون. والمعنى ما تنتظرون بنا. ﴿إلا إحدى الحسنيين﴾ أي: العاقبتين اللتين كل واحدة منهما من حسنى العواقب وهما النصر والشهادة وهذا نوع بيان لما أبهم في الجواب الأول وكشف لحقيقة الحال بإعلام أن ما يزعمونه مضرة للمسلمين من الشهادة أنفع مما يعدونه منفعة من النصر والغنيمة. والمعنى فما تفرحون إلا بما نلنا مما هو أحسن العواقب وحرمانكم من ذلك فأين أنتم من التيقظ والعمل بالحزم كما زعمتم وفي الحديث: «يضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرج إلا إيماناً بالله وتصديقاً برسوله، أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة».

دولت اكر مدد دهد دامنش آورم بكف كربكشد زهى طرب وربكشد زهى شرف

﴿ونحن نتربص بكم﴾ أحد السوأيين من العواقب ﴿أن يصيبكم الله﴾ [آنكه برساند خداى تعالى بشما]. ﴿بعذاب من عنده﴾ كما أصاب من قبلكم من الأمم المهلكة من الصيحة والرجفة والخسف وكون العذاب من عند الله عبارة عن عدم كونه بأيدي العباد. ﴿أو﴾ بعذاب ﴿بأيدينا﴾ وهو القتل بسبب الكفر. ﴿فتربصوا﴾ الفاء فصيحة أي إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ﴿إنا معكم متربصون﴾ ما هو عاقبتكم فإذا لقي كل منا ومنكم ما يتربصه لا تشاهدون إلا ما يسرنا ولا نشاهد إلا ما يسوؤكم وفي الحديث: «مثل المؤمن مثل السنبلة تحركها الريح، فتقوم مرة وتقع أخرى ومثل الكافر مثل الأرزة لا تزال قائمة حتى تنقعر» أي: تنقطع يقال قعر الشجرة قلعها من أصلها فانقعرت. والأرزة شجر يشبه الصنوبر يكون بالشام وبلاد الأرمن وقيل: هو شجر الصنوبر: يعني [مؤمن را عيش خوش نبودشادى باغم ونعمت باشدت

ودرستى بابيمارى وچنين بسيار بماند وكافر تن درست ودل خوش بودلكن بيك كرت بسراندر آيد وهلاك شود]، وفي الحديث: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة» يعني، أن الولي وهو المؤمن المطيع ينصر الله تعالى فيكون الله ناصره فمن عادى من كان الله ناصره فقد بارز بمحاربة الله وكل كافر ومنافق فهو مهين الأولياء وإهانتهم بذر محصوله الهلاك والاستئصال وفي «المثنوي»:

قصهٔ عاد وثمود ازبهر چيست ... تابداني كانبيا را ناز كيست

اين نشان خسف وقذف وصاعقه ... شد بيان عز نفس ناطقه

جمله حيوانرا پى انسان بكش ... جمله انسانرا بكش ازبهر هش

هش چه باشد عقل كل هو شمند ... هوش جزئى هش بود اما نژند

وقد ذم الله المنافقين بتغيير الحال وعدم مواطأة الحال بالمقال وفي الحديث: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» وفي الحديث: «طوبى لمن طاب كسبه، وصلحت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن الناس شره» وفي الحديث: «من شر الناس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه آخر ومن كان ذا وجهين في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار» كما في «أبكار الأفكار».

﴿**قل**﴾ جواباً لجد بن قيس من المنافقين وهو قد استأذن في التخلف عن غزوة تبوك وقال أعينك بمالي. ﴿**أنفقوا**﴾ أيها المنافقون أموالكم في سبيل الله حال كونكم ﴿**طوعاً**﴾ أي طائعين من قبل أنفسكم ﴿**أو كرهاً**﴾ أو كارهين مخافة القتل كما في الحدادي.

وقال في «الإرشاد»: «طوعاً» أي من غير إلزام من جهته عليه السلام ولا رغبة من جهتكم أو هو فرضي لتوسيع الدائرة انتهى أي فلا يخالفه قوله: ﴿**ولا ينفقون إلا وهم كارهون**﴾ كما سيأتي ﴿**لن يتقبل منكم**﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أنه عليه السلام لا يقبله منهم بل يرد عليهم ما يبذلونه أو أنه تعالى لا يقبله منهم ولا يثيبهم عليه قوله أنفقوا أمر في معنى الخبر، أي أنفقتم وذلك لأن قوله لن يتقبل منكم يأبى عن حمله على معناه الظاهر إذ لا وجه لأن يؤمر بشيء ثم يخبر بأنه عبث لا يجدي نفعاً بوجه ما. روي أنه لما اعتذر من الخروج لامه ولده عبد الله عنه وقال له: والله لا يمنعك إلا النفاق وسينزل الله فيك قرآناً فأخذ نعله وضرب به وجه ولده فلما نزلت الآية قال له: ألم أقل لك، فقال له اسكت يا لكع فوالله لأنت أشد عليّ من محمد، ثم علل رد إنفاقهم بقوله ﴿**إنكم كنتم قوماً فاسقين**﴾ أي: كافرين فالمراد بالفسق ما هو الكامل منه لا الذي هو دون الكفر كما قال الكاشفي [بدرستى كه شماهستيد كروهى بيرون رفتكان ازدائرهٔ اسلام ونفقهٔ كافر قبول نيست] فالتعليل هنا بالفسق وفيما بعده بالكفر حيث قال ألا إنهم كفروا بالله واحد. روي أنه تاب من النفاق وحسنت توبته ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿**وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله**﴾ استثناء من أعم الأشياء أي ما منعهم من قبول نفقاتهم منهم شيء من الأشياء إلا كفرهم فالمستثنى المفرغ مرفوع

المحل على أنه فاعل منع. وقوله أن تقبل مفعوله الثاني بنزع الخافض أو بنفسه فإنه يقال منعت الشيء ومنعت فلاناً حقه ومنعته من حقه.

وقال أبو البقاء: (أن تقبل) في موضع نصب بدلاً من المفعول في (منعهم). ﴿**ولا يأتون الصلاة**﴾ [ونمى آيند بنماز جماعت] وهو معطوف على كفروا. ﴿**إلا وهم كسالى**﴾ أي: لا يأتونها في حال من الأحوال إلا حال كونهم متثاقلين.

قال الكاشفي: [مكر ايشان كاهلانند بنماز مى آيند بكسالت وكراهت نه بصدق وارادت] والكسالى جمع كسلان كما يقال سكارى وسكران.

قال البغوي: كيف ذكر الكسل في الصلاة ولا صلاة لهم أصلاً؟ قيل: الذم واقع على الكفر الذي يبعث على الكسل فإن الكفر مكسل والإيمان منشط. ﴿**ولا ينفقون إلا وهم كارهون**﴾ قال ابن الشيخ: الرغبة والنشاط في أداء العبادات متفرعة على رجاء الثواب بها، وخوف العقاب على تركها المتفرعين على الإيمان بما جاء به النبي عليه السلام من عند الله، والمنافق لا يؤمن بذلك فلا يرجو ثواب الآخرة ولا يخاف عقابها فيكون كسلان في إتيان الصلاة، وكارهاً للإنفاق لزعمه أنهما إتعاب للبدن وتضييع للمال بلا فائدة، وفيه ذم الكسل قيل من دام كسله خاب أمله. قال أبو بكر الخوارزمي:

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد

وفي «المثنوي»:

كر هزاران طالبند ويك ملول از رسالت بازمى ماند رسول
كى رسانند آن امانت را بتو تانباشى پيشان راكع دوتو

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿**فلا تعجبك**﴾ الإعجاب استحسان على وجه التعجب من حسنه.

قال الكاشفي: [پس بايدكه ترابشكفت نيارد خطاب بآن حضرتست ومراد امت اند مؤمنا نرا ميفرمايدكه متعجب نكردانند شمارا]. ﴿**أموالهم**﴾ أي: أموال المنافقين. ﴿**ولا أولادهم**﴾ فإن ذلك وبال عليهم واستدراج لهم، كما قال: ﴿**إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا**﴾ ضمير بها راجع إلى الأموال دون الأولاد. والمعنى: ليعذبهم بالتعب في جمعها والوجل في حفظها والكره في إنفاقها ويجوز أن يرجع إليهم معاً بناء على أن الأولاد أيضاً أسباب للتعذيب الدنيوي من حيث إنهم إن عاشوا يبتلى أصولهم بمتاعب تربيتهم وتحصيل أسباب معاشهم من المآكل والمشارب والملابس وإن ماتوا يبتلى أصولهم بحسرة فراقهم فإن من أحب شيئاً كان تألمه على فراقه شديداً.

يقول الفقير: إن قلت: إن المؤمن والكافر يشتركان في هذا التعب والحسرة فما معنى تخصيص الكافر، أي: المنافق؟ قلت: نعم إلا أن المؤمن أخف حالاً لإيمانه وأمله ثواب الآخرة وصبره على الشدائد فيكون التعذيب بتربية الأولاد وحسرة فراقهم كلا تعذيب بالنسبة

إليه ﴿وتزهق﴾ أصل الزهوق خروج الشيء بصعوبة. ﴿أنفسهم وهم كافرون﴾ أي فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة [نه مال ايشانرا دست كيرد ونه فرزند بفرياد رسد] وفي إرادة الله زهوق أنفسهم على الكفر لينالوا وباله إشارة إلى جواز الرضى بكفر الغير وموته عليه إذا كان شريراً مؤذياً ينتقم الله منه أي من غير استحسان واستجازة كما قال الفقهاء إذا دعا على ظالم أماتك الله على الكفر، أو قال سلب الله عنك الإيمان أو دعا عليه بالفارسية [خداجان تويكافرى بستاند]، فهذا لا يكون كفراً إذا كان لا يستحسنه ولا يستجيزه ولكن تمنى أن يسلب الله الإيمان منه حتى ينتقم الله منه على ظلمه وإيذائه الخلق.

واعلم: أن الطاعة في العبودية بثلاثة أنواع بالمال والبدن والقلب أما بالمال فهو الإنفاق في سبيل الله وفي الحديث: «من جهز غازياً ولو بسلك إبرة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومن جهز غازياً ولو بدرهم أعطاه الله سبعين درجة في الجنة من الدر والياقوت» وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «أتي بفرس يجعل كل خطوة منه أقصى بصره فسار ومعه جبريل فأتى على قوم يزرعون في يوم، ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال: «يا جبرائيل من هؤلاء»؟ قال هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف»، وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه» وأما بالبدن فهو القيام بالأوامر والنواهي والسنن والآداب المستحسنة المستحبة وأما بالقلب فهو الإيمان والصدق والإخلاص في النية فالطاعة بالمال والبدن لا تقبل عند إعواز طاعة القلب كطاعة المنافقين وطاعة القلب عند إعواز الطاعة بالمال والبدن مقبولة لقوله عليه السلام: «نية المؤمن أبلغ من عمله» فالقربة لا تقبل إلا على حقيقة الإيمان وهو شرط إقامة الطاعات المالية والبدنية وفي الحديث: «إن إعطاء هذا المال فتنة وإمساكه فتنة» وذلك لأن إنفاقه على طريق الرياء أو بالمنة والأذى فتنة وكذا إمساكه، إذ في الإمساك ملامة وذلالة بل ضلالة وفي الحديث: «إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي بالمال» [حقيقت فتنه آنست كه هرچيزى كه آن مرورا از دين ورشد مشغول دارد آنراكه ازتوفيق محرومست وآنرا كه موافقيست اكر پادشاه دنيا شود آن پادشاهى اورا ازدين مشغول ندارد] وفي «المثنوي»:

چيست دنيا از خدا غافل بدن ... نى قماش ونقره وميزان وزن
مال راكز بهر دين باشى حمول ... نعم مال صالح خواندش رسول
آب در كشتى هلاك كشتى است ... آب اندر زير كشتى پستى است
چونكه مال وملك را ازدل براند ... زان سليمان خويش جز مسكين نخواند

[ومعاويه زنى را پرسيدكه على را ديدهٔ كفت بلى كفت چه كونه مردى بود على كفت لم يبطره الملك ولم تعجبه النعمة وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كويدكه هركه مال اورا نفريبد هيچ جادويى وديوى اورا نفريبد ومردى پيغمبررا ﷺ كفت مرا چارهٔ بياموزكه ديو مرانفريبد كفت دوستىء مال دردل مدار وبا هيچ زن نا محرم خالى مباش] كذا في «شرح الشهاب»:

مكن تكيه برملك وجاه وحشم ... كه پيش ازتوبودست وبعد ازتوهم

﴿ويحلفون﴾ أي: المنافقون ﴿بالله﴾ يحتمل أن يتعلق بيحلفون ويحتمل أن يكون من كلامهم ﴿إنهم لمنكم﴾ أي: لمن جملة المسلمين. ﴿وما هم منكم﴾ لكفر قلوبهم ﴿ولكنهم

قوم يفرقون﴾ أي يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين فيظهرون الإسلام تقية ويؤكدونه بالأيمان الفاجرة يقال فرق كفرح، أي فزع والفرق بفتحتين الفزع. ﴿لو يجدون﴾ [اكربيابيد] وإيثار صيغة الاستقبال في الشرط وإن كان المعنى على المضي لإفادة استمرار عدم الوجدان. ﴿ملجأ﴾ أي: مكاناً حصيناً يلجؤون إليه من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة مفعل من لجأ إليه يلجأ، أي انضم إليه ليتحصن به ﴿أو مغارات﴾ هي الكهوف الكائنة في الجبال الرفيعة أي غيراناً وكهوفاً يخفون فيها أنفسهم جمع مغارة، وهي مفعلة اسم للموضع الذي يغور فيه الإنسان أي يغيب ويستتر. ﴿أو مدخلاً﴾ هو السرب الكائن تحت الأرض كالبئر، أي نفقا يندسون فيه وينحجرون أو قوماً يمكنهم الدخول فيما بينهم يحفظونهم منكم كما في الحدادي وهو مفتعل من الدخول أصله مدتخل.

قال ابن الشيخ: عطف المغارات والمدخل على الملجأ من قبيل عطف الخاص على العام لتحقيق عجزهم عن الظفر بما يتحصنون فيه فإن الملجأ هو المهرب الذي يلتجىء إليه الإنسان ويتحصن به من أي نوع كان. ﴿لولوا﴾ أي لصرفوا وجوههم وأقبلوا. ﴿إليه﴾ أي: إلى أحد ما ذكر ﴿وهم يجمحون﴾ أي: يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء كالفرس الجموح لئلا يجتمعوا معكم ويتبعدوا عنكم، والجموح النفور بإسراع، يقال: فرس جموح إذا لم يرده لجام. والمعنى: إنهم وإن كانوا يحلفون لكم أنهم منكم إلا أنهم كاذبون في ذلك وإنما يحلفون خوفاً من القتل لتعذر خروجهم من بلادهم ولو استطاعوا ترك دورهم وأموالهم والالتجاء إلى بعض الحصون أو الغيران التي في الجبال أو السروب التي تحت الأرض لفعلوه تستراً عنكم واستكراهاً لرؤيتكم ولقائكم وفيه بيان لكمال عتوهم وطغيانهم، وإشارة إلى أن المنافق يصعب عليه صحبة المخلص فإن الجنس إلى الجنس يميل لا إلى خلافه. قال السعدي في كتاب «الكلستان» [طوطى رابازاغى همقفس كردند ازقبح مشاهدهٔ أو مجاهده برده مى كفت اين چه طلعت مكروهست وهيأت ممقوت ومنظر ملعون وشمائل ناموزون يا غراب البين يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين.

على الصباح بروى توهركه برخيزد — صباح روز سلامت برومسا باشد
بداخترى چوتو در صحبت توبايستى — ولى چنانكه تودر جهان كجاباشد

عجبتر انكه غراب هم از محاورت طوطى بجان آمده بود لا حول كنان از كردش كيتى همى ناليد ودستهاى تغا بن يكديكر همى ما ليد وميكفت اين چه بخت نكونست وطالع دون وأيام بوقلمون لايق قدر من آنستى كه بازاغى در ديوار باغى حرامان همى رفتمى.

پارسارا بس اين قدر زندان — كه بود هم طويلهٔ رندان

تاچه كنه كرده ام روز كارم بعقوبت آن در سلك صحبت چنين ابلهى خود رأى وناجنس ويافه دراى بچنين بند بلا كرده است.

كس نيايد بپاى ديوارى — كه بران صورتت نكار كنند
كرترادر بهشت باشد جاى — ديكران دوزخ اختيار كنند

اين مثل براى ان آوردم تابدانى كه صد چندانكه دانارا زناذان نفرتست نادانرا ازدانا وحشتست] قيل: أضيق السجون معاشرة الأضداد.

وقال الأصمعي: دخلت على الخليل وهو جالس على الحصير الصغير، فأشار إليّ

بالجلوس فقلت أضيق عليك فقال مه إن الدنيا بأسرها لاتسع متباغضين وإن شبرا بشبر يسع المتحابين.

قال بعضهم: الصديق الموافق خير من الشقيق المخالف.

فعلى العاقل أن يراعي جانب الآفاق والأنفس بقدر الإمكان ويجتهد في إصلاح الظاهر والباطن في كل زمان، ويجانب الأعداء وإن ادعوا أنهم من جملة الإخوان ومن الأعداء النفس وصفاتها وهي تدعي أنها على سيرة الروح والقلب والسر وسجيتها وليست كذلك لأن منشأ هذه عالم الأمر والأروح ومنشأ تلك عالم الخلق والأشباح فلا بد من إصلاحها وإزالة أخلاقها الرديئة لتكون لائقة بصحبة الروح ويحصل بسببها أنواع الذوق والفتوح.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝٥٩﴾

﴿**ومنهم**﴾ أي من المنافقين. ﴿**من يلمزك**﴾ أي: يعيبك فإن اللمز والهمز العيب واللامز كالهامز واللماز واللمزة كالهماز والهمزة بمعنى العياب، وقيل اللامز هو من يعيبك في وجهك والهامز من يعيبك بالغيب ﴿**في الصدقات**﴾ أي: في شأن الزكاة ويطعن عليك في قسمتها جمع صدقة من الصدق يسمى بها عطية يراد بها المثوبة لا التكرمة؛ لأن بها يظهر صدقه في العبودية كما في «الكراماني».

والآية نزلت في أبي الجواظ المنافق حيث قال: ألا ترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل. ﴿**فإن أعطوا منها**﴾ بيان لفساد لمزهم وأنه لا منشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا أي إن أعطوا من تلك الصدقات قدر ما يريدون. ﴿**رضوا**﴾ بما أعطوه وما وقع من القسمة واستحسنوها. ﴿**وإن لم يعطوا منها**﴾ ذلك المقدار بل أقل مما طمعوا ﴿**إذا هم يسخطون**﴾ أي يفاجئون السخط دلت إذا الفجائية على أنهم إذا لم يعطوا فاجأ سخطهم ولم يمكن تأخره لما جبلوا عليه من محبة الدنيا والشره في تحصيلها.

وفي «التأويلات النجمية»: النفاق تزيين الظاهر بأركان الإسلام وتعطيل الباطن عن أنوار الإيمان والقلب المعطل عن نور الإيمان يكون مزيناً بظلمة الكفر بحب الدنيا ولا يرضى إلا بوجدان الدنيا ويسخط بفقدها. قال السعدي:

نكند دوست زينهار از دوست   دل نهادم برآنچه خاطر اوست

كر بلطف بنزد خود خواند   ور بقهرم براند او داند

﴿**ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله**﴾ أي: ما أعطاهم الرسول من الصدقات طيبي النفوس به وإن قل وذكر الله تعالى للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول عليه السلام كان بأمره سبحانه فلا اعتراض عليه لكون المأمور به موافقاً للحكمة والصواب. ﴿**وقالوا حسبنا الله**﴾ أي: كفانا فضله وصنعه بنا وما قسمه لنا فإن جميع ما أصابنا إنما هو تفضل منه سواء كان لكسبنا مدخل فيه أو لم يكن. ﴿**سيؤتينا الله من فضله**﴾ صدقة أخرى ﴿**ورسوله**﴾ فيعطينا منها أكثر مما أعطانا اليوم ﴿**إنا إلى الله راغبون**﴾ أن يغنينا من فضله والآية بأسرها في حيز الشرط والجواب محذوف بناء على ظهوره ولتذهب فيه النفس كل مذهب ممكن، أي لكان خيراً لهم.

[زيراكه رضا بقسمت سبب بهجت است وجزع دران موجب محنت. سلمى از إبراهيم أدهم نقل ميكندكه هركه بمقادير خرسند شدازغم وملال بازرست].

رضا بداده بده وزجبين كره بكشا   كه بر من وتو در اختيار نكشادست

ودرين معنى فرموده است:

بشنواين نكته كه خودرا زغم آزاده كنى   خون خورى كر طلب روزىء ننهاده كنى

يقال إذا كان القدر حقاً كان السخط حمقاً.

ولما قدم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مكة بعدما كف بصره، قيل له: أنت مجاب الدعوة لِمَ لا تسأل رد بصرك؟ فقال: قضاء الله تعالى أحب إليّ من بصري.

قيل لحكيم: ما السبب في قبض الكف عند الولادة وفتحه عند الموت فأنشد:

ومقبوض كف المرء عند ولادة   دليل على الحرص المركب في الحي

ومبسوط كف المرء عند وفاته   يقول انظروا إني خرجت بلا شيء

حكي: أن نباشاً تاب على يد أبي يزيد البسطامي قدس سره، فسأله أبو يزيد عن حاله فقال نبشت عن ألف، فلمْ أر وجوههم إلى القبلة إلا رجلين، فقال أبو يزيد: مساكين أولئك نهمة الرزق حولت وجوههم عن القبلة.

فعلى العاقل التوكل على الله والاعتماد بوعده فإن الله كاف لعبده ومن وجد الله فقد ما دونه لأن فقدان الله في وجدان ما سواه ووجدانه في فقدان ما سواه ومن وجده يرضى به ويقول سيؤتينا الله من فضله ما نحتاج إليه في كمال الدين ونظام الدنيا إنا إلى الله راغبون لا إلى الدنيا والعقبى وما فيهما غير المولى. روي أن عيسى عليه السلام مر بقوم يذكرون الله تعالى فقال لهم ما الذي حملكم عليه قالوا الرغبة في ثواب الله فقال أصبتم ومر على قوم آخرين يذكرون الله تعالى فقال لهم ما الذي حملكم عليه قالوا الخوف من عقاب الله تعالى فقال أصبتم ومر على قوم ثالث مشتغلين بذكر الله فسألهم عن سببه فقالوا لا نذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة في الثواب بل لإظهار ذلة العبودية وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته وتشريف اللسان بالألفاظ الدالة على صفات قدسه وعزته فقال أنتم المتحققون وفي هذا المعنى. قال الحافظ:

پدرم روضهٔ جنت بدو كندم بفروخت   نا خلف باشم اكر من بجوى نفروشم

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿إنما الصدقات﴾ أي: جنس الزكوات المشتملة على الأنواع المختلفة من النقدين وغيرهما سميت الزكاة صدقة لدلالتها على صدق العبد في العبودية كما في «الكافي».

وذكر في «الأزاهير» أن تركيبها يدل على قوة في الشيء قولاً وفعلاً وسمي بها ما يتصدق به لأن بقوته يرد البلاء وقيل: لأن أول عامل بعثه ﷺ لجمع الزكاة رجل من بني صدق بكسر الدال وهم قوم من كندة والنسبة إليهم صدقى بالفتح فاشتقت الصدقة من اسمهم. ﴿للفقراء والمساكين﴾ أي مخصوصة بهؤلاء الأصناف الثمانية الآتية لا تتجاوزهم إلى غيرهم من المنافقين والفقير من له شيء دون نصاب والمسكين من لا شيء له وهو المروي عن أبي حنيفة وقيل بالعكس وفائدة الخلاف تظهر في الوصية للفقير أو المسكين. ﴿والعاملين عليها﴾ الساعي

في جمعها وتحصيلها فيعطى العامل مما في يده من مال الزكاة بقدر عمله فقيراً كان أو غنياً أو هاشمياً فلو ضاع ذلك المال لم يعط شيئاً وكذا لو أعطى المالك بنفسه زكاته إلى الإمام لا يستحق العامل شيئاً.

وفي «التبيين»: لو استغرقت كفاية الزكاة لا يزاد على النصف لأن التنصيف عين الإنصاف ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ وهم طائفة مخصوصة من العرب لهم قوة وأتباع كثيرة منهم مسلم ومنهم كافر قد أعطوا من الصدقة تقريراً على الإسلام أو تحريضاً عليه أو خوفاً من شرهم. ﴿وفي الرقاب﴾ أي وللصرف في فك الرقاب، أي: في تخليصها من الرق بأن يعان المكاتبون بشيء منها على أداء بدل كتابتهم لا للرقاب فإن المكاتب لا يستحق المال ولا يملكه بل يملكه مولاه وكذا مال المديون يملكه الدائن فالعدول عن اللام للدلالة على أن استحقاق الأربعة الأخيرة ليس لذواتهم، أي: لكونهم مكاتباً ومديوناً ومجاهداً ومسافراً حتى يتصرفوا في الصدقة كيف شاؤوا كالأربعة الأول بل لجهة استحقاقهم كفك الرقبة من الرق وتخليص الذمة من مطالبة من له الحق والاحتياج إلى ما يتمكن به من الجهاد وقطع المسافة ووجه الدلالة أن في قد تستعمل لبيان السبب كما يقال عذب فلان في سرقة لقمة أي بسببها والمراد مكاتب غيره ولو غنياً فيعطى ما عجز عنه فيؤدي إلى عنقه. والرقاب: جمع رقبة وهي يعبر بها عن الجملة وتجعل اسماً للمملوكة. ﴿والغارمين﴾ أي: الذين تدينوا لأنفسهم في غير معصية إذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم، والغارم والغريم، وإن كان يطلق كل واحد منهما على من له الدين إلا أن المراد بالغارم في الآية الذي عليه الدين وإن المديون قسمان: الأول: من اذّان لنفسه في غير معصية فيعطى له من الزكاة ما يفي بدينه بشرط أن لا يكون له من المال ما يفي بدينه وإن كان له ذلك فلا يعطى. والثاني: من اذان في المعروف وإصلاح ذات البين فإنه يعطى من مال الزكاة ما يقضي به دينه وإن كان غنياً وأما من اذّان في معصية أو فساد فإنه لا يعطى له شيء منها.

وعن مجاهد أن الغارم من احترق بيته أو ذهب السيل بماله أو اذّان على عياله. ﴿وفي سبيل الله﴾ أي فقراء الغزاة عند أبي يوسف وهم الذين عجزوا عن اللحوق بجيش الإسلام لفقرهم أي لهلاك النفقة أو الدابة أو غيرهما فتحل لهم الصدقة وإن كانوا كاسبين إذ الكسب يقعدهم عن الجهاد في سبيل الله. وسبيل وإن عم كل طاعة إلا أنه خص بالغزو إذا أطلق وعند محمد هو الحجيج المنقطع بهم. ﴿وابن السبيل﴾ أي المسافر الكثير السير المنقطع عن ماله سمي به لملازمة الطريق فكل من يريد سفراً مباحاً ولم يكن له ما يقطع به المسافة يعطى من الصدقة قدر ما يقطع به تلك المسافة سواء كان له في البلد المنتقل إليه مال أو لم يكن، وهو متناول للمقيم الذي له مال في غير وطنه فينبغي أن يكون بمنزلة ابن السبيل، وللدائن الذي مديونه مقر لكنه معسر فهو كابن السبيل كما في «المحيط» ﴿فريضة من الله﴾ مصدر لما دل عليه صدر الآية لأن قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ في قوة أن يقال فرض الله لهم الصدقات فريضة.

قال الكاشفي: [حق سبحانه وتعالى براى اين جماعت فرض كرده است زكاترا فريضه، فرض كردنى من الله ثابت از نزديك خداى تعالى]. ﴿والله عليم﴾ بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم. ﴿حكيم﴾ لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التي من جملتها سوق الحقوق إلى مستحقيها.

حق تعالى چون درقسمت كشاد هركسى را هرچه مى بايست داد
نيست واقع اندران قسمت غلط بنده را خواهى رضا خواهى سخط

واعلم: أن سهم المؤلفة قلوبهم ساقط بإجماع الصحابة لما أن ذلك كان لتكثير سواد الإسلام فلما أعزه الله وأعلى كلمته استغنى عن ذلك، كما قال عمر رضي الله عنه: في زمن خلافة أبي بكر رضي الله عنه: «الإسلام أعز من أن يرشى عليه، فإن ثبتم على الإسلام بغير رشوة فبها وإلا فبيننا وبينكم السيف» فبقيت المصارف السبعة على حالها، فللمتصدق أن يدفع صدقته إلى كل واحد منهم وأن يقتصر على صنف منهم بل لو صرف إلى شخص واحد منهم جاز فإن اللام في للفقراء لبيان أنهم مصارف لا يخرج عنهم كما يقال الخلافة لبني العباس وميراث فلان لقرابته، أي: ليست الخلافة لغيرهم لا أنها بينهم بالسوية فاللام لام الاختصاص لا التمليك لعدم جواز التمليك للمجهول.

قال مشايخنا: من أراد أن يتصدق بدرهم يبتغي فقيراً واحداً ويعطيه ولا يشتري به فلوساً ويفرقها على المساكين كما في «المحيط» وكذلك الأفضل في الفطر أن يؤدي صدقة نفسه وعياله إلى واحد كما فعله ابن مسعود كما في التمرتاشي وكره دفع نصاب أو أكثر إلى فقير غير مديون أما إذا كان مديوناً أو صاحب عيال أو إذا فرق عليهم لم يخص كلاً منهم نصاب فلا يكره كما في «الأشباه». وقوله: كره أي جاز مع الكراهة أما الجواز فلان الأداء يلاقي الفقر لأن الزكاة إنما تتم بالتمليك وحالة التمليك المدفوع إليه فقير وإنما يصير غنياً بعد تمام التمليك فيتأخر الغنى عن التمليك ضرورة فيجوز، وأما الكراهة فلأن الانتفاع به صادف حال الغنى ولو صادف حال الفقر لكان أكمل وندب دفع ما يغني عن السؤال يومه لقوله عليه السلام «أغنوهم عن المسألة» والسؤال ذل فكان فيه صيانة المسلم عن الوقوع فيه ولا يسأل من له قوت يومه لأن في السؤال ذلاً ولا يحل للمسلم أن يذل نفسه وبغير الاحتياج تكدٍ والتكدي حرام.

ثم اعلم: أن الأوصاف التي عبر بها عن الأوصاف المذكورة وإن كانت تعم المسلم والكافر إلا أن الأحاديث خصتها بالمسلم منهم.

وقال أبو حفص: لا يصرف إلى من لا يصلي إلا أحياناً. والتصدق على الفقير العالم أفضل من الجاهل. وصدقة التطوع يجوز صرفها إلى المذكورين وغيرهم من المسلم والذمي وإلى بناء المساجد والقناطر وتكفين الميت وقضاء دينه ونحوها لعدم اشتراط التمليك في التطوع وإن أريد صرف الفرض إلى هذه الوجوه صرف إلى الفقير ثم يؤمر بالصرف إليها فيثاب المزكي والفقير ولو قضى دين حي أي من مال الزكاة وإن كان بأمره جاز كأنه تصدق على المديون فيكون القابض كالوكيل له في قبض الصدقة وإن كان بغير أمره يكون متبرعاً فلا يجوز من زكاة ماله ولا تصرف الزكاة إلى مجنون وصبي غير مراهق إلا إذا قبض لهما من يجوز له قبضها كالأب والوصي وغيرهما وتصرف إلى مراهق يعقل الأخذ كما في «المحيط».

قال في «مجمع الفتاوى»: جملة ما في بيت المال أربعة أقسام الأول الصدقات وما ينضم إليها تصرف إلى ما قال الله تعالى: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**﴾ الآية. والثاني: الغنائم تصرف إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل. والثالث: الجزية والخراج تصرف إلى ما فيه صلاح دار الإسلام والمسلمين نحو سد الثغور والمقاتلة وعطياتهم وسلاحهم وكراعهم ويصرف إلى أمن الطريق وإلى إصلاح القناطر وكري الأنهار وإلى أرزاق الولاة والقضاة والأئمة

والمؤذنين والقراء والمحتسبين والمفتين والمعلمين. والرابع: ما أخذ من تركة الميت إذا مات بلا وارث أو الباقي من فرض الزوج أو الزوجة إذا لم يترك سواه يصرف إلى نفقة المرضى وأدويتهم وعلاجهم إن كانوا فقراء وإلى نفقة من هو عاجز عن الكسب انتهى.

والإشارة: إنما الصدقات، أي: صدقات الله كما قال عليه السلام: «ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا لله فيها صدقة يتصدق بها على من يشاء من عباده» والفقراء هم الأغنياء بالله الفانون عن غيره الباقون به وهذا حقيق قوله عليه الصلاة والسلام: «الفقراء لصبرهم، هم جلساء الله يوم القيامة»، وهو سر ما قال الواسطي: الفقير، لا يحتاج إلى الله وذلك؛ لأنه غني به والغني بالشيء لا يحتاج إليه والمساكين وهم الذين لهم بقية أوصاف الوجود لهم سفينة القلب في بحر الطلب وقد خرقها خضر المحبة وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً. ﴿والعاملين عليها﴾ وهم أرباب الأعمال كما كان الفقراء والمساكين أصحاب الأحوال ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ وهم الذين تتألف قلوبهم بذكر الله إلى الله المتقربون إليه بالتباعد عما سواه. ﴿وفي الرقاب﴾ وهم المكاتبون قلوبهم عن رق الموجودات تحرياً لعبودية موجدها والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم. ﴿والغارمين﴾ وهم الذين استقرضوا من مراتب المكونات أوصافها وطبائعها وخواصها وهم محبوسون في سجن الوجود بقروضهم وإنهم في استخلاص ذممهم عن القروض بردها فهم معاونون بتلك الصدقات للخلاص من حبس الوجود. ﴿وفي سبيل الله﴾ وهم الغزاة المجاهدون في الجهاد الأكبر وهو الجهاد مع كفار النفوس والهوى والشيطان والدنيا. ﴿وابن السبيل﴾ وهم المسافرون عن أوطان الطبيعة والبشرية السائرون إلى الله على أقدام الشريعة والطريقة بسفارة الأنبياء والأولياء. ﴿فريضة من الله﴾ أي: هذا السير والجهاد ورد القرض والحرية عن رق الموجودات وتألف القلوب إلى الله واستعمال آمال الشريعة والتمسكن والافتقار إلى الله طلباً للاستغناء به أمر واجب على العباد من الله وهذه الصدقات من المواهب الربانية والألطاف الإلهية للطالبين الصادقين أمر أوجبه الله تعالى في ذمة كرمه لهم كما قال تعالى: «ألا من طلبني وجدني» ﴿والله عليم﴾ بطالبيه ﴿حكيم﴾ فيما يعاونهم على الطلب للوجدان كما قال تعالى: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً» كذا في «التأويلات النجمية».

فعلى السالك الفناء عن أوصاف الموجودات والحرية عن رق الكائنات وعرض الافتقار إلى هذه النفحات والصدقات.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿ومنهم﴾ أي: من المنافقين كالجلاس بن سويد وأحزابه. ﴿الذين يؤذون النبي﴾ بأن يقولوا في حقه ما يتأذى به الإنسان. ﴿ويقولون﴾ إذا قيل لهم من قبل بعضهم لا تفعلوا هذا الفعل فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فتفضحوا ﴿هو﴾ أي: النبي عليه السلام. ﴿أذن﴾ يسمع كل ما قيل له، يعني: إنا نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول إنما محمد أذن سامعة أي صاحبها وإنما سموه أذناً مبالغة في وصفه باستماعه كل ما يقال وتصديقه إياه حتى صار بذلك كأنه نفس الأذن السامعة يريدون بذلك أنه ليس له ذكاء ولا بعد غور بل

هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع فيسمع كلام المبلغ أولاً فيتأذى منه، ثم إذا وقع الإنكار أو الحلف والاعتذار يقبله أيضاً صدقاً كان أو كذباً، وإنما قالوه لأنه عليه السلام كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ويصفح عنهم حلماً وكرماً فظن أولئك أنه عليه السلام إنما يفعله لقلة فطنته وقصور شهامته. ﴿**قل**﴾ هو ﴿**أذن خير لكم**﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته كرجل صدق والمعنى نعم إنه أذن لكنه نعم الإذن فإن من يسمع العذر ويقبله خير ممن لا يقبله لأنه إنما ينشأ من الكرم وحسن الخلق سلم الله تعالى قول المنافقين في حقه عليه السلام أنه أذن إلا أنه حمل ذلك القول على ما هو مدح له وثناء عليه وإن كانوا قصدوا به المذمة. ﴿**يؤمن بالله**﴾ تفسير لكونه أذن خير لهم أي يقربه لما قام عنده من الأدلة الموجبة له فيسمع جميع ما جاء من عنده ويقبله وكون ذلك خيراً للمخاطبين كما أنه خير للعالمين مما لا يخفى. ﴿**ويؤمن للمؤمنين**﴾ أي: يسلم لهم قولهم ويصدقهم فيما أخبروا به لما علم من خلوصهم وصدقهم ولا شك أن ما أخبر به المؤمنون الخلص يكون حقاً فمن استمعه وقبله يكون أذن خير، واللام مزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور وهو إيمان الأمان من الخلود في النار الذي هو نقيض الكفر بالله فإنه يعدى بالباء حملاً للنقيض على النقيض فيقال آمن بالله ويؤمنون بالغيب وبين الإيمان بمعنى التصديق والتسليم والقبول فإنه يعدى باللام مثل وما أنت بمؤمن لنا، أي: بمصدق. ﴿**ورحمة**﴾ عطف على أذن خير أي وهو رحمة بطريق إطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة ﴿**للذين آمنوا منكم**﴾ أي للذين أظهروا الإيمان منكم وهم المنافقون حيث يقبله منهم لكن لا تصديقاً لهم في ذلك بل رفقاً بهم وترحماً عليهم ولا يكشف أسرارهم ولا يهتك أستارهم.

قال الكاشفي: يعني [نه آنست كه بقول شمادانانيست صدق وكذب شمارا ميداند اماپرده ازروى كارشما برنميدارد وازروى رحمت باشما رفق مينمايد] فالواجب على المؤمن الاقتداء بالرسول المختار في التحفظ عن كشف الأسرار والتحقق بالاسم الستار. ﴿**والذين يؤذون رسول الله**﴾ بالقول أو الفعل. ﴿**لهم عذاب أليم**﴾ [عذابى دردناك در آخرت بسبب ايذائه] فإنه قد تبين أنه عليه السلام خير ورحمة لهم فأذاه مقابلة لإحسانه بالإساءة فيكون مستوجباً للعذاب الشديد وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن ثم يأتون المؤمنين فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالإيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم، فقال تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿**يحلفون بالله لكم**﴾ أيها المؤمنون أنهم ما قالوا ما نقل إليكم مما يورث أذية النبي عليه السلام ﴿**ليرضوكم**﴾ بذلك ﴿**والله ورسوله أحق أن يرضوه**﴾ بالتوبة وترك الطعن والعيب والمبالغة في باب الإجلال والإعظام مشهداً ومغيباً، وأما قبول عذرهم وعدم تكذيبهم فهو ستر عيوبهم لا عن رضى بما فعلوا. وضمير يرضوه إلى الله فإفراده للإيذان بأن رضاه عليه السلام مندرج تحت رضاه سبحانه وهما متلازمان فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر لعدم انفكاك الآخر أو إلى الرسول فإن الكلام في أذاه وأرضاه وذكر الله للتعظيم وللتنبيه على أن إرضاء الرسول إرضاء الله فاكتفى بذكر إرضائه عليه السلام عن ذكر إرضائه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا

﴿دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النور: ٤٨] اكتفى بذكر حكم الرسول للتنبيه على أن حكم الرسول حكم الله أو إلى الله والرسول باستعارته لاسم الإشارة الذي يشار به إلى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور لا يقال أي حاجة إلى الاستعارة بعد التأويل لأنا نقول لولا الاستعارة لم يتسن التأويل لما أن الضمير لا يتعرض إلا لذات ما يرجع إليه من غير تعرض لوصف من أوصافه التي من جملتها المذكورية وإنما المتعرض لها اسم الإشارة.

قال الحدادي: لم يقل يرضوهما لأنه يكره الجمع بين ذكر اسم الله وذكر اسم رسول له في كناية واحدة كما روي أن رجلاً قام خطيباً عند النبي عليه السلام فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال عليه السلام: «بئس الخطيب أنت، هلا قلت ومن يعص الله ورسوله».

قال في «أبكار الأفكار»: إنما أراد بذلك تعليم الأدب في المنطق وكراهة الجمع بين اسم الله واسم غيره تحت حرفي الكناية لأنه يتضمن نوعاً من التسوية. قال السعدي قدس سره:

متكلم را تاكسى عيب نكيرد سخنش صلاح نپذيرد
مشوغره بر حسن كفتار خويش بتحسين نادان وپندار خويش

وفي الحديث: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان» قال الخطابي: وهذا إرشاد إلى الأدب لأن الواو للجمع والتشريك وثم للعطف مع الترتيب والتراخي فأرشدهم عليه السلام إلى تقديم مشيئة الله على مشيئة من سواه. ومن هذا قال النخعي يكره أن يقول الرجل أعوذ بالله وبك ويجوز أعوذ بالله ثم بك، ويقال لولا الله ثم فلان لفعلت كذا ولا يقال لولا الله وفلان وإنما يقال من يطع الله ورسوله لأن الله تعبد العباد بأن فرض عليهم طاعة رسول الله فإذا أطيع رسول الله فقد أطيع الله بطاعة رسوله. ﴿إن كانوا مؤمنين﴾ أي: صادقين فيما أظهروه من الإيمان فليرضوا الله ورسوله بالطاعة وإخلاص الإيمان فإنهما أحق بالإرضاء.

﴿ألم يعلموا﴾ أي: أولئك المنافقون والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظمة مع علمهم بسوء عاقبتهم ﴿أنه﴾ أي: الشان ﴿من﴾ شرطية معناه بالفارسية [هركس كه] ﴿يحادد الله ورسوله﴾ [خلاف كند باخداى تعالى وبارسول او وازحد دركذراند. والمحادة باكسى حرب يا خلاف كردن] كما في «تاج المصادر» مفاعلة من الحد وهو الطرف والنهاية وكل واحد من المتخالفين والمتعاندين في حد غير حد صاحبه ﴿فأن له﴾ بالفتح على أنه مبتدأ حذف خبره، أي: فحق أن له ﴿نار جهنم خالداً فيها ذلك﴾ العذاب الخالد ﴿الخزي العظيم﴾ الخزي الذل والهوان المقارن للفضيحة والندامة وهي ثمرات نفاقهم حيث يفتضحون على رؤوس الأشهاد بظهورها ولحوق العذاب الخاص بهم.

واعلم أن كل نبي أوذي بما لا يحيط به نطاق البيان وكان النبي عليه السلام أشدهم في ذلك، كما قال: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت» ولما كانت الأذية سبب التصفية كان المغنى ما صفي نبي مثل ما صفيت وأما قوله عليه السلام حين قسم غنائم الطائف فقال بعض المنافقين بعدم العدل «من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله رحمة الله على أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر» فيحتمل أن يكون بالنسبة إلى ذلك الوقت وقد زاد أذاه إلى آخر العمر كمية واشتد كيفية هذا هو اللائح بالبال فإذا كان الأنبياء عليهم السلام مبتلين بالأذية والنفي من البلد والقتل

فما ظنك بالأولياء الكرام وهم أحوج منهم إلى التصفية لأن قدس الأنبياء أغلب وبواطنهم أنور وسرائرهم أصفى.

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره: وإنما كان الحسن مسموماً والحسين مذبوحاً رضي الله عنهما بسبب أن كمال تعينهما كان بالشهادة وكان النبي عليه السلام قادراً على تخليصهما بالشفاعة من الله تعالى، ولكنه رأى كمالهما في مرتبتهما راجحاً على الخلاص حتى إنه عليه السلام دفع قارورتين لواحدة من الأزواج المطهرة وقال: «إذا اصفرّ ما في إحداهما يكون الحسن شهيداً بالسم، وإذا احمرّ ما في الأخرى يكون الحسين شهيداً بالذبح» فكان كذلك.

فعلى العاقل الإطاعة والتسليم وتحمل الأذى من كل منافق لئيم، فإن الله تعالى مع المؤمن المتقي أينما كان فإذا كان الله معه وكاشف عن ذلك هان عليه الابتلاء لمشاهدته المبتلى على كل حال في فرح وترح. وفي «المثنوي»:

هر كجا باشد شه مارا بساط   هست صحرا كربود سم الخياط
هركجا يوسف رضى باشد چوماه   جنتست او كرچه باشد قعر چاه

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿**يحذر المنافقون أن تنزل عليهم**﴾ أي: على المؤمنين. ﴿**سورة تنبئهم**﴾ أي: تخبر تلك السورة المؤمنين ﴿**بما في قلوبهم**﴾ أي: قلوب المنافقين من الشرك والنفاق فتفضحهم وتهتك عليهم أستارهم فالضميران الأولان للمؤمنين، والثالث: للمنافقين ولا يبالي بالتفكك عند ظهور الأمر ويجوز أن تكون الضمائر كلها للمنافقين. فالمعنى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم أي في شأنهم فإن ما نزل في حقهم نازل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم من الأسرار الخفية فضلاً عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق ومعنى تنبيئها إياهم مع أنها معلومة لهم وأن المحذور عندهم إطلاع المؤمنين على أسرارهم لا إطلاع أنفسهم عليها إنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم فتنتشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال.

فإن قلت: كيف يحذر المنافقون نزول الوحي الكاشف عن نفاقهم مع أنهم ينكرون نبوته عليه السلام فكيف يجوزون نزول الوحي عليه.

قلت: إن بعض المنافقين كانوا يعلمون النبوة لكنهم كانوا يكفرون عند أهل الشرك عنداً وحسداً، وبعضهم كانوا شاكين مترددين في أمره ﷺ والشاك يجوز نزول الوحي فيخاف أن ينزل عليه ما يفضحه.

وقال أبو مسلم: كان إظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء فإنهم كانوا إذا سمعوا رسول الله يذكر كل شيء ويقول: إنه بطريق الوحي يكذبونه ويستهزئون به بأن يقولوا فيما بينهم على وجه الاستهزاء به عليه السلام إنا نحذر ونخاف أن ينزل عليه ما يفضحنا، ولذلك قيل: ﴿**قل استهزئوا**﴾ أي: افعلوا الاستهزاء وهو أمر تهديد: يعني [استهزا مكنيد كه جزا خواهيد يافت وجزا آنست كه براى تفضيح شما] ﴿**إن الله مخرج**﴾ أي: من القوة إلى الفعل أو من الكمون إلى البروز. ﴿**ما تحذرون**﴾ أي: ما تحذرونه من إنزال السورة أو ما تحذرون إظهاره من

مساويكم ومن هذا سميت هذه السورة الفاضحة لأنها فضحت المنافقين وتسمى أيضاً الحافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ولئن سألتهم﴾ عما قالوا بطريق الاستهزاء ﴿ليقولن إنما كنا نخوض﴾ في الكلام ونتحدث كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث. ﴿ونلعب﴾ كما يلعب الصبيان. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يسير في غزوة تبوك وبين يديه ركب من المنافقين يستهزئون بالقرآن وبالرسول عليه السلام، ويقولون انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح حصون الشام وقصوره وهيهات هيهات يحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب، والله لكأنهم، يعني: الصحابة غداً مفرقون في الجبال فأطلع الله نبيه على ذلك فقال: «احبسوا عليّ الركب» فأتاهم فقال: «قلتم كذا وكذا» فقالوا يا نبي الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك إنما كنا نخوض ونلعب فلما أنكروا ما هم فيه من الاستهزاء والتخفيف أمر الله تعالى رسوله فقال: ﴿قل﴾ يا محمد على طريق التوبيخ غير ملتفت إلى اعتذارهم. ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ عقب حرف التقرير بالمستهزىء به إشارة إلى تحقق الاستهزاء وثبوته فإنه فرق بين أن يقال تستهزىء بالله وبين أن يقال أبالله تستهزىء فإن الأول يقتضي الإنكار على ملابسة الاستهزاء والثاني يقتضي الإنكار على إيقاع الاستهزاء في الله.

﴿لا تعتذروا﴾ لا تشتغلوا بالاعتذار فإنه معلوم الكذب بين البطلان والاعتذار عبارة عن محو أثر الذنب.

قال في «التبيان»: أصل الاعتذار القطع يقال اعتذرت إليه أي قطعت ما في قلبه من الموجدة ﴿قد كفرتم﴾ الكفر بأذى الرسول والطعن فيه. ﴿بعد إيمانكم﴾ أي: بعد إظهاركم له فإنهم قط لم يكونوا مؤمنين ولكن كانوا منافقين. ﴿إن نعف﴾ [اكر عفو كنيم] ﴿عن طائفة منكم﴾ لتوبتهم وإخلاصهم أو لتجنبهم عن الأذية والاستهزاء. ﴿نعذب طائفة بأنهم﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كانوا مجرمين﴾ مصرين على الإجرام وهم غير التائبين أو مباشرين له وهم غير المجتنبين واعتذر النبي عليه السلام لمن قال ألا تقتلهم لظهور كفرهم بقوله أكره أن تقول العرب قاتل أصحابه بل يكفيناهم الله بالدبيلة، أي: بالداهية.

وفي الآيات إشارات:

الأولى: أن المنافقين وإن اعتقدوا نزول الوحي على النبي عليه السلام واعتقدوا نبوته لكن لم ينفعهم مجرد الاعتقاد والإقرار باللسان في ثبوت الإيمان مع أدنى شك داخلهم ولم ينفعهم الخذر مع القدر وهذا تحقيق قوله: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» وفي «هدية المهديين»: من قال آمنت بجميع الأنبياء ولا أعلم آدم نبي أم لا؟ يكفر ومن لم يعرف أن سيدنا محمداً عليه السلام خاتم الرسل لا نسخ لدينه إلى يوم القيامة لا يكون مؤمناً.

والثانية: إن إظهار اللطف والرحمة بلا سبب محتمل ولكن إظهار القهر والفرق لا يكون إلا بسبب جرم من المجرمين كما قال: ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾ وفي «المثنوي»:

چونكه بدكردى بترس ايمن مباش زانكه تخمست وبرويانـد خداش
چند كاهى اوبپوشاند كه تا آيدت زان بد پشيمان وحيا
بارها پوشد پى اظهار فضل باز كيرد ازپى إظهار عدل
تاكه اين هرد وصفت ظاهر شود آن مبشر كردد اين منذر شود

والثالثة: أن الاستهزاء بالله وبرسوله وبالآيات القرآنية كفر والاستهزاء استحقار الغير بذكر عيوبه على وجه يضحك قولاً أو فعلاً وقد يكون الاستهزاء بالإشارة والإيمان وبالضحك على كلامه إذا تخبط فيه أو غلط أو على صنعته ونحو ذلك وهو حرام بالإجماع معدود من الكبائر عند البعض كما قال علاء الدين التركستاني في «منظومته» العادّة لكبائر الذنوب وهي سبعون.

ويل لمن من الأنام يسخر مقامه يوم الجزاء سقر

وفي الحديث: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم في الآخرة باب من الجنة، فيقال لهم: هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال له هلم هلم فيجيء بغمه وكربه فإذا جاء أغلق دونه فما يزال كذلك حتى أن أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنة فيقال له هلم فما يأتيه من الإياس» وفي الحديث: «ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق: ذو الشيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط» كما في «الترغيب والترهيب» للإمام المنذري وإنما خص هذه الثلاثة لأن أوصافهم راجعة إلى أوصاف الله تعالى فذو الشيبة حصل له كبر السن، والباري له الكبرياء والعالم اتصف بصفة العلم، والإمام المقسط اتصف بصفة العدل وهما من صفات الله تعالى أيضاً فمن إجلال الله تعالى وإكرامه إجلال هذه الثلاثة وإكرامهم ومن استخفافه استخفافهم وفي الحديث: «ارحموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، وعالماً بين الأقوام الجهال لا يعرفون حقه».

كفت پيغمبركه با اين سه كروه رحم آريد ارنه سنكيدونه كوه
آنكه أو بعد از عزيزى خوارشد وان توانكر هم كه بى دينار شد
وان سوم آن عالمى كاندر جهان مبتلا كردد ميان ابلهان
زانكه ازعزت بخوارى آمدن همچو قطع عضو باشد ازبدن
عضو كردد مرده كزتن وابريد كو بريده جنيد اما نى مديد

ومن تعظيم الرسول تعظيم أولاده. قيل: ركب زيد بن ثابت رضي الله عنه فدنا ابن عباس رضي الله عنه ليأخذ ركابه، فقال: لا يا ابن عم رسول الله، فقال هكذا أمرنا أن تفعل بكبرائنا فقال زيد أرني يدك فأخرجها إليه فقبلها، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ ومن أولاده المعنوية من اقتدى به قولاً وفعلاً وحالاً فتعظيمه تعظيم الرسول وتحقيره تحقيره فعليك التعظيم والتبجيل.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿المنافقون﴾ [مردان منافق كه سيصد نفربودند] ﴿والمنافقات﴾ [وزنان منافقه كه صد وهفتاد بودند] ﴿بعضهم من بعض﴾ أي متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحد بالشخص. ﴿يأمرون بالمنكر﴾ أي: بالكفر والمعاصي. ﴿وينهون عن المعروف﴾ أي:

عن الإيمان والطاعة استئناف مقرر لمضمون ما سبق ومفصح عن مضادة حالهم لحال المؤمنين. ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله وعن الصدقة وعن كل خير فإن قبض اليد كناية عن الشح أو عن رفعها للدعاء والمناجاة كما في «الكاشفي». ﴿نسوا الله﴾ صاروا غافلين عن ذكره وتركوا أمره حتى صار كالمنسي عندهم ذكر الملزوم وهو النسيان وأريد اللازم وهو الترك لأن النسيان ليس من الأفعال الاختيارية فلا يذم عليه. ﴿فنسيهم﴾ فتركهم من لطفه وفضله لا من قهره وتعذيبه وفسر النسيان أيضاً بالمعنى المجازي الذي هو الترك لأنه محال في حقه تعالى. ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ الكاملون في التمرد والفسق الذي هو الخروج عن الطاعة والانسلاخ عن كل خير.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات﴾ الوعد يستعمل في الخير بمعنى الإخبار بإيصال المنفعة قبل وقوعها وفي الشر بمعنى الإخبار بإيصال المضرة قبل وقوعها يقال وعدته خيراً ووعدته شراً فإذا سقط الخير والشر قالوا في الخير الوعد والعدة وفي الشر الإيعاد والوعيد وقد أوعده ويوعده، أي: وعد العقاب. ﴿والكفار﴾ أي: المجاهرين ﴿نار جهنم﴾ وهي من أسماء النار تقول العرب للبئر البعيدة القعر جهنام فيجوز أن يكون جهنم مأخوذة من هذا اللفظ لبعد قعرها. روي أن رسول الله ﷺ سمع صوتاً هاله فأتاه جبريل فقال عليه السلام: «ما هذا الصوت يا جبرائيل» قال: هذه صخرة هوت من شفير جهنم منذ سبعين عاماً فهذا حين بلغت قعرها فأحب الله أن يسمعك صوتها فما رؤي رسول الله ضاحكاً ملء فيه حتى قبضه الله» ﴿خالدين فيها﴾ أي مقدراً خلودهم فيها. ﴿هي حسبهم﴾ عقاباً وجزاء ولا شيء أبلغ من تلك العقوبة ولا يمكن الزيادة عليها. ﴿ولعنهم الله﴾ أي: أبعدهم من رحمته وأهانهم وهو بيان لبعض ما تضمنه الخلود في النار فإن النار المخلد فيها مع كونها كافية في الإيلام تتضمن شدائد أخر من اللعن والإهانة وغيرهما. ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ لا ينقطع والمراد به ما وعدوه وهو الخلود في نار جهنم ذكر بعده تأكيداً له لأن الخلود والدوام بمعنى واحد.

﴿كالذين من قبلكم﴾ أي: أنتم أيها المنافقون مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة. ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ [يعني: بتن ازشما قوى تربودند] ﴿وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم﴾ أي: تمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا سمي النصيب خلاقاً لأنه مشتق من الخلق بمعنى التقدير ونصيب كل واحد هو الخير المقدر له. ﴿فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ الكاف في محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي استمتاعاً كاستمتاعهم وليس في الآية تكرار لأن قوله فاستمتعوا بخلاقهم ذم للأولين بالاشتغال بالحظوظ الفانية وذمهم بذلك تمهيد لذم المخاطبين بسلوكهم سبيل الأولين وتشبيه حالهم بحالهم ﴿وخضتم﴾ أي دخلتم في الباطل وشرعتم فيه. ﴿كالذي﴾ أي: كالفوج الذي ﴿خاضوا﴾ ويجوز أن يكون أصله الذين حذفت النون تخفيفاً. ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الأفعال

الذميمة من المشبهين والمشبه بهم والخطاب لرسول الله أو لكل من يصلح للخطاب. ﴿حبطت أعمالهم﴾ التي كانوا يستحقون بها الأجور لو قارنت الإيمان مثل الإنفاق في وجوه الخير وصلة الرحم وغير ذلك أي ضاعت وبطلت بالكلية ولم يترتب عليها أثر. ﴿في الدنيا والآخرة﴾. أما في الآخرة فظاهر. وأما في الدنيا: فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك حسبما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود: ١٥] ليس ترتيبه عليها على طريق المثوبة والكرامة بل بطريق الاستدراج. ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بحبوط الأعمال في الدارين. ﴿هم الخاسرون﴾ الكاملون في الخسران في الدارين الجامعون لمباديه وأسبابه طراً فإنه قد ذهبت رؤوس أموالهم فيما ضرهم ولم ينفعهم قط ولو أنها ذهبت فيما لا يضرهم ولا ينفعهم لكفى به خسراناً. قال السعدي قدس سره:

قيامت كه بازار مينو نهند منازل باعمال نيكو نهند
بضاعت بجند انكه آرى برى اكر مفلسى شر مسارى برى
كه بازار جندانكه آكنده تر تهى دست را دل پرا كنده تر

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿ألم يأتهم﴾ أي: المنافقين ﴿نبأ الذين من قبلهم﴾ أي: خبرهم الذي له شأن وهو ما فعلوا وما فعل بهم والاستفهام للتقرير والتحذير أي قد أتاهم خبر الأمم السالفة وسمعوه فليحذروا من الوقوع فيما وقعوا. ﴿قوم نوح﴾ أغرقوا بالطوفان وهو بدل من الذين. ﴿وعاد﴾ أهلكوا بريح صرصر ﴿وثمود﴾ أهلكوا بالرجفة والصيحة. ﴿وقوم إبراهيم﴾ أهلك نمرود ببعوضة وأهلك أصحابه بالهدم. ﴿وأصحاب مدين﴾ أي: وأهل مدين وهم قوم شعيب أهلكوا بالنار يوم الظلة ومدين هو مدين بن إبراهيم نسبت القرية إليه. ﴿والمؤتفكات﴾ الظاهر أنه عطف على مدين وهي قريات قوم لوط ائتفكت بهم أي انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أتتهم﴾ أي جميع من تقدم من المهلكين. ﴿رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج والبراهين فكذبوهم فأهلكهم الله ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي: لم يكن من عادته ما يشابه ظلم الناس كالعقوبة بلا جرم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب. قال الصائب:

چرا زغير شكايت كنم كه همچو حباب هميشه خانه خراب هواى خويشتنم

فعلى العاقل أن لا يغتر بالقوة والأولاد والأموال فإن كلها في معرض الزوال. قال الحافظ:

ببال وپر مرو ازره كه تير پرتابى هواكرفت زمانى ولى بخاك نشست

يعني: لا تغتر بقدرتك وقوتك البدنية والدنيوية ولا تخرج بسببها عن الصراط المستقيم فإن حالك مشابه لحال السهم فإنه وإن علا على الهواء زماناً لكنه يسقط على الأرض فآخر كل علو هو السفل وآخر كل قدرة هو العجز فلا بد من تدارك الأمر بالتوبة والاستغفار قبل نزول ما نزل بالقوم الأشرار.

قال بعض الصالحين: خرجت إلى السوق ومعي جارية حبشية فأجلستها في مكان، وقلت لها: لا تبرحي حتى أعود إليك فذهبت ثم عدت إلى المكان فلمْ أجدها فيه، فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فجاءتني وقالت لي يا مولاي لا تعجل عليّ فإنك أجلستني بين قوم لا يذكرون الله تعالى فخشيت أن ينزل بهم خسف وأنا معهم، فقلت: إن هذه أمة قد رفع عنها الخسف إكراماً لنبيها محمد ﷺ، فقالت: إن رفع عنها خسف المكان فما رفع عنها خسف القلوب يا من خسف بمعرفته وقلبه، وهو في غفلته من بلائه وكربه بادر إلى حميتك ودوائك قبل موتك وفنائك.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ على المنبر والناس حوله: «أيها الناس استحيوا من الله حق الحياء» فقال رجل يا رسول الله إنا نستحيي من الله فقال: «من كان منكم مستحيياً فلا يبيتن ليلة إلا وأجله بين عينيه وليحفظ البطن وما وعى، والرأس وما حوى، وليذكر الموت والبلى، وليترك زينة الدنيا» قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام ولو أشاء أن أزينكما بزينة علم فرعون حين يراها أن مقدرته تعجز عنها لفعلت ولكني أزوي عنكما وكذلك افعل بأوليائي وليس ذلك لهوانهم عليّ ولكن ليستكملوا حظهم من كرامتي.

مكو جاهى ازسلطنت بيش نيست كه ايمن تر ازملك درويش نيست

فقد تقرر حال أهل الدنيا وحال أهل الآخرة فالعاقل يعتبر ويتبصر إلى أن يموت ويقبر.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ أي: بعضهم على دين بعض في الحق، أي متفقون في التوحيد وبعضهم معين بعض في أمر دينهم ودنياهم وبعضهم موصل بعض إلى الدرجات العالية بسبب التربية وتزكية النفس وهم المرشدون في طريق الله تعالى. ﴿يأمرون بالمعروف﴾ أي: جنس المعروف الشامل لكل خير ومنه الإيمان والطاعة ويهيج بعضهم بعضاً في طلب الله وهو المعروف الحقيقي كما قال: «فأحببت أن أعرف» ﴿وينهون عن المنكر﴾ أي: جنس المنكر المنتظم لكل شر ومنه الكفر والمعاصي التي تقطع العبد عن الله من الدنيا وغيرها. ﴿ويقيمون الصلاة﴾ فلا يزالون يذكرون الله تعالى ويديمون مراقبة القلب وحضوره مع الله بحيث لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وهم أرباب المكاشفة وأصحاب القلوب وهذا بمقابلة ما سبق من قوله نسوا الله. ﴿ويؤتون الزكاة﴾ بمقابلة قوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] فهم يؤدون الزكاة الواجبة بل ينفقون ما فضل عن كفافهم الضروري ويطهرون أنفسهم عن محبة الدنيا بالإنفاق. ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ أي: في كل أمر ونهي وهو بمقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة.

قال في «التأويلات النجمية»: يشير إلى الإخلاص في معاملتهم فإن المنافقين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ولكن لا يطيعون الله ورسوله في ذلك وإنما يطيعون النفس والهوى رعاية لمصالح دنياهم ﴿أولئك﴾ الموصوف بهذه الأوصاف الكريمة. ﴿سيرحمهم الله﴾ أي: يفيض عليهم آثار رحمته من التأييد والنصرة البتة وينجيهم من العذاب الأليم سواء كان عذاب النار أو

عذاب البعد من الملك الجبار بالإدخال إلى الجنة والإيصال إلى القربة والوصلة.

وعن بعض أهل الإشارة. ﴿سيرحمهم الله﴾ في خمسة مواضع عند الموت وسكراته يهون عليهم سكرات الموت، ويحفظ إيمانهم من الشيطان، وفي القبر وظلماته ينور قبورهم ويحفظهم من العذاب القبر وعند قراءة الكتاب وحسراته، يؤتيهم كتابهم بيمينهم ويمحو سيئاتهم من كتابهم كيلا يتحسروا على سيئاتهم، وعند الميزان وندماته يثقل موازينهم، وعند الوقوف بين يدي الله وسؤالاته يسهل عليهم جوابهم ولا يؤاخذهم بعيوبهم. وفي الحديث: «من صلى صلاة الفجر هان عليه الموت وغصته، ومن صلى صلاة الظهر هان عليه القبر وضمته، ومن صلى صلاة العصر هان عليه سؤال منكر ونكير وهيبته، ومن صلى صلاة المغرب هان عليه الميزان وخفته ومن صلى صلاة العشاء هان عليه الصراط ودقته» ﴿إن الله عزيز﴾ تعليل الوعد، أي: قوي قادر على إعزاز أوليائه وقهر أعدائه ذو النعمة لمن يطيعه. ﴿حكيم﴾ بنى أحكامه على أساس الحكمة الداعية إلى إيصال الحقوق من النعمة والنقمة إلى مستحقيها من أهل الطاعة وأهل المعصية حكم للمؤمنين بالجنة في مقابلة تصديقهم وإقرارهم، وللمحسنين بالوصلة في مقابلة طلبهم في جميع الحال رضى الله وتركهم ما سواه وحكم للكافرين والمنافقين بالنار لإنكارهم وتكذيبهم الأنبياء وعبادتهم للأوثان والأصنام.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات﴾ أي: وعدهم وعداً شاملاً لكل واحد منهم على اختلاف طبقاتهم في مراتب الفضل كيفاً وكماً والوعد عبارة عن الإخبار بإيصال المنفعة قبل وقوعها ﴿جنات﴾ جمع جنة وهي الحديقة ذات النخل والشجر. ﴿تجري من تحتها﴾ أي: أشجارها وغرفها. ﴿الأنهار﴾ أنهار الماء والعسل والخمر واللبن. ﴿خالدين فيها﴾ أي: مقدراً خلودهم ودوامهم فيها فكل واحد من المؤمنين فائز بهذه الجنات لا محالة. ﴿ومساكن طيبة﴾ أي: وعد بعض الخواص الكمل منهم منازل تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش وفي الخبر إنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر. ﴿في جنات عدن﴾ هي أبهى أماكن الجنات وأسناها.

عن النبي عليه السلام: «عدن دار الله لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاث: النبيون والصديقون والشهداء طوبى لمن دخلها» روي أن الله تعالى خلق جنة عدن بيده من غير واسطة وجعلها له كالقلعة للملك وجعل فيها الكثيب مقام تجلي الحق سبحانه وفيها مقام الوسيلة مقام المصطفى ﷺ وغرس شجرة طوبى بيده في جنة عدن وأطالها حتى علت فروعها سور جنة عدن ونزلت مظللة على سائر الجنات كلها وليس في أكمامها ثمر إلا الحلي والحلل لباس أهل الجنة وزينتهم زائدة في الحسن والبهاء لها اختصاص فضل لكونها خلقها الله بيده وهي أجمع الحقائق الجنانية نعمة وأتمها بركة فإنها أصل لجميع أشجار الجنة كآدم عليه السلام لما ظهر منه من البنين وما في الجنة نهر إلا وهو يجري من أصل تلك الشجرة وهي محمدية المقام وهي في الدار النبي عليه السلام يقال عدن بالمكان إذا أقام به ومنه المعدن لمستقر الجواهر. ﴿ورضوان من الله﴾ أي: وشيء يسير من رضوانه تعالى ﴿أكبر﴾ وأعظم من الجنان ونعيمها لأنه مبدأ جميع السعادات ومنشأ تمام الكمالات [محققان راه

وعارفان آكاه رادركاه وبيكاه جز رضاى حضرت الله مطلوبى نيست].

يكى مى خواهد ازتوجنت وحور يكى خواهدكه ازدوزخ شود دور
وليكن ما نخواهيم اين وآن جست مراد ما همين خشنودى تست
چوتو خشنود كردى در دو عالم همين مقصود بس والله أعلم

قال الحافظ:

صحبت حور نخواهم كه بود عين قصور با خيال تو اكر دكرى پردازم

روي أنه تعالى يقول لأهل الجنة «هل رضيتم فيقولون ما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً» ﴿ذلك﴾ المذكور من النعيم والرضى ﴿وهو الفوز العظيم﴾ دون ما يعده الناس فوزاً من حظوظ الدنيا فإنها مع قطع النظر عن فنائها وتغيرها وتنغصها وتكدرها ليست بالنسبة إلى أدنى شيء من نعيم الآخرة إلا بمثابة جناح البعوض قال عليه السلام: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء» قال: يحيى بن معاذ: الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها، والآخرة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها.

وقال أيضاً: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى الجنة قيل: وما هي قال معرفة الله تعالى وهي الجنة المعنوية.

قال أبو يزيد البسطامي: حلاوة المعرفة الإلهية خير من جنة الفردوس وأعلى عليين لو فتحوا لي أبواب الجنان الثماني وأعطوني الدنيا والآخرة لم تعدل أنيناً وقت السحر.

فعلى العاقل الاجتهاد والتوجه إلى الحضرة العليا والإعراض عن الدنيا والفوز بالمطلب الأعلى والمقصد الأسنى نسأل الله الدخول إلى حرم الوصول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿يا أيها النبي﴾ اعلم أن الله تعالى خاطب الأنبياء عليهم السلام بأسمائهم الشريفة مثل يا آدم ويا نوح ويا موسى ويا عيسى وخاطب نبينا ﷺ بالألقاب الشريفة مثل: أيها النبي، ويا أيها الرسول، وذلك يدل على علو جنابه عليه السلام مع أن كثرة الألقاب والأسماء تدل على شرف المسمى أيضاً.

قال أبو الليث: في آخر سورة النور: عند قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ [النور: ٦٣] أي: لا تدعوا محمداً ﷺ باسمه ولكن وقروه وعظموه فقولوا يا رسول الله ويا نبي الله ويا أبا القاسم.

وفي الآية: بيان توقير معلم الخير فأمر الله تعالى بتوقيره وتعظيمه، وفيه معرفة حق الأستاذ. وفيه معرفة حق أهل الفضل اهـ.

أقول ولذا يطلق على أهل الإرشاد عند ذكرهم ألفاظ دالة على تعظيمهم على أي لغة

كانت؛ لأنه إذا ورد النهي عن التصريح بأسماء الآباء الصورية لكونه سوء أدب فما ظنك بتصريح أسماء الآباء المعنوية: والمعنى يا أيها المبلغ عن الله، والمخبر، أو يا صاحب علو المكانة والزلفى؛ لأن لفظ النبي ينبيء عن الإنباء والارتفاع. **﴿جاهد الكفار﴾** أي: المجاهرين منهم بالسيف والجهاد عبارة عن بذل الجهد في صرف المبطلين عن المنكر وإرشادهم إلى الحق. **﴿والمنافقين﴾** بالحجة وإقامة الحدود فإنهم كانوا كثيري التعاطي للأسباب الموجبة للحدود ولا تجوز المحاربة معهم بالسيف لأن شريعتنا تحكم بالظاهر وهم يظهرون الإسلام وينكرون الكفر. **﴿واغلظ عليهم﴾** أي: على الفريقين جميعاً في ذلك وأعنف بهم ولا ترفق.

هست نرمى آفت جان سمور وزدرشتى ميبردجان خارپشت

قال عطاء: نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح؛ لأن لكل وقت حكماً.

﴿ومأواهم جهنم﴾ جملة مستأنفة لبيان آجل أمرهم أثر بيان عاجله **﴿وبئس المصير﴾** أي: بئس الموضع موضعهم الذي يصيرون إليه ويرجعون. والفرق بين المرجع والمصير أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع، وفي الحديث: «أوصيك بتقوى الله فإنها رأس أمرك» يعني: أصل الطاعة وهو الخوف من الله تعالى فإن المرء لا يميل إلى الطاعة ولا يرغب عن المعصية إلا بالتقوى، فإذا غرس شجرة التقوى في القلب تميل أطراف الإنسان إلى جانب الحسنات ولا يقدم على ارتكاب السيئات «وعليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي» الرهبانية الخصال المنسوبة إلى الرهبان من التعبد في الصوامع والغيران وترك أكل اللحم والطيبات ولبس الخاص من الثياب فقد أفاد النبي عليه السلام أن الثواب الذي يحصل للأمم السالفة بالرهبانية يحصل لهذه الأمة المرحومة بالغزو وإن لم يترهبوا بل رب آكل ما يشتهيه خير من صائم نبت حب الدنيا فيه. قال السعدي قدس سره:

خورنده كه خيرى برآيد زدست به از صائم الدهر دنيا پرست

قال الأوزاعي: خمس كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المسجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله. وفي الحديث: «أفضل رجال أمتي الذين يجاهدون في سبيل الله، وأفضل نساء أمتي اللاتي لا يخرجن من البيوت إلا لأمر لابد لهن منه» وفي الحديث: «اتقوا أذى المجاهدين في سبيل الله، فإن الله تعالى يغضب لهم كما يغضب للرسل ويستجيب لهم كما يستجيب للرسل» وفي الحديث: «إذا أخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» دل هذا على أن ترك الجهاد والإعراض عنه والسكون إلى الدنيا خروج من الدين وكفى بهذا إثماً وذنباً مبيناً.

وفي الآية: إشارة إلى القلب الذي له نبأ من مقام الأنبياء يأمره بالجهاد مع كفار النفس وصفاتها وهذا مقام المشايخ يجاهدون مع نفوسهم أو نفوس مريدهم كما قال عليه السلام: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته» قال في «المثنوي»:

كفت پيغمبركه شيخى رفته پبش چون نبى باشدميان قوم خويش

فأمر بالجهاد مع كافر النفس وصفاتها بسيف الصدق فجهاد النفوس بمنعها عن شهواتها واستعمالها في عمل الشريعة على خلاف الطبيعة والنفوس بعضها كفار لم يسلموا، أي لم يستسلموا للمشايخ في تربيتها فجهادها بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة

وبعضها منافقون، وهم الذين ادعوا الإرادة والاستسلام للمشايخ في الظاهر ولم يعرفوا بما عاهدوا عليه، فجهادها بإلزامها مقاساة شدائد الرياضات في التزكية على قانونها ممتثلة أوامر الشيخ ونواهيه، ولو يرى عليها الإباء والامتناع فلا ينفعها إلا التشديد والغلظة كما قال تعالى: ﴿واغلظ عليهم﴾ فالواجب أن يبالغ في مخالفتها ومؤاخذتها في أحكام الطريقة فإن فاءت إلى أمر الله فهو المراد وإلا استوجبت لما خلقت له. ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي مرجعهم جهنم البعد ونار القطيعة وبئس المصير مرجعهم كذا في «التأويلات النجمية».

فعلى السالك أن يجاهد مع هواه أولاً فإن السلطان يلزم عليه أن يحارب البغاة الذين في مملكته ثم الذين وراءهم من الكفار نسأل الله تعالى أن يقوينا وينصرنا على القوم الكافرين أياً ما كانوا.

﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ روي أن رسول الله ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمعه من كان منهم معه عليه السلام فقال الجلاس بن سويد منهم لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس أجل والله والله إن محمداً لصادق وأنت شر من الحمير فبلغ ذلك رسول الله فاستحضره فحلف بالله ما قال فرفع عامر يده فقال: «اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون «آمين» فنزل جبريل قبل أن يتفرقوا بهذه الآية وصيغة الجمع في قالوا مع أن القائل هو الجلاس للإيذان بأن بقيتهم لرضاهم بقوله صاروا بمنزلة القائل: ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ هي ما حكى آنفاً ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ أي: وأظهروا ما في قلوبهم من الكفر بعد إظهارهم الإسلام. ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ الهمُّ بالشيء في اللغة: مقارنته دون الوقوع فيه أي قصدوا إلى ما لم يصلوا إلى ذلك من قتل الرسول وذلك أن خمسة عشر منهم توافقوا عند مرجعه عليه السلام من تبوك على أن يفتكوا به في العقبة التي هي بين تبوك والمدينة، فقالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته إلى الوادي فأخبر الله تعالى رسوله بذلك فلما وصل الجيش إلى العقبة نادى منادي رسول الله إن رسول الله يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد واسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع فسلك الناس بطن الوادي وسلك رسول الله ﷺ العقبة فلما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وسلكوا العقبة وأمر عليه السلام عمار بن ياسر رضي الله عنه أن يأخذ بزمام الناقة يقودها وأمر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن يسوقها من خلفها فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح فرجع إليهم ومعه محجن فجعل يضرب به وجوه رواحلهم وقال إليكم إليكم يا أعداء الله أي: تمنعوا عن رسول الله وتنحوا فهربوا وفي رواية إنه عليه السلام خرج بهم فولوا مدبرين فعلموا أنه عليه السلام اطلع على مكرهم فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادي واختلطوا بالناس فرجع حذيفة يضرب الناقة فقال عليه السلام: «هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم» قال: لا كان القوم ملثمين والليلة مظلمة فلما أصبح رسول الله ﷺ جاء إليه أسيد بن حضير رضي الله عنه فقال يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادي فقد كان أسهل من سلوك العقبة فقال: «إني أكره أن يقول الناس إن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم» فقال يا رسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب فقال عليه السلام: «أليس يظهرون الشهادة» ودعا عليهم رسول الله فقال: «اللهم

ارمهم بالدبيلة» وهي سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم. وفي لفظ شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلكه. ﴿وما نقموا﴾ قال في «القاموس»: نقم الأمر كرهه أي وما كرهوا وما عابوا وما أنكروا شيئاً من الأشياء ﴿إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ سبحانه وتعالى وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في غاية ما يكون من شدة العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فآثروا بالغنائم، أي استغنوا وكثرت أموالهم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله بديته اثني عشر ألف درهم فاستغنى.

قال سعدي چلبي: يجوز أن يكون زيادة الألفين شنقاً أي تكرماً لأنهم كانوا يعطون الدية ويتكرمون بزيادة عليها ويسمونها شنقاً انتهى وهذا الكلام من قبيل قولهم ما لي عندك ذنب إلا إحساني إليك أي: إن كان ثمة ذنب فهذا هو تهكم بهم وتوبيخ وقيل: الضمير في أغناهم للمؤمنين أي غاظهم إغناؤه للمؤمنين، كذا قال ابن عبد السلام. ﴿فإن يتوبوا﴾ عما هم عليه من الكفرة والنفاق ﴿يك﴾ ذلك التوب ﴿خيراً لهم﴾ في الدارين قيل: لما تلاها رسول الله ﷺ قال جلاس يا رسول الله لقد عرض الله عليّ التوبة والله لقد قبلت وصدق عامر بن قيس فتاب جلاس وحسنت توبته ﴿وإن يتولوا﴾ أي: استمروا على ما كانوا عليه من التولي والإعراض عن الدين. ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا﴾ بالقتل والأسر والنهب وغير ذلك من فنون العقوبات. ﴿والآخرة﴾ بالنار وغيرها من أفانين العقاب ﴿وما لهم في الأرض﴾ مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها المصححة لوجدان ما نفى بقوله تعالى ﴿من ولي﴾ [دوستى كه دست كيرد] ﴿ولا نصير﴾ [ونه يا رى كه عذاب ايشان باز دارد] أي ينقذهم من العذاب بالشفاعة والمدافعة فالعاصي لا ينجو من العذاب وإن كان سلطاناً ذا منعة إلا بالاستغفار من الذنوب وإخلاص التوحيد والتوجه إلى علام الغيوب حكي عن محمد بن جعفر أنه قال كنت مع الخليفة في زورق فقال الخليفة أنا واحد وربي واحد، فقلت له: اسكت يا أمير المؤمنين لو قلت ما قلت مرة أخرى لنغرق جميعاً قال لِم؟ قلت: لأنك لست بواحد إنما أنت اثنان الروح والجسد من الاثنين الأب والأم في الاثنين الليل والنهار بالاثنين الطعام والشراب مع الاثنين الفقر والعجز والواحد هو الله الذي لا إله إلا هو.

وقال حكيم: لأصحاب الجنة ثلاثة أشياء يدخلون بها الجنة قول لا إله إلا الله محمد رسول الله والاستغفار من الذنوب والندم عليها وتحميد الله تعالى في الدنيا وإن أول ما يقولون إذا دخلوا الجنة الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن أي حزن القبر والكتاب والنيران إن ربنا لغفور للذنوب والمعصية شكور لقليل العمل والطاعة وفي الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله». قال المولى الجامي قدس سره:

دلت آيينهٔ خداى نماست روى آيينهٔ توتيره چراست
صيقلى وار صيقلى ميزن باشد آيينهٔ آت شود روشن
صيقل آن اكرنهٔ آكاه نيست جز لا إله إلا الله

وفي قوله: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ إشارة إلى أن بعض المريدين عند استيلاء النفوس وغلبة هواها وظفر الشيطان بهم شأنهم أن ينكروا على مشايخهم ويقولوا في حقهم كلمة الكفر أي كلمة الإنكار والاعتراض ويعرضوا عنهم بقلوبهم بعد الإرادة والاستسلام فإذا وقف المشايخ على أحوال ضمائرهم وخلل الإرادة في

سرائرهم ﴿يحلفون بالله﴾ إنهم ﴿ما قالوا﴾ وما أنكروا ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ يعني: وهم بعضهم أن يثبت لنفسه مرتبة الشيخوخة قبل أوانها ويظهر الدعوة إلى نفسه وإن لم ينلها. ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ أي: وما أنكروا على الشيخ وخرجوا من أمره إلا كون الشيخ غني بلبان فضل الله عن حلمة الولاية ليروا آثار الرشد على أنفسهم فلم يحتملوا لضيق حوصلة الهمة فزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فأصمهم بذلك وأعمى أبصارهم. ﴿فإن يتوبوا﴾ يرجعوا إلى ولاية الشيخ بطريق الالتجاء. ﴿يك خيراً لهم﴾ بأن يتخلصوا من غيرة الولاية وردها فإنها مهلكة ويتمكسوا بحبل الإرادة فإنها منجية. ﴿وإن يتولوا﴾ أي: يعرضوا عن ولاية الشيخ. ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة﴾ بعد رد الولاية فإن مرتد الطريقة أعظم ذنباً من مرتد الشريعة.

قال الجنيد: لو أقبل صديق على الله ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاته أكثر مما ناله، فأما عذابه في الدنيا فبسلب الصدق والرد عن باب الطلب، وإرخاء الحجاب وذله وتقوية الهوى وتبديل الإخلاص بالرياء والحرص على الدنيا وطلب الرفعة والجاه، وأما عذابه في الآخرة فباشتعال نيران الحسرة والندامة على قلبه المعذب بنار القطيعة وهي نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة. ﴿وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ يشير إلى أن من ابتلي برد ولاية شيخ كامل ولو امتلأت الأرض بالمشايخ وأرباب الولاية وهو يتمسك بذيل إرادتهم غير أن شيخه رده لا يمكن لأحدهم إعانته وإخراجه من ورطة الرد إلا ما شاء الله كما في «التأويلات النجمية».

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿ومنهم﴾ أي: من المنافقين ﴿من عاهد الله﴾ المعاهدة المعاقدة واليمين ﴿لئن آتانا﴾ أي: الله تعالى ﴿من فضله﴾ [از فضل خود مالى] ﴿لنصدقن﴾ أي: لنؤتين الزكاة وغيرها من الصدقات وأصله لنتصدقن أدغمت التاء في الصاد والمتصدق معطي الصدقة وسميت صدقة لدلالتها على صدق العبد في العبودية. ﴿ولنكونن من الصالحين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد الحج نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري كان ملازماً لمسجد رسول الله ليلاً ونهاراً وكان يلقب لذلك «حمامة المسجد» وكانت جبهته كركبة البعير من كثرة السجود على الأرض والحجارة المحماة بالشمس ثم جعل يخرج من المسجد كلما فرغ رسول الله ﷺ من الفجر بالجماعة من غير لبث واشتغال بالدعاء فقال له عليه السلام يوماً «ما لك صرت تعمل عمل المنافقين بتعجيل الخروج» فقال يا رسول الله إني في غاية الفقر بحيث لي ولامرأتي ثوب واحد وهو الذي علي وأنا أصلي فيه وهي عريانة في البيت ثم أعود إليها فأنزعه وهي تلبسه فتصلي فيه فادع الله أن يرزقني مالاً فقال عليه السلام: «ويحك يا ثعلبة» وهي كلمة عذاب وقيل كلمة شفقة «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» فراجعه فقال عليه السلام «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت» وأشار إلى علم الكيمياء «ولكن أعرف أن الدنيا حظ من لاحظ له وبها يغتر من لا عقل له» فراجعه وقال يا رسول الله والذي بعثك بالحق نبياً لو دعوت الله أن يرزقني مالاً لأؤدين كل ذي حق حقه قال

عليه السلام: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» ثلاث مرات فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت بها أزقة المدينة فنزل وادياً حتى فاتته الجماعة لا يصلي بالجماعة إلا الظهر والعصر ثم نمت وكثرت فتنحى مكاناً بعيداً حتى انقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله فقيل كثر ماله حتى لا يسعه وادٍ أي وادٍ واحد بل يسعه أودية وصحارى فخرج بعيداً فقال عليه السلام: «يا ويح ثعلبة» فلما نزل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] استعمل النبي عليه السلام رجلين على الصدقات رجلاً من الأنصار ورجلاً من بني سليم وكتب لهما الصدقة وأسنانها وأمرهما أن يأخذاها من الناس فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأاه كتاب رسول الله ﷺ فيه الفرائض فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية وقال: ارجعا حتى أرى رأيي وذلك قوله تعالى.

﴿فلما آتاهم﴾ الله تعالى المال ﴿من فضله﴾ وكرمه ﴿بخلوا به﴾ أي: منعوا حق الله منه ﴿وتولوا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله والعهد معه ﴿وهم معرضون﴾ وهو قوم عادتهم الإعراض فلما رجعا قال لهما رسول الله قبل أن يكلماه «يا ويح ثعلبة» مرتين فنزلت فركب عمر رضي الله عنه راحلته ومضى إلى ثعلبة، وقال: ويحك يا ثعلبة هلكت قد أنزل الله فيك كذا وكذا فجاء ثعلبة بالصدقة فقال عليه السلام: «إن الله منعني أن أقبل منك فجعل يحثو التراب على رأسه لا لأنه تاب عن النفاق بل للحوق العار من عدم قبول زكاته مع المسلمين فقال عليه السلام: «هذا» أي عدم قبول صدقتك «عملك» أي جزاء عملك أراد قوله هذه جزية أمرتك فلم تطعني فقبض رسول الله ﷺ فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها ثم جاء بها إلى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها وهلك في خلافة عثمان رضي الله عنه.

قال الحدادي: لم يقبل منه عثمان صدقته انتهى.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فأعقبهم﴾ أي: جعل الله عاقبة فعلهم ذلك فالمعنى على تقدير المضاف، أي أعقب فعلهم ﴿نفاقاً﴾ راسخاً ﴿في قلوبهم﴾ وسوء اعتقاد يقال أعقبه الله خيراً أي صير عاقبة أمره ذلك خيراً ويقال أكلت سمكة وأعقبتني سقماً أي صرت تلك الأكلة أو السمكة عاقبة أمري سقماً.

﴿إلى يوم يلقونه﴾ أي: إلى يوم موتهم الذي يلقون الله عنده دل على تأبيد نفاقهم وأن البخل ومنع حق الله تعالى مما أعطاه إياه يؤدي إلى أن يموت وهو منافق ولا يثبت له حكم الإسلام أبداً نعوذ بالله كإبليس ترك له أمراً واحداً فطرده عن بابه وضرب وجهه بعبادته ثمانين ألف سنة ولعنه إلى يوم الدين وأعد له عذاباً أليماً أبد الآبدين. قال الحافظ:

زاهد أيمن مشو ازبازىء غيرت زنهار كه ره از صومعة تادير مغان اين همه نيست

﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ أي لكونهم مستمرين على الكذب في جميع المقالات التي من جملتها وعدهم المذكور.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿ألم يعلموا﴾ أي: من عاهدوا الله والاستفهام للتقرير، أي قد علموا ﴿أن الله يعلم سرهم﴾ أي: ما أسروه في أنفسهم من العزم على الإخلاف ولم يتكلموا به سراً ولا جهراً ﴿ونجواهم﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من تسمية الزكاة جزية وغير ذلك مما لا خير فيه. والتناجي [بايكديكر راز كردن] يقال نجاه نجوى وناجاه مناجاة ساره والنجوى السر كالنجى ﴿وأن الله علام الغيوب﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء فكيف يجترئون على ما هم عليه من النفاق والعزم على الإخلاف.

مكن انديشهٔ عصيان چو ميدانى كه ميداند مبين در روى اين وآن چوميدانى كه مى بيند

وفي الآيات إشارات:

منها: أن من نذر نذراً فيه قربة نحو أن يقول إن رزقني الله ألف درهم فعليّ أن تصدق بخمسمائة لزمه الوفاء به ومن نذر ما ليس بقربة أو بمعصية، كقوله: نذرت أن أدخل الدار، أو قال لله عليّ أن أقتل فلاناً اليوم فحنث يلزمه الكفارة وهي عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم فالواجب واحد من هذه الثلاثة والعبد مخير فيه فإن عجز عن أحد هذه الأشياء الثلاثة صام ثلاثة أيام متتابعات وإن علق النذر بشرط يريد وجوده، نحو أن يقول: إن قدم فلان أو إن قدمت من سفري أو إن شفى الله من مريضي أو قضى ديني فلله عليّ صيام أو صدقة أو إن ملكت عبداً أو هذا العبد فعليّ أن أعتقه يلزمه الوفاء بما نذر لأنه نذر بصيغة وليس فيه معنى اليمين وإن علقه بشرط لا يريد وجوده، كقوله: إن كلمت فلاناً أو دخلت الدار فعليّ صوم سنة يجزئه كفارة يمين والمنذور إذا كان له أصل في الفروض أي واجب من جنسه لزم الناذر كالصوم والصلاة والصدقة والاعتكاف وما لا أصل له في الفروض فلا يلزم الناذر كعيادة المريض وتشييع الجنازة ودخول المسجد وبناء القنطرة والرباط والسقاية وقراءة القرآن ونحوها والأصل فيه أن إيجاب العبد معتبر بإيجاب الله تعالى تحصيلاً للمصلحة المعلقة بالنذر والنذر الغير المعلق لا يختص بزمان ومكان ودرهم وفقير بخلاف المعلق، فلو قال الناذر عليّ أن أتصدق في هذا اليوم بهذا الدرهم على هذا الفقير فتصدق غداً بدرهم آخر على غيره أجزأه عندنا ولا يجزئه عند زفر.

واعلم: أن المساجد الثلاثة المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى لكونها أبنية الأنبياء عليهم السلام لها فضيلة تامة، ولهذا قال الفقهاء: لو نذر أن يصلي في أحد هذه الثلاثة تعين بخلاف سائر المساجد فإن من نذر أن يصلي في أحدها له أن يصلي في الآخر.

ومنها: أن النفاق عبارة عن الكذب وخلف الوعد والخيانة إلى ما ائتمن كما أن الإيمان عبارة عن الصدق وملازمة الطاعة لأن الله تعالى خلق الصدق فظهر من ظله الإيمان وخلق الكذب فظهر من ظله الكفر والنفاق وفي الحديث: «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» يعني: من يحدث عالماً بأنه كذب وتعهد عازماً على عدم الوفاء وينتظر الأمانة للخيانة ولعل هذا يكون في حق من اعتاد بهذه الخصال لا في حق من ندرت منه كما هو مذهب البخاري وبعض العلماء ومذهب الجمهور على أن هذه الخصال خصال المنافقين وصاحبها شبيه لهم فإطلاق اسم المنافق عليه على سبيل التجوز تغليظاً كما أن الله تعالى قال ومن كفر مكان ومن لم يحج لكمال قبحه.

قال صاحب «التحفة»: ليس الغرض أن آية المنافق محصورة في الثلاث بل من أبطن خلاف ما أظهر فهو من المنافقين.

واعلم أن المنافقين صنفان صنف معلنو الإسلام ومسروه في بدء الأمر وذلك لغلبة صفات النفاق وقوتها في النفس وصنف معلنو الإسلام ومسروه في بدء الأمر إلى أن استعملوا هذه الصفات المستكنة في النفس فيظهر بالفعل كما كان بالقوة وذلك لضعفها في النفس فيعقبهم النفاق إلى الأبد بالشكوك الواقعة في قلوبهم وهم عن هذا النوع من النفاق غافلون وهم يصومون ويصلون ويزعمون أنهم مسلمون.

قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بمنافقيها وجئنا بالحجاج فضلناهم.

يقول الفقير سامحه الله القدير هذا الكلام بالنسبة إلى ذلك الوقت ولو أنه رأى وزراء آل عثمان ووكلاءهم في هذا الزمان لوجدهم أرجح من كل منافق لأنه بلغ نفاقهم إلى حيث أخذوا الرشوة من الكفار ليسامحوهم في مقاتلتهم ومحاربتهم خذلهم الله ودمرهم.

ومنها ذم البخل والحرص على الدنيا وفي الحديث: «ثلاث لا يحبهم الله ورسوله وهم في لعنة الله والملائكة والناس أجمعين البخيل والمتكبر والأكول» وفي الحديث: «ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم، فيقول الله تعالى: بعزتي وجلالي لأبعدنهم ولأقربنكم». قال الحافظ:

كنج قارون كه فروميرود از قهر هنوز خوانده باشى كه هم ازغيرت درويشانست

وفي الحديث: «ما جبل ولي لله إلا على السخاء» وأجود الأجواد هو الله تعالى ألا ترى أنه كيف خلع خلعة الوجود على عامة الكائنات مجاناً وأنعم عليهم أنواع النعم الظاهرة والباطنة أي حيث منع الخلق عن المهالك كالشهوات لا بخلاً بل شوقاً إلى اللذات الباقية.

﴿الذين﴾ رفع على الذم أي المنافقون هم الذين ﴿يلمزون﴾ قال في «القاموس» اللمز العيب والإشارة بالعين ونحوها أي يعيبون ويغتابون ﴿المطوعين﴾ أي: المتطوعين المتنفلين ﴿من المؤمنين﴾ حال من المطوعين ﴿في الصدقات﴾ متعلق بيلمزون روي أن النبي ﷺ خطب ذات يوم حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك يحث الناس على الإنفاق والإعانة في تجهيز العسكر، فكان أول من جاء بالصدقة أبو بكر الصديق رضي الله عنه جاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم، فقال له رسول الله: «هل أبقيت لأهلك شيئاً» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله، فقال له عليه السلام: «هل أبقيت لأهلك شيئاً» قال النصف الثاني فقال: «ما بينكما ما بين كلاميكما» ومنه يعرف فضل أبي بكر على عمر رضي الله عنه وأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها فإنه جهز عشرة آلاف أنفق عليها عشرة آلاف دينار وصب في حجر النبي عليه السلام ألف دينار وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرساً وعند ذلك قال ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض» وفي الحديث: «سألت ربي أن لا يدخل النار من صاهرته أو صاهرني» وقد كان عليه السلام زوج بنته رقية من عثمان فماتت بعد ما خرج رسول الله إلى بدر، فلما رجع من بدر زوجه أم كلثوم ولذا سمي عثمان بذي النورين ولما ماتت أم كلثوم قال عليه السلام: «لو كان عندي ثالثة لزوجتكها» وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بأربعة آلاف درهم فقال عليه السلام: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت» فبارك الله له حتى بلغ ماله حين

مات وصولحت إحدى نسائه الأربع عن ربع ثمنها على ثمانين ألف درهم ونيف، فكان ثمن ماله أكثر من ثلاثمائة ألف وعشرين ألفاً وفي رواية جاء بأربعين أوقية من ذهب، ومن ثمة قيل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف كانا خزانتين من خزائن الله في الأرض ينفقان في طاعة الله تعالى، وجاء العباس بمال كثير، وكذا طلحة وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر والوسق ستون صاعاً بصاع النبي عليه السلام وهو أربعة أمداد وكل مد رطل وثلث رطل بالبغدادي عند أبي يوسف والشافعي، والرطل: مائة وثلاثون درهماً وعند أبي حنيفة كل مد رطلاً وبعثت النساء بكل ما يقدرون عليه من حليهن، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر وقال يا رسول الله بت ليلتي كلها أجر بالجرير على صاعين أما أحدهما فأمسكته لعيالي وأما الآخر فأقرضته ربي فأمره رسول الله أن ينثره في الصدقات فطعن فيهم المنافقون وقالوا ما أعطي عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وسمعة وإن أبا عقيل جاء ليذكر بنفسه ويعطي من الصدقة بأكثر مما جاء به وإن الله لغني عن صاع أبي عقيل فأنزل الله هذه الآية ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ عطف على المطوعين أي ويلمزون الذين لا يجدون إلا طاقتهم من الصدقة.

قال الحدادي: عابوا المكثر بالرياء والمقل بالإقلال يقال الجهد بالفتح المشقة والجهد بالضم الطاقة وقيل الجهد في العمل والجهد في القوة. ﴿فيسخرون منهم﴾ عطف على يلمزون أي يستهزئون بهم، والمراد بهم الفريق الأخير كأبي عقيل. ﴿سخر الله منهم﴾ أي: جازاهم على سخريتهم فيكون تسمية جزاء السخرية سخرية من قبيل المشاكلة لوقوعه في صحبة قوله فيسخرون منهم ﴿ولهم﴾ أي: ثابت لهم ﴿عذاب أليم﴾ على كفرهم ونفاقهم.

اي كـــه دارد نـــفـاق انــدر دل   خـار بـادش خـلـيـده انـدر حـلـق

هـركـه سـازد نـفـاق پـيـشـهٔ خـويـش   خـوار كـردد بـنـزد خـالـق وخـلـق

قال الحدادي: ولما نزلت هذه الآية أتى المنافقون إلى رسول الله وقالوا يا رسول الله استغفر لنا فكان عليه السلام يستغفر لقوم منهم على ظاهر الإسلام من غير علم منه بنفاقهم وكان إذا مات أحد منهم يسألون رسول الله الدعاء والاستغفار لميتهم فكان يستغفر لهم على أنهم مسلمون فأعلمه الله أنهم منافقون وأخبر أن استغفاره لا ينفعهم فذلك قوله تعالى:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ خرج الكلام مخرج الأمر ومعناه الشرط أي إن شئت استغفر لهم وإن شئت لا تستغفر فالأمران متساويان في عدم النفع الذي هو المغفرة والرحمة.

﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ قوله مرة انتصب على المصدر أي سبعين استغفارة أو على الظرف أي سبعين وقتاً وتخصيص السبعين بالذكر لتأكيد نفي المغفرة؛ لأن الشيء إذا بولغ في وصفه أكد بالسبع والسبعين وهذا كما يقول القائل لو سألتني حاجتك سبعين مرة لم أقضها لا يريد أنه إذا زاد على السبعين قضى حاجته فالمراد التكثير لا التحديد. ﴿فلن يغفر الله لهم ذلك﴾ أي: امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة في الاستغفار ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل ﴿بأنهم﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كفروا بالله ورسوله﴾ أي: كفراً متجاوزاً عن الحد كما يلوح به وصفهم بالفسق في قوله تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ فإن الفسق في كل شيء عبارة

عن التمرد والتجاوز عن حدوده، أي لا يهديهم هداية موصلة إلى المقصد ألبتة لمخالفة ذلك للحكمة التي عليها يدور فلك التكوين والتشريع. وأما الهداية: بمعنى الدلالة على ما يوصل إليه فهي متحققة لا محالة ولكنهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا.

وفيه إشارة إلى أن استغفار النبي عليه السلام لأحد من غير استغفاره لنفسه لا ينفعه فاليأس من المغفرة وعدم قبول استغفاره ليس لبخل من الله، ولا لقصور في النبي عليه الصلاة والسلام، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها، كما قال المولى جلال الدين في «شرح الهياكل» المحال لا يدخل تحت قدرة قادر، ولا يلزم من ذلك النقص في القادر بل النقص في المحال حيث لا يصلح لتعلق القدرة انتهى ومنه يعرف معنى قول العرفي الشيرازي:

ذات تو قادرست بايجاد هر محال الا بآفريدن چون تو يكانهٔ

وفي عبارته سوء أدب كما لا يخفى.

واعلم: أن من كفرهم وفسقهم سخريتهم في أمر الصدقات ولو كان لهم إيمان وإصلاح لبالغوا في الإنفاق وجدّوا في البذل كالمخلصين.

وفي «التأويلات النجمية»: قلب المؤمن منور بالإيمان وروحه متوجه إلى الحق تعالى فالحق يؤيد روحه بتأيد نظر العناية وتوفيق العبودية فيسطع من الروح نور روحاني مؤيد بنور رباني فتنبعث منه الخواطر الرحمانية الداعية إلى الله تعالى بأعمال موجبة للقربة من الفرائض والنوافل فتارة تكون الأعمال بدنية كالصوم والصلاة وتارة تكون تلك الأعمال مالية كالزكاة والصدقة فيتطوع بالصدقة فضلاً عن الزكاة وفي الحديث: «إن النافلة هدية المؤمن إلى ربه فليحسن أحدكم هديته وليطيبها» وقلب المنافق مظلم بظلمات صفات النفس لعدم نور الإيمان وروحه متوجه إلى الدنيا وزخارفها بتبعية النفس الأمارة بالسوء مطرود بالخذلان لأن قرينه الشيطان فبتأثير الخذلان ومقارنة الشيطان يصعد من النفس ظلمة نفسانية تمنع القلب من قبول الدعوة وإجابة الرسل واتباع الأوامر واجتناب النواهي بالصدق وتنبعث منة الخواطر الظلمانية النفسانية وبذلك يمتنع عن أداء الفرائض فضلاً عن النوافل والتطوعات ويهزأ بمن يفعل ذلك. روي أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه إياه في المنام فلما رأى عظمته غشي عليه فلما أفاق قال: إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته من الحسنات فقال: يا داود إني إذا رضيت عن عبدي أملأها بتمرة. وروي أن الحسن مر به نخاس ومعه جارية جميلة فقال للنخاس أترضى في ثمنها بدرهم أو درهمين قال: لا، قال: فاذهب فإن الله يرضى في الحور العين بالفلس والفلسين. قال السعدي قدس سره:

بدنيا توانى كه عقبى خرى يخرجان من ورنه حسرت خورى

واعلم أن النوافل مقبولة بعد أداء الفرائض وإلا فهي من علامات أهل الهوى.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فرح المخلفون﴾ المخلف ما يتركه الإنسان خلفه والمتخلف الذي تأخر بنفسه والمراد المنافقون الذين خلفهم النبي عليه السلام بالمدينة حين الخروج إلى غزوة تبوك بالإذن لهم في

القعود عند استئذانهم. ﴿بمقعدهم﴾ مصدر ميمي بمعنى القعود متعلق بفرح أي بقعودهم وتخلفهم عن الغزو. ﴿خلاف رسول الله﴾ ظرف للمصدر أي خلفه وبعد خروجه حيث خرج ولم يخرجوا فالخلاف بمعنى خلف، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦] يقال أقام زيد خلاف القوم أي تخلف عنهم بعد ذهابهم ظعن أو لم يظعن ويجوز أن يكون بمعنى المخالفة فيكون انتصابه على العلة لفرح أي فرحوا لأجل مخالفتهم إياه عليه السلام بأن مضى هو للجهاد وتخلفوا عنه. ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ إيثاراً للدعة والخفض، أي الراحة وسعة العيش على طاعة الله مع ما في قلوبهم من الكفر والنفاق. وفي ذكر الكراهة بعد الفرح الدال عليها تعريض بالمؤمنين الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله وآثروا تحصيل رضاه تعالى وفي قوله: كرهوا مقابلة معنوية مع فرح لأن الفرح من ثمرات المحبة. ﴿وقالوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض تثبيتاً لهم على التخلف والقعود وتواصياً فيما بينهم بالشر والفساد أو قالوا للمؤمنين تثبيطاً لهم عن الجهاد ونهياً لهم عن المعروف فقد جمعوا ثلاث خصال من خصال الكفر والضلال الفرح بالقعود وكراهة الجهاد ونهي الغير عن ذلك. ﴿لا تنفروا﴾ أي: لا تخرجوا ﴿في الحر﴾ فإنه لا تستطاع شدته وكانوا دعوا إلى غزوة تبوك في وقت نضج الرطب وهو أشد ما يكون من الحر وقول عروة بن الزبير إن خروجه عليه السلام لتبوك كان في زمن الخريف لا ينافي وجود الحر في ذلك الزمن لأن أوائل الخريف وهو الميزان يكون فيه الحر.

وكان ممن تخلف عن مسيره معه ﷺ أبو خيثمة ولما سار عليه السلام أياماً دخل أبو خيثمة على أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في حائط قد رشت كل منهما عريشتها وبردت فيها ماء وهيأت طعاماً فلما دخل نظر إلى امرأتيه وما صنعتا فقال رضي الله عنه رسول الله ﷺ في الحر وأبو خيثمة في ظل وماء بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء ما هذا بالنصف، ثم قال والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله فهيئا لي زاداً ففعلتا ثم قدم ناضحة فارتحلها وأخذ سيفه ورمحه ثم خرج في طلب رسول الله حتى أدركه». قال الحافظ:

ملول ازهمر هان بودن طريق كارد انى نيست بكش دشوارىء منزل بياد عهد آسانى

وقال:

مقام عيش ميسر نميشود بى رنج بلى بحكم بلا بسته اند حكم الست

وقال:

من ازديار حبيبم نه ازديار غريب مهيمنا بعزيزان خودرسان باشم

﴿قل﴾ رداً عليهم وتجهيلاً ﴿نار جهنم أشد حراً﴾ من هذا الحر وقد آثرتموها بهذه المخالفة فما لكم لا تحذرونها ﴿لو كانوا يفقهون﴾ أي: يعلمون أنها كذلك لما خالفوا وفي الحديث: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من أجزاء نار جهنم» وبيانه أنه لو جمع حطب الدنيا فأوقد كله حتى صار ناراً لكان الجزء الواحد من أجزاء نار جهنم الذي هو من سبعين جزءاً أشد من حر نار الدنيا.

وفي الخبر، لما أهبط آدم عليه السلام مضى جبرائيل إلى مالك وأخذ منه جمرة لآدم فلما تناولها أحرقت كفه فقال ما هذه يا جبرائيل قال جمرة من جهنم غسلتها سبعين مرة ثم

آتيتها إليك فألق عليها الحطب واخبز وكل ثم بكى آدم وقال كيف: «تقوى أولادي على حرها فقال له جبرائيل ليس لها على أولادك المطيعين من سبيل» كما ورد في الحديث: «تقول جهنم للمؤمن جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي» ومن كان مع الله لا يحرقه شيء ألا ترى إلى حال النبي عليه السلام ليلة المعراج كيف تجاوز عن كرة الأثير ولم يحترق منه شعر وكانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام.

﴿فليضحكوا﴾ ضحكاً ﴿قليلاً﴾ في الدنيا وهو إشارة إلى مدة العمر وعمر الدنيا قليل فكيف عمر من في الدنيا فإنه أقل من القليل ﴿وليبكوا﴾ بكاء ﴿كثيراً﴾ في الآخرة في النار ﴿جزاء﴾ مفعول له للفعل الثاني أي: ليبكوا جزاء. ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من فنون المعاصي وهذا لفظ أمر ومعناه خبر أي يضحكون قليلاً ويبكون دائماً وإنما أخرج في صورة الأمر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به فإن أمر الآمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عند المأمور به. يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم وفي الحديث: «يرسل الله البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى ترى وجوههم كهيئة الأخدود» ويجوز أن يكون الضحك كناية عن الفرح والبكاء عن الغم وأن تكون القلة عبارة عن العدم والكثرة عن الدوام. يعني [فردا ايشانرا غمى باشد بى فرح واندوهى بى سرور] فيكون وقت الضحك والبكاء في الآخرة. ويجوز أن يكون وقتهما في الدنيا أي هم لما هم عليه من الخطر مع رسول الله وسوء الحال بحيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلاً وبكاؤهم من أجل ذلك كثيراً نحو قوله عليه السلام لأمته «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً» قال ابن عمر رضي الله عنهما خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فوقف وسلم عليهم فقال: «أكثروا ذكر هاذم اللذات» قلنا وما هاذم اللذات قال: «الموت» قال الصائب:

بر غفلت سياه دلان خنده ميزند   غافل مشوز خندهٔ داندن نماى صبح

ومر الحسن البصري بشاب وهو يضحك فقال له: يا بني هل مررت على الصراط؟ فقال: لا، فقال: هل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ فقال: لا، فقال: ففيم هذا الضحك فما رؤي الفتى بعد ذلك يضحك. قيل: لما فارق موسى الخضر عليهما السلام قال: إياك واللجاجة ولا تكن مشاء إلا لحاجة ولا ضحاكاً من غير عجب كان وابكِ على خطيئتك يا ابن عمران.

قال محمد بن واسع إذا رأيت رجلاً في الجنة يبكي ألست تتعجب من بكائه قال: بلى، قال: فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلام يصير هو أعجب منه.

وعن وهب بن منبه أنه قال إن زكريا عليه السلام فقد ابنه يحيى عليه السلام فوجده مضطجعاً على قبر يبكي فقال: يا بني ما هذا البكاء، قال: أخبرتني أمي أن جبريل أخبرك أن بين الجنة والنار مفازة ذات لهب لا يطفىء حرها إلا الدمع فقال زكريا ابك يا بني ابك.

وعن كعب الأحبار أنه قال: إن العبد لا يبكي حتى يبعث الله إليه ملكاً فيمسح كبده بجناحه فإذا فعل ذلك بكى.

وعن أنس قال: ثلاثة أعين لا تمسها النار عين فقئت في سبيل الله وعين باتت تحرس في سبيل الله وعين دمعت من خشية الله.

وفي الحديث: «لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إليّ من أن تصدق بألف دينار» وفي التوراة يا ابن آدم إذا دمعت عيناك فلا تمسح الدموع بثوبك ولكن امسحها بكفك فإنها رحمة.

قال العلماء: البكاء على عشرة أنواع: بكاء فرح، وبكاء حزن، وبكاء رحمة، وبكاء خوف، مما يحصل، وبكاء كذب كبكاء النائحة؛ لأنها تبكي لشجو غيرها وجاء «تخرج النائحة من قبرها يوم القيامة شعثاء غبراء عليها جلباب من لعنة ودرع من جرب، وضعت يدها على رأسها تقول واويلاه وتنبح كما ينبح الكلب». وبكاء موافقة بأن يرى جماعة يبكون فيبكي مع عدم علمه بالسبب، وبكاء المحبة والشوق، وبكاء الجزع من حصول ألم لا يحتمله، وبكاء الجور والضعف. وبكاء النفاق وهو أن تدمع العين والقلب قاس.

وأما التباكي فهو تكلف البكاء وهو نوعان محمود ومذموم. والأول ما يكون لاستجلاب رقة القلب. والثاني ما يكون لأجل الرياء والسمعة كما في «إنسان العيون».

والحاصل: أن طالب الآخرة ينبغي له تقليل الضحك وتكثير البكاء ولا يغفل عن الموت ولقاء الجزاء فإنه كم ضاحك وكفنه عند القصار. قال الحافظ:

ديد آن قهقهۀ كبك خرامان حافظ ... كه زسر پنجۀ شاهين قضا غافل بود

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فإن رجعك الله﴾ من الرجع المتعدي دون الرجوع اللازم يقول رجع رجوعاً أي انصرف ورجع الشيء عن الشيء، أي صرفه ورده كأرجعه. والمعنى فإن ردك الله من غزوة تبوك. ﴿إلى طائفة منهم﴾ الطائفة من الشيء القطعة منه وضمير منهم إلى المنافقين المتخلفين في المدينة دون المتخلفين مطلقاً منافقاً كان أو مخلصاً فإن تخلف بعضهم إنما كان لعذر عائق مع الإسلام أو إلى من بقي من المنافقين لأن منهم من مات ومنهم من غاب عن البلد ومنهم من تاب ومنهم من لم يستأذن وعن قتادة أنهم كانوا اثني عشر رجلاً قيل فيهم ما قيل. ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه وهي تبوك. ﴿فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾ أي: لا تأذن لهم بحال وهو إخبار في معنى النهي للمبالغة، وكذا قوله: ﴿ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ من الأعداء ﴿إنكم﴾ تعليل لما سلف، أي: لأنكم ﴿رضيتم بالقعود﴾ أي: عن الغزو وفرحتم بذلك ﴿أول مرة﴾ هي الخرجة إلى غزوة تبوك وتذكير اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث هو الأكثر الدائر على الألسنة فإنك لا تكاد تسمع قائلاً يقول هي كبرى امرأة أو أولى مرة. ﴿فاقعدوا﴾ من بعد ﴿مع الخالفين﴾ أي: المتخلفين الذين ديدنهم القعود والتخلف دائماً لعدم لياقتهم للجهاد كالنساء والصبيان ففي الخالفين تغليب الذكور على الإناث.

فإن قيل: كانت أعمال المنافقين من الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد مقبولة عند النبي عليه السلام وإن لم تكن مقبولة عند الله تعالى فكان النبي عليه السلام يقول نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر فما الحكمة في أن الله تعالى أمر النبي عليه السلام بأن لا يقبل من المتخلفين أعمالهم من الخروج معه والقتال مع العدو وغير ذلك.

قلنا: إن الحكمة في ذلك والله أعلم أن المنافقين لما كانوا يظهرون الإسلام والائتمار بأوامر النبي عليه السلام مع ما كانوا يضمرون من الكفر والنفاق كانت أعمالهم مقبولة عند النبي

عليه السلام وسرائرهم موكولة إلى الله تعالى طمعاً في إنابتهم ورجوعهم من النفاق إلى الوفاق فلما أظهروا ما اضمروا ردت إليهم أعمالهم فكان الحكم بالظاهر أيضاً فافهم.

قال العلماء: أخرجهم الله تعالى من ديوان الغزاة ومحا أساميهم من دفتر المجاهدين وأبعد محلهم من محفل صحبة النبي ﷺ عقوبة لهم على تخلفهم لما فيه من الإهانة وإظهار نفاقهم وبيان أنهم ليسوا ممن يتقوى به الدين ويعز الإسلام كالمؤمنين الخلص نسأل الله تعالى صحبة الدين وصحبة أهل الدين إلى يوم الدين. روي أن زيد بن حارثة كان لخديجة اشتري لها بسوق عكاظ فوهبته لرسول الله فجاء أبوه يريد شراءه منه فقال عليه السلام: «إن رضي بذلك فعلت» فسئل زيد، فقال: ذل الرقبة مع صحبة أحب الخلق إلى الحق أحب إلي من الحرية مع مفارقته، فقال عليه السلام: «إذا اختارنا اخترناه» فأعتقه وزوجه أم أيمن وبعدها زينب بنت جحش. قال الحافظ:

كدايى در جانان بسلطنت مفروش   كسى زسايهٔ اين در بافتاب رود

والمنافقون لما لم يكن لهم استعداد لهذه الصحبة الشريفة فارقوه عليه السلام في السفر والحضر لأن كل امرىء يصبو إلى من يجانس، وقدم ناس إلى مكة، وقالوا قدمنا إلى بلدكم فعرفنا خياركم من شراركم في يومين، قيل كيف؟ قالوا لحق خيارنا بخياركم، وشرارنا بشراركم فألف كل شكله. قيل:

وإذا الرجال توسلوا بوسيلة   فوسيلتي حبي لآل محمد

قال الكاشفي: [جهاد كار مردان مردو مبارزان ميدان نبرد است ازهر تردامنى اين كار نيايد ونامرد بى درد مبارزت معركهٔ مجاهدت را نشايد].

يا برو همچون زنان رنكى وبويى پيش كير   يا چو مردان اندر آى وكوى درميدان فكن

قال السعدي قدس سره:

ندهد هوشمند روشن رأى   بفرومايه كارهاى خطير

بوريا باف اكرچه بافندست   نبرندش بكار كاه حرير

ومن بلاغات الزمخشري لا تصلح الأمور إلا بأولي الألباب والأرحاء لا تدور إلا على الأقطاب جمع قطب وهو وتد الرحى.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿ولا تصل﴾ يا محمد ﴿على أحد منهم﴾ أي: من المنافقين وهو صفة لأحد. ﴿مات﴾ صفة أخرى ويجوز أن يكون منهم حالاً من الضمير في مات كذا في «تفسير أبي البقاء» ﴿أبداً﴾ ظرف للنهي أي لا تدع ولا تستغفر لهم أبداً وهو الأظهر. وقيل: منصوب بمات على أن يكون المعنى لا تصل على أحد منهم ميت مات أبداً بأن مات على الكفر فإن من مات على الكفر ميت أبداً وإن إحياءه للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يحيى وكان حذيفة رضي الله عنه صاحب سر رسول الله ﷺ قال له يوماً: «إني مسر إليك سراً فلا تذكرنه إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان» وعد جماعة من المنافقين ولما توفي رسول الله كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في

خلافته إذا مات الرجل ممن يظن أنه من أولئك أخذ بيد حذيفة فناداه إلى الصلاة عليه فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر، وإن انتزع يده من يده ترك الصلاة عليه. ﴿ولا تقم على قبره﴾ أي: ولا تقف عند قبره للدفن أو للزيارة والدعاء وكان النبي عليه السلام «إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له» ﴿إنهم كفروا بالله ورسوله﴾ تعليل للنهي على أن الاستغفار للميت والوقوف على قبره إنما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيل في حقهم لأنهم استمروا على الكفر بالله وبرسوله مدة حياتهم قال الحافظ قدس سره:

بآب زمزم وكوثر سفيدنتوان كرد كليم بخت كسى راكه بافتند سياه

وقال السعدي قدس سره:

توان پاك كردن زژنك آينه وليكن نيايد زسنك آينه

﴿وماتوا وهم فاسقون﴾ أي: متمردون في الكفر خارجون عن حدوده. روي عن ابن عباس أن رئيس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول دعا رسول الله ﷺ في مرضه فلما دخل عليه سأله أن يستغفر له ويصلي عليه إذا مات ويقوم على قبره، ثم إنه أرسل إليه عليه السلام يطلب منه قميصه ليكفن فيه فأرسل إليه القميص الفوقاني فرده فطلب الذي يلي جلده، فقال عمر رضي الله عنه تعطي قميصك لرجس النجس فقال عليه السلام: «إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً وأرجو من الله تعالى أن يدخل به ألف في الإسلام» وذلك أن المنافقين كانوا لا يفارقون ابن أبي فلما رأوه يطلب منه عليه السلام قميصه يتبرك به ويرجو أن ينفعه القميص في دفع عذاب الله وجلب رحمته وفضله، أسلم ألف من الخروج وإنما قال عليه السلام إن قميصي لا يغني لعدم الأساس الذي هو الإيمان ومثله إنما يؤثر عند صلاح المحل ويدل عليه قوله عليه السلام: «ادفنوا أمواتكم وسط قوم صالحين فإن الميت يتأذى بجار السوء كما يتأذى الحي بجار السوء» وما يروى الأرض المقدسة لا تقدس أحداً إنما يقدس المرء عمله وقد ثبت أن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه لما قتل سفيان بن خالد الهذلي ووضع بين يديه عليه السلام دفع إليه عصا كانت بيده وقال: «تخصر بهذه في الجنة» أي توكأ عليها فكانت تلك العصا عنده فلما حضرته الوفاة أوصى أهله أن يجعلوها بين جلده وكفنه ففعلوا وثبت أنه عليه السلام «حلق رأسه الشريف معمر بن عبد الله فأعطى نصف شعر رأسه لأبي طلحة وفرق النصف الآخر بين الأصحاب شعرة وشعرتين فكانوا يتبركون بها وينصرون ما داموا حاملين لها» ولذا قال في «الأسرار المحمدية»: لو وضع شعر رسول الله أو عصاه أو سوطه على قبر عاص لنجا ذلك العاصي ببركات تلك الذخيرة من العذاب وإن كان في دار إنسان أو بلدة لا يصيب سكانها بلاء ببركته وإن لم يشعروا به ومن هذا القبيل ماء زمزم والكفن المبلول به وبطانة أستار الكعبة والتكفن بها وكتابة القرآن على القراطيس والوضع في أيدي الموتى انتهى.

أقول: إن قلت قد ثبت أن في خزانة السلاطين خصوصاً في خزانة آل عثمان شيئاً مما يتبرك به من خرقة النبي عليه السلام وغيرها ورأيناهم قد لا ينصرون ومعهم شيء من لوائه عليه السلام ويصيب بلدتهم آفات كثيرة؟ قلت: لذلك لهتك الحرمة ألا ترى أن مكة والمدينة كان لا يدخلهما طاعون فلما هتك السكان حرمتهما دخلهما والله الغفور فلما مات ابن أبي انطلق ابنه وكان مؤمناً صالحاً إلى النبي عليه السلام ودعاه إلى جنازة أبيه فقال له عليه السلام: «ما اسمك»؟ قال: الحباب بن عبد الله فقال عليه السلام: «أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب هو

الشيطان» أي اسمه كما في «القاموس» ثم قال: «صل عليه وادفنه» فقال إن لم تصل عليه يا رسول الله لا يصلي عليه مسلم أنشدك الله أن لا تشمت بي الأعداء فأجابه عليه السلام تسلية له ومراعاة لجانبه فقام ليصلي عليه فجاء عمر رضي الله عنه فقام بين رسول الله وبين القبلة لئلا يصلي عليه وقال: أتصلي على عدو الله القائل كذا يوم كذا وكذا وكذا وعد أيامه الخبيثة فنزلت الآية وأخذ جبرائيل عليه السلام بثوبه وقال لا تصل على أحد منهم مات أبداً فأعرض عن الصلاة عليه وهذا يدل على منقبة عظيمة من مناقب عمر رضي الله عنه فإن الوحي كان ينزل على وفق قوله في آيات كثيرة منها هذه الآية وهو منصب عال ودرجة رفيعة له في الدين فلذا قال عليه السلام في حقه «لو لم أبعث لبعثت نبياً يا عمر» وقال: «إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون فإنه إن كان في أمتي هذه فإنه عمر بن الخطاب» رضي الله عنه. والمحدث بفتح الدال المشددة: هو الذي يلقى في نفسه الشيء فيخبر به فراسة وهي الإصابة في النظر ويكون كما قال وكأنه حدثه الملأ الأعلى وهذه منزلة جليلة من منازل الأولياء ولم يرد النبي عليه السلام بقوله إن كان في أمتي التردد في ذلك لأن أمته أفضل الأمم وإذا وجد في غيرها محدثون ففيها أولى بل أراد به التأكيد لفضل عمر كما يقال إن يكن لي صديق فهو فلان يراد به اختصاصه بكمال الصداقة لا نفي سائر الأصدقاء وقد قيل في فضيلة عمر رضي الله عنه:

له فضائل لا تخفى على أحد إلا على أحد لا يعرف القمرا

كذا في «شرح المشارق» لابن ملك.

فإن قيل: كيف يجوز أن يقال إنه عليه السلام رغب في أن يصلي عليه بعد أن علم أنه كافر مات على الكفر وأن صلاته عليه دعاء له بالمغفرة وقد منعه الله من أن يستغفر للمشركين وأعلمه أنه لا يغفر للكفار وأيضاً الصلاة عليه ودفع قميصه إليه توجب إعزازه وهو مأمور بإهانة الكفار.

فالجواب إن الخبيث لما طلب منه أن يرسل إليه قميصه الذي يمس جلده الشريف ليدفن فيه غلب على ظنه أنه قد تاب عن نفاقه وآمن لأن ذلك الوقت وقت توبة الفاجر وإيمان الكافر فلما رأى منه إظهار الإسلام وشاهد منه هذه الأمارات الدالة على إسلامه غلب على ظنه أنه صار مسلماً فرغب في أن يصلي عليه فلما أتى جبريل وأخبره بأنه مات على كفره ونفاقه امتنع من الصلاة عليه. وقيل: نزلت الآية بعدما صلى ولبث يسيراً فما صلى بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره.

وأما دفع القميص إليه فذكروا فيه وجوهاً.

منها: أن العباس عم النبي عليه السلام لما أخذ أسيراً يوم بدر ولم يجدوا له قميصاً يساوي قده وكان رجلاً طويلاً كساه عبد الله قميصه فهو عليه السلام إنما دفع إليه قميصه مكافأة لإحسانه ذلك لا إعزاز له.

ومنها: أنه تعالى أمره أن لا يرد سائلاً حيث قال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: ١٠] فالضنة بالقميص وعدم إرساله سيما وقد سئل فيه مخل بالكرم.

ومنها: أنه لعله أوحي إليه أنك إن دفعت إليه قميصك صار ذلك حاملاً لدخول ألف نفر من المنافقين في الإسلام ففعل ذلك بناء عليه والله أعلم بحقيقة الحال وما علينا إلا القبول وطي المقال وهو الهادي إلى طريق التحقيق.

﴿ولا تعجبك﴾ الإعجاب [شكفتى نمودن وخوش آمدن خطاب بآن حضرتست ومرادامت اند يعني در عجب ندارد شمارا] ﴿أموالهم وأولادهم﴾ الضمير للمنافقين.

قال الكاشفي: [ما لهاى منافقان اكرچه بسيارست وفرزندان ايشان كه قوى وبا اقتدارند] وتقديم الأموال في أمثال هذه المواقع على الأولاد مع كونهم أعزّ منها إما لعموم مساس الحاجة إليها بحسب الذات وبحسب الأفراد والأوقات فإنها مما لا بد منه لكل أحد من الآباء والأمهات والأولاد في كل وقت وحين حتى أن من له أولاده ولا مال له فهو وأولاده في ضيق ونكال وأما الأولاد فإنما يرغب فيهم من بلغ مبلغ الأبوة وإما لأن المال مناط لبقاء النفس والأولاد لبقاء النوع وإما لأنها أقدم في الوجود من الأولاد لأن الأجزاء المنوية إنما تحصل من الأغذية. ﴿إنما يريد الله﴾ بما متعهم به من الأموال والأولاد. ﴿أن يعذبهم بها في الدنيا﴾ [بسبب جمع مال ومحافظت آن پيوسته دررنج باشند وبراى رونق أحوال أولاد وتهيهٔ أسباب ايشان همواره محنت ومشقت كشند] ﴿وتزهق أنفسهم﴾ الزهوق [برآمدن جان] أي: تخرج ويموتوا ﴿وهم كافرون﴾ أي كافرون بسبب اشتغالهم بالتمتع بها والإلهاء عن النظر والتدبر في العواقب [درويشى ميكفت اغنيا الأشقيا اند مال دنيا جمع ميكنند بأنواع پريشانى وزحمت ونكاه ميدارند باصناف بليت ومشقت وميكذارند بصد هزار حسرت]

در اول چو خواهى كنى جمع مال — بسى رنج بر خويش بايد كماشت
پس از بهر آن تا بماند بجاى — شب وروز مى بايدت پاس داشت
وزين جمله آن حال مشكلترست — كه آخر بحسرت ببايد كذشت

واعلم: أن هذه الآية مرت في هذه السورة الكريمة مع التغاير في بعض الألفاظ فالتكرير لتأكيد النصيحة بها والاعتناء بشأنها تنبيهاً على أن هذه النصيحة مما لا ينبغي أن يذهل السامع عنها، وأن الناصح لا بد له أن يرجع إليها في أثناء كلامه دائماً ولا سيما إذا تباعد أحد الكلامين عن الآخر بناء على أن الأبصار طامحة أي مرتفعة ناظرة إلى الأموال والأولاد وأن النفوس مغتبطة أي متمنية لهما حريصة عليهما والأموال والأولاد، وإن كانت نعمة في حق المؤمنين فإنها نقمة في حق المنافقين لكونها شاغلة لقلوبهم عن الله وطلبه وأشد عذاب القلوب من الحجاب ومن عذب بالحجاب فقد حرم من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي مستورو القلوب بحجاب حب الأموال والأولاد كما في «التأويلات النجمية» وفي الحديث «الدنيا محفوفة باللذات والشهوات فلا تلهينكم شهوات الدنيا ولذاتها عن الآخرة فإنه لا دنيا لمن لا آخرة له ولا آخرة لمن لا دنيا له يعمل فيها بطاعة الله تعالى» يعني: إن المؤمن يتزود لآخرته بالعبادات المالية.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وإذا أنزلت سورة﴾ من القرآن ﴿أن آمنوا بالله﴾ أن مصدرية حذف منها الجار أي: بأن آمنوا بالله. ﴿وجاهدوا مع رسوله﴾ لإعزاز دينه وإعلاء كلمته. ﴿استأذنك أولو الطول منهم﴾ أي

ذوو الفضل والسعة والقدرة على الجهاد بدناً ومالاً من المنافقين.

قال الحدادي: الطول في الحقيقة هو الفضل الذي يتمكن به من مطاولة الأعداء.

قال الرازي في سورة النساء: أصل هذه الكلمة من الطول الذي هو خلاف القصر؛ لأنه إذا كان طويلاً ففيه كمال وزيادة كما أنه إذا كان قصيراً ففيه قصور ونقصان وسمي الغنى أيضاً طولاً لأنه ينال به من المرادات ما لا ينال عند الفقر كما أنه ينال بالطول ما لا ينال بالقصر انتهى. ﴿وقالوا ذرنا﴾ دعنا ﴿نكن مع القاعدين﴾ أي: الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر ﴿رضوا﴾ أي المنافقون ﴿بأن يكونوا مع الخوالف﴾ أي: مع النساء المتخلفات في البيوت والحي بعد أزواجهن جمع خالفة فالتاء للتأنيث وقد يقال الخالفة الذي لا خير فيه فالتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية لا للتأنيث، ولعل الوجه في تسمية من لا خير فيه من الرجال خالفة كونه غير مجيب إلى ما دعي إليه من المهمات. ﴿وطبع على قلوبهم﴾ [ومهر نهاده شده بردلهاى ايشان].

قال الحدادي: معنى الطبع في اللغة جعل الشيء كالطابع نحو طبع الدينار والدرهم قال في المصادر والتركيب يدل على نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها ويقاس على هذا طبع الإنسان وطبيعته وطباعه أي سجيته التي جبل عليها وخص القلب بالختم لأنه محل الفهم ولذا قال: ﴿فهم لا يفقهون﴾ ما في الإيمان بالله وطاعته في أوامره ونواهيه وموافقة الرسول والجهاد من السعادة وما في أضداد ذلك من الشقاوة.

﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه﴾ بالله وبما جاء من عنده تعالى أي آمنوا كما آمن هو عليه السلام؛ إذ لا شك أن زمان إيمان المؤمنين ما كان مقارناً لزمان إيمان الرسول، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [النمل: ٤٤] أي: إسلام سليمان أي أسلمت كما أسلم سليمان ﴿جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ لكن لم يختل أمر الجهاد بتخلفهم لأنه قد جاهد من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداً ﴿وأولئك﴾[وآن كروه] ﴿لهم﴾ بواسطة نعوتهم المذكورة ﴿الخيرات﴾ أي: منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في العقبى. ويجوز أن يكون معناه الزوجات الحسان في الجنة وهن الحور لقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرحمن: ٧٠] وهي جمع خيرة تخفيف خيرة وخيرات العابدين هي الحسنات فهي متعلقة بأعمالهم وخيرات العارفين مواهب الحق تعالى فهي متعلقة بأحوالهم ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي: الفائزون بالمطلوب لا من حاز بعضاً من الحظوظ الفانية عما قريب.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

﴿أعد الله لهم﴾ أي: هيأ لهم في الآخرة ﴿جنات﴾ جمع جنة وهي البستان الذي فيه أشجار مثمرة ﴿تجري من تحتها﴾ أي: من أسافل أرضها أو من تحت أشجارها أو من تحت القصور والغرف لا تحت الأرض. ﴿الأنهار﴾ جمع نهر وهو مسيل الماء سمي به لسعته وضيائه، وفي الحديث: «في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر» ثم تشتق الأنهار منها بعد وقيل النهر واحد ويجري فيه الخمر والماء والعسل واللبن لا يخالط بعضها بعضاً، وقال بعضهم الجاري واحد ويختلف باختلاف الأمنية. ﴿خالدين فيها﴾ أي: مقدراً خلودهم في تلك الجنات الموصوفة. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما فهم من إعداد الله سبحانه

لهم الجنات المذكورة من نيل الكرامة العظمى. ﴿الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز وراءه فازوا بالجنة ونعيمها ونجوا من النار وجحيمها وفي الحديث: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار» وفي الخبر: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة» فقد اشترط في هذا القول الإخلاص ولا يكون الإخلاص إلا بمنعه من الذنوب وإلا فليس بمخلص ويخاف أن يكون ذلك القول عنده عارية والعارية تسترد منه والإخلاص من صفات القلب وتحليته بالأوصاف الحميدة إنما هي بعد تزكية النفس عن الرذائل.

قال في «التأويلات النجمية»: الخلاص من حجب النفس وصفاتها هو الفوز العظيم لأن عظم الفوز على قدر عظم الحجب ولا حجاب أعظم من حجاب النفس والفوز منها يكون فوزاً عظيماً انتهى. وفي «المثنوي»:

جمله قرآن شرح خبث نفسهاست — بنكر اندر مصحف آن چشمت كجاست

هين مرواندر پى نفس چوازغ — كوبكورستان برد نى سوى باغ
نفس اكرچه زيركست وخرده دان — قبله اش دنياست اورا مرده دان

وفي الحديث: «إن في الجنة مائة درجة» المراد بالمائة هنا الكثرة وبالدرجة المرقاة «أعدها الله للمجاهدين في سبيله» وهم الغزاة أو الحجاج أو الذين جاهدوا أنفسهم لمرضاة ربهم «كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض» وهذا التفاوت يجوز أن يكون صورياً وأن يكون معنوياً فيكون المراد من الدرجة المرتبة فالأقرب إلى الله تعالى يكون أرفع درجة ممن دونه «فإن سألتم الله فاسألوه الفردوس» وهو بستان في الجنة جامع لأنواع الثمر «فإنه أوسط الجنة» يعني أشرفها «وأعلى الجنة» قيل: فيه دلالة على أن السموات كرية فإن الأوسط لا يكون أعلى إلا إذا كان كرياً وإن الجنة فوق السموات تحت العرش.

قال الإمام الطيبي: النكتة في الجمع بين الأوسط والأعلى أنه أراد بأحدهما الحسي وبالآخر المعنوي.

وأقول: يحتمل أن يكونا حسيين لأن كونهما أحسن وأزين مما يحس «وفوقه عرش الرحمن» هذا يدل على أنه فوق جميع الجنان «ومنه تفجر» أصله تتفجر فحذف إحدى التاءين «أنهار الجنة»، وهي أربعة مذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] المراد منها أصول أنهار الجنة كذا في «شرح المشارق» لابن ملك نسأل الله سبحانه الرفيق الأعلى والنظر إلى وجهه الأبهى وجماله الأسنى.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا
يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا
عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ من عذر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم

يجدوا حقيقته أن يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له. فالمعذر اسم فاعل من باب التفعيل أو من اعتذر إذا مهد العذر بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين فيكون اسم فاعل من باب الافتعال والاعتذار قد يكون بالكذب وقد يكون بالصدق وذلك لأن الاعتذار عبارة عن الإتيان بما هو في صورة العذر سواء كان للمعتذر عذر حقيقة أو لم يكن. والأعراب سكان البوادي من العرب لا واحد له والعرب خلاف العجم وهم سكان الأمصار أو عام والعربة ناحية قرب المدينة وأقامت قريش بعربة فنسبت العرب إليها وهي باحة العرب وباحة دار أبي الفصاحة إسماعيل عليه السلام كما في «القاموس». والمراد بالمعذرين أسد وغطفان واستأذنوا في التخلف حين الخروج إلى غزوة تبوك معتذرين بالجهد أي ضيق العيش وكثرة العيال أو رهط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغارت أعراب طي على أهالينا ومواشينا فقال عليه السلام: «سيغنيني الله عنكم» واختلفوا في أنهم كانوا معتذرين بالتصنع أو بالصحة والظاهر الثاني ويدل عليه كلام «القاموس» حيث قال قوله تعالى: ﴿**وجاء المعذرون**﴾ بتشديد الذال المكسورة هم المعتذرون الذين لهم عذر وقد يكون المعذر غير محق فالمعنى المقصرون بغير عذر انتهى.

أقول وعلى كل حال لا يثبت النفاق إذ المقصر وهو المعتذر للفتور والكسل لا يكون كافراً وإن كان مذموماً وقد اضطرب كلام المفسرين هناك فعليك بضبط المبنى وأخذ المعنى ﴿**وقعد الذين كذبوا الله ورسوله**﴾ وهم منافقو الاعراب الذين لم يجيبوا ولم يعتذروا ولم يستأذنوا في القعود فظهر أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان والطاعة.

قال في «إنسان العيون»: وجاء المعذرون وهم الضعفاء والمقلون من الأعراب ليؤذن لهم في التخلف فأذن لهم وكانوا اثنين وثمانين رجلاً وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علة وجراءة على الله ورسوله وقد عناهم الله بقوله: ﴿**وقعد الذين كذبوا الله ورسوله**﴾ انتهى. ﴿**سيصيب الذين كفروا منهم**﴾ أي: من الأعراب أو من المعذرين وعلى كل تقدير فمن تبعيضية لا بيانية إذ ليس كلهم كفرة وقد علم الله تعالى أن بعض الأعراب سيؤمن وأن بعض المعذرين يعتذر لكسله لا لكفره ﴿**عذاب أليم**﴾ بالقتل والأسر في الدنيا والنار في الآخرة.

قال في «التأويلات النجمية»: الخلق ثلاث طبقات. الأولى: المعذرون وهم المقصرون المعترفون بتقصيرهم وذنوبهم التائبون عن ذنوبهم المتداركون بالرحمة والمغفرة. والثانية: القاعدون وهم الكاذبون الكذابون الذين لم يؤمنوا بالله ورسوله من الكافرين والمنافقين المتداركون بالخذلان والعذاب الأليم كما قال: ﴿**وقعد الذين**﴾ الآية. والثالثة: المؤمنون المخلصون الصادقون الناصحون ولكن فيهم أهل العذر وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿**ليس على الضعفاء**﴾ [نيست برناتوانان وعاجزان] كالهرمى والزمنى جمع هرم بكسر الراء وهو كبير السن وجمع زمن وهو المقعد ﴿**ولا على المرضى**﴾ [ونه بربيماران ومعلول] جمع مريض ﴿**ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون**﴾ لفقرهم كمزينة وجهينة وبني عذرة ﴿**حرج**﴾ إثم في التخلف والتأخر عن الغزو ثم إنه تعالى شرط في انتفاء الحرج عنهم شرطاً معيناً فقال ﴿**إذا نصحوا لله ورسوله**﴾ قال أبو البقاء العامل فيه معنى الكلام أي لا يخرجون حينئذٍ. والنصح إخلاص العمل من الغش يقال نصح الشيء إذا خلص ونصح له في القول إذا كلمه بما هو خير محض له والناصح الخالص وفي الحديث: «الدين النصيحة الدين النصيحة

الدين النصيحة» ذكرها ثلاث مرات قيل: هذا الكلام مدار الإسلام لأن النصيحة هي إرادة الخير معناه عماد الدين النصيحة كما يقال الحج عرفة أي عماده «قالوا لمن يا رسول الله قال لله» معنى نصيحته تعالى الإيمان به وإخلاص العمل فيما أمر به «ولرسوله» نصيحته تصديقه بكل ما علم مجيئه به وإحياء طريقه «ولكتابه» نصيحته الاعتقاد بأنه كلام الله والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه وفي الحقيقة هذه النصائح راجعة إلى العبد «ولأئمة المسلمين» نصيحتهم إطاعتهم في المعروف وتنبيههم عند الغفلة «وعامتهم» نصيحة عامة المسلمين دفع المضار عنهم وجلب المنافع إليهم بقدر الوسع كذا في «شرح المشارق» لابن ملك. فمعنى الآية أن المتخلفين من أصحاب الأعذار لا إثم عليهم في تخلفهم إذا أخلصوا الإيمان لله ولرسوله وامتثلوا أمرهما في جميع الأمور ومعظمها أن لا يفشوا ما سمعوه من الأراجيف في حق الغزاة وأن لا يثيروا الفتن وأن يسعوا في إيصال الخير إلى المجاهدين ويقوموا بإصلاح مهمات بيوتهم ويسعوا في إيصال الأخبار السارة من بيوتهم إليهم. ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ استئناف مقرر لمضمون ما سبق، أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل ومن زائدة لعموم النفي ووضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على انتظامهم بنصحهم لله ورسوله في سلك المحسنين، وقد اشتهر أن تعليق الحكم على الوصف المناسب يشعر بعلية الوصف له. ﴿والله غفور رحيم﴾ يشير إلى أن بهم حاجة إلى المغفرة وإن كان تخلفهم بعذر فإن الإنسان محل التقصير والعجز فلا يسعه إلا العفو. وفي «المثنوي»:

شمس هم معده زمين را كرم كرد ... تا زمين باقى حدثها را بخورد
جزؤخاكى كشت ورست ازوى نبات ... هكذا يمحو الإله السيئات
اي كه من زشت وخصا لم نيز زشت ... چون شوم كل چون مرا او خاركشت
نوبهارا حسن كل ده خاررا ... زينت طاوس ده آن مارا

﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ عطف على المحسنين أي ليس شيء ثابتاً على المحسنين ولا على الذين إذا ما أتوك [چون بيامدند بسوى تو ودرخواست كردند ﴿لتحملهم﴾ تاايشانرا دستورى دهى ويا خود بحرب برى] وهم البكاؤون سبعة من الأنصار: معقل بن يسار، وصخر ابن الخنساء، وعبد الله بن كعب، وسالم بن عميرة، وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن مغفل، وعلية بن زيد أتوا رسول الله ﷺ فقالوا نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة فنغزو معك فقال عليه السلام: «لا أجد» فتولوا وهم يبكون وقيل هم بنو مقرن كمحدث وكانوا سبعة إخوة كلهم صحبوا النبي عليه السلام وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم كذا في «تفسير القرطبي» ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ حال من الكاف في أتوك بإضمار قد، أي: إذا ما أتوك قائلاً لا أجد وما عامة لما سألوه عليه السلام وغيره مما يحمل عليه عادة من النفقة والظهر وفي إيثار لا أجد على ليس عندي من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفى كأنه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده. ﴿تولوا﴾ جواب إذا [كشتند از پيش تو] ﴿وأعينهم تفيض﴾ أي: تسيل بشدة ﴿من الدمع﴾ [از اشك يعني اشك از ديدهاى ايشان ميريخت] وإسناد الفيض إلى العين مجازي كسال الميزاب والأصل يفيض دمعها عدل إلى هذه الصور للدلالة على المبالغة في فيضان الدمع كأن العين كلها دمع فياض. ﴿حزناً﴾ نصب على العلية والعامل تفيض لا يقال فاعل

الفيض مغاير لفاعل الحزن فكيف نصب لأنا نقول إن الحزن يجوز إسناده إلى العين مجازاً فيقال عين حزينة وعين مسرورة ﴿ألّا يجدوا﴾ أن مصدرية بتقدير لام متعلقة بحزناً، أي: لئلا يجدوا ﴿ما ينفقون﴾ في شراء ما يحتاجون إليه إذ لم يجدوه عندك.

قال الكاشفي: [عمر وعباس وعثمان رضي الله عنهم ايشانرا زاد وتوشه ومركب داده همراه بردند پس حق تعالى ميفرما يدكه بدين نوع مردم اكر تخلف كنند حرجى وعنابى نيست].

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿إنما السبيل﴾ بالمعاتبة ﴿على الذين يستأذنونك﴾ في التخلف ﴿وهم أغنياء﴾ واجدون لأهبة الغزو مع سلامتهم ﴿رضوا﴾ استئناف تعليل لما سبق كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء، فقيل: رضوا ﴿بأن يكونوا مع الخوالف﴾ أي: النساء رضى بالدناءة وإيثاراً للدعة ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾ [ومهر نهاد خداى تعالى ازخذلان بردلهاى ايشان] حتى غفلوا عن وخامة العاقبة. ﴿فهم﴾ بسبب ذلك ﴿لا يعلمون﴾ أبداً غائلة ما رضوا به وما يستتبعه آجلاً كما لم يعلموا بخساسة شأنه آجلاً.

قال أرسطو: الارتقاء إلى السؤدد صعب، والانحطاط إلى الدناءة سهل.

وسئل عيسى عليه السلام، أي الناس أشرف؟ فقبض قبضتين من تراب، ثم قال: أي هذين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما، وقال الناس كلهم من تراب وأكرمهم عند الله أتقاهم، فالعلو والشرف في التقوى واختيار المجاهدة على الراحة والحزن والبكاء على الفرح والسرور، وفي الحديث: «أقرب الناس إلى الله يوم القيامة من طال حزنه وعطشه وجوعه».

وقال حكيم: الدنيا سوق الآخرة، والعقل قائد الخير، والمال رداء التكبر، والهوى مركب المعاصي، والحزن مقدمة السرور. قال الصائب:

هر محنتى مقدمهٔ راحتى بود   شد همزبان حق چوزبان كليم سوخت

وقد ذم الله تعالى أهل النفاق بالفرح والاستهزاء ومدح أهل الإخلاص بالحزن والبكاء وأدى ضحك أولئك إلى البكاء الكثير وبكاء هؤلاء إلى الضحك الوفير. وفي «المثنوي»:

تا نكريد ابركى خندد چمن   تانكريد طفل كى جوشد لبن
هركجا آب روان سبزه بود   هر كجا اشك روان رحمت شود
باش چون دولاب نالان چشم تر   تاز صحن جانت بر رويد خضر

ثم إن الله تعالى إنما يمنع المرء عن مراده ليستعد له وليزداد شوقه ألا ترى إلى النبي عليه السلام كيف قال: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه﴾ عزة وترفعاً واستغناء ودلالاً كما قال تعالى لموسى عليه السلام عند سؤاله بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] ليزيد بهذا المنع والتعزز شوق موسى عليه السلام فكان منع النبي عليه السلام عنهم من هذا القبيل فزادهم الشوق والحرص على الغزو فلما غلب الشوق وزاد الطلب أعطوا مأمولهم وأجيب سؤلهم كما سبق وهذه حال الصورة وقس عليها حال المعنى فكما أن الفرخ في عالم الصورة لا يقدر على الطيران قبل نبات الجناح وهو من الشعر فكذا العاشق لا يقدر على الطيران في عالم المعنى قبل وجود الجناح وهو من العلم والعمل والشوق إلى المولى والتوجه إلى الحضرة

العليا وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفر بن أبي طالب ملكاً يطير في الجنة ذا جناحين يطير بهما حيث شاء مخضوبة قوادمه بالدماء» قال الإمام المنذري: وكان جعفر قد ذهبت يداه في سبيل الله يوم مؤته فأبدله الله بهما جناحين فمن أجل ذا سمي جعفر الطيار.

قال السهيلي: ما ينبغي الوقوف عليه في معنى الجناحين أنهما ليسا كما سبق إلى الوهم على مثل جناحي الطائر وريشه لأن الصورة الآدمية أشرف الصور وأكملها وفي قوله عليه السلام: «إن الله خلق آدم على صورته» تشريف لها عظيم وحاش لله من التشبيه والتمثيل ولكنها عبارة عن صورة ملكية وقوة روحانية أعطيها جعفر كما أعطيها الملائكة وقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] فعبر عن العضد بالجناح توسعاً وليس ثمة طيران فكيف بمن أعطي القوة على الطيران مع الملائكة أخلق به إذن بوصف الجناح مع كمال الصورة الآدمية وتمام الجوارح البشرية وقد قال أهل العلم في أجنحة الملائكة ليست كما يتوهم من أجنحة الطير ولكنها صفات ملكية لا تفهم إلا بالمعاينة واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: ١] فكيف تكون كأجنحة الطير على هذا ولم ير طائر له ثلاثة أجنحة ولا أربعة فكيف بستمائة جناح كما جاء في صفة جبريل فدل على أنها صفات لا تنضبط كيفيتها للفكر ولا ورد أيضاً في بيانها خبر فيجب علينا الإيمان بها ولا يفيدنا إعمال الفكر في كيفيتها علماً وكل امرىء قريب من معاينة ذلك فإما أن يكون من الذين ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وإما أن يكون من الذين تقول لهم الملائكة: ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] كذا في فتح القريب والله يهدي كل مريب.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿يعتذرون﴾ أي يعتذر المنافقون ﴿إليكم﴾ في التخلف وكانوا بضعة وثمانين رجلاً والخطاب لرسول الله ﷺ وأصحابه والآية نزلت قبل وقوع الاعتذار، ولذا قال الكاشفي: [القاء اعتذار خواهد كرد منافقان بسوى شما] ﴿إذا رجعتم﴾ من غزوة تبوك منتهين ﴿إليهم﴾ وإنما لم يقل إلى المدينة إيذاناً بأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة فلعل منهم من بادر بالاعتذار قبل الرجوع إليها. ﴿قل﴾ يا محمد والتخصيص لما أن الجواب من وظيفته عليه السلام ﴿لا تعتذروا﴾ أي لا تفعلوا الاعتذار، لأنه ﴿لن نؤمن لكم﴾ لن نصدقكم في اعتذاركم، لأنه ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ أي: أعلمنا بالوحي ببعض أخباركم المنافية للتصديق وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد. وفي «المثنوي»:

از منافق عذررد آمد نه خوب زانكه در لب بود آن نى در قلوب
كذب چون خس باشد ودل چودهان خس نكردد درده‌ان هركزنهان

﴿وسيرى الله عملكم﴾ فيما سيأتي ﴿ورسوله﴾ أتتوبون عن الكفر والنفاق أم تثبتون عليه وكأنه استتابة وإمهال للتوبة. ﴿ثم تردون﴾ يوم القيامة ﴿إلى عالم الغيب﴾ وهو ما غاب عن العباد. ﴿والشهادة﴾ وهو ما علمه العباد. ﴿فينبئكم﴾ عند ردكم إليه ووقوفكم بين يديه. ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي بما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الأعمال السيئة السابقة واللاحقة والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به وإيثارها عليها للإيذان بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم، وإنما يعلمونها يومئذٍ حين يرونها على صورها الحقيقة.

﴿سيحلفون بالله لكم﴾ تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة القائلين والله ما قدرنا على الخروج ولو قدرنا عليه لما تخلفنا. ﴿إذا انقلبتم﴾ أي انصرفتم من الغزو. ﴿إليهم﴾ وهم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما. ﴿لتعرضوا عنهم﴾ إعراض صفح وهو الإعراض عن الذنب وتتركوا لومهم وتعنيفهم. ﴿فأعرضوا عنهم﴾ لكن لا إعراض رضى كما هو طلبتهم، بل إعراض اجتناب ومقت وتحقير. ﴿إنهم رجس﴾ أي: كالنتن الذي يجب الاجتناب عنه وفيهم رجس روحاني.

وقال في «التبيان» أي نجس، وعملهم قبيح لا يتطهرون بالتقريع ﴿ومأواهم﴾ أي، مصيرهم ﴿جهنم﴾ من تمام التعليل فإن كونهم من أهل النار من دواعي الاجتناب وموجبات ترك استصلاحهم باللوم والعتاب. ﴿جزاء﴾ أي: يجزون جزاء ﴿بما كانوا يكسبون﴾ في الدنيا من فنون السيئات.

﴿يحلفون﴾ به تعالى ﴿لكم﴾ [براى شما] ﴿لترضوا عنهم﴾ بحلفتهم الكاذبة ولتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم. ﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ المتمردين في الكفر فإن رضاكم لا يستلزم رضى الله ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه.

والمقصود من الآية نهي المخاطبين عن الرضى عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده فإن الرضى عمن لا يرضى عنه الله تعالى مما لا يكاد يصدر عن المؤمن كما في «الإرشاد» روي أن النبي عليه السلام حين قدم المدينة قال: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم» وفيه إشارة إلى هجر المنافق والمصر على ذنبه إلى أن يتوب.

قال محمد الباقر رضي الله عنه: أوصاني أبي زين العابدين رضي الله عنه، فقال: لا تصحبن خمسة، ولاتحاد بهم، ولا ترافقهم في الطريق: لا تصحبن فاسقاً فإنه يبيعك بأكلة فما دونها، قلت: يا أبت وما دونها قال يطمع فيها ثم لا ينالها، ولا تصحبن البخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، ولا تصحبن كذاباً فإنه بمنزلة السراب يبعد عنك القريب ويقرب منك البعيد، ولا تصحبن أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، وقد قيل عدو عاقل خير من صديق أحمق، ولا تصحبن قاطع رحم فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع.

ثم في الآيات بيان أن الاعتذار الباطل مردود على صاحبه وإن كان قبول العذر من أخلاق الكرام في نفس الأمر. وفي «المثنوي»:

عذر أحمق بدترا از جرمش بود عذر نادان زهر هردانش بود

وبيان أن اليمين الكاذبة لترويج عذره وغرضه باطلة ومذمومة بل رب يمين صادقة لا يتجاسر عليها من هو بصدد التقوى حذراً من ابتذال اسم الله تعالى فلا بد من ضبط اللسان وفي

الحديث: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس».

وبيان أن المنافقين رجس، أي: جعلوا على طينة خبيثة غير طيبة ولذا كسبوا بخباثة تلك الطينة أعمالاً خبيثة وأوصافاً ذميمة وبها صاروا مستحقين للنار مطلقاً أي صورية وهي نار جهنم ومعنوية وهي نار القطيعة والهجران من الله تعالى ومن الرسول عليه السلام والمؤمنين أجمعين [شبلى ديد زنى راكه مى كريد وميكويد يا ويلاه من فراق ولدى شبلى كريست وكفت يا ويلاه من فراق الاخدان زن كفت چرا چنين ميكويى شبلى كفت توكريه ميكنى بر مخلوقى كه هر آيينه فانى خواهد شد من چرا كريه نكنم بر فراق خالقى كه باقى باشد].

فرزند ويار چونكه بميرند عاقبت اى دوست دل مبند بجزحى لا يموت

فعلى العاشق المهجور أن يبكي من ألم الفراق ويبالغ في الوجد والاشتياق لعل الله تعالى يزيل البين من البين ويجعله بعد غمه وهمه قرير العين ويرضى عنه كما رضي عن الأبرار والمقربين ولا يسخط عليه إلى أبد الآبدين.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿الأعراب﴾ جمع أعرابي كما أن العرب جمع عربي والمجوس جمع مجوسي واليهود جمع يهودي بحذف ياء النسبة في الجمع والفرق بين العرب والأعراب أن العرب صنف خاص من بني آدم سواء سكن البوادي أم القرى. وأما الأعراب فلا يطلق إلا على من يسكن البوادي فالعرب أعم. وقيل: العرب هم الذين استوطنوا المدن والقرى والأعراب أهل البدو فيكونان متباينين، أي: أصحاب البدو. ﴿أشد كفراً ونفاقاً﴾ من أهل الحضر لأن أهل البدو تشبه الوحوش من حيث إنهم مجبولون على الامتناع عن الطاعة والانقياد لأن استيلاء الهواء الحار اليابس عليهم يزيدهم قساوة لقلوبهم وهي تستتبع التكبر والفخر والطيش عن الحق ولأن من لم يدخل تحت تأدب مؤدب ولم يخالط أهل العلم والمعرفة ولم يستمع كتاب الله ومواعظ رسوله كيف يكون مساوياً لمن أصبح وأمسى في صحبة أهل العلم والحكمة مستمعاً لمواعظ الكتاب والسنة ولذا ورد في الحديث: «أهل الكفور أهل القبور» الكفور: جمع كفر وهي القرية لسترها الناس. والمعنى أن سكان القرى بمنزلة الموتى لا يشاهدون الأمصار والجمع.

وفي «الفردوس الأعلى»: يريد بها القرى البعيدة عن الأمصار ومجتمع أهل العلم لكون الجهل عليهم أغلب وهم إلى البدع أسرع. قال في «المثنوي»:

ده مرو ده مرد را أحمق كند عقل را بى نور وبى رونق كند

قول پيغمبر شنو اى مجتبى كور عقل آمد وطن درروستا

وإن شئت تعرف الفرق بين أهل الحضر والبادية فقابل الفواكه الجبلية بالفواكه البستانية.

قال في «الإرشاد»: هذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] إذ ليس كل الأعراب كما ذكر على ما ستحيط به خبراً.

قال الكاشفي: [مراد بنو تميم وبنو اسد وغطفان واعراب حوالىء مدينه اند نه تمام اهل باديه بلكه اين جمع مخصوص]. ﴿وأجدر أن لا يعلموا﴾ أي أحق وأولى أن لا يعلموا ﴿حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ أي: حدود العبادات والشرائع المنزلة من الله تعالى على رسوله

فرائضها وسننها، وذلك لكونهم أبعد عن استماع القرآن والسنن ولذلك تكره إمامة الأعرابي في الصلاة كما في «الحدادي».

قال العلماء: إذا كان الإمام يرتكب المكروهات في الصلاة كره الاقتداء به وينبغي للناظر وولي الأمر عزله كما في «فتح القريب». ﴿والله عليم﴾ بأحوال كل من أهل الوبر والمدر ﴿حكيم﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم من العقاب والثواب.

قال في «التأويلات النجمية»: إن في عالم الإنسان بدواً وهو نفسه وحضراً وهو قلبه كما أن في عالم الصورة بدواً وحضراً والأعراب إشارة إلى النفس وهواها وهو الكفر والنفاق لها ذاتي كما أن الإيمان للقلب ذاتي من فطرة الله التي فطر الناس عليها فيحتمل أن يصير القلب كافراً بسراية صفة النفس إليه فيتلوّن بلون النفس. وفي «المثنوي»:

اندك اندك آب را دزدد هوا — وين چنين دزددهم احمق ازشما

كرميت را دزدد وسردى دهد — همچنان كوزير خود سنكى نهد

كما يحتمل أن تصير النفس مؤمنة لسراية صفة القلب فتلون بلون القلب.

مكو زنهار اصل عود چوبست — بين دودش چه مستثنى وخوبست

يعني: بسبب مجاورة كلاب وذلك مشهور والنفس تكون أشد كفراً ونفاقاً من القلب وإن كان كافراً كما أن القلب يكون أشد إيماناً من النفس وإن كانت مؤمنة. ﴿وأجدر﴾ يعني: النفس وصفاتها أولى من القلب. ﴿أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ أي: من الواردات النازلة على الأرواح فإن الروح بمثابة الرسول في عالم الصورة. ﴿والله عليم حكيم﴾ في أن يجعل بعض النفس الكافرة مؤمنة وبعض القلب المؤمن كافراً.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

﴿ومن الأعراب﴾ أي ومن جنس الأعراب الذي نعت بنعت بعض أفراده. ﴿من يتخذ ما ينفق﴾ من المال أي يعد ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به صورة. ﴿مغرماً﴾ مصدر بمعنى الغرامة والغرم وهو ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جناية ومن لا يؤمن بالله واليوم الآخر ولا يرجو على إنفاقه في سبيل الله ثواباً ولا يخاف على تركه عقاباً فلا جرم يعد ما أنفقه غرامة وضياع مال بلا فائدة وإنما ينفق رياء أو تقية. ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ والتربص الانتظار، والدوائر: جمع دائرة وهي ما يدور حول الإنسان من المصائب والآفات ومعنى تربص الدوائر انتظار المصائب بأن تنقلب دولة المسلمين بموت الرسول ﷺ وغلبة الكفار عليهم فيتخلصوا من الإنفاق.

يقول الفقير: وهذا النفاق موجود الآن ألا ترى إلى بعض المتسمين بسمة الإسلام كيف يتمنى ظهور الكفار ليتخلص من الإنفاق والتكاليف السلطانية ولذا لا يتصدق إلا كرهاً خلصه الله وإيانا من كيد النفس والشيطان وجعله الله وإيانا من المتحققين بحقيقة الإيمان. ﴿عليهم دائرة السوء﴾ [برايشان باد كردش روز كار بدايشان منقلب شود] فهو دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين. والسوء بالفتح مصدر ساء نقيض سر ثم اطلع على كل ضرر وشر وأضيفت إليه الدائرة ذاتاً كما يقال رجل سوء لأن من دارت عليه يذمها وهي من باب إضافة الموصوف

إلى صفته فوصفت في الأصل بالمصدر مبالغة ثم أضيفت إلى صفتها. ﴿والله سميع﴾ لما يقولون عند الإنفاق مما لا خبر فيه ﴿عليم﴾ بما يضمرونه من الأمور الفاسدة التي من جملتها أن يتربصوا بكم الدوائر.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

﴿ومن الأعراب﴾ أي: من جنسهم على الإطلاق كما في «الإرشاد» من أسد وجهينة وغفار وأسلم كما في «التبيان» ﴿من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ قال في «الروضة» سمع أعرابي قوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ فانقبض ثم سمع ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فقال: الله أكبر هجانا الله ثم مدحنا ﴿ويتخذ ما ينفق﴾ أي ينفقه في سبيل الله ﴿قربات﴾ أي سبب قربات وذرائع إليها وهي ثاني مفعولي يتخذ ﴿عند الله﴾ صفتها.

قال الحدادي: أي يتخذ نفقته في الجهاد تقرباً إلى الله تعالى في طلب المنزلة عنده والثواب والجمع باعتبار أنواع القربات أو أفرادها.

وفيه إشارة إلى الحديث القدسي «من تقرّب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً» ﴿وصلوات الرسول﴾ أي: وسائل إليها وسببها فإنه عليه السلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، ولذلك سنّ للمُتَصَدِّق عليه وهو من يأخذ الصدقة أن يدعو للمُتَصَدِّق، أي معطي الصدقة عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلي عليه كما فعله عليه السلام حين قال: «اللهم صل على آل أبي أوفى» فإن ذلك منصبه فله أن يتفضل به على من يشاء. ﴿ألا﴾ كلمة تنبيه ﴿إنها﴾ أي: النفقة المدلول عليها بما ينفق والتأنيث باعتبار الخير ﴿قربة﴾ عظيمة ﴿لهم﴾ أي: سيقربهم الله بهذا الإنفاق إذا فعلوا وهو شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه من كون ما ينفقونه في سبيل الله سبب قربات وتصديق لرجائهم. ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ وعد لهم بإحاطة رحمته الواسعة بهم وتفسير للقربة. والسين لتحقيق الوعد لأنها في الإثبات بمنزلة لن في النفي.

وقال الكاشفي: [زود باشدكه در آرد خداى تعالى ايشانرا دربهشت خودكه محل نزول رحمتست]. ﴿إن الله غفور﴾ [آمر زنده است مر متصدقا نرا] ﴿رحيم﴾ [مهربانيست بر مقربان].

واعلم: أن فضل الصدقة والإنفاق لا يخفى على أحد. حكي أنه وقع القحط في بني إسرائيل فدخل فقير سكة من السكك وكان فيها بيت غني فقال تصدقوا عليّ لأجل الله فأخرجت إليه بنت الغني خبزاً حاراً فاستقبله الغني فقال من دفع إليك هذا الخبز فقال ابنة من هذا البيت فدخل وقطع يد ابنته اليمنى فحول الله حاله فافتقر ومات فقيراً ثم إن شاباً غنياً استحسن الابنة لكونها حسناء فتزوجها وأدخلها داره فلما جنّ الليل أحضرت مائدة فمدت اليد اليسرى فقال الغني سمعت أن الفقراء يكونون قليلي الأدب فقال مدي يدك اليمنى فمدت اليسرى ثانياً وثالثاً فهتف بالبيت هاتف أخرجي يدك اليمنى فالرب الذي أعطيت الخبز لأجله رد عليك يدك اليمنى فأخرجت يدها اليمنى بأمر الله تعالى وأكلت كذا في «روضة العلماء».

ففي الحكاية: أن من آتاه الله تعالى نعمة فلم يؤد شكرها عوقب بزوالها ألا ترى إلى بلعم لم يشكر نعمة الإسلام فقبضه الله على ملة الكفر كما في «منهاج العابدين» فإن من طلب رضى

الله تعالى في كل فعل وترك جبر الله كسره وإن الأكل باليسرى خلاف الأدب فإن الشيطان يأكل بيساره إلا أن يكون معذوراً بسبب من الأسباب. وفي «المثنوي»:

كفت پيغمبر كه دائم بهر پند ... دو فرشته خوش منادى ميكنند
كاى خدايا منفقانرا سيردار ... هردرمشان را عوض ده صد هزار
اى خدايا ممسكانرا درجهان ... تومده الازيان اندر زيان
آن درم دادن سخى را لائق است ... جان سپردن خود سخاى عاشق است
نا دهى ازبره حق نانت دهند ... جان دهى ازبهر حق جانت دهند
هركه كارد كردد انبارش تهى ... ليكش اندر مزرعه باشد بهى
وانكه در انبار ماند وصرفه كرد ... اسپش وموش وحواد نهاش خورد

قيل ما منع مال من حق إلا ذهب في باطل أضعافه قال علي رضي الله عنه «فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما منع غني والله سائلهم عن ذلك.

﴿وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين﴾ والمراد، قدماء الصحابة وهم الذين سبقوا إلى الإيمان وصلوا إلى القبلتين وشهدوا بدراً وكان أول من أسلم خديجة رضي الله عنها وعليه الجمهور. ﴿والأنصار﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير كما سيأتي وإنما مدح السابقين لأن السابق إمام للتالي والفضل للمتقدم، ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ أي: ملتبسين به والمراد به كل خصلة حسنة وهم اللاحقون بالسابقين من الفريقين. وقيل: المراد بهم جميع الصحابة من المهاجرين والأنصار فإنهم سابقون إلى الإسلام بالنسبة إلى سائر المسلمين فمن بيانية والتابعون هم أهل الإيمان إلى يوم القيامة. ﴿رضي الله عنهم﴾ خبر للمبتدأ أي رضي عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿ورضوا عنه﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية. ﴿وأعد لهم﴾ [وآماده كرد خداى تعالى مر ايشانرا] ﴿جنات تجري تحتها الأنهار﴾ [بستانها كه ميرود درزير درختان آن جويها] القراء يقرؤون تحتها الأنهار في هذا الموضع بغير من إلا ابن كثير فإنه يقرأ من تحتها كما هو في سائر المواضع. ﴿خالدين فيها﴾ مقدراً خلودهم في تلك الجنات ﴿أبداً﴾ من غير انتهاء فهو لاستغراق المستقبل كما أن الأزل لاستغراق الماضي ولاستعمالهما في طول الزمانين جداً قد يضافان إلى جمعهما فيقال أبد الآباد وأزل الآزال وأما السرمد فلاستغراق الماضي والمضارع. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما فهم من إعداد الله سبحانه لهم الجنات المذكورة من نيل الكرامة العظمى. ﴿الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز وراءه.

واعلم أنه عليه السلام أوحي إليه وهو ابن أربعين سنة في مكة فبايعه جماعة من الناس فعدا عليهم كفار قريش فظلموهم ليردوهم إلى ما كانوا عليه فأمرهم النبي عليه السلام بالهجرة إلى أرض الحبشة وملكها وهو النجاشي فخرجوا نحواً من ثمانين رجلاً من رجب من السنة الخامسة من النبوة وهذه هي الهجرة الأولى ثم بايعه في كل واحدة من العقبتين جمع من الأنصار وكانت بيعة العقبة الأولى في سنة إحدى عشرة من النبوة وبيعة العقبة الثانية في السنة

الثانية عشرة ولما انصرف أهل العقبة الثانية إلى المدينة بعث عليه السلام معهم مصعب بن عمير ليفقه أهلها ويعلمهم القرآن فأسلم خلق كثير منهم وسمي أهل المدينة أنصاراً مع أن المهاجرين أيضاً نصروا رسول الله ﷺ لأنهم نصروه عليه السلام والذين هاجروا إليهم من المؤمنين لما جاؤوهم آووهم ونصروهم، ثم اجتمعوا جميعاً على نصرته ﷺ في الغزوات، ثم هاجر عليه السلام إلى المدينة في السنة الرابعة عشرة من النبوة وهي الهجرة الثانية. وأما تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة: فهو وقع يوم الثلاثاء من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقامه بالمدينة، وفي هذه السنة وقعت غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان في تاسع عشرة، وكانت غزوة الحديبية في سنة ست من الهجرة وفيها وقعت بيعة الرضوان.

قيل: أجمع أصحابنا على أن أفضل هذه الأمة الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة، ثم البدريون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية.

وفي السابقون، وجوه أخر السابقون، أي: الذين سبقت لهم العناية الأزلية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الأولون في سبق العناية لهم، وأيضاً السابقون في الخروج من العدم الأولون عند الخروج وهم أهل الصف الأول في عالم الأرواح إذ كانت الأرواح صفوفاً كالجنود المجندة، وأيضاً السابقون في الخروج من صلب آدم عند أخذ ذرات ذرياته من صلبهم الأولون عند استماع خطاب ربهم، وأيضاً السابقون الأولون عند تخمير طينة آدم بيده أربعين صباحاً بمماسة ذراتهم بيد القدرة وباستكمال تصرف القدرة في كمال الأربعين، وأيضاً السابقون عند رجوعهم بقدم السلوك إلى حضرة الربوبية على أقرانهم الأولون بالوصول إلى سرادقات الجلال.

واعلم أن هذا السبق مخصوص بالنبي عليه السلام وأمته كما أخبر بقوله: «نحن الآخرون السابقون» أي: الآخرون خروجاً في الصورة السابقون دخولاً في المعنى.

قال في «فتح القريب» نحن الآخرون في الزمان والوجود وإعطاء الكتاب والأولون يوم القيامة أي بالفضل ودخول الجنة وفصل القضاء فتدخل هذه الأمة الجنة قبل سائر الأمم انتهى فالسبق إما بالقدم وإما بالهمم والثاني هو المرجح المقدم. يحكى عن أبي القاسم الجنيد قدس سره قال: كنت أبكر الجامع فأسمع قد سبقت يا أبا القاسم فاقدم الوقت في الجمعة الثانية فأسمع قد سبقت يا أبا القاسم فلم أزل كذلك حتى أصل الصبح في الجامع فسمعت قد سبقت يا أبا القاسم فسألت الله أن يعرفني من يسبقني مع بكوري فهتف بي هاتف من زاوية المحراب الذي سبقك هو الذي يخرج آخر الناس فصليت الجمعة ثم جلست إلى العصر فصليت جماعة ثم جلست إلى أن خرج الناس وفي آخرهم شيخ همّ أي كبير فتعلقت به فقلت له يا شيخ متى تحضر الجماعة قال: وقت الزوال قلت فبأي شيء تسبقني فقد دللت عليك فقال يا أبا القاسم أنا إذا خرجت من الجامع نويت إن بقيت إلى يوم مثله حضرت الجامع قال فعرفت أن السبق بالهمم لا بالقدم. قال في «المثنوي»:

أول فكر آخر آمد در عمل ... خاصه فكرى كوبود وصف ازل
دل بكعبه ميرود در هر زمان ... جسم طبعى دل بكيرد زا متنان
اين درازوكوتهى مر جسم راست ... چه درازوكوته آنجاكه خداست
چون خدامر جسم راتبديل كرد ... رفتنش بى فرسخ وبى ميل كرد

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿ومِمن حولكم﴾ خبر مقدم لقوله منافقون، أي: حول بلدتكم يعني المدينة. ﴿من الأعراب﴾ من أهل البوادي وقد سبق الفرق بينه وبين العرب. ﴿منافقون﴾ وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها. ﴿ومن أهل المدينة﴾ قوم ﴿مردوا على النفاق﴾ [خوكرده اند واقامت نموده برنفاق يا در منافقى ماهر شده اند] والمرود على الشيء التمرن عليه والمهارة فيه باعتياده والمدينة.

إذا أطلقت أريد بها دار الهجرة التي فيها بيت رسول الله ﷺ ومنبره وقبره من مدن بالمكان إذا أقام به فتكون الميم أصلية. والجمع: مدن بضم الدال وإسكانها ومدائن بالهمزة أو من دان إذا أطاع والدين الطاعة فتكون الميم زائدة والجمع مداين بلا همز كمعايش بالياء. ولها أسماء كثيرة منها طابة وطيبة بفتح الطاء وسكون الياء لخلوها من الشرك أو لطيبها بساكنيها لأمنهم ودعتهم أو لطيب عيشها فيها أو لكونها طاهرة التربة أو من النفاق.

وفي الحديث: «تنفي الناس» أي شرارهم «كما ينفي الكير خبث الحديد»، وفي الحديث: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» تدخل بلا عوج والمراد بالمدينة جميع الشأم فإنها من الشأم خص المدينة بالذكر لشرفها فعلى هذا تكون المدينة شامية كما ذهب إليه ابن ملك.

قال النووي: ليست شامية ولا يمانية بل هي حجازية.

وقال الشافعي: مكة والمدينة يمنيتان. ﴿لا تعلمهم﴾ بيان لقوله: ﴿مردوا على النفاق﴾ أي: بلغوا من المهارة في النفاق إلى حيث خفي نفاقهم عليك مع كمال فطنتك وقوة فراستك فالمراد لا تعرف حالهم ونفاقهم ﴿نحن نعلمهم﴾ منافقين ونطلع على أسراره إن قدروا أن يلبسوا عليك لم يقدروا أن يلبسوا علينا ﴿سنعذبهم﴾ السين للتأكيد ﴿مرتين﴾. روي أنه عليه السلام قام خطيباً يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج يا فلان فإنك منافق» فأخرج ناساً وفضحهم فهذا هو العذاب الأول والعذاب الثاني عذاب القبر.

وفي بعض الآثار: أن المنافق يسأل أربعين يوماً فلا يقدر على الجواب، ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير كما في قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٣ - ٤] أي: كرة بعد أخرى ﴿ثم يردون﴾ يوم القيامة. ﴿إلى عذاب عظيم﴾ هو عذاب النار [وبحقيقت عذاب عظيم بعد ايشانست ازدركاه عزت ومحجو بيت ايشان ازنور لقا ورؤيت وهيچ عذابى از نكبت حرمان ومشقت هجران بزر كتر نيست].

از فراق تلخ ميكوئى سخن — هرچه خواهى كن وليكن آن مكن
تلخ تر از فرقت تو هيچ نيست — بى پناهت غير پيچا پيچ نيست
صد هزاران مرك تلخ از دست تو — نيست مانند فراق روى تو
جور دوران وهرآن رنجى كه هست — سهلتر از بعد حق وغفلتست
زانكه اينها بكذرد وان نكذرد — دولت آن داردكه جان آكه برد

از فـراق ايـن خـاكـهـا شـوره بـود　　آب زردو كـنـده و تـيـره بـود
دوزخ ازفرقت چنان سوزان شده است　　بيد ازفرقت چنان لرزان بده است
كـر بـكـويـم از فـراق چـون شـرار　　تـا قـيـامـت يـك بـود از هـزار

﴿وآخرون﴾ أي: ومن أهل المدينة قوم آخرون. ﴿اعترفوا﴾ أقروا ﴿بذنوبهم﴾ التي هي تخلفهم عن الغزو وإيثار الدعة عليه والرضى بسوء جوار المنافقين وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد عندما بلغهم ما نزل في المتخلفين فقدم رسول الله ﷺ من سفره فدخل المسجد أولاً فصلى ركعتين حسب عادته الكريمة ورآهم كذلك فسأل عن شأنهم فقالوا هؤلاء تخلفوا عنك فعاهدوا الله وأقسموا أن لا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقهم فقال عليه السلام: «وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم» فنزلت فأطلقهم وأعذرهم. ﴿خلطوا عملاً صالحاً﴾ هو ما سبق منهم من الأعمال الصالحة والخروج إلى المغازي السابق وما لحق من الاعتراف بذنوبهم في التخلف عن هذه المرة وتذممهم وندامتهم على ذلك. ﴿وآخر سيئاً﴾ هو ما صدر عنهم من الأعمال السيئة أولاً وآخراً فيدخل فيه التخلف عن غزو تبوك وتبديل الواو بالباء حيث لم يقل بآخر يؤذن بكون كل منهما مخلوطاً به، وهو أبلغ فإن قولك خلطت الماء باللبن يقتضي إيراد الماء على اللبن دون العكس وقولك خلطت الماء واللبن معناه إيقاع الخلط بينهما من غير دلالة على اختصاص أحدهما بكونه مخلوطاً والآخر بكونه مخلوطاً به.

قال الحدادي: يقال خرجوا إلى الجهاد مرة وتخلفوا مرة فجمعوا بين العمل الصالح والعمل السيىء كما يقال خلط الدنانير والدراهم، أي جمعهما وخلط الماء واللبن أي أحدهما بآخر. ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ أن يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم. ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يتجاوز عن سيئات التائب ويتفضل عليه وهو تعليل لما يفيده كلمة عسى من وجوب القبول فإنها للإطماع الذي هو من أكرم الأكرمين إيجاب وأي إيجاب.

قال أدى وإنما ذكر لفظ عسى ليكون الإنسان بين الطمع والإشفاق فيكون أبعد من الاتكال والإهمال.

چـون بـدى كـنـاهـرا دانـى　　كـشـدت جـانـب پـشـيـمـانـى
ورنـدانـى كـنـا هـراكـه بـدسـت　　آن نـشـان شـقـاوت ابـدسـت

اعلم أن بعض النفوس منافق وبعضها كافر وبعضها مؤمن فالمنافق منها كالصفة الحيوانية من الشهوات فإنها تتبدل بالعفة عند استيلاء القلب على النفس بسياسة الشريعة وتربية الطريقة ظاهراً لا حقيقة لأنها لا تتبدل بالكلية بحيث تنتزع عنها الشهوة، بل تكون مغلوبة والكافر منها كالصفة البهيمية في طلب الاغتذاء من طلب المأكول والمشروب، فإنها لا تتبدل بضدها وهو الاستغناء عن الأكل والشرب لحاجة الجسد إلى الغذاء بدل ما يتحلل من الجسد، والمؤمن منها كالصفة السبعية والشيطانية من الغضب والكبر والعداوة والخيانة فإنها تحتمل أن تتبدل بأضدادها من الحلم والتواضع والمحبة والصدق والأمانة عند استنارة النفس بنور الإسلام، وترشح نور الإيمان على القلب وانشراح الصدر بنور ربها وهذه الصفات وغيرها من صفات النفس إذا لم تتبدل بالكلية أو لم تكن مغلوبة بأنوار صفات القلب ففيها بعض النفاق كما جعل النبي عليه السلام الكذب والخيانة وخلف الوعد والغدر من النفاق فقال: «أربع من كنّ فيه فهو منافق،

وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم «إذا حدّث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها».

فعلى العاقل أن يجتهد بأحكام الشريعة وآداب الطريقة إلى أن يحصل الخلاص من النفاق بالكلية ثم إن الاعتراف بالخطيئة ميراث للمؤمن من أبيه آدم عليه السلام. روي أنه بكى على ذنبه مائتي سنة حتى قبل الله توبته وغفر ذنبه ولذا قالوا ينبغي للتائب أن يكثر البكاء والتذلل عند التوبة ويصلي على النبي عليه السلام فإنه شفيع لكل نبي وولي ولذا توسل به آدم إلى الله تعالى، حيث قال: إلهي بحق محمد أن تغفر لي ويستغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات ومعنى الاستغفار سؤال العبد ربه أن يغفر له ذنوبه ومعنى مغفرته لذنوب عباده أن يسترها عليهم بفضله ولا يكشف أمورهم لخلقه ولا يهتك سترهم ومن شرط التوبة أن لا يتعمد ذنباً فإن وقع منه بسهو أو خطأ فهو معفو عنه بفضل الله تعالى. قال الحافظ:

جايى كه برق عصيان بر آدم صفى زد مارا چكونه زيبد دعوىٔ بى كناهى

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿**خذ**﴾ يا محمد ﴿**من أموالهم**﴾ أي: من أموال هؤلاء المتخلفين المعترفين بذنوبهم. ﴿**صدقة**﴾ حال كونك. ﴿**تطهرهم**﴾ أي: عما تلطخوا به من أوضار التخلف. ﴿**وتزكيهم بها**﴾ أي: تنمى بتلك الصدقة وأخذها حسناتهم وترفعهم إلى مراتب المخلصين. روي أنه لما حلهم النبي عليه السلام من وثاقهم وتاب الله عليهم راحوا إلى منازلهم وجاؤوا بأموالهم كلها، وقالوا يا رسول الله هذه أموالنا خلفتنا عنك خذها فتصدق بها عنا فكره النبي عليه السلام ذلك فنزلت هذه الآية فأخذ رسول الله ثلث أموالهم لتكمل به توبتهم ويكون جارياً مجرى الكفارة لتخلفهم فهذه الصدقة ليست الصدقة المفروضة فإنها لا تؤخذ هكذا.

وقيل: هذا كلام مبتدأ نزل لإيجاب أخذ الزكاة من الأغنياء عليه وإن لم يتقدم ذكر لهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١] لدلالة الحال على ذلك والمعنى: خذ من أموال أغنياء المسلمين صدقة أي زكاة وسميت بها لدلالتها على صدق العبد في العبودية وإليه ذهب أكثر الفقهاء.

قال في «الاختيار»: من امتنع عن أداء الزكاة أخذها الإمام كرهاً ووضعها موضعها لقوله تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة**﴾ وفي «الأشباه» المعتمد في المذهب عدم الأخذ كرهاً.

قال في «المحيط»: ومن امتنع من أداء الزكاة فالساعي لا يأخذ منه كرهاً ولو أخذ لا يقع عن الزكاة لكونها بلا اختيار ولكن يجبره بالحبس ليؤدي بنفسه انتهى.

قال في «المبسوط»: وما يأخذ ظلمة زماننا من الصدقات والعشور والجزية والخراج والجبايات والمصادرات، فالأصح أن يسقط جميع ذلك عن أرباب الأموال إذا نووا عند الدفع التصدق عليهم وقيل: علم من يأخذه بما يأخذ شرط فالأحوط أن يعاد. ﴿**وصل عليهم**﴾ أي ادع لهم بالخير والبركة واستغفر لهم ﴿**إن صلاتك سكن لهم**﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم فهو فعل بمعنى مفعول كالنقض بمعنى المنقوض. ﴿**والله سميع**﴾ باعترافهم ﴿**عليم**﴾ بندامتهم.

قال في «الكافي»: الصلاة على الميت مشروعة بقوله تعالى: ﴿وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾ وقوله عليه السلام: «صلوا على كل بر وفاجر». روي أن آدم عليه السلام لما توفي أتي بحنوط وكفن من الجنة ونزلت الملائكة فغسلته وكفنته في وتر من الثياب وحنطوه وتقدم ملك منهم فصلى عليه وصلت الملائكة خلفه.

وفي رواية: قال ولده شيث لجبريل عليه السلام صل عليه فقال له جبريل تقدم أنت فصل على أبيك فصلى عليه وكبر ثلاثين تكبيرة ثم أقبروه ثم لحدوه ونصبوا اللبن عليه وابنه شيث الذي هو وصيه معهم فلما فرغوا قالوا له هكذا فاصنع بولدك وإخوتك فإنها سنتكم ومنه يعلم أن الغسل والتكفين والصلاة والدفن واللحد من الشرائع القديمة.

وقال بعضهم صلاة الجنازة من خصائص هذه الأمة ولا منافاة لأنه لا يلزم من كونها من الشرائع القديمة أن تكون معروفة لقريش إذ لو كانت كذلك لفعلوا ذلك وفي كلام بعضهم كانوا في الجاهلية يغسلون موتاهم وكانوا يكفنونهم ويصلون عليهم وهو أن يقوم ولي الميت بعد أن يوضع على سريره فيذكر محاسنه كلها ويثني ثم يقول عليك رحمة الله ثم يدفن. روي أن النبي عليه السلام لما قدم المدينة وجد البراء بن معرور رضي الله عنه قد مات فذهب رسول الله وأصحابه فصلى على قبره وكبر في صلاته أربعاً فصلاة الجنازة فرضت في السنة الأولى من الهجرة على ما قالوا ومن أنكر فرضية صلاة الجنازة كفر كما في «القنية».

وههنا أبحاث:

الأول: إن غسل الميت شريعة ماضية والنية لا تشترط لصحة الصلاة عليه وتحصيل طهارته وإنما هي شرط لإسقاط الفرض عن ذمة المكلفين، أي: بغسله فإن غسل الميت فرض كفاية فإذا تركوا أثموا فبنية الغسل يسقط الفرض عن ذمة الغاسل وغيره، فيقول: نويت الغسل لله تعالى وإنما يغسل الميت لأنه يتنجس بالموت كسائر الحيوانات الدموية إلا أنه يطهر بالغسل كرامة له ولو وجد ميت في الماء فلا بد من غسله لأن الخطاب بالغسل توجه لبني آدم ولم يوجد منهم فعل.

وقيل: إن الميت إذا فارقته الروح وارتاح من شدة النزع أنزل فوجب على الأحياء غسله كما في «أسئلة الحكم».

يقول الفقير: فيه نظر؛ لأنه إنما يجب الاغتسال بالمني إذا كان بشهوة عند الحنفية ولم يوجد في الميت اللهم إلا أن يحمل على مذهب الشافعي فإن المني عنده كيفما كان يوجب الاغتسال حتى لو حمل حملاً ثقيلاً فخرج منه المني يجب عنده وينبغي أن يكون المغسول مسلماً تام البدن أو أكثره وفي حكمه النصف مع الرأس، فلا يغسل الكافر والنصف بلا رأس، وأن يكون الغاسل يحل له النظر إلى المغسول فلو ماتت امرأة في السفر يممها ذو رحم محرم منها وإن لم يوجد لف أجنبي على يده خرقة ثم يممها، وإن ماتت أمة ييممها أجنبي بغير ثوب وكذا لو مات رجل بين النساء يممته ذات رحم محرم منه أو أومته بغير ثوب، ولو مات غير المشتهي أو المشتهاة غسله الرجل والمرأة وعن أبي يوسف أن الرضيعة يغسلها ذو الرحم وكره غيره ولا يغسل زوجته وتغسل زوجها إلا إذا ارتفعت الزوجية بوجه.

ويستحب أن يكون الغاسل أقرب إلى الميت فإن لم يعلم فأهل الورع والأمانة وأن يوضع الميت عند الغسل بموضع خال من الناس مستور عنهم لا يدخله إلا الغاسل ومن يعينه كما في

«السيرة الحلبية» ولو اختلط موتى المسلمين وموتى الكفار، فمن كانت عليه علامة المسلمين صلى عليه، ومن كانت عليه علامة الكفار ترك ومن لم يكن عليه علامة والمسلمون أكثر غسلوا وكفنوا وصلى عليهم وينوون بالصلاة والدعاء للمسلمين دون الكفار ويدفنون في مقابر المسلمين وإن كان الفريقان سواء أو كانت الكفار أكثر لم يصل عليهم ويغسلون ويكفنون ويدفنون في مقابر المشركين ومن استهل بعد الولادة غسل وسمي وصلي عليه وإلا غسل في المختار وأدرج في خرقة ولا يصلى عليه ولو مات لمسلم قريب كافر غسله غسل النجاسة ولفه في خرقة وألقاه في حفرة أو دفعه إلى أهل دينه.

قال القهستاني: لا يجب غسل كافر أصلاً وإنما يباح غسل كافر غير حربي له ولي مسلم كما في «الجلابي».

والشهيد لا يغسل ويغسل الشهيد الجنب عنده خلافاً لهما وإذا انقطع الحيض والنفاس فاستشهدت فعلى هذا الخلاف وإذا استشهدت قبل الانقطاع تغسل على الأصح ولو مات بغير قتل ولو في المعركة غسل، ولو قتل برجم أو قصاص أو تعزير أو افتراس سبع أو سقوط بناء أو غرق أو طلق أو نحوها غسل بلا خلاف كما لو قتل لبغي أو قطع طريق غسل في رواية ولا يصلى عليه في ظاهر الرواية، وعند أبي حنيفة في الصلاة على المصلوب روايتان ولو قتل نفسه خطأ يصلى عليه بلا خلاف ولو تعمد فالأصح لا يصلى عليه لأنه لا توبة له والصلاة شفاعة.

والثاني: إن الصلاة على الميت فرض كفاية عند العامة ووقتها وقت حضوره ولذا قدمت على سنة المغرب كما في «الخزانة» وفي الحديث: «أسرعوا بالجنازة» وأهل مكة في غفلة عن هذا فإنهم غالباً يجيئون بالميت بعيد الظهر أو وقت التسبيح في السحر وقد يكون مات قبل هذا الوقت بكثير فيضعونه عند باب الكعبة حتى يصلى العصر أو الصبح ثم يصلى عليه كما في «المقاصد الحسنة».

يقول الفقير: وأهل كل بلدة في غفلة عن هذا في هذا الزمان سامحهم الله تعالى. وتجوز صلاة الجنازة حين طلوع الشمس واستوائها وغروبها بلا كراهة إن حضرت في هذه الأوقات وإن حضرت قبلها أخرت ويقوم الإمام حذاء الصدر لأنه محل العلم ونور الإيمان ويكبر ويثني، أي: يقول الإمام والمؤتم والمنفرد. سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك، قوله: وجل ثناؤك لم يذكر في الأحاديث المشهورة فلم يأتِ به مصلي الفرض ولا بأس للمتنفل بإتيانه به لأن النفل مبني على التوسيع فيجوز فيه ما لا يجوز في الفرض.

قال الحلبي: الأولى تركه إلا في صلاة الجنازة ثم يكبر ويصلي على النبي عليه السلام بما يحضره كما في «الجلابي» أو بما يصلي به في الفرض كما في «المستصفى» فيقول: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. والمعنى اللهم صل على محمد صلاة كاملة كما دل عليه الإطلاق. وقوله: وعلى آل محمد من عطف الجملة أي وصل على آله مثل الصلاة على إبراهيم وآله فلا يشكل بوجوب كون المشبه به أقوى كما هو المشهور كما في القهستاني ثم يكبر ويدعو للميت أو لكل مسلم ولو حياً ويسنّ الدعاء المعروف «اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا وصغيرنا وكبيرنا

وذكرنا وأنثانا، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان» وخص هذا الميت بالرحمة والغفران والروضة والرضوان اللهم إن كان محسناً فزد في إحسانه وإن كان مسيئاً فتجاوز عنه برحمتك يا أرحم الراحمين كما في «عيون الحقائق».

وفي الصبي والمجنون لا يستغفر لهما لعدم ذنبهما، بل يقول: اللهم اجعله لنا فرطاً واجعله لنا أجراً وذخراً واجعله لنا شافعاً مشفعاً، أي: مقبول الشفاعة ومن لم يحسن قال: اللهم اغفر لي ولوالدي ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات برحمتك يا أرحم الراحمين وروي أنه ﷺ لما أدرج في أكفانه ووضع على سريره ثم وضع على شفير قبره المنور وذلك يوم الثلاثاء دخل عليه أبو بكر رضي الله عنه مع نفر من المهاجرين والأنصار بقدر ما يسع البيت وذلك بعد ما بويع له بالخلافة وصلى على النبي عليه السلام بأربع تكبيرات وضمن صلاته هذا الدعاء وهو اللهم إنا نشهد أنه ﷺ قد بلغ ما أنزل الله عليه ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلمته، فاجعلنا إلهنا ممن تبع القول الذي أنزل معه، واجمع بيننا وبينه حتى تعرفه بنا وتعرفنا به فإنه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً لا نبتغي بالإيمان به بدلاً ولا نشتري به ثمناً أبداً وإنما خصوا هذا الدعاء بالذكر؛ لأنه الذي يليق به ﷺ ومن ثمة استشاروا كيف يدعون له فأشير بمثل ذلك.

ثم يكبر ويسلم تسليمتين عن يمين وشمال بنية من ثمة إلا الميت غير رافع صوته مثل سائر الصلوات ويسنّ خفض الثانية ويرسل بعد الرابعة يديه لأنه ليس بعدها ذكر والركن هو التكبيرات الأربع وأما الثناء والصلاة والدعاء والسلام فسنن كما في «الجلابي» ولا يرفع يديه إلا في التكبير الأول لأنه شرع بين كل تكبيرتين ذكر مقتدر فإذا فرغ منه علم أنه جاء أوان الآخر.

قال في «الأشباه» لو قرأ الفاتحة في صلاته على الجنازة إن قصد الثناء والدعاء لم يكره، وإن قصد القراءة كره انتهى. وإذا أدرك الإمام في الصلاة وقد سبق ببعض تكبيراتها ينتظر تكبيرة أخرى فيتابع الإمام فيه ثم يأتي بما سبق به بعد سلام الإمام متوالياً وعند أبي يوسف والشافعي لا ينتظر بل يكبر ويشرع معه وأما إذا أدرك بعد الرابعة لا يكبر عندهما لفوات الصلاة عليه ويكبر عند أبي يوسف فإذا سلم الإمام قضى ثلاث تكبيرات ولو كان حاضراً وقت التحريمة ولم يكبر مع الإمام للافتتاح فهو لا ينتظر تكبير الإمام بل يشرع ويكبر ولو اجتمعت الجنائز يصلى عليهم دفعة واحدة كذا في «المحيط». والصلاة على الكبير أفضل من الصلاة على الصغير كما في «المضمرات». والثالث: ما الحكمة في عدم فرض الركوع والسجود في صلاة الجنازة قيل: لأن صلاة الجنازة دعاء وثناء واستشفاع للميت والركوع والسجود خاص بالتعبد لله تعالى من غير واسطة اختص به الملة المحمدية لأن السجدة كانت تجوز لتعظيم المخلوق في الملة السالفة ونحن نهينا عن الركوع والسجود لغير الله تعالى. وقيل: لأن الميت اعترض بين المصلي وبين الله تعالى فلو أمر بالركوع والسجود لتوهم الأعداء والجهلة أنه للميت كما توهم الشيطان من سجود الملائكة أنه لآدم عليه السلام فأبى حسداً وعصى جهلاً وإن كان ساجداً متعبداً قبل ذلك فافتتن بجهله وحسده باحتجابه عن كون المسجود له في الحقيقة هو الحق وقالب آدم بمنزلة المحراب. قال الجامي:

اى آنكه بقبلهٔ بتان روست ترا ... برمغز چرا حجاب شد پوست ترا
دل درپى اين وآن نه نيكوست ترا ... يكدل دارى بسست يك دوست ترا

وقال غيره:

ازان محراب ابرو رو مكردان اكردر مسجدى وردر خرابات

والرابع: أنه يستحب جعل الصفوف في الصلاة على الميت ثلاثة وفي الحديث: «ما من مسلم يموت فيصلي عليه أمة يبلغون ثلاث صفوف إلا غفر الله له» قال الطبراني في «معجمه» الأمة أربعون إلى المائة وجاء التصريح بالعدد في حديث مسلم وهو: «ما من مسلم يصلي عليه أربعون إلا شفعوا فيه» أما سر تثليث الصفوف فلأن ذلك من باب التوسع في الرجاء كأنهم يقولون جئناك بثلاثة صفوف شافعين فلا تردنا خائبين وهذا ميل تكثير الخطى إلى المساجد فإنه يستحب تقصير الخطى في المشي إلى المسجد لأنه يكتب له بكل خطوة حسنة ويحط عنه سيئة ويرفع له درجة فهو من باب التوسع في الرجاء وإذا استحب جعل الصفوف ثلاثة فالظاهر أنهم في الفضيلة سواء ولا مزية حينئذٍ للصف المقدم لأنهم مأمورون بالتأخر.

وقال الحلبي: أفضل صفوف الجنازة آخرها بخلاف سائر الصلوات فإن الصف الأول أعلم بحال الإمام فتكون متابعته أكثر وثوابه أوفر.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي عليه السلام أنه قال: «أول زمرة تدخل المسجد هم أهل الصف الأول وإن صلوا في نواحي المسجد» كما في «خالصة الحقائق».

وأما سر الأربعين، فلأنه لم يجتمع قط أربعون إلا وفيهم عبد صالح كما في «أسئلة الحكم» وتحصل الشفاعة بأقل الأمرين من الثلاثة الصفوف والأربعين كما في «فتح القريب» والمستحب هو الأول كما سبق.

والخامس: إن في الدعاء والاستغفار نفعاً للميت ويصل ثواب جميع القرب إليه بدنياً كان أو مالياً كالصدقة والعتق والصلاة والصيام والحج والقراءة وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقط عن ذمة الميت التبعة وينفعه ذلك حتى لو كان من أجنبي أو من غير تركته وأجمعوا على أن الحي إذا كان له على الميت حق من الحقوق فأحله منه ينفقه ويبرأ منه كما يسقط من ذمة الحي.

قال ابن الملك: اعلم أن جعل الإنسان ثواب عمله لغيره صلاة كان أو صدقة أو غيرهما جائز عند أهل السنة خلافاً للمعتزلة لهم أن الثواب هو الجنة ولا قدرة للإنسان على تمليكها ولنا أنه عليه السلام ضحى بكبشين أملحين أحدهما لنفسه والآخر عن أمته المؤمنين فالاعتراض على الشارع باطل إذ العبادة أنواع بدنية محضة كالصلاة فالنيابة لا تجوز فيها لأن الغرض منها وهو إتعاب النفس الأمارة لا يحصل ونوع منها مالية محضة كالزكاة فالنيابة فيها تجوز لأن الغرض منها وهو إغناء الفقير يحصل بالنيابة لكن لا تؤخذ من تركته بغير وصية ونوع منها مركبة منهما كالحج فمن حيث إنه متعلق بالبدن لا تجوز فيه النيابة عند الاختيار ومن حيث إنه متعلق بالمال جاز فيه النيابة عند الاضطرار وهو العجز الدائم عن أدائه هذا في الحج الفرض وأما في النفل فالنيابة جائزة مع القدرة لأن في النفل سعة.

قال في «فوائد الفتاوى»: الأولى أن يوصي بإسقاط صلاة عمره بعد البلوغ وإن صلاها بغير ترك لاحتمال الفساد أو النقصان في أركانها انتهى وإذا أوصى رجل يطعم عنه وليه لصلاة الفائتة بعد موته فالوصية جائزة ووجب تنفيذها من ثلث ماله يعطى عن كل مكتوبة نصف صاع من الحنطة وفي صوم النذر كذلك ولا يجوز أن يصوم عنه الولي كما لا يجوز صلاته له لقوله

عليه السلام: «لا يصوم ولا يصلي أحد عن أحد».

قال القهستاني: والقياس أنه لا يجوز الفداء عن الصلاة وإليه ذهب البلخي كما في «قاضيخان» والاستحسان أن يجوز الفداء عنهما أما في الصوم فلورود النص وأما في الصلاة فلعموم الفضل ولذا قال محمد إنه يجزى بها إن شاء الله تعالى وينبغي أن يفدي قبل الدفن وإن جاز بعده.

وقال في «الأشباه»: إذا أراد الفدية عن صوم أبيه أو صلاته وهو فقير يعطي منوين من الحنطة فقيراً ثم يستوهبه ثم يعطيه وهكذا وذلك بعد أن يسقط من عمره اثنتي عشرة سنة ويسقط من عمرها تسعة لأن أقل مدة بلوغ الرجل اثنتا عشرة سنة ومدة بلوغ المرأة تسع سنين كما ذكره في «الوقاية» في آخر كتاب الحجر.

ومما ينبغي أن يعلم أن المعتبر في الطعام للصلاة قدر الطعام دون عدد المساكين حتى لو أعطى مسكيناً واحداً في يوم واحد أكثر من نصف صاع من البر يجوز ولا يجوز ذلك في كفارة الصوم والظهار لأن المعتبر فيهما عدد المسكين كذا في «شرح النقاية». وكره دفع نصاب أو أكثر إلى فقير غير مديون لأن الانتفاع به صادف حال الغنى ولو صادف حال الفقر لكان أكمل فلو كان مديوناً أو صاحب عيال لا يكره لأنه لا يكون به غنياً.

﴿ألم يعلموا﴾ الاستفهام للتقرير، أي: ألم يعلم أولئك التائبون. **﴿أن الله هو يقبل التوبة﴾** الصحيحة الخالصة **﴿عن عباده﴾** المخلصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم كما يفصح عنه كلمة عن.

قال الحدادي: قبول التوبة إيجاب الثواب عليها **﴿ويأخذ الصدقات﴾** أي: جنس الصدقات صدقاتهم وصدقات غيرهم أراد به أخذ النبي عليه السلام والأئمة بعده لأن أخذهم لا يكون إلا بأمر الله وكان الله هو الآخذ.

قال البيضاوي: يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله ففيه استعارة تبعية لأن الآخذ حقيقة هو الرسول عليه السلام لا من عينه لأخذها. والصدقات جمع صدقة تطلق على الواجب والتطوع وغلب على أفواه العامة تسمية الواجب من الماشية صدقة ومن النبات عشراً ومن النقود زكاة كما في «فتح القريب» **﴿وأن الله هو التواب﴾** أي: المتجاوز عمن تاب وهو الذي يرجع بالإنعام على كل مذنب رجع إلى التزام الطاعة.

وفي «التأويلات النجمية»: هو التواب هو الموفق للتوبة بلطفه وكرمه ولولا توفيقه ما تاب مذنب قط كما لا يتوب إبليس لعدم التوفيق. وفي «المثنوي»:

جز عنايت كه كشايد چشم را ... جز محبت كه نشاند خشم را

جهد بى توفيق خودكس را مباد ... درجهان والله أعلم بالرشاد

﴿الرحيم﴾ من مات على التوبة ورحمة الله على العباد إرادة الإنعام عليهم ومنع الضرر عنهم. ويجوز أن يرجع ضمير **﴿ألم يعلموا﴾** إلى غير التائبين من المؤمنين فالآية إذاً ترغيب للعصاة في التوبة والصدقة.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وقل﴾ لهم بعدما بان لهم شأن التوبة ﴿اعملوا﴾ ما شئتم من الأعمال فظاهره ترخيص وتخيير وباطنه ترغيب وترهيب. ﴿فسيرى الله عملكم﴾ فإنه لا يخفى عليه خيراً كان أو شراً تعليل لما قبله وتأكيد للتغريب والترهيب والسين للتأكيد. ﴿ورسوله والمؤمنون﴾ في الخبر: «لو أن رجلاً عمل في صخرة لا باب لها ولا كوّة لخرج عمله إلى الناس كائناً ما كان» والمعنى إنه تعالى لا يخفى عليه عملهم كما رأيتهم وتبين لكم ثم إن كان المراد بالرؤية معناها الحقيقي فالأمر ظاهر وإن أريد بها مآلها من الجزاء خيراً أو شراً فهو خاص بالدنيوي من إظهار المدح والثناء والذكر الجميل والإعزاز ونحو ذلك من الأجزية وأضدادها. ﴿وستردون﴾ أي: بعد الموت ﴿إلى عالم الغيب والشهادة﴾ قدم الغيب على الشهادة لسعة عالمه وزيادة خطره.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما الغيب ما يسترونه من الأعمال والشهادة ما يظهرونه كقوله تعالى: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧] فالتقديم حينئذٍ لتحقيق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة على أبلغ وجه وآكده لا إيهام أن علمه تعالى بما يسرون أقدم منه بما يعلنون كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته منزه عن أن يكون بطريق حصول الصورة بل وجود كل شيء وتحققه في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأمور البارزة والكامنة.

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿وستردون﴾ بأقدام أعمالكم إلى الله الذي هو عالم بما غاب عنكم وغبتم عنه فأما ما غاب فهو نتائج أعمالكم من الخير والشر وجزاؤها فإنها إن لم تغب عنكم زدتم في الخير وما عملتم شراً وأما ما غبتم عنه فهو التقدير الأزلي والحكمة فيما جرى به القلم من أعمال الخير والشر وعالم بما تشاهده العيون والقلوب في الملك والملكوت. ﴿فينبئكم﴾ عقيب الرد الذي هو عبارة عن الأمر الممتد إلى يوم القيامة. ﴿بما كنتم تعملون﴾ قبل ذلك في الدنيا والمراد بالتنبئة الإظهار لما بينهما من الملابسة في أنهما سببان للعلم تنبيهاً على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته أي يظهر لهم على رؤوس الأشهاد ويعلمهم أي شيء شنيع كانوا يعملونه في الدنيا على الاستمرار ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء انتهى.

فعلى العاقل أن يسعى في طريق الأعمال الصالحة ويجتنب عن ارتكاب الأفعال الفاضحة كيلا يفتضح عند الله وعند الرسول وكافة المؤمنين.

قال في «التأويلات النجمية»: إن لعمل المحسن وخلوصه نوراً يصعد إلى السموات بقدر قوة صدقه وإخلاصه فالله تعالى يراه بنور ألوهيته وروح الرسول عليه السلام يراه بنور نبوته وأرواح المؤمنين يرونه بنور إيمانهم فاستعلاء ذلك بصفائه وضوئه يكون على قدر علو همة المحسن وخلوص نيته وصفاء طويته. وإن العمل المسيء ظلمة تصعد إلى السموات بقدر قوة غفلته وخباثة نفسه فالله تعالى يراها وروح رسوله وأرواح المؤمنين، وفي الحديث: «تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصوم وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات السبع حتى يقطعون به الحجب كلها إلى الله تعالى فيقفون بين يدي الرب جل جلاله ويشهدون بالعمل الصالح المخلص لله فيقول الله لهم أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على ما في نفسه إنه لم يردني بهذا العمل ولا أخلصه لي وأنا أعلم بما أراد بعلمه غر الآدميين وغركم ولم يغرني، وأنا علام الغيوب المطلع على ما في القلوب لا تخفى

عليّ خافية ولا تعزب عني عازبة علمي بما كان كعلمي بما لم يكن وعلمي بما مضى كعلمي بما بقي وعلمي بالأولين كعلمي بالآخرين أعلم السر وأخفى، فكيف يغرّني عبدي بعمله وإنما يغر المخلوقين الذين لا يعلمون وأنا علام الغيوب، عليه لعنتي وتقول الملائكة السبعة أو الثلاثة الآلاف المشيعون يا ربنا عليه لعنتك ولعنتنا فيقول أهل السماء عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين».

قال السعدي:

وكر سيم اندوده باشد نحاس — توان خرج كردن بر ناشناس

منه آب زر جان من بر پشيز — كه صراف دانا نكيرد بچيز

اعلم أن الأقلام كتبت على الألواح أحوال العالم كلها من السرائر والظواهر ثم سلمت الألواح للخزنة وجعل لكل شيء خزائن ووكلت عليها حوافظ وكوالىء، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] فتستنسخ السفرة من الخزنة والحفظة من السفرة فللأعمال كلها مخازن تقسم منها وتنتهي إليها وغاية خزائن الأعمال الصالحة سدرة المنتهى، فعلم من هذا أن الحفظة مطلعون على أعمال العباد قلبية كانت أو قالبية، وليسوا بمطلعين على المقبول منها وغير المقبول إلا بعد العرض والرفع فكل عمل مضبوط مجزي به فإن أخفاه العبد عن الخلق لا يقدر على إخفائه عن الله تعالى وعن الملائكة. قال السعدي قدس سره:

در بسته ز روى خود بمردم — تا عيب نكسترند ما را

در بسته چه سود عالم الغيب — داناى نهان وآشكارا

﴿وآخرون﴾ عطف على آخرون قبله، أي: ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب قوم آخرون غير المعترفين المذكورين. ﴿مرجون﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص مرجون بالواو على أن يكون أصله مرجيون بالياء والباقون مرجؤون بالهمزة يقال أرجيته وأرجأته بالياء والهمزة إذا أخرته والنسبة إلى المهموز مرجئيّ كمرجعي لا مرج كمعط وإلى غير مرجيّ بياء مشددة عقيب الجيم وهم المرجئة بالهمزة والمرجية بالياء مخففة كما في «القاموس» والمرجئة: قوم لا يقطعون على أهل الكبائر بشيء من عفو أو عقوبة بل يرجئون الحكم في ذلك، أي يؤخرونه إلى يوم القيامة كما في «المغرب» والمعنى مؤخرون. ﴿لأمر الله﴾ في شأنهم، أي: حتى ينزل الله فيهم ما يريد. ﴿إما يعذبهم﴾ إن بقوا على ما هم عليه من الحال وهو عدم المسارعة إلى التوبة والاعتذار دون النفاق فإنهم كانوا غير مخلصين. ﴿وإما يتوب عليهم﴾ إن خلصت نيتهم وصحت توبتهم والجملة في محل النصب على الحالية أي منهم هؤلاء إما معذبين وإما متوباً عليهم.

فإن قلت: إما للشك والله تعالى منزه عنه إذ هو عالم بما يصير إليه أمرهم.

قلت: الترديد راجع إلى العباد، والمعنى ليكن أمرهم عندكم بين الخوف والرجاء.

وقال أبو البقاء: إذا كانت إما للشك جاز أن يليها الاسم وجاز أن يليها الفعل فإن كانت للتخيير وقع الفعل بعدها وكانت معه أن، كقوله إما أن تلقي. ﴿والله عليم﴾ بأحوالهم ﴿حكيم﴾ فيما فعل بهم من الارجاء وغيره.

والآية نزلت في ثلاثة نفر من المتخلفين وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية كانوا من أهل بدر ومياسير ومع ذلك تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

قال كعب بن مالك: أنا أفره أهل المدينة جملاً فمتى شئت لحقت العسكر فتأخر أياماً

وأيس بعدها من اللحوق بهم فندم على ما صنعه، وكذلك صاحباه، ولكن لم يفعلوا ما فعله أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري وإظهار الغم والجزع، فوقفهم رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية ونهى الناس أن يجالسوهم أو يؤاكلوهم أو يشاربوهم، وأمرهم باعتزال نسائهم وإرسالهن إلى أهليهن فجاءت امرأة هلال تسأل أن تأتيه بطعامه فإنه شيخ كبير فأذن لها في ذلك خاصة، وجاء رسول من الشام إلى كعب برغبة في اللحاق بهم، فقال كعب: بلغ من خطيئتي إلى أن طمع فيّ المشركون قال فضاقت عليّ الأرض بما رحبت وبكى هلال بن أمية حتى خيف على بصره فجعل ناس يقولون: هلكوا إن لم ينزل الله لهم عذراً، وآخرون يقولون عسى الله أن يغفر لهم فصاروا عندهم مرجئين لأمر الله إما يعذبهم وإما يرحمهم حتى نزلت توبتهم بعد ما مضى خمسون يوماً بقوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [التوبة: ١١٧] إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨] الآية أخر الله تعالى أمرهم مدة ثم بين توبتهم على أجمل الوجوه حيث قرن توبتهم بتوبته تعالى على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار وعلم منه أن الهجران للتربية جائز ولو فوق ثلاثة أيام ألا ترى إلى الأصحاب كيف قطعوا سلامهم وكلامهم من أولئك الثلاثة إلى أن بلغ الكتاب أجله وأن إخلاص النية وتفويض الأمور إلى الله تعالى سبب لرحمة الله تعالى وأن البكاء أيضاً مدار لقبول التوبة وإخلاص الحال فلا بد من الاستغفار والبكاء على الأوزار. حكي عن بعض أصحاب فتح الموصلي قدس سره قال: دخلت يوماً على فتح فوجدته يبكي وقد خالطت دموعه صفرة فقلت له بالله عليك يا سيدي هل بكيت الدم، فقال والله لولا أنك أقسمت علي بالله عز وجل ما أخبرتك بكيت الدمع وبكيت الدم فقلت علامَ بكيت الدم؟ قال: على تخلفي عن الله تعالى فعلام بكيت الدم قال على الدموع أن لا تصح لي أن لا تقبل مني قال: فلما توفي رأيته في المنام فقلت: ما فعل الله بك قال غفر لي وقربني ربي وقال: يا فتح بكيت كل هذا البكاء على ماذا فقلت يا رب على تخلفي عن حقك قال والدم لم بكيته قلت: يا رب على الدموع أن لا تصح لي قال: يا فتح فما أردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد صعد إليّ حافظاك أربعين سنة بصحيفتك وما فيها خطيئة فهذه حال أكابر أولياء الله تعالى يسيئون الظن بأنفسهم ويجتهدون في الله وإن علموا العفو والمغفرة.

ووقف الفضيل في بعض حجاته ولم ينطق بشيء فلما غربت الشمس قال واسوأتاه وإن عفوت.

يقول الفقير: وهذا كلام حق فإن من الفضاحة العصيان، ومن الفضاحة أيضاً بقاء أثره الدنيوي بعد الغفران ألا ترى أن عتقاء جهنم لا يستريحون يوم القيامة، وإن دخلوا الجنة إلى أن يمحو الله تعالى ما كتب على جباهم من الأثر. قال الحافظ قدس سره:

هر چندكه هجران ثمر وصل برآرد دهقان ازل كاشكه اين تخم نكشتى

وقال السعدي قدس سره:

بسا نام نيكو كاپنجاه سال كه يك نام زشتش كند پايمال

وفي الآية: إشارة إلى أن الحكمة الإلهية اقتضت إقدام بعض النفوس على الذنوب وتأخير توبتهم وهم مترددون بين الخوف والرجاء ولهم فيما بين ذلك تربية ليطيروا بجناحي الخوف والرجاء إلى أن يصلوا إلى مقام القبض والبسط إلى أن يبلغوا سرادقات الأنس والهيبة، ثم ليطيروا بجناحي الأنس والهيبة إلى قاب قوسي السير والتجلي أو أدنى الوحدة ﴿والله عليم﴾

بتربية عباده ﴿حكيم﴾ بمن يصلح للقرب والقبول وبمن يصلح للبعد والرد كذا في «التأويلات النجمية»:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿والذين اتخذوا مسجداً﴾ أي: ومن المتخلفين عن غزوة تبوك المنافقون الذين اتخذوا مسجد قبا وهو بضم القاف ويذكر ويقصر قرية قرب المدينة على نصف فرسخ منها كما في «التبيان».

اعلم أن رسول الله ﷺ لما هاجر من مكة وقدم قبا نزل في بني عمرو بن عوف وهم بطن من الأوس على كلثوم بن الهدم وكان شيخ بني عمرو بن عوف وهل كان أسلم قبل وصوله ﷺ إلى قبا أو بعده ففيه اختلاف فلما نزل وذلك في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول.

قال عمار بن ياسر رضي الله عنه ما لرسول الله بدّ من أن يجعل له مكان يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه فجمع حجارة فأسس رسول الله مسجداً واستتم بنيانه عمار فعمار أول من بنى مسجداً لعموم المسلمين، وكان مسجد قباء أول مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ بأصحابه جماعة ظاهرين أي آمنين وبعد تحوله عليه السلام إلى المدينة وذلك في يوم الجمعة بعد أن لبث في قبا بقية يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس أو بضع عشرة ليلة وهو المنقول عن البخاري أو أربعة عشر يوماً وهو المنقول عن مسلم كان يأتيه يوم السبتِ ماشياً وراكباً ويصلي فيه ثم ينصرف وفي الحديث: «من توضأ وأسبغ الوضوء ثم جاء مسجد قبا فصلى فيه له أجر عمرة» كما في «السيرة الحلبية» فهذا المسجد وضعه رسول الله ﷺ وعمار بمعاونة بني عمرو بن عوف خالصاً لله تعالى كما عليه الأكثرون وفي الحديث: «من بنى مسجداً لا يريد به رياء ولا سمعة بنى الله له بيتاً في الجنة» قال القرطبي: هذه المسألة ليست على ظاهرها من كل الوجوه وإنما معناه بنى له بثوابه بناء أشرف وأعظم وأرفع لأن أجور الأعمال متضاعفة وأن الحسنة بعشر أمثالها وهذا كما قال في التمرة إنها تزاد حتى تكون مثل الجبل ولكن هذا التضعيف إنما هو بحسب ما يقترن بالفعل من الإخلاص فإن بنى على غير الإخلاص أو على وجه غير مرضي فلا ثواب له ولا يعبأ الله به وإن كان في ظاهر الشرع له حكم المساجد من الاحترام والتعظيم وغير ذلك وكذا الربط والخوانق والقناطر والمطاهر وكل بناء فهو مشروط بذلك قاله في «شرح الإلمام».

قال النووي: يدخل في هذا الحديث من عمر مسجداً قد استهدم وإذا اشترك جماعة في عمارة مسجد فهل يحصل لكل منهم بيت في الجنة كما لو أعتق جماعة عبداً مشتركاً بينهم فإنهم يعتقون من النار ويجوزون العقبة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١٢-١٣] وقد فسر النبي عليه السلام فك الرقبة بعتق البعض والقياس إلحاق المساجد بالعتق لأن فيه ترغيباً وحملاً للناس على إنشاء المساجد وعمارتها وهل يمكن الكافر من بناء المسجد فذهب بعضهم إلى أن الصحيح جوازه لقوله عليه السلام: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» كما في «تفسير البغوي».

قال الواحدي: عند قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧] دلت الآية على أن الكفار ممنوعون من عمارة مسجد المسلمين ولو أوصى لم تقبل وصيته انتهى.

قال سعدي چلبي المفتي: عدم قبول وصيته مجمع عليه بين أصحابنا الحنفية انتهى ولا يصير الكافر ببناء المسجد مسلماً وإن عظمه حتى يأتي بالشهادتين بخلاف المسلم إذا أتى كنيسة واعتقد تعظيمها، فإنه يكفر؛ لأن الكفر يحصل بمجرد النية، والإسلام لا يحصل إلا بالتلفظ بالشهادتين كما في «فتح القريب».

يقول الفقير سامحه الله القدير: علم منه أن بعض القبط في الديار الرومية ممن أظهر الإسلام رأيناهم يصلون ويصومون كصلاة المخلصين وصيامهم، ثم إنهم يدخلون كنائس النصارى في مواسمهم فهم مرتدون بذلك، ولا تصح الصلاة على موتاهم إن ماتوا على تلك الحالة لأنه لا شك في تعظيمهم الكنائس وموافقتهم النصارى في أفعالهم في أيامهم ولياليهم المعهودة فلا نتوقف في كفرهم، وأما تلفظهم بالشهادة فهو بحسب العادة ولا يغني عنهم ذلك شيئاً في اعتقادهم وبعض المعاصرين من العلماء يتوقفون في كفرهم جهلاً العياذ بالله تعالى.

ثم نرجع ونقول إن بني عمرو بن عوف لما بنوا ذلك المسجد حسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف، وقالوا أنصلي في مربط حمار لامرأة عمرو وذلك لأنه كانت امرأته تربط فيه حمارها وقيل: كان مكان مسجد قبا محلاً يجفف فيه التمر لكلثوم بن هدم رضي الله عنهما فبنوا مسجداً آخر في قبا على قصد الفساد وتفريق جماعة المؤمنين وأن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام.

وفي الحدادي إنهم بنوه بإذن النبي عليه السلام، أقول: هذا يخالف سوق القصة كما لا يخفى وبعيد أن يأذن رسول الله قبل إشارة الله في ذلك. وقصة أبي عامر الراهب أنه كان من أشراف قبيلة الخزرج تنصر في الجاهلية وترهب ولبس المسوح وكان ماهراً في علم التوراة والإنجيل.

قال الكاشفي: [وپيوسته نعت وصفت سيد عالم ﷺ براهل مدينه مى خواند چون آن حضرت بمدينه هجرت كرد اهل آن خطه شيفتهٔ جمال وكمال وى شده وازصحبت أبو عامر برميدند وپرواى او نكردند].

باوجود لب جان بخش تواى آب حيات   حيفم آيد سخن ازچشمهٔ حيوان كفتن

فحسده وعاداه لأنه زالت به عليه السلام رياسته وقال له لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك فلم يزل يتقاتل معه عليه السلام إلى أن تقاتل معه يوم هوازن فلما انهزمت هوازن خرج إلى الشام.

قال الكاشفي: [بنزد هرقل كه ملك روم بود برفت ومى خواست ازروم لشكر ساز كرده بجنك مسلمانان آيد نامه نوشت بمنافقان چون ثعلبة بن حاطب وأمثال اوكه شمادر مقابلهٔ مسجد قبادر محلهٔ خويش براى من مسجدي بسازيدكه چون من بمدينه آيم انجا بافادهٔ علم اشتغال نمايم ايشان مسجدي ساختند وحضرت رسالت پناه چون عازم غزوهٔ تبوك شد بانيان مسجد آمده كفتند يا رسول الله ما براى ضعيفان وبيچاركان در وقت سرما وباراندكى مسجدي ساخته ايم والتماس داريمكه در آن مسجد نمازكزارى وغرض ايشان آن بودكه بواسطهٔ نمازآن حضرت ﷺ مهم خودرا دراستحكام دهند چنانچه در مثنوى معنوى هست]:

مسجد واصحاب مسجدرا نواز تومهى ماشب دمى باما بساز
تاشود شب ازجمالت همچوروز اي جمالت آفتاب جان فروز
اي دريغا كان سخن ازدل بدى تامراد آن نفر حاصل شدى

قال في «السيرة الحلبية»: كانوا يجتمعون فيه ويعيبون النبي عليه السلام ويستهزئون به فقال النبي ﷺ: «إني على جناح سفر وحال شغل ولو قدمنا لأتيناكم فصلينا لكم فيه» فلما رجع من تبوك أتوه فسألوه إتيان مسجدهم فدعا عليه السلام بقميصه ليلبسه ويأتيهم فأنزل الله هذه الآية فقال: ﴿والذين اتخذوا مسجداً﴾ ﴿ضراراً﴾ مفعول له، أي: مضارة للمؤمنين.

قال الكاشفي: [براى ضرر مؤمنان وستيزهٔ ايشان]. ﴿وكفراً﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ الذين كانوا يجتمعون في مسجد قباء، فإنهم أرادوا ببنائهم المسجد صرف بعض الجماعة إليه وتفريق كلمة المؤمنين. ﴿وإرصاداً﴾ أي ترقباً وانتظاراً. ﴿لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾ أي: من قبل اتخاذ هذا المسجد وهو أبو عامر الراهب أي لأجله حتى يجيء فيصلي فيه ويظهر على رسول الله وقد سبق حضوره في الوقائع كلها فمن متعلق بحارب أو باتخذوا، أي: اتخذوا مسجداً من قبل أن يظهر هؤلاء النفاق بالتخلف. ﴿وليحلفن﴾ والله ليحلفن فهو جواب قسم مقدر.

قال الكاشفي: [وهر آيينه سوكند ميخورند چون كسى كويد جرا اين مسجد ساختيد] ﴿إن﴾ نافية. ﴿أردنا﴾ أي: ما أردنا ببناء هذا المسجد. ﴿إلا الحسنى﴾ إلا الخصلة الحسنى، وهي الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين. ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ في حلفهم ذلك ولما نزلت هذه الآية وأعلمه الله بخبرهم وما هموا به دعا، أي رسول الله الوحشي قاتل حمزة وجماعة معه فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه» فخرجوا سراعاً وأخذوا سعفاً من النخل وأشعلوا فيه النار وذلك بين المغرب والعشاء وهدموه إلى الأرض، وأمر النبي عليه السلام أن يتخذ كناسة يلقى فيها القمامة والجيف ثم بعد زمان أعطاه ﷺ لثابت بن أرقم يجعله بيتاً فلم يولد في ذلك البيت مولود قط وحفر فيه بقعة فخرج منها الدخان ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً وذلك أنه عليه السلام لما قدم المدينة أقبل إليه أبو عامر فقال: ما هذا الذي جئت به قال: «جئت بالحنيفة دين إبراهيم» قال أبو عامر وأنا عليها فقال عليه السلام: «إنك لست عليها» قال: بلى ولكنك أدخلت في الحنفية ما ليس فيها فقال عليه السلام: «ما فعلت ذلك ولكن جئت بها بيضاء نقية» فقال أبو عامر أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً غريباً فقال عليه السلام: «آمين» فسماه أبا عامر الفاسق مكان الراهب، فمات كافراً بقنسرين وهي بكسر القاف وتشديد النون المفتوحة أو المكسورة اسم بلدة في الشام ومع هذه الخباثة كان له ولد صالح يقال له أبو حنظلة استشهد يوم أحد فغسلته الملائكة عليهم السلام. قال السعدي قدس سره:

هنر بنماى اكر دارى نه كوهر كل ازخارست وإبراهيم از آزر

وفي الآية إشارة إلى أن أهل الطبيعة ﴿اتخذوا﴾ مزبلة النفس ﴿مسجداً ضراراً﴾ لأرباب الحقيقة. ﴿وكفراً﴾ بأحوالهم كما أنهم اتخذوا بستان القلب مسجداً يذكرون الله فيه ويطلبونه وهذا وصف مدعي الطلب الكذابين في دعواهم المتشبهين بزي أرباب الصدق والطلب. ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ الطالبين الصادقين بإظهار الدعوى من غير المعنى، أي: يفرقون بين

الإخوان في الله في طلب أنواع الحيل تارة بطلب صحبة معهم ومرافقتهم في الأسفار وتارة بذكر البلدان وكثرة النعم فيها وطيب هوائها وكرم أهلها وإرادتهم لهذه الطائفة ليزعجوهم عن خدمة المشايخ وصحبة الإخوان. ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾ ليوقعوهم في بلاء صحبة الإباحية من مدعي الفقر والمعرفة وهم يحاربون الله بترك دينه وشريعته ورسوله بترك متابعته وإحياء سننه «وليحلفن لهم إن أردنا إلا الحسنى» فيما دعوناكم إليه ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ فيما يدعون ويحلفون كذا في «التأويلات النجمية»:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿لا تقم﴾ يا محمد للصلاة ﴿فيه﴾ أي: في مسجد هؤلاء المنافقين ﴿أبداً﴾.

قال سعدي المفتي: أي لا تصل فيه عبر بالقيام عن الصلاة كما في قولهم فلأن يقوم الليل ومنه الحديث الصحيح: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» ﴿لمسجد﴾ مسجد قبا واللام للابتداء أو القسم ﴿أسس﴾ التأسيس إحكام اس البناء وهو أصله يعني اسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقبا. ﴿على التقوى﴾.

قال في «التبيان»: أي بنيت حدوده ورفعت قواعده على طاعة الله.

وفي «الحدادي»: لوجه الله وعلى ههنا للمصاحبة بمعنى مع كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] كما في «حواشي سعدي» المفتي ﴿من أول يوم﴾ من أيام وجوده وتأسيسه متعلق بأسس وكلمة من الجارة إذا كانت للابتداء تجر المكان كثيراً كما في قولك جئت من البصرة وقد تجر الزمان أيضاً عند الكوفيين، كما في هذه الآية فالمعنى منذ أول يوم بني لأن منذ لابتداء الغاية في الزمان تقول ما رأيته منذ شهر.

وقال الرضي: (من) في الآية بمعنى في وذلك كثير في الظروف، ويقال أراد بالمسجد مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة والأول أشهر وأوفق للقصة إذ المسجد بقبا فالموازنة بينهما أولى من الموازنة بين ما بقبا وما بالمدينة.

قال الحدادي: لا يمتنع أن يكون المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى كلا المسجدين مسجد النبي عليه السلام ومسجد قبا ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ أي: أولى أن تصلي فيه.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى أحق أن تقوم فيه، مع أن المفاسد الأربع المذكورة بقوله ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً تمنع جواز قيامه في الآخر.

والجواب: أن الكلام مبني على النزول والمعنى لو فرضنا جواز القيام في مسجد الضرار لكان القيام في مسجد التقوى أحق وأولى لكونه على قاعدة محكمة فكيف والقيام فيه باطل لكونه مبنياً لأغراض فاسدة، ويجوز أن يقال: أحق ليس للتفضيل بل بمعنى حقيق، كما قال المولى أبو السعود، والمراد بكونه أحق كونه حقيقاً به إذ لا استحقاق في مسجد الضرار رأساً وإنما عبر عنه بصيغة التفضيل لفضله وكماله في نفسه أو الأفضلية في الاستحقاق المتناول ما

يكون باعتبار زعم الباني ومن يتابعه في الاعتقاد وهو الأنسب بما سيأتي. ﴿فيه﴾ أي: في المسجد المؤسس على التقوى. ﴿رجال﴾ يعني: الأنصار جملة مستأنفة مبنية لأحقيته لقيامه عليه السلام فيه من جهة الحال بعد بيان أحقيته له من حيث المحل. ﴿يحبون أن يتطهروا﴾ من الأنجاس والأخباث مطلقاً بدنية كانت أو عملية كالمعاصي والخصال الذميمة. ﴿والله يحب المطهرين﴾ أي: يرضى عن المتطهرين ويدنيهم من جنابه الإدناء المحب حبيبه. روي أن هذه الآية لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس فقال: «أمؤمنون أنتم» فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه السلام: «أترضون بالقضاء» قالوا نعم قال: «أتصبرون على البلاء» قالوا: نعم قال: «أتشكرون في الرخاء» قالوا: نعم قال عليه السلام: «مؤمنون ورب الكعبة» فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط» فقالوا نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ وفي كلام بعضهم أول من استنجى بالماء إبراهيم عليه السلام والاستنجاء مسح موضع النجو، أي ما خرج من البطن وهو في الأصل أعم منه ومن غسله كما في «المغرب» فيطهر موضع النجو بثلاثة أمداد فإن لم يجد فبالأحجار فإن لم يجد فبكفه ولا يستنجي بما سوى الثلاثة لأنه يورث الفقر والمقصود التنقية فلو حصل بالواحد كفاه ولم يحصل بالثلاثة زاد، ولا يستنجي من النوم والريح فإنه بدعة وليس على المستحاضة استنجاء لكل صلاة بلا بول غائط كما في «النوازل» واستعمال المنشفة أدب وذلك قبل أن يقوم وبعد الغسل ليزول أثر الماء المستعمل بالكلية وكان الأنصار يتبعون الماء أثر البول أيضاً وعن بعضهم أن المراد التطهر من الجنابة فلا ينامون عليها وفي الحديث: «ثلاثة لا تقربهم الملائكة» المراد بالملائكة هنا هم الذين ينزلون بالرحمة والبركة دون الحفظة فإنهم لا يفارقونه على أي حال من الأحوال.

وقال بعض العلماء: المراد بالملائكة غير الحفظة وغير ملائكة الموت وقيل أراد لا تحضره الملائكة بخير «جيفة الكافر» المراد بها ذاته حياً وميتاً لأن الكافر نجس بعيد من الرحمة في الحياة وبعد الموت «والمتضمخ» بالضاد والخاء المعجمتين أي المتلطخ المتدهن بالخلوق بفتح الخاء المعجمة طيب معروف مركب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب وتغلب عليه الحمرة والصفرة.

وقال أبو عبيدة عند العرب هو الزعفران وحده ووجه النهي عن الخلوق لما فيه من الرعونة والتشبه بالنساء والنهي عن الخلوق مختص بالرجال دون النساء كما في «المفاتيح» «والجنب» الجنابة لغة البعد وسمي الإنسان جنباً لأنه نهي أن يقرب مواضع الصلاة ما لم يتطهر وقيل لمجانبته الناس حتى يغتسل «إلا أن يتوضأ» وهذا في حق كل من أخر الغسل لغير عذر أو لعذر إذا أمكنه الوضوء فلم يتوضأ.

وقيل: لم يرد بالجنب من إصابته جنابة فأخر الاغتسال ولكنه الجنب الذي يتهاون بالغسل ويتخذ تركه عادة لأن النبي ﷺ كان ينام وهو جنب ويطوف على نسائه بغسل واحد.

وفي الشرعة: وينام بعد الوطء نومة خفيفة فإنه أروح للنفس لكن السنة فيه أن يتوضأ أولاً وضوؤه للصلاة ثم ينام كما في «شرح ابن السيد علي».

قال في «فتح القريب» المراد بالوضوء الشرعي بلا خلاف وفي رواية شعبة «اغسل ذكرك ثم توضأ وارقد» هذا هو الصحيح يعني الأمر بغسل الذكر ثم الوضوء ومن نام ولم يتوضأ فليستغفر الله تعالى ولو أراد العود أي من غير نوم فليتوضأ أي ليتنظف بغسل الذكر واليدين فليس المراد بالوضوء الشرعي المشهور كما ذهب إليه المالكية كما في «شرح المشارق». والوضوء يطلق على غسل اليدين كما في قوله عليه السلام: «الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر». وإذا توضأ وضوءه للصلاة وأراد أن ينام فهل الأولى أن ينوي رفع الحدث الأصغر أو ينوي سنة العود أو رفع الجنابة أو ما أصابه من الأعضاء المغسولة الظاهر الأول ليكون عبادة مستقلة أو مخففة للحدث بزوال أحد الحدثين كذا في «فتح القريب». وفيه أيضاً اختلف في علة الوضوء فقيل لأنه يخفف الحدث وقيل ليبيت على إحدى الطهارتين خشية أن يموت في نومه ذلك لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه جنب فيزول ذلك بالوضوء ومذهب الشافعي ومالك استحباب الوضوء للجنب قبل النوم لأنه عليه السلام كان يفعل ذلك. وعن بعض المالكية لا تسقط العدالة بتركه لاختلاف العلماء فيه.

وقال بعضهم: في الآية يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم. روي أن جابراً قال استأذنت الحمى على رسول الله ﷺ فقال: «من هذه» قيل: أم ملدم فأمر بها عليه السلام إلى أهل قبا فلقوا فيها ما لا يعلمه إلا الله فشكوا إليه عليه السلام فقال: «إن شئتم دعوت الله ليكشفها عنكم وإن شئتم تكون لكم طهوراً» قالوا أو تفعل ذلك قال: «نعم» قالوا فدعها وقد «جاء أن حمى ليلة كفارة سنة ومن حم يوماً كان له براءة من النار وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» وعن عائشة رضي الله عنها لما قدمت المدينة أخذتها الحمى فسبتها فقال عليه السلام: «لا تسبيها فإنها مأمورة ولكن إن شئت علمتك كلمات إذا قلتهن أذهبها الله تعالى عنك» قالت علمني قال: «قولي اللهم ارحم جلدي الرقيق وعظمي الدقيق من شدة الحريق يا أم ملدم إن كنت آمنت بالله العظيم فلا تصدعي الرأس ولا تنتني الفم ولا تأكلي اللحم ولا تشربي الدم وتحولي عني إلى من اتخذ مع الله إلهاً آخر» فقالتها فذهبت عنها ولما استوخم المهاجرون هواء المدينة ولم يوافق أمزجتهم فمرض كثير منهم وضعفوا تشوقوا إلى مكة المكرمة ولذا نظر عليه السلام يوماً إلى السماء لأنها قبلة الدعاء وقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وبارك لنا في مدها وصاعها وصححها لنا ثم انقل وباءها إلى مهيعة» أي: الجحفة وهي قرية قريبة من رابغ محل إحرام من يجيء من جهة مصر حاجاً وكان سكانها إذ ذاك يهوداً ودعاؤه عليه السلام أن يحبب إليهم المدينة إنما هو لما جبلت عليه النفوس من حب الوطن والحنين إليه ومن ثم جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت رجلاً بحضور النبي عليه السلام قدم المدينة من مكة، فقالت له: كيف تركت مكة فذكر لها من أوصافها الحسنة ما غرغرت منه عينا رسول الله ﷺ وقال: «لا تشوقها يا فلان».

فتنها درانجمن پيدا شود ازسوزمن چون مرادر خاطر آيدمسكن ومأواى دوست

وفي «أسئلة الحكم»: أن الختان للتطهر لأنه يوجب المحبة الإلهية كما قال تعالى: ﴿والله يحب المطهرين﴾ فيحصل الاحتراز والتطهر من البول بالختان.

قال الفقهاء: الأقلف يجب عليه إيصال الماء إلى القلفة إذ لا حرج فيه وفي الحديث: «اتقوا البول فإن عامة عذاب القبر من البول فإنه أول ما يحاسب به العبد في القبر» كما في «الترغيب».

اعلم أن مسجد المنافقين إشارة إلى مزبلة النفس والمسجد المؤسس على التقوى إشارة إلى مسجد القلب وهو قد أسس على العبودية والطاعة والإقرار بالوحدانية من أول يوم الميثاق عند خطاب ألست بربكم وجواب قالوا بلى وأهله متطهرون عن الصفات الذميمة والأخلاق اللئيمة بل عن دنس الوجود ولوث الحدوث والله يحب المطهرين الفانين عن وجودهم الباقين بالله ولولا محبته إياهم ما وفقهم للتطهير فتطهرهم مطلقاً أثر من آثار محبة الله لهم. قال الحافظ:

طهارت ارنه بخون جكر كند عاشق   بقول مفتى عشق اش درست نيست نماز

وفي «المثنوي»:

روى ناشسته نبيند روى حور   لا صلاة كفت إلا بالطهور

وهو بالفتح مصدر بمعنى التطهير ومنه «مفتاح الصلاة الطهور» واسم لما يتطهر به كذا في «المغرب».

﴿أفمن أسس بنيانه﴾ جملة مستأنفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين من أهل مسجد الضرار وهمزة الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على مقدر. والتأسيس إحكام أس البناء وهو أصله والبنيان مصدر كالغفران أريد به المفعول أي المبني. والمعنى أبعد ما علم حالهم فمن أسس بنيان مسجده إذ الكلام فيه ويؤيده أسس على التقوى.

وقال الكاشفي: [آيا هر كس كه اساس افكند بناى دين خودرا] ﴿على تقوى من الله﴾ المراد بالتقوى درجتها الثانية التي هي التقوى عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك فيكون غير منصرف كحبلى فلا تنوين فيه إذاً. وقرىء بالتنوين على أن يكون ألفه للإلحاق كألف أرطى. ﴿ورضوان﴾ وطلب مرضاته بالاشتغال بالطاعة. ﴿خير﴾ إطلاق خير على معتقد أصحاب مسجد الضرار من اعتقاد الاشتراك في الخيرية. ﴿أم من أسس بنيانه﴾ والمعنى، أي: الفريقين خير وأحق بالمصاحبة والصلاة معهم من أسس بناء مسجده مريداً به تقوى الله وطاعته وهم أهل مسجد قبا أم من أسس بنيان مسجده على النفاق والكفر وتفريق المؤمنين وإرصاد كافر شأنه كيد المسلمين وتوهين أمر الدين وترك الإضمار للإيذان باختلاف البنيانين ذاتاً واختلافهما وصفا وإضافة. ﴿على شفا جرف هار﴾ شفا الشيء بالقصر طرفه وشفيره وتثنيته شفوان والجرف بالضم والإسكان وهما لغتان الأرض التي جرفت السيوف أصلها أي حفرته وأكلته والهاري المتصدع المشرف على السقوط يقال هار الجرف يهور أو يهير إذا انشق من خلفه وهو ثابت بعد مكانه فهو هائر فهاري مقلوب هاير نقلت لامه إلى مكان العين كما فعل في شاك أصله شايك فصار هاري فاعل كقاضي.

قال أبو البقاء: أصله هاور أو هاير ثم أخرت عين الكلمة فصارت بعد الراء وقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ثم حذفت لسكونها وسكون التنوين فوزنه بعد القلب فالع وبعد الحذف فال وعين الكلمة واو أو ياء يقال تهور البناء وتهير. ﴿فانهار به في نار جهنم﴾ يقال هار البناء هدمه فالانهار والانهيار [ريهيده شدن] كما في «تاج المصادر» وفاعل انهار ضمير البنيان وضمير به للمؤسس الباني أي تساقط بنيانه وتناثر به أي بصاحبه في النار.

قال قتادة: ذكر لنا أنه حفرت بقعة من مسجد الضرار فرؤي الدخان يخرج منها.

وقال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار.

قال الحدادي: كما أن من بنى على جانب نهر صفته ما ذكرنا انهار بناؤه في الماء فكذلك بناء أهل النفاق مسجد الشقاق كبناء على جرف جهنم يهور بأهله فيها. ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ أي: لأنفسهم أو الواضعين للأشياء في غير موضعها أي لا يرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم إرشاداً موصلاً لا محالة وأما الدلالة على ما يرشدهم إليه إن استرشدوا به فهو متحقق بلا اشتباه. والظلم في الحقيقة وضع عبادة الدنيا ومحبتها والحرص في طلبها في موضع عبادة الله تعالى ومحبته والصدق في طلبه.

﴿**لا يزال بنيانهم الذي بنوا**﴾ البنيان مصدر أريد به المفعول ووصفه بالموصول الذي صلته فعله للإيذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أوهن قاعدة وأوهى أساس وللإشعار بعلة الحكم أي لا يزال مسجدهم ذلك مبنياً ومهدوماً. ﴿**ريبة في قلوبهم**﴾ أي: سبب ريبة وشك في الدين كأنه نفس الريبة، أما حال بنائه فظاهر لما أن اعتزالهم من المؤمنين وإجماعهم في مجمع على حياله يظهرون فيه ما في قلوبهم من آثار الشرك والنفاق ويدبرون فيه أمورهم ويتشاورون في ذلك ويلقي بعضهم إلى بعض ما سمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا في الدين، وأما حال هدمه فلما أنه رسخ به ما كان في قلوبهم من الشر والفساد وتضاعفت آثاره وأحكامه ﴿**إلا أن تقطع**﴾ من التفعل بحذف إحدى التاءين أي إلا أن تقطع ﴿**قلوبهم**﴾ قطعاً وتتفرق أجزاء بحيث لا يبقى لها قابلية إدراك وإضمار قطعاً وهو استثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال محله النصب على الظرفية، أي: لا يزال بنيانهم ريبة في كل وقت من الأوقات أو كل حال من الأحوال إلا وقت تقطع قلوبهم فحينئذٍ يسلون عنها، وأما ما دامت سالمة فالريبة باقية فيها فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم إلى الموت، ويجوز أن يكون المراد حقيقة تقطعها عند قتلهم أو في القبور بالبلى أو في النار. ﴿**والله عليم**﴾ [وخداى تعالى داناست بتأسيس بنا وايشان كه بچه نيت بوده]. ﴿**حكيم**﴾ فيما حكم وأمر من هدم مسجدهم وإظهار نفاقهم.

واعلم: أن في الآيتين المذكورتين إشارات: منها أن صفاء الطوية وحسن الاعتقاد، كالأساس في باب الأعمال فكما أن البناء لا يقوم على الماء بل يقوم على الأرض الصلبة كذلك الأعمال لا تقوم إلا على محكم الاعتقاد، وهو الباعث على الإخلاص العمل الذي هو إرادة التقرب إلى الله تعالى وتعظيم أمره وإجابة دعوته وضده النفاق وهو التقرب إلى الخلق من دون الله تعالى. وأما إخلاص طلب الأجر فهو إرادة نفع الآخرة بعمل الخير وضده الرياء وهو إرادة نفع الدنيا بعمل الآخرة سواء أراده من الله أو من الناس لأن الاعتبار في الرياء بالمراد لا بالمراد منه.

فعلى العاقل أن يجعل أساس دينه على الاعتقاد الصحيح والإخلاص والتقوى حتى يكون كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ومنها: أن المنافقين بنوا مسجداً للصلاة صورة فهم إنما بنوا متحدثاً لهم حقيقة ومحلاً لقاذورات أقوالهم وأفعالهم، ولذا كان حرياً بإلقاء الجيف فيه بعد الهدم فتمتعوا قليلاً ثم وقعوا في النار جميعاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٤٠] فكما أن من جالسهم في مجالسهم القذرة العذرة شقي شقاوة حقيقية كذلك من جالس الصديقين والعارفين في مجالسهم المطهرة وأنديتهم المقدسة سعد سعادة أبدية وتطهر طهارة أصلية، وقد قال عليه السلام: «إنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم»، فالمراد السامع أو الجالس لأن المجالسة

والسماع ينتجان عن المحبة قال عليه السلام: «المرء مع من أحب» وهنا سرّ صوفي يريد ﷺ في الدنيا والآخرة في الدنيا بالطاعة والأدب الشرعي وفي الآخرة بالمعاينة والقرب المشهدي.

ومنها: أنهم أرادوا ببنيانهم مكراً وخديعة وغفلوا عن مكر الله تعالى بهم ولذا افتضحوا.

مكر حق سر چشمهٔ اين مكر هاست   قلب بين الأصبعين كبرياست

آنكه سازد دردلت مكرو قياس   آتشى داند زدن اندر پلاس

ومنها: أن من كانت شقاوته أصلية أزلية فهو لا يزداد بما ابتلاه الله تعالى به إلا ضلالاً وغيظاً وإنكاراً والعاقل يختار فضوح الدنيا لأنه أهون من فضوح الآخرة.

ازين هلاك مينديش وباش مردانه   كه اين هلاك بودموجب خلاص ونجات

ومنها: أن رسول الله ﷺ لم يزل يذب الناس عن النار وعن الوقوع فيها ولذا هدم مسجد الضرار إذ لو تركه على حاله لعاد الضرر على العامة بنزول البلية وهي نار معنى ولافتتن به بعض الناس والفتنة الدينية سبب للنار حقيقة فأهل الفساد والشر لا يقرون على ما هم عليه بل ينكر عليهم أشد الإنكار بهتك أعراضهم وإخراجهم من مساكنهم إن مست الحاجة إلى الإخراج وكذا هدم بيوتهم ومنازلهم.

ذكر في «فتاوى أبي الليث»: رجل بنى رباطاً للمسلمين على أن يكون في يده ما دام حياً فليس لأحد أن يخرجه من يده ما لم يظهر منه أمر يستوجب الإخراج من يده كشرب الخمر فيه وما أشبه ذلك من الفسق الذي ليس فيه رضى الله لأن شروط الوقف يجب اعتبارها ولا يجوز تركها إلا للضرورة.

وقال في «نصاب الاحتساب»: فإذا كان الخانقاه يخرج من يد بانيه لفسقه فكيف يترك في الخانقاه فاسق أو مبتدع. مثل الحديدية الذين يلبسون الحديد لأن الحديد حلية أهل النار سواء اتخذ خاتماً أو حلقة في اليد أو في الأذن أو في العنق أو غير ذلك، ومثل الجوالقية الذين يلبسون الجوالق والكساء الغليظ ويحلقون اللحية وكلاهما منكر. فأما الأول فلأنه لباس شهرة وقد نهي عنه، وأما الثاني فلأنه من فعل الإفرنج وفيه تغيير خلق الله تعالى والتشبه بالنساء. ومثل القلندرية الذين يقصون الشعور حتى الحاجب والأهداب وفيهم يقول الحافظ:

قلندرى نه بريشست وموى يا ابرو   حساب راه قلندر بدانكه موى بموست

كذشتن از سرمو درقلندرى سهلست   چو حافظ آنكه سر بكذررد قلندراوست

وقس عليهم سائر فرق أهل البدعة وفي الحديث: «لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس وأنظر إلى أقوام يتخلفون عن الجماعة فأحرق بيوتهم» وهذا يدل على جواز إحراق بيت الذي يتخلف عن الجماعة لأن الهم على المعصية لا يجوز من الرسول عليه السلام لأنه معصية فإذا علم جواز إحراق البيت على ترك السنة المؤكدة فما ظنك في إحراق البيت على ترك الواجب والفرض عصمنا الله وإياكم من الأقوال والأفعال المنكرة.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

﴿إن الله اشترى﴾ روي أن الأنصار لما بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً أو أربعة وسبعون من أهل المدينة قال عبد الله بن رواحة يا رسول الله اشترط لربك

ولنفسك ما شئت فقال: «اشترطت لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً واشترطت لنفسي أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قال: فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال: «الجنة» قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل أي لا نفسخه ولا ننقضه.

آن بيع راكه روز ازل باتوكرده ايم اصلا دران حديث اقاله نميرود

فنزلت: ﴿إن الله اشترى﴾ ﴿من المؤمنين﴾ لا من المنافقين والكافرين فإنهم غير مستعدين لهذه المبايعة.

قال الحسن: اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن والله ما على وجه الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة وسميت المعاهدة مبايعة تشبيهاً بالمعاوضة المالية.

قال ابن ملك في «شرح المشارق» المبايعة من جهة الرسول عليه السلام هو الوعد بالثواب ومن جهة الآخر التزام طاعته ﴿أنفسهم﴾ [نفسهاى ايشا نراكه مباشر جهاد شوند] فالمراد بالنفس هو البدن الذي هو المركب والآلة في اكتساب الكمالات للروح المجرد الإنساني ﴿وأموالهم﴾ [وما لهاى ايشانراكه درراه نفقه كنند] فالمال الذي هو وسيلة إلى رعاية مصالح هذا المركب ﴿بأن لهم الجنة﴾ [با آنكه مرايشانرا باشد بهشت] أي باستحقاقهم الجنة في مقابلتها وهو متعلق باشترى ودخلت الباء هنا على المتروك على ما هو الأصل في باء المقابلة والعوض ولم يقل بالجنة مبالغة تقرر وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم كأنه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم.

فإن قيل: كيف يشتري أحد ملكه بملكه والعبد وماله لمولاه؟

قيل: إنما ذكر على وجه التحريض في الغزو، يعني [اي بنده ازتو بذل كردن نفس ومال واز من عطا دادن بهشت بى زوال] ففيه تلطف للمؤمنين في الدعاء إلى الطاعة البدنية والمالية وتأكيد للجزاء كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فذكر الصدقة بلفظ القرض للتحريض على ذلك والترغيب فيه إذ القرض يوجب رد المثل لا محالة وكأن الله تعالى عامل عباده معاملة من هو غير مالك، فالاشتراء استعارة عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة فالله تعالى بمنزلة المشتري والمؤمن بمنزلة البائع وبدنه وأمواله بمنزلة المبيع الذي هو العمدة في العقد والجنة بمنزلة الثمن الذي هو الوسيلة وإنما لم يجعل الأمر على العكس بأن يقال إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها إيذاناً بتعلق كمال العناية بأنفسهم وأموالهم.

وعن جعفر الصادق رضي الله عنه: أنه كان يقول يا ابن آدم اعرف قدر نفسك، فإن الله عرفك قدرك لم يرض أن يكون لك ثمن غير الجنة. وفي «المثنوي»:

خويشتن نشناخت مسكين آدمى از فزونى آمد وشد در كمى

خويشتن را آدمى ارزان فروخت بود اطلس خويش را بردلق دوخت

قال الكاشفي: [نفس سرمايهء سر وشورست ومال سبب طغيان وغرور اين دو ناقص معيوب رادرراه خداكن وبهشت باقىء مرغوبرا بستان]:

ستك بينداز وكهر مى ستان خاك زمين مى ده وزر مى ستان

در عوض فانىء خوار وحقير نعمت پاكيزهٔ باقى بكير

وفي «التفسير الكبير»: حكي في الخبر أن الشيطان يخاصم ربه بهذه الآية ويحتج بالمسألة الشرعية في البيع إذا اشترى المشتري متاعاً معيوباً يرده إلى البائع. يقول: يا رب أنت اشتريت نفوسهم وأموالهم فنفوسهم وأموالهم كلها معيوبة ردّ لي عبادك بشرعك وعدلك يكونوا معي حيث أكون فيقول الله تعالى أنت جاهل بشرعي وعدلي وفضلي إذا اشترى المشتري متاعاً بكل عيب فيه بفضله وكرمه لا يجوز رده في شرعي في مذهب من المذاهب فيخسأ الشيطان حجلاً طريداً مخذولاً. وفي «المثنوي»:

كالهٔ كه هيچ خلقش ننكريد   از خلاقت آن كريم آنرا خريد
هيچ قلبي پيش حق مردود نيست   زانكه قصدش ازخريدن سود نيست

[پس حق سبحانه وتعالى مارا خريده وبعيوب ما دانا اميداست كه ازدركاه كرم رد نكند. ودر نفخات الأنس مذكورست از ابو زجانى نقل ميكندكه]:

تو بعلم ازل مرا ديدى   ديدى آنكه بعيب بخريدى
تو بعلم آن ومن بعيب همان   رد مكن آنچه خود پسنديدى

﴿يقاتلون في سبيل الله﴾ استئناف لبيان البيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور كأنه قيل: كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة فقيل يقاتلون في سبيل الله، يعني: [درراه خدا وطلب رضاى او] وهو بذل منهم لأنفسهم وأموالهم إلى جهة الله تعالى وتعريض لهما للهلاك.

وقال الحدادي: فيه بيان الغرض لأجل اشترائهم وهو أن يقاتلوا العدو في طاعة الله انتهى.

أقول: هل الأفعال الإلهية معللة بالأغراض أو لا ففيه اختلاف بين العلماء فأنكره الأشاعرة وأثبته أكثر الفقهاء لأن الفعل الخالي عن الغرض عبث والعبث من الحكيم محال وتمامه في التفاسير، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذرايات: ٥٦] ﴿فيقتلون﴾ [پس كاهى مى كشند دشمانرا] فهم الغزاة فلهم الجنة. ﴿ويقتلون﴾ [وكاهى كشته ميشوند دردست ايشان] فهم الشهداء فله الجنة.

قال في «الإرشاد»: هو بيان لكون القتل في سبيل الله بذلاً للنفس وأن المقاتل في سبيله باذل لها وإن كانت سالمة غانمة فإن الإسناد في الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فإنه يتحقق القتال من الكل سواء وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم، بل يتحقق ذلك وإن لم يصدر منهم أحدهما أيضاً كما إذا وجدت المضاربة ولم يوجد القتل من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربة أيضاً فإنه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد وتقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية للإيذان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقاً لكون القتال بذلاً للنفس، وقرىء بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة في الباب وإيذاناً بعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله بل بكونه أحب إليهم من السلامة واختار الحسن هذه القراءة لأنه إذا قرىء هكذا كان تسليم النفس إلى السراء أقرب وإنما يستحق البائع تسليم الثمن إليه بتسليم المبيع وأنشد الأصمعي لجعفر رضي الله عنه:

أثامن بالنفس النفيسة ربها   وليس لها في الخلق كلهمو ثمن
بها تشترى الجنات إن أنا بعتها   بشيء سواها إن ذلكمو غبن

إذا ذهبت نفسي بشيء أصيبه فقد ذهب الدنيا وقد ذهب الثمن

وأنشد أبو علي الكوفي:

من يشتري قبة في عدن عالية في ظل طوبى رفيعات مبانيها

دلالها المصطفى والله بائعها ممن أراد وجبريل مناديها

واعلم أن من بذل نفسه وماله في طلب الجنة فله الجنة وهذا هو الجهاد الأصغر ومن بذل قلبه وروحه في طلب الله فله رب الجنة وهذا هو الجهاد الأكبر لأن طريق التصفية وتبديل الأخلاق أصعب من مقاتلة الأعداء الظاهرة فالقتل إما قتل العدو الظاهر وإما قتل العدو الباطن وهو النفس وهواها ﴿وعداً﴾ مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلاً إذ الجنة يستحيل وجودها في الدنيا فمضمون الجملة السابقة ناصب له.

قال سعدي المفتي: لأن معنى اشترى بأن لهم الجنة وعدهم الله على الجهاد في سبيله ﴿عليه﴾ حال من قوله ﴿حقاً﴾ لأنه لو تأخر عنه لكان صفة له فلما تقدم عليه انتصب حالاً وأصله وعداً حقاً أي ثابتاً مستقراً عليه تعالى.

قال الكاشفي: [حقا ثابت وباقي كه خلاف دران نيست] ﴿في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لوعداً أي وعداً مثبتاً مذكوراً في التوراة والإنجيل كما هو مثبت مذكور في القرآن. يعني أن الوعد بالجنة للمقاتلين في سبيل الله من هذه الأمة مذكور في كتب الله المنزلة وجوز تعلقه باشترى فيدل على أن أهل التوراة والإنجيل أيضاً مأمورون بالقتال موعودون بالجنة. ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ من استفهام بمعنى الإنكار وأوفى أفعل تفضيل وقوله من الله صلته أي لا يكون أحد وافياً بالوعد والعهد وفاء الله بعهده ووعده لأنه تعالى قادر على الوفاء وغيره عاجز عنه إلا بتوفيقه إياه كما في «التأويلات النجمية»: ﴿فاستبشروا﴾ الاستبشار إظهار السرور والسين فيه ليس للطلب كاستوقد وأوقد والفاء لترتيب الاستبشار على ما قبله، أي: فإذا كان كذلك فسروا نهاية السرور وافرحوا غاية الفرح بما فزتم به من الجنة، وإنما قيل: ﴿ببيعكم﴾ مع أن الابتهاج به باعتبار أدائه إلى الجنة؛ لأن المراد ترغيبهم في الجهاد الذي عبر عنه بالبيع وإنما لم يذكر العقد بعنوان الشراء لأن ذلك من قبل الله لا من قبلهم والترغيب إنما يكون فيما يتم من قبلهم.

قال الحدادي: ببيعكم أنفسكم من الله فإنه لا مشتري أرفع من الله ولا ثمن أعلى من الجنة وقوله تعالى: ﴿الذي بايعتم به﴾ [آنكه مبايعه كرديد بآن] لزيادة تقرير بيعهم وللإشعار بكونه مغايراً لسائر البياعات فإنه بيع للفاني بالباقي ولأن كلا البدلين له سبحانه وتعالى. ﴿وذلك﴾ أي: الجنة التي جعلت ثمناً بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالهم. ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز أعظم منه.

قال الحدادي: أي النجاة العظيمة والثواب الوافر لأنه نيل الجنة الباقية بالنفس الفانية ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى البيع الذي أمروا بالاستبشار به ويجعل ذلك كأنه نفس الفوز العظيم أو يجعل فوزاً في نفسه.

واعلم: أن الخلق كلهم ملك الله وعبيده. وأن الله يفعل في ملكه وعبيده ما يريد. لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ولا يقال لم لم يرد ولم لا يكون. ومع هذا فقد اشترى من المؤمنين أنفسهم لنفاستها لديه إحساناً منه.

ثم اعلم: أن الأجل محكوم ومحتوم، وأن الرزق مقسوم ومعلوم، وأن من أخطأ لا يصيب. وأن سهم المنية لكل أحد مصيب، وأن كل نفس ذائقة الموت، وأن ما قدر أزلاً لا يخشى من الفوت، وإن الجنة تحت ظلال السيوف، وأن الري الأعظم في شرب كؤوس الحتوف، وأن من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار، ومن أنفق ديناراً كتب بسبعمائة دينار وفي رواية بسبعمائة ألف دينار، وأن الشهداء حقاً عند الله من الأحياء، وأن أرواحهم في جوف طيور خضر تتبوأ من الجنة حيث تشاء، وأن الشهيد يغفر له جميع ذنوبه وخطاياه، وأنه شفع في سبعين من أهل بيته وأولاده، وأنه آمن يوم القيامة من الفزع الأكبر، وأنه لا يجد كرب الموت ولا هول المحشر، وأنه لا يحس بألم القتل، وأن الطاعم النائم في الجهاد أفضل من الصائم القائم في سواه، ومن حرس في سبيل الله لا تبصر النار عيناه، وأن المرابط يجرى له أجر عمله الصالح إلى يوم قيامه، وأن ألف يوم لا تساوي يوماً من أيامه، وأن رزقه يجري عليه كالشهيد أبداً لا يقطع، وأن رباط يوم خير من الدنيا وما فيها، وأنه يأمن من فتنة القبر وعذابه، وأن الله يكرمه في القيامة بحسن مآبه، إلى غير ذلك وإذا كان الأمر كذلك، فيتعين على كل عاقل التعرض لهذه الرتبة وصرف عمره في طلبها والتشمير للجهاد، عن ساق الاجتهاد. والنفير إلى ذوي العناد، من كل العباد، وتجهيز الجيوش والسرايا، وبذل الصلات والعطايا، وإقراض الأموال لمن يضاعفها ويزكيها، ودفع سلع النفوس من غير مماطلة لمشتريها، وأن ينفر في سبيل الله خفافاً وثقالاً. ويتوجه إلى جهاد أعداء الله ركباناً ورجالاً، حتى يخرجوا إلى الإسلام من أديانهم، أو يعطوا الجزية صغرة بإيمانهم، أو تستلب نفوسهم من أبدانهم، وتجتذب رؤوسهم من تيجانهم. فجموع ذوي الإلحاد مكسرة، وإن كانت بالتعداد مكثرة، وجيوش أولي العناد مدبرة مدمرة، وإن كانت بعقولهم مقدمة مدبرة، وعزمات رحال الضلال مؤنثة مصغرة، وإن كانت ذواتهم مذكرة مكبرة. ألا ترى أن الله تعالى جعل كل مسلم يغلب منهم اثنين. وللذكر من العقل مثل حظ الأنثيين. فوجب علينا أن نطير إليهم ونغير عليهم رجالاً وفرساناً. ونجهد في خلاص أسير ومكروب. واغتنام كل خطير ومحبوب، ونبيد بأيدي الجلاد حماة الشرك وأنصاره، ونصول بالنصول الحداد على دعاة الكفر انهتك استاره. ونتطهر بدماء المشركين والكفار، من أرجاس الذنوب وأنحاس الأوزار، هناك فتحت من الجنة أبوابها. وارتفعت فرشها ووضعت أكوابها. وبرزت الحور العين عربها وأترابها، وقام للجلاد على قدم الاجتهاد خطابها. فضربوا ببيض المشرفية فوق الأعناق. واستعذبوا من المنية مر المذاق. وباعوا الحياة الفانية بالعيش الباق، فوردوا من مورد الشهادة مورداً لم يظمؤوا بعده أبداً، وربحت تجارتهم فكانوا أسعد السعدا، أولئك في صفقة بيعهم هم الرابحون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون، إليك اللهم نمد أكف الضراعة أن تجعلنا منهم. وأن لا تحيد بنا عند قيام الساعة عنهم، وأن ترزقنا من فضلك شهادة ترضيك عنا. وغفراً للذنب الذي أنقض الظهر وعنى، وقبولاً لنفوسنا إذ عرضناها رحمة منك وتفضلاً ومناً. وحاشى كرمك أن نؤوب بالخيبة مما رجوناه وأملنا، وأنت أرحم الراحمين. وعن الشيخ عبد الواحد بن زيد قدس سره قال بينما نحن ذات يوم في مجلسنا هذا قد تهيأنا للخروج إلى الغزو قد أمرت أصحابي بقراءة آيتين فقرأ رجل في مجلسنا ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ إذ قام غلام في مقدار خمس عشرة سنة أو نحو ذلك وقد مات أبوه وورثه مالاً كثيراً فقال يا عبد الواحد بن زيد

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ فقلت: نعم حبيبي، فقال: إني أشهدك أني قد بعت نفسي ومالي بأن لي الجنة فقلت له إن حد السيف أشد من ذلك وأنت صبي، وإني أخاف عليك أن لا تصبر أو تعجز عن ذلك فقال يا عبد الواحد أبايع الله بالجنة ثم أعجز أشهد الله أني قد بايعته، أو كما قال رضي الله عنه قال عبد الواحد فتقاصرت إلينا أنفسنا وقلنا صبي يعقل ونحن لا نعقل فخرج من ماله كله وتصدق به إلا فرسه وسلاحه ونفقته فلما كان يوم الخروج كان أول من طلع علينا فقال السلام عليك يا عبد الواحد، فقلت وعليك السلام ربح البيع إن شاء الله، ثم سرنا وهو معنا يصوم النهار ويقوم الليل ويخدمنا ويخدم دوابنا ويحرسنا إذا نمنا حتى إذا انتهينا إلى دار الروم فبينما نحن كذلك إذا به قد أقبل وهو ينادي واشوقاه إلى العيناء المرضية، فقال أصحابي لعله وسوس هذا الغلام واختلط عقله، فقلت حبيبي وما هذه العيناء المرضية، فقال قد غفوت غفوة فرأيت كأنه قد أتاني آت، فقال لي اذهب إلى العيناء المرضية فهجم بي على روضة فيها بحر من ماء غير آسن وإذا على شاطىء النهر جوار عليهن من الحلل ما لا أقدر أن أصفه، فلما رأينني استبشرن بي، وقلن هذا زوج العيناء المرضية فقلت السلام عليكن: أفيكن العيناء المرضية فقلن لا نحن خدمها وإماؤها امض أمامك فمضيت أمامي، فإذا أنا بنهر من لبن لم يتغير طعمه في روضة فيها من كل زينة فيها جوار لما رأيتهن افتتنت بحسنهن وجمالهن فلما رأينني استبشرن، وقلن والله هذا زوج العيناء المرضية، فقلت: السلام عليكن أفيكن العيناء المرضية فقلن وعليك السلام يا ولي الله نحن خدمها وإماؤها فتقدم أمامك، فتقدمت فإذا أنا بنهر من خمر وعلى شط الوادي جوار أنسينني من خلفت، فقلت السلام عليكن أفيكن العيناء المرضية؟ قلن: لا نحن خدمها وإماؤها امضِ أمامك فمضيت فإذا أنا بنهر آخر من عسل مصفى أمامي، فوصلت إلى خيمة من درة بيضاء وعلى باب الخيمة جارية عليها من الحلي والحلل ما لا أقدر أن أصفه، فلما رأتني استبشرت بي ونادت من الخيمة أيتها العيناء المرضية هذا بعلك قد قدم، قال: فدنوت من الخيمة ودخلت فإذا هي قاعدة على سرير من ذهب مكلل بالدر والياقوت، فلما رأيتها افتتنت بها وهي تقول مرحباً بك يا ولي الله قد دنا لك القدوم علينا، فذهبت لأعانقها، فقالت: مهلاً فإنه لم يأنِ لك أن تعانقني: لأن فيك روح الحياة وأنت تفطر الليلة عندنا إن شاء الله تعالى فانتبهت يا عبد الواحد ولا صبر لي عنها، قال عبد الواحد فما انقطع كلامنا حتى ارتفعت لنا سرية من العدو فحمل الغلام فعددت تسعة من العدو قتلهم وكان هو العاشر فمررت به وهو يتشحط في دمه وهو يضحك ملء فيه حتى فارق الدنيا ولله در القائل:

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها — يمسي ويصبح مغروراً وغرارا
هلا تركت من الدنيا معانقة — حتى تعانق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها — فينبغي لك أن لا تأمن النارا

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿التائبون﴾ قال الزجاج: هو مبتدأ خبره مضمر. والمعنى التائبون إلى آخر الآية من أهل الجنة كالمجاهدين فيما قبل هذه الآية فيكون الوعد بالجنة حاصلاً للمجاهدين وغيرهم من

المؤمنين، وإن لم يجاهدوا إذا كانوا غير معاندين ولا قاصدين لترك الجهاد والمراد التائبون عن الشرك والنفاق وكل معصية صغيرة كانت أو كبيرة، وأصل التوبة: الرجوع فإذا وصف بها العبد يراد بها الرجوع من العقوبة إلى المغفرة والرحمة وهي واجبة على الفور ويتقدمها معرفة الذنب المرجوع عنه أنه ذنب وعلامة قبولها أربعة أشياء، أن ينقطع عن الفاسقين، ويتصل بالصالحين بالتردد إلى مجالسهم الشريفة أينما كانوا، وأن يقبل على جميع الطاعات إذ الرجوع إذا صح من القلب ترى الأعضاء تنقاد لما خلقت له كالشجرة إذا صلح أصلها أثمر فرعها وأن يذهب عنه فرح الدنيا إذ المقبل على الله لا يفرح بشيء مما سواه، وكان عليه السلام متواصل الأحزان دائم الفكر. وأن يرى نفسه فارغاً عما ضمن الله له يعني الرزق مشتغلاً بما أمر الله تعالى قال الله تعالى: «يا ابن آدم خلقتك من تراب ثم من نطفة ولم يعيني خلقك من العدم أفيعييني رغيف أسوقه لك في حين وجدوك» فإذا وجدت هذه العلامات وجب على الناس أن يحبوه فإن الله قد أحبه ويدعوا له أن يثبته الله على التوبة ولا يعيروه بذنوبه ويجالسوه ويكرموه وليحذر التائب من نقض العهد والرجوع إلى المعصية [يحيى بن معاذ كفت يك كناه بعد از توبه قبيحترست ازهفتادكناه پيش ازتوبه].

قال القشيري قدس سره: التائبون أصناف فمن راجع يرجع عن زلته إلى طاعته، ومن راجع يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه، ومن راجع يرجع عن الإحسان بنفسه وأبناء جنسه إلى الاستغراق بحقائق ربه، ﴿العابدون﴾ الذين عبدوا الله تعالى مخلصين له:

عبادت باخلاص نيت نكوست وكرنه چه آيد ز بى مغز پوست

والعبادة عبارة عن الإتيان بفعل يشعر بتعظيم الله تعالى [كويند امام أعظم رحمه الله بيست سال بوضوء شب نماز روز كزارد وهركز پهلو برزمين ننهاد وجامه خواب نداشت وسر برهنه نشست وپاى دراز نكرد] وفي الحديث: «إن أبغض الخلق إلى الله الصحيح الفارغ».

وقال القشيري قدس سره ﴿العابدون﴾ الخاضعون لله بكل وجه الذين لا يسترقهم كرائم الدنيا ولا يستعبدهم عظائم العقبى فلا يكون العبد عبد الله على الحقيقة إلا بعد تجرده عن كل حادث ﴿الحامدون﴾ أي المثنون عليه بآلائه الشاكرون له على نعمائه المادحون له بصفاته وأسمائه وعمم بعضهم الحمد فأوجبه على النعم الدينية والدنيوية وكذا على الشدائد والمصائب في الدنيا في أهل أو نفس أو مال لأنها نعم بالحقيقة بدليل أنها تعرض العبد لمثوبات جزيلة حتى ما يقاسيه الأطفال عند الموت من الكرب الشديد ترجع فائدته إلى الولي الصابر وقد صح أن رسول الله ﷺ قال: «الحمد لله على ما ساء وسرّ» كما في «منهاج العابدين». ومما ينبغي أن يعلم أن التوفيق للتوحيد نعمة عظيمة من الله تعالى فليقل المؤمن دائماً الحمد لله على دين الإسلام وتوفيق الإيمان.

قال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] يعني بالشاكرين على التوحيد فإذا عرفت هذا فلا يغرنك قول من قال إن نفس الدين وكذا الإسلام والإيمان ليس بنعمة فكيف يحمد عليه.

وقال القشيري ﴿الحامدون﴾ هم الذين لا اعتراض لهم على ما يحصل بقدرته ولا انقباض لهم عما يجب من طاعته ﴿السائحون﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما كل ما ذكر في القرآن من السياحة فهو الصيام وفي الحديث: «سياحة أمتي الصوم» قال الشاعر:

تراه يصلي ليله ونهاره يظل كثير الذكر لله سائحا

أي صائماً وشبه الصوم بالسياحة لأنه عائق عن الشهوات كالسائح لا يتوسع في استيفاء ما يميل إليه طبعه لأن الصوم رياضة نفسانية يتوسل بها إلى العثور على خفايا الملك والملكوت كما أن السائح يصل إلى ما لم يعرفه ولم يره.

وقال بعض العرفاء النكتة أن السياح يسيح في الأرض فأي بلد استطاب المقام فيه أقام وإذا لم يستطب خرج منه إلى بلد آخر فكذا الصائم إذا دخل الجنة يقال له ادخل من أي باب شئت وأي غرفة وقصر استطبتها فانزلها فيسيح في قصور الجنة ومنازلها أين ما شاء كالسياح في الأرض.

وقال الحسن: ﴿السائحون﴾ الذين صاموا عن الحلال وأمسكوا عن الحرام وههنا والله أقوام رأيناهم يصومون عن الحلال ولا يمسكون عن الحرام والله ساخط عليهم.

وقال القشيري هم الصائمون عن شهود غير الله المكتفون من الله بالله.

وقال في «التأويلات النجمية»: ﴿السائحون﴾ السائرون إلى الله بترك ما شغلهم عنه.

وقال عطاء المراد الغزاة في سبيل الله يقطعون المنازل والمراحل إلى أن يصلوا إلى ديار الكفرة فيجاهدوهم.

وقال عكرمة: هم طلاب العلم ينتقلون من بلد إلى بلد. ورحل جابر رضي الله عنه من المدينة إلى مصر لحديث واحد ولذا لا يعد أحد كاملاً إلا بعد رحلته ولا يصل إلى مقصوده إلا بعد هجرته وقالوا كل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع ويكشف عن قلبه القناع فهو في هذا الشأن سبط لا أب له دعيّ لا نسب له ﴿الراكعون الساجدون﴾ في الصلاة وإنما كنى بالركوع والسجود عن الصلاة لكون جهة العبادة أظهر فيهما بالنسبة إلى باقي أركان الصلاة فإن هيئتي القيام والقعود قد يؤتى بهما على وفق العادة بخلاف الركوع والسجود فإنهما ليسا من الهيئات الطبيعية الموافقة للعادة فلا يؤتى بهما إلا على سبيل العبادة فكان لهما مزيد اختصاص بالصلاة.

وقال القشيري: ﴿الراكعون﴾ الخاضعون لله في جميع الأحوال بخمودهم تحت سلطان التجلي وفي الخبر: «إن الله إذا تجلى لشيء خضع له» و﴿الساجدون﴾ بنفوسهم في الظاهر على بساط العبودية وبقلوبهم في الباطن عند شهود الربوبية.

وقال في «التأويلات النجمية»: ﴿الراكعون﴾ الراجعون عن مقام القيام بوجودهم إلى القيام بموجودهم ﴿الساجدون﴾ الساقطون عن هم على عتبة الوحدة بلادهم.

چون تجلى كرد اوصاف قديم ... پس بسوزد وصف حادث را كليم

﴿الآمرون بالمعروف﴾ أي: بالإيمان والطاعة ﴿والناهون عن المنكر﴾ أي: عن الشرك والمعاصي.

وقال الحدادي: المعروف هو السنة والمنكر هو البدعة.

قال ابن ملك: عند قوله عليه السلام: «وكل بدعة ضلالة» يعني كل خصلة جديدة أتي بها ولم يفعلها النبي عليه السلام ضلالة لأن الضلالة ترك الطريق المستقيم والذهاب إلى غيره والطريق المستقيم الشريعة خص من هذا الحكم البدعة الحسنة كما قال عمر رضي الله عنه في التراويح نعمت البدعة. قال العلماء البدع خمس واجبة كنظم الدلائل لرد شبه الملاحدة وغيرهم. ومندوبة كتصنيف الكتب وبناء المدارس ونحوها. ومباحة كالبسط في ألوان الأطعمة

وغيرها. ومكروهة. وحرام وهما ظاهران انتهى.

يقول الفقير: البناء إما لدرس العلم الظاهر وإما لتعليم علم الباطن فإذا كان بناء المدارس من البدعة الحسنة فليكن بناء الخانقاه منها أيضاً بل بناء الخانقاه أشرف لشرف معلومه فمن قال إنه ليس في مكة والمدينة خانقاه فما هذه الخوانق في البلاد الرومية وغيرها ونهي عن الخانقاه والتردد إليه لجمعية الذكر وإصلاح الحال بالخلوة والرياضة فإنما قاله من جهله وحماقته ونهي عن ضلالته وشقاوته فهو ليس بآمر بالمعروف ولا ناه عن المنكر بل المنكر بالعكس كما لا يخفى ولقد كثر أمثال هذا المنكر الطاعن في هذا الزمان مع أنهم لا حجة لهم ولا برهان والله المستعان.

وقال القشيري: الآمرون والناهون هم الذين يدعون الخلق إلى الله تعالى ويحذرونهم عن غير الله يتواصون بالإقبال على الله وترك الاشتغال بغير الله ثم إنه إنما تخللت الواو الجامعة بين الآمرون والناهون للدلالة على أنهما في حكم خصلة واحدة لا يعتبر أحدهما بدون الآخر وعلى هذا فثامن الأوصاف هو قوله: ﴿**والحافظون**﴾ وواوه واو الثمانية وقيل: الصفة الثامنة هي قوله: ﴿**والناهون**﴾ وواوه واو الثمانية وذلك أن العرب إذا ذكروا أسماء العدد سبيل التعداد يقولون: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثم يدخلون الواو على الثمانية ويقولون وثمانية تسعة عشرة للإيذان بأن الأعداد قد تمت بالسابع من حيث إن السبعة هو العدد التام وأن الثامن ابتداء تعداد آخر.

قال القرطبي: هي لغة فصيحة لبعض العرب وعليها قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم: ٥] وقوله: ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ [الكهف: ٢٢] وقوله: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] لأن أبواب الجنة ثمانية وإليه ذهب الحريري في «درة الغواص» وغيره من العلماء.

وقال النسفي في تفسيره المسمى «بالتيسير» لا أصل لهذا القول عند المحققين فليس في هذا العدد ما يوجب ذلك والاستعمال على الاطراد كذلك قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر: ٢٣] بغير واو وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم: ١٠] الآية بغير واو وفي الثامنة ﴿**والحافظون لحدود الله**﴾ أي: فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع عملاً وحملاً للناس عليه.

وقال القشيري: هم الواقفون حيث وقفهم الله الذين يتحركون إذا حركهم ويسكنون إذا سكنهم ويحفظون مع الله أنفاسهم.

ثم إنه لما كانت التكاليف الشرعية غير منحصرة فيما ذكر بل لها أصناف وأقسام كثيرة لا يمكن تفصيلها وتبيينها إلا في مجلدات.

ذكر الله تعالى سائر أقسام التكاليف على سبيل الإجمال بقوله: ﴿**والحافظون لحدود الله**﴾ والفقهاء ظنوا أن الذي ذكروه في بيان التكاليف واف وليس كذلك لأن الأفعال المكلفين قسمان أفعال الجوارح وأفعال القلوب وكتب الفقه مشتملة على شرح أقسام التكاليف المتعلقة بأعمال الجوارح. وأما التكاليف المتعلقة بأعمال القلوب فليس في كتبهم منها إلا قليل نادر وبعض مباحثها مدون في الكتب الكلامية والبعض الآخر منها فصله الإمام الغزالي وأمثاله في علم الأخلاق ومجموعها مندرج في قوله تعالى: ﴿**والحافظون لحدود الله**﴾ [شيخ أحمد غزالي ببرادرش امام محمد غزالي كفت جملهء علم ترابد وكلمه آورده ام التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله].

قال الحدادي: وهذه الصفة من أتم ما يكون من المبالغة في وصف العباد بطاعة الله والقيام بأوامره والانتهاء عن زواجره لأن الله تعالى بين حدوده في الأمر والنهي وفيما ندب إليه فرغب إليه أو خير فيه وبين ما هو الأولى في مجرى موافقة الله تعالى فإذا قام العبد بفرائض الله تعالى وانتهى إلى ما أراد الله منه كان من الحافظين لحدود الله كما روي عن خلف بن أيوب أنه أمر امرأته أن تمسك عن إرضاع ولده في بعض الليل وقال قد تمت له السنتان فقيل له لو تركتها حتى ترضعه هذه الليلة قال فأين قوله تعالى: ﴿**والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين**﴾ يعني: هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل. ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك وأن المؤمن الكامل كان كذلك وحذف المبشر به للتعظيم كأنه قيل وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام وأعلى ذلك رؤية الله تعالى في دار السلام.

واعلم أن كل عمل له جزاء مخصوص يناسبه كالصوم مثلاً جزاؤه الأكل والشرب كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤] وقس على هذا باقي الأعمال واجتهد في تحصيل حسن الحال وفقنا الله وإياكم إلى أسباب مرضاته.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿**ما كان للنبي والذين آمنوا**﴾ بالله وحده أي ما صح لهم وما استقام في حكم الله تعالى وحكمته ﴿**أن يستغفروا**﴾ أي: يطلبوا المغفرة ﴿**للمشركين**﴾ به سبحانه. ﴿**ولو كانوا**﴾ أي: المشركون ﴿**أولي قربى**﴾ أي: ذوي قرابة لهم ﴿**من بعد ما تبين لهم**﴾ أي: ظهر للنبي عليه السلام والمؤمنين ﴿**أنهم**﴾ أي: المشركين ﴿**أصحاب الجحيم**﴾ أي: أهل النار بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحي بأنهم يموتون على ذلك. روي أنه لما مرض أبو طالب وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين وبعد مضي عشر سنين من بعثته عليه السلام وبلغ قريشاً اشتداد مرضه قال بعضهم لبعض إن حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا فإنا والله ما نأمن أن يسلبوا أمرنا وفي رواية إنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شيء، أي قتل محمد فتعيرنا العرب ويقولون تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه فمشى إليه أشرافهم منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأمية بن خلف وأبو سفيان فإنه أسلم ليلة الفتح فأرسلوا رجلاً فاستأذن لهم على أبي طالب فقال هؤلاء أشراف قومك يستأذنون عليك قال أدخلهم فدخلوا عليه فقالوا يا أبا طالب أنت سيدنا وكبيرنا وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذله منا وخذلنا منه ليدعنا وديننا وندعه ودينه فبعث إليه عليه السلام أبو طالب فجاء ولما دخل عليه السلام على أبي طالب وكان بين أبي طالب وبين القوم فرجة تسع الجالس فخشي أبو جهل أن يجلس النبي عليه السلام في تلك الفرجة فيكون أرقى منه وثب لعنه الله فجلس فيها فلم يجد عليه السلام مجلساً قريباً إلى أبي طالب فجلس عند الباب فقال أبو طالب لرسول الله عليه السلام يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك أعطهم ما سألوك فقد أنصفوك سألوا أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك، فقال عليه السلام: «أرأيتكم إن أعطيتكم ما سألتم فهل تعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب ويدين لكم بها العجم»؟ أي يطيع ويخضع فقال أبو جهل نعطيكها وعشراً

معها فما هي قال: «تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه» فصفقوا بأيديهم ثم قالوا سلنا يا محمد غير هذه الكلمة فقال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» ثم قال بعضهم لبعض: والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون فامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ثم تفرقوا، وعند ذلك قال عليه السلام: «أي عم فأنت فقلها أشهد لك بها عند الله» فقال: والله يا ابن أخي لولا مخافة العار عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني إنما قلتها خوفاً من الموت لقلتها فلما أبى عن كلمة التوحيد قال عليه السلام: «لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه» وذلك لغلبة همته على مغفرته لأنه كان يحفظه عليه السلام وينصره ولما مات نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب حتى أن بعض سفهاء قريش نثر على رأس النبي عليه السلام التراب فدخل بيته والتراب على رأسه فقام إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكي ورسول الله يقول لها: «لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك» فبقي عليه السلام يستغفر لأبي طالب من ذلك الوقت إلى وقت نزول هذه الآية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ سأل عن أبويه أيهما أقرب به عهداً فقيل له أمك آمنة فقال: «هل تعلمون موضع قبرها لعلي آتيه فأستغفر لها فإن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبويه» فقال المسلمون: ونحن أيضاً نستغفر الله لآبائنا وأهلينا فانطلق رسول الله، وذلك في سنة الفتح فانتهى إلى قبر أمه في الأبواء منزل بين مكة والمدينة وذلك أنه عليه السلام ولد بعد أن توفي أبوه عبد الله ودفن بالمدينة لما أنه قد خرج إليها لحاجة فأدركه الموت هناك وكان عليه السلام مع أمه آمنة فلما بلغ ست سنين خرجت آمنة إلى أخوالها بالمدينة تزورهم ثم رجعت به إلى مكة فلما كانت بالأبواء توفيت هناك وقيل دفنت بالحجون ويمكن الجمع بينهما بأنها دفنت أولاً بالأبواء ثم نقلت من ذلك المحل إلى مكة كما في «السيرة الحلبية» فلما جلس عليه السلام عند قبر أمه ناجى طويلاً ثم بكى بكاء شديداً فبكينا لبكائه فقلنا يا رسول الله ما الذي أبكاك قال: «استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي فاستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي وأنزل عليّ الآيتين» آية ﴿ما كان للنبي﴾ وآية ﴿وما كان استغفار إبراهيم﴾ قال بعضهم: لا مانع من تكرر سبب النزول فيجوز أن تنزل الآيتان لما استغفر لأمه ولما استغفر لعمه.

يقول الفقير سامحه القدير: فيه بعد لأنه إن سبق النزول لاستغفار أمه فكيف يبقى النبي عليه السلام على استغفار عمه وقد ثبت أن هذه السورة الكريمة من آخر القرآن نزولاً وكذا العكس ومن ادعى الفرق بين الاستغفارين فعليه البيان.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾ بقوله ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ [الشعراء: ٨٦] أي: بأن توفقه للإيمان وتهديه إليه كما يلوح به تعليله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] ﴿إلا عن موعدة﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أي لم يكن استغفاره لأبيه آزر ناشئاً عن شيء من الأشياء إلا عن موعدة. ﴿وعدها﴾ إبراهيم ﴿إياه﴾ أي: أباه بقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] وقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧] بناء على رجاء إيمانه لعدم تبين حقيقة أمره. ﴿فلما

تبين له﴾ أي: لإبراهيم بأن أوحي إليه أنه مصر على الكفر غير مؤمن أبداً وقيل بأن مات على الكفر والأول هو الأنسب بقوله ﴿أنه عدو لله﴾ فإن وصفه بالعداوة مما يأباه حالة الموت.

﴿تبرأ منه﴾ أي: تنزه عن الاستغفار له وتجانب كل التجانب. ﴿إن إبراهيم لأواه﴾ لكثير التأوه وهو أن يقول الرجل عند التضجر والتوجع آه من كذا أو يقول آوه بالمد والتشديد وفتح الواو وسكون الهاء لتطويل الصوت بالشكاية والأواه الخاشع المتضرع، وقيل: إنه كلما ذكر تقصيراً أو ذكر له شيء من شدائد الآخرة كان يتأوه إشفاقاً واستعظاماً كما قال كعب الأواه هو الذي إذا ذكرت عنده النار قال: آه وقيل معناه الموقر بلغة الحبشة إلا أن من قال لا يجوز أن يكون في القرآن شيء غير عربي قال هذا موافق للعربية بلغة الحبشة والملائم أنه كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب لأنه ذكر في معرض التعليل لاستغفاره لأبيه المشرك. والمعنى أنه مترحم متعطف ولفرط رحمته ورأفته كان يتعطف لأبيه الكافر. ﴿حليم﴾ صبور على الأذية ولذلك كان يحلم على أبيه ويتحمل أذاه ويستغفر له مع صعوبة خلقه وغلظ قلبه وقوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] ثم إن رسول الله ﷺ لما استغفر لعمه وهو مشرك كما استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه المشرك ثم نهي عن الاستغفار للكافر نزلت هذه الآية لبيان عذر من استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع عنه، وهو قوله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وما كان الله ليضل قوماً﴾ أي: ليس من عادته أن يصفهم بالضلال عن طريق الحق ويجري عليهم أحكامه ﴿بعد إذ هداهم﴾ للإسلام ﴿حتى يبين لهم﴾ بالوحي صريحاً أو دلالة.

﴿ما يتقون﴾ أي: يجب اتقاؤه من محظورات الدين فلا ينزجروا عما نهوا عنه وأما قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالاً ولا يؤاخذون به. وفيه دليل على أن العاقل غير مكلف بما لا يستبد بمعرفته العقل. ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ أي: إنه تعالى عليم بجميع الأشياء التي من جملتها حاجتهم إلى بيان قبح ما لا يستقل العقل معرفته فبين لهم ذلك كما فعل ههنا.

﴿إن الله له ملك السموات والأرض﴾ من غير شريك له فيه. قال جلال الدين الرومي قدس سره:

واحد اندر ملك واورا يارنى بندكانش را جز اوسالارنى
نيست خلقش را دكركس مالكى شركتش دعوى كند جزهالكى

﴿يحيي ويميت﴾ أي: يحيي الأموات ويميت الأحياء، أي يوجد الحياة والموت في الأرض والأجساد وقلوب الأمم. ﴿وما لكم من دون الله﴾ أي: حال كونكم متجاوزين ولايته ونصرته. ﴿من ولي ولا نصير﴾ لما منعهم من الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وضمن ذلك التبري منهم رأساً بين لهم أن الله مالك كل موجود ومتولي أمره والغالب عليه ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه تعالى ليتوجهوا إليه بشراشرهم ويتبرؤوا مما عداه حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه.

بقى ههنا أن الجم الغفير من العلماء ذهبوا إلى أن النبي عليه السلام مر على عقبة

الحجون في حجة الوداع فسأل الله أن يحيي أمه فأحياها فآمنت به وردها الله تعالى أي روحها.

قال في «إنسان العيون»: لا يقال على ثبوت هذا الخبر وصحته التي صرح بها غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا إلى من طعن فيه كيف ينفع الإيمان بعد الموت ولا يعترض لأنا نقول هذا من جملة خصوصياته ﷺ.

وفي كلام القرطبي قد أحيا الله تعالى على يده جماعة من الموتى، فإذا ثبت ذلك فما يمنع إيمان أبويه بعد إحيائهما ويكون زيادة في كرامته وفضيلته ولو لم يكن إحياء أبويه نافعاً لإيمانهما وتصديقهما لما أحييا، كما أن رد الشمس لو لم يكن نافعاً في بقاء الوقت لم ترد والله أعلم انتهى.

يقول الفقير: قد أشبعنا الكلام في إيمان أبوي النبي عليه السلام، وكذا إيمان عمه أبي طالب وجده عبد المطلب بعد الإحياء في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩] فارجع إليه. وجاء أن عبد المطلب رفض في آخر عمره عبادة الأصنام ووحد الله وتؤثر عنه سنين جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها منها الوفاء بالنذر والمنع من نكاح المحارم وقطع يد السارق والنهي عن قتل الموؤودة وتحريم الخمر والزنى وأن لا يطوف بالبيت عريان كذا في كلام سبط ابن الجوزي.

وقال في «أبكار الأفكار في مشكل الأخبار»: إن عبد المطلب قد كان يتعبد في كثير من أحواله بشريعة إبراهيم عليه السلام ويتمسك بسنن إسماعيل عليه السلام ولم ينكر نبوة محمد عليه السلام إذ لم يكن قد بعث في أيامه ولا يقطع بكفر من مات في زمن الفترة فلم يكن حكمه حكم الكفار المشركين الذي شهد النبي عليه السلام بأنهم فحم في جهنم انتهى.

قال في «السيرة الحلبية»: منع الاستغفار لأمه عليه السلام إنما يأتي على القول بأن من بدل دينه أو غيره أو عبد الأصنام من أهل الفترة معذب وهو قول ضعيف مبني على وجوب الإيمان والتوحيد بالعقل. والذي عليه أكثر أهل السنة والجماعة أن لا يجب ذلك إلا بإرسال الرسل ومن المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل عليه السلام وأن إسماعيل انتهت رسالته بموته كبقية الرسل لأن ثبوت الرسالة بعد الموت من خصائص نبينا ﷺ وأن أهل الفترة من العرب لا تعذيب عليهم وإن غيروا أو بدلوا أو عبدوا الأصنام والأحاديث الواردة بتعذيب من ذكر أو من بدل أو غير أو عبد الأصنام مؤولة أو خرجت مخرج الزجر للحمل على الإسلام. ثم رأيت بعضهم رجح أن التكليف بوجوب الإيمان بالله تعالى وتوحيده أي بعد عبادة الأصنام يكفي فيه وجود رسول دعا إلى ذلك وإن لم يكن الرسول مرسلاً لذلك الشخص بأن لم يدرك زمنه حيث بلغه أنه دعا إلى ذلك أو أمكنه علم ذلك وأن التكليف بغير ذلك من الفروع لا بد فيه من أن يكون ذلك الرسول مرسلاً لذلك الشخص وقد بلغته دعوته وعلى هذا فمن لم يدرك زمن نبينا ﷺ ولا زمن من قبله من الرسل معذب على الإشراك بالله بعبادته الأصنام لأنه على فرض أن لا تبلغه دعوة أحد من الرسل السابقين إلى الإيمان بالله وتوحيده ولكنه كان متمكناً من علم ذلك فهو تعذيب بعد بعث الرسل لا قبله وحينئذٍ لا يشكل ما أخرجه الطبراني في «الأوسط» بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بعث الله نبياً إلى قوم، ثم قبضه إلا جعل بعده فترة يملأ من تلك الفترة جهنم» ولعل المراد المبالغة في الكثرة وإلا فقد أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه عن النبي عليه السلام

أنه قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فيرتد بعضها إلى بعض وتقول قط قط» أي: حسبي بعزتك وكرمك وأما بالنسبة لغير الإيمان والتوحيد من الفروع فلا تعذيب على تلك الفروع لعدم بعثة رسول إليهم فأهل الفترة وإن كانوا مقرين بالله إلا أنهم أشركوا بعبادة الأصنام، فقد حكى الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ووجه التفرقة بين الإيمان والتوحيد وغير ذلك أن الشرائع بالنسبة للإيمان بالله والتوحيد كالشريعة الواحدة لاتفاق جميع الشرائع عليه هذا وقد جاء أنهم أي أهل الفترة يمتحنون يوم القيامة فقد أخرج البزاز عن ثوبان أن النبي عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم فيسألهم ربهم فيقولون ربنا لم ترسل إلينا رسولاً ولم يأتنا لك أمر ولو أرسلت إلينا رسولاً لكنا أطوع عبادك فيقول لهم ربهم أرأيتم إن أمرتكم بأمر أن تطيعوني فيقولون نعم فيأخذ على ذلك مواثيقهم فيرسل إليهم أن ادخلوا النار فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا ورجعوا فقالوا ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها فيقول ادخلوها داخرين» فقال النبي عليه السلام: «لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً» قال الحافظ ابن حجر: فالظن بآله ﷺ، يعني: الذين ماتوا قبل البعثة أنهم يطيعون عند الامتحان إكراماً للنبي عليه السلام لتقر عينه ونرجو أن يدخل عبد المطلب الجنة في جماعة من يدخلها طائعاً إلا أبا طالب فإنه أدرك البعثة ولم يؤمن به بعد أن طلب منه الإيمان انتهى كلامه ولعله لم يذهب إلى مسألة الإحياء ولذا قال ما قال في حق أبي طالب:

نا اميدم مكن از سابقهٔ لطف أزل
توچه داني كه پس پرده كه خوبست وكه زشت

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

﴿لقد تاب الله على النبي﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو العفو عن إذنه للمنافقين في التخلف عنه وهذا الإذن وإن صدر عنه عليه السلام وحده إلا أنه أسند إلى الكل لأن فعل البعض يسند إلى الكل لوقوعه فيما بينهم كما يقال بنو فلان قتلوا زيداً وهذا الذنب من قبيل الزلة لأن الأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر عندنا لأن ركوب الذنوب مما يسقط حشمة من يرتكبها وتعظيمه من قلوب المؤمنين والأنبياء يجب أن يكونوا مهابين موقرين، ولذا عصموا من الأمراض المنفرة كالجذام وغيره فليس معنى الزلة أنهم زلوا عن الحق إلى الباطل ولكن معناها أنهم زلوا عن الأفضل إلى الفاضل وأنهم يعاتبون به لجلال قدرهم ومكانتهم من الله تعالى كما قال أبو سعيد الخراز قدس سره: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقال السلمي: ذكر توبة النبي عليه السلام لتكون مقدمة لتوبة الأمة وتوبة التابع إنما تقبل التصحيح بالمقدمة.

وقال في «التأويلات النجمية»: التوبة فضل من الله ورحمة مخصوصة به لينعم بذلك على عباده فكل نعمة وفضل يوصله الله إلى عباده يكون عبوره على ولاية النبوة فمنها يفيض على

المهاجرين والأنصار وجميع الأمة، فلهذا قال: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ يدل عليه قوله عليه السلام: «ما صب الله في صدري شيئاً إلا وصببته في صدر أبي بكر رضي الله عنه» والأنصار جمع نصير كشريف وأشراف أو جمع ناصر كصاحب وأصحاب وهم عبارة عن الصحابة الذين آووا رسول الله ﷺ من أهل المدينة، وهو اسم إسلامي سمى الله تعالى به الأوس والخزرج ولم يكونوا يدعون بالأنصار قبل نصرتهم لسيدنا رسول الله ﷺ ولا قبل نزول القرآن بذلك وحبهم واجب وهو علامة الإيمان، وفي الحديث: «آية المؤمن حب الأنصار، وحب الأنصار آية الإيمان، وآية النفاق بغض الأنصار» كذا في «فتح القريب» والمهاجرون أفضل من الأنصار، كما يدل عليه قوله عليه السلام: «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار» قال ابن الملك المراد منه إكرام الأنصار فإنه لا رتبة بعد الهجرة أعلى من نصرة الدين انتهى. وباقي الكلام سبق عند قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآية فارجع إلى تفسيرها ﴿الذين اتبعوه﴾ أي: النبي ﷺ ولم يتخلفوا عنه ولم يخلوا بأمر من أوامره. ﴿في ساعة العسرة﴾ أي: وهو الزمان الذي وقع فيه غزوة تبوك فإنه قد أصابتهم فيها مشقة عظيمة من شدة الحر وقلة المركب حتى كانت العشرة تعتقب على بعير واحد ومن قلة الزاد، حتى قيل إن الرجلين كانا يقتسمان تمرة وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء المتغير ومن قلة الماء حتى شربوا الفظ، وهو ماء الكرش، عن عمر رضي الله عنه خرجنا في قيظ شديد وأصابنا فيه عطش شديد حتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه.

قال الكاشفي: [وبرطوبات أجواف وامعاى آن دهن خويش راتر ميساختند] ولذلك سميت غزوة العسرة وسمي من جاهد فيها بجيش العسرة وهذه صفة مدح لأصحاب النبي عليه السلام باتباعهم إياه في وقت الشدة ومع ذلك فقد كانوا محتاجين إلى التوبة فما ظنك بغيرهم ممن لم يقاس ما قاسوه ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي: يميل قلوب طائفة منهم عن الثبات مع رسول الله ﷺ بأن هموا أن ينصرفوا في غير وقت الانصراف من غير أن يؤذن لهم في ذلك لشدائد أصابتهم في تلك الغزوة لكنهم صبروا واحتسبوا وندموا على ما ظهر على قلوبهم فتاب الله عليهم وفي كاد ضمير الشأن وجملة يزيغ في محل النصب على أنها خبر كاد وخبر كاد إذا كان جملة لا بد أن يكون فيه ضمير يعود على اسمها إلا إذا كان اسمها ضمير الشان فحينئذٍ لا يجب أن يكون فيه ضمير يعود إلى اسمها. ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: تجاوز عن ذنبهم الذي فرط منهم وهو تكرير للتأكيد وتنبيه على أنه يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة. قال الحافظ:

مكن زغصه شكايت كه در طريق طلب ... براحتى نرسيد آنكه زحمتى نكشيد

﴿إنه﴾ أي: الله تعالى ﴿بهم رؤوف رحيم﴾ استئناف تعليل فإن صفة الرأفة والرحمة من دواعي التوبة والعفو ويجوز كون الأول عبارة عن إزالة الضرر، والثاني عن إيصال المنفعة وأن يكون أحدهما للسوابق والآخر للواحق ومن كمال رحمته إرسال حبيبه وإظهار معجزاته. روي أنهم شكوا للنبي عليه السلام عسرة الماء في غزوة تبوك فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله إن الله تعالى عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا قال: «أتحب ذلك» قال نعم فرفع عليه السلام يديه فلم يرجعهما حتى أرسل الله سحابة فمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا ما يحتاجون إليه وتلك السحابة لم تتجاوز العسكر. وروي أنهم نزلوا يوماً في غزوة تبوك على

غير ماء بفلاة من الأرض وقد كادت عتاق الخيل والركاب تقع عطشاً فدعا عليه السلام وقال: «أين صاحب الميضاة» قيل: هو ذا يا رسول الله قال: «جئني بميضاتك» فجاء بها وفيها شيء من ماء فوضع أصابعه الشريفة عليها فنبع الماء بين أصابعه العشر وأقبل الناس واستقوا وفاض الماء حتى رووا ورووا خيلهم وركابهم وكان في العسكر من الخيل اثنا عشر ألف فرس ومن الإبل خمسة عشر ألف بعير والناس ثلاثون ألفاً وفي رواية سبعون. قال السلطان سليم الأول: من الخواقين العثمانية:

كوثر نمى زچشمهٔ احسان رحمتش   آب حيات قطرهٔ ازچام مصطفاست

روى أنهم لما أصابهم في غزوة تبوك مجاعة قالوا يا رسول الله لو أذنت لنا نحرنا نواضحنا وادّهنا فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله إن فعلت فني الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعلها في ذلك فقال عليه السلام: «نعم» فدعا بنطع فبسطه ثم دعاهم بفضل أزوادهم فجعل الرجل يأتي بكف من ذرة ويجيء الآخر بكف من تمر ويجيء الآخر بميرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير فدعا عليه السلام بالبركة ثم قال: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بها عبد غير شاك إلا وقاه الله النار». قال الشيخ المغربي قدس سره:

كل توحيد نرويدززمينى كه درو   خار شرك وحسد وكبر ورياو كين است

والإشارة في الآية: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ أي: نبي الروح بمنزلة النبي يأخذ بإلهام الحق حقائق الدين ويبلغها إلى أمته من القلب والنفس والجوارح والأعضاء. فالمعنى أفاض الله على نبي الروح ومهاجري صفاته الذين هاجروا معه من مكة الروحانية إلى المدينة الجسدانية والأنصار من القلب والنفس وصفاتها وهم ساكنو مدينة الجسد فيوضات الرحمة. ﴿الذين اتبعوا﴾ الروح ساعة رجوعه إلى عالم العلو بالعسرة إذ هم نشؤوا في عالم السفل يعسر عليهم السير إلى عالم العلو من بعد ما كاد يزيغ القلوب فريق من النفس وصفاتها وهواها فإن ميلها طبعاً إلى عالم السفل ثم تاب عليهم بإفاضة الفيض الرباني لتعليهم عن طبعهم أنه بهم رؤوف رحيم ليجعلهم بإكسير الشريعة قابلين للرجوع إلى عالم الحقيقة كذا في «التأويلات النجمية».

﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ أي: وتاب الله على الثلاثة الذين أخر أمرهم ولم يقطع في شأنهم بشيء إلى أن نزل فيهم الوحي وهم كعب بن مالك الشاعر ومرادة بن الربيع العنبري وهلال بن أمية الأنصاري يجمعهم حروف كلمة «مكة» وآخر أسماء آبائهم «عكة». ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض﴾ غاية للتخفيف أي: أخر أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض. ﴿بما رحبت﴾ أي: برحبها وسعتها لإعراض الناس حتى عن المكالمة معهم ولو بالسلام ورده وكانوا يخافون أن يموتوا فلا يصلي النبي عليه السلام ولا المؤمنون على جنازتهم وهو مثل لشدة الحيرة كأنه لا يستقر به قرار ولا تطمئن له دار ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أي: امتلأت قلوبهم بفرط الوحشة والغم بحيث لم يبق فيها ما يسع شيئاً من الراحة والأنس والسرور عبر عن الراحة والسرور بضمير عليهم حيث قيل: ضاقت عليهم تنبيهاً على أن انتفاء الراحة والسرور بمنزلة انتفاء ذواتهم. ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي: علموا وأيقنوا أن لا ملاذ ولا خلاص من سخطه تعالى إلا إلى استغفاره فظنوا بمعنى علموا لأنه تعالى ذكر هذا الوصف في معرض

المدح والثناء وذا لا يكون إلا مع علمهم بذلك. وقوله أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدر ولا مع ما في حيزها خبر ان ومن الله خبر لا وإن مع ما في حيزها ساد مسد مفعولي ظنوا وإلا استثناء من العام المحذوف أي وعلموا أن الشان لا التجاء من سخط الله إلى أحد إلا إليه.

قال بعض المتقدمين من تظاهرت عليه النعم فليكثر الحمد لله ومن كثرت همومه فليكثر الاستغفار.

واعلم أن من توغل في بحر التوحيد بحيث لا يرى في الوجود إلا الله لم يلتجىء إلا إلى الله فالفرار ليس إلا إليه على كل حال وأما المظاهر أو المحال فليست إلا أسباباً. وفي «المثنوي»:

كرچه سايه عكس شخص است اي پسر   هيچ از سايه نتاني خوردبر
هين زسايه شخص را مى كن طلب   درمسبب روكذر كن از سبب

﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: وفقهم للتوبة ﴿ليتوبوا﴾ ليرجعوا عن المعصية.

واعلم أن ههنا أمور ثلاثة: التوفيق للتوبة، وهو ما دل عليه قوله ثم ﴿تاب﴾ ونفس التوبة وهو ما دل عليه قوله: ﴿ليتوبوا﴾ وقبول الله تعالى إياها وهو ما دل عليه قوله: ﴿وعلى الثلاثة﴾ وإنما عطف الأمر الأول على الثالث بكلمة ثم لكونه أصل الجميع مقدماً على الأمر الثالث بمرتبتين فتكون كلمة ثم للتراخي الرتبي ويجوز أن يكون المعنى ثم تاب عليهم أي أنزل قبول توبتهم ليتوبوا أي ليصيروا من جملة التوابين ويعدوا منهم فتكون كلمة ثم على أصل معناها لأن إنزال القبول متفرع على نفس القبول المذكور بقوله وعلى الثلاثة ﴿إن الله هو التواب الرحيم﴾ أي: المبالغ في قبول التوبة لمن تاب وإن عاد في اليوم مائة مرة المتفضل عليهم بفنون الآلاء مع استحقاقهم لأفانين العقاب.

كر لطف تويارى ننمايد زنخست   هم توبه شكسته است وهم پيمان سست
چون توبه باميد پذيرفتن تست   تا تو نپذيرى نشود توبه درست

روي أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ﷺ منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به عليه السلام.

عن الحسن أنه قال بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم فقال يا حائطاه ما خلفني إلا ظلك وانتظار ثمارك اذهب فأنت في سبيل الله ولم يكن لآخر إلا أهله فقال: يا أهلاه ما بطأني ولا خلفني إلا الضن بك فلا جرم والله إني لأكابدنّ المفاوز حتى ألحق برسول الله ﷺ فركب ولحق ولم يكن لآخر إلا نفسه لا أهل ولا مال فقال يا نفسي ما خلفني إلا حب الحياة لك والله لأكابدنّ الشدائد حتى ألحق برسول الله ﷺ فتأبط زاده ولحق به عليه السلام.

وعن أبي ذر الغفاري أن بعيره أبطأه فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً.

راه نزديك ويما ندم سخت دير   سير كشتم زين سوارى سير سير

فقال ﷺ لما رأى سواده: «كن أبا ذر» فقال الناس هو ذاك فقال عليه السلام: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده» ومنهم من بقي ولم يلحق به عليه السلام وهم

الثلاثة وكان كعب شهد بيعة العقبة وهلال ومرارة شهدا بدراً قال كعب لما قفل رسول الله ﷺ جئته وسلمت عليه فرد عليّ كالمغضب بعد ما ذكرني وقال: «يا ليت شعري ما خلف كعباً» فقيل له ما خلفه إلا حسن برديه والنظر في عطفيه قال: «ما أعلم إلا فضلاً وإسلاماً» وقال: «وما خلفك عني ألم تكن قد ابتعت ظهرك» فقلت ما خلفني عنك عذر وإنما تخلفت بمجرد الكسل وقلة الاهتمام فقال عليه السلام: «قم عني حتى يقضي الله فيك» وكذا قال لصاحبيه ونهى عن كلامهم فاجتنبهم الناس ولم يكلمهم أحد من قريب ولا بعيد فأما الرجلان فمكثا في بيوتهما يبكيان وأما كعب فكان يحضر الصلاة مع المسلمين ويطوف في الأسواق فلا يكلمه أحد منهم قال كعب وبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشأم ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدلني على كعب بن مالك فطفق أي جعل الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان إليّ وهو الحارث بن أبي شمر وكان الكتاب ملفوفاً في قطعة من الحرير فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا بضيعة ذل فالحق بنا نواسك فقلت لما قرأته وهذا أيضاً من البلاء فتيممت أي قصدت به التنور فسجرته به أي ألقيته فيه والأنباط قوم يسكنون البطائح بين العراقين قال حتى إذا مضت أربعون ليلة جاءني رسول من رسول الله ﷺ فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبي وهما هلال ومرارة بمثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر فجاءت امرأة هلال رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه فقال عليه السلام: «لا ولكن لا يقربك» وقالت والله إنه ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا فمضى بعد ذلك عشر ليال حتى كملت خمسون ليلة من حين النهي عن الكلام قال كعب فلما كان صلاة الفجر صبح تلك الليلة سمعت صوتاً من ذروة جبل سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر:

أبشروا يا قوم إذ جاء الفرج ... افرحوا يا قوم قد زال الحرج
مى دمد دركوش هر غمكين بشير ... خيز اي مدبر ره اقبال كير
اي درين حبس ودرين كند وشپش ... هين كه تاكس نشود رسنى خمش
چون كنى خامش كنون اي يا رمن ... كزبن هرمو بر آمد طبل زن

فخررت ساجداً وعرفت أن رسول الله ﷺ أعلم بتوبة الله علينا فلما جاءني الرجل الذي سمعت صوته يبشرني وهو حمزة بن عمرو الأوسي نزعت ثوبي فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذٍ.

بعيد نيست كه صد جان بمژده بستانند ... برين بشارت دولت كه عن قريب آمد

واستعرت من ابن عمي أبي قتادة ثوبين فلبستهما. وكان المبشر لهلال بن أمية أسعد بن سعد. ولمرارة بن ربيع سلكان بن سلامة قال كعب أنزل الله توبتنا على نبيه حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله ﷺ عند أم سلمة رضي الله عنها وكانت أم سلمة محسنة في شأني معينة في أمري فقال عليه السلام: «يا أم سلمة تيب على كعب» قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره: «قال إذاً يحطم الناس فيمنعوكم النوم سائر الليلة» حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر أعلم بتوبة الله علينا قال: فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة

يقولون ليهنئك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس فقام إليّ طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة وذلك لأنه عليه السلام كان آخى بينهما حين قدم المدينة قال فلما سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور وكان عليه السلام إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر. قال السلطان سليم الأول من السلاطين العثمانية:

كر آكهى زمعنى والشمس والضحى   تعريف ماه روى دلاراى مصطفاست
بنكر بجرخ وكوكبهٔ لشكر نجوم   كأنها فروغ كوهر والاى مصطفاست

فلما جلست بين يديه ﷺ قال: «أبشر يا كعب بخير يوم ما مر عليك منذ ولدتك أمك» ثم تلا علينا الآية وهي: ﴿لقد تاب الله﴾ إلى قوله: ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ فقلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك».

وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

توبهٔ كردم حقيقت باخدا   نشكنم تا جان شدن ازتن جدا

واعلم أن في قصة هؤلاء الثلاثة إشارة إلى أن الهجران بين المسلمين إذا كان فيه صلاح لدين المهجور لا يحرم هجره حتى يزول ذلك وتظهر توبته وكذا إذا كان المهجور مذموم الحال لبدعة أو فسق أو نحوهما فإنه لا يحرم الهجران إلى ظهور التوبة لأنه لحق الله لما كان في جانب الدين فيجوز فوق ثلاثة أيام ولا يجوز الزيادة عن الثلاثة فيما كان بينهم من الأمور الدنيوية وحظوظ النفس وإنما عفي عنه في الثلاثة لأن الآدمي مجبول على الغضب وسوء الخلق ونحو ذلك فعفي عن الهجر في الثلاثة ليذهب ذلك العارض.

فعلى العاقل أن يسارع إلى تحصيل الأخوة في الله ويجتنب عن التحاسد والتباغض والتدابير.

هيچ رحمى نه برادر ببرادر دارد   هيچ شوقى نه پدررا بپسرمى بينم
دخترا نراهمه جنكست وجدل بامادر   پسرانرا همه بدخواه پدر مى بينم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ قولاً وتصديقاً ﴿اتقوا الله﴾ فيما لا يرضاه ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ في كل شأن من الشؤون أي قائلين بالحق العالمين به ومع الصادقين في معنى من الصادقين أو في الصادقين لأن مع للمصاحبة وفي للوعاء ومن للتبعيض فإذا كانوا في جهتهم فهم على المعاني الثلاثة أي كونوا في جملة الصادقين ومصاحبين لهم أو لبعضهم.

وفي الآية دليل على فضل الصدق وعلو درجته وحث عليه.

قال بعض أهل المعرفة: من لم يؤد الفرض الدائم لم يقبل منه الفرض الموقت قيل: ما الفرض الدائم قال الصدق.

از كجا افتى بكم وكاستى از همه غم رستى اكر راستى
راستىء خويش نهان كس نكرد برسخن راست زيان كست نكرد

وفي الحديث: «التجار يحشرون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى وبرّ وصدق» الفجار جمع فاجر وهو المنبعث في المغاني والمحارم سماهم فجاراً لما في البيع والشراء من الأيمان الكاذبة والغبن والتدليس والربا الذي لا يتحاشاه أحدهم ولذا قال في تمام الحديث إلا من اتقى أي الكذب وبرّ في يمينه أي صدق وصدق في حديثه. وقيل: إلا من خاف الله فلا يترك أوامره ولا يفعل المناهي وبرّ أي أحسن فلا يؤذي أحداً ولا يوصل ضرراً إلى أحد وصدق في ثمن المتاع فلم ينفق سلعته بالحلف الكاذب مثل أن يقول للمشتري اشتريت هذا بمائة درهم والله ولم يشتره بها بل أقل منها وبالحلف الكاذب يمحق الله البركة من الثمن، وفي الحديث: «إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذموا وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا وإذا كان لهم لم يعسروا» فالصدق في كل الأحوال ممدوح وصاحبه محمود في الدنيا والآخرة.

دانى زچه رو سرور و آن سر سبزست پيوسته چرا ببوستان سر سبزست
چون مذهب اوست راستى درهمه وقت بر طرف چمن هميشه زان سر سبزست

ثم المطل العارفين في الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية.

قال أحمد بن الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني قدس سرهما إني قد غبطت بني إسرائيل قال بأي شيء قلت بثمانمائة سنة من العمر حتى يصيروا كالشنان البالية وكالحنايا وكالأوتار قال: ما ظننت إلا وقد جئت بشيء والله ما يريد منا أن تيبس جلودنا على عظامنا ولا يريد منا إلا صدق النية فيما عنده هذا إذا صدق في عشرة أيام نال ما ناله ذاك في عمره الطويل انتهى فرب عمر اتسعت آماده وقلت: أمداده كأعمار بني إسرائيل إذا كان الواحد منهم يعيش ألفاً ونحوها ولم يتحصل له شيء مما تحصل لهذه الأمة مع كثرة أعمارها ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده كعمر من فتح عليه من هذه الأمة فوصل إلى عناية الله بلمحه، كما قال الإمام الغزالي قدس سره في «منهاج العابدين»: منهم من يقطع هذه العقبات في سبعين سنة ومنهم من يقطعها في عشرين سنة ومنهم من يقطعها في عشر سنين ومنهم من تحصل له في سنة ومنهم من يقطعها في شهر بل في جمعة بل في ساعة كسحرة موسى حكي أن رابعة البصرية كانت أمة كبيرة يطاف بها في سوق البصرة لا يرغب فيها أحد لكبر سنها فرحمها بعض التجار فاشتراها بنحو مائة درهم فأعتقها فاختارت هذا الطريق فأقبلت على العبادة فما تمت لها سنة حتى زارها علماء البصرة وقراؤها لعظم منزلتها.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ الذين صدقوا يوم الميثاق فيما أجابوا الله عند خطاب ألست بربكم قالوا بلى وصدقوا الله على ما عاهدوه عليه أن لا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئاً من مقاصد الدنيا والآخرة ويتجردوا عن كل حادث حتى عن الجسم. وفي «المثنوي»:

جوهر صدقت خفى شد در دروغ　　همچو طعم روغن اندر طعم دوغ
آن دروغت اين تن فانى بود　　راستت آن جان ربانى بود

يقول الفقير أصلحه الله القدير: كتب إليّ حضرة الشيخ قدس سره في بعض مكاتيبه الشريفة وقال عليكم بالصدق مطلقاً نية وعملاً وهو يرجع إلى الإخلاص جداً بأن لا يكون للعبد أصلاً باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل الصدق ويجوز أن يسمى كاذباً ودرجاته لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً والصادق والمخلص بالكسر من باب واحد وهو التخلص من شوائب الصفات النفسانية مطلقاً والصديق والمخلص بالفتح من واحد وهو التخلص أيضاً من شوائب الغيرية والثاني أوسع فلكاً وأكثر إحاطة فكل صديق ومخلص بالفتح صادق ومخلص بالكسر من غير عكس ثم ذيل كلاماً طويلاً يتضمن تأويل سورة الانشراح رزقنا الله ذوق كلامه وألحقنا به في مقامه. ثم الصادقون المرشدون إلى طريق الوصول فإذا كان السالك في جملة أحبابهم ومن زمرة الخدام في عتبة بابهم فقد بلغ بمحبتهم وتربيتهم وقوة ولايتهم إلى مراتب في السير إلى الله وترك ما سواه.

قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر: إن لم تجر أفعالك على مراد غيرك لم يصح لك انتقال عن هواك ولو جاهدت نفسك عمرك فإذا وجدت من يحصل في نفسك حرمته فاخدمه وكن ميتاً بين يديه يصرفك كيف يشاء لا تدبير لك في نفسك معه تعش سعيداً مبادراً لامتثال ما يأمرك به وينهاك عنه فإن أمرك بالحرفة فاحترف عن أمره لا عن هواك وإن أمرك بالقعود قعدت عن أمره لا عن هواك فهو أعرف بمصالحك منك فاسع يا بنيّ في طلب شيخ يرشدك ويعصم خواطرك حتى تكمل ذاتك بالوجود الإلهي وحينئذٍ تدبر نفسك بالوجود الكشفي الاعتصامي كذا في «مواضع النجوم». وفي «المثنوي»:

چون كزيدى پير نازك دل مباش　　سست ورزيده چو آب وكل مباش
چون كرفتى پيرهن تسليم شو　　همچو موسى زير حكم خضررو
شيخ راكه پيشوا ورهبرست　　كرمريدى امتحان كرد او خرست

نسأل الله تعالى أن يحفظنا من زيغ الاعتقاد ويثبتنا في طريق أهل الرشاد.

﴿**ما كان لأهل المدينة**﴾ أي: ما صح وما استقام لهم والمدينة علم بالغلبة لدار الهجرة كالنجم للثريا إذا أطلقت فهي المرادة وإن أريد غيرها قيد والنسبة إليها مدني ولغيرها من المدن مديني للفرق بينهما كما في «إنسان العيون».

قال الإمام النووي: لا يعرف في البلاد أكثر أسماء منها ومن مكة.

وفي كلام بعضهم: لها نحو مائة اسم منها دار الأخبار ودار الأبرار ودار السنة ودار السلامة ودار الفتح والبارة وطابة وطيبة لطيب العيش بها ولأن لعطر الطيب بها رائحة لا توجد في غيرها وترابها شفاء من الجذام ومن البرص بل ومن كل داء وعجوتها شفاء من السم وقد خص الله تعالى مكة والمدينة بأنهما لا يخلوان من أهل العلم والفضل والدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وهي أي المدينة تخرب قبل يوم القيامة بأربعين عاماً ويموت أهلها من الجوع. ﴿**ومن حولهم من الأعراب**﴾ [باديه نشينان] كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأضرابهم.

قال الكاشفي: [وتخصيص أهالي مدينة وحوالى بجهت قرب بوده ومعرفت ايشان بخروج آن حضرت عليه السلام بطرف تبوك]. ﴿أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ عند توجهه إلى الغزو وإذا استنفرهم واستنهضهم كما في «حواشي ابن الشيخ» وهذا نهي ورد بلفظ النفي للتأكيد ﴿ولا﴾ أن ﴿يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ الباء للتعدية فقولك رغبت عنه معناه أعرضت عنه فعدي بالباء فإذا قلت رغبت بنفسي عنه كأنك قلت جعلت نفسي راغبة عنه. فالمعنى اللغوي في الآية ولا يجعلوا أنفسهم راغبة ومعرضة عن نفسه عليه السلام وحاصل المعنى لا يصرفوا أنفسهم عن نفسه الكريمة أي عما ألقى فيه نفسه من شدائد الغزو وأهوالها ولا يصونها عما لا يصون عنه نفسه بل يكابدوا معه ما يكابده فإنه لا ينبغي أن يختاروا لأنفسهم الخفض والدعة ورغد العيش ورسول الله في الحر والمشقة.

قال الحدادي: لا ينبغي أن يكونوا بأنفسهم آثر وأشفق عن نفس محمد ﷺ بل عليهم أن يجعلوا أنفسهم وقاية للنبي عليه السلام لما وجب له من الحقوق عليهم بدعائه لهم إلى الإيمان حتى اهتدوا به ونجوا من النار. ﴿ذلك﴾ أي: وجوب المتابعة فإن النهي عن التخلف أمر بضده الذي هو الأمر بالمتابعة والمشايعة. ﴿بأنهم﴾ أي: بسبب أنهم إذا كانوا معه عليه السلام ﴿لا يصيبهم ظمأ﴾ أي: عطش يسير ﴿ولا نصب﴾ ولا تعب ما في أبدانهم ﴿ولا مخمصة﴾ أي: مجاعة ما ﴿في سبيل الله﴾ وإعلاء كلمته ﴿ولا يطؤون﴾ ولا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم ﴿موطئاً﴾ دوساً فهو مصدر كالموعد أو مكاناً على أن يكون مفعولاً ﴿يغيظ الكفار﴾ [بخشم آرد كافرانرا] أي لا يبلغون موضعاً من أراضي الكفار من سهل أو جبل يغيظ قلوبهم مجاوزة ذلك الموضع فإن الإنسان يغيظه أن يطأ أرضه غيره والغيظ انقباض الطبع برؤية ما يسوؤه والغضب قوة طلب الانتقام. ﴿ولا ينالون﴾ [ونيابند] فإن النيل بالفارسية [يافتن] ﴿من عدو﴾ من قبلهم ﴿نيلا﴾ بمعنى الميل على أن يكون مفعولاً به، أي أي آفة محنة كالقتل والأسر والهزيمة والخوف ﴿إلا كتب لهم به﴾ أي: بكل واحد من الأمور المعدودة. قوله إلا كتب في محل النصب على أنه حال من ظمأ وما عطف عليه أي لا يصيبهم ظمأ ولا كذا ولا كذا في حال من الأحوال إلا في حال كونه مكتوباً لهم بذلك. ﴿عمل صالح﴾ وحسنة مقبولة، أي: استوجبوا به الثواب الجزيل.

وقال الكاشفي: يعني [بهريك ازينها كه بديها رسد مستحق ثواب شوند ابن عباس كويد بهر ترسى كه از دشمن بدل ايشان رسد هفتاد درجه مى نويسند] هذا ما يدل عليه عامة التفاسير.

وقال ابن الشيخ في «حواشيه»: يقال نال منه إذا أزراه ونقصه وصرح بنيل شيء مما يتأذى الكفار من نيله وهذا المعنى غير المعنى الأول كما لا يخفى ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ على إحسانهم وهو تعليل لكتب وتنبيه على أن الجهاد إحسان أما في حق الكفار فلأنه سعى في تكميلهم بأقصى ما يمكن كضرب المداوي للمجنون.

سفيها نرا بود تأديب نافع جنونرا شربت چوبست دافع

وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم من سطوة الكفار واستيلائهم.

﴿ولا ينفقون﴾ في الجهاد ﴿نفقة صغيرة﴾ [نفقهء اندك] ولو تمرة أو علاقة سوط أو نعل فرس ﴿ولا كبيرة﴾ [ونه نفقهء بزرك] مثل ما أنفق عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله

عنهما في جيش العسرة وقد سبق عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ [التوبة: ٧٩] الآية في هذه السورة ﴿ولا يقطعون﴾ أي: لا يجتازون في مسيرهم إلى أرض الكفار مقبلين ومدبرين ﴿وادياً﴾ من الأودية وهو في الأصل كل منفرج من الجبال والآكام ينفذ فيه السيل اسم فاعل من ودى يدي إذا سال ثم شاع في الأرض على الإطلاق. ﴿إلا كتب لهم﴾ أي: أثبت لهم في صحائفهم ذلك الذي فعلوه من الإنفاق والقطع ﴿ليجزيهم الله﴾ بذلك متعلق بكتب. ﴿أحسن ما كانوا يعملون﴾مفعول ثانٍ ليجزيهم وما مصدرية أي ليجزيهم جزاء أحسن أعمالهم بحذف المضاف فإن نفس العمل لا يكون جزاء [درينا بيع فرموده كه اكر مثلا غازى را هزار طاعت باشدويكى ازهمه نيكوتر بود حق سبحانه وتعالى آنرا ثوابى عظيم دهد ونهصد ونودونه ديكررا بطفيل آن قبول كند وهريك را برابر آن ثوابى ارزانى دارد تاكرم او بنسبت مجاهدان برهمه كس ظاهر كردد] ففي الجهاد فضائل لا توجد في غيره وهو حرفة النبي عليه السلام.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال مرّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذب فأعجبته فقال لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ولن أفعل حتى استأذن رسول الله ﷺ فذكر ذلك لرسول الله فقال: «لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته سبعين عاماً ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة اغزوا في سبيل الله من قاتل في سبيل الله فواق ناقةٍ وجبت له الجنة» قوله فواق ناقة وهو ما بين رفع يدك عن ضرعها وقت الحلبة ووضعها وقيل هو ما بين الحلبتين. وفي الحديث دلالة على أن الجهاد والتصدي له أفضل من العزلة للعبادة.

وقال في «فتح القريب»: يا هذا ليت شعري مَن يقوم مقام هذا الصحابي في عزلته وعبادته وطيب مطعمه ومع هذا قال النبي عليه السلام: «لا تفعل» وأرشده إلى الجهاد فكيف لواحد منا أن يتركه مع أعمال لا يوثق بها مع قلتها وخطايا لا ينجى معها لكثرتها وجوارح لا تزال مطلقة فيما منعت منه ونفوس جامحة إلا عما نهيت عنه ونيات لا يتحقق إخلاصها وتبعات لا يرجى بغير العناية خلاصها. قال الحافظ:

كارى كنيم ورنه حجالت بر آورد   روزيكه رخت جان بجهان دكر كشيم

واعلم أن المتخلف بعذر إذا كانت نيته خالصة يشارك المجاهد في الأجر والثواب كما روي أنه عليه السلام لما رجع من غزوة تبوك قال: «إن أقواماً خلفناهم بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر» يعني يشاركوننا في استحقاق الثواب لكونهم معنا نية وإنما تخلفوا عنا للعذر ولولاه لكانوا معنا ذواتاً.

قال ابن الملك: ولا يظن منه التساوي في الثواب لأن الله قال: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٩٥] انتهى.

يقول الفقير أصلحه الله القدير هذه الآية مطلقة ساكتة عن بيان العذر وعدمه وقد قيدها الحديث المذكور ولا بعد في أن يشترك المجاهد والمتخلف لعذر في الثواب بل تأثير الهمة أشد ورب نية خير من عمل ولهذا شواهد لا تخفى على أولي الألباب.

والإشارة ﴿ما كان لأهل المدينة﴾ مدينة القلب وأهلها النفس والهوى ﴿ومن حولهم من الأعراب﴾ أعراب الصفات النفسانية والقلبية ﴿أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ عن رسول الروح إذ

هو راجع إلى الله وسائر إليه ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ أي: عن بذل وجودهم عند بذل وجوده بالفناء في الله ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ﴾ من ماء الشهوات ﴿ولا نصب﴾ من أنواع المجاهدات ﴿ولا مخمصة﴾ بتر اللذات وحطام الدنيا ﴿في سبيل الله﴾ في طلب الله ﴿ولا يطؤون موطئاً﴾ مقاماً من مقامات الفناء. ﴿يغيظ الكفار﴾ كفار النفس والهوى ﴿ولا ينالون من عدو﴾ عدو الشيطان والدنيا والنفس. ﴿نيلاً﴾ أي: بلاء ومحنة وفقراً وفاقة وجهداً وهماً وحزناً وغير ذلك من أسباب الفناء. ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ من البقاء بالله بقدر الفناء في الله ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ الفانين في الله فيبقيهم بالله ليعبدوه على المشاهدة لأن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. ﴿ولا ينفقون نفقة﴾ من بذل الوجود ﴿صغيرة ولا كبيرة﴾ الصغيرة بذل وجود الصفات والكبيرة بذل وجود الذات في صفات الله تعالى وذاته ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ من أودية الدنيا والآخرة والنفس والهوى والقلب والروح. ﴿إلا كتب لهم﴾ بقطع كل واحد من هذه الأودية قربة ومنزلة ودرجة كما قال: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً» ﴿ليجزيهم الله﴾ بالبقاء والفناء عن أنفسهم ﴿أحسن ما كانوا يعملون﴾ أي: أحسن مقام كانوا يعملون العبودية في طلبه لأن طلبهم على قدر معرفتهم ومطمح نظرهم وجزاؤه يضيق عنه نطاق عقولهم وفهومهم كما قال: «أعددت لعبادي الصالحين» الحديث كما في «التأويلات النجمية».

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى
ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ
يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ
سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا
هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ اللام لتأكيد النفي أي ما صح وما استقام لهم أن ينفروا أي يخرجوا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعاً فإن ذلك مخل بأمر المعاش ﴿فلولا نفر﴾ [پس چرا بيرون نرود] فلولا تحضيضية مثل هلا وحرف التحضيض إذا دخل على الماضي يفيد التوبيخ على ترك الفعل والتوبيخ إنما يكون على ترك الواجب فعلم منه أن الفعل واجب وأن قوله فلولا نفر معناه الأمر بالنفير وإيجابه ﴿من كل فرقة منهم طائفة﴾ أي: من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعة قليلة.

ودلت الآية على الفرق بين الفرقة والطائفة بأن الفرقة أكثر من الطائفة لأن القياس أن ينتزع القليل من الكثير والطائفة تتناول الواحد فما فوقه. ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ ليتكلفوا الفقاهة في الدين ويتجشموا مشاق تحصيلها والفقه معرفة أحكام الدين. ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم وذكر الإنذار دون التبشير لأنه أهم والتخلية بالمعجمة أقدم من التحلية بالمهملة. ﴿لعلهم يحذرون﴾ إرادة أن يحذر قومهم عما ينذرون منه.

وفي الآية دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم الاستقامة والإقامة لا الترفع على الناس بالتصدر والترؤس والتبسط في البلاد بالملابس والمراكب والعبيد والإماء كما هو ديدن أبناء الزمان والله المستعان. فينبغي أن يطلب المتعلم رضى الله والدار الآخرة وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال وإحياء الدين وإبقاء الإسلام فإن بقاء الإسلام بالعلم ولا يصح الزهد والتقوى بالجهل.

علم آمد دليل آكاهى　　　جهل برهان نقص وكمراهى
پيش ارباب دانش وعرفان　　　كى بود اين تمام وآن نقصان

وينبغي لطالب العلم أن ينوي به الشكر على نعمة العقل وصحة البدن وسلامة الحواس عملاً بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨] وينبغي لطالب العلم أن يختار الأستاذ الأعلم والأورع والأسن بعد التأمل التام كما اختار أبو حنيفة رضي الله عنه حماداً قال دخلت البصرة فظننت أن لا أسأل عن شيء إلا أجبت عنه فسألوني عن أشياء لم يكن عندي جوابها فحلفت على نفسي أن لا أفارق حماداً فصحبته عشرين سنة وما صليت قط إلا ودعوت لشيخي حماد مع والدي ففي أنفاس الأساتذة الصالحين ودعوات الرجال الكاملين تأثيرات عجيبة. كما حكي أن أبا أبي حنيفة ثابتاً أهدى الفالوذج لعلي بن أبي طالب يوم النيروز ويوم المهرجان فدعا له ولأولاده بالبركة وكان ثابت يقول أنا في بركة دعوة صدرت من علي رضي الله عنه حتى كان يفتخر أولاده العلماء بذلك فإذا وجد الطالب الأستاذ العالم العامل فعليه أن يختار من كل علم أحسنه وأنفعه في الآخرة فيبدأ بفرض العين وهو علم ما يجب من اعتقاد وفعل وترك ظاهراً وباطناً ويقال له علم الحال أي العلم المحتاج إليه في الحال.

قال العز بن عبد السلام: العلم الذي هو فرض لازم ثلاثة أنواع: الأول: علم التوحيد فالذي يتعين عليك منه مقدار ما تعرف به أصول الدين فيجب عليك أولاً أن تعرف المعبود ثم تعبده وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته وما يجب له وما يستحيل في نعته فربما تعتقد شيئاً في صفاته يخالف الحق فتكون عبادتك هباء منثوراً. والنوع الثاني: علم السر وهو ما يتعلق بالقلب ومساعيه فيفترض على المؤمن علم أحوال القلب من التوكل والإنابة والخشية والرضى فإنه واقع في جميع الأحوال واجتناب الحرص والغضب والكبر والحسد والعجب والرياء وغير ذلك وهو المراد بقوله عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»؛ إذ لو أريد بالعلم فيه التوحيد فهو حاصل ولو أريد به الصلاة فيجوز أن يتأهلها شخص وقت الضحى ويموت قبل الظهر فلا يستقيم العموم المستفاد من لفظ كل وأما غيرهما فلا يظهر فلم يبق إلا المعاملة القلبية إذ فرضية علمها متحققة في كل زمان ومكان في كل شخص. والنوع الثالث: علم الشريعة وهو ما يجب عليك فعله من الواجبات الشرعية فيجب عليك علمه لتؤديه على جهة الشرع كما أمرت به وكذا علم كل ما يلزمك تركه من المناهي الشرعية لتتركه وذلك شامل للعبادات والمعاملات فكل من اشتغل بالبيع والشراء وأيضاً بالحرفة فيجب عليه علم التحرز عن الحرام في معاملاته وفيما يكسبه في حرفته وأما حفظ ما يقع في بعض الأحايين ففرض على سبيل الكفاية. والعلوم الشرعية خمسة: الكلام والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه.

قال في «عين المعاني» المراد بقوله: ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ علم الآخرة لاختصاصه بالإنذار والحذر به وعلم الآخرة يشمل علم المعاملة وعلم المكاشفة أما علم المعاملة فهو العلم المقرب إليه تعالى والمبعد عنه ويدخل فيه أعمال الجوارح وأعمال القلوب وأما علم المكاشفة فهو المراد فيما ورد «فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي» إذ غيره تبع للعمل لثبوته شرطاً له فإذا فرغ علماً وعملاً ساغ أن يشرع في فروض الكفاية كالتفسير والأخبار والفتاوى غير متجاوز إلى نوادر المسائل ولا مستغرق مشتغل عن المقصود وهو العمل ويجوز أن يتعلم من علم النجوم قدر ما يعرف به القبلة وأوقات الصلاة ويتعلم من علم الطب قدر ما يمكن بمعرفته تداوي الأمراض.

قال في «الأشباه»: تعلم العلم يكون فرض عين وهو بقدر ما يحتاج إليه لدينه وفرض كفاية وهو ما زاد عليه لنفع غيره ومندوباً وهو التبحر في الفقه وعلم القلب وحراماً وهو علم الفلسفة والشعبذة والتنجيم والرمل وعلوم الطبائعيين والسحر ودخل في الفلسفة المنطق ومن هذا القسم علم الحروف والموسيقا ومكروهاً وهو أشعار المولدين من الغزل والبطالة ومباحاً كأشعارهم التي لا سخف فيها.

قال علي الخناوي: لم أرَ في كتب أصحابنا القول بتحريم المنطق ولا يبعد أن يكون وجهه أن يضيع العمر وأيضاً أن من اشتغل به يميل إلى الفلسفة غالباً فكان المنع منه من قبيل سد الذرائع وإلا فليس في المنطق ما ينافي الشرع انتهى.

قال القهستاني: ذكر في «المهمات» للأسنوي لايستنجى بما كتب عليه علم محترم كالنحو واحترز بالمحترم عن غيره من الحكميات مثل المنطق انتهى.

قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر في مواقع النجوم ولا يكثر مما لا يحتاج إليه فإن التكثير مما لا حاجة فيه سبب في تضييع الوقت على ما هو أهم وذلك أن من لم يعول على أن يلقي نفسه في درجة الفتيا في الدنيا لأن في البلد من ينوب عنه في ذلك لا يتعين عليه طلب الأحكام كلها إذ هو في حق الغير طلب فضول العلم انتهى.

فعلى العاقل أن يتعلم قدر الحاجة ويشتغل بالعمل وفي الحديث: «من أحب أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى المتعلمين فوالذي نفسي بيده ما من متعلم يختلف إلى باب العالم إلا كتب الله له بكل قدم عبادة سنة وبنى له بكل قدم مدينة في الجنة ويمشي على الأرض والأرض تستغفر له ويمشي ويصبح مغفوراً له وشهدت له الملائكة بأنه من عتقاء الله من النار» وفي نشر العلم والإرشاد به فضائل أيضاً قال عليه السلام لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن «لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك مما تطلع عليه الشمس» والعلماء ورثة الأنبياء فكما أنهم اشتغلوا بالإبلاغ والإرشاد كذلك ورثتهم فكل مرشد من الورثة ينبغي أن يكون غرضه إقامة جاه رسول الله ﷺ وتعظيمه بتكثير أتباعه وقد قال: «إني مكاثر بكم الأمم» قال في «العوارف الصوفية» أخذوا حظاً من علم الدراسة فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم فلما عملوا بما علموا أفادهم العمل علم الوراثة فهم مع سائر العلماء في علومهم وتميزوا عنهم بعلوم زائدة هي علوم الوراثة وعلم الوراثة هو الفقه في الدين، قال الله تعالى: ﴿فلولا نفر﴾ الآية فصار الإنذار مستفاداً من الفقه والإنذار إحياء المنذر بماء العلم والإحياء رتبة الفقيه في الدين فصار الفقه في الدين من أكمل الرتب وأعلاها وهو علم العالم الزاهد في الدنيا المتقي الذي يبلغ رتبة

الإنذار بعلمه فمورد الهدى والعلم رسول الله ﷺ أولاً ورد عليه الهدى والعلم من الله تعالى فارتوى بذلك ظاهراً وباطناً وانتقل من قلبه إلى القلوب ومن نفسه إلى النفوس ولا يدرك المرء هذا العلم بالتمني بل بالجد والطلب ألا ترى إلى الجنيد قيل له بم نلت ما نلت فقال بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة وأشار إلى درجة في داره:

هر كنج سعادت كه خداداد بحافظ ازيمن دعاى شب وورد سحرى بود

وفي الآية تحريض للمؤمنين على الخروج من الأوطان لطلب العلم النافع ورحل جابر من المدينة إلى مصر لحديث واحد ولذا لم يعد أحد كاملاً إلا بعد رحلته ولا وصل مقصده إلا بعد هجرته وقيل:

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه وانصب فإن اكتساب المجد في النصب

فالأسد لولا فراق الخيس ما فرست والسهم لولا فراق القوس لم يصب

قال سعدي قدس سره:

جفا نبرده چه دانى توقدر يار تحصيل كام دل بتكاپوى خوشترست

قال في «التأويلات النجمية»: الإشارة في الآية إن الله تعالى يندب خواص عباده إلى رحلة الصورة والمعنى فأما رحلة الصورة ففي طلب أهل الكمال الكاملين المتكملين الواصلين الموصلين كما ندب موسى الرحلة في طلب الخضر عليهما السلام وأما رحلة المعنى فكما كان حال إبراهيم عليه السلام قال: إني ذاهب إلى ربي فهو السير من القالب وصفاته إلى القلب وصفاته ومن القلب إلى الروح وصفاته ومن الروح إلى التخلق بأخلاق الله بقدم فناء أوصافه وهو السير إلى الله ومن أخلاق الله إلى ذات الله بقدم فناء ذاته بتجلي صفات الله وهو السير بالله ومن أنانيته إلى هويته ومن هويته إلى ألوهيته إلى أبد الآباد وهو السير بالله من الله إلى الله تعالى وتقدس انتهى باختصار.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أقروا بالله وبوحدانيته وصدقوا بحضرة صاحب الرسالة وحقانيته ﴿قاتلوا الذين﴾ [كارزار كنيد آنانكه] ﴿يلونكم﴾ الولي القرب والدنو ﴿من الكفار﴾ أي: قاتلوا من نحوكم وبقربكم من العدو وجاهدوا الأقرب فالأقرب ولا تدعوا الأقرب وتقصدوا الأبعد فيقصد الأقرب بلادكم وأهاليكم وأولادكم وفيه أنهم إذا آمنوا الأقرب كان لهم محاربة الأبعد.

واعلم أن القتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم ولكن الأقرب فالأقرب أوجب ولذا حارب عليه السلام قومه أولاً ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ثم انتقل عنهم إلى غزو الشام وكذا الصحابة رضي الله عنهم لما فرغوا من أمر الشام دخلوا العراق وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضربهم أهل ناحية أخرى وقد وقع أمر الدعوة أيضاً على هذا الترتيب فإنه عليه السلام أمر أولاً بإنذار عشيرته فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح لتأكد حقه.

واختلفوا في أفضل الأعمال بعد الفرائض. فقال الشافعي رضي الله عنه الصلاة أفضل أعمال البدن وتطوعها أفضل التطوع. وقال أحمد: لا أعلم شيئاً بعد الفرائض أفضل من الجهاد لأنه كان حرفة النبي عليه السلام. وقال أبو حنيفة ومالك لا شيء بعد فروض الأعيان من أعمال البر أفضل من العلم لأن الأعمال تبتنى عليه ثم الجهاد وبلغ من علم أبي حنيفة رحمه الله إلى أن سمع في المنام أنا عند علم أبي حنيفة بعد ما قيل: أين أطلبك يا رسول الله، وفي

الحديث: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد» أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل والجهاد سبب البقاء إذ لو تركه الناس لغلبهم العدو وقتلهم وفيه الحياة الدائمة في الآخرة لأنه سبب الشهادة التي تورث تلك الحياة والشهداء أحياء غير أموات. وفي «المثنوي»:

پس زيادتها درون نقصهاست مر شهيد انرا حيات اندر فناست

﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ أي: شدة وصبراً على القتال.

قال في «القاموس»: الغلظة مثلثة ضد الرقة وهذا الكلام من باب لا أرينك ههنا فإنه وإن كان على صورة أن ينهى المتكلم نفسه عن رؤية المخاطب ههنا إلا أن المراد نهي المخاطب عن أن يحضر ههنا فكذا الآية فإنها على صورة أمر الكفار بأن يجدوا من المؤمنين غلظة لكن المعنى على أمر المؤمنين بأن يعاملوا الكفار بالغلظة والخشونة على طريق الكناية حيث ذكر اللازم وأريد الملزوم. وفي «المثنوي»:

هر پيمبر سخت روبد درجهان يكسواره كفت بر جيش شهان

رو نكردانيد ازترس وغمى يك تن تنها بزد بر عالمى

كوسفندان كربر ونندازحساب زانبهشان كى بترسد آن قصاب

قيل: للإسكندر في عسكر دارا ألف ألف مقاتل فقال إن القصاب لا تهوله كثرة الأغنام والعرب تقول الشجاعة وقاية والجبن مقتلة فاعتبروا بأن من يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً.

قال السعدي قدس سره:

آنكه چنك آرد بخون خويش بازى ميكند روزميدان وانكه بكر يزد بخون لشكرى

ونعم ما قيل:

زهرهٔ مردان ندارى چون زنان درخانه باش وربميدان ميروى ازتير باران بر مكرد

واعلم أن السلاطين والوزراء والوكلاء بالنسبة إلى العسكر كالقلب بالنسبة إلى الأعضاء فكما أن القلب إذا صلح صلح الجسد كله فكذا الرئيس إذا ثبت وأظهر الشجاعة ثبت الجيش كله [بهرام كفت هرآنكه سرتاج دارد بايدكه دل ازسر بردارد هرآنكه پاى نهد درنكار خانهٔ ملك يقين كه مال وسر وهرچه هست دربازد]. ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالحراسة والإعانة والمراد بالمعية الولاية الدائمة وأدخل مع على المتقين مع اختصاصه بالمتبوع لكونهم المباشرين للقتال ووضع المظهر موضع المضمر أي معكم إشارة إلى علة النصرة وهي التقوى كأنه قيل: واعلموا أن نصرة الله معكم بسبب تقواكم بالتوحيد والإسلام والإيمان والطاعة عن الإشراك والكفر والنفاق والعصيان في مرتبة الشريعة وبالله عن جميع ما سوى الله في مرتبة الحقيقة لا مع الكفار المشركين المنافقين العاصين وإن أعطاهم لوازم القتال مكراً واستدراجاً كما أعطاكموها كرماً وإحساناً وبقدر تقواكم بالحق عن الخلق يسخر الله لكم الخلق وبقدر تسخيركم لله قواكم النفسانية يسخر الله لكم الكفار وبقدر تسخيركم لله قواكم الروحانية يسخر الله لكم المؤمنين.

قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر في مواقع النجوم: اعلم يا بني أن الله جل ثناؤه لما أراد أن يرقى عبده الخصوصي إلى المقامات العلية قرب منه أعداءه حتى يعظم جهاده لهم ويشتغل بمحاربتهم أولاً قبل محاربة غيرهم من الأعداء الذين هم منه أبعد قال الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين﴾ الآية وحظ الصوفي وكل موفق من هذه الآية أن ينظر فيها إلى نفسه الأمارة بالسوء التي تحمله على كل محظور ومكروه وتعدل به عن كل واجب ومندوب للمخالفة التي جبلها الله عليها وهي أقرب الكفار والأعداء إليه فإذا جاهدها وقتلها أو أسرها فحينئذٍ يصح له أن ينظر في الأعيار على حسب ما يقتضيه مقامه وتعطيه منزلته فالنفس أشد الأعداء شكيمة وأقواهم عزيمة فجهادها هو الجهاد الأكبر ومعنى الجهاد مخالفة هواها وتبديل صفاتها وحملها على طاعة الله. وفي «المثنوي»:

اى شهان كشتيم ما خصم برون ... ماند خصم زو بتر درانـدرون
قد رجعنا من جهاد الأصغريم ... باعدو اندر جهاد الأكبريم
سهل شيرى دانهك صفها بشكند ... شير آن ست آنكه خودرابشكند

وللنفس سيفان ماضيان تقطع بهما رقاب صناديد الرجال وعظمائهم وهما شهوتا البطن والفرج وشهوة البطن أقوى وأشد من شهوة الفرج لأنه ليس لها تأييد إلا من سلطان شهوة البطن:

زان نداری میوهٔ مانند بید ... كآب رو بردى پى نان سپيد

فما مليء وعاء شر من بطن مليء بالحلال هذا إذا كان القوت حلالاً فكيف إذا كان حراماً فالطعام والإكثار منه قاطع عن الطريق.

وعن عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين جوعوا بطونكم وعطشوا أكبادكم لعل قلوبكم ترى الله تعالى وكذا الكلام وكذا التأذي بأذى الأنام فعليه بالصبر وأن لا يجدهم مؤذين لأنه موحد فيستوي عنده المسيء والمحسن في حقه بل ينبغي أن يرى المسيء محسناً وكذا المنام.

قال بعض العلماء: من سهر أربعين ليلة خالصاً كوشف بملكوت السموات أيقظنا الله وإياكم من رقدة الغفلة إنه مجيب الدعوة.

﴿وإذا ما﴾ كلمة ما صلة مؤكدة لارتباط الجزاء بالشرط ﴿أنزلت سورة﴾ من سور القرآن وعددها مائة وأربع عشرة بالإجماع والسورة طائفة من كلامه تعالى ﴿فمنهم﴾ أي: المنافقين ﴿من يقول﴾ لإخوانه إنكاراً واستهزاء ﴿أيكم﴾ مبتدأ وما بعده خبره ﴿زادته هذه﴾ السورة ﴿إيماناً﴾ مفعول زادته وإيراد الزيادة مع أنه لا إيمان فيهم أصلاً باعتبار اعتقاد المؤمنين. وفيه إشارة إلى أن الاستهزاء من علامات النفاق وأمارات الإنكار ثم أجاب الله تعالى عن إنكارهم واستهزائهم من يعتقد زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به فقال: ﴿فأما الذين آمنوا﴾ بالله تعالى وبما جاء من عنده ﴿فزادتهم إيماناً﴾ هذا بحسب المتعلق وهو مخصوص بزمان النبي عليه السلام وأما الآن فالمذهب على الإيمان لا يزيد ولا ينقص وإنما تتفاوت درجاته قوة وضعفاً فإنه ليس من يعرف الشيء إجمالاً كمن يعرفه تفصيلاً كما أن من رأى الشيء من بعيد ليس كمن يراه من قريب فصورة الإيمان هو التصديق القلبي إجمالاً وتفصيلاً وحقيقته الإحسان الذي هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وحقيقة الإحسان مرتبة كنت سمعه وبصره التي هي قرب النوافل وفوقها مرتبة قرب الفرائض المشار إليه بقوله سمع الله لمن حمده. والحاصل أن من اعتقد الكعبة إذا رآها من بعيد قوي يقينه ثم إذا قرب منها كمل ثم إذا دخل ازداد الكمال ولا تفاوت في أصل الاعتقاد ﴿وهم يستبشرون﴾ بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية.

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: كفر وسوء عقيدة.

قال الحدادي: سمى الله النفاق مرضاً لأن الحيرة في القلب مرض القلب كما أن الوجع في البدن مرض البدن.

يقول الفقير كل منهما مؤد إلى الهلاك. أما المرض الظاهر فإلى هلاك الجسم. وأما المرض الباطن فإلى هلاك الروح فلا بد من معالجة كل منهما بحسب ما يليق به ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي: كفراً بها مضموماً إلى الكفر وعقائد باطلة وأخلاقاً ذميمة كذلك والفرق بين الرجس والنجس أن الرجس أكثر ما يستعمل فيما يستقذر عقلاً والنجس أكثر ما يستعمل فيما يستقذر طبعاً ﴿وماتوا وهم كافرون﴾ أي: واستحكم ذلك إلى أن يموتوا عليه بين الله تعالى أن بنزول سورة من السماء حصل للمؤمنين أمران زيادة الإيمان والاستبشار وحصل للمنافقين أمران مقابلان لهما زيادة الرجس والموت على الكفر، وفي الحديث: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» يعني: أن من آمن بالقرآن وعظم شأنه وعمل به يرفع الله درجته في الآخرة ويرزقه عزة وشرفاً ومن لم يؤمن به أو لم يعمل به أو لم يعظم شأنه خذله الله في الدنيا والآخرة.

﴿أو لا يرون﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والواو للعطف على مقدر، أي: لا ينظر المنافقون ولا يرون. ﴿أنهم يفتنون في كل عام﴾ من الأعوام بالفارسية [در هر سالى] ﴿مرة أو مرتين﴾ والمراد مجرد التكثير لا بيان الوقوع حسب العدد المزبور أي يبتلون بأصناف البليات من المرض والشدة وغير ذلك مما يذكر الذنوب والوقوف بين يدي رب العزة فيؤدي إلى الإيمان به تعالى ﴿ثم لا يتوبون﴾ عطف على لا يرون داخل تحت الإنكار والتوبيخ ﴿ولا هم يذكرون﴾ والمعنى أو لا يرون افتتانهم الموجب لإيمانهم ثم لا يتوبون عما هم عليه من النفاق ولا هم يتذكرون بتلك الفتن الموجبة للتذكر والتوبة.

قال في «التأويلات النجمية»: هذه الفتنة موجبة لانتباه القلب الحي وقلوبهم ميتة والقلب الميت لا يرجع إلى الله ولا يؤثر فيه نصح الناصحين، كما قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] وقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]. وفي «المثنوي»:

ورنكوئى عيب خود بارى خمش — از نمايش وازدغل خودرا مكش
كرتو نقدى يا فتى مكشا دهان — هست دره سكنهاى امتحان
كفت يزدان از ولادت تابحين — يفتنون كل عام مرتين
امتحان بر امتحانست اي پسر — هين بكمتر امتحان خود را محر
ماهيانرا بحر نكذارد برون — خاكيانرا بحر نكذارد درون

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ بيان لأحوالهم عند نزولها في محفل تبليغ الوحي كما أن الأول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ المراد بالنظر النظر المخصوص الدال على الطعن في تلك السورة والاستهزاء بها أي تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية ﴿هل يراكم

من أحد﴾ أي: قائلين هل يراكم من أحد من المسلمين لينصرفوا من المسجد والمجلس مظهرين أنهم لا يضطربون عند استماعها ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون، ﴿ثم انصرفوا﴾ عطف على نظر بعضهم والتراخي باعتبار وجدان الفرقة والوقوف على عدم رؤية أحد من المؤمنين أي انصرفوا جميعاً عن محفل الوحي خوفاً من الافتضاح. والمعنى يقول بعضهم لبعض هل يراكم من أحد من المؤمنين إن قمتم من مجلسكم فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحداً يراهم أقاموا فيه وثبتوا حتى يفرغ عليه السلام من خطبته ثم انصرفوا ﴿صرف الله قلوبهم﴾ أي: عن الإيمان حسب انصرافهم عن المجلس والجملة إخبارية أو دعائية ﴿بأنهم﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ لسوء الفهم أو لعدم التدبر.

وفي «التأويلات النجمية»: ليس فقه القلب فانٍ فقه القلب من أمارات حياة القلب وهو نور يهتدى به إلى الحق كما أن الجهل ظلمة يقيم عندها ولا يدري ماذا يفعل اللهم اجعلنا من المتدبرين والمتذكرين والمعتبرين.

قال بعض العلماء: أصحاب القلوب من الإنس ثلاثة أصناف. صنف كالبهائم قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين. وصنف في ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله.

وعن أبي بكر الوراق رحمه الله أنه قال للقلب ستة أشياء حياة وموت وصحة وسقم ويقظة ونوم فحياته الهدى ونومه الضلالة وصحته الصفاء وعلته العلاقة ويقظته الذكر ونومه الغفلة وفي «المثنوي»:

هو صباحى چون سليمان آمدى ... خاضع اندر مسجد اقصى شدى
نوكياهى رسته ديدى اندرو ... پس بكفتى نام ونفع خود بكو
كوچه داروئي وچه نامت چه است ... توزيان كه ونفعت بر كيست
پس بكفتى هركيوهى فعل ونام ... كه من آنرا جانم واين را حمام
پس سليمان ديد اندر كوشهٔ ... نو كياهى رسته همچون خوشهٔ
كفت نامت چيست بركوبى دهان ... كفت خروبست اى شاه جهان
كفت اندر توچه خاصيت بود ... كفت من رستم مكان ويران شود
من كه حروبم خراب منزلم ... هادم بنيادا اين آب وكلم
پس سليمان آن زمان دانست زود ... كه اجل آمد سفر خواهد نمود
كفت تا من هستم اين مسجد يقين ... در خلل نايد زآفات زمين
پس خراب مسجد ما بيكمان ... نبود إلا بعد مرك ما بدان
مسجد ست اين دل كه چشمش ساجدست ... يا ربد خروب هرجا مسجد ست
يا ربد چون رست درتو مهراو ... هين ازوبكر يزوكم كن كفت وكو
بركن از بيخش كه كر سر برزند ... مرترا ومسجدت را بركند

﴿لقد جاءكم﴾ يحتمل أن يكون الخطاب للعرب والعجم جميعاً. فالمعنى بالله قد جاءكم أيها الناس ﴿رسول﴾ أي: رسول عظيم الشان والرسول إنسان بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبليغ الأحكام ﴿من أنفسكم﴾ أي: من جنسكم آدمي مثلكم لا من الملائكة ولا من غيرهم وذلك

لئلا يتنفروا عنه ويمتنعوا من متابعته ويقولوا لا طاقة لنا بمتابعته لأنه ليس من جنسنا يؤيده قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] إذ لفظ المؤمنين عام لكل مؤمن من كل صنف فيكون معنى من أنفسهم أي من جنسهم لأن الملك وكذا الجن لعدم جنسيته ولكونه غير مدرك بالحواس الخمس لا ينتفع به فاحتاج إلى واسطه جنسية ذي جهتين جهة التجرد لتمكن الاستفاضة من جانب القدس وجهه التعلق لتمكن الإفاضة إلى جانب الخلق وهو الرسول ﷺ ومنه يظهر أنه لكمال لطافته يمكن أن يستفيض منه الجن أيضاً لكونهم أجساماً لطيفة ولذا دعاهم دعوة البشر.

مشعله افروزشب خاكيان سمع سرا پردهٔ افلا كيان

ويحتمل أن يكون الخطاب للعرب خاصة. فالمعنى بالله قد جاءكم أيتها العرب رسول عربي مثلكم وعلى لغتكم وذلك أقرب إلى الألفة وأبعد من اللجاجة وأسرع إلى فهم الحجة فإن الإرشاد لا يحصل إلا بمعرفة اللسان. حكي أن أربعة نفر: عجمي وعربي وتركي ورومي وجدوا في طريق درهماً فاختلفوا فيه ولم يعرف ولم يفهم واحد منهم مراد الآخر فسأل منهم رجل آخر يعرف الألسنة فقال للعربي أيش تريد وللعجمي [چه ميخواهى] مثلاً وعلم أن مراد الكل أن يأخذوا بذلك الدرهم عنباً فأخذ العارف الدرهم منهم واشترى لهم عنباً فارتفع الخلاف من بينهم. وقرىء من أنفَسكم بفتح الفاء أي من أشرفكم وأفضلكم من النفاسة وبالفارسية [عزيز شدن] وشيء نفيس أي خطير وذلك لأن محمداً ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب وفي كلاب يجتمع نسب أبيه وأمه لأن أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وبنو هاشم أفضل القبائل إلى إسماعيل عليه السلام من جهة الخصال الحميدة وكلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وأجمع النسابون على أن قريشاً إنما تفرقت عن فهر فهو جماع قريش وإنما سمي فهر قريشاً لأنه كان يقرش أي يفتش عن حاجة المحتاج فيسدها بماله وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن حوائجهم فيرفدونهم فسموا بذلك قريشاً والرفادة طعام الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا فإن قريشاً كانت على زمن قصي تخرج من أموالها في كل موسم شيئاً فتدفعه إلى قصي فيصنع به طعاماً للحاج يأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد حتى قام بها ولده عبد مناف ثم بعد عبد مناف ولده هاشم ثم بعد هاشم ولده عبد المطلب ثم ولده أبو طالب وقيل: ولده العباس ثم استمر ذلك إلى زمنه ﷺ وزمن الخلفاء بعده ثم استمر ذلك في الخلفاء إلى أن انقرضت الخلافة من بغداد ثم من مصر وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «حب قريش إيمان وبغضهم كفر» وفي الحديث: «عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً» وعن الإمام أحمد رحمه الله هذا العالم هو الشافعي لأنه لم ينتشر في طباق الأرض من علم علماء قريش من الصحابة وغيرهم ما انتشر من علم الإمام الشافعي ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله ﷺ في عبد مناف وهو الجد التاسع للشافعي رحمه الله وفي الحديث: «أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ليس في آبائي من لدن آدم سفاح كلها نكاح» وذلك لأنه لا يجيء من الزنى ولي فكيف نبي. والإشارة فيه إلى نفاسة جوهره في أصل الخلقة لأنه أول جوهر خلقه الله تعالى وعن أبي هريرة أنه عليه السلام سأل جبريل عليه السلام فقال: «يا جبريل كم عمرك من السنين» فقال يا رسول الله لست أعلم غير أن في الحجاب

الرابع نجماً يطلع في كل سبعين ألف سنة مرة رأيته اثنين وسبعين ألف مرة فقال عليه السلام: «يا جبريل وعزة ربي أنا ذلك الكوكب» ولما خلق الله آدم جعل نور حبيبه في ظهره فكان يلمع في جبينه ثم انتقل إلى ولده شيث الذي هو وصيه والثالث من ولده وكانت حواء تلد ذكراً وأنثى معاً ولم تلد ولداً منفرداً إلا شيث كرامة لهذا النور ثم انتقل إلى واحد بعد واحد من أولاده إلى أن وصل إلى عبد المطلب ثم إلى ابنه عبد الله ثم إلى آمنة وكان عليه السلام علة غائية لوجود كل كون فوجوده الشريف وعنصره اللطيف أفضل الموجودات الكونية وروحه المطهر أمثال الأرواح القدسية وقبيلته أفضل القبائل ولسانه خير الألسنة وكتابه خير الكتب الإلّهية وآله وأصحابه خير الآل وخير الأصحاب وزمان ولادته خير الأزمان وروضته المنورة أعلى الأماكن مطلقاً والماء الذي نبع من أصابعه الشريفة أفضل المياه مطلقاً ثم بعده الأفضل ماء زمزم لأنه غسل منه صدره عليه السلام ليلة المعراج ولو كان ماء أفضل منه يغسل به صدره عليه السلام.
ثم إن في قوله: ﴿لقد جاءكم﴾ إشارة إلى أنه ﷺ هدية عظيمة من الله تعالى وتحفة جسيمة ولا يعرض عن هدية الله تعالى إلا الكافرون والمنافقون. قال حضرة الشيخ العطار قدس سره:

خويشتن راخواجهٔ عرصات كفت إنما أنا رحمة مهداة كفت

﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ العزيز الغالب الشديد وكلمة ما مصدرية والعنت الوقوع في أمر شاق وأشق الأمور دخول النار والجملة من الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر صفة رسول. والمعنى شاق شديد عليه عنتكم أي ما يلحقكم من المشقة والألم بترك الإيمان فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب وهذا من نتائج ما سلف من المجانسة.

قال الكاشفي: [وبعضى بر لفظ عزيز وقف كرده اند وآنرا صفة رسول دانند ومعنى عليه ما عنتم برين فرود آرندكه براوست آنچه بكنيد ازكناه يعني اعتذار آن برويست در روز قيامت بشفاعت تدارك آن خواهد نمود ودرين معنى كفته اند]:

نماند بعصيان كسى دركرو كه دارد چنين سيدى پيش رو

اكر دفترت ازكنه پاك نيست چواو عذر خواهت بودباك نيست

﴿حريص عليكم﴾ أي: على إيمانكم وصلاح أحوالكم إذ من البين أنه عليه السلام ليس حريصاً على ذواتهم والحرص شدة الطلب للشيء مع اجتهاد فيه كما في «تفسير الحدادي».
﴿بالمؤمنين﴾ متعلق بقوله ﴿رؤوف رحيم﴾ قدم الأبلغ منهما وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة مع أن مقام المدح يقتضي الترقي من الفاضل إلى الأفضل محافظة على الفواصل وقدم بالمؤمنين على متعلقه وهو رؤوف ليفيد الاختصاص أي لا رأفة ولا رحمة إلا بالمؤمنين وأما الكفار فليس له عليهم رأفة ولا رحمة.

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ لتربيتهم في الدين المتين بالرفق كما قال عليه السلام: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه بالرفق» وبالرحمة يعفو عنهم سيئاتهم كما أمره الله تعالى بقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣] وفي قوله: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ في حق نبيه عليه السلام، وفي قوله لنفسه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥] دقيقة لطيفة شريفة وهي أن النبي ﷺ لما كان مخلوقاً كانت رأفته ورحمته مخلوقة فصارت مخصوصة بالمؤمنين لضعف الخلقة وإن الله تعالى لما كان خالقاً كانت رأفته ورحمته قديمة فكانت عامة للناس لقوة خالقيته كما قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فمن

تداركته الرأفة والرحمة الخالقية من الناس كان قابلاً للرأفة والرحمة النبوية، لأنها كانت من نتائج الرأفة والرحمة الخالقية كما قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] انتهى كلام «التأويلات».

قال بعض الحكماء: إن الله تعالى خلق محمداً أي روحه وجعل له صورة روحانية كهيئته في الدنيا فجعل رأسه من البركة وعينيه من الحياء وأذنيه من العبرة ولسانه من الذكر وشفتيه من التسبيح ووجهه من الرضى وصدره من الإخلاص وقلبه من الرحمة وفؤاده من الشفقة وكفيه من السخاوة وشعره من نبات الجنة وريقه من عسل الجنة ألا ترى أنه تفل في بئر رومة في المدينة وكان ماؤها زعاقاً فصار عذباً ولما أكمله بهذه الصفات أرسله إلى هذه الأمة. روي أنه لما مات أبو طالب ونالت قريش من النبي عليه السلام ما لم تكن نالته منه في حياته خرج إلى الطائف وهو مكروب مشوش الخاطر مما لقي من قريش من قرابته وعترته خصوصاً من عمه أبي لهب وزوجته أم جميل حمالة الحطب من الهجو والسب والتكذيب يقولون له أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً فجعل أبو بكر يضرب هذا ويدفع هذا ويقول أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وكان خروجه في شوال سنة عشر من النبوة وحده وقيل: معه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه يلتمس من ثقيف الإسلام رجاء أن يسلموا وأن يناصروه على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه وكان ثقيف أخواله عليه السلام فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى أشراف ثقيف وكانوا إخوة ثلاثة فجلس إليهم وكلمهم فيما جاءهم به فقال أحدهم هو يقطع ثياب الكعبة ولا يسرقها وقال آخر ما وجد الله أحداً يرسله غيرك وقال له الثالث والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من عند الله كما تقول لأنت أعظم خطراً أي قدراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك فقام عليه السلام من عندهم مأيوساً وقال لهم اكتموا عليّ وكره أن يبلغ قومه ذلك فيشتد أمرهم عليه وقالوا له عليه السلام اخرج من بلدنا وسلطوا عليه سفهاءهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وقعدوا له صفين على طريقه فلما مرّ عليه السلام بين الصفين دقوا رجليه بالحجارة حتى أدموهما وشجوا رأس زيد فلما خلص ورجلاه يسيلان دماً عمد إلى بستان فاستظل في شجرة كرم ودعا بقوله: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إن لم يكن لك غضب عليّ فلا أبالي» ثم انطلق عليه السلام وهو مهموم حتى أتى بقرن الثعالب وهو ميقات أهل نجد أو اليمن وبينه وبين مكة يوم وليلة فأرسل الله تعالى جبريل ومعه ملك الجبال فقال إن شئت أطبقت على ثقيف هذين الجبلين فقال عليه السلام: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى لا يشرك به شيئاً» وعند ذلك قال له عليه السلام ملك الجبالة أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم. وفي «المثنوي»:

بندكان حق رحيم وبردبار خوى حق دارندر اصلاح كار
مهربان بى رشوتان يارى كران در مقام سخت ودر روز كران
اى سليمان درميان زاغ وباز حلم حق شو باهمه مرغان بساز
اى دوصد بلقيس حلمت رازبون كه اهد قومي إنهم لا يعلمون
صد هزاران كيميا حق آفريد كيميائى همچو صبر آدم نديد

نسأل الله سبحانه أن يلحقنا بأهل الحلم والكرم ويزكينا من سوء الأخلاق والشيم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿فإن تولوا﴾ تسلية لرسول الله ﷺ، أي إن أعرضوا عن الإيمان بك وقبول نصحك ولم يتبعوك ﴿فقل حسبي الله﴾ كافيني فإنه يكفيك معرتهم أي المساءة التي تلحقك من قبلهم ويعينك عليهم. وفيه إشارة إلى أن تبليغ الرسالة من النبي عليه السلام كان موجباً لقربه إلى الله وقبوله إياه فلما بلغ رسالته فقد حصل على القبول من الله وقربته إن قبلوا وإن أعرضوا ﴿لا إله إلا هو﴾ كالدليل على ما قبله.

يقول الفقير أصلحه الله القدير هذه الكلمة الطيبة في حكم لا إله إلا الله لأن الضمير عائد إلى المذكور من لفظ الجلالة وكون هو ضميراً لا ينافي كونه اسماً لأن المضمرات من قبيل الأسماء فما اشتهر بين الصوفية السالكين من الذكر به بناء على كونه اسماً ولما كان وجود الكون موهوماً ووجود الحق محققاً معلوماً صح أن يشار به إلى الله تعالى سيما أطلق لعدم المزاحم في الحقيقة والذكر به مناسب للمبتدىء لكونه في حال الغيبة فإذا ترقى الترقي الكلي فلا يشار به أي بهو إلا إلى الهوية المطلقة نسأل الله التوفيق للوصول إلى مراتب التحقيق ﴿عليه توكلت﴾ أي: وثقت فلا أرجو ولا أخاف إلا منه والتوكل اعتماد القلب على الله وسكونه وعدم اضطرابه لتعلقه بالله تعالى ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ [پروردكار عرش بزرك مراد ملك عظيم است يا عرش كه قبلهٔ دعا ومطاف ملائكه باشداشارت بكمال درت وحفظ حق تعالى راست: يعني آن خدايى كه عرش رابدان همه عظمت كه هشت هزار ركن دارد وبروايتي سيصد هزار قاعده واز قاعده تاقاعده سيصد هزار سال راه وهمه آن مملو ازخافات وصافات بقدرت كامله نكاه ميدار دقادرست كه مرانيزاز شر منافقان درپناه آردكه حافظ بندكان وناصر سرافكند كان اوست]:

ازوخـواه يـا رى كـه يـا رى اه اوسـت بـدو الـتـجـاكـن كـه ايـنـهـا ازوسـت
كـسـى راكـه أو آورد در پـنـاه چـه غـم دارد از فـتـنـهٔ كـيـنـه خـواه

قال الحدادي: رب العرش العظيم أي خالق السرير العظيم الذي هو أعظم من السموات والأرض وإنما خص العرش بذلك لأنه إذا كان رب العرش العظيم مع عظمته كان رب ما دونه في العظم. وقيل: إنما خص العرش تشريفاً للعرش وتعظيماً لشأنه.

واعلم أن العناصر والأفلاك مرتبة فالأرض ثم الماء ثم الهواء ثم النار ثم فلك القمر ثم فلك عطارة ثم فلك الزهرة ثم فلك الشمس ثم فلك المريخ ثم فلك المشتري ثم فلك زحل ثم فلك الثوابت ثم فلك الأفلاك ويسمى الفلك الأعظم وهو محيط بجميع الأجسام من الفلكيات والعناصر ليس وراءه شيء لا خلاء ولا ملاء وكل محيط من الأفلاك والعناصر يماس المحاط الذي يليه في الترتيب المذكور لاستحالة الخلاء وجملة هذه الأجرام من الأفلاك والعناصر وما فيها يطلق عليها اسم العالم.

قال بعض أهل التحقيق: خلق الله العرش لإظهار شرف محمد ﷺ وهو قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وهو مقام تحت العرش ولأن العرش معدن كتاب الأبرار لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين: ١٨] وأيضاً العرش مرآة الملائكة يرون الآدميين وأحوالهم منه كي يشهدوا عليهم يوم القيامة فإن عالم المثال والتمثال في العرش كالأطلس في الكرسي.

قال حضرة شيخنا قدس سره في الرسالة العرفانية التي صنفها في سنة تسع وثمانين بعد الألف العرش العظيم هو الإنسان الكبير والعرش الكريم هو الإنسان الصغير فظاهر العرش العظيم والإنسان الكبير على التبدل والتغير وباطنهما على الدوام والثبات وباطن العرش الكريم والإنسان الصغير على التبدل والتغير وظاهرهما على الدوام والثبات انتهى إجمالاً.

يقول الفقير المباهي بالانتساب إلى ذلك السيد الخطير لعل مراده رضي الله عنه أن باطن العرش العظيم هو العرش المحيط الذي يقال له الملكوت وظاهره ما تحته من الأجرام ويقال له عالم الكون والفساد فظاهر العرش لكونه عالم الكون والفساد على التبدل والتغير وباطنه وهو العرش نفسه على حاله بخلاف العرش الكريم الذي هو الإنسان فإن ظاهره من أول عمره إلى آخره على الثبات وباطنه على التغير لأن قلبه لا يخلو عن الأفكار والتقلبات والله تعالى رب العرش العظيم ورب العرش الكريم في الظاهر والباطن والأول والآخر هذا وقد ذكر في فضائل هاتين الآيتين اللتين إحداهما ﴿**لقد جاءكم**﴾ الآية والأخرى ﴿**فإن تولوا**﴾ الآية. روي أن أبا بكر بن مجاهد المقري رحمه الله أتى إليه أبو بكر الشبلي قدس سره فدخل عليه في مسجده فقام إليه فتحدث أصحاب ابن مجاهد بحديثهما وقالوا أنت لم تقم لعلي بن عيسى الوزير وتقوم للشبلي فقال ألا أقوم لمن يعظمه رسول الله ﷺ رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقال لي يا أبا بكر إذا كان في غد فسيدخل عليك رجل من أهل الجنة فإذا دخل فأكرمه قال ابن مجاهد فلما كان بعد ذلك بليلتين رأيت النبي عليه السلام فقال لي يا أبا بكر أكرمك الله كما أكرمت رجلاً من أهل الجنة قلت يا رسول الله بم استحق الشبلي هذا منك فقال هذا رجل يصلي خمس صلوات يذكرني أثر كل صلاة ويقرأ ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ إلى آخر السورة وذلك منذ ثمانين سنة أفلا أكرم من فعل هذا كذا في «عقد الدرر واللآلي».

وفيه أيضاً حكي عن بعض الصالحين أنه حصل له ضيق شديد فرأى النبي ﷺ في المنام فقال له يا فلان لا تغتم ولا تحزن إذا كان الغد ادخل على علي بن عيسى الوزير فأقرئه مني السلام وقل له بعلامة أنك صليت عليّ عند قبري أربعة آلاف مرة يدفع لك مائة دينار عيناً فلما أصبح ذهب إليه وقص عليه الرؤيا فاغرورقت عينا عليّ بن عيسى بالدموع وقال صدق الله ورسوله وصدقت أنت يا رجل هذا شيء ما كان علم به إلا الله ورسوله يا غلام هات الكيس فأحضره بين يديه فأخرج منه ثلاثمائة دينار وقال هذه المائة التي قال رسول الله ﷺ وهذه المائة الأخرى بشارة وهذه المائة الأخرى هدية لك فخرج الرجل من عنده ومعه ثلاثمائة دينار وقد زال همه وغمه ومنّ الله على الوزير المذكور فترك الوزارة وعلو الرياسة وظلم السلطنة وعظمة الجبابرة وذهب إلى مكة وجاور فيها ببركة ذكر النبي ﷺ وتخصيصه بإرسال ذلك الرجل لما سبق له في علم الله تعالى بما يؤول أمره إليه من الخير وحسن الخاتمة:

خدايا بحق بني فاطمه   كه برقول ايمان كنم خاتمه

وعن أبيّ رضي الله عنه: «إن آخر ما نزل هاتان الآيتان».

وعن النبي ﷺ: «ما نزل القرآن عليّ إلا آية آية وحرفاً حرفاً ما خلا سورة براءة وسورة قل هو الله أحد فإنهما أنزلتا عليّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة».

واعلم أن الأحاديث التي ذكرها صاحب «الكشاف» في أواخر السورة وتبعه القاضي البيضاوي والمولى أبو السعود رحمهم الله من أجلة المفسرين قد أكثر العلماء القول فيها فمن

مثبت ومن ناف بناء على زعم وضعها كالإمام الصغاني وغيره واللائح لهذا العبد الفقير سامحه الله القدير أن تلك الأحاديث لا تخلو إما أن تكون صحيحة قوية أو سقيمة ضعيفة أو مكذوبة موضوعة فإن كانت صحيحة قوية فلا كلام فيها وإن كانت ضعيفة الأسانيد فقد اتفق المحدثون على أن الحديث الضعيف يجوز العمل به في الترغيب والترهيب فقط كما في «الأذكار» للنووي و«إنسان العيون» لعلي بن برهان الدين الحلبي و«الأسرار المحمدية» لابن فخر الدين الرومي وغيرها وإن كانت موضوعة فقد ذكر الحاكم وغيره أن رجلاً من الزهاد انتدب في وضع الأحاديث في فضل القرآن وسوره فقيل له فلم فعلت هذا فقال رأيت الناس زهدوا في القرآن فأحببت أن أرغبهم فيه فقيل له إن النبي ﷺ قال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» أي: فليتخذ يقال تبوأ الدار اتخذها مباءة أي مسكناً ومنزلاً ولفظه أمر ومعناه خبر يعني فإن الله بوأه مقعده أي موضع قعوده منها فقال أنا ما كذبت عليه إنما كذبت له كما في شرح «الترغيب والترهيب» المسمى «بفتح القريب» أراد أن الكذب عليه يؤدي إلى هدم قواعد الإسلام وإفساد الشريعة والأحكام وليس كذلك الكذب له فإنه للحث على اتباع شريعته واقتفاء أثره في طريقته.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب حرام فإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً وواجب إن كان ذلك المقصود واجباً فهذا ضابطه انتهى. قال الشيخ سعدي:

خردمندان كفته اند دروغ مصلحت آميزبه ازراست فتنه انكيز

وقال اللطيفي:

دروغى كه جان ودلت خوش كند به ازراستى كان مشوش كند

وبالجملة المرء مخير في هذا الباب فإن شاء عمل بتلك الأحاديث بناء على حسن الظن بالأكابر حيث أثبتوها في كتبهم خصوصاً في صحف التفاسير الجليلة وظاهر أنهم لا يضعون حرفاً إلا بعد التصفح الكثير وإن شاء ترك العمل بها وحرم من منافع جمة ولا محاجة معه وربما يتفق المحدثون على صحة بعض الأحاديث ولا صحة له في نفس الأمر فإن الإنسان مركب من السهو والنسيان وحقيقة العلم عند الله الملك المنان ولذا قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر قد يظهر من الخليفة الآخذ الحكم من الله ما يخالف حديثاً ما في الحكم فيتخيل أنه من الاجتهاد وليس كذلك وإنما هذا الإمام لم يثبت عنده من جهة الكشف ذلك الخبر عن النبي ﷺ ولو ثبت الحكم به وإن كان طريق الإسناد العدل عن العدل فالعدل ليس بمعصوم من الوهم الذي هو مبدأ السهو والنسيان ولا من النقل على المعنى الذي هو مبدأ التأويلات والتحريفات فمثل هذا يقع من الخليفة اليوم انتهى فهذا كلام حق بلا مرية وليس وراء عبادان قريه.

بقي ههنا شيء وهو أن بعض المتقدمين جعل القرآن أثلاثاً فالثلث الأول ينتهي عند قوله في سورة التوبة ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٩٠] والثلث الثاني عند قوله في سورة العنكبوت ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وعند العامة الثلث الأول ينتهي عند قوله تعالى: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣] وهو منتهى الجزء العاشر ولعل الأول قول تحقيقي والثاني تقريبي والله أعلم بالصواب.

يقول الفقير سمي الذبيح إسماعيل حقي شرفه الله سبحانه بأعالي التجليات والترقي.
وغفر ذنب وجوده وجاوز به عن أنانياته.
وأحسن إلى آبائه وأمهاته وأعقابه وذرياته.
قد كنت أصمم حين ما باشرت هذا الأمر الخطير النبيه.
وهو هذا الجمع المسمى بالإلهام الذي لا شك فيه.
بـ (روح البيان في تفسير القرآن).
أن أطويه في مجلد أو مجلدين.
إن ساعدني الحين إلى الحين.
فلما جاء بحمد الله بعض منه بما حواه من فنون المعرفة كبير الحجم والمقدار.
رأيت أن أجعله أثلاثاً فختمت الدفتر الأول عند تمام سورة التوبة الجليلة الآثار.
وذلك في إحدى البلاد الثلاث المسماة ببروسة المحروسة.
في الدار المشروطة لي المشهورة بدار السيد محمد سبزى المدرس المأنوسة.
يوم الأحد وهو العشر العاشر من الثلث الأول من السدس الثاني من النصف الأول من العشر الثاني من العشر الأول من العقد الثاني من الألف الثاني من الهجرة النبوية فللّه الحمد على نعمة الإتمام ولرسوله أفضل الصلاة والسلام
ولآله وأصحابه أكمل التحيات والإكرام

حمد لله روز يكشنبه وهم ماه صفر   چون نخستين دفتر از روح البيان فارغ شدم
حقيا تاريخ وى كردم بحرف جوهرى   حاليا ازجلد اول فارغ البال آمدم

تم المجلد الثالث بتوفيق الله تعالى من تفسير القرآن المسمى بـ: «روح البيان»
ويليه المجلد الرابع إن شاء الله أوله تفسير سورة يونس

فهرس السور والآيات

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة